الأجزاء الثلاثة

د. أحمد إلياس حسين

السودان

الوعي بالذّات وتأصيل الهُويّة

الجـزء الأول: سكان السودان حتى القرن السابع الميلادي
الجزء الثاني: السكان حتى القرن الخامس عشر الميلادي
الجـزء الثالث: علاقات السودان بالمسلمين في مصر بين القرنين 7-15م



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

الأجزاء الثلاثة



الجـزء الأول
سكان السودان حتى القرن السابع الميلادي ..... صفحة 4

الجزء الثاني
السكان حتى القرن الخامس عشر الميلادي ... صفحة 345

الجزء الثالث
علاقات السودان بالمسلمين في مصر بين القرنين 7 - 15 م ... صفحة 620



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

اعادة رفع وتحميل الأجزاء الثلاثة
غرة ربيع الأول ١٤٤٧ هـ
مكة المكرمة شرفها الله

د. إبراهيم بن حسن الطويل ال إبراهيم العباسي

د. أحمد إلياس حسين

السودان

الوعي بالذّات وتأصيل الهُويّة

الجزء الأول

سكان السودان حتى القرن السابع الميلادي



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

المؤلف:

- أحمد الياس حسين (1943م)
- أستاذ مشارك متخصص في التاريخ الإسلامي.
- دكتوراه بمرتبة الشرف، قسم التاريخ معهد الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة (الأم) عام 1982م.
- زميل قسم التاريخ بكلية التربية جامعة الخرطوم من عام 2009م.
- أستاذ مشارك كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا 1994 - 2008م.
- محاضر وأستاذ مساعد بجامعة الخرطوم والجامعة الإسلامية العالمية وجامعة الفاتح بليبيا منذ 1987م 1994م.
- شارك في عدة مؤتمرات علمية عالمية ومحلية.
- نشر عدداً من البحوث في دوريات ومجلات علمية محكمة.

صدر له:

1. تاريخ الأمة الإسلامية 2000م.
2. نحو مفهوم إسلامي لعلم التاريخ 2001م.
3. السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية (أربعة أجزاء)

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

ردمك : 0-291-1-99942 978



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

السودان

الوعي بالذات وتأصيل الهوية

الجزء الأول

سكان السودان حتى القرن السابع الميلادي

د. أحمد الياس حسين

اصدارات : مركز بناء الأمة للبحوث والدراسات



فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

٣٠٤.٦٠٩٦٢٤ أحمد الياس حسين أبو شام ١٩٤٣-

ا ي.س

السودان الوعي بالذات وتأصيل الهوية السكان حتى القرن الخامس عشر الميلاد/ أحمد الياس حسين أبو شام.- الخرطوم: أ. ي. ح. أبو شام ٢٠١٨م.

٢٦٩ ص؛ ٢٤ سم

ردمك: ٧-٢٩٢-١-٩٩٩٤٢-٩٧٨

١. السكان – السكان

٢. السودان – حركة داخلية

٣. السودان – تاريخ أ. العنوان.

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المحتويات	٣
مقدمة الطبعة الأولى	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٩
مقدمة الطبعة الثالثة	١١
الفصل الأول: سكان إفريقيا في المصادر العربية والمؤلفات الحديثة	١٣
▪ الساميون والحاميون في غرب آسيا و شمال إفريقيا	١٥
▪ نماذج من كتابة التاريخ في المصادر العربية المبكرة	٢٦
▪ سكان إفريقيا و الصحراء الكبرى في المصادر العربية	٤٠
▪ سكان إفريقيا والصحراء الكبرى في غير المصدار العربية	٤٧
الفصل الثاني: الهجرات العربية إلى إفريقيا قبل الإسلام	٥٧
▪ بعض ما ورد في المصادر اليونانية والرومانية	٥٩
▪ بعض ما ورد في المصادر العربية المبكرة	٦٥
▪ بعض ما ورد في المؤلفات الحديثة	٦٩
▪ الصلات عبر البحر الأحمر	٧٠
▪ الصلات عبر صحراء سينا	٨٢
الفصل الثالث: المجتمع الجديد في جنوب مصر بعد الإسلام	١٠٣
▪ العرب في مصر حتى بداية القرن الثالث الهجري (٩ م)	١٠٥
▪ بداية تكوين المجتمع المصري الجديد	١٠٨
▪ اللغة العربية والهوية	١١٥
▪ القبائل العربية في جنوب مصر	١٢٣
▪ القبائل المغربية والأعراب	١٤٧
▪ إمارات العربان	١٥٦

الفصل الرابع: تحركات السكان في الوسط والشمال والغرب	١٦٥
▪ تحركات السكان من الحنوب والغرب	١٦٨
▪ المجموعة الأولى: النوبا	١٦٨
▪ المجموعة الثانية: من هم النوبا	١٧١
▪ تحركات السكان قبل القرن الثالث الميلادي: النوبا	١٨٣
▪ تحركات السكان بعد القرن الثالث الميلادي: النوباديين	١٨٨
الفصل الخامس: سكان منطقة ما بين البحر الأحمر والنيل	١٩٥
▪ المِجباري	١٩٨
▪ التُرجُلُدايت	٢٠١
▪ البليميون	٢٠٦
الفصل السادس: سكان الصحراء غربي النيل	٢٣٩
▪ السكان قبل دخول العرب شمال إفريقيا	٢٥٢
▪ سكان منطقة كوار، لواتة، سدراتة آزقار	٢٥٤
الملاحق	
▪ الملحق الأول: نص نقش كلابشة	٢٧٨
▪ الخرائط	٢٨٣

مقدمة الطبعة الأولى

هذا كتابٌ عن سكان السودان، وهو ليس دراسة متخصصة عن السكان بل عبارة عن مقدمة عامة. الهدف منها محاولة التعرف على كيفية تكوين المجتمع السوداني في حدوده الحالية عبر العصور وأثر البيئة الجغرافية وتحركات السكان على ذلك. وتتطلع الدراسة إلى الاجابة عن بعض الأسئلة الهامة مثل:

ما هي أصول العناصر التي ساهمت في تكوين المجتمع السوداني في حدوده الحالية؟ وإلى أي مدى أثرت تحركات السكان في الداخل والهجرات من مناطق الجوار على التركيبة السكانية؟ وما هو دور الصحارى المتصلة بحدود السودان الغربية على تكوين سكان السودان؟ وإلى أي مدى بلغت حدود الممالك التي قامت في هذه الحدود؟ وكيف كانت العلاقة والتداخل بين سكان تلك الممالك؟ وكيف ومتى تبلور الحس القومي للسكان داخل حدود السودان الحالية؟ وهل هو حقا وليد القرن التاسع عشر؟

وأمل أن تلقي الاجابة عن مثل هذه الأسئلة الضوء على جذور هويتنا ومدى ارتباطها بتراب أرضنا ومدى أصالتها.

ولما كان السودان قطراً ممتداً من الصحراء إلى قلب إفريقيا عبر مناطق السافنا والمناطق المدارية جاء تكوين السكان حاوياً لأغلب العناصر التي تكون سكان القارة الإفريقية. أي أن القطر السوداني يجمع داخل حدوده جميع عناصر سكان إفريقيا. ولذلك تطلبت الدراسة إلقاء القليل من الضوء على سكان القارة الإفريقية وبخاصة سكان الصحارى الممتدة إلى الغرب من النيل. ثم التعرض إلى ذلك في الفصل الأول.

ولما كانت أغلب المادة المتوفرة عن سكان السودان قبل القرن السابع الميلادي قد جاءت فى المصادر اليونانية والرومانية والمصادر العربية المبكرة، تطلبت الدراسة التوقف قليلاً عند تلك المصادر للتعرف عليها ولفهم المادة التي وردت فيها. وأتى التركيز على المصادر العربية لأنها الأغزر مادة، ولارتباطها القوي بمعرفتنا الحالية للعناصر المكونة للمجتمع السوداني. وكان هذا موضوع الفصل الثاني من الكتاب والذي ناقش أيضاً بعض الآراء الحديثة عن أصول تكوين المجتمع السوداني وبخاصة تلك الآراء التي استندت على المصادر العربية المبكرة.

ويناقش الفصل الثالث باختصار شديد تكوين المجتمع الجديد في جنوب مصر بعد دخول العرب في القرن السابع الميلادي. وإلى أي مدى تأثر تكوينه وهويته بالهجرات العربية وبهجرات القبائل المغربية (الأمازيغية أو البربرية) وبالمماليك والجنود المرتزقة بأعراقهم المختلفة. وأرى أن دراسة سكان السودان بعد القرن السابع الميلادي - وهذا هو موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب - يتطلب ضرورة التّعرف على تكوين المجتمع في جنوب مصر.

أما الفصول الثلاثة الأخيرة فجاءت عن سكان السودان قبل القرن السابع الميلاي، الغرض منها محاولة رسم صورة عامة لسكان السودان في حدوده الحالية قبل دخل العرب والإسلام إفريقيا. تناول الفصل الرابع أصول وتكوين عناصر سكان غرب ووسط وشمال السودان، وإلى أي مدى أثرت التحركات الداخلية والتحركات من الصحراء الغربية على تركيبة السكان، وماذا كان يطلق على أولئك السكان؟ وهل جمعتهم هوية واحدة؟

وتناول الفصل الخامس سكان منطقة ما بين النيل والبحر الأحمر. ويحاول الفصل التعريف بأولئك السكان المِجَباري والتُرُجلُدايت والبليميين وتحركاتهم والتداخل السكاني الذي تم بينهم وبين سكان وسط وشمال السودان وإلى أي مدى ساهموا في التركيبة السكانية والأوضاع السياسية والحضارية في السودان.

ونسبة للدور الفاعل لسكان الصحارى غربي النيل على التركيبة السكانية وعلى الأوضاع السياسية والحضارية في السودان تطلبت الدراسة التعرف على سكان المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد و جنوب ليبيا والواحات الخارجة للتداخل السكاني عبر العصور في هذه المناطق وبين سكان السودان . وسنحاول التعرف على أولئك السكان قبل دخول العرب شمال إفريقيا، ثم نحاول معرفة ما إذا حدث تغير للتركيبة السكانية - من خلال المصادر العربية - في القرون المبكرة من دخول العرب والإسلام شمال إفريقيا. أما أوضاع السكان في السودان وتأثير مناطق الجوار بعد دخول العرب والإسلام شمال إفريقيا فسيتم معالجته في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وقد نشرت أجزاء من مادة هذا الكتاب علي موقع سودانايل في حلقات متتالية، كان الغرض منها مشاركة ومناقشة القراء في الأفكار الواردة في الكتاب، وقد وصلتني آراء ووجهات نظر بعض القراء الكرام فلهم مني الشكر الجزيل.

وأود أن أشير هنا إلى أنني حاولت أن أعد هذا الكتاب للقارئ المتخصص في هذا المجال وغير المتخصص، ولذلك تحاشيت المصطلحات، وقمت بالشرح والتعليق في بعض المواضع التي يرى التخصص أنها لا تحتاج إلى ذلك، ولكنني قمت بذلك من أجل القارئ غير المتخصص. وكان لا بد من توثيق الآراء والأفكار الواردة في الكتاب توثيقاً آمل أن يكون كافياً، وأرجوا أن لا يتضايق القارئ غير المتخصص من كثرة الهوامش.

كما أود أن أشكر جميع أفراد أسرتي - زوجتي وبناتي- اللاتي كان لهن الفضل والتشجيع في إعداد هذا الكتاب، كما أشكر الاخوة والزملاء الذين قاموا بقراءة بعض فصول هذا الكتاب وأبدوا مساهماتهم وتصويباتهم فللجميع شكري وتقديري.



مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في ماليزيا عام ٢٠٠٨، في عدد محدود وُزعت في نطاق ضيق عند حضوري من ماليزيا بعد أن أنهيت عقد عملي مع الجامعة الإسلامية العالمية بكوالا لمبور، وكان بها الكثير من الأخطاء المطبعية لأن الطباعة باللغة العربية في ماليزيا ليست متيسرة. وهذا الكتاب هو الجزء الأول من مشروع كبير يهدف إلى مراجعة تاريخ السودان في كل مراحله بإعادة تفسيره وإعادة تركيبه، وسيتم إنجاز هذا المشروع - إن شاء الله - في خمسة إجزاء.

ورغم جهود الدولة والمؤسسات الأكاديمية في العمل في حقل الآثار إلا أن نتائج ذلك لا زالت متواضعة، ولكنها ساعدت في إضافة الكثير من المعلومات التي ألقت مزيداً من الضوء على أحداث تاريخنا وبخاصة القديم. وما تم إنجازه حتى الآن من مشروع هذه الكتب - الثلاثة أجزاء الأولى - لم يعتمد كثيرا على نتائج الأبحاث الآثارية أو العثور على مصادر أخرى جديدة بقدر ما اعتمد على إعادة قراءة وتفسير المصادر المستخدمة حالياً.

وأرى أن إعادة قراءة وتفسير المادة المتعلقة بتاريخ السودان في المصادر العربية مثلاً ستصحح الكثير من المفاهيم والمسلمات التي سيطرت على عقولنا وكيفت ثقافتنا العامة. ولذلك فنحن في حاجة ماسة إلى مراجعة المادة المتعلقة بتاريخ السودان وبخاصة في الفترتين المسيحية والإسلامية. وأرجو أن يكون ما أقدمه هنا مساهمة في هذا المجال، كما آمل أن تجد الآراء والأفكار المعروضة النقد البناء الذي يساعد على تصحيح فهمنا ووعينا بتاريخنا وتساهم بدورها في بناء أمتنا واستقرارها.

كما أود أن أتقدم بجزيل شكري لشبكة سناء للعمل الطوعي ورئيس أمنائها المهندس الحاج عطا المنان لتبنيها مشروع هذه الكتب، فقد قامت الشبكة بتغطية تكاليف طباعة هذه الطبعة الثانية من الجزء الأول، وتبنت طباعة ما تم إنجازه من الشروع فقد تم - بحمد الله - إعداد الجزء الثاني للطباعة، والجزء الثالث تحت المراجعة. وبالله العون والتوفيق.

د. أحمد الياس حسين

أركويت أغسطس ٢٠١٢ م

مقدمة الطبعة الثالثة

نفدت الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذي كانت قد تكرمت بطباعته شبكة سناء للعمل الطوعي ورئيس أمنائها المهندس الحاج عطا المنان عام ٢٠١٢، كما قامت في نفس العام بطباعة الجزأين الثاني والثالث. ومرة أخرى يتقدم مشكوراً الأخ المهندس الحاج عطا المنان راعي مركز بناء الأمة للبحوث والدراسات بإعادة طاعة هذا الكتاب، فله مني الشكر والتقدير وأسال الله أن يحقق مقاصده في إعادة بناء هذه الأمة.

ومشروع هذا الكتاب يتكون من خمسة أجراء، طبعت منه الآن ثلاث أجزاء، والجزء الرابع عن تاريخ وسكان مناطق أعالي النيل الأزرق وشرق السودان قبل قيام دولة الفونج. وهو الآن في طور المراجعة الأخيرة

الفصل الأول

الساميون والحاميون في غرب آسيا و شمال إفريقيا ولغاتهم

سكان إفريقيا في المصادر العربية والمؤلفات الحديثة

دخول العرب مصر حتى بداية القرن الثالث الهجري (٩ م)

- مرحلة تكوين المجتمع الجديد
- اللغة العربية والهوية
- القبائل العربية في جنوب مصر
- القبائل المغربية الصحراوية في جنوب مصر وإمارات العربان

الساميون والحاميون في غرب آسيا و شمال إفريقيا و لغاتهم

ارتبطت التركيبة الحالية للسكان – كما نتصورها – بثلاث سلالات هي: السلالة السامية والسلالة الحامية والسلالة الإفريقية. ولذا أرى أنه من الضروري التعرف باختصار على تلك السلالات. من هم الساميون والحاميون والأفارقة؟ وأين كانت مواطنهم الأولى؟ وكيف كانت الأحوال الطبيعية التي عاشوا فيها في عصورهم القديمة؟ وإلى أي مدى أثرت على تحركاتهم واستقرارهم داخل القارة الإفريقية؟

ولما كان العنصرين الأفريقي والحامي قد ارتبطا بالصحراء الإفريقية الكبرى وارتبط العنصر السامي بشبه الصحراء العربية فسنبدأ بالقاء القليل من الضوء على هاتين المنطقتين، وإلى أي مدى أثرت الأوضاع فيهما على تحركات واستقرار سكانهما؟

يرى العلماء أن مناخ الكرة الأرضية كان في العصور المبكرة دائم التقلبات، وإذا رجعنا إلى نحو خمسة عشر ألف سنة نجد آثار تحولات كبرى وتعاقب فترات جفاف ورطوبة في مناخ الكرة الأرضية الأخيرة أدت – كما يقول علماء المناخ والجيولوجيا – إلى تغيرات كبيرة في المعدل السنوي لسقوط الأمطار، وفي معدل مناسيب المياه في البحار والأنهار وفي الحياة الحيوانية والنباتية. ولعبت تلك التحولات دوراً بارزاً ومؤثراً في تحركات واستقرار المجتمعات البشرية. فعلى سبيل المثال كانت منطقة الصحراء الكبرى الإفريقية مأهولة بالسكان وتتمتع بكميات غزيرة من الأمطار، وكانت بها بحيرات وانهار دائمة الجريان وغابات وغطاء نباتي غزير.

ورد في دائرة المعارف البريطانية تحت مدخل Sahara أن الرسومات الصخرية والأدوات الحجرية والفخارية والعظمية المنتشرة على طول الصحراء الكبرى توضح أنها كانت مأهولة بالسكان. كما أثبت علماء الجيولوجيا والآثار وجود أنواع كثيرة من الحيوانات في كل المنطقة مثل الظباء والجواميس والزراف والأفيال ووحيد القرن وفرس البحر.[1]

[1] Encyclopedia Britannica 2000 Online. Cited on July 2005.

وكانت شبه الجزيرة العربية كما نقل جواد علي عن علماء الآثار "خصبة جداً كثيرة المياه تتساقط عليها الأمطار بغزارة في جميع فصول السنة، وكانت ذات غابات كبيرة وأشجار ضخمة كالأشجار التي نجدها في الزمان الحاضر في الهند وإفريقيا"[1] وبالتالي فقد كانت مأهولة بالسكان.

وقد تعرضت كلا المنطقتين – العربية و الإفريقية – إلى التقلبات المناخية التي حدثت منذ نحو اثنتي عشرة ألف سنة مضت، وهو التغير الذي أدى في نهايته إلى تكوين كل من الصحراء الكبرى الإفريقية و صحراء شبه الجزيرة العربية. غير أن أثر ذلك الجفاف لم يبرز ويؤثر تأثيراً محسوساً على تحركات سكان المنطقتين منذ البداية، بل بدأ ذلك منذ نحو سبعة ألف سنة، وهو الوقت الذي بدأت فيه تحركات السكان من داخل شبه الجزيرة العربية نحو الشمال إلى العراق و الشام أو ما يسمى بالهلال الخصيب.

كما بدأت تحركات سكان الصحراء الإفريقية الكبري إلى الشمال نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط، وإلى الشرق نحو وادي النيل. وقد أعقب تلك التحركات تطور ثقافات تلك المناطق والتي أدت إلى قيام حضارات الهلال الخصيب في غرب آسيا وقيام حضارات وادي النيل و شمال إفريقيا.

فالهجرات البدوية الوافدة إلى منطقة الهلال الخصيب من صحراء شبه الجزيرة العربية ذات أصل واحد، ولكن أخذت كل مجموعة مهاجرة أسمها الخاص مثل الكلدانيون و البابليون و الأراميون و الأكديون الذين أقاموا دولهم المبكرة في العراق، ومثل الكنعانيون و العبرانيون و الفينيقيون الذين أسسوا دولهم بالشام وأخيراً المهاجرون العرب الذين استقروا أيضاً في منطقة الهلال الخصيب وغيرها.

ساهمت الشعوب السامية في شبه الجزيرة العربية و الهلال الخصيب بنصيب وافر في التراث الحضاري القديم إلى جانب شعوب أخرى في الشمال الأفريقي أطلق عليها الشعوب الحامية. وقد اختلطت تلك الشعوب السامية والحامية ببعض شعوب جنوب وشرقي البحر الأبيض المتوسط مكونة ما عرف بحضارات الشرق الأدني القديم.

---

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام. العراق: جامعة بغداد ١٩٩٣ ج ١ ص ٢٤٠.

وأطلق على تلك الشعوب السلالات السامية- الحامية، وعلى لغاتهم اللغات "السامية-الحامية" أو "الحامية- السامية" أو "الأفروآسيوية."[1] والشعوب "السامية- الحامية" تضم السلالات الآتية:

جدول رقم ١ - الشعوب "السامية-الحامية"

السلالات السامية	السلالات الحامية
- الشعوب القديمة في العراق والشام مثل: الكلدانيين والبابليين والأراميين والأكديين والفينيقيين والكنعانيين.	سكان شمال وشمال شرق إفريقيا والقرن الافريقي. سكان الصحراء الكبرى والسافنا الإفريقية

العرب والعبرانيون و الأمهرة:

ونسبة لتداخل وتعايش السلالتين السامية والحامية سواء في إفريقيا أو في غرب أسيا فقد تشابهت لغاتهما لدرجة جعلت العلماء يُرجعون اللغتين السامية والحامية إلى أصل واحد أطلقوا عليه "اللغات الأفروآسيوية ؟ وتضم لغات متعددة كما هو موضح بالجدول رقم ٢.

جدول رقم ٢ - اللغات الأفروآسيوية

اللغة	متحدثيها
المصرية القديمة	انقرضت
السامية (أمثلتها الحية)	العربية، العبرية، الامهرية
الكوشية	يتحدثها البجة وبعض القبائل في ارتريا

[1] عبد اللعزيز صالح، تاريخ الشرق الأدنى: مصر والعراق. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠، القديم ج ١ ص ٦.

	والصومال و اثيوبيا
البربرية	يتحدثها سكان الصحراء الكبرى
التشادية	تتحدثها مجموعة قبائل في تشاد، نيجريا، الكمرون، إفريقيا الوسطى ، النيجر. واشهر فروعها الهوسا
أُمُتِك Omotic	تتحدث بها مجموعة صغيرة في جنوب غرب اثيوبيا

جمعت مادة هذا الجدول من[1] B. Heine and D. Nurse eds.

ويوضح الجدول أن اللغات المصرية القديمة والعربية والعبرية والاثيوبية والكوشية والبربرية والتشادية ترجع إلى أصل واحد، ويعني ذلك وجود تشابه كبير بينها على حسب القواعد والنظريات المتعارف عليها عند المتخصصين في تلك المجالات. ومن بين المعايير التي تستخدم في تصنيف اللغات إلى مجموعات أو أسرة واحدة أن يكون متحدثوها منحدرين من أصول مشتركة.[2]

ونفهم من ذلك أن الأسلاف الأوائل لمتحدثي اللغة التشادية والكوشية والمصرية القديمة والعربية ينتمون إلى أصل واحد. ويرجع ذلك تاريخيا إلى الصلات القديمة القوية بين سكان تلك المناطق. ولكي تتضح صورة اللغات فى المنطقة أرى أن نتعرف على بقية لغات القارة الإفريقية. يرى المتخصصون في هذا المجال أن هنالك ثلاث مجموعات لغوية كبرى في إفريقيا يوضحها الجدول رقم ٢.

1 Bernard Heine and Derek Nurse eds. (2000), *African Languages*. Cambrige University Press 2000 P 78 – 81.
2 Ibid. p 260.



جدول رقم ٣: اللغات الرئيسة في القارة الإفريقية

اسم اللغة	متحدثيها
الافروآسيوية	كما في جدول رقم ٢
النيلية الصحراوية	تتحدثها بعض القبائل في جنوب ليبيا و تشاد ومناطق جنوب السودان
النيجر-كنغو	يتحدثها سكان غرب ووسط وجنوب إفريقيا (تضم جنوب كردفان و دارفور)
Khoisan	جنوب غرب إفريقيا

جمعت مادة الجدول من: B. Heine & D Nurse p 12,13

ويوضح الجدول رقم ٣ أن اللغات الرئيسة في إفريقيا قديماً وحديثاً هي اللغات الأفروآسيوية وهي: اللغة المصرية القديمة، العربية، العبرية، الأمهرية واللغات النيلية الصحراوية والنيجر كنغو وال Khoisan. ويتضح من ذلك أن بعض اللغات الإفريقية الرئيسة القديمة لم يعد لها وجود الآن مثل اللغة الهيروغلوفية. بينما ظلت أغلب اللغات الإفريقية الأخرى حية ومستخدمة بما في ذلك اللغة العربية، فاللغة العربية إذاً تمثل إحدى اللغات الأساسية الرئيسة في إفريقيا. وبالطبع هذا حكم علماء اللغات الأوربيين وليس حكمنا.

وهكذا يتضح أن الشعوب القديمة التي عاشت في غرب أسيا وفي إفريقيا الشمالية حتى منطقة السافنا جنوبا قد التقت واختلطت لأسباب متعددة منها العوامل الطبيعية والسياسية والاقتصادية لدرجة أدت إلى تقارب وتشابه لغاتها حتى أصبحت تنتمي إلى مجموعة واحدة "الأفروآسيوية". وقد أدى ذلك الاختلاط إلى عدم قدرة الباحثين على تتبع أصول وجذور السلالات السامية والحامية، فتعددت الآراء في ذلك.

يرى أغلب الباحثين أن الجزيرة العربية هي موطن الجنس الذي اصطلح على تسميته "الجنس السامي" والذي يضم البابليين و الأشوريين والكنعانيين والعبرانيين والأراميين والحبش والعرب، وقد بدأ تحركات تلك الشعوب في فترات متتالية منذ بداية جفاف المنطقة واستمرت حتى الهجرات التي أعقبت ظهور الإسلام. وقد اتجهت الهجرات القديمة السابقة للإسلام نحو منطقة الهلال الخصيب، و مصادر دراستها متوفرة في الآثار القديمة في تلك المناطق.

غير أن هنالك بعض علماء الساميات – مثل بلكريف - الذين عارضوا الرأي القائل بأن شبه الجزيرة العربية هى موطن الجنس السامي بحجة أنه ليس هنالك أدلة قاطعة تسنده. ونلخص هنا بعض تلك الآراء المعارضة من كتاب العالم العراقي المشهور والمعروف في الأوساط العلمية بتميزه وتخصصه في دراسة تاريخ العرب القديم الدكتور جواد علي.[١]

رأى هولاء أن إفريقيا هي المكان المناسب كوطن أول للجنس السامي لوجود تشابه في الملامح وفي الخصائص الجنسية والصلات اللغوية بين الأحباش والبربر والعرب. ورأي جيرلند أن الدراسات الفيزيولوجية مثل تكوين الجماجم والبحوث اللغوية تجعل شمال إفريقيا الموطن الأول للساميين. وذهب إلى أن الجنس السامي والحامي سلالة واحدة انقسم إلى عدة فروع منها الفرع الذي استقر في منطقة غرب آسيا وكون سكان المنطقة بما فيهم سكان شبه الجزيرة العربية.

ويرى علماء آخرون - مثل بارتون – أن شرق إفريقيا بالتحديد هي الموطن الأول للساميين للعلاقات الاثنولوجية الظاهرة. وقد عبر الساميون إلى شبه الجزيرة العربية عبر طريقين هما باب المندب و سينا، وأكسبتهم إقامتهم في "بلاد العرب" خصائص جديدة ووسمتهم بسمات اقتضتها طبيعة الوطن الثاني. وجعل بعض العلماء - اعتمادا على ما ورد في المصادر اليهودية القديمة أن أرمينيا هي الوطن الأول للساميين، بينما

[١] المفصل في تاريخ العرب ج ١ ص ٢٢٤ – ٢٢٩.

ذهب آخرون إلى جعله أواسط آسيا.وقد ذهبت بعض الدراسات الحديثة إلى أن السلالات السامية الحامية كانت في بدايتها جزءاً من سلالة شعوب البحر الأبيض المتوسط القديمة، وكان موطنها الأول شمال إفريقيا ثم تحركت مجموعة منها شرقا نحو غرب أسيا وانتشرت في تلك البقاع بما في ذلك شبه الجزيرة العربية التي لم تكن صحراء كما هي الآن. وأدى انفصال المجموعتين إلى أن طوّر كل منهما لغته الخاصة فنشأت اللغات السامية والحامية اللتان ترجعان إلى أصل واحد.[١]

ويبدو الآن أنه ليس من السهل القطع بتحديد الموطن الأصلي للجنس السامي، ورغم أن الرأي الأكثر شيوعاً هو الذي جعل الجزيرة العربية الموطن الأول للساميين، إلا أن أصحاب الآراء الأخرى - وهم مجموعة من العلماء المتخصصين – ساقوا من الأدلة ما يجعل مسألة الوطن الأصلي للساميين - على أقل تقدير – قيد البحث والنقاش لعل الدراسات تتوصل إلى القول الفصل فيه.

والذي نحن بصدده هنا من السلالات السامية هي السلالة العربية، وهي السلالة السامية الوحيدة التي ارتبطت بترك آثارها العرقية واللغوية على وادي النيل وبالخصوص السودان. وأعتقد أنه من المفيد أن نتعرف – باختصار - على الوقت الذي ظهر فيه العرب في التاريخ وما هو مدلول كلمة عرب في الفترة السابقة للاسلام؟

وللتعرف على ذلك نلخص الآتي مما أورده في هذا الصدد الدكتور جواد علي.[٢] جاءت أول إشارة إلى العرب فى الكتابات الأشورية في نص يعود إلى منتصف القرن التاسع ق.م.، وقد قصد بلفظ عرب في النص الأعراب أي البدو. وقد وردت كلمة عرب في التوراة، وفي اللغة العبرية وفي لغات سامية أخرى بمعنى "البداوة والأعرابية والجفاف والفقر ... فلفظ عرب في تلك اللغات المتقاربة هو البداوة وحياة البادية" .

[1] Crowford Howellm, "Semeticuages" jewishEncyclopdi.com cited in Julyv2005.
[٢] المفصل في تاريخ العرب، ج ١ صفحات:١٢، ١٤، ١٨، ٢٢، ٢٣.

ووردت كلمة عرب في النصوص العربية القديمة أيضا بمعنى البداوة وسكان البادية، أما سكان الحضر فى شبه الجزيرة فقد كانوا يعرفون بأسماء المناطق التي يقيمون فيها أو التسميات القبلية التي اشتهروا بها مثل سبأ وهَمدان وحمير. وعندما أطلق البابليون أو الأشوريون أوالفرس "بلاد العرب" فإنهم قصدوا بها البادية التي في غرب نهر الفرات الممتدة إلى تخوم بلاد الشام... وقد أدخل بعض االعلماء طور سيناء فى جملة هذه الأرضين.

وعلى ذلك فكلمة عرب – كما عبر جواد علي في أكثر من موضع – لم تكن قد صارت علماً على جنس معين بالمعنى المفهوم من اللفظة كما يستعملها الآن. وكلمة عرب بالمعنى المعروف اليوم ترجع إلى ما قبل الإسلام بزمن وجيز، ولكنه لا يرتقي تاريخياً إلى ما قبل الميلاد بل لا يرتقي عن الإسلام إلى عهد جدّ بعيد. ويضيف الدكتور السيد عبد العزيز سالم:

"ولا نعرف على وجه الدقة متى استخدم لفظ "عرب" للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس العربي، والقرآن الكريم هو أول مصدر – ولا يرتقي عن الإسلام إلى عهد جدّ بعيد – استخدم فيه لفظ العرب للتعبير بوضوح عن الجنس العربي." وقد أتى القرآن الكريم بلسان أهل البادية والحضر، ونعت فيه لسانهم باللسان العربي. غير أن علماء العربية حيارى – كما ذكر جواد علي – أمام معرفة بداية اللغة العربية. يرى بعضهم أن يعرب أول من نطق بالعربية وسميت اللغة به، ويقول البعض انها كانت لسان آدم، بينما جعل آخرون بدايتها في عصر أسماعيل بن ابراهيم عليهم السلام "أُلهم باللسان العربي إلهاماً."[1]

وبناءً على ذلك فإن كلمة "العرب" قبل الإسلام لم تكن تعني جنساً معيناً بل كان تطلق على البدو الذين كانوا يتجولون في مناطق بادية الشام و العراق مثل مناطق

---

[1] السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٤٤.

شمال المملكة العربية السعودية وبعض مناطق سوريا و فلسطين و الأردن كما يرى البعض.

هذا هو مدلول ومفهوم كلمة العرب – قبل الإسلام - عند شعوب منطقة شرقي البحر المتوسط، فكيف كان مدلولها عند اليونان الرومان؟ جاء أول ذكر للعرب في الكتابات اليونانية - كما ذكر جواد علي – أتى في منتصف القرن الخامس ق.م. كجنود في جيش الملك الفرسي Xerxus، وقد تحدث هيرودوت عن العرب وبلادهم الممتدة من جزيرة العرب إلى البوادي والمناطق الواقعة إلى الشرق من نهر النيل. وذكر سترابوبليني (القرن الأول الميلادي) أن العرب تكاثروا على أيامهما في مصر ما بين النيل و البحر الأحمر.[1]

وذكر جواد علي أن اليونايين والرومان أطلقوا لفظ بلاد العرب للدلالة على جزيرة العرب وسكانها على اختلاف لغاتهم لاعتقادهم أن البداوة هي السمة الغالبة على كل تلك المناطق، وتصوروا أن كل سكانها بدواً، لأن فكرتهم عن حَضَرْ العرب لم تكن ترتفع عن فكرتهم عن البدو. فأصبح مدلول كلمة العربي عندهم هو البدوي.

فالكتاب اليونانيون والرومان استخدموا كلمة عرب بنفس معناها السابق للاسلام، فعندما يشيرون إلى العرب يقصدون البدو بغض النظر عن سلالاتهم. فالإشارة إلى العرب في صحراء مصر الشرقية يراد بها البدو الذين كانوا منتشرين في تلك المناطق منذ آلاف السنين قبل إطلاق كلمة عرب على جنس معين. كما يلاحظ أيضاً أننا في السودان – في الوقت الحاضر – نستخدم كلمة عرب بمعنى أعراب أي سكان البادية، ونصف البدوي بالعربي.

[1] نفس المرجع ص ٢٢ – ٢٣.

أما المصادر العربية المبكرة فقد استخدمت كلمة العرب بمعناها الذي ورد في القرآن أي كل سكان شبه الجزيرة العربية البدو منهم والحضر. وقسمت كتب التراث العربي المبكر مثل كتب التاريخ والأدب والأنساب وغيرها العرب إلى قسمين:

١. العرب البائدة أي القديمة التي بادت قبل ظهور الإسلام مثل: عاد وثمود وطسم وجديث وهم من أبناء سام بن نوح.
٢. العرب الباقية وهم على قسمين أحدهما: عرب الجنوب وينسبون إلى قحطان الذي ينتسب إلى سام بن نوح ويعرفون بالقحطانيين، والقسم الآخر عرب الشمال وينتسبون إلى إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وينتسبون إلى معد بن عنان الذي ينتسب إلى سام بن نوح ، ويسمون بالعدنانيين.

والعرب الباقية (العدنانيين والقحطابيين) يمثلون الشعب العربي الذي كان يسكن شبه الجزيرة العربية وحملوا لواء الإسلام. ولم تنسب المصادر العربية المبكرة أي جماعة سامية أخرى إلى العرب، فالعرب في كل تلك المصادر هم العدنانيون والقحطانيون. غير أن المؤلفات الحديثة ألحقت بعض الشعوب السامية الأخرى بالعرب. وقد اختلفت هذه المؤلفات في الجماعات التي تنسبها إلى العرب، فبعض المؤلفات الحديثة اعتبرت التدمريين – شمال دمشق – والأنباط – جنوب فلسطين – عرباً وتناولت تاريخهم كجزء من تاريخ العرب قبل الإسلام.

وتوسع البعض الآخر في نظرته للشعوب العربية كما فعل جرجي زيدان الذي جعل البابليين و الهكسوس عرباً.[١] وقد اقترح البعض الآخر إهمال كلمتى الشعوب السامية والساميين وعدم استخدامهما واستبدالهما بكلمتي الشعوب العربية والعرب.[٢] ووفقاً لذلك تكون كل الشعوب التي خرجت من شبه الجزيرة عرباً منذ فجر التاريخ مثل البابليين والفينيقيين والعبرانيين وغيرهم. ولست أدري كيف يكون موقف اللذين رفعوا

---

[١] جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام ص ١٢.

[٢] محمد عزة دروزة، عروبة مصر ص ١٠.

هذا الشعار من الشعوب السامية غير العربية مثل اليهود في إلغاء السامية وادراجهم تحت لواء العروبة!

والذي نعتبره نحن ونسير عليه في معنى العروبه هو ما ورد في المصادر العربية من أن العرب الباقية هم سلالة قحطان و عدنان فقط. ولما كانت أخبار دخول العرب إفريقيا قد دونت في تلك المصادر، أرى أنه من الضروري التعرف - قبل الشروع في مناقشة ما ورد فيها - على مناهجها في تدوين التاريخ، وسيتم ذلك بتناول بعض النماذج من كتابات تلك المصادر لتساعدنا على فهمها.

نماذج من كتابة التاريخ في المصادر العربية المبكرة

نورد هنا بعض النماذج من كتابة التاريخ في المصادر العربية لمعرفة المناهج التي اتبعها أولئك المؤلفون في تدوين مادتهم والمصادر التي استندوا عليها في جمع تلك المادة لكي نتمكن من فهم ما ورد في تلك المصادر فهماً صحيحاً يساعدنا على تقييمه والوقوف على مصداقية المادة التي وردت فيها عن دخول العرب السودان.

فالمادة التي وردت في مصادر التراث العربي المبكر عن تحركات الشعوب وتواريخها وانشطتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية أتت في كتب متنوعة المواد والعناوين، بعضها تحت اسم التاريخ والأغلبية العظمى تحت عناوين أُخرى مثل المعارف والأخبار والبلدان والمسالك والممالك والعجائب والغرائب في البر والبحر وغيرها. وتلك المصادر لم تميز بين المادة التاريخية وغير التاريخية. فقد دونت – إلى جانب الأحداث التاريخية – ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر تراث تلك الشعوب التي كتبت عنها. ولم تميز بين أحداث التاريخ وذلك التراث الشفاهي وقصص البطولات والأساطير المتداولة بين الناس.

فعلى سبيل المثال نبدأ برؤية نصوص المقريزي - الذي تمثل مؤلفاته التراث الشعبي بصورة واضحة في خبر خروج نبي الله موسى عليه السلام من مدين إلى مصر - وهذا حدث تاريخي موثق - للتعرف علي كيفية تدوين المقريزي في كتابه الخطط هذا الحدث.

١. خروج موسى عليه السلام إلى مصر:

قال المقريزي: "وخرج موسى متوجها إلى مصر [وذكر في رواية أخرى سابقة لهذه أنه خرج من مصر متوجها إلى مدين] والملك يومئذ على مدين أبجد قال [يقصد مصدره في الخبر] وقوى أمر أبجد فطغى حتى ملك الحجاز. وكان له خمسة أولاد هم هوز وحطي و كلمن و سعفص و قرشت.



فأقام أبجد ملكاً باليمن مائة سنة ومات وقد استخلف من بعده ابنه كلمن باليمن، وجعل ابنه هوز على الحجاز وابنه حطي على أرض مصر وابنه سعفص على الجزيرة وبلادها حيث الموصل و حران إلى أرض العراق وابنه قرشت على العراق ومشارفها من خراسان." [ايران و افغانستان الحاليتين تقريبا] ويواصل المقريزي الرواية "وكان حطي صاحب بطش وجرأة وكان بنوا اسرائيل إذ ذاك بالشام فلم يملك أولاد أبجد الشام..."

ويواصل المقريزي مهتماً بذكر مصدر خبره فقال: "حدثني بهذا الخبر الحافظ المتقن الضابط [يقصد المدقق أو الضابط للأخبار] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الغرياني التونسي المالكي، قال حدثني به شتر بن غنيم العامري - شيخ لقيه بأرض فلسطين - أنه شاهد الكتاب المذكور.." والكتاب هنا المقصود به الكتاب الذي تضمن هذا الخبر والذي أشار إليه المقريزي حيث قال:

"ووجد في مدينة الأعوج أعوام بضع وستين وسبعمائة جُب بقلعتها بعيد المَهْوى يبلغ عمقه نحو مائة ذراع، وبقاعه عدة أسفار على رفوف حمل منها سفر طوله ذراعان وأزيد قد غلف بلوحين من خشب وكتابته بالقلم المسند، طول الألف واللام نحو شبر. فوجد ببلاد الكرك من قرأه فإذا هو سفر من عشرة أسفار قد ابتدأه بحمد الله ثم قال خرج موسى من أرض مصر..."[1]

وسواء صح وجود تلك الأسفار أو لم يصح فإن المعلومات التي قيل إنها أخذت منها لا تستند الى وقائع تاريخية.فلو عرضنا نص المقريزي السابق على الحقائق التاريخية المعروفة المعاصرة لانتقال موسى من مصر إلى مدين أو العكس و الأوضاع السياسية في المناطق التي ورد أنها تحت حكم أولاد أبجد وهي مدين و اليمن و العراق و الشام ومصر في ذلك الوقت تأكد عدم صحة النص.

[1] المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، نشير إليه فيما يلي بالخطط. ج ٣ ص ٢٣١ – ٢٣٣. موقع الوراق.

فعلى سبيل المثال يذكر المقريزي أنه وقت خروج موسى من مدين كان بنو اسرائيل في الشام ولذلك لم يملك بنو أبجد الشام. ومن المعروف أن موسى عندما خرج من مدين لم يكن قد أوحي إليه بعد ، إذ حدث ذلك في طريقه إلى مصر. وخرج موسى ببني اسرائيل من مصر بعد زمن طويل من نبوته ، ومات موسى قبل أن يدخل بنو اسرائيل الشام.

فالنص عبارة عن تراث شفاهي شعبي يمثل بالصورة التي ورد بها جزءاً من أساطير تلك المناطق. ومن المعروف أن ما ورد في النص من أسماء الملوك عبارة عن الحروف الأبجدية المعروفة عند العرب والتي تستخدم كما هو معروف فيما يسمى حساب الجمل، ولم يتعارف اتخاذها أسماءً للبشر. ونترك أمر تقييم وتحليل مثل هذه الأساطير إلى المتخصصين في دراسة التراث الشفاهي.

فالمقريزي لم يهتم بالنص ومدى إمكانية صحته من عدمها بقدر اهتمامه بمصدر النص. وهذه نقطة هامة في مناهج المؤلفات العربية المبكرة، وهي عدم التركيز على النص - أو نقده - لرؤية مدى مصداقيته وهذا ما انتقده ابن خلدون. غير أن ابن خلدون توفي في مطلع القرن التاسع الهجري (١٥م) – وقد كتب المقريزي بعد هذا التاريخ - أي في خواتيم عصر التدوين المبكر وبعد أن ترسخ المنهج الذي يعتني بذكر المصدر فقط. أما المادة المنقولة عن المصدر فعهدتها على راويها. ويوضح رسوخ هذا المنهج منذ وقت المؤرخ المشهور الطبري الذي كتب تاريخة في نهاية القرن الثالث الهجري (٩م) حيث قال في مقدمة كتابه "تاريخ الرسل والملوك":

"وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أُدْرِك بحجج العقول، وأسْتَنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه. إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا

من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبَلِنا وإنما أتي من قِبَل بعض ناقليه إلينا وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا."

وكرر ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) نفس المعني في مقدمة كتابه معجم البلدان حيث قال:

"واستقصيت لك الفوائد جلها أو كلها، وملّكتك عفواً صفواً عقدها وحلها، حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفِر عنها طباع ممن له محصول، لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وان كان لا يستعظم شيئ مع قدرة الخالق وحيل المخلوق، وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرئ إلى قارئها عن صحتها... فإن كانت حقاً أخذنا منها بنصيب المُصيب وإن كانت باطلاً فلها في الحق شرك ونصيب، فأنا صادق في إيرادها كما أوردتها، لتعرف ما قيل في ذلك حقاً كان أم باطلا."

هذا هو الأسلوب الذي اتبعه المؤلفون الأوائل في جمع مادة كتبهم، والمصادر التي اعتمدوا عليها خاصة عن الأحداث السابقة لهم أو عن أحداث المناطق البعيدة منهم. فمصادرهم هي الروايات الشفاهية الشعبية المتداولة من جيل إلى جيل. وقد جرت عادتهم على البحث وتدوين الأخبار الغريبة والعجيبة وهي المادة التي تجد القبول عند القراء.

وقد عبر عن ذلك البلخي (أو المقدسي كما يَرِد أيضا) في مقدمة كتابه البدء والتاريخ حيث قال: "بعض المؤرخين يميلون إلى تسجيل غرائب العجائب التي لا يقبلها العقل، مما أدى إلى شحن صدور الناس بترهات الأباطيل، وضيقوا نفوسهم بالأسماء والأساطير، والحديث عن جمل طار أشهى عندهم من الحديث عن جمل سار"

ونورد مثالاً آخر عن أوضاع سكان الصحراء الكبرى الإفريقية، تناقلته أغلب المؤلفات العربية واستخدمه بعض المؤرخين المعاصرين لأثبات عروبة وادي النيل. والنص يتعلق بغزوات ملوك حمير لإفريقيا كما ورد عند ابن خلدون.[1]

٢. غزوات ملوك اليمن:

قال ابن خلدون: "ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التابعة ملوك اليمن و جزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية و البربر من بلاد المغرب. وأن أفريقش بن قيس بن صيفي من أعاظم ملوكهم الأُوَل وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل، غزا أفريقية وأثخن في البربر وأنه الذي سماهم بهذا الاسم ... ومن هذا ذهب الطبري و الجرجاني و المسعودي و ابن الكلبي إلى أن صنهاجة و كتامة من حمير، وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح"

ويواصل ابن خلدون: "وذكر المسعودي أيضا أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل أفريقش وكان على عهد سليمان (عليه السلام) غزا المغرب ودوخه، وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل فرجع ...وأنه ملك الموصل و أذربيجان ولقي الترك فهزمهم وأثخن ثم غزاهم ثانية وثالثة."

ويلاحظ هنا أن ذا الأذعار كما ورد هنا كان في عصر سليمان، وأنه حكم قبل افريقش. وفي بداية النص أعلاه ورد أن افريقش كان في عهد موسى، ومن المعروف أن موسي سبق سليمان بزمن طويل فكيف حكم ذوالأذعار قبل افريقش؟

ويواصل ابن خلدون: "وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس إلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر، وإلى بلاد الروم فملك الأول البلاد إلى سمرقند وقطع

[1] كتاب العبر، ج ١ ص ١٢ – ١٣ وج ٢ ص ٥١. موقع الوراق.

المفازة إلى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها فأثخنا في بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد."

"وبلغ الثالث إلى قسطنطينية[1] فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع. وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة." ويواصل ابن خلدون عما ورد عن ملوك اليمن:

"وملك الحرث الرائش فيما قالوا مائة وخمساً وعشرين سنة وكان يسمى تبعاً وكان مؤمناً فيما قال السهيلي، ثم ملك بعده ابنه ابرهة ذو المنار مائة وثمانين سنة ... ثم ملك من بعده أفريقش بن أبرهة مائة وستين سنة. وقال ابن حزم: هو الذى ذهب بقبائل العرب إلى افريقية وبه سميت... وترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة و كتامة فهم إلى الآن بها وليسوا من نسب البربر، قاله الطبري و الجرجاني و المسعودي و ابن الكلبى و السهيلى وجميع النسابين. ثم ملك من بعد افريقش أخوه العبد ابن خمسٍ وعشرين سنة وكان على عهد سليمان بن داود أوقبله بقليل وغزا ديار المغرب.

ويكفينا هنا حكم ابن خلدون الذي بدأ به النص حيث قال: "ومن الاخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب" فالمؤلفون الأوائل لم ينشغلوا بتحقيق الخبر، وكانت براءة ذممهم في ذكر أسماء رواتهم أو مصادر معلوماتهم، أما التحقق من صدق الرواية أو مصداقية المصدر فهي مسؤولية القارئ، وعليه التحقق من المصدر والحكم على الخبر أولاً قبل الاحتجاج به.

ويشير ابن خلدون إلى الأوضاع السياسية في تلك الفترة وكيف أنها تتعارض مع ما ذكر من حُكْم وتوسعات ملوك اليمن فقال:

---

[1] قسنطينة [القسطنطينية] كانت عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية وقد تأسست بعد عدة قرون من عصر سليمان الذي كان الملك ذو الاذعار معاصرا له. والروم في المصادر العربية يقصد بها الامبراطورية الرومانية الشرقية كما وردت الاشارة اليها في القرآن الكريم في سورة الروم "رقم ٣٠" أما باقي شعوب غرب أوربا فقد وردت الاشارة اليهم بصورة عامة تحت اسم "الفرنجة" أو الافرنج.

"وقد كان بتلك الأعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر وملك بنو إسرائيل الشام، ولم يُنْقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال. وأيضا فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزْودة والعلوفة للعساكر كثيرة. فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه، ولا يكفي ذلك للازودة وللعلوفة عادة وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله. فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها. وإن قلنا إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك أبعد وأشد امتناعاً فدل على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة."

"وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك وإن كان طريقه أوسع من مسالك السويس إلا أن الشقة هنا أبعد، وأمم فارس و الروم معترضون فيها دون الترك. ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم، وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين و الحيرة والجزيرة بين دجلة و الفرات وما بينهما من الأعمال. وقد وقع ذلك بين ذي الأذعار منهم و كيكاوس من ملوك الكيانية وبين تبع الأصغر أبي كرب ويستاسف منهم أيضاً ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاوزة أرض فارس. أما الغزو إلى بلاد الترك والتبت وهو ممتنع عادة من أجل الأمم المعترضة منهم والحاجة إلى الأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر."

"فالأخبار بذلك واهية مدخولة، وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحاً فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح. وقول ابن إسحاق في خبر يثرب و الأوس والخزرج أنّ تُبّعاً الآخر سار إلى المشرق محمولاً على العراق وبلاد فارس. وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم إليها بوجه لما تقرر. فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين.

ونضـــيف عن ملوك اليمن بعض ما ورد عند المسعودي في كتابه مروج الذهب حيث قال:

"وإنما نحكي هذه الأخبار على حسب ما وجدناه في كتب الأخباريين وعلى حسب ما توجبه الشريعة والتسليم لها، وليس قصدنا من ذلك وصف أقاويل أصحاب القدم، لأنهم ينكرون هذا ويمنعونه، وإنما نحكي في هذا الكتاب أقاويل أصحاب الحديث المنقادين للشرع والمسلّمين للحق، وأخبار الشياطين على حسب ما نطق به الكتاب المنزل على النبي المرسل..."

"أول من يُعَد من ملوك اليمن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، واسمه عبد شمس، وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا لأية علة سمي سبأ على ما قيل، والله أعلم، وكان ملكه أربعمائة سنة وأربعاً وثمانين سنة."

"وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين، والغالب عليهم حِمْيَر، وفيهم بعض التبابعة على حسب ما ذكرنا من أخبار ملوك اليمنِ فيما يرد من هذا الكتاب...

وقيل: إن بعض التبابعة غزا مدينة رومية وأسكنها خلقاً من اليمن، وإن ذا القرنين الذي هو الأسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها."[1]

ولا أظن أننا بحاجة إلى التعليق على ما ورد في هذه النصوص عن ملوك اليمن الذين امتد حكم بعضهم لمئات السنين، ولم تصل غزواتهم إلى السودان وشمال إفريقيا فقط بل امتدت حتى الصين شرقاً واليونان والرومان شمالاً وتركوا سلالاتهم في تلك المناطق. ومن بلاد اليونان خرج الاسكندر المقدوني الذي ينتمي إلى سلالة الحميريين الذين استقروا هنالك.

٣. نسب بلقيس ملكة اليمن:

وعن نسب ملكة اليمن بلقيس يورد ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ما يلي:

[1] المسعودي، مروج الذهب ج ١ صفحات ٩٩، ١٦٧، ١٩٩. موقع الوراق.



"نذكر أولاً ما قيل في نسبها وملكها، ثمّ ما جرى له معها، فنقول: قد اختلف العلماء في اسم آبائها، فقيل: إنها هي بلقمة ابنة ليشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقيل: هي بلقمة ابنة هاد واسمه ليشرح بن تبّع ذي الأذعار بن تبّع ذي المنار بن تبّع الرايش، وقيل في نسبها غير ذلك لا حاجة إلى ذكره."

"وقد اختلف النّاس في التابعة وتقديم بعضهم على بعض وزيادة في عددهم ونقصان، اختلافاً لا يحصل الناظر فيه على طائل، وكذا أيضاً اختلفوا في نسبها اختلافاً كثيراً، وقال كثير من الرواة: إنّ أمّها جنّية ابنة ملك الجنّ واسمها رواحة بنت السكر، وقيل: اسم أمّها يلقمة بنت عمرو بن عمير الجنّيّ، وإنّما نكح أبوها إلى الجنّ لأنّه قال: ليس في الإنس لي كفء، فخطب إلى الجنّ فزوّجوه."

"واختلفوا في سبب وصوله إلى الجنّ حتى خطب إليهم فقيل: إنّه كان لهجاً بالصيد، فربّما اصطاد الجنّ على صور الظباء فيخلّي عنهنّ، فظهر له ملك الجنّ وشكره على ذلك واتخذه صديقاً، فخطب ابنته فأنكحه على أن يعطيه ساحل البحر ما بين يبرين إلى عدن.

وقيل: إنّ أباها خرج يوماً متصيّداً فرأي حيتين تقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء علي البيضاء فزمر بقتل السوداء وحمل البيضاء وصبّ عليها ماء، فأفاقت، فأطلقها وعاد إلى داره وجلس منفرداً وإذا معه شابّ جميل، فذعر منه، فقال له: لا تخف أنا الحيّة التي أنجيتني، والأسود الذي قتلته غلامٌ لنا تمرّد علينا وقتل عدّة من أهل بيتي؛ وعرض عليه المال وعلم الطبّ، فقال: أمّا المال فلا حاجة لي به، وأمّا الطبّ فهو قبيح بالملك، ولكن إن كان لك بنت فزوّجنيها، فزوّجه على شرط أن لا يغيّر عليها شيئاً تعمله ومتى غيّر عليها فارقته، فأجابه إلى ذلك."

"فحملت منه فولدت له غلاماً فألقته في النّار، فجزع لذلك وسكت للشرط، ثمّ حملت منه فولدت جارية فألقتها إلى كلبة فأخذتها، فعظم ذلك عليه وصبر للشرط، ثمّ إنّه عصي عليه بعضُ أصحابه فجمع عسكره فسار إليه ليقاتله وهي معه، فانتهى

إلى مفازة، فلمّا توسّطها رأى جميع ما معهم من الزاد يخلط بالتراب، وإذا الماء يُصبّ من القرب والمزاود، فأيقنوا بالهلاك وعلموا أنّه من فعال الجنّ عن أمر زوجته، فضاق ذرعاً عن حمل ذلك، فأتاها وجلس وأومأ إلى الأرض وقال: يا أرض صبرتُ لكِ على إحراق ابني وإطعام الكلبة إبنتي ثمّ أنتِ الآن قد فجعتنا بالزاد والماء وقد أشرفنا على الهلاك.

"فقالت المرأة: لو صبرت لكان خيراً لك، وسأخبرك: إنّ عدوّك خدع وزيرك فجعل السمّ في الأزواد والمياه ليقتلك وأصحابك، فمر وزيرك ليشرب ما بقي من الماء ويأكل من الزاد، فأمره فامتنع، فقتله. ودلّتهم على الماء والميرة من قريب وقالت: أما ابنك فدفعته إلى حاضنة تربيّه وقد مات، وأمّا ابنتك فهي باقية، وإذا بجويرية قد خرجت من الأرض، وهي بلقيس، وفارقته امرأته وسار إلى عدوّه فظفر به... وقيل في سبب نكاحه إليهم غير ذلك، والجميع حديث خرافة لا أصل له ولا حقيقة."[1]

٤. سطيح كاهن العرب :

ذكر المسعودي عنه مايلي:

"وقد كان سَطيحٌ الكاهن وهو ربيع بن ربيعه بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان يدرج سائر جسده كما يدرج الثوب، لا عظم فيه إلا جمجمة الرأس، وكانت إذا لمست باليد يلين عظمها.وكان شق بن مصعب بن شكران بن أترك بين قيس بن عنقر بن أنمار بن ربيعه بن نزار معه في عصر واحد، وكان فيهما جمرة الكهانة، وكذلك سملقة وزوبعة كانا في عصر واحد، والله أعلم."[2]

وأورد ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ ما يلي عن سطيح:

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٦. موقع الوراق.

[2] المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٩.

"أما سطيح هذا فقال الحافظ بن عساكر في تاريخه هو الربيع ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن الازد... ولد في زمن سيل العرم وعاش إلى ملك ذي نواس وذلك نحو من ثلاثين قرنا وكان مسكنه البحرين... وروي عن ابن عباس أنه قال: لم يكن شئ من بني آدم يشبه سطيحاً إنما كان لحماً على وضم ليس فيه عظم ولا عصب إلا في رأسه وعينيه وكفيه وكان يطوى كما يطوى الثوب من رجليه إلى عنقه... ولم يكن فيه شئ يتحرك إلا لسانه... وقال غيره إنه كان إذا غضب انتفخ وجلس."

"ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاه جماعة من رؤسائهم منهم عبد شمس و عبد مناف أبناء قصي فامتحنوه في أشياء فأجابهم فيها بالصدق، فسألوه عما يكون في آخر الزمان... فقال خذوا مني ومن إلهام الله إياي: أنتم الآن يا معشر العرب في زمان الهرم سواء بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشأ من عقبكم ذوو فهم، يطلبون أنواع العلم فيكسرون الصنم، ويتبعون الردم، ويقتلون العجم، يطلبون الغنم."[١]

٥. عاد:

جاء في كتاب مروج الذهب للمسعودي عن عاد:

"وكان عاد رجلا جباراً عظيم الخلقة، وهو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح، وكان عاد يعبد القمر، وذكروا أنه رأى من صلبه أربعة آلاف ولد، وأنه تزوج ألف امرأة، وكانت بلاده متصلة باليمن، وهي بلاد الأحقاف، وبلاد صحاري هي وبلاد عمان إلى حضر موت."

"وقد ذكَرَ جماعة من الإخباريين - ممن عني بأخبار العرب - أن عاداً لما توسط العمر واجتمع له الولد وولد الولد، ورأى البطن العاشر من ولده، وظهور الكثرة مع تشييد الملك واستقامة الأمر، غمر إحسانه الناس، وَقِرَى الضيف، وأحواله منتظمة، والدنيا عليه مقبلة، فعاش ألف سنة ومائتي سنة ثم مات. وكان الملك بعده في الأكبر

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٢ ص ٢٣٩.



من ولده، وهو شديد بن عاد. وكان شديد بن عاد ملكه خمسمائة سنة وثمانينَ سنة، وقيل غير ذلك. ثم ملك بعده أخوه شداد بن عاد وكان ملكه تسعمائة سنة، ويُقال: إنه احتوى على سائر ممالك العالم، وهو الذي بنى مدينة أرم ذات العماد."[1]

٦. الملك المصري أشمون

وفي كتاب أخبار الزمان أورد المسعودي ما يلي:

"وقيل إن أشمون كان أطول إخوته ملكاً، وقال أهل الأثر إن ملكه ثمانمائة سنة، وإن قوم عاد انتزعوا الملك منه بعد ستمائة سنه من ملكه، وأقاموا تسعين سنة ثم كرهوا البلد واستوبؤوه فرحلوا عنه إلى الراهبة من طريق الحجاز إلى وادي القرى، فعمروها واتخذوا المنازل والمصانع والقرى ... وعاد ملك مصر إلى أشمون بعد خروجهم من البلد"[2]

وعلى عادة روايات المصادر نجد الخلط بين الأحداث والشخصيات التاريخية وبين الأساطير التي تبدو واضحة في علاقة ملك اليمن بملك الشياطين وزواجه من ابنته وانجاب بلقيس ملكة اليمن المشهورة، وأسطورة سطيح الكاهن الذي لا عظام ولا عصب له والذي عمر ثلاثين قرناً.

والمشكل في مثل هذه الكتابات ان المؤلفين لا يوردونها باعتبارها أساطيراً أو قصصاً لا تحتمل الصدق، بل يضعونها إلى جانب الأحداث التاريخية دون التعليق عليها – إلا قليلاً – فيصبح لها قوة الحدث التاريخي الذي يمكن وقوعه كما عبر ياقوت في النص الذي ذكرناه سابقاً والذي قال فيه أنه "لا يستعظم شيئ مع قدرة الخالق وحيل المخلوق."

ويتضح من كل ذلك أنه ليس كل ما ورد في كتب التراث مفترض صحته، ولا يعني هذا أننا ندير ظهرنا لكل ما ورد أو نقل عن تلك المصادر، بل ينبغي علينا ونحن

---

[1] المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ١٨٢.

[2] المسعودي، أخبار الزمان ج ١ ص ٢٠٦. موقع الوراق.

نتعامل مع تلك المادة أن نكون حذرين وناقدين. أو على الأقل لا نطلق الأحكام على علاتها مستندين إلى تلك المصادر قبل نقدها وتمحيصها.

وليس هذا مجال الحديث عن هذا الموضوع الذي له علمه المؤسس وهو "النقد التاريخي" ولكن الغرض هنا هو لفت انتباه القارئ غير المتخصص إلى ضرورة التعرف على طبيعة تلك المادة الواردة في كتب التراث، وأنه ليس كل ما أتى في تلك المصادر يحتج به ويؤخذ باعتباره حقيقة مسلم بها.

وبالرغم من عدم مصداقية معظم تلك المصادر يوجد من بينها ما هو أكثر مصداقية من غيره، ويتمثل ذلك فيما كتبه الرحالة. فالرحالة يختلفون عن غيرهم من المؤلفين لأن أغلب ما كتبوه أتى عبر ملاحظاتهم المباشرة بدون واسطة رواة. ويبدو معقولاً أن تكون بعض مادتهم مأخوذة عن طريق الرواية ولكن هذه لا تمثل أغلب كتاباتهم، وأن رواتهم عاصروا أو عاشوا في مكان الأحداث التي يروونها، فيكون ما أخذه الرحالة عن طريق الرواية أقرب إلى الصحة من روايات غيرهم.

فابن حوقل و الاصطخري (القرن الثالث الهجري ١٠م) مثلاً كلاهما فارسيان، وكلاهما كتب عن جغرافية العالم الإسلامي، وكلاهما كتب عن مناطق النوبة والبجة . والفرق بينهما أن الاصطخري استقى معلوماته وهو مقيم بالمشرق بخلاف ابن حوقل الذي أبحر في البحر الأحمر وزار بعض مناطقه، وجمع مادته عن المنطقة بطريق مباشر، واعتمد على الروايات في المناطق التي لم يزرها. فجاءت مادة ابن حوقل عن المنطقة – وبخاصة مناطق البجة – أقرب إلى الواقع مما جمعه الاصطخري عن تلك المناطق.

و ابن حوقل بهذه المناسبة من الرحالة المدققين فيما يجمعه من الرواة ويحدثنا عن ذلك قائلاً:

"أني كنت ... كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحي ووكلاء التجار وقراءة الكتب المؤلفة فيها، وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقاً وأخاله بما أسأله عنه

خبيراً عالما فأجد عنده إعادة الخبر الذي اعتقد فيه صدقه، وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه أكثر ذلك باطلاً، وأرى الحاكى بأكثر ما حكاه جاهلاً، ثم أعاوده الخبر الذي ألتمسه منه ... وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك ... وأجمع بينهما وبين حكاية ثالثة بالعدل والسوية فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات."[1]

ولذلك أرى أن ما كتبه ابن حوقل الذي تجول في المنطقة في منتصف القرن الرابع الهجري - وبخاصة عن مناطق البجا - ينبغي أن يؤخذ مأخذ الجد. وبنفس القدر أيضا المعلومات التي نقلها المؤلفون عن ابن سليم الأسواني (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) والذي دخل بلاد النوبة حتى دنقلا . ولا أظن أن المسعودي – الذي زار مصر - والذي كتب في نفس الفترة قد تجول جنوباً كما فعل ابن سليم . أما ناصرو خسرو الذي زار عيذاب قادماً إليها من أسوان ومكث بها ثلاثة أشهر فقد أعطانا فقط وصفاً للطريق الذي سلكه إلى جانب معلومات قليلة عن عيذاب والبجة.

[1] ابن حوقل، كتاب صورة الأرض بيروت: دار مكتبة الحياة ١٩٧٩ ص ٢٨٣.



سكان إفريقيا و الصحراء الكبرى في المصادر العربية

أصل سكان إفريقيا:

نعود الآن إلى المؤلفات العربية المبكرة لنرى ماذا دونت عن سكان إفريقيا وسكان الصحراء الكبرى "البربر". تناولت تلك المصادر سكان إفريقيا من خلال تناولها العام لسكان العالم. ومن المعروف أن المؤلفات العربية المبكرة - فيما يتعلق بسكان العالم - اعتمدت على العهد القديم من الكتاب المقدس. فقد جاء عن تشعب سكان الأرض من أبناء نوح في سفر التكوين ٩: ١٩- ١٨.

"وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً و حاماً و يافث . و حام هو أبو كنعان. وهؤلاء الثلاث هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض" وعن تناسل القبائل والأمم جاء في الإصحاح العاشر: "وهؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم. ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان" سفر التكوين 32:10.

وقد اتفقت المصادر العربية أن سكان العالم كلهم من سلالة نوح. يقول القلقشندي:

" أن الطوفان عمّ جميع الأرض، ولا عبرة بما يذهب إليه الفرس من إنكار الطوفان، ولا بما يذهب إليه بعضهم من تخصيصه بإقليم بابل الذي كان به نوح عليه السلام ... وقع الاتفاق بين النسابين والمؤرخين أن جميع الأمم الموجودة بعد نوح عليه السلام من بنيه دون من كانوا معه في السفينة ... روي أنهم كانوا ثمانين رجلاً، وأنهم كانو من غير عقب."[١]

ويمكن تلخيص مفهوم المؤلفين العرب المبكرين لتكوين شعوب العالم كما ورد عند الطبري و القلقشندي في الآتي:

---

[١] القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص ٢٧. موقع الوراق.



١. أبناء سام: هم العرب والأنباط واليهود والبربر (بعضهم يجعل البربر من أبناء حام)
٢. أبناء يافث وهم شعوب أوربا كلها وباقي الشعوب الآسيوية كلها ما عدا الكنعانيون و الهنود،.
٣. أبناء حام ثلاث هم مصرايم و كنعان و كوش :

أ. مصرايم أبو المصريين، وفي رواية أخرى أن المصريين من العمالقة ابناء عمليق بن لاوز بن سام
ب. كنعان أبو الكنعانيين في منطقة الشام
ت. كوش أبو الهنود والبربر (على بعض الآراء) وكل الشعوب السوداء في إفريقيا مثل فزان والزنج والزغاوة والنوبة والحبش.[1]

وعن أبناء حام ورد الآتي في سفر التكوين ٩: ٢٠- ٢٧.

"وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبوكنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لأخوته. وقال: مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبد لهم. ليفتح الله ليافث فيكن في مساكن سام وليكن كنعان عبد لهم."

وقد ورد ما يلى عند الطبري عن أبناء حام وتكرر في المصادر العربية الأخرى:

"ويزعم أهل التوراة أن ذلك لم يكن إلا دعوة دعاها نوح على ابنه حام وذلك أن نوحا نام فانكشف عن عورته، فرآها حام فلم يغطها ورآها سام ويافث فألقيا عليها ثوبا فواريا عورته. فلما هب من نومته علم ما صنع حام وسام ويافث فقال: ملعون

[1] المصدر السابق ص ٢٧ – ٢٣ والطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ١٥٠.

كنعان بن حام عبيدا يكونون لإخوته. وقال: يبارك الله ربي في سام ويكون حام عبد أخويه. ويقرض الله يافث ويحل في مساكن حام ويكون كنعان عبدا لهم"[1]

ويواصل الطبري في نفس المكان:

"إن نوحاً دعا لسام بأن يكون الأنبياء والرسل من ولده، ودعا ليافث بأن يكون الملوك من ولده، وبدأ بالدعاء ليافث وقدمه في ذلك على سام. ودعا على حام بأن يتغير لونه ويكون ولده عبيداً لولد سام ويافث، قال: وذكر في الكتب أنه رق على حام بعد ذلك فدعا له بأن يرزق الرأفة من إخوته."

وهنالك رواية عربية في هذا الصدد أوردها الصحاري عن ابن الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما رَقَدَ نوحٌ في السفينة انكشفت عورَتُه فنظرَ إليها أهلُ السفينة فاستحبوا أن يَسْتُرُوه ولم يَجترئ عليه أحدٌ بذلك لمكانه من الله عزّ وجلّ، فنظر إليه ابنُه حام فضَحِك ولم يَسْتُره، فلما نظر إليه سام قام وسَتَرَه عليه ثيابه، فأوحى الله إلى نوح بذلك، فقال نوح لحام: يا حام نظرت إلى عُرياناً فلم تَستُرني وقد بدت عورتي إلى الناس؟! كَشَفَ اللهُ عَوْرَتَك وعَوْرَة وَلَدك من بَعْدِك. وجعلهم عُراةً يكونون ما بقى منهم أحد. وأذلهم لوَلَدِ سام، وجعل الله المُلْكَ والنبوة في ولد سام إلى يوم القيامة. فاستجابَ اللهُ له فلم يَجْعَل مِن ولد حام ولا يافث نَبيَّاً، و لا يجعله إلى يوم القيامة."[2]

وتبدو عدم صحة الحديث واضحة لأنه يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم من آيات توضح أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله لكل الأمم باختلاف أعراقهم على مدار تاريخ البشرية، فلم يكن الرسل حكراً على الجنس السامي. فكل سكان البوادي والحضر والغابات والمناطق المجمدة أرسل إليهم رسل من أنفسهم وبلسانهم، يقول الله

---

[1] الطبري، تاريخ ج ١ ص ١٢٥.

[2] الصحاري، *كتاب الأنساب* ج ١ ص ٢٣ موقع الوراق.



سبحانه وتعالى: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} ٣٥:٢٤ و {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه } ٤:١٤.

فأصل سكان إفريقيا جميعاً البيض منهم كما في شمال إفريقيا والسود كما في باقي أنحاء القارة وفقاً لما ورد في الكتاب المقدس ونقلته المصادر العربية ينتسبون إلى حام بن نوح، وقد جعلت رواية أخرى المصريين وسكان شمال إفريقيا (البربر) من أبناء سام. والقبائل المغربية – الأمازيغ والتي عرفت في المصادر العربية باسم البربر – تكتسب أهمية واضحة في هذه الدراسة لما كان لها من دور واضح على الأوضاع السياسية والاقتصادية والسكانية في كل من مصر و السودان . وقد وجدت هذه القبائل قدرا معقولاً من الاهتمام في المصادر العربية.

أصل البربر (الأمازيغ):

اختلف نسابة العرب ومؤرخوهم حول نسب البربر وتعددت آراؤهم، ونرجع فيما يلي إلى ابن حزم وما لخصه و ابن خلدون بهذا الصدد كنماذج لما ورد في المصادر العربية. جاء عند ابن حزم عن نسب البربر ما يلي:

"قال قوم: إنهم من بقايا ولد حام بن نوح - عليه السلام - وادعت طوائف منهم إلى حمير، وبعضهم نسبهم إلى بر بن قيس عيلان. وهذا باطل، لا شك فيه. وما علم النسابون لقيس عيلان ابناً اسمه بر أصلاً. ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن."[1]

وأورد ابن خلدون[2] بعض الآراء المتضاربة في المصادر العربية عن أصل البربر وعلق عليها، نورد من تعليقه ما يلي:

"... فقد اختلف النسابون في ذلك اختلافاً كثيراً ...يقال إن أهل إفريقية قبل البربر من ابناء يافث ... وقال الكلبى إن كتامة و صنهاجة ليستا من قبائل البُربر وإنما هما

[1] ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ج ١ ص ٩٩. موقع الوراق.

[2] العبرج ٢ ص ١٠ و ج ٦ ص ٩٠، ٩٣، ٩٦.

من شعوب اليمانية تركهما افريقش بن صيفي بإفريقية مع من نزل بها من الحامية ..وقال بعضهم إنهم من ولد ابراهيم عليه السلام ..."

"وقيل تَخلّفهم ليقصد البربر ابرهة ذو الهار بالمغرب وهم من لخم و جذام ، كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل وانتشروا في البلاد ..وقيل ... إن النعمان بن حمير بن سبأ كان ملك زمانه في الفترة وأنه استدعى ابناءه وقال لهم أريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمره فراجعوه في ذلك، وعزم عليهم وأنه بعث منهم لمت أبا لمتونة ومسفوا أبا مسوفة ومرطا أبا هسكورة وأصناك أبا صنهاجة ولمط أبا لمطة وايلان ابا هيلانه ..."

"وذكر اخرون منهم الطبري وغيره أن البربر أخلاط من كنعان والعماليق، فلما قتل جالوت تفرقوا في البلاد. وأغزى افريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشأم وأسكنهم افريقية وسماهم بربر ... وقال مالك بن المرحل البربر قبائل شتى من حمير ومضر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا بالشأم ولغطوا فسماهم افريقش البربر لكثرة كلامهم. وسبب خروجهم عند المسعودي والطبري و السهيلى ان افريقش استجاشهم لفتح افريقية وسماهم البربر وينشدون من شعره:

بربرت كنعان لما سقتها ❖ من أراضي الضنك للعيش الخصيب

ومن الواضح أن لغة هذا البيت هي عربية الشمال التي أتى بها القرآن، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن لغة اليمن قبل الإسلام. وكما ذكر جواد على أخرج علماء العربية بعد الإسلام الحميرية واللهجات الجنوبية الأخرى من العربية وقصروا العربية على العربية التي نزل بها القرآن الكريم." وأضاف ناقلاً عن ابن سلام الجمحي صاحب كتاب طبقات الشعراء: "سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير فقال: ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا"[1]

[1] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب ج ١ ص ١٤ و ٣٤.



وقال ابن الكلبى اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشأم فقيل داود بالوحى. قيل ياداود: أخرِج البربر من الشام فانهم جذام الأرض" ويعلق ابن خلدون على ذلك قائلاً:

"البربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام. فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات... وافريقش الذى يزعمون أنه نقلهم ..قد أبطله إمام النسابين والعلماء أبو محمد ابن حزم

ويواصل ابن خلدون: "أما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من حمير ومن كندة ومن العمالقة .... وهذه كلها مزاعم والحق الذى شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب"[1]

ويتضح أن المصادر العربية المبكرة دونت روايات التراث الشعبي التي كانت سائدة في مناطق البربر في ذلك الوقت، ولم تقطع تلك المصادر بصدق أو إنكار أيّ منها بل سجلتها كما هي، وفي بعض الأحيان يرد "والثابت هو أن كذا ..." والأثبات هنا لا يستند إلى دليل قاطع بل يستند إلى رواج وشيوع تلك الرواية. وأغلب ما ورد في المصادر العربية عن أصل البربر لم يرد موثقاً، أي ورد بدون مصادر، لم يشر المؤلفون إلى مصادرهم التي أستندوا إليها، ولم يأتوا بأدلة لما أوردوه عن أصل البربر.

والرواية المشهورة عن أصل البربر هي التي نسبتهم إلى قبيلة حمير العربية. ومن البديهي أن النسب العربي في القرون الهجرية المبكرة كان نسباً عزيزاً يعطي حامله وضعاً مميزاً ومكانة اجتماعية مرموقة بخلاف غير العرب الذين كانوا أعاجم أو موالي. فكل من يريد الابتعاد عن "عجمي أو مولى" بَحَث عن النسب العربي. ولم يكن الانتساب لأي قبيلة عربية بالأمر الصعب بل كان أمراً ميسوراً كما يتضح مما ذكره القلقشندي عن الانتساب للقبيلة:

" قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف أو الموالاة فينسب إليهم... وإذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل قبيلة أخرى جاز أن ينسب إلى قبيلته الأولى، وأن ينسب إلى

[1] العبرج ٦ ص ٩٧.

القبيلة التي دخل فيها"[1] وهكذا فإن رابطة الدم ليست شرطاً في الانتساب إلى القبيلة، بل طرق الانتساب إلى القبيلة متعددة وكلها مقبولة وتكفل للمنتسب كل حقوق أفراد القبيلة الأصليين. من أجل ذلك كثر الانتساب للعرب الذين شجعوا ذلك لما فيه كثرة وغزارة في أعدادهم وقت كانت الكثرة أمراً ضروريًّا.

وإذا كانت المصادر العبرية والعربية المبكرة قد نقلت ما توفر لها من معلومات في تلك الأوقات، فإن الوضع يختلف الآن. ويكفي أن نشير إلى أن أهل الكتاب المقدس أنفسهم يرجعون اليوم في دراساتهم لشعوب العالم إلى نتائج الأبحاث العلمية الحديثة كعلم الأنثروبولوجيا وعلم وصف الشعوب Ethnography وعلم الوراثة Genetics ولا نتصور أن يرجع الباحثون عن أصل الشعب الأيرلندي – مثلا – إلى تناسل أبناء يافث.

فالمعلومات المتعلقة بسكان العالم في الكتاب المقدس والمصادر العربية المبكرة أصبحت جزءاً من تاريخ الفكر في تلك المراحل المبكرة من تاريخ البشرية. وهذه الحقيقة ليست غائبة عن أذهان الذين يستشهدون الآن بتلك الآراء، فهم يعلمون جيداً أن تلك المعلومات لا أهمية لها كمصدر تاريخي ولكنهم يستخدمونها لخدمة القضايا التي يتبنونها ويبحثون عما يساعد على توثيقها.

[1] القلقشندي، قلائد الجمان ص ٢١.



سكان إفريقيا والصحراء الكبرى في غير المصادر العربية

السكان في جنوب إفريقيا وأصل السلالات الإفريقية:

بعد أن استعرضنا ما ورد في المصادر العربية عن أصل سكان إفريقيا و الصحراء الكبرى ننتقل للتعرف بايجاز على ما ورد عن سكان إفريقيا في غير المصادر العربية. فسكان القارة الإفريقية ينتمون إلى السلالة البشرية الأولى التي عمرت الكون. والحديث عن تلك السلالة متشعب ويتطلب الرجوع إلى نظريات ومفاهيم متباينة. ودون التعرض إلى آراء من يقولون بخلق الإنسان أو تطوره نقفذ إلى النتائج وهي ظهور الإنسان في صورته التي عليها الآن وتعميره الأرض. أين نشأ ذلك الإنسان وبدأ حياته؟

يرى العلماء والباحثون في شتى المجالات مثل التاريخ والآثار والأنثروبولوجيا والحفريات Paleontologists - دون الدخول في تفاصيل آرائهم[1] أن أسلاف البشر الحاليين نشأوا منذ زمن موغل في القدم فى منطقة السافنا الإفريقية. ومن أشهر الفرضيات التي وجدت القبول في هذا الصدد فرضيتان هما: فرضية الأصل الافريقي الواحد (Out of Africa Hypothesis) وفرضية التنوع (Multi Regional Hypothesis)

يرى مؤيدوا الفرضية الأولى (الأصل الواحد للإنسان) أن الأبحاث العلمية mtDNA تشير إلى أن الجنس الافريقي هو أصل سكان العالم كله كما يقول عالِمَي الآثار المشهورين ليكي وليفن:

"Of all existing populations, Africans have the deepest genetic routs suggesting that an African population was the source of all other populations"[2]

---

[1] نوقشت هذه الآراء في كتاب معد للنشر – لكاتب هذا المقال – بعنوان *Africa the Mother Continent: An Introduction to its Ancient History.* الكتاب معد للنشر.

[2] Richard Leaky and Levin, *Origins Reconstructed in search of what makes us Humans*.p 220.

وتؤيد الأدلة الآثارية هذه الفرضية فإن أقدم جمجمة ذات ملامح حديثة للإنسان عثر عليها في إفريقيا، تليها في القدم ما عثر عليه في الشرق الأوسط، ثم يلي ذلك ما عثر عليه في أوروبا . وقد استدل العلماء بذلك أن الإنسان ظهر أولاً في إفريقيا ثم انتقل بعد ذلك إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوربا فباقي أنحاء العالم.[1]

والفرضية الثانية عن أصل الإنسان والتي تقول بالتعدد يرى مؤيدوها أن الإنسان الحديث لم يظهر أو يتطور في مكان واحد ثم انتشر في العالم بل يرون أنه تطور في أماكن مختلفة، إلا أنهم يرون أن الإنسان الافريقي القديم Homo Erectus والذي هاجر إلى الأقطار الأخرى هو الأصل الذي تطورت منه سلالات الإنسان الحديث في مختلف أقاليم العالم.[2]

ويلاحظ أن كلا الفرضيتين أرجعتا أصل الإنسان إلى إفريقيا إما بطريق غير مباشر كما يرى أصحاب الفرضية الثانية أو بطريق مباشر كما يرى أصحاب الفرضية الأولى وهي الفرضية التي تسندها الأدلة العلمية الأقوى والتي وجدت القبول من أكثر الباحثين. وبناءً على هذه الفرضية يُعتقد أن البشر جميعهم في كل القارات الأخرى من سلالات الإنسان الأول الذي بدأ حياته في السافنا الإفريقية.

وكان ذلك الإنسان أسمر البشرة Brown وأُطلق عليه اسم " Old Bushman أو San-like man". وقد وجدت الهياكل العظمية لذلك الإنسان على طول منطقة شرق وغرب وشمال افريقية. وأكدت أبحاث ال DNA أن ال San-like man أقدم سلالة بشرية عثر عليها على وجه الأرض[3]

هاتان الفرضيتان ترجع ظهور الإنسان إلى عصور موغلة في القدم، وأنه أخذ وقتاً طويلاً للانتشار في العالم ومع التغيرات المتكررة في المناخ واختلاف البيئات اكتسب

[1] Richard Potts, "Human Evolution" *Encyclopedia Encarta 2000* on line.
[2] Ibid.
[3] John Illiffe (1996), *Africans: the History of a Continent,* Cambridge University Press p 9: Stamlake Samkange (1971), *African Saga: a Brief Introduction to the African History* Nashville: Abingdon p 37.



الإنسان سمات جسمانية ولونية تتناسب مع بيآته فتفرعت الأعراق والألوان. وقد شهد العالم القديم الكثير من التحركات البشرية للتغيرات المتكررة في المناخ وامتزجت الشعوب ببعضها.

ولو قفزنا إلى العصور القريبة نسبياً إلى نحو عشرة ألف سنة، توضح الدراسات الجينية كما يقول إلفي أن السان الحاليين فى جنوب إفريقيا انعزلوا في منطقتهم الحالية منذ نحو عشرة ألف سنة ويضيف أن الأبحاث الجينية أوضحت الآتي:

- أقرب السلالات الآن إلى السان هم سكان شمال شرقي إفريقيا وجزء من شماليها، (ليبيا ومصر والسودان)
- الأقرب إلى السان بعد هولاء هم سكان غرب إفريقيا. ويعبر إلفي عنهم ب (Negroid people) وتعود آثارهم التي وجدت في غرب نيجريا إلى الألف العاشر قبل الميلاد وسكان الصحراء الكبرى الذين تعود آثارهم التي تم العثور عليها إلى ما بين ٦٠٠٠- ٣٠٠٠ ق.م..[1]

وهكذا يتضح أن الإنسان الذي يشبه السان الحاليين – ذا اللون الأسمر – في جنوب إفريقيا، يمثل السلالة الأصلية لسكان إفريقيا الأوائل، ثم تفرعت منهم باقي السلالات. ومع مرور الزمن اكتسبت كل سلالة سماتها اللونية وفقا لبيئتها، فحافظ البعض على لونه الأسمر بينما اكتسب البعض الآخر اللون الأسود وأصبح آخرون أقرب إلى اللون الأبيض مثل سكان شمال إفريقيا الذين اختلطوا بالشعوب الأوربية والآسيوية فاكتسبوا سماتهم الحالية. وبناء عليه فليس هنالك جنس إفريقي واحد، هنالك أجناس إفريقية ذات ألوان مختلفة بين اللونين الأسود والأبيض.

ويرى الباحثون[2] أنه في نحو الألف العاشر قبل الميلاد تطورت الأجناس التالية في إفريقيا:

- المنحدرين من ال Big Bushmen انتشروا على الشريط الممتد بين شرق إفريقيا و الصحراء الكبرى.

[1] John Illiffe, *Africans* p 9.

[2] See S. Samkang, *Africa Saga* p 37.



- الجنس ال Negroid احتل منطقة الغابات ومن سلالته الماندي في غرب إفريقيا ، البانتو في شرق إفريقيا والنيليون في السودان.
- الأقزام Pigmies في الغابات الاستوائية وهم قريبو الشبه بال Negroid

وفي نفس الوقت تعرضت شمال إفريقيا لهجرات من غرب آسيا وجنوب أوربا ، واختلط هؤلاء المهاجرون بسلالات السان القديمة في المنطقة فتشكل بذلك سكان شمال إفريقيا في عصورها التاريخية[1] ولعل نظرة قدماء المصريين تعطينا التصور الأقرب إلى واقع السكان الحاليين. قسم قدماء المصريين الشعوب حولهم إلى:

أ. ذوي اللون الأحمر الداكن وهم المصريون
ب. الجنس الأسود (Nahasi) باقي سكان إفريقيا
ت. الجنس الأصفر (Namou) وهم الآسيويون
ث. الجنس الأبيض (Tamhou) وهم الأوربيون[2]

البربر:

سكان الصحراء خليط من السكان القدماء إذاً فهم عبارة عن السكان الأصليين في إفريقيا والذين عاشوا في المنطقة المعروفة اليوم بالصحراء الكبرى والتي كانت قبل نحو سبعة آلاف سنة منطقة خضراء وغنية بمتطلبات الحياة. وانتشر أسلاف البربر على شواطيء الأنهار والبحيرات ومناطق هطول الأمطار الغزيرة من نهر النيل شرقاً إلى موريتانيا غرباً و البحر المتوسط شمالاً. وقد أوضحت رسوم الصحراء أن سكانها كانوا خليطاً ما بين اللونين الأسود والأبيض.

ومنذ نحو عشرة آلاف سنة وصلت مجموعة بشرية جديدة (القوقازيون) من أوربا و آسيا إلى شمال إفريقيا وانتشرت مجموعة منهم في الصحراء الكبرى فكونوا إلى جانب

[1] M. Desanges, (1981) "The proto-Berbers" in Ki-Zerbo, ed. *General History of Africa Vol. 1, Methodology snd African Pre-history.* Paris: UNESCO *Methodology snd African Pre-history.* Paris: UNESCO, Vol. 1, 1981, p 425

[2] Champollion, quoted by Cheikh Anta Diop, *The African Origin of Civilization: Myth or Reality* Chicago: Review press 1974, p 46-47.

العناصر السابقة لسكان الصحراء ما عرفوا بالبربر.[1] فأصبحوا خليطاً من العناصر البيضاء والسوداء.

فالبربر هم سكان الصحراء الكبرى منذ عصورها القديمة عندما كانت منطقة خصبة ذات أنهار وبحيرات ونسب عالية من المطر وكثافة السكان. وكانت تحركات السكان دائمة ومتواصلة على طول المنطقة الواقعة بين النيل شرقاً دولة موريتانيا غرباً و البحر المتوسط شمالاً وذلك حسب التقلبات المناخية المتكررة بين الجفاف والرطوبة.

ويميل بعض الباحثين إلى أن العنصر الأسود هو الذي كان سائداً في الصحراء الكبرى في تلك الأوقات. وقد وردت الإشارات إلى تواجدهم في شمال إفريقيا حتى العصور التاريخية اللاحقة مثل وجودهم في الجيش الفينيقي. ومثل إشارت ديودورس الصقلي إليهم جنوبي تونس . وقد قسم هوجُت[2] سكان الصحراء حسب أوقات استقرارهم الى ثلاث موجات:

- أقدم موجة استقرت على شاطيء النيل بالقرب من الخرطوم وانتشرت غرباً على سواحل البحيرات وشواطيء الأنهار حتي جنوبي الجزائر ، ولم يتحركوا جنوبا.
- الموجة الثانية هي المجموعة الجنوبية التي انتشرت في الغابات، وقد ساهمت هذه المجموعة في التكوين السكاني للمناطق الجنوبية.
- المجموعة الثالثة تحركت من شمال إفريقيا غرباً حتى أواسط موريتانيا.

وظلت مناطق البربر الواقعة بين نهر النيل شرقاً و المحيط الأطلسي غربا ومن البحر المتوسط شمالاً حتى مشارف أحواض بحيرة تشاد و نهري النيجر و السنغال جنوباً تتمتع بمناخ رطب وثروات وافرة من المياه والحيوان، وطور السكان وسائل حياتهم. وتوضح

[1] M. Desanges (1981) "the Proto-Berbers" in Ki-Zebro ed. *General History of Africa Vol. I* p 425.

[2] H. G. HugotM "The Pre-history of the Sahara" in J. Ke-Zerbo ed. (1981), *General History of Africa Vol. I Methodology snd African Pre-history.* p 596.

الأدلة الأثرية أن سكان هذه المناطق طوراً ثقافات مبكرة سبقت الكثير من الثقافات في مناطق وادي النيل وغرب آسيا.

فقد حسنوا أدوات صيد السمك، وطوروا صناعات الفخار الذي يعتبرون من رواده الأوايل في العالم القديم. كما ساهموا مبكراً في استئناس الحيوان وكانوا من الرواد الأوائل في ممارسة الزراعة حتى أصبحت نشاطهم الرئيس. أدى كل ذلك إلى نمو وتطور المجتمعات المدنية، وازدياد أعداد السكان وتمكنوا بذلك من تطوير حضاراتهم التي وضحت آثارها في تطور الفكر الديني وأساليب التحنيط سابقين بذلك سكان وادي النيل في كل هذه المجالات.[1]

كل هذا حدث قبل عصر الجفاف الذي بدأ تظهر آثاره منذ نحو سبعة ألف سنة وهو الوقت الذي بدأت فيه الهجرات التدريجية لسكان الصحراء، والتي ذهبت معظمها شرقا نحو وادي النيل واتجه بعضها شمالاً نحو المناطق المطيرة في شمال افريقية بينما توجه البعض الآخر نحو الجنوب حيث تتوفر المياه في حوضي نهري السنغال و النيجر وحوض بحيرة تشاد. وينبغي توضيح أن الجفاف كان تدريجياً وكانت الأنهار والبحيرات لا تزال موجودة في كثير من المناطق مثل الواحات المصرية والليبية والسودانية، كما لم يؤد الجفاف بالطبع إلى هجرة كل سكان الصحراء فلا زالت الصحراء رغم ازدياد الجفاف توفر المأوى لكثير من القبائل الصحراوية.

ويرجع أصل تسمية سكان الصحراء بالبربر إلى ما قبل الإسلام، فقد اعتبر اليونانيون والرومان كل الشعوب خارج نطاق ثقافتهم بأنهم شعوباً همجية غير متحضرة. فعلى سبيل المثال أطلق الرومان على القبائل الجرمانية – التى أتت من شمال أوربا وهاجمت الامبراطورية الرمانية – Barberians أي القبائل الهمجية، ونفس الاسم أطلقوه على سكان شمال إفريقيا وبخاصة القبائل البدوية.

[1] Fabrizio Mori, *The Great civilization of the Ancient Sahara* p 45, 52-53, 56, 60, 123, 152-155: J. H. Hugot, *The Pre-history of the Sahara* p 599

ولما أتى العرب المسلمون في بداية انتشار الإسلام وجدوا لفظ Barberians يطلق على أولئك السكان فعربوه إلى كلمة برير. وصارت كلمة برير منذ ذلك الحين علماً على قبائل شمال إفريقيا ما بين نهر النيل و المحيط الأطلسي. وهو نفس التعريب حدث لكلمة Ethiopians (ذوي الوجوه المحروقة) التي كانت تطلق على الشعوب السوداء فعربوها إلى "السودان". وأصبحت كلمة سودان علماً على كل الشعوب السوداء في إفريقيا.

الحاميون:

اتبع بعض الباحثين في العصر الحديث التقسيم العبري القديم للسكان والذي قسم شعوب إفريقيا إلى مجموعتين: السلالة السامية وهم سكان شمال إفريقيا والسلالة الحامية وهم باقي سكان إفريقيا السود، وأطلقوا عليهم السودان. وفي القرن التاسع عشر عندما ازداد احتكاك الاوربيين بالقارة الإفريقية وتعرفوا على الحضارة المصرية بدى لهم أن جذور الحضارة الإنسانية في إفريقيا أقدم جذوراً من أوربا، ولم يتصوروا أن يكون رواد الحضارة الإنسانية الأوائل كانوا من السود.

ولما كانت السلالة الحامية مرتبطة بالجنس الأسود فقد تم فصلها منه وأضيف الحاميون إلى الجنس القوقازي. فأصبح سكان شمال إفريقيا و الصحراء الكبرى حاميين- قوقازيين، وباقي سكان إفريقيا السود زنوجاً. فأصبح سكان إفريقيا ثلاث مجموعات: الساميون والحاميون والزنوج. وصار كل إنجاز حضاري في إفريقيا مرتبطاً بالعنصرين السامي والحامي ولا صلة للسود بأي تراث حضاري.

وقد اهتم الباحثون الغربيون – مثل أوريك بيتس- بدراسة السلالة الحامية وتوصيفها. فهو يرى أن الحاميين الأصليين الأنقياء يوجدون وسط البربر. وقد وصف بيتس الشخص الحامي الأصلي بسمات هي نفسها تقريباً سمات الساميين مثل: طول القامة، الرشاقة، طول الأطراف، اللّون الأسمر، الشعره الأسود أو dark brown, strait or wavy الأنف المستقيم أو المعقوف، العيون السوداء الحادة النظرات، الفم،

الوجه، الحركة البطيئة الوقورة. وقد اختلط الحاميون مع الزنوج في إفريقيا وتكون منهم عنصر اكتسب سمات الجنسين."[1]

ومن الواضح جداً أن هذه السمات تشبه إلى درجة كبيرة السمات العربية، ومن هنا يأتي الالتباس. فأي شخص يتسم بهذه الصفات ويتحدث العربية في إفريقيا هو في حكمنا العام عربي، وهذا خطأ. فالحاميون أفارقة أصليون يتحدثون حالياً عدداً من اللغات الحامية ويتحدث بعضهم العربية وبعضهم يتحدث الفرنسية والبعض الآخر يتحدث الانجليزية. فاللغة هنا لا علاقة لها بالجنس.

ويقول أوريك بيتس[2] أن سكان شمال وشرق وغرب إفريقيا الحاليين ينتمون إلى الجنس الحامي الحديث ويقسمهم كالآتي:

١. حاميو الكناري في جزر المحيط الأطلسي، انقرضوا أو انصهروا مع الأجناس الأوربية الحديثة.
٢. حاميو الأطلسي يوجدون في المملكة المغربية وموريتانيا اندمجوا إلى حد ما بالعناصر الزنجية، وفي الشمال تأثروا أيضا ببعض العناصر الأوربية.
٣. حاميو البحر الأبيض المتوسط في شمال إفريقيا، اختلطوا بعناصر متعددة أوربية وآسيوية.
٤. حاميو الصحراء يتواجدون في جنوبي الجزائر و ليبيا و شمإلى مالي و النيجر ونيجريا .
٥. حاميون أطلق عليهم بيتس *Peulhs* وهم جنس خليط من البربر والزنوج والعرب، تمتد مناطقهم من السنغال غربا حتى جنوب دارفور شرقاً.
٦. التبو حاميون داكنو اللون تكونوا نتيجة الاختلاط بين حاميو الصحراء وزنوج السودان، وتمتد منطقتهم ما بين جنوب ليبيا حتى منطقة بحيرة تشاد.

---

[1] Oric Bates, *The Eastern Lybians,* London: 1970, p 40.
[2] Ibid. p 44- 45.

٧. حاميو مصر تعرضوا للاختلاط منذ زمن بعيد ، ويحملون سمات حامي الصحراء والنيليين السودانيين والعرب.
٨. النوبيون *Nubas* مثل حاميو التبو ربما بتأثير زنجي أكبر، ويمتدون من منطقة النوبة في شمالي السودان حتى دارفور وجنوب كردفان جنوباً.
٩. البجة *Begas* خليط من التبو والنوبة والعرب ويمتدون من شرق السودان إلى شمال كردفان.
١٠. Abyssinians مثل البجة مع تأثير زنجي في منطقة ارتريا.
١١. الدناقل شمالي الصومال يشبهون الابسينيان Abyssinians مع تأثير عربي أعلى.
١٢. الصوماليون مثل الدناقل مع تأثير زنجى أكبر.
١٣. الجالا مثل الصوماليين مع تأثير عربي أقل، يتواجدون في اثيوبيا وجنوب الصومال.
١٤. الماساي سمات زنجية أعلى ربما بتأثير حامي وعربي بسيطين. لا يزال الشك يدور حول اثنولوجيا الماساي.

فالعنصر الحامي الأسمر كما هو واضح هو العنصر السائد والغالب على السكان في إفريقيا. فهم السكان الأصليون لكل منطقة السافنا بين السنغال في الغرب واثيوبيا في الشرق - بما في ذلك سكان غرب ووسط وشمال وشرق السودان - وسكان الصحراء وشرق إفريقيا ، فسكان كل هذه المناطق أفارقة أصليون.

وأغلب لغات هؤلاء الأفارقة السمر في السودان لا تزال مستخدمة بينما انقرض بعضها ، وأصبحت اللغة العربية – لغة القرآن - هي اللغة السائدة بين أولئك الأفارقة. فليس كل متحدثي اللغة العربية في السودان عرباً ، ومن الخطأ جعل اللغة العربية معياراً لتصنيف سكان السودان إلى عرب وأفارقة. فاللغات بعد انتشار اللغة العربية

كلغة القرآن واللغات الانجليزية والفرنسية والاسبانية والبرتقالية منذ عصر التوسع الاستعماري لم تعد مقياساً لتصنيف الشعوب، إذ أصبحت هذه اللغات لغاتاً عالمية لم تعد مقيدة بحدود سياسية أو عرقية.

الفصل الثاني

الهجرات العربية إلى إفريقيا قبل الإسلام

- بعض ما ورد في المصادر اليونانية والرومانية
- بعض ما ورد في المصادر العربية المبكرة
- بعض ما ورد في المؤلفات الحديثة
- الصلات عبر البحر الأحمر
- الصلات عبر صحراء سينا

بعض ماورد في المصادر اليونانية والرومانية

وردت إشـارات في المصـادر اليونانيـة والرومانيـة إلى العـرب، وأشـارت بعـض تلـك المصادر إلى صلات قديمة بين بـلاد العـرب ومصـر، ونـود الرجـوع هنـا إلى مـا رواه بليني وديـودورس عـن الأصـول الاثيوبيـة للأسـرة الأولى في مصـر وربـط تلـك الأصـول بشـبه الجزيرة العربية. فقد نقل أحمد الحفناوي ما رواه ديودورس الصقلي:

"أن المصريين القدماء أتوا من بلاد العرب الجنوبية ونزلوا شواطئ اثيوبيا ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر وأن الأثيـوبيين ليقصـد السـودا يقولـون أن مصـر مسـتعمرة من مستعمراتنا على اعتبار أن سكانها القدماء جاءوا إليها منهم."[١]

والمصـريون القـدماء في الـنص المقصـود بهـم أولئـك الـذين تمـت علـى أيـديهم وحـدة مملكتي الوجه البحري والجه القبلي (الصـعيد) وبـدأ بـذلك عصـر الأسـرات الفرعونيـة الذي بدأت به الحضارة المصرية. وقد وردت نفس الرواية عند بليني.[٢]

وربط المؤرخون هذه الرواية بالرأي الذي يقول بـأن عصـر الأسـرات المصـري أسسـه غزاة وفدوا لمصر من شبه جزيرة العرب وليسوا من سـكان مصـر الأصليين. وأن أولئـك الغزاة خاضوا معركة ضد المصريين وهزموهم، ووحدوا شطري مصر – الوجه البحري والوجه القبلي - في مملكة واحدة وأسسوا الأسرة الأولى.

---

[١] أحمد الحفناوي سودان وردي النيل في ظل الإسلام القاهرة: دار المعارف ١٩٨٢ ص ٤٧ و

[2] H. A. Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan* 2nd ed. London 1967 p 4

وقد بنى مؤيدوا هذه الفرضية حججهم على ما عثروا عليه من نقش على مقبض سكين عاجي يرجع تاريخها إلى ما قبل وحدة مملكتي الوجه البحري والقبلي وبداية عصر الأسرات. ويوضح النقش على إحدى جانبي المقبض فئتين تتحاربان وتحتهما بعض السفن وبعض القتلى الغرقى. وعلى الجانب الآخر من مقبض السكين رجل يرتدي زي شبيه بزي سكان بلاد ما بين النهرين (العراق) يصارع أسدين وتحت ذلك بعض الحيوانات.

ومؤيدو فرضية الغزو الخارجي – وهم من الباحثين القدماء في الحضارة المصرية - يرون أن الرسم على مقبض السكين يشبه رسوم بلاد ما بين النهرين، وأن زي الرجل الملتحي والذي يرتدي ثوباً ثقيلاً يتلاءم مع مناخ المناطق الباردة وغير مستعمل في مصر. كما وأن الأسدين بشعرهما الكثيف لا يشبهان الأسود الإفريقية بل يشبهان أسود المناطق الباردة. وكذلك فإن بعض السفن ليست مصرية بل تشبه سفن بلاد ما بين النهرين. ولذلك افترض أولئك الباحثون أن مصدر هذه الرسوم منطقة "عيلام" التي تقع شرقي بلاد ما بين النهرين.[1]

ومن المعروف أن شعوب منطقة الخليج العربي جنوبي العراق(مثل السومريين والبابليين والفرس) ساهموا في تطور الملاحة، وكان نشاطهم التجاري واسعاً في المحيط الهندي منذ العصور القديمة، وليس من المستبعد أن تكون جماعات منهم قد مارست نشاطها التجاري على سواحل البحر الأحمر وربما استقرت مجموعات منهم في بعض المراكز التجارية على سواحل البحر الأحمر. إلا أن ذلك النشاط التجاري -

[1] Flinders Petrie, *The Making of Egypt* London: 1939 p 65 – 77.

ويرى الباحثون - لم يتم في تلك الفترة المبكرة بل حدث بعد قرون من بداية عصر الأسرات.[1]

وعلى كل الأحوال فإن افتراض توحيد المملكتين المصريتين عن طريق غزاة أجانب من البحر الأحمر واجه نقداً مركزاً من الباحثين الحديثين. فقد وُجدت في الفن المصري المعاصر القديم قبل عصر الأسرات نقوش أبطال يصارعون الأسود، وأن شكل هذه الأسود ذوات الشعر الطويل على مقبض السكين موجودة في إفريقيا. وأن كل أشكال السفن والمحاربين مصريين ليس بينهم سفينة أو جنس غير مصري. والرداء الكثيف واللحية تشبه زي بعض القبائل الليبية ذات الصلاة القديمة بمصر.

ولذلك فقد استُبعدت فرضية الغزاة الأجانب من الفرضيات التي طرحت لتفسير قيام الحضارة المصرية.[2] هذا مع ملاحظة أن أولئك الغزاة قد افتُرِض حضورهم من عيلام من منطقة إيران الحالية وليس من شبه الجزيرة العربية أي ليسوا من السلالة السامية. فلا صلة للجنس العربي بهذه الفرضية. وبناءً عليه لا صلة للعرب بقدماء المصريين وقيام عصر الأسرات.

أما ما ورد في النص عن رأي الأثيوبيين في أصل سكان مصر والذي يقول:

"وأن الأثيوبيين [أي السود، ويريد هنا السودان الحالي] يقولون أن مصر مستعمرة من مستعمراتنا على اعتبار أن سكانها القدماء جاءوا إليها منهم" فهو رأي مشهور بين الباحثين الذين يرون أن سكان مصر في الأساس نزحوا من جنوب الوادي.

[1] عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم: مصر والعراق. ج ١ ص ٧٣

[2] المرجع السابق ج ١ ص ٧٣- ٧٥ Michael A. Hoffman, *Egypt before the Pharaohs* University of Texas Press 1991 p 342

وأورد الباحثون الكثير من الأدلة على ذلك ليس من ناحية عرقية فقط بل كذلك من ناحية حضارية. فتوحيد شطري مصر وبداية عصر الأسرات والحضار الفرعونية بدأت في الأساس – كما يرى بعض الباحثين - في منطقة وادي حلفا الحالية ثم اتجهت شمالاً، وقد اثبتت الأدلة الآثارية أن ثقافات وحضارات ما قبل عصر الأسرات في السودان أقدم منها في مصر.[1]

ولذلك فرواية ديودورس والتي سجلها بعد نحو ثلاثة ألف سنة من قيام عصر الأسرات ربما عكست ما كان يتردد عن الجذور الأثيوبية لمؤسسي عصر الأسرات الأوائل. وربما أدت قوة العلاقات بين اليمن و الحبشة في القرون السابقة للميلاد، وهجرة جماعات عربية كبيرة في تلك الأوقات إلى الحبشة أدت إلى محاولة ربط أصول مؤسسي عصر الأسرات المصريين بالهجرات العربية التي دخلت الحبشة.

وهنالك نص آخر تواتر ذكره في المؤلفات العربية الحديثة ويُروى عن سترابو وبليني (القرن الميلادي الأول) ذكرا فيه: " أن العرب تكاثروا في أيامهما على العدوة الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في أعلى الصعيد، وأصبح نصف سكان قفط منهم وكان لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر والنيل"[2]

---

[1] لعل من المراجع الهامة في هذا الموضع كتابات شيخ انتا ديوب باللغة الأنجليزية مثل:
The African Origin of Civilization: Myth or Reality. Chicago:1974; "Origin of Ancient Egyptians" iMokhtar ed. *Genral History of Africa Vol II Ancient Civilization of Africa* UNESCO 1981.
نوقش هذا الموضوع أيضا في كتاب معد للنشر لكاتب هذا الموضوع بعنوان
Africa, the Mother continent: An Introduxtion to its Ancient History

[2] انظرعبد المجيد عابدين، في تحقيقيه لكتاب: المقريزي، *البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب*: مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩ ص ٨٩

وقد ناقشنا في الفصل الأول مدلول كلمة عرب قبل الإسلام وخلصنا إلى أن هذا اللفظ لم يكن يطلق على جنس بعينه بل كان يطلق على كل البدو (الساميين) سكان الصحراء الشمالية لشبه الجزيرة العربية. واستخدم الكتاب اليونانيون والرومان لفظ عرب بنفس هذا المفهوم. فعندما أطلق هيرودوت مثلاً على سلسلة جبال البحر الأحمر المصرية "سلسلة الجبال العربية"[1] لم يكن يقصد بالعربية هنا الجنس الذي عرف فيما بعد بهذا الاسم أو يقصد به الجزيرة العربية بل قُصد به سلسلة الجبال في أرض البدو.

فتكاثر العرب هنا قصد به تكاثر الجماعات البدوية سواء العناصر البدوية المصرية التي كانت تتجول في الصحراء الشرقية أو ربما حدث التكاثر عن طريق وصول هجرات بدوية عبر سينا. وربما كان الوافدون أنباطاً والذين قال عبد المجيد عابدين عنهم "بالرغم من حديث مؤرخي العرب الأوائل من أن لفظ نبطي يدل على الذم وأنهم من غير العرب وأن لغتهم فاسدة تشبه الرطانة ... إلا أن العلماء أثبتوا عروبتهم"[2]

والملاحظ أن كتب النسب العربية المبكرة لم تتناول النبط من بين القبائل العربية، بل لم تتعرض لهم في رصدها لكل أنساب قبائل العرب. وقد عثرت بعد كثير من البحث في كتب الأنساب والتاريخ على نصين فقط ذكر المغيري أحدهما جاء فيه:" وأما نبيط فمن ولد نبط بن ساش بن آدم بن سام بن نوح."[3] والنص الثاني ذكره الصحاري وهو عبارة عن محادثة تمت بين خالد بن الوليد - عند بداية فتح العراق - وأحد مواطني جنوبي العراق جاء فيها الآتي:

---

[1] *The History of Herodotus,* Robert p. Gwinn Publishers 2nd ed. 1990 p 50

[2] عبد المجيد عابدين، المرجع السابق ص ٨٤

[3] المغيري، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب. موقع الوراق http://www.alwarraq.com



" فقال له خالد: من أين أقبلت؟ قال: من ورائي. قال له: وأين تريد؟ قال: أمامي. قال له: فمن أين أقص أثرك؟ قال: من صلب أبي. قال له: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي. قال له: فعلى ما أنت. قال: على الأرض. قال له: وفيم أنت؟ قال: في ثيابي. قال له: أتعقل إذا عقلت؟ قال: والله اني أقيد. قال له: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل وامرأة. قال له: ما سنك؟ قال: عظم. قال له: ما تزدني في مسألتك الا عمى. قال: ما أجبتك الا عن مسألتك. قال له: أعرب أنت، أو نبط؟ قال: عرب استنبطنا ونبط استعربنا."[١]

ورغم أن النص يوحي بأنه موضوع ومنسوب إلى خالد، ولكنه يحمل حقيقة أن العرب لم يكونوا يعتبرون الأنباط عرباً، وإلا لما سأله خالد: أعرب أنت أم نبط؟ فميز خالد بين العرب والنبط. فالأنباط أمة سامية مثلهم مثل العبرانيين والحبش والعرب وغيرهم ولكنهم ليسوا عرباً كما يدل النص أعلاه.

وكانت لهم دولة قوية جنوبي سوريا، وعاصمتم البتراء مشهورة في التاريخ. وكان الأنباط سادة النشاط التجاري في مناطق البحر الأحمر و مصر و الشام في القرون الأخيرة التي سبقت ميلاد المسيح وحتى القرن الميلادي الأول. والأنباط أبالة تجولوا في صحراء مصر الشرقية في خدمة التجارة، وكانوا يستخدمون الطرق الرومانية المحصنة والمحروسة، وكانت لهم معابد ومراكز ينزلون بها وقد امتد نشاط قوافلهم التجارية غرباً حتى منطقة ليبيا الحالية.[٢]

ويبدو منطقيّاً أن تكون إشارة بليني وسترابو راجعةً إلى هؤلاء البدو، لأن لفظ عرب كانت تعني البدو. وسكان شبه الجزيرة العربية من غير البدو في ذلك الوقت كانوا يعرفون بأسما ممالكهم أو مناطقهم مثل الحميرين أو السبايين أو الغساسنة.

---

[١] الصحاري، *كتاب الأنساب* (موقع الوراق)

[٢] نفسه ص ٨٢- ٨٣.



وقد استند محمد صالح ضرار في رأيه الذي يجعل البجة عربيا على ما نقل عن سترابو من "أن العرب كانوا يسكنون الطرف الغربي من البحر الأحمر مابين مصر والحبشة"[1] وأن البجة تكونوا نتيجة لمثل تلك الهجرات العربية. ومن الواضح أن ضرار بنى حكماً على فرضية أن العرب في النص مقصود بهم الجنس العربي، وهذا خطأ. فالعرب هنا مراد بها جماعات بدوية سواءً كانوا ساميين مثل الأنباط والعبرانيين أو غير ساميين مثل البدو المصريين.

بعض ما ورد في المصادر العربية المبكرة

المادة التي وردت في المصادر العربية المبكرة عن العلاقات بين العرب و إفريقيا قبل الإسلام ارتبطت بهجرات أو غزو ملوك اليمن إفريقيا وتكوينها للقبائل البربرية في شمال إفريقيا والصحراء الكبري. وتلك المادة عبارة عن نصوص تناقلتها أغلب المصادر بروايات متفقة أحيانا ومختلفة أحياناً أخرى.

وقد تعرضنا لها في الفصل الأول، وخلصنا إلى أنها عبارة عن قصص بطولات وأساطير وليست تاريخاً. ونتعرض هذا لبعض النصوص التي ورت في المصادر العربية عن حروب ملوك اليمن الذين ارتبط تعريب إفريقيا و السودان قبل الإسلام بحروبهم. أورد ابن خلدون في هذا الصدد:

"كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب وأن أفريقش بن قيس بن صيفي من أعاظم ملوكهم الأُوَل، وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا أفريقية وأثخن في البربر وأنه الذي سماهم بهذا الاسم . وذكر المسعودي أيضا أن ذا الاذعار من ملوكهم قبل أفريقش وكان على عهد سليمان (عليه السلام)

[1] محمد صالح ضرار، تاريخ شرق السودان: ممالك البجة قبائلها وتاريخها. القاهرة دار الاتحاد العربي للطباعة ١٩٦٢، ج١ ص ٣٤.

غزا المغرب ودوخه. وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب ولم بجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع. وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب"[1]

وأضاف ابن خلدون في مكان آخر:

"وملك الحرث الرائش فيما قالوا مائة وخمساً وعشرين سنة ... ثم ملك بعده ابنه أبرهة ذو المنار مائة وثمانين سنة... ثم ملك من بعده أفريقش بن أبرهة مائة وستين سنة ... وقال ابن حزم هو افريقش بن قيس بن صيفي أخو الحرث الرائش وهو الذى ذهب بقبائل العرب إلى افريقية وبه سميت، وساق البربر إليها من أرض كنعان، مر بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم فاحتمل الفل منهم وساقهم إلى افريقية فأنزلهم بها وقتل ملكها جرجير. ويقال انه الذى سمى البرابرة بهذا الاسم لانه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة. والبربرة في لغة العرب هي اختلاط أصوات غير مفهومة ومنه بربرة الاسد. ولما رجع من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة و كتامة فهم إلى الآن بها."[2]

وقد ناقشنا في الفصل الأول ضعف مثل هذه الروايات وعدم مصداقيتها وأوردنا حكم ابن خلدون عليها والذي جاء فيه:

"ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب، وأنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب ... ... ومن هذا ذهب الطبري و الجرجاني و المسعودي و ابن الكلبي إلى أن صنهاجة و كتامة من حمير وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح...

---

[1] ابن خلدون، العبر ج ١ ص ١٢.

[2] نفس المصدر ج ١ ص ٥١.

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة."[١]

وبالإضافة إلى ذلك نلاحظ الآتي على هذه النصوص:

i. يسيطر على هذه النصوص الطابع الأسطوري الذي يضفي البطولات المبالغ فيها على تلك الشخصيات وأعمالها، فقد ورد على سبيل المثال أن تبع الأول حكم أربعمائة سنة. وأن اليمنيين تركوا بعض قبائلهم في المناطق التي غزوها مثل الصين حيث أثرت تلك القبائل على سكانها، كما جعلت بقايا تلك القبائل سكان التبت عربا. ويبدو أن طابع البطولات هذه أتى نتيجة المنافسة بين عرب الشمال وعرب الجنوب الذي اشتدت حدته بعد الإسلام، ولذلك كان أغلب رواة تاريخ العرب قبل الإسلام ينتمون إلى القبائل اليمنية. وقد أثرت تلك المنافسات تأثيراً مباشراً غلى الأوضاع السياسية للخلافة خاصة فى العصر الأموي وبدايت العصر العباسي. وتراوحت حدة تلك المنافسات ما بين الحروب إلى المناظرات.

وقد أورد المسعودي مثالاً لمناظرة حدثت في بلاط أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح بين قحطاني ونزاري أي عدناني جاء فيها:

"وقد فخر بعض أولاد قحطان في مجلس السفاح بمناقب قَحْطَان من حمير وكهلان على ولد نزار. و خالد بن صفوان وغيره من نزار بن معد منصتون هيبة للسفاح؛ لأن أخواله من قحطان. فقال السفاح لخالد بن صفوان: ألا تنطق وقد غمرتكم قحطان بشرفها وعلت عليكم بقديم مناقبها؟ فقال خالد: ماذا أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغ جلد، أو ناسج برد، أو سائس قرد، أو راكب عَرْد، أغرقتهم فأرة، وملكتهم امرأة، ودل عليهم هدهد، ثم من مر في ذمهم إلى أن

---

[١] *نفس المصدر* ج ١ ص ١٢.

انتهى إلى ما كان من قصتهم وتملك الحبشة وما كان من استنقاذ الفرس إياهم."[1]

ii. تاريخ اليمن الجنوبي أغلبه مدون في الآثار التي خلفتها ممالك اليمن ولا يوجد ما يشير في تلك الآثار إلى أن ملوك اليمن ملكوا ما بين المغرب وشرق أوربا شرقاً حتى الصين غرباً. وفي ذات الوقت لم يرد في آثار تلك النماطق التي ورد أن ملوك اليمن غزوها مثل الإمبراطوريات الفارسية والصينة والرومانية الشرقية (الروم) أي إشارة لتلك الغزوات مما يؤكد عدم حدوثها على الإطلاق. ويرى المؤرخون أن تبع المذكور في نص ابن خلدون والذي أوردت المصادر العربية أخبار فتوحاته ما بين الصين وجنوب أوربا الذي أوردت المصادر العربية أخبار فتوحاته ما بين الصين وجنوب أوربا هو الملك الحميري " شمر يعنهم ١١٥- ٣٤٥م". وأن الآثار التي ترجع إلى عصره توضح حروبه جنوبي اليمن وليس هنالك أي إشارة إلى حروبه خارج تلك المناطق

iii. ورد في النص أن الملك افريقش كان على عهد النبي موسى عليه السلام أو قبله بقليل، ويلي ذلك مباشرة أن الملك ذا الأزعار حكم قبل افريقش وكان على عهد النبي سليمان عليه السلام. ومن المعروف أن سليمان أتى بعد عدة قرون من عهد موسى، فقد خرج بنو اسرائيل من مصر بقيادة موسى، ثم استقروا في فلسطين وأسسوا دولهم التي كانت من بينها مملكة سليمان. وقد جعل النص حكم ذا الازعار قبل افريقش بينما جُعل افريقش في زمن موسى أو قبله بقليل.

iv. جاء في النص الثاني ما يوضح أن الحرث الرائش جد افريفش، بينما ورد في النص الثالث أن افريقش أخو الحرث الرايش.

مثل هذا التضارب في النصوص، وطابعها الأسطوري، وعدم مطابقة معظمها للوقائع التاريخية المدونة يؤكد حكم ابن خلدون كما عبّر بأنها " أشبه بأحاديث القصص الموضوعة" ويجعلنا حذرين من الاستدلال بها. ورغم ما رأينا من عدم مصداقية هذه

[1] المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ٢٧١.

النصوص، فإنني لم أعثر فيها على ما يشير إلى دخول أية قبيلة عربية إلى السودان قبل الإسلام، والذي ورد فقط هو ما ذكر عن انتساب البجة و النوبة و الزغاوة و الزنج والحبش وغيرهم من أجناس السودان إلى حام بن نوخ.

بعض ما ورد في المؤلفات الحديثة:

يلاحظ على الكتاب فى العصر الحديث أنهم عمموا استخدام كلمة عرب وأطلقوها – قبل الإسلام – خطأً على الجماعات السامية من سكان شمال شبه الجزيرة العربية و الشام الذين كانت لهم صلات قديمة بإفريقيا. فكلمة "عرب" كانت تطلق علي كل القبائل البدوية في تلك المناطق.

ولذلك فاطلاق لفظ العرب من قبل الكتاب في العصر الحديث علي تحركات الشعوب البدوية أو غير العربية في المنطقة قبل الإسلام إطلاق غير دقيق، ولا يحمل أى معنىً واضحاً بل يؤدي إلى الخلط وطمس الحقائق. مثل نص عبد المجيد عابدين الذي أشرنا إليه سابقاً والذي جاء فيه:

"بالرغم من حديث مؤرخي العرب الأوائل من أن لفظ نبطي يدل على الذم وأنهم من غير العرب وأن لغتهم فاسدة تشبه الرطانة ... إلا أن العلماء أثبتوا عروبتهم."[1] بالطبع لم يوضح الكاتب كيف أثبت العلماء عروبة قومٍ في وقتٍ لم يكن لمدلول كلمة العرب أي مفهوم قومي بل كانت تعني البدو، فهل قصد المؤلف أن العلماء اثبتوا بداوة الأنباط؟

وأعتقد أن كثيراً من الكتاب الذين استخدموا لفظ "العرب" للدلالة على تحركات كل السلالات السامية قبل الإسلام يدركون أن استخدامهم خطأ،

---

[1] عبد المجيد عابدين، في كتاب البيان والاعراب ص ٨٤

ولكنهم يتعمدون ذلك الخطأ للاستدلال به على أحكامهم المسبقة. ويمكن إلقاء نظرة سريعة على المادة التي وردت في بعض المؤلفات الحديثة عن العرب بصورة عامة بتناول بعض النماذج التي وردت عن صلاتهم بإفريقيا للتجارة أو الغزو أو الهجرة أولاً عبر البحر الأحمر ثم ثانياً عبرصحراء سينا.

أولاً: الصلات عبر البحر الأحمر

تمثلت المادة التي وردت تحت هذا القسم في الصلات الطبيعية عبر البحر الأحمر بصورة عامة، والصلات بين الساحل اليمني و الساحل الإفريقي بصورة خاصة. ولعل في عبارات شوقي الجمل تحت عنوان: العرب وبلاد السودان قبل الإسلام خير مثال لما ورد عن الصلات الطبيعية عبر البحر الأحمر حيث قال:

"البحر الأحمر بحر هادئ ضيق . ولما كانت الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية فقيرة وطاردة فقد امتد نشاط العرب الى سواحل البحر الأحمر السودانية واستقر كثير من سكانها بالنوبة الشمالية واشتغلوا كوسطاء في التجارة أو في مناجم الذهب واختلط العرب المهاجرون بالسكان الأصليين وأثروا فيهم وتأثروا بهم."[1]

وأود أن أبدا بالملاحظة التالية عن سواحل البحر الأحمر:

سواحل البحر الأحمر السودانية أيضا فقيرة وغير جاذبة مثل سواحله العربية المواجهة للسودان. وربما لهذا السبب لم يجعل شوقي استقرار العرب الذين قال انهم عبروا البحر الأحمر على الساحل مخالفاً بذلك أغلب الروايات التي تجعل الاستقرار في بلاد البجة أو صحراء مصر الشرقية. وجعل شوقي استقرار الهجرات في بلاد النوبة التي تفصلها مناطق صحراوية قاحلة طاردة.

---

[1] شوقي الجمل، *تاريخ سودان وادي النيل* القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩ ج ٢ ص ٢٢٩- ٢٣٠.

ولم يوضح د.شوقي كيف تم الانتقال من سواحل البحر الأحمر السودانية إلى بلاد النوبة. وبين أن المهاجرين اشتغلوا في معادن الذهب، وهذا ما لم أعثر عليه في المصادر التي تناولت تاريخ مصر قبل الإسلام. واشتغال العرب بالتعدين في مناطق وادي العلاقي تم – كما في المصادر العربية المبكرة – بعد الإسلام. ولعل استاذنا دكتور شوقي قدم هذا الافترض لانهم – كما يرى – أتوا عن الطرق التي تمر بمناطق تلك المعادن.

وإلى جانب فقر سواحل البحر الأحمر السودانية فمناطق الداخل القريبة من الساحل فقيرة أيضا ولا تساعد في تزويد الساحل باحتياجاته، ولذلك لم تشتهر الكثير من الموانى والمراكز التجارية على طول سواحل البحر الأحمر الغربية، فلم يزد عدد الموانى والمراكز التجارية الهامة - في عصر واحد - على طول سواحل البحر الأحمر الغربية أصابع اليد الواحدة.

وإذا نظرنا إلى سواحل شرق افرقيا الواقعة على المحيط الهندي نجد أن العرب قد انشأوا المراكز التجارية. وأسسوا الممالك قبل الإسلام في مناطق كينيا و تنزانيا الحاليتين وتركوا بصماتهم الواضحة عليها. وبالطبع فإن تأثيرهم السابق للاسلام على الحبشة غني عن البيان. ولذلك لا وجه للمقارنة بين نشاط العرب على ساحل شرق افرقيا والحبشة وأنشطتهم على سواحل البحرالأحمر السودانية. إذ لا توجد آثار للعرب على سواحل البحر الأحمر السودانية قبل الإسلام مثل آثارهم في الحبشة وشرقي إفريقيا.

ولا يرجع السبب في اتصال واستيطان العرب سواحل شرق إفريقيا إلى امكانية توافر السلع التجارية في دواخل تلك المناطق أكثر منها في الدواخل السودانية بقدر ما يرجع إلى طبيعة المناطق الساحلية والداخلية وما تتميز به من موارد تجعل الاستقرار والاتصال بالداخل سهلاً.

فسواحل البحر الأحمر السودانية ساهمت بسلعها في تجارة المنطقة، وكانت أغلب تلك السلع تأتي من أعإلى النيل الأزرق ومناطق نهر عطبرة و القاش و خور بركة وامتداداته شرقا، أي أن أغلب سلع تلك الموانى كانت تأتي من داخل حدود السودان و أرتريا . فالسلع كانت متوفرة وكانت تصل بانتظام إلى سواحل البحر الأحمر إما عن طريق التجار المحليين أو عن طريق التجار العرب والمصريين والهنود وغيرهم.

فالعرب عبروا البحر الأحمر وقامت موانى هنا وهناك على سواحل الغربية من أقدم العصور، وساهمت تلك الموانى في خدمة التجارة العالمية. ولكن لم تتكون مستوطنات أو ممالك عربية أو مراكز تجارية كثيرة علي سواحل البحر الأحمر السودانية مثل تلك التى قامت على سواحل شرق افريقيا.

وقد جاء في أغلب المؤلفات الحديثة أن الصلات بين العرب والسودان قبل الإسلام تم أغلبها عن طريق العبور من سواحل اليمن إلى الحبشة أولاً ثم إلى السودان، إما عبر تحركات سلمية من أجل الاستقرار والتجارة، أو تحركات من أجل الغزو. وبالطبع فقد سهل مضيق باب المندب العبور بين ساحلي البحر الأحمر.

ويمكن النظر إلى عاملين أثراً على طبيعة تحرك سكان جنوب شبه الجزيرة العربية أولهما: أن جنوب شبه الجزيرة العربية غني بموارده المائية والزراعية إذا ما قيس بمناطقها الوسطى أوالشمالية، ثانياً: ارتبط سكان جنوب شبه الجزيرة ارتباطاً قوياً بالنشاط التجاري في المحيط الهندي و البحر الأحمر.

هذين العاملين جعلا ارتباط اليمنيين ببلادهم قوياً ولم يكن البحث عن المهاجر البديلة على سواحل البحر الأحمر أولوية في كل الأحوال. فقد أسس عرب الجنوب المراكز التجارية وكانت لهم جاليات في مناطق كثيرة على سواحل المحيط الهندي، ورغم ذلك كان ارتباطهم بالوطن الأم كان قويا.

ويعني هذا أن النشاط التجاري لليمنيين لم يكن وسيله للهجرة بل كان عاملا لانتعاش سواحلهم التي كانت توفر سبل الحياة والثروة اكبر بكثير مما توفره سواحل البحر الأحمر الغربية أو المناطق الداخلية لتلك السواحل. وربما فسر ذلك انحصار الأثر العربي على اثيوبيا الغنية بمواردها الزراعية. فقد هاجر اليمنيون في القرون السابقة لميلاد المسيح واستقروا على المناطق الزراعية في الهضبة الأثيوبية.[1]

ولذلك لم توثق المصادر العربية المبكرة هجرات قديمة وكبيرة لعرب الجنوب خارج أرضهم – ما عدا ما ذكر عن حروب ملوكهم – إلا بعد انهيار سد مأرب. وقد انتشرت

[1] J. S. Trimingham, *Islam in Ethiopia* Oxford University Press 1952 p 7.

القبائل اليمنية بعد انهيار السد داخل شبه الجزيرة العربية وفي العراق والشام. ولم ترد أي إشارة في المصادر إلى دخول هجرات يمنية إلى إفريقيا بعد انهيار السد.

ومن أمثلة مل ورد في المؤلفات الحديثة عن هجرة القبائل العربية لوادي النيل قبل الإسلام ما كتبه أحمد الحفناوي دون أن يذكر مهدره جاء فيه الآتي:

"في الألفي سنة قبل الميلاد هاجرت جماعات عربية من جنوب غربي الجزيرة العربية إلى الحبشة، وبلغت هذه الهجرات أقصاها في عهد دولتي معين وسبأ، وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحر الأحمر ووصلوا في توغلهم غرباً إلى وادي النيل ... ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم."[1]

الجزء الأول من النص "هجرة عرب الجنوب إلى الحبشة" تؤكده الكثير من الأدلة الأثرية حيث ورد في الآثار اليمنية والحبشية ما يؤكد تلك الصلات، كما يؤكد تلك الصلات أيضا العلاقة بين اللغتين الحبشة والعربية فكلاهما ينتمي إلى مجموعة اللغات السامية. كما هوثابت في التاريخ أيضا نشاط عرب الجنوب في التجاري مع سواحل الحبشة سواء تم ذلك عبر البحر الأحمر أو المحيط الهندي.

ولكن ما يصعب أثباته هو الجزء الأخير من النص المتعلق بوادي النيل. ومثل هذا النص يتكرر كثيرا في المؤلفات الحديثة ويأتي في أغلب الأحيان في سياق عام وبدون مصدر كما ورد هنا، أو تأتي الإحالة إلى مرجع آخر حديث ويفتقر بالتإلى إلى مصدر لتوثيق الخبر. وحتى مايرد منها مذيلاً بمصدر لا تُؤكد الإحالة المشار إليها الموضوع المطروح تأكيداً يسند مصداقيته، بل تكون الإحالة قابلة إلى الكثير من التأويلات التي لا يُشارإليها، كالاحتجاج بهجرات العرب الى صحراء مصر الشرقية ووادي النيل بما ذكره سترابو من تكاثر العرب في تلك المناطق.

[1] أحمد الحفناوي، سودان وادي النيل في ظل الاسلام ص ٤٦.

وقد يكون الكاتب المُستدل بالنص على علم بمعنى "عرب" الوارد في النص (أي البدو كما وضحنا) ولكن لا يشير إلى ذلك لكي يجد السند لوجهة نظره. وقد سبق أن أوضحنا أن روايات المصادر العربية المبكرة عن هجرات قبائل العرب لإفريقيا قبل الإسلام – رغم تناقضها ورفض ابن خلدون لها – فإنها ارتبطت فقط بالمغرب والصحراء الكبرى، أي أن وادي النيل وبالأخص السودان لم يكن مسرحا لتلك الروايات.

ويلاحظ على نوعية مثل هذا النص التعميم، فالمؤلف يشير إلى وادي النيل بصورة عامة، ولكن سياق الحديث يُرجع النص بالضرورة إلى المنطقة موضوع النقاش. فالمؤلف يسعى إلى تأكيد عروبة السودان في كتابه المعنون بـ" سودان وادي النيل في ظل الإسلام" فوادي النيل في النص إطلاق عام يصدق على مناطق القاهرة و أسوان و حلفا و الخرطوم و سنار و ملكال و جوبا وغيرها من مناطق وادي النيل خارج حدود السودان.

ولم يوضح النص أي الطرق سلكتها تلك الهجرات إلى وادي النيل، وكيف استقرت تلك وأين الهجرات؟ وكيف كانت الأوضاع السياسية للمناطق التي وصلتها تلك الهجرات؟ هل استقرت استقراراً سلميا وتقبلها السكان المحليون، أم تم إستقرار تلك الهجرات بالقوة؟

فوصول واستقرار الهجرات حدث كبير في التاريخ لا يحدث بدون آثار كبرى تدون أحداثها ليس في مناطق الهجرات فقط، بل وكذلك في المناطق المجاورة. يتجاوز المؤلف كل هذه الأسئلة ويقفز إلى الاستنتاج المطلوب وهو أن تلك الهجرات أدت إلى تعريب سودان وادي النيل.

فأحداث السودان في الألفي سنة السابقة للميلاد مدونة في الآثار المصرية والسودانية، ومن غير المعقول أن لا تدون مثل تلك الهجرات التي لم تكن هجرة واحدة فقط بل أكثر من ذلك كما جاء في النص "ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم" ومن الواضح أن مثل هذه النصوص قُصد بها خدمة قضية الكاتب المطروحة للنقاش والتي يحتاج إلى توثيقها بحثاً عن الحجة لدعم موقفه.

وإذا رجعنا إلى نص د. شوقي الجمل السابق والذي جاء فيه أن كثيراً من العرب استقروا بالنوبة الشمالية واشتغلوا بالتجارة واختلطوا بالسكان الأصليين نجد أن مثل تلك الهجرات ذات التأثير السكاني والاقتصادي لا بد وأن تترك آثارها الواضحة على تاريخ المنطقة. ود. شوقي درس في كتابه "تاريخ سودان وادي النيل" تاريخ السودان الشمالي منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الإسلامي ولم يشر في كل المراحل التي درسها إلى وصول أيّ هجرة عربية أو أيّ نشاط عربي في تلك الناطق، بينما أشار كثيراً إلى الهجرات التي وصلت من الصحراء الواقعة إلى الغرب من النيل واستقرت في مناطق النوبة وغيرها شمالاً وجنوباً على وادي النيل.

وننتقل إلى نموذج آخر من النصوص الواردة في المراجع الحديثة للاستدلال على عروبة السودان وهو ما ورد عند دروزة: "أن المصريين والسودانيين من أصل واحد وقد جاؤا إلى وادي النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال على ما تدل عليه البحوث والاستقراءات"[1]

فالمؤلف تناول أصل شعبين ساهما بدور فعال في التراث الحضاري القديم منذ عدة قرون قبل بداية الحضارة في شبه جزيرة العرب، وقرر بكل بساطة أصلهما كحقيقة تاريخية ثابتة، مستدلاً عليها بمتخصص في التاريخ القديم دون أن يذكر لنا كيف

---

[1] دروزة، عروبة مصر ص ١٣.

توصل ذلك المؤرخ إلى تلك الحقيقة؟ وما هي البحوث والاستقراءات التي استند إليها؟ والسبب هو أن ما أورده مجرد روايات وآراء لا تستند إلى أدلة تاريخية أو علمية.

ولم يوضح المؤلف كالعادة كيف كانت أوضاع وادي النيل وقت وصول تلك الهجرات وغيرها من الأسئلة التي تثار في مثل تلك الأحداث. ويبدو لي أن أولئك المؤلفين افترضوا أن وادي النيل أو السودان – وهو المقصود في الدراسة – كان أرضاً بوراً لاساكن فيها ، أقصد لا حياة بشرية عليها ، وأن تلك الهجرات استقرت على تلك البقاع الخالية من البشر فأسست شعباً وحضارة السودان.

وكعادة مثل هذه النصوص العامة التي لا تُقبَل كحجة في أحداث التاريخ قررت أن العرب جاءوا عن طريق الصومال إلى وادي النيل. ووادي النيل يمتد من البحر الأبيض شمالاً حتي إقليم البحيرات في وسط إفريقيا جنوباً ، وكون أولئك المهجرون سكانه! هل هذه اسطورة أم حقيقة تاريخية؟ رغم أن المؤلف لم يوضح ذلك صراحة ولكن سياق الأحداث - وكونه لم يقل إن هذه اسطورة - يجعلنا نحكم أنه ذكرها كحقيقة أو حدث تاريخي. كيف يمكننا إثبات ذلك؟ في الواقع لا ينتظر منا المؤلف طرح مثل هذا السؤال بل ينبغي التسليم بذلك كما أورده.

وربما قصد المؤلف من أصل السودان العربي نفس ما دونه د. شوقي الجمل عن استيطان العرب قبل الإسلام في بلاد النوبة. وإذا كان ذلك هو المقصود فيكون الكاتب قد استخدم بلاد النوبة للدلالة على السودان . وهذا تعميم يؤدي إلى الخلط وسوء الفهم المقصود في أغلب الأحيان ، لأن مدلول كلمة السودان الآن يختلف اختلافاً تاماً عن المدلول القديم لكلمة بلاد النوبة ، ولو أراد المؤلف الاستشهاد بما قيل عن بلاد النوبة ينبغي عليه الإشارة إلى سكان بلاد النوبة ولا يطلق الحكم على كل السودان.

وقد ورد نص آخر قريب من هذا عند ماكمايكل الذي وضح المصدر الذي استند اليه وهو بليني الذي نقل الرواية كما هو مذكور عن جوبا Juba جاء في النص أن: "المصريين أصلهم عرب، أما عن جيرانهم على النيل من أسوان حتى مروي فهم ليسوا اثيوبيين (يعني ليسو سوداً) بل هم عرب، وحتى معبد الشمس – الذى لا يبعد كثيراً عن ممفيس يقال إن العرب أسسوه"[1]

جُوبا صاحب الرواية ، المقصود به الملك النوميدي الذي امتدت مملكته في مناطق تونس والجزائر الحاليتين. وقد حكم جوبا الثاني آخر القرن الأخير قبل الميلاد وهو ما يرجح نقل بليني. ويبدو على حكمه عن أصل سكان مصر والنوبة بعض الغرابة أولاً لبعده عن االمنطقة، وثانياً لترجيح عدم وجود صلات قوية بينه وبين مصر وبلاد النوبة للدرجة التي تمكنه من الحكم على أصولهم العرقية.

ومن ناحية ثانية فقد سبق وأن ذكرنا أن كلمة عرب في مفهوم بليني – الذي نقل رأي جوبا - في ذلك الوقت لم تكن تعني جنساً بعينه بل كانت تطلق على البدو، وهو ما يجعل فهم النص متعذراً إذا صح نقله عن جوبا وقصد بجوبا ملك النوميديين. ولعل جوبا النوميديين أو جوبا آخـــر قصد البدو الذين كـــانوا يتجولون في الصحراء الشرقية أو الغربية.

ويتطابق هذا مع الفرضية التي تقول بأن توحيد مصر وبداية عصر الأسرات أتي نتيجة طبيعية للصراع الذي كان دائراً بين سكان الصحراء الإفريقية الكبرى والنيل تماماً كما حدث – على سبيل المثال – في الصراع الذي كان دائراً بين بدو صحراء شبه العربية وحوضي نهري دجلة و الفرات وأدى إلى قيام وتطور أغلب حضارات بلاد ما بين النهرين.

[1] H. A. Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan* Vol.1 p 4.



وقد ذكر ماكمايكل هذه الرواية في سياق ما ورد عن فرضية الغزاة الأجانب الذين أتوا من الجزيرة العربية ووحدوا مصر وبدأوا الحضارة المصرية. ثم عرج إلى السودان ليدعم وجهة نظره والتي جعلت من سكان مملكة مروي عرباً أتوا من اليمن.

وقد أشار ماكمايكل إلى الأثر العربي في بلاد النوبة عن طريق ما أوردته المصادر العربية المبكرة عن غزو ملوك اليمن إفريقيا. وأورد مثالاً على ذلك الملك ذو المنار الذي جعل ولادته ١٣٤ ق.م.، والملك افريقش أو ابنه والذي أرخ لغزوه المغرب نحو عام ٤٦ ق.م.. وأضاف أن الملك ذو المنار أغار على السودان في طريقه إلى المغرب. وهذا ما لم أعثر عليه في المصادر العربية رغم اجتهادي في البحث عنه.[1]

والملكين اليمنيين الذين ذكر – ماكمايكل – أن عصرهما يرجع إلى القرنين الثاني والأخير قبل الميلاد ذكرت المصادر العربية التي نقل عنها انهما حكما في عصري النبيين موسى وسليمان عليهما السلام. ومن المعروف في التاريخ أن عصر هذين النبيين يبعد مئات السنين من الزمن الذي يتحدث عنه ماكمايكل.

وقد أتى ماكمايكل في هذا الصدد أيضاً برواية لم أعثر على أثرها في المصادر العربية نقلها عن Caussin de Perceval - ولم يذكر مصدره – جاء فيها أن: " أبا مالك الحميري الأصل قاد حملة إلى بلاد البجة بحثا عن الزمرد، إلا أنه وجيشه قد هلكا." وجعل تاريخ هذه الحملة العقود الأولى من القرن الميلادي الأول.

ومن بين ملوك حمير الذين ذكروا في المصادر العربية لم أجد من حمل لقب "أبا مالك" غير الملك الحمير أبا مالك بن حمير بن سبأ الملك الرابع في سلسلة ملوك حمير، اي قبل عصري ذي المنار و افريقش، فعصره بناءاً على ذلك قبل القرن الأول الميلادي بعدة قرون. هذا إلى جانب أن مصر كان في ذلك الوقت تحت الحكم الروماني، وكان

[1] Ibid. p 7 – 8.

الرومان ينافسون اليمنيين في البحر الأحمر، وقد أرسلوا حملة للهجوم على اليمن. فكيف يقود ملك اليمن جيشاً للبحث عن الزمرد في أراضي تحت حكم الرومان، وقد كان معدن الزمرد كما بين المسعودي "من شمال مدينة قفط"[1] في صعيد مصر، ونقل ابن سليم الأسواني عن الجاحظ "أنه ليس في الدنيا معدن للزمرد غير هذا الموضع."[2]

ولا أعتقد أن ما ذكره ماكمايكل من أن "معبد الشمس قد أسسه العرب لأنهم كانوا يعبدون الشمس" يحتاج إلى أيضاح، فكم من الشعوب القديمة قد عبدت الشمس قبل عرب الجنوب مثل قدماء المصريين وشعوب بلاد ما بين النهرين، ومن المعروف في التاريخ أن هذا المعبد أسسه الملك المروي أركاماني بين سنوات ٢٠٦- ١٨٦ ق.م. لعبادة الإلاه مندوليس الذي كان يعبده البليميون في المنطقة.[3]

وإذا أردنا معرفة السبب وراء تلك التوجهات العربية لأولئك الكتاب والذين سعى بعضهم للوي عنق الزجاجة – سواء العرب منهم أو السودانيين أو الأوربيين – لإثبات عروبة وادي النيل رأينا أن لكلٍّ غرضه الذي يسعى إلى تحقيقه. فإخواننا المصريون الذين سايروا دعوة القومية العربية منذ النصف الأول من القرن العشرين شرعوا في العمل لطبع وادي النيل كله بالطابع العربي لتحقيق هدفهم القومي، وفي نفس الوقت لربط السودان بالرباط العربي لدعم طموحاتهم السياسية في السودان التي تبنتها الحكومات المتتالية في مصر.

فالسياسة الخارجية لحكام مصر الأتراك منذ بداية القرن التاسع عشر كان من بين أهدافها الكبرى وضع يدها على السودان، ودخلت من أجل ذلك في صراعات

---

[1] المسعودي، مروج الذهب في مسعد، المكتبة السودانية ص ٥٤.

[2] في مسعد، المكتبة السودانية ص ١٠٥.

[3] كلايدي ونتر، "بينة مروية عن الامبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس" ترجمة اسامة عبدالرحمن النور. مجلة الآثار السودانية، العدد ٥ مارس ٢٠٠٤ ص٢ (online)

ومنافسات مع المستعمرين الأوربيين مبررة حقها في السيادة على السودان بما عرف "بحق الفتح". ومع تغير الأوضاع الدولية بعد الحرب العالمية الأولى استخدمت عروبة السودان إلى جانب حق الفتح لتُعزز حكومات مصر حقوقها في السودان خاصة وأن بريطانيا – التي قوي نفوذها في مصر – أصبحت منافساً قوياً في مسألة السيادة على السودان .

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٣ في مصر وتبني عبد الناصر الخط القومي العربي لم يطرح قادة الثورة حق الفتح لضمان السيطرة على السودان، بل طرحت مسألة عروبة السودان ووافق قادة الثورة على استقلال السودان العربي لكي ينضم إلى جامعة الدول العربية وليس إلى الكمنولث البريطاني، لكي يتمكن قادة الثورة من توقيع اتفاقية مياه النيل مع السودان وبناء السد العالي بعيداً عن مشاركة البريطانيين. ولذلك أصبحت مسألة عروبة السودان بالنسبة للكتاب المصريين قضية قومية ينبغي الدفاع عنها عن طريق طمس الحقائق واستخدام كل الأساليب التي تخدم قضيتهم.

وقد صادف ذلك التوجه تياراً قومياً عربياً في السودان سواء كان هدفه الحقيقي قوميا أو هدفه الوقوف ضد بريطانيا وتحقيق الاستقلال فانخرطوا في تيار العروبة. وربما ساعدت الظروف في ذلك الوقت هذا التيار لأن إفريقيا كانت مهضومة الحقوق ومطموسة الهوية يسود الظلام جميع مرافق حياتها. ولذلك اتجه الكثير من السودانيين – الشماليين بالطبع – وهم يبحثون عن الهوية نحو التوجه العربي وصدّقوا أو جاروا الكتاب المصريين في ما دبروه لعروبة السودان.

هذا ما يخص المؤلفين المصريين والسودانيين، فماذا عن البريطانيين الذين من المفترض ووفقاً لسياسات ذلك الزمان الوقوف ضد التيار العربي الذي سيقود السودان إلى أحضان مصر منافسهم الأولى على السودان. في واقع الأمر كانت هنالك قضية



أخرى وعلى درجة عالية أيضاً من الأهمية سيطرت على العقل الأوربي فيما يتعلق بإفريقيا منذ بداية القرن التاسع عشر.

وترجع جذور تلك القضية إلى بداية تعرف أوربا على الحضارة الإفريقية. فقد كانت إفريقيا في أعين الأوربيين قبل القرن الثامن عشر قارة سوداء، يسود الظلام كل شئ فيها بما في ذلك تراثها. فهي قارة لا تاريخ لها، وشعبها عاش متخلفاً منذ أن وجد على تراب تلك الأرض، لم يساهم بشئ في الحضارة الإنسانية.

وتأسست نظرية الاستعمار ورسالة الرجل الأبيض الحضارية في إفريقيا على ذلك لمفهوم. ولكن عندما بدأت أوربا تتعرف على التراث الإفريقي رأوا التراث الحضاري لمصر الفرعونية بدأت أفكارهم القديمة بارتباط الحضارة وتقدم البشرية بالرجل الأبيض فقط يهتز.

فقد لمس الأوربيون أمكانية تطور حضاري سابق للعصور اليونانية الرومانية، وكلما ازدادوا قرباً وبحثاً عن ذلك التراث تأكد لهم أن أوربا ليست سيدة العالم في التراث القديم، وأن تلك السيادة ربما – بل وكل الأدلة تشير إلى أنها – تمت على أيدي شعب وادي النيل القديم. فمن هو ذلك الشعب العظيم الذي خلف كل ذلك التراث؟ المشكلة التي واجهتهم هو المفهوم القديم الذي كان سائدًا في الأوساط العلمية عن شعوب إفريقيا والذي يقسم سكانها إلى ساميين وحاميين وزنوج.

وقد ارتبط تصنيف الحاميين في ذلك الوقت باللون الأسود، وكان المصريون وفقاً لتلك التقسيمات أبناء كوش الذي ينتمي إليه كل السود في إفريقيا. فكيف يعقل أن يرتبط الجنس الأسود بهذا التراث الحضاري؟ وبدأت الفرضيات والتفاسير التي جعل بعضها الشعب المصري شعباً سامياً لا صلة له بالسود، وقد رأينا كيف حاولت الفرضيات ربط قيام الحضارة المصرية بهجرات من شبه الجزيرة العربية.

ويبدو أن البعض الآخر لاحظ سمات العنصر الزنجي واضحة في بعض الآثار المصرية وبخاصة العناصر السوداء التي تقطن جنوب مصر، فتطورت النظرية التي فصلت الجنس الحامي من الجنس الزنجي. وأصبح سكان إفريقيا في نظر الأوربيين ثلاث سلالات رئيسة هي السلالة السامية والسلالة الحامية ونسب إليهما كل التطور والإنجاز الحضاري الذي عثروا عليه في القارة. ثم السلالة الثالثة وهم السود باقي سكان إفريقيا الذين ظلوا في المفهوم الأوربي يعيشون في مراحل التخلف وفي حاجة إلى خدمة الرجل الأبيض ينتشلهم من دنيا الظلام والهمجية إلى عالم النور والحضارة.

ولذلك دأب المؤلفون البريطانيون في كتاباتهم عن السودان منذ مطلع القرن العشرين – وأغلبهم خدم في السودان ورأى بعينه آثار التراث الحضاري القديم - على مسايرة التيار العربي في السودان، وأصبحت كتاباتهم لا تختلف كثيراً عن كتابات المصريين فيما يتعلق بعروبة السودان. وقد رأينا كيف أن ماكمايكل يستدل على عروبة السودان قبل الإسلام بالغزو الحميري.

٢.الصلات عبر صحراء سينا:

المعبر الثاني الذي دخلت عبره القبائل العربية إلى وادي النيل هو المنطقة الواقعة بين نهاية البحر الأحمر الشمالية والبحر الأبيض المتوسط والمعروفة بصحراء سينا. ولعل أقدم ما ورد في الهجرات عبر هذه المنطقة هو ما ذهب إليه مؤيدوا فرضية الغزو الأجنبي والأصل العربي للغزاة الذين دخلوا وادي النيل عبر البحر الأحمر عن طريق الصومال.

ويرى فريق آخر من مؤيدي فرضية الغزو الأجنبي أن اولئك الغزاة لم يأتوا عن طريق الصومال بل وصلوا عبر صحراء سينا. وقد ضعّف ماكمايكل هذا الرأي ووضح أن الأدلة الأثرية كما ذكر مؤرخو مصر القديمة تقضه.[1]

[1] H. A. Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan* Vol.1 p 5.



فقد أثبتت النصوص الواردة في تلك الآثار كما يقول ماكمايكل عن بعض مؤرخي الحضارة المصرية القديمة امثال اليوت سمث و برستد و Navile أن ملوك مصر شيدوا الأسوار والتحصينات لصد هجرات وغارات البدو عبر صحراء سينا منذ عصر الأسرة الأولى. وفي نفس الوقت وضحت الآثار العلاقات التجارية بين أولئك البدو والمصريين بما يوضح أن الصلات التجارية كانت قائمة بين الطرفين، لكن دأبت الحكومات المصرية على تأمين تلك الحدود أمام التسرب من أجل الاستقرار ولصد الغارات. وظلت العلاقة بين مصر والجماعات البدويةعلى حدود الدلتا الشرقية حتى منتصف القرن السابع عشر ق.م. حيث تغير الحال بغارات الهكسوس.[1]

ورغم ذلك نجد المؤلف المصري المشهر الكتور عبد المجيد عابدين يكتب عن العلاقات المصرية المبكرة عبر صحراء سينا في الجزء الخاص بالهجرات العربية قبل الإسلام بعد أن أوضح أن تاريخ مصر القديم لا يزال في حاجة إلى المزيد من البحث لإلقاء الضوء على الهجرات التي دخلت مصر من بلاد العرب: "ومع هذا فلا مجال للشك في أن طريق سينا كان قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات العربية إلى مصر منذ القدم.[2]

أولاً وكما أوضحنا فإن كلمة عرب في المؤلفات والآثار السابقة للإسلام كان يقصد بها أي مجموعات بدوية سامية أو غير سامية، ولم يقصد بها الجنس العربي. فتعبير "عرب" هنا يدل على أي مجموعة بدوية سامية ولا يعني الجنس العربي. ونكرر أنه من المؤسف أن كثيراً من المؤلفات العربية الحديثة تناولت كل الجماعات السامية البدوية شرقي صحراء سينا في القرون السابقة للإسلام باعتبارهم عربا، وهذا الخطأ – المقصود أو غير المقصود – يطمس الحقيقة ويضلل القارئ.

ثم ثانيا: هل هذا الأسلوب الذي عبر به المؤلف أسلوباً لكتابة التاريخ! فإطلاق الحكم العام بهذه الصورة "لا مجال للشك" في موضوع يتطلب المناقشة والاستدلال ليس أسلوباً علمياً على الاطلاق لا في كتابة التاريخ ولا غيره.

---

[1] Ibid.

[2] عبد المجيد عابدين، البيان والاعراب ص ٧٧.

وعبارة "فلا مجال للشك" توحي بأن هنالك مجالاً للشك، ويمكن أن تكون العبارة مقبولة لو أورد المؤلف ما يزيل ذلك الشك، أما أن يفرض علينا المؤلف قبول قضية غير مثبتة فهذا لا مجال للشك في رفضه. فماذا لو أستخدم كاتب آخرنفس لغته وقال: "لا مجال للشك في أن طريق سينا لم يكن معبراً للهجرات العربية" وترك القارئ بدون أي شرح أوتعليل. أو يا ترى ماذا كان سيقول د. عبد المجيد عندما يقرأ ذلك ؟

وأغلب الظن أن المؤلف يدرك أن مثل هذه الأحكام العامة لا مجال لها في كتابة التاريخ، ولكن كان هذا سبيل الكثير من المؤلفين المصريين والسودانيين بقصد أو بغير قصد. والسؤال هو إذاً: لماذا استخدم هذا الأسلوب؟ والجواب هو لأنه لا دليل له لإثبات ما يقول، وهو في نفس الوقت يريد أن يفرض قضيته على القارئ كقضية مسلم بها.

وبغض النظر عن الفكر القومي العربي في مصر في ذلك الوقت فصلة المؤلف بالسودان قوية، فقد درّس في السودان وكتب عنه كثيراً ويعلم أن الدعوة لعروبة السودان - لشئ في نفس يعقوب - ستجد القبول المطلوب خاصة اذا أتت من مصدرٍ مثل عبد المجيد عابدين، فهي لا تحتاج إلى البحث عن الدليل.

والشئ الغريب أن المؤلف وفي نهاية الفقرة التي بدأها بعبارة " فلا مجال للشك" ذكر أن ملوك مصر كانوا يقاومون تلك الهجرات عبر صحراء سينا وأن قدماء المصريين أقامور "حصونا قوية متتابعة على حدود الدلتا الشرقية" لصد تلك الهجرات. ويواصل المؤلف في نفس المكان:

"ومن الأمثلة التي انتهت إلينا عن هجرات (العرب) أو الساميين إلى مصر، في تلك العصور، نلاحظ أن منها هجرات سلمية يؤخذ فيها رأي حاكم مصر، وما كانت تتم إلا بموافقته." ونقل عن ماسبيرو –أحد مشاهير مؤرخي مصر القديمة – مثالاً لذلك وهو صورة في الآثار القديمة تمثل عدداً من البدو يقدمون لفرعون مصر القرابين ليسمح لهم بالسكنى في وادي النيل.

فإذا كان مما "لا مجال للشك" فيه أن طريق سينا كان قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات العربية إلى مصر منذ القدم" فلماذا اعترضها حكام مصر وحاربوها وشيدوا الحصون أمامها؟ وإذا كانت سينا قنطرة مفتوحة للعبور بدون قيود لماذا يطلب البدو من حكام مصر الإذن للعبور والسماح لهم بالاستقرار؟ والملاحظ هنا أن المؤلف استخدم التعبير الصحيح وهو "الساميين" ليصف تلك الجماعات، لكنه ليدعم قضيته وضع كلمة "العرب" بين قوسين ليفسر بها الساميين، وهذا خطأ مقصود.

كما يلاحظ أن المصدر الذي رجع اليه المؤلف – ماسبيرو – قد استخدم لفظ البدو للاشارة إلى الجماعات التي طلبت السماح لهم بالاسقرار في مصر ولم يستخدم كلمة "عرب" لأن البدو بمعنى العرب كانت مفهوماً يونانياً رومانياً فقط. والمصدر المشار اليه هنا هو الآثار المصرية، كما لم يستخدم عبارة "ساميين" لأنه ليس كل الساميين بدو، والمعنيين بالنص كانوا من البدو الساميين.

ومنذ القرن السابع عشر قبل الميلاد تغيرت العلاقات بين مصر وغرب آسيا وذلك بغزوات الشعوب التي عرفت في مصر باسم الهكسوس. والذي يهمنا من أمرهم هو أن بعض الكتاب مثل جرجي زيدان و محمد عزة دروزة اعتبروهم عرباً. ورغم أن بعض المؤلفين ضعف هذا الرأي لكنهم لم ينفوا عروبتهم كما جاء عند ماكمايكل و عبد المجيد عابدين .

وقد خلط بعضهم بين الهكسوس و الشاسو كما فعل محمد صالح ضرار نقلاً عن جرجي زيدان فذكر أن "أمة الشاسو من عرب الشام هاجرت إلى إقليم البجة واستوطنت بين النيل والبحر الأحمر كما يتنقل فيها بدو هذه الأيام.... وكلمة الشاسو معناها عرب واشتهروا بالسطو ونهب أموال سكان وادي النيل، ويقال لهم الهكسوس."[١]

[١] محمد صالح ضرار، تاريخ شرق السودان ج ١ ص ٣٥.

فالهكسوس – أو حكام البراري أو ملوك الرعاة - هو الاسم الذي أطلقه المصريون على الغزاه الذين بدأوا غاراتهم شرقي الدلتا منذ بداية القرن السابع عشر ق.م.. ويربط أغلب الباحثين بين هجرة الهكوس وبين هجرات كبيرة تحركت من سهوب آسيا الوسطى منذ أوائل الألف الثاني ق.م.، وتوجهت على فترات متقطعة وطويلة إلى الهند وغرب آسيا وشرق أوربا. وعرفت تلك الهجرات باسم عام هو: الشعوب الآرية أو الهندوأرية، وقد عرفوا بأسماء محلية في المناطق التي غزوها مثل الحيثيين في آسيا الصغرى والكاسيين أو الكاشيين في بلاد ما بين النهرين، والحوريين في أعالي الفرات، والهكسوس في مصر.[1]

ووصلت شعبة من تلك الهجرات سوريا في القرن الثامن عشر ق. م. واضطر الأمورين – وهم سلالة سامية – إلى التقهقر جنوباً نحو القبائل البدوية في جنوب سوريا ولحق بهم بعض الآريين الغزاة. وفي بداية القرن السابع عشر ق.م. أطلوا على الحدود المصرية. واستغلت تلك التجمعات ضعف الدولة المصرية فى ذلك الوقت فدخلوها تحت قيادة الآريين. وأطلق المصريون عليهم (حقاو خاسوت) أي حكام البراري، ثم تحور الاسم عند الكتاب اليونانيين إلى الهكسوس وهو الاسم الذي ترجم إلى ملوك الرعاة.[2]

فالهكسوس الذين غزو مصر خليط من البدو المقيمين جنوب منطقة الأردن الحالية ألى جانب الأموريين وهم ساميون الى جانب الآريين، والهكسوس هم الذين قادوا ذلك الغزو وبهم عُرِف. أما الشاسو فهو لفظ أطلقه المصريون القدماء علي جماعات سامية بدوية مختلطة الأعراق بدأت تظهر على حدودهم منذ القرن السادس عشر ق.م.. ويرى بعض الباحثين أنهم يمثلون الأصول المبكرة لبني اسرائيل، وربط بعض الباحثين بينهم وبين الأراميين الذين كانوا يتجولون جنوب منطقة الأردن الحالية.[3]

---

[1] عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ج ١ ص ٢٠٥ – ٢٠٧.

[2] نفس المكان السابق.

[3] Wikipediam the free encyclopedia http://en.wikipedia.org/wiki/Shasu



فهجرات الهكسوس والشاسو قد تمت منذ نحو ألفي سنة قبل أن تصبح لكلمة عربي دلالة على الجنس العربي الذي عرف بهذه السمة بعد الإسلام. فمن الخطأ وصف الكتابات الحديثة تلك الهجرات بأنها هجرات عربية، إلى جانب أن الذين استخدموا كلمة عرب وقصدوا بها البدو.

ولم يستخدم قدماء المصريين أو العبرانيون أو غيرهم من شعوب غرب آسيا كلمة عرب قبل الإسلام للدلالة على الجنس العربي. وقد ذكرنا أن هذا ما أكده الباحثون العرب أمثال الدكتور جواد علي .

والمصادر القديمة – كما وضحنا - عندما تتعرض للهجرات السامية عبر صحراء سينا بدوية كانت أم غيرها تتناولها بالاسم الذي عرفت به في المناطق التي هاجرت منها. فقد رأينا – أعلاه – أن النقوش قد أشارت إلى النازحين بالبدو الفلسطينيين الذين يطلبون الإذن بالإقامة في وادي النيل فلم تطلق عليهم اسم العرب. وكما رأينا ايضا فالهكسوس والشاسو لم يطلق عليهم العرب.

وقد تناولت المصادر العبرية والمصرية بعض الهجرات السامية العبرية إلى مصر منذ عصر النبي يوسف عليه السلام والذي تربطه بعض القرائن – كما يرى بعض المؤرخين- [1] بعصر الهكسوس. فلماذا لم تطلق المؤلفات الحديثة اسم العرب على تلك الهجرات العبرية كما أطلقوه على الهكسوس والشاسو؟ .

وقد أورد دروزة في أماكن متعددة في كتابه "عروبة مصر" نماذج للكتابات في الآثار المصرية منذ عصر الاسرة الأولى وحتى الغزو الفارسي في منتصف الألف الأخير قبل الميلاد أي في مدة تزيد على ٢٥٠٠ سنة ولم ترد في تلك الكتابات كلمة عربي، بل كانت الإشارة إلى هجرات أو تسللات أو غزوات تلك الشعوب إما بعبارة البدو كما وهي الغالبة أو بأسمائها مثل الكنعانيين و الأموريين و الفينيقيين و الهكسوس والشاسو وغيرهم.

[1] http://www.answer.com/topic/josiph

وذكر دروزة أن الآثار المصرية القديمة كثيراً ما وصفت تلك الشعوب الآتية من غرب أسيا بالآسيويين. وأضاف "ويرادف المؤرخون بين هذا التعبير[آسيويون] وتعبير الساميين المرة بعد الأخرى، وكانت بلاد الشام التي يأتي منها هؤلاء الغزاه آهلة في هذه الظروف بالقبائل الآتية من جزيرة العرب والتي يجب أن يطلق عليها القبائل العربية." ويواصل دروزة: "والباحثون يرادفون كثيراً بين تعابير أسيويين وساميين وعرب... وهذا يسوغ القول أن من سموا بالآسيويين هم من الجنس العربي"[1]

والمؤلف أولا: لم يوضح من هم المؤرخون والباحثون الذين يرادفون بين تلك المصطلحات: آسيويون وساميون وعرب. ثم إنه جعل كل سكان الشام عرباً، إذ إن كل من أتى من جزيرة العرب – قبل الإسلام- فهو عربي مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين. ليس هذا فحسب بل وقد جعل كل سكان بلاد الشام عربا، بل "يجب أن يكونوا عربا."[2]

واعتقد أننا إذا قبلنا أن اليهود عرباً يمكن أن نقبل أن الهجرات الآرية التي دخلت الشام أيضا عرباً. وثانيا: وباختصار شديد إذا سلمنا أن المصطلحات: الساميون والآسيويون والعرب ذات معنى واحد، فهل يقبل العرب أن تكون الفرس والهنود والصينيون واليهود عرباً؟

وفي واقع الأمر فقد جعل دروزة كل فراعنة مصر عرباً، حتى الأسرة رقم ٢٢ والتي اتفق المؤرخون علي أنها ليبية الأصل قال عن مؤسسها "فإن صح أنه ليبي فإن الاحتمال بجنسيته العربية يظل وارداً، وإن كان يرجع في هذه الحالة إلى الأزمنة القديمة السحيقة." وهو بذلك يرجع إلى ما ذكره عن أصل الليبيين حيث قال: "قال غير واحد من الباحثين بأصلهم السامي الراجع إلى عهد سحيق في القدم."[2]

[1] دروزة، عروبة مصر ص ٢٨ و ١٧.

[2] المرجع السابق ص ١٧ و ١٨.



والذي نود التوصل إليه هنا هو التعرف على كتابات دروزة لأن أحكامه وصلت السودانيين أيضاً. فقد تناول الأصل العربي للسودانيين مؤسسي كوش و مروي. ففي أثناء تناوله الهجرات العربية إلى مصر في عصر الأسرة ١٩ في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ذكر نزول أولئك المهاجرين – الفينيقيون والكنعانيون – في كثير من المدن المصرية وقال: " وكان يقع مثل هذا من ناحية بلاد النوبة والسودان."[1]

وذكر أيضا "ولقد كانت بلاد النوبة وظلت محطة من محطات التموج العربي الجنس. وملامح النوبيين لا تفترق عن الملامح المصرية في شيء على ما تدل عليه صور ومومياءات الملوك المصريين القدماء الذين قيل إن أصلهم نوبي. فاحتمال كون النوبيين القدماء الذين قاموا بنشاط سياسي في مصر قبل قيام المملكة المتحدة من الموجات العربية الجنس غير بعيد، بل نكاد نقول إنه الأرجح في رأينا قياساً على الأمثال."[2]

ونظرة دروزة هنا إاى النوبة لا تختلف عن نظرة الأوربيين إلى السود، إذ حاول أن يبعد النوبة من الأصل الافريقي ويربطهم بالعرب. وإذا أوجب دروزة أن تكون كل القبائل السامية – واليهود ساميون – عرباً، وجعل فراعنة مصر والليبيين عرباً فلا غرابة إذاً أن تكون بلاد النوبة – عنده - محطة للتموجات العربية.

وقد اعتُبرت صحراء سينا أيضا معبراً لغزوات الحميريين التي أدت إلى تعريب البربر في شمال إفريقيا وتعريب سكان وادي النيل حتى الجزء الشمالي من السودان. وقد سبق أن ناقشنا ذلك وأوردنا حكم ابن خلدون ببطلان تلك الروايات، وتوصلنا إلى أن تلك الروايات تتعارض مع الحقائق التاريخية الثابتة، وأن المصادر الآثارية المعاصرة لتلك الأحداث لم تتعرض لها.

كما لم تتعرض المصادر في مصر أو السودان أو شمال إفريقيا لمثل تلك الغزوات مما يجعلها مجرد قصص بطولات اكتسبت الجانب الأسطوري وأخذت موقعها المميز

[1] نفسه ص ٥٦.

[2] نفسه ص ١٧.



في التراث الشعبي في تلك الأوقات ولا أساس لها في الواقع. وكان السبب وراء ذلك الانتشار الواسع لتلك الروايات هوالانتساب إلى العنصر العربي الذي كان سائداً وكان الانتساب إليه مفخرة وعزة.

وقد وردت بعض الإشارات عن هجرة قبيلة بَلي العربية إلى صحراء مصر الشرقية ودخولها أرض البجة قبل الإسلام نورد منها ما ذكر د. عبد المجيد عابدين تحت عنوان "القبائل العربية في إقليم مصر في العصر الجاهلي:

"أما قبائل قضاعة التي تشير المراجع إلى أنها كانت تنزل سينا فهي قبائل بليّ، إذ نفهم من كلام الهمداني أن أرضهم امتدت إلى برزخ السويس، وليس ببعيد أن تكون جماعات منهم قد تجاوزوا إلى الصحراء الشرقية كما فعل الأنباط. ولا ندري أي قبائل العرب عناهم سترابو [٦٦ ق. م. – ٢٤م] وبليني [٧٠م] وكلاهما مؤرخان يونانيان عاشا في أول العصر المسيحي حين ذكرا: أن العرب تكاثروا في أيامهما على العدوة الغربية من البحر الأحمر حتى شملوا ما بينه وبين النيل في أعلى الصعيد." ويعلق عبد المجيد على النص قائلاً: "ولا ندري ممن كان هؤلاء العرب، أكانوا من بلي أم من الأنباط أم من قبائل أخرى؟"

لم يوضح د. عبد المجيد عابدين تلك المراجع التي ذكر أنها أشارت إلى نزول قبائل قضاعة صحراء سينا. وقد بحثت كثيراً في المصادر العربية من كتب التاريخ والأنساب والجغرافيا فلم أعثر علي أي نص يفهم منه أن قضاعة دخلت مصر قبل الإسلام. فقد أوردت المصادرأن قبيلة قضاعة انتشرت في اليمن ومناطق الخليج العربي و العراق والشام. ولم يرد في تلك المصادر دخولها إفريقيا قبل الإسلام، وقد ورد أنها كانت منتشرة في مناطق الواقعة إلى الشرق من الحدود المصرية فقط.[1]

[1] انظر على سبيل المثال الهذاني، صفة جزيرة العرب ج١ ص ٦٦ ، ٩٠ وابن خلدون، العبر ج ١ ص ٥ وج ٢ ص ٢٤٢ وج ٣ ص ٥٢، ١٠٧.

فالمؤلف لا يستبعد أن تكون جماعة من قضاعة وبخاصة بلي قد عبروا إلى صحراء مصر الشرقية قبل الإسلام، ولكن ذلك لم يرد في المصادر مما يَسْتبعِد حدوثه. أما ما ذكره عن بليني فقد تعرضنا إليه فيما سبق في أكثر من مكان ووضحنا أن بلبينى قصد "بقبائل العرب" قبائل البدو السامية وليس العرب أو الجنس العربي الذي يقصده د. عبد المجيد عابدين.

أما محمد صالح ضرار فقد ذكر ما يلي عن قبيلة بَلِيّ تحت عنوان "الهجرة العربية قبل الإسلام: "وتعد قبيلة بلي من أقدم القبائل العربية التي هاجرت إلى هذه الديار البجاوية بعد الشاسو وثمود وغيرهما. وكانت هجرتها قبل الإسلام بقليل، وهي بطن من بطون قضاعة "[1] ونقل ضرار نصاً من ابن خلدون عن قبيلة بلي جاء فيه:

"أنهم أجازوا إلى العدوة الغربية من البحر الأحمر وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكاثروا هنالك سائر الامم، وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم وضايقوا المصريين"

وقد تعرضنا فيما سبق إلى الشاسو ووضحنا أن الشاسو جماعات بدوية سامية. أما ثمود – قوم نبي الله صالح – التي سكنت الجزء الشمالي من الحجاز فلم أجد في المصادر العربية أشارة إلى هجرتهم إلى ديار البجة. وما أود التعليق عليه هنا هو ما ذكره ضرار عن قبيلة بلي، وفي البداية أود أن أشير إلى أنه لا يوجد أي نص في المصادر العربية المبكرة عن هجرة بلي السابقة للإسلام إلى بلاد البجة.

ولست أدري من أين نقل ضرار نص ابن خلدون الذي استشهد به عن هجرة بلي إلى أرض البجة قبل الإسلام، فهو لم يذكر المصدر الذي نقل منه النص، هل هو من كتاب العبر مباشرة أم من مكان آخر نقل عن كتاب العبر. فالنص كما ذكره ضرار فيه بعض الحذف والإضافات التي غيرت ما رواه ابن خلدون. فالنص كما ورد في كتاب العبر جاء كالآتي:

[1] محمد صالح ضرار، تاريخ شرق السودان ج ١ ص ٥٣.

"... وفي شماليهم [شمال قبائل جهينة] إلى عقبة ايلة مواطن بلى وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم [يعني البحر الأحمر] وأجاز منهم أمم إلى العدوة الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكاثروا هنالك سائر الامم وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد"[1]

أولاً هذا النص يتعلق بهجرة القبائل العربية إلى مصر بعد الإسلام وليس قبله كما ورد عند ضرار. والنص يشير إلى هجرة "أمم" من جهينة وبلي وانتشارهم وحروبهم في بلاد النوبة والحبشة حتى عصر ابن خلدون في القرن الثامن الهجري (١٤م). فإشارة ابن خلدون واضحة في أنه يصف الأوضاع في زمانه حيث عبر قائلٌ "إلى هذا العهد".

ويلاحظ على النص الذي استشهد به ضرار أن عبارة "إلى هذا العهد" غير موجودة في نصه، وهذه العبارة لها أهميتها الكبيرة لأنها توضح الزمن الذي تحركت فيه تلك القبائل. فلماذا حذفت من النص الذي نقله ضرار؟ والقضية ليست في حذفها فقط بل استبدالها بعبارة أخرى وهي "وضايقوا المصريين" مما يثير الشك في أن التصحيف أو التغيير في النص مقصود. وتبدو هذه العبارة قريبة مما نقله جرجي زيدان من كتاب تاريخ مصر لشارب "Sharpe" والذي سنتعرض إليه بعد قليل.

فالتغيير قد يحدث لبعض الكلمات في النص عبر عمليات النقل المتكررة للكتاب، ولكن ليس التغيير الذي يؤدي إلى تحول المعنى كلية كما حدث في نص ضرار. وعلى سبيل المثال نورد بعض التغيير الذي قد يحدث في النصوص، فقد نقل القلقشندي نص ابن خلدون نفسه كما يلي:

---

[1] ابن خلدون، العبر ج ٢ ص ٢٤٧.

"قال في العبر: وكانت منازلهم شمالي منازل " بليّ " من الينبع إلى عقبة أيلا. ثم جاوز خلق كثير منهم بحر القلزم وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هناك وغلبوا على بلاد النوبة. قال: وهم يحاربون الحبشة إلى الآن."[1]

فالتغيير الذي أحدثه القلقشندي في النص بحذف أو تغيير بعض الكلمات لم يؤد إلى تغيير المعنى. فقد اختصر النص، وغير بعض كلماته. تغيرت كلمة "أمم" عند ابن خلدون إلى "خلق" عند القلقشندي، وغير القلقشندي عبارة ابن خلدون "وإلى هذا العهد" فأصبحت "إلى الآن". فرغم الحذف والتغيير الذي أحدثه القلقشندي في نص ابن خلدون ظل المعنى كما هو لم يتغير.

أما في النص الذي نقله ضرار فإن عبارة ابن خلدون "إلى هذا العهد" قد حذفت وحل محلها "وضايقوا المصريين" التي لا وجود لها في النص الأصلي. فأصبح النص بدون تحديد زمني، ويمكن أن يصدق علي عهد ابن خلدون أو قبله أو يرقى إلى ما قبل الإسلام. فالحذف والإضافة هنا أديا إلى تغيير معنى النص تغييراً كاملاً، مما يوحي أن التغيير في نص ضرار كان مقصوداً.

ونخلص من ذلك إلى أن ابن خلدون لم يذكر أن قبيلة بلي قد هاجرت إلى السودان قبل الإسلام، وفي واقع الأمر فإن ذلك لم يذكره غيره من المؤلفين العرب المبكرين. أما ما يتعلق بهجرتهم بعد الإسلام فسنتناوله عندما نأتي للحديث عن الهجرات العربية بعد الإسلام.

ويلاحظ أن جرجي زيدان - الذي ينقل منه ضرار كثيراً- قد ذكر النص في كتابه كما ورد في كتاب ابن خلدون منتهياً بـ"فحاربوا الحبشة وأرهقوهم إلى هذا العهد" لكنه واصل قائلاً "ويوافق ذلك ما ذكره اليونان من أخبار مصر لأوائل النصرانية، فقد ذكر سترابو و بلبينوس أن العرب تكاثروا في أيامهم على العدوة

---

[1] القلقشندي، قلائد الجمان ج ١ ص ١٤.

الشرقية..."[1] فكيف يتوافق ما حدث في أول العصر المسيحي (القرن الأول الميلادي) مع ما حدث في عصر ابن خلدون بعد نحو أربعة عشر قرناً؟

ويواصل جرجي زيدان بعد نص ابن خلدون مباشرة فيورد ما ذكره شارب في كتابه "تاريخ مصر القديم" والمطبوع عام ١٨٨٥ معلومات بها الكثير من الخلط والخطأ عن تاريخ منطقة النوبة فيقول:

"كان العرب في أيام أغسطس قيصر في أوائل النصرانية قد دخلوا الحبشة وتملكوها وأوغلوا في بلاد النوبة ... وأتفق في أثناء ذلك تجريد الروم حملة لفتح بلاد العرب بقيادة جالوس المتقدم ذكره ومعه معظم جند مصر، فانتهز أولئك العرب تلك الفرصة وزحفوا على الصعيد وضايقوا أهله. (ويسميهم المؤرخ عرب الأحباش) وكانت عليهم ملكة يقال لها قندافة ، وتغيرت لغة الآثيوبيين وعبادتهم بنزول أوائل العرب فيها، فبعد أن كانت مصرية أصبحت عربية."[2] إلى هنا ينتهي نص شارب .

ويواصل جرجي مضيفاً "فيستدل من ذلك أن العنصر العربي كان في أوائل النصرانية غالبا على صحراء مصر الشرقية والحبشة والنوبة، فإن لم يكن المراد بهم قبيلتي جهينة وبلي اللتين ذكرهما ابن خلدون فقد مهدتا فتح تلك البلاد لهم، لأن الرومانيين ما زالوا منذ دخلت مصر في حوزتهم وهم يجردون الجند لرد هجمات العرب والعرب يهزمونهم"

ويبدو واضحاً أن إشارة جرجي زيدان "أن العنصر العربي كان في أوائل النصرانية غالبا على صحراء مصر الشرقية والحبشة والنوبة" ترجع إلى ما ذكره بليني و سترابو الذين كتبا في ذلك الوقت. ويتضح مدى رجوع واستشهاد المؤلفين بما ذكره أولئك المؤرخين غافلين أو متغافلين عن المعنى الأصلي لتلك الاشارة الذي لا يرجع إلى الجنس العربي بل يرجع إلى أي قبائل بدوية سامية في المنطقة. ولم يكتف جرجي زيدان بذلك

[1] جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام ص ٩٤.

[2] نفس المرجع ص ٩٥.

بل ربط بين ما ذكره المؤرخون في القرن الميلادي الأول مع ما ذكره ابن خلدون الذي تفصله قروناً كثيرة عن عصر بليني و سترابو.

والجزء الآخر والأكثر غرابة هو ما نقله جرجي زيدان من شارب عن أحداث وقعت أثناء حملة الرومان على بلاد العرب كما هو مذكور في النص أعلاه وجاء فيه: "فانتهز أولئك العرب تلك الفرصة وزحفوا على الصعيد وضايقوا أهله" وعبارة: "أولئك العرب" ترجع إلى ما ذكرهم بليني و سترابو كما هو واضح من النص أعلاه.

فأولئك العرب انتهزوا خروج جيش الرومان من مصر لغزو جزيرة العرب "فزحفوا على الصعيد وضايقوا أهله ... وكانت عليهم ملكة يقال لها قندافة " ويوضح جرجي كيف أن تلك الحروب كانت مستمرة " لأن الرومانيين ما زالوا منذ دخلت مصر في حوزتهم وهم يجردون الجند لرد هجمات العرب والعرب يهزمونهم" وقد ذكر جرجي زيدان ذلك في سياق الحقيقة التاريخية الثابتة. فماذا يقول التاريخ عن تلك الأحداث؟

أود أولاً الإشارة إلى أنني لم أتمكن من الاطلاع على نص شارب، ولذلك سأكتفي في التعليق عليه على ما نقله جرجي زيدان. يلاحظ أن شارب أشار إلى أولئك العرب بـ"عرب الأحباش"، بينما ربطهم جرجي بالعرب الذين ذكرهم بليني و سترابو، ولم يستبعد ارتباطهم بالعرب المعاصرين لابن خلدون في المنطقة. وكان الكتاب العرب المبكرين يطلقون في بعض الأحيان كلمة الحبش للدلالة على معنى واسع يتضمن السودان كما يتضح من نص المسعودي التالي:

"وأما بلاد الواحات - وهي بين بلاد مصر والإسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم ... وكلُّ ما ذكرنا من بلاد الأحابش ما كان من غربي اليمن و جدة و الحجاز مما يلي بحر القلزم، فبلاد قشفة لا خير في أرضها، ولا شيء يحمل من ساحلها إلا ما وصفنا من الذبل والنمور وغيرهما."

ولست أدري ماذا قصد شارب بعرب الأحباش. أما ما حدث في أثناء غياب الجزء الأكبر من الجيش الروماني من حروب – كما جاء في النص - فكتب التاريخ

تحدثنا عن حروب الرومان ومملكة مروي. ويمكن تلخيص العلاقات بين السودان ومصر فيما يلي[1]:

منذ أن بسط الرومان نفوذهم على صعيد مصر حتى أسوان عام ٣١ ق.م. دخلوا في حروب مع السودان قادت مملكة مروي مرحلتها الأولى حتى القرن الأول الميلادي. وقد أغتنمت ملكة مروي كنداكة غزوة الرومان لشبه الجزيرة العربية فأغارت على صعيد مصر واحتلوا طيبة عام ٢٣ ق.م.

واستمر ذلك الصراع لمدة ثلاث سنوات تقريباً انتهى بتوقيع صلح بين الطرفين. ومنذ منتصف القرن الأول الميلادي تحسنت العلاقات بين مروي والرومان، ويبدو أن ملوك مروي تأكدوا من حسن نوايا سياسة الرومان السلمية بعد البعثة الكشفية التي أرسلوها إلى داخل السودان.

ولكن الأوضاع تغيرت منذ القرن الثالث الميلادي بدخول قبيلة البليميون والنوباديين في الصراع. ويرى الباحثون أن البليميون فرع من البجة وقد كانوا مستقرين في المنطقة الواقعة جنوبي أسوان. ويبدو أنهم لم يكونوا خاضعين لسلطة مروي المباشرة في القرن الثالث الميلادي إذ تشير المصادر إلى صراعهم ضد الرومان في ذلك الوقت.

ويبدو أن البليميون كانوا على درجة متقدمة من التنظيم إذ يذكر أوريك بيتس أنهم تحالفوا عام ٢٧٠م مع زنوبيا (الزباء) ملكة المستعمرة الرومانية بالميرا (تدمر) في دمشق عندما هاجمت الرومان في مصر. وظل الصراع دائراً بينهم وبين الرومان الذين كانوا يواجهون ضغوط القبائل الجرمانية على حدودهم الشمالية في أوربا، ولذلك سعوا للاستعانة بالنوباديين (Nubatae) في الصحراء الغربية للنيل.

[1] A. J. Arkell, *A History of the Arabs in the Sudan* 2nd ed p 160; Oric Bates, *The Eastern Linyans* p 184, 226 – 228.

شوقي الجمل، تاريخ سودان وادي النيل ج ١ ص ١٨٢ – ١٨٩. ومحمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم ص ١٥٦ – ١٦٤.

ويذكر المؤرخون أن إشارة بليني إلى (Nubae) ربما كانت أول إشارة إلى النوباديين. وهم جزء من القبائل الكثيرة المنتشرة في الجزء الغربي من الصحراء الكبري والذين عرفوا بالقبائل الليبية. وقد ذكر بليني أنهم يقطنون الجهة الغربية من النيل شمالي مروي، ووضح أنهم لم يكونوا خاضعين لسطة مروي، ويرى بيتس بناءً على ما ذكره بطلميوس أنهم ربما كانوا امتداداً لقبائل الجرمانتيين في الصحراء الكبرى.[1]

ويرى بعض المؤرخين أن النوبادي أتوا أساساً من شمال دارفور و كردفان ، وانتشروا في القرن الثالث حتى الواحة الخارجة، وأن الأمبراطور الروماني دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥م) استعان بهم - كما ذكر المؤرخ الروماني بروكوبيوس - وطلب منهم الهجرة والاستقرار في جنوبي أسوان للمساعدة في صد هجمات البليميون على حدودهم.[2]

قدم النوباديون إلى النيل واستقروا إلى جانب البليميون، وبدلاً من أن يساعدوا في صد غارات البليميين اتحدوا معهم في الهجوم على الرومان. ففي عام ٤٥٣م أشارت المصادر إلى حملة رومانية على النوباديين والبجة. وظل اتحاد البليميين والنوباديين قوياً ضد الرومان حتى أنهم اضطروا الرومان لدفع مبالغ سنوية محددة ثمناً للسلم معهم حتى بداية الثلث الأول من القرن السادس الميلادي عندما اعتنق النوباديون المسيحية في عصر الحكم البيزنطي لمصر، وأسسوا مملكتهم نوباديا التي اتخذت فرس عاصمة لها، ونتهى الصراع على حدود مصر البيزنطية مع السودان.

هذا ملخص العلاقات بين السودانيين والرومان منذ عهد مروي وحتى عصر نوباديا، وكيف كان سكان الصحراء الغربية للنيل دائمي الحضور بل وقادة تلك العلاقات. فكيف يستقيم ذلك مع ما ذكره جرجي زيدان من أن عرب النوبة وملكتهم

---

[1] Oric Bates, *The Eastern Libyans* p 49 note 8>

[2] Arkell, *A History of the Arabs in the Sudan* 2nd ed p 16٨; Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan* Vol.1 p 25.

كنداكة حاربوا الرومان وظلوا يحاربونهم حتى أصبحت مصر عربية. وإذا كان بعض الكتاب – مثل دروزة – قد جعل الفراعنة والليبيين عرباً، أعتقد أنه ينبغي أيضاً أن نسلم بما قدمه جرجي زيدان من أن المرويين والقبائل القاطنة في الصحراء الغربية عرباً أيضاً دون أى اعتراض.

ونعود إلى ضرار الذي أشار إلى قبيلة عربية أخرى هاجرت إلى شرق السودان قبل الإسلام وهي قبيلة البني عامر. وتحدث عن أصولها واستقرارها ولغتها. ونقل عن ترمنجهام وغيره من الكتاب الأوربيين ما دونوه عن تراث هذه القبيلة الذي يَروي انتسابها إلى عامر بن كنو الذي هاجر من اليمن إلى شرق السودان بعد انهيار سد مأرب.

وأضاف قائلا: "عندما نزحت قبيلة بني عامر وغيرها من القبائل العربية إلى الأراضي السودانية الساحلية لم تكن تتحدث اللغة العربية الفصحى لأن هذه اللغة لم تكن قد أخذت معالمها المعروفة الآن، ولم تكن هي اللغة السائدة الوحيدة في الجزيرة العربية، بل كانت هذه القبيلة تتحدث لغة ساميةايشير إلى لغات جنوب شبه الجزيرة] قريبة من العربية هي المسماه باللغة "البني عامرية" والتي عرفت بين سكان المملكة البجاوية باللغة التيجرية". من المعروف في علم اللغة أن اللغة التيجرية تنتمي إلى المجموعة السامية بينما تنتمي البداويبت إلى المجموعة الحامية.[1]

كما ذكر ضرار أن أول من تكلم لغة البني عامر هم "أهل اليمن وساحل ارتريا وقبيلة ثمود ويهود اليمن."[2] وبعد أن اطمأن ضرار إلى أن لغة بني عامر هي إحدى لغات اليمن الجنوبي العربية، بدأ في البحث عن أصل قبيلة البني عامر في اليمن ولماذا أطلق لفظ تيجرية على لغتهم في السودان؟ فذكر أن هنالك قبيلة ومخلاف في اليمن عرف – قبل الإسلام – ببني عامر، ولا بد أن أفراد تلك الفبيلة هم الذين هاجروا للسودان بعد انهيار سد مأرب كما يقول التراث المحلي للقبيلة البني عامر السودانية.

---

[1] ضرار صالح ضرار، تاريخ شرق السودان ج ١ ص ١٠٢ – ١٠٥.

[2] نفس المرجع ج ١ ص ٥٥.

وعن أصل اسم "تيجرية" ذكر أن الكلمة مشتقة "من لفظة تجارة، ثم نسبت إلى "تِويجر" تصغيراً لتاجر مع إحداث التغيير العربي في اللفظ. وهذا يعني أنه من الممكن أن تكون هذه اللغة المنسوبة إلى تِويجر قد انتشرت أيضا في تلك المنطقة بسبب تحدث بني عامر بن كنو وتجارهم القادمين من جنوب الجزيرة بها. وهكذا أصبح اسم اللغة "تيجرية"

ومن الواضح أن ضرار – وهو ينتمي إلى المدرسة التي حاولت فرض صبغة العروبة على السودان – حاول بحسن نية وبمنطلق قومي آمن به وكان ذلك التوجه هو السائد في عصره أن يثبت عروبة البني عامر. ونسبة لأن التوجه العربي كان من بين السبل المطروحة لمحاربة الاستعمار البريطاني فقد اجتهد ضرار في محاولة التخريجات السابقة والتي بالطبع تفتقر إلى الأدلة التي تدعمها.

فالمصادر العربية المبكرة كما ذكرنا لم تذكر هجرة عربية إلى السودان قبل الإسلام، وهنالك جزء آخر من التراث المحلي في السودان لم يربط القبيلة بعامر بن كنو بل ربطها مرة بعامر بن الضرب العدواني ومرةً أخرى بعامر بن الطفيل.[1]

ورغم تحفظاتنا على ما ورد في هذا التراث إلا أننا نشير إلى أن كلا العامرين ينتميان إلى عرب الشمال ولغتهم ليست لغة عرب الجنوب بل هي اللغة العربية الفصحى التي سادت بعد الإسلام. وعلى كل حال فسنناقش ذلك بالتفصيل في موضعه عند الحديث عن هجرات العرب إلى السودان بعد الإسلام. وما نود الإشارة إليه هنا هو عدم وجود أدلة تسند ما حاول الأستاذ ضرار اثباته.

وهنالك جانب آخر استُشْهد به في قضية العروبة في مصر قبل الإسلام ثم تتوجه الاشارة بعد ذلك إلى السودان، ذلك الجانب هو اللغة الهيرغليفية. فقد درج الكتاب المصريون علي جعل قدماء المصريين أمة سامية لأن اللغة المصرية القديمة وصفت بأنها لغة سامية. ونكتفي هنا بالاشارة إلى ما ينقله الكتاب المصرون من "كتاب تاريخ مصر

[1] See Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan* Vol.٢ p 132, 146.

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي" لعالم المصريات المشهور الأستاذ جيمس هنري برستد ترجمة د. حسن كمال الذى كان طبيباً في مستشفى الحميات بالقاهرة:

"والمعروف أن أقواما ساميين من عرب آسيا غزوا وادي النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة. وبالرغم مما اعترى اللغة من تغيير وتحريف باختلاط السكان فقد حافظت على ساميتها بمرور الزمن. ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن هذه اللغة وجدت كاملة على الآثار منذ أقدم عصورها."[1]

وبناءً على هذا النص فإن النقوش المصرية القديمة أوضحت أن العرب غزوا وادي النيل وصبغوه بصبغتهم وأن لغتهم حافظت على ساميتها وأنها وجدت كاملة في الآثار القديمة.

وفيما يلي نص برستد الأصلي باللغة الانجليزية الذي تمت ترجمته أعلاه:[2]

"An invasion of the Nile Valley by Semitic nomads of Asia stamped its essential character unmistakably upon the language of the African people there. The earliest strata of the Egyptian language accessible to us, betray clearly this composite origin. While still colored by its African antecedent, the language is in structure Semitic."

ويفهم من هذا النص أن غزو القائل السامية لوادي النيل ترك بصماته الواضحة على لغة شعبه الافريقي، ويلاحظ ذلك في مراحل تكوين لغته المبكر بأصلها الافريقي وتركيبها السامي.

ويلاحظ على الترجمة العربية أنها عدلت معنى النص ونسبت إلى برستد مالم يقله، فقد جعلت الغزاة عرباً بينما ذكر برستد أنهم ساميون، وبالطبع فليس كل الساميين عرباً. وأسقطت الترجمة ما ورد في نص برستد الانجليزي عن شعب وادي النيل الافريقي و لغته الإفريقية.

[1] هنري برستدن تاريخ مصر أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة كمال حسن ص ١٧.

[2] James Henry Breasted, *A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest* New York: Charles Scriber's Sons

فالكاتب تعمد إبعاد أي أثر افريقي على سكان مصر ولغتهم، ولا نلومه على ذلك بقدر ما نلومه على اسناد ذلك إلى مؤلف مرموق له اسمه في علم التاريخ المصري القديم. ولعل الكاتب استغل ذلك وسعى لتسويق تجارته تحت اسم موثوق بمعرفته مثل برستد. ولا أعتقد أن الكاتب كان في حاجة لذلك، إذ إن دخول الهجرات السامية إفريقيا وتداخل اللغات أمر معروف وموثق في التاريخ وقد تعرضنا لذلك في الفصل الأول.

يهدف هذا الفصل إلى التَّعرف سريعاً على هجرة واستقرار القبائل العربية في مصر منذ الفتح الإسلامي، ثم دخول أعداد كبيرة من الجنود المماليك من جنسيات مختلفة في مصر منذ القرن الثالث الهجري (٩ م) ثم هجرة القبائل المغربية التي أطلقت عليها المصادر القبائل البربرية[1]. وسوف نشير إليها هنا بـ "القبائل المغربية أو الصحراوية" لأن معظم القبائل المغربية التي دخلت مصر كانت قبائل صحراوية عاشت في الصحراء الكبرى وعلى أطرافها الشمالية ثم نزح بعضها واستقر في مصر.

ولما كان دخول الإسلام واللغة العربية والعروبة ونهاية حكم الممالك المسيحية في السودان قد ارتبط بصورة مباشرة بمصر كان لابد من التعرف على سكان مصر الذين امتزجوا بعد دخول الإسلام بالعناصر التي وفدت عليهم وما تلى ذلك من تحولات ثقافية ولغوية أدت إلى تكوين المجتمع المصري الجديد.

---

[1] عندما دخل العرب شمال افريقيا وجدوا الرومان أو الروم يطلقون على تلك القبائل اسم البربر هو الاسم الذي أطلق على الشعوب خارج نطاق الحضارة الرومانية، أي الشعوب غير المتحضرة في مفهومهم. وعرَّب العرب الاسم فأصبح اسم تلك القبائل باللغة العربية "البربر"، وبحث العرب عن تبرير للاسم فقالوا – كما ذكر ابن خلدون – إن اسم البربر أطلق عليهم لبربرة في لسانهم. وسكان شمال افريقيا الآن لا يحبون استخدام ذلك الاسم وأحيوا الاسم القديم لتلك القبائل وهو "الأمازيغ"

الفصل الثالث

المجتمع الجديد في جنوب مصر بعد الإسلام

- العرب في مصر حتى بداية القرن الثالث الهجري (٩م)
- بداية تكوين المجتمع الجديد
- اللغة العربية والهوية
- القبائل العربية والهوية
- القبائل العربية في جنوب مصر
- القبائل المغربية والعربان
- إمارات العربان

العرب في مصر حتى بداية القرن الثالث الهجري (٩م)

بدأ دخول القبائل العربية مصر في أول عصر الفتوحات الإسلامية في بداية القرن الأول الهجري (٧ م) بقيادة عمرو بن العاص و الزبير بن العوام . وقد استقرت هذه المجموعة في بداية الأمر في الفسطاط التي أصبحت عاصمة مصر وفي المناطق المتاخمة لها و في الاسكندرية . وتم حصر وتسجيل العرب في الديوان الذي بدأه عمرو بن العاص تحت اسم "أهل الراية" ولم يدونوا تحت أسماء قبائلهم.

ولم يكن مسموحاً للقبائل العربية في البداية الاشتغال بالزراعة والارتباط بالأرض وانحصرت دائرة نشاطهم في السياسة والحرب، وكانوا يتحصلون على مخصصات ثابتة (عطاء) من الدولة لكي يتفرغوا للدفاع عنها. وذكر الكندي أن عدد المجموعة الأولى من العرب التي شهدت الفتح كانت نحو خمسة عشر ألفاً وخمسمائة.[1] وأوضح المقريزي مصير أولئك العرب الأوائل قائلا: "أعلم أن العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر وجهلت أحوال أكثر أعقابهم."[2]

وقد شهد القرن الأول الهجري اضطرابات متلاحقة مثل قتل عثمان والصراع بين على ومنافسيه، ثم الصراع بين الأمويين ومنافسيهم من الشيعة والزبيريين – والتي لعب عرب مصر دوراً بارزاً فيها - حتى استقرت الأضاع في العقد الثامن من القرن الأول الهجري. وبعدها بدأ توافد العرب إلى مصر التي أصبحت مركزاً للتجمع والإمدادات الحربية في شمال إفريقيا. وقد استقرت مجموعات منهم في مصر بينما انتشر الباقون في مناطق ليبيا و تونس و المغرب و الأندلس .

وشهد نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني إعادة شكيل أوضاع واستقرار القبائل العربية في مصر. فقد تم تجديد تدوين القبائل العربية في عام ٨٦هـ/٧٠٥ م،

---

[1] الكندي، كتاب الولاة والقضاة، تحقيق رُفِن جُوِست. طبعة بيروت ١٩٠٨. أعادت نشره دار الكتاب الاسلامى ب ت، ص٨

[2] المقريزي، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل تحقيق

بية ص٢

وأُعيد تسجيلهم مرة أخرى عام ١٠٢هـ/٧٢٠ م، وكانت بعض المجموعات الصغيرة من القبائل قد سجلت تحت اسماء قبائل أخرى، بينما ظل بعضها تحت سجل "أهل الراية". وفي التدوين الأخير استقلت بعض القبائل مُسجلةً تحت أسمائها، وانفصل بعضها الآخر من سجل أهل الراية لتدون تحت اسمها مثل قبيلة قضاعة التي كان وإلى مصر في ذلك الوقت بشر بن صفوان الكلبي ينتمي إليها.

كما شهد بداية القرن الثاني ثورات الأقباط ضد حكام مصر بسبب تقديرات الضرائب. وقد أدى ذلك إلى تغيير سياسة الدولة تجاه القبائل العربية فسمح لهم بالاشتغال بالزراعة لكي تتقوى بهم السلطات الحاكمة أمام ثورات المزارعين الأقباط. فبدأ انتشار العرب في القرى والاختلاط بالسكان المحليين. وشجع الولاة هجرة القبائل العربية فدخلت مصر في ذلك الوقت - كما ذكر الكندي[1] - هجرة قيس الكبرى والتي بلغ عددها أفرادها كبيرهم وصغيرهم نحو خمسة آلاف. كما وصولت جماعات كبيرة من قبيلة تميم في أول عصر الدولة العباسية عام ١٣٢هـ/٧٥٠ م.

ولم تستقر الأوضاع في مصر تحت حكم العباسيين، فقد سجلت المصادر التاريخية مثل كتاب الولاة للكندي وكتاب تاريخ الأقباط[2] ثورات وحروب عديدة تحت قيادة العرب - الذين شرعوا بدورهم في معارضة سياسة الضرائب - أو الأقباط أو تحالف الفئتين ضد ولاة العباسيين. وقُتل من جراء تلك الحروب أعداد كبيرة من الجانبين. وظل هذا الوضع حتى منتصف القرن الثالث الهجرى الذى يمثل نهاية عصر الولاة وبداية عصر جديد للعرب في مصر.

وبقي أن نشير إلى أن كل الأحداث المتعلقة بالعرب في تلك الفترة المبكرة كان مركزها الوجه البحري أي المناطق الواقعة إلى الشمال من القاهرة والمناطق المتاخمة لها جنوباً حيث كان استقرار القبائل العربية. وأتي تدخل الصعيد في تلك الأحداث بطريق

---

[1] كتاب الولاة ص ٧٧.

[2] المقريزي، تاريخ الأقباط المعروف بالقول الابريزي. دراسة وتحقيق د عبد المجيد دياب. دبي: دار الفضيلة تاريخ الايداع بدار الكتب ١٩٨٨ ص٩٤ وما بعدها. الكندي، تاريخ الولاة ص ١١٦ وما بدها

غير مباشر عندما تتقهقر بعض القبائل الثائرة إلى الجنوب فتطاردها القوات الحكومية.

وقد أتى دور هجرة واستقرار القبائل العربية في صعيد مصر في نهاية هذه المرحلة. فقد أورد اليعقوبي في كتابه البلدان[1] استقرار بعض بطون قبيلة ربيعة العدنانية في وادي العلاقي الذي يقع إلى الشرق من مدينة أسوان داخل الحدود المصرية الحالية، وسيأتي الحديث عنهم لاحقا، ولم يتم الاختلاط بين العرب والسكان المحليين حتى منطقة الدلتا - حيث استقرت القبائل العربية - إلا في نطاق ضيق. فعندما أتى الخليفة المأمون إلى مصر ابان ثورات عرب وأقباط الوجه البحري عام ٢١٧هـ/٨٣٢م كان يتخاطب مع الأقباط عن طريق مترجم لعدم مقدرة الأقباط التحدث بالعربية.

وكان العرب يتميزون بأخذ العطاء الذي حرم منه أهل البلاد الأصليين، وكانوا يعزلون أنفسهم ويتعالون على الأقباط والاختلاط بهم كما يتضح من مسألة انتساب بعض الأقباط للعرب في الحادثة المشهورة في١٨٤ - ١٩٤هـ/٨٠٠- ٨١٠م والمعروفة باسم قضية أهل الحرس. فقد ذكر الكندي[2] أن جماعة من أهل الحرس الأقباط في الدلتا أدعوا النسب العربي إلى قضاعة وناصرهم بعض العرب هناك ليزدادوا بهم قوة ضد ولاة العباسيين. وبعد أن دفعوا الكثير من الأموال لوإلى مصر وللبعض الآخر في بغداد أُلحقوا بقضاعة. فقال الشاعر:

ومن أعجب الأشياء أن عصابة ❖❖ من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا

وقالوا أبونا حوتك وأبوهم ❖❖ من القبط علج حبله متذبذب

وجاؤا بأحلاف من الحوف فادعوا ❖❖ بأنهموا منهم سفاهاً وأجلبوا

ألا لعن الرحمان من كان راضيا بهم ❖❖ رغما ما دامت الشمس تغرب

---

[1] اليعقوبي، كتاب البلدان في مصطفي مسعد، المكتبة السودانية العربية جامعة القاهرة فرع الخرطوم ١٩٧٢، ص ١٤.

[2] كتاب الولاة، ص ٢٩٧- ٢٩٩.

بداية تكوين المجتمع المصري الجديد

بدأت هذه المرحلة في بداية القرن الثالث الهجري (٩ م) مع بداية التحول الذي طرأ على نظام الجندية وإعداد الجيوش. ففي العقود الأولى من عمر الخلافة كان العرب هم العنصر الذي تمت على أيديهم قيام الدولة وتوسعها والدفاع عنها ، فقد كانوا متفرغين لهذا العمل ويتقاضون من أجله دخلاً ثابتاً من الدولة عرف بالعطاء لسد متطلبات حياتهم. فارتبط النظام الإداري منذ بدايته في المناطق المفتوحة بالجنود وقوادهم. وهكذا كان للجيش منذ قيام الخلافة دور قيادي في الأوضاع الادارية والسياسية.

وفي عصر الخليفة الأموى معاوية بن أبي سفيان بدأ الجيش يقوم بوظيفة جديدة وهي الدفاع عن الخليفة والمحافظة على سلطته. وبدأ استقرار الجنود في المدن إلى جانب الحكام. وكان العرب يمثلون القوة الأساس في الجيش حتى قيام الدولة العباسية في بداية القرن الثاني الهجري (٨ م) حيث بدأ دور العناصر غير العربية في الجيش. وبدأ ذلك بالجنود الفرس الذين حاربوا القوات العربية المؤيدة للخليفة الأمين بن هارون الرشيد. وكان الفرس موالين للمأمون الذي تولى الخلافة بعد هزيمة أخيه. فأصبح النفوذ والقيادة السياسية بأيدي الجنود الفرس وقواهم حالين بذلك محل الجنود العرب.

غير أن المعتصم الأخ الثالث للمأمون والذي تولى الخلافة بعده عام ٢١٨هـ/٨٣٣ كون جيشاً جديدا من الأتراك إلى جانب الفرس بغرض إضعاف نفوذ الجنود الفرس والعرب، و بدأت منذ ذلك الوقت سيطرة الأتراك على الحياة السياسية في العالم الإسلامي. أصدر المعتصم أمره لوإلى مصر باسقاط أسماء العرب من ديوان الجند وقطع أعطياتهم. ويعني ذلك إنهاء خدمات العرب في مصر كجنود للدولة ، فلجأوا إلى البحث عن مصادر أخرى لمعاشهم وانتشروا في مختلف أنحاء مصر لاسيما في الأرياف للعمل بالزراعة. وترتب علـى ذلك إزدياد اختلاط العرب بالسكان المحليين وما ترتب علية من تحولات.

وبوصولِ الأتراك للسلطة بدأ نمط جديد لإعداد الجيوش عرف أفراده باسم المماليك. فقد كان يتم شراء أعداد كبيرة من الصبيان دون سن البلوغ يجلبون من أماكن متفرقة بدأت في أول الأمر من أواسط آسيا موطن الأتراك الأصلي. كما كانوا يجلبون أيضا من شرق أوربا وجزر البحر المتوسط وشمال إفريقيا ومناطق جنوبي الصحراء الكبري الذين أطلق عليهم السودان أي السود.

يتلقى أولئك الصبيان – المماليك – التعليم والتدريب العسكري تحت إشراف سيدهم حتى يكونوا مؤهلين للانخراط في سلك الجندية. ويواصل المتفوقون منهم تدريباتهم ودراساتهم ويتدرجوا في سلك الترقي حتى يصبحوا قواداً للجند. وكان ولاء اولئك المماليك لسيدهم وليس للدولة أو الحاكم، وكان واجبهم طاعة سيدهم في كل ما يأمر به.

وبدأ نفوذ وقوة المماليك الأتراك منذ منتصف القرن الثالث الهجري حيث هيمنوا على الحياة السياسية في بغداد وسلبوا السلطة من يد الخليفة فأطلق بعض المؤرخين على تلك الفترة اسم "فترة الحكم العسكري" في بغداد . وأدى ذلك إلى تصدع دعائم الحكم المركزي للخلافة وبداية ما يمكن تسميته بالإدارة غير المركزية.

فقد بدأ حكام الولايات من القواد أو الأسر القوية الاستقلال بإدارة ولاياتهم دون الرجوع لسلطة الخلافة المركزية في بغداد بعد أن أمّنوا مواقفهم بقواتهم من المماليك. وأخذت تلك الولايات أسماء مؤسسيها كدويلات تتمتع باستقلال إدارتها عن سلطة بغداد، لكنها اعترفت بسلطة الخليفة الأسمية، وتعتبر نفسها جزءاً من خلافته.[1] وتبارى الحكام والقواد في اقتناء وتدريب المماليك لأنهم الوسيلة المباشرة للنفوذ والوصول إلى السلطة والمحافظة عليها.

وقد بدأ هذا التحول في مصر بانفصال حاكم ولاية مصر التركي أحمد بن طولون عن سلطة بغداد مؤسساً ما عرف في التاريخ باسم الدولة الطولونية ٢٥٤–

[1] بدأ أيضاً ظهور دول شيعية وإباضية كما في شمال افريقيا وجنوب شبه الجزيرة العربية لم تكن تعترف بسلطة الخليفة السني في بغداد، فكانت دولاٍ مستقلة استقلالاً كاملاً عن الخلافة.

٢٩٣هـ/٨٦٨- ٩٠٦ م) ثم قيام الدولة الاخشيدية (٣٢٣-٤٥٦ هـ/٩٤٥- ١٠٦٤) ثم الدولة الفاطمية الشيعية (٣٥٦- هـ/ ٩٦٧ م) ثم الدولة الأيوبية ، وأخيراً دولة المماليك.

لم يكن كل مؤسسو هذه الدول وحكامها عرباً باستثناء الأسرة الفاطمية. وكان لكل واحدة من تلك الدول جيشها الخاص بها. فالوصول إلى السلطة والمحافظة عليها يعتمد على جنود الحكام الذين يبلغ تعدادهم عشرات الألوف. فالحكام يصلون إلى السلطة عن طريق مماليكهم الخاصين.

ويقوم الحكام عادة عند تولي السلطة باضعاف قوة المماليك السابقة وشراء وإعداد المزيد من مماليكهم الخاصين ليضمنوا ولاءهم وبالتالي البقاء في السلطة. وهكذا بلغت أعداد الجنود المماليك عشرات ومئات الألوف، وكان المماليك غير المرغوب في خدمتهم من قبل السلطان الجديد أو المسرحون الذين استبدلهم السلطان بمماليكه الخاصة ينخرطون في سلك الحياة العامة إذا لم يجدوا من يطلب خدمتهم.

أدى هذا التغير في أعداد الجيوش إلى استقبال المجتمع المصري للآلاف من الرجال من جنسيات مختلفة غلب عليهم العنصر التركي الذي كان يجلب من أواسط آسيا. ولم ينخرط المصريون حتى الذين أسلموا في سلك الجندية. ويمكن إعطاء بعض الأمثلة التي توضح الصورة العامة لعدد الجنود المماليك قبل قيام عصر المماليك.

فقد بلغ عدد جيش الذي قاده أحمد ابن طولون مؤسس الدولة الطولونية إلى برقة – في شرقي ليبيا الحالية - مائة ألف جندي. وبلغ عدد جنود الأخشيدي مؤسس الدولة الاخشيدية أربعمائة ألف جندي، وكان جنود الخليفة الفاطمي المعز لدين الله – كما عبر المقريزي – أكثر من ذلك بكثير مثل جيوش الاسكندر. وبلغ عدد الجنود السود لوالدة الخليفة الفاطمي المستنصر – وكانت من السودان - خمسين ألفاً. وكان أغلب جنود الفاطميين من المغرب العربي.

وكانت عساكر صلاح الدين الأيوبي الكردي الأصل مؤسس الدولة الأيوبية ١٢ ألف فارس لكل فارس ما بين عشرة إلى مائة تابع.[1] وإذا أخذنا بمتوسط أتباع كل فارس يفوق العدد نصف المليون من الأكراد والأتراك وغيرهم. أما دولة المماليك فقد أسسها مماليك الأيوبيين الأتراك والشراكسة. ويمكن أن نتصور الألوف الكثيرة من الجنود المماليك الذين خدموا سلاطين المماليك خلال فترة حكمهم التي امتدت لأكثر من قرنين.

وكان من يتقاعدون من الجنود أو يسرحون عند تولية السلطان الجديد يحل محلهم مماليك وجنود جدد. ولذلك يمكن تقدير عدد من انخرط في سلك الجندية في عصر الدولة الواحدة مئات الألوف، وتتضاعف أعدادهم إذا أمتد زمن حكم الأسرة كما في دولة الفاطميين والمماليك.

ولم يجند أولئك الحكام العناصر العربية بل كان بعضهم يستعين في حروبه بالعرب الذين كانوا مستقرين بمصر. وهكذا يمكن تقدير أعداد المماليك - الجنود المرتزقة من غير العرب - الذين دخلوا مصر واستقروا فيها منذ منتصف القرن الثالث الهجري (٩ م) بالملايين، ولننتقل الآن إلى العرب في مصر في تلك الفترة.

انتشار العرب في مصر:

انحصر دخول العرب في مصر بصورة أساسية في الفترة السابقة لبداية القرن الثالث الهجري (٩ م). فبعد دخول عرب الفتح توالى دخول العرب وبخاصة في العصر الأموي عندما أصبحت مصر مركز الإمدادت للجيوش المقاتلة في شمال إفريقيا. فكانت الجيوش العربية ترسل إلى مصر ومنها إلى شمال إفريقيا حتى استقرت فيها أوضاع المسلمين نحو نهاية القرن الهجري الأول، ولذلك لم يكن نصيب مصر كبيراً من تلك الفرق إذ استقرت تلك القوات في المراكز الإسلامية ما بين مصر والمحيط الأطلسي.

---

[1] المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص١٧٧- ١٧٩ (موقع الوراق)

وإلى جانب ذلك دخل بعض الجنود العرب مصر كما كان يحدث عند دخول الوالي الجديد في العصرين الأموي والعباسي حتى آخر عصر الولاة العرب في منتصف القرن الثالث الهجري. وقد وفدت جماعات من قبيلة تميم في أول العصر العباسي. وفي العقد الخامس من القرن الثالث الهجري دخلت ربيعة مصر واتجهت إلى أرض المعدن.

أما بعد منتصف القرن الثالث الهجري فقد انتهى عصر وفود العرب إلى مصر كجنود ، وانتهى أيضاً عصر هجرات القبائل العربية باستثناءات قليلة مثل استقدام الفاطميين في آخر القرن الرابع الهجري لبني سليم وبني هلال إلى صحراء مصر الشرقية ، ثم توجيههم إلى المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري ، واستقدامهم أيضاً لجماعات من قبيلة سنبس من طيء ووطنوهم في الوجه البحري. ومثل استقدام صلاح الدين الأيوبي لثعلبة وطائفة من جرم القضاعية واستيطانهم الوجه البحري.[1]

ويرجع السبب في توقف توالى الهجرات العربية إلى مصر بعد منتصف القرن الثالث الهجري إلى هيمنة العناصر غير العربية على حكم مصر في كل العصور التالية باستثناء العصرالفاطمي فقط في القرنين الرابع والخامس الهجريين (١٠ و١١م) وعدم استعانة أولئك الحكام بالعرب في إعداد جيوشهم. ولذلك فإن القبائل العربية التي دخلت مصر وتركت آثاراً واضحة عليها هي الهجرات حتى بداية القرن الثالث الهجري.

وإذا قارنا عدد العرب الذين وفدوا إلى مصر بما في ذلك من تبقى من بني هلال الذين غادروا إلى المغرب، نجد أن عدد المهاجرين العرب متواضعاً جداً بالمقارنة إلى عدد جيوش المماليك التي وفدت إلى مصر من مختلف مواطنهم من أواسط آسيا إلى شرق أوربا والمغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. فقد قدرنا أن أعداد تلك الجيوش يرتفع إلى مئات الألوف وهو الرقم الذي لا يصله عدد المهاجرين العرب.

[1] المقريزي، البيان والاعراب ص٦ ٥ – ١٠، ٢٢، ١٢٦..

وقد قدر عدد سكان مصر إبان الفتح الإسلامي بنحو ثمانية عشر مليوناً بناءً على تقدير سيدة اسماعيل كاشف الذي استند إلى المعلومات التي وردت في المصادر العربية. فقد قُدر عدد من وجبت عليه الجزية – بناءً على ما ورد عند ابن عبد الحكم - بأكثر من ستة ملايين، هذا بالطبع بخلاف من لا تجب علية الجزية مثل النساء والأطفال والمسنين والقساوسة.

وذهبت سيدة بأن هؤلاء الستة ملايين يمثلون نحو ثلث السكان، فعدد السكان إذاً يقدر بثمانية عشر مليوناً. وقد شكت سيدة في دقة الرقم لأن تعداد سكان مصر في العصر البيزنطي السابق للعرب – كما قالت – كان يقدر بنحو سبعة ملايين وثلث.[1]

وقد أورد المقريزي رواية ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد (ت١٦٦ هـ/٧٨١م) أن والي مصر ١٠٩- ١١٦ هـ "مكث ومعه جماعة من الكتاب والأعوان ستة أشهر بالصعيد وثلاثة بالدلتا يحصون السكان، فبلغ عدد الرجال الذين تفرض عليهم الجزية خمسة ملايين." ووضح أن عدد القرى بلغ أكثر من عشرة آلاف قرية في كل منها خمسمائة رجل، وذلك بخلاف القرى الصغيرة (المني والكور).[2]

ويبدو توثيق رواية ابن عبد الحكم (ت ٢٥٤ هـ/٩٥٦م) عن سكان مصر في أول القرن الثاني الهجري مقبولاً. فالرواية مسنودة إلى الليث بن سعد الذي توفى بعد التعداد بخمسين سنة فقط أي أنه كان معاصراً لذلك التعداد. والزمن بينه وبين ابن عبد الحكم نحو ١٣٥ سنة وهو زمن ليس ببعيد لنقل الرواية. ولكن نلاحظ أن الفرق بين التعداد البيزنطي والإسلامي كبير جداً.

[1] سيدة اسماعيل كاشف، مصر في فجر الاسلام: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية. بيروت: درا الرائد العربي ط ٣، ١٩٨٦ ص ٢٣٠

[2] المقريزي، المواعظ والاعتبار(١٩٩٨) ج ١ ص ١٣٩

غير أن المعلومات الواردة عن تعداد آخر تم عام ٣٤٥هـ/٩٥٦ م أتى برقم يقل كثيراً عن رقم القرن الثاني الهجري. فقد أورد المقريزي (نفس المكان السابق) استناداً إلى من له معرفة بأمر الخراج والديوان أن عدد كور مصر وقراها عام ٣٤٥ هـ بلغ ٢٣٩٥.

ويلاحظ على هذا التقدير أن توثيقه لا يرقى إلى توثيق رواية تعداد القرن الثاني الهجري إذ لم يورد المقريزي مصدره، وأن عدد القرى فيه أقل من ربع عدد القرى في تعداد القرن الثاني مع عدم حدوث كوارث طبيعية أو أوبئة تؤدي إلى ذلك الانخفاض الكبير، وأنه أقل بكثير من تقديرات التعداد البيزنطي.

وإذا أخذنا بمتوسط التعدادات الثلاث، التعداد البيزنطي نحو سبعة ملايين وثلث، وتعداد القرن الثاني الهجري نحو ثمانية عشر مليوناً وتعداد عام ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م رغم ما عليه من مآخذ وهو أربعة ملايين ونصف باعتبار أن عدد السكان قد نقص الربع، يكون متوسط عدد السكان نحو عشرة ملايين. ورغم أن هذا التقدير لا يستند إلى أرقام موثوق بها إلا أنه قد يعطينا الفكرة العامة عن سكان مصر في ذلك الوقت لكي نقارنهم إلى أعداد المماليك والعرب و المغاربة الذين دخلوا عليهم.

وتبدوالأعداد الداخلة متواضعة جداً بالمقارنة إلى عدد المصريين، وبخاصة عدد القبائل العربية الذى جاء تقديرها صغيراً جدا بالمقارنة إلى عدد جيوش المماليك. ويمكن القول بصورة عامة أن معظم المماليك ذابوا في سكان المدن الكبرى بينما ذاب معظم العرب في سكان المناطق الريفية.

ولعل هذا ما دعى عبد الله خورشيد بالقول بـ "عدم حدوث تغيير في تكوين المصريين العام لقلة عدد العرب الوافدين بالنسبة إلى مجموع الشعب المصري. وهذه الظاهرة تلاحظ في جميع تاريخ مصر، فقد تعاور على المصريين كثير من الأجناس المختلفة من عرب إلى نوبيين إلى ليبيين إلى يونانيين إلى فرس إلى أتراك، امتزاجوا بالمصريين امتزاجاً دموياً دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير خصائص المصريين الجنسية. لأن هؤلاء الوافدين كانوا يفلحون فقط في تجديد دماء المصريين دون تغييرها، إذ لا يلبث

الشعب حتى يهضمهم ويتمثلهم وكان ذلك أحد عوامل احتفاظ المصريين بحيويتهم عبر العصور"[1]

اللغة العربية والهوية:

وهكذا اختلط العرب الذين دخلوا مصر بالسكان المحليين خاصة وأن الغالبية العظمى من العرب كانوا مستقرين يعملون في الزراعة كما سيتضح لنا عند الحديث عنهم. فالقبائل العربية بعد قرون كثيرة من استقرارهم في مصر قبل بداية دخول الإسلام السودان – في القرن السابع الهجري (١٣م) – قد اختلطوا وذابوا في السكان المحليين كما أوضح خورشيد أعلاه.

ولكن كان أهم آثار دخول القبائل العربية لمصر– بعد نشر الإسلام – هو انتشار اللغة العربية. فقد بدأت اللغة العربية في الانتشار منذ بداية دخول العرب باعتبارها لغة الدين ولغة الفاتحين. غير أن انتشارها لم يكن سريعاً في بداية الأمر فقد رأينا أن الخليفة المأمون عندما زار مصر عام ٢١٧هـ/٨٣٢ م كان يخاطب الأقباط بواسطة المترجمين.

كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية للإدراة والكنيسة والمعاملات في مصر إلى جانب اللغة القبطية لغة أهل البلاد. وقد انعش دخول العرب في البداية استخدام اللغة القبطية بانحسار استخدام اللغة اليونانية. ثم أدى تعريب الدواوين والادارة في بداية الربع الأخير من القرن الهجري الأول والسماح للعرب بالعمل في الزراعة واختلاطهم بالمصريين الى سرعة انتشار اللغة العربية.

وأدى اعتناق الكثير من الأقباط الإسلام إلى سرعة انتشارها. ويبدو أن الإسلام قد بدأ في الانتشار السريع بين المصريين، فقد بدأت مساهماتهم منذ وقت مبكر كرواد في المعارف حتى في اللغة العربية نفسها. فقد نُقل عن الامام الشافعي (في آخر

[1] عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاث الأولي للهجرة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ ص ٧٣ حاشية رقم ١٣٩.

القرن الثاني الهجري) أنه كان يطلب من تلميذه الربيع أن يأتيه برجل من أهل مصر يدعى سراج فيناظره ويعجب بغزارة علمه، ويقول بعد انصرافه: "يا ربيع نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم".[1]

وقد أصبح عدد المسلمين في مصر أغلبية منذ بداية القرن الثالث الهجري. كما بدأ الأقباط المسيحيون تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة الادارة لكي يتمكنوا من الحصول على بعض الوظائف. كما تمت أيضاً ترجمة الانجيل وعدة كتب دينية أخرى ألى اللغة العربية في فترة ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر(٦٥- ٨٦ هـ/٧٠٥- ٧٨٤ م)[2]

وأعتقد أن اسقاط أسماء العرب من ديوان العطاء وانتشار العرب الواسع في كل انحاء مصر طلباً للرزق منذ بداية القرن الثالث كان له الأثر الكبير في انتشار اللغة العربية. وقد نقلت سيدة اسماعيل كاشف عن السيوطي أن اللغة العربية أصبحت منذ القرن الرابع الهجري (١٠ م) لغة التخاطب بين المصريين عامة ولم تعد اللغة القبطية مفهومة لعامة الشعب حتى المسيحيين منهم[3].

ومنذ ذلك الوقت انحصر استخدام اللغة القبطية في نطاق ضيق في بعض الأمور الدينية والكنسية. وبدأ الأقباط يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية، فقد ألف البطريك الملكاني سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨/٩٤٠م) كتابه في التاريخ باللغة العربية، وألف ساويرس بن القفع (ت آخرالقرن الرابع الهجري) أسقف الأشمونيين في صعيد مصر

---

[1] نفس المرجع، ص ٢٤٦.

[2] أنظرعبد المجيد دياب دبي في مقدمة تحقيقه لكتاب تاريخ الأقباط المعروف بالقول الابريز للمقريزي، دار الفضيلة: بدون تاريخ ص ٣٣ و ٥٥

[3] أنظ سيدة اسماعيل كاشف، مصر في فجر الاسلام ص ٢٤٨. نقلا عن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢.

كتابه "سيرة الآباء البطاركة" باللغة العربية، كما تم جمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها إلى العربية[1].

ويلاحظ أن اللغة العربية كانت الرابط بين المسلمين، فقد بدأ الشعور العربي العرقي في الضعف بقيام الدولة العباسية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، إذ اعتمد العباسيون في قيام دولتهم وتوطيد أركانها على العنصر الفارسي. ثم جاء دور العنصر التركي منذ القرن الثالث الهجري، وتولى الأتراك وغبرهم من المماليك بعد ذلك قيادة العالم الإسلامي – قبل ظهور العثمانيين الأتراك - ما بين الهند و مصر ردحاً من الزمن.

ولذلك إلتف المسلمون حول اللغة العربية الرابط الذي جمع المسلمين باعتبارها لغة القرآن، واللغة التي يؤدون بها شعائرهم الدينية، واللغة التي توطد صلتهم بتراث الإسلام. فاللغة العربية أصبحت السمة الأولى للهوية الجديدة التي انتسب إليها كل أفراد المجتمع الجديد، مجتمع الأمة ما بين الهند و الأندلس . فالمواطنون من غير العرب لم يتعلموا اللغة العربية فقط بل أصبحوا أساتذتها.

يقول ابن خلدون "فكان صاحب صناعة النحو سيبويه الفارسي ومن بعده الزجاج ... وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب". وفي واقع الأمر فإن اللغة العربية أصبحت في ذلك الوقت لغة العلم والمعرفة إلى جانب كونها لغة الدين، فأقبل عليها غير العرب حتى صار حملة العلم في الملة الإسلامية كما عبر ابن خلدون " أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر... حملة الشريعة أو عامتهم من العجم ... مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي"[2]

وقد علقت سيدة اسماعيل كاشف على انتشار اللغة العربية في مصر بأنها ظاهرة تستحق الإمعان "لأن تنازل شعب عريق في المدنية كالشعب المصري عن لغته، واتخاذه

[1] عبد المجيد دياب، في مقدمة تحقيقة لكتاب تاريخ الأقباط. ص ٥٣

[2] ابن خلدون، كتاب العبر ج١ ص ٥٤٣- ٥٤٤. موقع الوراق

لغة شعب لا يوازيه في الحضارة أمر غير عادي." وقارنت بين "الشعوب المختلفة التي توالت على حكم مصر قبل العرب وكيف أنها لم تستطع القضاء على لغة المصريين."[1]

فاللغة العربية في مفهوم تلك المجتمعات لم تعد لغة جماعة عرقية محدودة بل أصبحت لغة كل من يخاطبه الإسلام، وكل من يدخل الإسلام أو ينضم إلى المجتمع الجديد من غير المسلمين. فاللغة العربية بلورت هوية ذلك المجتمع الجديد. والدكتورة سيدة نظرت إلى انتشار اللغة العربية بمنظار الحاضر الذي يجعل اللغة العربية لغة العرب فقط، وهذا مفهوم جديد أتى مع الهوية القومية المعاصرة.

وقد نقلت سيدة اسماعيل كاشف ما لاحظه الدارسون لتاريخ مصر من أن معظم شواهد القبور في القرنين الأول والثاني الهجريين في أسوان و الفسطاط حملت اسم الميت مقترناً باسم قبيلته. ولكن في القرن الثالث الهجري أصبح الانتساب إلى الجهة أو الإقليم واختفى اسم القبيلة، فجاءت الكتابات فلان المصري أو الكوفي.[2]

وهذا أيضاً تحول كبير يجب التوقف عنده، لماذا أصبح الارتباط بالقبيلة ضعيفاً خاصة بين العرب وهم حملة الرسالة الجديدة والطبقة المميزة في المجتمع؟ وهل الانتماء للجهة أو الإقليم أو المدينة أصبح هو الهوية؟ ولكي نفهم هذا التحول لا بد من العودة قليلاً للوراء للنظر في أمر الهوية الجديدة ومدى ارتباطها أو عدم ارتباطها بالمكان.

وباختصار يمكن القول بأن البشر كانوا بصورة عامة ينتسبون إلى أعراقهم. ففي الإمبراطورية الفارسية مثلاً كانت الشعوب الخاضعة للفرس تنتسب أو تُعرّف بأعراقها. فالهوية الفارسية ينتسب إليها من هو فارسي عرقياً، أما غير الفرس في داخل الدولة الفارسية مثل العرب أو الهنود أو اليهود فينتسبون إلى أعراقهم ولا يدخلون في الهوية الفارسية هوية حكام الإمبراطورية، فالهوية عرقية ومتعددة بتعدد الأعراق في الإمبراطورية.

---

[1] سيدة اسماعيل كاشف، مصر في فجر التاريخ ص ٢٤٨.

[2] المرجع السابق ص ٢٤٦.



ونفس الشيْ يقال عن سكان الأمبراطورية الرومانية باختلاف بسيط هو أنه من أتقن اللغة الرومانية وعبد آلهتهم وتطبع بالطبائع والثقافة الرومانية يمكن انتسابه للهوية الرومانية، أما البقية فينتسبون إلى أعراقهم مثل العرب واليهود وغيرهم. وهذا بخلاف الشعوب التي لم تشتهر بالتوسع وبناء الأمبراطوريات خارج أقاليمها مثل الصينيين أو الهنود.

فالشعوب التي عاشت لفترات طويلة داخل حدودها الأقليمية اكتسبت هوية الإقليم رغم تعدد الأعراق الداخلية، مثل الصيني والهندي. وفي بعض الأحيان عندما ينزح الشعب من إقليمه يتمسك بهويته العرقية مثل اليونانيين والفينيقيين في البحر المتوسط. وأحيانا أخرى يطور المهاجرون هويات جديدة في مناطق أو أقاليم هجراتهم كهويات أولى مع هوياتهم العرقية مثل الهجرات السامية والجرمانية والآرية. ولذلك لم يكن هنالك نمط واحد للهويات، ولم تعرف الدول التي امتدت حدودها خارج أقاليمها هوية واحدة.

وبقيام دولة المدينة بعد هجرة الرسول (صلعم) توحدت الانتماءات الجنسية والقبيلة القديمة في هوية جديدة وهي الانتماء للأمة بغض النظر عن العرق أو اللغة أو الدين. فالعرب واليهود – مسلمين وغير مسلمين – والذين كانوا نواة دولة المدينة انتسبوا للهوية الجديدة. وتكونت الدولة الإسلامية بعد توسعها في القرن الأول الهجري ما بين الهند و الأندلس على هَدْي وثيقة المدينة التي أصدرها الرسول (صلعم).

وحددت وثيقة المدينة هوية السكان دون النظر إلى العرق أو الدين أو اللغة، وجعلت الانتماء الأول للأمة مع الأعتراف بالانتساب إلى الأقليم أو المدينة أو القبيلة مثل الأندلسي والبغدادي والقرشي. تلك الألقاب أشارت إلى تعريف يأتي في مرتبة تالية للهوية العامة. فالإسلام بحكم عالميته أنتظم في إطار عام ضم مختلف الأعراق والثقافات مع اعترافه بالخصوصية المحلية.

ولم يرفض الإسلام الانتماء القبلي أو المحلي ولكن جعله في مرتبة تالية لمرتبة الهوية الأولى وهي الانتماء للأمة. ولذلك نجد أنه بالرغم من ضعف العصبية العربية،

وذوبان أغلب قبائل العرب خارج شبه الجزيرة بالشعوب المحلية إلا أن اغلب الشعوب داخل حدود الخلافة داومت على التمسك ببعض عادات العرب باعتبار تلك العادات جزءاً من مكونات الهوية الجديدة. قال عبد المجيد دياب "كان للأقباط ولع شديد بتقليد المسلمين في كل شيء لا سيما اللغة والأزياء والأسماء."[1]

وقال ابن خلدون عن قبيلة هوارة الصحراوية المشهورة والتي سيأتي الحديث عنها أنهم يشبهون: "عرب بنى سليم في اللغة والزى وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الابل وممارسة الحروب وايلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوها بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم"[2]

فكان الشعور القوي نحوالانتماء للهوية الجديدة هو دافع الأقباط وهوارة للتشبه بالعرب ، ولم يصنفوا أنفسهم عرقياً بأنهم من العرب. فالغالبية العظمى ممن تحدث اللغة العربية وتطبع ببعض طبائع العرب لم ينتسبوا عرقيّا للعرب. ولا يمنع هذا أن هنالك بعض الجماعات التي سعت إلى تصنيف نفسها عرقياً مع العرب.

وإذا نظرنا إلى القضية بمنظار الحاضر - كما فعلت سيدة اسماعيل كاشف - استعصى علينا فهمها. فالهوية القومية الحالية لا صلة لها بماضينا فهي حديثة الولادة في أوربا. فالأوربيون قبل القرن التاسع عشر كانت هوياتهم تختلف عما هي عليه في القرن العشرين.

فالانتساب للعرب كان قد ساد كظاهرة عامة في تلك العصور لأسباب كثيرة، لعل أهمها أن العرب كانوا حملة الإسلام وأهل اللغة العربية وقوم الرسول (صلعم)، فكانت مكانتهم الاجتماعية مميزة حتى بعد زوال عصر سيادتهم منذ بداية العصر العباسي، فأزداد الإقبال للانتساب إليهم على مر العصور. وقد رأى البعض أن العروبة أصبحت رمزاً للإسلام والانتساب إليها يعني ازدياد القرب من الإسلام والالتصاق به.

[1] عبد المجيد دياب، في مقدمته لتارخ الأقباط ص ١٤٢.

[2] ابن خلدون، العبر ج٦ ص ١٤٢. موقع الوراق.

كانت العروبة في مفهوم تلك الأجيال كما جاء في حديث الرسول (ص) "عن الخطيب في رواية مالك عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي و صهيب الرومي و بلال الحبشي ، فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء ؟ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه، حتى دخل المسجد ثم نادى: الصلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس: إن الرب رب واحد، وإن الأب أب واحد، وإن الدين دين واحد، وإن العـــــربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي"[1].

ويلاحظ أن الانتساب إلى العرب ظل متصلاً في المناطق التي ظلت فيها اللغة العربية حية كما في شمال إفريقيا، بينما قل الانتماء في المناطق التي ضعفت فيها اللغة العربية بين قبائل الصحراء ومسلمي إفريقيا جنوب الصحراء. أما في المناطق التي تراجعت فيها اللغة العربية بدرجات كبيرة في مناطق شرق العالم الإسلامي فلم يعد للانتساب للعرب وجود كما في أوزبكستان و كازاخستان و كيرجستان و تركمنستان وطاجكستان و أفغانستان و باكستان و إيران . فاللغة العربية كانت في تلك المناطق بدأت في الانحسار منذ الغزو المغولي في القرن السابع الهجري (١٣م) بعد أن كانت لغة التخاطب العام ولغة الإدارة ولغة العلم.

وإذا عقدنا مقارنة في ذلك الوقت بين مناطق أواسط آسيا وبين شمال إفريقيا لرؤية مدى قوة وانتشار اللغة العربية وعدد المؤلفات ومشاهير العلماء الذين ألفوا بها في مختلف التخصصات لوجدنا أن عطاء ومساهمات مناطق أواسط آسيا أكثر بكثير من شمال إفريقيا.

---

[1] سبل الهدى والرشاد، ج ١١ ص ١١٨ (موقع اليعسوب) وزاد المعاد ج ٥ ص١٤٤. http://www.al-islam.com ولم أتمكن من العثور على هذا الحديث في كتب الصحاح والسنن، فقط وجدته في الكتابين المذكورين، أورده كتاب سبل الهدى والرشاد بسنده المذكور بينما ذكره زاد المعاد بدون سند.

ومن المعلوم أن استقرار المغول في تلك المناطق واستخدامهم للغتهم بدلاً من اللغة العربية أدى إلى ضعف العربية وبمرور الزمن تطورت اللغات المحلية وحلت محل اللغة العربية. وهذا هو نفس ما حدث للغة اللاتينية بعد غزو واستقرار القبائل الجرمانية في أوربا ، إذ استخدم الجرمان لغاتهم بدلاً من اللاتينية ، وبمرور الزمن امتزجت اللغات المحلية باللاتينية والجرمانية فتولدت اللغات الأوربية الحديثة.

ورغم تشبه الكثير من الشعوب بالعرب بعد انتشار اللغة العربية ، ورغم صيرورة العرب أقليات في أماكن إقاماتهم إبان انتشار الإسلام خلال القرن الأول الهجري وذوبان بعضهم في السكان المحليين، إلا أن بعض القبائل والأسر العربية حافظت على استمرارية وجودها. وقد ساعد على ذلك ازدياد أعداد أفرادها بالتزاوج مع السكان المحليين وانتساب الكثير من هؤلاء إليهم، وبتشجيع تلك الأسر لانتساب السكان المحليين إليهم ليزدادوا بهم قوة وغزارة. وسنتناول فيما يلي ما ورد عن القبائل العربية في جنوب مصر.

القبائل العربية في جنوب مصر

وتناولت مصادر القرون المتأخرة مثل مؤلفات النويري (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م) والعمري (ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٨ م) و ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م) و القلقشندي (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨) و المقريزي (ت ٨٥٤ هـ/١٤٢١ م) و السيوطي (ت ٩) القبائل والأسر العربية في مصر. والذي يهمنا بصورة أكبر هنا هو تلك الأسر والقبائل التي استقرت في جنوب مصر أو الصعيد ، لأنها الأقرب إلى التأثير والنزوح إلى السودان، وكان بعضها يعيش حياة بدوية في الصحارى شرقي وغربي النيل.

أما القبائل والأسر العربية التي استقرت في مناطق الدلتا فكانت - إلى جانب بعدها عن السودان - قد أسست نفسها في مناطق استقرارها الغنية بمواردها الزراعية ولم تشارك كثيراً في التحرك نحو السودان الذي بدأ في عصر المماليك.

ذكر المقريزي أنه "لما قدم الغزو صحبة أسد الدين شيركوه إلى مصر كان بأرض مصر من العرب طلحة و جعفر و بلي و لخم و جزام و شيبان و عذر و عذرة وطيء و سنبس و حنيفة و مخزوم"[١] كان ذلك في القرن السادس الهجري (١٢) قبيل قيام الدولة الأيوبية. ويمكن اختزال هذه القبائل في قريش وربيعة وقضاعة وطيء.

كانت تلك القبائل بأرض مصر بصورة عامة كما وضح المقريزي، وقد حدد القبائل التي بالصعيد قائلاً: "وببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب" يمكن جمعها في قريش وبلي وجهينة وبني كلاب وبني هلال ولواتة. ولم يشر المقريزي هنا إلى ربيعة الذين كانوا يعملون بالتعدين في مناطق وادي العلاقي لأن العمل في التعدين كان قد توقف منذ عام ٧٦٢ هـ/١٣٦١م[٢] وسنقوم هنا بالتعريف باختصار بتلك القبائل وأماكن استقرارها.

---

[١] المقريزي، البيان والاعراب ص ٢٢

[٢] المصدر السابق، ص ٢٧ – ٢٨.

قريش:

بدأت قريش منذ الربع الأخير من القرن الأول تزحف نحو الجنوب وتقيم في مدن الصعيد الأدنى القريبة من الفسطاط. وكان بنو أمية هم الذين مثلوا قريشاً في هذا الزحف. ولما انتهى الحكم الأموي كانت لهم بعض المراكز بالصعيد، وقد قتل آخر خلفاؤهم في محافظة بني سويف، ثم انتشروا في الصعيد فرارا من العباسيين.[1]

وفي القرن الثالث الهجري توجهت القبائل العربية إلى أرض المعدن في مناطق وادي العلاقي بعد أن لاحظوه – كما ذكر ابن حوقل[2]- أثناء توغلهم في المنطقة عام ٣٣٢ هـ/١٠٤١م عندما حاروبوا البجة بقيادة ابن الجهم. فقد ذكر المسعودي أن بمدينة أسوان "خلق من العرب من قحطان و نزار بن ربيعة و مضر وخلق من قريش."[3] وتَوافَق هذا مع إيقاف الخليفة العباسي المعتصم في بداية خلافته (٢١٨-٢٢٧ هـ/٨٣٣- ٨٤٢م) دفع العطاء للعرب الأمر الذي أدى إلى خروجهم من الفسطاط للبحث عن وسيلة لمعيشتهم فاتجه بعضهم نحو أرض المعدن. وقد كانت أسوان مركز العمليات والامدادات للقبائل المشتغلة في التعدين.

ويبدو أن عدد قريش قد تكاثر بالصعيد ودخلوا في منازعات مع قبيلة جهينة التي كانت قد سبقتهم إلى تلك المناطق. ففي القرن الرابع الهجري (١٠ م) ساعد الفاطميون القرشيين وأنزلوهم في مدينة أشمون على النيل بين المنيا و أسيوط فاستقروا بها حتى أصبحت أشمون تعرف بديار قريش.

و أشمون مدينة مشهورة في التاريخ القديم منذ عصر الفراعنة، قال عنها ياقوت الحموي: "مدينة قديمة أزلية عامرة آهلة إلى هذه الغاية، وهي قصبة كورة من كُوَر

---

[1] عبد الله خورشيد البري، القبائل العرية في مصر ص٨٦.

[2] صورة الأرض. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٧٩ ص٥٧.

[3] المسعودي، مروج الذهب، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية. مطبوعات دار جامعة القاهرة بالخرطوم ١٩٧٢ ص ٥٣.

الصعيد الأدنى غربي النيل، ذات بساتين"[1] فلا بد أن المدينة كانت مأهولة بالسكان عند استقرار قضاعة فيها أوبعد جلائهم واستقرار القرشيين. غير أن المصادر لم تتطرق إلى السكان المحليين.

فمنطقة أشمون لم تكن خالية من السكان عندما نزلتها قضاعة ثم قريش، وكل الدلائل ترجح أنها كانت مأهولة بالسكان فقد كانت عاصمة من عواصم الصعيد كما ذكر ياقوت. ولم يَرِد أن العرب أجلوا سكانها أو أن السكان رحلوا منها، بل المقبول أن يكون العرب قد استقروا في المنطقة إلى جانب القبط. وهذا يعني أن أعداد العرب لم تكن كبيرة لأن المنطقة استوعبت الوافدين الجدد إلى جانب السكان السابقين. وأعتقد أنه يمكن القول بأن العرب الوافدين إلى المدينة سواء عرب قضاعة أو قريش كانوا أقلية بالمقارنة إلى السكان المحليين.

ولذلك فإن جماعات قريش التي استقرت في منطقة أشمون لا بد قد اختلطت بالأقباط بحكم مشروعية الزواج بالكتابيات، ولا بد أن أعداداً كبيرة ممن أسلم من الأقباط قد انتسبت إلى بيوتات قريش التي ناسبتها أو انتمت إليها. والأمر الآخر الذي يوضح قلة أعداد القرشيين الذين استقروا في المنطقة أن المصادر عندما تتحدث عنهم لا تتناولهم كقبيلة مستقلة بل كأحلاف من أفراد القبائل الأخرى.

يقول المقريزي عن قريش في بلاد الأشمونيين نزلت معهم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة وكان معهم جماعة من أخلاط العرب. في حديثه عن الجعافرة بني جعفر الطيار "يتبعهم من أحلافهم من عنزة وفزازة وبنو عثمان وبنو خالد وبنو مسلمة وبنو ضباب وبنو عكر وبنو ندا"[2] فالحديث عن بيوت وأسر تتضم إلى بعضها، فتحالف بنى جعفر هـذا الذي ضم ثمانية أسر يضاف إلى باقي بيوتات قـريش لتكوِّن الوجود القرشى.

[1] ياقوت الحموي، معجم البلدان ج١ ص ١٣٢. موقع الوراق

[2] المقريزي، البيان والاعراب ص ٢٠، ٤٦.

وقد ذكر المقريزي من قريش في بلاد الأشمونيين: العمريون وبنو الزبير وبنو شيبة وبنو مخزوم وبنو أمية وبنو زهرة وبنو كنانة، وفي بطونها الجعافرة وبنو طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وبنو سهم. ومن بالصعيد من بني طلحة بن الزبير بنو مصعب بن الزبير وبنو عروة بن الزبير وبلادهم بالبهنسا وما يليها، وصار أكثرهم صاحب معائش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع.[1]

ومن ولد عروة بن الزبير كما ذكر القلقشندي بنو غني ومن بني مصعب بن الزبير جماعة يعرفون بجماعة محمد بن وراق.[2] وفي كتابه نهاية الأرب ذكر القلقشندي[3] عن الحمداني (ت نحو ٦٧٠ هـ/١٢٧١ م) جماعة فخر بن وراق.

ولم تكن قريش وحدها ببلاد الأشمونيين، فقد ذكر المقريزي وجود قبيلة كنانة، ووضح القلقشندي أن "بنو الليث بطن من كنانة... منهم أخلاطاً في بلاد قريش بالديار المصرية يعني بلاد الاشمونيين..ومنهم جماعة بساقية قلتة من بلاد اخميم من صعيد مصر." كما ذكر وجود بني حسان بن ثابت وبني عكرمة من الأنصار ينسبون إلى سيد الأوس سعد بن معاذ في الصعيد بمنطقة اخميم، وكذلك جماعة من فزارة قبس بالقليوبية.[4] ولم يساهم القرشيون كثيراً في الأحداث التي مر بها جنوب مصر بعد استقرارهم في أشمون، وكانت الامارة في اسرة بني ثعلب من سلالة الجعافرة.

قبيلة بَلــي:

تعتبر قبيلتي بلى وجهينة أشهر فروع قضاعة اليمنية التي دخلت مصر. وقد كانت بَلي مستقرة قبل الإسلام جنوبي الشام حيث انحازوا إلى جانب البيزنطيين وحاربوا المسلمين. وبعد هزيمة البيزنطيين في سوريا انضمت بلي إلى المسلمين مثل غيرها من قبائل الشام التي حالفت البيزنطيين. ودخلت جماعات من بلي مصر مع عمرو بن العاص

[1] المرجع السابق ص ٢٧ – ٥٩.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى ج١ ص ١٤٩.

[3] القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، موقع الوراق ج١ ص ١٤٩.

[4] المصدر السابق ج١ ص ٢٦

الذي كانت والدته منهم، ثم ازداد عددهم حينما رحلوا إلى مصر في عصر الخليفة عمر بن الخطاب.

وكانت قبيلة بلي مقيدة ضمن أهل الراية في الفسطاط، ثم انفصلت مع قبيلة جهينة لتدون تحت قضاعة. وبعد وقف دفع العطاء لقبائل العرب استقرت مع جهينة في مناطق الاشمونيين وأسيوط حتى القرن الرابع. وذكرت المصادر أنه كانت هنالك بعض الخلافات والعداء بين قبيلتي بلي وجهينة حتى دخول القرشيين واستقرارهم في المنطقة بمساعدة الفاطميين، فاتفقت القبيلتان واستقرتا جنوب الأشمونيين. وقد نزح جماعة منهم في وقت مبكر إلى أرض المعدن في نهاية القرن الثالث الهجري.[1]

أما ما نقله مصطفى مسعد عن "هجرة القبائل العربية إلى مصر، ومنها إلى السودان" في ملحق رقم ٨ في كتابه الإسلام والنوبة ملخصا – كما ذكر - عن ماكمايكل جاء فيه أنه عندما تم الصلح بين بلي وجهينة "استقرت بلي في صحراء عيذاب وسكن بعضهم في جهات أخميم" فَهْو نقْل أو ترجمة غير دقيقة، وربما كانت مقصودة لتأييد آراء مسعد وغيره ممن يرى أن البجة تأثروا كثيرا بقبيلة بلي.

فقد ذكر ماكمايكل أنه بعد الصلح بين بلي وجهينة استقرت بلي في المنطقة الواقعة بين مصر وميناء عيذاب ... وفرع آخر من بلي استقر جنوباً في منطقة أخميم مع جهينة." ولم يوضح ماكمايكل مصدره، وقد أشار في الحاشية إلى خطط المقريزي ولكنني لم أعثر على النص في الخطط.

لكن وورد النص عند المقريزي في البيان والإعراب ما يلي: "ثم اتفقت هي [بلي] وجهينة فصار لبلي من جسر غرباً إلى قريب من غرب قمولة، وصار لها من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب."[2] وقد وضح عبد المجيد عابدين محقق الكتاب في الحاشية رقم ٦٢ أن قاو الخراب من البلدان المندرسة في مركز البداري بمديرية

---

[1] اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي

في مصطفى مسعد، المكتبة السودانية ص ١٢.

[2] البيان والاعراب ص ٢٩.

أسيوط. وبناءً على هذا النص فإن نصيب قبيلة جهينة – وليس قبيلة بلي - قد امتد في شرقي للنيل حتى عيذاب. وليس كما ذكر مايكل:

"An agreement was finally reached whereby the Beli settled in the country lying between Egypt and the port of 'Aidhab." [1]

ويلاحظ أن ماكمايكل كتب بلي بكسر الباء والصيح كما ورد عند القلقشندي بَلِيّ: بفتح الباء وكسر اللام وياء مثناة من تحت"[٢] والنسبة إليها بَلَوي.

وقد أشار القلقشندي إلى الاتفاق الذي تم بين بلي وجهينة في أكثر من مكان. جاء في المكان الأول ما يلي:

" كانت بهذه الديار، يعني بلاد أخميم. وكانت جهينة بالأشمونين جيراناً مع قريش كما هم بالحجاز، فوقع بينهم واقع أدّى إلى دوام الفتنة، فلما أتى العسكر المصري لإنجاد قريش على جهينة خافت بليّ فانهزمت إلى أعلى الصعيد، إلى أن أُديلت قريش وملكت أماكن جهينة، ثم حصل بينهم جميعاً الصلح على مساكنهم التي هم بها الآن، وزالت الشحناء من بينهم، ثم اتفقت جهينة وبليّ على أن يكون لجهينة من المشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب. ولبليّ من جسر سوهاج إلى قريب من قمولة ."[٣]

وجاء في المكان الثاني عن قبيلة جهينة:

"قال الحمداني وهم أكثر عرب الصعيد في الديار المصرية، ولهم بلاد منفلوط و اسيوط . قال: وكانت مساكنهم في بلاد قريش يعني الأشمونيين فأخرجتهم قريش بمساعة الخلفاء الفاطميين فصاروا إلى بلاد اخميم اعلاها واسفلها. قال: ويروى أن بليا وبطونها كانت بهذه الديار، وجهينة بالأشمونيين جيراناً بمصر كما هم بالحجاز، فوقع بينهم واقع أدى إلى دوام الفتنة فلما أتى العسكر المصري لإنجاد قريش على

[1] H. A. Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan.* 2nd Impression 1967, Vol. 1 p 37

[٢] القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب أهل الزمان ج١ ص ١٣

[٣] نفس المصدر ج١ ص ١٢.

جهينة خافت بلي فانهزمت إلى أعلى الصعيد إلى أن أديلت قريش ببلاد الأشمونيين وجهينة ببلاد اخميم فزالت الشحناء من بينهم."[١]

كما ورد أيضاً في كتاب نهاية الأرب في معرفة الأنساب العرب عن جهينة: "وديارهم اخميم وما تحتها، قال: واتفقوا هم وجهينة فصار لبلي من جسر سوهاي إلى قمولة، وصار لها من الشرق من عقبة قار الخراب إلى عيدان "[٢]

فالنص الأول جعل المنطقة الشرقية حتى صحراء عيذاب من نصيب قبيلة جهينة وليست من نصيب قبيلة بلي. والنص الثاني جعل بلي تتراجع جنوباً على النيل وليس شرقاً في الصحراء. وهذا نفسه ما ورد في النص الأول الذي فسر فيه أعلى الصعيد "من جسر سوهاج إلى قريب من قمولة."

بينما حدد النص الثالث منطقة جهينة مختلفةً عما سبق. فقد "صار لها من الشرق من عقبة قار الخراب إلى عيدان" فإذا قبلنا أن "قار الخراب" بحرف الراء تحريف بسيط لقاو الخراب، من الممكن الوقوف قليلاً مع "عيدان" التي وردت في النص في بدلاً عيذاب.

ويبدو محتملاً أن لا يكون ميناء عيذاب هو الاسم الصحيح في أصل الاتفاق. لأن المنطقة ما بين النيل وصحراء عيذاب منطقة واسعة وليست ملكاً أو تحت دائرة نفوذ قبيلتي بلي وجهينة ليحددا مصيرها ويجعلانها مقرا أو منتجعاً لقبيلة بلي فقط، فهذا شيء لا يملكانه. وفي واقع الأمر فقد كان بعض أفراد قبيلة جهينة يتجول في صحراء عيذاب أو الصحراء الشرقية إلى جانب بعض أفراد القبائل الأخرين

فابن بطوطة الذي عبر الصحراء من النيل إلى عيذاب نحو عام ٧٣٢ هـ/١٣٢٩م لم يقابل عرب بلى فيها، ولم يشر كل من الحمداني (ت نحو ٦٧٠هـ/١٢٧١ م) الذى كتب بعد نحو مائة عام من توقف العمل بالتعدين – وذلك في الستينيات من القرن

[١] القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ج١ ص ٧٦.

[٢] نفس المصدر السابق، ج ١ ص ٦٤.

الثامن الهجري (١٤م) و المقريزي (ت ٨٥٤ هـ/١٤٤٢م) إلى بلي في تلك الصحراء. وربما يعني ذلك أنه حتى ولو كان لبلي انتشار في الصحراء الشرقية كان محدوداً جداً لدرجة لم يلاحظه ابن بطوطة ولم يستحق الذكرعند الحمداني و المقريزي. وبناءً عليه فإن بلي كانت مستقرة فقط على النيل في صعيد مصر بالاضافة إلى ما كان منها في منطقة المعادن في العلاقي. -

وقد أورد كل من المقريزي لذي لم يوضح مصدره و القلقشندي الذي نقل عن الحمدان (توفى نحو ٦٧٠هـ/١٢٧١ م) أحد عشر بطناً لبلي في منطقة ما بين أسيوط وأخميم، وفصل القلقشندي مناطق استقرار كل بطن على النيل مما يوضح أن بلي كانت بصورة عامة قد استقرت على النيل وارتبطت بالأرض والزراعة.[١]

قبيلة جهينة:

جهينة قبيلة عظيمة وفيها بطون كثيرة، وكما يقول القلقشندي والمقريزي هي أكثر عرب الصعيد، وهي من أوائل القبائل العربية التي دخلت مصر، وعندما خرجت من أشمون للقرشيين استقرت بجوار بلي في منطقة أخميم على النيل. كما شاركت جهينة القبائل العربية الأخرى منذ القرن الثالث الهجري (٩ م) بالعمل في أرض المعدن. وعلى العكس من بلي فقد ورد تواجد جهينة في الصحراء شرقى النيل كما يتضح من نص ابن بطوطة[٢] الذي مرّ بالمنطقة عام ٧٣٢هـ/١٣٣٣ م.

"ثم ركبت البحر بعد ذلك [من جدة] في صنبوق برسم عيذاب، فردتنا الريح إلى جبل يعرف برأس دواير وسافرنا منه في البر مع البجاة. ووردنا ماء كثيرة النعام والغزلان، فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة. ووردنا ماء يعرف بمفرور، وماء يعرف بالجديد. ونفذ زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناماً وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبياً من العرب كلمني باللسان العربي وأخبرني أن البجاة أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاماً... وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير، وصلنا إلى عيذاب ... واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم

---

[١] المقريزي، البيان والاعراب ص ٣٠، القلقشندي، نهاية الأرب ج١ ص ١٣، ٧٦.

[٢] رحلة ابن بطوطة ج١ ص ١٣٩

...ووصلنا إلى قسرية العطواني، وهي على ضفة النيل، مقابلة لمدينة إدفو من الصعيد الأعلى."

يتضح أن البجة كانوا تحت أدارة مستقلة أو شبه مستقلة سواء عن المماليك في مصر أو مملكة المقرة رغم أن المماليك كانوا قد أغاروا على سواكن واخضعوها إلى سلطتهم عام ٦٦٤ هـ/١٢٦٥ م وعام ٧١٦ هـ/١٣١٦ م كما ذكر النويري.[1] حدث هذا بعد إسلام ملوك مملكة المقرة وما قيل عن سرعة تصدع وزوال النظم الإدارية السابقة، وما قيل عن تدفق موجات كبيرة من العرب نحو السودان بعد إسلام ملوك المقرة. فسلطة البجة كانت قوية ومستقرة لدرجة كانت القبائل العربية المتجولة في المنطقة مثل قبيلة جهينة وبني كاهل تحت حكمهم.

كان البجة يسيطرون ويحمون طرق التجارة من حاضرتهم مدينة سواكن والمناطق الواقعة إلى الجنوب والشمال منها. ويبدو أن أمراء مكة و جدة - سعياً وراء استقرار أمن وسلامة الطرق التجارية - قد تصاهروا مع البجة. فقد كان سلطان جزيرة سواكن حين وصلها ابن بطوطة كما ذكر: " الشريف زيد بن أبي نمي ، وأبوه أمير مكة، وأخواه أميراها بعده ... وصارت إليه من قبل البجاة، فإنهم أخواله ومعه عسكر من البجاة، وبني كاهل وعرب جهينة" وكان اختلاط أولاد كاهل بالبجة قويا بحيث أصبحوا يتحدثون لغة البجة كما قال ابن بطوطة "بني كاهل، مختلطين بالبجاة، عارفين بلسانهم"[2]

فابن بطوطه في تجواله من جنوب سواكن وحتى مدينة ادفو على النيل في صعيد مصر وجد جهينة وبني كاهل فقط في مناطق البجة. واكترى جمالاً من عرب دغيم ليصل إلى ادفو. وذكر ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥ م) في كتابه في حوادث سنة

[1] النويري، نهاية الرب في فنون الأدب في مسعد، المكتبة السودانية ص ٢١٧ ، ٢٣٢.

[2] رحلة ابن بطوطة، ص ١١٤- ١١٥.

٦٨٠هـ/١٢٨٢م أن عربان جهينة ورفاعة تقاتلوا في صحراء عيذاب فكتب السلطان الظاهر بيبرس إلى حاكم أسوان ليصلح بينهم من أجل سلامة الطريق.[١]

وبنو كاهل كما ذكر القلقشدي فرعين قحطانية وعدنانية. فبنوكاهل القحطانية من قضاعة والعدنانية من بني اسد من خذيمة. ولم يوضح أماكن تواجدهما في مصر الأمر الذي يصعب معه تحديد إشارة ابن بطوطة، ولكن يمكن ترجيح كونهم من قضاعة بحكم انتشارها في المنطقة.[٢] ويبدو أن نفوذ عرب دغيم كان قويا وفي الصحراء ما بين عيذاب وادفو (جنوب الأقصر). ولم تشر المصادر إلى وجود عرب دغيم في مصر، كما لم ترد في كتب نسب القبائل العربية المبكرة، ولكن ذكر اسمهم مقترناً برآسة عشائر العقيلات والرواشدة بالعراق.[٣]

وذكرت المصادر أن الرواشد فرعان عدنانية وقحطانية، وتوجد جماعات من الفرع القحطاني كما ذكر القلقشندي بالوجه البحري في مصر. وفرع آخر من الرواشدة يتصل ببني عطية.[٤] وبعض بني عطية ينتسبون لقبيلة الأوس الأنصارية ذات الأصل القحطاني.[٥] وتوجد بطن تسمى ذو عطية، وهذة تنتسب إلى جهينة.[٦] فإذا أخذنا الفرع الأخير بحكم وجود قبيلة جهينة في هذه المناطق يمكن أن نفترض أن دغيم الذين أشار ابن بطوطة إلى وجودهم في الصحراء المصرية شرقي النيل ينتمون إلى قبيلة جهينة.

وينصرف نفس القول أيضاً عل رفاعة التي كانت في مصر مجموعتان إحداهما عدنانية والأخرى قحطانية. فالقحطانييون هم عند السيوطي من جهينة ولم يذكر

[١] انظر مسعد، المكتبة السودانية ص ٢٦٨.

[٢] القلقشندي، نهاية الأرب ج١ ص ٨٠، ١١٣.

[٣] عباس العزاوي، عشائر العراق. موقع الوراق

[٤] القلقشندي، نهاية الأرب ج١ ص ٤٩

[٥] ابن الكلبي، نسب معد واليمن الكبرى. موقع الوراق

[٦] حمد الجاسر، معجم قبائل المملكة العربية السعودية. موقع الوراق

أماكن تواجدهم في مصر.[1] ورفاعة الأخرى ذكر من أنهم جذام القحطانيين، ومسالكنهم في الوجه البحري. أما العدنانيون فإنهم بطن من بني عامر ويسكنون منطقة أخميم، وكذلك بطن من بني هلال.[2]

وقد أورد ابن خلدون بعض المعلومات عن قبيلتي بلى وجهينة يبدو فيها الكثير من الخلل والاضطراب، وربما يرجع السبب في ذلك إلى بعض الأخطاء فى النقل، وأيضا إلى بعض أحكام ابن خلدون العامة عن النوبة والعرب التي توحي بأن معرفة ابن خلدون بما جرى في المنطقة لم تكن دقيقية، مع العلم بأنه عاش في مصر وعاصر بعض الأحداث التي أعقبت إسلام ملوك المقرة فقد توفي في مصر عام ٨٠٨ هـ/١٤٠٦م.

قال ابن خلدون: "وبالصعيد الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعددة وأحياء متفرقة كلهم من جهينة إحدى بطون قضاعة، ملؤوا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها والذين يلون أسوان هم يعرفون بأولاد الكنز."[3]

وقد اتضح مما ذكر أعلاه أن عرب جهينة كانوا على اتصال بالبجة، وكانت هنالك قبائل عربية أخرى تشاركهم الحياة في تلك المناطق، وكانوا تحت حكم البجة بشهادة ابن بطوطة. غير أن عرب جهيننة لم يشاركوا في الغزوات التي شنها المماليك على مملكة المقرة، وإنهاء الحكم المسيحي في مملكة المقرة في بداية القرن الثامن الهجري(١٤ م) وهي: أبناء الكنز وبنو هلال وأولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان.[4]

---

[1] السيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب ج١ ص ٩٠

[2] القلقشندي، نهاية الأرب ج١ ص ٩٠.

[3] ابن خلدون، العبر ج٦ ص ٥.

[4] أنظر النويري، نهاية الأرب في مسعد المكتبة السودانية ص ٢٢٣، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في المكتبة السودانية ص٢٦٩، ابن خلدون، العبر في المكتبة السودانية ص ٢٧٨،

ولو افترضنا أن ما ذكره ابن خلدون عن هيمنة أفراد قبيلة قضاعة على المنطقة من دنقلة وحتى البحر الأحمر (بلاد الحبشة كما عبر ابن خلدون) فإن ذلك أيضا لا يجد ما يدعمه لأن القبائل التي هيمنت على الأحداث ما بين اسوان إلى دنقلا غرباً وحتى عيذاب وسواكن شرقا في النصف الأخير من القرن الثامن الهجري – أي عندما كان ابن خلدون عائشا في مصر وكتب تاريخه - هم أبناء الكنز من ربيعة والعكارمة من الأنصار وبنو جعد من لخم وبنو شيبان وأولاد عمر[1] الذين رجحنا كونهم من قضاعة[2]، ولم تكن جهينة بين هذه القبائل.

كما لم تتعرض المصادر المعاصرة لتلك الأحداث التي كتبت عن قبيلة جهينة مثل كتب المقريزي و القلقشندي والسيوطي لهيمنة أو سيطرة قبيلة جهينة على تلك المناطق. أما ما ورد في النص من إضافة أولاد الكنز إلى قضاعة فواضح أن فيه تصحيف من الناقلين، إذ من المعروف أن بني الكنز لا ينتمون إلى جهينة.

وقال ابن خلدون في مكان أخر: "فجهينة ما بين الينبع ويثرب إلى الآن في متسع من برية الحجاز وفى شماليهم إلى عقبة ايلة مواطن بلى وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم وأجاز منهم أمم إلى العدوة الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هنا لك سائر الامم وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد "[3]

ويمثل هذا النص الاسلوب العام الذي عالج به ابن خلدون تاريخ النوبة. فقد ربط النص بين عبور قبيلتي جهينة وبلي من مواطنهم في شبه الجريرة العربية شرقي بحر القلزم (البحر الأحمر) إلى غربه وانتشارهم في صعيد مصر وبلاد الحبشة وكيف أنهم كانوا من الكثرة بحيث غلبوا جميع الأمم! فرقوا كلمة بلاد النوبة وأزالوا ملكهم!

[1] انظر المقريزي، السلوك في مسعد، المكتبة السودانية ص ٣٤٦ – ٣٥٠.

[2] أنظر

[3] ابن خلدون، العبرج٢ ص ٢٤٧.

ومن المعروف أن بلي وجهينة عبرت من مواطنها في شبه الجزيرة العربية إلى مصر إبان تحركات العرب المبكرة التي عاصرت دخول العرب المبكر مصر. ولم يذكر ابن خلدون أو غيره من المؤرخين والنسابة عبور لاحق لقبيلتي بلي وجهينة في القرون اللاحقة واستقرارهم في الصحراء الشرقية، والقيام بما ذكره ابن خلدون من توسعات أو حروب.

ويضيف ابن خلدون عن انتشار جهينة في بلاد النوبة بعد هزيمة المقرة عام ٧١٦ هـ/١٣١٦م قائلاً:

"ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملكوُها وملؤُها [عينا][1] وفسادا، وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا، ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت، فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم".

وكما سبق أن وضحنا لم تشر المصادر قط إلى اشتراك جهينة في غزو النوبة أو مصاهرة الأسرة الحاكمة أو المشاركة في الأحداث التي تلت اسلام ملوك المقرة، بل حدث ذلك من قبيلتي بني الكنز وهم من ربيعة وبني جعد وهم من لخم. ولم يكن لجهينة أي حضور في ذلك. ثم إن ملوك النوبية بعد إسلامهم كانوا لا يزالون على عرش المقرة عندما كتب ابن خلدون تاريخه في مصر.

فبنو الكنز كانوا يطمعون في تولي عرش المقرة، وربما كان ذلك هو الدافع إلى مصاهرة الأسرة المالكة المقرية. وربما كان ذلك هو السبب أيضا في اشتراكهم في حملات المماليك ضد المقرة لكي يعينوهم ملوكاً، خاصة وأن بعضهم أصبح من ابناء أخوات الملوك. وقد نجح أبناء الكنز في الوصول إلى عرش المقرة بعد قتل عبد الله برشمبو أول ملك مسلم من الأسرة المالكة في العقد الثاني من القرن الثامن الهجري.

[1] وردت هكذا في النص.

ولكن المماليك لم يمكنوهم من الاستمرار في الحكم، ففي عام ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م أرسل المماليك حملة هزمت كنز الدولة وعينت مكانه كرنبس ملكا. ولكن بعد عودة الحملة عاد كنز الدولة وتمكن من استرداد العرش من كرنبس . وذكر المقريزي قدوم رسولٍ من ملك النوبة بعد هذه الأحداث، ولكنه لم يوضح الغرض من البعثة.[١] ويبدو مقبولاً أن يكون هدف الزيارة مساعدة الأسرة المالكة ضد أبناء الكنز.

ولم تتعرض المصادر للأحداث في مملكة المقرة لمدة ثلاثين عاما بعد هذه البعثة. ومن الصعب التكهن بما آلت إليه المنافسة على عرش المقرة بين الأسرة المالكة القديمة وأبناء الكنز. كما لم يرد ذكر أيضاً لنشاط أبناء الكنز في أحداث صعيد مصر حتى عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢ م عندما استعان المماليك بأبناء الكنز على القضاء على بعض الاضطرابات في جنوب مصر.

غير أن السنوات التالية منذ عام ٧٧٦ هـ/١٣٧٤م وبداية القرن التاسع الهجري كانت العلاقات متوترة بين أبناء الكنز والمماليك، وتحالف أبناء الكنز مع العكارمة وبني جعد. ويبدو أن هدفهم كان قطع طرق تجارة واتصالات المماليك جنوباً لأنهم أغاروا عام ٦٧٦ هـ على صحراء عيذاب وسواكن والواحات الداخلة واستباحوا أسوان، وكما عبر المقريزي فقد كانوا: "يقتلون وينهبون، ويخربون الدور، ويحرقون بالنار، حتى أفنوا عدة من الناس، وأسروا النساء، وفعلوا كما فعلت الفرنج بالإسكندرية."[٢] وتوالى الصراع بين الجانبين، فقد نقل المقريزي عددا من المواقع بينهما حتى بداية القرن التاسع الهجري.[٣]

ولذلك فمن المحتمل أن بني الكنز فقدوا عرش المقرة بمساعدة المماليك للأسرة المالكة، وبدأوا يشنون الحرب على المماليك، ويهددون تجارتها وهي من أهم مصادر

[١] المقريزي، السلوك في مسعد، الاسلام والنوبة ص ٣٤٥.

[٢] المقريزي، السلوك، ج ٢ ص ٢٥٣. موقع الوراق.

[٣] المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٤، ٣٨٠، ٤٩١.

المماليك المالية. وقد ذكر المقريزي قدوم وفد من النوبة فيه ركن الدين كرنبس من أمراء النوبة عام ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م حاملاً رسالة من ملك دنقلة توضح أن ابن أخت الملك خرج عن طاعته واستنجد ببني جعد من العرب حيث قتل الملك وغدر ابن أخته ببني جعد، واضطربت الأوضاع. فأرسل المماليك جيشاً هزم بني جعد وحلفاءهم بني الكنز والعكارمة.[١]

وفي عام ٨٠٠ هـ/١٣٩٧ م أي قبل وفاة ابن خلدون – الذي تحدث عن تلاشي ملك النوبة على أيدى جهينة - بثمان سنوات وصل ملك النوبة نفسه فاراً إلى القاهرة من ابن عمه طالباً المساعدة من السلطان المملوكي، وأمر السلطان وإلى أسوان بتقديم المسعدة إليه. ولم يذكر المقريزي ما حدث بعد ذلك، ولم يتعرض ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩ م) في حوادث عام ٨٠٠ هـ لهذه الزيارة.

بنو هلال:

بنو هلال قبيلة قيسية من بنى عامر بن صعصعة. ويبدو أن وجودها بمصر لم يكن بالكثرة الملحوظة إذ لم يرد اسمها ضمن تحركات القبائل العربية في جنوب مصر مثل قريش وجهينة وبلي.وهم من القبائل التي شاركت في التعدين منذ وقت مبكر فقد كانوا – بالإضافة إلى بنو تميم - ضمن جماعة العمري حينما تجول في صحراء العتباي بحثاً عن الذهب.

غير أن بني هلال لم يناصروه في خلافاته مع ربيعة والبجة، فاعتزله بنوهلال كما ذكر المقريزي وعبروا النيل غربًا.[٢]ويبدو أنهم استقروا في تلك المناطق الغنية بالواحات والتي تشرف على طرق التجارة بين مصر ومناطق دارفور وغيرها من مناطق جنوب الصحراء، فقد ظهروا في تلك المناطق على خريطة ابن حوقل.[٣]

---

[١] المقريزي، السلوك في مسعد، المكتبة السودانية ص ٣٤٧- ٣٥٠.

[٢] المقريزي، كتاب المقفى في مسعد، المكتبة السودانية ص ٣٦٧.

[٣] ابن حوقل، صورة الأرض بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٧٩ ص ١٢٨.

وبدأ اسم قبائل بني هلال يتردد بين القبائل العربية في مصر منذ القرن الخامس الهجري (١١م) عندما استقدم الفاطمون جماعات كبيرة منهم ووطنوهم الصحراء الشرقية للنيل. وربما هذا هو الوقت الذي قالت فيه المصادر أنهم "كانوا أهل بلاد الصعيد كله إلى عيذاب."[١]

وعندما حدث الخلاف بين الفاطميين وبين بني زيري نوابهم في المغرب وانسلاخهم عن الخلافة الفاطمية الشيعية وإعلان تبعيتهم للعالم السني تحت مظلة الخلافة العباسية في بغداد ، أرسل الفاطميون بني هلال إلى المغرب وأطلقوا أيديهم لاحتلال أراضيه لتأديب وإضعاف بني زيري. وقد هاجرت مجموعات كبيرة منهم إلى المغرب.

وقد تناول المقريزي و القلقشندي سبعاً من بطون بني هلال على النيل ما بين أخميم و أسنا و أسوان ،وهم: بنو قرة وبنو عمرو ورفاعة ، وبنو حجير، وبنو عزيز وبنو عقبة وبنوجميلة. كما كانوا ضمن القبائل العربية التي شاركت في حرب المماليك لملكة المقرة. أما أبناء عمومتهم بنو كلاب فقد كانت مناطق استقرارهم الرئيسة في العراق و الشام ، وكانت بعض بطونهم بالفيوم والوجه البحري.[٢]

ربيعة و العرب في مناطق المعدن:

بدأ استقرار القبائل العربية في وقت مبكر في مناطق الحدود الجنوبية لصحراء مصر الشرقية في مناطق المعادن. وكانت تلك المعادن معروفة ومستغلة منذ عصر الفراعنة. أما بعد انتشار الإسلام فقد بدأت صلات العرب بالمعدن كما ذكر ابن حوقل عندما لاحظ العرب الذين صحبوا ابن الجهم في حربه مع البجة عام ٢٣٢هـ/٨٤٧ م آثار العمل القديم في المعدن، فرجعوا إليه بعد انتهاء الحروب.

وكان عرب الحجاز أول من بدأ ذلك النشاط. وفي بداية دخول العرب أرض المعدن حدثت اضطرابات في اليمامة حيث غادرها آلاف كثيرة – كما عبر ابن حوقل – إلى

---

[١] المقريزي، البيان والاعراب ص ٢٧ ، القلقشندي، قلائد الجمان ج١ ص ٣٤.

[٢] نفس المصدريين السابقين ونفس المكان.

أرض المعدن "وتكامل بالعلاقي قبائل ربيعة ومضر وهم جميع أهل اليمامة في سنة ثمان وثلاثين ومائتين" ويرى المقريزي أن الهجرة الفعلية لربيعة إلى أرض المعدن "تمت عام بضعة وأربعين ومائتين في خلافة المتوكل ."[1] ويبدو أن كثيراً من العرب قد اتجهوا إلى أرض المعدن بعد أن قطع المتوكل أعطياتهم.

وصاحب دخول العرب أرض المعدن وصول جماعات من قبائل ربيعة فبدأ الاستقرار الكبير فيها. وكانت أكبر تلك القبائل بنو حنيفة الذين انتقلوا إليها بالعيالات والأذرية - كما عبر اليعقوبي - وبني هلال وبني سليم وبلي وجهينة. وأصبح وادي العلاقي "كالمدينة العظيمة به خلق من الناس وأخلاط-من العرب والعجم وبه أسواق وتجارات... لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر.[2]

وذكر الطبري أن البجة كانوا يقاسمون من يعمل في المعدن "ويؤدون إلى عمال السلطان في مصر في كل سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى."[3] وفي عام ٢٤٢ هـ امتنعت البجة عن أداء ما عليها من التبر وقتلت بعض المسلمين بالمعدن ومنعتهم من العمل وأغارت على المناطق المصرية.

ويبدو أن العلاقات عادت إلى مجاريها الحسنة بعد هزيمة البجة على يد القمي . فعندما زار المسعودي مصر عام ٣٣٢ هـ كانت الأوضاع مستقرة وقد تحالفت ربيعة مع البجة وتزوجوا منهم، وكان زعيم ربيعة "يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر و اليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة ..."[4]

وعدد العرب في أرض المعدن لم يكن كبيراً بالمقارنة إلى البجة، ففي قمة نشاط العرب في المعدن في القرن الرابع الهجري (١٠ م) بين المسعودي تعداد من يحملون السلاح في أرض المعدن من ربيعة ومضر وأحلافهم بثلاثة ألف رجل. فإذا قدرنا لكل رجل ما

---

[1] ابن حوقل، صورة الأرض ص ٥٧ – ٥٨.

[2] تاريخ اليعقوبي ص ١٦ في مسعد ، المكتبة السودانية.

[3] الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٢٧٨ – ٢٧٩.

[4] المسعودي، مروج الذهب في مسعد ، المكتبة السودانية ص ٥١.

بين ثلاثة إلى أربعة من أفراد أسرته الذكور دون سن حمل السلاح، نفترض أن عدد العرب في حدود عشرة آلاف. وإلى جانب العرب والبجة كان لكل من التجار وغيرهم "عبيد سودان يعملون في الحفر" فكان وادي العلاقي "كالمدينة العظيمة ، به خلق من الناس وأخلاط من العرب والعجم."[1]

كما قدر المسعودي عدد من يحملون السلاح بأرض المعدن من البجة بثلاثين ألفاً. فإذا قدرنا من لا يحمل السلاح لكل رجل بين الثلاثة والأربعة نُقَدر عدد البجة الذكور بنحو مائة ألف. فعدد البجة بالنسبة للعرب كان كبيراً لدرجة نفترض معها تأثير البجة على العرب وليس العكس. ومن المسلم به أن العرب أثروا ثقافياً وانتشرت لغتهم كثيراً في مناطق استقرارهم حتى ولو كانوا أقلية، لأن لغتهم أصبحت لغة القرآن وشعائر الإسلام. وهنا يمكن افتراض تأثير العرب علي البجة في جانب اللغة بحيث تعلم بعض البجة اللغة العربية للضرورات المتعلقة بممارسة الشعائر.

وهذا الافتراض يصدق على مناطق التعدين فقط، إذ تعلم العرب في غير هذا الموقع لغة البجة فقد ذكر ابن بطوطة أن عرب بني كاهل يتحدثون لغة البجة. ومن جانب آخر فإن العرب لم ينتشروا في أرض البجة الواقعة إلى الجنوب منهم رغم وفرة مياهها ومراعيها في ذلك الوقت.

والدليل على ذلك حملة المماليك التي خرجت لحرب عربان صحراء عيذاب عام ٧١٦ هـ/١٣١٦ م لقطعهم الطرق، فقد وصلت الحملة عيذاب واتجهت منها إلى سواكن ثم توغلت جنوبا سبعة عشر يوماً حتى وصلت منطقة كسلا الحالية، ثم رجعت الحملة عن طريق نهر عطبرة حتى النيل فشمالاً إلى مصر. ولم تصادف الحملة في كل تلك المناطق غير قبائل البجة.[2]

ظلت مناطق التعدين نشطة، كما كانت ميناء عيذاب (ميناء الذهب) مزدهرة حتى منتصف القرن السابع الهجري (١٣ م) وبعد ذلك تحول طريق الحج من عيذاب إلى

[1] اليعقربي، كتاب البلداد في مسعد، المكتبة السودانية ص ١٤ – ١٥.

[2] انظر تفاصيل الحملة عند النويري، نهاية الأرب في مسعد، المكتبة السودانية ص ٣٢٠ – ٢٣٥.

الطريق البري عبر جنوب صحراء سيناء بعد طرد الصليبيين الذين كانوا يهددون طرق الحج البرية في تلك المناطق، فقلت أهمية عيذاب حتى توقف نشاطها. وفي نفس الوقت كانت حقول المعادن قد قل إنتاجها ولم تعد ذات عائد يشجع على الاستقرار فيها حتى توقف العمل فيها نهائياً عام "بضع وستين وسبعمائة"[1]

أبناء الكنز:

ينتمي بنو كنز إلى قبيلة ربيعة التي كانت من طلائع العرب الذين استقروا في مناطق التعدين في وادي العلاقي. وكان بنو يونس – وهم فرع من ربيعة – قد استقروا في ميناء عيذاب وملكوها أول دخولهم المنطقة عام "بضع وأربعين ومائتين" كما عبر المقريزي. وحدثت حرب بينهم وبين أبناء عمومتهم بني بشر هُزم فيها بنو يونس وعبروا البحر الأحمر إلى الحجاز، وسيطر بنو بشر على المنطقة.[2]

وتحالف بنو بشر مع البجة وتصاهروا معهم، كما تحالفوا مع بقية العرب المضرية واليمنية في مناطق المعدن مما مكنهم من تولى القيادة في المنطقة، وكانوا تحت رئاسة أبي مروان بشر بن اسحاق الذي وصفه المسعودي عام ٣٣٢ هـ/٩٤٣ م بصاحب المعدن. وحدثت خلافات بين بني بشر قتل فيها أبو مروان وخلفه في الزعامة ابن عمه أبو عبد الله محمد بن علي الذي كان مستقرا في بلبيس.

ويرجع امتداد نفوذ بني اسحاق من أرض المعدن إلى أسوان - التي كانت مركزاً لعمليات المشتغلين في المعادن - إلى محمد بن علي. ويبدو أن أسوان كانت تتعرض لبعض الاضطرابات الأمر الذي أدى بمحمد بن علي إلى فرض نفوذه عليها. ذكر المقريزي أنه "نزل أسوان وأنشأ مكانه المعروف بساقية شعبان " ووصفه "بحامي

---

[1] المقريزي، الخطط في مسعد، المكتبة السودانية ص ٣٠٩.

[2] المقريزي، البياي والاعراب ص ٤٤.

اسوان"[1] كما يسند إليه أيضاً تأسيس مدينة " المحدثة " التي ظهرت على خريطة ابن حوقل على النيل شمال مدينة أسوان، ويبدو أنها أصبحت مقر رئاستهم.[2]

وتولى الزعامة بعده ابنه أبو المكارم هبة الله الذي قبض على أبي ركوة الأموي - الخارج على الخليفة الفاطمي – عندما تقهقر إلى الصعيد فأنعم عليه الخليفة الفاطمي بلقب كنز الدولة في عام ٣٩٧ هـ/١٠٠٦م. وورث اللقب أبناؤه من بعده وأُطلق على الأسرة لقب أبناء كنز الدولة، وأصبح بنو بشر من ربيعة يعرفون ببني كنز، فالمقريزي مثلا كتب عنهم تحت عنوان "أولاد الكنز" ثم ساد فيما بعد اسم "الكنوز"

تمكنت أسرة أولاد الكنز من فرض قوتها وأسسوا إمارة ما بين اسوان و البحر الأحمر مستعينين بحلفائهم في المنطقة من النوبة و البجة ومن أنضم إليهم من بني ربيعة وغيرهم من قبائل العرب المضرية و اليمنية. وأصبح ميناء عيذاب في عصرهم يعرف بميناء الذهب وتطورت موارد المنطقة التجارية مما زاد من قوة الإمارة. وحافظ أولاد الكنز على ولائهم للفاطميين رغم وقوع بعض المنازعات بينهما في آخر القرن الخامس الهجري. ويعتبر مصطفى مسعد أن الخلافة الفاطمية قد اعترفت بإمارتهم في المنطقة بإعطائها هذا اللقب لبني بشر.[3]

وعندما انتهى حكم الفاطميين علي يد الأيوبيين عام ٥٦٧ هـ/١١٧١ م دخل بنو الكنز في صراع معهم لأسباب كثيرة لعل أهمها هو أن الأيوبيين أقطعوا إقليم أسوان إلى أحد قوادهم مما يعني نهاية امارة بني الكنز. وبالطبع لم يقبل بنو الكنز بذلك الوضع وجمعوا حولهم العرب والنوبة وثاروا على الأيوبيين.

وقد أيد النوبة أسرة أبناء الكنز لأنهم دخلوا في صراع ضد الأيوبيين منذ بداية قيام دولتهم للمحافظة على مكاسبهم ونفوذهم القوي في مصر. فقد كان النوبة – الذين ارتبط اسمهم بإقليم طيبة في جنوب مصر - يمثلون شريحة هامة قبل دخول

[1] المقريزي، الخطط في مسعد، المكتبة السودانية ص ٣٢٢ – ٣٢٣.

[2] ابن حوقل، صورة الأرض ص ١٢٨.

[3] مصطفى محمد مسعد، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٣٤.

الإسلام. وقد عامل العرب الفاتحين النوبة باعتبارهم عنصراً متميزاً عن أهل مصر. فقد جاء في نص عهد الأمان الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر:

"وهذا ما أعطى عمرو بن العاص لأهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا تساكنهم النوبة... ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطانها."

وهكذا فقد أتى النوبة عنصراً متميزاً من المصريين في إقليمهم طيبة مثل الروم – وهم البيزنطيين – الذين كان بعضهم مستقراً في مصر. وهم مثل الروم الذين ورد ذكرهم في وثيقة الجبلين التي ترجع إلى عصر الحكم البيزنطي في مصر والتي كتبها شراشن ملك البليميين (البجة) لأبنائه حكام جزيرة تتاري في إقليم طيبة جنوب الأقصر الحالية يوضح فيها ضرورة جمع الضرائب من الروم المستقرين في الجزيرة.[1]

ويبدو أن النوبة حافظوا على ذلك الوضع بعد دخول العرب، وبدأوا يؤسسون قوتهم ويلعبون دوراً واضحاً منذ القرن الثالث الهجري مع بداية إبعاد العرب من الجيش وظهور الجند المرتزقة والمماليك. فقد أصبح الجند السودان – الذين يفترض أن معظمهم من النوبة - قوة مؤثرة على الحياة السياسية منذ عصر الدولة الطولونية (٢٥٤- ٢٩٣ هـ)، فقد بلغ عددهم أربعين ألف جندي. ويمكن افتراض أن عدد النوبة في الجيش في عصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣- ٤٥٦ هـ) – التي حكم فيها كافور الإخشيدي وهو من السودان - لا يقل وربما زاد عما كان عليه في الدولة الطولونية.

وكان لوالدة الخليفة المستنصر الفاطمي – وهي من السودان - أكثر من خمسين ألفاً من الجنود السودان. وقدر ابن الوردي[2] عدد الجنود السودان الذين خرجوا من صعيد مصر لحرب الأيوبيين ومحاولة إعادة الخلافة الفاطمية بمائة ألف. ويبدو معقولاً افتراض أن الغالبية العظمى من أولئك الجنود السودان كانوا من النوبة.

---

[1] أنظر بخصوص هذه الوثيقة والبلميين فيما يلي الفصل ومصطفى مسعد، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ٥٦ و٢٥٠.

[2] خريدة العجائب في مسعد، المكتبة السودانية ص ٣٨٤.

التف النوبة حول أولاد الكنز وأصبحوا منذ ذلك الوقت سندهم القوي. ويبدو أن العلاقات توطدت بين النوبة وبني بشر، وتصاهر الطرفان وأصبحا يداً واحدة في المنطقة تحت قيادة أبناء الكنز. غير أن الأيوبيين هزموا تحالف النوبة وبني الكنز عام ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م وأنهوا إمارتهم، وأصبحت أسوان تحت إدارة الأيوبيين.

لكن تلك الهزيمة لم تنه وجودهم، فقد ظل بنو الكنز زعماء في المنطقة والتف حولهم النوبة وتحالفوا مع العرب فازدادت قوتهم في المنطقة، وقام هذا التحالف بقيادة أبناء الكنز بدور بارز في الأحداث في عصر المماليك الذين خلفوا الأيوبيين في حكم مصر، فقد بدأت العلاقات الطيبة بين الطرفين في بداية الأمر.

استعاد أبناء الكنز سيطرتهم على المنطقة بعد زوال الحكم الأيوبي في منتصف القرن السابع الهجري (١٣ م). ويبدو أن اختلاطهم بالنوبة قد أدى إلى تحسين علاقتهم بمملكة المقُرة حتى تصاهروا مع الأسرة الحاكمة. ويمثل هذا تطوراً جيداً في العلاقات بين مملكة المقُرة وجيرانها المسلمين في الشمال، فقد كانت العلاقات في صورتها العامة متوترة بين الطرفين، وكثيراً ما وقعت الحروب بينهما. ولذلك فمصاهرة أسرة كنز الدولة لملوك المقُرة تُمثل نقطة تحول في العلاقات بين المسلمين و مملكة المقرة بسبب اطمئنان ملوك المقرة لأسرة كنز الدولة بخلاف الدول التي قامت في مصر مثل الفاطميين والأيوبيين ثم المماليك.

ورغم مصاهرة أسرة كنز الدولة لملوك المقُرة إلا أنهم تعاونوا مع المماليك في الحملات المتكررة التي أرسلوها ضد المقُرة في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجريين (١٣ – ١٤ م). وأدى ذلك الصراع إلى نهاية عصر الملوك المسيحيين في المقرة وبداية عصر الملوك المسلمين الذين كان أولهم أحد أفراد الأسرة المقُرية الحاكمة ثم وصلت أسرة كنز الدولة لعرش المقرة بحكم مصاهرتهم للأسرة الحاكمة.

ورغم إحساس المماليك بخطر دولة مسيحية على حدودهم الجنوبية يمتد نفوذها إلى سواحل البحر الأحمر في الوقت الذي يحاربون فيه الصليبيين في الشام وشمال البحر الأحمر، إلا أن سياستهم لم تهدف إلى تشجيع أسرة كنز الدولة أو غيرها من القبائل العربية بالهجرة إلى مملكة المقُرة أو تأسيس قوة هنالك. ربما كان المماليك يخشون على عروشهم من قيام دولة عربية مسلمة على حدودهم الجنوبية.

ففي المعاهدة التي وقعها قواد جيش المماليك مع ملك المقُرة شكندة عام ٦٧٥ هـ/١٢٧٦ م تعهد فيها شكندة كما أورد ابن أبي الفضائل و الأدفوي[1] "أن لا يترك أحداً من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً، ومن وجده منهم احتاط عليه وأرسله إلى الأبواب السلطانية." مع العلم بأن عربان الوجه القبلي اشتركوا مع جيش المماليك في هذه الحملة ضد المقرة.

ويبدو أن عرش المقرة خرج من أبناء كنز الدولة ورجع إلى الأسرة النوبية، فقد حضر أمير نوبي يدعى ركن الدين كِرنبس يحمل رسالة من ملك النوبة عام ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م يطلب فيها مساعدة المماليك ضد بني الكنز وعرب بني جعد . فأُرسِلت حملة كبيرة قبضت على أولاد الكنز وهزمت العكارمة .

ونقل الملك مقره من دنقلة إلى قلعة ألدو لحصانتها لأنه يخشى هجوم عرب بني جعد. ومنذ ذلك التاريخ وحتى نهاية القرن الثامن الهجري حدثت حروب متكررة بين بني الكنز وحالفائهم بني جعد وبين المماليك. ولم تضعف قوة أبناء الكنز في صعيد مصر إلا بظهور قوة قبيلة هوارة المغربية (الأمازيغية) في الصعيد منذ بداية القرن التاسع الهجري (١٥ م)

إلى جانب القبائل العربية التي تعرضنا لها في جنوب مصر جاء أيضاً ذكر لقبائل أخرى أقل مشاركة في الأحداث جنوبي مصر، وقد وردت الإشارات اليها في بعض أحداث الصعيد أو مملكة المقرة أو البجة مثل بني كاهل و دغيم و رفاعة الذين تعرضنا لهم عند الحديث عن قبيلة جهينة. ومثل لخم و جذام وبني عامر و كلب القحطانية وأبناء عمر وأبناء شيبان.

لخم و جذام أخوان نُسِبت إليهما القبيلتان القحطانيتان المشهورتان. قبيلة لخم وقبيلة جذام. وقد تكررت الإشارات إليهما في الفسطاط والوجه البحري، وكانت لهما مواقف في الحروب بين الأمين و المأمون ، ومواقف حين أسقط المعتصم أسماء العرب من العطاء. وقد أشارت المصادر إلى وجود أحد عشر بطناً للخم وجذام في صعيد مصر.[2]

---

[1] ابن أبي الفضائل، كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد في مسعد، المكتبة السودانية ص ٢٥١ وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد الاسلام والنوبة ص ٢٦٤

[2] ابن خلدون، العبر ج ٥ ص ٣٧٧، القلقشندي، صبح الأعشى ج١ ص ١٤٠، نهاية الأرب، ج ١ ص ٦٩ – ١٣٩.

ورغم هذا العدد الكبير فإن المصادر لم تتناول أخبارهم في أحداث المنطقة ما عدا بني جعد الذين صاهروا الأسرة المالكة في المقرة بعد إسلام ملوكها، وتدخلوا في الصراع الذي دار حول عرش المقرة وكانوا هم و العكارمة – القبيلة التي تنتمي إلى الأنصار – حلفاء بني الكنز ضد الأسرة المالكة في ذلك الصراع.

وعن بني عامر نقل القلقشندي عن العمري وجود عرب يطلق عليهم بني عامر على الطريق بين أسوان وسواكن. ولم أتمكن من تحديد انتماء هذه القبيلة لأنه توجد قبيلة بني عامر بن صعصعة العدنانية، وبني عامر من كنانة عذرة القحطانية، كما ذكرت عدة بطون من قبيلة بني عامر اللواتية. ولكن كل هؤلاء مقيمون على النيل في الصعيد، ولم أجد فيما رأيته من مصادر – ما عدا القلقشندي - من أشار إلى هذه القبيلة في صحراء عيذاب أو سواكن.[1]

ذكر المقريزي وجود قبيلة كلب في الفيوم،[2] وهنالك قبيلتان ورد ذكرهما في مصر بهذا الاسم، كلب القحطانية ومنها قبيلة كنانة عذرة التي ينتمي إلى فرع منها الأحامدة الذين تحالفوا مع قبيلة هوارة في مناطق أسوان ضد المماليك، كما ثاروا عليهم كثيراً في قوص. أما كلب العدنانية فهم بنو عامر بن صعصعة بنو عمومة بني هلال ولم يرد لهم ذكر منفصل في أحداث الصعيد وغزوات النوبة.[3] وسيأتي الحديث عن أبناء عمر وأبناء شيبان.

[1] القلقشندي، صبح الأعشى ج ١ ص ١٥٢، نهاية الأرب ج ١ ص ١١١، ١٣٩.

[2] المقريزي، البيان والاعراب ص ٢٨.

[3] المقريزي، السلوك ج ٢ ص ٤٧٥، ج ٣ ص ١٧٨. القلقشندي، نهاية الأرب ج ١ ص ٥٩.

القبائل المغربية والأعراب

قبيلتا لواتة وهوارة:

قبيلتا لواتة وهوارة من القبائل الأمازيغية الصحراوية المشهورة باسم "القبائل البربرية." كان بعض تلك القبائل بدوياً صحراوياً وبعضها الآخر مستقراً على سواحل البحر الأبيض المتوسط والمناطق الداخلية. ويرجع ارتباط تلك الشعوب بوادي النيل إلى عصور موغلة في القدم.

أشرنا سابقاً إلى العلاقة الطبيعية بين وادي النيل كمنطقة غنية بالموارد المائية والمناطق الصحراوية المجاورة له وبخاصة المناطق الغربية. فالعلاقة بين سكان وادي النيل وسكان الصحراء علاقة الاتصال الطبيعي والدائم لشعوب المناطق الجافة قليلة الموارد المائية بالمناطق الرطبة غزيرة الموارد المائية. فقد شهد وادي النيل تحركات سكانية من الصحراء على مدار عصوره التاريخية - وإلى الآن – نحو النيل.

ولذلك ربطت بعض النظريات الحديثة أصول الحضارة المصرية بذلك التأثير الصحراوي، ويستدلون بالكثير من الشواهد التي وضحت الشبه الكبير بين سكان وثقافات الصحراء المبكرة وسكان وثقافات وادي النيل قبل قيام عصر الأسرات. ورصدت الآثار المصرية تلك الصلات في العصور التاريخية في كل مراحل تاريخ وادي النيل.

وتلك الشواهد معروفة في التاريخ ومتاحة لمن يريد التعرف عليها.[1] وقد ناقش Oric Bates مظاهر التشابه بين ثقافات الصحراء المبكرة وثقافات وادي النيل في كتابه القيم الليبيون الشرقيون الذي اعتمد فيه على ونقوش ورسومات الصحراء والمصادر اليونانية والرومانية إلى جانب نتائج الدراسات الآثارية والأنثروبولوجية.[2]

---

[1] لكاتب هذا المقال مسودة كتاب أعد باللغة الانجليزية فيه مناقشة مفصلة عن هذا الموضوع، والكتاب عبارة عن مقدمة لتاريخ افريقيا القديم.

[2] Oric Bates, *the Eastern Libyans*. First edition 1914, New impression London: Frank Cass & Co.Ltd. 1970.

ونكتفي هنا بالتنويه إلى تأكد تأثير الصحراء الكبرى على تاريخ وادي النيل تأثيراً يفوق بدرجات كبيرة تأثير صحراء شبه الجزيرة العربية على وادي النيل. فدراسة تاريخ وادي النيل بشقيه السوداني والمصري ارتبط أولاً ارتباطاً طبيعياً ومنطقياً بالصحراء الكبرى وليس بصحراء شبه الجزيرة العربية. ولذلك أرى أن أيّ دراسة لسكان السودان وتاريخه في كل العصور حتى الوقت الحاضر إذا لم تدخل في حساباتها تأثير سكان الصحراء ستكون نتائجها مبتورة وغير صادقة. فسكان السودان هم مزيج من ذلك التفاعل الصحراوي النيلى عبر العصور.

وفي العصر السابق لدخول الإسلام في شمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي ظهرت أسماء القبائل الصحراوية المجاورة لوادي النيل علي الخرائط، مثل خريطة بلايني و بطلميوس . وكما أوضحنا فيما سبق فإن اسماء تلك القبائل اختلفت من عصر لعصر، فأسماء القبائل التي ظهرت في المصادر اليونانية والرومانية في المناطق الصحراوية غربي النيل لم ترد بنفس مسمياتها في المصادر العربية. فعلى الخرائط التي وردت في كتاب بيتس جاء فقط اسم لواتة. أما بقية القبائل الصحراوية المجاورة للنيل فقد وردت تحت أسماء "القبائل الليبية المصرية" و "Mazices" وهم ما يعرف اليوم بالأمازيغ.[1]

وقد ازدادت صلات القبائل الصحراوية بمصر بعد الإسلام لأسباب سياسية وطبيعية، فنزحت الكثير من القبائل المغربية إلى مصر مثل قبيلة كتامة التي قامت الدولة الفاطمية على سواعدها ومثلت العنصر الأكبر في قوتها. وسنتعرض هنا لقبيلتين فقط هما لواتة و هوارة بحكم ارتباطهما بالصحراء وبمصر بصورة عامة وبمناطق الصعيد بصورة خاصة، ثم لأنهما القبيلتان الصحراويتان اللتان ارتبطت تحركاتهما بالهجرات التي دخلت السودان بعد أسلام ملوك مملكة المقرة.

يقول ابن خلدون إن نسابة العرب والبربر اتفقوا على أن هوارة و لواتة من قبائل البربر. ويعلق على ما ورد من بعض النسابة قائلا: "الا ما يزعم بعضهم أنهم من عرب اليمن ... وهذه كلها مزاعم والحق الذى شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن

[1] Ibid. p 59 – 70.

العرب." وقد أورد ابن خلدون أدلة كثيرة للرد على ما "يزعمه" البعض عن انتساب البربر للعرب.[1] وقد ناقشنا ذلك سابقاً ووضحنا أسبابه. فقبيلتا لواتة و هوارة من قبائل الصحراء الموجودة في المنطقة منذ عصور سابقة لدخول الإسلام.

وكانت مناطق لواتة كما في المصادر الكلاسيكية هي الواحات والمناطق الصحراوية القريبة من النيل.[2] أما هوارة فكانت كما ذكر ابن خلدون "ظواعن وآهلين ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل الملثمين فيما يلى بلاد كوكو من السودان تجاه افريقية، ويعرفون بنسبهم هكارة قلبَت العُجْمة واوه كافاً أعجمية تخرج بين الكاف العربية والقاف."[3]

ويمثل منتصف القرن الرابع الهجري (١٠م) بداية دخول القبائل المغربية مصر بأعداد كبيرة مع بداية الحكم الفاطمي لمصر. ولكن يبدو معقولا أن علاقات لَوَاتة بمصر قد سبقت ذلك التاريخ لأنهم كانوا موجودين بأعداد كبيرة في مناطق الواحات. وقد كان ارتباط الواحات قويا في العصور السابقة للاسلام لأغراض سياسية وتجارية ودينية، فقد كان الفراعنة على سبيل المثال يعتقدون أنها المقر المفترض للموتى.

وقد ذكر المسعودي أن صاحب الواحات: "في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - عبد الملك بن مروان، وهو رجل من لَوَاتة، إلا أنه مرواني المذهب، ويركب في ألوف من الناس خيلاً ورجلاً ونجباً، وبينه وبين الأحابش [أي النوبة] نحو من ستة أيام، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة ... وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج، وذلك سنة ثلاثين وثلثمائة، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم، واحتجت أن أعلمه من خواص أرضهم"[4] .

---

[1] ابن خلدون، العبر ج ٦ ص ٩٧، ١٣٩.

[2] Oric Bates. *the Eastern Libyans*. P 70

[3] ابن خلدون، العبر ج ٦ ص ١٤١.

[4] المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ١٧٩.

ونقل ياقوت الحموي ما ذكره البكري في القرن الخامس الهجري (١١م) عن سنترية أنها:

"بلدة في غربي الفيوم دون فَزَّان السودان وهي آخر أعمال مصر، وتُعدُ من نواحي واح الثالثة وهي قصبة واح الثالثة، وقد نُسِبَ إليها بعض أهل العلم. وقال البكري: من أوجلة إلى سنترية عشر مراحل في صحراء ورمال قليلة الماء، وسنترية هذه كثيرة الثمار والعيون والحصون وأهلها كلهم بربر لا عرب فيهم وتسير من سنترية على طرق شتى إلى الواحات ومن سنترية إلى بهنسا الواحات عشر مراحل وهي غير بهَنَسا الصعيد." وأضاف ياقوت: "بين أقصى واح الثالثة وبلاد النوبة ست مراحل وبها قبائل من البربر من لواتة وغيرهم."[1]

وهكذا كانت الصحارى المجاورة للنيل من الناحية الغربية حتى عصر ياقوت الحموي (أول القرن ٧هـ/١٣م)مأهولة بقبائل البربر، وربما كانوا في ذلك الوقت تحت زعامة لواتة لأنها كانت حتى عصر ياقوت تمثل أغلبية السكان كما يتضح من عبارته "من لواتتة وغيرهم." ويلاحظ أنه لم ترد الاشارة حتى ذلك الوقت القرن الثالث عشر الميلادي إلى العرب، بل صرح البكري في النص أعلاه أن السكان كلهم "بربر لا عرب فيهم."

ويعني ذلك أن القبائل العربية بدأت تدخل المناطق الصحراوية الواقعة جنوب الواحات وشمال تشاد بعد بداية القرن الثالث عشر الميلادي كما يتضح من رسالة ملك البرنو إلى حاكم مصر الظاهر أبي سعيد برقوق. فقد ذكر القلقشندي أنه وصلت سنة ٧٩٤هـ/١١٩٢م من ملك البرنو رسالة يشتكي فيها من غارات عرب جذام المجاورين لحدوده الشمالية وسبيهم للمسلمين الأحرار.[2]

وبعد دخول الفاطميين مصر في منتصف القرن الرابع الهجري (١٠م)، دخل مصر عددٌ كبير من المغاربة لأنهم كانوا يمثلون قوة الجيش الفاطمي الفاتح. وازدادت هجراتهم بعد ذلك واستقرت مجموعات كبيرة منهم في الوجهين البحري والقبلي.

---

[1] ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢ ص ٤٨٤ و٢٧٣.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٦٧.

وكانت قبيلة لواتة أكثر تواجداً وأثراً – من قبيلة هوارة - على الأوضاع السكانية والحياة السياسية في مصر في القرون السابقة لعصر المماليك. ويتضح مما ذكره المقريزي[1] أن لواتة كانت متزعمة قبائل المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) في الوجه البحري، ولعبوا دورا بارزاً في الأحداث السياسية.

وكانت تلك القبائل من كثرة العدد والقوة كما ذكر ابن خلدون لدرجة أنهم لم يكونوا يخضعون لسلطات الحكومة المركزية في القاهرة. ولم يكن أغلب تلك القبائل بدواً متجولين بل كانوا "يعمرون الأرض بالفلاحة ويقومون بالخراج للسلطان" ويديرون شؤونهم المحلية وغالبا ما يثورون على السلطة المركزية بخصوص تقديرات الضرائب'[2] خاصة وأن الحكومات كانت تفرض المزيد من الضرائب في أوقات الحروب والأزمات المالية.

وقد استقرت فرع من قبيلة هوارة أيضا بالوجه البحري في بداية الأمر، فقد ذكر القلقشندي:

"ان منازلهم بالديار المصرية وبالبحيرة، ومن الاسكندرية غربا إلى العقبة الكبيرة من برقة." وقد ارتبط تاريخ قبيلة هوارة بصعيد مصر منذ أواخر القرن الثامن الهجري (١٣ م) حين غلبهم على الوجه البحري تحالف قبائل لواتة وحلفائها من القبائل العربية.[3] فخرجوا منها كما نقل ابن خلدون إلى صعيد مصر ونزلوا بالاعمال الاخميمية وما حولها.[4]

ورغم ارتباط لواتة بالواحات إلا أن كثيراً من بطونها أستقر على النيل في صعيد مصر. فقد نقل القلقشندي عن الحمداني الذي كتب في القرن السابع الهجري (١٣م) - أي قبل انتقال قبائل هوارة من الوجه القبلي إلى الصعيد - أكثر من عشرين بطنا من بطونها في مناطق الأشمونيين والبهنسا.[5]

---

[1] اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج١ ص ٢٠٢ و٢٧٠. موقع الوراق

[2] ابن خلدون، العبر ج ١ ص ٤٧٠ و ج ٦ ص ٥.

[3] القلقشندي، نهاية الأرب ج ١ ص ١٤٢

[4] ابن خلدون، العبر ج٦ ص ١٤٢.

[5] القلقشندي، قلائد الجمان ج ١ ص ٥٠.

وأضاف القلقشندي عن الحمداني أيضاً أن لواتة أكثر القبائل بالصعيد، وأن إمارة العربان في صعيد مصر في بيتين منها هما: أولاد زُعازع وأولاد قريش ، ووصف قريش بأنه كان عبداً صالحاً.[1] ويعني هذا أن لواتة أصبح لها إمرة العربان منذ أن هزم الأيوبيون تحالف الجعافرة في القرن السادس الهجري.

ويلاحظ وجود قبيلة لواتة بأعداد كبيرة علي النيل في مناطق البهنسا والأشمونيين وأخميم. ويبدو أن استقرار قبيلة لواتة الواسع على النيل قد بدأ منذ العصر الفاطمي وهو الوقت الذي استقرت فيه قبيلة قريش بمساعدة الفاطميين في منطقة أشمون، وتحركت قبيلتا جهينة و بلي جنوبا إلى مناطق اسيوط وأخميم.

فقد عاشت قبيلة لواتة وقبيلة قريش مع السكان المحليين في نفس المنطقة. ولما كان الحمداني قد ذكر الحمداني في القرن السابع الهجري أن لواتة أكثر القبائل عدداً بالصعيد، يعني ذلك أنها كانت أكثر عدداً من بطون قبيلة قريش، مما يعلل كون إمارة المنطقة في أيديهم وليست في يد قريش.

غير أن ميزان القوى القبلي قد تغير منذ نهاية القرن السابع الهجري (١٣م) بدخول قبيلة هوارة منطقة الصعيد بعد أن أُجبرت على الخروج من الوجه البحري. وقد وصف القلقشندي نزول واستقرار الأعداد الكبيرة من قبيلة هوارة التي في الصعيد قائلاً:

"انتشرت في ارجائه انتشار الجراد، وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث اسوان وما والاها، وأذعنت لهم سائر العربان بالوجه القبلي قاطبة، وانحازوا إليهم وصاروا طوع قيادتهم."[2] وبين القلقشندي أن بطون قبيلة هوارة في عصره (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) كانت أكثر من ثلاثين بطناً.[3]

وهكذا انتقلت الغلبة عدداً وقوة من قبيلة لواتة إلى قبيلة هوارة. وقد كان دخول هوارة في الصعيد عنيفاً أدى إلى المزيد من الدمار والاضطراب الذي أصاب المنطقة أولاً على يد أبناء الكنز ثم تلتهم هوارة في نهاية القرن الثامن الهجري. وقد وصف المقريزي الأوضاع في أول القرن التاسع الهجري (١٥م) في ثغر اسوان قائلاً:

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٣.

[2] المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٣ وج ٦ ١٣٩.

[3] القلقشندي، نهاية الأرب ج ١ ص ١٤٢.

"واستولى عليه أولاد الكنز من بعد سنة تسعين وسبعمائة [١٣٨٨م]، فأفسدوا فساداً كبيراً، وكانت لهم مع ولاة أسوان عدّة حروب إلى أن كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة. وخرب إقليم الصعيد ... ثم زحفت هوّارة في محرّم سنة خمس عشرة وثمانمائة إلى أسوان، وحاربت أولاد الكنز وهزموهم، وقتلوا كثيراً من الناس، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد، واسترقوا الجميع وهدموا سور مدينة أسوان، ومضوا بالسبيٍ، وقد تركوها خراباً يباباً لا سكن بها."[١]

وعن حروب وغارات هوارة ببلاد الصعيد أضاف المقريزي:

"كثر فساد لهانة وهوارة ببلاد الصعيد، وقطعهم الطرقات على المسافرين، وشنهم الغارات على البلاد، وإحراقهم عدة نواحي بما فيها... ومع ذلك كله، فجور الولاة فيهم لا يمكن وصفه. ولعل هذا إن تمادى أن تهلك بلاد الصعيد كلها."[٢]

لهانة قبيلة أمازيغية أبناء عمومة هوارة، ويبدو أنها كانت أيضاً ذات عدد كبير بالصعية وكانت لها إميرها الخاص.[٣]وأصبح لدوارة قوة ونفوذ في صعيد مصر، وحافظت على تلك الهيمنة العددية والعسكرية والاقتصادية طيلة عصر المماليك. ويتضح ذلك من الحملات العسكرية المتكررة التي قادتها ضدهم قوات المماليك. ففي إحدى تلك الحروب التي انهزمت فيها هوارة رصد المقريزي ما غنمته جيوش الحكومة من هوارة بأنه:

"مائتا فرس، وألف جمل، وستمائة رأس جاموس، وألف وخمسمائة رأس بقر، وخمسة عشر ألف رأس من الغنم الضأن، وذلك سوى ما تفرق في الأيدي، وسوى ما هلك واستهلك، وهو كثير جداً، وقد اختل بهذه النهبات إقليم مصر خللاً فاحشاً، فإن الصعيد بكماله قد أقفر من المواشي."[٤]

وحافظت قبيلة هوارة على قوتها في صعيد مصر بعد عصر المماليك. فقد تناول الجبرتي الكثير من الحملات التي قادها ضدهم ولاة مصر العثمانيين في القرنين

---

[١] المقريزي الخطط ج ١ ص ٢٥٠.

[٢] المقريزي، السلوك ج ٣ ص ٢٦٣.

[٣] ابن خلدون، العبر ج ٦ ص ٩٠. لمقريزي، السلوك ج٣ ص ٤٦٤.

[٤] السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ ص٢٣٢. موقع الوراق

السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.[1] ونقل ماكمايكل عن الرحالة بوكوك Pococke الذي زار النيل عام ١٧٣٧م أن أخميم تحت أمير بربري، وأن نوردن Norden الذي سافر على النيل في نفس السنة ذكر أن "أعلى أسيوط بقليل يبدأ وطن العرب ويعرفون باسم هوارة، ويملكون أراضٍ على كلا شاطئي النيل ويدعونهم مواطنوا مملكة مروي.

ووجد بوركهارت في القرن التاسع عشر هوارة ما بين أسيوط وقنا واعتبرهم عرباً. وذكر أنهم سيطروا في القرن الثامن عشر على أعلى مصر وشمال السودان حتى منطقة المحس وأرغموا المماليك على إقطاعهم هذه المناطق، وظلوا أقوياء حتى هزمهم ابراهيم باشا.[2]

وإذا ألقينا نظرة عامة على سكان صعيد مصر منذ القرن الثالث الهجري (٩م) عندما بدأ العرب في الانتشار بعد حرمانهم من العطاء نلاحظ الآتي: أولاً بداية قيام الأسر الحاكمة المستقلة غير العربية في مصر مثل الطولونيين والاخشيديين والأيوبيين والمماليك واعتماد هؤلاء على المماليك والجنود غير العرب.

ثانيا: قيام الأسرة الفاطمية العربية والتي اعتمدت على الجنود المغاربة والسودانيين. ثالثاً: دخول أعداد غفيرة من الجنود المرتزقة من مختلف الجنسيات فاقت أعداد العرب الذين استقروا في الصعيد. رابعاً: دخول أعداد كبيرة من القبائل المغربية واستقرارها إلى جانب العرب وتوليها الزعامة والقيادة.

وإذا وضعنا في اعتبارنا وجود أعداد كبيرة من السكان المحليين سواء منهم من أسلم أو ظل على المسيحية فاقت أعداد الجماعات الوافدة كلها، أمكن القول بأن سكان صعيد مصر المحليين قد اختلطوا خلال القرون التي سبقت إسلام ملوك مملكة المقرة في أول القرن الثامن الهجري (١٤م) بمزيج من العرب وعناصر الجنود المرتزقة والشعوب المغربية و السودان بما فيهم النوبة. وكانت اللغة العربية وبعض السمات العربية قد أصبحتا سمات الهوية التي جمعت كل تلك العناصر.

[1] الجبرتي، عجائب الآثار ج١ ص ٧٥ و ١٥٢.

[2] H. A. Mac Michael, *A History of theArabs in the Sudan.* Vol. 1 p 152 – 153>

وكما حدث الاختلاط العرقي حدث الاختلاط والذوبان الثقافي. وقد حافظت بعض الجماعات في خلال ذلك الاختلاط على ملامحها وانتماءاتها القبلية، بينما فقدها البعض الآخر خاصة وأن سكان الصعيد كانوا مجتمعات مستقرةً أدت إلى إضعاف تلك الانتماءات. ولما كانت اللغة العربية هي ابرز سمات هوية تلك المجتمعات فقد استمرت عادة انتساب للعرب كما أورد ابن خلدون الكثير من أمثلة انتساب البربر للقبائل العربية. ورغم تعرضنا كثيراً إلى تلك الأمثلة فيما سبق إلا إنه من المفيد ايراد ما ذكره ابن خلدون عن قبيلة هوارة واختلاط بعضها في البادية ببني هلال.

"صاروا في عداد الناجعة لمثل عرب بنى سليم في اللغة والزى وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الابل وممارسة الحروب وايلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفترق بينهم."[1] وإذا عكس لنا هذا المثال اختلاط القبائل فى البادية ففي المجتمعات الحضرية تتوفر المزيد من عمليات الاختلاط.

وهكذا لم يجد المؤلفون العرب المبكرون غضاضة في مخاطبة المجتمع المصري كله باعتباره مجتمعاً عربيًا، العرب منهم والبربر والنوبة وغيرهم ما داموا يتحدثون اللغة العربية. حتى الرحالة الأجانب في القرنين السابع عشر والثامن عشر عندما رأوا هوارة على النيل في مصر تتحدث العربية أطلقوا عليها عرب هوارة. هذا ما حدث في المجتمع المصري على الأقل في منطقة الصعيد. فالقلقشندي تحت عنوان "الطبقة الرابعة من أمراء العربان بنواحي الديار المصرية" قال:

"بيان أمراء العربان ... فأما الوجه القبلي، فقد ذكر الحمداني أن الإمرة به في بيتين من بلي من قضاعة بن حمير بن سبإٍ من القحطانية. الأول بنو شادٍ المعروفون ببني شادي ... بالأعمال القوصية ... الثاني العجالة. وهم بنو العجيل بن الذئب منهم أيضاً، وكانوا معهم هناك... العمل الثاني عمل الأشمونين. وكانت الإمرة به في بني ثعلب ... من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق ."

---

[1] ابن خلدون، العبر ج ٦ ص ١٤١. نقل القلقشندي عن الحمداني عن العرب على الحدود بين الدولة البيزنطية والمسلمين أنهم "عرب غز يتكلمون بالتركية ويركبون الأكابيش." قلائد الجمان ج ١ ص ٣٣.

العمل الثالث البهنسى، وكانت الإمرة فيه في بيتين: الأول أولاد زعازع بضم الزاي من بني جديدي من بني بلار من لواتة من البربر وهم أشهر من في الصعيد. الثاني أولاد قريش."[1]وأوضح المقريزي أن أولاد قريش من بطون قبيلة لواتة[2]. وهكذا تم تناول أمراء لواتة ضمن أمراء الأعراب مثل أمراء بلي والجعافرة.

وعندما تعرض القلقشندي لنزوح هوارة من الوجه البحري قال: "أما في زماننا فمنذ وُجِّهت عرب هوارة من عمل البحيرة إلى الوجه القبلي" وعن الإمارة في المنوفية ذكر القلقشندي "الامرة فيها لأولاد نصر الدين من لواتة ولكن إمرتهم في معنى مشيخة العرب."[3] فالقلقشندي لم ير شذوذاً أو خطأً في وصف أفراد قبيلة هوارة المغربية (البربرية) المعروفة بالعرب.

كما تناول ابن تغري بردي وَفَيات أمراء قبيلة هوارة بنفس الأسلوب فوصفهم بأمراء عرب هوارة. فذكر على سبيل المثال:

"عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨ م توفى تاج الدين اسماعيل بن مازن الهواري أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد. عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨ م توفى الأمير عمر بن عبد العزيز أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد، وهذا والد بني عمر أمراء عربان الصعيد. عام ٨٦٤هـ/١٤٦٠ م توفى الأمير شرف الدين عيسى بن عمر الهواري أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد ... وكان مليح الشكل خيراً ديناً بالنسبة إلى أبناء جنسه، وله مشاركة بحسب الحال ويتفقه على مذهب الامام مالك." [4] علماً بأن المذهب المشهور في مصر هو المذهب الشافعي ببينما تمسك الأمير بمذهب مالك المتبع بصورة واسعة في المغرب العربي.

إمارات العربان:

أرى أنه من المناسب التوقف قليلاً عند ما ذُكِر عن "إمارة العربان" التي كانت جزءاً من النظام الإداري في مصر كما أوضح القلقشندي، فهم الطبقة الرابعة في

[1] القلقشندي، صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٢ – ٥٣.
[2] المقريزي، البيان والاعراب ص ٥٣ – ٥٥.
[3] القلقشندي، صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٣ – ٥٤.
[4] النجوم الزاهرة ج١١ ص٢٧١ و ٣٥٣ وج ١٢ ص١٥٦ وج ١٦ص٢٠٢ موقع الوراق

السلك الإداري بعد النواب وهم الطبقة الأولى، ثم الكشاف وهم الطبقة الثانية ثم الولاة وهم الطبقة الثالثة. تناول القلقشندي أمراء الأعراب تحت عنوان: "الجملة الأولى في المكاتبة إلى ممن بهذا الجانب من العربان، وقد ذكر في التثقيف ممن كوتب منهم جماعة بالطرقات الموصلة من الديار المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها"[1]

والطرقات المشار إليها هي الطرقات التي ربطت العاصمة بأطراف الدولة، وأهم النشاطات عبر تلك الطرق كانت المراسلات الرسمية للدولة والتجارة. والطرق التي تهمنا هنا هي تلك التي كانت تأتي من الجنوب مثل طرق غربي النيل وشرقية. وكانت طرق الصحراء الشرقية تتجه من البحر الأحمر نحو الغرب والشمال الغربي رابطة النيل من اسوان جنوبا وحتى القاهرة شمالاً. وكان حفظ وسلامة تلك الطرق من أهم واجبات الولاة - كما أشار القلقشندي إلى ذلك كثيراً - بمساعدة العربان.

وكان مقام أمراء الأعراب في المدن على النيل يشرفون منها على سلامة تلك الطرق. وقد تعرضنا لذكر بعض أولئك الأمراء من بني جعفر و بلى و جهينة و لواتة و هوارة الذين كانت إقامتهم على النيل. كما لاحظنا تدخل السطات الحاكمة دائمة التدخل عند الأعتداء على القوافل أو نشوب صراع بين بعض أفراد تلك القبائل على تلك المسالك.

وقد أورد القلقشندي[2] أسماء ثمانية من أمراء الطرق نقلاً عن ابن فضل الله العمري في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (١٤ م) هم :

"الأول: سمرة بن كامل العامري ، الثاني: عابد بن قاسم ، الثالث: كمال بن سوار قال: وهو مستحدث المكتبة في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة [١٣٦٢م]، الرابع: جنيد شيخ الجوابرة من الهكارية بأبواب النوبة قال:وهو مستحدث المكتبة في سنة تسع وستين وسبعمائة [١٣٦٨ م]، الخامس: شريف شيخ النُمانمة بأبواب النوبة أيضاً ومكتبته مستجدة حينئذ. السادس: علي شيخ دغيم، السابع: زامل الثاني ، الثامن: أبو مهنا العمرابي ."

---

[1] صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦.

[2] نفس المكان.

وأضاف القلقشندي إن الامارة في عصره (ت ٨٢١هـ/١٤١٨) انتقلت إلى قبيلة هوارة التي "بسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث أسوان وما والاها، وأذعنت لهم سائر العربان بالوجه القبلي قاطبةً، وانحازوا إليهم وصاروا طوع قيادهم...الإمرة الآن فيهم في بيتين."

يلاحظ أن القلقشندي لم يحدد مكان إمارة أربعة من هولاء الأمراء ولم يشر أيضاً إلى قبائلهم وهم عابد بن قاسم و زامل الثاني و أبو مهنا العمراني و كمال بن سوار، لكنه حدد تاريخ قيام إمارة كمال بن سوار بأنها عام ٧٦٣ هـ/١٣٦٢م. وربما كان السبب في ظهورها التوتر في المنطقة والذي أدى إلى الصراع الطويل بين المماليك من جهة وتحالف أبناء الكنز والعكارمة وبني جعد الذي بدأ في المنطقة في عام ٧٦٧هـ/١٣٦٦م من جانب آخر. كما أضاف القلقشندي عن العمري أيضاً من أمراء العربان بالصعيد ناصر الدين عمر بن فضل الله ولم يذكر مقره ولا العربان الذين ينتمي إليهم.[1]

حدد القلقشندي مواقع إمارتين جديدتين قامتا عام ٧٦٩هـ/١٣٦٨م على أبواب النوبة وهما إمارة الجوابرة الهكارية وإمارة النمانمة. ويلاحظ قيام هاتين الإمارتيين بعد بداية الصراع بين المماليك وحلف أبناء الكنز الذي خاض معارك عديدة ضد المماليك في اسوان وقطع طرق صحراء عيذاب، وحارب مملكة المقرة التي كان قد اسلم ملوكها منذ نحو نصف قرن.

ويبدو أن المماليك أعادوا التراتيب الادارية في المنطقة، فقد اقطعوا اسوان لأحد قوادهم، وربماظهرت الامارات الجديدة لمساعدتهم على السيطرة على الأوضاع. فقامت إمارة الجوابرة الهكارية التي تناولها القلقشندي - على عادة المؤلفات العربية في ذلك الوقت - تحت عنوان إمارات العربان.

والجوابرة الهكارية ينتمون إلى هوارة القبيلة الصحراوية المغربية (الأمازيغية) الذين قال ابن خلدون عنهم: " يعرفون بنسبهم هكارة قَلَبت العُجْمة واوه كافا أعجمية

[1] نفس المصدر ج ٢ ص ٥٣ و ج ٣ ص ١٦١

تخرج بين الكاف العربية والقاف"[1] وقد سيطر هوارة منذ نهاية القرن الثامن - كما ذكرنا - على الصعيد وربما على طرق الصحراء الواقعة غربي النيل.

وقامت إلى جانب الجوابرة الهكارية إمارة النمانمة، ولم تحدد المصادر إلى أي قبيلة ينتمي النمامة ولكنهم على الراجح كانوا متعاونين مع المماليك وملوك النوبة في ذلك الوقت. أما إمارة دغيم فتنتمي إلى قبيلة جهينة التي اكترى منها ابن بطوطة وأصحابه الجمال في صحراء عيذاب.

وإلى جانب الامارات السابقة ذكر القلقشندي إمارة أخرى هي إمارة الحداربة، وحدد موقعها بأنها فوق أسوان وأميرها سمرة بن مالك ، وذكره مرة سميرة بن مالك. وذكر أنه كان على عهد ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م). ولم يحدد القلقشندي – الذي توفي بعد اثنتين وسبعين سنة من وفاة العمري - ما إذا كانت هذه الإمارة قائمة حتى عصره أم انقرضت. ويبدو واضحا أن سمرة بن مالك هذا ليس هو سمرة بن كامل العامري الذي ذُكر في إمارات الطرق.

وقال القلقشندي عن سميرة بن مالك:

"ذو عدد جم وشوكة منكية[2]، يغزو الحبشة وأمم السودان ويأتي بالنهاب والسبايا، وله أثر محمودٌ وفضلٌ مأثور. وفد على السلطان فأكرم مثواه، وعقد له لواء و شرف بالتشريف وقلد. وكتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العريان بمساعدته ومعاضدته والركوب للغزو معه متى أراد. وكتب له منشور بما يفتحه من البلاد، وتقليدٌ بإمرة عربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته، وتركز رايته."[3]

حدد الجزء الأخير من هذا النص مركز الولاية وهو "قوص." وتقع قوص على النيل فوق أسوان في صعيد مصر، ولم يحدد مناطق نفوذة بل أطلق يده "حيث تصل غايته" غير أن القلقشندي نقل عن العمري أيضاً أن سمرة بن مالك شيخ عرب الحداربة بسواكن، وذكر القلقشندي أن العمري لم يحدد إلى أي قبيلة عربية ينتمي

[1] ابن خلدون ج ٦ ج ١٤١.
[2] وردت كتابة الكلمة هكذا في الموضعين في الكتاب.
[3] القلقشندي، صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٣ و ج ٣ ص ١٦١.

الحدارية، [1] وأضاف في مكان آخر أن "صاحب سواكن في زمانه من العرب المعروفين بالحدَارية ... ويقال في تعريفه الحُدْرُبي" [2]

هل يمكن افتراض امتداد حدود إمارة سمرة من قوص في صعيد مصر وحتى سواكن؟ لا أعتقد أن هذا افتراضاً معقولاً لأننا رأينا أحداث هذه المنطقة والقبائل العربية التي ساهمت فيها مثل دغيم ورفاعة وبني كاهل وجهينة وأولاد الكنز والعكارمة، ولم يرد ذكر لعرب الحدارية في كل تلك الأحداث.

ومن جانب آخر فقد أتى وَصْف أمير عرب الحدارية بما يوضح أن الإمارة كانت قوية ومساهمة بفعالية في غزو "الحبشة وأمم السودان." وإمارة بهذا الوضع والقوة يفترض أن يكون لها دور في تطور العلاقات بين المماليك ومملكة المقرة خاصة وأنها كما ورد "فوق اسوان"، ولكن لم يرد ذكر للحدارية أو لأميرهم في تلك الأحداث.

هذا إلى جانب أن الحدارية قبيلة كبيرة كتب عنها المؤلفون المبكرون أمثال اليعقوبي و المسعودي و ابن حوقل و ابن بطوطة، وذكروا أنها من قبائل البجة الكبرى. وأنها تصاهرت مع قبيلة ربيعة منذ القرن الرابع الهجري. ولم يرد في المصادر العربية المبكرة أن قبيلة الحدارية قبيلة عربية كما جاء عند القلقشندي. وليس من المفترض أنه سار على نمط إطلاق صفة العروبة على القبائل غير العربية كما فعل مع قبيلة هوارة و لواتة لأن افراد تلك القبائل كانوا يتحدثون العربية بخلاف البجة الذين كانوا يتحدثون لغاتهم المحلية.

وكان هنالك أمير آخر للعربان أطلق عليه القلقشندى "آخر أمراء العربان بالوجه القبلي أمير عرك أبوبكر بن الأحدب" [3] وانتهت امارته في آخر القرن الثامن عندما انتقلت الامارة في الصعيدين الأدنى والأعلى لهوارة.

[1] القلقشندي، نهاية الأرب ج ١ ص ٤٦.

[2] المصدر السابق، ج ٢ ص ٣١٣.

[3] المصدر السابق ج ٣ ص ١٦١.

العربان في غزو مملكة المقرة:

ورد بين أسماء القبائل العربية التي ساهمت في غزوات النوبة في عصر المماليك ما أطلقت عليه المصادر عربان الإقليم. يقول النويري أن حملة عام ٦٨٦ هـ/١٢٨٧م تكونت من:

"متولي الأعمال القوصية، بعدته ومن عنده من المماليك السلطانية، المركزين بالأعمال القوصية، وأجناد مركز قوص، وعربان الإقليم وهم: أولاد أبي بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وجماعة من العربان الريسية وبني هلال."[1]

وجاء نفس النص عند ابن الفرات وابن خلدون والمقريزي. غير أن ابن خلدون والمقريزي لم يذكرا "الأعراب البرلسية" بينما ذكرهم ابن الفرات. وقد ورد اسم هؤلاء الأعراب في نسخة كتاب النويري المطبوع في مسعد "البرلسية"[2]

ولم توضح المصادر إلى أي القبائل ينتمي أولاد بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان والعربان الريسية أو البرلسية. والمصادر الأخرى المعاصرة لتلك الأحداث مثل مؤلفات للقلقشندي و ابن تغري بردي لم تذكر أسماء أولئك الأعراب المصاحبين للحملة.

وليس من السهل التعرف على تلك الجماعات العربية. فلو افترضنا أن أولاد أبي بكر هؤلاء ينتمون إلى سلالة أبي بكر الصديق الذين كانوا في الأشمونيين مع قريش نواجه بعض الصعوبات، فسلالة أبي بكر في الأشمونيين كانوا معروفين ببني طلحة وليس بأولاد أبي بكر. وإلى جانب ذلك فإن المقريزي يرى أن بني طلحة لا ينتسبون إلى أبي بكر الصديق بل إلى طلحة بن عمر التيمي .[3]ولذلك ليس من المقبول إرجاع أولاد أبي بكر الذين شاركوا في غزو مملكة المقرة إلى أبي بكر الصديق.

ونفس الموقف يتكرر مع أولاد شريف الذين لم يرد لهم تعريف في المصادر. فقد ورد ذكر بعض الأشراف مرتبطاً بالجعافرة، ولكن وردت هذه الصفة في كل الأحوال

[1] النويري، نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٠٥.

[2] ابن خلدون، العبر ج ٥ ص ٤٠١ ، المقريزي، السلوك ج ١ ص ٢٥٠ ، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسد ، المكتبة السودانية ص ٢٦٩.

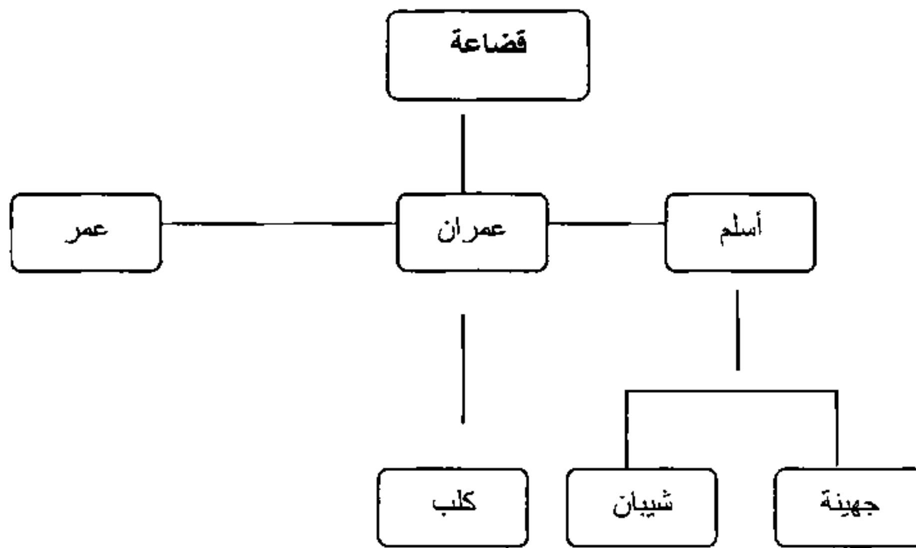
[3] المقريزي، البيان والاعراب ص ٣٥.

مُعرّفة مثل أولاد الشريف حصن الدولة، ولم أعثر على أولاد شريف في المصادر المشار إليها في البحث.

وإذا افترضنا أن أولاد عمر الذين ورد ذكرهم في الحملة المراد بهم أولاد عمر بن الخطاب الذين ورد ذكرهم ضمن قبيلة قريش في منطقة الأشمونيين، فإن هذا الافتراض لا يجد ما يسنده أيضاً لأن أولاد عمر عرفوا بالعمريين ومنهم العمري الذي حارب البجة والنوبة. هذا إلى جانب أن العمريين في عصر تلك الفتوحات كان مشكوكا في نسبهم كما قال المقريزي "وهم [العمريون] يكذبون في ذلك لأن أنسابهم لا تتصل به. وقد رأيت جماعة منهم وعرّفتهم كذبهم بطريق علمته."[1]

وإذا افترضنا أن أولاد عمر ينتمون إلى فرع من قبيلة هوارة يعرف بهذا الاسم وقد كانوا أمراء جرجا وما والاها كما ذكر القلقشندي،[2] فإن هذا الافتراض لا يبدو مقبولاً أيضاً لأن هوارة أصبح لها السيادة والأغلبية في نهاية العقد الأخير من القرن الثامن الهجري أي بعد أكثر من عشر سنوات من تاريخ تلك الغزوة.

وهنالك فرضية أخرى وهي أن يكون أولاد عمر وأولاد شيبان من قبيلة قضاعة. وكما هو واضح في الشكل أدناه فإن لقضاعة ابن اسمه عمر، ولأسلم بن قضاعة ابن اسمه شيبان. فهل من الممكن أن يكون أولاد عمر وأولاد شيبان المذكورون في غزو المماليك لمملكة المقرة هما أبناء قضاعة؟



[1] نفس المصدر ص ٤١.

[2] القلقشندي، قلائد الجمان ج ١ ص ٤٩.

لا أرى هذا الافتراض مقبولاً لأن عمر هو والد قبيلة بلي ذات الحضور الواضح الذي تناولته المصادر العربية منذ أيام الفتح الأولى تحت اسم قبيلة بلي، ولم ترد الإشارة إليهم تحت اسم أولاد عمر. ولذلك فمن غير المقبول أن نفترض أن ابناء عمر قصد بهم قبيلة قضاعة.كما أنه من غير المقبول أيضاً افتراض أن أبناء شيبان المذكورين في الحملات ضد مملكة المقرة هما أبنا شيبان بن أسلم بن قضاعة إخوان جهينة لأنه لم يرد ذكر لهذا الفرع في مصر منذ أيام الفتح الأولى وحتى عصر المماليك. ولذا فمن المستبعد جدّاً أن يكون بنو شيبان القضاعيون قد اشتركوا في الحروب بين المماليك ومملكة المقرة.

وهكذا إذا استثنينا بني هلال وبني الكنز من تلك الحروب وجدنا أنه من الصعب جدّاً التعرف على بقية العربان في جيش المماليك. ومن المقبول جدّاً أن يكونوا فروعاً صغيرة غير مشهورة من القبائل العربية أو المغربية في المنطقة. ويعني ذلك أن أغلب العربان الذين اشتركوا في الحروب ضد مملكة المقرة كانوا فئات صغيرة وقليلة العدد، ويظل التعرف عليهم تحت الدراسة والبحث. والملاحظ أن بني جعد اللخميين والعكارمة الأنصار الذين شاركوا في الأحداث بعد اسلام ملوك مملكة المقرة لم يرد ذكرهم ضمن العربان الذين شاركوا في غزو مملكة المقرة.

الفصل الرابع

تحركات السكان في الوسط والشمال والغرب

- تحركات السكان من الجنوب والغرب
- المجموعة الأولى: النوبا
- المجموعة الثانية: النوبا
- تحركات السكان قبل القرن الثالث الميلادي: النوبا
- تحركات السكان بعد القرن الثالث الميلادي البنوباديين

يرى الباحثون أن الضعف الذي أصاب دولة مروي - قبل انهيارها نهائياً على يد عيزانا ملك أكسوم - في القرن الرابع الميلادي كانت له أسباب داخلية وأخرى خارجية. وعلى رأس الأسباب الخارجية قيام دولة أكسوم ومنافستها لمملكة مروي كسوق هام للصادرات الإفريقية منذ القرن الميلادي الأول، وكان على رأس الأسباب الداخلية تحركات الشعوب السوداء التي اجتاحت دولة مروي من الجنوب والتي أطلقت عليها المصادر اليونانية والرومانية اسم Ethiopians أي السود.

والذي نحن بصدده هنا هو التحركات من مناطق الجنوب ومدى مساهمتها في التركيبة السكانية. بدأت تلك التحركات منذ قرون عديدة تشكل وتعيد تشكيل سكان مناطق السودان في الوسط والغرب والشمال. ويرى بعض الباحثين أن تلك التحركات بدأت منذ تكوين ثقافة الشهناب – شمال أم درمان – قبل بداية عصر الأسرات المصرية.[1]

توالت تلك التحركات طيلة العصور التاريخية اللاحقة، ووردت أخبارها في الآثار المصرية منذ بداية الألف الثالث ق.م. حينما بدأ حكام مصر يحصنون حدودهم جنوبي منطقة أسوان أمام تحركاتهم، وقد أطلقوا عليهم الشعوب السوداء. ولسنا الآن بصدد تكوين المجتمع السوداني في تلك الفترة – وسنعود إليها في بحث منفصل إن شاء الله – ومقصدنا هنا هو محاولة الربط بإيجاز بين تلك التحركات وبين تكوّن المجتمع السوداني في القرون الأخيرة التي واكبت ضعف وانهيار مملكة مروي وقيام الممالك المسيحية.

---

p 28. [1] A. J. Arkell, *A History of the Sudan, From the Earlies*

تحركات السكان من الجنوب

من خلال المعلومات المتوفرة حاليا - والتي تمكنت من الاطلاع عليها – يمكن تميز مجموعتين رئيستين تحركتا من الجنوب إلى الشمال داخل الحدود المروية أدّتا إلى ضعفها ثم انهيارها. وسنحاول التعرف على هاتين المجموعتين ومدى تأثيرهما على الأوضاع السياسية والسكانية وقيام الممالك المسيحية قبل نحو سبعة عقود من دخول العرب مصر.

تحركات المجموعة الأولى:

بدأت هذه المجموعة في التحرك شمالاً – منذ العصور القديمة – عبر النيل الأبيض والمناطق الواقعة شرقيه ألى المنطقة المعروفة اليوم بإقليم الجزيرة و أرض البطانة ، كما تحركت أيضا عبر وادي المقدم و وادي الملك نحو نهر النيل. وسنحاول هنا – بإيجاز- التعرف على تلك التحركات التي استقرت على النيل وفي مناطق الجزيرة والبطانة الحاليتين، واللتان كانتا ضمن حدود دولة مروي.

ولم يكن الوافدون الجدد يختلفون عن سكان تلك المناطق، فهم نفس سلالة سكان الجزيرة السود – في الألف الثالث ق.م. - والذين وجدت بعض آثارهم في منطقة جبل مويا في الجزيرة غرب مدينة سنار، وهم نفس سلالة الشعب الأسود – كما يرى ماكمايكل - الذين هزمهم سيزستريس الثالث في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ق.م. في منطقة وادي حلفا ، والذي جعل سمنة التي تقع على بعد ٣٥ ميل شمال مدينة حلفا حداً فاصلاً يُمنَعون من تخطيه شمالاً.[1]

فقد ذكر ماكمايكل أن الدراسات الآثارية والأنثروبولوجية التي قام بها كل من Derry و Seligman وضحت أن سكان منطقة النيل في الشمال حتى وادي حلفا الذين وجدت صورهم في الآثار المصرية منذ القرن التاسع عشر ق.م.، والذين كونوا سكان المنطقة في العصوراللاحقة في دولة كوش و مروي هم نفس سلالة السكان الذين وجدت آثارهم في جبل مويا بالجزيرة في القرن الثاني ق.م..

[1] Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan.* Vol. 1,. p20.

وبناءً عليه فإن السلالة التي أطلق عليها قدماء المصريين منذ بداية الألف الثالث ق.م. "الشعب الأسود" هي السلالة التي كونت المجتمع السوداني في مناطق الجزيرة و البطانة والشمال في عصر كوش و مروي. وسنتناول سكان المنطقة الغربية في الحديث عن المجموعة الثانية التي هاجرت من الجنوب، أما سكان الشرق فسيأتي الحديث عنهم في نهاية هذا الفصل.

من هم أولئك السكان السود الذين كونوا سكان السودان في الوسط والشمال منذ الألف الثالث ق.م.؟ ساهم الباحثان السابقان Derry و Seligman بقدر كبير في الإجابة عن هذا السؤال. فعندما درسا بعض مخلفات أولئك السكان أظهرت نتائج أبحاثهما المعملية لأحجامهم وجماجمهم وفكوكهم (جمع فك) أن أولئك السكان القدماء يشبهون بدرجة كبيرة سكان جبال النوبة الحاليين مما يشير إلى صلة القرابة بين السلالتين. فسكان السودان الأوسط والشمالي القدماء هم من السلالة التي تعيش سلالتها اليوم في جبال النوبة.

ومما يزيد هذا الرأي قبولاً الآثار التي وجدت في معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري والتي ترجع إلى نهاية القرن السادس عشر ق.م.. فقد ظهرت أشكال ستة زعماء لقبائل أو لجماعات سودانية من بينهم ال Irm و Nimiu يقدمون الذهب إلى الملكة. وقد رأى ماكمايكل أنه من أسماء وأشكال الزعيمين من الممكن أن يكون Nimiu أسلاف ال Nyima الحاليين في جبال النوبة، وال Irm هم الذين أشارت إليهم المصادر المصرية القديمة في القرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر ق.م. بأرض Irm التي تقع في منطقة الإستبس الواقعة غربيي النيل الأبيض والمعروفة اليوم بكردفان حيث لا يزال بعض فروع الميما يعرف ب: Armi .[1]

ويبدو مما جاء في الآثار المصرية أن المناطق الواقعة إلى الجنوب من حلفا كانت مأهولة بالسكان، فالحملات العسكرية التي دخلت شمال السودان منذ مطلع القرن العشرين ق.م. تشير إلى عدد كبير من المناطق المأهولة. فقد ورد في إحدى حملات

[1] Ibid. p 107>

سنوسرست الأول أسماء عشرة أقاليم أولها إقليم كوش. وورد في أثر آخر أسماء إثنتين وعشرين منطقة.[1]

وليس من الضروري أن تكون الحملات قد وصلت إلى كل تلك المناطق أو الأقاليم، إذ يبدو أنها بلغت منطقة الشلال الثالث فقط، ولكنها دونت أسماء المناطق الداخلية والتي بدأت ترتبط بعلاقات تجارية و سياسية بمصر. وقد يفسر ذلك صور الزعماء السودانيين الذين ظهرت صورهم يقدمون الذهب إلى الملكة حتشبوت ، فربما أتى أولئك الزعماء من مناطق مروي أو من كبوشية أو سنار أو فازوغلي أو الابيض أو الفاشر.

ونلاحظ ورود اسم كوش للدلالة على أقصى الجزء الشمالى من السودان في تلك الآثار المبكرة (القرن العشرين ق.م.)، وظل هذا الأسم يستخدم إلى جانب "السود". غير أن الأوضاع السياسية تغيرت في السودان في منتصف القرن الثامن عشر ق.م.، فقد ظهرت دولة كبيرة في كرمة عرفت بدولة كوش شاركت الهكسوس في الدلتا والمصريين في طيبة (الأقصر) السيادة على وادي النيل. وخاطب كل من الهكسوس وملوك طيبة السودانيين بملوك كوش طامعين في ودِّهم.[2]

ذكر آدمز أن "كوش المشار إليها كانت دولة قوية فرضت على ملك الهكسوس في أفاريس لبمنطقة الوجه البحري في مصرا أن يسعى إلى ملكها طالباً المساعدة والدعم له في حروبه ضد كامس." و كامس هو الملك المصري حاكم الصعيد. وقد سجل كامس محتوى رسالة من ملك الهكسوس إلى ملك كرمة في نقش في الكرنك جاء فيه:

"إلتقَطُ رسالة في جنوبي الواحات أثناء صعود حاملها إلى بلاد كوش، واكتشفت أنه خطاب من ملك أفاريس بخط يده يقول فيه: عا أوسر رع أبيي بن رع يحيي إبنه ملك كوش. لم أعلنت نفسك ملكا دون أن تحيطني علماً؟ وهل بلغك ما فعلته مصر معي؟ فالعاهل القائم عليها كامس- فليوهب حياة وعمراً – يشن الهجمات على ممتلكاتي

---

[1] محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم ص ٤٥ – ٤٨.

[2] وليام آدمز، "إختراع النوبة" ترجمة أسامة عبدالرحمن النور. مجلة الاثار السودانية ، عدد رقم ٢ (٢٠٠٠) ص ٩. محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم ص ٥٣ – ٥٤.

رغم أنني لم أناصبه العداء. فقد عاملني كما عاملك تماما، لقد وقع اختياره على بلدينا لينشر فيهما الخراب، بلدي وبلدك وعاث فيهما فساداً. هيا احضر! لا تخف! إنه هنا في الوقت الحاضر حيث يتعقبني، فلا أحد يترقبك في مصر ولن أتركه يرحل قبل وصولك."[1]

واشتهر اسم كوش في الحقب التالية في مصر والشرق القديم، كما تردد في التراث العبري. وقد تلقب ملوك نبتا و مروي بملوك كوش وأطلقوا الاسم على بلادهم.[2]

إلى أي مدى امتدت حدود دولة كرمة جنوبا وغرباً عبر أودية هور و المقدم و الملك والنيل الأبيض؟ وإلى أي مدى امتدت شرقاً عبر نهر عطبرة و النيل الأزرق وغربا عبر وادي هوار ؟ تتطلب الإجابة الكثير من البحث والتنقيب، ولكن ما يمكن التوصل إليه هو أن المجتمع السوداني الذي أطلق عليه اسم الكوشيين في كل مراحله هو سلالة ذلك الجنس الأسود الذي ظهرت صوره في الآثار المصرية منذ القرن العشرين ق.م.، والذي وجدت آثاره في مقابر جبل موية في الجزيرة والذي توجد بقاياه الآن في جبال النوبة .

من هم النوبا ؟:

أريد أن أنوه في البداية أن "النوبا" هنا المقصود بهم السكان القدماء لغرب ووسط وشمال السودان. وقد جرت العادة الآن عندما نكتب كلمة "نوبة" بالتاء في آخر الكلمة نقصد بها السكان الحاليين لأقصى شمال السودان، وعندما نكتب "نوبا" بالألف في آخر الكلمة نقصد بها سكان جبال النوبا الحاليين.

ونعود إلى هجرات المجموعة الأولى التي اجتاحت مناطق الجزيرة والبطانة والمناطق الشمالية شرقي النيل والتي أدت إلى إضعاف مملكة مروي وتقلص حدودها إلى مناطق محدودة على نهر النيل شمالى الخرطوم بعد اجتياح المهاجرين الجدد تلك المناطق. يقول توروك:

[1] وليام آدمز، المرجع السابق ص ٩.

[2] نفسه، ص ٦.

"يمكن تصور أن تكون مجموعات نوباوية بحلول القرنين الأول والثاني الميلاديين قد استقرت في داخل حدود المملكة. وجود تلك المجموعات قد يكون ولّد عمليات اجتماعية وثقافية قادت بطريقة ما – وهو ما نعرفه في حالات معاصرة أخرى – إلى تفكك مملك مروي. النتيجة النهائية يمكن أن تكون – مثل حالات مماثلة لا حصر لها في الجزء الغربي للامبراطورية الرومانية – استمرارية سياسية قد تم الاحتفاظ بها عن طريق المصاهرة بين الأسرة القديمة وزعماء القبائل الجديدة الوافدة التي استقرت في المملكة."[1]

وهكذا يشبه توروك – وهو باحث مرموق في تاريخ تلك الحقبة – إجتياح قبائل النوبا لملكة مروي مثل إجتياح القبائل الجرمانية للامبرطورية الرومانية الغربية وكيف أدت في النهائية إلى تفتت الامبراطورية من الداخل. والجزء الآخر الهام فيما أورده توروك أن جماعات النوبة المهاجرين قد أسسوا مملكة علوة التي خلفت مملكة مروي في المناطق الوسطى من حدودها.

ويبدو إجتياح جماعات النوبا لملكة مروي واضحاً فيما ورد في لوحة عيزانا التي دون فيها انتصاراته على دولة مروي. وفيما يلي ترجمة لنص عيزان من كتاب آركل الذي نقله عن كيروان[2]. سأكتب بعض الأسماء بالانجليزية كما جاءت في ترجمة النص للمحافظة على طريقة نطقها بما في ذلك كلمة النوبا، وما كُتِب خلال النص بين قوسين [ ] ليس جزءاً منه بل شرح للكلمة المكتوبة قبل القوسين.

ترجمة نقش عيزانا:

"أنا ملك الملوك عيزانا ابن Ella ' و Amida ' مواطن Halen ملك آكسوم و حمير و ريدان و Saha و Salhen و Seyamo و البجا و Kasu [كوش]. حاربت النوبا [Noba] لأنهم ثاروا وتباهوا بذلك، وقالوا إن الأكسوميين لن يعبروا نهر تكازى

[1] لازلو توروك، "تاريخ ما بعد مروي وآركيولوجيته" ترجمة أأسامة عبد االرحمان لنور. أركاماني العدد الادس ٢٠٠٥ ص٢.

[2] Arkell, *A History of the Sudan* p 122; L. P. Kerwan, " A Survey on Nubian Origin" *S.N.R.* xx 1937 p 47-62

لنهر عطبرة]، ولأنهم كرروا الهجوم على Mangurto و الخاسا و الباري [منطقة كسلا الحالية] وعلى السود [قصد بهم سكان جزيرة مروي الوسطى] و الحمر [قصد بهم سكان شمال مروي] . لقد حنث النوبا [Noba]عن قسمهم مرتين وثلاث، وقتلوا جيرانهم بدون رحمة ، وهاجموا المبعوثين الذين أرسلتهم للتحقيق معهم بخصوص غاراتهم وسرقوهم وجردوهم من ممتلكاتهم. وقد حذرتهم لكنهم رفضوا الانصياع وتَرْك أعمالهم الشريرة وتهيئوا للحرب. فحاربتهم علي نهر تكازى عند مخاضة Kemalke فلم يصمدوا وفروا، وطاردتهم ٢٣ يوما قتلت بعضهم وأسرت البعض الآخر، وأحرقت مدنهم المشيدة بالقصب والمشيدة بالطوب، وأخذت طعامهم ونحاسهم وحديدهم، وحطمت التماثيل في معابدهم وخربت مخازنهم وقطنهم وألقيت بكل ذلك في Seda [النيل]. ثم أتيت إلى Kasu وخضت معركة وأخذت أسرى عند إلتقاء نهري تكازى وسيدا. وفي اليوم التالي أرسلت جيش Damawa وPalha وSera للإغارة على القطر والمدن المشيدة بالطوب والقصب، المدن المشيدة بالطوب هي مدن علوة و Daro [ربما الكدرو الحالية]. ثم بعد ذلك أرسلت جيش Halen و Laken لمحاربة المدن الأربعة المشيدة بالقصب في أعإلى نهر سيدا. والمدن المشيدة بالطوب والتي أخذها النوبا [Noba] هي Tabito و Fertoti . ووصل جيشي إلى حدود النوبة [Noba] الحمر وهزموهم بعون الإلاه ورجعوا بسلام، وعينت حاكما على ذلك القطر عند ملتقى نهر سيدا وتكازى."

يوضح النص أن مملكة مروي تعرضت لاضطرابات شديدة بسبب هجرات النوبا التي اجتاحت المملكة من الجنوب إلى الشمال. وكانت حروب عيذانا موجهة ضد هولاء النوبا. وقد سبقت هذه الحرب اتصالات ومراسلات تعدى فيها النوبا على رسل عيزانا وحنثوا عن أيمانهم وتمادوا واستعدوا للحرب كما وضّح النص.

خاض عيزان حروبه ضد النوبا على نهر عطبرة وعلى المناطق النيلية شمال وجنوب نهر عطبرة . كما حارب النوبة في منطقة البطانة و الجزيرة و علوة وجنوبيها وشماليها. وهو في ذلك كله يخاطب النوبة سواء أشار إلى الوافدين الجدد أو إلى السكان المحليين.

فالنوبا في نقش عيزانا هم الثوار الذين هددوا آكسوم على حدودها الغربية بغاراتهم المتكررة على سكان مناطق القاش و نهر عطبرة. والنوبا هم سكان جزيرة مروي الذين وصفهم عيزانا بالنوبا السود. فالنوبا هم كل سكان منطقة الجزيرة ما بين النيل الأبيض و الأزرق ومنطقة البطانة بين النيل الأزرق و نهر عطبرة . و النوبا أيضا في النقش هم سكان الشمال الذين وصفهم عيزانا بالنوبا الحمر، وهم سكان نهر النيل شمإلى نهر عطبرة وحتى حدود السودان الشمالية.

النوبا في نقش عيزانا هم: أصحاب المدن المشيدة بالطوب والمشيدة بالقصب، "وأحرقت مدنهم المشيدة بالقصب والمشيدة بالطوب"، وهم أصحاب المزارع والنحاس والحديد والمعابد والتماثيل، "وأخذت طعامهم ونحاسهم وحديدهم، وحطمت التماثيل في معابدهم وخربت مخازنهم وقطنهم". وبناءً على ذلك وكما ورد في المصادر القديمة فـ"النوبا" هو الإسم الذي أطلق على سكان الوسط والشمال، و هو الهوية التي عرف جميع أولئك السكان.

ويبدو مفهوم وإطلاق اسم النوبا على كل السكان واضحاً أيضاً حتى بعد سقوط اكسوم. فقد جاء في كتابات الرحالة الأوربيين الذين زاروا الحبشة في القرن الخامس عشر الميلادي أن Nubi هي بلاد المملكتين المسيحيتين اللتين قضى عليهما الفونج . وجاء في كتاباتهم أن حدود مملكة علوة الجنوبية تمتد حتى Agaua جنوبي بحيرة تانا و Dembian شمإلى يحيرة تانا ، وأن في إقليم النوبا خمسة أنهر تأتي من الجنوب والجنوب الشرقي والجنوب الغربي قصد بها نهر عطبرة و النيل الأزرق وفروعهما والنيل الأبيض.[1]

ونجد أيضاً نفس مفهوم النوبا الواسع عند المؤلفين المسلمين الذين دخلوا مصر بعد أقل من ثلاثة قرون من سقوط مروي حيث أطلق بعضهم اسم النوبا للدلالة على كل المناطق التي مر ذكرها عند عيزانا وفي المفهوم الاثيوبى.

فقد جعل كل من اليعقوبي الذي كتب في القرن الثالث الهجري (٩م)، و ابن حوقل و المسعودي في القرن الرابع الهجري مملكة علوة من بلاد النوبا حيث قال

[1] O. G. S. Crawford, (ed.) *Ethiopian Itineraries circa 1400 – 1524*Cambridge University Press 1955 p 104, 111.

اليعقوبي : "فأما من قصد العلاقي إلى بلاد النوبة الذين يقال لهم علوة"[1] وقال اليعقوبي عن النوبا : "وبلدهم أوسع من الحبشة في نواحيه، وعمارتهم أكثر مما بالحبشة ... ومن أعمر بلادهم نواحي علوة."[2]

وقال المسعودي:

"فأما النوبة فافترقت فرقتين في شرقي النيل وغربيه وأناخت على شطيه فاتصلت ديارها بديار القبط أرض صعيد مصر من بلاد أسوان وغيرها، واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعِّدة ولحقوا بقريب من أعاليه، وبنوا دار مملكة وهي مدينة تدعى دنقلة، والفريق الآخر من النوبة يقال له علوة، وبنو مدينة للملك سموها سرية ."[3] قال مسعد ربما المقصود بمدينة "سرية" سوبة .

وبعد عدة قرون من تلك الكتابات المبكرة نجد أن مناطق الجزيرة والبطانة ومناطق النيل الشمالية كانت لا تزال تعرف باسم النوبا. ففي القرن السابع عشر قال الشيخ إدريس ود الأرباب لملك الفونج عندما عرض عليه أن يقاسمه في مملكته: "هذه الدار دار النوبة وأنتم غصبتموها منهم."

وفي منتصف القرن الثامن عشر قال ود ضيف الله "أعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر(١٦م)"[4] وكرر نفس المعنى كاتب الشونة حيث قال: "الفونج ملكت أرض النوبة"[5] فأرض النوبا إذاً كانت حتى وقت قريب تطلق إطلاقاً واسعاً وتعني كل حدود مملكة الفونج والنوبا هو الإسم الذي أطلق على سكان تلك المناطق.

---

[1] اليعقوبي، كتاب البلدان في مصطفى مسعد، المكتبة السودانية ص ١٧.

[2] ابن حوقل، صورة الأرض ص ٦١.

[3] المسعودي، مروج الذهب في مسعد، المكتبة السودانية ص ٥٠.

[4] ود ضيف الله، كتاب الطبقات تحقيق يوسف فضل جامعة الخرطوم: دار التأليف والترجمة والنشر ط ٢، ١٩٨٥ ٣٩، ٦٠.

[5] كاتل الشونة

وقد ذكر ترمنجهام أن النوبا قبل القرن السادس عشر كانوا يسكنون كل كردفان. ولازالت بقاياهم في شمال كردفان في الحرازة و أم درقة و أبو حديد و كنول و كاجا . كما توجد بقايا منهم في حوض نهر القاش [1].

فهل ننظر إلى اسم النوبا باعتباره الهوية التي ربطت كل أولئك السكان، وبمعنى آخر هل ننظر إلى "النوبا" باعتبارها هوية سكان الغرب والوسط والشمال؟ أعتقد أن هذا ما أثبتته المصادر التي تعرضنا إليها. وإلى جانب ذلك كانت النوبا أيضا هوية المجموعة الثانية التى تحركت إلى مناطق غربي النيل ما سيلي.

- **تحركات المجموعة الثانية:**

طبيعة مناطق غربي النيل: كردفان و دارفور وشماليهما:

تحركت المجموعة الثانية من الجنوب في اتجاه الشمال في المنطقة الواقعة غربي النيل الأبيض و نهر النيل وهي مناطق كردفان و دافور الحاليتين و صحراء بيوضة والصحراء الواقعة غربي النيل حتى منطقة أسوان شمالاً. وقد كان المناخ والحياة البشرية والحيوانية والنباتية في هذه المناطق في عصورها القديمة يختلف اختلافا كليا عما هو عليه الآن. والتعرف على ذلك يساعد على فهم مواطن الاستقرار وتحركات السكان.

فعلى سبيل المثال كان حجم بحيرة تشاد أكبر اثنتي عشرة مرة من حجمها الحالي، وامتدت شمالا حتى فزان الأمر الذي أثر كثيراً على المناخ ونسبة الأمطار في المنطقة. وكانت هنالك أنهار دائمة الجريان وبحيرات في جنوب ليبيا والمناطق الواقعة إلى الشرق منها حتى جبل العوينات . كما كان أقليم السدود في جنوب السودان عبارة عن بحيرة تمتد شمالاً حتي منطقة الخرطوم الحالية [2].

---

[1] J. S. Trimingham, *Islam in the Sudan* p 244.
[2] R. Said (1992) "Chronological Framework: African pluvial and glacial epoch " in J. Ki-Zerbo ed. *General History of Africa I: Methodology and African Prehistory.* (Oxford: Heinemann International Literature and Textbooks). 385-386; D. Olderogge (1992) "Migrations and ethnic and linguistic differentiations" in J. Ki-Zerbo ed. *General History of Africa I: Methodology and African Prehisto*

وكانت هنالك بحيرة في مرجا غربي دنقلا وفي نبتا بلايا ، وأودية مثل وادي هوار و Grassy valley ، ومياه دائمة وبرك ماء موسمية كما في واحات دنقل و الفرافرة ولقية أربين و سليمة و بير صحارى و بير طرفاوي و منطقة جبل عوينات و الجرف الكبير و الواحة الخارجة .[1] وكان معدل سقوط الأمطار في شمال ووسط السودان أعلى من معدل هبوطه في صعيد مصر ، وبلغ منسوب فيضان النيل الأزرق في تلك الأوقات ما بين أربعة إلى عشرة مرات أعلى من منسوبه الحالي.[2]

وقد تطورت ثقافات هذه المناطق في وقت مبكر، ويرجح بعض الباحثين أن ثقافة سكان منطقة مرتفعات تبستي شمال تشاد – قبل عصر الجفاف في الصحراء – قد امتدت حتى وادي النيل ووصلت منطقة الخرطوم الحالية، ثم انتقلت بعد ذلك إلى صعيد مصر قبل قيام عصر الأسرات[3].

وتوجد الآن قناعة بين عدد كبير من الباحثين أن إنتاج الطعام واستئناس الحيوان في العصر الحجري الحديث بدأ في هذه المناطق الصحراوية غربي النيل قبل بدايته على ضفاف النيل سواء في مصر أو في السودان.[4] وقد وضح الباحثون أنه يمكن بسهولة ملاحظة الشبه الشديد بين الثقافات المبكرة على طول ضفاف النيل وثقافات الصحراء الغربية . فعلى سبيل المثال كانت أدوات الفخار وعمليات تزيينه وصناعة الخرز الأمزوني في منطقة تبستي شمال تشاد و الشهناب شمال الخرطوم تشابه بدرجة كبيرة.[5]

---

[1] Fred Wendorf,Rouald Scild (1994) "Are the early Holecene cattle in the western Sahara domestic or wild" *Journal of Anthropological Archeology*, 3 No. 4. Online.

[2] A. J. Arkell, *A History of the Sudan, From the Earliest Times to 1821* 25, 32; Michael A Hoffman (1991) *Egypt before the Pharos : The Prehistoric Foundations of Egyptian Civilization.* (Austin: University of Texas Press), p 152

[3] A. J. Arkell, *A History of the Sudan,* 34□

[4] F. Wendorf and R. Schild, (1980) *Prehistory of Eastern Sahara.* Quoted by Beatrix Midant-Reynes (2000) *The Prehistory of Egypt.* 149 Michael A. Hoffman, *Egypt before the Pharaohs.* 177; Fred Wendorf and Fekri A. Hassan, "Holocene ecology and prehistory in the Egyptian Sahara" 417□

[5] Jean Vercoutter, (1992) "Discovery and Diffusion of Metals and Development of Social Systems up to the Fifth Century Before Our Era" in J. Ki-Zerbo, ed. *General History of Africa I.* 721

وقد بدأ الجفاف التدريجي في هذه المناطق قبل قيام حضارات وادي النيل، واستغرق ذلك وقتا طويلاً. وظلت بعض مصادر المياه متوفرة في المنطقة لوقت طويل بعد بداية عصر الجفاف. فعلى سبيل المثال كانت واحة الخارجة لا تزال بحيرة حتى بعد عصر بناة الأهرام. وامتد إقليم السافنا على طول المنطقة الصحراوية الحالية حتى عصر قيام الحضارة المصرية.

وكانت الحياة الحيوانية غنية على طول المنطقة بما فيها الحيوانات الكبيرة مثل الأفيال والثيران التي وجدت عظامها في منطقة جبل العوينات. وامتدت مناطق الاستبس شمالي كرفان والمناطق الجاورة لها غرباً في دارفور. وسنأخذ نموذجين نتعرف من خلالهما على طبيعة تلك المناطق هما نبتا بلايا Nabta Playa و النيل الأصفر (وادي هوار).[1]

Napta Playa

نتا هو إسم المكان وبلايا معناها - كما في دائرة العارف (Wikpedia on line) - حوض بحيرة جاف. فماذا يعني اسم النبتا وما هو مصدره؟ لم يناقش ذلك علماء الآثار الذين نقبوا وكتبوا كثيرًا عنها. والنبتا عبارة عن حوض بحيرة كبير جاف تبلغ مساحته نحو مائة كيلومتر مربع، وتقع على بعد نحو مائة كيلو متر غربي النيل في حدود مصر الجنوبية بالقرب من الحدود السودانية.[2]

ويلاحظ ظهور الاسم على ضفاف النيل بعد قرون كثيرة في "مملكة نبتا" ويتطلب ذلك البحث عن العلاقة بين ثقافة نبتا الصحراوية القديمة ومملكة نبتا النيلية، وهل هنالك علاقة ين نبتا بلايا والنوبا أو النوباديين؟

[1] توجد المزيد من المعلومات عن نبتا ووادي هواهر في موضوع مكتوب باللغة الانجليزية عنوانه: The Missing Links: Relations between Early Cultures of the Sudan and the Western Frontiers of the Nile before the End of the 4TH Millennium BC. قُدم لمؤتمر جمعية الدراسات السودانية الذي انعقد في جامعة جورج واشنطن في أغسطس ٢٠٠٣ واشنطون

Ibid.; Fred Wondorf and Fekri A. Hassan, [2] Fred Wondorf and Romuald Child, "Holocene Ecology and the Prehistory of the Egyptian Sahara" in Martin A. J. William and Hugues Faure eds, *The Sahara and the Nile: Quaternary Environment and prehistoric occupation in North Africa.* Rotterdam: A. A. Balkima 1980 p 408

تعتبر نبتا بلايا من أهم المناطق الأثرية في الصحراء الغربية القريبة من النيل. وتتميز المناطق المجاورة لها بمصادر مياه غنية مثل واحة الخارجة في الشمال و بئري طرفاوي و صحارى في الغرب و واحات دنقل و لقية اربين و سليمة و النيل في الشرق والجنوب. ويرجح أن النبتيين سكان نبتا بلايا (ومن الممكن أن نقولالنوباديين أو النوباديين) الأوائل أتوا من منطقة أرجين بالقرب وادي حلفا للتشابة الشديد في الأدوات التي استخدمها كل من الفريقين كما لاحظ ذلك علماء الآثار.

أدى هذا الموقع الاستراتيجي مع وفرة المياه إلى تطور نبتا بلايا كأحد أهم المراكز العمرانية في المنطقة، وطورت وسائل انتاج الطعام مبكراً. يوضح ذلك ما عثر عليه من آثار ترجح استئناس الحيوان وزراعة الشعير في عصر مبكر سبق عصر الأسرات في مصر. ويرى الباحثون أن النبتيين ربما استأنسوا الحيوان في وقت مبكر ربما في الألف السابع قبل الميلاد أي عدة قرون قبل بداية الحضارة المصرية.[1]

كما نظر بعض الباحثين أيضاً لبداية زراعة الشعير في نبتا بلايا بأنها الأقدم في إفريقيا:

"The domestic barely is the earliest confirmed domestic plant of Africa."[2]

أدى كل ذلك إلى تطور انظمتها الاجتماعية التي وصفها ببعض الباحثين بأنها:

"Signs of social systems laying the foundation of organizational control not present in the contemporary Nile valley communities"[3]

واصلت نبتا بلايا نشاطها كمركز عمراني نحو ألفي سنة قبل أن تتغير أوضاعها المناخية، وتمكن النبتويون خلالها من تأسيس انظمتهم الاقتصادية والاجتماعية والدينية وربما السياسية. وقد تأثر تاريخ النبتاويين كثيراً - طيلة هذه الفترة - بالتذبذب المناخي بين الجفاف والرطوبة مما إدى إلى ارتباطهم القوي بمنطقة النيل. وربما تم ذلك الارتباط في منطقة حلفا للتشابه في الأدوات التي استخدمها كل منهم،

[1] Fred Wendorf and Romuald Schild 'Are the Early Holocene Cattle in the Eastern Sahara' 37

[2] Fred Wendorf, Fekri A. Hassan (1980) "Holocene ecology and prehistory " . 417

[3] Brass, Mikey (2001) 'Tracing the development of cattle cult with regards to pre-dynastic and early dynastic Egypt.'www.antiquityofman.com
This paper was removed from the site in November 2001. It was updated and was presented at " Egyptology Conference, Birmingham University December 2001.

فقد كان النبتيون ينزحزن إليه في فترات الجفاف ثم يعودون إلى النبتا بلايا في الفترات المطيرة.

ويرى وندروف أن الأنظمة الاجتماعية وربما السياسية أيضا قد تطورت في نبتا قبيل قيام عصرالأسرات في مصر، وربما كان لنبتا بلايا دور هام في تطور المؤسسات الاجتماعية والسياسية على وادي النيل.[1] ويوجد الكثير من الشبه بين النبتيين وسكان وادي النيل في عصر ما قبل الأسرات، كما تتشابه الأواني الفخارية لسكان نبتا بالأواني الفخارية للسكان القدماء في منطقة الخرطوم.[2]

النيل الأصفر (وادي هوار):

سأكتفي عن وادي هوار بالفقرات التالية اللتي نقلتها من كوبر ترجمه اسامة عبدالرحمن النور بالقلؤيل من التصرف:[3]

"وادي هوار، وهو نهر جاف يمتد طوله إلى ١,٠٠٠ كيلومتر، كانت له أهمية خاصة كمنطقة للإقامة والتبادل التجاري. يتجه وادي هوار من جبال انيدى إلى بحيرة تشاد إلى النيل حيث يصب جنوبي دنقلا، واحتفظ بأهميته بلا شك كمنطقة اتصال بين دواخل إفريقيا و وادي النيل حتى أزمان قريبة. الإقليم الأسفل للوادي الذى يمتد قرابة ٤٠٠ كيلومتر من جبل رحيب شرقاً إلى النيل لم يظهر بعد حتى في أكثر الخرائط حداثة. والدليل على أن وادي هوار كان بمثابة سلسلة من البحيرات المرتبط بعضها بالأخرى حتى الألفية الثانية ق.م. تم الكشف عنه فقط خلال السنوات الأخيرة."

"وقد أعطى ذلك أساساً جديداً لكل الاحتمالات عن الصلات الثقافية بين النيل ودواخل إفريقيا. ولم يكن وادي هوار هاماً فحسب كخط شرقي غربي لربط التجارة، وكموقع للإقامة وفر موارد هائلة

[1] Fred Wendorf and others, "Megalithic and Neolithic in Southern Egypt" *Nature* 342, 1988 p 488-4922. quoted by Brass Ibid.
[2] Anne B. L. Stemler, 'Origin of Plant', 415.
[3] رودلف كوبر، "في أثر الرعاة المبكرين" *مجلة الآثار السودانية*، العدد الثالث، أغسطس ٢٠٠٢.

للصيد وصيد الأسماك خلال فترة الهولوسين المبكر فقط، لكنه وفي أزمان لاحقة أصبح منطقةً للاحتفاظ بالأبقار. وكان له أيضاً دور الوسيط في المرحلة الانتقالية للثقافة والتحركات السكانية التي حدثت في الألفية الخامسة بفعل الجفاف الذى أصاب الصحراء. بهذه الوظيفة فقد فرض وادي هوار نفسه عتبةً ايكولوجية يمكن للناس ولثقافاتهم التوقف فيها وأن تتطور في وجه التوسع المخيف للصحراء التى هجمت عليهم."

"في هذا المسار طرح فروبينيوس الفرضية الجريئة التى مفادها أن وادي هوار هو النيل الأصفر الذى يجرى إلى الشمال الشرقي. وقد استخدمت مخلفات المواد الفخارية والحيوانية الهائلة خلال السنوات الأخيرة للإجابة عن أسئلة متعلقة بأركيولوجية الإقامة (الاستقرار). ومنذ أن بدأت جامعة كولون أبحاث الصحراء الشرقية[1] عام ١٩٨٠ أصبح ممكناً عن طريق أعمال المسح المنتظمة وبالاعتماد على كرونولوجية الفخار المفصلة تطوير الخطوط الأولى لمسار الاستقرار."

"وطبقاً لذلك انعكس رد فعل مباشر على الجفاف المتزايد بالتشديد على تحويل مواقع الإقامة من السهول المحيطة ومن أسفل وادي هور إلى وسط الوادي، ومن الأطراف إلى الأجزاء الواقعة إلى الأسفل. يصح الشئ نفسه بالنسبة للإفادات التى يمكن أن يتوصل إليها المرء بخصوص عظام الحيوانات المكتشفة. انخفضت نسبة تربية الأبقار ليحل محلها الرعي المتزايد للخراف والماعز والتي تجد حتى اليوم مرعاً فقيراً لها بعد الجمال الخاصة ببعض البدو الكبابيش."انتهى نص كوبر.

ولذلك كان وادى هوار منطقة استقرار لعدد كبير من السكان على منطقة واسعة أمتدت نحو ألف كيلوكتراً. ويعتبر وادي هوار بذلك من أكبر روافد النيل، ويمكن مقارنة الاستقرار عليه بالاستقرار على أي رافد من روافد النيل الكبيرة مثل

[1] يقصد بالصحراء الشرقية هنا الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى الوقع غربي نهر النيل.

النيل الأزرق. هذا إلى جانب تمتع المناطق الواقعة إلى الجنوب والشمال منه بقدر وافر من المياه والحياة النباتية هيأت تلك المناطق للاستقرار.

وفي نفس الوقت ربط سكان وادي النيل بسكان بحيرة تشاد ومناطق تبستي وسكان جنوبي الصحراء، ولذلك وُصِف بأنه كان بمثابة الرواق المؤدي إلى داخل إفريقيا.[1] كما توضح المعلومات المتوفرة أنه تم أيضاً استقرار بشري مبكر في جبل مرة كما تشير بقايا عظام السمك والصدف التي وجدت في المنطقة.[2]

ن هذا العرض يتضح أن المناطق الواقعة من كردفان ودارفور جنوبا حتى جبل العوينات والواحات المصرية شمالاً كانت مناطق مأهولة، بعض سكانها مستقرين يحترفون الزراعة والصيد على سواحل البحيرات والأنهار، وبعضهم رعاة يتجولون وراء ماشيتهم.

وحتى بعد بداية عصر الجفاف وتغير المناخ كان وادي هوار والمناطق الواقعة إلى شماليه لا تزال تتمتع بقدر معقول من المياه وفر استمرار الحياة البشرية. وكان رعاة البقر (البقارة) يرعون أبقارهم في هذه المناطق كما ذكر هيرودوت في القرن الخامس ق.م. ووصف ثيرانهم بأنها ذات قرون كبيرة تنموا إلى الأمام بحيث يتعذر على الثور التحرك إلى الأمام اثناء رعيه، ولذلك ترعى تلك الثيران وهي تتحرك إلى الخلف.[3]

وقد اثبتت المخلفات الأثرية أن الاستقرار السكاني كان مستمراً حتى قيام ثقافة كرمة المبكرة، وربما كان لهجرة بعض سكان وادي هوار بفعل الجفاف واستقرارهم على النيل دور في قيام ثقافة كرمة المبكرة. وحدث الاختلاط طيلة فترات العصور القديمة بين العناصر السكانية في كل مناطق الصحراء الغربية. وأصبحت الثقافات المبكرة في صعيد مصر ونبتا بلايا و تبستي وثقافة الشهناب مماثلة لبعضها البعض، وظلت تلك الصلات والعلاقات دائمة حتى الفترة التي تعالجها الدراسة.

---

[1] A.J. Arkell (1955) *A History of the Sudan* ,5

[2] J. Desmond Clark (1992) " Human populations and cultural adaptations in the Sahara and Nile. 541; Timothy Kendall, The Earliest People in Nubia.

[3] Herodotus, *The History of Herodotus* Robert G. Gwinn, 1990, p 156>

وسنحاول فيما يلي التعرف على سكان هذه المناطق في القرون الأخيرة من عمرمملكة مروي وما صاحب ذلك حتى قيام الممالك المسيحية. وسنتتبع تلك التحركات من خلال فترتين متميزتين، الأولى قبل القرن الثالث الميلادي والثانية بعده.

١- تحركات السكان قبل القرن الثالث الميلادي:

ذكرنا أن الباحثين يقولون بحدوث تحركات سكانية في شكل هجرات واسعة في القرون الأخيرة التي سبقت انهيار مملكة مروي. بدأت تلك التحركات من مواطنها الأصلية في كردفان – كما يرى كثير من المؤرخين - إلى الشمال نحو المناطق الواقعة إلى الغرب من النيل الأبيض و نهر النيل في مناطق شمال كردفان و صحراء بيوضة و شمال دارفور. وقد عرف أولئك المهاجرون باسم النوبا.[١] ويتطلب ذلك التعرف سريعاً على بداية ظهور هذا الاسم، وعلى من كان يطلق في القرون الأخيرة السابقة للميلاد ؟

إطلاق اسم (النوبة) بالتاء في اخر الكلمة سواء على منطقة شمال السودان أو على سكان الممالك المسيحية (نوباتيا و المقرة و علوة) اشتهر في المصادر العربية بعد دخول الإسلام مصر. وليس غرضنا هنا تتبع التفاصيل التي وردت حول أصل اسم نوبة أو نوبا، وسنكتفي فقط بتتبع ظهور الاسم في المصادر الكلاسيكية منذ القرن الثالث ق.م. وحتى وصول المجموعة المهاجرة الأخيرة التي دخلت شمال السودان من الصحراء الغربية فى القرن الثالث الميلادي. وسنكتب الاسم بالحروف اللاتينية كما ورد في الترجمات الانجليزية التي أخذنا عنها.

أول ذكر للنوبا – كما يرى المؤرخون - ورد عند إراتوستين Eratosthene (٢٧٦- ١٩٦ق م) الذي كان أمينا لمكتبة الاسكندرية. وعنه نقل سترابو(٦٣ق م – ٢٤م). وقد تمكن إراتوستين – بحكم عمله – من الاطلاع علي المؤلفات السابقه له

[١] كلايدي ونتر، "بينة مروية عن الأمبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس" (النوبة السفلى) ترجمة أسامة عبدالرحمن النور. *مجلة الآثار السودانية*، العدد الخامس، مارس ٢٠٠٤ ص١ يعمل ونتر في معهد عثمان دانفوديو بشيكاغو، وقد ساهم مساهمة فعالة في حل رموز اللغة المروية و نشر عدداً من الأبحاث عن البليميين ومروي ، محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١ ص١٧١
سنتعرض لسكان النيل والمناطق الشرقية القدماء في دراسة مستقلة.

والتي كتبت عن مروي والمناطق الواقعة جنوبي مصر مثل كتابات داليون و سيمونيد الذي يقال انه زار مروي ومكث فيها عدة سنوات. لذلك يمكن اعتبار ما كتبه إراتوستين عن الأوضاع في السودان راجعاً إلى ماقبل القرن الثالث ق.م.. وقد صلت إلينا كتاباته عبر ما نقل عنها كما فعل سترابو .

يقول إراتوستين: "ويسكن النوبا (Nubae) الضفة اليسرى من النيل في ليبيا وهم قبيلة كبيرة تمتد من مروي وحتى انحناءة النيل. وليسوا تحت حكم المرويين (Aethiopians) بل ينقسمون إلى ممالك مستقلة متعددة."[1]

وقد أطلق الكتاب اليونانيون اسم ليبيا على كل المناطق الواقعة غربي نهر النيل حتى المحيط الأطلسي، وفي الواقع فإن ليبيا في مفهومهم كانت تعني إفريقيا. وبناءً على ذلك فإن قبائل غربي نهر النيل "النوبا" كانت في القرن الثالث ق. م. قد خرجت عن طاعة مملكة مروي وكونت وحدات إدارية مستقلة عنها.

ولعل ذلك حدث بالتدريج حيث تكاثرت أعداد تلك القبائل، وربما تمكنوا من وضع يدهم على مسالك التجارة التقليدية بين مصر ومناطق الجنوب عبر الواحة الخارجة والواحات الواقعة جنوبيها منذ بداية عصر الأسرات في مصر. وهذا الطريق هو ما عرف في العصور اللاحقة بدرب الأربعين . وقد حرمت تلك القبائل دولة مروي من واحد من أهم مواردها التجارية مما ساهم في ضعفها.

وحافظت قبائل النوبا على مواقعها واستقلالها من مروي في المناطق الواقعة غربي االنيل، فعندما دخل سترابو اسوان عام ٢٤ ق.م. لم يغير ما كتبه إراتوستين عنهم. بل وتأكد ذلك عند الكتاب اللاحقين أيضا مثل بطليموس في القرن الثاني الميلادي الذي ذكر – كما نقل عنه اركل- أن النوبا "Nubei يسكنون الساحل الغربي للنيل والأراضي الداخلية"[2]

ويعتقد آركل أن ارتباط النوبا بغربي النيل يرجح أن موطنهم الأصلي امتد من كردفان جنوبا إلى مناطق غربي وادي حلفا شمالاً. وكانت كردفان كذلك مرتبطة ارتباطا قويا بالنيل شمالاً عبر واديي المقدم و الملك الذان يجريان من شمال كردفان

[1] Strabo, *Geography* Book xvii p 7 (online)
[2] Arkell, *A History of the Sudan* p 178.

ويصبان في النيل في منطقتي كورتي و الدبة على التوالى. ولم يكن الواديان طرقاً للاتصال فقط بل كانا مأهولين بالسكان الأمر الذي يوضح الصلات السكانية الدائمة بين مروي و كردفان.

ويرجع آركل التشابه بين لغة النوبة الحالية في شمال السودان وبين لغات الكثير من سكان شمال كردفان إلى تلك الصلات. ويرى أن مملكة مروي عندما سقطت في الشمال ظلت قائمة في كردفان و دارفور. واستدل بأن اسم كوش الذي لم يعد مستخدماً في الشمال بعد سقوط مروي ظل حيا بين سكان كردفان ودارفور كما في مناطق جبل ميدوب شمال كرفان و الكاجار أو البرقد في وسط دارفور.[1]

وكانت هذه المناطق مأهولة بالسكان لما كانت تتمتع به من موارد مائية وأمطار وبخاصة على مناطق الأودية مثل وادي هوار. وذكر أن اسم كوش كان لا يزال حيا في شمال كردفان حتى العصر المسيحي.

ويعتقد آركل أن الأسرة المروية الحاكمة بعد سقوط الدولة تحركت جنوبا وتمكنت من إحياء مملكتها في مناطق كردفان ودارفور. وربما توسعت غربيا لارتباط تراث سكان كثير من تلك المناطق بالنيل. وربما انتشرت تلك المؤثرات غرباً حتى حوض النيجر حيث الشبه الكبير- كما يرى بعض الباحثين – بين نظام الملكية في بعض تلك المناطق وبين نظام الملكية المورية.

وربما ظل انتقال العاصمة إلى شمال كردفان حيا أيضا في مخيلة سكان الشمال كما يُلاحظ ذلك في مخطوطة داؤد كُبارا بن يوسف من أهإلى وادي حلفا والتي كتبها عن تاريخ النوبة عام ١٩١١م. بدأ داؤد الفصل الأول من تاريخه تحت عنوان "عاصمة مملكة النوبة" قائلاً: "إن العاصمة كانت جبل عبد الهادي الذي يقع بين دنقلا و كردفان وعدد من الجبال"[2]

وإلى جانب إراتوستين و سترابو وفقد ذكر بطلميوس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي مناطق النوبا في غربي النيل، ونقل عنه أيضا في القرن الثالث أجاثِمِرُس

---

[1] Ibid.

[2] لم اطلع على النص العربي للمخطوط وما ورد هنا ترجمة عن ماكمايكل Mac Michael, *A History of the Arabs In the Sudan* London:1967 col. 2 p324

Agathemerus الذي لخص كتاب جغرافية بطليموس باللغة اليونانية.[1] وهكذا فقد تواترت الاشارة حتى القرن الثالث الميلادي إلى إطلاق اسم النوبا على السكان الذين استقروا غربي النيل على طول المنطقة الوقعة من كرفان ودارفور جنوبا وحتى شمإلى السودان.

وربط الكتاب أصل هؤلاء النوبا بكردفان ودارفور وشمال السودن. أي أن هولاء النوبا يمثلون العنصر الأصلي للسكان في كل تلك المناطق قبل القرن الثالث كما يرى De Villard . وقد أيدت نتائج الأبحاث اللغوية ذلك، فقد توصلت إلى أن لغة النوبة في الشمال ولغة النوبا في الجبال أصلها شمال كردفان، ثم تفرعت بعد ذلك فاتجهت إلى الشمال وإلى الجنوب.[2]

ونخلص من ذلك إلى أن المجموعتين المهاجرتين قبل القرن الثالث الميلادي قد تحركتا من الجنوب، واستقرت المجموعة الأولى شرقي النيل واستقرت المجموعة الثانية غربي النيل، وساهمت المجموعتان في اضعاف مملكة مروي. وقد عرفت كلا الهجرتين باسم النوبا. فالنوبا إذاً هو الاسم الذي اطلق قبل القرن الثالث الميلادي على سكان مناطق كردفان ودارفور وشمال السودان والمناطق الوقعة بين النيلين الأبيض و الأزرق و نهر عطبرة .

وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن اسم النوبا كان علماً على سكان السودان من مناطق الشعوب النيلية في الجنوب إلى مناطق حلفا شمالاً و نهر عطبرة و إقليم التاكا شرقاً إلى دارفور غرباً. وكان إسم النوبا هو الهوية التي ربطت أولئك السكان وبها عرفوا. أما سكان مناطق البحر الأحمر علاقتهم وتداخلهم مع النوبا فسنتاوله في الفصل القادم.

ويبدو أن مناطق الجنوب كانت ذات بحيرات ومستنقعات كثيرة لم تسهل عملية الاستقرار عليها، فقد رأينا أن اقليم السدود في العصور القديمة كان يمتد شمالاً حتى منطقة الخرطوم الحالية. ولذلك كانت منطقة الجنوب مصدر هجرات متتالية نحو

---

istory of the Sudan. p 24.

[2] مصطفى محمد مسعد، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصري

الشمال. ويرى البعض أن تحركات الشعوب النيلية قد بدأت منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، ووصلوا شمالاً حتى وادي حلفا كما اتضح من الآثار المصرية.

فالشعوب النيلية قد ساهمت في تركيبة السكان منذ ذلك الوقت. ويرى بعض الدارسين أن تحركات النوبا قبيل انهيار مملكة مروي كانت بفعل ضغط القبائل النيلية أو هم أصلاً – كما يرى البعض - من القبائل النيلية.[1]

أما عن اسم النوبا وهل يرجع إلى Nebu في اللغة المصرية القديمة والتي تعني الذهب، أو Nebed التي استخدمها تحوتمس الأول (تقريبا ١٤٥٠ ق.م.) ووصف فيها سكان المنطقة بذوي الشعر المضفر ونطق هذه الكلمة في اللغة القبطية قريب جدا من نطق كلمة النوبا ، أو يرجع أصل الاسم إلى نبتا عاصمة دولة دولة كوش، فهذا الأمر يحتاج إلى بحث منفصل. ولكنني لم أجد من يضع اسم نبتا بلايا التي تقع إلى الشمال الغربي من منطقة وادي حلفا من بين فرضيات أصل الكلمة ، وأرى أن هذه أيضا فرضية وجيهة.

وقد ذكرنا أن أول ذكر لاسم النوبا في المصادر الكلاسيكية جاء عند إراتوستين في القرن الثالث ق.م.، وقد كتبه هكذا : Noûβoι وهو نفس الرسم عند بطلميوس والذي نقله أجاثِمِرس . وقد رسمه الذي كتب باللاتينية: Nubei .

وجاءت الإشارة إلى جماعات النوبا قبل القرن الثالث الميلادي في المؤلفات المكتوب باللغة الانجليزية كما في ترجمة جغرافية سترابو التي أخذت عن إراتوستين هكذا : Nubae واستخدم بعضها الآخر الرسم اللاتيني Nubei وجاء رسم الكلمة في ترجمة نص عيزانا Noba . وقد جاءت كل اشاراتنا في هذا الموضوع إلى سكان وادي النيل والمناطق الواقعة شرقيه وغربيه في السودان قبل القرن الثالث باسم "النوبا" بالألف في آخر الكلمة لأن اسم النوبة " بالتاء في آخر الكلمة" ارتبط بالهجرة إلى استقرت بعد القرن الثالث الهجري.

٢. تحركات السكان بعد القرن الثالث الميلادي:

---

[1] Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan*. Vol. 1, p 25

ارتبط اسم النوبا بعد القرن الثالث الميلادي بالقبائل التي كانت تتجول في المناطق الصحراوية الواقعة في مديريات كردفان و دارفور، كما ارتبط بالقبائل التي استقرت في مملكة البليميين التي امتدت حدودها على النيل في شمالي السودان حتى منطقة أسوان. وقد ارتبطت تحركات النوبا بالحكم الروماني الذي امتد على طول الشمال الافريقي وتوغل إلى أطراف الصحراء الكبرى.

وخاض الرومان صراعات دائمة على حدودهم الجنوبية مع القبائل الصحراوية التي المشهورة باسم البربر . وقد استقدم الرومان الجمل إلى الصحراء الكبرى لمطاردة تلك القبائل، غير أن قبائل الصحراء بدأت أيضا استخدام الجمل الذي بدأ يحل محل الحصان وأصبح أهم وسائل الواصلات في الصحراء الكبرى، ثم استخدمته قبائل الصحراء للهجوم على الرومان.

و كان الرومان في مصر في القرن الثالث الميلادي يواجهون خطر القبائل الصحراوية على حدودهم الجنوبية في مناطق الواحات المصرية، وكذلك خطر البليميين على حدودهم جنوبي اسوان حيث خاضوا الكثير من المعارك. وللحد من خطر البليميين فكر الرومان في الاستعانة ببعض القبائل الصحرواية التي كانت تهدد حدودهم في مناطق الواحات، فقدموا لهم عرضا سخيا وهو السماح لهم بالاستقرار على النيل في منطقة الحدود الرومانية في جنوب مصر لكي يكونوا حاجزا بينهم وبين البليميين من جانب ويتخلصون من شر غاراتهم بعد الاستقرار من جانب آخر، فيضربون عصفورين بحجر واحد.

وبالطبع وافقت القبائل الصحراوية بهذا العرض. وذكر المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (توفى حول ٥٦٥م) والذي كتب باليونانية أن الاتفاق تم بين الرومان وقبيلة النوبادي " Noβάται " في عام ٢٩٧م للقدوم من الواحة الخارجة والاستقرار على النيل جنوبي أسوان بينهم وبين البليميين.[1] وقد كُتِب اسم تلك القبيلة الصحراوية في

[1] Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan*. Vol. 1,. p24; Arkell, *A History of the Sudan*. p 178; J G. Milne, *A History of Egypt under the Roman Rule*. p 99. كلايدي ;محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم ص١٨٠ ; نقلا عن مسعد الاسلام والنوبة ص٣١ ونتر، بيتة مروية ص١

الترجمات الإنجليزية Nobatae وكتب بالعربية النوباديين أوالنوباديين أو النوباطيين. وسنشير إليهم هنا بالنوباديين.

واتفق المؤرخون أن النوباديين أتوا من الصحراء الغربية سواء من منطقة الواحة الخارجة أو من المناطق الصحراوية الواقعة جنوبيها. فنحن إذاً أمام مجموعتين عرفتا بنفس الاسم: المجموعة الأولي سكان غرب ووسط وشمال السودان قبل القرن الثالث الميلادي والذين عرفوا في القرن الثالث قبل الميلاد عند إراتوستين ب:Nubae، ثم عرفوا عند سترابو ب: Nubei وفي نص عيزان ب: Noba والمجموعة الثانية وهي التي دخلت منطقة شمال حلفا في نهاية القرن الثالث الميلادي والتي عرفت باسم النوباديين Nobatae.

ويرى بدج أن النوبادي قبيلة بدوية قوية، موطنها الأصلي كردفان ودارفور في القرن الثالث الميلادي، وعندما استدعاهم الرومان كانوا قد انتشروا شمالاً حتى الواح الخارجة.[1] ويبدو انتشار القبيلة على طول هذه المنطقة مقبولا، أولاً لأن المطقة كانت لا تزال تتمتع بقدر معقول من المطر والمياه الجوفية والسطحية مما وفر وسائل الحياة والتجول، وثانياً فإنه رغم الجفاف الذي ضرب هذه المنطقة في القرون السابقة إلا أن صلات سكانها بمناطق النيل كانت لا تزال قوية وواضحة في تراث وتحركات القبائل في المنطقة مثل قبائل القرعان والتبو والتتجر.

وقد رجح بعض المؤرخين أن يكون النوباديون هم نفس سلالة النوبا الذين هجموا على مروي وأضعفوها.[2] ويدل كل ذلك على أن سكان المناطق الواقعة غربي النيل من جنوبي دارفور وحتى مناطق الواحات و جبل العوينات شمالاً كانوا متداخلين وعلى صلة دائمة، وامتزج العنصر الوافد من الجنوب بالعنصر الوافد من الغرب مكونين بذلك ليس فقط سكان غرب وشمال السودان، بل وكذلك سكان وسط السودان ما بين نهر عطبرة و النيل الأزرق كما أثبتت المعطيات الآثارية التي تعرضنا لها سابقاً.

---

1 Mac Michael, vol. 1 p 25

2 Arkell, *A History of the Sudan.* p 179 ;

ومحمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم ص ١٨٢.

ومن الجدير بالملاحظة أن المراجع الغربية التي كتبت عن علاقة الرومان في مصر بدولة مروي أشارت إلى كل سكان المنطقة جنوبي مصر – قبل القرن الثالث الميلادي – بالنوبا، وجعلت نباتا عاصمة النوبا. فاستخدام النوبا في تلك المراجع أتى مرادفا لكلمة المرويين الذين تشير إليهم - تلك المرجع – أيضا بكلمة الأثيوبيين، وعند تفاصيل الحديث عن سكان مروي تشير إلى: سكان المدن والمزارعين على النيل، والبدو الذين تعرف مجموعاتهم البدوية الرئيسة بـ: البليميين والترجلودايت (سيأتي الحديث عنهم) والنوباديين.

وعند الاشارة إلى النوباديين تستخدم الكلمات: Nobades وNubae وNobatae وNoba كمترادفات وصف بها سكان الصحراء الغربية.[1] وهذه هي نفس مرادفات كلمة النوبا التي ورد استخدامها - في الآثار المصرية والمروية والأكسومية والمصادر الكلاسيكية - لوصف كل سكان السودان الغربي والأوسط والشمالي منذ القرن العشرين ق.م.

واستخدامنا لكلمة النوباديين هنا ليس باعتبارهم سلالة مختلفة من سلالة النوبا أو النوباويين السكان السابقين في المنطقة، فهم كما استخلصنا أعلاه نفس السلالة التي كونت سكان السودان منذ القدم، بل استخدامنا لاسم النوباديين هنا فقط للإشارة إلى مجموعة النوبا التي استقرت أخيرا على النيل وقامت بدور بارز في تاريخ شمال السودان بعد القرن الثالث الميلادي.

ولا يبدوا دور النوباديين بارزا في الأحداث التي تعرضت لها المنطقة خلال القرن الرابع الميلاي رغم التطور في علاقات البليميين بصعيد مصر من جهة ونشوب الصراع بين البليميين والرومان من جهة أخرى. فالمعلومات المتاحة توضح أن سياسة الرومان التي هدفت إلى عزل البليميين بواسطة النوباديين لم تثمر. فبعد دخول النوباديين ذكر المؤرخ أُلمبيودورس Olympiodorus الذي زار المنطقة نحوعام ٤٢٠- ٤٢١ م أن كل المدن الواقعة إلى الجنوب من أسوان تحت سيطرة البليميين.[2]

---

[1] See John Wacher ed., *The Roman World* London: Rutledge, 2002 v0l. 1 p225-226.

[2] مصطفى مسعد، الايلام والنوبة ص ١٧.

وتبدو العلاقة بين البليميين والنوباديين في تلك المراحل الأولى غير واضحة، غير أنه في بداية القرن الخامس الميلادي وضح أُلمبيودورس أن النوباديين والبليميين كانوا على وفاق، ففي منتصف القرن الخامس الميلادي شنوا غارة مشتركة على أسقف اسوان الذي طلب – كما هو مدون في وثيقة بردية [1] – الحماية من الأمبراطور البيزنطي الذي دخلت مصر تحت حكمه في ذلك الوقت.

وقد أرسل الامبراطور Marcianus (٤٥٠- ٤٥٧ م) حملة كبيرة انتصرت على الحليفين ووقعت معهما معاهدة عدم اعتداء لمائة عام، وسمح لهم بمقتضاها زيارة آلهتهم في معبد جزيرة فيلة بجوار أسوان. وتورد المراجع أن البليميين انسحبوا جنوبا واتخذوا من كلابشة عاصمة لهم ، بينما انسحب النوباديون إلى الجنوب من البلميين متخذين من ابريم شمال وادي حلفا عاصمة لهم.[2] ويعني ذلك أن البليميين ما زالوا يجاورون الحدود الرومانية جنوبي مصر بخلاف خطط الرومان التي سعت إلى ابعادهم جنوباً.

غير أن دور النوباديين الهام في المنطقة بدأ منذ منتصف القرن السادس الميلادي عند بداية انتشار المسيحية في المنطقة. ويبدو أن المسيحية قد بدأت الدخول إلى المنطقة قبيل منتصف القرن السادس الميلادي، إذ ذكر كوزموس الذي كتب بين عامي ٥٣٧- ٥٤٧م أن هناك كنائس مسيحية وأساقفة ورهبان في بلاد الحبشة و آكسوم والمناطق المجاورة والنوباديين والجرمانتيين. بينما كتب بروكوبيوس حوالي عام ٥٤٣م أن البليميين والنوباديين يعبدون إيزيس و أوزوريس و بريابوس و مندوليس .[3]

ويوضح ذلك أن المسيحية لم يكتمل انتشارها في شمال السودان قبل منتصف القرن السادس الميلادي. ويبدو أن التحول الكبير حدث بعد وصول بعثة الملكة تيودورا إلى نوباديا عام ٥٤٣م، وبعد ذلك اعتنق ملوك المقرة المسيحية نحو عام ٥٩٦م و علوة نحوعام ٥٧٨م. ويبدو أن العلاقات بين النوباديين والبيزنطيين قد تحسنت بعد عام ٥٤٣ م، وتمكن البيزنطيون من الحصول على تعاونهم ضد البليميين الذين لم يعتنقوا المسيحية حتى ذلك الوقت، وكانوا دائمي الاعتداء علي صعيد مصر. وتمكن سلكو

[1] المرجع السابق، ص٣٦.

[2] نفس المرجع ص٣٧.

[3] أبفس المرجع ص٥٥ و٢٤٢ حشية رقم ٣.

أحد زعماء النوباديين – بالتعاون مع أسقف فيلة والبيزنطيين – من تحقيق انتصارات متعددة على منافسيه في المنطقة بما فيهم البليميين ووحد كل المنطقة تحت حكمه.

وقد سجل سلكو تلك الانتصارات في نقش باللغة اليونانية في معبد كلابشة جاء فيه: "أنا سلكو رئيس النوباديين وجميع الاثيوبيين ... وحاربت البليميين ... ثم هاجمتهم للمرة الخامسة حتى توسلوا إلى ثم عدت إلى الجزء الأعلى من مملكتي [جنوب حلفا]، ولما تمت لي السيادة عليه لم أشأ أن أكون في مؤخرة ملوكه ، بل أصبحت في مقدمتهم ...أما عن أولئك الذين نازعوني الزعامة فإنني لم أسمح لهم بأن يعيشوا في بلدهم إلا إذا التمسوا مني المغفرة ...أما رؤساء الشعوب الذين نازعوني الرئاسة فإنني لم أدعهم يعيشون في الظل بل في الشمس ... ومن قاومني منهم قضيت على أولاده ونسائه"[1]

وقد لاحظ المؤرخون – كما ذكر مسعد - أن سلكو تلقب في هذا النص ب: Basilkos أي ملك صغير بخلاف ما ادعاه من أنه "رئيس" – كما وردت في ترجمة مسعد – النوباديين وجميع الاثيوبيين. وقد علل البعض ذلك بجهل سلكو باللغة اليونانية وعدم تمكنه من اختيار اللقب الصحيح. وإلى جانب ذلك فقد ورد في النص أن انتصاره على البليميين كان بعون من الله، مما أدى إلى القول بامكانية اعتناقه للدين المسيحي. إلا أن البعض يرى أن ظهور سلكو في النقش يرتدي زياً فرعونيا تزينه صورة الآله يدل على عدم اعتناقه المسيحية حتى ذلك الوقت.

ومن الواضح في النص أن سلكو خاض معارك متعددة لتوحيد المنطقة تحت حكمه، ونجح في تحقيق ذلك مكونا في منتصف القرن السادس الميلادي أول مملكة مسيحية "مملكة نوباديا" التي امتدت من جنوب وادي حلفا حتى منطقة أسوان شمالاً واتخذت فرس عاصمة لها.

وضح نقش سلكو أن حروبه كانت في المناطق الواقعة من جنوبى أسوان حتى جنوب وادي حلفا كما ذكر: " ثم عدت إلى الجزء الأعلى من مملكتي ولما تمت لي السيادة عليه لم أشأ أن أكون في مؤخرة ملوكه ". وإلى جانب هؤلاء الملوك في الجنوب

[1] النص الكامل في مسعد، الاسلام والنوبة الملحق الأول ص ٢٤١- ١٤٣.

خاطب سلكو أيضا: "أولئك الذين نازعوني الزعامة" و" رؤساء الشعوب الذين نازعوني الرئاسة "

ويبدو أن المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثالث – والتي أصبحت تحت حكم سلكو- كانت مأهولة بالسكان ومتعددة الزعامات، وكان البليميون في الجزء الشمإلى من المنطقة. يبدوا أن النوباديين أنفسهم كانوا تحت زعامات متعددة سيطر عليها سلكوا. وإلى جانب النوباديين والبليميين كانت هنالك جماعات أو قبائل أخرى هزمها سلكو وهي التي اندرجت تحت اسم الاثيوبيين.

والاثيوبيون هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون – ومن جاء بعدهم – على كل السكان جنوبي أسوان. ويبدو أن سلكو أشار إلى النوباديين إشارة مستقلة باعتبارهم الطبقة الحاكمة التي تمثل المجموعة الجديدة التي استقرت في بلاد الاثيوبيين، ولا يعني أنهم عنصر أوجنس يختلف عن سكان المنطقة.

من هم النوبا إذاً ؟ لقد توصل علماء الآثار وعلماء الأجناس و المؤرخون استنادا إلى الكتابات المصرية القديمة وآثار المقابر التي عثر عليها في الجزيرة وشمال السودان، واستناداً إلى الدراسات الأنثربولوجية لبعض سكان جبال النوبا الحاليين أن سكان غرب ووسط وشمال السودان منذ القرن الألف الثالث قبل الميلاد ينتمون إلى نفس السلالة التي أطلقت عليها المصادر اليونانية واللاتينية (إراتوستين و سترابو و بليني) اثيوبيين ونوبا.

وأن النوباديين الذي وصلوا في القرن الثالث الميلادي هم نفس تلك السلالة. وقد رأى البعض أن أصول النوباديين من كردفان ودارفور أو ينتمون إلى النيليين، بينما رأى البعض الآخر أن أصولهم من الصحراء الغربية الوقعة ما بين صعيد مصر وشمال السودان.

ويقودنا هذا التواصل السكاني منذ الألف الثالث قبل الميلاد إلى ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أنه لايوجد فصل في ثقافات السودانيين المبكرة والتي رمز إليها بالحروف: مثل المجموعة أ ، ب،ج A, B, C Groups وكأنها تشير إلى حقب أو تراث مجهول ومبهم مثل جهلنا بجذورنا وإبهام هويتنا.

ويرى آدمز أن ثقافاتنا القديمة منذ فجر التاريخ كانت متصلة وأن تواصلها كان دائماً، ويعلق على ذلك التواصل الموغل في القدم قائلاً "في النهاية يظهر أن التمييز المفترض بين المجموعة الأولى A والمجموعة الثانية B زائفا بكليته، وهنالك حلقات وصل وفيرة على حد سواء مع المجموعة الثالثة C "[1]

ولكي تكتمل محاولة إبراز صورة سكان السودان - أو الخريطة السكانية – ينبغي التعرف على سكان المنطقة الواقعة بين النيل و البحر الأحمر ، وسيتم ذلك من خلال تتبعنا لمجموعات المِجباري والتُرُجلُدايت والبليميين - وهم الذين نعرفهم الآن باسم قبائل البجة - في الفصل التالي.

[1] وليام آدمز، النوبة رواق افريقيا ص ١٢٩.

الفصل الخامس

سكان منطقة ما بين البحر الأحمر والنيل

- المجباري
- التُرجلُدايت
- البليميون

يهدف هذا الفصل إلى التعرُّف على سكان المنطقة الواقعة بين النيل و البحر الأحمر - منطقة قبائل البجة الحالية - عشية دخول المسلمين مصر في القرن السابع الميلادي. ونأمل أن يقودنا التعرف على سكان هذه المنطقة في عصورها السابقة عن الإجابة على سؤال هام هو: من هم أسلاف البجة؟ ولما كان مجال الدراسة هنا هو العصر الذي بدأت فيه دولة مروي في الضعف وماتلى ذلك من تحركات بشرية وتغيرات ثقافية وسياسية أدت إلى إعادة رسم خريطة المنطقة بقيام الممالك المسيحية في القرن السادس الميلادي، فتتبعنا لماضي سكان منطقة البجة لن يتوغل في البحث في العصورالقديمة بل سيتركز على القرون التي واكبت تلك الأحداث.

والتعرف علي أسلاف البجة ليس بالأمر السهل نسبة لشح المعلومات والمصادر خاصة فيما يتعلق بسكان المناطق الجنوبية من أراضيهم. ويتوفر قدر معقول من المادة عن السكان خاصة على مناطق النيل والأجزاء الشمالية من المنطقة في المصادر المصرية والمروية واليونانية- الرومانية يُمَكِّن من محاولة التعرف على أسلاف البجة الذين سكنوا على ساحل البحر الأحمر وعلى شواطئ النيل والمنطقة الواقعة بينهما.

ولم تكن المنطقة الصحراء الواقعة بين النيل و البحر الأحمر بهذا الجفاف الذي يسودها اليوم، بل كانت إلى وقت قريب من بداية الحضارة المصرية تتمتع بقدر وافر من المطر، وكانت الكثير من الأودية الجافة الآن أنهارًا جاريةً، والحياة النباتية والحيوانية غنية. فعلى سبيل المثال كانت مناطق خوري بركة و القاش حتى القرن الثاني عشر الميلادي تتمتع بقدر وافر من المياه والغابات والحيوانات بما في ذلك الأفيال كما يتضح من وصف جيوش المماليك التي دخلت المنطقة في ذلك الوقت

والشعب الذي سكن هذه المنطقة ينتمي إلى السلالة الأصيلة التي كونت سكان وادي النيل منذ فجر تاريخه. وهنالك بعض الآراء التي ربطت أسلاف أولئك السكان بهجرات أتت من شبه الجزيرة العربية في الألف الرابع قبل الميلاد. وقد ناقشنا ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب وخلصنا إلى أن كل الدلائل التاريخية والآثارية وضحت أن سكان الصحارى الواقعة شرقي النيل ينتمون إلى السلالة التي كونت السكان الأصليين للمناطق الوسطى والشمالية لنهر النيل . ولم يقبل الباحثون اليوم الفرضيات

التي تقول بارتباط نشأة حضارة وادي النيل بهجرات دخلت المنطقة من شبه الجزيرة العربية أو من بلاد ما بين النهرين.[1]

ومن المعروف في التاريخ أن سكان هذه المنطقة عرفوا عند قدماء المصريين واليونانيين والرومان بأسماء متعددة، سنتناول ثلاثة فقط من تلك الأسماء التي أطلقت على المجموعة المعروفة اليوم باسم البجة والتي اشتهرت في تلك الفترة وهي: المِجَباري والتُرُجلُدايت والبليميين.

وتتركز أغلب المادة القديمة التي وردت عن تلك المجموعات عن البليميين لنشاطهم ودورهم البارز في كل مناطق النيل الممتدة من حلفا حتى الاقصر شمالاً وما يقع شرقيها حتى البحر الأحمر في الفترة السابقة للقرن السابع الميلادي. ولذلك سيتركز حديثا عليهم بحكم توفر المادة عنهم، وباعتبارهم الممثل القديم لشعب البجة بينما نتعرف سريعاً على المِجباري و التُرُجلُدايت.

المِجَباري:

المِجَباري هو الاسم الذي أطلقته المصادر القديمة على السكان الأصليين القدماء على الساحل الغربي للبحر الأحمر[2] والذين تجولوا فى المناطق الشمالية ما بين البحر الأحمر و نهر النيل . وقد امتدت مناطق استيطان هذه الفئة من مواطن البجة الحالية في السودان وحتى المنطقة الواقعة بين الأقصر و البحر الأحمر في الحدود المصرية الحالية شمالاً.

وقد عرف المِجَباري قديما بالمازوي والمِجاي والمدجاي والمِجو والمِجا (Medjo و Medju و Medjay) وسنشير اليهم فيما يلي باسم المِجا لأنه أولاً الاسم الأقدم، فقد ورد في نقش أوني الذي يرجع إلى الأسرة الفرعونية السادسة (٢٤٢٣ – ٢٢٤٢ ق.م.): "أرسلني جلالة الملك مرنرع في حفر ترع في الجنوب [جنوب أسوان] وكان رؤساء أقطار ارتت و واوات و ايام و مجا يقدمون الخشب لهذا الغرض."[3] ولأنه ثانياً الاسم الأخف في النطق والأقرب إلى الاسم الحالى "البجة".

---

[1] Arkell *History of the Sudan* p 52; وراجع كذلك الفصل الأول ممن هذا الكتاب

[2] Http://www.africaresource,com

[3] انظر شوقي عطا الله الجمل، تاريخ سودان وادي النيل. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩ ج ١ ص٢٣.

ولا خلاف بين المؤرخين أن المِجا الذين ورد ذكرهم في الآثار المصرية القديمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد والذين عاشوا في الصحراء الواقعة إلى الشرق من إقليم واوات (العتباي) هم أسلاف البجة الحاليين. وقد ذكر بلايني الكبير[1] (في القرن الأول الميلادي) أن بعض الكتاب أطلق عليهم اسم أديَباري Adiabari وذكر العديد من جيرانهم في المنطقة.

ولما كان ملوك مصر منذ عصر الدولة القديمة في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد قد بدأوا استغلال مناجم الصحراء الشرقية فقد أدى ذلك إلى اشتغال الكثير من المِجا في المهن المتصلة بالتعدين فقاموا بتأمين تلك الأنشطة بالحراسة والخفارة وتولوا مهمة الأتصال وربط مناطق التعدين بالمدن المطلة على النيل.

ويبدو أن الأجزاء الشمالية من مواطن المِجا – الواقعة الآن في حدود مصر الجنوبية - قد تعرضت للجفاف أكثر من مناطق الجنوب مما أدى ببعض سكان تلك المناطق إلى النزوح بمواشيهم بالقرب من مصادر المياه على النيل كما أشارت إلى ذلك بعض الوثائق المصرية القديمة واليونانية[2].

كما نزح بعضهم إلى المدن المصرية على النيل حيث التحقوا بالكثير من الأعمال كالجندية والعمل في قوة البوليس. وهكذا أصبح المِجا جزء من مجتمع صعيد مصر سواء المجتمع البدوي في الصحراء أو المدني على النيل في المناطق الواقعة جنوب الأقصر. وقد تم الاختلاط والتزاوج بين المِجا وسكان صعيد مصر كما يتضح في الآثار المصرية القديمة[3]. وظل ذلك الارتباط قويا حتى عشية دخول العرب مصر كما سنلاحظ ذلك.

وقد تناولت المصادر الكلاسيكية المِجا – وكذلك التُرُجلُدايت والبليميين – باعتبارهم فروعا للشعوب الكوشية أو الاثيوبية أي الشعوب السوداء. ومن المعروف أن تلك المصادر أشارت إلى سكان كل المناطق الواقعة على النيل جنوب مصر والمناطق الواقعة غربي النيل وشرقيه بالكوشيين والاثيوبيين. فسكان المناطق الواقعة ما بين النيل والبحر الأحمر في المصادر القديمة هم جزء من الشعوب الكوشية أو الاثيوبية.

[1] Pliny the elder, *the Natural History,* Book xi, Chapter 35 online:
[2] Hans Bernard, *Sire, il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation of Historical and Archaeological Data.* Clause no. 116, 136. (online)
[3] Ibid. Clause no. 113, 116,136.

كما ارتبط المجا منذ فجر تاريخهم بإقليم واوات وقادوا مع الجماعات التي عاشوا معها في تلك المناطق مثل سكان ارتت و ايام و التمحو الثقافات المبكرة في المنطقة والتي تولدت عنها حضارات كرمة و نبتا ومروي. وقد ربط بعض الباحثين بين المجا و الملوها Meluhha الذين ورد ذكرهم في الآثار المصرية القديمة. ولا زال موضوع الملوها قيد الدراسة والبحث، فقد رأى البعض ربطهم أيضاً بكوش باعتبارهم نفس السلالة.[1]

ووضحت الآثار القديمة أن المجا - وفيما بعد التُرُجلُدايت والبليميين - كانو يمثلون قطاعاً هاماً من سكان مملكتي نبتا و مروي ، وساهموا بدور فاعل في النشاط التجاري عبر البحر الأحمر ونهر النيل، كما ساهموا في النشاط الدبلماسي مع القوى التي تعاقبت على حكم مصر في ذلك الوقت كما سنوضحة فيما يلي في هذا الفصل. وكان من الطبيعي أن تأتي الاشارات إلى مواطن المجا باعتبارها جزءاً من مروي، أو الاشارة اليهم باعتبارهم جزءا من الكوشيين.[2]

وظل اسم المجا علَماً على سكان الصحراء الشرقية للنيل حتى القرون الأخيرة السابقة للميلادي حيث بدأ ظهور اسمي التُرُجلُدايت والبليميين. فقد ذكر سترابو الذي نقل عن اراتوستين (Eratosthenes) في القرن الثالث قبل الميلاد أنه: "على جانبي الجزء الأسفل (lower) من مروي على طول النيل في اتجاه البحر الأحمر يسكن المجَباريون والبليميون، وهم تابعين للاثيوبين [يقصد المرويين] ويجاورون المصريين. وعلى ساحل البحر يسكن التُرُجلُدايت."[3] وهكذا أصبح سكان المنطقة يعرفون بثلاث أسماء: المجا والتُرُجلُدايت والبليميون.

وسيتضح فيما يلي أن البليمين كانوا يتركزون على مناطق النيل والمجا يتركزون في المناطق الواقعة بين النيل و البحر الأحمر بجوار التُرُجلُدايت. وعند حديثه عن التُرُجلُدايت قارن سترابو بين اسلحتهم وأسلحة المجا، فذكر أن عِصي المجا تنتهي

---

[1] http:www.listhost.uchicago.edu; http:/www.ancientlibrary.com
[2] Ibid.
[3] Strabo, *Geography*, Book xviii, p 340.

بمقابض من حديد وأنهم يستخدمون في قتالهم الحراب والدرق المصنوع من الجلد غير المدبوغ، بينما يستخدم الآخرون الحراب والسهم والنشاب.[1]

التُرُجلُدايت:

أصل كلمة التُرُجلُدايت Troglodyte يوناني استخدمها الكتاب اليونانيين لوصف سكان الكهوف في كثير من بقاع العالم كما في حوض الدانوب و القوقاز و إفريقيا. وفي إفريقيا ذكرت المصادر الكلاسيكية وجود التُرُجلُدايت في تونس و ليبيا و أعالي النيل و البحر الأحمر. وأشار هيرودوت إلى تُرُجلُدايت منطقة فزان الذين يطاردهم الجرمانتيون على عرباتهم التي تجرها الخيول، ووصفهم بأنهم أسرع البشر عدواً[2]، ويرى المؤرخون أنهم أسلاف التبو الحاليين.

وليس كل التُرُجلُدايت سكان كهوف بل منهم سكان منازل محفورة تحت الأرض، وكانت بعض هذه المنازل لا تزال موجودة في مدينة غريان بجبل نفوسة جنوبي طرابلس بليبيا، وقد رأيت أحد هذه المنازل عبارة عن فتحة كبيرة مستطيلة أو مربعة نحو ٣X ٤ أو ٤ X ٤ امتار وعمقها نحو ثلاثة أمتار. وتتفرع منها في الداخل غرف تحت الأرض. ويرى المؤرخون أن مثل هذه المنازل تناسب جو الصحراء الشديد الحرارة صيفاً وشديد البرودة شتاءً.

وقد جعلت encyclopedia.org[3] تُرُجلُدايت البحر الأحمر من أشهر هذه المجموعات، ربما لنشاطهم السياسي والتجاري على سواحل البحر الأحمر السودانية. فقد أطلق بليني[4] على ساحل البحر الأحمر "ساحل التُرُجلُدايت" وذكر إنهم كانوا نشطين في تجارة اللبان في مواني البحر الأحمر.

ولم ينحصر إطلاق اسم التُرُجلُدايت على سكان البحر الأحمر فقط بل اطلق كذلك على سكان المناطق الداخلية، إذ ذكر بلايني أن التُرُجلُدايت يحيطون

---

[1] Ibid. Book xvi p 33p.
[2] Herodotus, *The History of Herodotus* London: Robert P. Gwinn, 2nd ed. 1990 p 156
[3] http://www.1911encyclopedia.org/Troglodytes (online)
[4] Pliny the elder, *the Natural History*, Book xi, Chapter 33, 34. Online

بالمناطق المجاورة لمروي حتى ساحل البحر الأحمر.[1] وبناءً على هذا الاطلاق فإن كل سكان مناطق البجة الحالية أُطلِق عليهم التُرُجلُدايت.

وفي واقع الأمر فإن سكان مناطق ما بين النيل و البحر الأحمر قد عرفوا في المصادر اليونانية والرومانية بالتُرُجلُدايت والِمَجا والبليميون. وقد استخدمت هذه الأسماء أحيانا للاشارة إلى سكان منطقة بعينها في بلاد البجة الحالية وأحيانا استخدمت كمترادفات للدلالة على سكان كل المنطقة، ويرى الباحثون أن هذه الجماعات هي نفسها التي أطلقت عليها المصادر العربية فيما بعد اسم البجة[2].

ومن أقدم النصوص عن التُرُجلُدايت ما جاء في الآثار المصرية القديمة التي ترجع إلى الاسرة السادسة والعشرين في عصر الفرعون نكاو الثاني أو Necho II (٦١٠-٥٩٥ ق.م.) الذي كان شديد الاهتمام بتجارة البحر الأحمر لدرجة فكر فيها بحفر قناة تربط النيل بالبحر الأحمر وشرع بالفعل في تنفيذ الفكرة.

وورد في النصوص القديمة والتي جمعها Eide وآخرون[3] عن منطقة النوبة بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي أن الملك نكاو الثاني أرسل حملة نيلية ضد التُرُجلُدايت.[4] ويبدو أن التُرُجلُدايت كانوا منتشرين على مناطق صعيد مصر الأعلى بين النيل و البحر الأحمر، وربما كانت تلك الحملة ضد التُرُجلُدايت على إحدى الطرق الرابطة بين النيل – من منطقة الأقصر - و البحر الأحمر أو قد تكون الحملة مرسلة مباشرة من الصعيد إلى سواحل البحر الأحمر.

---

[1] Ibid.

[2] أنظر http://www.sahara.it/bm/saharaThree/culture/approfondimenti/le-tre-citta-di-berenice-2.shtml; MachMichel, *A History of the Arabs in the Sudan* Frank Cass & Co. Ltd. 1967 vol. 1 p38; Hans Barnard, *Sire, il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation of Historical and Archaeological Data.* (online)
مكتبة الانجلو المصرية ب.ت. ص ٢٩ حاشية رقم ٢٢ مصطفى محمد مسعد، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم مكتبة الانجلو المصرية ب. ت. ص ٤٦ و ١٨١

[3] Eide et al, (eds) *Fontes Historiae Nubiorum* 4 volumes, University of Bergen 1994-2000

[4] Hans Barnard, *Sire, il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation of Historical and Archaeological Data.* (online)

ساهم التُرُجلُدايت في النشاط التجاري على سواحل البحر الأحمر كما ذكر بليني،[1] وتشير الوثائق إلى علاقاتهم المباشرة مع دولة البطالمة بمصر، فقد ذكر بلوتارخ "أن الملكة كليوباترة السابعة لم تكن تحتاج إلى مترجمين عندما يخاطبها مناديب الشعوب المجاورة لمملكتها مثل مناديب الاثيوبيين والتُرُجلُدايت واليهود والسوريين والميديين."[2]

ويدل ذلك على أن التُرُجلُدايت كانت لهم كيانات سياسية متطورة مكنتهم من تنظيم نشاطهم التجاري وعلاقاتهم الخارجية، ورغم أنه لم يرد ذكر لمملكة ترجلوداتية في الصحراء الشرقية أو البحر الأحمر في المصادر اليونانية الرومانية – كما حدث للبلبميين - إلا أن قيام مثل ذلك الكيان السياسي يعتبر أمراً لا بد منه خاصة إذا كانت للتروجلودايت علاقات خارجية مثل تلك التي مع البطالمة.[3]

وإذا افترضنا أن حملة الفرعون نكاو كان هدفها مناطق الطرق التي ربطت منطقة الأقصر على النيل بسواحل البحر الأحمر - وهي أقصر المسافات بين النيل و البحر الأحمر في مناطق الصعيد – فيعني ذلك أن امتداد مناطق نفوذ التُرُجلُدايت كان لا يزال يمتد حتى القرن الخامس قبل الميلاد من سواحل البحر متوغلاً في الصحراء غربا.

وربما كان انتشار التُرُجلُدايت لا يزال ممتداً إلى مناطق النيل كما يفهم من نص بلوتارخ[4] في أول القرن الثاني اليلادى، إلا أن سترابو في القرن الميلادي الأول - والذي اعتمد أيضاً على اراتوستين في القرن الثالث ق.م. – حدد مناطقهم على سواحل البحر الأحمر فقط.[5]

---

[1] Ibid. clause no. 189

[2] Ibid. p.11

[3] تحضرني وأنا أدون هذه المعلومات ما كتبه مرة أخونا بامكار الباحث في تاريخ وتراث البجة مرة على صفحات سودانايل أن البجة كانوا أمة بدوية ولم تكن لهم مملكة أو ممالك. وأرى أن أسلاف البجة كانوا بدوا وحضرا وكانت لهم ممالك وأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية متطورة كما سيتضح من خلال العرض والذي ينبغي علينا هو العمل على ربط ذلك التراث بالحاضر..

[4] Ibid. clause no. 218

[5] Strabo, *Geography*, Book xviii, p v.

وقد يفهم مما ذكره سترابو عن مواطن التُرُجلُدايت أنها تركزت داخل حدود مروى فقط ولم تمتد شمالاً، ربما لأن المناطق الواقعة جنوب وشمال نهر عطبرة وفرت لهم في ذلك الوقت قدراً معقولاً من المياه والحياة النباتية. وقد ورد في نقش أحد ملوك مروي (٤١٨- ٣٩٨ ق.م.) أن القبائل من تلك المناطق كانت تغير علي النيل وورد اسم واحدة منها Meded التي أغارت على منطقة كورتي الحالية بين مروي و دنقلا .

ويرجح آركل (ص٥٢) "أن هؤلاء ربما كانو Medju المجا أسلاف البجا الحاليين"

أما في الجزء الشمإلى فيبدو أن بعض المجا كانوا لا يزالون منتشرين في صعيد مصر بين النيل و البحر الأحمر، وكان بعضهم بدوا يتجولون في الصحراء وبعضهم مستقر بجوار النيلّ. ويتفق هذا مع ما ورد أيضا في العصور التالية من ان التُرُجلُدايت والبليمين كان لهم وجود واضح حول مناطق الأقصر حتى القرن السادس الميلادي كما سيتضح لاحقاً.

وفيما يلي ملخص لما ورد عن وصف التُرُجلُدايتة أخذته من كتاب الجغرافيا لسترابو (ومن دائرة المعارف encyclopedia.org التي أشرنا إليها أعلاه:

"التُرُجلُدايت قبائل متعددة تحت حكم رؤسائهم [their tyrants كما ورد في نَص سترابو] ولا يحمل الأطفال أسماء آبائهم لأن الزواج غير ممارس بين عامتهم بل يمارسه رؤساؤهم فقط، فالأطفال مشاعين بينهم، ومن أعتدى على زوجة الرئيس يغرم خروفاً. ويفسر هذا نظام المجتمع الأمومي (maternal) الذي عرف بينهم في الأزمنة اللاحقة."

"و تزين النساء عيونهن وحواجبهن ويلبسن عقوداً وبعض التمائم في رقابهن. والحرب تنشب بينهم على المراعي، يتقاتلون بالأيدي أولاً ثم بالحجارة وإذا أشتد الصراع استخدمون الخناجر والسهام. وغالباً ما تتدخل النساء لوقف القتال فيفصلن بين المجموعتين المتحاربتين حتى يتوصلوا إلى اتفاق."

"ويعتمدون على اللحم في طعامهم إلى جانب اللبن، ويذبحون المسنة أو المريضة فقط. ولهم مشروب يعدونه من نبات محلي buckthorn بينما يشرب الرؤساء الماء مخلوطا بالعسل. وهم شبه عراة يلبسون فقط الجلود ويتفصدون ويختتنون. يحمل

التُرُجلُدايت العِصِي ذات المقابض الحديدية ويستخدمون الحراب والدرق المصنوع من الجلود ولكن الآخرون يستخدمون السهم والنشاب والحراب."

"ويحل فصل الشتاء عندما تهب الرياح الممطرة أما باقي السنة فصيف. ويربط بعض التُرُجلُدايت رقبة الميت برجليه، وتتم عملية الدفن بمرح وسرور حيث يرمون الميت بالحجارة حتى تختفي الجثة فيضعون على القبر قرن كبش ويذهبون. ويسافر التُرُجلُدايت بالليل، ويضعون أجراساً في رقاب الثيران لكي تطرد أصواتها الحيوانات المفترسة، كما يستخدمون لذلك النار أيضاً. ويقومون بالحراسة أثناء الليل ويجلسون حول النارحيث يقوم بعضهم بالغناء، ويقتلون المسنين الذين لا يستطيعون التنقل مع أفراد القبيلة "[١]

ويلاحظ أن المصادر الكلاسيكية أوردت بعض الأساطير والخرافات عن بعض القبائل الإفريقية مثل كون البليميين بلا رؤوس وأن عيونهم وأفواههم على صدورهم، وأن التُرُجلُدايت يشربون دم الحيوانات المذبوحة وغيرها، وبالطبع فإنني لم أورد مثل تلك الأخبار ولعل فيما ورد بعض المبالغات التي لا تفوت على فطنة القارئ.

وقد ورد في النص أعلاه ما يفهم منه تميز زعماء التُرُجلُدايت عن بقية الأفراد الأمر الذي يشير إلى النظام الطبقى الذي عرف بين البجة في العصور اللاحقة، وبالطبع فإن ما أوردته المصادر عن حياة وعادات التُرُجلُدايت لم يغط كل الجوانب ولكن ما ذكر يشير إلى التميز الواضح بين طبقتي الحكام والمحكومين. ويؤيد هذا التنظيم القبلي ما افترضناه سابقا من أن التُرُجلُدايت طوروا أوضاعهم السياسية بالقدر الذي مكنهم من القيام بمهامهم التجارية وعلاقاتهم الخارجية مثل علاقاتهم مع مملكة البطالمة.

كما يلاحظ أيضا أن النصوص أشارت إلى الثيران والخراف ولم تشر إلى الجمال، ومن المعروف أن الجمل أساسه وسط آسيا، ولم ينتشر استخدامه في إفريقيا إلا مع الغزو الفارسي لمصر في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.[٢] وربما بدأ التوسع في استخدامه في مناطق الصحراوية بين نهر النيل و البحر الأحمر مع بداية العصر

---

[1] Ibid. Book 17 p 339.

[2] Oric Bates, *The Eastern Libyans*. London: Frank Cass & Co. 1970 p28

المسيحي الذي شهد نشاط الأنباط التجاري في الأجزاء الشمالية من هذه المنطقة، وقد توسعت أعمالهم بدرجة كبيرة منذ القرن الثاني الميلادي عندما سقطت دولتهم على أيدي الرومان في سوريا.

فقد هاجرت جماعات من الأنباط إلى صحراء مصر الشرقية وقاموا بدور هام في نقل السلع على إبلهم من سواحل البحر الأحمر إلى النيل. وشجعهم الرومان على القدوم والمشاركة في هذه المهمة، فكانوا يستخدمون الطرق والمحطات الرومانية على طول المنطقة. وفي نفس الوقت زاد الرومان من استخدام الجمال في الصحراء الكبري ليطاردوا بها القبائل الصحراوية التى كانت تهدد حدودهم المطلة علي الصحراء الكبرى. وبدأت القبائل الصحراية منذ ذلك الوقت تتوسع في استخدام الجمل. ولذلك فإن انتشار استخدام الجمل بين قبائل المِجا و التُرُجلُدايت قد بدأ متأخراً ربما في نهاية القرن الثاني الميلادي.

البليميون:

البليميون هو الاسم الذي أطلقته الآثار الفرعونية والكوشية والمصادر اليونانية والرومانية على سكان منطقة النيل الواقعة جنوبي أسوان. وبالرغم من بعض الآراء أرجعت استقرار البليميين في هذه المنطقة إلى الفترة التي واكبت ضعف وانهيار دولة مروي في القرون الميلاية الأولى.

إلا أن نتائج الأبحاث الجدية مثل أعمال كلايدي و نترز عالم اللغة المروية المشهور والذي نشر نص نقش كلابشة المروي[1] و هانس بَرنارد[2] الذي اعتمد على الآثار والوثائق التي جمعت عن منطقة شمال السودان ما بين القرنين الثامن قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي ونشرتها جامعة بيرقن[3] ووثائق الجبلين المنشورة في كتاب مصطفى

[1] كلايدي ونترز، "بينة مروية عن الأمبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس" ترجمة أسامة عب الرحمان النور *مجلة الآثار السودانية* العدد الخامس مارس ٢٠٠٤.

[2] Hans Barnard, *Sire, il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation of Historical and Archaeological Data.* (online)

[3] Eide et a, (eds) *Fontes Historiae Nubiorum* 4 volumes, University of Bergen 1994-2000

محمد مسد "الإسلام والنوبة في العصور الوسطى" في الملحق رقم ٣ وغيرها من المصادر الكلاسيكية التي أرجعت وجود البليميين إلى القرون السابقة للميلاد وأمدتنا ببعض المعلومات عنهم حتى القرن السادس الميلادي.

يرى أوبديجراف[1] أن اسم البليميين ربما ورد ذكره في قائمة – Imn-m-ip – أسماء الجماعات أوالقبائل التي دونتها كتابات الدولة المصرية الحديثة. ولو صح ذلك فربماكان البليميون ضمن سكان منطقة جنوب أسوان منذ بداية عصورها التاريخية. وبدأت الآثار المصرية و الكوشية تشير إلى وجود البليميين في مناطق جنوبي اسوان منذ القرن السابع قبل الميلاد، فقد ورد في نقش في معبد الكوة أن الملك الكوشي أنلاماني شن في القرن السابع قبل الميلاد حروبا على منطقة البُلهاو Bulahau وقد عرِّفت البُلهاو بمنطقة البليميين، كما ورد أن البُلهاو في اللغة المصرية القديمة تعني البليميين.[2]

وإذا كانت البُلهار تصدق على منطقة جنوب أسوان أو على المنطقة الواقعة بين النيل و البحر الأحمر فإن البليميون كانوا في ذلك الوقت جزءاً من سكان المنطقة ولكن لم يتردد ذكرهم تحت هذا الاسم. وقد رأينا كيف أن المِجا كانوا مستقرين في المنطقة الواقعة بين النيل و البحر الأحمر، وذكرنا أن المِجا هم أسلاف البجا الحاليين.

وقد ربط الباحثون بين البليميين والمِجا مما يرجح أنهم كانو عائشين معا في نفس المنطقة أو ربما كان وجود البليميين أكثر تركيزاً على منطقة النيل والمِجا تجاه البحر الآحمر. فالآثار وضحت أن البليميين دخلوا منطقة النيل جنوبي أسوان في القرن السابع ق.م.، وأن اسمهم بدأ يتردد منذ القرن السادس قبل الميلاد في الاثار المصرية والكوشية.[3]

ولم تتضح أسباب حروب الملك الكوشي للبليميين في القرن السابع ق.م.. ربما كان هدف الحملة اخضاع الوافدين الجدد في المنطقة تحت السلطة المركزية. وقد

---

[1] انظر كلايدي ونترز، "بينة مروية عن الأمبراطورية البليمية" ص١.

[2] Hans Bernard, *Sire, il n'y a pas de Blemmyes.* Clause no. 34 في ومقال لبروفسور محمد سوداناين نشرت في اكتوبر ١٩٧٠.

[3] كلايديي ونترز، المرجع السابق ص٢

ذكر ونترز أن النقوش المروية توضح أن البليميين اعترفوا بالسيادة المروية.[1] ويبدو أن حدود المرويين الشمالية الشرقية قد تأثرت باضراب الأحوال في مصر وبذل ملوك مروي جهدا كبيراً للسيطرة على تلك المناطق.

وفي واقع الأمر فقد عاشت كل منطقة صعيد مصر – التي كانت تعرف بإقليم طيبة – وجنوب أسوان اضطرابات متكررة في القرون الثلاثة التي اعقبت نهاية الحكم الكوشي (الاسرة الخامسة والعسرين) لمصر فقد تعرضت المنطقة للغزو الأشوري ثم الغزو الفارسي وتخللت هاتين الفترتين ثورات ونضال المصريين ضد كلتا القوتين، ولم تستقر الأوضـــــــاع إلا بدخول الاسكندر المقدوني مصر في الربع الأخير من القرن الرابع ق.م..

فقد ورد في نقش لأحد ملوك مروي (٤١٨- ٣٩٨ ق.م.) وضح فيه حروبه ضد ال Rehrehs(ربما كانوا فرعاً من المجا أو البليميين) الذين أغاروا على المنطقة الواقعة بين النيل و نهر عطبرة ، كما صد غارة أخرى قام بها ال Meded (المِجا) علي منطقة كورتي بالقرب من مروي الحالية. وعلى مسلة الملك المروي هَرسيوتف Harsiotef (٣٩٧- ٣٦٢ ق.م.) وضح أنه قام بعدة غزوات ضد (Rehrehs) و (Medju) المِجا، كما قام بغارة على إحدى المواقع جنوبي أسوان.[2]

وعلى مسلته سجل الملك المروي نَستاسن Nastasen (٣٣٥- ٣١٠ ق.م.) انتصاره على الأمير Khambes-wten الثائر في شمال السودان. واستناداً على العلومات التي وردت في اهرامات مروي و نوري فقد رأى Hintze [3] أن هذا الأمير هو الملك المصري Khababash الذي حكم مدة قصيرة (٣٣٨- ٣٣٥ق م) قبل غزو الاسكندر المقدوني مصر ولا زالت شخصية هذا الملك تثير جدلاً بين دارسي التاريخ المصري القديم،

فقد اعتبره بعضهم آخر ملوك مصر الفراعنة، كما اعتبره البعض الآخر مصري وطني ثائر في وجه الغزو الفارسي وأنه سيطر على الدلتا واعترف به كهنة منف وبعض

[1] نفس المكان

[2] Arkell, *History of the Sudan* p 153 – 154.

[3] http://www.homestead.com/wysinger/nastasen.html



أهل الصعيد ملكاً.[1] بينما رأى البعض الآخر أن خباباش كان حاكماً على شمال السودان جنوبي اسوان مناهضاً لملك مروي نَستاسن. وذكر الملك نَستاسن بخصوص هزيمة ذلك الأمير كما ورد عند محمد ابراهيم بك٧: " وعندما أقبل (الأمير النوبي) خميس - وتن (خباباش) أرسلت إليه جيشا من دارو هزم قواته. ونهبت مراكبه وماشيته وقطعانه وكل ما يمكن أن يعيش عليه الناس" وأضاف بكر أن هذا الأمير قد انتهز فرصة ثورة المصريين على الفرس فأعلن نفسه ملكا.[2]

وإذا أخذنا بالرأي الذي يقول بأن خباباش كان ملكاً على مصر – وهو الرأي السائد بين المؤرخين – وليس أميراً ثائراً على السلطة المروية ، يمكن أن يكون قد تقهقرجنوبا أمام الغزو اليوناني لمصر ، واضطر أخيراً أن يلجأ إلى شمال السودان لأنه ورد أنه كان مصحوباً برفاقٍ كثيرين وكان معه عدد كبير من الماشية والمال الأمر الذي يوحي ببحثه عن مكان يلجأ إليه ، غير أن الملك نَستاسن هزمه واستولى على ثروته.

ولكن يلاحظ أن اسم هذا الملك أو الثائر أو الأمير "خبابَش" يشبه أسما الحكام البليميين الذين اشتهروا في المنطقة الواقعة بين الأقصر شمالاً ووادي حلفا جنوباً – والذين سنتناولهم لاحقاً - مثل " خراخن و خراخت و خراباتخور " فهل من الممكن أن نفترض أن هذا الشخص هو أمير بليمي ثار على السلطة المروية ، علماً بأن كل سكان المنطقة من البليميين وغيرهم كان يطلق عليهم نوبا أو اثيوبيين ؟ من الجائز أم يكون أميراً بليمياً ولو صح ذلك لأكد وجود البليميين بأعداد كبيرة منذ الرابع قبل الميلاد.

وتوضح السجلات المروية أن البليميين قد استقروا منذ القرن الخامس قبل الميلاد على طول المنطقة الواقعة من اسوان حتى منطقة دنقلا (كلايدي و نترز ، بينة مروية ص٢) وفي خلال القرون التي سبقت احتلال الرومان مصر في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. وذكرت المصادر اليونانية السابقة للميلاد (انظر Mac Michael, *A History of the Arabs In the Sudan* vol.1 p 38) أن المناطق الواقعة حول

[1] عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم الجزء الأول: مصر والعراق. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٩٠ ص ٣٥١.

[2] محمد ابراهيم بكر ، تاريخ السودان القديم ص ١٤٥.

أسوان هي مواطن البليميين الرئيسة، وينتشرون جنوباً وشرقاً نحو حدود اكسوم و ميناء أدولس على البحر الأحمر.[1] وهذا الوصف يتطابق مع مواطن البجة الحالية.

فالمصادر القديمة - السابقة للميلاد- تناولت كل سكان المنطقة المعروفة الآن ببلاد البجة تحت اسم البليميين مما يؤكد أن شعوب هذه المنطقة أُشير إليها في المصادر القديمة مرة تحت اسم البليميين وأخرى تحت اسم المِجا ومرة أخرى تحت اسم التُرُجلُدايت. وقد ذكر ماكمايكل (نفس المكان السابق) أن الكتاب المسيحيين المبكرين أطلقوا اسم البليميين على البجة.

ويبدو أن استقرار البليميين في القرون السابقة للميلاد قد ازداد في منطقة جنوبي اسوان، حتى شيد ملك مروي أركاماني (٢٠٦- ١٨٦ ق.م.) معبداً في كلابشة لإلاههم مندوليس. ويعتقد كثير من المؤرخين "أن البليميين كانوا السكان النوبيين الأساسيين الذين عاشوا فيا لجزء الأكبر من النوبة السفلى[جنوب اسوان] في القرن الميلادي الأول."[2]

ولم يكن استقرار وامتزاج البليميين بالسكان السابقين في جنوبي أسوان فقط، بل توضح الآثار الراجعة إلى فترة ما قبل الميلاد (بَرنارد فقرات 116, 123, 136) أن استقرارهم امتد شمالاً في منطقة طيبة في صعيد مصر. وقد رأينا كيف كان للمِجا علاقات قوية بمصر بصورة عامة وبإقليم طيبة بصورة خاصة، فلم يكونوا فقط بدواً متجولين في الصحراء المطلة على الأقليم بل كانوا مستقرين في المدن. واحترفوا الكثير من المهن مثل العمل في الجيش والبوليس. ويبدو أن علاقة البليميين – الاسم المرادف أحيانا للمِجا – كانت أيضا قوية بالمنطقة بحكم الامتداد والاتصال الطبيعي بين منطقة شمال السودان و إقليم طيبة .

ويبو أن منطقة السودان الشمإلى قد استقرت تحت حكم المرويين بعد الحملة التي قادها الملك نَستاسن، فقد أوضح سترابو الذي نقل عن اراتوسطين في القرن الثالث ق.م. أن البليميين والمِجابوريين يعيشون في المنطقة الواقعة بين النيل و البحر الأحمر وخاضعين

---

[1] Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan* Vol. 1 p 38.

[2] كلايدي ونترز، "بينة مروية عن الأمبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس ص ١.

لسلطة مروي.[1] وبدت العلاقات طيبة بين ملوك مروي والبليميين حيث شيد الملك أركاماني معبداً لإلاههم مندولس في كلابشة.

وتمثل فترة حكم البطالمة لمصر منذ الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد وحتي بداية العصر الروماني في الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد فترة هدوء واستقرار في اقليم طيبة والمناطق الجنوبية. وقد اهتم البطالمة بالتجارة سواء عبر سواحل البحر الأحمر أو النيل أو عبرالصحراء الشرقية والصحراء الغربية، وكان عهدهم بالمقارنة إلى العصر الروماني اللاحق عصر سلم وازدهار. وتوصف إدارة مناطق جنوبي مصر وشمال السودان في بعض المرات بالإدارة الثنائية بين البطالمة والمرويين[2] وأحيانا ترد كإدارة مستقلة محايدة بين الدولتين المروية والبطلمية[3]

لم يتردد ذكر البليميين كثيراً في مصادر القرنين الميلاديين الأول والثاني كما يتضح من النصوص التي جمعها بَرنارد والتي أشرنا إليها سابقاً،، بعكس القرون التالية - من الثالث وحتى السادس الميلادي - والتي شهدت لهم حضوراً دائما ومؤثراً على الأحداث في مصر والسودان. فقد كانت دولة مروي – التي كان البليميون جزءاً منها - على رأس الأحداث فى المنطقة، وقادت الصراع مع الرومان. فقد احتلت مملكة مروي المناطق الشمالية بعد نهاية حكم البطالمة، وهي المناطق التي شرع الرومان منذ دخولهم مصر في التوسع عليها.

ويبدو أن هدف الرومان الأول كان الاشراف المباشر على مداخل وطرق التجارة إلى دواخل إفريقيا عبر البحر الأحمر ووادي النيل والصحارى الجنوبية. شرعوا في التدخل في شؤون مناطق شمال السودان ولذلك منذ احتلالهم مصر عام ٣٠ ق.م. ويذكر شارلس دانيالز[4] أن المرويين اشتركوا مع المصريين في صد الرومان عن أقليم طيبة، الا أنهم هزموا وأتخذ الرومان من الفنتين المجاورة لاسوان نقطة لحدودهم الجنوبية مع

[1] Strabo, Book xvii, p 7

[2] وليام آدمز، النوبة رواق افريقيا ص ٣١٩.

[3] مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٢٥، محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم ص ١٥١.

[4] Charles Daniels, "Africa" in John Wacher ed. *The Roman World*. London and New York: Routledge 2002 vol. 1 p225>

السودان. وفرض الرمان على زعماء شمال السودان - والذين كانوا تابعين لمملكة المروي - الاعتراف بالسلطة الرومانية.

وبعد سنوات قليلة من الاحتلال الروماني ثار اقليم طيبة وامتدت الثورة إلى شمال السودان. وقد شجع الثوار غياب عدد كبير من الجنود الرومان في حملته على اليمن من أجل السيطرة على تجارة البحر الأحمر ووصول الأخبار بفشلها. هاجمت ملكة مروي جنود الرومان في اسوان وأغارت على صعيد مصر فاحتلت طيبة عام ٢٣ ق.م. وتمكن الرومان سريعا من هزيمة الثوار وهاهموا مروي وتوغلت جيوشهم كما تذكر المراجع حتي منطقة كريمة الحالية حيث دمروا عاصمة المرويين نبتا.

وأقام الرومان سلسلة من الحصون ما بين الفنتين و المحرقة شمالى وادي حلفا واطلق عليها اسم Dodekaschios تكتب باللغة العربي بصور مختلفة مثل دوديكاشينوس ودوديكاسخيون ودوديكاسخوينوس. وتسهيلاً للنطق سنشير إليها دوديكاس . وأطلقوا على المنطقة الواقعة بين المحرقة و الشلال الثاني باسم Teriakontaschchoinos وكتبت هي أيضا باللغة بالعربي بصور مختلفة سنشير اليها ترياكونتاس . واستمر الصراع بين مروي والرومان لمدة ثلاث سنوات تقريباً انتهى بعقد صلح بين الطرفين.[1]

وقد شهدت فترة القرنين ونصف (من الأول حتي منتصف الثالث الميلادي) التي تلت الغزو الروماني هدوءاً نسبيا في مناطق شمال السودان. ويميل المؤرخون إلى أن الرومان والمرويين قد اشتركوا في الاشراف على إدارة مناطق شمال السودان، ويبدو أن الرومان اكتفوا بالسلطة الرمزية على الترياكونتاس بينما اشتركوا فعليا في إدارة الدوديكاس .

يرى آدمز أن الشؤون العسكرية وشؤون الطرق كانت بيد الرومان، بينما أشرف المرويون على الشؤون الدينية والمالية. وقد شهدت هذه الفتره تطوراً ملحوظاً في النشاط التجارى - كما يرى مسعد – بين مصر و كردفان و دارفور ونشطت أعمال التعدين صاحب ذلك القيام ببعض المنشآت المعمارية مثل المعابد التي شيدت في فيلة و كلابشة .

[1] Charles Daniels, “Africa” p 333.

وهدف الرومان إلى كسب ثقة وود السكان المحليين من أجل تنشيط الحركة التجارية.[1]

ورغم أن السلام كان الطابع المميز لهذه الفترة إلا أن الوثائق الرومانية حملت بعض أخبار حملتين احداهما في أواخر القرن الأول والثانية في منتصف القرن الثاني الميلادي شنتهما القوات الرومانية على سواحل البحر الأحمر ضد التُرُجلُدايت. ويبدو أن الوئام لم يتم بين الطرفين إذ بدأ التُرُجلُدايت في تهديد مواني وسلامة تجارة الرومان البحرية.

كما شنت القوات الرومانية أيضا غارات أخرى في النصف الأخير من القرن الثاني في الصحراء الشرقية كان الهدف منها تأمين الطرق البرية التي ربطت سواحل البحر الأحمر باقليم طيبة، فقد ورد في الوثائق أن الجنود الرومان طاردوا بعض الجماعات التي أطلقوا عليها Agriophages الذين أتوا من أقصى الجنوب وأغاروا وتوغلوا في غاراتهم حتى وصلوا طيبة.[2]

وقد أتاحت فترة الهدوء والرخاء الذي عاشته منطقة جنوبي أسوان نمو وتطور سكانها، ويبدو أن البليميين قد استفادو من ذلك كثيرا خاصة وأن القسم الآخر من على حركة التجارة ما بين النيل و البحر الأحمر الآخر أو أبناء عمومتهم يسيطر عليه أبناء عمومتهم. وليس ببعيد أن يكون البليميون والمِجا والتُرُجلُدايت قد حققوا الكثير من المكاسب في هذه الفترة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إلى أي مدى طورت هذه الجماعة انظمتها القبلية والسياسية؟

لا سبيل الآن إلى الاجابة عن هذا السؤال ولكن الذي يمكن الاشارة إليه هنا أن البلبميين قد ازداد عددهم منذ القرن الأول الميلادي كما ذكر المؤرخون. ويبدو أنهم أصبحوا القوة الرئيسة بين الزعامات المحلية تشربوا بالثقافة المروية. ويرى البعض أن فخار منتصف القرن الثالث في كلابشة قد يكون من عمل البليميين الذين تثقفوا

---

[1] وليام آمز، رواق افريقيا ص ٣١٩ ومصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٢٨.

[2] Charles Daniels, "Africa" p 337.

وكتبوا نقوشاً مروية واغريقية عثر عليها في معبد كلابشة.[1] وهكذا تهيأ البليميون منذ منتصف القرن الثالث الميلادي للقيام بدورهم القيادي في المنطقة.

ففي ذلك الوقت خفضت روما عدد جنودها في مصر إلى النصف، فأصبحوا نحو أحد عشر ألفاً أو ينقصون قليلاً،[2] ويبدو أن البليمين – وقد بدأوا يشعرون بقوتهم – استغلوا ذلك فبدأوا حروبهم ضد الرومان التي لم تنته إلا بقيام مملكة نوباديا المسحية في منتصف القرن السادس الميلادي.

نقل مسعد عن مصادره أن البليميين بدأوا هجومهم على الرومان عام ٢٥٠م.[3] ويبدو أن ذلك الهجوم كان على المعاقل الرومانية في المنطقة إذ يتضح من الوثائق أن منطقة الدوديكاس كانت مضطربة في عام ٢٥٣م.[4] وورد أن البليميين استولوا على المنطقة كلها . وفي نفس الوقت ورد في نص عثر عليه في فيلة للملك مروي تقردماني Teqeridamani ٢٤٦- ٢٦٦م أرسل سفارة إلى الأمبراطور الروماني حاملاً إليه الهدايا.

ويرى بكر أن السبب وراء تلك السفارة ربما كان طلب المساعدة من البيزنطيين لصد هجمات النوبا الذين كانوا يهددون حدود المملكة الجنوبية. وينقل بكر أن السبب وراء تلك السفارة ربما كان طلب المساعدة من البيزنطيين لصد هجمات النوبا الذين كانوا يهددون حدود المملكة الجنوبية.[5]

ويذكر ترمنجهام أن السفارة كانت بقيادة أمير بليمي يدعى Pa-smun Ibn Paesi وهو نفس الاسم الذي ورد في النص عند بكر، ويصف الأمير نفسه بأنه السفير العظيم إلى روما.[6] والبحث عن سبب السفارة أو سبب إعتداءات البليميين على الرومان يتطلب المزيد من البحث، ولكن لا يبدوا وجيهاً أن يكون سبب السفارة طلب مملكة

---

[1] كلايدي ونترز، "بينة مروية عن الأمبراطورية البليمية ص ١، ٧.

[2] Charles Daniels, "Africa" p 326.

[3] مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٢٩.

[4] Hans Bernard, *Sire, il n'y a pas de Blemmyes.* Clause no. 260, 261 and 272.

[5] محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم ص ١٧٩ و ١٧٥.

[6] J. S. Trimingham, *Islam in the Sudan.* London: Frank Cass & Co.1983 p 44>

مروي المساعدة من الرومان الذين أثبتت الوثائق – كما رأينا أعلاه - اضطراب الأوضاع في مناطق حدودهم مع مروي.

ويبدو معقولاً أن يكون سبب السفارة مناقشة الأوضاع المضطربة ومحاولة إعادة الأمور إلى مجاريها. وتشير رئاسة أمير بليمي للسفارة إلى أن البليميين كانوا على درجة متقدمة من التنظيم. ويبدو أن السفارة لم تحقق اهدافها لأن البلبيميين جددوا غاراتهم على الرومان بعد سنوات قليلة حتى لم يعد بمقدورجنود الرومان المنتشرين على النسل صد غارات البليميين.[1]

وتحالف البليميون مع زنوبيا (الزباء) ملكة (تدمر) في سوريا عندما هاجمت الرومان في مصر. وتحرك الرومان سريعا فهزموا قوات زنوبيا وقضو على الثوار في طيبة وهزموا البليميين وأجلوهم إلى ما وراء أسوان. غير أن البليميين عاودوا واحتلوا ما بين مدينتي Ptolemais & Coptos في منطقة طيبة.[2]

ومرة أخرى إنتصر الرومان ودام الصراع سجالاً بين الطرفين. وعندما زار الامبراطور دقلديانوس Diocletian حدود مصر الجنوبية عام ٢٩٨م قرر الانسحاب من النوبة السفلى، وجعل جزيرة الفنتين نقطة الحدود ترابط بها فرقة رومانية. وعقد اتفاقاً مع قبيلة النوباديين في الصحراء الغربية على القدوم والاستقرار على النيل جنوبي فيلة ليكونوا حاجزاً بين الرومان والبليميين، وقرر دفع أتاوة سنوية لكلا الطرفين على أن لا يقوموا بأي عمل عدائي ضد الرومان.[3]

وشهد القرن الرابع الميلادي تحولات كبيرة بدأت بقيام عاصمة جديدة للإمبراطرية في الشرق وهي القسطنطينية ، وأصبحت الدولة تعرف بالإمبراطورية الرومانية الشرقية التي اشتهرت باسم الامبراطورية البيزنطية فيما بعد. وقد عرفت في المصادر العربية باسم إمبرطورية الروم وهو الاسم الذي ورد في القرآن الكريم في سورة الروم. فأصبح الروم علماً على البيزنطيين، بينما أُطلق لفظ الفرنجة أو الافرنجة على

[1] Alan K. Bowan, et al (ed.) *The Cambridge Ancient History* Vol. xxii p 230.

[2] Oric Bates, *The Eastern Libyans* p 336; Alan K. Bowan, et al (ed.) *The Cambridge Ancient History* Vol. xxii p 230.

[3] Alan K. Bowan, et al (ed.) *The Cambridge Ancient History* Vol. xxii p .٣١٦

سكان غرب أوربا، ربما لأن الـ franks كانوا القوة الأوربية المسيطرة على تلك المناطق عندما دخل المسلمون الأندلس.

ويبدو أن مروي كانت حتى العقد الرابع من القرن الرابع الميلادي تتمتع باعتراف الحكام المحليين في شمالي البلاد بسيادتها، ورغم تعدد أولئك الحكام إلا أن البليميين قد أصبحوا القوة المسيطرة. وقد أوفد المرويون والبليميون سفارة مشتركة إلى مصر عام ٣٣٦ م، وقدّم البليميون "تيجان بلانا للأمبراطور البيزنطي"[1] وهذا يعني أن مقر زعامتهم كانت في بلانا.

وقد لا يعني تقديم التاج أن البليميين كانوا مملكة مستقلة بل كانوا - كما أصبحت عليه الأوضاع في الفترة الأخيرة من عمر الدولة المروية – يعترفون إسمياً بالسيادة المروية. وعلاقة مملكة مروي بالزعامات المحلية في هذة الفترة تتطلب المزيد من الدراسة.

مملكة البليميين:

وبعد نحو عقدين من السفارة المروية البليمية للبيزنطيين انهارت مملكة مروي في منتصف القرن الرابع الميلادي تحت ضربات عيزانا ملك أكسوم. ويبدو أن مولد مملكة البليميين المستقلة قد بدأ بذلك الحدث. فكما رأينا من تسلسل الأحداث منذ القرن الثالث الميلادي أصبح البليميون هم القوة المهيمنة علي حدود مروي الشمالية، وكان من الطبيعي أن يكونوا ورثتها في الحكم على الأقل في مناطق نفوذهم في الشمال. ولم يصبح البليميون - كما ذكر ونترز - جنرالات النهر فقط بل اعترف بهم كحكام يديرون شؤون بلادهم بحرية تامة.[2]

ويبدو أن البليميين قد بدأوا بسط نفوذهم في المنطقة حتى سواحل البحر الأحمر، لأن إحدى الوثائق الرومانية تحدثت عن تعرض بعض القواعد الرومانية على البحر الأحمر لغارة من سفن البليميين عام ٣٧٨ م. وربما بدأ اسم البليميين ينتشر بعد امتداد

[1] كلايدي ونترز، "بينة مروية عن الأمبراطورية البليمية ص ٣ و ٩.

[2] نفس المرجع ص ٧.



نفوذهم شرقاً فأطلق الرومان إسمهم على سكان المنطقة التُرُجلُدايت. وقد يؤيد ذلك أيضا ما تردد في المصادر عن ترادف استخدام البيليم والمِجا والتُرُجلُدايت.[1]

وقد أدى قرار الامبراطور تاوداسيوس الأول عام ٣٨٥ م بإبطال جميع مظاهر الوثنية في الإمبراطورية إلى تجدد الصراع في المنطقة، لأنه يعني فقدان البليميين والنوباديين لمركزهم الديني ولآلهتهم في فيلة. وفي مطلع القرن الخامس الميلادي بدأت هجمات البليميين، وفرضوا سيطرتهم داخل الإقليم وخارجه. فقد أوضح اولمبيودورس في بداية القرن الخامس أن المنطقة ما بين أسوان وحتى حلفا تقع تحت حكم البليميين المباشر حيث يسيطرون على المدن الخمسة الرئيسية ما بين فيلة و ابريم .[2] ويشير شارلس دانيال إلى نفوذهم في الصحراء الشرقية وإلى استقرارهم المبكر في فيلة .[3]

وقام البليميون في عام ٤٢٩ م بغارات على منطقة طيبة و الواحة الخارجة التي كانت مركزا رومانيا يطل على حدودهم الصحراوية، ونهبوا الواحة وأسروا بعض سكانها ومن بينهم نسطورس القس المسيحي المشهور الذي كان الرومان قد نفوه هنالك. ولكن أطلق البليميون سراح القس بعد مفاوضات مع قبيلة mazici الأمازيغ الصحراية (ربما طوارق اليوم المعروفين باسم Imashagh). وكانت هذه القبيلة تتجول في الصحراء حتى المنطقة الواقعة بين أسوان والواحة الخارجة.[4]

ويبدو أن الود قد ساد العلاقات بين النوباديين والبليميين بعكس ما خطط له الرومان الذين استقدموهم لمساعدتهم ضد البليميين. فقد ورد في بردية[5] ترجع إلى الربع الثاني من القرن الخامس الميلادي كما أن أسقف فيلة وجه نداء للإمبراطور البيزنطي لحماية كنائسة من غارات البليميين والنوباديين.

وفي بداية النصف الثاني من القرن الخامس ذكرت المراجع أن القائد الروماني ماكسمينيوس ألحق بالبليميين والنوباتيين هزائم متكررة. وانسحب البليميون إلى

[1] Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan* Vol. 1 p 37.

[2] Ibid. مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ١٧.

[3] Charles Daniels, "Africa" p 230.

[4] Oric Bates, *The Eastern Libyans* p 337; Arkell, *History of the Sudan* p 179; ومصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٧.

[5] انظر مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ١٣.

جنوبي أسوان حيث مركزهم في كلابشة، بينما انسحب النوباديين جنوبيهم إلى ابريم. ووقعوا معاهدة صلح لمدة مائة عام لم تكن كل شروطها في مصلحة الرومان.

وافق البليميون على رد أسرى الرومان ودفع تعويضات لما أصاب الممتلكات والأفراد من الأضرار وأن يرسلوا عدداً من الرهائن. وللمحافظة على هذه الشروط وافق الرومان على السماح لهم بالحج إلى فيلة وسمح لهم بنقل تمثال معبودهم إيزيس إلى بلادهم. كما وافق الرومان على الاستمرار في دفع الأتاوة التي كانوا يدفعونها للبليميين والنوباديين.

غير أن السلم لم يدم طويلا بين الطرفين، فقد هاجم البليميون الحدود الرومانية واستخلصوا رهائنهم بالقوة، وقاموا بشن غارات على إقليم طيبة وسواحل البحر الأحمر، وتمكنوا من فرض سيادتهم على المنطقة بما في ذلك إقليم طيبة.[1] وأعقب ذلك تغيّراً في سياسة البيزنطيين المعادية للمسيحية واعترفوا بها ديناً للدولة. ونشط الأباطرة في نشر المسيحية بين القبائل الصحراوية ومناطق البليميين وسواحل البحر الأحمر الإفريقية ومملكة اكسوم، وكانت المصالح التجارية والإشراف على المواقع الاسترتيجية على رأس أجندة ذلك النشاط. وقامت مملكة اكسوم بحملتها المشهورة ضد مملكة مروي.

وكان انتشار المسيحية قد بدأ في مصر في زمن مبكر، لكن القرن الرابع الميلادي شهد تحولاً كبيراً في العالم المسيحي عندما أظهر الامبراطور قسطنطين الأكبر (٣١٣ – ٣٣٧) ميله للمسيحية، وانتهى اضطهاد وتعذيب المسيحيين وتمتعت المسيحية برعاية الدولة. وساهمت الاسكندرية – كأحد أهم المراكز المسيحية – في تطور الفكر المسيحي المبكر ونشر المسيحية. وكان من أكبر انجازاتها نشر المسيحية في الحبشة في عهد الإمبراطور قنسطنطين الأكبر.

وكانت المسيحية منذ وقت مبكر قد بدأت تنتشر في صعيد مصر وتحولت الكثير من المعابد إلى كنائس في إقليم طيبة، كما تم إنشاء عدد من الكنائس. وفي القرن الرابع الميلادي أُنسست أسقفية في فيلة. كما انتشرت المسيحية في أكسوم

[1] Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan* Vol. 1 p 37.

شرقاً وفي واحات الصحراء الغربية مثل الواحة الخارجة. أما في شمال السودان وشرقه المتاخم للحدود المصرية فقد تأخر انشار المسيحية بالمقارنة إلى انتشارها في إقليم طيبة واكسوم والواحات، ربما يرجع السبب إلى الاضطرابات التي عاشها الإقليم منذ بداية الحكم الروماني لمصر.

وكانت صلات السودان بالمسحية قد بدأت في وقت مبكر، فقد تم تعميد وصيف كنداكة ملكة مروي في القرن الثاني للميلاد. وكان بطريرك الاسكندرية منذ عصر المسيحية الأولي يحمل لقب "بطريرك الاسكندرية والديار المصرية والنوبة والحبشة والخمس مدن" كما هو واضح على نقش خاتمه. ويدل ذلك على تسرب الدعوة للمسيحية في أزمان مبكرة إلى شمال السودان.[1]

وتشير بعض الدلائل على أن الدعوة المسيحية قد وجدت قبولاً من بعض البليميين والنوباديين منذ القرن الرابع، غير أنها لم تنتشر سريعاً فى السودان في القرون المبكرة. فعندما أغلق معبد فيلة الوثني في النصف الأول من القرن السادس الميلادي بأمر من الامبراطور البيزنطي تجددت غارات البليميين على مصر.

ويبدو أن قوة النوباديين قد نمت في المنطقة إلى جانب البليميين وأسس سلكو مملكته منذ عام ٥٣٠م. إلا أن إحدى الوثائق اليونانية (٥٣٥- ٥٣٧ م) وضحت أن البليميين والنوباديين كانوا لايزالوان حلفاء. كما ذكر بروكوبيوس نحو نهاية النصف الأول من القرن السادس الميلادي أن البليميين والنوباديين لازالوا وثنيين. غير أن نشاط البعثات التبشيرية وصلات البيزنطيين بالنوباديين قد حول موقفهم المعادي للوثنية، بينما واصل البليميون سياستهم المعادية للمسيحية. وكان ذلك إيذاناً بنهاية الود والتحالف بين البليميين والنوباديين وبداية الصراع الذي أدى إلى نهاية مملكة البليميين.[2]

ونتوقف قليلاً مع مملكة البليميين قبل الحديث عن نهايتها في محاولة لتتبع بعض أحداث تاريخها، وامتداد نفوذها وبخاصة في إقليم طيبة بصعيد مصر. وقد اعتمدنا في

[1] مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٥٠.

[2] نفس المرجع ص ٥٥.

ذلك على ما ورد في نقش كلابشة الذي كتب باللغة المروية المتأخرة تخليداً لأعمال الملك البليمي خارامادويه والذي ترجمه عن المروية كلايدي و نترز في مقال بعنوان "بينة مروية عن الامبراطورية البليمية"، وقد رحعنا إليه عدة مرات سابقاً.

وإلى جانب ذلك اعتمدنا أيضاً على المادة التي جمعها هانز بَرنارد عن البليميين والبجا والمِجا والتُرُجلُدايت من الكتاب القيم الذي نشره Eide وآخرون والذي يحتوي على ثلاثة أجزاء جَمعت كمّاً هائلاً من المادة ما بين القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي، وجاءت الملاحق في الجزء الرابع. وقد رجعنا إليه كثيراً فيما سبق. كما اعتمدنا أيضاً على وثائق الجبلين.

يرى الباحثون أن نقش كلابشة يرجع إلى القرن السادس الميلادي. وناقش و نترز ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن خارامادويه ملك نوبادي وليس بليميّاً، ووضح أن أغلب الباحثين يرون أنه ملك بليمي. فاسمه مشابها لأسماء ملوك بليميين وردت أسماؤهم في مصادر أخرى مثل الملك خاراخن وولديه خاراهايت و خاراباتكور و الملك باراخيا[1].

وورد في النص أن باتاكاية والد خارامادوية هو مؤسس الامبراطرية ووورثه في الحكم ابنه يسامينه الذي قدم له والده – في النص – بعض النصائح لينمكن من المحافظه غلى الانجازات التي تمت على يديه.

واللقب الذي اتخذه خارامادويه كما ورد في النص ترجمه و نترز: " the monark and chief" وجاءت ترجمة أسامة عبدالرحمن النور العربيه للّقب "العاهل والزعيم"[2] ولكن ورد نعته بلقب الملك في أكثر من موضع في النص كما في سطر رقم ٦ ورقم ١١. ولم يقترن اسم الملك خارمادوية في النص بأسماء المناطق الواقعة تحت حكمه ولكنه ورد في داخل النص (سطر٣) أنه "العاهل وقائد نيتة العظيمة" النص ملحق في آخر الكتاب.

[1] Hans Bernard, *Sire, il n'y a pas de Blemmyes*. Clause no. ٢٠٠, 319.

[2] انظر النص ملحق في آخر الكتاب.

وجاء في سطر ٧ عن عاصمته "كلابشة ترفع عالياً اسم نبتا الخيرة" مما يوحي أن البليميين كانوا يرون أنفسهم ورثة مروي وبالتإلى ملوك نبتا حتى ولو لم يمتد نفوذهم الفعلى جنوبا على تلك المناطق. وقد ورد في النص أسماء الجماعات التي انتصر عليها خارامادوية وهم: اللاك و الشاق و النسادوكا و التاميا و الناخبار . ولم تتضح مواقع هذه المناطق، لكن نفوذهم امتد حتى ساحل البحر الأحمر شرقا كما يفهم مما ذكر أعلاه.

وقد ذكر ونترز في تعليقه على النص أن " باتابوتكاية – والد خارمادوية – كان مؤسس الامبراطورية البليمية" وما ورد عن باتابوتكاية في النص (سطر٩) كالآتي: " باتابوتكاية الأب الخير (لـ) القائد خلف شرفاً حياً (لخارمادوية). فليقف عالياً الخير الذي سيترك ميراثاً الذي سيعمل ليحفز ويعطي شكلاً للخير..." وفي سطر ١٧ ورد: "باتابوتكاية عـــليه واجب والتزام الشــــرف وطلب الإذن لاعـــادة مولد خارمادوية ليفتح ويكسيها".

ولا توجد في النص إشارة إلى ملك أو أبٍ سابق، وليس من الضرورة أن يشير ذلك إلى أن باتابوتكاية هو مؤسس المملكة. ولم يشرح ونترز كيف أن النص يشير إلى تأسيس باتابوتيكة للمملكة لأن ما ورد في النص لا يوضح ذلك.

وقد أرخ كل من ونترز وبَرنارد لنقش كلابشة بالقرن السادس الميلادي. وإذا جعلنا باتابوتيكة المؤسس لملكة البليميين يكون تأسيس المملكة قد تم في القرن السادس أي بعد نحو قرن ونصف من انهيار مروي. وقد رأينا أن البليميين كانوا سادة المنطقة، ورغم اعترافهم بسلطة مروي والتي افترضنا أنها كانت سلطة اسمية. وأن البليميين كانوا يتمتعون بقوة أزعجت الرومان وجعلتهم يبحثون عن حليف لصد غاراتهم، وتوسعوا على سواحل البحر الأحمر، وبلغ نشاطهم العسكري الواحة الخارجة، واشتركوا مع المرويين في البعثات الدبلوماسية لمصر وأهدوا للإمبراطور البيزنطي تاج بلانة .

كل ذلك يشير إلى حقيقتين هامتين: الأولى أن البليميين أصبحوا قبل انهيار مروي بوقت طويل سادة المنطقة وجنرالات النهر، وثانياً يؤكد ذلك تطور نظام حكمهم مما

يجعل قيام مملكتهم – تحت ظل المرويين – أمراً مقبولاً. هذه الدلائل تشير إلى أنه من المقبول جداً أن يسعى البليميون إلى وراثة مملكة مروي بعد سقوطها.

ويزيد ذلك تأكيداً نقش كلابشة الذي تضمن في موضعين الإشارة إلى كونهم ورثة مروي. فقد وصف خارمادوية (سطر٤) أنه "عاهل وقائد نبتا العظيمة" ووصف عاصمته (سطر٧) كلابشة "ترفع عالياً اسم نبتا الخيرة" ثم السؤال لهام هو ماذا أضحى عليه الوضع السياسي في المنطقة بعد انهيار مروي؟

يرى الباحثون أن مملكة النوباديين قد تأست في وقت لاحق لسقوط مملكة مروي عام ٥٣٠ م. أي بعد قرنين من انهيار مروي. ولا تذكر المصادر المعاصرة أي قوة سياسية أخرى في المنطقة إلى جانب البليميين الذين كانوا على رأس الأحداث – كما رأينا – ليس في شمال السودان بل وعلى سواحل البحر الأحمر وصعيد مصر والصحراء الغربية. وهذا الوضع يجعل قيام مملكة البليميين بعد سقوط مملكة مروي مباشرة عندما غزاها عيزانا نحو ٣٥٠ م أمراً مقبولاً.[1]

وإذا انتقلنا إلى نصوص بَرنارد نجده قد جمع نحو ٧٣ نصا عن البليميين والمِجا والتُرُجلُدايت والبجة ما بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي. وبلغ عدد النصوص التي ذَكرت البليميين بالاسم مباشرة أوالتي تضمنت الإشارة إليهم ٤٧ نصاً. ويشير ذلك إلى أن البليميين كانوا القوة المسيطرة في المنطقة وأن اسمهم أصبح أكثر انتشاراً في الوثائق والآثارمن أسماء أبناء عمومتهم المِجا والتُرُجلُدايت، وأصبح علماً عليها في بعض الأحيان. أما اسم البجا فقد اشتهركعلمٍ على كل المجموعات الأخرى منذ القرن السابع الميلادي.

ومن بين السبعة والأربعين نصاً جاءت سبعة منها قبل القرن الثالث الميلادي. وبلغت النصوص في القرن الثالث ثمانية نصوص، وفي القرنين الرابع والخامس عشرين نصا، وفي القرن السادس اثنتا عشر نصاً. ويدل ذلك بوضوح أن البليميين كانوا موجودين في المنطقة منذ القرن السابع قبل الميلاد إلا أن قوتهم برزت منذ القرن الثالث، وأصبحوا

[1] مصطفى مسعد، الاسلام والموبة ص ٧٣.

عنصراً فاعلاً في أحداث كل المنطقة الواقعة ما بين الواحة الخارجة غرباً والبحر الأحمر شرقاً حيث امتدت غاراتهم في القرون التالية حتى أطراف البحر الأحمر الشمالية. أما في الشمال فرغم كون حدودهم في أسوان إلا أن امتداد نفوذهم تعدى ذلك في القرون التالية إلى منطقة طيبة في صعيد مصر.

وقد بلغت نصوص القرنين الثالث والرابع الميلادين عشرين نصاً الأمر الذي يوضح ازدياد نفوذ البليميين في المنطقة. وقد رجحنا فيما سبق قيام مملكة البليميين المستقلة داخل مملكة مروي في القرن الرابع الميلادي، ولعل ما ورد عن ملوك البليميين يؤيد ذلك. فقد وردت اسماء ستة ملوك بليميين فيما جمعه بَرنارد من نصوص، ثلاث منهم قدرت تواريخ حكمهم في القرن الخامس الميلادي والثلاث الباقين في القرن السادس وهو القرن الذي افترضه الباحثون تاريخاً لنقش كلابشة مما يشير إلى تأسيس مملكة البليميين في ذلك القرن.

غير أن الملك خارمادوية قد ورد اسمه أيضاً في نقش مكتوب باللغة المروية في معبد كلابشة وقدر تاريخ هذا النقش بالقرن الخامس الميلادي،[1] بينما قدر نقش كلابشة الذي يحمل اسم الملك خارمادوية ثاني ملوك البليميين - كما يرى ونترز - بالقرن السادس الميلادي، وأشار إلى أن النص غير كامل الترجمة.

وفي واقع الأمر فإنني لم أطلع علي أصل النص في الكتاب بل رأيته فقط في مقال برنارد، فهل رجع كلا الكاتبين برنارد و ونتر لنفس النص؟ لا أعتقد ذلك، خاصة وأن برنارد لم يشر إلى كتاب Eide رغم أنه كتب موضوعه بعد ظهور الجزء الثالث منه والذي تضمن نصوص بين القرنين الأول والسادس الميلادي.

وبالطبع فإن قضية تحقيق تاريخ النصين تحتاج إلى بحث، إن لم يكن قد تم ذلك ولم اطلع عليه. وهنالك أيضاً شئ آخرى يحتاج إلى المراجعة في نصوص برنارد وهو عبارة عن خطاب للملك فونين مكتوب باللغة اليونانية وُصِف فيه بأنه ملك البليميين الأكثر شهرة، وورد أن هـــذا الملك طلب من الملك النوبادي أبورتي الذي خلف سلكو الانسحاب.[2]

[1] Hans Bernard, *Sire, il n'y a pas de Blemmyes*. Clause no. ٢٠٠.

[2] Ibid. clause no. 319.

وقد قدر تاريخ هذه الأحداث بالقرن الخامس. ومن المعروف أن الملك النوبادي سلكو هو الذي هزم البليميين وقضى – كما يقال – على مملكتهم وحدث ذلك في منتصف القرن السادس الميلادي. وهذا الخلط أيضا يحتاج إلى الدراسة، ولعل في مثل هذه الموضوعات ما يشجع طلبة الدراسات العليا على ولوج أبوابها.

والملك البليمي الآخر الذي ورد اسمه مرتبطاً بالقرن الخامس هو تامال ٣٩٤ – ٤٥٣ (فقرة رقم ٣١٠). ولم ترد في المقال معلومات عنه ما عدا ارتباطه بأحداث القرن الخامس الميلادي.[1] ولعل في هذا، وما ذكر أعلاه دلالة على أن مملكة البليميين قامت قبل القرن السادس وهو التاريخ الذي قدر لنقش الملك خارمادوية، خاصة وأن أسماء الملوك البليميين التي وردت في نصوص برنارد أرقام ٣٣٤، ٣٣٦ و٣٣٩ النص الأول والثاني مكتوبان باللغة اليونانية والثالث باللغتين اليونانية والقبطية. وقدر رجوع الوثائق الثلاثة للقرن السادس الميلادي. وجاءت كلها مرتبطة بإقليم طيبة في صعيد مصر.

والوثائق الأخرى المرتبطة بالبليميين هي ثلاث وثائق مكتوبة على جلد غزال باللغة اليونانية عثر عليها فلاح مصري في منطقة الجبلين على بعد ٢٥ ميلاً جنوب مدينة الأقصر. وقد ترجمها إلى الانجليزية كراون و إمري، ونقلها إلى العربية وضمنها كملاحق مصطفى مسعد في كتابه الإسلام والنوبة تحت عنوان "الوثائق الدالة على استقرار البليميين في منطقة طيبة" وقد أشار برنارد إلى الوثيقتين الأولى والثانية فقرات رقم ٣٣٦ و٣٣٤.

الوثيقة الأولى – وهي عند بَرنارد رقم ٣٣٦ – يعهد فيها الملك البليمي خاراخِن (Kharakhen) حكم جزيرة تناري لابنائه الثلاث: خاراخن (Kharakhen) و خاراباتخور (kharapatkhur) و خاراخيت (kharahiet)، كما تضمنت الوثيقة ما يفهم منه أن المواطنين الرومان ربما لا يريدون دفع الضريبة للبليميين. واعتبر موقع

[1] Ibid. clause no. 3٠٠.

بَرنارد أن جزيرة تتاري غير معروفة. لكن مسعد ذكر بأنها تقع مقابل الجبلين وعلى نحو أربعين كيلومتراً جنوبي الأقصر، و٢٤٠ كم شمال أسوان.[1]

جاءت ترجمة الوثيقة (بَرنارد رقم ٣٣٦) كالآتي:

"أنا شاراشن ملك البليميين، أكتب إلى أولادي شاراشن و شاراتكور و شاراهيت، أنه طبقاً لأمري هذا قد منحتكم حكم الجزيرة المعروفة باسم تتاري، وألا يقف في سبيلكم أحد، وإذا أثار الرومان مشاكل وامتنعوا عن دفع الأتاوة العادية لكم فإنه لا الفيلارك ولا الهيبوتيرانوس يمنعانكم من إرغام الرومان على دفع العطايا العادية عن جزيرتي."

"شاراشن الملك"

" تتتكنا : أمير القصر – شاهد"

"كتبه سانسانوس في اليوم الرابع والعشرين من شهر ....."

وجاءت ترجمة الوثيقة الثانية – عند بَرنارد رق ٣٣٤ - كالآتي:

"أنا باكتمن أشهر الملوك، قد عينت باو القسيس المعروف لإدارة جزيرة تمسير المعروفة باسم تتاري. وقد سلتها إليك من هذا اليوم فصاعداً، وأوافق على ما سطرته عاليه."

"كتبه الكاتب أجاثانوس في اليوم الثالث والعشرين من السنة الحادية عشر...."

ولم يورد مسعد نص الوثيقة الثالثة التي ذكرها من ضمن ما عثر عليه الفلاح المصري، ولكنها أنها عبارة عن إيصال باستلام نقود دون تحديد جهتها.[2]

وهنالك وثيقة أخرى – رقم أربعة - ذكرها بَرناد clause no. 339، وهي عبارة عن أمر ملكي أصدره الملك باراخيا (Barakhia) إلى صوفيا يشير إلى وضعها أو إقامتها في مكان ما، وقد ورد أن هذا الملك خلف الملك خاراخِن - أو شاراشن كما كتبه مسعد - في الحكم.

[1] مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٥٣.

[2] نفس المكان.

فنحن أمام أربعة نصوص تتعلق كلها بحكم البليميين منطقة في صعيد مصر. وتسوق هذة الوثائق العديد من الأسئلة مثل: ما هي علاقة البليميين بصعيد مصر أو إقليم طيبة؟ وإلى أى مدى امتد نفوذ البليميين على صعيد مصر؟ هل حكم البليميون مناطق أخرى غير جزيرة تتاري ولم يصل إلينا ما يوضح ذلك؟ ومتى حكم البليميون جزيرة تتاري؟

علنا نجد بعض الاجابة في تعليق كل من كيروان و إمري الذين درسا الوثائق إلى جانب تعليق مسعد. اتفق مسعد مع كيروان أن البيزنطين كانوا يسعون إلى كسب ود البليميين ويجندوهم في جيشهم لمساعدتهم في الحد من نفوذ الحميرين في اليمن، وبالتإلى السيطرة على تجارة المحيط الهندي عبرالبحر الأحمر. ولذلك أقطع البيزنطيون بعض الاقطاعات للبليميين بمنطقة طيبة، وبالتإلى يبرر ذلك حكم البليميين لجزيرة تتاري.[1]

اختلف تفسير إمري الذي رأى أن الحكم البليمي في إقليم طيبة نتج عن ضعف السلطة البيزنطية لإقليم طيبة، فاحتل البليميون تلك المناطق. ويؤيد ذلك ما ذهب إليه بعض الباحثين - كما نقل مسعد -"أن البليميين لم يكونوا مجرد غزاة بل أنهم استقروا في منطقة طيبة حيث أقاموا حكومة مدنية. وأن القوات البيزنطية خضعت لهم واتخذوا من بطليمى قاعدة لهم يرسلون منها قواتهم لإثارة الرعب في المنطقة التي تقع إلى الشمال من طيبة."[2]

وبناءً على ذلك فإن مجالات توسع البليميين لم تنحصر في منطقة طيبة - جنوبي الأقصر فقط – بل تعدتها إلى شمال الأقصر. وقد تعرضنا فيما سبق لعلاقة وإقامة قبائل شرق السودان منذ العصور الفرعونية المبكرة بإقليم طيبة. يقول بُتلر أنه منذ عصر الملك المروي أركاماني Ergamenes في القرن الثالث قبل الميلاد – والذي تلقى

[1] المرجع السابق ص ٢٥٠.

[2] نفسه، ص ٥١.

تعليما يونانياً – تحسنت علاقات الكوشيين مع دولة البطالمة في مصر، وأصبح البليميون المولودون في مصر يتمتعون بنفس حقوق اليونانيين المولودين في مصر.[1]

ويضيف بتلر أن استقرار البليميين في إقليم طيبة بدا واضحاً منذ عام ٢٥٠ م بعد هزيمتهم للرومان. وعندما تمكن الرومان من هزيمتهم عام ٢٦١ م واضطروا لإخلاء منطقة طيبة عادوا إليها سريعاً واحتلوا Coptos و Ptolemy واستقروا حتى أجلاهم الرومان عام ٢٦٧م. وبعد سنوات قليلة – في القرن الرابع الميلادي وعندما أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس أمره بإبطال جميع مظاهر الوثنية في الإمبراطورية اتحد البليميون والنوباديون – الذين كانوا وثنيين – وهاجموا في منتصف القرن الخامس الميلادي - المسيحيين في شمالي إقليم طيبة.

ولم يكن البليميون في ذلك الوقت مجرد مغيرين بل كانوا – كما عبر بتلر – "بالتأكيد مستقرين وتولوا مهام الإدارة المدنية. وأصبح الجنود الرومان المنوط بهم حراسة الحدود سجناء تحت أيديهم.."[2] ولعل ذلك يذكرنا بملوك نبتة الذين بدأوا تدخلهم في شؤون مصر بضم الملك كاشتا في القرن الثامن قبل الميلاد لإقليم طيبة و Shabak أخو بعانخي وخلفه Shbataka . وأعتقد أنه يمكن أيضاً ملاحظة الشبه بين أسماء ملوك مملكة نبتة وملوك البليميين مثل: Kharakhen و Barakhia و kharapatkhur و kharahiet .

ونخلص من ذلك إلى أن البليميين ارتبطوا بالمنطقة الواقعة إلى الجنوب من أسوان منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وبدأوا يساهمون في أحداث المنطقة منذ القرن الثاني قبل الميلاد فأصبحوا القوة الرئيسة في المنطقة معترفين بسيادة مروي، وتوسعوا على سواحل البحر الأحمر والصحراء الغربية ومنطقة طيبة. وأسس البليميون مملكتهم المستقلة – كما رجحنا – في منتصف القرن الرابع الميلادي.

ويرى المؤرخون أن نهاية مملكة البليميين أتت على يد الملك النوبادي سلكو في منتصف القرن السادس الميلادي. وقبل الانتقال إلى مناقشة تاريخ سقوطها نتناول ما

---

[1] Alfred J. Butler, "The Treaty of Misr in Tabari" in his book *The Arab Conquest of Egypt* Oxford University Press 2nd ed. 1978 p 41-42
[2] Ibid.

عرف بين المؤرخين بثقافة المجموعة المجهولة (x-group) ٢٥٠ – ٥٥٠ م ومدى ارتباط البليميين بها.

لا زالت أغلب دراساتنا لتاريخ السودان تهتدي بما وضعه رايزنر (Reisner) عام ١٩٠٧ لتقسيم حقب تاريخنا وهي الحروف (A, B, C, X) المجموعة أ والمجموعة ب والمجموعة س. ورغم المعلومات الكثيرة التي توصل إليها الباحثون - آثاريون ومؤرخون – عن المجموعة X فإنها لا زالت توصف بالمجهولة. ولم يقبل وليم آدمز هذا الاسم وفضل أن تنسب إلى اسم المكان الذي يحتوي على أكثر آثارها فأطلق عليها ثقافة بلانة، وهذا ما سنتبعه هنا.

عثر على آثار ثقافة بلانة في مناطق متعددة بين أسوان شمالاً ومروي الحالية جنوباً، ويرى آركل أن المقابر الكثيرة المنتشرة في المنطقة الواقعة غربي الخرطوم ربما ترجع إلى ثقافة مشابهة لها. تعود ثقافة بلانة إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين، وقد اتفق الباحثون على أن مكوني هذه الثقافة يتميزون بوضح الأثر الزنجي أكثر من العناصر السابقة لهم وبوضوح الثقافة المروية على مخلفاتها.[1]

والمخلفات التي عثر عليها في مقابر أصحاب ثقافة بلانة تحتوي على بقايا ضحايا بشرية دفنت مع الملوك، وأدوات أكل مصنوعة من الفضة وأزيار كبيرة ومقاعد وعلاقات مصابيح برنزية وصناديق خشبية كبيرة مزخرفة. ويبدو الأثر المسيحي على بعض الأدوات البرونزية. وقد وجدت في القبور بعض الأدوات المصرية والبيزنطية مما يشير إلى العلاقات التجارية، كما عثر على التاج (*atef*) الذي كان يلبسه ملوك مروي مما يوضح أنهم كانوا يلبسون التاج وشارات الملك المروية. ولم يستخدم أصحاب هذه الثقافة الكتابة. وقد مارسوا الزراعة كحرفة أساسية إلى جانب الرعي.

وقد اختلف الباحثون في من هم أصحاب هذه الثقافة؟ يرى الباحثون – مثل فرث Firth – أن محتويات قبور أصحاب ثقافة بلانة تشير إلى أن الأثر الزنجي يبدو واضحاً

[1] Arkell, *History of the Sudan* p ١٨١.

عليها، وبالتالي فإن هذه الجماعة عبارة عن هجرة زنجية أتت من الجنوب واستقرت في المنطقة واختلطت بسكانها.[1]

وقد رأى فرث الذي فحص محتويات القبور في العقد الأول من القرن العشرين أن مؤسسي هذه الثقافة هم النوباديون الذين استقدمهم الأمبرطور الروماني دقلديانوس عام ٢٩٧ ليستقروا على النيل جنوبي اسوان. وتبعه في هذا الرأي آركل وسار عليه كثير من المؤرخين مثل محمد ابراهيم بكر ومصطفى مسعد.

وأبعد آركل ومن تبعه أي أثر للبليميين في هذه الآثار لأنهم – كما يرون – رعاة متجولون في الصحراء الشرقية، ولم يسيطروا على تلك المناطق لفترات طويلة، وإنتاج مثل تلك الثقافة يتطلب استيطانا طويل المدى.[2] ويبدو أن آركل الذي كتب في منتصف القرن العشرين لم تتح له فرصة الاصطلاع على الوثائق التي توفرت عن البليميين في النصف الأخير من القرن العشرين.

فقد وضحت تلك المصادر أن البليميين بدؤوا الاستقرار في مناطق جنوبي أسوان منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبدأت أعدادهم تزداد في المنطقة حتى أصبحوا منذ بداية العصر المسيحي القوه المسيطرة على المنطقة حتي القرن السادس الميلادي كما وضحنا أعلاه. ويعنى هذا ارتباط البليميين بمنطقة ثقافة بلانة يبلغ نحو ١٢٠٠ سنة. فكيف يكون وجودهم في المنطقة كما عبر مسعد وجوداً مؤقتاً؟.

ولم يستخدم آركل المصادر المبكرة مثل بلايني و سترابو و أولبميودورس وغيرهم والذين ظهر البليميون في كتاباتهم أنهم كانوا مستقرين في المنطقة منذ القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي أي نحو ٩٠٠ سنة. ويكفي ما ذكره أولبميودورس الذي زار البليميين في كلابشة في أول القرن الخامس الميلادي من أنهم سادة المنطقة وأن المدن الرئيسة ما بين اسوان و حلفا تحت سيادتهم.

الأدلة كلها تشير إلى أنه من غير المقبول بل ومن المستحيل إبعاد البليميين من ثقافة بلانة وهم الذين قدموا تاج بلانة – كما ذكر ونترز - هدية

[1] انظر مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ١٩.

[2] Arkell, *History of the Sudan* p ١٨١.

للأمبراطورقسطنطين عندما كانوا في سفارة مشتركة مع المرويين عام ٣٣٦ م.[١] ولذلك رأى كثير من الباحثين أن المقابر الملكية التي تم كشفها في المنطقة هي مقابر ملوك بليميين . وأرى أن تفسير وليام آدمز لظهور هذه الثقافة ومؤسسيها يمثل الرأي المنطقي المقبول.

لم يعتبر آدمز (ص٣٥٨ - ٣٥٩) أن ثقافة بلانه ثمثل ثقافة منفصلة ومستقلة عما قبلها كما ذهب إلى ذلك الرواد الأوائل من الآثاريين. وفيما يلي ملخص لبعض ما كتبه آدمز:

لم تكن نظريات رايزنر و إليوت سميث خاطئة على الإطلاق بالنسبة إلى محتوى زمانها، لقد كانت أول مسح آثاري للنوباديين محصوراً في الدوديكا سخيون في أقصى الشمال حيث مقابر البطالمة والرومان الذين حكموا المنطقة أو شاركوا في حكمها منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد.

لذا فإن مؤسسي ثقافة بلانة قد جرت مقارنتهم بأسلافهم البطالمة والرومان في هذه المنطقة، ولذلك كان هنالك ما يبرر افتراض أن مقابر مجموعة بلانة تمثل وافدين جدد يعتبرون عرقياً وثقافياً مختلفين عن أسلافهم في المنطقة. لكن البحث الآثاري الحديث – ولازال الملخص من آدمز – لم يؤيد هذه الفرضية خاصة وبعد امتداد المسح الآثاري إلى مناطق جنوبى الدوديكاسخيون ما بين حلفا ومروي الحالية.

وبالرغم من أن الدارسين المعاصرين أيدوا وجود الخلطة الزنجية في مجموعة ثقافة بلانة أقوى منها في المجموعات المروية السابقة لها، إلا أنها ليست كبيرة بحيث تشكل تميزًا عرقياً وثقافيا. فهي اختلافات بين مجموعة سكانية واحدةً، فلم يكن هنالك انقطاع في الإقامة بين الفترات المروية وما بعد المروية، وأن ثقافة مروي وثقافة بلانة ليست سوى فصول متعاقبة من نفس الثقافة.[٢]

ونخلص من ذلك أن ثقافة مجموعة بلانا هي ثقافة السكان النوبا وهم:

١) مجموعات السكان المحليين في المنطقة.

---

[١] كلايدي ونترز، "بينة مروية عن الأمبراطورية البليمية ص ٢٠٣.

[٢] وليام أدمز، النوبة رواق افريقية ص ٣٥٨ – ٣٥٩.

٢) وجماعات المهاجرين النوبا الذين وفدوا من الجنوب والذين بدأوا يتوغلون في أراضي مملكة مروي وأدوا إلى ضعفها وانهيارها، وهم المجموعة التي قال عنها الآثاريون "الزنوج الذين دخلوا المنطقة وتركوا آثارهم على جماعة ثقافة بلانة."

٣) وجماعات البليميين وغيرهم من سكان الصحراء الشرقية الذين حلوا بالمنطقة منذ القرن السابع قبل الميلاد

٤) وجماعات النوباديين الذين جاءوا إلى المنطقة عام ٢٩٧ ميلادية.

فالبليميون إذاً كانوا العنصر الفاعل في ثقافة جماعة بلانة وتطورت تلك الثقافة تحت ظل مملكتهم.

متى سقطت مملكة البليميين؟:

وننتقل الآن إلى السؤال الهام: متى سقطت مملكة البليميين؟ الرأي السائد هو أن مملكة البليميين أسقطتها مملكة النوباديين التي تأسست عام ٥٣٠ م. فقد شهد الربع الثاني من القرن السادس الميلادي تحركات نشطة من جانب البيزنطيين، حيث كان الامبراطور جستنيان ٥٢٥ – ٥٢٧ م يخوض حرباً مع الفرس في شمال غربي آسيا، وكان لا يسعى فقط لاستتباب الأمن على حدوده مع البليميين بل كان يهدف إلى تسخير تجارة البحر الآحمر والصحراء لدعم جهوده الحربية.

وجدت بيزنطة ضالتها في ثيودور أسقف فيلة و أسوان (٥٢٦ – ٥٨١م) بخبرته بأحوال البلاد وأهلها وزياراته المتعددة لبلادهم. وقد قام بدور هام في التمهيد لدخول النوبيين جميعاً في الدين المسيحي. ويبدو أنه قام بدور الوسيط بين النوباديين وبين الدولة البيزنطية. فقد أورد مسعد[١] تفاصيل اتصالات البيزنطيين بالمنطقة نقلاً عن يوحنا الأفسي الذي كتب في القرن السادس الميلادي. صحب ثيودور مبعوث الامبراطورة ثيودورا إلى ملك النوباديين عام ٥٤٣ م حيث قابلهم رسل الملك على الحدود وخفروهم حتى عاصمة النوباديين باخورس (فرس).

[١] مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٥٧ - ٦٢

وحسب رواية يوحنا الأفسي فإن ملك النوباديين سلكو اعتنق المسيحية. ولكن يرى الباحثون أن الدلائل الأثرية تشير إلى أنه لم يتنصر على الأقل حتى وقت حروبه مع البليميين فى منتصف القرن السادس، لكنه تصدى للبليميين عندما ثاروا على البيزنطيين بعد اغلاق معبد فيلا الوثني.

ودارت الحرب بين النوباديين وبين البليميين حيث كان الجيش البيزنطي كما ذكر بوري مستعدا على الحدود للتدخل إذا اقتضى الأمر،[1] وانتصر سلكو على البليميين وغيرهم من منافسيه على الزعامة كما اتضح من نقشه الذي دون فيه تلك الانتصارات باللغة اليونانية علي جدران معبد كلابشة.

وقد أورد مسعد ترجمة عربية لذلك النقش في الملحق رقم (١) في كتابه الإسلام والنوبة نقلا عن بدج بعد مقارنته مع كيروان. كما أورد محمد ابراهيم بكر أيضا ترجمة له لم يذكر مصدرها ولا تختلف في محتواها عما جاء عند مسعد . وسننقل النص كما جاء عند بكر كالآتي:

"أنا سلكو ملك النوباديين وكل الإثيوبيين، ذهبت إلى تالمس [كلابشة] و تافة ، وحاربت البليميين مرتين، وأعطاني الإلاه النصر، وبعد الثلاث مرات انتصرت مرة أخرى (عليهم) واحتللت مدنهم. وثبت نفسي هناك مع جيوشي. وفي المرة الأولى هزمتهم وعقدت معهم سلاماً، وحلفوا لي بأوثانهم، وصدقت إيمانهم لأني اعتقدت أنهم رجال أمناء، ثم عدت إلى أقاليمي العليا، وعندما أصبحت ملكاً لم أتخلف عن الملوك الآخرين، ولكني كنت في مقدمتهم (بأعمالي) فأولئك الذين يبحثون عن القتال معي فإنني لم أتركهم يقعدون في بلادهم إلا بعد أن يخضعوا لي، لأنني أسد في البلد الأسفل (وغزال ؟) في البلد العلوي. وحاربت البليميين من ابريم حتى Telelmis[كلابشة] مرة. ثم حاربت النباطيين [النوباديين] الآخرين في البلد العلوي [الجنوبي] واكتسحت بلادهم لأنهم سعوا إلى القتال معي."

[1] J. B. Bury, *History of the Late Roman Empire*. NEW York: Dover Publication, 1958 vol. 2 p 330



"أما سادة البلاد الأخرى الذين تقاتلوا معي فأنا لم أتركهم يقعدون في الظل، بل في الخارج تحت الشمس بدون أن يشربوا قطرة ماء في داخل بيوتهم، لأنهم كأعداء لي، فإنني أخذت نساءهم وأطفالهم."[1]

يلاحظ أن سلكو لقب نفسه بملك كل الأثيوبيين مما يتضمن الاشارة إلى أن النوباديين أيضاً عند قيام مملكتهم اعتبروا أنفسهم ورثة لمملكة مروي التي كانت تحكم كل الاثيوبيين. ولعل ملوك مملكتي المقرة و علوة اللتان تأسستا أيضا على أنقاض مملكة مروي قد تلقبا بنفس الألقاب.

وكما يتضح من النص فإنه في منتصف القرن السادس الميلادي – وهو الزمن الذي قُدِّر لحروب سلكو– كانت هنالك قوى متصارعة - إلى جانب البليميين والنوباديين – تسعى كل منها إلى بسط نفوذها على المنطقة. وانتصر سلكو على كل منافسيه البليميين في الشمال حتى الشلال الأول، وانتصر على منافسيه على الزعامة من النوباديين، وعلى حكام المناطق العليا من بلاده أي منطقة الشلال الثاني.

ويرى بعض المؤرخين أن سلكو عندما خاض تلك الحروب لم يعتنق المسيحية رغم استقباله للبعثة المسيحية البيزنطية. فقد ظهر سلكو في النقش في زي فرعوني تزينه صور الآلهة. إلا أن المسيحية انتشرت سريعاً بين النوباديين حيث أصبحت مملكة نوباديا مسيحةً ساعدت على انتشار الدين المسيحي في المنطقة.

ويتضح من أخبار انتشار المسيحية أن هنالك مملكتين أخريتين، الأولى إلى الجنوب من النوباديين وهي مملكة المَقُرة وعاصمتها دنقلا، والثانية إلى الجنوب من المَقُرة وهي مملكة علوة وعاصمتها سوبا . وبناءً على ما ورد في المصادر المسيحية المبكرة فإن كلا المملكتين اعتنقتا المسيحية في الربع الثاني من القرن السادس الميلادي[2] أي قبل نحو ستين سنة من دخول الإسلام مصر.

---

[1] محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم ص ١٨١.

[2] انظر آدمز وليام' النوبة رواق افريقيا ص ٣٠٧ – ٣٩٨ و مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٦٠ – ٦١.

ماذا حدث للبليميين ولمملكتهم بعد هزيمة سلكو؟ يرى بعض المؤرخين مثل آركل[1] و مسعد[2] الذي نقل عن كيروان و دي فلارد أن تلك الهزيمة أدت إلى نتيجتين: الأولى نهاية المملكة والثانية طرد البليميين نهائياً من على النيل.

ويبدو واضحاً أنه لم يرد في نص نقش سلكو أنه طردهم من على النيل. فالنص يشير إلى أن سلكو هزمهم أكثر من مرة واحتل مدنهم وعقد معهم "سلاما"، وفي ترجمة مسعد عقد معهم "صلحاً ووثقت من إيمانهم هذه لأنهم رجال شرفاء." وقد علق مسعد في الحاشية على أن ما ورد في النقش "لا يشير صراحةً إلى طردهم من المنطقة."[3]

وفي واقع الأمر فإن النص لايشير صراحة ولا ضمناً إلى طردهم. وقد علق بوري Bury على هزيمة البليميين قائلاً "إن تنصير البليميين ساعد الامبراطور جستنيان على إنهاء كل مظاهر الوثنية."[4] ولم يقل إنه طرد البليميين بل ذكر تنصيرهم.

غير أن أخبار البليميين انقطعت من المصادر حتى دخول المسلمين مصر حيث بدأت تظهر بعض أخبارهم في المؤلفات العربية. لكن هنالك بعض الأخبار التي وردت عنهم في وثائق الجبلين والنصوص التي جمعها بَرنارد والتي ارتبطت بإقليم طيبة بصعيد مصر وأرخ لها بالقرن السادس الميلادي.

فقد ورد في وثيقة الجبلين – المذكورة أعلاه – أن الملك شراشن منح حكم جزيرة تناري لأبنائه الثلاث، وقد خول لهم حق جمع الضرائب حتى من المواطنين الذين يتمتعون بحق المواطنة الرومانية. وأغلب الظن أن الإشارة هنا إلى الرعايا اليهود أو غيرهم الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية. وقد ورد أعلاه أن بعض البليميين قد تمتعوا بهذا الامتياز في نفس هذا الإقليم.

وفي فقرة رقم ٣٣٩ عبد بَرنارد جاء أن الملك باراخي خَلَف الملك خاراخن (أو شراشن) في الحكم. ولم يرد فيما ذكره برنارد شي عن حكم الجزير، ولكن ورد في النص الثاني المترجم أعلاه أن الملك باكتمن قد عين القسيس باو على الجزيرة.

---

[1] Arkell, *History of the Sudan* p ١٨٤.

[2] الاسلام والنوبة ص ١٨، ١٤٢.

[3] نفس المرجع، ص ٢٤٣ حاشية رقم ٨.

[4] Bury, *History of the Late Roman Empire* p 330.

ويعلق مسعد على النص قائلاً "ليس من المعروف تماماً تاريخ تحرير هذه الوثيقة، وربما كانت لاحقة للوثيقة السابقة [وثيقة شراشن] أي أواخر القرن السادس الميلادى."

وإذا أخذنا بهذا التاريخ يكون حكم البليميين قد استمر في منطقة طيبة حتى نهاية القرن السادس الميلادي، ويعني هذا أنهم كانوا لا يزالون ملوكاً بعد هزيمتهم على يد سلكو فن منتصف القرن السادس الميلادي. وهذا الأفتراض يقود إلى كثير من الأسئلة مثل أين كان مركز حكمهم؟ وما هي المناطق التي كانوا يسيطرون عليها؟ وكيف كانت علاقتهم بالممالك الأخرى في المنطقة وبالبزنطيين ؟ وهل كانت مملكة اليليميين لا تزال موجـــودة عند دخول المسلمين مصر أي بعد نحو سبعة عقود من حروب سلكو؟.

في الواقع فإن هذا افتراض بقاء مملكة البليميين بعد منصف القرن السادس يبدو مقبولاً، وربما كان ذلك هو السبب الذي جعل مسعد يبحث عن تبرير لوجود حكم بليمي على أرض مصرية تحت الحكم البيزنطي. فذكر أنه "من الوسائل التي لجأ إليها البيزنطيون لترغيب البليميين في المسيحية، أنهم أقطعوهم إقطاعاً بمنطقة طيبة" وأضاف بأن هذا العمل "كان جزءاً من سياسة البيزنطيين في البحر الأحمر للقضاء على نفوذ الحميريين التجاري في هذا البحر بالتعاون مع دولة اكسوم المسيحية، فضلاً عن إغراء البليميين بالدخول في المسيحية والسيطرة علي أوطانهم الممتدة جنوب شرقي مصر إلى حدود اكسوم."[1]

ويبدو منطقياً أن يسعى البيزنطيون لكسب ولاء البليميين لإنهاء هجومهم المتكرر على صعيد مصر وفي البحر الأحمر، وربما كسب مساندتهم في البحر الأحمر ضد الحميريين. ولكن لا أعتقد أن ذلك يعني اعطاءهم بعض المناطق على نهر النيل خاصة وأن مناطق طيبة كانت تتحكم في طرق تجارة النيل الوافدة من الجنوب كما تتحكم في الطريق التجاري الذي يربط البحر الأحمر بالنيل وكذلك طرق تجارة الصحراء الغربية.

---

[1] مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص ٥٣.

لهذا لا أرى أن البيزنطيين يمكن أن يفرطوا في تلك المناطق أو بعضها. ونحن لا ندرى امتداد حدود الملوك البليميين في منطقة طيبة، هل كانت في صعيد مصر فقط أم تضمنت جزءاً من شمال السودان؟ فإن الملك باكتمن لقب نفسه بـ"أشهر الملوك" مما يوحي بامتداد حدود مملكته.

ومن الممكن أيضاً افتراض أن الملوك البليميين حكموا جزيرة تتاري وغيرها من المناطق في إقليم طيبة قبل انهيار مملكتهم في الجنوب. فقد رأينا كيف كانت قوة البليميين حتى عجز الرومان ثم البيزنطيين عن صدهم، وأنهم سيطروا على إقليم طيبة بما فيها منطقة الجبلين. ويؤيد ذلك ما رجحه بوري من أن وثائق الجلين تتناول أحداث ما قبل القرن السادس الميلادي.

وتظل بقايا من السؤال هي: هل سقطت مملكة البليميين نهائياً أم كانت أو كان جزء منها قائماً إلى جانب أو تحت سلطة مملكة نوباديا؟

من المؤكد كما ورد في الوثائق أن مملكة النوباديين كانت لا تزال قائمة في المنطقة إلى جانب مملكة النوباديين و المقرة و علوة، بل ويفهم من مجرى الأحداث أنها اعتنقت المسيحية قبل مملكة علوة. ويستند هذا الرأي على نفس الوثيقة التي وضحت اعتناق مملكة علوى المسيحية . ووردت هذه الوثيقة في أغلب المراجع التي تناولت اعتناق ملك علوة المسيحية .

من المعروف أن مملكة النوباديين اعتنقت المسيحية على المذهب اليعقوبي بخلاف مملكة المقرة التي اعتنقته على المذهب الملكاني. وقد تنافس اتباع المذهبين على تنصير ملك علوة الذي فضل اتباع المذهب اليعقوبى . فأرسل رسله إلى ملك نوباديا يطلب منه إرسال القس لونجينوس ليتم ذلك على يديه. وقد روي يوحنا الأفسوسي تلك الأحداث ونرجع إليها هنا فيما ذكره وليمز بهذا الصدد.

دبر ملك المقرة الملكاني خطة لإعاقة وصول لونجينوس إلى مملكة علوة لأن طريقه إلى علوة يمر عبر أرضيهم. ولكي يتفادى الوفد هذا الخطر أتصل ملك النوباديين بملك البليميين لكي يساعد البعثة على الوصول لعلوة. وجاء في رسالة ملك

نوباتدا: "ولكن بسبب المكيدة الخبيثة التي دبرها ذلك الذي يقيم بيننا [ملك المقرة] فقد أرسلت أبي البار إلى ملك البليميين ليوصله إلى داخل البلاد"[1].

يدل هذا على أن مملكة البليميين كانت لا تزال قائمة، وأنها اعتنقت المسيحية ربما في نفس الوقت الذي تم فيه تنصير مملكة نوباديا بصورة شاملة، وأن البليميين اعتنقوا المسيحية على المذهب اليعقوبي قبل مملكة علوة. ويبقى السؤال أيضاً: اين كان مقر ملوك البليميين بعد هزيمة سلكو؟ وإلى أي مدى امتدت حدودهم أو سلطاتهم؟

[1] آدم وليامز، النوبة رواق افريقيا ص ٣٩٨.



الفصل السادس

سكان الصحراء غربي النيل

- السكان قبل دخول العرب شمال إفريقيا
- التمحو والجرمانت والقبائل الليبية/ المصرية
- السكان بعد دخول العرب شمال إفريقيا
- سكان منطقة كوار، الزغاوة، لواتة، سدراتة
- أزقار، بركامي، أهل بنتة، أهل نوبية

السكان قبل دخول العرب شمال إفريقيا

أطلقت المصادر اليونانية اسم "ليبيا" على كل المنطقة الصحراوية الواقعة بين نهر النيل و المحيط الأطلسي ، وأطلقت كذلك " صحراء ليبيا " اطلاقاً واسعاً شمال كل المناطق الصحراوية التي يحدها النيل شرقاً ، وتشمل كل الصحارى الواقعة غربي النيل داخل حدود السودان و مصر و الصحارى في دولة ليبيا و تشاد . وعندما تتحدث تلك المصادر عن القبائل الليبية قد تكون الإشارة إلى أية قبيلة في تلك الصحارى داخل الحدود الحالية للسودان أو مصر أو ليبيا أو تشاد. فالحديث عن سكان القدماء للصحراء الغربية هنا قد يشير إلى أي منطقة من تلك المناطق.

و أود قبل الشروع في الحديث عن الصحراء الليبية أو الصحراء الغربية للنيل الاشارة إلى نقطة هامة ينبغى على كل من يتناول تاريخ السودان ملاحظتها تلك هي دور الصحراء الهام والمؤثر على الأحداث في السودان منذ فجر تاريخه وحتى الوقت الحاضر. تمثل ذلك الدور في العلاقة الطبيعية بين المناطق الجافة والرطبة أو بين المناطق ذات الموارد المائية المتوفرة وتلك التي تعانى من شح أو عدم توفر المياه.

ويبدو دور العلاقة بين المناطق الصحراوية والمناطق التي تتمتع بوفرة المياه واضحا عندما ندرس تاريخ بلاد ما بين النهرين و سوريا أو الهلال الخصيب. فتاريخ تلك المنطقة تأثر بدرجة واضحة بالعلاقة بين هجرات الصحراء واستقرارها في الهلال الخصيب مثل ما هو معروف في التارخ بالهجرات السامية ، ولا يمكن دراسة تاريخ بلاد الهلال الخصيب بمعزل عن تلك الهجرات.

فالصحراء الكبرى الإفريقية أكبر من الصحراء العربية ، وما يمكن أن يخرج منها من هجرات إن لم يكن أكبر عدداً من ذلك الذي خرج من الصحراء العربية لا يكون أقل منه. والصحراء الكبرى أيضا محاطة بهلال خصيب وهو النيل شرقاً وشمال إفريقيا – الخصيب - المطل على البحر الأبيض شمالاً. فالصحراء الغربية – لا البحر الأحمر أو مصر - هي المؤثر الأكبر على تاريخ السودان في كل مراحله. ومن المستحيل دراسة وفهم تاريخ السودان فهماً مؤسساً إذا لم تكن الصحراء الغربية على رأس قائمة حساباتنا. وقد لاحظت المدارس الغربية ذلك منذ أواخر القرن الماضي وبدأت تركز أعمالها البحثية في تلك المناطق.

ولا بد لدارس تاريخ السودان في كل مراحله من التعرف على أوضاع سكان الصحراء غربي النيل الأبيض و نهر النيل أى سكان كردفان و دارفور والمناطق الواقعة إلى الغرب من أقصى شمال السودان. والشيء الذي أسعى إليه هنا هو محاولة التعرف على التركيبة السكانية في تلك المناطق قبل دخول العرب شمال إفريقيا لأن ذلك يساعدنا على رسم صورة لسكان المنطقة في القرون اللاحقة.

فنحن دائما عند الحديث عن تاريخ السودان بعد دخول الإسلام مصر في القرن السابع الميلادي نتناول التاريخ من جانب واحد وهو ما نسميه دخول واستقرار وتزاوج القبائل العربية الوافدة، ولا نعطى السكان المحليين إبان تلك الهجرات الانتباه المطلوب. مثلاً من هم سكان كردفان و دارفور قبل دول العرب مصر؟ وما هو دور سكان تلك المناطق على الأحداث بعد دخول العرب مصر؟ كيف كانت العلاقة بين سكان تلك المناطق وسكان النيل؟

العديد من مثل هذه الأسئلة تتطلب الإجابة، وما سنحاوله هنا هو التعرف السريع بقدر ما تسمح به المصادر المتاحة. وسنبدأ سريعاً بما دونته المصادر المصرية ثم نعرج على المصادر الكلاسيكية والمروية وأخيراً نتناول المصادر العربية.

ورغم أن هذه الأخيرة دونت بعد الفترة التى نحاول دراستها إلا أن شح المصادر يدعونا إلى النظر فيها وبخاصة ما كتب في القرون الهجرية المبكرة عن أوضاع المنطقة لأنه قد يعكس الأوضاع في القرون السابقة لكتابة تلك المصادر كما سنبين ذلك في موضعه.

وينبغي كذلك الإشارة إلى ما سبق أن أوضحناه بخصوص مناخ الصحراء الغربية، ونود هنا أن نذكر القارئ الكريم بأن المنطقة الواقعة ما بين جنوب ليبيا ومصر شمالاً وحتى تشاد و دارفور و كردفان جنوباً و النيل غرباً كان مناخها رطباً وتمتعت بقدر وافرة من المياه والحياة الحيوانية والنباتية، وتحرك السكان وتداخلوا بسهولة ويسر في كل نواحي هذه المنطقة.

ويعتبر ما دونه القائد المصري حرخوف في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد من أقدم المعلومات عن سكان الصحارى الغربية القريبة من النيل. وقد قام

حرخوف بعدة رحلات إلى الجنوب سلك في إحداها طريق الواحة الخارجة. ويرى عبد العزيز صالح أن ذلك الطريق يحتمل أن يكون الجزء الشمالي للطريق الذي عرف فيما بعد بدرب الأربعين والذي يصل بين منطقة دارفور و الواحة الخارجة . ووجد حرخوف نزاعاً بين قبائل يام التي تسكن جنوبي اسوان وبين قبائل التمحو الذين ينتشرون على الطريق جنوبى الواحات الغربية المصرية.[1]

التمِحو Temehu:

اتفقت الآراء أن التمحوا كانو يعيشون في المنطقة الصحراوية الواقعة الآن على الحدود المصرية السودانية[2] ولكن إلى أي مدى إمتدت حدودهم في هذه المنطقة؟ لا توجد معلومات دقيقة عن ذلك. فقد رأى بعض المؤرخين أن التمحو كانوا سكان المنطقة الممتدة من الواحة الخارجة شمالاً وحتى دارفور و كردفان جنوباً، وينتشرون بين النيل و الشلال الأول و الشلال الثاني حتى منطقة البوركو- شمال تشاد - غرباً.[3]

فالتمحو من أوائل القبائل الصحراوية التي أوردت المصادر صلاتها وارتباطها القديم بالنيل. ويبدو أن التمحو في الصحراء الغربية كانوا مثل الِجا في الصحراء الشرقية، فيخدمون كجنود في جيش الفراعنة منذ النصف الآول من الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت هنالك فرق من النحسي (Nehesi) من مناطق إرتت و ويام و واوات، وشارك الجنود التمحو الجيش المصري في صد غارات البدو على الحدود الشرقية.[4] كما كان التمحو من القبائل النشطة في تجارة الصحراء الغربية حتى اشتهرت بعض الأحجار الكريمة في مصر القديمة و كوش بحجر التمح.

ونسبة للصلة القوية بين التمحو وسكان النيل فقد أتى الربط بينهم وبين الجماعة التي كونت ثقافة المجموعة ج C Group نحو نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. إذ رجح بعض المؤرخين أن مؤسسي ثقافة المجموعة ج عبارة عن خليط من العناصر أتوا من

---

[1] عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ج ١ ص ١٤٩..

[2] Oric Bates, *The Eastern Libyans* p 44.

[3] Mac Michael, *A history of the Arabs in the Sudan* Vol., p 16 – 17.

[4] Akrell, *A history of the Sudan* p 42.

مكان قريب من غربي النيل، ويبدو معقولاً ان يكونوا الفرع الجنوبي لقبائل التمحو. وقد ارتبطت آثار المجموعة ج بالنيل و الصحراء ، فأدواتهم الفخارية تشبه تلك التي استخدمها سكان منطقة الخرطوم.

كما وجدت أدوات المجموعة ج الفخارية في وادى هوار الذي يرجح أنه كان مقراً للفرع الجنوبي من التمحو. ومما يزيد ارتباط المجموعة ج بالصحراء هو أن بعض مراسم دفنهم قد ارتبطت بقرن الثور ومدى فاعليته في جلب اللبن للميت وهو نفس المفهوم والتقليد الذي ساد بين بعض قبائل الصحراء الغربية.

ورغم أن اسم التمحو لم يعد له ظهور في القرون اللاحقة وبخاصة في المصادر اليونانية، إلا أن بعض المؤرخين يرى أن سلالات التمحو لازالت آثارها موجودة في المنطقة ممثلة في التبو سكان منطقة تبستي الذين يشبهون التمحو. كما يُرجّح أن التاما الحاليون ربما كانوا أيضا سلالة التمحو لأن تزيين أدواتهم الفخارية يماثل تزيين أدوات المجموعة ج التي كان التمحو أحد مكونيها. ولذلك يرجح أن التمحو ربما استقروا في وقت ما على وادي هوار.[1]

وتسجل الآثار المصرية ازدياداً ملحوظاً في عدد السكان والثورات المتكررة ضد القلاع المصرية في المناطق النيلية الواقعة شمالى الخرطوم منذ نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. ويبدو أن جماعات مهاجرة من سكان الصحراء – التمحو – وجماعات من الجنوب قد استقرت في تلك الأوقات على النيل في المناطق الشمالية، وأصبحت سمة السواد واضحة على السكان. وتكون من ذلك الخليط الكوشيون الذين أسسوا حضارة كرمة.

ولم يذكر هيرودوت في منتصف الألف الأخير قبل الميلاد اسم التمحو عندما تعرض لقبائل الصحراء الليبية. وقد زار هيرودوت منطقة ليبيا الحالية حيث جمع معلوماته عن قبائل الصحراء. وبالطبع فإن قبائل التمحو لم تنقرض، وأغلب الظن أن التمحو كان الفرع القوي من القبائل الصحراوية قبل عصر هيرودوت ، وفي القرون التالية حلت فروع أخرى من قبائل الصحراء محل التمحو وتقدمت إلى مراكز القيادة

[1] Ibid. p 44 – 50.

فاشتهرت أسماؤها. وسنلاحظ ظهور واختفاء أسماء القبائل المتكرر في المصادر اليونانية والرومانية السابقة لدخول العرب إفريقيا.

الجرمانت:

ذكر هيرودوت أسماء خمسة قبائل أو جماعات في المنطقة الواقعة بين النيل ومنطقة فزان جنوب ليبيا الحالية، ويبدأ بأقربها إلى النيل وهم الأمونيين سكان الواحات ثم أوجيلي جنوب منطقة برقة الحالية ثم الجرمانت في منطقة فزان وإلى جانبهم اللوتوفاجي و الترُجلُدايت .

وقد زودنا هيرودوت بمعلومات قليلة عن الجرمانت والترُجلُدايت، فذكر أن الجَرمانت يطاردون الترُجلُدايت علي ظهر عرباتهم التي تجرها الخيول. وأن الترُجلُدايت أسرع البشر عدواً، وأنهم يأكلون لحوم الثعابين والزواحف، وأصوات لغاتهم تختلف عن أصوات لغات البشر فهي مثل أصوات الوطاويط. وبالطبع هذا ما سمعه المؤرخ المشهور عندما زار منطقة برقة عن سكان الداخل.[1]

وأضاف هيرودوت أنه توجد ببلاد الجرمانت الثيران التي ترعى وهي تتحرك إلى الخلف. ويلاحظ أن قبائل المنطقة الواقعة بين جنوب ليبيا وتشاد حتى النيل شرقاً منذ العصور القديمة كانت ترعى البقر أي قبائل "بقّارة" إلى جانب الخيل والماشية. فالجمل لم ينتشر في الصحراء الكبرى إلا في العصر الروماني حيث أصبحت بعض القبائل "أبّالة" وحافظت القبائل الأخري على أنشطتها القديمة فظلت "بقارة". وحتى القبائل التي استقرت على النيل في شمال السودان كانت أيضاً بقارة.

وقد زودتنا المصادر إلى جانب الآثار التي تركها الجرمانت بنشاطهم التجاري الواسع من مملكتهم جرمة في فزان في داخل الصحراء الكبرى وشمالاً نحو سواحل البحر المتوسط وجنوباً نحو مناطق السافنا. ويقول ماكمايكل إن المعلومات التي ذكرتها المصادر الكلاسيكية وضحت أن الجرمانت كانوا يصلون في تجوالهم في الصحراء الكبرى حتى منطقة الخرطوم الحالية والمناطق الواقعة شمالها.[2]

---

[1] Herodotus, *the History of Herodotus* p 156.
[2] Mac Michael, *A history of the Arabs in the Sudan* Vol. 1, p 33

وقد اعتبر Keane التبو الحاليين في شمإلى تشاد سلالة مباشرة من الجرمانت. كما يُعتبر القرعان فرعاً من التبو ويتحدثون لهجة التبو التي أطلق عليها (تبو/قرعان)[1]. وقد أدت صلة التبو بالجرمانت وصلة القرعان بالتبو إلى إرجاع أصل القرعان للجرمانت.[2]

وقد أشار الحسن الوزان (ليو الافريقي) في القرن السادس عشر الميلادي إلى صحراء بيوضة باعتبارها صحراء القرعان ، فقال عن مملكة النوبة: "تمتد مملكة النوبة على طول النيل متاخمة قفر القرعان جنوباً وأراضي مصر شمالاً."[3]

يوضح هذا أن القرعان حتى مطلع القرن السادس عشر كانوا يقطنون صحراء بيوضة التي كانت أمطارها - حتى ذلك الوقت – توفر وسائل الحياة. وأذكر أنه حتى عقود قليلة مضت كنا نلاحظ اخضرار أودية صحراء بيوضة في طريقنا بالعربات من أمدرمان إلى مناطق الشمال. ويؤكد ذلك ارتباط قبيلة القرعان منذ قرون عديدة قبل دخول الإسلام بالنيل من ناحية وبالصحراء الغربية من ناحية أخرى.

ولا يصدق ذلك على القرعان فقط بل على كل القبائل التي عاشت بين حدود ليبيا و تشاد و السودان. ولذلك ينبغي التركيز على دراسة قبائل هذه المناطق لأنها تساعد على التعرف على سكان المنطقة في العصور اللاحقة. أما عن صلة القرعان بقبيلة القرعان العربية في الأردن و شمال شبه الجزيرة العربية ، وعلاقة القرعان بالزغاوة وعلاقة الزغاوة بالتبو وغيرها من قبائل المنطقة فسوف نتناوله بالتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

[1] A. H. Keane, *Man past and present* Cambridge 1899. Cited by Mac Michael, *A history of the Arabs in the Sudan* Vol. 1, p 31.

[2] Mac Michael, *A history of the Arabs in the Sudan* Vol. 1, p ٥٤.

[3] وصف افريقيا للحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر ط ٢ دار الغرب الاسلامي ١٩٨٣ (كتب مذكراته في روما ١٥٢٦)

وقد تردد اسم الجرمانت فقط في المصادر الكلاسيكية حتى بداية العصر المسيحي. فقد أورد بلايني الذي جمع أخباره من القادة العسكريين الرومان الذين خدموا في المنطقة بعض التفاصيل عن السكان[1] فذكر:

- الأوجيلي Aujilae : وحدّد مواطنهم بين خليج سرت والأثيوبيين، وعلق بيتس أن بلايني ربما أراد المنطقة الواقعة بين خليج سرت و جبل العوينات . فالأثيوبيين هنا تشير إلى أن سكان هذه المناطق ينتمون إلى نفس سلالة المرويين المعروفين في تلك المصادر بالاثيوبيين.
- الجرمانت: وضعهم على خريطته إلى الجنوب الغربي من الأوجيلي وذكر أن عاصمتهم جَرَما
- الفزّانيين Phazanii في إقليم فزاني ووضعه إلى الشمال من الجرمانت، وذكر من مدنهم Alele و Gellaba و غدامس ، وموقع المدينة الأخيرة جنوب غربي مدينة طرابلس الحالية على الحدود الجنوبية بين ليبيا و تونس و الجزائر، وقد استمر نشاطها كمركز تجاري حتى العصر الحديث. ويلاحظ ذكر الفزانيين كمجموعة منفصلة إلى جانب الجرمانت مما يشير إلى تميزهم كمجموعة قبلية، لأن الفزانيين اعتبروا في العصور اللاحقة ممثلين أو ورثة الجرمانت
- الليبيون/المصريون وهو الاسم الذي أطلقته المصادر في ذلك الوقت على سكان الصحراء الغربية للنيل (مناطق الواحات المصرية) وهم المجموعة التي أطلق عليها هيرودوت اسم الأمونيين.
- الأثيوبيون البيض (كما أطلق عليهم) وضعهم إلى الجنوب من الليبيين/المصريين، ويقول بيتس أنه أراد بهم ليبيو النيل النوبي.

ويتضح من ذلك أن سكان المنطقة الواقعة بين جنوب ليبيا غرباً و الواحات المصرية وشمال السودان شرقاً كانوا يتكونون من الجرمانت والفزانيين والأوجيلي والليبيون/المصريون والاثيوبيين البيض. ولم يوضح بلينى امتداد هولاء السكان جنوباً، كما لم يذكر التُرجلُدايت الاثيوبيين الذين وضعهم هيرودوت بجانب الجرمانت.

[1] Cited by Oric Bates, *The Eastern Libyans* p 57 – 59.

ويمكن أن نتصور امتداد الترجلودايت جنوباً نحو بحيرة تشاد، وامتداد الجرمانت – كما جاء في المصادر الكلاسيكية – شرقا حتى منطقة النيل شمالي السودان.[1]

ويبقى التساؤل هل انحصرت مواقع الاثيوبيين البيض على النيل فقط أم كانوا يسكنون الصحراء الغربية في منطقة شمال دارفور وكردفان الحالية؟ ربما ساعد سترابو الذي زار منطقة اسوان عام ٢٤ق.م. على تسليط بعض الضوء على امتداد انتشار تلك القبائل حيث ذكر: "في أعالي مروي توجد الجزيرة Psebo الكبيرة والمأهولة بالسكان، ولما كان الليبيون يعيشون على شطها الغربي والمرويون على شطها الشرقي فهم دائمي النزاع على ملكيتها وملكية شواطئ النيل."[2]

ويبدو معقولاً أن تكون الجزيرة الكبيرة والمأهولة بالسكان التي تقع في أعالي (جنوب) مروي قصد بها مناطق شرقي النيل وربما بالتحديد منطقة الجزيرة الحالية. وبالتالي فإن القبائل الصحراوية كانت تقطن المنطقة الواقعة غربي النيل، وكانت أحياناً تنازع المرويين في مناطق الجزيرة شرقي النيل الأبيض. وربما أيد ذلك ما ذهب عليه بعض المؤرخين أن القبائل النوباوية التي بدأت غاراتها على مملكة مروي منذ ذلك الوقت قد أتت من منطقتي كردفان و دارفور.

وفي القرن الثاني الميلادي وضع بطلميوس[3] الليبيون/المصريون في نفس موضعهم عند بليني ولم يورد معلومات عن باقي سكان الصحراء.(أنظر بيتس ويبدو أن الأوضاع قد بدأت في التغير في الصحراء الكبرى منذ القرن الثاني الميلاي الذي شهد دخول الجمل في الصحراء. وأدى ذلك إلى تحولات وتحركات كبرى في الصحراء أدت إلى إعادة توزيع القبائل في المنطقة. وقد حاول أوريك بيتس من خلال المصادر المتوفره له

---

[1] Mac Michael, *A history of the Arabs in the Sudan* Vol. 1, p 33.
[2] Cited by Oric Bates, *The Eastern Libyans* p 49.

[3] أشار صلاح الدين عثمان هاشم في ترجمته للكتاب القيم آسيا الوسطى إلى الخطأ الشائع في نطق هذا الاسم "بطليموس" إذ الصحيح بطلميوس لأن أصل الاسم Ptolemy باللام قبل الميم. وبهذه المناسبة فإن الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم يحتاج منا إلى وأعماله

قبيل الفتح العربي لمصر - أي في العصر البيزنطي - رسم خريطة للقبائل ما بين مصر وليبيا الحالية فوضع الليبيون/المصريون في نفس موضعهم في الواحات المصرية .[1]

ولكن ظهرت قبيلة أو جماعات جديدة تحت اسم الأمازيغ Mazices في المنطقة الواقعة بين جنوب برقة إلى الواحات المصرية حلت محل الليبيين/المصريين. ووضع بيتس قبيلة Leuathae - لواتة في المصادر العربية اللاحقة - على خليج سرت، والجرمانت في نفس موضعهم.[2]

وهكذا يمكن تصور خريطة السكان الذين استقروا وتجولوا في منطقة الصحراء الغربية ما بين الواحات المصرية وجنوب ليبيا شمالاً حتى كردفان و بحيرة تشاد جنوباً من خلال المصادر الكلاسيكية في آخر العصر الروماني أو قبيل الفتح العربي لمصر كالآتي: الجرمانت والفزانيين والأمازيغ والليبيين/المصريين والترُجلُدايت الاثيوبيين.

وينبغي علينا التوقف قليلاً مع مجموعتي الليبيين/المصريين والأمازيغ لألقاء القليل من الضوء عنهما سعياً وراء محاولة التعرف على الوضع السكاني في ذلك الوقت.

القبائل الليبية/ المصرية والأمازيغ:

أطلقت المصادر القديمة على سكان الواحات المصرية والمناطق الواقعة جنوبيها إسم التمحو، وورد اسمهم في الآثار المصرية مقترناً بقبائل اليام والإرتت وجعل بعض الباحثين امتداد مناطق استقرارهم إلى ما بين الشلالين الأول والثاني.[3] وقد رأينا فيما سبق أن بعض الباحثين جعل مناطق انتشار التمحو جنوباً حتى غربي النيل الأبيض ودارفور.

كما ارتبط التمحو بمؤسسي ثقافة المجموعة الثالثة C group وربما لازالت بقاياهم متواجدة في مناطق الجنوب ممثلة في التبو والتاما. غير أن اسم التمحو اختفى في

[1] Oric Bates, *The Eastern Libyans* p 61 – 67.
[2] Ibid. p 76.
[3] Mac Michael, *A history of the Arabs in the Sudan* Vol. 1, p 16.

المصادر الكلاسيكية وحل محله منذ القرن الثالث قبل الميلاد أسماء قبائل أخرى مثل النوبا والنوباد والليبين/المصريين.

وقد رأينا في الفصل الرابع كيف أن المصادر الكلاسيكية منذ القرن الثالث قبل الميلاد قد أطلقت اسم النوبا على القبائل المنتشرة في الصحراء بين الواحات شمالاً ودرافور جنوبا وأنهم كانوا خارجين عن طاعة مروي منذ ذلك الوقت، وفي القرن الثاني الميلادي قبائل النوبا كانت في صراع مع مملكة مروي حول مناطق غربي النيل الأبيض .

وذكر المؤرخ بروكوبيوس الذي كتب في القرن السادس الميلادي أن الامبراطور دقلديانوس Diocletian استقدم جزءاً من أولئك النوبا من موطنهم في الواحات - أو من شمال كردفان و دارفور على رأي آخر - في نهاية القرن الثالث الميلادي كي تستقر جنوبي أسوان وهم المجموعة التي عرفت بالنوبادي Nobatae والتي أسست مملكة نوباديا المسيحية في منتصف القرن السادس الميلادي.

وإلى جانب النوبا والنوباديين ظهر في المصادر الكلاسيكية في آخر العصر الروماني اسمي الليبيين/المصريين والأمازيغ. ومن الواضح أن الليبيين/المصريين عند بلايني في القرن الأول الميلادي و بطلميوس في القرن الثاني الميلادي يسكنون مناطق الواحات وهي المنطقة التي ذكر المؤرخ بروكوبيس أن النوباديين أتوا منها في نهاية القرن الثالث الميلادي. وبناءً على ذلك فإن النوباديين هم الليبيون/المصريون أو فرع منهم. ويقول ماكمايكل إن قبائل النوبادي تمكنت في العصر الروماني من تكوين حلف قوي من قبائل الصحراء في العصر الروماني.[1]

والاسم الجديد الذي ظهرمنذ نهاية القرن الرابع الميلادي في المنطقة الواقعة ما بين جنوب خليج سرت في ليبيا وحتى الواحات غرباً هو الأمازيغ. ويبدو من مجال انتشارهم الواسع وتحركاتهم أنهم كانوا يستخدمون الجمال. فقد أغاروا في نهاية القرن الرابع على مدن ساحل خليج سرت ، وفي مطلع القرن الخامس الميلادي وصل امتدادهم حتى المنطقة الواقعة بين الواحات و النيل ،[2] وكانوا على طريق انسحاب البليميين بعد

[1] Ibid. Vol. 1 p 25.
[2] Oric Bates, *The Eastern Libyans* p ;٢٢٧

غارتهم على الواحة الخارجة وأسرهم للراهب نسطورس، فقد أطلق البليميون سراحه بعد تدخل الأمازيغ.[1]

وفي عام ٤٣٦ م أغار الأمازيغ على الواحة الخارجة. وذكر بيتس نقلاً عن المصادر القبطية أن البليميين والأمازيغ أغاروا بين عامي ٥١٨ و ٥٢٧ م على الواحة الخارجة .[2] ويدل كل ذلك أن قبيلة الأمازيغ أو تجمع قبائل الأمازيغ كان قوياً ومنتشراً على طول المنطقة الواقعة ما بين جنوب ليبيا و شمال السودان ، وأنهم كانوا على علاقات طيبة مع البليميين.

وبناءً علي ذلك فإن سكان الصحراء الغربية حتى القرن السابع الميلادي الذي شهد نهاية الحكم البيزنطي في شمال إفريقيا وبداية دخول العرب وانتشار الإسلام هم: ١. الأمازيغ ٢. النوبا ٣. الجرمانت ٤. الفزانيين. انتشر الفزانيون و الجرمانت في الجزء الغربي من الصحراء وهو الجزء الواقع من فزان الحالية نحو الجنوب وشاركهم الأمازيغ في تلك المنطقة، كما انتشر الأمازيغ مع النوبا في الجزء الشرقي من الصحرء القريب من نهر النيل.

[1] مصطفى محمد مسعد، الاسلام والموبة ص٣٥.

[2] Oric Bates, *The Eastern Libyans* p 238.

السكان قبل دخول العرب شمال إفريقيا

المصادر التي ينبغي التعويل عليها بعد القرن السابع الميلادي عن سكان هذه المنطقة هي المصادر الأثرية والكتابات العربية المبكرة إلى جانب التراث الشفاهي. فالرحالة الأوربيون بدأوا ارتياد هذه المناطق في أوقات لاحقة ترجع كلها إلى ما بعد القرن الخامس عشر الميلادي أي بعد نحو ثمانية قرون من الفترة التي نحاول التعرف على سكانها. ومن المعروف أن أعمال التنقيب الآثارية فقيرة جداً في هذه المناطق وإلى أن يتم تنشيط هذا المصدر الهام فأمامنا المصادر العربية المبكرة والروايات الشفاهية فقط.

ورغم أن الكتابات العربية تمثل المصدر الأساس عن سكان المنطقة الواقعة بين فزان و شمال السودان في العصور المبكرة لدخول العرب شمال إفريقيا إلا أن هنالك بعض الصعوبات التي تواجه البحث، فالمادة الواردة في تلك المصادر المبكرة قليلة جداً ومختصرة لدرجة لا تساعد على رسم صورة واضحة لسكان المنطقة.

ومن جانب آخر فإن الأسماء القديمة للقبائل التي ظهرت في المصادر اليونانية والرومانية والتي كتب بعضها قبل قرن واحد من دخول العرب شمال إفريقيا قد اختفت – ما عدا القليل منها – في المصادر العربية وظهرت أسماء جديدة لم ترد المصادر القديمة، ولذلك فليس من السهل الربط بين أسماء القبائل التي وردت في المصادر العربية وبين أسماء القبائل القديمة.

هذا إلى جانب أن ما ذكر في المصادر العربية المبكرة عن تلك القبائل يعود أغلبه إلى ما بعد القرن الرابع الهجري (١٠ م) أي بعد نحو ثلاثة قرون من دخول العرب في شمال إفريقيا. ولذلك قد لا تعكس تلك الكتابات المبكرة الوضع الذي كان عليه السكان في القرن الأول والثاني الهجريين - السابع و الثامن الميلاديين - لاحتمال حدوث بعض التحركات إبان حروب المسلمين واستقرارهم في المنطقة. ولذلك سنحاول بقدر الإمكان البحث عن النصوص التي توضح أوضاع سكان المنطقة في المراحل المبكرة من دخول العرب.

وقد يساعدنا على ذلك أن أوضاع المسلمين كانت أكثر استقراراً في هذه المنطقة منذ عصر عمرو بن العاص بالمقارنة إلى باقي أنحاء المغرب الأخرى غربي طرابلس حيث

كانت الحروب دائره فيه حتى الربع الثالث من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي). والمعلومات المبكرة في المصادر العربية جاءت عن المقرة في شمال السودان و زويلة في جنوبي ليبيا وعن منطقة كَوار شمال تشاد وعن فزان و جَرَمة.

وسنحاول تتبع ما ورد في المصادر العربية عن سكان هذه المناطق. وقد ذكر مارتن[1] أن بعض السلالات الخليطة مثل التبو والزغاوة والكانوري كانت موجودة كمجموعات سياسية متماسكة في مستهل القرن الثامن الميلادي. ويقودنا هذا إلى البحث أيضاً عن معلومات مبكرة عن هذه المجموعات في المصدادر العربية باعتبار أنها كانت موجودة بأسمائها في ذلك الوقت.

ولعل أول المعلومات عن المنطقة أتت في أخبار الفتوح، فعن مملكة المقرة في شمالي السودان تناولت كتب الفتوح الحروب المبكرة التي استمرت نحو عشر سنوات في المنطقة المجاورة لأسوان والتي انتهت بتوقيع صلح بين الطرفين عام ٣١هـ وهو ما عرف عند المؤرخين في أوقات لاحقة بمعاهدة البقط.

أنهى ذلك الصلح الحرب بين الطرفين، وظلت العلاقة تتردد ما بين الحرب والسلام في القرون اللاحقة، لكنّ ما ورد في المصادر العربية عن تلك العلاقات لم يتطرق لسكان المناطق الغربية لمملكة المقرة. وبالتالى فالمعلومات عن تلك الصحارى غربي النيل تكاد تكون معدومة إلا القليل من المعلومات التي جاءت في المصادر الجغرافية.

وجاءت معلومات مبكرة عن زويلة و كوار و فزان و جرمة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي. فبعد فتح مصر كانت خطة المسلمين التوسع غرباً ليس على الساحل فقط كما فعل الرومان من قبل بل والتوسع في الداخل أيضا نحو المناطق الصحراوية. ولذلك عندما فتح عمرو بن العاص برقة توغل القائد عقبة بن نافع جنوبي ليبيا حتي بلغ مدينة زويلة شرقي جرمة عاصمة الجرمانت، وأخضع تلك المنطق الداخلية، فأصبح ما بين زويلة و برقة تابعا لحدود المسلمين في مصر وأصبحت زويلة مقر الولاة قبل أن تؤسس القيروان بعد نحو عقدين من الزمان، ثم صارت زويلة قاعدة لبلاد فزان.[2]

[1] B. G. Martin, " Kanemm Bornu and Fezzan, notes on the political History of a Trade Route" *Journalof African History* Vol. X, No. 1, 1969, p10.

[2] أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر مصر ١٣٢٥ ج١ ص١٨٧.

وقد شغلت الحروب الداخلية والمشاكل التي تعرضت لها الدولة الإسلامية في آخر عصر الراشدين المسلمين عن الاهتمام بالمنطقة، حتى عاد عقبة مرة أخرى إليها عام ٤٦ هـ/ ٦٦٦ م - كما ذكر ابن عبدالحكم[١] المتوفى عام ٢٥٧ هـ - فأعاد إخضاع فزان ثم دخل جرمة وتخطاها جنوباً في الصحراء مسيرة خمس عشرة ليلة حتى بلغ إقليم كوار واستولى على عاصمته خاوَر وبعض المراكز الأخرى في الإقليم. ويقول ياقت أن عقبة افتتح اقليم كوار عن آخره.[٢]

ورغم أن مدينة زويلة لم يرد ذكرها في المصادر السابقة للإسلام إلا أنها كانت مدينة مشهورة عندما دخل المسلمون شمال إفريقيا. ويرى الباحثون أن زويلة قد تأسست كمركز تجاري في مملكة الجرمانت منذ القرن الرابع الميلادي. وقد بدأت بعد دخول الإسلام تحل محل العاصمة القديمة جرمة حيث أصبحت - كما ذكرت المصادر - أول مركزاً ادارياً وتجارياً في الصحراء.[٣]

سكان منطقة كَوار:

وإلى جانب زويلة و جرمة جاء ذكر إقليم كَوار أو كاوَر وعاصمته خاور. وقد حدد ياقوت الحموي موقع كوار بأنها من بلاد السودان جنوبي فزان واقليم الواحات.[٤] ويبدو مما ذكره الادريسي و ابن سعيد [٥] أن إقليم كوار يمتد جنوباً حتي مناطق الكانم شمالي بحيرة تشاد، و يطلق الآن اسم كوار على واحة بلما شرقي تشاد.

ولم تورد المصادر المبكرة ألى أي مدى امتدت حدود إقليم كوار غير أنها ذكرت أن عقبة افتتح إقليم كوار عن آخره. والمصادر التي كتبت بعد ابن عبد الحكم ذكرت أن عاصمة مملكة كوار هي مدينة كوار التي وردت عند ابن الحكم خاور ،

---

[١] ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب تحقيق عبد المنعم عامر طبعة لجنة البيان ١٩٦١ ص ٢٦٣- ٢٦٤.

[٢] ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٤ ص ١. موقع الوراق.

[٣] محمد سليمان أيوب، "جرمة في عصر ازدهارها" بحث قدم للمؤتمر التاريخي بجامعة ليبيا نشر في كتاب: ليبيا في التاريخ، طرابلس: ١٩٦٨ ص ١٨٥.

[٤] ياقوت، معجم البلدان ج ١ ص ٣٤ وج ٤ ص ١.

[٥] الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج ١ ص ٣٤ موقع الوراق و ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ج ١ ص ١٠ موقع الوراق.

وهو قريب جداً من نطق كاور. وقد اشتهرت كثير من ممالك الصحراء وجنوبيها بأسماء عواصمها مثل مملكة جرمة وعاصمتها جرمة و مملكة غانة وعاصمتها غانة . والإشارة إلى العاصمة كاو أو خاور التي دخلها عقبة بن نافع توضح وجود مملكة أخرى إلى جانب مملكة جرمة قبل دخول العرب.

فالمنطقة الوقعة بين فزان شمالاً وبحيرة تشاد جنوباً كانت تعيش تحت نظامين سياسيين – مملكة جرمة ومملكة كوار - ساهما في النشاط التجاري عبر الصحراء قبل دخول العرب إلى تلك المناطق. فكان لمملكتي جرمة وكوار نشاط تجاري كبير، ويرجح محمد سليمان أيوب أن الطريق الذي سلكه عقبة إلى منطقة كوار هو نفس طريق قوافل الجرمانتيين الذي سلكته الحملة الرومانية عبر الصحراء في القرن الأول الميلادي.[1] وقد عرفت هذه المنطقه في العصور الإسلامية بأرض كوار .

ورغم أن بعض الجغرافيين المشهورين زار مصر وشمال إفريقيا مثل اليعقوبي في آخر القرن الثالث الهجري (٩ م) و المسعودي و ابن حوقل في منتصف القرن الرابع الهجري (١٠ م) إلى جانب البكري الجغرافي الأندلسي الذي ألف كتابه نحو منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) والذي استفاد من صلاته بتجار غرب افرقيا ، إلا أن معلوماتهم عن المنطقة الواقعة بين جنوب فزان و كوار و بحيرة تشاد وامتدادها شرقا حتى نهر النيل جاءت مقتضبة ولاتساعد كثيراً على التعرف على سكانها.

والمعلومات الأكثر تفصيلاً ودقة جاءت في القرن السادس الهجري (١٢ م). عن طريق الجغرافى المشهور الإدريسي المتوفى عام ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م). ألف الادريسي كتابه نزهة المشتاق في صقلية تحت ضيافة ملكها روجرز بعد نهاية حكم المسلمين للجزيرة. ورغم أن الإدريسي لم يزر غرب إفريقيا إلا أنه جمع معلوماته من التجار الذين تجولوا في المنطقة[2]. والمؤلف الآخر هو الجغرافي والمؤرخ الأندلسي المشور ابن سعيد المتوفى في الربع الأخير من القرن السابع الهجري (١٣ م).

---

[1] محمد سليمان أيوب، ليبيا في التاريخ بنغازي: كلية الآداب ، جامعة ليبيا ١٩٦٨، ص ١٨٤.

[2] ألف الادريسي كتابا آخر في غاية الأهمية وهو "أنس المهج وروض الفرج" ألفه بطلب من الملك روجرز الذي كان يتحدث العربية. وهو عبارة عن مختصر للمسالك والممالك مع خرائط توضيحية لكل أجزاء الأقاليم. وقد

ورغم أن ابن سعيد عاش في القرن السابع ولم يزر منطقة غرب إفريقيا إلا أنه اعتمد في معلوماته على جغرافي سابق لوقته يسمى ابن فاطمة ، ويرجح الباحثون أن ابن فاطمة كتب في القرن السادس الهجري (١٢ م)، ومعلوماته تمثل أغزر وأصدق ما وصل إلينا عن المنطقة موضوع الدراسة.

فقد تجول ابن فاطمة في غرب إفريقيا ويبدو أنه وصل حتى بحيرة تشاد لأنه ذكر أثناء وصفه لها "ولم أر من رأى جانبها [يقصد جانبها الجنوبي] وإنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناه بالجانب الشمالي"[1] ولذلك يمثل القرن السادس الفترة التي زودتنا بها الجغرافيا العربية بمعلومات أكثر تفصيلاً عن تلك المنطقة.

هل يمكن استخدام المعومات التي ذكرت في القرن السادس الميلادي لتعطينا تصوراً عن سكان المنطقة إبان دخول الإسلام؟ أعتقد أنه من الممكن استخدام تلك المعلومات. أولاً: لأننا لا نملك غيرها، وثانياً: لأنه - فيما يبدو من تتبع تلك المادة- لم تحدث تحركات سكانية كبيرة في هذه المنطقة حتى ذلك الوقت، ولأن التحركات السكانية في المنطقة حدثت بصورة أساسية بعد دخول القبائل العربية. ويمكن تتبع دخول وتحركات القبائل في شمال إفريقيا من خلال اربع مراحل.

المرحلة الأولى مرحلة الفتوحات في القرن السابع الميلادي، ولم تشهد هذه المنطقة ضغوط قبائل عربية في تلك الفترة كما حدث في مناطق تونس و الجزائر و المغرب . فهذه المناطق الأخيرة شهدت حروباً متكررة بين المسلمين وقبائل البربر وما تلاها من هجرات عربية إلى الأندلس منذ نهاية القرن الأول الهجري. أما منطقة فزان و زيلة فقد حدث فيها استقرار مبكر للمسلين كتجار، وقد ذكرت مصادر القرن الثالث الهجري نشاط كل من زويلة و كوار التجاري واستقرار التجار من خرسان و البصرة والكوفة في المنطقة.[2]

=رسم الادريسي أيضا كرة أرضية كان لها كبير الأثر في الكشوفات الجغرافية التى قام بها الأوربيون فيما وراء البحار.

[1] ابن سعيد كتاب الجغرافيا ج ١ ص ١٠.

[2] اليعقوبي، كتاب البلدان ج ١ ص ٤٤.

والتحرك الثاني للقبائل العربية حدث في مصر عهد الخليفة العباسي المعتصم عندما أوقف دفع العطاء في القرن الثالث الهجري، فقد اضطرت الكثير من القبائل العربية للنزوح إلى الأرياف، وقد تأثرت مصر وشرقي ليبيا فقط بذلك. ولم يرد في المصادر تحرك قبائل عربية إلى مناطق الصحراء غربي النيل .

والتحرك الثالث والكبير هو ما عرف بهجرة القبائل العربية إلى الغرب (بنو هلال و بنو سليم) في القرن الخامس الهجري (١١م) في العصر الفاطمي، وقد تأثرت كل المنطقة الواقعة غربي مصر بتلك التحركات.

ورغم التزحزح السكاني الذي نتج عن كل تلك الهجرات سواء تحركات القبائل المحلية جنوباً أو دخول بعض القبائل العربية مناطق الصحراء إلاّ أنه من خلال وصف المصادر العربية المبكرة للسكان في منطقتي فزان و كوار فيبدو أن هذه المناطق – كما سيتضح لنا – لم تتأثر بتلك التحركات.

والتحرك الرابع للقبائل العربية حدث بعد قيام دولة المماليك في مصر في منتصف القرن السابع الهجري (١٣م) وما أعقب ذلك من تحرك القبائل العربية من مصر غرباً وجنوباً. وقد تأثرت سكان المناطق الواقعة إلى الغرب من النيل بتلك التحركات، لكنها تأتي بعد الفترة التي نحن بصدد الاستشهاد بها وهي ما قبل القرن السادس الهجري (١٢م).

ولذلك فاعتقد أن المعلومات التي وصلتنا عن طريق مؤلفي القرن السادس الهجري يمكن أن تساعدنا على التعرف على سكان المناطق الواقعة غربي النيل في القرون السابقة، لأن هذه المنطقة لم تشهد تحركات سكانية كبيرة حتى القرن السادس الهجري.

وسوف يقتصر حديثنا عن السكان هنا على سرد وصفي محاولين ربط ما وجد من أجزاء المادة التي وردت عند الادريسي و ابن سعيد فيما يتعلق بتصنيف السكان لمحاولة التعرف على الخريطة السكانية للمنطقة في تلك الفترة. ويلاحظ أن سكان المنطقتين الواقعتين على طريق الصحراء الكبرى الشمالي والجنوبي كانو مستقرين في مراكز العمران كما في زويلة و جرمة و مدينة كوار في الشمال وفي جيمي و منان وجاجة من مدن الكانم في الجنوب.

أما في داخل الصحراء فالسكان بصورة عامة بدو متجولون، إلى جانب بعض مناطق الاستقرار على الواحات وبعض المدن التي قامت على الأودية كالوادي الذي يشق بلاد كوار. وقد وصف الإدريسي[1] المدن الخمس التي تقع عليه وسكان تلك المدن بادئاً من الشمال إلى الجنوب فقال:

"بلاد كوار يحويها وادٍ يأتي من جهة الجنوب ماراً إلى الشمال لا ماء به، إلا أن الماء إذا حفر عليه وجد به معيناً بهيراً. وعلى هذا الوادي من البلاد مدينة صغيرة تسمى مدينة القصبة وهي مدينة حسنة البناء ويحيط بها من جميع جوانبها نخل وأنواع من الشجر البري وأهلها متحضرون يلبسون الفوط والأزر والقناديز المتخذة من الصوف وأهلها مياسير وتجوالهم وسفرهم إلى سائر البلاد."

"ومن هذه المدينة إلى مدينة أخرى تليها في جهة الجنوب يومان واسمها قصر أم عيسى وليست بالمدينة الكبيرة لكن أهلها مياسير ولهم إبل يسافرون بها شرقاً وغرباً وأكبر بضاعتهم الشب وهو رأس أموالهم. ومنها إلى مدينة انكلاس أربعون ميلاً في بطن الوادي وهي مدينة من أكبر بلاد كوار قطراً وأكثرها تجارةً وعندهم معادن الشب الخالص المتناهي في الطيب ويوجد في أجبلها كثيراً لكنه يتفاضل في الجودة والطيب. وأهل هذه المدينة يتجولون حتى ينتهوا في جهة المشرق بلاد مصر ويتصرفون في جهة المغرب فيصلون بلاد وارقلان وسائر أرض المغرب الأقصى. وأهلها يلبسون المقندرات من الصوف ويربطون على رؤوسهم كرازي الصوف ويتلثمون بفواضلها ويسترون أفواههم وهي عادة من عوائدهم توارثها الأبناء عن الأباء لم ينتقلوا عنها ولا تحولوا منها."

"ومن مدينة انكلاس إلى مدينة صغيرة تسمى ابزر مسافة يومين و ابزر هذه على تل تراب وحولها نخيل ومياهها عذبة وبالقرب من هذه المدينة معدن شب فائق الجودة لكنه يتجرف كثير الرخاوة ولباس أهل هذه المدينة الفوط ومآزر الصوف وهم يتجرون بالشب. ومن ابزر إلى مدينة تلملة يوم وهي أيضاً مدينة صغيرة ومياهها قليلة ونخلها أيضاً قليل وتمرها طيب جليل وبها معدن شب قليل الفائدة لأن معدنه يخالطه عروق

---

[1] الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج ١ ص ٣٥.

تراب كثيرة وإنما يخلط بغيره ويباع من التجار." وفي مكانٍ آخر قال الإدريسي إن مدينة تلملة " جامعة فيها بشر كثير ولا سور لها ... يسافرون إلى جميع الجهات"[1]

ذكر الادريسي بلاد كوار من ضمن بلاد السودن، أي بلاد السكان سود البشرة. يقول ابن سعيد عن سكان مدينة قصر أم عيسى "قد تخلقوا بأخلاق البيض في لبس الصوف والقطن والبرد."[2] وأورد ياقوت دون الإشارة لمصدره أن "كاوَار: ناحية واسعة في جنوبي فَزَّان خلف الواح بها مدن كثيرة منها قصر أم عيسى ، و أبو البلماء ، و البلاس ، وأكبر مدنه أبو البلماء ، وألوان أهلها صفر يلبسون ثياب الصوف، وفي بلادهم أسواق، ومياه جارية، ونخل كثير، ولهم سلطان في طاعة ملك الزغاوة."[3]

فمدينة البلاس عند ياقوت ربما كانت هي أنكلاس ، أما أبو البلما فهي إما مدينة أخرى أو اسم آخر لأحدى مدن الادريسي. وما قد وصف ابن سعيد ألوان سكان كوار بأنها "صفر"، وهذه إشارة واضحة بأن السكان الذين تحدثت عنهم المصادر العربية تحت اسم السودان - أي السود – يوجد منهم ذوي اللون الأسمر أو الأصفر كما عبر ابن سعيد .

فإشارة ابن سعيد هنا غير مقصود بها البربر بل قصد بها السكان "السودان" ذوي الألوان الصفر. لأنه ورد صراحة في المصادر أن أهل كوار "سودان". قال ابن سعيد عنهم على سبيل المثال: "وهم سودان ... وكثيراً ما تقع الفتن بين سكان كوار وبرابر الصحراء"[4]

الزغاوة:

وإلى الجنوب والشرق من كوار تقع مجالات الكانم، فديارهم تمتد من بحيرة تشاد جنوباً متوغلة في الصحراء، وقد تراوحت حدود كانم الشمالية على حسب قوتها

---

[1] نفس المصدر ج ١ ص ٥.

[2] ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ج ١ ص ٢١.

[3] ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٣ ص ٤٦٢.

[4] ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ج ١ ص ٢١.

وقوة الدول التي قامت في شمال إفريقيا. لكن حدودها كانت بصورة شبه دائمة في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها ممتدةً حتى النهايات الشمالية للصحراء الكبرى.

وقد ذكر ابن سعيد عند الحديث عن غدامس – على الحدود الليبية التونسية الجزائرية- وودان إلى الشرق من غدامس وبلاد فزان أن "الجميع الآن في طاعة ملك الكانم"[1] فسكان بلاد الكانم كانوا سودان وبربر. وقد وصفهم فيما بعد القلقشندي بأنهم "مسلمون الغالب على ألوانهم السواد ... وأتباعهم من البرابرة الذين أسلموا ... عسكرهم يتلثمون."[2]

وإلى الشرق من بلاد كانم وهي المنطقة الواقعة الآن على الحدود السودانية التشادية أي دارفور ومايجاورها مجالات الزغاوة والتاجويين. وصنفت المصادر الإسلامية المبكرة الزغاوة بأنهم من السودان مثل النوبة و البجة و الكانم أبناء كوش بن كنان بن حام بن نوح.[3]

وقد ورد عند كل من الإدريسي و ابن خلدون رواية يفهم منها أن مواطن الزغاوة كانت في أقصى الجزء الغربي من الصحراء الكبرى في أرض قمنورية على المحيط الأطلسى والتي كان يسكنها قوم يقول ذكر الإدريسي أن "التجار يدعون أنهم يهود وفي معتقدهم تشويش"[4] ويضيف الإدريسي على نفس الصفحة أنه:

"وكانت في القديم من الزمان السالف لأهل قمنورية مدينتان عامرتان ... لكن أهل زغاوة وأهل لمتونة الصحراء الساكنون من جهتي هذه الأرض طلبوا هذه الأرض أعني أرض قمنورية حتى أفنوا أكثر أهلها وقطعوا دابرهم وبددوا شملهم على البلاد ... فأفنتهم الأيام وتوالت عليهم الفتن والغارات من جميع الجهات فقلوا في تلك الأرض وفروا عنها واعتصموا في الجبال وتفرقوا في الصحارى ودخلوا في ذمة من جاورهم وتستروا في أكنافهم".

---

[1] ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ج ١ ص ٢٨.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى ج ١ص١٠ وج٢ ص ٢١٥ وج٣ ص٢٦٨ موقع الوراق.

[3] المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ١٦٨.

[4] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٢.

ويورد ابن خلدون أثناء حديثه عن بلاد السودان أن " أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعإلى أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان"[1] ويتضح من النصين أن مواطن الزغاوة كانت بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي ولكن يفهم من نص الادريسي أن ذلك كان كما عبر " في القديم من الزمان السالف"

وبالطبع فإنه يصعب تحديد ذلك الزمان السالف، ولكن ما نقلته المصادر العربية يوضح أن مواطن الزغاوة منذ بداية العصور الإسلامية كانت المنطقة الواقعة إلى الشرق من كانم. فابن خلدون نفسه ذكر أن "الزغاوة مجاورون للنوبة"[2] وأعتقد أنه لم يشعر بأي تضارب بين روايتيه لأن الرواية الأولى ترجع إلى عصور سالفة.

وذكر المسعودي أن "مملكة الزغاوة واسعة كبيرة، منها على النيل مما يحاذي النوبة، ويحاربون النوبة."[3] ونقل ياقوت الحموي عن المهلبي[4] (ت٣٨٠هـ) نصاً طويلا عن الزغاوة يعتبر من أقدم وأوفى ما كتب عنهم ورأيت أن اثبت النص بكامله. يقول ياقوت :

وقال المهلبي: ولزغاوة مدينتان: يقال لإحداهما مانان وللأخرى ترازكي وهما في الإقليم الأول وعرضهما إحدى وعشرون درجة. قال ومملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق منها مملكة النوبة الذين بأعلى صعيد مصر بينهم مسيرة عشرة أيام. وهم أمم كثيرة وطول بلادهم خمس عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة. وبيوتهم جصوص كلها وكذلك قصر ملكهم وهم يعظمونه ويعبدونه من دون الله تعالى ويتوهمون أنه لا يأكل الطعام، ولطعامه قَوَمَة عليه سراً يدخلونه إلى بيوته لا يعلم من أين يجيئونه به فإن اتفق لاحد من الرعية أن يلقى الابل التي عليها زاوُر قتل لوقته في موضعه. وهو يشرب الشراب بحضرة خاصة أصحابه، وشرابه يعمل من الذُرَة

---

[1] ابن خلدون، العبر ج ١ ص ٥٧.

[2] نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٩.

[3] المسعودي، أخبار الزمان ج ١ ص ٨٩

[4] الحسن بن أحمد المهلبي عاش بمصر حيث ألف كتابه "المسالك والممالك" وأهداه للخليفة الفاطمي المعز لدين الله، ولكن الكتاب الآن مفقود.

مقوى بالعسل. وزيه لبس سراويلات من صوف رقيق والتشلاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف الإسماط والخز السوسي والديباج الرفيع. ويده مطلقة في رعاياه ويسترق من شاء منهم. أمواله المواشي من الغنم والبقر والجمال والخيل وزروع بلدهم أكثرها الذُرَة واللوبياءُ ثم القمح. وأكثر رعاياه عراة مؤتزرون بالجلود ومعايشهم من الزروع واقتناء المواشي، وديانتهم عبادة ملوكهم يعتقدون أنهم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحون. وهي من مدائن البلماء وقصبة بلاد كاوار على سمت الشرق منحرفاً إلى الجنوب."[1]

و مدينة مانان وفقاً لرواية ياقوت عن المهلبي من مدن الزغاوة بينما هي عند كل من الادريسي[2] و ابن سعيد[3] من مدن الكانم، وتبدو روايتيهما أوثق من رواية المهلبى خاصة وأن ابن فاطمة الذي نقل عنه ابن سعيد معرفته بالمنطقة واسعة وكما سبق أن ذكرنا أنه ربما زار تلك المناطق.

ومن الممكن أيضاً تفسير ما قاله المهلبي من أن مدينة مانان من مدن الزغاوة باعتبار أن الزغاوة كانوا من بين مؤسسي مملكة كانم، وربما كانت الغلبة إلى جانبهم في المراحل المبكرة من تاريخ مملكة كانم فاعتبر المهلبي منان من مدنهم. أما مدينة ترازكي – بهذا الرسم - لم ترد في المصادر الجغرافية الأخرى.

فمملكة الزغاوة بناءً على وصف المهلبي في القرن الرابع الهجري (١٠ م) من ممالك السودان الواسعة المأهولة بالسكان إذ قدر مساحتها " خمس عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة" ويمارس سكانها حرفتي الزراعة والرعي. وذكر ابن سعيد أن الزغاوة والتاجويين "جنس واحد، ولكن الملك وحسن الصورة والأخلاق في التاجويين. وهم كفار عصاة على الكانمي يألفون الصحارى والجبال" وقد جعل ابن سعيد تاجوة وليست مدينة زغاوة عاصمة أو قاعدة للزغاوة ربما لأنه ذكر أن الملك كان بيد التاجويين، وأضاف أن مجالاتهم "[4] ممتدة في المسافة التي بين قوس النيل من الجنوب

[1] ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٦.

[2] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٦.

[3] ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ج ١ ص ١٠.

[4] نفس المصدر ج ١ ص ١١.

إلى الشمال" وامتداد قوس النيل يقصد به منطقة انحناءة النيل نحو الجنوب الغربي عند منطقة أبو حمد ثم التوجه نحو الشمال.

ولم تكن حدود قوس النيل واضحة لدى الجغرافيين المبكرين. فامتداد مملكة الزغاوة كان أكبر من المسافة الممتدة على قوس النيل، وقد يوضح هذا الوصف تحديد موقع مملكة الزغاوة بأنها شرقي النوبة – كما ذكر المهلبي - أكثر توضيح امتداد مساحتها. وذكر ابن سعيد أن مدينة تاجوة هي قاعدة الزغاوة، وقد حدد موقعها بخط طول ٥٥ وعرض ١٤ درجة.[1] وذكر بأن أهلها مسلمون في طاعة الكانمي، وأن جنوبيها مدينة زغاوة حيث الطول ٥٤ والعرض 1½ ١١درجة.[2]

وأضاف ابن سعيد – محدداً مصدر المعلومة بابن فاطمة – أن مواطن تاجوة كانت على النيل "وإنما هربوا بقواعدهم من النيل بسبب البعوض، فإنه يكثر من مجاورة النيل فيشتد أذاه على الآدميين والخيل. ولهم عيون في الرمال ومياه مشربة من النيل أيام الزيادة."[3]

ويفهم من هذا أن مواطن التاجويين كانت قريبة من النيل ربما على واد يصب في النيل، وتقع مدينتهم تاجوة إلى الشمال الشرقي من مدينة زغاوة. ووفقاً لهذا التحديد فإنها تقع غربي دنقلا وعلى نفس خط عرضها.

أما الادريسي فقد تناول الزغاوة باعتبارهم فرعين هما: الزغاوة والتاجويين وضع الزغاوة في المناطق الغربية من الصحراء الكبرى إلى الغرب من فزان، رغم إنه قال إن ذلك كان "في القديم من الزمان السالف." وذكر من مدن الزغاوة شامة وسغوة ونبرنتة.

وأشار إلى أن أكثر أهلها قد انتقلوا غرباً إلى مدينة كوكو، ربما بسبب الجفاف أو لحروبها مع النوبة التي سنتعرض اليها فيما يلي. و مدينة سغوة يسكنها فرع من

---

[1] استخدم الجغرافيون المسلمون خطوط الطول والعرض وهي تختلف قليلا من تحديد الخطوط الحالية، فخط الاستواء لايختلف كثيرا من موقعه الحالي ولكن خط الطول في الجغرافيا الاسلامية يبدأ من الجزائر الواقعة بالقرب من ساحل المغرب المطل على المحيط الأطلسي ومنها يتجه شرقاً.

[2] نفس المكان.

[3] ورد في نص ابن سعيد أن دنقلا تقع على خط عرض أربعة، ولكن يفهم من سياق ما ورد عن مواقع المدن عند ابن سعيد وكما هو مثبت في المصادر الجغرافية الأخرى أن هنالك خطأ ربما في النقل أو الطباعة في تحديد موقع دنقلا فجاء على خط عرض أربعة بدلاً من أربعة عشر.

الزغاوة عرفت المدينة باسمهم وهم قبيلة سغوة. أما مدينة نبرنتة فهي خراب بسبب الجفاف. وفيما يلي نص ما ذكرة الادريسي:

"وفي بلاد زغاوة من المدن والقواعد سغوة ... ومن مدن زغاوة مدينة شامة وهي مدينة صغيرة شبيهة بالقرية الجامعة وأهلها في هذا الوقت قليلون، وقد انتقل أكثر أهلها إلى مدينة كوكو وبينهما ست عشرة مرحلة. وأهل شامة يشربون الألبان ومياههم زعاق وعيشهم من اللحوم الطرية والمقددة والأحناش يتصيدونها كثيراً ويطبخونها بعد سلخها وقطع رؤوسها وأذنابها وحينئذ يأكلونها. والجرب لا يفارق أعناق هؤلاء القوم بل هو فيهم موجود وهم به مشهورون وبه يعرف الزغاويون في جميع الأرض وقبائل السودان، ولولا أنهم يأكلون الأحناش لتقطعوا جذاما." وهم عراة يسترون عوراتهم فقط بالجلود المدبوغة من الإبل والبقر ولهم في هذه الجلود التي يستترون بها ضروب من القطع وأنواع من التشريف يحكمونها."

"ولهم في أعلى أرضهم جبل يسمى جبل لونيا وهو عإلى الارتقاء صعب لكنه ترب وترابه أبيض رخو، وفي أعلاه كهف لا يقربه أحد إلا هلك ويقال إنه فيه ثعبان كبير يلتقم من اعترض مكانه على غيرعلم منه بذلك. وأهل تلك الناحية يتحامون ذلك الكهف. وفي أصل هذا الجبل مياه نابعة تجري غيربعيد ثم تتقطع. وعليه أمة تسمى سغوة من قبائل زغارة وهم قوم ظواعن رحالة والإبل عندهم كثيرة اللقاح حسنة النتاج. وهم ينسجون المسوح من أوبارها والبيوت التي يعمرونها ويأوون إليها، ويتصرفون في ألبانها وأسمانها ويتعيشون من لحومها. والبقول عندهم قليلة وهم يزوعونها وينتجونها، وأكثر ما يزرعه أهل زغاوة الذرة وربما جلبت الحنطة إليهم من بلاد وارقلان وغيرها. نزهة."

"وفي جهة الشمال وعلى ثمان مراحل من موضع قبيلة سغوة مدينة خراب تسمى مدينة نبرنته وكانت فيما سلف من المدن المشهورة لكن فيما يذكر أن الرمل تغلب على مساكنها حتى خربت وعلى مياهها حتى نشفت وقل ساكنها فليس بها في هذا الزمان إلا بقايا قوم تشبثوا بمقامهم في بقايا خرابها حناناً للموطن. وبهذه المدينة في جهة شمالها جبل يسمى غرغة حكى صاحب كتاب العجائب أن فيه نملاً على قدر العصافير وهي أرزاق لحيات طوال غلاظ تكون في هذا الجبل ويحكى أن هذه الحيات

قليلة الضرر والسودان يقصدون إلى هذا الجبل فيصيدون به هذه الحيات ويأكلونها كما قدمنا ذكره قبل هذا."[1]

ووصف الادريسي التاجويين "بأنهم مجوس، وحدد موقع ديارهم بأنها متصلة بأرض النوبة. وذكر أن من بين مدنهم مدينة سمنة وهي مدينة صغيرة، ونقل رواية عن أحد التجار المسافرين إلى أرض كوار "أن صاحب بلاق توجه إلى سمنة وهو أمير من قبل ملك النوبة فحرقها وهدمها وبدد شملهم على الآفاق وهي الآن خراب ومن مدينة تاجوة إليها ست مراحل"[2]

و بلاق بكسر الباء موقعين: أحدهما – كما ذكر المسعودي عند مدينة أسوان وهو آخر حد الصعيد.[3] والموضع الآخر وهو القصود هنا حدد الادريسي موقعه بين ذراعين من النيل ... وأرضها تسقى بالنيل وماء النهر الذي يأتي من بلاد الحبشة وهو واد كبير جداً يمد النيل وموقعه بمقرية من مدينة بلاق وفي الذراع المحيط بها وعليه مزارع أهل الحبشة كثير من مدنها"[4] ويبدو الموقع بوضوح على ملتقى نهر عطبرة بنهر النيل. أما مدينة سمنة فلم يحدد الادريسي موقعها ولم أجدها في المصادر الجغرافية الأخرى الأمر الذي جعل تحديد موقعها صعباً.

وقد رجح مسعد أن يكون موقعها "في تلال سيميات على بعد عشرين ميلا شرقي مدينة الفاشر الحالية حيث تعيش جماعة تعرف بهذا الاسم، ثم انتقلت جماعات سيميات إلى حدود واداي وهناك عرفوا باسم سيميار، ويزعم هؤلاء الانتساب إلى الداجو القدماء."[5] وهذا الموقع يجعلها بعيدة جداً من النيل إذا افترضنا انها تقع على واد يصب في النيل مثل وادي المقدم أو وادي الملك وهي مناطق يمكن أن نتصور خروج حملة إليها من منطقة عطبرة، وقد يبدو بعيداً خروج حملة من منطقة عطبرة إلى الفاشر ولكن ذلك لا يمنع إمكانية حدوثها.

---

[1] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٣ – ٣٤.

[2] نفس المرجع ج ١ ص ٦.

[3] المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ١٧٦.

[4] الإدريسي، نزهة المشاتق ج ١ ص ٩.

[5] مصطفى مسعد، المكتبة السودانية ص ٢٥ حاشية رقم ٤.

فالزغاوة التاجويون كانوا يعيشون على طول المنطقة الصحراوية ما بين كانم والنيل. ويرى الباحثون أن الزغاوة كونوا طبقة حاكمة سيطرت على مناطق واسعة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين (٧- ٨ م) امتدت من دارفور شرقاً حتى كوار غرباً. واختلط الزغاوة بالهجرات المغربية التي تدفقت على المنطقة في القرن الثاني الهجري، ونتج عن هذا الخليط شعب الكانمبو الذي أسس دولة كانم في نهاية القرن الثاني الهجري.[١]

ويرى بالمر أن هذه الجماعات بمختلف عناصرها كانت تتحكم في الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى الواقع بين منطقة كوار شرقاً ونهر النيل غرباً، وأن واحة العوينات كانت تعرف عند عناصر الكانوري والتدا كمنطقة سكنية متوسطة بين بلاد كابيلا أو جابيلا وهو الاسم الذي يمكن إطلاقه على كل عواصم البرنو.[٢]

ولم يوضح الادريسي سبب الحرب بين النوبة والتاجويين، وربما كان السبب هو الصراع الطبيعي بين سكان مناطق مصادر المياه الغنية والمناطق الجافة. وربما كانت أعين التاجويين لا تزال تنظر إلى بعض مناطق النيل بمنظار الارث القديم عندما كان أسلافهم مستقرين على النيل واضطرهم البعوض – كما ذكر ابن فاطمة – لترك النيل إلى الصحراء.

وقبل قرنين من زمن الإدريسي أشار المسعودي في القرن الرابع الهجري (١٠ م) لذلك الصراع بين النوبة والزغاوة حيث ذكر أن " مملكة الزغاوة واسعة كبيرة، منها على النيل مما يحاذي النوبة، ويحاربون النوبة."[٣]

وقبل ذلك بأربعة قرون أشار سترابو في نهاية القرن الأول قبل الميلاد إلى نفس الصراع عندما تحدث عن الجزيرة المأهولة السكان جنوب مروي حيث يسكن الليبيون شواطئها الغربية بينما يسكن المرويين مناطق الضفة الشرقية ويتصارعون على

[١] أحمد الياس حسين، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب. رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب جامعة القاهرة الأم ١٩٧٧ ص ٤٢.

[2] R. Palmer, *the Bornu Sahara and Sudan* London: 1936, p 3.

[٣] المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ٨٩.



ملكية الجزيرة وشواطئ النيل.[1] وقد ذكرنا فيما سبق أن الليبيين في المصادر الكلاسيكية تقصد بهم سكان المناطق الصحراوية غربي النيل.

وقد أطلقت تلك المصادر على أولئك السكان أيضاً اسم النوبا ، فمن هم ياترى أولئك النوبا (بالألف في آخر الكلمة) الذين كانوا ينافسون المرويين على مناطق النيل منذ القرن الأخير قبل الميلاد قبل وصول هجرة النوبة (بالتاء في آخر الكلمة) الأخيرة بثلاث قرون ؟ هل هم أسلاف التاجويين؟ تبدو الإجابة بنعم معقولة.

ويصف الإدريسي التاجوين بأنهم سودان "وأنهم بشر كثير وجمع غزير ولهم إبل كثيرة وفي بلادهم مراع كثيرة وهم رحالة لا يقيمون في مكان واحد من جاورهم يغزوهم ويغير عليهم ويتحيل على أخذهم وليس لهم مدن إلا مدينتان وهما تاجوة و سمية ... هذه الأرض تتصل بها أرض الواحات الخارجة وهي الآن تعرف بأرض سنترية."[2]

لواتة و سدراتة:

يقودنا الحديث عن لواتة إلى الواحة الخارجة التي تتصل بالجزء الشمالي من أرض التاجويين[3]، وعن إقليم الواحات في مصر الذي قال عنه ياقوت:

"الوَاحاتُ: ثلاثٌ كور في غربي مصر ثم غربي الصعيد ... الواح الأول أوله مقابل الفيوم ممتدٌ إلى أسوان ... وهي أكبر الواحات وبعدها جبل آخر ممتد كامتداد الذي قبله وراءه كورة أخرى يقال لها واح الثانية وهي دون تلك العمارة وخلفها جبل ممتد كامتداد الذى قبله وراءه كورة أخرى يقال لها واح الثالثة وهي دون الأوليين في العمارة ومدينة الواح الثالثة يقال لها سَنترَية"[4]

والواحة التي تهمنا هنا هي الواحة الأخير المعروفة بالواحة الخارجة والتي ذكر الادريسي أنها تتصل بأرض التاجويين. وقد وصفها اليعقوبي الذي زار شمال إفريقيا في

[1] Quoted by Oric Bates, *the Eastern Libyans* London: 1970, p49.

[2] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٦.

[3] نفس المصدر ج ١ ص ٣٦.

[4] ياقوت الحموي، ج٤ ص ٣٧٣.

القرن الثالث الهجري (٩ م) بأنها "بلاد فيها حصون، ومزارع، وعيون مطردة، ومياه جارية، ونخل وأصناف الشجر، والكروم، ومزدع أرز وغير ذلك."[١]

وفي القرن الرابع الهجري (١٠ م) نقل المسعودي بعض أخبارها عن أحد مواطنيها قابله في مصر. وتبدو الواحة مأهولة بقبيلة لواتة البربرية، إذ يقول المسعودي :

"وصاحب الواحات في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - عبد الملك بن مروان، وهو رجل من لَوَاتة، إلا أنه مرواني المذهب، ويركب في ألوف من الناس خيلاً ورجلاً ونجباً."[٢]

دخلت الواحة الخارجة في مرحلة جفاف شديد قبل القرن السادس الهجري، لأن الادريسي ذكر أن:

"بلاد الواحات الخارجة الآن صحراء لا أنيس بها بلقع لا عامر لها والمياه بها موجودة وكانت على القدم معمورة متصلة الثمار والعمارات ... وبين الواحات وحد النوبة مسير ثلاثة أيام في مفاوز غير عامرة."[٣]

و قد ظلت قبيلة لواتة فيما يبدو مسيطرة على الواح الخارجة حتى ضربها الجفاف، لأن ياقوت الحموي قال عن سكانها: "وأهلها كلهم بربر لا عرب فيهم".

ويبدو أن بربر لواتة لم ينزحوا إلى أماكن بعيدة بل استقروا مع الزغاوة، يقول ابن سعيد "وفي شرقي كوار مع ميل إلى الشمال مجالات سندراته ، وهم برابرة مسلمون ملثمون ولكنهم يورثون ابن الأخت جرياً على عادة كانت لهم قبل الإسلام."[٤]

ويوضح الادريسي:

"وفي بلاد زغاوة من المدن والقواعد سغوة و شامة وبها قوم رحالة يسمون صدراتة يقال إنهم برابر وقد تشبهوا بالزغاويين في جميع حالاتهم وصاروا جنساً من أجناسهم

[١] اليعقوبي، كتاب البلدان ج ١ ص ٤٠،

[٢] المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ١٧٩.

[٣] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٧.

[٤] ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ج ١ ص ٢١.

وإليهم يلجئون فيما عن لهم من حوائجهم وبيعهم وشرائهم ومن مدن زغاوة شامة وهي مدينة صغيرة"[1]

وصدراتة هنا المقصود بهم سدراتة، وهم كما ذكر ابن خلدون من سلالة قبيلة لواتة.[2]

وقد يكون هنالك خطأ في نسخ نص الادريسي، وأعتقد أن سدراتة استقروا في سغوة وليس شامة . لأن موقع شامة يبدو إلى الجنوب كثيراً من أطراف الصحراء الكبرى الشمالية حيث مواطن قبيلة سدراتة كما ذكر ابن سعيد، وسياق النص أعلاه يستشف منه بعض الخلل فيبدو أن اسم سغوة سقط في أول النص، ويمكن أن يقرأ هكذا:

"وفي بلاد زغاوة من المدن والقواعد سغوة وشامة، وسغوة بها قوم رحالة يسمون صدراتة يقال إنهم برابر وقد تشبهوا بالزغاويين في جميع حالاتهم وصاروا جنساً من أجناسهم وإليهم يلجؤون فيما عن لهم من حوائجهم وبيعهم وشرائهم ومن مدن زغاوة شامة وهي مدينة صغيرة".

آزقار و بركامي:

وإلى جانب برير سدراتة في المنطقة يوجد أيضاً قوم من البربر شرقي منطقة فزان اسمهم آزقار، قال الادريسي عنهم:

"أرض فزان وبها من البلاد مدينة جرمة و مدينة تساوة ... ومن مدينة تساوة إلى قبيل من البربر في جهة المشرق نحو من اثني عشر يوماً ويسمون آزقار وهم قوم رحالة وإبلهم كثيرة وألبانهم غزيرة وهم أهل نجة وقوة وبأس ومنعة لاكنهم يسالمون من سالمهم ويميلون على من حاولهم وهم يصيفون ويربعون حول جبل يسمى طنطنه وفي محيطه من أسفله ينابيع وعيون مياه جارية ومناقع كثيرة تجتمع بها المياه وينبت عليها الحشيش كثيراً وإبلهم ترعى هناك وينتقلون منه إلى أمكنة عن عاداتهم المقام بها."[3]

[1] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٣.

[2] ابن خلدون، العبر ج ٦ ص ٣١.

[3] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٤.

ووصف الإدريسي أهل أزقار قائلاً:

"وأهل آزقار فيما يذكره أهل المغرب الأقصى أعلم الناس بعلم الخط الذي ينسب إلى دنيال النبي عليه السلام وليس يدرى بجميع بلاد البربر على كثرة قبائلها قبيلة أعلم بهذا الخط من أهل آزقار وذلك أن الرجل منهم صغيراً كان أو كبيراً إذا تلفت له ضالة أو عدم شيئاً من أموره خط لها في الرمل خطاً فيعلم بذلك موضع ضالته فيسير حتى يجد متاعه كما أبصره في خطه وربما سرق الرجل منهم متاع صاحبه ويدفنه في الأرض بعيداً أو قريباً فيخط الرجل الذي فقد متاعه ويقصد موضع الخبية ويخط بإزائها خطاً ثانياً ويقصد بعلمه إلى موضع الخبية فيستخرج منها متاعه وما ضاع له ويعلم مما خطه الرجل الذي تعدى على أخذ متاعه، ويجمع أشياخ القبيلة فيخطون له خطاً فيعلمون من ذلك البرئ من الفاعل وهذا عند أهل المغرب مشهور مذكور. ولقد أخبر بعض المخبرين أنه رأى رجلاً من هذه القبيلة في مدينة سجلماسة وقد خبيت له خبية بحيث لا يعرف فخط لها خطاً وقصد موضعها فاستخرجها وأعيد عليه العمل بذلك ثلاث مرات فاستخرجها في الثانية والثالثة مثل ما فعل في المرة الأولى وهذا شيء عجيب من قوتهم على هذا العلم على كثرة جهلهم وغلظ طبعهم وفيما جئنا به في ذلك كفاية والحمد لله على ذلك."[1]

وقد أضاف الحميري بعد أن نقل ما أورده الادريسي عن ازقار فقال: "ولقد أخبر بعضهم أنه رأى رجلاً من هذه القبيلة في سجلماسة وقد خبئت له خبيئة فخط لها خطاً وقصد موضعها فاستخرجها وأعيد عليه العمل بذلك ثلاث مرار فاستخرجها في كلها، وهذا شيء عجيب من قوتهم على هذا العلم على كثرة جهلهم وغلظ طباعهم."[2]

وهنالك جماعة أخرى من السودان بين النوبة و الزغاوة و الكانم أُطلق عليهم بركامي ، وحددت بلادهم بأنها شمال جبل لونيا الممتد من الشرق إلى الغرب في بلاد كوار وزغاوة، وذكر أنهم:

---

[1] نفس المكان.

[2] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ج ١ ص ٢٨. موقع الوراق.

"سودان أهل عافية ولهم أودية بين جبال وفيها نخل ومياه وخضر. والذين يوالون منهم بلاد الكانم مسلمون. والذين يوالون بلاد النوبة نصارى. والذين يوالون زغاوه أهل أوثان."[1]

وفي واقع الأمر فإن المنطقة الواقعة بين النيل شرقاً ومناطق كانم والزغاوة جنوباً وغرباً ذكرت فيها بعض الجماعات والمناطق غير المعروفة حالياً والتي تحتاج إلى البحث والتقصي خاصة وأنها قريبة زمنياً ليست موغلة في القدم، أي أنها تعود لنحو سبعة قرون فقط الأمر الذي يرجح ارتباطها القوي بواقعنا المعاصر. فمن هم البركامي ومتى اعتنقوا المسيحية والإسلام؟ وأين موقعهم على خريطتنا السكانية الحالية؟ وماذا حدث لها؟.

أهل بنتة وزنج النوبة:

والقضية ليست متعلقة بالبركاميين فقط بل هنالك الكثير من الجماعات والمناطق الواردة في المصادر الجغرافية غير المعروفة لدينا، ولما كان غرضنا هنا هو تتبع سكان منطقة الصحراء الواقعة غربي النيل فقط فسنشير إلى بعض تلك المناطق مثل " بلاد بنته" وإلى مدينة "نوابة وأهلها".

ذكر ابن سعيد أن بلاد بنتة تقع إلى الشرق من بحيرة كوري ، وقد أورد ابن سعيد بعض التفاصيل عن البحيرة نقلاً عن ابن فاطمة الذي رجحنا أن يكون زار البحيرة في القرن السادس الهجري (١١ م) ويبدو مما ذكره عن البحيرة أنها بحيرة تشاد الحالية.[2] وإلى جانب ابن سعيد أشار كل من المقرريزي[3] و السيوطي[4] إلى بحيرة كري نقلاً عن كتاب الإدريسي نزهة المشتاق، غير أن النص الذي نقلاه عن نزهة المشتاق غير موجود في النسخة المطبوعة التي رجعت إليها.

[1] ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ج ١ ص ٢١.

[2] نفس المصدر، ج ١ ص ١١.

[3] المقريزي، كتاب الخطط ج ١ ص ٦٧.

[4] السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج ١ ص ٣٢٤.

وقد وصف ابن سعيد أهل بنته وحدد موقع بلادهم حيث قال: "وهم سود كفار يفصلون بين الكانم والنوبة" ولم يضف المقريزي و السيوطي فيما نقلاه عن الادريسي ما يلقي مزيداً من الضوء على أهل بنتة إذ ذكرا أثناء حديثهما عن بحيرة:

"فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كوري ، و بلاد ينه . وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة فإذا بلغ دنقلة مدينة النوبة عطف من غربيها" وذكر المقريزي أن اسم هذه الجماعة "ينة" بينما ذكـــره السيوطي "تنة" ومـــن الواضح أنهم كلهم يشيرون إلى نفس السكان.

ويبدو من خلال ما ورد عن مكانهم أنهم كانوا يستوطنون المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الزغاوة بين الكانم والنوبة. ولكن من هم أهل بنتة إذا كان هذا هو الاسم الصحيح؟ وأين كانت مواطنهم بالتحديد؟ ومن هم سلالاتهم على الخريطة السكانية الحالية؟ تبقى هذه الأسئلة مثل سابقاتها في انتظار الإجابة.

ومن المدن الصحراوية التي وردت في الجغرافية العربية مدينة نوابة فقد ذكرها الادريسي و ابن سعيد ، بينما وردت عند ابن الوردي و الحميري "نوابية". ذكر ابن سعيد في جنوبي مدينة دنقلة "من مدن النوبة، نوابه التي سموا بها. وهي من حيث الطول ثمان وخمسون درجة وثلاثون دقيقة والعرض تسع درجات."[1] وهي بذلك تقع على نفس خط طول مدينة دنقلا كما حدده ابن سعيد. وحدد كل من الإدريسي[2] وابن الوردي[3] بأنها تبعد عن النيل أربعة أيام[4]. وأورد الإدريسي ما يلي عن وصف المدينة وسكانها:

---

[1] ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ج ١ ص ١١.

[2] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٦.

[3] ابن الوردي، خريدة العجائب ج ١ ص ٢٨. موقع الوراق.

[4] كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب في تقويم البلدان والتاريخ الطبيعي، والكتاب مشهور تحت اسم "خريدة العجائب" جمع ابن الوردي مادته من المصادر السابقه له بداءاً من المسعودي وحتى مؤلفي القرن الثامن الهجري. توفى ابن الوردي عام ٨٦١هـ/١٤٥٦ م

" ومن مدينة تاجوة إلى مدينة نوابة ثمان عشرة مرحلة، وإليها تنسب النوبة وبها عرفوا. وهي مدينة صغيرة وأهلها مياسير، ولباسهم الجلود المدبوغة وأزر الصوف. ومنها إلى النيل أربعة أيام وشرب أهلها من الآبار وطعامهم الذرة والشعير ويجلب إليهم التمر والألبان عندهم كثيرة. وفي نسائهم جمال فائق وهن مختتنات ولهن أعراق طيبة ليست من أعراق السودان في شيء. وجميع بلاد أرض النوبة في نسائهم الجمال وكمال المحاسن وشفاههم رقاق وأفواههم صغار ومباسمهم بيض وشعورهم سبطة وليس في جميع أرض السودان من المقازرة ولا من الغانيين ولا من الكانميين ولا من البجاة ولا من الحبشة والزنج قبيل شعور نسائهم سبطة مرسلة إلا من كان منهن من نساء النوبة ولا أحسن أيضاً للجماع منهن وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاث مائة دينار وأقل من ذلك. ولهذه الخلال التي فيهن يرغب ملوك أرض مصر فيهن ويتنافسون في أثمانهن ويتخذونهن أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن. وذكر بعض الرواة أنه كان بالأندلس جارية من هؤلاء الجواري المتقدم ذكرهن عند الوزير أبي الحسن المعروف بالمصحفي فما أبصرت عيناه قط بأكمل منها قداً ولا أصبح خداً ولا أحسن مبسماً ولا أملح أجفاناً ولا أتم محاسن. وكان هذا الوزير المذكور مولعاً بها بخيلاً بمفارقتها ويذكر أن شراءها عليه مائتان وخمسون ديناراً من الدنانير المرابطية. وكانت هذه الجارية المذكورة مع تمام محاسنها وبديع جمالها إذا تكلمت أسحرت سامعها لعذوبة ألفاظها وحلاوة منطقها لأنها ربيت بمصر فكانت بذلك تامة الصفات ومن مدينة نوابة إلى مدينة كوشة نحو من ثماني مراحل خفاف."

أما الحميري فذكر أنها تبعد عن النيل قليلاً، وأضاف وإليها ينسب النوبة وبها عرفوا. ثم نقل بعض ما ذكره الادريسي.[1] أما ابن الوردي فقد أورد بعض التفاصيل كما يلي:

"ومن مدن النوبة المشهورة نوابية ويقال لها نوبة. وهي مدينة وسط وبينها وبين النيل أربعة أيام، وشرب أهلها من الآبار. وفي نساء هذه المدينة الجمال الفائق والحسن الكامل. ولهم حسن النطق وحلاوة اللفظ وطيب النعمة وليس في سائر السودان من

---

[1] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ج ١ ص ٥٠٣.

شعورهم مسبلة غيرهم وبعض الهنود وبعض الحبوش لا غير. وقيمة الجارية الحسناء منهن ثلثمائة دينار وما فوقها." ويواصل ابن الوردي:

"وحكي أنه كان عند الوزير أبي الحسن المعروف بالمصحفي جارية منهن لم ير أكمل منها قدراً ولا أحسن خلقاً ولا أملح شكلاً ولا أنعم جسماً ولا أحلى منطقاً ولا أتم محاسن، وكانت إذا تكلمت سحرت الألباب بمنطقها وحلاوة ألفاظها فاشتراها الصاحب بن عباد منه بأربعمائة دينار وأحبها حباً عظيماً ومدحها في بعض أشعاره. وقيل عنه إنه قبل مشتراها كانت همته قد ذهبت وشهوته انقطعت فلما اشتراها وضاجعها انبعثت شهوته ونهضت همته وتراجعت قوته، لطيب ما وجد عندها."[1]

فنوابة أو نوابية من مدن الصحراء التي لا نعرف عنها شيئاً، وبناءً على ما ورد عند الادريسي و ابن سعيد و الحميري – كما في النصوص أعلاه - فإن اسم النوبة الذي عرفه المؤلفون العرب بعد القرن السابع الميلادي يعود إلى هذه المدينة، وهذا ما يزيد من أهمية هذه المدينة. فالمؤلفين العرب لم تكن لديهم معرفة باسم النوبا القديم في المصادر اليونانية والرومانية.

واسم النوبة – كما جرت عادة العرب على تخريج الأسماء – تارة يرجع إلى والدهم نوبا فهم "بنو نوبة" كما ذكر المسعودي القلقشندي[2] وأحياناً يرجعونه إلى أصل عربي كما وضح ياقوت الحموي: "نوبه: بضم أوله وسكون ثانيه وباء موحدة، والنوب جماعة النحل ترعى ثم تنوب إلى موضعها فشبه ذلك بنوبة الناس والرجوع مرة بعد مرة، وقيل النوب جمع نائب من النحل والقطعة من النحل تسمى نوبة شبهوها بالنوبة من السودان وهو في عدة مواضع: النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر."[3]

ولكن يبدو معقولاً ارتباط اسم النوبة في المصادر العربية باسم مدينتهم كما جرت عليه عادة المؤلفات العربية في إطلاق اسم المدينة على السكان أو العكس "فنوابة أو نوابية أو نوبة" كما ذكر ابن الوردي: "ومن مدن النوبة المشهورة نوابية ويقال لها نوبة" فأصبحت "نوبا" اسم المدينة والسكان كما يقولون أهل غانة عاصمتهم مدينة

[1] ابن الوردي، خريدة العجائب ج ١ ص ٢٨.

[2] المسعودي، أخبار الزمان ج ١ ص ٨٩ و القلقشندي، صبح الأعشى ج ١ ص ١٥٣.

[3] معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٦.

غانا وكوكو عاصمتهم مدينة كوكو، ورغم أن عاصمة مالي تذكر أحياناً باسمها " نياني "إلا أنه يطلق عليها مدينة مالى . فهل كانت مدينة النوبا " نوابة أو نوابية أو نوبا " في وقت ما المدينة الأولى في المنطقة ولذلك عرف السكان بها؟ ومتى كان ذلك؟ وأين موقع تلك المينة؟ مزيداً من الأسئلة!

إذا حاولنا بناءً على ما ورد من معلومات محاولة التعرف على موقع مدينة نوابة أو نوابية فالمعلومات كالآتي:

تقع المدينة جنوب دنقلا، على خط طولها، تبعد من النيل أربعة أيام. وقد حدد ابن سعيد موقعها على خط طول ٥٨ وخط عرض ٩ درجات، ووفقاً لهذا فهي تقع إلى الجنوب بعيدا من مدينة دنقلا التي تقع على نفس خط طول نوابة وعلى خط عرض أربعة عشر درجة وخمس عشرة دقيقةً.

وقد ورد في كتاب ابن سعيد أن مدينة دنقلة تقع على خط عرض أربع درجات وخمس عشرة دقيقة.[1] وفي ذلك خطأ واضح إما في النقل أو الطباعة. فقد تواتر في الجغرافيا العربية أن موقع مدينة دنقلة إلى الشمال من ذلك كثيراً من خط عرض أربعة درجاتً. وقد صحح هذا الخطأ ما ورد عند القلقشندي عن موقع المدينة نقلاً عن ابن سعيد فذكر: "قال ابن سعيد : حيث الطول ثمانٌ وخمسون درجة وعشر دقائق، والعرض أربعة عشر درجة وخمس عشرة دقيقةً."[2]

وخط عرض ٩ درجات يجعل مدينة نوابية كما جاء عند ابن سعيد إلى الجنوب من مدينة تاجوة التي تقع على خط عرض ١٤ درجة، وإلى الجنوب إيضاً من مدينة مانان في كانم التي تقع على خط عرض ١٣ درجة. وبالطبع فإن تحديد الموقع بهذه الخطوط في الجغرافيا العربية المبكرة ليس بالضرورة أن يكن دقيقاً مثل التحديد الحإلى للمواقع، فهو بخاصة للمدن النائية تقديري في أغلب الأحيان، إلا أنه يعطى التصور العام للموقع.

وقد وضع ابن سعيد مدينة نوابة على نفس خط عرض مدينة جيمي (٩درجات) قاعدة الكانم وقريبة من مدينة كوكو التي تقع على خط عرض ١٠درجات. وذكر

[1] ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ج ١ ص ١١.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى ج ٢ ص ٣١٢.

الادريسي أن بين مدينة نوابة ومدينة تاجوة ثمانية مراحل، وبينها وبين كوشة ثمانية مراحل ضعاف وفي موضع آخر ذكر بينها وبين كوشة ستة أيام.[1]

ومن المعلوم أن اسم كوش أطلق على المنطقة والسكان منذ عصر حضارة كرمة، وظل يطلق في عصر نبتا ومروي وما بعد مروي كما في لوحة عيزانا التي سجل فيها انتصاراته على مملكة مروي ونهايتها على يده في القرن الرابع الميلادي. ولم تستخدم المصادر العربية اسم كوش كثيراً بل استخدمت اسم النوبة للدلالة على سكان مملكتي المقرة وعلوة المسيحيتين، وورد اسم سوبة منذ القرن الثالث الهجري إذ ذكر اليعقوبي أن مدينة علوة العظمى تسمى سوبة .[2]

وأحيانا يرد اسم مدينة كوش في المصادر العربية فقد ذكر الادريسي "في بلاد النوبة من البلاد المشهورة والقواعد المذكورة كوشة و علوة ودنقلة وسوبة." وقال عن كوشة:

"تبعد عن النيل يسيراً، وموقعها فوق خط الاستواء وأهلها قليلون وتجاراتها قليلة وأرضها حارة جافة كثيرة الجفوف جداً وشرب أهلها من عيون تمد النيل هناك وهي في طاعة ملك النوبة، وملك دنقلة يسمى كاسل وهو اسم يتوارثه ملوك النوبة، وقراراته ودار ملكه في مدينة دنقلة."[3]

وجعل ابن سعيد موقع مدينة كوشة جنوب غرب نوابة ووسمها بأنها قاعدة زنج النوبة. ومن خلال ما ذكر عن موقعها يتضح أنها لم تكن على النيل، وأغلب الظن أنها تقع إلى الغرب من النيل لأنه لم يذكر بينا وبين نواب التي تقع في الصحراء غربي النيل نهر أو نيل، وتقع كل المدن التي ورد ذكر كوشة مرتبط بها غربي النيل مثل دنقلة وتاجوة ونوابة. وقد جعلها الادريسي من تابعة لملك دنقلة الذي تمتد ممتلكاته الجنوبية غربي النيل.

ويبدو أنها تقع إلى الجنوب من نوابة، إذ وصفها الادريسي "بكوشة الواغلة ... وتقع فوق خط الاستواء" بينما جعلها ابن سعيد جنوب خط الاستواء، مما يشير إلى

[1] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٦ و ٩.

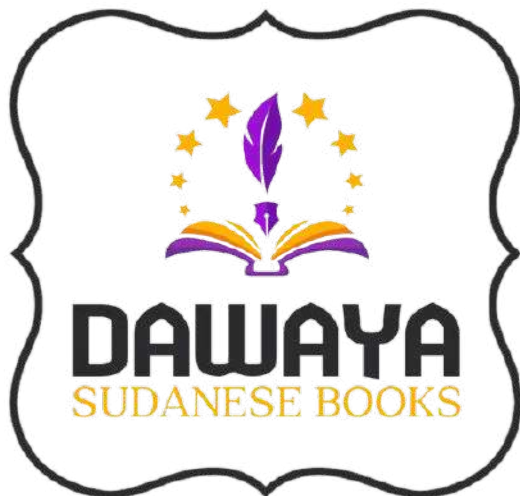
[2] اليعقوبي، كتاب البلدان ج ١ ص ٤١.

[3] الإدريسي، نزهة المشتاق ج ١ ص ٩.

موقعها في أقصى الجنوب بالمقارنة إلى نوابة أو دنقلة. ويظل السؤال عن موقعها عالقاً وكذلك السؤال عن زنج النوبة هل هم بركامي الذين ذكر ابن سعيد – كما أشرنا أعلاه – أم أنهم سودان بين النوبة والكانم والزغاوة أم من هم؟.

وفي نهاية تتبعنا لسكان الصحرء الغربية للنيل - أو قُل سكان كردفان ودارفور - أود التنويه هنا أن ما سعت إليه الدراسه هو التعرف فقط على سكان تلك المنطقة في القرون المبكرة التي صاحبت انتشار الإسلام في شمال إفريقيا، أما عن علاقة أولئك السكان بالقبائل الموجودة حالياً في تلك المناطق فسيتم تناول ذلك في جزء لاحق.

وفي ختام هذا العرض الذي تناول سكان المنطقة في المصادر العربية حتى القرن السادس الهجري (١٢ م) علنا لاحظنا أنه لم ترد الإشارة في كل المصادر التي رجعنا إليها إلى وجود العرب في كل المنطقة الواقعة بين الواحات الخارجة وكوار شمالاً وحتى جنوب دارفور وبحيرة تشاد جنوباً مما يوضح بصورة قاطعة أنه حتى القرن السادس الهجري (١٢ م) لم تصل قبائل عربية لتلك المناطق. وتاريخ القبائل العربية في تلك المناطق وغيرها من مناطق السودان الأخرى سيكون موضوع جزء لاحق.



الملحق رقم ١

نقش كلابشة١

تألف نقش كلابشة من ٣٤ سطر. تم العثور عليه فى الجزء الأسفل من العمود الرابع الأقصى شمالاً الذى يعلم واجهة معبد كلابشة[1].

نقش كلابشة يدور حول الملك خارامادويه . يشير وضع نقش كلابشة إلى أنه كتب قبل أن تغطي الأنقاض جزء كبير من المعبد...

يعتقد ميليت بأن خارامادويه كان حاكماً نوبادياً. أما مونير دي فيلارد فيعتقد بأن المسلة كانت تخليداً لذكرى ملك بليمي .

يتقبل معظم الباحثين حقيقة أن خارامادويه يحتمل أن يكون بليمياً ، لكون الاسم مشابه للأسماء البليمية فى وثيقة الجبلين Krall، ١٩٩٨. توجد فى وثيقة الجبلين أسماء العديد من البليميين بما فيهم خاراخن، وولديه خاراهايت و خاراباثكور ، وترجع الوثيقة للقرن السادس.

فك جريفيث رموز الخط المرّوي منذ قبل أكثر من سبعين سنة مضت. حتى وقت قريب كان من الممكن كتابة النقوش بحروف لغة أخرى (تشفيرها)، لكننا كنا عاجزين عن قراءة السجلات المرّوية فى كاملها لأننا لم نعرف اللغة المرّوية . فى عام ١٩٨٤ تمكن ونترز (وهو كاتب هذا البحث الذى بين يديكم - أركامانى) من الكشف عن أصل مشترك للمرّوية : كوشانا. نتيجة هذا الاكتشاف يمكننا أن نقرأ أي نص مروي.

كتب نقش كلابشة باللغة المرّوية المتأخرة. القواعد النحوية للغة المرّوية المتأخرة تم توضيحها فى مكان آخر.

أدناه كتابة نص كلابشة بحروف التشفير (نحتفظ هنا بالتشفير بالأحرف اللاتينية- أركامانى). فى هذا التشفير للكتابة المرّوية ، فإن ما يسمى بعلامة

[1] فى كلكايدي وتترز، بينة مروية عن الإمبراطورية المروية. أثبتنا قبل بداية النص بعضاً من تعليق ونترز عليه.

الفصل المرّوية (:) أعطيت لها القيمة -ne . وتعني هذه القيمة "خير" وتستخدم لتحويل الأفعال إلى أسماء.

1. hrmdoye ne qor ene ariteñ lne mdes ne mni-t (1) kene

2. mk lebne ye re qe-ne q yi-t (2) hl-ne y es bo he-ne q r lebne tro.

3. s-ne ariteñ net er ek li s-ne d-b li lh ne q r kene qor ene mnpte.

4. s-ne lw-ne qor e yi-ne-t (3) h-ne-m (4) no tene s-ne lw-ne t h-ñ (5) yi-ne qr-ne ariteñ li s-ne.

5. lw-ne qr-ñ yi-ne so-b (6) neh-l b (7) -ine li . s-ne lw-ne so-b-ñ yi-ne th ne-m ote sl w-ne.

6. th-ñ yi-ne arette (8) ne wos sl w-ne h i ret-te ñ yi-ne hr ph ene mk e do.

7. ke li sl w-ne hr ph e ñ yi-ne. te ri s nem npte ne p d ho s-ne tl-o (9).

8. li s ne k i d kete tene yimeniye ne qor e-l h-ene yi ti IIII yo to-ne.

9. ptpotekye ne ab-l ene y wi tone s wi d-e-a (10) q to ye-ne. Tep kene ye d ne mk lne te.

10. pk ene y ey k-ne w ye d ne-te pk ene p y k-ne h i w r nea d o-ne w sne phrs ne t o.

11. m ñ-ne-a s y ne ke d eb h ek y-ne qor-e ti k-ne d i k-ne pilqe y-te ne-b q ok.

12. lk s-ne sq y-e s-ne nsdoke s-ne tmeyye s-ne nhr e s-ne-b qo b h.

13. simlo k-ne d ik ne pilqc y tene b qo lne pr one dol ene pl w-ne penn-ne t.

14. lte-ne br-ne ph i ñl-ne bh em ine ye de tene-b. ye ke lh d ik ne kdi mlo ye-ne.

15. sq kdi-ne pt p ot...yismeniye ne y sb e t ne-b er so wi-ne mte ne w s-ne.

16. a y e ken l-ne yt p-ote ne y-e (11) d ne y-kl ene arohetye ne nl ene do lk.

17. mte l-ne pi ke d el wi-ne y-e d ne ptpotekye ne w kdi wi ke tene mte ws.

18. qorh-ne th-ñ y-ene tk lwi-ne y sh e t ne-b er ek-n wi-ne h.

19. r ph ene de te lh l-ne w e ñ-ne y-e d ne w-o p ik ene ti-l (12) ye y ki ne.

20. br lebne ke d e-b h ne. kdi lebne-m ro r lebne s s lebne kb b.

21. tne p d ho s-ne-l (13) h lebne ye h o y (14) -kene y-te tene-m ro r b ene qe.

22. s w-ne-a d er ek ene-m tr-ne w s-ne h r w-ne pilqe kene mt r-ne w s-ne.

23. qor e IIIIIIII hr e s-ne wt e b ne ah ine d e ... kl ene d e .

24. tene we d ine d h ene mte ne kdi ne aqtoyes II wb qo b.

25. tenen wi d o ne hr e s ye qo ne hresye qo ne wid yishteteye qo ne b qo.

26. b h ne s ml ene w si ne tk b tene ste ne we s-ne b qo b tene.

27. simlo k-ne d ik ne sl el ey tene-m ho ne temey ne nsdoke.

28. kdi a br ne nhbr e s ne kb h ne-m ho li-ne temey li-ne d k-ne.

29. p ro-ne d ol pl w-ne penn tl tene br-ne ph ol e ne b h em ine.

30. ye d e tene hr w-ne-a d o ni li kete-ne yir e q w nea.

31. r w-ne tere kete-ne hr w-ne sl el e kene-m tr-ne ws yi r-e.

32. q w nea d lo kene-m tr-ne w s-ne ws-ne. qor ene pt si de ne tm ot-ne .

33. m...es ne...pl-ñ pt mk . i d ene tm-o t ne ari tel ene w o.

34. pl e .

قام ميليت بعمل رائع بمناقشة النقاط الأساسية لنقش كلابشة، قريبة من من معرفتنا بالمرَّوية فى ستينيات القرن العشرين Millet. أدناه ترجمتنا لنقش كلابشة طالما أصبحنا قادرين الآن على قراءة الكلمات المرَّوية فى النص.

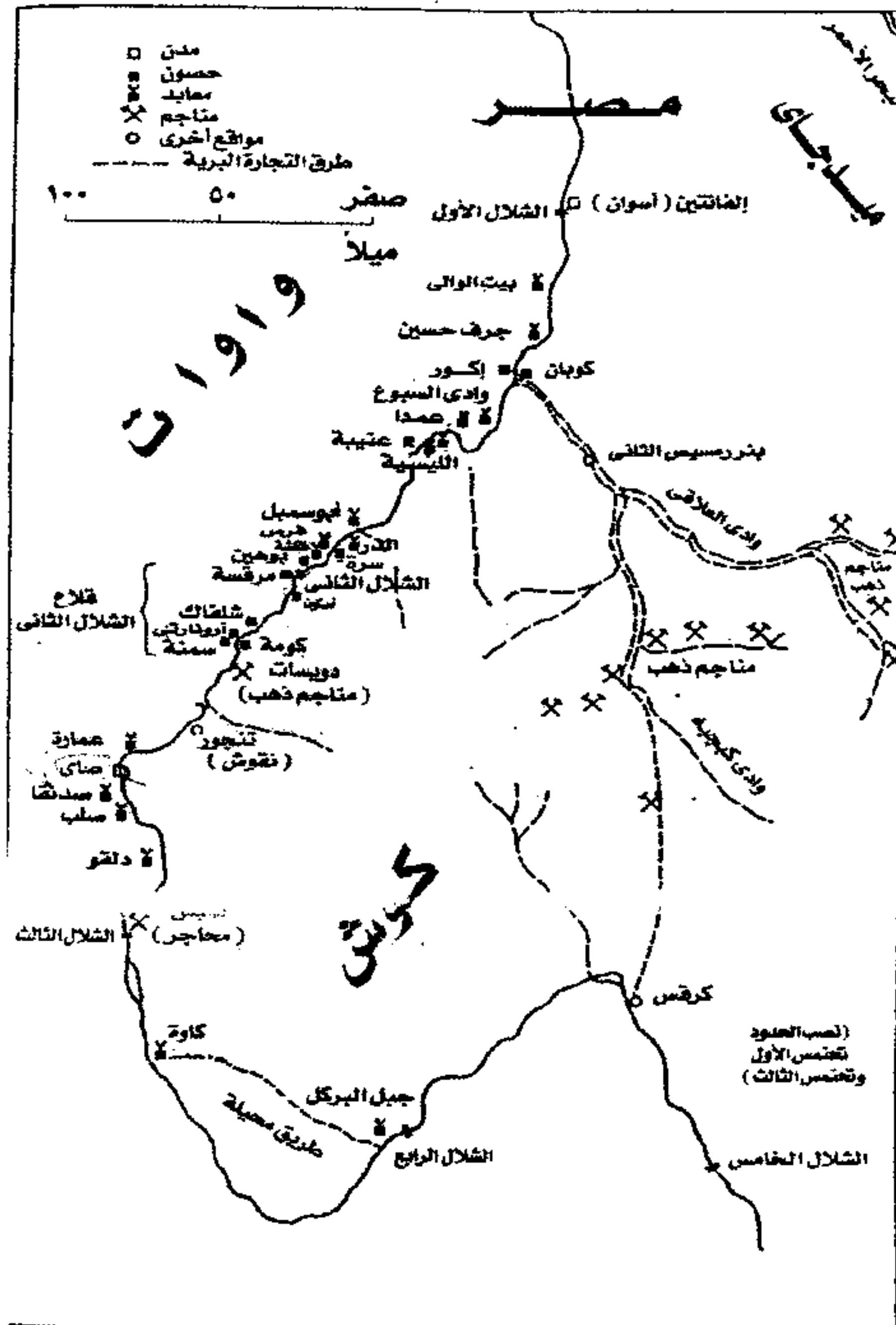
[١] خارامادويه العاهل وزعيم الليفينا أريتن. الابن المعظم والنصير لأماني، أنت (الذى) تمنح الحياة مجدداً (للرجل). [٢] رحلة المولى للاستكشاف بالتأكيد تعطي خلق الخير. أفعل (الآن أماني) هو يسافر ليدعم الخير. أجعل الرفاهية تتفخ (من أجل) قرابين الزعيم، (هو) يرغب بالطبع اصلاح السمو. [٣] نصير الخير أريتن ينحني فى وقار

(أمام أمانى) ليستدعي رفعة التغذية (لـ) النصراء ليخلفوا تراثاً عظيماً عالياً يبقى خيراً. (يا أماني أمنح حياة مجددة حقاً (لـ) العاهل (و) قائد نبتة العظيم. [٤] أرفع (عالياً) الخير (و) مجد العاهل. (أمانى) أنت تهب باستمرار عظمة كبيرة الآن (و) إعادة مولد أمجاد النصراء. ثبت مبتغاه الأبدي العظيم (لفعل) الخير، (يا) أريتن المجيد. [٥] ممجداً يبتغي الحياة الأبدية الوفيرة فى هذه اللحظة (كما) هو الطريق السديد. أمنح (له) حياة مجيدة أبدية ووفيرة وثبت الكثير من الخير والاعجاز (لـ) الملك والقائد. [٦] انه يثبت تقاليد هارندوتس الخيرة (حورس المنتقم لوالده) (أيا) ايزيس. الملك والقائد يذ(هب) ليقدم البركات ويجمع هنا الخير للأبد. الجلال الكامل (لـ) القائد. تكرم الإله بقبول هبات (خارامادويه). [٧] جدد حياة الملك المبجل والقائد ليرتقي إلى موهبة الجلال (و) ليمنح الخير الأبدي. هنا المدينة (كلابشة) ترفع عالياً اسم نبتة الخيرة. ابتهل لبقاء ميراث روح النصير القوي (خارامادويه). [٨] الابن الخير المجد، كما هو واجب، يذهب ليخلف ميراثاً (لـ) لمولد حياة مجددة لك (خارامادويه). يمينيه (ملك جديد) يمنح من فضله مقدم العطاء للفقراء العظيم (لخارامادويه) فى رحلته لتنوير (البشرية) عن بعد. يذهب مقدم العطاء للفقراء لينظم ٤ (مرات) للانحناء لعودة مولد (خارامادويه). [٩] باتابوتكايه الأب الخير (لـ) القائد خلّف شرفاً حياً (لخارامادويه). فليقف عالياً (الخير الذى) سيترك ميراثاً (الذى) سيعمل ليحفز (ــو) يعطي شكلاً للخير. يعلن بصوت نبيل بداية الرحلة (لـ) الخير الموروث. (أيها) الإله الحي، أفلا يستمر قدماً! [١٠] فلتجعل هدف القائد بمثابة استحسان وجود (لـ) موضوع التضرع. فلتتبع استحسان الوجود لتخلف ميراثاً لنعمتك. أجعل هدفك (فى هذه الغاية) أيها القائد. صلى لتجديد حياة العطاء، تابع بلا تهاون ميراث الأسلاف، لتوجيه ودعم خير فرس. سيبدأ الوصية (الآن). [١١] الكثير من الخير سيكون فى وجود الملك. أعمل لتخلف غطاءً عظيماً وتغذية لفعل الخير. الملك يذ(هب) لتنظيم تجديد حياة الخير. أذهب لتخلف ميراثاً خيراً (فى) مكان اقامتنا (فى) فيلة. لقد فعلت الكثير من الأعمال الخيرة (لتعد احيائها الآن). [١٢] تمت هزيمة الاك الآن، والشاقا (تم) اجتياحهم وهزيمتهم. الناسادوكا هزموا (و) والتاميا (تم) اجتياحهم وهزيمتهم. الناخبار تمت هزيمتهم كلياً تماماً (وبالتالي) تمت استعادة الكثير من العظمة (للبليميين). [١٣] شيمالو المجددة حياته يخلف ميراثاً فى المكان

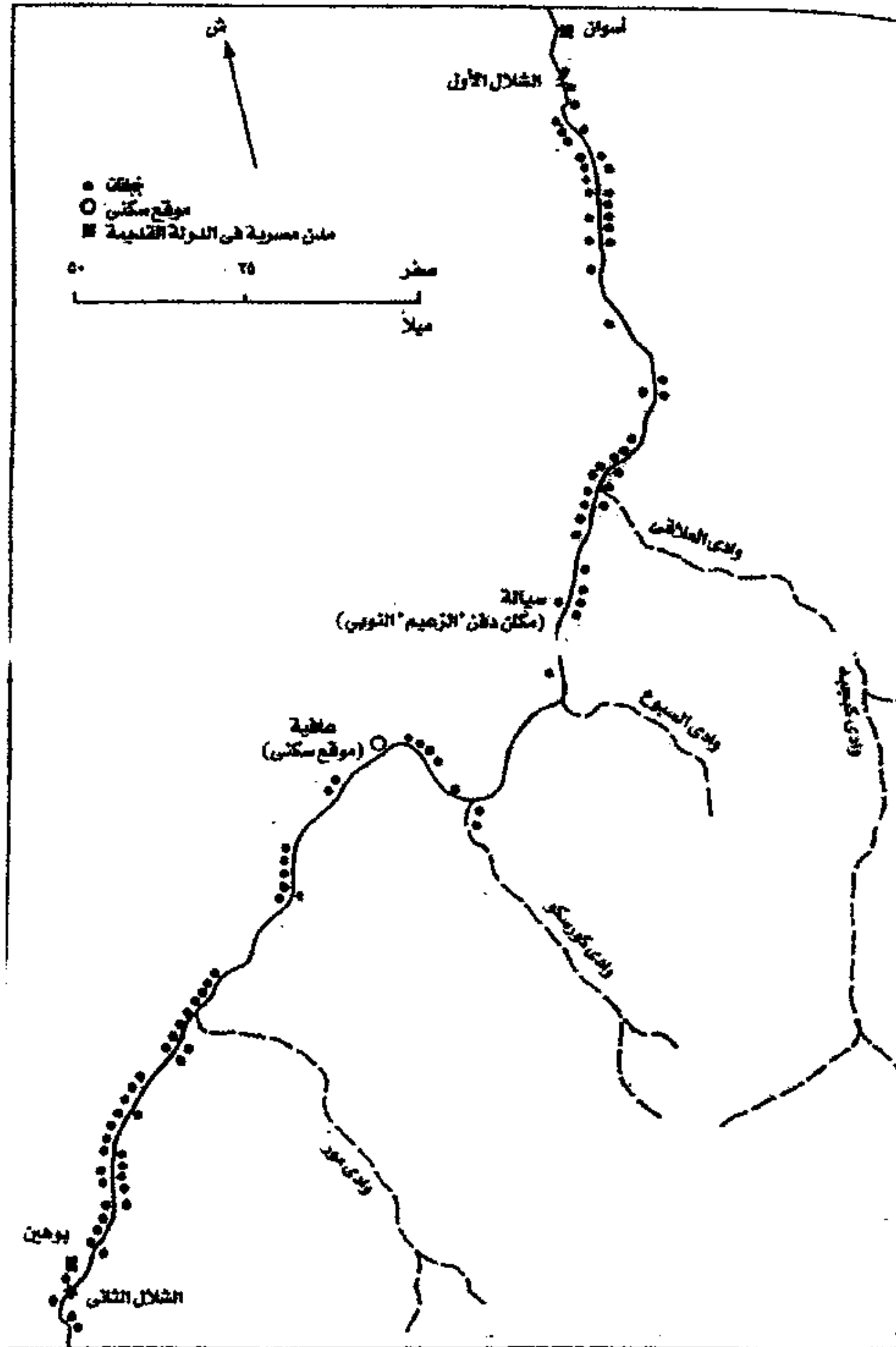
الطيب حيث (هو) يقيم مؤقتاً فى فيلة الطيبة. شكلت أنت خيراً كثيراً وأعدت الحياة، تضرع دائماً لتعاظم الهبات العظيمة للقائد المستقيم ليقود الخير فى كل مكان لارضاء (الناس). [١٤] هجرة (خارامادويه) لجلب الخير مع نية مباشرة (عطاء الطعام للفقراء). البا والخا تعلمانا ما هو الطريق (و) تعطيان شكل عودة مولد الهبات. اعطاء شكل لتجديد الحياة العظيمة (الذى) يترك ميراثاً فى هذا المكان الطيب (هو) واجب لب الموروث. [١٥] نساء الشاقا الطيبات يحمدن ويتوسلن التقدير.... يسامينه هو يثمن ويمنح من فضله تنظيم الخير الكثير ليصنع حياة (لهذا) الشخص المبجل (خارامادويه). لا تغلق الخير وأرشده (إلى) النصر. [١٦] هو يطلب الإذن (لـ) الهجرة ليصبح كفوءاً للهيبة والخير. حياته تُخلف ميراثاً للخير، الموهوب من القائد. أروخيتايه الخير يتراجع عن ما يقدمه القائد (و) [١٧] ويفك الهجرة. أذهب صلي وأطلب الإذن لتعطي هدية الخير هذه، وجوده يخلف ميراثاً للخير. باتابوتكايه (عليه) واجب التزام الشرف وطلب الإذن (لـ) إعادة مولد (خارامادايه) ليفتح ويكس(يها). [١٨] الشخصية المثالية للعاهل التى تثبتها المباشرة. بادئاً أمجاده هو يكرس ويمنح الكثير من الخير ليعطي التغذية. شرف عظيم (لـ) الخا. [١٩] قطعاً بنية عطائك وهباتك السخية الموجودة للارشاد للخير والعطاء، يخلف وجوده ميراثاً للخير يوجه الحياة إلى المكان الذى يقيم فيه مؤقتاً القائد. أذهب نظم (الآن) الرحلة (و) أجعلها (فى) حالة جيدة التنظيم. [٢٠] عزز عملية الاصلاح، وأعد احياء هبات البا والخا، واجب اصلاحاته سيفتح حتماً اصلاح الملك. اصلاح الملك تحتاج للكثير. [٢١] إعادة المولد تتطلب ترك تراث روح النصير (أريتن) اصلاح عظيم، رحلة الخا (هى) لفتح تجديد الحياة. أنت (أريتن) قادرون على إعادة مولده لفتح با القائد. (أيها) الخالق. [٢٢] سيعقب الملك الأعلى تراثاً يعطي سمو نعمته الموجه إلى نصير (أريتن) هيبة أعظم (لـ) تجديد حياة فيلة. أطلق باب الخير الفعلي مفتوحاً (و) أرشده إلى النصير. [٢٣] العاهل يمتلك ٨ (مرات) السمعة الطيبة (لأي رجل آخر). أمنح النصير من فضلك (و) وأمنح بركة عظيمة للبا الخيرة، لتعلم (البشر كما هو) التقليد. أمنح بالطبع... القدرة على الاحتمال لموروث القائد.

ملحق رقم (٢)

خريطة رقم (١) الاستعمار المصرى في الدولة الجديدة

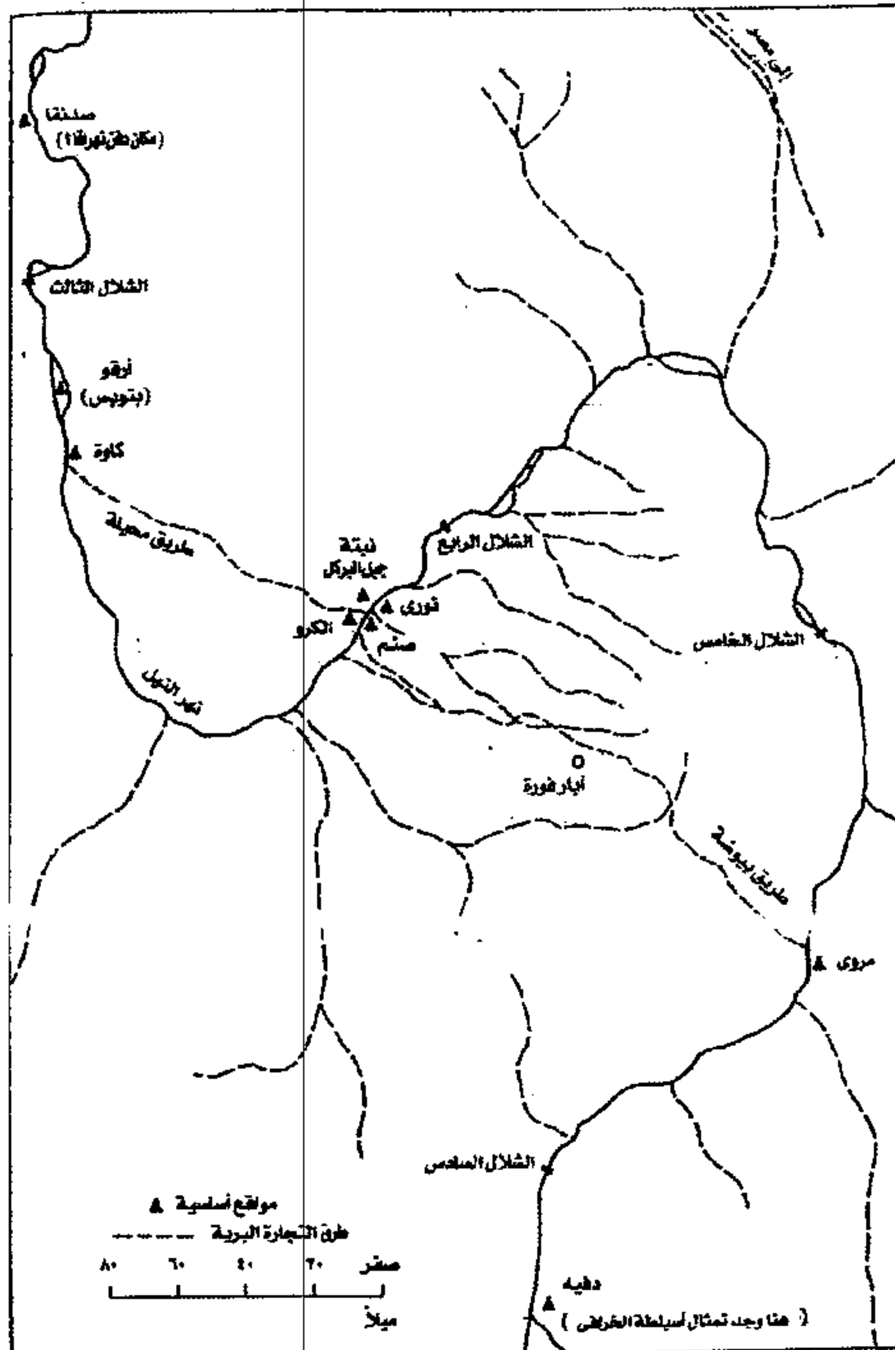


خريطة رقم (٢) توزيع مواقع معروفة لثقافة المجموعة الاولى (الافق أ)



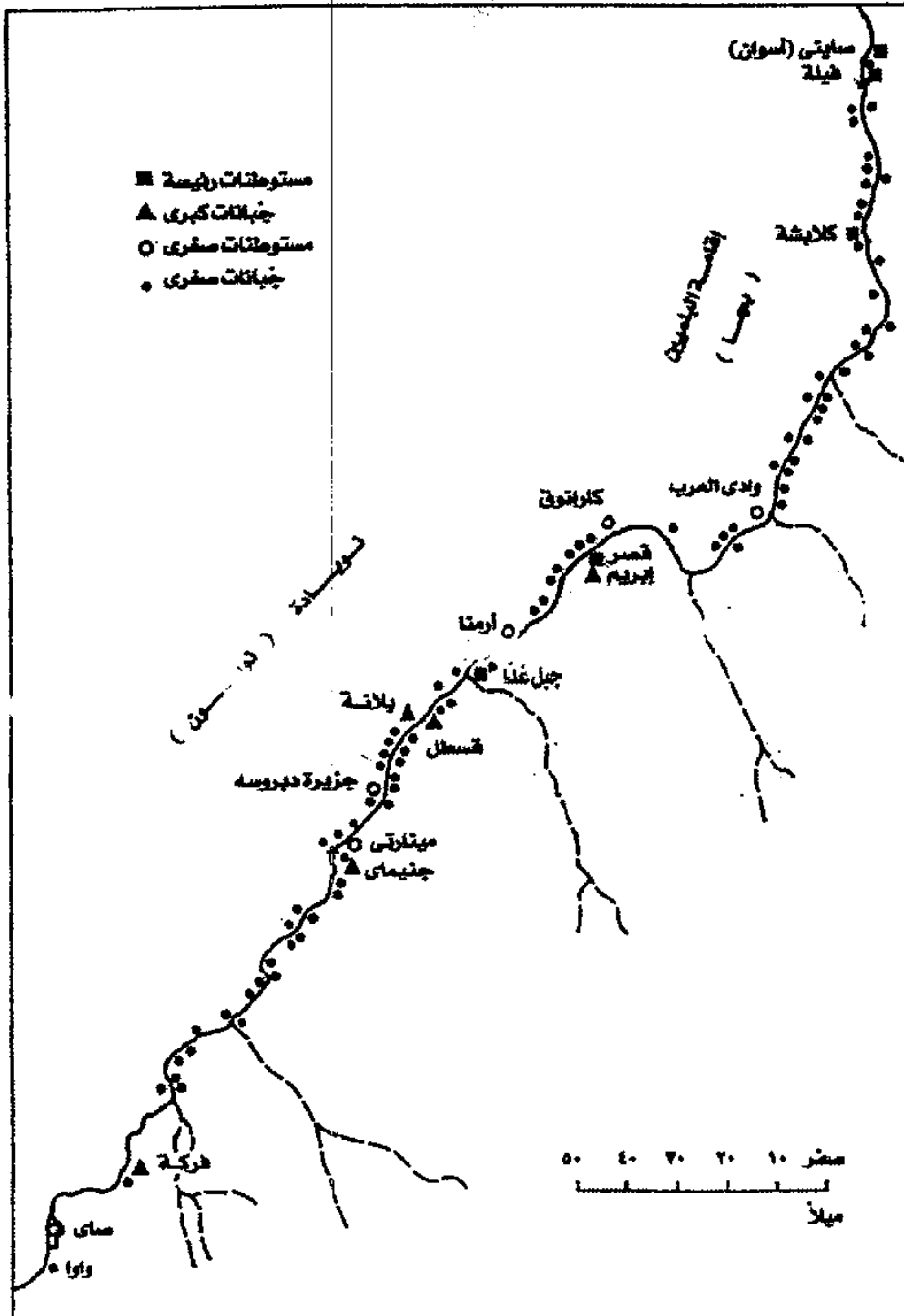
خريطة رقم (٣) توزيع المواقع المعروفة في ثقافة المجموعة الثالثة (الافق ج)

خريطة رقم (٤) النوبة العليا في الازمان التبتية



خريطة رقم (٥) مواقع مروية رئيسة في اراضي السهل

خريطة رقم (٦) النوبة السفلى في ازمان بلانة



المصادر:

- ابن أبي الفضائل، كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد في مسعد، المكتبة السودانية.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية، الخرطوم: جامعة القاهرة
  - بالخرطوم، ١٩٧٢، فيما يلي نشير إليه: مسعد، المكتبة السودانية. وكذلك نسخة موقع الوراق
    - warraq.com كل ما أخذته من موقع الوراق راجع إلى عام ٢٠٠٥.
- أحمد الياس حسين، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب. رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب جامعة القاهرة الأم ١٩٧٧.
- أحمد الحفناوي، سودان وادي النيل في ظل الإسلام القاهرة: دار المعارف ١٩٨٢
- أحمد بن علي، مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٦١.
- توروك، لازلو "تاريخ ما بعد مروي وآركيولوجيته" ترجمة أسامة عبد الرحمن لنور. أركاماني العدد السادس ٢٠٠٥
- الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٦٤
- الجبرتي، عجائب الآثار موقع الوراق
- جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام ص ١٢
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. العراق: جامعة بغداد ١٩٩٣.
- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب موقع الوراق.
- الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي، وصف إفريقيا تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر ط ٢ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٣ (كتب مذكراته في روما ١٥٢٦)
- حمد الجاسر، معجم قبائل المملكة العربية السعودية. موقع الوراق.
- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ج ١ ص ٢٨. موقع الوراق.
- ابن حوقل، صورة الأرض بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٧٩

- خريدة العجائب في مسعد، المكتبة السودانية
- ابن خلدون، كتاب العبر، في مسعد، المكتبة السودانية، وكذلك موقع الوراق
- رودلف كوبر، "في أثر الرعاة المبكرين" مجلة الآثار السودانية، العدد الثالث، أغسطس ٢٠٠٢.
- سيدة اسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية. بيروت: درا الرائد العربي ط ٣، ١٩٨٦
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام
- السيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب
- شوقي عطا الله الجمل، تاريخ سودان وادي النيل. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩
- الصحاري، كتاب الأنساب موقع الوراق
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك موقع الوراق
- عباس العزاوي، عشائر العراق. موقع الوراق
- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب تحقيق عبد المنعم عامر طبعة لجنة البيان ١٩٦١
- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم: مصر والعراق مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٠
- عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاث الأولي للهجرة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢
- عبد المجيد عابدين، في تحقيقيه لكتاب: المقريزي، *البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب*: مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩
- أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر مصر: ١٣٢٥.
- ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد الإسلام والنوبة
- القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص ٢٧. موقع الوراق.
- كلايدي ونتر، "بينة مروية عن الامبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس" ترجمة اسامة عبد الرحمن النور. مجلة الآثار السودانية، العدد ٥ مارس ٢٠٠٤ (online)
- ابن الكلبي، نسب معد واليمن الكبرى. موقع الوراق
- الكندي، كتاب الولاة والقضاة، تحقيق رُفِن جُوست. طبعة بيروت ١٩٠٨. أعادت نشره دار الكتاب الإسلامى
- محمد ابراهيم بكر، تاريخ السودان القديم القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١.
- محمد سليمان أيوب، "جرمة في عصر ازدهارها" بحث قدم للمؤتمر التاريخي بجامعة ليبيا نشر في كتاب: ليبيا في التاريخ، طرابلس: ١٩٦٨

- ــــــــ ، ليبيا في التاريخ بنغازي: كلية الآداب ، جامعة ليبيا ١٩٦٨.
- محمد صالح ضرار، تاريخ شرق السودان: ممالك البجة قبائلها وتاريخها. القاهرة دار الاتحاد العربي للطباعة ١٩٦٢
- محمد عزة دروزة، عروبة مصر
- ــــــــ، العرب قبل الإسلام
- محمد النور بن ضيف الله، كتاب الطبقات تحقيق يوسف فضل جامعة الخرطوم: دار التأليف والترجمة والنشر ط ٢، ١٩٨٥
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محي الدين القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى ١٩٥٨.
- ــــــــ، أخبار الزمان بيروت: دار الأندلس ب. ت.
- ــــــــ ، التنبيه والاشراف بيروت: دار ومكتبة الهلال ١٩٨١.
- مصطفى محمد مسعد ، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢
- ــــــــ ، المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى الخرطوم: جامعة القاهرة ١٩٧٢.
- المغيري، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب. موقع الوراق http://www.alwarraq.com
- المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ٢٣٣. موقع الوراق.
- ــــــــ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل تحقيق عبد
  - المجيد عابدين، اسكندرية: دار المعرفة الجامعية
- ــــــــ، تاريخ الأقباط المعروف بالقول الابريزي. دراسة وتحقيق د عبد المجيد دياب. دبي: دار الفضيلة تاريخ
  - الايداع بدار الكتب
- ــــــــ، كتاب المقفى في مسعد ، المكتبة السودانية
- المهلبي، المسالك والممالك عاش بمصر حيث ألف كتابه وأهداه للخليفة الفاطمي العز لدين الله، ولكن الكتاب الآن مفقود ونقل عنه المؤرخون اللاحقون.
- الهمذاني، صفة جزيرة العرب، موقع الوراق
- هنري برستد تاريخ مصر أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة كمال حسن

- وليام آدمز، "إختراع النوبة" ترجمة أسامة عبد الرحمن النور. مجلة الاثار السودانية ، عدد رقم ٢ (٢٠٠٠)
- ـــــ النوبة رواق إفريقيا، ترجمة محجوب التجاني محمود القاهرة: ٢٠٠٤.
- ونتر، كلايدي، "بينة مروية عن الامبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس" ترجمة اسامة عبد الرحمن النور. مجلة الآثار السودانية، العدد ٥ مارس ٢٠٠٤.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان موقع الوراق
- اليعقوبي، كتاب البلدان في مسعد، المكتبة السودانية

- Arkell, A. J. (1955), *A History of the Sudan from the Earliest Times to 1821*. London: University of London.
- Bates, Oric (1970), *The Eastern Libyans*. First edition 1914, new impression London: Frank Cass & Co. Ltd.
- Bernard, Hans *Sire, il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation of Historical and Archaeological Data*.
- Bernard Heine and Derek Nurse eds. (2000), *African Languages*. Cambridge: University Press.
- Brass, Mikey (2001), 'Tracing the Development of Cattle Cult with Regards to Pre-Dynastic and Early Dynastic Egypt.' www.antiquityofman.com Cited on July 2005.
- Breasted, James Henry, *A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest*. New York: Charles Scriber's Sons.
- Bury, J. B. (1958), *History of the Late Roman Empire*. NEW York: Dover Publication.
- Butler, Alfred J. (1978), "The Treaty of Misr in Tabari" in his book *The Arab Conquest of Egypt*. Oxford: University Press, 2nd ed.
- Clark, J. Desmond (1992), "Human Populations and Cultural Adaptations in the Sahara and Nile" in Kendall, T., *The Earliest People in Nubia*.

- Crawford, O. G. S. (1955) (ed.), *Ethiopian Itineraries Circa 1400 – 1524.* Cambridge: Cambridge University Press.
- Daniels, Charles (2002), "Africa" in Wacher, John ed., *The Roman World.* London and New York: Routledge.
- Desanges, M. (1981), "The Proto-Berbers" in Ki-Zerbo, ed. *General History of Africa, Methodology and African Pre-history Vol. 1.* Paris: UNESCO.
-

iop, Cheikh Anta (1974), *The African Origin of Civilization: Myth or Reality.* Chicago: Review Press.
- ------------ (1981) "Origin of Ancient Egyptians" in Mokhtar ed. *General History of Africa II: Ancient Civilization of Africa.* UNESCO.
- Eide et al, (2000) (eds), *Fontes Historiae Nubiorum,* 4 volumes. University of Bergen 1994-2000.
- Herodotus, (1990). *The History of Herodotus.* Robert P. Gwinn Publishers 2nd ed.
- Hoffman,Michael A. (1991), *Egypt before the Pharaohs, the Prehistoric Foundation of Egyptian Civilization.* Austin: University of Texas Press.
- Hugot, H. J. (1981) "The Prehistory of the Sahara" in Ki-Zerbo, J., ed. (1981), *General History of Africa I: Methodology and African Pre-history.* Paris: UNESCO.
- Hussein, Ahmed Elyas, *Africa the Mother Continent: An Introduction to its Ancient History.* Unpublished.
- Hussein, Ahmed Elyas, (2003). "The Missing Links: Relations between Early Cultures of the Sudan and the Western Frontiers of the Nile before the End of the 4th Millennium BCE." A paper presented to

the Sudanese Studies Association at George Washington University in August 2003, Washington.

- Illiffe, John (1996). *Africans: the History of a Continent.* Cambridge: Cambridge University Press
- Kendall, Timothy. *The Earliest People in Nubia.*
- Kerwan, L. P. (1937). "A Survey on Nubian Origin", *S.N.R.* xx
- Ki-Zerbo, J. ed. (1992). *General History of Africa I: Methodology and African Prehistory.* Oxford: Heinemann International Literature and Textbooks.
- Leaky, L. Richard and Levin, (1977). *Origins Reconstructed in Search of What Makes us Humans.* New York: Doubleday.
- MacMichael, H. (1967). *A History of the Arabs in the Sudan.* London: Frank Cass & Co. Ltd. 2nd ed.
- Martin, A. J. William and Hugues, Faure eds. (1980). *The Sahara and the Nile: Quaternary Environment and prehistoric occupation in North Africa.* Rotterdam: A. A. Balkima.
- Martin, B. G. (1969) "Kanemm Bornu and Fezzan, notes on the political History of a Trade Route" in *Journal of African History* Vol. X, No.1.
- Milne, J G. *A History of Egypt under the Roman Rule.*
- Mori, Fabrizio (1998). *The Great Civilizations of the Ancient Sahara: Neolithisation and the Earliest Evidence of Anthropomorphic Religions.* Rome: L'Erma.
- Olderogge, D (1936). "Migrations and Ethnic and Linguistic Differentiations" in Ki-Zerbo, J. ed. (1992). *General History of Africa I: Methodology and African Prehistory.* Oxford: Heinemann International Literature and Textbooks.
- Palmer, R. (1936). *The Bornu Sahara and Sudan.* London.

- Petrie, Flinders (1939). *The Making of Egypt.* London: Sheldon Press.
- Pliny the elder, *The Natural History.* Book xi, Chapters 33, 34. Online.
- Said, R. (1981). "Chronological Framework: African Pluvial and Glacial Epoch" in Ki-Zerbo, J ed. (1992). *General History of Africa I: Methodology and African Prehistory.* Oxford: Heinemann International Literature and Textbooks.
- Samkange, Stamlake (1971), *African Saga: A Brief Introduction to the African History.* Nashville: Abingdon.
- Strabo, *Geography.* Book xvii (online)
- Trimingham, J. S. (1983). *Islam in the Sudan.* London: Frank Cass & Co.
- Wendorf, Fred and Hassan, Fekri A. (1980). "Holocene Ecology and the Prehistory of the Egyptian Sahara" in Martin, A. J. Williams and Hugues, Faure Eds. (1980). *The Sahara and the Nile: Quaternary Environment and Prehistoric Occupation in North Africa.* Rotterdam: A. A. Balkema.
- Wendorf, Fred et al (1998). "Megalithic and Neolithic in Southern Egypt" in *Nature.*
- Wendorf, Fred and Rouald, Schild (1994). "Are the Early Holecene Cattle in the Western Sahara Domestic or Wild" in *Journal of Anthropological Archeology,* 3 No. 4. Online.
- Wacher, John ed. (2002). *The Roman World.* London: Rutledge, Vol. 1.
- Vercoutter, Jean (1992). "Discovery and Diffusion of Metals and Development of Social Systems up to the Fifth Century before Our Era" in Ki-Zerbo, J. ed. *General History of Africa I: Methodology and African Prehistory.* Oxford: Heinemann International Literature and Textbooks.

- Encyclopedia Encarta 2000 online.
- JewishEncyclopdi.com
- Wikipedia the free encyclopedia

A

Adiabari، ٢٠٦
Agathemerus، ١٩٣

?

?Agaua، ١٧٩

A

Alele، ٢٦١
Amida، ١٧٧
Armi، ١٧٣
Aujilae، ٢٦٠

B

Barakhia، ٢٣٨، ٢٤٠
Basilkos، ٢٠٠
Bulahau، ٢١٦
Bury، ٢٤٥، ٢٤٨، ٣٠٢

C

Coptos، ٢٢٦، ٢٣٩

D

Daro، ١٧٧
De Villard، ١٩٣
Dembian، ١٧٩
Derry، ١٧٢، ١٧٣
Diocletian، ٢٢٦، ٢٦٤
Dodekaschios، ٢٢٢

E

Egypt، ١٨٥، ٣٠٢
Eide، ٢١١، ٢١٦، ٢٣١، ٢٣٥، ٣٠٢
Ella، ١٧٧
Ergamenes، ٢٣٩
Ethiopians، ٤٩، ١٧٠

F

Fertoti، ١٧٧
Firth، ٢٤١

G

Gellaba، ٢٦١
Grassy valley، ١٨١

H

Harsiotef، ٢١٧
Hintze، ٢١٨

I

Irm، ١٧٣

K

Kasu، ١٧٧
Keane، ٢٥٩
Kemalke، ١٧٧
Khababash، ٢١٨
Khambes-wten، ٢١٨
kharahiet، ٢٣٧، ٢٤٠
Kharakhen، ٢٣٧، ٢٤٠
kharapatkhur، ٢٣٧، ٢٤٠

M

Mangurto، ١٧٧
Marcianus، ١٩٩
Meded، ٢١٢، ٢١٧
Meluhha، ٢٠٨

N

Nabta Playa، ١٨٣
Nastasen، ٢١٨
Navile، ٨١
Nebed، ١٩٤
Nebu، ١٩٤
Necho II، ٢١٠

Nimiu، ١٧٣
Noba، ١٧٧، ١٩٥، ١٩٦
Nobatae، ١٩٦، ٢٦٤
Norden، ١٥٧
Noûβoι، ١٩٤
Nubae، ٩٦، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٦
Nubei، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦
Nyima، ١٧٣

O

Olympiodorus، ١٩٨
Bates Oric، ٥٠، ٩٥، ٩٦، ١٥٠، ١٥١، ٢١٤، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٨٤

P

Pococke، ١٥٧
Ptolemais، ٢٢٦
Ptolemy، ٢٣٩، ٢٦٢

R

Rehrehs، ٢١٧
Reisner، ٢٤٠

S

Saha، ١٧٧
Sahara، ١٨٥
Salhen، ١٧٧
Seda، ١٧٧
Seligman، ١٧٢
Seyamo، ١٧٧
Shbataka، ٢٤٠
Sudan، ١٧١، ١٨٢، ٣٠١

T

Tabito، ١٧٧
Telelmis، ٢٤٦
Teqeridamani، ٢٢٥
Teriakontaschchoinos، ٢٢٢

أ

أبا مالك، ٧٦
أبجد، ٢٠

ا

ابراهيم باشا، ١٥٨
ابرهة، ٢٥، ٣٨، ٦١
ابريم، ١٩٩، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤٦
ابزر، ٢٧٤
ابن إسحاق، ٢٦
ابن الأثير، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٢٩٨
ابن الجهم، ١٢٤، ١٣٩
ابن الحكم، ٢٦٩
ابن الكلبي، ٢٤، ٣٦، ٦٢، ١٣٣، ٣٠٠
ابن الورد، ٢٩٢
ابن الوردي، ١٤٥، ٢٩١، ٢٩٣
ابن بطوطة، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٤١، ١٦٤
ابن تغري، ١٣٨، ١٦٠
ابن حزم، ٢٥، ٣٨، ٤٠، ٦١، ٢٩٩
ابن حوقل، ٣٣، ٣٤، ١٢٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٧٩، ٢٩٩
ابن خلدون، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٧٢، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١١٧، ١٢٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٨، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٣، ١٦٦، ٢٧٧، ٢٨٧، ٢٩٩
ابن سعيد، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦
ابن سلام الجمحي، ٣٩
ابن سليم، ٣٤، ٧٧
ابن سليم الأسواني، ٧٧
ابن عباس، ٣٠، ٣٦
ابن عبد الحكم، ١١٢، ١١٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٩٩
ابن عبدالحكم، ٢٦٨
ابن فاطمة، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٤، ٢٩٠
ابن فضل الله العمري، ١٦٢، ١٦٤

أ

أبو البلماء، ٢٧٥
أبو البلماءِ، ٢٧٥
أبو العباس السفاح، ٦٢
أبو المكارم هبة الله، ١٤٣
أبو حديد، ١٨٠
أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الغرياني التونسي المالكي، ٢٠
أبو عبد الله محمد بن علي، ١٤٣
أبو كنعان، ٣٤
أبو مهنا العمرابي، ١٦٢
أبي البار، ٢٥١
أبي الحسن، ٢٩٢، ٢٩٣
أبي الفضائل، ١٤٧، ٢٩٨
أبي بكر الصديق، ١٦٦
أبي ركوة الأموي، ١٤٣
أبي سلمة بن عبد الرحمن، ١٢١
أبي صالح، ٣٦
أبي كرب، ٢٦
أبي مروان بشر بن اسحاق، ١٤٣
أترك، ٣٠

ا

اثيوبيا، ١١، ٥١، ٥٤، ٦٩

أ

أجاثِمرس، ١٩٢، ١٩٤
أجاثِمُرس، ١٩٢
أحمد ابن طولون، ١١٠
أحمد الحفناوي، ٥٤، ٧٠، ٧١، ٢٩٨
أحمد بن طولون، ١٠٩
أخميم، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٩، ١٥٧



إ

إدفو، ١٣١، ١٣٢

آ

آدم، ١٦، ٣٠، ٥٨، ٢٥١
آدمز، ١٧٤، ١٧٥، ٢٠٢، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٧، ٣٠١

أ

أديَاري، ٢٠٦
أذربيجان، ٢٤

إ

إراتوستين، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٨، ٢١٢

ا

اراتوسطين، ٢٢٠

أ

أربين، ١٨١، ١٨٤

ا

ارتت، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٥٦
ارتريا، ١١، ٥١، ٩٨

أ

أرتريا، ٦٨
أرجين، ١٨٤
أرض البطانة، ١٧١
أرض قنورية، ٢٧٧
أركاماني، ٧٧، ١٧٦، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٩، ٢٩٨

آ

آركل، ١٧٦، ١٩١، ١٩٢، ٢١٢، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧

أ

أرم، ٣١

أرمينيا، ١٤

آ

آزقار، ٣، ٢٥٢، ٢٨٨، ٢٨٩

ا

اسامة عبدالرحمن النور، ٧٧، ١٧٤، ١٨٦، ١٨٩، ٢٣٢، ٢٩٧

اسحاق، ١٤٣

أ

أسد الدين، ١٢٣

ا

اسرائيل، ٢٠، ٢١، ٢٦، ٦٤، ٨٥

أ

أسعد أبو كرب، ٦١

أسماعيل بن ابراهيم عليهم السلام، ١٦

إ

إسماعيل بن جعفر الصادق، ١٦٠

أ

أسنا، ١٣٩



ا

اسوان، ١٣٩

أ

أسوان، ٣٤، ٧٢، ٧٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٦، ١١٨، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٦، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٧١، ١٧٩، ١٨١، ١٩١، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٦، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٨٢، ٢٨٥
أسيا، ٢، ٨، ١٠، ١١، ١٣، ١٤، ٤٥، ٤٧، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١٢٢، ٢١٤، ٢٤٤، ٢٦٢

آ

آسيا، ٤٦

ا

اسيوط، ١٢٩

أ

أسيوط، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٠، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨
أشمون، ٣١، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣١، ١٥٥
أعالي النيل، ٢٠٩
أعالي نهر سيداء، ١٧٧
أفاريس، ١٧٤
أفريقش، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٣٩، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٧٦
أفريقش بن قيس بن صيفي، ٢٤، ٦٠، ٦١

ا

إفريقيا، ٢، ٤، ٦، ٧، ٨، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٩، ٢٧، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٦٠، ٦٨، ٧٠، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٩، ١٠١، ١٠٣، ١٠٨، ١١١، ١٢١، ١٢٢، ١٥٠، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ٢٠٢، ٢٠٩، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٩٩، ٣٠١
إفريقيا الوسطى، ١١
افغانستان، ٢٠

أ

أفغانستان، ١٢١

إ

إقليم التاكا، ١٩٣

أ

أقليم السدود، ١٨١، ١٩٤

إ

إقليم الصعيد، ١٥٦
إقليم طيبة، ١٤٥، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٩، ٢٥٠
إقليم فزاني، ٢٦١
إقليم كوش، ١٧٣

أ

أكسوم، ١٧٠، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٩

آ

آكسوم، ١٩٩

ا

الابيض، ٤٥، ٤٦، ٧٩، ٨٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٣
الأحقاف، ٣١
الأخشيدي، ١١٠
الادريسي، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٦
الأدفوي، ١٤٧
الأراميون، ١٠
الأردن، ١٦، ٨٥، ٢٦٠
الاستبس، ١٨٣
الاسكندر، ٢٧، ٢٨، ١١٠، ٢١٧، ٢١٨

الاسكندرية، ٥٧، ١٠٣، ١٥٤، ١٩٠، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٩٩
الأشوريون، ١٦
الاصطخري، ٣٣
الأفروآسيوية، ١٠، ١١، ١٢، ١٣
الأقصر، ١٣٣، ١٤٥، ١٧٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٩، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩
الأكديون، ١٠
الامام مالك، ١٦١
الامبراطور تاوداسيوس، ٢٢٨
الامبراطور ثيودوسيوس، ٢٣٩
الامبراطور قسطنطين الأكبر، ٢٢٩
الامبراطورة ثيودورا، ٢٤٥
الامبراطورية البيزنطية، ٢٥، ٢٢٦
الامبراطورية الرومانية الشرقية، ٢٥، ٢٢٦
الأمهرة، ١٠
الأمين، ١٠٧، ١٤٨
الأمين بن هارون الرشيد، ١٠٧
الأندلس، ١٠٤، ١١٧، ٢٢٦، ٢٧١، ٣٠٠
الأندلسي، ١١٩، ٢٧٠
الأوجيلي، ٢٦٠
الأوس، ٢٦، ١٢١، ١٢٦، ١٣٣
البابليون، ١٠، ١٦، ٨٧
الباري، ١٧٧
البجا، ٣٤، ٢١٢، ٢١٦، ٢٣٤
البجاوية، ٩٠، ٩٨
البجة، ١١، ٣٣، ٥١، ٦٠، ٦٤، ٦٧، ٧٦، ٨٤، ٨٩، ٩٠، ٩٦، ١٢٤، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٦٥، ١٦٧، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٩، ٣٠٠
البحر الأبيض، ١٠، ١٤، ٥٠، ٧٤، ١٤٩، ٢٥٤
البحر الأبيض المتوسط، ١٠، ١٤، ٥٠، ١٤٩
البحر الأحمر، ٢، ٣، ١٧، ٣٣، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٦، ٨٠، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٦١، ١٩٣، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٤
البحر المتوسط، ٤٦، ٤٧، ١٠٨، ١١٩، ٢٥٩
البحرين، ٢٦، ٣٠
البرقد، ١٩٢

البصرة، ٢٧٢

البطانة، ١٧٢، ١٧٨

البكري، ١٥٢، ١٥٣، ٢٧٠

البلاس، ٢٧٥

البلخي، ٢٣

البلد العلوي، ٢٤٦

التاميا، ٢٣٢

الترُجُلدايت، ٣، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٥٨

الترك، ٢٤، ٢٦

الجاحظ، ٧٧، ٢٩٨

الجبرتي، ١٥٧، ٢٩٨

الجرجاني، ٢٤، ٢٥، ٦٢

الجرف الكبير، ١٨٢

الجرمانت، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩

الجزائر، ٤٧، ٥٠، ٢٨٠

الجزيرة، ٩، ١٠، ١٣، ١٤، ١٥، ١٨، ٢٠، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٤، ٦٦، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٥، ٧٩، ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٥، ١٤٥، ١٥٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٣٧، ٢٤٩، ٢٦٢، ٢٨٤

الجزيرة Psebo، ٢٦٢

الجزيرة العربية، ١٣، ١٥، ٥٤، ٥٧، ٦٦، ٦٩، ٧١، ٧٥، ٩٥، ٩٨، ٢٠٥

الحارث، ٢٨

الحافظ، ٢٠، ٣٠

الحبشة، ٥٧، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٩، ١٩٩، ٢٢٩، ٢٨٢، ٢٩٢

الحجاز، ٢٠، ٣١، ٩٠، ٩٥، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٢

الحرازة، ١٨٠

الحرث، ٢٥، ٦١، ٦٤

الحرث الرائش، ٦١

الحسن الوزان، ٢٥٩

الحمدان، ١٣٠

الحمداني، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٩

الحميري، ٦٣، ٧٦، ٨٠، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٩

الحيرة، ٢٦

الخاسا، ١٧٧



الخرطوم، ٤٧، ٧٢، ١٠٦، ١٧٦، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٤، ٢٤١، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٩٨، ٣٠٠

الخزرج، ٢٦

الخليج العربي، ٥٥، ٨٩

الدبة، ١٩١

الدلتا، ٨١، ٨٣، ٨٤، ١٠٦، ١٢٣، ١٧٤، ٢١٨

الدلتا الشرقية، ٨١، ٨٣

الرايش، ٢٨، ٦٤

الرائش، ٢٥، ٦١، ٦٤

الربيع، ٣٠، ١١٥

الروم، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٦٣، ٩٣، ١٠٣، ١٤٤، ١٤٥

الرومان، ١٧، ٤٨، ٧٦، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٥٠، ٢٦٠، ٢٦٨

الزبير بن العوام، ١٠٣

الساحل الافريقي، ٦٥

الساحل اليمني، ٦٥

السد العالي، ٧٨

السنغال، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١

السهيلى، ٢٥، ٣٩

السهيلي، ٢٥

السودان، ١، ٤، ٥، ٦، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٧، ٣٨، ٤٥، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٦٠، ٦٤، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٨، ٩٠، ٩٢، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٣، ١٠٨، ١١٠، ١١٥، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٧، ٣٠٠

السيوطي، ١١٦، ١٢٢، ١٣٣، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٩

الشاسو، ٨٤، ٨٥، ٩٠

الشافعي، ١١٥، ١٦١

الشاق، ٢٣٢

الشام، ٩، ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٦، ٣٥، ٣٩، ٥٩، ٦٤، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ١٢٦، ١٤٧

الشرق الأوسط، ٤٣

الشريف، ١٣٢، ١٦٧

الشريف زيد بن أبي نمي، ١٣٢

الشلال الأول، ٢٤٧، ٢٥٦

الشلال الثالث، ١٧٤

الشلال الثاني، ٢٢٢، ٢٤٧، ٢٥٦
الشهناب، ١٧١، ١٨٢، ١٨٩
الشيخ إدريس ود الأرباب، ١٨٠
الصاحب بن عباد، ٢٩٣
الصحاري، ٣٦، ٣٧، ٥٨، ٥٩، ٢٩٩
الصحراء الشرقية، ٥٨، ٧٥، ٨٩، ١٣٠، ١٣٩، ١٦١، ١٨٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٦
الصحراء العربية، ٨، ٢٥٤
الصحراء الغربية، ٥، ٩٦، ٩٧، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥
الصحراء الكبرى، ٢، ٨، ٩، ١٠، ١١، ٢٣، ٣٤، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٧٢، ٩٦، ١٠٣، ١٥٠، ١٨٧، ١٩٥، ٢١٥، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٩٨
الصحراء الكبري، ٤٩، ٩٦، ١٠٨، ٢١٥، ٢٨٧
الصحراء الليبية، ٢٥٣
الصغد، ٢٤
الصومال، ١١، ٥١، ٧٣، ٧٤، ٨٠
الصين، ٢٤، ٢٧، ٦٢، ٦٣
الضرب العدواني، ٩٩
الطبري، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٦٢، ١٤٠، ٢٩٩
الطفيل، ٩٩
الظاهر أبي سعيد برقوق، ١٥٣
الظاهر بيبرس، ١٣٢
العبرانيون، ١٠، ٨٥
العتباي، ٢٠٦
العجيل بن الذئب، ١٥٩
العراق، ٩، ١٠، ٢٠، ٢٦، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٧٠، ١٣٣، ١٣٩، ٢٩٨، ٢٩٩
العقبة الكبيرة، ١٥٤
الفاشر، ١٧٤، ٢٨٣
الفرات، ٢٦، ٨٤، ١٣٢، ١٣٤، ١٤٧، ١٦٦، ٣٠٠
الفرافرة، ١٨١
الفسطاط، ١٠٣، ١١٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٤٨
الفنتين، ٢٢٢، ٢٢٦
الفونج، ١٧٩، ١٨٠

إ

إلفي، ٤٤

ا

الفينيقيون، ١٠، ٨٧
الفيوم، ١٤٩، ١٥٢، ٢٨٥
القاش، ٦٨، ١٧٨
القاهرة، ١٠، ٥٤، ٦٠، ٦٦، ٧٢، ١٠٥، ١٠٦، ١١٤، ١٢٤، ١٣٨، ١٥٤، ١٦١، ١٨٩، ١٩٣، ٢٠٦، ٢١٨، ٢٨٣، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١
القس لونجينوس، ٢٥١
القسطنطينية، ٢٥، ٢٢٦
القلقشندن، ٩٢
القلقشندي، ٣٥، ٤٠، ٤١، ٩٢، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ٢٧٦، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٠
القمي، ١٤٠
القوقاز، ٢٠٩
القيروان، ٢٦٨
الكاجار، ١٩٢
الكانم، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٥
الكدرو، ١٧٧
الكرنك، ١٧٤
الكلدانيون، ١٠
الكمرون، ١١
الكندي، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ٣٠٠
الكنز، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨
الكنعانيون، ١٠، ٣٥، ٨٦
الكوفة، ٢٧٢
اللاك، ٢٣٢
اللوتوفاجي، ٢٥٨
الليث بن سعد، ١١٣
المأمون، ١٠٦، ١١٥، ١٤٨

أ

ألمبيودورس، ١٩٨

ا

المتوكل، ١٤٠

المحدثة، ١٤٣

المحرقة، ٢٢٢

المحيط الأطلسى، ٢٧٦

المحيط الأطلسي، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ١٩٠، ٢٥٣، ٢٧٧، ٢٨٠

المحيط الهندي، ٥٥، ٦٧، ٦٩، ٧١

المستنصر، ١١٠، ١٤٥

المسعودي، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٧٧، ٩٥، ١٢٤، ١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٧٩، ١٨٠، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠٠

المعتصم، ١٠٧، ١٢٤، ١٤٨، ٢٧٢

المعدن، ١١١، ١٢٤، ١٢٧، ١٣١، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣

المعز لدين الله، ١١٠، ٢٧٧

المغرب، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٦، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١٣٩، ١٥٤، ١٦١، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٨٠

المغرب الأقصى، ٢٧٤، ٢٨٨

المغيري، ٥٨، ٣٠٠

المقدسي، ٢٣

المقدم، ١٧٥، ١٩١

المقرة، ١٣١، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٩٦

المقريزي، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٥٧، ١٠٤، ١٠٥، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٩، ٣٠١

الملك، ١٧، ٢٥، ٣١، ٣٧، ٦٣، ٦٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ١٣٧، ١٤٧، ١٧١، ١٧٤، ١٧٥، ٢٠٦، ٢١١، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٧٠

الملك باراخي، ٢٤٨

الملك باراخيا، ٢٣١، ٢٣٨

الملك خاراخن، ٢٣١، ٢٣٨، ٢٤٨

الملك خارمادوية، ٢٣٢، ٢٣٥

الملك كاشتا، ٢٤٠



الملك نستاسن، ٢١٨
الملكة حتشبوت، ١٧٤
الملكة كليوباترة السابعة، ٢١١
المملكة العربية السعودية، ١٦، ١٣٣، ٢٩٩
المنيا، ١٢٤
المهلبي، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٠١
الموصل، ٢٠، ٢٤
الميماء، ١٧٣
الناخبار، ٢٣٢
النسادوكاء، ٢٣٢
النسل، ٢٢٥
النعمان، ٣٩
النوبة، ٣٣، ٣٤، ٥١، ٦٧، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ٢٠٢، ٢١١، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٩، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠١
النوميدي، ٧٥
النويري، ١٢٢، ١٣١، ١٣٤، ١٤٢، ١٦٦
النيجر، ١١، ١٢، ٤٨، ٥٠
النيل، ٣، ٤، ٦، ١٠، ١٧، ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٥٤، ٥٧، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٤، ٨٩، ٩٦، ٩٧، ١٠١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٢، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦
النيل الأبيض، ١٧١، ١٧٣، ١٧٩، ١٨١، ١٨٩، ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤
النيل الأزرق، ١٧٥، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٨، ١٩٧
النيل الأصفر، ١٨٣، ١٨٦
الهكسوس، ١٨، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ١٧٤
الهلال الخصيب، ١٠، ١٣، ٢٥٣
الهمداني، ٨٩
الهند، ٩، ٨٤، ١١٦، ١١٧، ١١٩
الواحات، ٤٨، ٩٥، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٧٤، ١٩٥، ١٩٧، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٧

الواحات الخارجة، ٢٨٥
الواحات المصرية، ٢٦١، ٢٦٢
الواحة الخارجة، ٩٧، ١٨٢، ١٩١، ١٩٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٥، ٢٨٦
اليعقوبي، ١٠٦، ١٢٧، ١٤٠، ١٦٥، ١٧٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٨٦، ٢٩٦، ٣٠١
اليمامة، ١٤٠
اليمن، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٢، ٣٨، ٣٩، ٥٧، ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٩، ٧٥، ٧٦، ٨٩، ٩٥، ٩٨، ١٥١، ٢٢٢، ٢٣٨
الينبع، ٩٢، ١٣٥
اليوت سمث، ٨١

إ

إليوت سميث، ٢٤٣

ا

اليونان، ١٧، ٢٨، ٩٣

أ

أم درقة، ١٨٠

ا

امبرطورية الروم، ٢٢٦

أ

أمدرمان، ٢٦٠

إ

إمري، ٢٣٦، ٢٣٨
إيمري، ٢٣٦

أ

أمير عرك أبوبكر بن الأحدب، ١٦٦
أنكلاس، ٢٧٥



أنلاماني، ٢١٦
أنمار، ٣٠
أوبديجراف، ٢١٦
أوجيلي، ٢٥٨
أوربا، ٢٥، ٣٥، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٦٣، ٧٩، ٨٤، ٩٦، ١٠٨، ١١٢، ١٢٠، ١٢٢، ٢٢٦
أوريك بيتس، ٤٩، ٥٠، ٩٦
أوزبكستان، ١٢١
أوزوريس، ١٩٩
أولبميودورس، ٢٤٢

ا

اولمبيودورس، ٢٢٨

أ

أوني، ٢٠٦

ا

ايام، ٩٣، ١٣١، ١٥٢، ١٦٨، ٢٠٦، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤
ايران، ٢٠، ٥٦

إ

إيران، ١٢١
إيزيس، ١٩٩، ٢٢٩

ب

باب المندب، ١٤، ٦٩
بابل، ٣٥
باتابوتكاية، ٢٣٢، ٢٣٣
باتاكاية، ٢٣١
باخورس، ٢٤٥
بارتون، ١٤
باكتمن، ٢٣٧، ٢٤٩، ٢٥٠

باكستان، ١٢١
بالمز، ٢٨٣
باو، ٢٣٧، ٢٤٩
بتلر، ٢٣٩
بُتلر، ٢٣٩
بحر القلزم، ٩١، ٩٢، ٩٥، ١٣٥
بحيرة تانا، ١٧٩
بحيرة تشاد، ٦، ٤٧، ٤٨، ٥١، ١٨١، ١٨٦، ١٨٨، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٩٠
بحيرة كري، ٢٩٠
بحيرة كوري، ٢٩٠
بدج، ١٩٦، ٢٤٥
بر بن قيس عيلان، ٣٨
برزخ السويس، ٨٩
برسند، ٨١، ١٠٠، ١٠١، ٣٠١
برسند، ١٠٠
برقة، ١١٠، ١٥٤، ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٦٨
بَرناد، ٢٣٨
برنارد، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٨
بَرنارد، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٨
بروكوبيس، ٢٦٤
بروكوبيوس، ٩٧، ١٩٦، ١٩٩، ٢٣٠، ٢٦٤
بريابوس، ١٩٩
بريطانيا، ٧٨
بشر، ١٠٥، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥
بشر بن صفوان الكلبي، ١٠٥
بطلميوس، ٩٦، ١٥١، ١٩٢، ١٩٤، ٢٦٢، ٢٦٤
بطليموس، ١٩١، ١٩٣، ٢٦٢
بعانخي، ٢٤٠
بكر، ٩٥، ١٣٤، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٩، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٤٢، ٢٤٦، ٣٠٠
بلاد القفر، ١٥١
بلاد كوري، ٢٩١
بلاد كوكو، ١٥١
بلاد ينه، ٢٩١
بلار، ١٦٠

بِلاق، ٢٨٢
بلال الحبشي، ١٢١
بلاتا، ٢٢٧، ٢٤٤
بلاتة، ٢٣٣، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤
بلايني، ١٥٠، ٢١٠، ٢٤٢، ٢٦٠، ٢٦٤
بلايني الكبير، ٢٠٦
بلبينوس، ٩٣
بلقمة، ٢٨
بلقيس، ٢٨، ٢٩، ٣٢
بلكريف، ١٤
بلوتارخ، ٢١١، ٢١٢
بلي، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٨
بليمي، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٤٩
بليني، ٩٦، ٢٦١، ٢٦٢
بليني، ٥٤، ٥٧، ٥٩، ٧٤، ٧٥، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٢٠١، ٢١٠، ٢١١
بني سليم، ١٢٠، ١٥٩
بني ثعلب، ١٢٦، ١٦٠
بهنسا، ١٥٢
بوركهارت، ١٥٨
بوري، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥٠
بوكوك، ١٥٧
بيتس، ٤٩، ٥٠، ٩٦، ١٥١، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥
بير صحاري، ١٨١
بير طرفاوي، ١٨١
بئري طرفاوي، ١٨٤

ت

تاج الدين اسماعيل بن مازن الهواري، ١٦٠
تاجوة، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٥، ٢٩٥
تافقة، ٢٤٦
تالمس، ٢٤٦
تامال، ٢٣٦
تبستي، ١٨٢، ١٨٨، ٢٥٧



تبع، ٢٨

تبعا، ٢٥، ٢٦

تحوتمس الأول، ١٩٤

تدمر، ٩٦، ٢٢٦

تركمنستان، ١٢١

ترمنجهام، ٩٨، ١٨٠، ٢٢٥

ترياكونتاس، ٢٢٢

تشاد، ١١، ١٥٣، ١٨٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٩٧

تقردماني، ٢٢٤

تنتكنا، ٢٣٧

تنزانيا، ٦٧

توروك، ١٧٦، ٢٩٨

تونس، ٤٧، ٧٥، ٢٠٩، ٢٧١

تيودورا، ١٩٩

ث

ثيودور، ٢٤٥

ج

جابيلا، ٢٨٤

جاجة، ٢٧٣

جالوت، ٣٩

جالوس، ٩٣

جامعة بيرقن، ٢١٦

جامعة كولون، ١٨٧

جبال النوبة، ١٧٣، ١٧٥

جبال انيدى، ١٨٦

جبل العوينات، ١٨١، ١٨٣، ١٨٨، ١٩٧

جبل رحيب، ١٨٦

جبل عبد الهادي، ١٩٢

جبل عوينات، ١٨١

جبل لونيا، ٢٨١، ٢٨٩

جبل مرة، ١٨٨

جبل ميدوب، ١٩٢
جبل نفوسة، ٢٠٩
جدة، ٩٥، ١٣١، ١٣٢
جديدي، ١٦٠
جذام، ٣٨، ٣٩، ١٣٣، ١٤٨، ١٥٣
جرجا، ١٦٧
جرجي، ١٨، ٨٤، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٢٩٨
جرجي زيدان، ١٨، ٨٤، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٢٩٨
جرجير، ٦١
جَرَما، ٢٦٠
جرمة، ٢٥٩، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٨٨، ٣٠٠
جَرَمة، ٢٦٧
جزام، ١٢٣
جزيرة تناري، ١٤٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٨، ٢٥٠
جزيرة فيلة، ١٩٩
جزيرة مروي، ١٧٧، ١٧٨
جزيرة مروي الوسطى، ١٧٧
جستنيان، ٢٤٤، ٢٤٨
جسر سوهاج، ١٢٨، ١٢٩
جسر سوهاي، ١٢٩
جعد، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٧، ١٤٨، ١٦٢، ١٦٨
جعفر، ١٢٣، ١٢٥
جنوب السودان، ١٢، ١٨١
جنوب كردفان، ١٢
جنوب ليبيا، ٦، ١٢، ٥١، ١٨١، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٥
جنوب مصر، ٢، ٥، ٧، ٨٠، ١٠٢، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٤، ١٤٨، ١٩٦، ٢٠٧
جنيد، ١٦٢
جهينة، ٩١، ٩٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٨،
١٥٥، ١٦٤، ١٦٨
جواد على، ٣٩، ٨٥
جواد علي، ٩، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ٣٩، ٢٩٨
جوبا، ٧٢، ٧٤، ٧٥
جيرلند، ١٤

جيمس، ١٠٠
جيمي، ٢٧٣، ٢٩٥

ح

حام، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٦٤، ٢٧٦
حاما، ٣٤
حران، ٢٠
حرخوف، ٢٥٥
حسان بن ثابت، ١٢٦
حسن كمال، ١٠٠
حضر موت، ٣١
حطي، ٢٠
حلفا، ٥٦، ٧٢، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥، ٢١٩، ٢٢٨، ٢٤٣
حمير، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٦، ١٥٩
حنيفة، ١٢٣، ١٤٠
حوض الدانوب، ٢٠٩
حوض النيجر، ١٩٢

خ

خارابابتخور، ٢٣٧
خارابابتكور، ٢٣١
خاراخن، ٢٣٧
خاراخِن، ٢٣٧
خاراخيت، ٢٣٧
خارامادوية، ٢٣١، ٢٣٢
خارامادويه، ٢٣١، ٢٣٢
خاراهايت، ٢٣١
خالد بن الوليد، ٥٨
خالد بن صفوان، ٦٣
خاوَر، ٢٦٨
خباباش، ٢١٨
خرابابتخور، ٢١٩
خراخت، ٢١٩

خراخن، ٢١٩
خراسان، ٢٠
خرسان، ٢٧٢
خزيمة، ١٢٥
خليج سرت، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٥
خميس - وتن، ٢١٨
خور بركة، ٦٨
خورشيد، ١١٥

د

دارفور، ١٢، ٥٠، ٥١، ٩٧، ١٣٨، ١٨٣، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٩٧
دارو، ٢١٨
داليون، ١٩٠
داود، ٢٥، ٣٩
داؤد، ١٩٢
داؤد كُبارا بن يوسف، ١٩٢
دجلة، ٢٦، ٧٥
درب الأربعين، ١٩١
دروزة، ٧٣، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٧
دغيم، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٨، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥
دقلديانوس، ٩٧، ٢٢٦، ٢٤١، ٢٦٤
دمشق، ١٨، ٩٦
دنقلا، ٣٤، ١٣٤، ١٨١، ١٨٦، ١٩٢، ٢١٢، ٢١٩، ٢٤٧، ٢٨٠، ٢٩١، ٢٩٤
دنقلة، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٧، ١٧٩، ٢٩١، ٢٩٥، ٢٩٦
دنيال، ٢٨٨
دوديكاس، ٢٢٢
دولة مروي، ١٧٠، ١٧٦
دي فلارد، ٢٤٧
ديودورس، ٤٧، ٥٤، ٥٧

ذ

ذا الاذعار، ٢٤، ٦٠
ذو المنار، ٢٥، ٦١، ٧٦

ذو المهار، ٣٨
ذي الأذعار، ٢٦، ٢٨
ذي المنار، ٢٨، ٧٦
ذئب، ٣٠

ر

رأس دواير، ١٣١
رايزنر، ٢٤٠، ٢٤٣
ربيع، ٣٠، ١١٥
ربيعة، ٣٠، ١٠٦، ١١١، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٦٥
ربيعه، ٣٠
رفاعة، ١٣٣، ١٤٨
ركن الدين، ١٣٧، ١٤٧
رواحة بنت السكر، ٢٨
روجرز، ٢٧٠
ريدان، ١٧٧

ز

زامل الثاني، ١٦٢
زعازع، ١٥٥، ١٦٠
زُعازع، ١٥٥
زنوبيا، ٩٦، ٢٢٦
زويلة، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣

س

ساش، ٥٨
سام، ١٨، ٣١، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٥٨
سام بن نوح، ١٨، ٥٨
ساما، ٣٤
سانسانوس، ٢٣٧
ساويرس بن القفع، ١١٦
سبأ، ١٦، ٢٧، ٢٨، ٣٩، ٧٦، ١٥٩
سبأ بن يَشجب بن يَعرُب، ٢٧



سترابو، ٥٧، ٦٠، ٧١، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٦٢، ٢٨٤
سترابوبليني، ١٧
سجلماسة، ٢٨٩
سد مأرب، ٧٠، ٩٨
سدراتة، ٣، ٢٥٢، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٨
سراج، ١١٥
سرية، ١٨٠
سَطِيحٌ، ٣٠
سعد بن معاذ، ١٢٦
سعفص، ٢٠
سعيد بن بطريق، ١١٦
سغوة، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٧
سلكو، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥١
سلمان الفارسي، ١٢١
سليم، ٣٤، ١١١، ١٤٠، ٢٧٢
سليمان (عليه السلام)، ٢٤، ٦١
سليمة، ١٨١
سمرة، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥
سمرة بن كامل العامري، ١٦٢، ١٦٤
سمرة بن مالك، ١٦٤
سمرقند، ٢٤
سمنة، ١٧٢
سمية، ٢٨٥
سنار، ٧٢، ١٧٢، ١٧٤
سنبس، ١١١، ١٢٣
سنترية، ١٥٢، ٢٨٥
سنوسرست الأول، ١٧٣
سواكن، ١٣١، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٩، ١٦٥
سوبا، ٢٤٧
سوبة، ١٨٠، ٢٩٦
سوريا، ١٦، ٥٩، ٨٤، ١٢٧، ٢١٥، ٢٢٦
سيبويه، ١١٧
سيدة، ٧٩، ١١٢، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ٢٩٩



سيدة اسماعيل، ١١٢، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ٢٩٩

سيزستريس الثالث، ١٧٢

سيمونيد، ١٩٠

سيناء، ١٤، ٥٨، ٦٥، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٩

ش

شادٍ، ١٥٩

شادي، ١٥٩

شاراتكور، ٢٣٧

شاراشن، ٢٣٧، ٢٣٨

شاراهيت، ٢٣٧

شارب، ٩٣، ٩٤، ٩٥

شارلس دانيال، ٢٢٨

شارلس دانيالز، ٢٢٢

شبه الجزيرة العربية، ٩، ١٠، ١٤، ١٥، ١٨، ٥٦، ٥٩، ٦٤، ٦٩، ٧٠، ٧٩، ١٠٩، ١٣٥، ١٥٠، ٢٠٥، ٢٦٠

شتر بن غنيم العامري، ٢٠

شداد، ٣١

شديد، ٥، ٣١، ٢٨٦

شراشن، ١٤٥، ٢٤٨

شرف الدين عيسى بن عمر الهواري، ١٦٠

شرق إفريقيا، ١٤، ٤٥

شرق السودان، ٩٨

شرقي البحر المتوسط، ١٧

شريف، ١٣٤، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧

شق، ٣٠

شكران، ٣٠

شكندة، ١٤٧

شمال إفريقيا، ٢، ٣، ٦، ١٤، ٣٧، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٦٠، ٨٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١١١، ١٢١، ١٢٢، ١٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٨٦، ٢٩٧

شمال السودان، ١٧٣، ١٧٥، ١٩٠، ١٩٨، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣٠، ٢٥٤، ٢٦٥، ٢٦٦

شمال أم درمان، ١٧١

شمال تشاد، ١٨٢

شمال دارفور، ١٨٩

شمال كردفان، ٥١، ١٨٠، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٦٤



شمال مروي، ١٧٧
شمالي مالي، ٥٠
شمر، ٦٣
شوقي، ٦٦، ٦٧، ٧٣، ٧٤، ٩٥، ٢٠٦، ٢٩٩
شوقي الجمل، ٦٦، ٧٣، ٧٤، ٩٥
شيبان، ١٢٣، ١٣٤، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٦، ١٦٨
شيركوه، ١٢٣

ص

صالح، ١٠، ٥٥، ٦٠، ٨٤، ٩٠، ٩٨، ٢١٨، ٢٥٥، ٢٩٩
صحاري، ٣١
صحراء العتباي، ١٣٨
صحراء بيوضة، ١٨١، ١٨٩، ٢٥٩، ٢٦٠
صحراء سينا، ٢، ٥٣، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٥، ٨٨، ٨٩
صحراء سيناء، ١٤٢
صحراء شبه الجزيرة العربية، ٩، ١٠، ١٥٠
صحراء عيذاب، ١٣٠
صحراء ليبيا، ٢٥٣
صعصعة، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩
صعيد مصر، ٧٧، ٩٥، ١٥٤، ١٨٢، ٢٠٧، ٢٣٨، ٢٥٠
صقلية، ٢٧٠
صلاح الدين الأيوبي، ١١٠، ١١١
صنهاجة، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٣٩، ٦١، ٦٢
صهيب الرومي، ١٢١
صيفي، ٢٨، ٣٨

ض

ضرار، ٦٠، ٨٤، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٨، ٩٩، ٣٠٠

ط

طاجكتان، ١٢١
طرابلس، ٢٠٩، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٦٩، ٣٠٠
طلحة، ١٢٣، ١٢٦، ١٦٧

طلحة بن الزبير، ١٢٦
طلحة بن عمر التيمي، ١٦٧
طور سيناء، ١٦
طيء، ١١١، ١٢٣
طيبة، ٩٥، ١٤٤، ١٤٥، ١٧٤، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٥، ٢٩٢

ع

عا أوسر رع أبيي بن رع، ١٧٤
عابد بن قاسم، ١٦٢
عاد، ١٨، ٣١، ١٣٦، ٢٦٨
عامر، ٩٨، ٩٩، ١٣٣، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩، ٢٦٨، ٢٩٩
عبد العزيز بن مروان، ١١٦
عبد العزيز سالم، ١٦، ٢٩٩
عبد العزيز صالح، ٢٥٥
عبد الله، ٢٠، ١١٤، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٦، ١٤٣، ٢٩٩
عبد الله برشمبو، ١٣٦
عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكرالصديق، ١٢٦
عبد الله خورشيد، ١١٤، ١٢٤، ٢٩٩
عبد الحميد، ٨٩
عبد المجيد دياب، ١٠٥، ١١٦، ١٢٠، ٣٠١
عبد المجيد عابدين، ٥٨، ٦٥، ٨١، ٨٢، ٨٩، ٩٠، ١٠٤، ١٢٨، ٢٩٩
عبد الملك، ١٥٢، ٢٨٦
عبد الناصر، ٧٨
عبد شمس، ٢٧، ٣٠
عبد مناف، ٣٠
عثمان، ١٠٤، ١٢٥، ١٨٩، ٢٦٢
عدنان، ١٩
عدي، ٣٠
عذر، ١٢٣
عذرة، ١٢٣، ١٤٨، ١٤٩
عروة بن الزبير، ١٢٦
عساكر، ٣٠، ١١٠
عقبة، ٩١، ٩٢، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٩، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠

عقبة أيلا، ٩٢
عقبة بن نافع، ٢٦٨، ٢٦٩
عقبة قار الخراب، ١٢٩
عكرمة، ١٢٦
علوة، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٩٠، ١٩٩، ٢٥١، ٢٩٦
علوة المسيحية، ٢٥٠
عمان، ٣١
عمر، ٣٢، ١٠٧، ١٢٧، ١٣٤، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨
عمر بن الخطاب، ١٢٧، ١٦٧
عمر بن العاص، ١٢٧
عمر بن عبد العزيز، ١٦٠
عمرو بن العاص، ١٠٣، ١٤٤، ٢٦٧، ٢٦٨
عمليق، ٣٥
عنقر، ٣٠
عوص، ٣١
عيدان، ١٢٩
عيذاب، ٣٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٤
عيزانا، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٥، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٩٥

غ

غانة، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٩٤
غدامس، ٢٦١، ٢٧٦
غرغة، ٢٨٢
غريان، ٢٠٩
غسان، ٣٠

ف

فارس، ٢٤، ٢٦، ٣٨، ١١٠
فازوغلي، ١٧٤
فرث، ٢٤١
فرس، ٩٧، ١١٤، ١٥٧، ٢٠١، ٢٤٥
فزان، ٣٥، ١٥٢، ١٨١، ٢٠٩، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٨

فلسطين، ١٦، ١٨، ٢٠، ٦٤
فيلة، ٢٠٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٥

ق

قحطان، ١٨، ١٩، ٢٧، ٢٨، ٦٣، ١٢٤
قرشت، ٢٠
قرية العطواني، ١٣١
قريش، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٨، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧
قسطنطينية، ٢٥
قصر أم عيسى، ٢٧٤
قصي، ٣٠
قضاعة، ٨٩، ٩٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٥٩، ١٦٨
قلعة أللو، ١٤٧
قمنورية، ٢٧٦
قمولة، ١٢٨، ١٢٩
قندافة، ٩٣، ٩٤
قيس، ٢٤، ٢٨، ٣٠، ٦٠، ٦١، ١٠٥، ١٢١

ك

كابيلا، ٢٨٤
كاجا، ١٨٠
كازاخستان، ١٢١
كافور الاخشيدى، ١٤٥
كامس، ١٧٤
كانم، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٥
كاهل، ١٣١، ١٣٢، ١٤١، ١٤٨، ١٦٥
كاو، ٢٦٩
كبوشية، ١٧٤
كتامة، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٦١، ١٥١
كراون، ٢٣٦
كردفان، ٥١، ٩٧، ١٨٠، ١٨١، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٢، ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٦٣
كرمة، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٩، ٢٠٨، ٢٥٧، ٢٩٥
كرنبس، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٧



كريمة، ٢٢٢
كلابشة، ٣، ١٩٩، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٩٧
كلايدي، ٧٧، ١٨٩، ١٩٦، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٤٣، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠١
كلمن، ٢٠
كمال بن سوار، ١٦٢
كنان، ٢٧٦
كنانة، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٨، ١٤٩
كنداكة، ٩٥، ٩٧، ٢٣٠
كنز الدولة، ١٣٦، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧
كنعان، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٦١
كنغو، ١٢، ١٣
كنو، ٩٨، ٩٩
كنول، ١٨٠
كوار، ٣، ٢٥٢، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٩
گوار، ٣، ٢٥٢، ٢٦٧، ٢٦٩
كوبر، ١٨٦، ١٨٧، ٢٩٩
كور، ١١٣، ١٢٤، ٢٨٥
كورتي، ١٩١، ٢١٢، ٢١٧
كوزموس، ١٩٩
كوش، ٣٥، ٧٩، ٨٧، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٩٢، ١٩٤، ٢٧٦، ٢٩٥، ٢٩٦
كوشة، ٢٩٥، ٢٩٦
كيرجستان، ١٢١
كيروان، ١٧٦، ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٤٧
كيكاوس، ٢٦
كينيا، ٦٧

ل

لاوز، ٣٥
لثعلبة، ١١١
لخم، ٣٨، ١٢٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٨
لسترابو، ٢١٣
لقية، ١٨١
لمتونة، ٣٩، ٢٧٦

لمطة، ٣٩، ١٥١
لواتة، ٣، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٠، ٢٥٢، ٢٦٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧
لونجينوس، ٢٥١
ليبيا، ٤٤، ٥٠، ٥٩، ١٠٤، ١١٠، ١٩٠، ٢٥٣، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٣٠٠
ليشرح، ٢٨
ليو الافريقي، ٢٥٩

م

مازن، ٣٠
ماسبيرو، ٨٣
ماكسمينيوس، ٢٢٩
ماكمايكل، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٥٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٢، ٢٢٠، ٢٥٩، ٢٦٤
مالك، ٣٩، ٧٦، ١٢١، ١٦١، ١٦٤
مالك بن المرحل، ٣٩
مالي، ٢٩٤
مجاء، ٢٠٦
محمد ابراهيم بك٧، ٢١٨
محمد ابراهيم بكر، ٢٤٥
محمد بن طغج، ١٥٢
محمد بن علي، ١٤٣
محمد بن وراق، ١٢٦
محمد سليمان أيوب، ٢٦٩، ٢٧٠، ٣٠٠
محمد صالح، ٦٠، ٨٤، ٩٠، ٣٠٠
محمد صالح ضرار، ٦٠، ٨٤
محمد عزة دروزة، ١٨، ٨٤، ٣٠٠
مخزوم، ١٢٣، ١٢٦
مدركة، ١٢٥
مدين، ٢٠، ٢١
مدينة القصبة، ٢٧٣
مدينة النوبا، ٢٩٤
مدينة انكلاس، ٢٧٤
مدينة بلاق، ٢٨٢
مدينة تاجوة، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٩١، ٢٩٥



مدينة تساوة، ٢٨٨
مدينة تلملة، ٢٧٤
مدينة زويلة، ٢٦٨
مدينة سجلماسة، ٢٨٩
مدينة سغوة، ٢٨٠
مدينة سمنة، ٢٨٢، ٢٨٣
مدينة شامة، ٢٨١
مدينة غانا، ٢٩٤
مدينة كوار، ٢٦٩
مدينة كوشة، ٢٩٢، ٢٩٦
مدينة كوكو، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٩٤، ٢٩٥
مدينة مالي، ٢٩٤
مدينة مانان، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٩٥
مدينة نبرنتة، ٢٨١
مدينة نبرنته، ٢٨٢
مدينة نوابة، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥
مِرجا، ١٨١
مرنرع، ٢٠٦
مروان، ١٤٣، ١٥٢، ٢٨٦
مروي، ٧٤، ٧٥، ٨٧، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٥٧، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٨٤، ٢٩٥، ٢٩٨
مسعد، ٧٧، ١٠٦، ١٢٤، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٦٦، ١٨٠، ١٩٣، ١٩٦، ٢٠٠، ٢١٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٥، ٢٨٣، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١
مسعود، ٣٠
مصر، ٢، ٥، ٧، ١٠، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٦، ٣١، ٣٤، ٣٨، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٧، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٨، ١٧١، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١
مصرايم، ٣٥



مصطفى محمد مسد، ٢١٦
مصطفى مسعد، ١٢٧، ١٤٤، ١٧٩، ١٩٨، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٨٣
مصعب، ٣٠، ١٢٦
مطاطية، ١٢١
معاوية بن أبي سفيان، ١٠٧
معبد الكوة، ٢١٦
معبد الملكة حتشبسوت، ١٧٣
معبد قبلاء، ٢٤٥
معبد كلابشة، ٢٠٠، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٤٥
معد بن عنان، ١٨
مقابر جبل موية، ١٧٥
مكة، ٣٠، ١٣٢
ملكال، ٧٢
ممفيس، ٧٥
مملكة البليميين، ١٩٥، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١
مملكة الزغاوة، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٤
مملكة المقرة، ١٣١، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٦٧
مملكة النوباديين، ٢٤٤، ٢٥٠
مملكة علوة، ١٧٦، ١٧٩، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١
مملكة علوى المسيحية، ٢٥٠
مملكة غانة، ٢٦٩
مملكة كوار، ٢٦٩
مملكة مروي، ١٧١، ١٧٦، ١٩٤، ٢٢١، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٦، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٩٥
منان، ٢٧٣، ٢٧٩
مندولس، ٢٢١
مندوليس، ٧٧، ١٩٩، ٢٢٠
منطقة الإستبس، ١٧٣
منطقة البُلهاو، ٢١٦
منطقة البوركو، ٢٥٦
منطقة الدوديكاس، ٢٢٤
منطقة المحس، ١٥٨
منفلوط، ١٢٩
منقة أبو حمد، ٢٧٩



موريتانيا، ٤٦، ٤٧
موسى، ٢٠، ٢١، ٢٤، ٦٠، ٦٤، ٧٦
موسى عليه السلام، ٢٠، ٢٤، ٦٠، ٦٤
ميناء أدولس، ٢١٩
ميناء عيذاب، ١٤٢

ن

ناصر الدين عمر بن فضل الله، ١٦٣
ناصرو، ٣٤
نبتا، ١٧٥، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤، ٢٠٨، ٢٢٢، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٩٥
نبتا بلايا، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٤
نبط، ٥٨، ٥٩
نبيط، ٥٨
نترز، ٢١٥، ٢١٩، ٢٣١
نزار، ٣٠، ٦٣
نزار بن معد، ٦٣
نَستاسن، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠
نسطورس، ٢٢٨، ٢٦٥
نصر الدين، ١٦٠
نكاو، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢
نكاو الثاني، ٢١٠، ٢١١
نهر الفرات، ١٦
نهر القاش، ١٨٠
نهر النيل، ١٧، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ١٧١، ١٧٦، ١٧٨، ١٨١، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٥، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٥، ٢٧٠
نهر تكازى، ١٧٧
نهر سيدا، ١٧٧
نهر عطبرة، ٦٨، ١٤٢، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٧، ٢١٢، ٢٨٣
نهري النيجر، ٤٧
نوابة، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦
نوابية، ٢٥٢، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥
نوباديا، ٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٢٤، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٤
نوح، ١٨، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٢٧٦
نوردن، ١٥٧

نوري، ٢١٨

نيالي، ٢٩٤

نيجريا، ١١، ٤٤، ٥٠

هـ

هاد، ٢٨

هانس بَرنارد، ٢١٥

هَرسيوتف، ٢١٧

هكارة، ١٥٢، ١٦٣

هلال، ١١١، ١١٢، ١٢٣، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٩، ١٥٩، ١٦٦، ١٦٨، ٢٧٢

هنري، ١٠٠، ٣٠١

هوارة، ١٢٠، ١٤٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٧

هوجُت، ٤٧

هور، ١٧٥، ١٨٧

هوز، ٢٠

هيرودوت، ١٧، ٥٧، ١٨٨، ٢٠٩، ٢٥٨، ٢٦١

و

واحات دنقل، ١٨١

واحة الخارجة، ١٨٤

واحة العوينات، ٢٨٤

واحة بلماء، ٢٦٩

وادي الرمل، ٢٤، ٦١

وادي العلاقي، ٦٧، ١٠٦، ١٢٣، ١٢٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢

وادي القرى، ٣١

وادي المقدم، ١٧١، ٢٨٣

وادي الملك، ٢٨٣

وادي المِلك، ١٧١

وادي النيل، ١٠، ١٥، ٢٣، ٤٧، ٤٨، ٥٧، ٦٦، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٨، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٧٤، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٥، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١

وادي حلفا، ١٧٢، ١٨٤، ١٩١، ١٩٢، ٢٢٢

وادي هوار، ١٧٥، ١٨١، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ٢٥٧

وارقلان، ٢٧٤، ٢٨١



واوات، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٥٦
ود ضيف الله، ١٨٠
وليمز، ٢٥١
ونترز، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٩٧
وندروف، ١٨٥
ويام، ٢٥٦

ي

ياسر، ٢٤، ٦١
يافث، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤١
ياقوت، ٢٢، ٣٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٥٢، ١٥٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٠١
ياقوت الحموي، ٢٢، ١٢٤، ١٥٢، ١٥٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٠١
يثرب، ٢٦
يسامينه، ٢٣٢
يشجب، ٢٧، ٢٨
يعرب، ١٦، ٢٧، ٢٨
يعقوب، ٨٢
يلقمة بنت عمرو بن عمير الجنّي، ٢٨
يوحنا الأفسوسي، ٢٥١
يوحنا الأفسي، ٢٤٥
يوسف عليه السلام، ٨٦
يوشع، ٦١
يونس، ١٤٢

١٩٨٨,١٩٨٨,١٩٨٤، ١٩٨٨:٢٧١,١٩٣٨:٢٥,١٩٨٨ , ١٩١٧

رقم الإيداع: ٥٥٥/٢٠١٢م

د . أحمد إلياس حسين

السودان

الوعي بالذّات وتأصيل الهُويّة

الجزء الثاني

السكان حتى القرن الخامس عشر الميلادي



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

هذا الكتاب

هذه الدراسة ليست دراسة متخصِّصة عن السكان، بل عبارة عن مقدِّمات عامة تسعى إلى التعرُّف على المجتمع السوداني والمؤثِّرات التي أدَّت إلى تكوينه، ومدى ارتباطه بالحلقات السابقة للقرن السابع الميلادي. آمل أن تسهم هذه الدراسة في تسليط بعض الأضواء على تلك الجوانب، وتفتح شهية الباحثين للتنقيب والبحث في تاريخ هذه الفترة. فتاريخ هذه الفترة يمثِّل أساس البناء الذي كوَّن المجتمع السوداني المعاصر

ولكي يتسنَّى لنا إدراك هُويَّتنا، وفهم واقعنا المعاصر فهماً صحيحاً؛ علينا إعادة قراءة تاريخنا بتأنٍّ وصبر. وللقيام بذلك ينبغي تضافُر جهود الباحثين في التاريخ والجغرافيا والآثار والأنثروبولوجيا والأدب والثقافة، وكل ما يتعلَّق بتراثنا الماضي، لكي نتعرَّف على ذواتنا، وربطها بذلك التراث، وبتراب هذه الأرض التي احتضنت تراث ورفات أجدادنا منذ القِدَم

يتناول هذا الكتاب سكان السودان بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين. وقد شهدت هذه الفترة تغيُّرات سياسية واقتصادية ودينية، وتحرُّكات سكانية أدَّت إلى رسم خريطة جديدة لمعظم أجزاء القارة الأفريقية قبل القرن الخامس عشر.

(من مقدمة المؤلف)

ISBN 978 - 99942 - 62 - 24 - 3 ردمك



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

بسم الله الرحمن الرحيم

السوداده

الوعي بالذّات وتأصيل الهُويّة

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان
305.8927624 أحمد الياس حسين، 1943 -
أ ا. و
الوعي بالذات وتأصيل الهوية/ أحمد الياس حسين. - الخرطوم: 2012.
ص؛ 24 سم.
ردمك: 3 - 24 - 62 - 99942 - 978
1. المجتمع السوداني. 2 السودان - الأحوال السياسية. 3. المجتمعات الحضرية- السودان. أ. العنوان.



الجزء الثاني

السكان حتى القرن الخامس عشر الميلادي

د. أحمد الياس حسين

الفهرست

▪ المقدمة 9

▪ الفصل الأول | تأمُّلات في الهُويَّة 13

الهُويَّة والمواطنة ومفهوماهما القديمان 15

مفهوما المواطنة والهُويَّة في التراث الإسلامي 19

مفهوما المواطنة والهُويَّة في عصر تعدُّد الدول الإسلامية 23

الهُويَّة والوطن والقومية 26

كيف كان مفهوما المواطنة والهُويَّة في ممالك السودان قبل الغزو التركي؟ 28

الهُويَّة القومية؛ كيف اكتسبنا هُويَّتنا الحالية؟ وهل هي هُويَّة زائفة؟ 33

أصل ومعنى ومفهوم كلمة هُويَّتنا «سوداني» 36

اللامُنتمي وانْفصام الهُويَّة 39

عرب أم أفارقة؟ 41

البحث عن الجذور 43

نحو إعادة التركيب 46

▪ الفصل الثاني | بلاد وسكان شرق السودان 51

أرض البجا ومواردها 53

من هم أسلاف البجا؟ 62

قبائل شرق السودان 72

قبيلة الحداربة 72

قبيلة البليين 108

قبيلة الزنافجة 114

قبيلة الخاسة 119

قبائل البجا في الداخل: قبيلة (قصعة، بواتيكة، كديم، باتين وبازيه) 121
قبيلة الحلنقة 127
خاتمة 134

▪ الفصل الثالث | النوبا سكان شمال ووسط وغرب السودان 135
الصحراء الكبرى وتاريخ وادي النيل 137
مؤسِّسو الثقافات المبكِّرة ودولة كوش 140
النوبا في مملكة مروي والواحة الخارجة 144
تحرُّك النوبا من صحراء الواحة الخارجة 150
من هم النوبا في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر؟ 156
إطلاق كلمتي نوبا ومريس ومراحل استخدامهما في المصادر العربية 168
بلاد مريس: مملكة مريس، وصف بلاد مريس، وصف ابن سليم للمنطقة 170
سكان السودان والأصل الحامي للشعوب في المصادر العربية 200

▪ الفصل الرابع | بلاد وسكان مملكتي مقُرة وعلوة 209
مملكة مقُرة، أرضها وسكانها 211
مدن مملكة مقُرة: دنقلا، نوابة، بلاق، شنقير، كوشة، اللاب، الجيلين، الزغاوة، القرعان، بركامي، المصامدة 214
مملكة علوة وريثة مملكة كوش 233
مملكة علوة، أرضها وسكانها 241
مدن بلاد علوة: سوبة، الأبواب، الجزيرة الكبرى، بلد طبلى 245
سكان بلاد علوة: العنج، الديجون، أهل تفلين، الكرنينا، مرنكة، كرسي، أندا، تكنة، نوبا النيل الأبيض، الأحديين، التبان، كنكا 248
▪ الملاحق 259
▪ المصادر والمراجع 263

المقدّمة

أقدِّم للقراء الكرام كتاب (السكان حتى القرن الخامس عشر الميلادي)، وهو الجزء الثاني من كتاب (السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهُويَّة)، وهو يتناول سكان السودان بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين. وقد شهدت هذه الفترة تغيُّرات سياسية واقتصادية ودينية، وتحرُّكات سكانية أدّت إلى رسم خريطة جديدة لمعظم أجزاء القارة الأفريقية قبل القرن الخامس عشر.

وقد نال السودان قسطاً كبيراً من تلك التحوُّلات التي أدت إلى رسم خريطته السياسية والدينية والثقافية بعد القرن الخامس عشر، كما شهدت هذه الفترة في الوقت ذاته توفُّر قدر معقول من المادة المكتوبة عن أوضاع السودان في المصادر العربية مكّنت من التعرُّف على كثير من أوضاعه قبل القرن الخامس عشر الميلادي.

ويهدف هذا الجزء من الكتاب إلى تسليط الضوء على السكان ونشاطاتهم وأوضاعهم الدخلية، ويعتمد اعتماداً كبيراً في ذلك على ما ورد من معلومات في المصادر العربية. أما الأوضاع السياسية وصلات السودان بالمسلمين في مصر والعالم الخارجي؛ فسوف يتم تناولها، إن شاء الله، في جزء مستقل.

وقد سبق نشر موضوعات هذا الكتاب في موقع (sudanile.com) الإلكتروني، ما عدا القليل منها، كما نشرت بعض أجزائه في صحيفة (الصحافة). وقد قمت بجمعه وإدخال بعض التعديلات عليه، لكنه حافظ -في صورته العامة- على الترتيب الذي ظهر به فى الموقع الإلكتروني.

وكما ذكرت، في مقدّمة الجزء الأول من هذا الكتاب، فإن هذه الدراسة ليست دراسة متخصّصة عن السكان، بل عبارة عن مقدّمات عامة تسعى إلى التعرُّف على المجتمع السوداني والمؤثّرات التي أدّت إلى تكوينه، ومدى ارتباطه بالحلقات السابقة للقرن السابع الميلادي. آمل أن تسهم هذه الدراسة في تسليط بعض الأضواء على تلك الجوانب، وتفتح شهية الباحثين للتنقيب والبحث في تاريخ هذه الفترة. فتاريخ هذه الفترة يمثّل أساس البناء

الذي كوّن المجتمع السوداني المعاصر.

ولذلك فإنه لكي يتسنّى لنا إدراك هُويّتنا، وفهم واقعنا المعاصر فهماً صحيحاً؛ علينا إعادة قراءة تاريخنا بتأنٍّ وصبر. وللقيام بذلك ينبغي تضافُر جهود الباحثين في التاريخ والجغرافيا والآثار والأنثروبولوجيا والأدب والثقافة، وكل ما يتعلّق بتراثنا الماضي، لكي نتعرّف على ذواتنا، وربطها بذلك التراث، وبتراب هذه الأرض التي احتضنت تراث ورفات أجدادنا منذ القِدَم.

ورأيت أن أصدِّر الكتاب بمدخل عن الهُويّة في صورتها العامة؛ كيف كان مفهوم الهُويّة في تراثنا الإسلامي؟، وهل كان هناك إحساس بالانتماء بين مواطني السودان في حدوده الحالية، عبر تاريخه الطويل قبل فترة الاستعمار؟، وكيف اكتسبنا هُويّتنا الحالية؟، ومدى الإحساس بالانتماء إليها؟.

يبدأ الفصل الأول بمحاولة الإجابة على مثل هذه الأسئلة. وتهدف الفصول الثلاثة الباقية إلى التعرُّف على المواطن السوداني وارتباطه بالأرض، طيلة القرون الثمانية التي سبقت ظهور المسمّيات القبلية الحالية في شرق ووسط السودان وغربه. من كان على تراب هذه الأرض قبل القرن الخامس عشر الميلادي؟، وماذا ترك لنا من تراث؟، وكيف نظر إليه جيرانه وبخاصة في الشمال؟، وماذا كتبوا عنه؟.

يعالج الفصل الثاني بلاد وقبائل شرق السودان. ويركِّز الفصل الثالث على الصحراء الغربية والتحرُّكات السكانية التي شكّلت الخريطة السكانية لمناطق النيل عبر العصور. ويتتبّع الفصل اسم (النوبا) الذي شاع إطلاقه على سكان السودان قبل ظهور اسم (النوبة) في المصادر العربية، كما يتعرّض لاسم (النوبة) وتطوُّر مفهومه وارتباطه باسم (مريس).

يتناول الفصل الرابع ما توفَّر من معلومات عن بلاد وسكان مملكتي مقُرة وعلوة، وكيف كانت أوضاع المواطنين في مملكة مقُرة التي أصبح الكثير من تراثها تحت مياه بحيرة النوبة. وقبل معالجة ما ورد عن مملكة علوة رأيتُ أن أتعرّض سريعاً لكوش والكوشيين. فرغم البُعْد الزمني الذي يُخرج هذا التناول عن فترة الدراسة، إلا أنني أردت تحرير مفهوم كوش من نطاقه التقليدي المكاني الضيِّق في شمال السودان، وإبراز ارتباط كوش والكوشيين بمنطقة وسط وشرق وغرب السودان، وهو ارتباط تسنده الأدلة، كما يتّضح في الدراسة. ثم عالج الفصل ما توفّر من معلومات عن بلاد علوة وسكانها.

وأودّ أن أشير هنا إلى أنني استفدت كثيراً من كتاب مصطفى محمد مسعد؛ (المكتبة العربية السودانية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى)، وهو مصدر مهمٌّ يوفّر مادة كثيرة وغنية للباحثين، لكنه مع عظمه وفائدته يحتاج إلى مواصلة جهودهم، إذ هناك الكثير من النصوص عن السودان في المصادر العربية غير مضمّنة في كتاب مسعد. وإلى جانب ذلك استفدت كثيراً من المكتبة الشاملة في موقع (الوراق) الإلكتروني، وقد رجعت إلى هذا الموقع وجمعت المادة التي رجعت إليها هنا في عام 2005م.

الفصل الأول

تأملات في الهُويّة

- الهُويّة والمواطنة ومفهوماهما القديمان
- مفهوما المواطنة والهُويّة في التراث الإسلامي
- مفهوما المواطنة والهُويّة في عصر تعدُّد الدول الإسلامية
- الهُويّة والوطن والقومية
- كيف كان مفهوما المواطنة والهُويّة في ممالك السودان قبل الغزو التركي؟
- الهُويّة القومية: كيف اكتسبنا هُويّتنا الحالية؟ وهل هي هُويّة زائفة؟
- أصل ومعنى ومفهوم كلمة هُويّتنا «سوداني»
- اللامُنتمي وانفصام الهُويّة
- عرب أم أفارقة؟
- البحث عن الجذور
- نحو إعادة التركيب

«الهُويَّة» و«المواطنة»
ومفهوماهما القديمان

سألني أحد الإخوة الإعلاميين في نهاية ورشة عمل بعنوان (المؤرّخون السودانيون) أقامها مركز التنوير المعرفي، في مركز البحوث الأفريقية بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم، عن مشكلة التاريخ السوداني وعدم ارتباط وإحساس المواطن بالعمق الزماني والمكاني، وعدم شعوره بالانتماء إلى ما في السودان من آثار تعكس بعض فترات ذلك التاريخ. وبالطبع فإن إجابتي لم تقنع السائل، ولم أجد أنا أيضاً فيها ما يلقي، ولو القليل، من الضوء على مثل تلك التساؤلات، وذلك لأن طبيعتي الزمان والمكان لم تكونا تسمحان بغير ذلك القدر. ولكنني أحسست بضرورة زيادة الاهتمام بالقضية.

وأرى أن مثل تلك الأسئلة مهمة وضرورية، وتحمل في طياتها مشكلة المواطن السوداني الكبرى المتعلِّقة بهُويَّته عبر العصور. كيف كانت هُويَّة المواطنين على تراب هذه الأرض عبر عصوره القديمة قبل نحو أربعة آلاف سنة؟ ماذا حدث للهُويَّة بتحول وتغيّر الأوضاع السياسية والدينية والثقافية خلال العصور المتعاقبة على تاريخ هذه البقاع؟ هل تأثرت أو تغيرت هُويَّات المواطنين بتلك التغيّرات؟ وهل لأولئك البشر الذين عاشوا على تراب هذه الأرض عبر تاريخها صلة بالمواطنين الحاليين؟ وما هي الصلة بين هُويَّة أولئك السكان وبين هُويَّة المواطنين الآن في حدود السودان الحالية؟ وكيف اكتسبنا هُويّاتنا الحالية؟

ولأننا نود الحديث عن الهُويَّة وتأصيلها والرجوع بها إلى تراثنا الماضي، أعتقد أنه من الضروري أن نبدأ بمدخل عن الهُويَّة ومفهومها عند بعض الشعوب القديمة، لكي نتعرف على خلفياتها عبر العصور، حتى وصولها إلينا. وبالطبع فإنه لا سبيل في هذه المقدمة إلى الحديث بالتفصيل عن هذه القضية، ولكن يمكن تناولها باختصار؛ بالقدر الذي يساعدنا في البحث عن هُويَّتنا عبر العصور.

المفهوم الذي نعرفه اليوم للهُويَّة يختلف عما كان عليه الوضع قبل قرنين من الزمان. فمفهوم الهُويَّة السائد اليوم يرجع إلى ظهور وسيادة القوميات والدولة القومية في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي. فالشخص الآن ترتبط هُويَّته بكيانه السياسي، أي بحدود الدولة السياسية التي يعيش داخلها، بغض النظر عن عرقه أو لغته أو دينه. ولنأخذ بعض

الأمثلة من أوروبا الغربية دون الدخول في اختلافات المفاهيم حول القومية والدولة القومية. وقد اخترنا أوروبا الغربية لأن الشعوب هناك هي التي اختارت حدودها السياسية، بخلاف أغلب الشعوب الأخرى، وبخاصة شعوب قارتي آسيا وأفريقيا التي فرضت عليها حدودها السياسية.

ففي بريطانيا - الآن - مثلاً تعيش مجموعات سكانية متباينة لغة وعرقاً وديناً، وكلها تنتمي إلى هُويَّة واحدة. وفي سويسرا مثلاً، تعيش ثلاث مجموعات سكانية يتحدث أفرادها اللغات الألمانية والإيطالية والفرنسية، ويتمتعون بهُويَّة واحدة. وفي بعض المناطق الأخرى في أوروبا الغربية تتضمن القوميات سكاناً ينتمون إلى عرق واحد ويدينون بدين واحد ويتحدثون نفس اللغة ويتمتعون بهُويَّة واحدة. ومثل كل هذه النماذج متعددة في أوروبا. فالهُويَّة مرتبطة بالحدود السياسية للدولة بغض النظر عن العرق والدين واللغة.

فالانتماء إلى الوطن بحدوده السياسية الثابتة - أو المفترض فيها الثبات - والارتباط بهُويَّته ظاهرة حديثة. غير إن الإحساس بالعوامل الرابطة بين الشعوب؛ مثل المكان والعرق واللغة والدين والتراث والتاريخ المشترك، التي نطلق عليها حالياً «قومية»؛ ظاهرة قديمة في التاريخ. فالجماعات البشرية القديمة ذات الصلات العرقية واللغوية والتراث المشترك وتسكن في منطقة واحدة سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، تحس بترابط بينها، يميزها عن الجماعات المجاورة التي لا تتفق معها في ما ذكر، وهذا الإحساس هو ما نطلق عليه اليوم الرابطة القومية. ولا يقتصر ذلك الإحساس أو الرابط على قبيلة أو جماعة واحدة، بل يجمع عدة قبائل وجماعات لها تلك السمات المشتركة.

وإذا رجعنا إلى التاريخ - بإيجاز ودون الدخول في المصطلحات والتعريفات العلمية - في عصوره القديمة؛ نجد مثلاً أن المصريين والفينيقيين واليونانيين والصينيين والهنود، شعوب جمعت بينها بعض الروابط، مثل المكان والعرق واللغة والدين والتراث، وكان الإحساس والرابط بين كل واحد من تلك الشعوب قوياً. ويرى كل شعب أنه متميز بذاته إلى جانب الشعوب أو الجماعات الأخرى. وإذا استخدمنا لغة اليوم، يمكن أن نقول إن الشعور القومي هو العامل الذي ربط كلاً من تلك الشعوب.

والهجرات الكبرى القديمة التي شكلت كثيراً من شعوب العالم القديم، ارتبط فيها الشعب المهاجر، في مواطن استقراره، بسمات مشتركة. خلقت تلك السمات الإحساس بالتقارب والانتماء، وحمل الشعب المهاجر سماته إلى مناطق استقراره؛ فغيرت الجماعات

حدودها القديمة إلى حدود جديدة، ولم يعد لتلك الجماعات ارتباط بأوطانها الأم رغم بقاء السمات المشتركة لعدة أجيال. وصبغت الجماعات الوافدة أماكن إقاماتها الجديدة بسماتها، وانصهرت فيها العناصر المحلية. وبمرور الزمن تفرعت تلك الشعوب وتطورت سمات جديدة أدت إلى خلق كيانات جديدة كما حدث مثلاً في الهجرات الآرية أو الجرمانية.

وإذا نظرنا إلى اليونانيين القدماء؛ وجدنا أن العوامل المشتركة بينهم ربطتهم بالإحساس بالوطن المطلّ على البحر المتوسط في جنوب أوروبا كاليونان. ثم انتشروا على سواحل البحر المتوسط بحثاً عن مواطن أخرى لاستقرارهم، فأصبحت لهم مستوطنات متعددة على سواحله. وسواء استقروا في المناطق الجديدة منفردين أم استقروا إلى جانب الشعوب المحلية؛ فإنهم احتفظوا بسماتهم المشتركة التي ربطتهم بالوطن الأم رغم تغير المكان. ورغم استيطانهم في تلك المناطق لأجيال متعاقبة؛ احتفظ اليونانيون بسماتهم الرئيسة، مثل اللغة والدين، وانتسب بعض السكان المحليين إلى السمات والثقافة الوافدة.

وهاجر بعض الفينيقيين أيضاً من موطنهم الأصلي – منطقة لبنان الحالية – واستوطنوا جزر وسواحل البحر المتوسط، واحتفظوا بسماتهم المشتركة التي ربطتهم بالوطن الأم في عصور الأجيال الأولى. غير أن ذلك لم يدم طيلة فترة استيطانهم، فأصبحت الروابط بالوطن الأم ضعيفة، مما أدى إلى التخلّي عنها والارتباط بالأوطان الجديدة، بخلاف اليونانيين. وانتشر الصينيون والهنود انتشاراً واسعاً في المناطق المجاورة لهم في شرق وجنوب شرق آسيا، واحتفظوا بسماتهم المشتركة مع الوطن الأم، وفي الوقت ذاته ارتبطوا ارتباطاً كاملاً بمواطنهم الجديدة.

فالروابط القديمة – أو قل القوميات والهُويّات القديمة – لم تحكمها قواعد أو قوانين أو مفاهيم عامة اشتركت فيها تلك الشعوب، بل خضعت للمفاهيم والقواعد المحلية التي ارتضتها تلك الشعوب. ولذلك لم يكن ضرورياً ارتباط القوميات والهُويّات بالحدود السياسية كما هو الحال الآن. ولو أخذنا مثالين في دولتين، كمثالين للفترات الأخيرة من العصور القديمة، وهما الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية؛ أمكننا ملاحظة اختلاف أوضاع المواطنة والهُويّة في كل منهما.

الإمبراطورية الرومانية كانت عاصمتها روما، وشملت حدودها كل سواحل البحر المتوسط، وامتدت في وسط وشمال أوروبا حتى إنجلترا، وانهارت في القرن الخامس الميلادي. كان المواطنون فيها ينقسمون إلى قسمين متميّزين؛ القسم الأول: المواطنون

الرومان Roman Citizens والقسم الثاني: المواطنون غير الرومان، ويتضمن كل قسم درجات متفاوتة، تتفاوت طبقاتهم وامتيازاتهم داخل حدود الدولة.

القسم الأول هم المواطنون الذين يتمتعون بدرجة المواطن الروماني (الهُويّة الرومانية) وما يتبعها من امتيازات تختلف باختلاف طبقاتهم. فالمواطن الذي يتمتّع بدرجة المواطنة الرومانية هو الذي يتحدّث اللغة الرومانية (اللاتينية)، ويعبد الألهة الرومانية، ويسير على نمط الحياة الرومانية؛ أي يتطبّع بطابع الحياة والثقافة الرومانية، سواء أكان رومانيّ العرق أم من أيّة سلالة أخرى داخل حدود الإمبراطورية. ولذلك فإن الشخص غير الروماني، الذي ينتمي إلى منطقة فرنسا الحالية، أو ينتمي إلى منطقة شمال أفريقيا، يمكن أن يتمتّع بدرجة المواطنة الرومانية. ويضم القسم الثاني المواطنين الذين لا يتحدّثون اللغة الرومانية، ولا يعبدون الألهة الرومانية، ولا يتطبّعون بطابع الحياة والثقافة الرومانية.

فالمواطنة لم ترتبط في الإمبراطورية الرومانية بالعِرْق، بل ارتبطت بالعوامل اللغوية والثقافية والدينية المشتركة. فاليهودي، مثلاً، داخل حدود الإمبراطورية، الذي لا يعبد آلهة الرومان، ولا يسير على نمط حياتهم وثقافتهم؛ لا يتمتّع بالمواطنة الرومانية، بل يَتْبَع ويُنسَب إلى عرقه، فيُعرف باليهودي، أي أن هُويّته يهودية، وهكذا أوضاع بقية السكان غير الرومانيين. ولذلك فالسكان داخل حدود الإمبراطورية يندرجون تحت هُويّات متعدِّدة وليست هناك هُويّة واحدة يجتمع كل السكان تحت مظلتها. فالعامل السياسي لم يكن عاملاً حاسماً في تحديد المواطنة عند الرومان، بل كان واحداً من شروط المواطنة، ولا بدّ من توفُّر الشروط الأخرى؛ الدين واللغة والثقافة.

وإذا انتقلنا إلى مكان آخر، وهو الإمبراطورية الفارسية، التي قامت في مناطق العراق وإيران وأفغانستان وبعض مناطق شبة الجزيرة العربية الحالية، وانتهت بظهور الإسلام، لوجدنا وضعاً مختلفاً. فالسكان في الدولة الفارسية يُعرفون وينسبون إلى أعراقهم، من فرس وعرب وهنود وغيرهم، وتتفاوت درجاتهم وامتيازاتهم في الدولة وفقاً لأعراقهم. فالمواطنة هنا مرتبطة بالعرق. والهُويّة الفارسية يتمتّع بها السكان ذوو الأصول الفارسية فقط، أما باقي السكان داخل الحدود الفارسية فلا يعتبرون فرساً، ويُعرَّفون بأعراقهم. فالعرق هنا هو الفيصل والشرط الأساس في مسألة الهُويّة.

واكتسبت الهُويّة لوناً جديداً عند اليهود، عندما ارتبطت ارتباطاً قوياً بالدين والعرق، وفي بعض الأوقات بالدين والعرق والدولة. ورغم تعرُّض الهُويّة اليهودية في فترات متعاقبة

إلى القليل من التعديل؛ لمواكبة الأوضاع السياسية التي عاصرها اليهود عبر تاريخهم، إلا أن الدين والعرق ظلا يمثّلان محور قوميتهم، وإن لعب العرق دوراً كبيراً في التمييز بين الأفراد داخل المجتمع اليهودي.

أما في المسيحية فالوضع يختلف كلياً في ما يتعلّق بالمواطنة والهُويّة. فالمسيحية لم تُؤسِّس قومية خاصة بها عبر تاريخها، وذلك لانعدام ارتباطها المباشر بالدولة والوضع السياسي. فالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية نشأت تحت ظل السلطة السياسية. ورغم صراع الكنيسة الغربية الكاثوليكية مع السلطة السياسية في العصور الوسطى الأوروبية؛ إلا أن نفوذها السياسي ظل محدوداً. فأصبحت المسيحية رابطاً دينياً يحسُّ به أتباعه بفِرَقهم المختلفة، ولكنَّ انتماءهم الوطني ظل، ولا يزال، منفصلاً عن معتقدهم حسب أوضاعهم المحلية الخاصة بهم.

فانتشار المسيحية الواسع في أوروبا، بعد القرن الخامس الميلادي، لم يؤثِّر على أوضاع المواطنة، بل ارتبطت المواطنة بالأوضاع السياسية التي أفرزت نظام الإقطاع. فأصبح انتماء المواطنين محلياً مرتبطاً بكياناتهم السياسية، وكلما اتّسعت رقعة الكيان السياسي؛ ازداد عدد السكان التابعين له. وتطوَّر ذلك بقيام الإمبراطوريات والأسر المشهورة التي حكمت أوروبا في عصرها الوسيط، مثل أسر آل بوربون وآل هابسبيرج وآل هوهنزلرن ورومانوف وغيرها. توزَّع سكان أوروبا بين تلك الأسر، التي كانت حدودها وعدد الشعوب التابعة لها تتأرجح بين الزيادة والنقصان وفقاً لقوتها العسكرية وقدرتها على المحافظة على توسُّعاتها.

وظل الوضع هكذا حتى العصر الحديث. فشعوب في أوروبا حتى القرن التاسع عشر لم تكُن تعيش تحت ظل دول قومية، بل كانت تابعة للأسر التي حكمتها. فكيف كان مفهوم المواطنة في التراث الإسلامي؟

مفهوما «المواطنة» و«الهُويّة» في التراث الإسلامي

وإذا انتقلنا إلى غرب آسيا - حيث شبه جزيرة العرب - قبل الإسلام؛ نجد أن الهُويّة كانت قبلية. فالفرد ينتمي إلى القبيلة، ولم يكن هناك كيان سياسي واحد يضم سكان شبه الجزيرة. حتى الممالك التي نشأت هناك - باستثناءات قليلة في الجنوب - قامت على

أسس قبلية. فالقبيلة كانت محور الحياة في شبه الجزيرة، يتمتَّع المنتمي إلى القبيلة بالأمن والحقوق المتعلِّقة بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية كافة.

والانتماء إلى القبيلة ليس من الضروري أن يكون عبر صلة الدم، فالقبيلة بصورة عامة تنتمي إلى جدٍّ واحد يرجع إليه نسب أفرادها. ولكن لم تكن رابطة الدم شرطاً في الانتماء إلى القبيلة. فقد تضم القبيلة شخصاً لا صلة له بها، ويعرف ذلك بنظام الولاء، ويتمتّع الفرد فيه بحقوق الأفراد الأخرين كافة الذين يتمتعون بصلة الدم في القبيلة.

فالعرق هنا، رغم أهميته، لم يكن ركناً حاسماً في الانتماء. والانتماء إلى العروبة كهُويَّة جامعة – كما يقول المؤرّخ العراقي المشهور والمتخصّص في تاريخ العرب القديم جواد علي[1]– لم يحدث إلا في القرون القليلة السابقة للإسلام، وكانت الهُويَّة قبل ذلك هُويَّة قبلية. ويضيف الدكتور السيد عبد العزيز سالم[2]: «ولا نعرف على وجه الدقة متى استخدم لفظ (عرب) للدلالة على معنى قومي يتعلّق بالجنس العربي، والقرآن الكريم هو أول مصدر – ولا يرتقي عن الإسلام إلى عهدٍ جدّ بعيد – استخدم فيه لفظ العرب للتعبير بوضوح عن الجنس العربي».[3]

حدث تغيّر كبير لمفهوم المواطنة بعد ظهور الإسلام، فبقيام دولة المدينة بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) توحّدت الانتماءات العرقية والقبيلة القديمة في شبه الجزيرة، في هُويَّة جديدة، هي الانتماء إلى الأمة، بغضّ النظر عن العرق أو اللغة أو الدين. فسكان المدينة من عرب ويهود وغيرهم من فرس وروم وحبش، مسلمين وغير مسلمين، أصبحوا جميعاً مواطنين في دولة المدينة.

فالمواطنة أصبحت حقاً يتمتّع به كل المواطنين، وفقاً لنصوص وثيقة المدينة التي جاء فيها: «هذا كتاب من محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلَحِقَ بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس (...). وأنه من تبعنا من يهود فإن له النَّصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم (...). وأن يهود

---

[1]. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، العراق، 1993م، ج 1 ص 22-23.

[2]. عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د. ت)، ص 44.

[3]. تمت مناقشة هذه الموضوعات في كتاب للمؤلف بعنوان: السودان؛ الوعي بالذات وتأصيل الهُويَّة، كاجي قرافيكس، كوالالمبور، ماليزيا، 2008م، ص 10 – 14.

بنِي عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثِم فإنه لا يُوتغ (أي يهلك) إلا نفسه. وأن ليهود بني النجار (...)، وليهود بني الحارث (...)، وليهود بني ساعدة (...)، وليهود بني جُشَم (...) وأن ليهود بني الأوس (...)، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف.»[1].

وقد وضعت وثيقةُ المدينة – أو دستورُ دولة المدينة كما يُطلق عليها أيضاً – أسسَ الدولة التي تأسَّست بالمدينة مباشرة عَقِب وصول الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليها. وأطلقت الوثيقة على سكان دولة المدينة اسم (الأمة)، وأوضحت أن الأمة تكوَّنت من المهاجرين من قبيلة قريش، ومن سكان مدينة يثرب، وكان هذا هو اسمها الذي تغير بعد هجرة الرسول إليها إلى المدينة (مدينة الرسول).

وأوضحت الوثيقة أن سكان المدينة نواة الأمة، التي تكوّنت في بدايتها من العرب (قريش وعرب المدينة) ومن اليهود. وإلى جانب هؤلاء كان هناك بعض العناصر والأفراد الآخرين من غير العرب واليهود، مثل مواليهم الذين أشارت إليهم الوثيقة باعتبارهم جزءاً من الأمة، بالإضافة إلى العناصر والأفراد الآخرين الذين لم تُشِر إليهم الوثيقة صراحة، مثل الفرس ممثَّلين في سلمان الفارسي، والحبش ممثَّلين في بلال الحبشي، والروم ممثَّلين في صهيب الرومي. فقد انتمى هؤلاء بحكم الواقع للأمة. وفُتح باب تكوين الأمة – كما نصّت الوثيقة – لمن لحق بهؤلاء، والمقصود بذلك من سينضم إلى الأمة في مراحل تكوينها التالية، لأن حدود الأمة في ذلك الوقت كانت منحصرة في المدينة فقط.

وقد عالجت نصوص الوثيقة أوضاع المواطنين (أفراد الأمة) في الدولة، ولم تميِّز بين عرق وآخر، فالكل ينتسب إلى الأمة، بغضِّ النظر عن عرقه ودينه ولغته وثقافته. وهناك من يرى أن الأمة تتكوَّن من المسلمين فقط. وليس هذا بصحيح بناءً على نصِّ وثيقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي أوضحت أن لليهود التابعين للأمة دينهم، ولم تلزمهم بالإسلام، كما لم تلزمهم بالخروج من حدود الأمة. وقد أجلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) اليهود من المدينة لأنهم نقضوا شروط وثيقة المدينة، وظل بقية اليهود شمالي المدينة مقيمين في مواطنهم حتى عصر الخليفة عمر بن الخطاب.

وتوسّعت دولة المدينة في العقود التالية لعصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى

---

[1]. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985م، ص 61.

وصلت إلى الهند شرقاً والأندلس غرباً، وسارت الدولة على نهج وهدي وثيقة المدينة، وأصبح الانتماء الأول لكل المواطنين للأمة. ولأن مجتمع الأمة مجتمع عالمي، انتظم أجناساً وديانات ولغات وثقافات متعدِّدة، فقد اعترف بالانتماءات المحلية والعرقية والقبلية ولم يُلْغِها إلغاءً كاملاً، بل جعلها تعريفاً وهُويَّة ثانوية، أو صغرى، تابعة للانتماء إلى الأمة.

ولذلك نجد بعض الألقاب مثل الأندلسي والبغدادي والقرشي. تلك الألقاب أشارت إلى تعريف يأتي في مرتبة تالية للهُويَّة العامة. فالمواطنة من وجهة النظر الإسلامية انتماء عام إلى الأمة بغضِّ النظر عن العرق أو الدين أو اللغة. وكل السكان داخل حدود الخلافة في المراحل المبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية حتى القرن الثالث الهجري، تمتعوا بكامل حقوق المواطنة. ومنذ القرن الثالث تعرضت الأوضاع السياسية لظروف جديدة، وقامت العديد من الدول الإسلامية، فماذا حدث للمواطنين ولمفهوم المواطنة بعد تلك التغيُّرات؟.

وقبل الإجابة على هذا السؤال نتوقف قليلاً مع بعض القواميس العربية المبكرة لنرى كيف أتى معنى (أمة) فيها. عرّف الخليل بن أحمد الأمة بأنها: «جماعةٌ أرسل إليهم رسولٌ سواء آمنوا أو كفروا. وقال الليث كل قوم نسبوا إلى نبس فأضيفوا إليه فهم أمته»[1]. وعرف الزبيدي الأمة بأنها: «كلّ قوم نُسِبوا إلى نبيٍّ وأضيفوا إليه فهم أمّته.. وقد يجيءُ في بعض الكلام أنّ أمّة محمّد صلّى الله عَليه وآله وسلّم هم المسلمون خاصّة، وجاء في بعض الحديث أنّ أمّته من أُرسِل إليه ممن آمن به أو كفر به، فهم أمّته في اسم الأمّة لا الملّة»[2].

ووفقاً لتعريفات التراث، فإن مفهوم الأمة يبدو واسعاً يتعدّى حدود الدولة. فرسالة الإسلام عالمية، والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أرسل إلى الناس كافة، وبناءً على تعريف الخليل والزبيدي فأمة محمد تتمثّل في كل من أرسل إليهم، وبما أن الرسول محمداً (صلى الله عليه وسلم) أرسل إلى الناس كافة؛ فأمته تصبح ممثَّلة في كل الشعوب منذ عصر بداية الدعوة حتى الوقت الحاضر. وبالطبع كان هذا هو المفهوم القديم للأمة. فكان مفهوم الأمة والمواطنة في تراثنا لا يرتبط بالحدود بل يتعدّاها إلى المجتمع العالمي.

وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية الحديثة؛ لوجدنا تعريفاً مختلفاً تماماً عن المعاني التي وردت في القواميس المبكرة. فالمعجم الوجيز الذي أعدّه مجمع اللغة العربية بمصر

---

[1]. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، (موقع الوراق)، ج 2 ص 212.

[2]. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (موقع الوراق)، ج 1 ص 7609.

يعرِّف الأمة بأنها: «جماعةُ الناس الذين يكوّنون وحدة سياسية، وتجمع بينهم وحدة الوطن واللغة والتراث والمشاعر»[1]. جاء هذا التعريف معبراً عن واقع المسلمين المعاصر، فالمسلمون اليوم يعيشون في دول عديدة.

ودول المسلمين اليوم قامت على نمط الدول القومية الأوروبية التي تجعل من الحدود سدّاً منيعاً أمام تحرك السكان من دولة إلى أخرى، ولا يتمتع السكان خارج حدود دولتهم بحقوق المواطنين في الدولة الأخرى، حتى ولو اشتركوا مع سكان تلك الدولة في العرق واللغة والدين والتاريخ المشترك كما هو الحال في الدول العربية، أو دول عالم الملايو في جنوب شرق آسيا. ومن الجدير بالملاحظة أن أوروبا – التي أتت بالدولة القومية وقوانينها – بدأت في التخلي التدريجي عن تلك القوانين، وأصبح الحسّ القومي ضعيفاً، حلّ محله الانتماء القاري الواسع.

ووفقاً لتعريف القواميس الحديثة للأمة؛ فهناك عدد كبير من الأمم بعدد الدول الإسلامية. فكل جماعة من الناس تضمها وحدة سياسية، وتجمع بينها وحدة الوطن واللغة التراث والمشاعر تكون أمة. فهناك الأمة السعودية، والأمة العراقية، والأمة الغانية، والأمة الماليزية، وهكذا. فنحن إذن لدينا تعريف جديد للأمة يجعلها أمماً، ويعني هذا إلغاء مفهوم الأمة في تراثنا، وتبنّي مفهوم الأمة القائم على مفهوم الدولة القومية.

وإذا حدث أن تغيّرت حدود بعض السكان؛ امتدّ ذلك التغيُّر إلى هوياتهم. فعلى سبيل المثال لو ضُمّت حلايب للحدود المصرية؛ لتغيّرت هُويَّة المواطنين من سودانيين إلى مصريين، ولو وضع الإنجليز إقليم وادي حلفا ضمن الحدود المصرية؛ لكان سكانه الآن مصريين. فالمواطنة مرتبطة ارتباطاً أساسيّاً بالدولة. فهل دولنا القومية الحالية مثل الدول الإسلامية في تراثنا؟ وكيف نفسّر تعريف الأمة الواحدة مع تعدُّد الدول الإسلامية في تراثنا؟ وهل تغيّرت هُويَّة السكان واختلفت حقوقهم بتعدُّد الدول الإسلامية؟.

مفهوما «المواطنة» و«الهُويَّة» في عصر تعدُّد الدول الإسلامية

قد يبدو مفهوم الأمة والمواطنة واضحاً داخل حدود الدولة أو الخلافة في طورها المبكر؛ في

---

[1]. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، حرف الهمزة.

عصر الخلافة الراشدة والخلافة الأموية وبداية الخلافة العباسية، عندما كان كل أفراد الأمة منضوين تحت لواء دولة واحدة، وكان انتماء كل المواطنين في حدودها. فماذا حدث للأمة وانتماء المواطنين بعد أن تعدّدت الدول الإسلامية التي عاش تحت ظلها أفراد الأمة؟. فقد شهدت الأوضاع السياسية والإدارية في الدولة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي) تغيّراً كبيراً يشار إليه في العادة بعصر ضعف الخلافة وقيام الدول المستقلة، ويسمى بالعصر العباسي الثاني.

ضعفت سلطة الخلافة السنيّة في بغداد منذ ذلك الوقت، وظهرت دول في الشرق والغرب أقوى عسكرياً من الخلافة في بغداد، مثل الدولة السمنانية التي نشرت الإسلام في مناطق التركستان (الأجزاء الشمالية من وسط آسيا) في القرن الثالث الهجري، ومثل الدولة الغزنوية التي نشرت الإسلام في الهند في القرنين الـ3 والـ4 الهجريين (الـ9 و10 الميلاديين)، والدولة الحمدانية التي سجّل المتنبي وغيره أخبارها في أشعارهم، وهي التي ألحقت بالإمبراطورية البيزنطية العديد من الهزائم، وكدولة الأغالبة في تونس الحالية التي هزمت تحالف البيزنطيين والبابا وبعض ممالك أوروبا الجنوبية في القرن الثالث الهجري، وكالدولة الأيوبية وانتصاراتها على التحالف الأوروبي الصليبي في عصر صلاح الدين في القرن السادس الهجري (12 الميلادي)، وكدولة المماليك التي أوقعت أول هزيمة بالمغول في غزوهم للعالم الإسلامي.

وأعتقد أننا لو نظرنا إلى قوة هذه الدول وغيرها في ذلك الوقت، لحكمنا بأن الأمة كانت لا تزال قوية بعد القرن الثالث الهجري. والذي تجب الإشارة إليه هو أن كل هذه الدول التي ذكرناها اعترفت بالخليفة العباسي، وأعلنت ذلك رسمياً في الدعوة إليه في مساجدها، وبإرسال قدر من المال إليه سنوياً، وكان لا بد من الحصول على موافقة الخليفة عند تسمية ولي العهد وتعيين الحاكم الجديد. ويدلّ ذلك على أن الخليفة -رغم ضعفه الإداري وعدم ممارسته سلطة فعلية على تلك الدول- ظل يحتفظ بنفوذ روحي قويّ خوّل له تلك المكانة السامية بين حكام تلك الدول.

ويمكن أن نصف هذا الوضع بالنظام غير المركزي. فالنظام في الخلافة تغيّر منذ القرن الثالث الهجري من مركزي إلى لا مركزي. وحافظ المسلمون على قوتهم العسكرية والاقتصادية، بل بلغت الحضارة الإسلامية قمة مجدها في هذه الفترة، ولا بد أن ذلك تحقّق تحت أوضاع مستقرة. إذن ليس من الإنصاف وصف أوضاع الخلافة بعد القرن الثالث

بالضعف والتفتُّت، فما حدث هو تغيُّر أسلوب الحكم من مركزي إلى لا مركزي.

ومن جانب آخر ظهرت دول مستقلة قوية لم تعترف بسلطة الخليفة العباسي السني، وكان بعض تلك الدول سنياً، مثل الدولة الأموية بالأندلس ودول المرابطين والموحِّدين والحفصيين بالمغرب، وبعضها كان شيعياً مثل الدولة الفاطمية في مصر والشام والحجاز، وبعضها الآخر كان إباضياً مثل الدولة الرستمية في الجزائر، والإمامة الإباضية في عُمان. وكانت تلك الدول قوية في أوضاعها العسكرية والاقتصادية والثقافية.

فإذا صحَّ استنتاجنا أن الأمة ما بين الهند والأندلس كانت لا تزال قوية في كل النواحي تحت النظام اللا مركزي، وتحت حكم الدول التي لم تتبع النظام العباسي اللا مركزي، فكيف كانت أوضاع المواطنة والهُويَّة في تلك الدول؟، هل تغيرت أوضاع المواطنين وانتماءاتهم بعد القرن الثالث الهجري؟، هل أصبح المواطنون في الأندلس أمويين، وفي شمال أفريقيا فاطميين، وفي غرب آسيا والمشرق الإسلامي عباسيين، وفقاً لحدود الدول وتغيّر الأوضاع السياسية التي عاشوا تحت ظلها؟، ثم ماذا حدث للسكان في الأندلس، مثلاً، في القرن الخامس الهجري بعد سقوط الأمويين وقيام المرابطين؛ هل تغيّرت هُويَّتهم من أمويين إلى مرابطين؟، وما الذي حدث في مصر بعد سقوط الفاطميين وقيام الأيوبيين: هل تغيّرت هُويَّة السكان من فاطميين إلى أيوبيين، ثم إلى مماليك، ثم إلى عثمانيين؟.

في واقع الأمر لم تتغيّر أوضاع الأمة والمواطنين التابعين لتلك الدول، وما حدث هو تمدُّد مفهوم الأمة والمواطنة ليشمل أفراد الأمة في ما وراء الحدود، وهو المفهوم الذي أشار إليه كل من الخليل بن أحمد والزبيدي. وكان انتماء المواطنين في مصر وفي الأندلس وفي العراق وإيران والهند وعُمان، للأمة. وكان الإحساس بالمواطنة العامة قوياً لدرجة لم يشعر معها أي مواطن - بغضِّ النظر عن عرقه أو دينه - بالغربة في أي مكان في البلاد الإسلامية.

كانت حدود كل تلك الدول - السنية والشيعية والإباضية، التابعة للخلافة وغير التابعة لها - مفتوحة أمام كل أفراد الأمة، يتجوَّلون حيث شاءوا، يستقرّون في أيِّ مكان في الدول الإسلامية، ويتمتَّعون بكل الحقوق والواجبات المتساوية في كل منطقة. وهذه الأوضاع لا تتحقَّق اليوم للمواطنين إلا تحت ظلِّ الوحدة السياسية. فالمواطن في الدول الإسلامية قبل الاستعمار كان يتمتّع بكل الامتيازات التي توفِّرها اليوم الوحدة السياسية، ولذلك فإنه لم تكن هناك صلة في الدول الإسلامية - في تراثنا - بين الحدود السياسية وامتيازات المواطنين. فهذه الظاهرة -التي ربطت بين حقوق المواطنة والحدود السياسية- وليدة الدولة

القومية التي ظهرت حديثاً في الغرب، ولا صلة لها ولمفاهيمها بتراثنا الإسلامي.

كان شعور الانتماء إلى الوطن الإسلامي الكبير -إذن- قوياً، فالبخاري من آسيا الوسطى لم يشعر بعدم الانتماء أو بالغربة وهو يعيش في مكة ويؤلف كتابه في الحديث. والشعور بالمواطنة والانتماء هو الذي مكّن ابن بطوطة من الاستقرار والعمل قاضياً في الهند، رغم أنه أتى من المغرب. والإحساس العالمي بالمواطنة والتمتُّع بالحقوق الكاملة، في أية بقعة من الوطن الإسلامي الكبير، هو الذي أدّى إلى انتشار شركات اليهود التجارية من الأندلس إلى شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية والخليج العربي وفارس والهند، حتى جنوب شرق آسيا.

كان الشخص يعرف في السابق بانتمائه المحلي مثل البغدادي والطبري والبخاري، أو بانتمائه الإقليمي مثل الأندلسي والمغربي، أو بانتمائه القبلي مثل القرشي أو الجهني، أو بانتمائه المذهبي مثل المالكي والشافعي. لكنّ انتماءه العام الثابت الذي لا يتغيّر بتغيُّر الحدود السياسية كان إلى الأمة، فهو مواطن يتمتّع بكل حقوق المواطنة في أية دولة من دول الأمة.

والخلاصة، أن هُويَّة المواطن في المفهوم الإسلامي عالمية لا تعرف الحدود، فقد ارتبطت خلال القرون الثلاثة الأولى بالحدود السياسية، لأن دولة الخلافة كانت تمارس سلطاتها المركزية على كل أراضي الخلافة. ثم عبَّرت المواطنة والهُويَّة العالمية في عصر اللا مركزية وتعدُّد الدول منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي) عن نفسها بحرية الحركة وبالمساواة في الحقوق في الوطن الإسلامي الكبير. ومن نافلة القول إن هذا المفهوم كان سائداً والشعور بالانتماء العالمي كان قوياً بين أفراد الأمة إلى ما قبل امتداد الاستعمار إلى الدول الإسلامية.

ولعله من المفيد ومما يساعد في زيادة توضيح مفهوم الهُويَّة والوطنية، معرفة كيف كانت دلالات بعض المصطلحات المتعلقة بهذه القضية في اللغة العربية في تلك الأوقات المبكرة، مثل الهُويَّة والوطن والقومية، للوقوف على مدى اختلاف دلالاتها السابقة عن الدلالات الحالية.

الهُويّة والوطن والقومية

لا صلة البتة بين معنى الهُويَّة في اللغة العربية المبكرة بمعنى الهُويَّة الحالي. فالهُويَّة، كما

عرفها الجوهري، «موضع يَهوي مَن عليه، أي يسقُط».[1] وقد ارتبط معناها الاصطلاحي عند الجرجاني بـ«الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق. والهُويَّة السارية في جميع الموجودات».[2] وعن الوطن جاء في (لسان العرب): «الوَطَنُ يعني المَنْزِلُ تقيم به، وهو مَوْطِنُ الإنسان ومحله، والجمع أَوْطان، وأَوْطَنْتُ وَطْناً لم يكن من وَطَني.. قال ابن بري في شعر رؤبة:

كَيْما تَرَى أَهلَ العِراقِ أَنني   أَوْطَنْتُ أَرضاً لم تكن من وَطَني

وَطَنَ بالمكان وأَوْطَنَ: أَقام، وأَوْطَنَهُ: اتخذه وَطَناً. يقال: أَوْطَنَ فلانٌ أَرض كذا وكذا أَي اتخذها محلاً ومسْكَناً يقيم فيها.. والمَوْطِنُ مَفْعِلٌ منه، ويسمى به المَشْهَدُ من مشاهد الحرب وجمعه مَوَاطن، وفي التنزيل العزيز: «لقد نصَركُمُ اللهُ في مَوَاطن كثيرة»، وقال طَرَفَةُ:

على مَوْطِنٍ يَخْشَى الفَتَى عنده الرَّدَى   متى تَعْتَرِكْ فيه الفَرائصُ تُرْعَدِ

وأَوطَنْتُ الأَرض ووَطَّنْتُها تَوطِيناً واسْتَوْطَنْتُها: أَي اتخذتها وَطَناً»[3].

وقد تردّد معنى الوطن بهذه الصورة في القواميس العربية الأخرى، مثل (الصحاح في اللغة) للجوهري، و(القاموس المحيط) للفيروزآبادي، و(المحيط في اللغة) للصاحب بن عباد. ولم يرد لكلمة (الوطنية) في القواميس المشار إليها ما نفهمه اليوم من معنى هذه الكلمة. فعلى الباحثين في اللغة العربية تتبُّع تاريخ الكلمة ومتى بدأ شيوع هذا المفهوم عند متحدّثي اللغة العربية. فالوطن في تراثنا لم يرتبط بضرورة الإقامة الدائمة، وتبديل الوطن يخضع لحكم الشخص، ولا تحدّده قواعد إقامة أو قوانين هجرة، كما هو الحال اليوم. وعن القومية يقول ابن دريد: إن القُوميّة معناها «القَوام أو القامة. قال الراجز:

أَيّامَ كنتُ حَسَنَ القُوميّةْ   ترى الرجالَ تحت مَنْكِبيَّهْ»[4]

وذكر الخليل بن أحمد: «فلان ذو قومية على ماله وأمره. وهذا الأمر لا قومية له، أي: لا قوام له، قال:

---

[1]. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، (موقع الوراق)، ج 1 ص 458.

[2]. الجرجاني، الشريف علي بن محمد، التعريفات، (موقع الوراق)، ج 1 ص 83.

[3]. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، (موقع الوراق)، ج 13 ص 451.

[4]. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، (موقع الوراق)، ج 2 ص 51.

ألم تر للحق قوميّةً... وأمراً جلياً به يهتدى»[1].

ولم يرِدْ غير هذه المعاني للقومية في المعاجم العربية المبكرة.

وكذلك كلمة قُطْر بمعناها السياسي الحالي الذي يدل على بلد معيّن بحدود سياسية معلومة – مثل القطر السوداني والمصري– لم تكن معروفة بهذا المعنى في اللغة العربية المبكرة. جاء في لسان العرب: «القُطْر بالضم: الناحية، والجانب والجمع أَقْطار، وفي التنزيل العزيز: «من أقطار السموات والأَرض». أَقطارُها: نواحيها، واحدها قُطْر. أَقطار الخيل والجمل: ما أَشْرَفَ من أَعاليه. وأَقطارُ الفَرس والبعير: نواحيه»[2].

فمثل هذه المصطلحات الغربية الحديثة لم تكن معروفة في تراثنا بمفاهيمها المعاصرة نفسها. وقد تطوَّرت هذه المفاهيم في الغرب في العصر الحديث نتيجة تطوُّرات سياسية واجتماعية واقتصادية استمرّت عدة قرون، تولّدت عنها في النهاية هذه المصطلحات لتعبِّر تعبيراً وافياً وصادقاً عن أوضاع تلك المجتمعات.

علينا التعرُّف على تلك المصطلحات ومن أين أتت إلينا، لا لرفضها أو شجبها، ولكن للتمكّن من التعامل معها، فهي أساساً وجدت لمعالجة أحوال مجتمعات مختلفة، في كل أوضاعها، عن أوضاعنا الحالية. ومن الضروري وضع هذه الحقيقة في حسباننا، أي يجب أن نفهم كيف أدّت الأوضاع هناك إلى وجود دولة مثل سويسرا تعيش في حالة استقرار سياسي واجتماعي وهي تتكوّن من مجموعات عرقية ولغوية مختلفة. فهم يعيشون ذلك لأنه جزء من تراثهم واختيارهم. أما نحن فلا نعيش تراثنا ولَم نختر أوضاعنا الحالية – اسم دولتنا وحدودها – لأن الإنجليز هم الذين اختاروها لنا. فكيف كان مفهوم المواطنة قبل عصر الاستعمار؟.

كيف كان مفهوما «المواطنة» و«الهُويّة» في ممالك السودان قبل الغزو التركي؟

ذكرنا في ما سبق أن الهُويّات بمفهومها الحالي وليدة الفكر الأوروبي الحديث، فكيف اكتسبنا هذا المفهوم للهُويَّة؟. لا بدّ أيضاً من معرفة كيف كان الوضع عندنا قبل أن يصل إلينا هذا

---

[1]. الخليل بن أحمد، معجم العين، مرجع سابق، ج 1 ص 416.

[2]. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج 5 ص 105.

المفهوم الغربي؟. وضعنا الحالي هو امتداد لما بعد حلول الأجنبي أرض السودان وانتهاء فترة الحكم الوطني، ويبدأ الحكم الأجنبي في السودان بالغزو التركي عام 1821م، فكيف كان الوضع في السودان قبل الغزو التركي؟.

كانت هناك الممالك المعروفة في التاريخ، التي حكمت ما يعرف اليوم بالسودان الشمالي وهي: سلطنة دارفور، وسلطنة المسبعات، ومملكة تقلي، وسلطنة سنار والمناطق التابعة لها شمالاً وشرقاً. أما في جنوب السودان فكانت هناك التنظيمات السياسية للقبائل النيلية الكبرى التي كانت على صلات بممالك الشمال، نلمسها في صلات وامتداد سلطنة دارفور نحو الجنوب والجنوب الشرقي، كما نلمسها في صلات وامتداد سلطنة سنار نحو الجنوب. فكيف كان مفهوم المواطنة والهُويَّة بين سكان تلك الممالك؟.

سنهتمُّ هنا بإلقاء نظرة سريعة على السكان في تلك الممالك التي حكمت السودان الشمالي من حيث الانتماء، للتعرُّف على أوضاع المواطنين وتلمُّس هُويَّتهم. بالتأكيد لم تكن سمات المواطنة بينهم كما هي اليوم، لأن سمات المواطنة اليوم لم تكن قد سادت – قبل الغزو التركي للسودان – في أوروبا نفسها، ولذلك لا سبيل لوصولها إلى السودان في ذلك الوقت. وبما أن السودان الشمالي قبل الغزو التركي كانت تحكمه ممالك إسلامية؛ فنفترض أن يكون أساس المواطنة هو ما كان مفهوماً وسائداً بين المسلمين منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، أي منذ عشرة قرون قبل الغزو التركي؛ ذلك المفهوم الذي لا يربط المواطنة بالدولة والحدود السياسية. فهل كان ذلك المفهوم سائداً بين سكان الممالك الإسلامية في السودان قبل الغزو التركي؟.

نرجع هنا فقط إلى ما سبق أن وضحناه، وهو أن المواطنة في التراث الإسلامي لم تعرف الحدود السياسية، وأن كل السكان يتمتَّعون بحقوق متساوية أينما حلّوا في الدول الإسلامية، وأن شعور الانتماء كان قويّاً بينهم. وسنكتفي بإعطاء بعض الأمثلة من كتاب (الطبقات) لمحمد النور بن ضيف الله، لتساعد على توضيح أن هذه المفاهيم كانت سائدة بين السكان في الممالك الإسلامية قبل الغزو التركي. فالتصفُّح السريع للكتاب يشير بوضوح إلى الصلات القوية التي ربطت السكان في كل المنطقة الواقعة من سواحل البحر الأحمر شرقاً والممتدة إلى ما وراء حدود دارفور الحالية غرباً. تلك الصلات التي لم ترتبط أو تتأثَّر بالحدود السياسية للممالك والدول التي قامت في هذه المنطقة.

ومن المعروف أن ترجمات ود ضيف الله انحصرت «على الجزء الشمالي من الجزيرة خاصة شواطئ النيل الأزرق، والمنطقة الممتدة بين دنقلا وملتقى النيلين، وتطابق هذه المنطقة دائرة نفوذ العبدلاب السياسي»[1]. وبالرغم من أن مناطق التراجم محدودة، واقتصرت فقط على جزء من مملكة سنار، ولم تتعدَّ إلى مناطق وممالك السودان الأخرى؛ إلا أنها عكست صورة جلية للشعور القوي بالانتماء العام الذي لا تفصله الحدود ولا تحدّه الدول. وقد تتبَّعتُ سريعاً الإشارات التي وردت في كتاب (الطبقات) عن المناطق المجاورة لسلطنة سنار شرقاً وغرباً، التي يدخل جزءٌ كبير منها في حدود جمهورية السودان الحالية، وضمّنتها الجدول التالي.

- جدول رقم (1) تكرار ذكر المناطق في كتاب (الطبقات):

اسم المنطقة	عدد المرات		
	مباشر في النص	غير مباشر في النص	المجموع الكلي
غرب السودان وما جاوره غرباً	45	56	101
شرق السودان وما جاوره شرقاً	22	16	38
جنوب السودان	6	2	8
جبال النوبة		2	7
المجموع	78	76	154

الجدول من إعداد المؤلف

يوضح الجدول عدد الإشارات التي وردت عن تلك المناطق بصورة مباشرة في النص، مثل: كردفان، المسبّعات، النيل الأبيض، البحر الأحمر، سواكن، الشلك، الفور، كنجارة، برنو، برقو، التنجور، دار صليح، جبال النوبة، وتقلي، وكذلك الإشارات التي وردت بصورة غير مباشرة وارتبطت بتلك المناطق، ووضحت الحاشية انتسابها، كما سيتضح في بعض الأمثلة التالية. لكن أنبّه إلى أن الأرقام الواردة في الجدول لا تمثّل إحصاءً دقيقاً، فهي

[1]. محمد النور ود ضيف الله، الطبقات، تحقيق: يوسف فضل حسن، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، الخرطوم، الطبعة الثالثة، 1985م، مقدمة المحقّق، ص 20.

عبارة عن مسح عام لإلقاء نظرة سريعة على المادة التي وردت عن تلك المناطق.

عدد المرات التي ورد فيها ذكر للمناطق أدناه في كتاب (الطبقات):

المجموع الكلي للإشارات (154)، وهذا الرقم الكبير يشير إلى الصلات القوية التي ربطت منطقة سنار بالمناطق المجاورة لها. ونأخذ بعض الأمثلة لتلك النصوص. ورد عن الصلات بالمنطقة الشرقية في ترجمة الشيخ إدريس محمد الأرباب[1] الذي ولد بالعيلفون وتوفي بها عام 1060هـ أن الشيخ محمد ود فايد حوار الشيخ إدريس «يأتي في كل عام من البحر المرّ وتحضر معه قبائل الشرق عرب أُكُد وعرب التاكة وغيرهم لزيارة شيخه». والشيخ محمد بن فايد[2] ولد بساحل البحر الأحمر ربما بالقرب من مصوع وأخذ الطريق من الشيخ إدريس.

وعن الصلات بالمنطقة الغربية ورد أن الشيخ إدريس أخبر «أن دار الغرب يملكها سرايا فور من الحرازة أم قَد إلى الكنيسة الرقطاء، وفي رواية من الترعة الخضراء»[3]، وعلّق المحقِّق أن الإشارة هنا إلى تغلُّب قبيلة الكنجارة وبسط نفوذها على قبائل الفور وما جاورها[4]. ويرى المحقِّق أنه لو صحت «رواية الترعة الخضراء التي قيل إنها على النيل الأبيض شمال الدويم، فإن الإشارة ربما انصرفت إلى موضع حديث إذ لم يثبت أن نفوذ مملكة الفور قد بلغ الدويم»، وبالطبع لم يثبت أيضاً أن نفوذ مملكة الفور - ربما في بعض الأوقات - لم يصل إلى منطقة الدويم.

كما ورد عن الشيخ أرباب بن علي بن عون[5] المتوفى بسنار عام 1102هـ أن عدد طلبته بلغ ألف طالب ونيِّف من دار الفونج إلى دار برنو. وقد انتقل الشيخ أبو سرور الفضلي الجعلي الذي ولد بالحلفايا إلى دارفور ودرس فيها. ثم انتقل إلى دار صليح ودرس وتوفي فيها[6]. وفي ترجمة الشيخ القدال[7] (النيل الأبيض) ذُكِر أن عدد طلبته بلغ ألف طالب، وقيل ألفين، وقد

---

[1]. المرجع نفسه، ص 57.

[2]. المرجع نفسه، ص 323.

[3]. المرجع نفسه، ص63.

[4]. المرجع نفسه، ص 63، حاشية رقم 12 و13.

[5]. المرجع نفسه، ص 100.

[6]. المرجع نفسه، ترجمة رقم 38 ص 105.

[7]. المرجع نفسه، ترجمة الشيخ القدال رقم 20 ص 80.

بلغ عدد الطلبة التكارير أكثر من ألف طالب.

تقع دار برنو ودار صليح ودار التكارير التي وردت في النص إلى الغرب من دارفور. والمفهوم العام بين السودانيين يخلط أحياناً بين هذه المناطق. ومن المعروف أن دار صليح تجاور دارفور غرباً. أما بلاد البرنو فقد كانت تمثِّل الجزء الشرقي من مملكة كانم -برنو الإسلامية- التي تأسّست في تشاد في القرن الثاني الهجري (الـ8 الميلادي)، ولا يزال الاسم يعيش إلى اليوم في ولاية برنو في دولة نيجيريا.

أما بلاد التكرور فهي المنطقة الواقعة على نهر السنغال في غرب أفريقيا. قال ياقوت الحموي: «تكرُورُ، براءين مهملتين: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب»[1]. والتّكرور هم أول الشعوب التي أسلمت في المنطقة، وقد تأسّست في بلادهم دولة المرابطين المشهورة في التاريخ الإسلامي. ومن جبال النوبا جاء في ترجمة الشيخ إسماعيل صاحب الربابة بن الشيخ مكي الدقلاش «أن أمه خَيرة سَقرناوية أهداها للشيخ مكي سلطان تقلي فحملت منه... وولدت إسماعيل، فقال لطلبته يا دقالشة جاكم شيخكم»[2]، والسقرناويون هم ملوك مملكة تقلي في إحدى الروايات.

وجاء في ترجمة الشيخ الإمام تاج الدين البهاري خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه ولد في بغداد وقَدِم إلى السودان في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (أواسط القرن الـ16 الميلادي)، وأقام بالجزيرة سبع سنين، وسلّك خمسة رجال منهم الشيخ محمد الهميم، والشيخ بان النقا الضرير، وحجازي باني أربجي ومسجدها، وشاع الدين ولد التويم جد الشكرية، والشيخ عجيب الكبير... وقيل سلّك أربعين إنساناً... وقيل سافر إلى تقلي[3].

وعن الشلك جاء في ترجمة الشيخ إسماعيل صاحب الربابة قصة الصبي الذي خطفه الشلك وطلبت والدته من الشيخ إرجاعه. وبعد وقت قصير وجدوا الصبي بينهم، وعندما سألوه عن كيفية قدومه قال لهم: «أنا هذه الساعة باكُل مع أولاد شُلُك في لحم سمك في مركب جاءني عُصار وجابني هنا».[4]

---

[1]. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، معجم البلدان، (موقع الوراق)، ج 1 ص 419.

[2]. ود ضيف الله، الطبقات، مرجع سابق، ترجمة رقم 29 ص 91.

[3]. المرجع نفسه، ترجمة رقم 56 ص 127.

[4]. المرجع نفسه، ص 92.

ومن أمثلة الإشارة غير المباشرة إلى المسبعات في ترجمة[1] الشيخ مختار بن محمد جودة الله حينما نصح الفقيه سلطان دارفور بعدم حرب دكيم حاكم كردفان من قبل الفونج. كما ورد أن «الشيخ عبد الله بن العجوز... أعطاه الله القبول التام عند الخاص والعام... ولد بدار الغرب وأصله من بني محمد توفي بموية جبل معروف بالصعيد في أيام الملك بادي ولد نول، وقبره ظاهر يزار»[2]. ويقول محقِّق الطبقات: «بني محمد فرع من قبيلة ثعلبة، ولهم صلة قربى بالمسيرية. موطنهم الآن مديرية كردفان خاصة الجزء الشمالي الغربي منها، حول بارا والمزروب والأبيض. وجبل موية غرب سنار»[3]. ويرى يوسف فضل أن الشيخ عبد الله عاش في عهد السلطان بادي الرابع أبو شلوخ بن نول 36 – 1175 هـ / 24 – 1762م.

لعل هذه الأمثلة البسيطة توضح كيف كانت العلاقات الثقافية بين أفراد الممالك الإسلامية في السودان قبل الغزو التركي. فالطلبة والشيوخ من مختلف المناطق ما بين دارفور والمناطق الواقعة غربيها إلى سواحل البحر يوجدون في دور العلم (الخلاوي والمسايد) والشيوخ يتنقلون من مكان إلى آخر، كل ذلك يحدث دون الحاجة إلى أوراق ثبوتية أو تأشيرات دخول أو إجراءات إقامات أو تحويلات مالية. فماذا يعني هذا غير الشعور القوي بالانتماء، الشعور بالمواطنة والهُويَّة التي لا تعرف الحدود السياسية والعرق والدين واللغة؟، ما الذي حدث لهذا الإحساس بعد نهاية تلك الممالك؟.

الهُويَّة القومية، كيف اكتسبنا هُويَّتنا الحالية؟ وهل هي هُويَّة زائفة؟

رأينا في ما سبق أن المواطن في الممالك التي قامت في السودان قبل الغزو التركي كان ينتسب إقليمياً أو قبلياً مثل سناري أو دارفوري أو سقرناوي، وإلى جانب هذا الانتساب كان هناك إحساس بالانتساب أيضاً إلى مناطق وممالك الجوار. ولم يكن المواطن الدارفوري يعتبر غريباً في سنار، والحقوق نفسها يتمتّع بها المواطن السناري في دارفور، فالإحساس بالانتماء للمواطن الدارفوري أو السناري لم يرتبط بحدود الممالك، بل كان ارتباطاً عاماً تعدّى حدود الدولة. فكأننا أمام هُويَّة عامة تمتّع بها مواطنو الدول المتجاورة، مثل سنار ودارفور

---

[1]. المرجع نفسه، ص 346.

[2]. المرجع نفسه، ص 270.

[3]. المرجع نفسه، ص 271، حاشية 1و2.

والمسبّعات وتقلي. كيف ومن أين أتى هذا الإحساس بالانتماء العام؟. الجواب بسيط كما ذكرنا سابقاً؛ من أن وظيفة الحدود السياسية بين الدول في تراثنا السابق للعصر الاستعماري اختلفت عن وظيفة الحدود السياسية التي قامت بعد الاستعمار كما سيتضح ذلك.

أنهى الغزو التركي تلك الممالك المحلية في السودان، ثم تلت فترة الأتراك سنوات قليلة من حكم الدولة المهدية، ثم جاء الغزو الإنجليزي المصري الذي عرف بالحكم الثنائي، إلى أن استقل السودان عام 1956م. وقد أزالت فترات الاحتلال التركي والإنجليزي الحدود بين تلك الممالك المحلية، وأضافت إليها بعض المناطق في الجنوب، مكوِّنة الدولة التي وجدنا أنفسنا داخلها بعد الاستقلال. ومن المفترض أن لا تكون هناك مشكلة في الهُويَّة، لأن كل السكان الذين تكوّنت منهم الدولة الوليدة كانوا يحسون بالانتماء العام والهُويَّة المشتركة وهم يعيشون في ممالك مختلفة، فمن المفترض أن يَقوى الإحساس بالانتماء والشعور بالهُويَّة الواحدة، لأنهم الآن أصبحوا يعيشون في دولة واحدة.

فهل تحقَّق ذلك؟. لم يتحقَّق ذلك لأسباب كثيرة يمكن أن نجملها في نتائج التحولات العالمية والإقليمية والمحلية الكبيرة التي شهدها العالم في القرن العشرين. تعرَّضت الهُويَّة في الدولة الواحدة إلى هزَّات قوية تحت ظل الإدارة الاستعمارية، فأدّت إلى إضعاف الشعور العام بالانتماء، وترتّب على ذلك فقدان الإحساس بالهُويَّة العامة، مما أدى إلى تطوُّر الهُويَّتين المحليتين؛ القبلية والإقليمية، اللتين مهَّد لهما الاستعمار وشجَّع على نموِّهما وتطوُّرهما. فما تلك الهزات القوية التي أضعفت الانتماء والهُويَّة العامة؟.

كانت تلك الهزات القوية نتائج للتحوُّلات العالمية الكبرى منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، المتمثِّلة في الصراع الغربي الذي انتهى بحربين عالميتين. ولم ينحصر تأثير تلك الأزمات والحروب على الغرب فقط، بل انعكست بطرق مباشرة وغير مباشرة على كل الشعوب، وبخاصة تلك التي كانت خاضعة للاستعمار.

وقد كانت لقارة أفريقيا - إلى جانب المؤثِّرات السياسية والاقتصادية العالمية - أوضاعها الإقليمية الخاصة. فروّاد حركات التحرُّر من الاستعمار في أفريقيا، وهم يخوضون نضالهم للتخلُّص من المستعمر، تأثَّروا بعاملين مهمين أثَّرا تأثيرات كبيرة، بل وجَّها سياسات وبرامج دول أفريقيا بعد الاستقلال. أحد هذين العاملين يتمثَّل في الأثر الكبير للأوضاع الاجتماعية والثقافية لمجموعات كبيرة من السكان ذوي الأصول الأفريقية في الغرب، وبخاصة في أمريكا ومنطقة الكاريبي. فقد أدّت حياة الرق التي خضعوا لها لمدة طويلة إلى

اهتمامهم بأوضاع القارة الأفريقية باعتبارها القارة الأم، وتوثيق صلاتهم بها، وقاد مثقفوهم تلك التحرُّكات التي تمخَّضت – إلى جانب جهود المثقفين الأفارقة – عن ظهور دعوات تمجيد اللون الأسود، وأفريقيا للأفريقيين، والنضال من أجل القارة.

العامل الثاني هو وجود أعداد كبيرة من المستوطنين البيض في أفريقيا جنوب الصحراء، الذين كانوا – إلى جانب سيطرتهم على الموارد الاقتصادية – يمارسون سياسة تمييز وفصل عنصري حادة، جرَّدت المواطنين من كل الحقوق. فأصبح المواطنون عمالاً وأجراء في منازل ومزارع ومصانع البيض. وترتب على ذلك ظهور الآراء التي لم تنادِ فقط بحقوق المواطنين الأفارقة، بل نادى كثير منها بإجلاء البيض من القارة الأفريقية.

أثَّر هذان العاملان تأثيراً مباشراً على أفكار وسياسات قادة أفريقيا بعد الاستقلال، وبخاصة التغنِّي باللون الأسود، وتبنِّي شعارات الأفريقية أو الأفريقانية، وأفريقيا للأفريقيين، وإجلاء البيض من أفريقيا. يلاحظ أن شمال أفريقيا رغم وقوعه تحت الاستعمار إلا أن أوضاعه اختلفت عن باقي أوضاع القارة الأفريقية، فشعوبه لم تتعرَّض للاسترقاق، ولم يمارَس فيه التمييز والفصل العنصريين بالدرجة التي مورس بها في أفريقيا جنوب الصحراء.

إلى جانب كل تلك المؤثِّرات الخاصة بالقارة الأفريقية، كان هناك أيضاً أثر آخر قوي، ولا يزال يؤثِّر على أوضاع الهُويَّة؛ ذلك هو قيام الدول القومية بعد الاستقلال. فعندما توِّج النضال ضد الاستعمار بالاستقلال، كان أول الأسئلة الصعبة التي واجهت القادة هو اسم هذا الكيان السياسي الذي تكوَّن بعد الاستقلال. مع ضرورة ملاحظة أن أغلب الكيانات السياسية التي تكونت بعد الاستقلال لم يعتمد قيامها على كيانات سياسية سابقة، سواء أكان في حدودها السياسية أم في أسمائها.

فمثلاً عندما استقل السودان واجَه روّاد الاستقلال مشكلة الاسم؛ ما اسم هذا الكيان السياسي الوليد؟. الاسم الذي وجدوه هو (السودان) ولا صلة لهذا الاسم بأية دولة قامت على تراب هذه الأرض في تاريخها. هل يأخذوا هذا الاسم أم يرجعوا إلى الأسماء التي عُرِفت في تاريخنا؟، هل يأخذوا اسم سنار أم كوش أم ماذا؟. ويبدو أنهم لم يكونوا قد درسوا الأمر دراسة مسبقة، ولم يعطوه ما يستحقه من الاهتمام إلا عندما واجهتهم المشكلة. وأخيراً رجَحت الأغلبية الأصوات التي نادت باختيار اسم السودان، وهو الاسم الذي اختاره الإنجليز لمستعمرتهم التي وضعوا حدودها السياسية وأطلقوا عليها السودان

الإنجليزي المصري. وكانت هناك مستعمرة أخرى فرنسية اسمها (السودان الفرنسي) إلى الغرب من السودان الإنجليزي، كانت لا تزال تحمل ذلك الاسم عندما حقَّق سكان السودان الإنجليزي استقلالهم.

وهكذا اخترنا لدولتنا القومية الاسم الذي اختاره الاستعمار الإنجليزي وهو (السودان) بحدوده السياسية التي رسمها الاستعمار الإنجليزي. وبحكم مفهوم الدولة القومية التي تربط هُويَّة المواطن بحدود دولته، فقد أصبحنا سودانيين، هُويَّتنا سودانية. من أين جاءتنا هذه الهُويَّة؟، أو من أعطانا هذه الهُويَّة؟، أو كيف اكتسبنا هذه الهُويَّة؟. الإجابة بسيطة وسهلة وهي: الاستعمار الإنجليزي. هل نحن فخورون جدّاً بهذه الهُويَّة؟.

الهُويَّة في عالمنا المعاصر مرتبطة بالدولة القومية التي أتتنا من الغرب. وقد أتت الدولة القومية في الغرب نتيجة صراعات سياسية ودينية واقتصادية، وخاضت أوروبا الكثير من الحروب إلى أن استقرّت فيها أوضاع الدولة القومية بحدودها التي حاربوا من أجلها وخططوها بأنفسهم وفقاً لعوامل كثيرة مثل العرق واللغة والعقيدة والتاريخ والجغرافيا. أما الدولة القومية في أفريقيا -مثلاً- فهي كيان خططه المستعمر بالتراضي مع المستعمر الآخر، ووفقاً لمصالحه الخاصة.

لم يراعِ المستعمر أوضاع السكان المحليين كثيراً في تخطيط حدود الدول. فالقبيلة تقسم بين دولتينِ كما حدث في كل حدود السودان الشرقية والغربية والجنوبية والشمالية. هل اختار أهل حلفا مثلاً أن يكونوا سودانيين؟ لا، لو ضم الإنجليز منطقة حلفا إلى مصر لكان الحلفاويون اليوم مصريين، ولكانوا فخورين بكونهم مصريين. هذه الحدود التي أعطتنا هوياتنا يُطلَق عليها في الغرب الحدود الزائفة؛ لأنها لا تعبِّر تعبيراً صادقاً عن واقع الناس. وقد قبلت الدول تلك الحدود الآن إقراراً للأمر الواقع وخوفاً من الحروب. ولكنها فعلاً حدود زائفة، وما دامت هذه الحدود - التي رسمها الاستعمار - هي التي أعطتنا هويَّاتنا؛ فهويَّاتنا هُويَّات زائفة. هويَّاتنا قابلة للتغيّر في أي وقت، لو انسلخ -مثلاً- جزء من حدودنا الشرقية وانضم إلى دولة إريتريا ستصبح هُويَّة المواطن إريترية بدلاً من سودانية، والعكس صحيح. وما دامت هناك مشاكل حدود بين كل دول الجوار، فاحتمال حدوث مثل هذا الأمر وارد، وبالتالي احتمال تغيّر الهُويَّات وارد أيضاً.

ونعود إلى مشكلة هُويّتنا، ما هو أصل ومعنى كلمة (سوداني)؟ وهل نجد حلاً لمشكلة هُويَّتنا في التاريخ؟ وأين هو تاريخنا؟ وكيف نحس به؟.

أصل ومعنى ومفهوم كلمة هُويّتنا «سوداني»

دعونا نتعرَّف على هويَّتنا في كلمة (سوداني) التي وصفناها بالزائفة. لماذا أطلق الإنجليز على مستعمرتهم اسم (السودان الإنجليزي المصري)؟، ولماذا أطلق الفرنسيون أيضاً على مستعمرتهم -في غرب أفريقيا- اسم (السودان الفرنسي)؟. كلنا يعلم أن اسم السودان هو المقابل العربي لكلمة Ethiopians ذات الأصل اليوناني التي أطلقت على الشعوب ذات اللون الأسود، وأصبحت علماً على كل سكان أفريقيا جنوب الصحراء ما بين المحيط الأطلنطي غرباً والبحر الأحمر والمحيط الهندي شرقاً. وعندما جاء العرب بعد الإسلام أطلقوا كلمة السودان (جمع سود) عَلَماً على سكان أفريقيا السود، وعرفت بلادهم ببلاد السودان.

ولذلك أطلق الفرنسيون على الجزء الذي احتلوه من بلاد السودان اسم السودان الفرنسي. وبعد هزيمة الإنجليز للدولة المهدية أطلقوا على مستعمرتهم اسم (السودان الإنجليزي المصري). فالإنجليز كانوا مسيطرين على مصر، وأدخلوا اسم مصر معهم في حكم السودان لأسباب معروفة لا تدخل معنا في ما نحن بصدده هنا. وهكذا أصبح اسم السودان علماً على المناطق التي كانت تحت حكم سلطنات دارفور والمسبعات وتقلي وسنار، إلى جانب مناطق الشمال حتى وادي حلفا ومناطق الجنوب الحالية.

وقد ارتبطت كلمة السودان في المصادر والكتابات العربية، في فترة ما قبل الاستقلال؛ بالرقيق الأسود. فقد عرف العالم في تلك الأوقات الرقيق الأبيض والرقيق الأسود. واشتهر الرقيق الأسود بين العرب، وبخاصة في المناطق الوسطى والجنوبية لشبه الجزيرة العربية؛ لقربها من سواحل أفريقيا الشرقية، فكان أغلب رقيقهم من اللون الأسود، ولذلك ارتبط هذا اللون في أذهان العرب بالرق. وأعتقد أن أغلب السكان في سوداننا الحالي - وبخاصة خارج المدن - لم يكونوا على علم بأن الإنجليز أطلقوا على بلدهم هذا الاسم، وربما لم يكن اسم (السودان) يعنيهم كثيراً في بداية الأمر، فكان تعريف المواطن في هذه المناطق - إن احتاج إلى ذلك - عن طريق قبيلته أو منطقته، مثل: هدندوي، أو حلفاوي.

فماذا كانت تعني كلمة (سودان) لسكان منطقة السودان المصري الإنجليزي؟.

لست أدري ما كانت تعنيه كلمة (سودان) لسكان وسط وشرق وغرب المستعمرة الإنجليزية المصرية، أو كما يرى البعض، وأنا منهم؛ «المستعمرة الإنجليزية التركية» وهذا أمر

جدير بالبحث والتوثيق ممن عاصروا تلك الفترة في تلك المناطق. لكنني أعرف ماذا كانت تعني كلمة (سودان) عند جيل النصف الأول من القرن العشرين في شمال السودان.

وكانت كلمة (سوداني) في الشمال -حتى العقد الأول بعد الاستقلال وصيرورتها هُويّة للمواطنين- لا تزال تعني بالنسبة للبعض (الرقيق). فكبار السن من أجيال ما قبل الاستقلال -في الشمال- لم يكونوا متحمّسين لتعريف أنفسهم بـ(سوداني) لما تحمله هذه الكلمة من دلالات الرق في مخيلتهم، ولم يكونوا يحبّون وصفهم بالسوداني. ولم يرَ بعض سكان الشمال أنهم يندرجون تحت هذه الهُويّة (السوداني) رغم تبعيتهم لحدودها الجغرافية. فمثلاً كنا نسمع من أهلنا الحلفاويين عندما كنا طلبة في طريقنا إلى مصر في ستينيات القرن الماضي حين يصل قطار الخرطوم إلى حلفا يقولون: «قطر السودان وصل».

هكذا كان فهم وإحساس كثير من سكان الشمال بهُويّتهم الجديدة التي اختارها أولاً الإنجليز اسماً لمستعمرتهم، ثم اختارها من بعدهم رواد الاستقلال علماً لهُويّتهم. اسم هذه الهُويّة الجديدة لم يكن مرغوباً فيه عند البعض ومحتقراً عند البعض الأخر. وكان محور عدم قبول ذلك الاسم هو عدم الإحساس بالانتماء إليه أو بتعبيره عنهم. صحيح أن ألوانهم سوداء، ولكن ليس هذا بالأمر الذي يجذبهم للانتماء إليه. لم يكونوا يحسون برابط آخر أو صلة أخرى تربطهم بهذا الاسم، وأظن أن موقفهم ذلك يمكن فهمه، فلا يعقل أن تقول لشخص أنت تنتمي إلى اسم (السودان) لأن الإنجليز اختاروا هذا الاسم لهذا المكان ولأن لونك أسود كما يدل عليه الاسم.

هذا على كل حال ما أراه أنا. إذ لم أرَ أيّ رابط يقنع ذلك الجيل بقبول اسم السودان هُويّة له. لو قلنا له سنار أو دارفور أو النوبا أو علوة لوجدنا رابطاً نستند إليه في إقناع ذلك الجيل بما يربطه بالهُويّة الجديدة التي اخترناها له، لكن (السودان أو السود) ليس فيه ما يربط بالتراث أو ما يقنع أو ما يجذب. هذا كان حال الأجيال حتى منتصف القرن العشرين. فكيف كان وضع جيل ما بعد الاستقلال؟.

أنا لا ألوم من اختاروا تلك الهُويّة، ولا أقصد أنهم لم يحسنوا الاختيار أو لم يبحثوا عن اسم يرتبط بتراث الناس وله صلة قوية بالأرض التي يعيشون عليها، كل ما أودّه هو أن أنظر إلى واقع الأمور كما حدثت لمحاولة فهمها في ذلك الوقت ومحاولة التعرف على ما صاحب بروز هذه الهُويّة (السوداني) من ملابسات ومدى تأثيرها على مفهوم الهُويّة وقبولها في ذلك الوقت.

وآمل أن يشارك القارئ في إلقاء المزيد من الضوء على مفهوم أجيال ما قبل الاستقلال لمعنى (سودان) وإلى أيِّ مدى كان إحساس تلك الأجيال بالانتماء إلى هذه الهُويَّة أو بتعبيرها عنهم. وأرجو أن نتعرّف على مدلول ومعنى وإحساس أجيال ما قبل الاستقلال بكلمة (سودان) في باقي مناطق السودان الأخرى. ثم بعد ذلك نأتي إلى كيف فهمت وقبلت أجيال ما بعد الاستقلال هذه الهُويَّة.

اللامُنْتمي وانْفصام الهُويَّة

اقتَطعت صفة (سوداني) جزءاً من مفهوم ذي دلالة عامة - وهو السودان الكبير الممتد ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر - لتكون هُويَّة لمجموعة صغيرة من ذلك الامتداد الجغرافي الواسع، وهم السكان الذين كانوا تحت الاستعمار الإنجليزي المصري، فأصبح السودان اسماً لدولتنا وهويتنا. قَبِل الشعب هذه الهُويَّة في ذلك الوقت إقراراً بالأمر الواقع، إذ لم يكن هناك استفتاء أو تداول وجهات نظر أخرى بصورة يشترك فيها سكان المنطقة عامة. لم يكن لهذه الهُويَّة الجديدة عمق زماني يرتبط بالشعب الذي كوّنته الحدود السياسية بعد الاستقلال.

فللسودان عمق زماني ومكاني يرجع إلى أكثر من ألفي سنة، لكن ارتبط بكل سكان أفريقيا جنوب الصحراء، فكان علماً لسكانها. فما هي الخصوصية التي جعلت صفة (السوداني) ترتبط فقط بسكان سوداننا الحالي؟. لا أرى أن هناك أي خصوصية، فكل سكان أفريقيا جنوب الصحراء ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر كانوا يحملون ذلك الاسم ويعرفون بالسودان، ويدين بعضهم بالإسلام ويتحدّثون اللغة العربية، إلى جانب لغاتهم ودياناتهم الأخرى، كما هي الحال عندنا في الدولة التي تسمّت باسم السودان.

والشعوب الأفريقية جنوب الصحراء عندما استقلت اتخذت هُويَّات خاصة بها عبّرت عن خصوصياتها المحلية التي ارتبطت بتراثها وتاريخها، أو بمعالم مناطقها الطبيعية، مثل السنغاليين والماليين والنيجريين والغانيين وغيرهم. والشعبان الوحيدان في أفريقيا جنوب الصحراء اللذان تمسكا باسم السودان - دون أي خصوصيات محلية - هما شعب السودان الحالي والشعب الإثيوبي. اختار أهلنا هنا الاسم العربي (السودان)، واختار أهلنا في إثيوبيا الاسم الإفرنجي لكلمة السودان وهو إثيوبيا، مع ملاحظة أن الشعبين في كلا القطرين لم يشاركا في اختيار هذا الاسم، بل جاء اختياره عن طريق قياداتهما العليا.

وأذكر أنني عندما كنت أتجول في عام 1975م في جنوب تونس والجزائر والمغرب في دراسة ميدانية لموضوع دراستي للماجستير بعنوان (الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر الميلادي)؛ كان كل من سألني من أين أنا يقع في خلط، فعندما أقول لهم: «أنا من السودان»، يقولون لي: «أنت من مالي»، فأقول: «لا»، فيقولون: «من نيجيريا»، فأقول: «لا»، فيقولون: «من السنغال»، فأقول: «لا». وأعرفهم بأنني من السودان جنوب مصر، فيقول لي بعضهم: «أنت من السودان العربي»، ويقول البعض الآخر: «من السودان المصري». وفي واقع الأمر كانت تلك هي أول مرة أراجع فيها هذا الاسم باحثاً عن دلالته على هويتي. وبدأ ينتابني الخلط نفسه الذي أحسه من كان يسألني عن هويتي في الشمال الأفريقي، وبدأت الكثير من الأسئلة تدور في ذهني بحثاً عن الخصوصية التي جعلتنا نختار اسم السودان دون بقية الشعوب التي عرفت بهذا الاسم.

وعلى كل حال فإنه من الواضح أن اسم السودان لا يحمل أيَّ شيء خاص بسكان السودان الحالي يميِّزهم ويؤهِّلهم أو يميِّز منطقتهم بأخذ هذا الاسم دون غيرهم من السودانيين ومناطقهم في أفريقيا جنوب الصحراء. فاسم مالي - مثلاً - اختاره السودانيون في تلك المنطقة وأصبح اسماً لدولتهم وهُويَّة لهم لما يتضمنه من عمق زماني ومكاني وارتباطهم بذلك. فاسم مالي يرجع إلى المملكة الإسلامية المشهورة في التاريخ الأفريقي قبل القرن الخامس عشر الميلادي، التي ظهرت صورة ملكها على خرائط أوروبا المبكرة كأغنى ملك في العالم.

وعندما حقَّق السودانيون في ما كان يعرف بالسودان الفرنسي استقلالهم عام 1960م اختاروا اسم مالي لدولتهم التي قامت على بعض أراضي تلك المملكة الإسلامية الكبرى، فظهرت دولة مالي إلى الوجود. فالمواطنون السودانين هناك اختاروا اسم مالي لارتباطه بتاريخهم وتراثهم في تلك المنطقة، فهُويَّتهم الجديدة ارتبطت بعمق زماني ومكاني على الأرض التي يعيشون عليها. فالإحساس بالانتماء إلى المكان والارتباط به قوي، مما جعل للهُويَّة مكانة سامية في نفوس المواطنين يحترمونها ويلتفون حولها.

وإذا أخذنا دولة غانا كمثال آخر للسودانيين في أفريقيا جنوب الصحراء وكيف بحثوا عن هُويَّة تربطهم بالتراث والتاريخ بعد الاستقلال، نجد أن المنطقة التي كانت تعرف بساحل العاج قبل الاستقلال، اختارت اسم غانا؛ المملكة المشهورة في التاريخ الأفريقي التي سبقت مالي في قيامها وازدهارها. ورغم بُعْد حدود مملكة غانا القديمة عن منطقة ساحل

العاج إلا أنهم رأوا فيها ارتباطاً بتاريخهم الأفريقي بعمقه الزماني وهو تراث يفتخرون بالانتماء إليه.

أما الهُويَّة التي اخترناها لنا (السوداني والسودان) فهي ذات عمق زماني ومكاني كما ذكرنا منذ أكثر من ألفي سنة، لكن ذلك البُعد يتعدّى حدودنا الجغرافية ويدخل معنا كل سكان أفريقيا جنوب الصحراء. فنحن نتبع لهُويَّة لا خصوصية لها، لا ترتبط بتراب أرضنا ولا تخلق فينا الإحساس بالانتماء إليها، فهي هُويَّة بلا أصالة. هذا الإحساس بفقدان الأصالة والتراث أدى بالمواطن في سوداننا الحالي إلى البحث عن العمق الزماني والمكاني. قبل المواطن صفة السوداني لكنه وجدها خاوية لا خصوصية لها ولا ارتباط مباشراً لها بالمكان وتاريخه وتراثه، ولم يجدْ فيها ما يشدّه إلى التراث ويربطه بالأرض، ولم يتّضح له أصل ومصدر الانتماء.

أصبحت الهُويَّة مهزوزة في داخله، ولم يحدث الانسجام الداخلي للمواطن. يرى المواطن التاريخ والتراث أمامه فلا يدري هل تعبر هُويَّته عن ذلك التراث؟، وما هي الصلة بين هُويَّته والمكان؟، هل كون لونه أسود فقط يكفي ليعطيه الانتماء إلى السود الذين عاشوا على هذه الأرض منذ آلاف السنين؟. برزت مثل هذه الأسئلة في أذهان الكثير من المواطنين، واختلفت الإجابات عليها، واختلفت ردود الفعل الناتجة عن ذلك، وتطوَّر عدم الانسجام الداخلي تجاه الهُويَّة والشعور بعدم الانتماء، وبدا ما يمكن أن نصفه بظاهرة انفصام الهُويَّة في التفشّي بين كثير من المواطنين؛ فأصبح المواطن لامنتمياً مما زاد شعوره بذلك الانفصام.

عرب أم أفارقة؟

زاد انتشار التراث المحلي الذي يدّعي الانتساب إلى العرب الفجوة بين معنى الهُويَّة وواقع حال المواطن. وازداد توسُّع الفجوة بانضمام السودان إلى جامعة الدول العربية، فعزَّزت الشعور بالانتماء إلى العرب، وأصبح أغلب الشعب السوداني يبحث عن هُويَّته وأصوله خارج حدود إقامته. عمَّق كل ذلك ضعف الانتماء والإحساس بالهُويَّة الداخلية، وأدى البحث عن الانتماء إلى بروز التساؤل عند كثير من المواطنين – ما عدا القليل من المناطق – هل نحن عرب أم أفارقة؟. وارتبط الانتماء في الأذهان بين هذين الخيارين؛ عربي وأفريقي. وزاد المشكلة تعقيداً عدمُ الوعي الكامل بمعنى أفارقة؛ إذ إن أغلب الناس يعتقدون أن الأفريقي هو ذو اللون الأسود، ولما كان اللون الأسود يرتبط في الأذهان بالرق

– كما وضّحنا– فقد أصبحت صفة الأفريقي غير جاذبة، أو قل غير مستحبة، والانتماء إليها غير مرغوب فيه. وبحث أغلب المواطنين عن الانتماء بعيداً عنها، وذهبوا تلقائياً إلى الخيار الثاني وهو الانتماء إلى العرب.

فإذا كان الانتماء إلى العرب يعني الانتماء إلى الجنس العربي؛ فإن الانتماء إلى الأفريقي لا يعني الانتماء إلى جنس محدَّد، لأن الأفريقية ليست جنساً يُنتمى إليه. الأفريقي صفة لسكان القارة الأفريقية مثل الآسيوي صفة لسكان قارة آسيا. ففي آسيا الكثير من الأجناس مثل العرب والهنود والصينيين والأتراك وغيرهم، وفيها الألوان الأصفر والأبيض والأسمر، وكلهم آسيويون، وكلٌّ منهم ينتمي إلى جنسه الخاص، ولا يوجد جنس آسيوي واحد. وكذلك الأفريقي صفة لسكان القارة الذين يتكوّنون من أكثر من جنس ولون واحد. فيوجد في أفريقيا الجنس الزنجي، والجنس الذي اصطلح على تعريفه بالجنس الحامي، وخليط من هذين الجنسين وغيرهما. وتتفاوت ألوان الأجناس في أفريقيا، فيوجد بينها اللون الأبيض واللون الأسمر واللون الأسود.

فإذا ألقينا نظرة سريعة وعامة على سكان أفريقيا لوجدنا الجنس الزنجي الذي يتميَّز بقصر القامة وطول الأطراف والأنف الأفطس والشفاه الممتلئة إلى جانب الشعر الصوفي واللون الأسود. وأعداد الزنوج في القارة الأفريقية قليلة جداً مقارنة بالأجناس الأخرى، وهم محصورون في أماكن قليلة في الغابات الاستوائية. والغالبية العظمى من سكان أفريقيا تتكوّن ممن يعرفون بالحاميين وخليط من الحاميين والزنوج، وهم الذين يمثّلون شعوب مناطق شمال أفريقيا والصحراء الكبرى وشعوب ما بين الصحراء والغابات الاستوائية وجنوبيها. وهم متداخلون في كل هذه المناطق، مثل السنغاليين والماليين والنيجريين والشلك والنوير والدينكا والإثيوبيين والماساي والأمازيغ في شمال أفريقيا والطوارق والزغاوة والمحس والبجا والصوماليين والإريتريين، ولون كل هؤلاء يتدرَّج بين الأسود والأسمر والأبيض.

فالسود والبيض والسمر في أفريقيا كلهم أفارقة ينتمون إلى القارة، ولهم أجناسهم الخاصة بهم. وسكان السودان أفارقة بوصفهم سكان القارة الأفريقية مثل المغاربة والمصريين واليوغنديين والكينيين والصوماليين، وينتمون إلى الجنس الأسمر الذي سكن منطقة وادي النيل منذ آلاف السنين، وحفظت لنا الآثار المصرية والسودانية القديمة سماته. فالمقابلة بين عرب وأفارقة مقارنة خاطئة، لا ينبغي أن نقول: هل نحن عرب أم أفارقة؟.

ينبغي أن نحذف كلمة أفارقة ونضع في مكانها اسم جنس مثل حامي أو زنجي أو خليط من هذا وذاك. ويقودنا ذلك إلى البحث عن الجنس الذي ننتمي إليه في أفريقيا. ومن الجانب الأخر فإن (سوداني) ليست جنساً، وإنما صفة لأجناس كثيرة يجمعها اللون الأسود، كما أوضحنا سابقاً. نحن في الواقع لا ندري بالتحديد ما ننتمي إليه، وما هي هُويَّتنا، وإلى أيِّ جنس ننتمي.

البحث عن الجذور

البحث عن الانتماء يعني البحث عن الأصول والجذور، هل لنا جذور على تراب الأرض التي نعيش عليها؟، وما هي؟. ويقودنا ذلك إلى التعرُّف على من عاش على تراب هذه الأرض التي نعيش عليها عبر العصور: ما هي أصولهم؟، وهل هناك صلة تربطنا بهم؟، وهل تمتد جذورنا إليهم؟. أرى أننا لو استطعنا الإجابة على مثل هذه الأسئلة لتمكنَّا من الوصول إلى جذورنا والتعرُّف على أصولنا وتأصيل هُويَّتنا بغضِّ النظر عن اسمها.

قام الكاتب الأمريكي المشهور أليكس هالي، ذو الأصول الأفريقية، في كتابه المشهور (الجذور) بالبحث عن جذور الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية، بدايةً من جيله وراجعاً إلى الوراء في أمريكا، ثم في أفريقيا، إلى أن ربط جيله بجذوره الأفريقية. فكان منهج بحثه من الحاضر إلى الماضي، لأن الماضي كان غائباً عنه وغير معروف لديه.

أما نحن فسيكون سبيلنا في البحث بعكس ما قام به أليكس هالي، سنبدأ بحثنا من الماضي قادمين إلى الحاضر، لأن الماضي ماثلٌ أمامنا، لنرى هل لنا صلة بذلك الماضي؟، وهل ننتمي إليه؟. فإذا وجدنا أن هناك صلة بيننا وبين ذلك الماضي، وأن لنا صلة بالمواطنين الذين عاشوا منذ آلاف السنين على تراب هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم، وأننا ننتمي إليهم؛ لَعَرِفنا جذورنا وأصّلنا هويتنا. وإذا وجدنا أننا لا ننتمي إليهم فيعني ذلك أننا لا نزال لامنتمين، وعلينا القيام بالمزيد من عمليات البحث عن جذورنا.

ولكي نتمكَّن من التعرُّف على الماضي وفهمه بصورة جليّة، ينبغي علينا أولاً التعرُّف على جغرافيا المكان الذي نودُّ دراسة تاريخه. فالأوضاع الجغرافية – باختصار شديد – تلعب دوراً كبيراً على التركيبة السكانية. وبدون الدخول في تفاصيل ومصطلحات جغرافية يمكن أن نتناول السودان من خلال ثلاث مناطق: 1. منطقة الجنوب 2. مناطق شرق النيل الأبيض ونهر النيل 3. مناطق غرب النيل الأبيض ونهر النيل.

1. المناطق الواقعة إلى الجنوب من نهر السوباط وبحر الغزال وبحر العرب: تتميَّز هذه المنطقة بالسدود والمستنقعات والغابات الكثيرة، مما جعل كثيراً من سكانها من القبائل النيلية (الشلك والدينكا والنوير) يتحرَّكون بين وقتٍ وآخر إلى خارج المنطقة، وكانوا يتحرَّكون بصورة منتظمة نحو الشمال. وقد رصدت الآثار المصرية القديمة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة وصولهم شمالاً حتى الحدود المصرية الحالية، وكانوا يستقرون على طول هذه المنطقة. لذلك ينبغي البحث والتعرُّف على آثار تلك القبائل النيلية وعلى التركيبة السكانية في السودان الشمالي.

2. مناطق شرق النيل الأبيض ونهر النيل: تمتد هذه المنطقة شمالاً حتى مناطق البجا على الحدود المصرية. وتبدأ من نهر السوباط وتمتد في أرض الجزيرة ما بين النيلين الأبيض والأزرق، وامتداد المنطقة حتى الهضبة الإثيوبية. ثم تتابع المنطقة امتدادها شمال النيل الأزرق من نهر النيل غرباً وحتى الهضبة الإثيوبية والبحر الأحمر شرقاً. وتتميَّز هذه المنطقة بفروع الأنهار والأودية التي ربطت بين كل أطرافها حتى أصبحت منطقة متجانسة في طبيعتها وسكانها، مثل نهر ستيت شمال الهضبة الإثيوبية وامتداده نهر عطبرة في السودان، وخور مارب في إريتريا وامتداده خور القاش في السودان، وخور بركة وامتداده في إريتريا والسودان.

ومن الواجب أن يتّجه البحث لدراسة التكوين السكاني للمناطق الواقعة شرقي النيل الأبيض ونهر النيل لكل عناصر السكان الحاليين من صوماليين وإريتريين وإثيوبيين وسودانيين، للتعرُّف على تكوينهم المبكر وأصولهم. ويلاحظ استقرار السكان النسبي على هذه المناطق نسبة لقلّة التقلبات المناخية الكبيرة كما حدث في المنطقة التالية.

3. مناطق غرب النيل الأبيض ونهر النيل: تقع هذه المنطقة ما بين بحري الغزال والعرب جنوباً حتى الحدود المصرية شمالاً. تعرّض الجزء الأوسط والشمالي من هذه المنطقة للتغيُّر المناخي الكبير الذي ضرب ما يعرف الآن بالصحراء الكبرى منذ الآلاف القليلة السابقة للميلاد. ونتج عن ذلك التحوُّل التدريجي للمنطقة من غابات وبحيرات ومراعٍ وأنهار إلى الصحراء التي نراها اليوم.

وقد أدّى ذلك الجفاف التدريجي إلى نزوح السكان نحو المناطق الغنية بموارد المياه. وكان نهر النيل من أكبر المناطق التي استقبلت المهاجرين الوافدين من المناطق الغربية.

ويعني ذلك أن هناك عاملين أثّرا على تحرُّك وتكوين السكان في هذه المنطقة؛ أولهما الجفاف التدريجي الذي اجتاح المناطق الغربية، وثانيهما تحركات القبائل النيلية من الجنوب.

وكما ذكرنا فقد كان الجفاف تدريجيّاً، فوادي هوار، مثلاً، كان لا يزال نهراً دائم الجريان يلتقي بالنيل عند منطقة حلفا حتى القرون القليلة التي سبقت قيام حضارة وادي النيل. وواحة سليمة وبحيرة لقية -غربي حلفا- كانتا مصدرين دائمين للمياه. وبالقدر نفسه يمكن النظر إلى وادي الملك الذي يجري من شمال كردفان ويصب في النيل عند منطقة الدبة، ووادي المقدم الذي يصب في منطقة كورتي، وغيرهما من الأودية.

فالمنطقة الصحراوية الحالية كانت مناطق اتصال سكاني مثل منطقة الجزيرة والبطانة إلى عهد ليس بالبعيد في عمر تكوين الشعوب. ومن الواجب، ونحن نبحث عن السكان وأصولهم والمؤثِّرات التي طرأت على تكوينهم، وضع هذه الاعتبارات في حسباننا. فإنه من غير الممكن التعرُّف على سكان النيل دون ربطهم بالتحرُّكات السكانية التي أتت من الصحراء. ولعل المثل الواضح في ذلك الهجرة التي أتت من الجنوب واجتاحت مملكة مروي وأدّت إلى ضعفها وانهيارها في القرن الرابع الميلادي تحت ضربات مملكة أكسوم، وكذلك الهجرة الصحراوية التي دخلت منطقة حلفا في القرن الثالث الميلادي وكوَّنت مملكة نوباتيا المسيحية.

فالسكان في منطقة السودان الحالي ربطتهم، عبر التاريخ، روابط طبيعية أدّت إلى الصلة الدائمة بينهم، فكوّنوا عبر التاريخ السكان الذين عاشوا وخلّفوا لنا تراثهم. يجب بحث تلك الروابط والتحقُّق من ذاك. مثلاً عند الحديث عن حضارة كرما ينبغي البحث عن جذورها وربطها بشمال دارفور عبر وادي هور. وعند الحديث عن مروي ينبغي البحث عن صلتها بشمال كرفان التي تقول بعض الروايات المحلية في الشمال إن إحدى عواصمها كانت في منطقة زانكور بشمال كردفان. وعند الحديث عن قيام سلطنة سنار ينبغي البحث عن أثر سكان أعالي النيل الأزرق وغرب النيل الأبيض في قيامها وازدهارها.

نحن نقع الآن تحت تأثير الوضع المناخي الحالي فننظر إلى حضارة كرما مثلاً باعتبارها وليدة شمال السودان فقط، وننظر إلى تراث السودان القديم باعتباره وليد المنطقة الواقعة ما بين الخرطوم وحلفا كما توضحه الخرائط في كتب تاريخ السودان القديم، باستثناء القليل منها. وقد أدّى هذا إلى أن بعض السكان يرون أنهم لا ينتمون إلى ذلك التراث. قراءة تاريخنا تتطلّب قراءة الوضع الجغرافي أيضاً، وبالقراءتين معاً يمكن التعرُّف على التاريخ،

وبالتالي التعرُّف على أصول التركيبة السكانية ومؤثِّراتها.

نحو إعادة التركيب

هذه تأمُّلات، والتأمُّلات ليست ممنوعة في مجال التاريخ، ولكن لا يعني هذا أن التاريخ خيال وتأمُّلات. وهذه التأمُّلات محاولة للوصول إلى فرضيات تؤدي إلى الربط بين الأحداث ومحاولة فهمها، ثم تأتي مرحلة البحث في تلك الفرضيات لإثباتها أو نفيها، أو تركها معروضة للدراسة إذا تعذَّر التوصُّل إلى أدلة الإثبات أو النفي. وأدلة الإثبات أو النفي تعتمد على المعلومات أو المادة المستخدمة، فكلما كانت المعلومات أو المادة المستخدمة محل ثقة، مثل الوثائق أو الأدلة الأثرية؛ كانت النتائج موثوقاً بها ومقبولة، أما إذا كانت المادة المستخدمة في حاجة إلى البحث عن مدى صحتها وإمكانية قبولها – مثل الروايات الشفاهية أو المادة المدوَّنة غير المعتمدة على مصادر موثوق بها– فإن العمل يتطلَّب الكثير من الجهد، ويجب أولاً إخضاع المادة للدراسة لمعرفة إمكان الاطمئنان إليها من عدمه.

ولما كان مشوار الكتابة في التاريخ طويلاً وصعباً؛ كانت التأمّلات الميدانية أكثر سهولة. وقد يظن البعض أن هذه التأمُّلات هي التاريخ – كما هو الحال في تأمّلاتنا في نسب القبائل العربية – وهذا خطأ كبير. وقد بدأت بهذه المقدمة لأنني أريد أن أتأمّل في تاريخ السودان، وأضع فرضيات لما يمكن أن يمثِّل مساراً لتاريخ السودان عبر العصور في ثلاث مراحل؛ الأولى: المرحلة المبكرة ما قبل عصر كوش. الثانية: عصر كوش وحتى العصر المسيحي. الثالثة: من دخول الإسلام وحتى العصر الحاضر. وستقتصر التأمُّلات هنا على الفترتين الأولى والثانية كما يلي.

- المراحل المبكرة ما قبل عصر كوش

الإنسان في القارة الأفريقية أصيل لم يهاجر إليها من القارات الأخرى، بل النظريات المقبولة الآن والمستندة على الأبحاث العلمية الحديثة ترى أن الإنسان بدأ حياته في السافنا الأفريقية، ومنها هاجر إلى باقي القارات، وأطلقوا عليه اسم San-like man، لأن أقدم ممثِّل له الآن هم شعب السان في جنوب أفريقيا. وكان لون بشرة ذلك الإنسان سمراء تتناسب والبيئة التي ترعرع فيها، وهو لون البشرة نفسه للسكان الحاليين في السافنا الأفريقية.

- تفرَّع سكان أفريقيا من هذه السلالة (مثل الزنوج والنيليين وسكان الصحراء الذين عرفوا في ما بعد بالحاميين)، واكتسبت كل جماعة الخصائص الجسمانية واللونية التي

اقتضتها أوضاع بيئاتهم.

- أصول سكان السودان كلهم من سلالة ذلك الإنسان.

وينبغي قبل الحديث عن أجدادنا القدماء – سلالة السان – التعرُّف على الأوضاع المناخية في المنطقة المعنية بالتأمُّلات – قبل بداية الحضارة المصرية – وهي المنطقة الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً وتمتد غرباً حتى المنطقة الممتدّة بين نَبتا Nabta – الواقعة شمالي شرقي حلفا – وجبل العوينات شمالاً إلى منطقة السدود جنوباً. ونلاحظ أن مناخ هذه المنطقة لم يكن كحاله الآن، بل كانت به بحيرات وأنهار ويتمتّع بالغطاء النباتي الغني (مثل بحيرات نبتا وميرجا جنوبي نبتا، والنهر الأصفر (وادي هوار) وربما أنهار أودية جبرة والملك والمقدم وغيرها).

- أتأمّل دراسة جيولوجية للنيل وروافده الجارية والجافة.

وأتأمّل دراسة بداية المرحلة المبكرة لتاريخ أجدادنا منذ استقرارهم على طول هذه المنطقة، قبل بداية مرحلة الجفاف التي أوجدت الصحراء الكبرى منذ نحو سبعة آلاف سنة، والتعرّف على طبيعة حياتهم المبكرة في مراحل الصيد على ضفاف البحيرات والأنهار. فعلى سبيل المثال كان امتداد بحيرة تشاد أكبر بكثير من حجمها الحالي، وإقليم السدود على النيل الأبيض يمتد أحياناً إلى منطقة الخرطوم الحالية. تُرى كيف مارس أجدادنا صيد ورعي الحيوان؟، وكيف تطوَّرت أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية في الفترات المبكرة؟ (على سبيل المثال فإن الأنظمة الاجتماعية في منطقة نبتا Nabta شمال غرب وادي حلفا سبق تطوُّرها نظيرتها على نهر النيل في السودان ومصر)، وكيف كانت العلاقات بين سكان هذه المناطق؟، وإلى أيِّ مدىً أثّروا على بعضهم؟. (على سبيل المثال وُجدت آثار الزراعة واستئناس الحيوان والتحنيط في المناطق الصحراوية الداخلية غربي النيل قبل انتشارها بين قدماء المصريين).

- أتأمّل دراسة عصر الجفاف منذ بدايته قبل نحو سبعة آلاف سنة في المناطق الغربية من وادي النيل للوقوف على نتائجه على وضع السكان وأنشطتهم في المنطقة. وبداية تجمُّعات السكان على مصادر المياه على جانبي النيل، وقيام الثقافات المبكرة في تلك المناطق، وبداية الاحتكاك بينها وبين مجتمعات النيل.
- أتأمّل دراسة النظريات التي ترى أن الاحتكاك والعلاقات بين سكان المناطق الواقعة حول النيل شرقاً وبخاصة غرباً (التحدي والاستجابة) هو سبب تطوُّر الأنظمة على النيل وقيام حضارته، بما في ذلك الحضارة المصرية.
- أتأمّل دراسة النظريات التي ترى انتقال الحضارة من الصحراء إلى وادي النيل، وبدايات

التحنيط المبكرة في الصحراء والأصول الصحراوية للآلهة الفرعونية مثل الإله آمون والنظريات التي ترى انتقال الحضارة من جنوب الوادي إلى الشمال.

- أتأمّل تتبُّع الثقافات المبكرة، ما هو معروف لدينا على نهر النيل، وما ينبغي البحث عنه في كل مناطق السودان الأخرى، وبخاصة الصحارى الشرقية والغربية والأودية الجافة.
- تتبُّع العلاقات المصرية السودانية المبكرة المدوَّنة على الآثار المصرية للتعرُّف على سكان المنطقة.
- علاقات السودان المبكرة بسكان وثقافات الصحراء الكبرى، مجتمعات نبتا ومناطق تبستي والجرمانت جنوبي ليبيا.
- كيف يمكن تصوُّر أوضاع السودان كله - وليست الأوضاع على نهر النيل ما بين الخرطوم والشلال الأول فقط - وأوضاع سكانه وعلاقاتهم الداخلية والخارجية وتطوُّر أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؟.
- هل من الممكن تصوُّر أن سكان السودان الأوائل، سلالة السان، قد اختلطوا بالسلالات المحيطة بهم جنوباً وشرقاً وغرباً وعاشوا بكل الأماكن متوفِّرة الموارد في حدود السودان الحالي، الذين أوضحت بعض آثارهم التي تم الكشف عنها أنهم كانوا سود البشرة قبل قيام حضارة كرما وقيام الحضارة المصرية (لا يوجد في السودان زنوج بما في ذلك جنوب السودان)، وأن أولئك السكان انتشروا على أحواض الأنهار والأودية المعروفة حالياً، وأن مناطق غربي النيل كانت امتدادهم الحيوي، هذا الشعب كوّن الثقافات والحضارات المبكرة التي كشف عن بعضها شمالي الخرطوم، وأن أولئك السكان هم الذين وردت أسماؤهم وأسماء بعض مناطقهم في الآثار المصرية مثل: تاستي، تانحسي، واوات، إيام، إرثت، مجا، وكوش؟.
- أرى أن نتائج هذه الدراسات ستقودنا إلى التعرُّف على سكان ولغات وحضارات السودان المبكرة، وربما ساعد التعرّف على لغات ولهجات البجا وسكان جبال النوبا وشمال كردفان في فك رموز لغة السودانيين القديمة.
- وأخيراً كيف نتصور العلاقة بين أولئك السكان القدماء وبين السكان الذين أسّسوا حضارة كوش ومروي؟، هل هم الذين تجدَّدت دماؤهم وثقافاتهم ولغاتهم وأنتجوا لنا حضارة كوش، أم أين ذهبوا؟.

- **المرحلة الثانية: عصر كوش وحتى العصر المسيحي**

هذه المرحة أوفر مصادراً وأسهل تناولاً من المرحلة المبكرة، ومع ذلك فمعرفتنا بها محدودة، وجاءت التأملات عنها في شكل تساؤلات، فكل ما نصبو إليه هو أن تتوفَّر لنا المعلومات التي تعرِّفنا وتربطنا بذلك التراث، وتمكِّننا من الإجابة على الكثير من التساؤلات وعلامات الاستفهام في أذهاننا مثل:

- ماذا يعني اسم كوش ونبتا؟، ولماذا عرفت المملكة بذلك؟.
- معنى لفظ إثيوبيا - والعلاقة بينه وبين لفظ السودان - وعلى من أطلق؟.
- إلى أيٍّ مدى تغيَّرت سمات المجتمع السوداني القديم قبل كوش؟، وكيف برزت سمات المجتمع الكوشي الجديد؟.
- من هم أولئك السكان الذين أسَّسوا المجتمع الكوشي الجديد؟.
- هل كان ذلك المجتمع الجديد استمراراً للجماعات والثقافات القديمة؟.
- إلى أيٍّ مدى امتدت الحدود الداخلية للممالك التي قامت في السودان؟.
- ما هي اللغات التي كان يتحدَّث بها أهل السودان في تلك الأوقات؟.
- هل انقرضت تلك اللغات؟، وكيف؟.
- هل انقرض متحدِّثو تلك اللغات؟، كيف ولماذا؟.
- لماذا لا نجد اللغة المروية في لغات سكان شمال السودان الحاليين؟.
- ما هو ارتباط حضارة كوش - بحقبها المتعاقبة - بالشعوب المجاورة لها شرقاً وغرباً؟.
- ما هي السمات المشتركة بين سكان السودان في ذلك الوقت وبين التبو والجرمانتيين في جنوب ليبيا (لغوياً وحضارياً وعرقياً)؟.
- لماذا توجد العديد من السلات في منطقة جبال النوبا مع صغر حجم المنطقة؟.
- لماذا يوجد في منطقة جبال النوبا ذلك العدد الكبير من اللغات واللهجات؟.
- ما هي العلاقة بين البليميين المستقرين على النيل والبجا البدو؟.
- هل هناك علاقة بين البليميين والبجا من ناحية، وسكان كردفان ودارفور من الناحية الأخرى؟.
- ما هي العلاقة بين سكان النيل وسكان المناطق الواقعة شمالي الهضبة الإثيوبية والبحر

الأحمر؟.

- إذا كان البليميون والبجا سلالة واحدة، أين كان مقرّهم الأصلي؟، وما سبب انقسامهم؟.
- هل هناك علاقة بين لغة البليميين واللغة المروية؟.
- إلى أين امتدت حدود الممالك المسيحية في السودان؟، هل هي نفسها حدود الدولة المروية؟، وما هي علاقتها بحدود السودان الحالية؟.
- هل أدّى قيام المماك المسيحية في السودان إلى تغيير الدين من وثني إلى مسيحي فقط؟، أم كانت هناك تغييرات عرقية ولغوية؟، وإن كان كذلك كيف تم ذلك؟.
- إلى أيٍّ مدى انتشرت المسيحية في السودان؟.
- من هم سكان السودان في العصر المسيحي؟.
- كيف كان شكل الحكومة والإدارة في الممالك المسيحية؟.
- كيف كانت علاقة الممالك المسيحية ببعضها وعلاقاتها بالعالم الخارجي؟.
- ما هي العلاقة بين سكان ولغات السودان في العصر المسيحي وسكان ولغات السودان في العصر السابق له؟.
- ما هي اللغات التي كان يتحدث بها السكان في العصر المسيحي؟، وما هي اللغة الرسمية في كل مملكة؟.
- ما هي العلاقة بين السكان الحاليين ولغاتهم في مناطق أعالي النيل الأزرق والنيل الأبيض ونهر عطبرة وخور القاش وبركة وبقية مناطق البجا وجبال النوبا وغرب السودان وبين سكان ولغات الممالك المسيحية؟.
- أيُّ نوع من المادة نقدّمها في مراحل التعليم قبل العالي عن تاريخ السودان؟، وما هي أهدافها؟.

أرى أن الإجابة على مثل هذه الأسئلة ستمكّننا من فهم واقعنا المعاصر الذي هو امتداد لتلك المراحل. ولمّا كان العصر المسيحي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً وقريباً - انتهى قبل نحو خمسة قرون - بالعصر الذي نعيشه الآن، فإن أحداثه تداخلت وتفاعلت في المرحلة الأخيرة من تاريخ السودان، وهي المرحلة الإسلامية. فموضوع العروبة وقضايا النسب العربي في السودان بدأت في العصر المسيحي، ولذلك ستقتصر تساؤلاتنا في العصر المسيحي إلى هذا الحد لتدخل بقية التأمّلات عن العصر المسيحي في المرحلة الإسلامية.

الفصل الثاني

بلاد وسكان شرق السودان

- أرض البجا ومواردها
- من هم أسلاف البجا؟
- قبائل شرق السودان
- قبيلة الحدارية
- قبيلة البليين
- قبيلة الزنافجة
- قبيلة الخاسة
- قبائل البجا في الداخل: قبيلة (قصعة، بواتيكة، كديم، باتين وبازيه)
- قبيلة الحلنقة
- خاتمة

أرض البجة ومواردها

نبدأ دراستنا للسكّان بشرق السودان، وسنتناول أرض البجة وقبائلها، كما جاءت في المصادر العربية المؤلَّفة بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين (الـ9 – 15 الميلاديين)، ويلاحظ أن تلك المصادر التي تناولت البجة وأرضها، انحصرت معلوماتها بصورة عامة في المجموعات الشمالية لقبائل البجة. فقد بدأت صِلات المسلمين من مصر مبكراً بتلك المناطق بحكم مجاورتها لهم؛ وكانت تلك الصِلات سلمية في بعض المرات، وحربية مراتٍ أخرى – كما سنفصِّل ذلك لاحقاً – حتى بداية اشتغال المسلمين في التعدين في منتصف القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، والذي امتد حتى بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (14 الميلادي)، وكان اتصال المسلمين طيلة هذه الفترة مستمراً بأرض البجة وبالمجموعات الشمالية.

كان تحديد بلاد البجة في المصادر العربية المبكرة تحديداً واسعاً، يتعدّى في كثير من الأحيان حدودها الشمالية الحالية، وبالقدر نفسه جاء استخدام لفظ البجة عاماً وواسعاً، فشمل في بعض الأحيان أقواماً وقبائل لا تُعرف اليوم بهذا الاسم؛ وسنحاول فيما يلي التَعرُّف على بلاد البجة وسكَّانها من خلال أعين أولئك الكُتَّاب.

تبدأ بلاد البجة من الشمال؛ من منطقة الصحراء الشرقية الممتدة من الأقصر على النيل غرباً، وحتى البحر الأحمر شرقاً. يقول ابن سُليم الأسواني: «أول بلد البجة من قرية تُعرف بالخربة من معدن الزُّمُرُّد في صحراء قوص، وبين هذا الموضع وبين قوص ثلاث مراحل»[1]، وتقع مدينة قوص إلى الشمال قليلاً من مدينة الأقصر الحالية. يوضح هذا أن حدود بلاد البجة كانت تمتد في الصحراء شمالاً إلى مناطق أبعد بكثير من امتداد مناطقها الحالية.

جعل ابن سليم حد البجة الجنوبي بأول بلاد الحبشة حيث قال: «وآخر بلاد البجة، أوّل بلاد الحبشة». غير أن الحدود بين بلاد الحبشة وبلاد البجة، لا تبدو واضحة المعالم

[1]. ابن سُليم الأسواني، عبد الله بن أحمد، أخبار النوبة، نقله عنه المقريزي. انظر: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة فرع الخرطوم، الخرطوم، 1972م، ص 105.

في المصادر العربية، بل لم يرد اتفاق حول تحديدها. فابن سليم مثلاً يرى أن ساحل البجة يمتد حتى جزيرة سواكن، وباضع، ودهلَك. في حين يذكر الحميري: «أن باضع تقع على ساحل البجة والحبشة»□.

وجعل ابن حوقل الحدود الجنوبية لبلاد البجة أعالي خور بَرَكَة بالقرب من باضع؛ حيث بطون قصعة□، وهي من أجلّ قبائل البجة، أما اليعقوبي فقد ذكر تحت عنوان (مملكة البجة) أن «لهم عدة ممالك»، وتتبعها من الشمال إلى الجنوب، فكانت آخر ممالكهم، وهي السادسة، «مملكة النجاشي.. وساحلهم دهلَك»□.

وهكذا تبدو حدود البجة الجنوبية غير واضحة المعالم في المصادر العربية المبكّرة، ولكن يبدو واضحاً أنهم اعتبروا أن ديار البجة تمتد حتى منطقة السهل الشمالي للهضبة الإثيوبية. وقد جاء وصف هذه المناطق في تلك المصادر بما يوضح تمتُّعها بوفرة الموارد الطبيعية، مثل موارد المياه المتنوِّعة الجارية والجوفية والمطرية. وتحدَّثت المصادر عن الموارد الزراعية والنباتية والحيوانية والمعدنية، كما تناولت السكّان وأنشطتهم التجارية. ومن الطبيعي أن تساعد كل هذه الموارد على كثافة السكان وتعدُّد النشاطات، وقيام المراكز، والمدن، والممالك، وتطوُّر أساليب الادارة. وفيما يلي سنتتبّع ما تيسّر الاطلاع عليه من نصوص متعلّقة بهذه الموضوعات في تلك المصادر.

وقد ترك لنا ابن حوقل معلومات قيِّمة ودقيقة في وصفه للمناطق الواقعة على حوض نهر عطبرة، وخوري القاش وبَرَكَة. وتكتسب معلوماته عن هذه المناطق أهمية خاصة لأنها استندت على مشاهدة عيانية ورحلات ميدانية؛ فقد أبحر ابن حوقل في البحر الأحمر، وزار بعض مناطق بلاد البجة وسواحلها، وجمع مادته عن المنطقة بطريق مباشر، واعتمد على الروايات في المناطق التي لم يزُرها ووضّح كيف أنه كان يدقّق في جمعه هذه المعلومات.

تناول ابن حوقل بلاد البجة وسكّانها من الجنوب إلى الشمال؛ فبدأ بوصف المناطق الغنية بمواردها المائية، والنباتية، والحيوانية، والسكّانية، في المنطقة السهلية التي ذكر أنها

□. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (موقع الوراق)، ج 1 ص 333.

□. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، ص 59، نقلاً عن: مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق.

□. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، تاريخ اليعقوبي، المعروف بتاريخ ابن واضح، (موقع الوراق)، ص 21.

منتهى ما يصله تجّار المسلمين من أرض البجة، وعرّفها بمنطقة قلعيب، وما جاورها من منطقة ملاحيب. قال ابن حوقل: «نواحي قلعيب، وهي مواضع ذات مياه في أودية متصلة بجبل يُعرف بـ ملاحيب، وأكبر أوديته وادي بَرَكَة، وبين قلعيب وبَرَكَة غياضٌ عاديَّةٌ ذات أشجار، وربما كان دائرة الشجرة من أربعين ذراعاً إلى خمسين ذراعاً، أو إلى ستين ذراعاً، وأفنيتها مراتع الفيلة، والزرافات، والكركدن، والنمر، والفهد، إلى سائر الوحوش، سائمة راتعة في غيلها ومياهها وغياضها. ويتصل بحد ملاحيب من شقه الشرقي وادٍ يُعرف بصيغوات، كثير الماء أيضاً، والشجر، والحُمُر، والوحش»[1].

غياضٌ عاديَّةٌ، يقصد بها أماكن قديمة تتجمّع فيها المياه وينبت فيها الشجر. قال الزبيدي في معنى غياض: «والغَيْضَة مَغيضُ ماءٍ يجتمع فيَنْبت فيه الشجر، وجمعها غِياضٌ وأَغْياضٌ». وقال في معنى عاديَّةٌ: «شَجَرة عاديَّةٌ، أي قَديمة كأنها نُسِبَت إلى عادٍ، وهمْ قومُ هودٍ النبيِّ صلى الله عليه».

ويقول كراوفُورد: «إن إقليم قلعيب وملاحيب يقع في جنوب أرض البجة»، ويرى إمكان الربط بين قلعيب وبين بيت مالي Malé وهو اسم جبل شمال Agere Mageran على خريطة موزنجر[2]، وهو اسم لقبيلة؛ وموضع على خريطة Legean ويرجح كراوفُرد أن Agere Mageran تقع بالقرب من الحدود الشمالية الغربية الإرتيرية.

ويواصل ابن حوقل واصفاً منطقة جبل ملاحيب، ودلتا القاش، وأواسط نهر عطبرة، قائلاً: «يتصل بجبل ملاحيب من شقه الشرقي وادٍ يُعرف بصيغوات، كثير الماء أيضاً، والشجر، والحُمر، والوحوش.. وكأن هذا الجبل أخذ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دُكن (دلتا القاش). وهي أرض مزارع أحواف، يجري إليها ماء النيل، ويزرع عليها الذرة والدخن أهل النوبة، ومن يحضر معهم من البجة»[3].

ويرى كراوفورد أن دلتا القاش عرفت ببلاد التاكا، يقول Sapeto إن الحبش أطلقوا على سكان دلتا القاش Makidaovi، وقد عُرِّفت مملكة دُجن أو دُكن بدلتا القاش. وربما كانت دلتا القاش موطناً لسكّانٍ قدماء أطلق عليهم بليني اسم الـMathetae والذين ربما

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 59.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar: with a Geographical Account of the Middle Nile Region. Gloucester، 1959، p. 104.

[3]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 60.

كان اسمهم لا يزال عائشاً في اسم Mitatib شمال أروما واسم Temitatei على نهر عطبرة، شمال جوز رجب. وربما ارتبط Mathetae باسم قبيل المتت، الذين ورد ذكرهم في وثيقة أكسومية ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد؛ مما يوضح أن منطقة دلتا القاش كانت مأهولة بالسكان منذ العصور السابقة للميلاد[1].

ويواصل ابن حوقل وصف المنطقة: «النهر المعروف بسنسابي، ويفرع إلى النيل، وأصله من ناحية الحبشة. والنهر المعروف بالدُجن يأتي من بلد الحبشة، فينقطع في أعمال دُجن ومزارعها، ودُجن هذه قرى متصلة ذوات مياه مشاجر وزرع وضرع.. وقد تقدّم أن وادي بَرَكَة يجري من بلد الحبشة، مجتازاً على بازين، وآخذاً إلى ناحية البجة، ويصب بين سواكن وباضع في البحر المالح»[2].

ونهر سنسابي – كما يرى كراوفُورد – ربما هو (مارب – قاش)، والذي يعرف في منطقة البازين، كما ذكر موزنجر، بـSona or soba والدجن أو الدكن هي دلتا القاش. ويقول ابن سليم عن بلاد البجة: «والمواشي من البقر والغنم والضأن غاية في الكثرة عندهم، وبقرهم حسان معلَّمة بقرون عظام، ومنها جُمٌّ، وكِباشهم كذلك منمّرة ولها ألبان». الجُم هي التي لا قرون لها.

وذكر كراوفورد أن الباحثين عرّفوا دُكن بدلتا القاش، كما عرفت ببلاد التاكا. وقد كانت تنتج نوعاً جيداً من القمح؛ كان يحمل إلى سواكن وجدة، وكان سعره في جدة أغلى من القمح المصري. وكان قمح دلتا القاش يتحمّل التخزين في المطمورات، أكثر من أيِّ نوع آخر من القمح، وفي بعض الأحيان تصل مدة التخزين إلى خمس سنين، يظل القمح فيها جيداً.

وقد وصف ابن سعيد المغربي الجزء الشمالي من الهضبة الإثيوبية، والمنطقة السهلية الممتدة شماليها، فوضَّح وفرة المياه، ووجود الحيوانات، مثل، الكركدن، والأسود، والفيلة، والغزلان.[3] وهكذا تبدو منطقة خور بَرَكَة، والقاش، ونهر سنسابي، وامتدادها حتى سواحل البحر الأحمر، غنية بالموارد. وإلى جانب ما ورد عن وفرة المياه والزراعة، تناولت المصادر أيضاً تنوُّع الأشجار، وكثرة الثروة الحيوانية، فيقول: «وفي أوديتهم شجر

---

[1]. Crawford، op، p. 96.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 61.

[3]. ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا (موقع الوراق) ج 1 ص 22.

المقل، والإهليلج، والإذخر، والشيح، والسنا، والحنظل، وشجر البان.. وغير ذلك. وبأقصى بلدهم، النخل، وشجر الكرم، والرياحين.. وغير ذلك مما لم يزرعه أحد.. وفيها سائر الوحش من، السباع، والفيلة، والنمور، والفهود، والقردة، وعناق الأرض، والزباد، ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء إذا صيدت. ومن الطيور، الببغاء، والنقيط، والنوبي، والقماري، ودجاج الحبش، وحمام بازين.. ومثل، الكركدن، والأسود، والفيلة، والغزلان، والزرافات، والنمر، والفهد، إلى سائر الوحوش سائمة راتعة والخيل والماشية»[1].

ويواصل ابن سليم: «وتعظم الحيَّات ببلدهم، وتكثر أصنافها، ورُئِيَتْ حية في غدير ماء، قد أخرجت ذنبها والتفَّت على امرأة وردت فقتلتها، فرؤي شحمها قد خرج من دبرها من شدّة الضغطة، وبها حيَّة ليس لها رأس، وطرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة، إذا مشى الإنسان على أثرها مات، وإذا قُتلت وأمسك القاتل ما قتلها به من عود أو حربة في يده، ولم يلقه من ساعته مات، وقتلتْ حيَّة منها بخشبة، فانشقت الخشبة، وإذا تأمّل هذه الحيَّة أحد، وهي ميتة أو حيَّة أصابه ضررها. وفي البجة شر وتسرُّع إليه»[2].

ومن هذا الوصف يتضح أن المنطقة الواقعة بين دَهلك، وباضع، وسواكن، على ساحل البحر الأحمر شرقاً، والممتدة غرباً عبر وادي بَرَكَة، وخور القاش، ونهر عطبرة، حتى نهر النيل، كانت ثرية بمواردها المائية، والنباتية، والحيوانية. وقد تناولت المصادر اللاحقة أيضاً تلك الثروات، كما عند ابن عبد الظاهر في كتابه (تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون)، في وصفه الموجز للسفارة التي أرسلها السلطان المملوكي لحكام السودان في آخر القرن السابع الهجري (13 الميلادي)، وعند النويري في كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب)، في وصفه للحملة التي أرسلها السلطان المملوكي الناصر محمد عام 716هـ/1316م لتطارد بعض الأعراب الذين قطعوا الطريق على قافلة في صحراء عيذاب، والتي وصلت إلى منطقة كسلا الحالية من عيذاب، وعبر سواكن، ثم واصلت إلى دنقلة عبر نهر عطبرة.

إلى جانب الثروات المائية والنباتية والحيوانية، تميَّزت بلاد البجة أيضاً بوفرة ثرواتها المعدنية، وتضمّنت المصادر العربية المبكرة معلومات قيمة عن أنواع تلك المعادن وأماكنها.

---

[1]. المرجع نفسه.

[2]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 105.

فقد قال ابن سليم عن البجة: «بلدانهم كلها معادن، وكلما تصاعدت كانت أجود.. والذهب أكثر». وبيَّن ابن سليم أنواع تلك المعادن من «الفضة، والنحاس، والحديد، والرصاص، وحجر المغنطيس، والمرقشيتا، والجمشت، والزمرد، وحجارة بيشطا»[1]. وأضاف اليعقوبي الجوهر والزمرد[2]. وبيَّن المسعودي[3] موقع معدن الزمرد، وفصَّل أنواعه، وسنتناول منه الفقرات التالية:

«ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى، من أعمال مدينة قفط، ومنها يخرج إلى هذا المعدن، والموضع الذي فيه الزمرد يعرف بالخربة، مفاوز وجبال. والزمرد الذي يقتلع من هذا المكان يتنوع أربعة أنواع: النوع الأول منها يعرف بـ(المر)، وهو أجودها وأغلاها ثمناً، وهو شديد الخضرة كثير الماء، يشبه خضرته بأشد ما يكون من السلق خضرة، وهذا اللون غير كدر ولا ضارب إلى السواد. والنوع الثاني يدعى بـ(البحري)، ومعناه في هذه التسمية، هو أن ملوك البحر من السند والهند والزنج والصين ترغب في هذا النوع من الزمرد، وتباهي في استعماله ولباسه في تيجانها وأكاليلها وخواتيمها وأسورتها، فسمي البحري لما ذكرنا، وهو ثاني المر في الجودة، وتشبه خضرته بالأول والماء كفراخ ورق الآس الذي يظهر في أوائل أغصان الآس وأطرافه.

والنوع الثالث يعرف بـ(المغربي)، ومعناه في هذه التسمية وإضافتهم إيَّاه إلى المغرب، هو أن ملوك المغرب من الإفرنجة والنوكبرد والأندلس والجلالقة والوشكند والصقالبة والروس (يستخدمونه). والنوع الرابع هو المسمى بـ(الأصم)، وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمناً؛ لقلة مائه وخُضرته، وهذا النوع يتفاوت في اللون من الخضرة في القلة والكثرة.

وجملة الوصف لهذه الأنواع الأربعة في الجودة والمبالغة في الثمن هو أكثرها ماء، وأصفاها وأكثرها خضرة، وأنقاها من السواد والصفرة، وغير ذلك من الألوان، مع تعري هذا الجوهر من النموشة، فإذا سلم مما ذكرنا كان في نوعه غاية في الجودة، ونهاية في الوصف، وفي حجارته ما يبلغ الخمسة المثاقيل من الوزن، إلى أن ينتهي إلى حد العدسة في المقدار، فيدخل ذلك في النظم من المخانق وغيرها. وقد كانت ملوك اليونانيين، ومن تلاهم من

---

[1]. المرجع نفسه، ص 107.

[2]. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، كتاب البلدان، (موقع الوراق)، ص 22.

[3]. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958م، ج 2 ص 222 - 225.

ملوك الروم تعظِّم شأن هذا الجوهر، وتفضِّله على غيره من سائر الجواهر، لما اجتمع فيه من الخواص العجيبة، والمنافع الكثيرة، ولخفته في الوزن دون سائر الجواهر المعدنية.

وأكثر ما يوجد من هذه الأنواع الأربعة العروق في الأرض، وهو المتنافَس فيه، إذا سلِم من الاعوجاج والثقب، واستقام سلكه، واستطال ما استدار. وأدناه ما ينحل في معدنه من التراب، ويلتقط من الطين، وقد يوجد على ظهر الأرض في هذا المعدن في وهاده وجباله، وما انخفض وارتفع من أرضه نوعان منه، وهما (المغربي)، و(الأصم)، المقدم ذكرهما»[1].

وقد فصَّل اليعقوبي أماكن تلك المعادن المنشرة حول وادي العلاقي، وبين المسافات بينها؛ وذكر بعض أسماء القبائل العربية التي تشتغل في التعدين، مثل، جهينة، وبلي، وربيعة. كما بيَّن نحو اثني عشر موقعاً لمعدن الزمرد، من بين وادي العلاقي حتى خربة الملك شمالاً، وثمانية مواضع للذهب، ما بين وادي العلاقي وميناء عيذاب على البحر الأحمر، وستة مواقع إلى الجنوب من وادي العلاقي، يقع آخرها على بعد ثلاثين مرحلة من وادي العلاقي[2].

وبيَّنت المصادر العربية علاقة البجة الوثيقة بهذه المعادن في كل المنطقة الواقعة بين صحراء قوص في الشمال، وخور بَرَكَة في الجنوب. وقد ذكرنا أعلاه أن ابن سليم حدد أول بلد البجة «من قرية تُعرف بالخربة من معدن الزمرد في صحراء قوص»، وذكر المسعودي أن البجة تنزل موضع الزمرد المعروف بالخربة، وتقوم بحمايته، «وإليها يؤدِّي الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد»، وأضاف: «إن البجة كانت تنزل أيضاً حول معدن الزمرد في البر المتصل بأسوان، وقريباً منه لأجل القيام بخفره وحفظه»[3].

ووضَّح الطبري: «إن البجة يشرفون على معادن الذهب، ويقومون بمقاسمة العاملين عليه، ويؤدون إلى عمال السلطان في مصر في كل سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى»[4]. ويتضح أن العمل في كل مناطق التعدين كان تحت إشراف البجة، الذين كانوا يسيطرون على كل مناطقه، لكنهم لم يعملوا في استخراجه، بل اكتفوا بمهمة الإشراف واستتباب الأمن في تلك المناطق. فقد ذكر ابن سليم أن المسلمين هم الذين

---

[1]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2]. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، 21.

[3]. المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق.

[4]. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، المعروف بتاريخ الأمم والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 37.

يعملون في هذه المعادن، وهم مسالمون للبجة□.

غير أن الإدريسي ذكر ما يفيد أن البجة كانوا يحتكرون بعض مناطق التعدين، ربما لأن العمل فيها لا يحتاج إلى حفر، بل يتطلّب فقط المعرفة التامة بالمنطقة. فقد ذكر أنهم كانوا يقومون بالبحث عن الذهب في بعض المناطق الرملية في صحراء وادي العلاقي، في أول ليالي الشهر العربي وآخره، «فكانوا يذهبون إلى تلك الرمال ليلاً، فإذا أبصر أحدهم التبر يضيء علّم على موضعه علامة يعرفها، وبات هنالك، فإذا أصبح عمد كل واحد منهم إلى علامته في كوم الرمل الذي علّم عليه، ثم يأخذه، ويحمله معه على نجيبه، فيمضي به إلى آبار هنالك، ثم يقبل على غسله بالماء في جفنة عود، فيُخرج التبر منه، ثم يؤلفه بالزئبق، ويسبكه بعد ذلك، فما اجتمع لهم منه تبايعوه بينهم، واشتراه بعضهم من بعض، ثم يحمله التجار إلى سائر الأقطار، وهذا شغلهم دأباً لا يفترون عنه، ومن ذلك معايشهم، ومبادئ مكاسبهم، وعليه يعوّلون».□

ونلاحظ أن الإدريسي يتحدّث هنا عن البجة بصورة عامة، ولا يشير إلى أن هذا العمل تقوم به بعض قبائل البجة المجاورة لتلك الرمال. ويبدو من كلامه، وكأن هذا هو كل نشاط قبائل البجة في التعدين. وكثيراً ما تأتي مثل هذه التعميمات في المصادر العربية، فتؤدّي أحياناً إلى التضارب في المعلومات، وأحياناً أخرى إلى الفهم الخاطئ لقبائل وتاريخ قبائل البجة. وفي هذه الحالة فقد رأينا أن العلاقة القوية بين البجة والتعدين هي: الإشراف، والخفارة، والتأمين، ويقاسمون بذلك من يعمل في تلك المعادن، هذا إلى جانب النشاطات الرعوية والزراعية والتجارية الأخرى. وليس كما ذكر الادريسي وهو يتحدّث عن البجة بصورة عامة، أن العمل في البحث عن الذهب في تلك الرمال هو سبيل «معايشهم، ومبادئ مكاسبهم، وعليه يعوّلون».

وكان وادي العلاقي، هو المركز والمقر الرئيس لأعمال التعدين، وذكر ابن سعيد أن «العلاقي هو مقر ملك البجة»□، وقد وصفه اليعقوبي بأنه كالمدينة العظيمة□، أو وادٍ

□. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 107.

□. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في: مسمد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 132.

□. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مرجع سابق، ج 1 ص 22.

□. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، ص 14. ص

كالقرية الجامعة، كما وصفه الإدريسي، وذكر أن الماء فيه من آبار عذبة، وهو مكان تجمُّع البجة، ومقصد التجار، وفيه خلق كثير وجمع غزير[1]. وكان أكثر سكان العلاقي من ربيعة، من بني حنيفة، من أهل اليمامة، كما ذكر اليعقوبي، «وانتقلوا إليها بالعيالات والذرية. ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر، وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس، لكل قوم من التجار وغير التجار، عبيد سودان يعملون في الحفر، ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر، ثم يسبك»[2].

وترجع بدايات اتصال المسلمين بالمعدن إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري (9 الميلادي)، إلى عاملين رئيسين هما:

أ. رأى المسلمون مناطق التعدين والآثار القديمة للعمل فيها أثناء الحملة التي قادها ابن الجهم على مناطق البجة عام 216هـ/ 831م، فعند نهاية الحملة رجع الكثير ممن اشتركوا فيها للعمل في مناطق التعدين.

ب. أوقف الخليفة العباسي المعتصم (ت 227هـ/ 841م) صرف العطاء في مصر، والذي كان يصرف للعرب مقابل انخراطهم في الجندية، فاضطروا للبحث عن بديل يسترزقون منه، وصادف ذلك بداية تعرُّف العرب على مناطق التعدين، فوفدت إليه مجموعات كبيرة منهم. وكان أغلب الوافدين الأوائل من قبائل الحجاز. ثم جاءت ربيعة في منتصف القرن الثالث، وأصبحت لهم السيطرة على ما تبقى من القبائل العربية في المنطقة بعد تحالفهم وتصاهرهم مع البجة. وهكذا قاد البجة نشاطاً واسعاً في مناطق التعدين، منذ منتصف القرن الثالث الهجري، وحتى توقُّف العمل في المناجم في «سنة بضع وستين وسبعمائة»[3].

وإلى جانب ذلك، شهِدت منطقة البجة نشاطاً تجاريّاً آخر، وهو صيد اللؤلؤ في مدينة عيذاب. فقد وصف ابن جبير -الذي دخل عيذاب عام 578هـ/ 1182م- أن مغاص اللؤلؤ في بحر عيذاب «في جزائر على مقربة منها، وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيّدة فيه هذه الأحرف، وهو شهر يونيه العجمي، والشهر الذي يتلوه، ويستخرج منه جوهر

---

[1]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مرجع سابق، ص 134.

[2]. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، ص 14.

[3]. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، الخطط المقريزية المسماه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، منشورات مكتبة العرفان، لبنان، (د. ت)، ج١ ص ٤١٠.

نفيس، له قيمة سنية، يذهب الغائصون عليه تلك الجزائر في الزوارق، ويقيمون فيها الأيام، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق.. والمغاص منها قريب القعر، ليس ببعيد ويستخرجونه في أصداف لها أزواج، كأنها نوع من الحيتان، أشبه شيء بالسلحفاة. فإذا شقت ظهرت الشقتان من داخلها كأنهما محارتا فضة، ثم يشقون عليها، فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف. فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق. فسبحان مقدّرها لا إله سواه. لكنهم ببلدة لا رطب فيها ولا يابس، قد ألفوا بها عيش البهائم؛ فسبحان محبّب الأوطان إلى أهلها، على أنهم أقرب الوحش منهم إلى الأنس»[1].

ولم يقتصر نشاط قبائل البجة في العمل في التعدين فقط، بل كان لهم نشاط تجاري أيضاً، في السلع التي يجود بها إقليمهم والأقاليم المجاورة. ورغم أن المصادر لا تمدُّنا بمعلومات عن أنشطتهم التجارية بقدر ما ذكرت عن عملهم في التعدين. إلا أنه من خلال الإشارات القليلة التي وردت هنا وهناك يتضح منها مساهماتهم الباكرة في الأنشطة التجارية، خاصة أن سكّان المنطقة اشتهروا بأنشطتهم الجارية الداخلية، وفي البحر الأحمر، كما وضّحت المصادر اليونانية والرومانية. وقد تواصل ذلك النشاط بعد دخول المسلمين مصر في الداخل والخارج؛ كما سنلاحظ ذلك عند الحديث عن مدن الحدارية.

من هم أسلاف البجة؟

المجا - البليم - البجا

التعرُّف على أصول السكّان والوعي بالذات، مسألة مهمة وملحة، خاصة في الظروف التي تعيشها بلادنا الآن، والتعرُّف على الأصول والوعي بالذات، مسألة صعبة وشاقّة، تتطلّب الكثير من الوقت والجهد، وتضافر الجهود والمشاركة الجادة للأقلام المتخصّصة وغير المتخصّصة. وكنت قد قمت بمحاولة من قبل للتعرف على سكّان السودان قبل دخول الاسلام والعرب إلى افريقيا، وتم نشر ذلك في كتاب[2].

وتهدف الدراسة الحالية إلى التعرُّف على سكّان السودان منذ وصول العرب والإسلام

---

[1]. ابن جبير، محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 156.

[2]. أحمد الياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، كاسي غرافيك، كوالالمبور، 2008م.

إلى إفريقيا، وحتى قيام الممالك الإسلامية في السودان في القرن الخامس عشر الميلادي – أي قبل ظهور المسميات القبلية الحالية – وستعتمد الدراسة بدرجة أساس على مصادر التراث العربي، إلى جانب ما يتوفَّر من المصادر الأخرى، مثل المصادر المصرية القديمة، واليونانية، والرومانية، والمصادر الآثارية السودانية. وسوف لن تستخدم الدراسة في هذه المرحلة التراث الشفاهي والمخطوط الذي تناول أصول القبائل في السودان، لأن الفترة التي تتناولها الدراسة سابقة لظهور ذلك التراث.

وهذا الجزء من الدراسة، يهتم بمنطقة شرق السودان، ويبدأ بمحاولة التعرُّف على أسلاف قبائل البجة الحالية، ثم التعريف بأرض البجة، ثم تتناول الدراسة قبائل البجة ومدنهم قبل القرن الخامس عشر الميلادى. وبالطبع فإن ذلك ليس بالأمر السهل دراسة، نسبة لشحّ المعلومات والمصادر وندرتها، خاصة فيما يتعلّق بالمناطق الجنوبية من أراضي البجة وسكّانها. ويتوفَّر قدر معقول من المعلومات عن السكّان على مناطق النيل، والأجزاء الشمالية من بلاد البجة في المصادر القديمة، يُمكِّن من التعرُّف على أسلاف البجة الذين سكنوا ساحل البحر الأحمر، وعلى شواطئ النيل، والمنطقة الواقعة بينهما.

ولم تكن المنطقة الصحراوية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر بهذا الجفاف الذي يسودها اليوم، بل كانت إلى وقت قريب من بداية الحضارة المصرية، تتمتَّع بقدر وافر من المطر والغطاء النباتي، مكّن السكان من القيام بدورهم الحضاري في المنطقة. ينتمي الشعب الذي سكن هذه المنطقة إلى السلالة الأصيلة التي كوَّنت سكّان وادي النيل منذ فجر تاريخه. وهنالك بعض الآراء التي ربطت أسلاف أولئك السكّان بهجرات أتت من شبه الجزيرة العربية في الألف الرابع قبل الميلاد.

وقد ناقشنا ذلك في الفصل الأول من كتابنا الآنف (الوعي بالذات وتأصيل الهوية)، وخلصنا إلى أن كل الدلائل التاريخية والآثارية وضّحت أن سكّان الصحارى الواقعة شرقي النيل ينتمون إلى السلالة التي كوَّنت السكّان الأصليين للمناطق الوسطى والشمالية لنهر النيل، ولم يأتوا من الخارج.

ومن المعروف في التاريخ أن سكّان مناطق البجة الحالية، عرفوا عند قدماء المصريين واليونانيين والرومان بأسماء متعدِّدة، سنتناول ثلاثة فقط من تلك الأسماء التي اشتهرت في تلك الفترة، والتي أطلقت على المجموعة المعروفة اليوم باسم البجة، وهذه الأسماء هي: المِجَباري – والتُرُجلُدايت – والبليميون.

- **المِجَباري**

المِجَباري هو الاسم الذي أطلقته المصادر القديمة على السكان الأصليين القدماء على الساحل الغربي للبحر الأحمر، والذين تجوّلوا في المناطق الشمالية ما بين البحر الأحمر ونهر النيل. وقد امتدت مناطق استيطان هذه الفئة من مواطن البجة الحالية في السودان، وحتى المنطقة الواقعة بين الأقصُر والبحر الأحمر، في الحدود المصرية الحالية شمالاً.

وقد عرف المِجَباري قديماً بالمازوي والمِجاي والمدجاي والمِجو والمِجا (Medjo - Medju - Medjay) وسنشير اليهم فيما يلي باسم المِجا، لأنه أولاً الاسم الأقدم، ولأنه ثانياً الاسم الأخف في النطق والأقرب إلى الاسم الحالي (البجة).

ولا خلاف بين المؤرخين أن المِجا، الذين ورد ذكرهم في الآثار المصرية القديمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، والذين عاشوا في الصحراء الواقعة إلى الشرق من إقليم (واوات العتباي)، هم أسلاف البجة الحاليين. وقد اشتغل الكثير من المِجا في المهن المتصلة بالتعدين، فقاموا بتأمين تلك الأنشطة بالحراسة والخفارة، وتولّوا مهمة الاتصال، وربط مناطق التعدين بالمدن المطلة على النيل.

وقد ساهم المِجا بدور فاعل في النشاط التجاري، عبر البحر الأحمر ونهر النيل، كما وضّحت المصادر القديمة مساهمتهم في النشاط الدبلوماسي مع القوى التي تعاقبت على حكم مصر في ذلك الوقت. وظل اسم المِجا عَلماً على سكّان الصحراء الشرقية للنيل، حتى القرون الأخيرة السابقة للميلاد، حيث بدأ ظهور اسمي التُرُجلُدايت والبليميين.

فقد ذكر سترابو الذي نقل عن إراتوستين Eratosthenes في القرن الثالث قبل الميلاد: «أنه على جانبي الجزء الأسفل - الشمالي - من مروي على طول النيل في اتجاه البحر الأحمر يسكن المِجَباريون والبليميون، وهم تابعون للإثيوبيين - يقصد المرويين - ويجاورون المصريين. وعلى ساحل البحر يسكن التُرُجلُدايت». وهكذا أصبح سكّان منطقة البجا يعرفون بثلاث أسماء: المِجا، والتُرُجلُدايت، والبليميون[1].

وسيتضح فيما يلي أن البليميين كانوا يتركّزون على مناطق النيل، والمِجا يتركّزون في المناطق الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، بجوار التُرُجلُدايت. وعند حديثه عن التُرُجلُدايت، قارن سترابو بين أسلحتهم وأسلحة المِجا، فذكر أن عِصيّ المِجا تنتهي بمقابض

[1]. Strabo، «Geography» Book xviii، p 340.

من حديد، وأنهم يستخدمون في قتالهم الحراب والدرق المصنوع من الجلد غير المدبوغ، بينما يستخدم الآخرون الحراب والسهم والنشّاب.

▪ التُرُجلُدايت

أصل كلمة التُرُجلُدايت Troglodyte يوناني، استخدمها الكتّاب اليونانيون لوصف سكّان الكهوف في كثير من بقاع العالم، كما في حوض الدانوب، والقوقاز، وإفريقيا. وفي إفريقيا ذكرت المصادر الكلاسيكية وجود التُرُجلُدايت في تونس، وليبيا، وأعالي النيل، والبحر الأحمر.

وقد جعلت دائرة المعارف[1] تُرُجلُدايت البحر الأحمر من أشهر هذه المجموعات، ربما لنشاطهم السياسي والتجاري على سواحل البحر الأحمر السودانية. فقد أطلق بليني على ساحل البحر الأحمر (ساحل التُرُجلُدايت)، وذكر أنهم كانوا نشطين في تجارة اللبان، في موانئ البحر الأحمر.

وكما ذكرنا، فإن سكّان منطقة ما بين النيل والبحر الأحمر، عرفوا في المصادر اليونانية والرومانية بالتُرُجلُدايت، والمَجا، والبليميين. وقد استخدمت هذه الأسماء أحيانا للإشارة إلى سكّان منطقة بعينها في بلاد البجة الحالية؛ وأحياناً استخدمت كمترادفات للدلالة على سكّان كل المنطقة، ويرى الباحثون، مثل، محمد إبراهيم بكر[2] وماكمايكل[3]، أن هذه الجماعات هي نفسها التي أطلقت عليها المصادر العربية فيما بعد اسم البجة.

ومن أقدم النصوص عن التُرُجلُدايت، ما جاء في الآثار المصرية القديمة التي ترجع إلى الأسرة السادسة والعشرين، في عصر الفرعون نكاو الثاني[4]. والذي كان شديد الاهتمام بتجارة البحر الأحمر، لدرجة فكر فيها بحفر قناة تربط النيل بالبحر الأحمر، وشرع بالفعل في تنفيذ الفكرة.

وورد في النصوص القديمة، والتي جمعها Eide وآخرون، ونشرتها جامعة بيرغن، عن

---

[1]. (online):
http://www.1911encyclopedia.org/Troglodytes

[2]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م، ص 46 و ٨١.

[3]. MacMichael، Harold Alfred، «A history of the Arabs in the Sudan»، London: Frank Cass & Co. Ltd، 1967، vol. 1، p.38.

[4]. Necho II 595-610 BC.

منطقة النوبة بين القرنين الثامن قبل الميلاد والسادس الميلادي، أن الملك نكاو الثاني أرسل حملة نيلية ضد التُرُجلُدايت. ويبدو أن التُرُجلُدايت كانوا منتشرين على مناطق صعيد مصر الأعلى، بين النيل والبحر الأحمر، وربما كانت تلك الحملة ضد التُرُجلُدايت على إحدى الطرق الرابطة بين النيل - من منطقة الأقصر، والبحر الأحمر - أو قد تكون الحملة مرسلة مباشرة من الصعيد إلى سواحل البحر الأحمر.

وقد ساهم التُرُجلُدايت في النشاط التجاري على سواحل البحر الأحمر، وتشير الوثائق إلى علاقاتهم المباشرة مع دولة البطالمة بمصر، فقد ذكر بلوتارخ أن الملكة كليوباترة السابعة «لم تكن تحتاج إلى مترجمين عندما يخاطبها مناديب الشعوب المجاورة لمملكتها، مثل، مناديب الإثيوبيين، والتُرُجلُدايت، واليهود، والسوريين، والميديين».

ويدل ذلك على أن التُرُجلُدايت كانت لهم كيانات سياسية متطوِّرة، مكّنتهم من تنظيم نشاطهم التجاري وعلاقاتهم الخارجية، ورغم أنه لم يرد ذكر لمملكة ترجلداتية في الصحراء الشرقية أو البحر الأحمر في المصادر اليونانية الرومانية - كما حدث للبليميين - إلا أن قيام مثل ذلك الكيان السياسي يعتبر أمراً لا بد منه، خاصة إذا كانت للترجلدايت علاقات خارجية، مثل تلك التي كانت مع البطالمة.

- **البليميون**

البليميون، هو الاسم الذي أطلقته الأثار الفرعونية والكوشية، والمصادر اليونانية والرومانية، على سكّان منطقة النيل الواقعة جنوبي أسوان. وقد دلّت نتائج الأبحاث الجديدة، مثل، أعمال كلايدي ونترز - عالم اللغة المروية المشهور، والذي نشر نص نقش كلابشة المروي - وهانس بَرنارد -الذي اعتمد على الآثار والوثائق التي جمعت عن منطقة شمال السودان، ما بين القرنين الثامن قبل الميلاد، وحتى القرن السادس الميلادي؛ ونشرتها جامعة بيرغن-، ووثائق الجبلين[] وغيرها من المصادر الكلاسيكية، على وجود البليميين في القرون السابقة للميلاد، وأمدتنا ببعض المعلومات عنهم حتى القرن السادس الميلادي.

وقد ربط الباحثون بين البليميين والمِجا، مما يرجِّح أنهم كانوا عائشين معاً في المنطقة نفسها، أو ربما كان وجود البليميين أكثر تركيزاً على منطقة النيل، والمِجا تجاه البحر

[]. مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، بحث في تاريخ السودان وحضاراته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م، الملحق رقم 3.

الأحمر. فق وضحت الآثار أن البليميين دخلوا منطقة النيل جنوبي أسوان في القرن السابع ق.م، وأن اسمهم بدأ يتردَّد منذ القرن السادس قبل الميلاد، في الآثار المصرية والكوشية.

وتوضح السجلات المروية، أن البليميين قد استقروا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، على طول المنطقة الواقعة من أسوان حتى منطقة دنقلا، خلال القرون التي سبقت احتلال الرومان مصر في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. وذكرت المصادر اليونانية السابقة للميلاد[1] أن المناطق الواقعة حول أسوان هي مواطن البليميين الرئيسة، ويمتدون جنوباً وشرقاً نحو حدود أكسوم، وميناء أدوليس على البحر الأحمر. وهذا الوصف يتطابق مع مواطن البجة الحالية.

فالمصادر القديمة - السابقة للميلاد - تناولت كل سكَّان المنطقة المعروفة الآن ببلاد البجة تحت اسم البليميين، مما يؤكد أن شعوب هذه المنطقة أُشير إليها في المصادر القديمة؛ مرة تحت اسم البليميين، وأخرى تحت اسم المِجا، ومرة أخرى تحت اسم التُرُجلُدايت. وقد ذكر ماكمايكل[2] أن الكتَّاب المسيحيين المبكرين أطلقوا اسم البليميين على البجة.

ويبدو أن استقرار البليميين في القرون السابقة للميلاد، قد ازداد في منطقة جنوبي أسوان، حتى شيد ملك مروي أركاماني (206ق.م - 186 ق.م)، معبداً في كلابشة لإلههم مندوليس. ويعتقد كثير من المؤرخين أن البليميين كانوا السكَّان الأساسيين الذين عاشوا في الجزء الأكبر من النوبة السفلى - جنوب أسوان - في القرن الميلادي الأول. ولم يكن استقرار وامتزاج البليميين بالسكَّان السابقين في جنوبي أسوان فقط، بل توضِّح الآثار الراجعة إلى فترة ما قبل الميلاد، أن استقرارهم امتد شمالاً في منطقة طيبة في صعيد مصر.

لم يتردَّد ذكر البليميين كثيراً في مصادر القرنين الميلاديين الأول والثاني، كما يتضح من النصوص التي جمعها بَرنارد، والتي أشرنا إليها سابقاً، بعكس القرون التالية - من الثالث وحتى السادس الميلادي - والتي شهِدت لهم حضوراً دائماً ومؤثِّراً على الأحداث في مصر والسودان. فقد كانت دولة مروي - التي كان البليميون جزءاً منها - على رأس الأحداث في المنطقة، وقادت الصراع مع الرومان. فقد احتلت مملكة مروي المناطق الشمالية بعد نهاية حكم البطالمة، وهي المناطق التي شرع الرومان منذ دخولهم مصر في التوسع عليها.

---

[1] MacMichael، A history of the Arabs in the Sudan، op، vol. 1، p.3.

[2] Ibid.

- مملكة البليميين

ازداد عدد البليميين منذ القرن الأول الميلادي، كما ذكر المؤرّخون. ويبدو أنهم أصبحوا القوة الرئيسة بين الزعامات المحلية، وتشرَّبوا بالثقافة المروية. ويرى البعض أن فخّار منتصف القرن الثالث الميلادي في كلابشة، قد يكون من عمل البليميين الذين تثقفوا وكتبوا نقوشاً مروية وإغريقية، عُثر عليها في معبد كلابشة. وهكذا تهيّأ البليميون منذ منتصف القرن الثالث الميلادي للقيام بدورهم القيادي في المنطقة.

نقل مصطفى محمد مسعد عن مصادره[1] أن العلاقات ساءت بين البليميين والرومان، وبدأ البليميون هجومهم على الرومان عام 250م. وفي الوقت نفسه ورد في نصٍّ عُثر عليه في جزيرة فيلة، جوار أسوان، أن الملك المروي تقردماني Teqeridamani (246م – 266م) أرسل سفارة إلى الإمبراطور الروماني حاملاً إليه الهدايا. وذكر ترمنغهام أن تلك السفارة كانت بقيادة أمير بليمي يدعى Pa-smun Ibn Paesi. ويصف الأمير نفسه أنه السفير العظيم إلى روما[2]. والبحث عن سبب السفارة، أو سبب اعتداءات البليميين على الرومان، يتطلّب المزيد من البحث. ولكن لا يبدو وجيهاً أن يكون سبب السفارة –كما يرى البعض– طلب مملكة مروي المساعدة من الرومان الذين أثبتت الوثائق اضطراب الأوضاع في مناطق حدودهم مع مروي.

وتحالف البليميون مع زنوبيا (الزباء)، ملكة (تُدمر) في سوريا، عندما هاجمت الرومان في مصر. وتحرّك الرومان سريعاً فهزموا قوات زنوبيا، وقضوا على الثوار في طيبة، وهزموا البليميين وأجلوهم إلى ما وراء أسوان. غير أن البليميين عاودوا واحتلوا الرقعة ما بين مدينتي Coptos وPtolemais في منطقة طيبة في صعيد مصر.

وبعد نحو عقدين من السفارة المروية البليمية للبيزنطيين انهارت مملكة مروي في منتصف القرن الرابع الميلادي. ويبدو أن مولد مملكة البليميين المستقلة قد بدأ بذلك الحدث. فكما رأينا، من تسلسل الأحداث منذ القرن الثالث الميلادي، فإن البليميون أصبحوا القوة المهيمنة على حدود مروي الشمالية، وكان من الطبيعي أن يكونوا ورثتها في الحكم، على الأقل في مناطق نفوذهم في الشمال. ولم يصبح البليميون –كما ذكر بعض المؤرخين– جنرالات النهر فقط، بل اعترف بهم كحكام يديرون شؤون بلادهم بحرية تامة.

---

[1]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مرجع سابق، ص 29.

[2]. Trimingham، J. S.، Islam in the Sudan. London: Frank Cass & Co. Ltd، 1965، p.44.

ويبدو أن البليميين قد بدأوا بسط نفوذهم في المنطقة حتى سواحل البحر الأحمر، لأن إحدى الوثائق الرومانية تحدّثت عن تعرُّض بعض القواعد الرومانية على البحر الأحمر لغارة من سفن البليميين عام 378م. وربما بدأ اسم البليميين ينتشر بعد امتداد نفوذهم شرقاً؛ فأطلق الرومان اسمهم على سكان منطقة التُرُجلُدايت. وقد يؤيِّد ذلك أيضا ما تردَّد في المصادر عن ترادف استخدام البيليميين، والمِجا، والتُرُجلُدايت.

وقام البليميون في عام 429م، بغارات على منطقة طيبة والواحة الخارجة، التي كانت مركزاً رومانياً يطلُّ على حدودهم الصحراوية، ونهبوا الواحة، وأسروا بعض سكّانها، ومن بينهم نسطورس؛ القس المسيحي المشهور، الذي كان الرومان قد نفوه إلى هنالك. ولكن البليميون أطلقوا سراحه بعد مفاوضات مع قبيلة الأمازيغ mazici الصحراية، وكانت هذه القبيلة تتجوّل في الصحراء حتى المنطقة الواقعة بين أسوان والواحة الخارجة.[1]

وكان انتشار المسيحية قد بدأ في مصر في زمن باكر، لكن القرن الرابع الميلادي شهد تحوُّلاً كبيراً في العالم المسيحي، عندما أظهر الإمبراطور قنسطنطين الأكبر (313م – 337م) ميله للمسيحية، وانتهى اضطهاد وتعذيب المسيحيين، وتمتّعت المسيحية برعاية الدولة. وساهمت الإسكندرية -إحدى أهم المراكز المسيحية- في نشر الفكر المسيحي المبكر. وكان من أكبر إنجازاتها نشر المسيحية في الحبشة، في عهد الإمبراطور قنسطنطين الأكبر.

وكانت المسيحية منذ وقت باكر قد بدأت تنتشر في صعيد مصر، وتحوَّلت الكثير من المعابد إلى كنائس في إقليم طيبة، كما أنشئ عدد من الكنائس. وفي القرن الرابع الميلادي أُسِّست أسقفية في فيلة. كما انتشرت المسيحية في أكسوم شرقاً، وفي واحات الصحراء الغربية، مثل الواحة الخارجة. أما في شمال السودان وشرقه المتاخم للحدود المصرية، فقد تأخَّر انتشار المسيحية بالمقارنة إلى انتشارها في إقليم طيبة، وأكسوم، والواحات، ربما يرجع السبب إلى الاضطرابات التي عاشها الإقليم منذ بداية الحكم الروماني لمصر.

وتشير بعض الدلائل إلى أن الدعوة المسيحية بدأت تتسرَّب إلى مناطق البليميين والنوباديين منذ القرن الرابع، غير أنها لم تنتشر سريعاً في السودان في القرون الباكرة. ويبدو أن قوة النوباديين نمت في المنطقة إلى جانب البليميين. وأسّس سلكو مملكته منذ العام 530م. إلا أن إحدى الوثائق اليونانية (535م – 537م) وضّحت أن البليميين والنوباديين

---

[1]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مرجع سابق، ص 7.

كانوا ما يزالون حلفاء. غير أن نشاط البعثات التبشيرية، وصِلات البيزنطيين بالنوباديين قد حوَّل موقفهم المعادي للمسيحية، بينما واصل البليميون سياستهم المعادية للمسيحية. وكان ذلك إيذاناً بنهاية الود والتحالف بين البليميين والنوباديين، وبداية الصراع الذي أدى إلى نهاية مملكة البليميين، كما تقول المصادر.

وما توفَّر من معلومات عن البليميين يشير إلى حقيقتين مهمتين: الأولى؛ أن البليميين أصبحوا قبل انهيار مروي بوقت طويل سادة المنطقة وجنرالات النهر، وثانياً؛ يؤكد ذلك تطوُّر نظام حكمهم، مما يجعل قيام مملكتهم -تحت ظل المرويين- أمراً مقبولاً. هذه الدلائل تشير إلى أنه من المقبول جدّاً أن يسعى البليميون إلى وراثة مملكة مروي بعد سقوطها. ويزيد ذلك تأكيداً نقش كلابشة، الذي تضمَّن في موضعين الإشارة إلى كونهم ورثة مروي.

فقد جمع بَرنارد نحو 73 نصاً عن البليميين، والمِجا، والتُرُجلُدايت، والبجة، ما بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي. وبلغ عدد النصوص التي ذَكرت البليميين بالاسم مباشرة، أو التي تضمّنت الإشارة إليهم 47 نصاً. ويشير ذلك إلى أن البليميين كانوا القوة المسيطرة في المنطقة، وأن اسمهم أصبح أكثر انتشاراً في الوثائق والآثار من أسماء أبناء عمومتهم؛ المِجا والتُرُجلُدايت، وأصبح علماً عليها في بعض الأحيان. أما اسم البجة، فقد اشتهر كعلمٍ على كل المجموعات الأخرى منذ القرن السابع الميلادي.

ومن بين الـ47 نصاً، جاءت 7 منها قبل القرن الثالث الميلادي. وبلغت النصوص في القرن الثالث 8 نصوص، وفي القرنين الرابع والخامس 20 نصاً، وفي القرن السادس 12 نصاً. ويدل ذلك بوضوح أن البليميين كانوا موجودين في المنطقة منذ القرن السابع قبل الميلاد، إلا أن قوتهم برزت منذ القرن الثالث الميلادي، وأصبحوا عنصراً فاعلاً في أحداث كل المنطقة الواقعة ما بين الواحة الخارجة غرباً، والبحر الأحمر شرقاً، حيث امتدت غاراتهم في القرون التالية حتى أطراف البحر الأحمر الشمالية. أما في الشمال فرغم كون حدودهم في أسوان، إلا أن امتداد نفوذهم تعدّى ذلك في القرون التالية إلى منطقة طيبة في صعيد مصر.

وقد بلغت نصوص القرنين الثالث والرابع الميلاديين 20 نصاً، الأمر الذي يوضح ازدياد نفوذ البليميين في المنطقة. وقد رجَّحنا فيما سبق قيام مملكة البليميين المستقلة داخل مملكة مروي في القرن الرابع الميلادي، ولعلَّ ما ورد عن ملوك البليميين يؤيِّد ذلك. فقد وردت أسماء ستة ملوك بليميين فيما جمعه بَرنارد من نصوص، ثلاثة منهم قُدِّرت تواريخ

حكمهم في القرن الخامس الميلادي، والثلاثة الباقين في القرن السادس. والوثائق الأخرى المرتبطة بالبليميين هي ثلاث وثائق مكتوبة على جلد غزال باللغة اليونانية، عثر عليها فلاح مصري في منطقة الجبلين على بعد 25 ميلاً جنوب مدينة الأقصر.[1]

الوثيقة الأولى، وجاءت ترجمتها: «أنا شاراشن ملك البليميين، أكتب إلى أولادي شاراشن وشاراتكور وشاراهيت، أنه طبقاً لأمري هذا قد منحتكم حكم الجزيرة المعروفة باسم تناري، وألاّ يقف في سبيلكم أحد. وإذا أثار الرومان مشاكل وامتنعوا عن دفع الأتاوة العادية لكم، فإنه لا الفيلارك ولا الهيبوتيرانوس يمنعانكم من إرغام الرومان على دفع العطايا العادية عن جزيرتي». شاراشن الملك، تنتكنا: أمير القصر - شاهد، كتبه سانسانوس في اليوم الرابع والعشرين من شهر (....)».

وهنالك وثيقة أخرى[2] وهي عبارة عن أمر ملكي أصدره الملك باراخيا Barakhia إلى صوفيا، يشير إلى وضعها أو إقامتها في مكان ما، وقد ورد أن هذا الملك خلف الملك خاراخن أو شاراشن. فنحن أمام أربعة نصوص تتعلّق كلها بحكم البليميين منطقة في صعيد مصر. وتسوق هذه الوثائق العديد من الأسئلة مثل:

- ما هي علاقة البليميين بصعيد مصر أو إقليم طيبة؟.
- إلى أيِّ مدىً امتد نفوذ البليميين على صعيد مصر؟.
- هل حكم البليميون مناطق أخرى غير جزيرة تناري.. ولم يصل إلينا ما يوضح ذلك؟.
- متى حكم البليميون جزيرة تناري؟.

قد حاولنا الإجابة عن بعض هذه الاسئلة في كتاب (الوعي بالذات وتأصيل الهوية)، ولكن تظل مثل هذه الأسئلة في انتظار المزيد من البحث والتقصيّ. والذي يثير الانتباه، ويتطلّب البحث الجاد، هو ارتباط ووجود البليميين الواضح -عندما دخل المسلمون مصر- بإقليم طيبة، الذي يقع ما بين منطقة الأقصر الحالية وأسوان.

وكما وضحنا أعلاه فإن البليميين تمركزوا على النيل، وتمركز المجا في الصحراء الشرقية،

---

[1]. وقد ترجمها إلى الإنجليزية كيراون وإمري، ونقلها إلى العربية وضمنها ملاحق كتابه مصطفى محمد مسعد في كتابه: الإسلام والنوبة، تحت عنوان (الوثائق الدالة على استقرار البليميين في منطقة طيبة).

[2]. الوثيقة رقم أربعة ذكرها برنارد في Hans Bernard، Sire، il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation of Historical and Archaeological Data. Clause no. 339 (online).

وهم السلالة التي أطلقت عليها المصادر العربية اسم (البجة). ويبدو أن اسم البليميين قد بدأ في الانحسار في القرنين اللذين تليا دخول المسلمين مصر، وانحصر في مناطق محدودة في بلاد النوبة. فقد ذكرهم الجغرافي العربي المشهور الإدريسي، الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، مشيراً إلى قبيلة قوية بجوار النوبة تعرف بالبليين. وفي الوقت نفسه يبدو أن استخدام اسم (المِجا) على سكّان ساحل البحر الأحمر والصحراء الشرقية، ساد وظهر في المؤلفات العربية باسم (البجة).

قبائل شرق السودان

تركّزت معلومات المصادر العربية -تاريخية، وجغرافية، وكتب رحالة- والتي تناولت منطقة شرق السودان على المجموعات الشمالية للقبائل. فقد بدأت صِلات المسلمين من مصر باكراً بتلك المناطق، بحكم مجاورتها لهم. وازدادت تلك الصِلات -سلمية في بعض المرات، وحربية مراتٍ أخرى- حتى بداية اشتغال المسلمين بالتعدين في منتصف القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، والذي استمر حتى بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (762هـ). وكان اتصال المسلمين طيلة هذه الفترة بالمجموعات الشمالية من البجة. والذي ينبغي ملاحظته أن جمهرة المصادر تناولت البجة وبلادهم بصورة عامة، ولكن أغلب مادتها تصدق فقط على المجموعات الشمالية منهم.

ذكر أسماء القبائل التي سترد:

قبيلة الحداربة

تناولنا فيما سبق بلاد البجة، ورأينا أنها كانت تتمتّع بوفرة المياه من الأنهار دائمة الجريان، ومياه الأمطار، مما وفّر ثروة زراعية وحيوانية غنية، إلى جانب التجارة والتعدين. أدّى كل ذلك إلى مساهمة سكّان بلاد البجة بنصيب واضح في الأوضاع الحضارية في المنطقة. وسنلقي الضوء على ما ورد عن أولئك السكّان في المصادر العربية حتى القرن الخامس عشر الميلادي -أي قبل ظهور مُسمّيات القبائل المعروفة لنا حاليّاً- وسنبدأ بقبيلة الحداربة.

قبيلة الحداربة من أكبر قبائل البجة التي حظيت بنصيب وافر من المادة في المصادر

العربية. ونسبة لغزارة تلك المادة فسنقسِّمها زمنياً وفقاً للوقت الذي أُلِّفت فيه تلك المصادر.

أولاً: المادة التي وردت في مصادر القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، وهي الفترة التي شهدت أغزر وأصدق مادة عن قبائل البجة في المصادر العربية.

ثانياً: تليها المادة التي وردت في المصادر التي كتبت في القرون الخامس، والسادس، والسابع الهجرية. (الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر الميلادية).

ثالثاً: المادة التي وردت عند العمري، وما نقله عنه القلقشندي، إلى جانب ما ورد عن العربان وإماراتهم، وما ورد في مصادر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

أولاً: قبيلة الحدارِبة في المصادر العربية المبكرة (القرنان 3 – 4هـ/ 9 10–م).

هنالك ملاحظة مهمة ينبغى مراعاتها، ونحن نتناول نصوص المصادر العربية عن قبائل البجة، هي أن أغلب المادة التي وردت في تلك المصادر عن البجة بصورة عامة، قُصِد بها الحدارِبة، الأمر الذي يتطلّب ضرورة الانتباه لذلك. يقول اليعقوبي، الذي تعتبر نصوصه من أقدم وأغزر ما وصل إلينا عن البجة في المصادر العربية: «ومن العلاقي إلى أرض البجة الذين يسمُّون الحدارِبة، والكدس، خمس وعشرون مرحلة، ومدينة ملك البجة الحدارِبة يقال لها هجر، يأتيها الناس من المسلمين للتجارات»[1]. وفي كتابه (التاريخ) يقول: «فأول مملكة البجة من حدِّ أسوان، وهي آخر عمل المسلمين من التيمُّن بين المشرق والمغرب إلى حد بركات، وهم الجنس الذي يقال له نقيس، ومدينة المملكة يقال لها هجر... وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر، والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن».[2]

فحدود مملكة البجة الأولى؛ مملكة الحدارِبة –عند اليعقوبي– تبدأ من آخر حدّ المسلمين في أسوان، وتمتد جنوباً حتى وادي بَرَكَة. ويتضح من هذا التحديد أن هذه هي المنطقة التي ارتادها المسلمون في عملهم في مجال التعدين. فاليعقوبي أطلق على سكان المملكة الأولى

---

[1]. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، ص 19.

[2]. المرجع نفسه، ص 21-22.

في كتابه (التاريخ) الحدارية والكدس، وعلى مملكتهم مملكة الحدارية[]، وفي كتابه (البلدان) أطلق عليهم وعلى المملكة اسم نقيس، لكنه أعطى العاصمة اسماً واحداً هو هجر[].

ويلاحظ أن اليعقوبي لم يذكر اسم نقيس في كتابه (البلدان)، بينما تكرّر اسم الحدارية، وفي كتابه (التاريخ) جعل الحدارب فرعاً من نقيس. ولم تذكر المصادر العربية الأخرى اسم نقيس بل ذكرت الحدارية. ولا نملك ما يساعد على فهم مثل هذه النصوص. هل عرفت القبيلة بالاسمين معاً؟، وإذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يظهر الاسم في المصادر الأخرى؟، وهل الاسم القبلي هو نقيس أم الحدارب؟.

ويبدو أن نقيس عند اليعقوبي تمثّل الاسم القبلي العام فقد قال: «ولهم قبائل وبطون كما تكون للعرب، فمنهم: الحدرات، وحجاب، والعماعر، وكوير، ومناسة، ورسفة، وعربرتعة»[]. يميل البعض إلى أن (الحدرات) في هذا النص هم الحدارية، وإذا صدق هذا يكون نقيس اسماً عاماً شاملاً لقبائل كثيرة في المنطقة مثل الحدارية.

وقد ذكر ابن حوقل بطون الحدارية فقال: «فأما بطون الحدارب فمنهم: العريتيكة، والسوتبار، والحوتمة، والعنكبيرا، والنجريروا، والجنيتيكة، والواخيكة، والحربيب، بطن واحد، ويتفخّذ لهؤلاء القوم كل بطن إلى نحو مائة فخذ، ولكل فخذ رئيس أو رئيسان»[].

ويبيّن هذا النص مدى كِبر قبيلة الحدارية. فقد ذُكِرت سبع بطون، ولكل بطن نحو مائة فخذ، وللأفخاذ الكبيرة رئيسان. وقد يصل هذا التقدير بعدد القبيلة إلى نحو نصف مليون فرد. ويلاحظ أن أسماء بطون وقبائل البجة لم ترد في المصادر العربية الأخرى، ولذلك ليس لدينا معلومات عن هذه القبائل. ويمكن فهم عدم وجود إشارات عن هذه القبائل في المصادر العربية بأنها لم تهتم كثيراً بذكر فروع قبائل البجة، والاستثناء الوحيد هو ما ورد عند اليعقوبي وابن حوقل.

فابن حوقل دخل المنطقة الشرقية لبلاد البجة، ونتوقّع أن يكون على دراية ببطون الحدارية الذين نفترض زيارته لجزء من منطقتهم. أما اليعقوبي الذي كتب قبل ابن حوقل فهو أيضاً قد تجوّل كثيراً، ودخل مصر حيث أنهى تأليف كتابه (البلدان) فيها. وقد عاصر

[]. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، ص 14.

[]. اليعقوبي، كتاب البلدان، مرجع سابق، ص 22.

[]. المرجع نفسه، ص 22.

[]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 60.

اليعقوبي في مصر بداية دخول القبائل العربية للعمل في مناطق المعادن في أرض البجة في منتصف القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي). لذلك تمكّن اليعقوبي من الحصول على معلومات مفصّلة عن مناطق التعدين، لكنه لم يذكر إن كان دخل تلك المناطق التي وصفها، أم أنه جمع معلوماته من التجار وغيرهم. كما جاءت معلوماته عن باقي مناطق البجة غزيرة، فهو الوحيد الذي فصّل الحديث عن ممالك البجة ومواقعها.

ويرى كراوفورد أن العريتيكة التي ذكرها ابن حوقل ضمن بطون الحداربة، هي قبيلة الأرتيقا الحالية، كما يرى أيضاً أن منطقة أم ناجي البشارية الحالية شرق بربر كانت جزءاً من نقيس، وذكر أن أحد فروع البشاريين يطلق عليه كادبين، وربما يرجعون إلى الكذبيين الذين ذكرهم اليعقوبي، ربما كانت هي نفسها كديم المعروفة بـ عجات عند ابن حوقل. ويعني ذلك أن بطون كديم انتشرت في هذه المنطقة الصحراوية شمال غرب بلاد البجة.[]

وقد كان قبيلة الحداربة أولى قبائل البجة التي اتصلت بالمسلمين عند دخولهم مصر، وإن لم تُشِر إليها أغلب المصادر بالاسم، لكن تحديد موقع الحداربة بجوار حدود مصر الجنوبية يوضح هذه الحقيقة. ولعل أول إشارة وردت عن الحداربة -تحت اسم البجة- في المصادر العربية في التفاصيل التي انفرد بذكرها الواقدي عن حروب المسلمين في صعيد مصر. حيث ذكر أن البيزنطيين استنجدوا بملك النوبة، وملك البجاوة، الذي سماه مرة (مازغ)، ومرة أخرى (مكسوج)، وأن كليهما لبّى النداء، وقَدِما لحرب المسلمين[].

وأورد الواقدي بعض التفاصيل عن جيش البجة فقال: «وكان مع ملك البجاوة ألف وثلثمائة فيل، عليها قباب الجلد بصفائح الفولاذ، في كل قبة عشرة من السودان طوال القامة، عراة الأجياد، على أوساطهم وأكتافهم جلود النمور.. وغيرها، ومعهم الدرق، والحراب، والكرابيج، والقسيّ، والمقاليع، وأعمدة الحديد، والطبول، والقرون. وكانت عدتهم عشرين ألفاً»[]. يلاحظ أن مسعد لم يورد النص الذي يوضح موافقة النوبة والبجة على نجدة البيزنطيين في ما نقله من كتاب الواقدي في (المكتبة السودانية).

ورغم الشك في مصداقية نصوص الواقدي هذه، والمبالغة الواضحة فيها، إلا أنها ربما

[]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar: with a Geographical Account of the Middle Nile Region، p. 104-108.

[]. الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، بيروت: دار الجيل، بيروت (د. ت)، ج 2 ص 47، 57، ٢٢٧.

[]. المرجع نفسه، ج2 ص228.

حملت بعض الحقيقة عن وجود البجة -الحدارية- كقوة لا يستهان بها على حدود مصر الجنوبية الشرقية. والإشارة الثانية التي وردت عن البجة (الحدارية) أوردها ابن عبد الحكم، حيث ذكر أن عبد الله بن سعد عندما فرغ من حروبه في بلاد النوبة عام 31هـ تجمّع له البجة «فسأل عنهم، فأخبر بمكانهم، فهان عليه أمرهم، فنفذ وتركهم، ولم يكن لهم عهد ولا صلح»[1].

وقد ورد عند ابن حوقل ما يوضح أن عبد الله بن سعد اشتبك مع البجة، وإن لم يورد تفاصيل ذلك، فقد ذكر أن «عبد الله بن سعد بن أبي سرح لمَّا فتح مدينة أسوان، وكانت مدينة أزلية، وكان عبر إليها من الحجاز، قهر جميع من كان بالصعيد، وبها من فراعنة البجة وغيرهم»[2].

ويشير هذا النص إلى أن البجة كانوا ما يزالون يحتفظون بقوتهم في صعيد مصر. وقد وضّحنا في كتاب (السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية)[3] كيف أنهم كانوا يحكمون بعض المناطق، فيما بين مدينتي أسوان والأقصر الحاليتين، حتى منتصف القرن السادس الميلادي، أي قبل نحو قرن واحد من دخول المسلمين مصر. وكان هذا الفرع من البجة يعرف باسم البليميين. وإلى جانب البليمين كان هنالك أيضاً المِجا، الذين كانوا ينتشرون شرق النيل، والترجلودايت على البحر الأحمر. غير أن قوة وانتشار البليميين في القرون السابقة لظهور العرب جعلت اسمهم يطلق على طول المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر. ثم ساد بعد ذلك اسم البجة في المصادر العربية.

وبعد اشتباك البجة الأول مع المسلمين في صعيد مصر -الذي ذكره ابن حوقل- لم تتطرّق المصادر إلى أخبارهم إلا في بداية القرن الثاني الهجري، حيث ذكر ابن عبدالحكم أن «أول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب»[4]. ولم تذكر المصادر ما حدث في عصر ابن الحبحاب، لكن يبدو أن العلاقات كانت متوتِّرة بين البجة (الحدارية) والمسلمين، فقد ذكرت المصادر ثلاثة حروب بين الاثنين في الأعوام 212هـ و216هـ و241هـ.

ويوضح المسعودي، أن البجة على حدود مصر الجنوبية، والذين بدأوا علاقاتهم مع

---

[1]. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص10.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 55.

[3]. أحمد الياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، مرجع سابق، الفصل الرابع.

[4]. ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص 10.

المسلمين حربية في البداية، ثم ودية بعد استقرار المسلمين في أرض المعدن، هم الحداربة. وقد وردت الإشارة إلى مملكة البجة (الحداربة) في العهد الذي كُتِب لملك البجة الذي أطلقت عليه المصادر العربية اسم كنون بن عبد العزيز عام 216هـ/831م. وقد اعتُرِف في هذا العهد بـ(كنون) ملكاً على قومه، وورد في المعاهدة أن عاصمته مدينة هجر. فالحداربة كانوا في ذلك الوقت مملكة قوية لها علاقات مع المسلمين في منتصف القرن الثالث الهجري.

وتتضح قوة الحداربة وكِبر عددهم في تقدير المسعودي عام 332ه لقوتهم حيث ذكر: «أبو مروان بشر بن اسحاق –وهو من ربيعة– يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية، وهم الحداربة وهم المسلمون من بين سائر البجة»[1].

وقدَّر ابن حوقل، الذي كان معاصراً للمسعودي، عدد الجيش الذي أعده ملك البجة علي بابا – كما أطلقت عليه المصادر العربية، وهي قراءة للاسم البجاوي أولباب، كما ذكر ضرار صالح– لحرب المسلين بـ»مائتي ألف، ومعهم ثمانون ألف نجيب»[2]. وحتى لو افترضنا أن في هذه الأرقام نوعاً من المبالغة، إلا أنها تعكس واقع قوة الحداربة الضاربة.

وعن تنظيم الحداربة القبلي اتضح أنهم قبيلة كبيرة ذات تنظيم قيادي واجتماعي محكم. فللقبيلة زعامة كبرى، ربما مثل ناظر القبيلة الحالي، ولكل بطن من القبيلة رئيس أو رئيسان، ويبدو أن ذلك يتوقّف على عدد أفراد البطن، فإذا كان عدد أفراده كبيراً كان لكل بطن زعيمان.

كما أشار ابن حوقل إلى النظام الطبقي الذي ساد مجتمع الحداربة، مبيناً أن هنالك طبقتين متميزتين، ويبدو من خلال وصفه أن التقسيم اعتمد على الثروة، فأطلق على الطبقة الأولى طبقة المياسير، وعلى الطبقة الثانية طبقة الضعفاء. وذكر أن طعام المياسير «اللحم واللبن خاصة»، وأن الضعفاء «يأكلون الوحش كالغزال، والنعام، والحمار»، معدِّداً أنواع الطعام والأعمال التي لا يقربها المياسير، فقال: «ومياسيرهم لا يرون أكل الصيد، ولا مخالطة آكله، ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحلّه، ولا يحلبون فيها ولا يشربون». فهذه الأطعمة والأعمال خاصة بطبقة الضعفاء.

ووضّح ابن حوقل مضارب قبيلة الحداربة الواسعة الممتدة ما بين البحر والنيل، بما

---

[1]. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2 ص18

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، ص58.

يكشف تنوُّع مصادر الحياة فيها من الماء والنباتات والحيوان. غير أنه ذكر أن «لا حاضرة لهم، وتكون بلادهم التي تمطر وتزرع وينتجعونها بمواشيهم»، وهذا يتعارض مع ما تواتر في المصادر عن مدن الحدارية، مثل عاصمتهم مدينة هجر، ومدينة سواكن، ومدينة عيذاب، ومدينة صيحة، ومدينة بختة.

ثانياً: الحدارية في المصادر العربية (5 - 7هـ)

يلاحظ شحّ المعلومات في المصادر العربية منذ نهاية القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، وحتى القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي)، عن الحدارية بصورة خاصة، والبجة بصورة عامة، وحتى ما وصل في هذه الفترة يتّسم بالاختصار الشديد، وعدم الدقة أحياناً، كما سنلاحظ ذلك. ويمكن القول إن المعلومات التي ذكرها مؤلّفو القرنين الثالث والرابع الهجريين، مثل، اليعقوبي، والطبري، والمسعودي، وابن حوقل، وابن سليم، هي آخر ما وصلنا من معلومات مفصّلة عن قبائل البجة، بما فيهم الحدارية.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا قلّت المعلومات الواردة عن البجة في تلك القرون (الـ10 الميلادي - الـ14 الميلادي)، والتي شهِدت نشاط المسلمين في العمل في مناطق التعدين، كما شهِدت فتراتٍ من نشاط ميناء البجة؛ عيذاب، كمعبر للحجاج وكميناء تجاري. كما شهِدت هذه الفترة ظهور عدد كبير من المؤلّفات العربية التي تناولت أحداث المنطقة، وعاش أغلب مؤلِفيها في مصر، قريباً من البجة. كان من المفترض أن تؤدي كل هذه العوامل إلى توفُّر المعلومات عن قبائل البجة ونشاطها في المنطقة، ولكن ما حدث جاء خلاف ذلك.

ويبدو معقولاً أن يكون السبب في ذلك هو عدم اهتمام المؤلفين المسلمين بأخبار البجة، حتى الرحالة الذين زاروا بعض مناطقهم، ومكثوا فيها بعض الوقت، مثل ناصر خسرو، وابن جبير. فهل يرجع السبب في ذلك إلى انعزال البجة ونهاية صِلاتهم بالمسلمين؟. لا يبدو ذلك صحيحاً، لأنهم كانوا يشاركون في أعمال التعدين حتى توقّف العمل فيه في منتصف القرن الثامن الهجري (14 الميلادي)، كما ذكر المقريزي، والتساؤلات مطروحة، والحذر متطلّب فيما يرد عن أخبار البجة في تلك القرون كما سنتعرّف عليها[1].

ففي منتصف القرن الخامس الهجري (11 الميلادي)، دخل الرحالة ناصر خسرو ميناء

---

[1]. المقريزي، الخطط المقريزية، مرجع سابق، ص 293.

عيذاب، وذكر أنه: «خَلْف عيذاب صحراء عظيمة، بها مراع واسعة، وخلق كثيرين يسمون البجة، وهم قوم لا دين لهم ولا مِلَّة، ولا يؤمنون بنبيٍّ ولا إمام، وذلك لبُعْدهم عن العمران. وهم يسكنون صحراء طولها أكثر من ألف فرسخ». وذكر أنهم «ليسوا أشراراً ولا يسرقون.. يشتغلون بتربية ماشيتهم.. يسرق المسلمون أبناءهم، ويحملونهم إلى المدن الاسلامية ليبيعوهم فيها»[1].

ورغم أن ناصر خسرو أقام في عيذاب ثلاثة أشهر في منتصف القرن الخامس الهجري (11 الميلادي)، في انتظار تغيُّر اتجاه الرياح ليسافر إلى جدة، إلا أن ما أورده عن البجة جاء مقتضباً وغير دقيق، مما يوضح عدم اهتمامه بتقصيّ أخبارهم، كما أنه لم يُشر إلى قبيلة الحداربة، أو أية قبيلة بجاوية أخرى. وواضح أن البجة الذين ذكرهم -من وراء عيذاب- بأن «لا دين لهم ولا مِلَّة» هم الحداربة الذين قال عنهم المسعودي قبل نحو مائة سنة: «وهم المسلمون من بين سائر البجة». وكان ناصر خسرو الوحيد من بين من المصادر التي اطّلعت، والتي ذكرت غارات المسلمين على البجة، وسرقة أبنائهم، وبيعهم رقيقاً، مما يقلّل من مصداقيتها.

ثم جاء بعده الجغرافي المشهور الإدريسي في القرن السادس الهجري (12 الميلادي)، والذي أورد الكثير من التفاصيل عن سكان وبلاد مملكتي المقرة وعلوة. إلا أن ما أورده عن البجة جاء مقتضباً. قال عن بلادهم: «ليس بأرض البجة قرى ولا خصب، وإنما هي جدبة».[2] لم يذكر الحداربة بالاسم، كما تناول نشاط بعض البجة -ربما كانوا من البليين أو الحداربة- في جمع الذهب من الصحراء على ضوء القمر. وفي النهاية أورد مادته الفريدة عن البليين. وتبدو الصلة منطقية بين البليين والحداربة ونقيس، إذ ذكروا كلهم في المنطقة نفسها، ووصفوا بالقوة والعدد الكبير، فهل كان البليون أحد فروع نقيس؟.

أما المؤرخ المشهور ابن الأثير (القرن 7 الهجري)، فقد تناول فقط الحروب المبكرة بين المسلمين والبجة. وأمدَّنا ابن سعيد في القرن السابع الهجري بمزيد من المعلومات عن سواكن وبالقليل عن البجة فذكر: «العلاقي هي مدينة ملك البجا». وربما قصد بذلك أنها حاضرة أحد فروع الحداربة الذين يسيطرون على المنطقة أو المدينة، أحد زعماء البليين القبيلة القوية الذين كانوا يشاركون الحداربة الحياة في المنطقة.

---

[1]. ناصر خسرو، سفر نامة، (موقع الوراق)، ص 118.

[2]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مرجع سابق، ص 135.

وعن سواكن يواصل ابن سعيد: «وحول جزيرة دهلك من جنوبها وشماليّها جزائر مسكونة وخالية، راجعة لصاحبها، وربما يحارب عليها مع صاحب جزيرة سواكن، وهو من البحار (التجار) وهو مسلم، وله ضرائب على المراكب، وإنما تعدل المراكب إليه من بر العرب والحجاز واليمن، لأن ذلك أرفق لها. وسواكن صغيرة جداً، أقل من ميل، وبينها وبين البر الحبشي مجاز يقطع بالسباحة، وبين سواكن وعيذاب في البحر نحو سبع مراحل. وفي غربي سواكن على نيل الحبشة بلاد الباكة (التاكة) وهم إخوة الحبشة الذين على هذا النيل»[1].

ثالثاً: قبيلة الحدارية في مصادر القرن 8 هـ/ 14م

أمدنا الرحالة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري بمزيد من المعلومات عن البجة وبلادهم، فتناول المواني، وما لاحظه عن طبيعة المنطقة، ووصف السكان، وأزياءهم، وطبيعة معيشتهم، كما تعرّض للقبائل العربية التي كانت تعيش مع البجة. وقد دخل ابن بطوطة أرض البجة أكثر من مرة عامي 726 و732هـ. ففي المرة الأولى دخل عيذاب، والتي أتى إليها من صعيد مصر في طريقه إلى الحجاز في العام 1325/624م.

ووصف عيذاب بأنها: «مدينة كبيرة.. وأهلها البجاة، وهم سود الألوان، يلتحفون بملاحف صفراء، ويشدّون على رؤوسهم عصائب، يكون عرض العصابة إصبعاً، وهم لا يورّثون البنات، وطعامهم ألبان الإبل، ويركبون المهاري، ويسمونها الصهب. وثلث المدينة للملك الناصر، وثلثاها لملك البجاة، وهو يعرف بالحَدْرَبي - بفتح الحاء المهمل، وإسكان الدال، وراء مفتوحة، وباء موحدة وياء- ولمّا وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحَدْرَبي سلطان البجاة يحارب الأتراك، وقد خرق المراكب، وهرب التُرك أمامه، فتعذّر سفرنا في البحر»[2].

وضّح ابن بطوطة أن عيذاب مدينة كبيرة، وسكانها البجة، وقصد بالبجة هنا الحداربة، وبيّن ملابسهم الملاحف ورباط الرأس، لكنه لم يذكر شيئاً عن شعر الرأس، مما يوضّح أن البجة الذين رآهم ابن بطوطة لم يكونوا يرسلون شعور رؤوسهم، وهي السِمة التي نقلها عنهم الرحّالة فيما بعد. وتبدو قبيلة الحداربة على قدر واضح من القوة والنفوذ، بحيث تمكّنوا من هزيمة الأتراك الذين ربما أغاروا على المدينة من أجل النهب. كما وضح أن البجة (الحداربة) لا يورّثون البنات، وهذا ينفي مع ما ورد في بعض المصادر العربية عن عادة البجة

---

[1]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مرجع سابق، ج 1 ص 22.

[2]. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 254.

في توريث ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب.

وقد ناقشنا هذه المسألة عندما تحدّثنا عن السكّان، ورجّحنا ما قاله ابن بطوطة؛ مستشهدين ببعض الأدلة. ولو أخذنا بذلك؛ ينبغي علينا مراجعة ما دأبت المراجع الحديثة على الاستدلال به، من أن العرب تزوّجوا بنات الزعماء المحليين في السودان، وورثوا السلطة كما جرت عليه عادة توريث ابن البنت. وفي المرة الثانية دخل ابن بطوطة ساحل البجة في طريق عودته من الحجاز عام 730هـ/1329م، وقد تعرَّضت سفينتهم لعاصفة ألقت بهم إلى ساحل البجة.

وأضاف ابن بطوطة: «ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر، فيما بين عيذاب وسواكن، فنزلنا به، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد، وبه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء، فشربنا منه وطبخنا، ورأيت في ذلك المرسى عجباً، وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به، وقد امتلأ سمكاً، كل سمكة منها قدر الذراع، ويعرفونه بالبوري، فطبخ منه الناس كثيراً واشتروا، وقصدت إلينا طائفة من البجاة، وهم سكان تلك الأرض، سود الألوان، لباسهم الملاحف الصفر، ويشدُّون على رؤوسهم عصائب حمراً، عرض الإصبع، وهم أهل نجدة وشجاعة، وسلاحهم الرماح والسيوف، ولهم جِمال يسمونها الصُّهب، يركبونها بالسروج، فاكترينا منهم الجمال، وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان، والبجاة لا يأكلونها، وهي تأنس بالآدمي ولا تنفر منه»[1].

وصف ابن بطوطة البجة (الحداربة) بأنهم أهل نجدة وشجاعة، وقد تكرّرت مثل هذه الأوصاف في المصادر العربية، وبيَّن تعاملهم الجيد مع التجار والمحافظة على سلامتهم وتأمين أموالهم. وكانوا يقومون بتأجير جمالهم للتجار وقت الحاجة. وذكر أن البجة لا يأكلون الغزلان، وهي كثيرة حتى أنها تأنس بالآدمي. وواضح أن البجة هنا يراد بهم الحداربة، الذين وضَّح ابن حوقل أن «طعامهم اللحم واللبن خاصة، وضعفاؤهم يأكلون الوحوش كالغزال والنعام والحمار، وهم مسلمون بالاسم، ومياسيرهم لا يرون أكل الصيد ولا مخالطة آكليه، ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحلّه، ولا يحلبون فيها ولا يشربون»[2].

---

[1]. المرجع نفسه.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 75.

وأعتقد أن تعبير ابن بطوطة هنا أصدق من ابن حوقل. فابن بطوطة يرى أن كل الحداربة لا يأكلون الغزلان بخلاف ابن حوقل الذي يرى أن ضعفاءهم يأكلونها. فالغزلان فيما بين مناطق سواكن وعيذاب من الكثرة بحيث أصبحت أليفة، مما يوضّح أن لا أحد يأكلها بين الحداربة. ويبدو أن ابن حوقل قصد بضعفائهم الزنافجة.

ويواصل ابن بطوطة: «وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حيٍّ من العرب يُعرفون بأولاد كاهل، مختلطين بالبجاة، عارفين بلسانهم، وفي ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن، وهي على نحو ستة أميال من البر، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهي جزيرة كبيرة، وبها لحوم النعام والغزلان وحُمُر الوحش، والمعزى عندهم كثير، والألبان والسمن، ومنها يجلب إلى مكة، وحبوبهم الجرجور، وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضاً إلى مكة».

وعن حاكم سواكن قال ابن بطوطة: «وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي إليها الشريف زيد بن أبي نمي، وأبوه أمير مكة، وأخواه أميراها بعده، وهما عطيفة ورميثة، اللذان تقدّم ذكرهما، وصارت إليه من قبل البجاة، فإنهم أخواله ومعه عسكر من البجاة، وأولاده كاهل وعرب جهينة، وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن»[1].

ولم يوضح ابن بطوطة أية قبائل البجة تسكن مدينة سواكن، ولكن القلقشندي وضّح أنهم من الحداربة المسيطرين على المنطقة. ومما يدعم ذلك أن ابن بطوطة قال إن الحداربة يسكنون عيذاب، وكانت قبضتهم قوية على المنطقة براً وبحراً، فقد حارب سلطان الحداربة -كما ذكر- الأتراك الذين هاجمت سفنهم عيذاب، وتمكّن من هزيمتهم، وفروا أمامه في البحر. ولذلك يبدو مقبولاً أن يكون سكّان سواكن القريبة من عيذاب من الحداربة أيضاً، إلى جانب الخاسة الذين ذكرهم المقريزي.

وذكر ابن بطوطة أنه عندما دخل سواكن كان واليها زيد بن أبي نمي، وهو ابن أمير مكة الشريف الحسني الذي تولت أسرته إمارة مكة منذ بداية القرن السابع الهجري (الـ13 الميلادي). وقد ذكر ابن فضل الله العمري، والذي كان معاصراً لابن بطوطة أن بنو نمي كانوا تحت طاعة المماليك. وكان أمراء مكة يعترفون بسلطة أمراء المماليك على مناطق نفوذهم،[2] كما ذكر ابن خلدون: «وقد فرض المماليك سيادتهم على سواكن منذ بداية قيام

[1]. ابن بطوطة، تحفة النظار، مرجع سابق.

[2]. العمري، أحمد بن فضل الله، مسالك الأبصار، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 246.

دولتهم، فقد استولى عليها أسطول المماليك عام 664هـ/1265م، وهرب أميرها الشريف علم الدين أسبغاني، لكنه عاد إليها بعد مغادرة الجيش المملوكي»[1].

وفي المرة الثالثة دخل ابن بطوطة بلاد البجة قادماً من الأراضي المقدسة فقال: «ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب، فردّتنا الريح إلى جبل يعرف برأس دواير، وسافرنا منه في البر مع البجاة، ووردنا ماء كثيرة النعام والغزلان، فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة. ووردنا ماء يعرف بمفرور، وماء يعرف بالجديد. ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة، وجدناهم بالفلاة، أغناماً وتزوّدنا لحومها، ورأيت بهذه الفلاة صبياً من العرب كلّمني باللسان العربي، وأخبرني أن البجاة أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاماً، وإنما يقتات بلبن الإبل. ونفد منا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه، ولم يبق لنا زاد، وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لأصحابي، ففرّقته على الرفقة، وتزوّدناه ثلاثاً، وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير، وصلنا إلى عيذاب»[2].

ومن هنالك سار ابن بطوطة نحو النيل في صعيد مصر. تحدث ابن بطوطة عن عرب جهينة وبني كاهل كما ورد أعلاه. ذكر في المرة الأولى أن «أولاد كاهل مختلطين بالبجة عارفين بلسانهم.. ووضح أن طاعتهم للبجة»، كما تناولهما أثناء حديثه عن عساكر سلطان سواكن المكونين «من البجاة، وأولاد كاهل، وعرب جهينة».

يلاحظ أن هؤلاء هم العرب الوحيدون الذين رآهم ابن بطوطة في مناطق البجة التي مرّ بها، باستثناء الفتى العربي الذي ذكر أن البجة أسرته. وإذا تذكّرنا أن ابن بطوطة مرّ بهذه المناطق بعد انهيار مملكة المقرة المسيحية، وما تردّد عن اجتياح القبائل العربية للسودان بعد انهيار تلك المملكة، يتبادر إلى ذهننا سؤال مهم: أين أولئك العرب الذين تناولت المراجع العربية وغير العربية اجتياحها للسودان؟، لماذا لم يلاحظها أو يكتب عنها ابن بطوطة، وهو الذي كتب عن عربي واحد وجده بين البجة؟.

هل لأنه لم تكن هنالك قبائل عربية ما عدا أولاد كاهل وجهينة، الذين كان بعضهم يخدم جنوداً عند حاكم سواكن، وبقيتهم مختلطين بالبجة، ويتحدّثون لغتهم وتحت حكمهم؟. أرى أن هذا هو الافتراض الوحيد. وربما نقول إن ابن بطوطة لم يلاحظ العرب في المنطقة لأنه مر بها بعد فترة قصيرة -نحو عقدين فقط- من انهيار مملكة المقرة، ولذلك لم يدوّن ما

---

[1]. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر، (موقع الوراق(، ج 5 ص 481.

[2]. ابن بطوطة، تحفة النظار

تواتر، في المراجع وليس في المصادر، عن اجتياح القبائل العربية لأراضي السودان.

كما يلاحظ أيضاً أن المؤلفين الذين عاصروا أو كتبوا بعد ابن بطوطة، والذين تناولوا بإسهاب انهيار مملكة المقرة المسيحية، وما تلاها من أحداث في منطقة النوبة لم يشيروا أبداً لاجتياح أو دخول القبائل العربية عبر مناطق البجة، مثل أبو الفداء (ت 732هـ/1331م) في كتابيه: (المختصر في أخبار البشر) و(تقويم البلدان)، والنويري (ت 732هـ/2332م) في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب)، والدمشقي (ت 739هـ/1338م) في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)، وابن فضل الله العمري (ت 749هـ/1348م) في موسوعته (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار).

ولم يتحدث عنهم ابن الفرات (ت 807هـ/1405م) في كتابه (تاريخ الدول والملوك)، والقلقشندي (ت 831هـ/1418م) في موسوعته (صبح الأعشى)، وكتابه (نهاية الأرب)، والمقريزي (ت 845هـ/ 1445م) في كتبه (المواعظ والاعتبار) و(البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب) و(السلوك لمعرفة دول الملوك) و(المقفى)، وابن الوردي (ت 861هـ/1457م) في كتابه (خريدة العجائب)، وأبو المحاسن ابن تغري بردي (ت 874هـ/1469م) في كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، وابن إياس (ت 930هـ/1523م) في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور).

وفيما يتعلّق بما ذكره ابن خلدون عن قبيلة جهينة حيث قال: «وبالصعيد الأعلى من السودان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعدّدة وأحياء متفرّقة كلهم من جهينة.. زاحموا الحبشة في بلادهم»[]، فقد ناقشت ذلك بإسهاب، وقد استنتجت أن قبيلة جهينة كانت غائبة تماماً عن تلك الأحداث[].

ومتابعة لما أورده كُتّاب القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي) عن البجة وبلادهم، فقد ذكر النويري بداية تدخّل المماليك للسيطرة على سواكن عام 664هـ/1265م، لكنه لم يمدّنا بعلومات مفصّلة عن البجة ومناطقهم عندما تناول أحداث الحملة التي أعدّها السلطان الناصر محمد عام 716هـ، لمطاردة الأعراب الذين هاجموا قافلة رسول حاكم اليمن إلى

[]. ابن خلدون، العبر، مرجع سابق.

[] - أحمد الياس حسين، قبيلة جهينة هل تكاثرت وتغلّبت على النوبة وأزالت ملكهم كما روى ابن خلدون؟ أم كانت غائبة تماماً عن تلك الأحداث؟، (مجلة «دراسات سودانية»، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية جامعة الخرطوم، العدد 15، أكتوبر 2009م).

السلطان المملوكي في صحراء عيذاب، فدخلت الحملة عيذاب، وخرجت منها بحثاً عن الأعراب حتى وصلوا إلى سواكن، ولم يعثروا على الأعراب، وخرجت الحملة من سواكن بحثاً عن الأعراب «فدخلوا البرية يتبعون آثارهم، فساروا سبعة عشر يوماً، وفي أثناء سيرهم ظفروا بطوائف من السودان بقرب المياه والأودية هناك، فقتل العسكر منهم، وأسر، وسبى، وغنم من مواشيهم، والأبقار والأغنام ما ارتفق به الجند، وانتهوا إلى وادي أيتريب في اليوم السابع عشر.. ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى أزبينات، وهو جبل صغير على شاطئ نهر أتبرا». ثم ساروا على نهر أتبرا ثلاثة أيام غرباً «والنهر على يمين العسكر، ثم فوّزوا ودخلوا البرية إلى أرض التاكة، فانتهوا في اليوم الثالث من دخولهم المفازة إلى جبل كسلان - كسلا - وهذا الجبل هو حد بلاد التاكة من الحبشة من السودان».

وعند الجبل أغارت عليهم «طائف من الهلنكة -الحلنقة-.. وبأيدي الهلنكة الحراب والمزاريب والسيوف، ومع بعضهم النبل.. فقاتلهم العسكر ورموهم رشقاً واحداً بالسهام، فقتل من هلنكة أربعمائة وستون نفراً، وجرح منهم خلق كثير. ولم يتمكّن العسكر من أسرهم لأنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر. وقتل اثنان من ملوكهم.. وعادوا حتى انتهوا إلى أربيباب.. فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرا فساروا على شاطئه عشرين يوماً.. ثم انتهوا إلى قبلة الأبواب.. وتوجهوا إلى دنقلة في سبعة عشر يوماً»[1].

كان النويري معاصراً للحملة، لكنه لم يستفسر أفراد الحملة عن البلاد وطبيعتها، وعن السكان وأوضاعهم. وفي واقع الأمر كان اهتمامه فقط بالأخبار المتعلّقة بالحملة، وحتى عندما يتعرّض للمنطقة وأهلها يكون ذلك بالقدر الذي يكمل معلوماته عن الحملة. ورغم ذلك فإن ما ذكره عن المنطقة يمثّل المعلومات المبكرة عن التاكة وكسلا وقبيلة الحلنقة. ويلاحظ أن الحملة سارت ما بين عيذاب وسواكن، ثم توغّلت حتى كسلا، ثم تابعت -في طريق عودتها- نهر عطبرة حتى النيل ودنقلة، ولم تصادف في كل هذه المناطق قبيلة أو جماعات عربية عائشة هنالك. ويعني ذلك أن المنطقة كانت خالية من العرب قبل قرن واحد من قيام تحالف العبدلاب.

وعن ذكر البجة وبلادهم في مصادر القرن الثامن الهجري نجد عند الدمشقي أنهم الحداربة والزنافجة فقط حيث قال: «(لبجة وهم صنفان: (حدارية) وملكهم يسكن هجر،

---

[1]. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص217.

و(الزنافجة) وملكهم يسكن مدينة نقلين، وكلهم ينتفون لحاهم، ويدعون شعرات يسيرة، وهم عرايا من المخيط، ملتحفون بثياب مصبغة، ولهم مدائن: أوتل، وعَدَل، وجزيرة دهلك، وجزيرة سواكن، ومدينة عيذاب، فرضة التجار من اليمن ومصر، ويتّصل بهم طائفة من السودان تسمّى خاسة السفلى كفار، وخاسة العليا مسلمون، وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء. وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسكنون المدن»[]·

أما أبو الفاء فقد تحدَّث عن أمم السودان فذكر: «من أممهم البجا، وهم شديدو السواد، عراة يعبدون الأوثان، وهم أهل أمن وحسن مرافقة للتجار، وفي بلادهم الذهب، وهم فوق الحبشة إلى جهة الجنوب على النيل»، وذكر في موضع آخر: «ومن العلاقي يدخل الإنسان إلى بلاد البجة». وعن عيذاب: «وبعضهم يجعلها من بلاد البجة»[].

ويبدو واضحاً ضعف وقلة معلومات الدمشقي وأبي الفداء عن البجة. وهكذا نلاحظ بوضوح أن كل المصادر لم تتناول ما تردّد في المراجع الحديثة عن اجتياح القبائل العربية أراضي السودان. ونكرِّر السؤال هنا: هل لم يحدث ذلك الاجتياح كما روته المراجع؟، ومن أين أتت المراجع بتلك المعلومات؟. يبدو أن المراجع الحديثة العربية وغير العربية قد استندت على الروايات الشفاهية المتداولة بين القبائل في السودان، والتي توضح كيف، ومتى، ومن أين دخل أسلاف تلك القبائل ومؤسِّسوها، وقدّمته باعتباره حقائق تاريخية.

ومن الغريب في الأمر، رغم إدراك مؤلفي تلك المراجع أن كل تلك المعلومات ما هي إلا تراث شعبي، لا ترقى إلى مستوى الحقائق التاريخية، أنهم استخدموها بكثرة حتى أصبحت من المسلَّمات، وجرى التعامل معها باعتبارها حقائق تاريخية. وتأسَّس على تلك المسلمات (الروايات الشفاهية) تاريخ سكان السودان في العصر الحديث. ومن الغريب أيضاً أن المؤسَّسات الأكاديمية أخذت أيضاً بتلك المسلَّمات، ولم تستقصِ: لماذا لا يوجد أيُّ سند لتلك المسلمات في المصادر المعاصرة لتلك الأحداث؟.

لم يتبقَّ من مؤلفي القرن الثامن الهجري، الذين نتناول كتاباتهم، غير ابن فضل الله العمري، وقد أرجأنا تناوله لأن الحديث عن نصوصه يقودنا إلى القلقشندي، وهو من مؤلفي القرن الثامن.

[]. الدمشقي، أبو عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 237.

[]. أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود، المختصر في أخبار البشر، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 211.

■ **كتابات العمري والقلقشندي**

في منتصف القرن الثامن جاء ابن فضل الله بنصين أحدهما عن ولاة عربان الوجه القبلي، والثاني عن سواكن. فقد جاء في النص الأول: «وشيخ الحواربة سَمُرة بن سالك، وهو ذو عدد جمٍّ، وشوكة منكية، يغزو الحبشة وأمم السودان، ويأتي بالنهب وبالسبايا، وله أثر محمود، وفعل مأثور، ووفد على السلطان، وعقد له لواءً، وشرف بالتشريف، وقلّد ذلك وكتب -السلطان- إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم، وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب معه للغزو متى أراد. وكتب منشوراً له بما يفتح من البلاد، وتقليداً بإمرة العربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته وتركز رايته. ورسم المكاتبة إليه السامي الأمير كمن تقدم»[1].

أما النص الثاني فقد جاء فيه: »وجزيرة سواكن ليست بها مملكة مشهورة، ولا متاجر مذكورة، وكل أهلها مسلمون قائمون بالإسلام، وتجلب منها إلى مصر أغنام حسان يُقتنى بها للفرجة لا للأكل والنتاج.. وأما سواكن ففيها الشريف زيد بن أبي نمي الحسني، وهو في طاعة صاحب مصر»[2].

ويلاحظ على ما كتبه العمري عن البجة الاختصار الشديد، وبخاصة في موسوعته الكبيرة (مسالك الأبصار) والتي تضم عشرين مجلداً. وقد كان العمري مشرفاً على ديوان الإنشاء في القاهرة، وهو مركز يمكّنه من الاطلاع على كل أخبار الدولة والمناطق المجاورة. فالعمري لم يورد في موسوعته الضخمة غير النص السابق عن البجة، مع العلم أنه أورد نحو أربع صفحات عن مملكة النوبة الذين ربطتهم مع مصر في ذلك الوقت علاقات متطوِّرة. وإذا قارنا ما كتبه العمري بما كتبه معاصره النويري عن البجة والنوبة في موسوعته (نهاية الأرب في فنون الأدب)، اتضح لنا إلى أيِّ مدى لم يكن العمري مهتماً بأخبار السودان، فقد بلغ ما أورد النويري عن البجة نحو ست صفحات، وعن النوبة نحو أربع عشرة صفحة. وينبغي علينا أن نضع هذا في اعتبارنا ونحن نحكم على نصوص العمري.

ونبدأ بالنص الأول الذي يعتبر من بين الأدلة على عروبة الحداربة. ويبدو أن نص العمري الأصلي قد تعرّض لبعض التغيير أثناء النقل والتدوين، فالنص يخاطب (شيخ الحواربة) وليس الحداربة. وقد اتُّفِقَ على قراءته الحداربة باعتبار حدوث بعض التغيير في

[1]. القلقشندي، أحمد بن عبد الله، صبح الأعشى، (موقع الوراق)، ج3 ص161.

[2]. العمري، مسالك الأبصار، مرجع سابق، ص245.

كتابة الاسم. ثم أن اسم الشيخ في النص (سَمُرة بن سالك)، وكذلك في نص القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب)، ولكن في النص الذي نقله القلقشندي من كتاب العمري جاء الاسم (سَمُرة بن مالك)، وليس ابن سالك. والملاحظ أن أغلب المؤلفات الحديثة استخدمت النص الأخير الذي لم يرد عند العمري صاحب النص الأصلي.

ولنأخذ النص كما ورد عند العمري، واصطلح على قراءته (شيخ الحداربة) فنص العمري لم يقل إن شيخ الحداربة عربي، ولم ينسبه لأية قبيلة عربية أو غير عربية، بل ورد أن السلطان «كتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم، وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب معه للغزو متى أراد، وكتب له منشوراً يتولى بمقتضاه بما يفتح من البلاد، وتقليداً بإمرة العربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته».

فقد أمر السلطان المملوكي ولاة الوجه القبلي (بصعيد مصر) والعربان أن يساعدوا الشيخ. ووضح النص أن السلطان قلده ولاية العربان. وليس هنالك في نص العمري ما يشير إلى انتماء الشيخ العرقي، لكن ورد توضيح العرق في النص الذي نقله القلقشندي عن كتاب (التعريف) للعمري، قال القلقشندي: «وأما عرب الوجه القبلي، فقد ذكر في (التعريف) أنه كان منهم في زمانه نفران: أحدهما ناصر الدين عمر بن فضل. وذكر أن رسم المكاتبة إليه: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي أيضاً. وثانيهما سمرة بن مالك. قال: وهو ذو عدد جم، وشوكة منكية، يغزو الحبشة وأمم السودان، ويأتي بالنهاب والسبايا؛ وله أثر محمود، وفعل مأثور. وفد على السلطان وأكرم مثواه، وعقد له لواء وشرف بالتشريف، وقلّد ذلك، وكتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العربان به بمساعدته ومعاضدته، والركوب للغزو معه متى أراد. وكتب له منشوراً بما يفتح من البلاد، وتقليداً بإمرة العربان القبلية، مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته. ثم قال: ورسم المكاتبة إليه، السامي الأمير، كمن تقدم»[1].

ورغم أن القلقشندي ذكر أنه نقل النص من كتاب العمري (التعريف)، إلا أن النص يختلف في بدايته اختلافاً واضحاً عن نص العمري. يتحدّث نص القلقشندي هنا عن عرب الوجه القبلي، كما ورد في التعريف، ثم يذكر سمرة بن مالك ويعطيه الصفات نفسها التي وصف بها سمرة بن سالك، مما يوضح أنه قصد به سمرة بن سالك. ولكن العمري لم يشر في نصه إلى أنه من العرب. فلماذا أضاف القلقشندي سمة العرب في بداية النص؟.

يبدو أن ما ذكره القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب)، يساعد على معرفة السبب في

---

[1]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج3 ص161.

الزيادة التي ألحقها في بداية نص العمري. ذكر القلقشندي: «الحدارية: بطن من العرب بسواكن من بلاد البجاة، ذكرهم المقر الشهابي ابن فضل الله في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) ولم ينسبهم إلى قبيلة، ذكر أنه كان لهم شيخ يسمى سمرة بن سالك، وأنه ذو عدد جم وشوكة منكية يغزو الحبشة وامم السودان ويأتي بالنهب وبالسبايا، وله أثر محمود، وفعل مأثور، وذكر أنه وفد على السلطان وعقد له لواءً، وشرف بالتشريف وقلّد ذلك وكتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب معه للغزو متى أراد، وكتب له تقليداً بإمرة عربان القبلة مما يلي قوص، ومنشوراً له بما يفتحه من البلاد»[1].

وأضاف القلقشندي عند حديثه عن سواكن في كتابه (صبح الأعشى): «وقد أخبرني من رآها أنها جزيرةٌ على طرف بحر القلزم من جهته الغربية، قريبة من البر يسكنها التجار. وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحدارية -بالحاء والدال المهملتين المفتوحتين وألف ثم راء مهملة وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر-، وله مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ويقال في تعريفه الحدربي بضم الحاء وسكون الدال وضم الراء.»

فالقلقشندي حكم على الحدارية بأنهم عرب، لأن العمري قال إن شيخهم سمرة بن سالك قد تقلّد إمارة العربان. إذاً فالقرائن عند القلقشندي تكشف أن العمري كان يدرك هذه الحقيقة، وإن لم يذكرها مباشرة، ولم يوضح إلى أية القبائل العربية ينتمي الحدارية. إذاً فدليل القلقشندي على عروبة الحدارية بُني بصورة أساس على أن شيخهم زعيم العربان، إلى جانب ما أخبره به مصدره الشفاهي من أن أهل سواكن حدارية عرب.

- **العرب العربان في صعيد مصر**

نود التعرُّف على مفهوم العرب العربان الذين ربطتهم المصادر العربية بصعيد مصر، وكما رأينا في السابق، فقد ربطهم القلقشندي بقبيلة الحدارية. من المعلوم أن اللغة العربية كانت الرابط بين جميع المسلمين، خاصة عندما بدأت قوة الشعور العربي العرقي في الضعف بقيام الدولة العباسية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري. وقد اعتمد العباسيون في قيام دولتهم وتوطيد أركانها على العنصر الفارسي. ثم جاء دور العنصر التركي منذ القرن الثالث الهجري، وتولى الأتراك وغيرهم من المماليك بعد ذلك قيادة العالم الاسلامي، قبل ظهور العثمانيين الأتراك، ما بين الهند ومصر ردحاً من الزمن.

---

[1]. القلقشندي، أحمد بن عبد الله، نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، (موقع الوراق)، ج1 ص46.

وفي واقع الأمر، فإن اللغة العربية أصبحت في ذلك الوقت لغة العلم والمعرفة، إلى جانب كونها لغة الدين، فأقبل عليها غير العرب، حتى صاروا حَمَلة العلم في المِلّة الإسلامية، كما عبّر ابن خلدون حيث قال: «من الغريب الواقع أن حَمَلة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في المِلّة الإسلامية عرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبه، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن المِلّة عربية، وصاحب شريعتها عربي»[1].

فاللغة العربية في مفهوم تلك المجتمعات لم تعُدْ لغة جماعة عرقية محدودة فقط، بل أصبحت لغة كل من يخاطبه الإسلام، وكل من يدخل الإسلام أو ينضم إلى المجتمع الجديد من غير المسلمين. فاللغة العربية بلورت هوية ذلك المجتمع الجديد. وداومت أغلب الشعوب داخل حدود الخلافة على التمسُّك ببعض عادات العرب، باعتبار تلك العادات جزءاً من مكوِّنات الهوية الجديدة.

قال عبد المجيد دياب واصفاً المجتمع المصري نحو القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي): «كان للأقباط ولع شديد بتقليد المسلمين في كل شيء، لا سيما اللغة والأزياء والأسماء، فكان الشعور القوي بالانتماء للهوية الجديدة هو دافع الأقباط للتشبه بالعرب، ولم يصنِّفوا أنفسهم عرقياً بأنهم من العرب. فالغالبية العظمى ممن تحدّث اللغة العربية وتطبّع ببعض طبائع العرب لم ينتسبوا عرقياً للعرب. ولا يمنع هذا أن هنالك بعض الجماعات التي سعت إلى تصنيف نفسها عرقياً مع العرب»[2].

وسنأخذ مثلاً للقبائل غير العربية، التي تحدّثت العربية وتطبّعت بطبائع العرب، وهي قبيلة هوارة (الأمازيغية البربرية)، ونرى كيف خاطبتها المصادر العربية. يقول ابن خلدون: «إن نسابة العرب والبربر اتفقوا على أن هوارة ولواتة من قبائل البربر». ويعلّق على ما ورد من بعض النسابة قائلا: «إلا ما يزعم بعضهم أنهم من عرب اليمن.. وهذه كلها مزاعم، والحق الذى شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب»[3]. وقد أورد ابن خلدون أدلة كثيرة للرد على ما يزعمه البعض عن انتساب البربر للعرب.

---

١. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، (موقع الوراق)، ج١ ص٣٤٩.

2. عبد المجيد دياب، تاريخ الأقباط (مقدمة تحقيقه لكتاب تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريز للمقريزي)، دار الفضيلة، القاهرة، 1998م، ص 142.

3. ابن خلدون، (العبر)، مرجع سابق، ج6 ص 97 و139.

وأضاف ابن خلدون عن قبيلة هَوَارة: «صاروا في عداد الناجعة [مثل] عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم»[1].

وعندما تعرَّض القلقشندي لنزوح هوارة من الوجه البحري قال: «أما في زماننا (أي في القرن 15 الميلادي) فمذ وُجِّهت عرب هوارة من عمل البحيرة إلى الوجه القبلي»[2]. فالقلقشندي لم ير شذوذاً أو خطأً في وصف أفراد قبيلة هوارة المغربية (البربرية) بالعرب.

كما تناول ابن تغري بردي وَفَيات أمراء قبيلة هوارة بالأسلوب نفسه، فوصفهم بأمراء عرب هوارة. فذكر على سبيل المثال: «عام 790هـ/1388م توفي تاج الدين إسماعيل بن مازن الهواري، أمير عرب هوارة، ببلاد الصعيد. عام 800هـ/1398م توفي الأمير عمر بن عبد العزيز، أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد، وهذا والد بني عمر أمراء عربان الصعيد. عام 864هـ/1460م توفي الأمير شرف الدين عيسى بن عمر الهواري أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد.. وكان مليح الشكل خيِّراً ديِّناً بالنسبة إلى أبناء جنسه، وله مشاركة بحسب الحال ويتفقه على مذهب الإمام مالك»[3]. علماً بأن المذهب المشهور في مصر هو المذهب الشافعي بينما تمسّك الأمير بمذهب مالك المتبع بصورة واسعة في المغرب العربي.

كما نقل ماكمايكل عن الرحالة بوكوك Pococke، الذي زار النيل عام 1737م أن أخميم تحت أمير بربري، وأن نوردن Norden الذي سافر على النيل في السنة نفسها ذكر أن «أعلى أسيوط بقليل يبدأ وطن العرب يعرفون باسم هوارة، ويملكون أراضي على كلا شاطئي النيل ويدعونهم مواطنو مملكة مروي»[4].

وهكذا لم يجد المؤلفون العرب المبكّرون غضاضة في مخاطبة المجتمع المصري كله باعتباره مجتمعاً عربياً، العرب منهم والبربر والنوبة وغيرهم، ما داموا يتحدّثون اللغة العربية. حتى الرحّالة الأجانب في القرنين السابع عشر والثامن عشر عندما رأوا هوارة على

---

1. المصدر نفسه.

2. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج1 ص53.

3. ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في أخبار مصر القاهرة، (موقع الوراق) ج11، ج12.

4. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، vol. 1، p. 152-153.

النيل في مصر تتحدث العربية أطلقوا عليها عرب هوارة. هذا ما حدث في المجتمع المصري على الأقل في منطقة الصعيد.

- **إمارات العربان**

كانت إمارة العربان جزءاً من النظام الإداري في مصر، والذي كما وضّح القلقشندي يتكوّن من أربع طبقات، الطبقة الأولى هم طبقة النواب، والطبقة الثانية طبقة الكشّاف، والطبق الثالثة طبقة الولاة، ثم الطبقة الرابعة وهم طبقة أمراء العربان. وتناول القلقشندي أمراء الأعراب تحت عنوانه الذي ورد هكذا: «الجملة الأولى في المكاتبة إلى ممن بهذا الجانب من العربان، وقد ذكر في التثقيف ممن كوتب منهم جماعة بالطرقات الموصلة من الديار المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها».

والطرقات المشار إليها هنا هي الطرقات التي ربطت العاصمة بأطراف الدولة، وأهم النشاطات عبر تلك الطرق كانت المراسلات الرسمية للدولة والتجارة. والطرق التي تهمنا هنا هي تلك التي كانت تأتي من الجنوب، مثل طرق غربي النيل وشرقية. وكانت طرق الصحراء الشرقية تتجه من البحر الأحمر نحو الغرب والشمال الغربي رابطة النيل من أسوان جنوباً وحتى القاهرة شمالاً. وكان حفظ وسلامة تلك الطرق من أهم واجبات الولاة -كما أشار القلقشندي إلى ذلك كثيراً- بمساعدة العربان.

فولايات العربان إذاً جزء من إدارة الدولة المصرية، وكان من بين مهامهم المساعدة على حفظ الأمن داخل الأراضي المصرية، وما نود التعرُّض إليه هنا هو طرق الصحراء الشرقية الواقعة في صعيد مصر بين النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً. وكان مقر أمير العربان سمرة بن سالك (أو مالك) على النيل في صعيد مصر في منطقة الأقصر الحالية.

قال القلقشندي: «بيان أمراء العربان.. فأما الوجه القبلي، فقد ذكر الحمداني أن الإمرة به في بيتين من قبيلة بلي من قضاعة بن حمير بن سبأ من القحطانية. الأول بنو شاد المعروفون ببني شادي.. بالأعمال القوصية.. الثاني العجالة وهم بنو العجيل بن الذئب منهم أيضاً، وكانوا معهم هناك.. العمل الثاني عمل الأشمونيين. وكانت الإمرة به في بني ثعلب.. من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق. العمل الثالث البهنسي [في صعيد مصر]، وكانت الإمرة فيه في بيتين: الأول أولاد زُعازع بضم الزاي من بني جديدي من بني بلار

من لواتة من البربر وهم أشهر من في الصعيد. الثاني أولاد قريش»[1].

وأولاد قريش المذكورين هنا ليسوا من قبيلة قريش العربية فقد وضح المقريزي أن أولاد قريش هؤلاء من بطون قبيلة لواتة[2].

وهكذا تم تناول أمراء لواتة ضمن أمراء الأعراب، مثل أمراء قبيلتي بلي والجعافرة. وعن الإمارة في المنوفية ذكر القلقشندي «الإمرة فيها لأولاد نصر الدين من لواتة، ولكن إمرتهم في معنى مشيخة العرب». وذكر القلقشندي أن لواتة أكثر القبائل بالصعيد، وأن إمارة العربان في صعيد مصر في بيتين منها هما: أولاد زُعازع وأولاد قريش، ووصف قريش بأنه كان عبداً صالحاً. ويعني هذا أن لواتة أصبح لها إمرة العربان منذ أن هزم الأيوبيون تحالف الجعافرة في القرن السادس الهجري.

غير أن ميزان القوى القبلي قد تغيَّر منذ نهاية القرن السابع الهجري (الـ13 الميلادي) بدخول قبيلة هوارة منطقة الصعيد بعد أن أُجبرت على الخروج من الوجه البحري. وقد وصف القلقشندي نزول واستقرار الأعداد الكبيرة من قبيلة هوارة في الصعيد قائلاً: «انتشرت في أرجائه انتشار الجراد، وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث أسوان وما والاها، وأذعنت لهم سائر العربان بالوجه القبلي قاطبة، وانحازوا إليهم وصاروا طوع قيادتهم». وبيَّن أن بطون قبيلة هوارة في عصره (ت821هـ/1418م) كانت أكثر من ثلاثين بطناً.

ونخلص من ذلك إلى الآتي:

- ليس من الضروري أن يكون كل من وصف بالعربي في صعيد مصر في المصادر العربية منتسباً إلى العرب عرقياً. فإمارة القبيلتين البربريتين لواتة وهوارة اعتبرتا عرباً، وأدرجت إماراتهما تحت إمارات العربان.
- إمـارات العربان في صعيد مصر بعد القرن السابع الهجري في عصر العمري (8هـ/14م)، وفي عصر القلقشندي (9هـ/15م) آلت إلى قبيلة هوارة البربرية وأصبحوا هم الأقوى في صعيد مصر، كما ذكر القلقشندي.
- كانت إمارات العربان جزءاً من النظام الإداري في مصر، ومقر أمراء العربان داخل

---

1. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج2 ص53.

2. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، البيان والإعراب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص53-54.

الحدود المصرية.

- سمرة بن سالك (أو مالك)، أصبحت له قيادة العربان في عصر العمري في صعيد مصر، كما نقل عنه القلقشندي، حيث قال: «وأما عرب الوجه القبلي، فقد ذكر في (التعريف) أنه كان منهم في زمانه نفران: أحدهما ناصر الدين عمر بن فضل.. وثانيهما سمرة بن مالك».
- ولما كان سمرة بن سالك قوياً ومسيطراً على الصعيد وأعطيت له إمارة العربان في القرن الثامن إبّان سيادة قبيلة هوارة على الصعيد، فمن المقبول جداً أن يكون أحد قادة قبيلة هوارة.

ولذلك أرى أن لا علاقة لسمرة بن سالك أو ابن مالك بقبيلة الحدارية، وأنه حدث خطأ، إما أن يكون الخطأ من العمري نفسه، وقد رأينا كيف أن معلوماته عن البجة كانت في غاية الاختصار، وعبارة عن فقرة واحدة أقل من ثلاثة أسطر في موسوعته المكونة من عشرين جزءاً، ويدل ذلك على عدم معرفة العمري بالبجة، ولا يستبعد أن يكون قد أخطأ في ما أورده عنهم. أما القلقشندي فقد نقل عن العمري أن الحدارية عرب[1] فقد وضحنا -أعلاه- أن العمري لم يقل ذلك، بل قال: «وشيخ الحوارية سَمُرة بن سالك، وهو ذو عدد جم وشوكة.. وتقليداً بإمرة العربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته»، وليس في ذلك ما يقرِّر أن شيخ الحوارية ينتمي إلى العرق العربي. وربما كتب القلقشندي ذلك بحكم المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك عن العربان، كما رأينا في النصوص أعلاه (أمير عرب هوارة).

وإلى جانب كل ذلك فقد حدّد القلقشندي إمارة سمرة بن مالك: «تقليدٌ بإمرة عربان القبلة مما يلي قوص إلى حيث تصل غايته، وتركز رايته». فقد حدد الجزء الأخير من هذا النص مركز الولاية وهو (قوص)، وتقع قوص على النيل في صعيد مصر، ولم يحدّد مناطق نفوذه، بل أطلق يده «حيث تصل غايته»، غير أن القلقشندي نقل عن العمري أيضاً أن سمرة بن مالك شيخ عرب الحدارية بسواكن، وأضاف في مكان آخر أن «صاحب سواكن في زمانه من العرب المعروفين بالحَدَارية.. ويقال في تعريفه الحُدْرُبي»[2].

فهل يمكن افتراض امتداد حدود إمارة سمرة من قوص في صعيد مصر حتى سواكن؟.

---

[1]. القلقشندي، نهاية الأرب، مرجع سابق.

[2]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج2 ص313.

لا أعتقد أنه افتراض معقول، لأننا رأينا أحداث هذه المنطقة، والقبائل العربية التي ساهمت فيها، مثل، دغيم، ورفاعة، وبني كاهل، وجهينة، وأولاد الكنز، والعكارمة، ولم يرد ذكر لعرب الحداربة في كل تلك الأحداث. ومن جانب آخر فقد أتى وَصْف أمير عرب الحداربة بما يوضح أن الإمارة كانت قوية ومساهمة بفعالية في غزو (الحبشة وأم السودان). وإمارة بهذا الوضع والقوة يفترض أن يكون لها دور في تطوُّر العلاقات بين المماليك والمناطق الجنوبية، ولكن لم يرد ذكر للحداربة أو لأميرهم أو أي ذكر في أحداث العلاقات بين المماليك والبجة منذ عصر العمري (القرن 14 الميلادي) وعصر القلقشندي (القرن الخامس عشر الميلاي).

إضافة إلى أن الحداربة كانت قبيلة كبيرة كتب عنها المؤلفون المبكرون، أمثال، اليعقوبي، والمسعودي، وابن حوقل، وابن سليم، وذكروا أنها من قبائل البجة الكبرى، وأنها تصاهرت مع قبيلة ربيعة منذ القرن الرابع الهجري. ولم يرد في المصادر العربية المبكرة أن قبيلة الحداربة قبيلة عربية، كما جاء عند القلقشندي، بل أورد ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي أن عرب بني كاهل وجهينة الذين كانوا يعيشون مع البجة يتحدَّثون لغة البجة.

وهكذا نجد القرن الثامن الهجري (14م) قد شهد العديد من مؤلفات التراث العربي المهمة، مثل، مؤلفات أبي الفداء، والنويري، والدمشقي، والعمري، وابن بطوطة، وفي الوقت نفسه شهِد هذا القرن نهاية مملكة المقرة المسيحية، وما تلا ذلك -من تراث شفاهي- عن اجتياح القبائل العربية للسودان، ليس عبر النيل فقط، وإنما كذلك عبر مناطق البجة.

ومن الواضح أن مؤلفات هذا القرن -القرن الخامس- والتي تناولنا ما كتبته عن البجة لم تتحدَّث عن أي قبائل عربية في السودان حتى الحملة التي توغَّلت حتى كسلا ورجعت عبر نهر عطبرة والنيل. والاستثناء الوحيد هو ما ذكره ابن بطوطة عن العرب من قبيلتي جهينة وبني كاهل الذين يعيشون مع البجة، ويخضعون لحكمهم، ويتحدَّثون لسانهم. وحتى المعلومات التي وردت عن البجة جاءت أغلبها شديدة الاختصار، وتفتقد الدقة والعناية بموضوعاتها. فماذا عن مؤلفات القرن التاسع الهجري (الـ15 الميلادي)؟.

الحداربة في مصادر القرن (9هـ/15م)

شهِد هذا القرن أيضاً مؤلفات مهمة في التراث العربي تناولت البجة، مثل، مؤلفات القلقشندي، وابن خلدون، وابن الفرات، والمقريزي، وابن الوردي، وأبو المحاسن. وقد لاحظنا أن القلقشندي اعتمد على العمري في أغلب ما أورده من معلومات عن البجة،

وجاءت كلها عن الحدارية. كما اعتمد كثيراً في تحديده للمواقع على أبي الفداء وابن سعيد. ولم نكن نتوقّع منه اعتماده على ابن سعيد المغربي فيما نقله عن أخبار البجة. فالقلقشندي ولد وعاش في مصر، وعمل في ديوان الإنشاء الذي ألّف عنه كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء)، فهو بهذا الوضع على صلة بأحداث البجة أكثر من ابن سعيد الذي عاش في المغرب قبل قرنين من عصره. ولعل هذا يوضح مدى اهتمام المصادر العربية بأخبار البجة.

فقد ذكر القلقشندي عن البجة: «قال ابن سعيد: وهم مسلمون، ونصارى، وأصحاب أوثان، ومواطنهم في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق، فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل، على القرب من الديار المصرية»[1]. ومن الواضح أن هذه مواطن قبيلة الحدارية، لكن جاء الحديث هنا بصورة عامة عن البجة.

ولعلنا نكرّر ما سبق أن قلناه عن موسوعة النويري وشحّها في المعلومات عن البجة، فقد كان من المؤمل أن تحتوي موسوعة القلقشندي على ما يساعد على فهم تلك الحقبة المهمة من تاريخ البجة، خاصة أن القلقشندي ولد في منتصف القرن الثامن الهجري، أي بعد نحو ثلاثة عقود من نهاية مملكة المقرة المسيحية؛ وما تردد عن اجتياح القبائل العربية للسودان، وتوفّر المعلومات عنه، غير أننا لم نجد ذلك، ووجدنا جل اعتماده على العمري.

أما ابن خلدون الذي عاش في مصر، وتوفي فيها في بداية القرن (9هـ/15م)، فقد جاء ذكر البجة ثلاث مرات فقط في كتابه (العبر ومقدمته). النص الأول ورد فيه ما يلي: «ومجالات البجة في شمالي الحبشة، ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم». النص الثاني تكرّر في المقدمة جاء فيه ما يلي: «وتحت باب المندب، جزيرة سواكن، ودهلك، وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان»[2]. وفيما يتعلّق بما ذكره ابن خلدون عن قبيلة جهينة فقد تمت مناقشته في موضوع مستقل[3] وتبيّن أن قبيلة جهينة كانت غائبة عن أحداث انهيار مملكة المقرة المسيحية، وما تلا ذلك من أحداث في بلاد النوبة أو بلاد البجة.

---

[1]. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق.

[2]. ابن خلدون، العبر، مرجع سابق، ص 280.

[3]. أحمد الياس حسين، قبيلة جهينة؛ هل تكاثرت وتغلّبت على النوبة وأزالت ملكهم كما روى ابن خلدون؟ أم كانت غائبة تماماً عن تلك الأحداث (مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الإفريقية والأسيوية جامعة الخرطوم العدد 15، 2009م).

وقد جعل ابن الفرات الحدربي ملك البجة، وخليفة السودان، وأعطاه اسماً عربياً هو (صارم الدين)، قال في كتابه (تاريخ الدول والملوك): «أما البجة فبلادهم تجاور بلاد النوبة، وملكهم يسمى الحدربي، وهو خليفة السودان. واسم ملكهم في الزمان الذي كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (نايكس) [بدون نقط على النون والياء] وينعت بـ(صارم الدين)، وهو خليفة السودان بزعمهم»[]؛.

وتبدو هذه المعلومات من الغرابة بحيث يتعذَّر التكهُّن بمصدرها، خاصة أنه ذكر أن الذي أعطاه لقب (الخليفة) هم (السودان). ولست أدري هل يقصد بالسودان هنا البجة فقط أم غيرهم من أمم السودان؟. لأنه لو أراد البجة فقط لاكتفى بذكرهم، ربما أراد أن يقول إن ملكه واسع حتى اعتبر خليفة للسودان. وبالطبع فإن كل ذلك يدخل في أخبار (العجائب والغرائب) التي لا يمت أغلبها بصلة إلى الواقع.

أما ابن الوردي في كتابه، فيبدو عدم اهتمامه بتدقيق الأخبار التي نقلها عن البجة ومدينة عيذاب. فقد نعت البجة ببعض الأوصاف التي تتمشّى وعنوان كتابه فقال إنهم «شديدو السواد، عراة الأجساد ويعبدون الأوثان.. وليس بأرضهم قرى ولا خصب وإنما هي بادية جدبة»[]، كما وصف جمعهم للذهب من الصحراء، وذكر أنهم أهل أنس مع التجار.

ونقل ابن الوردي معلومات قديمة عن مدينة عيذاب، التي كان نشاطها التجاري وكميناء للحج قد توقف في عصره. قال عنها: «مدينة حسنة، وهي مجمع التجار براً وبحراً، وأهلها يتعاملون بالدراهم عدداً ولا يعرفون الوزن». ويواصل ابن الوردي عن إدارة المدينة: «[بها] والٍ من قبل البجة، ووالٍ من قبل سلطان مصر، يقسمان جباياتها نصفين، وعلى عامل مصر القيام بطلب الأرزاق وعلى عامل البجة حمايتها من الحبشة»[]. ورغم ما ذهبنا إليه من أن ابن الوردي نقل معلوماته من مصادر متقدِّمة، فلو أخذنا ما ذكره عن تقسيم دخل المدينة من الضرائب بين الوالي من قبل الحكومة المصرية والبجة يوضح أن قبيلة الحداربة ما تزال قوية، وذات نفوذ حتى عيذاب.

أما أبو المحاسن بن تغري بردي، فقد ولد بالقاهرة وعاش فيها، وألَّف كثيراً في التاريخ، وتوفي عام 874هـ/1469م أي بعد نحو قرن ونصف من نهاية مملكة المقرة المسيحية، وأقل

[]. ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد. المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 265.

[]. ابن الوردي، عمر بن مظفر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 374.

[]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

من أربعين سنة من قيام سلطنة سنار، وهي الفترة التي يؤرخ لها بتدفُّق القبائل العربية على السودان واجتياحها لمناطق النيل وشرقيه، وقيام حلف عرب العبدلاب. ومن الغريب في الأمر أن أبا المحاسن لم يتعرّض لأية قبائل أو جماعات عربية دخلت مناطق البجة أو السودان.

كل ما ذكره هو أحاديث حروب المسلمين والبجة في بداية القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، ونقل أبو المحاسن عن ابن فضل الله العمري في وصف سكن بلاد البجة والنوبة والحبشة جاء بعضها كالآتي: «سكّان هذه البلاد المذكورة، لا فرق بينهم وبين الحيوانات الوحشية، لكونهم حفاة عراة ليس على أحدهم من الكسوة ما يستره».[1] فلماذا لم يتتبّع أو يتناول زحف وتدفق القبائل العربية للسودان في الفترة التي عاصرها؟، مع العلم أن المصادر العربية كانت تهتم كثيراً بأخبار القبائل العربية وتحرُّكاتها.

وأخيراً نأتي إلى المقريزي المشهور بكتاباته واهتمامه بأحداث السودان، وبخاصة فترة نهاية مملكة المقرة المسيحية وما تلاها من أحداث، فماذا كتب عن البجة؟. تناول علاقات المسلمين المبكرة مع البجة في كتابيه (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) وكتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، وقال عن سواكن: «وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة، ولهم بها ملك»[2]. ومن الغريب أنه لم يتطرّق إلى ذكر الحداربة الذين تحدّث عنهم القلقشندي الذي كان معاصراً له.

كتب المقريزي كثيراً عن عيذاب، ووضّح ازدهارها في فترة القرنين اللذين توقّفت فيهما قوافل الحج والتجارة عبر صحراء سينا بسبب تهديد الصليبيين، ثم تناول بداية تدهورها بعد عودة القوافل البرية في بداية عصر المماليك بعد ضعف قوة الصليبيين. ويبدو أن نشاط عيذاب لم يتوقّف نهائياً بل كانت ما تزال حتى عصر المقريزي على قدر من النشاط، فقد ذكر المقريزي أنه رأى قاضيها في القاهرة.

ورغم أن المقريزي أورد معلومات مفصلة عن النوبة في كتابيه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، و(المقفى)، إلا أنه لم يتعرض لأخبار البجة. وكل ما ورد عن البجة بعد انتهاء حروبهم مع المسلمين في القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، هو ما ورد في (المواعظ والاعتبار) عند الحديث عن عيذاب: «وأهل عيذاب من البجاة ولهم ملك منهم، وبها والٍ

---

[1]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مرجع سابق، ص378.

[2]. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق.

من قبل سلطان مصر، وأدركت قاضيها عندنا بالقاهرة، أسود اللون، والبجاة قوم لا دين لهم، ولا عقل، ورجالهم ونساؤهم أبداً عراة، وعلى عوراتهم خرق، وكثير منهم لا يسترون عوراتهم، وعيذاب حرَّها شديد بسموم محرق»[1].

■ مدن الحدارية:

■ مدينة هجر

تردَّد ذكر عاصمة الحدارية، مدينة هجر، في المصادر العربية منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، فقد ورد ذكرها في الاتفاق الذي وقع بين البجة والمسلمين عام 216هـ، كما عند ابن سليم، حيث ورد أنها كانت مقر عظيم البجة كنون بن عبد العزيز. وفي مكان آخر ذكر ابن سليم أن هجر مقر رئيس البجة.[2] ثم وضَّح اليعقوبي أن «مدينة ملك البجة الحدارية يقال لها هجر، يأتيها الناس من المسلمين للتجارات»، وعند الحديث عن مملكة البجة الأولى ذكر أن «مدينة المملكة يقال لها هجر».[3] كما وضح الدمشقي أن ملك الحدارية يسكن هجر.[4]

ولم يرد في المصادر العربية ما يساعد على تحديد موقع مدينة هجر عدا ما ذكره ابن سليم من أنها تقع في أقصى بلاد البجة. بناءً على ما ذكره المقريزي من وقوع هجر في أقصى جزيرة البجة اقتُرِح وقوعها في مكان ما بين خور بَرَكَة والبحر الأحمر.

واقترح Heuglin موقع هجر في إرتيريا نحو 80 كم شرق مدينة كسلا في مكان يعرف بـHagr أو Higr على خريطة موزنجر. ويعلِّق كراوفورد أنه ليس من المعقول أن تكون عاصمة البجة وفيها مسجد وسط إقليم الباريا النيليين، إضافة إلى أن الموقع يعتبر إلى الجنوب أكثر مما يعتقد موقعاً لمدينة هجر.[5]

وثمة مشكلة في ربط هجر أباي نجران بالموضع الذي ذكره اليعقوبي والمقريزي، لأنه لا يقع في أقصى جزيرة البجة، فهو أقرب إلى وسطها. وقد اقترح روزيني -كما نقل

[1]. المرجع نفسه.

[2]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، ص110 - 111.

[3]. اليعقوبي، كتاب التاريخ، مرجع سابق، ص19-20.

[4]. الدمشقي، نخبة الدهر، مرجع سابق، ص237.

[5]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 104.

كراوفورد- أن يكون موقع هجر في المكان المعروف في الخرط الحديثة بـ Tehagar شرقي فروع دلتا القاش نحو 24 كم شمال غرب مدينة كسلا. وقد استبعد كراوفورد بعض الأراء التي اقترحت أن يكون موقع هجر في مكان ما شمال غرب مدينة كسلا، أو إلى الغرب من خور بَرَكَة نحو الساحل.

ويرى كراوفورد أنه بناءً على ما ورد عند اليعقوبي فإن هجر كانت عاصمة حاكم الحدارية، وقد ارتبطت كثيراً بسواكن، فقد أشار إلى ما ذكره Lobo نحو عام 1624م من أن حاكم سواكن أمير فقير، وكانت مملكته تعرف بـ(نِكران) Nekran ثم (بالو) Balou، ألا يؤدي ذلك إلى اقتراح أن البلو حققوا بذلك السيطرة على عاصمة الحدارب القديمة، ثم سيطروا على سواكن، والتي أخذها الأتراك فيما بعد. يرجح كراوفورد -بناءً على ذلك- أن عاصمة البجة هجر هي Agere Nageran التي ذكرها موزنجر، والتي أطلق عليها لوبو Nekran على خط عرض 37،16 جنوب سواكن. وربما كان هذا الموقع قرب جبل هجر الذي ذكره ضرار صالح ضرار أثناء حديثه عن قتال الأشراف والنابتاب.

- **عيذاب**

تعتبر عيذاب من أهم مدن الحدارية، قبل تدهور نشاطها التجاري وانتقاله إلى سواكن منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي)، وقد ارتبط ذكر عيذاب في المصادر العربية منذ وقت باكر كميناء لتصدير الذهب، واستقبال السلع الواردة إلى مصر عبر البحر الأحمر، إلى جانب كونها معبراً للحجاج.

وقد وضح ابن حوقل أن ربيعة ومضر تكاملتا بالعلاقي لاستغلال الذهب منذ العام 238هـ. ومنذ ذلك الحين ارتبط اسمها في المصادر العربية بتصدير الذهب، حتى اشتهرت بميناء الذهب. وتناولت المصادر نشاط الحدارية في هذا الميدان، كما وضّح المسعودي مصاهرة الحدارية لربيعة، وكيف أدت تلك المصاهرة إلى بروز قوة كلا الجانبين. وكان زعيم ربيعة أبو مروان بشر بن إسحاق في عام 332هـ يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن، وثلاثين ألف حراب على النُجُب من البجة بالحجف البجاوية، وهم

Ibid، p 106.

ضرار صالح ضرار، سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1991م، ص232.

ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص58.

الحداربة، وهم المسلمون ممن بين سائر البجة[1].

وضّح الإدريسي أن الحداربة وحكام مصر يتقاسمون إدارة مدينة عيذاب، فعلى الولاة من قبل مصر «جلب الأرزاق والمعيشة إلى عيذاب، وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الحبشة». كما كانا يتقاسمان أيضاً «جبايتها بنصفين». ووضّح الإدريسي أيضاً نشاط التجارة الداخلية لعيذاب فذكر أن «أهل عيذاب يتجولون في كل النواحي من أرض البجة، يشترون ويبيعون ويجلبون ما هنالك من السمن والعسل واللبن». ويدل كل ذلك أن الحداربة لم يكونوا فقط بدواً يتجولون في الصحارى، ولم يكونوا معزولين عن العالم الخارجي، بل كانوا منظمين تحت رؤسائهم يزاولون الرعي والتجارة، بل وربما صيد السمك أيضاً، كما أضاف الإدريسي: «وبالمدينة زوارق يصاد بها السمك الكثير اللذيذ الطعم الشهي المأكل».[2] لأنه يمكن افتراض أن كل هذا النشاط لا يقوم به الغرباء فقط من سكان المدينة.

وقد أشار ابن بطوطة إلى ما يفيد بمساهمة الحداربة في النشاط البحري، حيث وضّح أنه عند وصولهم عيذاب وجدوا «الحدربي سلطان البجاة يحارب الأتراك، وقد خرق المراكب، وهرب التُرك أمامه فتعذّر سفرنا في البحر».[3] ولعل هذا يوضح أن علاقة أسلاف السكان الحاليين بالبحر كانت علاقة إيجابية، خاصة أن المصادر الرومانية وضّحت نشاط سكّان هذه المناطق البحري الواسع قبل الإسلام، ويمكن الرجوع إلى بعض ذلك النشاط في كتاب (الوعي بالذات وتأصيل الهوية).[4]

وعندما زار ابن بطوطة مدينة عيذاب في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي) ذكر أن ثلث إيرادات المدينة لحاكم مصر، وثلثاها للحدربي، بينما ذكر الإدريسي في القرن السادس الهجري (الـ12 الميلادي) أن الإيرادات كانت مناصفة بين الجانبين. فهل يدل ذلك ازدياد نفوذ الحداربة في المدينة؟.

وقد شهِد ميناء عيذاب نشاطاً ملحوظاً عندما تحولت أغلب طرق التجارة وطرق الحج البرية عبر سينا إلى عيذاب بسبب تهديد الصليبيين في الشام لسلامة تلك الطرق، وظل

---

[1]. المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ص51.

[2]. الإدريسي، مرجع سابق، ص 135.

[3]. ابن بطوطة، تحفة النظار، مرجع سابق، ص 254.

[4]. أحمد الياس حسين، الوعي بالذات وتأصيل الهوية، مرجع سابق، ص197-198.

الحال كذلك إلى منتصف القرن السابع الهجري (الـ13 الميلادي)، ويمثّل ذلك العصر الذهبي لنشاط ميناء عيذاب.

وبدأ ذلك النشاط في الضمور عندما أعيد نشاط الطريق البري عبر سيناء بين مصر والحجاز في بداية عصر المماليك، وعلّق المقريزي أثر ذلك على نشاط ميناء عيذاب قائلاً: «وكانت من أعظم مراسي الدنيا بسبب مراكب الهند واليمن، تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة. فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن إليها، وصارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن، إلى أن كانت أعوام بضع وعشرين وثمانمائة -العقد الثالث من القرن الخامس عشر الميلادي نحو 1422م- صارت جدة أعظم مراسي الدنيا، وكذلك هرمز فإنها مرسى جليل»[1].

وقد قل سلوك طريق الحج البحري عبر عيذاب -كما يقول المقريزي- منذ عام (666هـ/1267م) عندما أخرج الظاهر ركن الدين بيبرس «من البر سنة ست وستين وستمائة - 1267م»، ومن المعروف أن الصليبيين كانوا يهدّدون طريق الحج البري عبر سيناء قبل هذا التاريخ، ويزال ذلك التهديد بعد الهزائم التي منوا بها منذ عصر الدولة الأيوبية. ويواصل المقريزي قائلاً: «واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة - 1364م».[2]

وهكذا فقدت عيذاب مكانتها كميناء مهم، بعد تطور نشاط ميناء عدن، وازدهار دور ميناء جدة في النصف الأول من القرن التاسع الهجري (الـ15 الميلادي)، وانتقل نشاطها إلى ميناء سواكن.

- **سواكن**

يلاحظ عدم اهتمام المصادر العربية المبكرة بمدينة سواكن، مثل اهتمامها بباقي جزر وموانئ المنطقة، مثل، دهلَك، وباضع، وعيذاب. ربما لأن تلك الموانئ كانت أكثر نشاطاً في القرون الهجرية المبكرة. ومن ناحية أخرى ربما لم يقُم المسلمون صِلات قوية مبكرة مع الممالك المسيحية في السودان عبر ميناء سواكن، لأن صلاتهم التجارية والسياسية تمت عن طريق البر عبر أسوان. وقد وضّح القلقشندي أن سواكن بلد الحدارية فذكر: «أن صاحبها الآن من العرب المعروفين بالحداربة.. ويقال في تعريفه الحدربي».

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، ص 309.

[2]. المرجع نفسه.

وقد ورد ذكر سواكن في مصادر القرن (4هـ/10م) كما عند الهمداني□ وابن حوقل□ باعتبارها إحدى مدن البحر الأحمر. ويلاحظ سكوت المصادر العربية عن ذكر مدينة سواكن منذ القرن الرابع الهجري وحتى بداية القرن السابع الهجري (الـ13 الميلادي). وقد نقل صالح ضرار□ نصّاً نسبه إلى المسعودي. ولا يوجد ذلك النص في كتب المسعودي المنشورة، وهي: (مروج الذهب)، و(أخبار الزمان)، و(التنبيه والأشراف). وفي واقع الأمر فإن هذا النص ذكره المقريزي.□ وقد ذكر ضرار هذا النص بعد نصٍ آخر نقله من المسعودي، فربما ظن محمد صالح ضرار أنه تابع لنص المسعودي الذي نقله.

وفي القرن السابع الهجري، وصف ياقوت الحموي مدينة سواكن بأنها: «بلد مشهور على ساحل بحر الجار [البحر الأحمر] قرب عَيذاب ترفأ إليها سفُن الذين يقدمون من جُدة وأهلها بجاة سُود نصارى».□

وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري أغار المماليك على مدينة سواكن، وبدأت أخبارها تظهر في المصادر العربية. فتحدّث ابن سعيد عن نشاطها التجاري، ثم وصفتها المصادر العربية بأنها جزيرة صغيرة «أقل من ميل في ميل وبينها وبين البحر الحبشي [البحر الأحمر] بحر قصير يخاض».□

وقال عنها ابن بطوطة: «لا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهي جزيرة كبيرة، وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش، والمعزى عندهم كثير، والألبان والسمن ومنها يجلب إلى مكة، وحبوبهم الجرجور، وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضاً إلى مكة».□ كما ذكر ابن بطوطة أن جزيرة سواكن على نحو ستة أميال من البر، ولا يتفق ذلك مع ما تواتر عن موقعها في المصادر العربية.

□. الهمداني، الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، (موقع الوراق)، ج1 ص22.

□. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص60-62.

□. ضرار صالح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، مرجع سابق. ص22.

□. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، ص295.

□. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، في: مسعد: المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص164.

□. ابن سعيد، الجغرافيا، مرجع سابق، ج1 ص22.

□. ابن بطوطة، تحفة النظار، مرجع سابق، ص 255.

ساهمت سواكن -إلى جانب موانئ البحر الاحمر الأخرى، مثل، عدن، وجدة، وعيذاب- بدور بارز في ربط الطرق البحرية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، وتزويدها بسلع أفريقيا الداخلية، إلى جانب ما تمتّعت به مناطق البجة من سلع مهمة لتجارة المنطقة، مثل، المعادن والإبل. كما ارتبطت سواكن أيضاً بالطرق الداخلية المتجهة إلى الشمال نحو القاهرة، وإلى مراكز النيل، مثل، قوص، وأسوان، وأبو حمد، وإلى الجنوب الغربي نحو كسلا.

أدى كل ذلك إلى بروز دور سواكن التجاري، وبخاصة في عصر المماليك، الذين ازداد اهتمامهم بتجارة المحيط الهندي، لذلك سعوا إلى استتباب الأمن في تلك المناطق على الطرق البرية أو البحرية، والمعاملة الكريمة للتجار، وبخاصة تجار الكارم كما ذكر العيني في كتابه. ذكر ابن بطوطة أن جزيرة سواكن على نحو ستة أميال من البر،[] ولا يتفق ذلك مع ما تواتر عن موقعها في المصادر العربية.

وذكر ابن فضل الله العمري: «وجزيرة سواكن ليس بها مملكة مشهورة، ولا متاجر مذكورة، وكل أهلها مسلمون قائمون بالإسلام، وتجلب منها إلى مصر أغنام حسان يُقتنى بها للفرجة لا للأكل والنتاج.. وأما سواكن ففيها الشريف زيد بن أبي نمي الحسني، وهو في طاعة صاحب مصر».[] ولا تبدو معلومات ابن فضل الله العمري عن نشاط مدينة سواكن التجاري متّسقة مع ما تواتر عن ازدهار ذلك النشاط منذ بداية عصر المماليك.

وقد أورد السخاوي في أماكن متفرّقة من كتابه الكثير من المعلومات عن التجار في مدينة سواكن، واتضح أن أولئك التجار لم ينحصروا فقط في الاشتغال بمهنتهم، بل كانوا يساهمون في المناشط الأخرى. وكان بين أولئك التجار شخصيات اشتهرت لمكانتها العلمية في مدارس العالم الإسلامية الكبرى في مكة، والقاهرة، ودمشق. وقد زار بعضهم سواكن من أجل التجارة، واستقر فيها لبعض الوقت، ومكث بعضهم لسنوات طويلة، وتزوج وأنجب في سواكن، بل وتوفي بعضهم ودفن بها. ولم ينحصر نشاط أولئك العلماء في مدينة سواكن فقط، بل امتد إلى مناطق الداخل.[]

[]. المرجع نفسه.

[]. العمري، مسالك الأبصار، مرجع سابق، ص245

[]. السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع، (موقع الوراق)، انظر على سبيل المثال: ج 2 ص 413، ج 4 ص 129.

وعن سكان سواكن ومنطقتها، ذكر كل من النويري (ت 732هـ/1332م)،[1] والمقريزي،[2] أن أهل سواكن «طائفة من البجة تسمّى الخاسة وهم مسلمون». بينما ذكر ياقوت الحموي (626هـ/ 1229م)، أن أهلها بجاة سُود نصارى، ولم يوضح انتماءهم القبلي.[3]

ويوصف البجة عادة بأنهم (سودان) أي سود البشرة، كما وصفهم ياقوت، غير أن القلقشندي جعلهم «أصفى السودان لوناً».[4] وقد وصلت المسيحية إلى سواحل البحر الأحمر قبل دخول المسلمين مصر، بينما اتصل المسلمون بسواكن قبل القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي).

وقد جعل النويري والمقريزي الخاسة سكّان سواكن، ووضعهم ابن سعيد على البحر الأحمر، لكنه لم يحدّد مكانهم. أما القلقشندي فقد جعل الحدارية سكّان سواكن ولم يشر إلى الخاسة. والخاسة من القبائل الكبيرة والقديمة في المنطقة، فقد ذكرهم عيزانا في نقشه في القرن الرابع الميلادي، والذي ورد فيه أنه ذهب لحرب النوبة الذين أغاروا على عدد من القبائل، من ضمنهم قبيلة الخاسة. وحدّد ابن حوقل مواطن الخاسة بما بين خور بَرَكَة وسواحل البحر الأحمر، وذكر أنهم «بطون كثيرة في السهل والجبل»[5].

وذهب الدمشقي إلى أن الخاسة يعيشون إلى جوار الحدارية، وقسّمهم إلى قسمين: «خاسة السفلى كفار، وخاسة العليا مسلمون، وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء. وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسكنون المدن».[6] وقد يؤيد معلوماته ما ذكره ابن حوقل من انتشار القبيلة الواسع ما بين خور بَرَكَة والبحر الأحمر.

كما ربط ابن حوقل قبيلتين أخريين هما (برقابات وحنديبا) بسواكن، فقال عنهما: «وتحاذي سواكن برقابات وحنديبا، وهم خفراء على الحدربية، وخفارتهم لعبدك، وهم تحت يده، وعبدك خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاقي. وبعض هؤلاء القوم

---

1. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب في فنون الأدب، (موقع الوراق)، ج1 ص66.
2. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، ص 295.
3. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مرجع سابق، ص164.
4. القلقشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ج2 ص282.
5. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 74.
6. الدمشقي، نخبة الدهر، مرجع سابق، ص 237.

في خفارة كوك خال أبي القاسم حسين بن علي بن بشر، وعبدك وكوك رئيسا الحدارب أجمع».[1]

ولم يمدنا ابن حوقل بأكثر مما ورد في النص من الإشارة إلى موطنهم الذي هو بمحاذاة سواكن. ولم يتضح هل يتصلون بسواكن أم يعيشون بجوارها. وورد في النص أنهم خفراء على الحداربة، ولم يرد عن القبيلتين أي ذكر في المصادر العربية بهذين الاسمين (برقابات وحنديبا). وورد في (لسان العرب) أن «الخفير هو المجير، وخفير القوم مجيرهم الذي يكونون في ضمانه ما داموا في بلاده، وهو خفير يخفر القوم حفارة، والخفارة الذمة»[2].

وللمزيد من توضيح مفهوم الخفارة التي تعني الجوار، نورد ما ذكره ابن سعيد المغربي القرن (7هـ/13م) عن قبيلة هوارة البربرية (الأمازيغية)، حيث قال عن سكّان مدينة مسراتة (في ليبيا الحالية): «وأهلها من هوارة تحت خفارة دياب»، ودياب بطن من قبيلة بني هلال، الذين سيطروا على هذه المناطق، وزحزحوا القبائل المحلية قبل عصر ابن سعيد بقرنين من الزمان. وأضاف ابن سعيد في الموضع نفسه عند حديثه عن طلميثة، وهي أيضاً مدينة على الساحل الليبي: «وبها قصر فيه اليهود الذين تحت خفارة العرب»[3].

وإذا كانت قبيلتا برقابات وحنديبا خفراء على الحدرابة، فيعني ذلك أنهم كانوا يمثلون مركز القوة في المنطقة، وأن الحداربة كانوا تحت حمايتهم. وهذا يتعارض مع ما ذكرته المصادر بما فيها كتاب ابن حوقل نفسه من أن قبيلة الحداربة أكبر وأقوى قبيلة في المنطقة، ولم يرد أي ذكر لهاتين القبيلتين في المصادر الأخرى وبخاصة اليعقوبي - الذي كتب في القرن الثالث - الذي فصّل الكتابة في تاريخ قبائل وممالك المنطقة.

غير أن الزبيدي نقل رأياً آخر، وسّع في معنى الخفارة -رغم تحفُّظه في قبول هذا المعنى- وجعلها تطلق على المُجير والمُجار، فقال: «يقال فُلانٌ خَفيري أي الّذي أُجيرُه، وهو أيضاً المُجير، فكُلُّ وَاحد منْهُمَا خَفيرٌ لصَاحبه.. والخَفَارَةُ: الذِّمَّة كالخُفَرَة كهُمَزة، وهذا خُفَرَتي، وهو بمَعْنَى المُجير فَقَط، ولا يُطْلَق على المُجارِ ففي كلام المصنف إِيهامٌ».[4]

وأرى أن ابن حوقل استخدم لفظ الخفارة بهذا المعنى. وبذلك تكون قبيلتا بلاقابات

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق.

[2]. ابن منظور الأفريقي؛ محمد بن مكرم، لسان العرب، (موقع الوراق)، مادة (خ ف ر).

[3]. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، مرجع سابق.

[4]. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (موقع الوراق)، ماة (خ ف ر).

وحنديبا كانتا تحت خفارة الحدارية، أي تحت ضمانهم وحمايتهم. ويؤيد هذا الرأي ما ورد في نهاية النص من أن «بعض هؤلاء القوم [القبيلتان] في خفارة كوك [الحدربي]».

ظل ميناء سواكن يساهم بنشاطه التجاري إلى جانب ميناء عيذاب، إلى أن بدأ دور عيذاب في التدهور منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، فبدأ نشاط ميناء سواكن في الازدهار، وبدأت تحل محل عيذاب في استقبال تجارة البحر الأحمر منذ العام (بضع وعشرين وثمانمائة للهجرة/ 1422م).

وزاد من تدهور الأوضاع قلة العمل في مناطق الذهب، وتوقّف العمل في استخراج الزمرد في منتصف القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي)، ووضّح المقريزي -في مكان آخر- نهاية النشاط التجاري عبر طريق عيذاب قوص (بعد سنة ستين وسبعمائة).[1]

- **مدينة بخنة**

وربما كانت من مدن الحدارية أيضاً مدينة بختة. وقد تردد اسم مدينة (بختة) المشهورة بالجمال البختية كثيراً في المصادر العربية. ذكر الإدريسي مدينة بُختَة من بين مدن البجة، ووصفها بأنها قرية مسكونة، وأن بها سوقاً صغيرة، وحولها قوم ينتجون الجمال، ومنها معايشهم، وهي أكثر مكاسبهم، وإلى هذه القرية تنسب الجمال البختية، وليس يوجد على وجه الأرض جمال أحسن منها، ولا أصبر على السير، ولا أسرع خُطىً، وهي بديار مصر معروفة بذلك».[2]

وتبدو جِمال البجة من هذا الوصف أجود من غيرها من الجِمال التي عرفت بالبخت، مثل التى كانت تأتي من مدينة بلخ، والتي ذكر الإصطخري أنها «المقدمة على سائر البخت بالنواحي».[3] وقد ورد ذكر مدينة بخت عند كل من ابن سعيد والحميري، غير أن اسم المدينة ورد عند ابن سعيد (نجبة)، وذكر أن الجِمال النجبية تنسب إليها.

ويبدو أنه حدث خطأ في نقل الاسم عند ابن سعيد، فالجِمال توصف بالبختية وليس النجبية. ولم تتعرّض المصادر الأخرى لهذه المدينة. وقد نقل الحميري بالنص من الإدريسي، لكن ابن سعيد اعتمد على معلومات جغرافي اسمه ابن فاطمة (ت 362هـ) تجول في مناطق

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سابق، ص 309.

[2]. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص134.

[3]. الإصطخري، إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك (موقع الوراق)، ج1 ص95.

إفريقيا جنوب الصحراء، لكن كتابه المعنون (ممالك إفريقيا ومسالكها) مفقود. ولم يحدّد الإدريسي مكان مدينة بختة، وجعلها ابن سعيد على خط عرض 12 وخط طول 65.[1]

ومواقع خطوط العرض في الجغرافية العربية المبكرة لا يختلف كثيراً عن مواقع خطوط العرض الحالية، فخط الاستواء في الجغرافيا العربية يقع إلى الجنوب قليلاً من خط الاستواء الحالي. أما خطوط الطول التي تحسب حالياً من خط غرنتش، الذي يمر بمدينة لندن، فقد كانت تحسب في الجغرافيا العربية من جزر الكناري الواقعة في المحيط الأطلسي بالقرب من الساحل المغربي.

وعلى كل حال فإن خط طول 65 عند ابن سعيد يقع غرب البحر الأحمر، وخط عرض 22 عنده يقع إلى الجنوب من خط عرض 22 الحالي، والذي يمر بمنطقة وادي حلفا. وبناءً عليه يمكن وضع مدينة بختة في الجزء الشمالي من خور بَرَكَة. وهذا الافتراض لموقع المدينة يجعلها قريبة من الموقع المفترض لمدينة هجر، وتحديد هذه المناطق يتطلّب تضافر جهود المؤسسات الأكاديمية التاريخية والآثارية.

- مدينة صنجة

وقد ورد اسم مدينة أخرى ارتبط اسمها أيضاً بالحداربة وهي مدينة (صنجة). فقد ذكر الطبري أثناء تناوله حملة القمي على البجة عام 241هـ بأن «المؤن أتت إلى القمي عن طريق البحر»[2] إلى ساحل من سواحل البحر يعرف بـ(صنجة). بينما جاءت في كتاب ابن سليم (صيحة)، وقد اتضح مما ذكرته المصادر المبكرة مثل مؤلفات اليعقوبي، والمسعودي، وابن حوقل أن البجة الذين يقطنون أرض المعدن، والذين اتصلوا بالميلميين، واختلطوا بهم هم الحداربة. فـ(صنجة) أو (صيحة) والتي تقع على ساحل البحر الأحمر تكون من مدن الحداربة.

قبيلة البليين

ورد ذكر البليين عند الإدريسي (ت 560هـ/ 1165م)، وبعد ثلاثة قرون ردّد ابن الوردي (ت 861هـ/ 1457م) بعض ما ذكره الإدريسي عنهم. فقد ورد عنهم ما يلي:

---

[1]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مرجع سابق، ج 1 ص 22.

[2]. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، 38.

أورد الإدريسي نصين عن البيليين، أحدهما عند الحديث عن مدينة أسوان جاء فيه:

1. «وربما أغار على أطرافها خيل السودان، المسمُّون بالبليين. ويزعمون أنهم روم، وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط، وقبل ظهور الإسلام، غير أنهم خوارج في النصارى يعاقبة، وهم متنقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة، ويتصلون ببلاد النوبة، وهم رحَّالة ينتقلون ولا يقيمون بمكان، مثل مما تفعله لمتونة الصحراء الذين هم بالمغرب الأقصى».
2. والنص الثاني الذي أورده الإدريسي عن البليين جاء فيه: «وبين أرض النوبة وأرض البجة، قوم رحَّالة يقال لهم البَلِيّون، ولهم صرامة وعزم، وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم، ويخافون ضرهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية، وكذلك جميع أهل بلاد النوبة والحبشة. وأكثر أهل البجة نصارى خوارج على مذهب اليعاقبة كما قدمنا ذكره».

أما نص ابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب)، عند حديثه عن ميناء عيذاب فقد جاء كما يلي:

3. «وبين البجة وبين النوبة، قوم يقال لهم البليون أهل عزم وشجاعة، يهابهم كل من حولهم من الأمم ويهادنونهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية»[1].

فالنصوص حددت مكان البليين، ووضَّحت بعض صفاتهم كما يلي:

- 1. تحديد المكان:

حدد الإدريسي في نص رقم 1 منطقة البليين، بأنها بين أرض النوبة وأرض البجة، وهي الحدود نفسها التي ذكرها ابن الوردي في النص رقم 3. ولمَّا تناول ابن الوردي البليين عند الحديث عن ميناء عيذاب على البحر الأحمر، فإن ذلك قد يدل أن امتداد حدود البليين شرقاً ليصل إلى ميناء عيذاب. ووضح نص الإدريسي رقم 2 أن امتداد مناطق البليين غرباً يصل إلى حدود مدينة أسوان، حيث يغيرون على أطرافها. وبناءً عليه فإن هذه النصوص قد حددت منطقة البليين ما بين أسوان غرباً، وعيذاب على البحر الأحمر شرقاً، وتمتد جنوباً حتى حدود الحبشة.

[1]. ابن الوردي، خريدة العجائب، مرجع سابق، ص 374.

▪ 2. أوصاف البليين:

1.2. وصف الإدريسي البليين في النص رقم 2 بأنهم رحّالة، ووضح (النص رقم 1) أماكن تجوالهم، بأنها بين أرض البجة، والحبشة، والنوبة. ويدل ذلك على أن مناطق تجوالهم واسعة، ولا بد أنهم يشاركون غيرهم من قبائل المنطقة التجول في تلك الأراضي. وقد وصف الإدريسي تجوالهم هذا مثل تجوال قبائل لمتونة (الصنهاجية نص رقم 1)، والتي كانت تتجول في المنطقة الصحراوية الواسعة بين جنوب المغرب الأقصى شمالاً، وحتى مناطق نهر السنغال جنوباً.

ولمتونة قبيلة كبيرة قامت على أكتافها دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري (الـ11 الميلادي). والإدريسي الذي عاش بين صقلية والأندلس والمغرب العربي كان على علم ودراية بحجم وقوة قبيلة لمتونة الصحراوية، ووصفه للبليميين بقبيلة لمتونة يشير إلى حجم وقوة قبيلة البليين في الصحراء الواقعة ما بين مصر، والنوبة، والحبشة.

2.2. كانت قبيلة البليين كبيرة وقوية، وذات وجود مؤثر في المنطقة، فقد اتفق الإدريسي وابن الوردي (النصان 2 و3) على وصف البليين بالقوة والشجاعة، ووضّحا كيف أن القبائل الأخرى المتصلة بهم في المنطقة تهابهم. وتشير النصوص إلى العلاقة التي كانت قائمة بين القبائل في المنطقة، فرغم المنافسة الطبيعية بين القبائل البدوية على أماكن المياه والكلأ، إلا أن علاقة البليين بجيرانهم كانت تتسم أيضاً بالطيبة وحسن الجوار، ويدل على ذلك الهدايا التي كانت تصلهم من جيرانهم، ولا بد أنهم كانوا أيضاً يهادونهم.

3.2. وقد أشارت النصوص إلى جيران البليين الذين يهابونهم ويرسلون إليهم الهدايا بـ«من حولهم من الأمم»، (النصان 2 و3). والأمم هنا هم النوبة، والحبش، والمسلمين في جنوب مصر، والذين يصل إليهم البليون في تجوالهم كما ورد في النص. ويفهم من ذلك أن العلاقات بين البليين وبين تلك الدول كانت على درجة قوية من الصلات، ودرجة متقدمة من التنظيم. وفي واقع الأمر هنالك الكثير من الإشارات في المصادر العربية وضّحت نضج التنظيمات السياسية والادارية لقبائل المنطقة، مثل، ممالك البجة التي ذكرها اليعقوبي، والتنظيمات القبلية التي أشار إليها المسعودي وابن حوقل.

4ـ2. ولا يقتصر تنظيم علاقة البليين مع الأمم المجاورة لها فقط، فلا بد وأن تنتظم علاقاتها مع غيرها من قبائل البجة وممالكهم التي وردت الإشارات إليها في المصادر العربية، مما يوضح أن المناطق الواقعة بين مملكة المقرة غرباً، والبحر الأحمر شرقاً، وبين مملكة علوة والحبشة جنوباً، والمسلمين في مصر شمالاً، قد كانت في القرون الكثيرة السابقة لقيام سلطنة الفونج مأهولة بالسكان، وشهدت قيام أنظمة سياسية وإدارات قبلية مستقرة.

5ـ2. ووضح النص رقم 1 أن وجود البليين في المنطقة يرجع إلى الفترة السابقة لدخول الإسلام مصر في القرن السابع الميلادي، وأنهم اعتنقوا المسيحية على مذهب اليعاقبة، مثل، ممالك النوبة المسيحية، والذي تم في منتصف القرن السادس الميلادي.

6ـ2. ربط النص رقم 1 البليين بالروم. ومن المعروف أن الروم مقصود بهم البيزنطيين الذين كانوا يحكمون مصر قبل الإسلام.

7ـ2 كما وضح النص رقم 1 أن البليين أصحاب خيل يغيرون بها على جيرانهم. فالبليون كانوا في القرن الثاني عشر الميلادي -عصر الإدريسي- قبيلة بدوية قوية وكبيرة، تتجوّل في منطقة واسعة ما بين حدود أسوان، والحبشة، والبحر الأحمر. ويبدو البليون ذوي قوة ونفوذ في المنطقة، وعلاقات مع جيرانهم في الشمال والجنوب.

- **فمن هم البليون؟**

تعدّدت وجهات نظر الباحثين والرحّالة في التعرف عليهم، وفيما يلي بعض تلك الآراء:

1. يميل البعض، مثل، كراوفورد، وروسيني، إلى ربط بليي الإدريسي ببليي كرن[1].
2. كما ربط كيروان بين بليي الإدريسي، وبين البليميين[2].
3. رأى مصطفى مسعد أن بليي الإدريسي هم البليميون.[3]

يقول كراوفورد إن بلين هو الاسم الذي يطلقه الباقوس Bagos في منطقة كرن على أنفسهم. ويرى روسيني أن وجود البليين في هذه المناطق قد يرجع إلى القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي، وأنهم بالتأكيد كانوا في شمال إثيوبيا في القرن الرابع عشر الميلادي،

---

[1]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، p 109.

[2]. Ibid.

[3]. مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 131، حاشية رقم 1.

ولذلك افترض أنهم بليي الإدريسي، وقد اتضح مما ذكره الإدريسي أن تجوالهم كان يمتد حتى حدود الحبشة.

أما كيروان، ومسعد، فيريان أن بليي الإدريسي هم البليون. والبليميون هم فرع قديم من فروع قبائل البجة. وقد وضحت الأدلة الآثارية مثل نقش كلابشة المروي، والوثائق التي جمعت عن منطقة شمال السودان، ما بين القرنين الثامن قبل الميلاد، وحتى القرن السادس الميلادي، ونشرتها جامعة بيرغن، ووثائق الجبلين المنشورة في كتاب مصطفى محمد مسعد (الإسلام والنوبة في العصور الوسطى)، في الملحق رقم 3. أرجعت كل تلك الوثائق وغيرها من المصادر الكلاسيكية وجود البليميين إلى القرون السابقة للميلاد في المنطقة الواقعة جنوب أسوان، كما أمدتنا ببعض المعلومات عنهم، حتى القرن السادس الميلادي. وقد سبق الحديث عنهم في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وإذا قبلنا الرأي الذي يقول إن بليين الإدريسي هم البليميون -وأرى أنه رأي مقبول- نتقدّم خطوة أخرى لرؤية الأراء التي ربطت البليميين بالبلو، فقد تم الربط بين البلو وبين الكثير من القبائل والمناطق في بلاد البجة، وسنتعرض لذلك عند الحديث عن البلو.

ومن الملاحظ أن المصادر العربية لم تتعرّض لذكر البليميين، ما عدا الإدريسي وابن الوردي، فلماذا لم تتعرّض المصادر للبليميين ذوي الثقل الواضح في صعيد مصر قبل أن يدخله المسلمون؟. لا شك أن الأمر يحتاج إلى المزيد من العناية والبحث، خاصة أن المصادر العربية لا تمدّنا بمعلومات وافية عن فتوحات وحروب المسلمين المبكرة في عصري عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السرح في صعيد مصر، كما فصّلت عن الحروب في الوجه البحري. المؤلف الوحيد الذي أورد تلك المعلومات هو الواقدي، الذي يسيطر طابع الملاحم وعدم الدقة فيما كتبه عن تلك الحروب.

غير أن إفراد ولاية خاصة لصعيد مصر منفصلة عن ولاية عمرو بن العاص، تولاها عبد الله بن سعد بن أبي السرح في الخمس سنوات الأولى من دخول المسلمين، يوضح أن الأحداث في الصعيد قد تطلّبت تلك الإدارة المنفصلة. ولكن سكوت المصادر العربية عن تلك الأحداث يتطلّب أيضاً المزيد من العناية والبحث. والمعلومات القليلة الواردة هنا وهناك في المصادر تحدثت عن البجة في الفترة المبكرة. فابن حوقل، مثلاً، يقول: «فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لمّا فتح مدينة أسوان، وكانت مدينة أزلية قديمة، وكان عبر إليها من الحجاز، وقهر جميع من كان بالصعيد، وبها من فراعنة البجة وغيرهم» تؤكّد

مثل هذه المعلومات وجود البجة في صعيد مصر، ومشاركتهم أهل الصعيد في حروبهم ضد المسلمين.

ومرة أخرى نتساءل: لماذا سكت الكتّاب الذين تناولوا المنطقة عن ذكر البليميين، مثل اليعقوبي، وهو أول من أورد معلومات مفصّلة عن قبائل البجة وممالكهم في القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، وابن حوقل في القرن الرابع الهجري، هو الذي زار المناطق الشرقية من أرض البجة، وكتب معلومات كثيرة عن قبائلهم، وكذلك المسعودي في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، والذي استقر في مصر بعض الوقت، وكذلك فيما نُقل عن ابن سليم الأسواني، الذي زار مملكة المقرة في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)؟.

يبدو معقولاً أن المصادر قد أشارت إلى البليين، ولكن تحت أسماء أخرى. فالمصادر تذكر أحياناً اسم البجة لوصف كل القبائل بصورة عامة دون التعرُّض لأسمائهم. فابن سليم مثلاً يقول: «والبجة الداخلة.. حالهم في الظعن والمواشي و.. كحال الحدارية».[1]

وقد أشار ابن حوقل إلى البجة عندما تحدّث عن حروب عبد الله بن سعد في منطقة أسوان، فقال: «قهر جميع من كان بالصعيد، وبها من فراعنة البجة وغيرهم».[2] ويبدو معقولاً أن يكون المقصود بهم البليميون. وهنالك احتمال آخر يبدو معقولاً جداً، وهو أن تلك المصادر تناولت هذه القبيلة، ولكن تحت اسم آخر. فالمنطقة التي تحتلها قبائل البجة الحالية، كانت ذات ثقل سكاني واضح، وقبائل متعدّدة كما سيتّضح فيما يلي.

- **خاتمة:**

عرَّفت المصادر بسكّان السودان منذ القرن العشرين قبل الميلاد، أي منذ ما يزيد قليلاً على الأربعة آلاف سنة. واتضح التداخل والصلة العرقية بين سكّان ما بين البحر الأحمر شرقاً، ومناطق درافور غرباً، وبين منطقة حلفا شمالاً، ومناطقة السدود جنوباً. وهؤلاء السكّان يمثلون جزءاً من السكّان الأصليين للقارة الأفريقية، لم يهاجروا إليها من الخارج، بل تكونوا نتيجة التفاعل الطبيعي بين المناطق الغنية بالموارد المائية المتمثّلة في النيل، وبين المناطق ذات الموارد المائية القليلة المتمثلة في الصحراء غربي النيل.

---

[1]. ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 113.

[2]. ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م، ص 55.

قبيلة الزنافجة

الزنافجة من قبائل البجة، التي لم ورد عنها قليل من المعلومات. فقد جاء ذكرها عند اليعقوبي، وابن سليم، والدمشقي، والمقريزي. ويمكن تقسيم النصوص التي وردت عنها إلى مجموعتين: الأولى عند اليعقوبي والدمشقي، والثانية عند ابن سليم والمقريزي. قال اليعقوبي: «ومن العلاقي إلى أرض البجة، الذين يقال لهم الزنافجة، خمس وعشرون مرحلة. والمدينة التي يسكنها ملك الزنافجة يقال لها بقلين. وربما صار المسلمون إليها للتجارات، ومذهبهم مثل مذهب الحدارية، وليست لهم شريعة، إنما كانوا يعبدون صنماً يسمونه ححاخوا».[]

جعل اليعقوبي في نهاية القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي) موطن الزنافجة على بعد خمس وعشرين مرحلة من العلاقي، وهي المسافة نفسها التي قدرها لموطن قبيلتي الحدارية والكدبيين، رغم أنه لم يذكر أن الزنافجة والحدارية يعيشون سوياً، كما ورد عند ابن سليم والمقريزي. ووضع اليعقوبى الزنافج مع سبع قبائل أخرى، بما فيهم الحدارية في مملكة نقيس -المملكة الأولى من ممالك البجة- المجاورة للمسلمين وعاصمتها هجر.[]

وقد كان الحدارية حكاماً لمملكة نقيس، كما يفهم من نصوص المصادر العربية، وقد تعرّضنا لذلك عند حديثنا عن قبيلة الحدارية. لكن اليعقوبي وضّح أن للزنافجة مملكتهم وعاصمتهم الخاصة بهم، وهي مدينة بقلين. وجعل موقع كِلتا المملكتين على بُعْد واحد من وادي العلاقي.

فهل يا ترى حدث خطأ في نقل المسافة -في النص أعلاه- بين وادي العلاقي وموطن الزنافجة؟، وكيف أعاد اليعقوبي -في النص الثاني- وجود الزنافجة في مملكة نقيس؟. لم تسعفنا المصادر العربية بمعلومات تساعد على توضيح ذلك. والنص الوحيد الذي تعرّض لذلك هو نص الدمشقى الذي أكّد وجود مملكة للزنافجة إلى جانب مملكة الحدارية حيث قال: «البجة وهم صنفان: حدارية، وملكهم يسكن هجر، والزنافجة وملكهم يسكن مدينة تقلين».[] ويبدو اختلاف بسيط في اسم المدينة بتغيير حرف الباء عند اليعقوبي بحرف التاء عند الدمشقي، لكن يبدو أن كلا المؤرخين يرجعان إلى المدينة نفسها. ولا يبدو أن

[]. اليعقوبي، البلدان، مرجع سابق، ص19-20

[]. المرجع السابق.

[]. الدمشقي، نخبة الدهر، مرجع سابق، ص 236.

الدمشقي اعتمد في معلوماته على اليعقوبي، لأن المادة التي أوردها عن الزنافجة لا تتطابق مع ما ورد عند اليعقوبي.

وقد نجد بعض المساعدة أيضاً عند اليعقوبي نفسه في إلقاء المزيد من الضوء على هذا الإشكال. فقد ذكر اليعقوبي أن المملكة الثانية من ممالك البجة يقال لها (بقلين)، فتأكد وجود بقلين كمملكة مستقلة عند اليعقوبي،[1] وعند الدمشقي. وكما هو واضح عند كليهما أن بقلين هي مدينة الزنافجة. فإن الزنافجة إذاً مملكة مستقلة عن مملكة الحداربة، ويفهم من ترتيب ممالك البجة عند اليعقوبي أن المملكة الثانية -مملكة الزنافجة- في بقلين تجاور المملكة الأولى؛ نقيس.

ولا يستبعد أن يكون هنالك جزء من الزنافجة يعيشون في مملكة نقيس، خاصة أن اليعقوبي ذكر أن مملكة بقلين «كثيرة المدن واسعة»، ويرى كراوفورد أن مملكة بقلين يمكن تحديد موقعها بالقرب من الساحل في المكان المعروف اليوم بـBacla والتي ظهرت على خريطة Almeida عام 1662م باسم Baghela، كما ظهرت في خط رحلة Zorzi في القرن السادس عشر على بعد خمسة عشر يوماً جنوب سواكن. ويضيف كراوفورد أن اسم بقلا قد تردد كثيراً في المنطقة الواقعه شمال وغرب كرن، ولذلك لم يتردّد في جعل موقع مملكة بقلين بالقرب من الساحل في تلك المواضع، خاصة أنه وضع مدينة هجر عاصمة الحداربة شمال تلك المناطق. ويلاحظ أن كراوفورد يضع معظم مواطن البجة ما بين الساحل وخور بَرَكَة.[2]

وأرى أن موقع مملكة بقلين ربما كان إلى الغرب والشمال من المناطق التي ذكرها كراوفورد، أولاً لأنه ذَكَر اسم هضبة تقع إلى الغرب من كرن، تحمل الأسماء نفسها التي تردّدت في المنطقة الواقعة شرقي كرن، وذكر أن الاسم في الأصل ربما رجع إلى اسم لتلك المنطقة. وثانياً ليس هنالك ما يمنع امتداد المنطقة غرباً إلى ما بعد خور بَرَكَة. وكانت تلك المناطق كما اتضح من وصف المصادر العربية، تتمتع بوفرة مصادر المياه والمراعي والمزارع، مما يجعلها مواطن استقرار لقبائل البجة.

وإلى جانب ذلك فإن كثيراً من سكان مناطق غربي خور بَرَكَة قد بدأوا ينزحون شرقاً منذ القرن الرابع عشر الميلادي لأسباب سياسية وطبيعية. فأغلب الظن أن مملكة الزنافجة

---

[1]. اليعقوبي، البلدان، مرجع سابق، ص 15.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 103-104.

-بقلين- كانت تمتد في المناطق الوسطى من خور بَرَكَة، وفي شماله وشرقه.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي) أورد ابن سليم معلومات عن الزنافجة، تختلف عما ورد عند اليعقوبي. ذكر ابن سليم نصين عن الزنافجة، ربط في أحدهما بين الحدارية والزنافجة؛ ولم يجعل لهم كياناً مستقلاً، بل جعلهم تابعين للحداربة، حيث ذكر عند حديثه عن البجة: «ومنهم جنس آخر يعرفون بالزنافج، هم أكثر عدداً من الحدارب، غير أنهم تبع لهم وخفراؤهم، يجبونهم ويحلبونهم المواشي، ولكل رئيس من الحدارب، قوم من الزنافج في حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الزنافج قديماً أظهر عليهم».[1]

وقد نقل المقريزي نص ابن سليم هذا كما هو. وفي النص الثاني أشار ابن سليم إلى وجود الزنافجة في مكان آخر فقال: «ومن هذه الموضع [شمال بلاد علوة] طرق إلى سواكن، وباضع، ودهلَك، وجزائر البحر، ومنها عَبَر من نجا من بني أمية عند هربهم إلى النوبة، وفيها خلق من البجة يعرفون بالزنافج انتقلوا إلى النوبة قديماً، وقطنوا هناك، وهم على حدتهم في الرعي واللغة، لا يخالطون النوبة، ولا يسكنون قراهم، وعليهم والٍ من قبل النوبة».[2]

رجع النص الأول إلى الزنافجة في فترتين زمنيتين: الأولى -قديماً- حيث كان الزنافجة أقوياء «أظهر عليهم»، وربما كان الحداربة في تلك الفترة تحت سيطرة الزنافجة. والفترة الثانية، وهي التي ساد فيها الحداربة، وأصبح الزنافجة تحت سيادتهم. والنص الثاني يشير إلى وجود الزنافجة بعيداً بجوار النوبة وتحت حكمهم. وتثير هذه المعلومات الكثير من الأسئلة، مثل: متى كان زمن قوة الزنافجة؟، ومتى ضعفت قوتهم؟، وما السبب أو الأسباب التي أدت إلى ضعفهم؟، ومتى استقر الزنافجة بجوار النوبة؟، وما هي أسباب تحركهم؟، وهل تحولوا من المنطقة الشرقية نحو النيل؟، أم جاءوا من منطقة أخرى؟.

وبالطبع نفتقر إلى المعلومات التي تساعد على الإجابة عن هذه الأسئلة أو بعضها، ولكن ذلك لا يمنع من محاولة استقراء ما توفر من معلومات، وإلقاء ما يتيسَّر من ضوء على مسألة الزنافجة. ونبدأ بمحاولة تلمُّس متى ضعُف الزنافجة، وسادت قوة الحداربة.

ربما نجد الإشارة الصريحة لقوة الحداربة فيما ذكره المسعودي في النصف الأول من القرن

---

[1]. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 105.

[2]. المرجع نفسه.

الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، حيث قال: »وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة، إلى أن قوي الإسلام وظهر، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب، وبلاد العلاة، وعلاقي، وعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب، من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا في البجة، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة».[1]

وواضح أن البجة الذين أشار إليهم المسعودي هنا هم الحداربة، الذين صاهروا ربيعة وتقوّوا بهم، وأصبحوا كما وصفهم ابن سليم «شوكة القوم ووجوههم»، فهل نربط بداية قوة الحداربة بمصاهرتهم ربيعة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري؟. وإذا قبلنا بداية ظهور قوة الحداربة بهذا التاريخ، فمن هم البجة الذين ذكرت المصادر العربية غاراتهم على المسلمين في مدن الصعيد، وعلى القاهرة، والذين حاربهم المسلمون في ثلاث مواقع كبيرة قبل مصاهرة الحداربة لربيعة؟؛ هل هم الزنافجة؟، أم قبيلة أخرى من البجة لم تذكر المصادر اسمها؟.

في واقع الأمر فإن الحداربة هي القبيلة الوحيدة التي تردّد ذكرها في المصادر العربية، وكانت على صلة بمناطق التعدين، وعلى علاقة بالمسلمين، وورد ذكر الزنافجة بدرجة أقل وملحقين بالحداربة. ولذلك فمن غير المرجَّح أن يكون الزنافجة هم القوة البجاوية التي ناهضت المسلمين قبل العمل في المعدن، وقبل ظهور قوة الحداربة. وإذا قبلنا ذلك، ربما كان الحداربة هم البجة الذين أورد الواقدي الروايات التي تقول بمشاركتهم الأقباط بجيش كبير للدفاع عن صعيد مصر.

ومن ناحية أخرى فهل نقبل ظهور الحداربة بتلك القوة فقط بعد مصاهرتهم لربيعة في الفترة الزمنية الواقعة بين تكامل العمل في التعدين نحو منتصف القرن الثالث الهجري، وبين وقت كتابة ابن سليم في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري؟، هل هذا الوقت كافٍ لنمو قوتهم وتحقيقهم كل تلك الامتيازات والسيادة؟. فرسوخ الأوضاع القبلية والطبقية -بالصورة التي ذكرها ابن سليم- تتطلّب زمناً طويلاً، وأجيالاً متعاقبة، يرسخ بين أفرادها ذلك التنظيم الطبقي، ويصير ممارسة مقبولة في الكيان الاجتماعي. لذلك فإن افتراض وجود قوة الحداربة قبل مصاهرتهم ربيعة، وأن تلك القوة ازدادت بتلك المصاهرة يبدو أيضاً مقبولاً. فيكون الحداربة كما افترضنا عند الكتابة عنهم سابقاً، هم القوة التي ناهضت المسلمين منذ قدومهم مصر. ولا يمنع ذلك من وجود الزنافجة إلى جوارهم في ذلك

[1]. المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ج2 ص18.

الوقت كقبيلة أقل قوة منهم.

وننتقل إلى نص ابن سليم الثاني لمحاولة التعرّف على الزنافجة المستقرين في منطقة النوبة. وضّح ابن سليم أنهم انتقلوا إلى النوبة [قديماً]، وأنهم رعاة، ويسكنون في قراهم الخاصة بهم، ولا يخالطون النوبة، ولا يتحدّثون لغة النوبة، بل لغتهم الخاصة، وأنهم تابعون للنوبة، عليهم والٍ من قِبَلهم.

فهل حدث ذلك عندما فقد الزنافجة قوتهم، ووقعوا تحت سيادة الحداربة، واختار بعضهم الهجرة غرباً نحو النيل؟. يبدو ذلك معقولاً وممكناً. أم هم من بقايا البجة البليميين، الذين كانوا يقطنون المنطقة قبل انتشار المسيحية واعتنقوها؟. فقد أشارت المصادر أنهم كانوا مستقرين في موقع وسط بين مملكتي نوباتيا وعلوة على الناحية الشرقية للنيل. وهذا هو المكان الذي حدد ابن سليم وجود الزنافجة فيه، لكنه لم يُشر إلى معتقدهم، بينما وضح أن الزنافجة في منطقة البجة يعبدون صنماً لهم.

ولا أعتقد أن الزنافجة في منطقة النوبة هم من البليين الذين ذكرهم الإدريسي، لأن هؤلاء كانوا أقوياء، وغير خاضعين للنوبة. ويبقى موضوع زنافجة النوبة والبليين المسيحيين في منطقة النوبة -مثل كثير من موضوعات تاريخ البجة قبل القرن الـ15 الميلادي- في حاجة إلى تضافر جهود المؤرخين، والآثاريين، وعلماء اللغات، لعدم توفُّر المعلومات في المصادر المتاحة.

وفي القرن نفسه الذي كتب فيه ابن سليم رابطاً الزنافجة بالحداربة، يطالعنا ابن حوقل ببعض المعلومات عن قبيلتين تعيشان في المنطقة نفسها قريبتي الشبه بما كتبه ابن سليم عن الزنافجة، هما: برقابات وحنديبا. يقول ابن حوقل: «وتحاذي سواكن بطون تعرف برقابات وحنديبا، وهم خفراء على الحدربية، وخفارتهم لعبدك وهم تحت يده».[1] جعل ابن حوقل برقابات وحنديبا خفراء على الحداربة، بينما جعل ابن سليم ذلك للزنافجة. وقد علّقنا عند الحديث عن قبيلة الحداربة ما يمكن أن يكون قصده ابن سليم من (الخفارة).

ويلاحظ أن ابن حوقل دخل منطقة البجة الحداربة -كما ذكرنا أعلاه- ولذلك ربما اعتبرت معلوماته أوثق من معلومات ابن سليم، الذي دخل منطقة النوبة، ولم يدخل منطقة البجة. وبما أن اليعقوبي ذكر أن مملكة بقلين (مملكة الزنافجة)، مملكة واسعة وكثيرة

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 60.

المدن، فيرجِّح ذلك أن سكانها يتكوّنون من قبائل متعدِّدة. فربما كانت قبيلتا برقابات وحنديبا من بين قبائل مملكة بقلين، أو فرعاً من قبيلة الزنافجة.

ويبدو معقولاً أن تعيش في مملكة بقلين الواسعة والكثيرة المدن قبائل متعدِّدة مستقرة ومتنقِّلة. وقد وردت في المصادر معلومات مقتضبة عن مملكة بقلين، لا تساعد في إلقاء الضوء على أوضاعها. وصف اليعقوبي سكّان مملكة بقلين بأنهم يقلعون ثناياهم، وهو الوصف الذي جعله ابن حوقل لبازين سكّان المملكة الثالثة عند اليعقوبي. وذكر اليعقوبي أن سكّان بقلين يختتنون[1]، ولم أجد هذا الوصف في المصادر العربية في غير هذا المكان.

وشبه اليعقوبي ديانة أهل بقلين بالمجوسية والنصرانية حيث ذكر: «أنهم يضارعون في دينهم المجوس والنصارى».[2] بينما ذكرت أغلب المصادر أن البجة الداخلة يعبدون الأصنام. ولست أدري معنى تشبيههم بالمجوس والنصارى، هل في طقوسهم؟، أم في تدينهم؟، أم أنه أراد شيئاً آخر؟.

قبيلة الخاسة

الخاسة من القبائل الكبيرة والقديمة في المنطقة، فقد ذكر عيزانا، كما ورد عند أركل، في نقشه في القرن الرابع الميلادي، أنه ذهب لحرب النوبة الذين أغاروا على عدد من القبائل من ضمنهم قبيلة الخاسة.[3] وحدّد ابن حوقل مواطن الخاسة ما بين خور بركة وسواحل البحر الأحمر، وذكر أنهم «بطون كثيرة في السهل والجبل».[4] ويبدو أن المعلومات عن هذه المناطق لم تتوفّر للكتّاب المسلمين بعد عصر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، وحتى امتداد حدود المماليك في مصر على سواكن 664هـ/1265م.

وأول إشارة بعد ابن حوقل للخاسة جاءت عند ابن سعيد (ت نحو 685هـ) أثناء حديثه عن تلك المناطق فذكر أن: «سحرتة من أجناس الحبشة المذكورة وعمائرهم ممتدة مع هذا النيل من الجانبين. وفي شرقيه من مدن الحبشة المشهورة كلغور، وهي مجمع لهم في

[1]. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، ص 22.

[2]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]. Arkell، Anthony John، «History of the Sudan From the Earliest Times to 1821.- London: The Athlone Press، 1961»، p.172.

[4]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق.

كل ناحية، وبها ملتقى من يريد البحر أو النيل أو البرية. وموضوعها حيث الطول ثلاث وستون، والعرض إحدى عشرة درجة. وفي شمالي سحرتة من النيل إلى البحر بلاد الخاسة وهم مذمومون بين أجناس الحبشة، وقد اشتهر عنهم أنهم يخصون من يقع إلى أيديهم، ويدفعون ذكور الآدميين في صداقاتهم ويفتخرون بذلك».[1]

تحدّث ابن سعيد عن بلاد الخاسة بين النيل والبحر، وإذا قصد بالنيل هنا نيل الحبشة، فهو يشير إلى النيل الأزرق، الذي ذكر أنه ينبع من بحيرة حورس، والتي تقع على خط الاستواء. وهذا الموقع لا يتناسب ووجود القبيلة في المناطق الشمالية، لأن النيل الأزرق لا يمر شمالاً. وربما قصد بالنيل نهر عطبرة أو خور بَرَكَة وكلاهما لا ينبع من بحيرة تانا. وأغلب الظن أن الإشارة هنا لخور بَرَكَة، فابن سعيد جغرافي عاش في الغرب الإسلامي، ولم يزُرْ هذه المناطق، وربما لم يعتمد على مصادر ذات صلة ومعرفة بالمنطقة، فجاء في معلوماته بعض الاضطراب. ويبدو ذلك واضحاً من وصفه للقبيلة، وهو الوصف الذي انفرد به، والذي يعكس ضعف معلوماته عن المنطقة وسكانها.

وأتت معلومات مختصرة جداً عن الخاسة بعد ابن سعيد في القرن الثامن الهجري (الـ14 الميلادي)، عند النويري[2]، وعند الدمشقي والمقريزي، في القرن التاسع الهجري (الـ15 الميلادي). وقد جاءت معلومات النويري والمقريزي متطابقة إذ جعلا مدينة سواكن موطناً للخاسة، وذكرا أنهم مسلمون، ولهم مملكة خاصة بهم.

ذكر الدمشقي أن الخاسة يعيشون إلى جوار الحداربة، وقسمهم إلى قسمين: «خاسة السفلى كفار، وخاسة العليا مسلمون، وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء. وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسكنون المدن».[3]

ويبدو أن معلومات المصادر العربية عن البجة وبلادهم كانت في غاية الندرة والاضطراب، حتى بالنسبة للمقريزي الذي عاش في القرن (الـ15 الميلادي) في مصر. ويلاحظ على موقع القبيلة عند ابن حوقل أنه إلى الجنوب كثيراً من سواكن، والتي جعلها النويري -ونقل عنه المقريزي- موطناً للخاسة، بينما لا يرتبطون عند الدمشقي بسواكن، ومن الممكن عنده أن تكون ديارهم إلى الجنوب. ومعلومات ابن حوقل تعتبر أكثر مصداقية من النويري -الذي

---

[1]. ابن سعيد، الجغرافيا، مرجع سابق، ص 60.

[2]. النويري، نهاية الإرب، مرجع سابق، ج1 ص66

[3]. الدمشقي، نخبة الدهر، مرجع سابق.

كان عاش في مصر، لكنه لم يزر المنطقة- وأصدق من معلومات الدمشقي الغريب عن المنطقة.

ويرى كراوفورد أن موطن الخاسة كان بالقرب من كرن، بينما يضعهم موزنجر جنوب أسمرا، بناءً على ما ذكره ابن سعيد من أن موطن الخاسة شمال سحرتة. فقد جعل موزنجر موقع سحرتة جنوب أسمرا. ويبدو أن قبيلة الخاسة -كما وصفتها المصادر- كانت قبيلة كبيرة، ربما امتدت من مناطق أسمرا جنوباً حتى مدينة سواكن شمالاً. فقد ذكر الدمشقي والنويري أنهم مسلمون، مما يوضِّح ارتباطهم بالمسلمين شمالاً. وذكرا أن لهم مملكة خاصة بهم، مما يوضِّح مدى قوتهم، وعدم خضوعهم للحداربة الذين رأينا قوتهم وسيطرتهم على المناطق الواقعة إلى الجنوب والغرب من سواكن. وقد يؤيد قوة الخاسة واتساع مواطنهم شمالاً وجنوباً ما ذكره الدمشقي من أن الخاسة قسمان متميزان: خاسة العليا وكانوا مسلمين، وخاسة السفلى الذين قال عنهم إنهم كفار، مما يشير إلى بعد مواطنهم في الجنوب.

قبائل البجة في الداخل

وردت بعض المعلومات القليلة في المصادر العربية عن القبائل البجاوية في الداخل، بالمقارنة إلى ما ورد عن الحداربة ومن جاورهم من القبائل شمالاً. وانتشرت قبائل الداخل بين ساحل البحر الأحمر شرقاً، ووادي بَرَكَة وخور القاش حتى حدود مملكة علوة الشرقية غرباً. قال عنهم ابن سليم: «والبجة الداخلة في صحراء بلد علوة مما يلي البحر المالح إلى أوّل الحبشة، ورجالهم في الظعن، والمواشي، واتّباع الرعي، والمعيشة، والمراكب، والسلاح، كحال الحدارب».[1]

قد وصف ابن حوقل مناطق الداخل هذه قائلاً: «نواحي قلعيب، وهي مواضع ذات مياه في أودية متصلة بجبل يعرف بملاحيب، وأكبر أوديته وادي بَرَكَة، وبين قلعيب وبَرَكَة غياضٌ عاديةٌ ذات أشجار، وربما كان دائرة الشجرة من أربعين ذراعاً إلى خمسين ذراعاً إلى ستين ذراعاً. وأفنيتها مراتع الأفيلة، والزرافات، والكركدن، والنمر، والفهد، إلى سائر الوحوش سائمة راتعة في غيلها ومياهها وغياضها. ويتّصل بحد ملاحيب من شقه الشرقي

[1] ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 113.

وادٍ يعرف بصيغوات، كثير الماء أيضاً والشجر والحمر والوحش».

ويواصل ابن حوقل: واصفاً منطقة جبل ملاحيب، ودلتا القاش، وأواسط نهر عطبرة قائلاً: «ويتصل بجبل ملاحيب من شقه الشرقي وادٍ يعرف بصيغوات، كثير الماء أيضاً والشجر والحمر والوحوش.. وكأن هذا الجبل آخذ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دُكن [دلتا القاش]، وهي أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل، ويزرع عليها الذرة والدخن أهل النوبة، ومن يحضر معهم من البجة». [1]

وتعيش في هذه المناطق الكثير من قبائل البجة التي وردت عنها بعض المعلومات في المصادر العربية، كما في مؤلفات ابن حوقل، واليعقوبي، وابن سليم. وأسماء القبائل التي وردت في تلك المصادر هي: (قعصة، وبواتيكة، وكديم، والماتين، وبازين، وبارية، والديجون، والحلنقة). ولا تمكن تلك المعلومات من رسم صورة واضحة لتلك القبائل. وللبحث عن إلقاء المزيد من الضوء على تلك القبائل سنحاول ربط ما ورد عنها بما ورد عن ممالك البجة عند اليعقوبي.

تناول اليعقوبي ستة ممالك تحت عنوان (ممالك البجة)، جاءت كما يلي: «فأول مملكة البجة من حد أسوان، وهي آخر عمل المسلمين من التيمن بين المشرق والمغرب إلى حد بَرَكَات، وهم الجنس الذي يقال له: نقيس.. والمملكة الثانية من البجة، مملكة يقال لها: بقلين، كثيرة المدن.. ثم المملكة الثالثة يقال لها: بازين، وهم يتاخمون مملكة علوة من النوبة، ويتاخمون بقلين من البجة.. والمملكة الرابعة يقال لها: جارين، ولهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له: باضع، وهو ساحل البحر الأعظم إلى حد بَرَكَات من مملكة بقلين، إلى موضع يقال له: حل الدجاج.. والمملكة الخامسة يقال لها: قطعة، وهي آخر ممالك البجة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له: باضع، إلى موضع يقال له: فيكون، ولهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب، جلد، مستعدون للحرب والقتال.. ثم المملكة السادسة، وهي مملكة النجاشي». [2]

ومن الواضح أن المملكة الأولى هي مملكة شمال بلاد البجة، حيث توجد قبائل الحداربة والزنافج، وقد وضعنا معهم بطون رقابات وحنديبا، وإلى جانبهم قبيلة الخاسة. أما قبائل الداخل، كما وردت في المصادر، فهي كما يلي: (قعصة، وبواتيكة، وكديم، والماتين،

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص71.

[2]. اليعقوبي، التاريخ، مرجع سابق، ص21-23.

وبازين، وبارية، والحلنقة). وسنتعرّف فيما يلي على هذه القبائل بناءً على ما ورد عنها من معلومات.

■ قبيلة قعصة:

ذكر ابن حوقل قبيلة كبيرة ذات بطون متعددة ممتدة مسيرة ثلاثة لأيام ما بين خور بَرَكَة وباضع «مملوءة ببطون قعصة وهي من أجل بطون البجة الداخلة وأكثرها مالاً وأعزها». ويبدو اسم هذه القبيلة وموطنها قريباً مما ذكره ابن حوقل عن مملكة البجة الخامسة التي وصفها قائلاً: «والمملكة الخامسة يقال لها: قطعة، وهي آخر ممالك البجة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له: باضع، إلى موضع يقال له فيكون، ولهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب جُلُدٌ، مستعدون للحرب والقتال».[1]

ويلاحظ الشبه الواضح بين الاسمين (قطعة) عند اليعقوبي، و(قعصة) عند ابن حوقل، كما يلاحظ أن المؤلفين يرجعان إلى المكان نفسه تقريباً، والذي هو بجوار باضع، مما يرجِّح أن قعصة عند ابن حوقل هي المملكة الخامسة عند اليعقوبي. ورجَّح كراوفورد أن تكون قبيلة قعصة هي نفسها قبيلة الخاسة.[2] ولست أدري كيف أتى كراوفورد برأيه هذا، مع العلم بأن ابن حوقل ذكر قبيلة الخاسة، ووضَّح أنها بطون كثيرة بين السهل والجبل، كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن هذه القبيلة، فهي تبدو إلى الشمال كثيراً من مناطق مملكة قصعة، كما وضعتها المصادر العربية التي أشرنا إليها عند حديثنا عن قبيلة الخاسة.

■ بواتيكة:

وصف ابن حوقل بواتيكة ومواطنها بأنها: «مياه متصلة وبلدان عامرة بواتيكة من قبائل البجة، تزيد على الإحصاء ولا يُبلغ عددها لتوغُّلهم في أعماق الصحارى».[3] ويبدو من هذا الوصف أن قبيلة بواتيكة قبيلة كبيرة تعيش على مساحات واسعة من مناطق المياه في المرتفعات وخور بَرَكَة شرقاً، وممتدة غرباً وشمالاً إلى مناطق الصحراء، مما يوضح مدى

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 71.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 104.

[3]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 72.

469

كثافة السكّان وتعايش قبائل البجة إلى جوار بعضها بعضاً.

ولو رجعنا إلى ما ذكره اليعقوبي عن مملكة البجة الرابعة نجده يتحدّث عن قبيلة كبيرة وخطيرة ومحاربة على ساحل البحر، قال عنها: «المملكة الرابعة يقال لها: جارين، ولهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له باضع، وهو ساحل البحر الأعظم إلى حد بَرَكَات من مملكة بقلين، إلى موضع يقال له حل الدجاج، وهم قوم يقلعون ثناياهم من فوق وأسفل، ويقولون لا يكون لنا أسنان كأسنان الحمير، وينتفون لحاهم».[1]

فهل من الممكن الربط بين مملكة جارين وقبيلة بواتيكة؟. لا يوجد ما يمكن أن يؤيد هذا الافتراض، خاصة وأن اليعقوبي ذكر أن امتداد القبيلة من ساحل البحر إلى حد بَرَكَات، فلم يجعل لها امتداداً في الصحراء كما فعل ابن حوقل. ولكن ذلك لا يمنع قيام الافتراض بأن بواتيكة ربما تكون المملكة الرابعة لافتراض أن عدم حصول كلا المؤلِّفين على معلومات كاملة ودقيقة عن المنطقة.

▪ كديم:

وضح ابن حوقل أن بطون كديم المعروفة بعجات من البجة، توجد بنواحي خور بَرَكَة، وإلى الشرق منها قبيلة الخاسة. وربما جعل هذا الوصف انتشار بطون قبيلة كديم أو عجات بنواحي خور بَرَكَة والمناطق الواقعه غربيه. وقد يكون ذلك في المناطق الصحراوية الواسعة شمال دلتا القاش. وتبدو كديم كقبيلة كبيرة لها بطون كثيرة، رغم أن ابن حوقل لم يورد ما يساعد على المزيد من التعرُّف على تلك البطون وأساليب حياتها. ويلاحظ أن ابن حوقل، أثناء حديثه عن قبائل البجة الأخرى في مناطق خوري القاش وبَرَكَة، تناول أساليب حياتها من زراعة، ورعي، وثرواتهم الحيوانية والنباتية، غير أنه لم يتناول شيئاً من ذلك عند الحديث عن بطون كديم المغروفة بعجات.

وذكر كرَاوفُورد أن أحد فروع البشاريين الذين يعيشون في منطقة أم ناجي البشارية، شرق بربر وشمال عطبرة يطلق عليه كادبين،[2] ولذلك رأى أنه ربما كانت كادبين هي نفسها كديم المعروفة بعجات عند ابن حوقل. ويعني ذلك أن بطون كديم انتشرت في هذه المنطقة الصحراوية -من مملكة نقيس- شمال غرب بلاد البجة.

---

[1]. اليعقوبي، التاريخ، مرجع سابق، ص 22.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 104.

■ **الماتين:**

امتدت ديار الماتين -كما يقول ابن حوقل- في مناطق «دهرا، وسيتراب، وغركاي، ودُحنت، إلى الجبل المعروف بمسمار».[1] ويعرف كراوفورد سيتراب بأنهم سكان المنطقة القريبة من جبل وخور يطلق عليه Sitrarab في الخريطة الحديثة بين 20 و30 ميلاً غرب الشمال الغربي لطوكر، ومسمار هو الجبل المعروف بهذا الاسم، لذلك فإن غركاي ودُحنت يمكن وضعهما في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من سنكات. وقد ارتبط غركاي بالمنطقة المعروفة بـGarric شمال ملتقى هيا. فالماتين ينتشرون في هذه المنطقة حتى جبل مسمار.

■ **بازين وباريه:**

وصف ابن حوقل المنطقة الواقعة ما بين جبل ملاحيب وأوديته من على سواحل البحر الأحمر في اتجاه الغرب مروراً بوادي بَرَكَة حتى دُكن [حوض القاش]: «أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل، ويَزرع عليها الذرة والدخن أهل النوبة ومن حضر من البجة». ويتضح من النص تداخل النوبة والبجة في هذه المناطق، وفي الغالب يكون ذلك التداخل على مناطق الحدود الشمالية الشرقية لمملكة علوة المتاخمة للبجة. ويواصل ابن حوقل: «وكأن هذا الجبيل [ملاحيب] أخذ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى دُكن، وهي أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل، ويزرع عليها الذرة والدخن. وفي شق بَرَكَة قبائل كثيرة تعرف ببازين وباريه أمم كثيرة قتالهم بالقسي، والسهوم المسمومة، والحراب بغير درق. ومن رسم باريه قلع ثناياها وبحر أذانها، ويسكنون في جبال وأودية، ويقتنون البقر والشاه ويزرعون».[2]

وعن بازين يقول ابن حوقل: «ويجاور تفلين بازين أمم مقيمة في أخصاص كالقرى، لهم الماشية من البقر والزرع. ورئاستهم بأيدي شيوخهم، وليس فيهم إلا راجل، وسلاحهم الحراب والمُرّان، ولا فارس فيهم، وليس لأحد عليهم طاعة، ولا دين لهم، ولا هم متصلون بشريعة غير الاقرار بالله وحده والتسليم له، واسمه جل وعز عندهم أننه. ومن تفلين إلى وادي بَرَكَة ثلاثة أيام». يقول ابن منظور في (لسان العرب) أن المران نبات مثل القنا تصنع منه الرماح، ويعرف بنبات الرماح.

ويواصل ابن حوقل عن بازين: «وادي بَرَكَة يجري من بلد الحبشة مجتازاً على بازين،

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 72.

[2]. المرجع نفسه.

وآخذاً إلى ناحية البُجة، وينصب بين سواكن وباضع في البحر المالح». يتحدّث ابن حوقل عن (قبائل كثيرة) في المنطقة الواقعة بين وادي بَرَكَة ودلتا القاش، غير أنه أشار إلى قبيلتين فقط هما بازين وباريه. ويبدو من وصفه للقبيلتين أنهما تتشابهان. ففي سبل حياتهم ذكر أنهم مزارعون ويربون البقر والماشية، وعن طريقة قتالهم وضح أن: «قتالهم بالقسي، والسهوم المسمومة، والحراب بغير درق». [] وذكر أن سلاح بازين، الحراب والمران، ولا فارس فيهم. كما وضح بعض السمات الخاصة بكل منهما كما في النصوص أعلاه.

واتضح مما ذكره ابن حوقل أن القبيلتين متجاورتين، وأعدادها كبيرة، فقد وصف بازين بأنها (أمم) وجعل امتدادهم على مساحة واسعة بين وادي بَرَكَة وحوض القاش حتى منطقة تفلين الواقعة بين علوة والبجة، كما سبق الحديث عنها في قبائل النوبة. وهذا هو موقع نفسه بازين عند اليعقوبي -أيضاً- فهم عنده يمثلون المملكة الثالثة من ممالك البجة، قال عنهم «بازين، وهم يتاخمون مملكة علوة من النوبة، ويتاخمون بقلين من البجة، ويحاربون هؤلاء، وزرعهم الذي يأكلونه، وهو طعامهم واللبن». وحديث اليعقوبي عنهم كمملكة، يؤيد وصف ابن حوقل لهم كأمم. كما اتفق كلا المؤلفين على اشتغالهم الزراعة، وتربيتهم الماشية.

وقد تردد اسم قبيلتي بازين وباريه في المصادر بصور مختلفة. فابن سليم تحدث عن بازة، ووضعهم على نهر عطبرة. ولا يبدو هذا الموقع بعيداً عن دلتا القاش الذي جعله ابن حوقل في مناطق قبيلتي بازين وباريه. ويلاحظ أن بن سليم يتحدث عن البازا باعتبارهم جنساً، حيث يقول: «جنس يقال له بازة يأتي من عندهم طير يعرف بحمام بازين، وبعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة». []

فالحمام الذي يأتي من عند شعب البازا يطلق عليه بازين، فهو لا يفصل بين البازة وبازين، فهم إما قبيلة واحدة أو ينتميان إلى الجنس نفسه. وقد جعل ابن سليم جنس البازة يمتد حتى حدود الحبشة. أما ابن عبد الظاهر فقد تحدث عن بارة ضمن المناطق التي وصلها مبعوث السلطان قلاوون (678 – 689هـ/ 1280م – 1290م). [] ولم يشر إلى موقعها.

[]. المرجع نفسه.

[]. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق، ص 105.

[]. ابن عبد الظاهر، أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون، في: مسعد، المكتبة السودانية، ص167.

ولذلك فقد يكون بازين، وبارين، وبازة، وبارة، يرجعون إلى الأمم التي أشار إليها ابن حوقل أعلاه «بازين وباري أمم كثيرة». وقد نقل ماكمايكل عن كواترمير Quatremere ودي فلارد، كما نقل ماكمايكل ومصطفى مسعد أن بارة هي نفسها بازة.

ويرى كراوفورد أنه ما يزال الاسم حياً as Baza بين القاش وستيت تكازي، يحده من الغرب السودان، ومن الشرق الحدود الإثيوبية.[1] والسكان الحاليون بالإضافة إلى الباريا في الشمال يتكلمون لغة نيلية. ويبدو أن اليعقوبي تناول تحت اسم بازين شعب الباريا المتصلين بِبَرَكَة، وربما كانوا في سمت بقلين. وليس للباريا أو البازا صلة لغوية أو ثقافية بالبجة ذوي النظم الاجتماعية الأرستقراطية. وفي نظام المجتمع الأمومي البازيني ليس للأسرة أثر سياسي.

ويرجح كراوفورد أن انتشار اللغة النيلية إلى تلك المناطق شمالاً، وانفصالها من وطنها في الجنوب بنحو 500 ميل قد تم - كما يرى روزيني - على الأقل نحو 1500 قبل الميلاد إذا ربط الـMennus في قائمة Thotmes الملكية بـMemnons of Pliny.

قبيلة الحلنقة

قبيلة الحلنقة من قبائل الداخل الكبرى، والتي ورد عنها قليل من المعلومات في المصادر العربية، شأنها في ذلك شأن باقي قبائل الداخل. وردت الإشارة إلى قبيلة الحلنقة في المصادر العربية مرة واحدة عند النويري، بصورة مباشرة، ومرة أخرى عند ابن عبد الظاهر، بصورة غير مباشرة.

يتعلّق نص ابن عبد الظاهر بالسفارة التي أرسلها السلطان المملوكي الملك المنصور قلاون إلى حكام السودان. وتاريخ هذه السفارة 685هـ/1286م، يشير إلى بداية تطوُّر العلاقات بين المماليك حكام مصر، وبين السودان. فقد أرسل المماليك حملة بحرية في العام 664هـ/1265م إلى ميناء سواكن، وتمكّنوا من إنشاء مملكتهم عليها. ثم أغار ملك المقرة 674هـ/1275م على ميناء عيذاب، وعلى منطقة أسوان، مما أدى إلى بداية الصراع الذي نشب بين مملكة المقرة والمماليك، والذي انتهى باعتلاء أمير مقُري مسلم عرش مملكة المقرة.

---

[1] Crawford, The Fung Kingdom of Sennar, op, p. 106.

كان السودان في تلك الفترة تحت حكم مملكتين كبيرتين، هما مملكة المَقَرّة وعاصمتها دنقلة، ومملكة علوة وعاصمتها سوبة. ويبدو أنه كانت هنالك الكثير من الوحدات الإدارية، تحت إدارة حكام أو ملوك مستقلين، توجهت إليهم سفارة السلطان المملوكي في العشرين من ذي القعدة عام 685هـ/1286م. وقد ذكر ابن عبد الظاهر تسعة من أولئك الحكام وهم: «أدر ملك الأبواب، وصاحب بارة، وصاحب التاكة، وصاحب كدرو، وصاحب دنقوا، وصاحب أري، وصاحب بِفال، وصاحب الأنج، وصاحب كرسة».□

وقد حاول الكثير من الباحثين التعرف على المناطق الواردة في هذا النص، منهم على سبيل المثال، الدكتور أحمد المعتصم الشيخ،□ ومنهم الدكتور مصطفى محمد مسعد،□ ومنهم كراوفورد الذي نودّ التوقّف معه هنا، هو أن أغلب المؤرخين رجّحوا أن المناطق التي ذهبت إليها سفارة السلطان المملوكي تقع في ديار البجة الحالية.

وليس هنالك غرابة في ذلك، لأن منطقة البجة كانت معروفة للمسلمين لِما بها من المعادن والسلع التجارية الأخرى التي تأتي من مناطق الداخل، ثم لأن اتصال المماليك بالسودان كان أكثره عبر بلاد البجة، نسبة للقيود التي كانت تفرضها مملكة المقرة على دخول التجار إلى أراضيها. والدليل على قوة الصِلة بين المسلين ومناطق البجة ما ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، من وجود مملكة إسلامية ملكها مسلم، يتكلّم العربية في منطقة خور القاش.□

فإذا استثنينا ملك الأبواب، وملك كرسة، فإن باقي كل الحكام الذين أُرسلت إليهم السفارة، يرجُح وجودهم في مناطق البجة الداخلة، وهي المناطق من أرقام 2 إلى رقم 7 في النص. وليس هذا موضع تتبُّع ذلك، لكنني أريد الإشارة إلى صاحب التاكة، وصاحب العنج، لارتباطهما بقبيلة الحلنقة. ويقودنا ذلك للتوجُّه إلى النص الثاني المباشر عن الخاسة، والذي أورده النويري عندما تناول الحملة التي أرسلها السلطان المملوكي الناصر محمد لمطاردة بعض العربان في الصحراء الشرقية.

□. ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، مرجع سابق، ص 196 – 198.

□. أحمد المعتصم الشيخ، في بحثه القيم عن «زمن العنج» والذي قدمه إلى معهد الدراسات الافريقية والأسيوية، وفي بحثه لدرجة الدكتورة عن منطقة التكاكي [أبو حمد] في الفترة الواقعة بين إسلام ملوك مملكة المقرة وسقوط مملكة علوة.

□. مصطفى مسعد في تعليقاته على النصوص في كتابه المكتبة السودانية العربية.

□. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 74.

وكان سبب إرسال الحملة، هو أن حاكم قوص بصعيد مصر اعتقل أحد زعماء الأعراب في صحراء عيذاب، فقطع هؤلاء الأعراب الطريق على مبعوث حاكم اليمن إلى السلطان المملوكي في طريقه من عيذاب إلى القاهرة، وأخذوا ما كان معه، ومن رافقه من غلمان التجار، فأمر السلطان والي قوص بتجريد حملة لمطاردة هؤلاء العربان.

تحرّكت الحملة المكونة من نحو خمسمائة فارس من مدينة قوص، ومعها فياض، زعيم العربان الذين أغاروا على مبعوث حاكم اليمن في العشر الأول من محرم عام 717هـ/1317م. وصلت الحملة إلى ميناء عيذاب بعد خمسة عشر يوماً، وأقامت بها اثني عشر يوماً، ثم تحرّكت إلى سواكن، ووصلتها في اثني عشر يوماً. مكثت الحملة ستة أيام بسواكن، ثم خرجت لمطارة العربان.

- **وصف الحملة:**

ونلخّص وصف النويري للحملة في الآتي: «فساروا سبعة عشر يوماً، وفي أثناء سيرها ظفروا بطوائف من السودان بقرب المياه في أودية هناك، فقتل العسكر منهم وسبى.. وانتهوا إلى وادي إيتريب في اليوم السابع عشر، وأقاموا يومين.. ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى أزبينات، وهو جبل صغير على شاطئ نهر أتبرا.. فأقاموا يوماً واحداً، ثم توجهوا يتبعون آثار العربان، وهم يسيرون على شاطئ ذلك النهر ثلاثة أيام، والنهر على يمين العسكر. ثم فوّزوا ودخلوا البرية إلى أرض التاكة، فانتهوا في اليوم الثالث من يوم دخولهم المفازة إلى جبل كسلان [جبل كسلا].. في أرض صفراء.. كثيرة الأشجار من السنط، وأم غَيلان [شجر الطلح]، وشجر الإهليلَج، والأبنوس، والعقر، والحر، وهو الذي يطرح التمر هندي، إذ طلع عليهم غبار أمامهم فندبوا من يكشف الخبر، فعاد الكشافة وأخبروهم أن طائفة من السودان تسمى هلنكة قد اجتمعوا لقتال العسكر، وهم خلق كثير. فتقدم العسكر إليهم، وقد عبوا طلابهم ولبسوا لأمة حربهم».

ويواصل النويري: «واجتمع العسكر في أرض خالية من الأشجار، وهي من طرق السيل، وقد صارت مثل البركة، ولها فجة، فدخل العسكر فيها وتبعهم الأثقال، فسدت جمال أثقالهم تلك الفجة، وهلنكة من أعلى البركة، والعسكر أسفل منهم، وبأيدي هلنكة الحراب، والمزاريق والسيوف، ومع بعضهم النبل. فوقف العسكر، وأرسل إليهم «إنا لم نأتِ لقتالكم، وإنما جئنا في طلب طائفة من العرب أفسدوا وعصوا وقطعوا السبيل»، وأمنوهم. فردوا الأمان وأبوا إلا القتال، فقاتلهم العسكر، ورموهم رشقاً واحداً بالسهام،

فقتل من هلنكة أربعمائة وستين نفراً، وجرح منهم خلق كثير. ولم يتمكن العسكر من أسرهم، فإنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر. وقتل منهم اثنان من ملوكهم، على ما حكاه من اجتمع بهم من غلمان العسكر. وكان سبب اجتماعهم بهم أنهم وسلامتهم منهم، أنهم كانوا انقطعوا وراء العسكر وناموا فلحقتهم كشافة هلنكة، فمسكوهم وأتوا بهم إلى أكابرهم، فسألوهم من أين أنتم؟ وكان فيهم من يعرف لغة القوم، فقالوا: نحن تجار أغار علينا هذا العسكر ونهبونا، وأخذوا أموالنا وأسرونا، فلما قاتلتموهم هربنا منهم، فرقّوا إليهم وأطلقوهم».

ويواصل النويري: «ولما انهزمت هذه الطائفة من هلنكة، تحصنوا بالأشجار وتركوا أحمالهم، فأخذ العسكر منها ما قدروا على حمله من الذرة، وليس لهم طعام غيرها، وحملوا حاجتهم من الماء ورجعوا من هناك من يومهم على آثارهم، وذلك في سادس شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة. وعادوا حتى انتهوا إلى أربيباب، ولم يمكنهم الرجوع على الطريق الذي دخلوا منه لقلة المياه والأقوات والعلوقات، فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرة، فساروا على شاطئه عشرين يوماً، وكانت دوابهم ترعى من الحلف، ثم انتهوا إلى قبالة الأبواب».[1]

لاحظ أن اسم الجبل الصغير على نهر عطبرة كتب في المرة الأولى في النص (أزبينات)، وفي المرة الثانية (أربيباب)، والأبواب هي منطقة أبي حمد. وربما لوحظ أيضاً بعض المآخذ على النص، على سبيل المثال: عبرت الحملة كل أراضي البجة من الشمال إلى الجنوب في نحو ثلاثة أشهر، مرت خلالها بمناطق خوري بَرَكَة والقاش وضفاف نهر عطبرة، ولم يصادفه في كل هذا التجوال سوى بعض البجة ثم قبيلة الحلنقة، وهذا يتعارض مع ما وصفت به هذه المنطقة من وفرة الموارد المائية والنباتية، ووجود عدد كبير من القبائل، كما تعرّضنا إليها فيما سبق تحت عنوان قبائل الداخل.

كما لم يوضِّح النص العدد الكامل لأفراد الحملة، بل أشار فقط إلى عدد قوة الفرسان «نحو خمسمائة فارس»، وليس من المعقول أن تتوغّل حملة في كل تلك المناطق وقوامها نحو خمسمائة فارس، فلا بد أن يكون هنالك بعض القوات الأخرى إلى جانب الفرسان لم يُشِر إليها النص. وقد أشار المؤلف إلى انضمام بعض الأعراق للحملة عندما خرجت من سواكن.

---

[1]. النويري، نهاية الأرب، مرجع سابق، ص230-233.

ويلاحظ أيضاً أنه ليس من المعقول أن يقتل من الحلنقة في يوم واحد 360 فرداً إلى جانب عددٍ من الجرحى بما فيهم اثنان من ملوكهم، ويحدث كل ذلك رشقاً بالسهام فقط. ولو حدث ذلك بالسلاح الناري لكان معقولاً، في الوقت الذي لم يذكر فيه أي قتلى أو جرحى من جنود الحملة. فإذا وضعنا في الاعتبار أن مؤلف الكتاب كان يتولى وظيفة ناظر الجيش في حكومة المماليك، وهو منصب يمكّنه من معرفة كل ما يتعلّق بالحملات العسكرية، أدركنا أنه لم يكن مهتماً في كتابه بالأخبار الكاملة للحملة، بل أورد ملخصاً عاماً ركز اهتمامه فيه على ما يتّصل بأخبار الحملة فقط، دون الاهتمام بغيرها. ورغم ذلك يعتبر ما كتبه النويري من أقدم النصوص عن قبيلة الحلنقة.

- ارتباط قبيلة الحلنقة بالتاكة وكسلا

ارتبط اسم الحلنقة في هذا النص بأرض التاكة ومدينة كسلا، وتبدو بلاد التاكة في النص ممتدة بصورة كبيرة. فالحملة بعد أن غادرت نهر عطبرة، سارت في أرض التاكة ثلاثة أيام إلى أن وصلت جبل كسلان [المراد به كسلا]. وقد ورد أيضاً اسم كسلا في وثيقة عربية في الحبشة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر، كما ذكر كراوفورد.

وربما ارتبط اسم كسلا بالأمير الحبشي (الأمهري) كاسا، الذي غادر بلاده لخلاف نشب بين أفراد أسرته، ووجد هذه المنطقة الخصبة فاستقر عليها. فكلمة (لا) في اللغة الأمهرية تعني الأرض الخصبة، فاندمجت كلمة (لا) مع اسم الأمير كاسا فأصبحت علماً على المكان (كاسا – لا)= كسلا.[1]

فكسلا إذاً كلمة غير عربية، فوجود الاسم سابق لدخول اللغة العربية في المنطقة. لذلك نستبعد بعض الروايات التي ربطت اسم كسلا بكلمة الكسل. وقد ظهر اسم كسلا قبل ذلك في الوثائق الأكسومية التي تعود إلى فترة ما بين القرنين السابع والثامن عشر الميلاديين، إذ ورد أن بعض جماعات من كسلا أغاروا على قبيلة الباريا. واسم مدينة كسلا قد يرجع إلى ما قبل القرن السابع الميلادي، أي قبل قرون كثيرة من عصر الحكم التركي الذي ربط به البعض ظهور اسم كسلا.

وكما ارتبط اسم الحلنقة بكسلا، ارتبط كذلك باسم التاكة، كما رود في النص. فالنص يوضّح أن كسلا تقع في أرض التاكة. وكلمة التاكة بجاوية الأصل تعني شجرة الدوم،

---

[1]. السر سيد أحمد العراقي، كسلا: التاريخ والحضارة، (د. ن)، الخرطوم، (د. ت)، ص 21.

وهي شجرة واضحة الوجود في المنطقة. وإلى جانب استخدام المصادر العربية لكلمة التاكة استخدمت أيضاً كلمة (دُجْن أو دُكْن) وتعني دلتا القاش. يقول ابن حوقل: «والنهر المعروف بالدُجْن يأتي من بلاد الحبشة فينقطع في أعمال دُجْن ومزارعها».[1] ويصف دُجْن بأنها «أرض مزارع أحواف يجري إليها ماء النيل».[2]

والمقصود بالنيل هنا نهر القاش، فقد اتفق المؤرخون مثل كراوفورد[3] ومصطفى محمد مسعد[4] علي أن دُجْن هي أرض التاكة. وقد نقل كراوفورد عن بوركهارت في القرن التاسع عشر أن سكّان منطقة دلتا القاش يطلقون على (دلتا القاش) بلاد التاكة. وأورد كراوفورد أيضاً أن الرحّالة الفارز في القرن السابع عشر ذكر أن نهر دُجن (القاش) يُسمّى التاكة، وأن كلمة تاكة تعني أو تصف المياه المنسابة في الدلتا.[5] فقبيلة الحلنقة إذاً ارتبطت بكسلا والتاكة، أو بالدُجْن ونهر القاش.

وقد أدى موقع بلاد الحلنقة (التاكة) داخل المثلث الواقع بين وادي النيل، والبحر الأحمر، وبلاد الحبشة، إلى القيام بدور مهم في تاريخ المنطقة. فوفرة الموارد الزراعية والحيوانية والبحرية في المنطقة، وسهولة الاتصال مع أضلاع المثلث الثلاثة، أدّت إلى تطوُّر مؤسّسات السكّان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي يمكن ملاحظتها في ما توفّر من القليل من المعلومات عن سكّان المنطقة القدماء. فقد وردت الإشارات إلى سكّان منطقة التاكة في الآثار والمصادر القديمة والمصادر العربية المبكرة، كما رأينا عندما تحدّثنا عن سكّان قبائل البجة في الداخل.

فسكان التاكة القدماء، هم الذين أشارت إليهم الوثائق الأكسومية في القرن الرابع قبل الميلاد. فقد نقل كراوفورد عن روزيني وكارتير وبدج، أن منطقة التاكة ربما كانت موطناً للسكّان الذين ورد اسمهم في المصادر القديمة المتت m-tt-t أو m-t-t في القرن الرابع قبل الميلاد. وربط كراوفورد بين المتت والماثيتي Mathetae الذين ذكرهم بليني في القرن الأول الميلادي، ورأى كراوفورد أن اسمهم لا يزال يعيش في اسم محطة السكة حديد

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص74.

[2]. المرجع نفسه، ص71.

[3]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 107.

[4]. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص70.

[5]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op.

متتيب mitatib شمال أروما.[1]

فقبيلة الحلنقة تمثّل واحدة من أقدم السلالات في المنطقة، ربما يعود تراثها إلى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد. ولم أعثُر فيما اطلعت عليه من مصادر على اسم الحلنقة قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، ولكن ورد ما يوضِّح أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان، مما يشير إلى أن القبيلة ظلت موجودة في المنطقة.

ويبدو معقولاً أن تكون قبيلة الحلنقة هي التي قامت بالحملة التي خرجت من كسلا، وأغارت على قبيلة الباريا بين القرنين السابع والثاني عشر الميلاديين، كما ورد في الوثائق الأكسومية. لأن قبيلة الخاسة هي القبيلة القوية التي كانت تحكم منطقة التاكة، ويظهر ذلك من وصول سفارة المماليك إلى صاحب التاكة، حيث قامت مملكة الحلنقة. وقد وضَّح النص المتعلّق بحملة المماليك، أن المقاومة الوحيدة التى واجهتها حملة المماليك على أرض التاكة، أتت من قبيلة الحلنقة التي خاضت الحرب، وقُتل اثنان من ملوكها فى أرض المعركة.

- **مملكة قطعة جنوب بلاد البجة**

ولو رجعنا إلى ممالك البجة التي ذكرها اليعقوبي في القرن العاشر الميلادي، لأمكن ترجيح الربط بين مملكة قطعة وبين الحلنقة، خلافاً لما ذهب إليه كراوفورد بربط مملكة قطعة بقبيلة الخاسة، لأن مناطق قبيلة الخاسة في الشمال وحول سواكن، كما ذكرت المصادر العربية. فقد وضع اليعقوبي مملكة قطعة أخر ممالك البجة في الجنوب بجوار الحبشة، وهذا الموقع يتفق مع موقع مملكة الخاسة في بلاد التاكة جنوب بلاد البجة، ومجاورة للحبشة.

ووصف اليعقوبي مملكة قَطعة بأنها: «وهي آخر مملك البجة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له باضع إلى موضع يقال له فيْكون، ولهم حد شديد وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب جلد مستعدون للحرب والقتال».[2]

ورغم أن اليعقوبي حدّد موقع المملكة ما بين باضع على الساحل وفيْكون التي ذكر كراوفورد أنه لم يتمكن من التعرُّف على موقعها، وقد يبدو هذا الموقع بعيداً بعض الشيء من دلتا القاش، حيث عاش شعب التاكة، إلا أن تحديد اليعقوبي ليس بالضرورة أن يكون

---

[1]. Ibid.

[2]. اليعقوبي، التاريخ، مرجع سابق، ص23.

دقيقاً. فاليعقوبي في ذلك الوقت المبكر القرن (الـ10 الميلادي)، جمع رواياته من التجار، وربما لم تكن معلومات مخبريه دقيقة، فهي على كل حال معلومات رواة معرّضة لعدم الدقة.

ومن ناحية أخرى ربط أحمد المعتصم الشيخ بين اسمي الحلنقة والعنج، نلخِّصه فيما يلي: ورد في تراث البجة أن القسم النوبي من الحلنقة كانوا دائماً يحملون سياطاً فأطلق عليهم عليهم الحبش (ألنجا) ويعني السوط في لغتهم، وكلمة (ألنجا) الأمهرية قد تكون هي كلمة أنج العربية نفسها التي أطلقوها على الشعب المعروف باسم (العنج)، وهو الاسم الذي اشتهر به السوط (سوط العنج). وافترض أحمد المعتصم الشيخ أن الحلنقة والعنج يمثلان كياناً واحداً.[1] وسنتعرَّض لهذا الموضوع عند الحديث عن سكان مملكة علوة الذين اشتهر ارتباط اسم العنج بهم.

أما ما ورد في تراث الحلنقة، وتناقلته المراجع العربية والأجنبية عن قبيلة هوازن العربية، وعبورها البحر الأحمر لبلاد البجة، فسنتناوله عندما نأتي للحديث عن السكّان بعد القرن الخامس عشر.

■ خاتمة

وفي نهاية استعراضنا لقبائل شرق السودان، يمكننا القول إن تلك القبائل انتشرت قبل دخول الإسلام في إفريقيا على مساحات واسعة بين الهضبة الإثيوبية جنوباً، وحتى الصحراء الشرقية في صعيد مصر شمالاً، ومن النيل شرقاً حتى البحر الأحمر غرباً. وكان لبعضها وجود واضح ومؤثّر على مناطق نهر النيل ما بين حلفا جنوباً حتى الأقصر شمالاً. وكانوا حكاماً لبعض تلك المناطق. وقد عُرف أولئك السكّان في الحضارات القديمة، وعند الكتّاب اليونانيين والرومان بأسماء مختلفة لعل أشهرها الأسماء الثلاث التي تناولناها وهي: (المِجا أو المِجاباري، والترجلودايت، والبليميين).

ثم ظهر اسم البجة للدلالة على سكّان المنطقة في نقش عيزانا في القرن الرابع الميلادي، وساد استخدامه بعد ذلك في المصادر العربية، للدلالة على كل قبائل البجة التي تعرفوا عليها، والتي جاءت أسماؤها في كتاباتهم مختلفة عن أسماء قبائل البجة الحالية، فيما عدا القليل منها.

---

[1]. أحمد المعتصم الشيخ، زمن العنج، ص11.

الفصل الثالث

النوبا
سكان شمال ووسط وغرب السودان

- الصحراء الكبرى وتاريخ وادي النيل
- مؤسِّسو الثقافات المبكِّرة ودولة كوش
- النوبا في مملكة مروي والواحة الخارجة
- تحرُّك النوبا من صحراء الواحة الخارجة
- من هم النوبا في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر؟
- إطلاق كلمتي نوبا ومريس ومراحل استخدامهما في المصادر العربية
- بلاد مريس: مملكة مريس، وصف بلاد مريس، وصف ابن سليم للمنطقة
- سكان السودان والأصل الحامي للشعوب في المصادر العربية

في دراستنا لقبائل السودان، قبل القرن الخامس عشر، تتبّعنا سكّان شرق السودان، وسنبدأ هنا بتناول تاريخ سكّان شمال السودان، ونبدأ بالنوبا التي سبق أن عرضنا بعضاً من تاريخهم قبل القرن السابع الميلادي في كتابنا (السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية)،[1] والذي تناولنا فيه مقدمة لسكّان السودان قبل دخول العرب والإسلام. وسنبدأ بمقدّمة صغيرة عن تغيُّر المناخ، وظهور الصحراء الكبرى، وأثرها على تاريخ السودان، ثم نأتي بملخّص عام، نلقي من خلاله المزيد من الضوء على ظهور المجموعات التي أطلق عليها اسم النوبا، قبل ظهور اسم النوبة بالتاء المربوطة، منذ القرن السابع الميلادي في المصادر العربية، ثم نتناول موضوع ظهور النوبا في اتفاقية المسلمين مع أهل مصر، كل ذلك بمثابة تمهيد لما سنتناوله في موضوعاتنا عن تاريخ النوبا وأرضها، وسكّان شمال السودان بعد القرن السابع الميلادي.

الصحراء الكبرى وتاريخ وادي النيل

كتب المفكر والمؤرخ السنغالي الشيخ أنتا ديوب، الذي تأسّست جامعة باسمه في الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف القرن الماضي: «إن تاريخ إفريقيا السوداء سيبقى معلّقاً في الهواء، ولا يمكن كتابته بصورة صحيحة ما لم يتجرّأ المؤرخون بربطه بالتاريخ المصري»[2] يقصد ربطه بالتاريخ المصري القديم.

وأرى أن تاريخ السودان، والتاريخ المصري القديم، سيبقى معلّقاً في الهواء، ولا يمكن كتابته بصورة صحيحة ما لم يربطه المؤرخون بتاريخ الصحراء الكبرى. فالصحراء الكبرى

---

[1]. أحمد الياس حسين، السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية، كاسي غرافيك، كوالالمبور، 2008م.

[2]. Cheikh Anta Diop، The African Origin of Civilization: Myth or Reality، . Chicago: Lorance Hill & Books، 1974.

أثَّرت على تاريخ وادي النيل تأثيراً قوياً منذ فجر تاريخه. وفهم ذلك الأثر يتطلَّب منا الرجوع قليلاً إلى الوراء للتعرُّف على التغيُّرات المناخية وتأثيرها على طبيعة المنطقة.

يرى العلماء أن مناخ الكرة الأرضية كان في العصور المبكرة دائم التقلبات، وإذا رجعنا إلى نحو خمسة عشر ألف سنة نجد آثار تحوُّلات كبرى، وتعاقب فترات جفاف ورطوبة في مناخ الكرة الأرضية أدت -كما يقول علماء المناخ والجيولوجيا- إلى تغيُّرات كبيرة في المعدَّل السنوي لسقوط الأمطار، وفي معدَّل مناسيب المياه في البحار والأنهار، وفي الحياة الحيوانية والنباتية.

فعلى سبيل المثال يقول رشدي سيد: «كان حجم بحيرة تشاد أكبر اثنتي عشرة مرة من حجمها الحالي، وامتدت شمالاً حتى فزان، الأمر الذي أثّر كثيراً على المناخ، ونسبة الأمطار في المنطقة. وكانت هنالك أنهار دائمة الجريان، وبحيرات في جنوب ليبيا، والمناطق الواقعة إلى الشرق منها حتى جبل العوينات. كما كان إقليم السدود في جنوب السودان عبارة عن بحيرة تمتد شمالاً حتى منطقة الخرطوم الحالية».

وذكر وندورف ورولند أنه كانت هنالك بحيرة في مِرجا؛ غربي دنقلا، وفي نبتة بلايا غربي وادي حلفا، وكان وادي هوار نهراً دائم الجريان وGrassy valley، ومياهاً دائمة، وبرك ماء موسمية كما في واحات دنقل، والفرافرة، واللقية أربين، وسليمة وبير صحاري، وبير طرفاوي، ومنطقة جبل عوينات، والجرف الكبير، والواحة الخارجة. وكان معدّل سقوط الأمطار في شمال ووسط السودان، كما ذكر آركل، أعلى من معدّل هبوطه في صعيد مصر، وبلغ منسوب فيضان النيل الأزرق في تلك الأوقات ما بين أربع إلى عشر مرات أعلى من منسوبه الحالي.

وهكذا كانت منطقة الصحراء الكبرى مأهولة بالسكّان، وتتمتّع بكميات غزيرة من الأمطار، وكانت بها بحيرات وأنهار دائمة الجريان، وغابات وغطاء نباتي غزير. جاء

Said، Rushdi and Faure، H.، «Chronological Framework: African Pluvial and Glacial Epochs.| In J. Ki-Zerbo (ed)، General History of Africa I: Methodology and African Prehistory، 1981، P385-386.

Fred Wendorf، R. Shcild (1994) «Are the early Holocene cattle in the western Sahara domestic or wild» Journal of Anthropological Archeology، 3 No. 4.

A. J. Arkell، History of the Sudan: From the Earliest Times to 1821. London: The Athlone Press، 1961، p.25-32.

في دائرة المعارف البريطانية تحت مدخل Sahara أن الرسومات الصخرية، والأدوات الحجرية، والفخارية، والعظمية المنتشرة على طول الصحراء الكبرى، توضح أنها كانت مأهولة بالسكّان. كما أثبت علماء الجيولوجيا والآثار وجود أنواع كثيرة من الحيوانات في كل المنطقة، مثل، الظباء، والجواميس، والزراف، والأفيال، ووحيد القرن، وفرس البحر، والتماسيح.

وقد تعرّضت هذه المنطقة إلى التقلّبات المناخية التي حدثت منذ نحو اثني عشر ألف سنة مضت، وهو التغيّر الذي أدى في نهايته إلى تكوين كل من الصحراء الكبرى، وصحراء شبه الجزيرة العربية. ولعبت تلك التقلّبات دوراً بارزاً في تحرُّكات واستقرار المجتمعات البشرية. ولم يبرز أثر ذلك الجفاف ويؤثّر تأثيراً محسوساً على تحرُّكات سكّان المنطقتين منذ البداية، بل بدأ ذلك منذ نحو سبعة آلاف سنة مضت، وهو الوقت الذي بدأت فيه تحرُّكات السكّان من منطقة الصحراء الحالية جنوباً، نحو أحواض نهر السنغال، ونهر النيجر، وبحيرة تشاد، وشمالاً نحو سواحل البحر المتوسط، وشرقاً نحو وادي النيل. وأدّت تلك التحرُّكات إلى ظهور ثقافات تلك المناطق، والتي قادت فيما بعد لقيام حضارات وادي النيل وشمال إفريقيا.

وتاريخ السودان في كل مراحله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمناطق الصحراوية الواقعة إلى الغرب من النيل. وفي حديث مع الدكتور علي أحمد قسم السيد[1] عن ارتباط تاريخ السودان بالمناطق الصحراوية، خلصنا إلى أن الصِلات والتداخل السكّاني بين سكّان وادي النيل والصحراء الغربية، لم يكن في كل الأوقات من جانب واحد، بل حدث في حوالي عام 2613 قبل الميلاد. واضطر سكّان منطقة ما بين الشلالين الأول والثاني تحت تهديد الحملات المصرية إلى الهجرة نحو الصحراء الغربية بمواشيهم، واستقر أسلافهم هناك لمئات السنين.

فمنذ عصور الثقافات المبكرة في منطقة الشهيناب بشمال أم درمان، وثقافات المجموعة (أ) (Group A) والمجموعة الثقافية (ج) (Group C) في شمال السودان، وما تلاها من حضارات كانت تلك المناطق تتعرَّض من وقت لآخر لهجرات من المنطقة الغربية للنيل، تساعد على ظهور طور حضاري جديد في المنطقة، كما سنلاحظ ذلك عند حديثنا عن سكّان شمال السودان.

[1]. علي أحمد قسم السيد، أستاذ التاريخ القديم بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الخرطوم.

مؤسّسو الثقافات المبكرة ودولة كوش

المقصود بسكان شمال السودان، هنا سكان المنطقة الواقعة بين موقع مدينة الخرطوم الحالي جنوباً، وحتى منطقة الشلال الأول بالقرب من مدينة أسوان شمالاً، لأن منطقة ما بين حلفا وأسوان كانت تنتمي عبر العصور إلى عنصر بشري واحد، هو العنصر الذي يرى فيه بعض المؤرخين، مثل، سليم حسن، أن أولئك السكان القدماء ينتمون إلى العنصر الحامي،[1] بينما يرى آخرون -كما ذكر وليام آدمز- أن سكان هذه المنطقة القدماء ينتمون إلى سلالة شعوب شمال إفريقية المطلّة على البحر المتوسط.

وذكر آدمز أن سكان شمال السودان في ذلك الوقت «كان لهم لون البشرة الداكن نفسه مثل الأفارقة اليوم، إذ إن ذلك يعتبر بصورة عامة تلاؤماً شائعاً لأقوام المنطقة الحارة».[2] ومن المعروف أن سواد لون البشرة يرجع في أساسه إلى المادة السوداء الموجودة تحت الجلد (Melanin pigment)والتي يفرزها جسم الإنسان عندما يتعرض لأشعة الشمس، حماية له من حرارتها. ويزداد إفراز هذه المادة السوداء كلما ازدادت حرارة أشعة الشمس، ويقل إفرازها كلما قلّت حرارة أشعتها. لذلك تصير ألوان أجسام من يتعرّضون إلى أشعة الشمس الحارة في المناطق الاستوائية والمدارية سوداء، ويقل سواد البشرة كلما ابتعد الإنسان شمالاً، حتى يصبح لون الجسم أبيض حيث تعتدل حرارة الشمس.

وقد وردت بعض أخبار أولئك السكان القدماء في الآثار المصرية القديمة، وبخاصة في الألف الثالثة قبل الميلاد، فقد أرسل بعض حكام مصر في ذلك الوقت بعثات تجارية نحو الجنوب، فدوَّن قادة تلك البعثات -مثل حرخوف- أسماء سكان بعض تلك المناطق. فأطلقوا اسم نحسيو أو نحسي على السكان المنطق الواقعة إلى الجنوب من بلادهم، واسم التِمح أو التِمْحو وإرتت على سكان المناطق الواقعة إلى الغرب من النيل. ويرى أركل أن السكان الذين تحدّث عنهم حرخوف غربي النيل ربما ما تزال سلالاتهم تعيش حتى اليوم في شمال دارفور، فقد يكون الأرتي Urti في منطقة جبل ميدوب هم بقايا الإرتت، وقد يكون التاما في شمال غرب دارفور هم بقايا التمح، فروايات التامة الشعبية تذكر أنهم كانوا يعيشون في منطقة بئر النطرون، والتي هي الآن عبارة عن صحراء قاحلة.[3]

---

[1]. سليم حسن، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بعانخي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة (د. ت)، ص 1.

[2]. William Adams، The Nuba Road to Africa، p.122.

[3]. Arkell، History of the Sudan، op، p.172.

ظل هذا العنصر السكاني القديم، والمعروف في كتب التاريخ بثقافة المجموعة الأولى (أ)، يعيش في المنطقة حتى نحو القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، حيث تعرّض لوصول مجموعة مهاجرة، يرى أغلب المؤرخين، أنها أتت من المناطق الواقعة غربي النيل. وقد تحرُّكت تلك الهجرات بفعل تغيُّر المناخ في المنطقة التي أصبحت اليوم الصحراء الكبرى، وبدأت آثاره في قلة موارد المياه والغطاء النباتي، فازدادت التحركات السكانية متجهة نحو النيل.[1]

ويرى المورخون أن هؤلاء الوافدين المعروفين بالمجموعة الثقافية ج (Group C)، ينتمون إلى سلالة المجموعة الثقافية (أ) نفسها المستقرة على النيل، لكنه يقول إن دراسة آثار هذه المجموعة وضّحت اختلاطهم ببعض الزنوج.[2] وأرى أنه ينبغي أن نوضّح هنا أن أغلب الكُتّاب الغربيين عندما يطلقون كلمة الزنوج، يقصدون بها السود. ولذلك عُرف كل سكان الصحراء الكبرى، بما فيهم السودانيون بـEthiopians أي السود، وهو الاسم نفسه الذي عرَّبته المصادر العربية وأطلقته على سكان المنطقة، وهو السودان (جمع أسود). وبالطبع ليس كل السود زنوجاً، بل الغالبية العظمى من السود ليسوا زنوجاً.

فسكان جمهورية جنوب السودان، ليسوا زنوجاً، فهم في تصنيف علماء الأجناس شعوب نيلية، وهي خليط بين العنصرين الزنجي والحامي. والزنوج يوجدون في قليل من المواضع في إفريقيا مثل بعض الأماكن في الغابات الاستوائية. ويشترك الزنوج في بعض السمات التي تميِّزهم عن السود الأخرين. لذلك يوجد عدد كبير من الشعوب السوداء في القارة الإفريقية، مثل سكان جمهورية السودان ليسوا زنوجاً. فهنالك خطأ كبير مُسَلّم به، وهو أن الزنوج فقط هم سكان إفريقيا الأصليون، وأن ما عداهم غرباء في القارة، والواقع أن السود من غير الزنوج، هم سكان أصليون في إفريقيا، بل يمثِّلون الغالبية العظمى من سكانها.

فالوافدون الجدد من مناطق الصحراء غربي النيل، ذوو بشرة سمراء مثل السكان الذين نزلوا عليهم. ويذكر المؤرخون -كما نقل آركل- أنهم كانوا رعاة بقر (بقارة)، وتحرّكوا بأبقارهم ذات القرون الكبيرة نحو النيل، إذ إن مناطقهم أصبحت غير صالحة لرعي البقر. ويبدو أن مجموعة منهم تحرُّكت جنوباً نحو أواسط وغرب دارفور، لأن هيرودوتس،

---

[1]. المصدر السابق، ص 44

[2]. المصدر نفسه، ص 46-52.

المؤرخ اليوناني الذي كتب بعد قرون كثيرة من تلك الهجرات عن قبائل البقارة جنوبي ليبيا، ذكر أن أبقارهم ذات قرون كبيرة ممتدة للأمام، ولذلك ترعى وتتحرك نحو الخلف، لأنها لو تحرّكت إلى الأمام لغرست قرونها في الأرض. وبالطبع فإن هيرودوتس لم يزُر تلك المناطق، ولكنه جمع الروايات عنها، بما يمكن أن يكون فيها بعض المبالغات. وربما ما تزال سلالة أبقار (المجموعة ج) وسلالات الأبقار التي ذكرها هيرودوتس موجودة حتى الآن عند قبائل البقارة في غرب السودان.

فالتداخل بين سكان وادي النيل السوداني، وسكان غرب السودان يعود إلى قرون كثيرة قبل ميلاد المسيح، وآثار الحضارات المتعاقبة التي توجد أطلالها على النيل اليوم، قامت نتيجة ذلك التلاقح السكاني بين الشعوب المستقرّة على النيل وروافده، وسكان المناطق المتصلة بالنيل، وبخاصة المناطق الغربية.

ويبدو أن أعداد الوافدين الجدد (المجموعة ج) إلى النيل كانت كبيرة، فلم يتركوا آثارهم على مناطق النيل فقط، بل امتدت تلك الآثار إلى مناطق شرق السودان، حيث أثبتت الحفريات الآثارية للمقابر القديمة في شرق السودان، كما ذكر آركل، أن السكان هنالك ينتمون إلى سلالة المجموعة (ج) نفسها، وأضاف آركل: «إن البديّات، والميدوب، ونوبا الجبال، والبجة الذين هم سلالة المجا أو الـMedju أو Mejayw ميجايو، كل هؤلاء هم سلالة ذلك الجنس الأسمر نفسه الذي كان مستقراً في الصحراء غربي النيل».[1]

كل هذه المجموعات التي استقرت في شمَال السودان، إلى جانب مجموعات أخرى في الوسط والشرق، أسست فيما بعد دولة كوش في كرمة، بعد أن استقبلت المنطقة تحرُّكات سكانية من الغرب والجنوب الغربي. وقد امتدت حدود دولة كوش شمالاً حتى أسوان، كما وضَّح محمد إبراهيم بكر.[2]

وقد شهدت الفترة التالية لانهيار دولة كوش في كرمة، واحتلال مصر لشمال السودان منذ منصف القرن السادس عشر قبل الميلاد، صراعاً متصلاً بين سكان شمال السودان والمصريين. ويبدو أن المنطقة كانت تستقبل المزيد من المهاجرين من الغرب والجنوب الغربي، مع ازدياد مراحل الجفاف في الصحراء. وقد أدّت المزيد من الهجرات إلى ازدياد تحركات السكان شمالاً، وازدياد الصراع مع المصريين الذين دأبوا على تحصين المناطق

[1]. المصدر نفسه.

[2]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م، ص 52.

الجنوبية من حدودهم، وإقامة القلاع للدفاع عنها.

وفي بداية الألف الأخيرة قبل الميلاد تمكّن الكوشيون من استعادة سلطتهم السياسية على المنطقة بقيام مملكة نبتة. ويلاحظ أن الباحثين اختلفوا في أصل الأسرة النبتية، وقد ذهب أحد الآراء إلى الأصل الليبي للأسرة، أي أن مؤسسي الأسرة قدموا من ليبيا.

والمقصود بليبيا هنا منطقة الصحراء الغربية. فقد أطلقت المصادر اليونانية القديمة على هذه المناطق الصحراوية اسم (الصحراء الليبية). استند أصحاب هذا الرأي على التشابه الذي لاحظوه في بعض أنواع الأسلحة والأسماء بين الكوشيين، وسكان الصحراء الغربية. وبالطبع فإن ذلك التشابه أمر طبيعي للتداخل والصلات القوية والدائمة بين المنطقتين. لكن أصل الأسرة محلي وليست ليبية، لكنها ترتبط بصلات عرقية وثقافية بسكان الصحراء الغربية. كما أن أصل الأسرة ليس مصرياً، كما يقول البعض، لكنها ترتبط مع المصريين بعبادة آمون، الذي يرى بعض الباحثين أن أصله صحراوي أو كوشي، وليس مصرياً.

فسكان المناطق الواقعة بين جنوب ليبيا غرباً، والبحر الأحمر شرقاً، ودارفور جنوباً كانوا ينتمون إلى سلالة وثقافة واحدة، وقد تأثّروا عرقياً وثقافياً بالهجرات المتصلة من المناطق الواقعة إلى الغرب والجنوب الغربي، وهي مناطق دارفور وكردفان الحاليتين، وامتدادهما شمالاً وغرباً. وقد استمر هذا التمازج بين المنطقتين حتى القرون الأخيرة السابقة للميلاد، حيث أشارت المصادر اليونانية والأكسومية (الحبشية) إلى تأثيره على مملكة مروي.

وهكذا يتبيّن لنا أن الأثر الواضح، على التكوين السكاني في السودان، جاء من ناحية الصحراء الغربية للنيل، نتيجة طبيعية للعلاقة بين المناطق الخصبة ذات الموارد المائية الدائمة، وبين المناطق الجدبة قليلة الموارد، تماماً مثل علاقة صحراء شبه الجزيرة العربية بتاريخ بلاد ما بين النهرين القديم. فالتحرُّكات السكانية حدثت على مرِّ العصور بين الصحراء والنيل، ولم يقتصر تأثيرها على مناطق النيل وروافده فحسب، بل تعدّى ذلك إلى مناطق الشرق، كما رأينا في مثال آثار المجموعة (ج). ولذلك فإنني أرى أن البحث عن تاريخ السودان، على الأقل حتى نهاية العصر المروي، ينبغي أن يتّجه غرباً وليس شرقاً، كما يتردّد في التراث والرويات الشفاهية المحلية في السودان.

النوبا في مملكة مروي والواحة الخارجة

يرى المؤرخون أن بداية العصر المسيحي شهدت تحركات جديدة من منطقة الصحراء الغربية، ربما أتت من مناطق كردفان ودارفور، وانتشرت على طول أراضي مملكة مروي. وقد عرف أولئك المهاجرون في المصادر اليونانية والأكسومية (الحبشية) باسم النوبا. وتناول توروك تلك التحرّكات واجتياحها واستقرارها على أراضي مملكة مروي، وكيف أدى ذلك إلى إضعاف المملكة وتقلّص حدودها إلى مناطق محدودة على نهر النيل شمالي الخرطوم.

يقول توروك: «يمكن تصوُّر أن تكون مجموعات نوباوية بحلول القرنين الأول والثاني الميلاديين قد استقرت في داخل حدود مملكة مروي. ووجود تلك المجموعات قد يكون ولّد عمليات اجتماعية وثقافية قادت بطريقة ما -وهو ما نعرفه في حالات معاصرة أخرى- إلى تفكّك مملكة مروي، والنتيجة النهائية يمكن أن تكون مثل حالات مماثلة لا حصر لها في الجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية؛ استمرارية سياسية تم الاحتفاظ بها عن طريق المصاهرة بين الأسرة القديمة، وزعماء القبائل الجديدة الوافدة التي استقرت في المملكة».[]

وهكذا يشبه توروك -وهو باحث مرموق في تاريخ تلك الحقبة- اجتياح قبائل النوبا لمملكة مروي، باجتياح القبائل الجرمانية للإمبراطورية الرومانية الغربية، وكيف أدّت في النهاية إلى تفتُّت الإمبراطورية من الداخل. والجزء الأخر المهم فيما أورده توروك، أن جماعات النوبة المهاجرين قد أسّسوا مملكة علوة، التي خلفت مملكة مروي في المناطق الوسطى من حدودها. ويلاحظ ظهور اسم النوبا في المصادر اليونانية والأكسومية، وارتباطه بالمهاجرين الجدد والمستوطنين القدامى.

وقد تتبّع الباحثون ما ورد في تلك المصادر عن تحرّكات أولئك المهاجرين، ودرسوا أصولهم، وأماكن استقرارهم، وما ترتب عليه من نتائج. وتوصّلوا إلى أن أولئك المهاجرين لا يختلفون كثيراً عن سكان المناطق التي استقروا عليها على طول النيل وشرقيه، وذكروا أن لونهم يميل إلى السواد أكثر من الشعوب التي استقروا بينها. فهم -كما يرى ماكمايكل- سلالة الشعب نفسه الذي هزمهم سيزستريس الثالث، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد في منطقة وادي حلفا، والذي جعل سمنة التي تقع على بعد 35 ميلاً شمال منطقة مدينة حلفا حداً فاصلاً يُمنَعون من تخطّيه شمالاً.

[]. توروك، «تاريخ ما بعد مروي وأركيولوجيته»، ترجمة: أسامة عبد الرحمن النور، مجلة (أركاماني) الإلكترونية، العدد السادس، 2005م، ص2.

وهم سلالة سكان منطقة الجزيرة الحالية القدماء نفسها، الذين وجدت بعض آثارهم في منطقة جبل مويا غرب مدينة سنار، وذكر ماكمايكل أن الدراسات الآثارية والأنثروبولوجية التي قام بها كل من Derry وSeligman وضّحت أن سلالة سكان منطقة النيل في الشمال حتى وادي حلفا، والذين وجدت صورهم في الآثار المصرية منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والذين كونوا سكان المنطقة في العصور اللاحقة، هم سلالة السكان أنفسهم الذين وجدت آثارهم في جبل مويا بمنطقة الجزيرة الحالية في القرن الثاني قبل الميلاد.[1]

وبناءً عليه فإن السلالة التي كوّنت المجتمع السوداني في الشمال، ومناطق الجزيرة، والبطانة قبل العصر المسيحي، هي السلالة نفسها التي ظهرت في الآثار المصرية منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد. وقد درس العالمان Derry وSeligman مُخلّفات بعض أولئك الشعوب، فأظهرت نتائج الدراسات المعملية لأحجامهم، وجماجمهم، وفكوكهم (جمع فك)، أن أولئك السكان القدماء يشبهون بدرجة كبيرة سكان جبال النوبا الحاليين، مما يشير إلى صلة القرابة بين السلالتين. فسكان السودان القدماء في الشمال، والوسط، والغرب، هم من السلالة نفسها التي تعيش اليوم في جبال النوبا، كما قرّر ذلك الباحثان.

ومما يزيد هذا الرأي قبولاً، الآثار التي وجدت في معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري، والتي ترجع إلى نهاية الألف السادسة عشرة قبل الميلاد. فقد ظهرت أشكال ستة زعماء لقبائل أو لجماعات سودانية من بينهم الـ Irm وNimiu يقدمون الذهب للملكة. وقد رأى ماكمايكل أنه من أسماء وأشكال الزعيمين من الممكن أن يكونا Nimiu أسلاف الـNyima الحاليين في جبال النوبة، والـIrm هم الذين أشارت إليهم المصادر المصرية القديمة في القرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر قبل الميلاد بأرض Irm والتي تقع في منطقة الإستبس الواقعة غربي النيل الأبيض، والمعروفة اليوم بكردفان، حيث ما يزال بعض فروع الميما يعرف بـArmi.

ويبدو مما جاء في الآثار المصرية أن المناطق الواقعة في السودان الأوسط والغربي، كانت مأهولة بالسكان. فالرحلات التي قام بها حرخوف في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد عبر الصحراء غربي النيل، والتي ربما وصلت -كما يرى ماكمايكل- إلى مناطق كردفان

---

[1] Harold Alfred Macmichael، A History of the Arabs in the Sudan، London: Frank Cass & Co. Ltd، 1967، vol. 1، p.20.

ودارفور[]، والحملات العسكرية التي دخلت شمال السودان منذ مطلع القرن العشرين قبل الميلاد، كما يقول محمد إبراهيم بكر، تشير إلى عدد كبير من المناطق المأهولة بالسكان.[] فقد ورد في إحدى حملات سنوسرت الأول، نحو منتصف القرن العشرين قبل الميلاد، أسماء عشر مناطق أولاها منطقة كوش. وورد في أثر آخر أسماء اثنتين وعشرين منطقة.

وكما ذكرنا فإن المصادر اليونانية أطلقت اسم الإثيوبيين بصورة عامة على كل سكان السودان، كما أطلقت اسم النوبا بدرجة أقل شمولاً على السكان. وقد ورد أول ذكر لكلمة النوبا، كما يرى المؤرخون، عند إيراتوستين Eratosthene (276ق.م – 194ق.م)، والذي كان أميناً لمكتبة الإسكندرية. وعنه نقل سترابو Strabo (64ق.م -24م). وقد تمكّن إراتوستين، بحكم وظيفته، من الاطلاع على المؤلّفات السابقة له، والتي كتبت عن مروي والمناطق الواقعة جنوبي مصر، مثل كتابات داليون وسيمونيد، والذي يقال إنه زار مروي، ومكث فيها عدة سنوات. لذلك يمكن اعتبار ما كتبه إيراتوستين عن الأوضاع في السودان راجعاً إلى ما قبل القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وصلت إلينا كتاباته عبر ما نقل عنها كما فعل سترابو.[]

يقول إيراتوستين: «ويسكن النوبا الضفة اليسرى من النيل في ليبيا، وهم قبيلة كبيرة تمتد من مروي وحتى انحناءة النيل. وليسوا تحت حكم المروية Ethiopians، بل ينقسمون إلى ممالك مستقلة متعدِّدة».[] وكتب إيراتوستين اسم النوبا هكذا Noûβoι وهو الرسم نفسه عند بطلميوس، والذي نقله أجاثارس باللاتيني Nubei. وجاءت الإشارة إلى جماعات النوبا قبل القرن الثالث الميلادي في المؤلفات المكتوب باللغة الإنجليزية، كما في ترجمة كتب الجغرافيا لسترابو، والتي أخذت عن إيراتوستين هكذا Nubae، واستخدم بعضها الآخر الرسم اللاتينيNubei ، وجاء رسم الكلمة في ترجمة نص عيزانا Noba.

وقد أطلق الكتّاب اليونانيون اسم ليبيا على كل المناطق الواقعة غربي نهر النيل حتى المحيط الأطلسي. وفي الواقع فإن ليبيا في مفهومهم كانت تعني إفريقيا. وبناءً على ذلك فإن قبائل غربي نهر النيل (النوبا) كانت في القرن الثالث قبل الميلاد منتشرة في المناطق المعروفة

[]. Ibid، vol. 1، p.17.

[]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مرجع سابق، ص 45-48.

[]. Strabo، Geography Book xvii، p 7، (online).

[]. Ibid.

حالياً بـ(كردفان، ودارفور، والصحراء الواقعة جنوب الواحة الخارجة). وقد خرجت هذه القبائل عن طاعة مملكة مروي، وكوّنت وحدات إدارية مستقلة عنها. ولعل خروج تلك القبائل حدث بالتدريج، حيث تكاثرت أعدادها، وربما تمكّنوا من وضع يدهم على مسالك التجارة التقليدية بين مصر ومناطق الجنوب عبر الواحة الخارجة، والواحات الواقعة جنوبيها. وهذا الطريق هو ما عرف في العصور اللاحقة بـ(درب الأربعين). وحرمت تلك القبائل دولة مروي واحداً من أهم مواردها التجارية مما ساهم في ضعفها.

وحافظت قبائل النوبا على مواقعها واستقلالها من مروي في المناطق الواقعة غربي النيل. فعندما دخل سترابو أسوان عام 24 قبل الميلاد، لم يغيُر ما كتبه إيراتوستين عنهم. بل وتأكد ذلك عند الكُتّاب اللاحقين أيضاً، مثل بطلميوس في القرن الثاني الميلادي، فقد ذكر آركل عن بطليموس أن «النوبا Nubei يسكنون الساحل الغربي للنيل والأراضي الداخلية».[1] ويعتقد آركل أن ارتباط النوبا بغربيّ النيل يرجّح أن موطنهم الأصلي امتد من كردفان جنوباً وحتى مناطق غربيّ وادي حلفا شمالاً.

وكانت كردفان كذلك مرتبطة ارتباطاً قوياً بالنيل شمالاً عبر وادي المقدم والملك، اللذين يجريان من شمال كردفان، ويصبان في النيل في منطقتي كورتي والدبة على التوالي. ولم يكن الواديان طرقاً للاتصال فقط، بل كانا مأهولين بالسكان، الأمر الذي يوضّح الصلات السكانية الدائمة بين مروي وكردفان.

ويرجح آركل أن التشابه بين لغة النوبة الحالية في شمال السودان، وبين لغات الكثير من سكان شمال كردفان، يرجع إلى تلك الصِلات. ويرى أن مملكة مروي عندما سقطت في الشمال، ظلت قائمة في كردفان ودارفور. واستدل بأن اسم كوش الذي لم يعد مستخدماً في الشمال بعد سقوط مروي، ظل حياً بين سكان كردفان ودارفور، كما في مناطق جبل ميدوب شمال كرفان، والكاجار، أو البرقد، في وسط دارفور.

ويبدو انتشار جماعات النوبا الواسع في مملكة مروي واضحاً فيما ورد في لوحة عيزانا ملك آكسوم (الحبشة)، والتي دوَّن فيها انتصاراته على دولة مروي. وفيما يلي ترجمة لنص عيزانا من كتاب آركل الذي نقله عن كيروان. وسأكتب بعض الأسماء بالإنجليزية، كما جاءت في ترجمة النص، للمحافظة على طريقة نطقها، بما في ذلك كلمة النوبا، وما كُتب خلال النص بين قوسين معقوفين [ ] ليس جزءاً منه، بل شرح للكلمة المكتوبة قبل القوسين.

---

[1]. Arkell، History of the Sudan، op، p.178.

نقش عيزانا

«أنا ملك الملوك عيزانا ابن Ella' وAmida' مواطن Halen ملك أكسوم وحمير وريدان وSaha وSalhen وSeyamo والبجة وKasu [كوش]. حاربت النوبا [Noba] لأنهم ثاروا وتباهوا بذلك، وقالوا إن الأكسوميين لن يعبروا نهر تكازي [نهر عطبرة]، ولأنهم كرّروا الهجوم على Mangurto والخاسا، والباري [منطقة كسلا الحالية]، وعلى السود [قصد بهم سكان جزيرة مروي الوسطى]، والحمر [قصد بهم سكان شمال مروي]. لقد حنث النوبا عن قسمهم مرتين وثلاثاً، وقتلوا جيرانهم دون رحمة، وهاجموا المبعوثين الذين أرسلتهم للتحقيق معهم بخصوص غاراتهم، وسرقوهم، وجرّدوهم من ممتلكاتهم. وقد حذّرتهم، لكنهم رفضوا الانصياع وتَرْك أعمالهم الشريرة، وتهيّأوا للحرب. فحاربتهم على نهر تكازي عند مخاضة Kemalke فلم يصمدوا وفروا، وطاردتهم 23 يوماً، قتلت بعضهم، وأسرت بعضهم الأخر، وأحرقت مدنهم المشيدة بالقصب، والمشيّدة بالطوب، وأخذت طعامهم ونحاسهم، وحديدهم، وحطّمت التماثيل في معابدهم، وخرّبت مخازنهم، وقُطْنهم، وألقيت بكل ذلك في [Seda النيل]. ثم أتيت إلى Kasu وخضت معركة، وأخذت أسرى عند التقاء نهري تكازي وسيدا. وفي اليوم التالي أرسلت جيش Damawa و Palha وSera للإغارة على القطر، والمدن المشيّدة بالطوب والقصب؛ المدن المشيّدة بالطوب هي مدن علوة وDaro [ربما الكدرو الحالية]. ثم بعد ذلك أرسلت جيش Halen وLaken في مجرى سيدا الأدنى لمحاربة المدن الأربع المشيدة بالقصب.. والمدن المشيدة بالطوب، والتي أخذها النوبا وهي Tabito وFertoti ووصل جيشي إلى حدود النوبا الحمر وهزموهم بعون الإله، ورجعوا بسلام، وعيّنت حاكماً على ذلك القطر عند ملتقى نهر سيدا وتكازي»[62].

62- Ibid، p.122; L. P. Kerwan: A Survey on Nubian Origin»، S.N.R. XX 1937 p.47.

يوضِّح النص أن كل حروب عيزانا كانت موجهة ضد النوبا. وقد سبقت هذه الحرب اتصالات ومراسلات تعدّى فيها النوبا على رُسُل عيزانا، وحنثوا أيمانهم ونكثوا عهودهم، وتمادوا واستعدّوا للحرب، كما وضّح النص. خاض عيزانا حروبه ضد النوبا على نهر عطبرة، وعلى المناطق النيلية شمال وجنوب نهر عطبرة. كما حارب النوبا في منطقة البطانة، والجزيرة، وعلوة وجنوبيّها وشماليّها. وهو في ذلك كله يخاطب النوبا، سواء أشار إلى الوافدين الجدد، أو إلى السكان المحليين.

فالنوبا، في نقش عيزانا، هم الثوار الذين هدّدوا آكسوم على حدودها الغربية بغاراتهم المتكرّرة على سكان مناطق القاش، ونهر عطبرة. والنوبا هم سكان جزيرة مروي، الذين وصفهم عيزانا بالنوبا السود. فالنوبا هم كل سكان منطقة الجزيرة ما بين النيلين الأبيض والأزرق، ومنطقة البطانة بين النيل الأزرق ونهر عطبرة. والنوبا أيضا في النقش هم سكان الشمال الذين وصفهم عيزانا بالنوبا الحمر، فهم سكان نهر النيل شمالي نهر عطبرة وحتى حدود السودان الشمالية.

النوبا في نقش عيزانا هم: أصحاب المدن المشيّدة بالطوب والمشيّدة بالقصب، «وأحرقت مدنهم المشيّدة بالقصب، والمشيّدة بالطوب». وهم أصحاب المزارع، والنحاس، والحديد، والمعابد، والتماثيل، «وأخذت طعامهم ونحاسهم وحديدهم، وحطّمت التماثيل في معابدهم وخرّبت مخازنهم وقطنهم». وبناءً على ذلك، وكما ورد في المصادر القديمة، فـ(النوبا) هو الاسم الذي أطلق على سكان الوسط والشمال، وهو الهوية التي عرف بها جميع أولئك السكان.

ويبدو مفهوم وإطلاق اسم النوبا على كل السكان واضحاً أيضاً حتى بعد سقوط مملكة آكسوم بزمن طويل. فقد جاء في كتابات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الحبشة في القرن الخامس عشر الميلادي، كما ورد عند Crawford أن Nubi هي بلاد المملكتين المسيحيتين اللتين قضى عليهما الفونج. وأن حدود مملكة علوة الجنوبية تمتد حتىAgaua جنوبي بحيرة تانا وDembian شماليها، وأن في إقليم النوبا خمسة أنهر تأتي من الجنوب، والجنوب الشرقي، والجنوب الغربي، قصد بها نهر عطبرة، والنيل الأزرق وفرعيه، والنيل الأبيض.[1]

---

[1]. Crawford، (ed)، Ethiopian Itineraries Circa 1400-1520، Cambridge: University Press، 1955، p. 104-111.

وهكذا يتضح أن شعب النوبا الذي هاجر من المناطق الصحراوية الغربية، واستقر في أراضي مملكة مروي في القرون السابقة لانهيارها في القرن الرابع الميلادي، لم يكن مختلفاً عن الشعوب التي استقر بينها، فكلتا المجموعتين؛ المهاجرة حديثاً والمستقرة من قبل، يرجعان إلى السلالة نفسها التي عرفت بأسماء كثيرة (الكوشيون، والإثيوبيون، والنوبا).

تحرُّك النوبا من صحراء الواحة الخارجة

وهنالك تحرُّك سكاني، آخر من الصحراء الغربية نحو النيل جنوبي أسوان، حدث هذا التحرّك بتشجيع من الرومان الذين خاضوا صراعات دائمة على حدودهم الجنوبية مع القبائل الصحراوية المشهورة باسم البربر. واستخدم الرومان الجمل لقطع الصحراء الكبرى في مطاردة تلك القبائل، غير أن قبائل الصحراء أخذت عنهم استخدام الجمل، وبدأ يحلّ محل الحصان في الصحراء التي كانت حتى ذلك الوقت صالحة لاستخدامه، كما توضح رسومات الخيل الواسعة الانتشار في الصحراء. وأصبح الجمل وسيلة المواصلات الأولى في الصحراء، واستخدمته القبائل للهجوم على الرومان.

وكان الرومان في مصر، في القرن الثالث الميلادي، إلى جانب مواجهتهم خطر القبائل الصحراوية على حدودهم الجنوبية في مناطق الواحات المصرية، كذلك كانوا يواجهون خطر البليميين (البجة) على حدودهم جنوبي أسوان، حيث قام الرومان بتوجيه عدة حملات ضدهم. وللحد من خطر البليميين فكّر الرومان في الاستعانة بإحدى القبائل الصحرواية المجاورة، والتي كانت تهدّد حدودهم في مناطق الواحات، فقدّموا لها عرضاً سخياً وهو السماح لهم بالاستقرار على النيل في منطقة الحدود الرومانية في جنوب مصر، كي يكونوا حاجزاً بينهم وبين البليميين من جانب، ويتخلّصوا من شر غاراتهم بعد الاستقرار على النيل من جانب آخر، فيضربون عصفورين بحجر واحد.

وبالطبع وافقت القبيلة الصحراوية بهذا العرض. وذكر المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (ت 565م)، كما ورد عند كل من ماكمايكل[1] وآركل[2] أن الاتفاق تم بين الرومان في عام 297م للقدوم من الواحة الخارجة X وقبيلة النوباتي (Noβtaι) والاستقرار على النيل جنوبي أسوان، بينهم وبين البليميين، وقد كُتِب اسم تلك القبيلة الصحراوية في الترجمات

[1]. Harold Alfred Macmichael، A history of the Arabs in the Sudan، vol. 1، p24.

[2]. Arkell، A History of the Sudan، op، p.178.

الإنجليزية Nobatae ، وكُتب بالعربية النوباتيين أو النوباطيين.

وقد اتفق المؤرخون أن النوباتيين أتوا من الصحراء الغربية، سواء من منطقة الواحة الخارجة المقابلة لصعيد مصر شمال غربي مدينة أسوان، أو من المناطق الصحراوية الواقعة جنوبيّها. ويرى بدج، كما ذكر ماكمايكل، أن النوباتي قبيلة بدوية قوية، كان موطنها الأصلي في القرن الثالث الميلادي كردفان ودارفور، وعندما استدعاهم الرومان، كانوا قد انتشروا شمالاً حتى الواحة الخارجة[1]، فهم بذلك السلالة النوبية نفسها التي رأينا وجودها في منطقة كردفان ودارفور، قبل القرن الثالث قبل الميلاد، ويحملون الاسم نفسه تقريباً. وهم سلالة النوبا نفسها التي انتشرت في مملكة مروي، كما في نقش عيزانا.

ويبدو انتشار قبيلة النوباتيين على طول المنطقة ما بين كردفان ودارفور والواحة الخارجة مقبولاً للآتي:

أولاً: لأن اسم النوباتي أو النوبا، هو اسم عام يضم سكان المنطقة كلها، فيصدق على القبائل في دارفور، أو كردفان، أو المناطق الشمالية حتى الواحة الخارجة.

ثانياً: كانت تلك المناطق في ذلك الوقت ما تزال تتمتّع بقدر معقول من المطر والمياه الجوفية والسطحية، مما وفّر وسائل الحياة والتجول.

ثالثاً: ما تزال صلات سكان النيل حتى العصر الحديث قوية بالمناطق الغربية، ويتّضح ذلك في تراث بعض القبائل في المنطقة، والذي ربط تحركاتهم مع النيل، مثل تراث قبائل القرعان والتبو والتنجر.

ويبدو أن العلاقات تحسّنت بين النوباتيين والبليميين بعكس ما خطّط له الرومان الذين استقدموهم لمساعدتهم ضد البليميين. فقد ورد في بردية، ترجع إلى الربع الثاني من القرن الخامس الميلادي، كما ذكر مسعد أن أسقف فيلة وجه نداءً للإمبراطور البيزنطي لحماية كنائسه من غارات البليميين والنوباتيين.[2]

وفي بداية النصف الثاني من القرن الخامس، ذكرت المراجع أن القائد الروماني ماكسمينيوس ألحق بالبليميين والنوباتيين هزائم متكررة. وانسحب البليميون إلى جنوبي

---

[1] .Macmichael، A history of the Arabs in the Sudan، op، vol. 1، p.24.

[2] . مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى: بحث في تاريخ السودان وحضاراته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م، ص 13.

أسوان، حيث مركزهم في كلابشة، بينما انسحب النوباتيون جنوبيهم إلى إبريم، ووقعوا معاهدة صلح لمدة مائة عام، لم تكن كل شروطها في مصلحة الرومان.

وقد ظل اتحاد البليميين والنوباتيين قوياً ضد الرومان، حتى أن الرومان اضطروا لدفع مبالغ سنوية محدّدة ثمناً للسلم معهم. ويبدو أن قوة النوباتيين قد نمت في المنطقة إلى جانب البليميين، ووضحت إحدى الوثائق اليونانية الراجعة إلى عامي (535ـ537م) أن البليميين والنوباتيين كانوا ما يزالوان حلفاء. كما ذكر بروكوبيوس نحو نهاية النصف الأول من القرن السادس الميلادي أن البليميين والنوباتيين مازالون وثنيين. غير أن نشاط البعثات التبشيرية وصِلات البيزنطيين بالنوباتيين قد حوّل موقفهم المعادي للمسيحية واعتنقوها، وتمكّنوا بقيادة زعيمهم سلكو من تأسيس مملكة على حدود مصر الجنوبية، عُرفت باسم مملكة نوباتيا منذ عام 530م. بينما واصل البليميون سياستهم المعادية للمسيحية. وكان ذلك إيذاناً بنهاية الود والتحالف بين البليميين والنوباتيين، وبداية الصراع بينهما.

وبعد اعتناق النوباتيين المسيحية تحسّنت العلاقات بينهم وبين البيزنطيين، وتمكّن البيزنطيون من الحصول على تعاونهم ضد البليميين، الذين لم يعتنقوا المسيحية حتى ذلك الوقت، وكانوا دائمي الاعتداء على صعيد مصر. وتمكّن سلكو بالتعاون مع أسقف مدينة فيلة، جنوبي أسوان، والبيزنطيين من تحقيق انتصارات متعددة على منافسيهم في المنطقة، بما فيهم البليميين، ووحّد كل المنطقة تحت حكمه.

سجّل سلكو تلك الانتصارات في نقش باللغة اليونانية في معبد كلابشة، واورد مسعد بعضاً مما جاء فيه: «أنا سلكو رئيس النوباتيين وجميع الإثيوبيين.. وحاربت البليميين.. ثم هاجمتهم للمرة الخامسة حتى توسلوا إليّ، ثم عدت إلى الجزء الأعلى من مملكتي [جنوب حلفا]، ولما تمت لي السيادة عليه، لم أشأ أن أكون في مؤخّرة ملوكه، بل أصبحت في مقدمتهم.. أما عن أولئك الذين نازعوني الزعامة، فإنني لم أسمح لهم بأن يعيشوا في بلدهم إلا إذا التمسوا مني المغفرة.. أما رؤساء الشعوب الذين نازعوني الرئاسة فإنني لم أدعهم يعيشون في الظل بل في الشمس.. ومن قاومني منهم قضيت على أولاده ونسائه».[]

ومن الواضح في النص أن سلكو خاض معارك متعدّدة لتوحيد المنطقة تحت حكمه، ونجح في تحقيق ذلك، مكوناً في منتصف القرن السادس الميلادي أول مملكة مسيحية (مملكة نوباتيا)، التي امتدت من جنوب وادي حلفا وحتى منطقة أسوان شمالاً، واتخذت فرس عاصمة لها.

[]. المصدر نفسه، الملحق الأول، ص 241 243-.

وضّح نقش سلكو أن حروبه كانت في المناطق الواقعة من جنوبي أسوان، وحتى جنوب وادي حلفا. وإلى جانب هؤلاء الملوك في الجنوب خاطب سلكو أيضا: «أولئك الذين نازعوني الزعامة»، و»رؤساء الشعوب الذين نازعوني الرئاسة». ويبدو أن المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثالث -والتي أصبحت تحت حكم سلكو- كانت مأهولة بالسكان ومتعدّدة الزعامات، وكان البليميون في الجزء الشمالي من المنطقة. يبدو أن النوباتيين أنفسهم كانوا تحت زعامات متعدّدة سيطر عليها سلكو. وإلى جانب النوباتيين والبليميين، كانت هنالك جماعات أو قبائل أخرى هزمها سلكو، وهي التي اندرجت تحت اسم الإثيوبيين.

ويلاحظ أن سلكو لقب نفسه بملك (جميع الأثيوبيين)، والإثيوبيون هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون -ومن جاء بعدهم- على كل السكان جنوبي أسوان. ويبدو أن سلكو أشار إلى النوباتيين إشارة مستقلة، باعتبارهم الطبقة الحاكمة التي تمثل المجموعة الجديدة التي استقرت في بلاد الإثيوبيين، ولا يعني أنهم عنصر أو جنس يختلف عن سكان المنطقة.

وقد ارتبط النوباتيون بثقافة بلانة التي تطوّرت إبّان ضعف وانهيار مملكة مروي، وقد أطلق المؤرخون عليها اسم ثقافة المجموعة المجهولة (x-group)، ولم يقبل وليام أدمز هذا الاسم، وفضّل أن تنسب إلى اسم المكان الذي يحتوي على أكثر آثارها، فأطلق عليها ثقافة بلانة، وهذا ما سنتبعه هنا.

عثر على آثار ثقافة بلانة في مناطق متعدّدة بين أسوان شمالاً ومروي الحالية جنوباً، ويرى آركل أن المقابر الكثيرة المنتشرة في المنطقة الواقعة غربي الخرطوم، ربما ترجع إلى ثقافة مشابهة لها. تعود ثقافة بلانة إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين، وقد اتفق الباحثون[1] على أن مكوني هذه الثقافة يتميّزون بوضوح أثر العناصر السوداء أكثر من العناصر السابقة لهم، وبوضوح الثقافة المروية على مخلفاتها. وقد رأى فرث Firth الذي فحص محتويات القبور في العقد الأول من القرن العشرين أن مؤسسي هذه الثقافة هم النوباتيون، الذين استقدمهم الإمبراطور الروماني دقلديانوس عام 297 ليستقروا على النيل جنوبي أسوان. وتبعه في هذا الرأي آركل، وسار عليه كثير من المؤرخين مثل محمد إبراهيم بكر ومصطفى مسعد.[2]

---

[1]. Arkell، History of the Sudan، op، p.181.

[2]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مصر سابق، ص 19.

وأبعد آركل[1] ومن تبعه، أي أثر للبليميين في هذه الآثار، لأنهم -كما يرون- رعاة متجوّلون في الصحراء الشرقية، ولم يسيطروا على تلك المناطق لفترات طويلة، وإنتاج مثل تلك الثقافة يتطّلب استيطاناً طويل المدى. ويبدو أن آركل الذي كتب في منتصف القرن العشرين، ومن وافق رأيه، لم تتح له فرصة الاطلاع على الوثائق التي نشرتها جامعة بيرغن، والتي أشرنا إليها سابقاً، والتي توفّرت عن البليميين في النصف الأخير من القرن العشرين.

فقد وضّحت تلك المصادر أن البليميين بدأوا الاستقرار في مناطق جنوبي أسوان منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبدأت أعدادهم تزداد في المنطقة، حتى أصبحوا منذ بداية العصر المسيحي القوة المسيطرة على المنطقة حتى القرن السادس الميلادي، كما وضحنا أعلاه. ويعنى هذا أن ارتباط البليميين بمنطقة ثقافة بلانة يبلغ نحو 1200 سنة. فكيف يكون وجودهم في المنطقة كما عبّر مسعد وجوداً مؤقتاً؟.

ولم يستخدم آركل المصادر المبكرة، مثل، كتب بلايني، وسترابو، وأولبميودورس.. وغيرهم، والذين ظهر البليميون في كتاباتهم مستقرين في المنطقة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وحتى القرن السادس الميلادي، أي نحو 900 سنة. ويكفي ما ذكره أولبميودورس، الذي زار البليميين في كلابشة في أول القرن الخامس الميلادي، من أنهم سادة المنطقة، وأن المدن الرئيسة ما بين أسوان وحلفا تحت سيادتهم.

الأدلة كلها تشير إلى أنه من غير المقبول، بل ومن المستحيل إبعاد البليميين من ثقافة بلانة، وهم الذين قدموا تاج بلانة، كما ذكر ونتر، هدية للإمبراطور قسطنطين عندما كانوا في سفارة مشتركة مع المرويين عام 336م.[2] ولذلك رأى كثير من الباحثين أن المقابر الملكية التي تم كشفها في المنطقة، هي مقابر ملوك بليميين. وأرى أن تفسير وليام آدمز لظهور هذه الثقافة ومؤسسيها يمثل الرأي المنطقي المقبول.

ماذا حدث للبليميين ولمملكتهم بعد هزيمة سلكو؟. يرى بعض المؤرخين مثل آركل[3]، ومسعد[4]، الذي نقل عن كيروان، ودي فلارد، أن تلك الهزيمة أدت إلى نتيجتين: الأولى

---

[1]. Arkell، A History of the Sudan، op، p.181.

[2]. كلايدي ونتر، «بينة مروية عن الإمبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس»، ترجمة: أسامة عبد الرحمن النور، مجلة الآثار السودانية (أركماني)، العدد 5 مارس 2004م(online).

[3]. Arkell، A History of the Sudan، op، p.184.

[4]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مصدر سابق، ص 18-242.

نهاية المملكة، والثانية طرد البليميين نهائياً من على النيل.

ويبدو واضحاً أنه لم يرد في نص نقش سلكو أنه طردهم من على النيل. فالنص يشير إلى أن سلكو هزمهم أكثر من مرة، واحتل مدنهم وعقد معهم (سلاماً)، وفي ترجمة مسعد عقد معهم «صلحاً ووثقت من أيمانهم هذه لأنهم رجال شرفاء». وقد علّق مسعد في الحاشية على أن ما ورد في النقش «لا يشير صراحةً إلى طردهم من المنطقة».[1]

وفي واقع الأمر فإن النص لا يشير صراحة ولا ضمناً إلى طردهم. وقد علّق بوري على هزمة البليميين قائلاً: «إن تنصير البليميين ساعد الإمبراطور جستنيان على إنهاء كل مظاهر الوثنية».[2] ولم يقل إنه طرد البليميين، بل ذكر تنصيرهم.

غير أن أخبار البليميين انقطعت من المصادر حتى دخول المسلمين مصر، حيث بدأت تظهر بعض أخبارهم في المؤلّفات العربية. لكن هنالك بعض الأخبار التي وردت عنهم في وثائق الجبلين، والنصوص التي جمعها بَرنارد والتي ارتبطت بإقليم طيبة بصعيد مصر، وأرّخ لها بالقرن السادس الميلادي.

ونخلُص إلى أن المجموعات النوباوية المهاجرة التي اجتاحت مملكة مروي، والتي أدت إلى انهيارها، قد استقرت على أراضيها، واختلطت بالسكان الذين كانوا يعرفون في المصادر اليونانية والرومانية بالإثيوبيين والمرويين، مكوّنة سكان تلك المناطق قبل العصر المسيحي. وفي الوقت نفسه استقرت مجموعة النوباتيين الذين هم سلالة النوبا نفسها في مناطق وادي حلفا، واختلطت بالسكان البليميين، وغيرهم من السكان الذين عرفوا في المصادر اليونانية والرومانية بالإثيوبيين والمرويين.

ومن الجدير بالملاحظة، أن المؤلفات الغربية الحديثة التي كتبت عن علاقة الرومان في مصر بدولة مروي John Wacher تناول كل سكان المنطقة جنوبي مصر تحت اسم النوبا قبل القرن الثالث الميلادي، أي قبل دخول النوباتيين، وجعلت نباتا عاصمة النوبا.[3] فاستخدام النوبا في تلك المراجع أتى مرادفاً لكلمة المرويين والإثيوبيين الذين تشير إليهم تلك المرجع.

---

[1]. المصدر نفسه.

[2]. Bury: History of the Late Roman Empire، New York: Dover Publication، 1958 p. 330.

[3]. John Wacher (ed)، The Roman World، London: Rutledge، 2002.

من هم النوبة في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر[1]

كانت مصر عندما دخلها المسلمون تحت حكم البيزنطيين، وكانت الإمبراطورية البيزنطية امتداداً للإمبراطورية الرومانية. فالرومان عندما تعرضت إمبراطوريتهم لغزو القبائل الجرمانية، وعجزت عن الدفاع عن أراضيها، أنشأت عاصمة جديدة في شرق الإمبراطورية لتكون بعيدة، وفي مأمن من هجوم تلك القبائل. واختاروا موقعاً حصيناً في مكان إسطنبول الحالية. وكان هذا الموقع يدعى بيزنطة، فأسسوا عليه عاصمتهم، وأطلقوا عليها اسم القسطنطينية. واشتد هجوم القبائل الجرمانية، واستولوا على أراضي الإمبراطورية الرومانية في وسط وغرب أوروبا.

وفي النهاية سيطرت القبائل الجرمانية على روما، وأنهوا بذلك الإمبراطورية في الغرب، غير أن الإمبراطورية ظلت حية في الشرق في عاصمتها القسطنطينية، وسيطرت على ما تبقى من أراضي الإمبراطورية في شرق أوروبا، وجنوب وشرق البحر المتوسط بما في ذلك مصر. وعرفت الدولة باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، غير أن الاسم القديم للمكان الذي قامت عليه، وهو بيزنطة، اشتهر وأصبح علماً للإمبراطورية، فعرفت بالإمبراطورية البيزنطية، كما عرفت عند المسلمين بإمبراطورية الروم، أو دولة الروم. وهو الاسم الذي ورد في القرآن الكريم في سورة (الروم). ويشبه هذا ما حدث لعاصمة العباسيين التي أنشأها الخليفة أبوجعفر المنصور في منتصف القرن الثاني الهجري، وأطلق عليها مدينة السلام، غير أن هذا الاسم لم يشتهر، وعرفت ببغداد، وهو اسم المكان القديم الذي أنشئت عليه العاصمة.

وقد تعرّضت مصر عبر تاريخها القديم لسلسلة من الغزوات والهجرات، كان آخرها هجرات اليونانيين، فدخلت تحت حكم الإسكندر الأكبر في آخر القرن الثالث قبل الميلاد، واتصل ذلك بحكم البطالمة، ثم الرومان، وأخيراً البيزنطيين. وتدفّقت نحو مصر خلال هذه الفترة السابقة للفتح الإسلامي -والتي تقدر بنحو ألف سنة- لمجموعات كبيرة من المهاجرين اليونانيين والرومان.

ولذلك فقد خاطب العرب عند دخولهم مصر في معاهدة عمرو بن العاص ثلاث فئات من السكان؛ أهل مصر، والنوبة، والروم. والأمر الذي يسترعي الانتباه في تلك الاتفاقية هو تردّد ذكر النوبة بصورة منفصلة ومتميِّزة عن أهل مصر، مما يثير افتراض وجود النوبة

---

[1]. John Wacher (ed)، The Roman World، London: Rutledge، 2002.

بثقل واضح ومتميز كمّاً وكيفاً عن أهل مصر. وفيما يلي نص الاتفاق نقلاً عن ابن كثير، وقد قسّمنا النص إلى فقرات لكي يسهل تتبعه.[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

1. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم، ومِلّتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصُلُبهم، وبَرِّهم وبَحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص.
2. ولا يساكنهم النوبة.
3. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جُنِيَ لصونهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته رفع عنهم بقدر ذلك.
4. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة، فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم.
5. ومن أبى [من النوبة والروم]، واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا.
6. لهم ما عليهم أثلاثاً، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين.
7. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً.
8. على أن لا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة.
9. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر.

جاء نص الاتفاق هذا في كثير من المصادر العربية، مثل كتاب (البداية والنهاية)، لابن كثير -الذي أخذ منه هذا النص- وكتاب (الكامل في التاريخ)، لابن الأثير، وكتاب (صبح

[1]. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن ضوء، البداية والنهاية، (موقع الوراق)، ج7 ص7.

الأعشى)، للقلقشندي، وكتاب (النجوم الزاهرة)، لابن تغري بردي. وورد باختلاف طفيف عند الطبري، وابن خلدون، الذي وضّح أنه نقله عن الطبري، فقد جاءت الكلمة (النوب) مرتين في نص الطبري بدلاً عن النوبة (في الفقرتين 2 و4 أعلاه). ووردت في المرة الثالثة (النوبة) (فقرة رقم 7 أعلاه)، فجاء هذا الجزء من النص عند الطبري كالآتي: «لا يساكنهم النوب.. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب.. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً».

وجاءت الإشارة في الاتفاق إلى ثلاث مجموعات هم: 1ـ أهل مصر. 2ـ النوبة. 3ـ الروم. ووضحت المصادر العربية أن أهل مصر في نص الاتفاق يراد بهم الأقباط. وكلمة (الروم) في النص تشير إلى الرومان والبيزنطيين سواء أكانوا جنوداً أم مَن استقر منهم في مصر. والسؤال هنا هو: من هم النوبة الذين وردت الإشارة إليهم في الاتفاق؟.

ويبدوا واضحاً أن كلمة (النوب) فى نصّي الطبري وابن خلدون المراد بها النوبة، وذلك لأن الإشارة أتت إليهم باسم النوبة عند كليهما في نهاية النص. ولم تختلف المصادر العربية في أن المعنيين بالنوب في النص هم النوبة، وإن لم توضح تلك المصادر من هم أولئك النوبة.

وقد أتت كلمة (نوب) في المصادر العربية في أكثر من مكان مرادفة لكلمة النوبة. فقد ذكر ياقوت الحموي الذي حاول أن يجد للكلمة أصلاً في اللغة العربية فذكر أن: «نوبة بضم أوله وسكون ثانيه وياء موحدة، والنوب جماعة النحل ترعى ثم تنوب إلى موضعها. فشبّه ذلك بنوبة الناس، والرجوع لوقت مرة بعد مرة. وقيل النوب جمع نائب من النحل، والقطعة من النحل تسمى نوبة، شبهوها بالنوبة من السودان، وهو في عدة مواضع».[]

وجاء في لسان العرب: «قال أبوحنيفة: ومريس أدنى بلاد النوب التي تلي أرض أسوان».[] كما ورد في تاج العروس: «قالوا أسود لوبيّ ونوبيّ منسوب إلى اللوبة والنوبة، وهما للحرة. قال شيخنا: وقيل هو نسبة إلى اللوب لغة في النوب الذي هو جيل من السودان.. النوبُ والنوبةُ بالضم جيل من السودان، الواحد نوبي.. النوبَ والنوبة جيل من السودان، والمصنف هنا فرّق بينهما فجعل النوب جيلاً والنوبة بلاداً».[]

[]. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، في: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية العربية، مرجع سابق، ص 165.

[]. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، (موقع الوراق)، ج1 ص315.

[]. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (موقع الوراق)، ج1 ص948 و990 و991.

ويوضح هذا أن (النوبَ) بفتح الباء وبدون تاء في آخر الكلمة كما ضبطها الزبيدي أعلاه هم النوبة، وهذا يَرُدّ بوضوح على ما وقع فيه لين بول من لبس إذ اعتقد أن (النوب) في نص الاتفاق يراد بهم الجنود الرومان. وقد ناقش بتلر ذلك باستفاضة، وبيَّن خطأ لين بول. وتوصل بتلر مستنداً إلى أدلة تاريخية أن (النوب) في النص يراد بهم النوبة. لكنه لم يتعرّض لما ورد في المصادر العربية من ترادف كلمتي النوب والنوبة.[1]

وفي مكان آخر ذكر الطبري: «لما نزل عمرو على القوم بعين شمس؛ وكان المسلك بين القبط والنّوب، ونزل معه الزبير عليها، وقال أهل مصر لمليكهم ما تريدون من قوم فلّوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم؟ صالح القوم ولا تعرض لهم ولا تعرض لهم».[2]

وقد أوضح الطبري وغيره من المؤرخين المسلمين المبكرين أن المفاوضات بين المسلمين والبيزنطيين كانت تدور بواسطة رجال الكنيسة القبطية. فالأقباط كانوا أقرب للمسلمين من البيزنطيين. وبناءً على ما ذكره الطبري في النص الأخير «المسلك بين القبط والنّوب»، فهل شارك النوبة الأقباط في التفاوض مع المسلمين لإقناع البيزنطيين بالاستسلام؟.

وقد حدث أيضاً خلط في هذا النص (المسلك كان بين القبط والنّوب)، أدّى إلى عدم التمكّن من فهمه فهماً صحيحاً. ففي بعض نسخ كتاب الطبري أتى النص كالآتي: «لما نزل عمرو على القوم بعين شمس؛ وكان الملك بين القبط والنّوب».[3] ويبدو أن حرف السين في كلمة (المسلك) قد سقطت في هذا النص وأصبحت الكلمة (الملك) بدلاً عن المسلك. ويبدو أن هذه هي النسخة المترجمة التي رجع إليها لين بول وبتلر. وحاول بتلر أن يوضح قوة النوبة وإمكانية أن تكون لهم سلطة مع الروم.

وتتبادر إلى الذهن هنا بعض الأسئلة حول ما ورد عن النوبة في اتفاق المسلمين مع أهل مصر، وحول ما ورد عن مشاركتهم في مفاوضات الصلح مثل:

- هل شارك النوبة أو البجة البيزنطيين في حروبهم للمسلمين؟.
- كيف كان حجم الوجود النوبي الكمي والكيفي في مصر، حتى يخاطبوا في المعاهدة أكثر مما خوطب به الروم حكام مصر؟.

---

[1]. Butler، A. J. The Treaty of Misr in Tabari، p. 39 – 43.

[2]. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، المعروف بتاريخ الأمم والملوك، في: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 35.

[3]. المصدر نفسه.

505

- هل شارك النوبة في مفاوضات الصلح.. ولماذا؟.
- وإلى أين كان خروج النوبة الذين خرجوا وفقاً للاتفاق في البند رقم 5.
- وأين كان النوبة الذين دخلوا في صلح مع المسلمين؟.
- فكيف خاطبت معاهدة أهل مصر النوبة في ذلك الوقت المبكر وقبل بداية الحروب بين المسلمين ومملكة نوباتيا؟، هل تدخل النوبة أو تدخَّلت مملكة نوباتيا في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين في مصر؟.

لمحاولة فهم ذلك الوضع هنالك جانبان مهمان في هذا الصدد بحاجة إلى المزيد من البحث والتقصي:

- الجانب الأول يتعلّق بعلاقات النوبة بالبيزنطيين في مصر قبيل الفتح الإسلامي.
- الجانب الثاني يتعلّق بالفتوحات الإسلامية في الصعيد الأعلى من مصر.

- **علاقة النوبة بالبيزنطيين**

من المعروف أن النوباتيين أقاموا مملكتهم على حدود مصر الجنوبية، فهل كان لهم وجود على أراضي مصر شمالي أسوان؟ ومن المعروف أيضاً أن النوباتيين اعتنقوا المسيحية وفقاً لتعاليم الكنيسة المصرية، والتي لم تكن على وفاق مع كنيسة القسطنطينية التي يؤيّدها الأباطرة. ونشبت خلافات وصراعات حادة بين الكنيستين أدى إلى ممارسة الإدارة البيزنطية العنف ضد قادة الكنيسة المصرية القبطية، مما أدّى لوقوف الأقباط إلى جانب المسلمين عند فتح مصر.

هل انعكس ذلك الصراع على علاقات النوباتيين التابعين للكنيسة القبطية ضد البيزنطيين قبل دخول المسلمين مصر؟. ذكر بتلر، استناداً إلى مصادره، أن البيزنطيين أرسلوا عام 580م -أي قبل نحو ستين سنة من دخول المسلمين مصر- حملة ضد النوبيين، كما ذكر أنه كان هنالك جنود نوباتيون، أو جنود من النوبة في الجيش البيزنطي.

وكان إقليم الصعيد في العصر الروماني، كما يقول بتلر، متميّزاً عن منطقة شمالي مصر. فقد كانت مصر الرومانية مقسَّمة إلى ثلاث مديريات (Provinces). المديرية الأولى: مصر، وتمتد من البحر المتوسط جنوباً حتى منطقة الأقصر الحالية. المديرية الثانية: ليبيا، وتقع إلى الغرب من مصر على البحر المتوسط. المديرية الثالثة: طيبة، أي منطقة الأقصر الحالية وتمتد جنوباً حتى أسوان. فهل كان للنوبة استقرار في هذه المنطقة؟.

ويرى بعض الباحثين أن كلمة البقط التي أطلقت على الاتفاقيات بين المسلمين ومملكة مقرة ترجع إلى أصل لاتيني يوناني الجذر pactum استخدمها البيزنطيون بمعنى التزام أو ميثاق مشترك، وما يرتبط به من عمليات دفع بين طرفين، كما عند يوسف فضل[]، أو بمعنى اتفاق تجاري بين قوتين أو دولتين تتمتّعان بالاستقلال الكامل كما عند كراوفورد.[]

وارتباط كلمة pactum البيزنطية بعلاقات المسلمين ومملكة مقرة يثير التساؤل عن طبيعة العلاقات بين البيزنطيين والنوباتيين؛ هل كانت هنالك اتفاقيات تجارية أو التزامات أو مواثيق مشتركة بين الجانبين؟، خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن البيزنطيين، كما أوردت المصادر، كانوا قد لجأوا إلى ما يعرف بنظام المحالفة، أو المعاهدة، مع الشعوب التي تعيش على أطراف حدودهم، فقد ارتبط هؤلاء المحالفين بمعاهدة تحالف مع البيزنطيين، تعهدوا فيها بحماية حدود الإمبراطورية مقابل إعفائهم من الضرائب أو الإتاوات، وتطوّر الأمر إلى أن أصبح هؤلاء المحالفين يحصلون على أموال مقابل تلك الخدمات.[]

ومن المعروف أن البليميين (البجة)، كانوا مستقرين في إقليم طيبة في العصر البيزنطي، بل كانوا حكاماً لبعض المناطق. فقد ذكر مصطفى مسعد ثلاث وثائق مكتوبة باللغة اليونانية تؤكّد ذلك، ونورد هنا ترجمة واحدة منها:

«أنا شاراشن ملك البليميين، أكتب إلى أولادي شاراشن وشاراتكور وشاراهيت، أنه طبقاً لأمري هذا فقد منحتكم حكم الجزيرة المعروفة باسم تناري، وألا يقف في سبيلكم أحد، وإذا أثار الرومان مشاكل وامتنعوا عن دفع الإتاوة العادية لكم، فإنه لا الفيلاركولا الهيبوتيرانوس يمنعانكم من إرغام الرومان على دفع العطايا العادية عن جزيرتي».[]

وتقع جزيرة تناري هذه على نحو 25 ميلاً جنوب مدينة الأقصر الحالية، والتي كانت عاصمة لإقليم طيبة. ويشير النص إلى وجود مستوطنين رومان في الجزيرة، وأنه على الإداريين البيزنطيين ألا يمنعوا أبناء الملك شاراشن من تحصيل الالتزامات المالية المفروضة على أولئك المستوطنين الرومان. وقد نقل مسعد أيضاً عن، وولي وماسيفر، أن البليميين لم

[]. Hasan، Yousef Fadl، The Arabs and the Sudan. Khartoum: Khartoum University Press، 1973، p.24.

[]. Crawford، (ed.): Ethiopian Itineraries Circa 1400-1520، op، p. 23.

[]. إبراهيم خميس إبراهيم، دراسات في تاريخ مصر البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م، ص10.

[]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مصدر سابق، ص251-252.

يكونوا مجرد غزاة، بل أنهم استقروا في منطقة طيبة حيث أقاموا حكومة مدنية.[1]

فالصِلات بين إقليم طيبة والبجة -وربما النوباتيين- في عصر البيزنطيين كانت قوية لم تقتصر على العلاقات التجارية والخدمة في الجيش البيزنطي فقط، بل تعدّت ذلك إلى المشاركة في الأوضاع الإدارية في إقليم طيبة. وأرى أن فهم الصِلات المبكرة بين المسلمين في مصر من جهة، وبين البجة والنوباتيين، من جهة أخرى، يتطلّب ضرورة الاهتمام بدراسة علاقات البيزنطيين مع البجة والنوباتيين.

- **الفتوحات الإسلامية في صعيد مصر**

يلاحظ أن المصادر العربية -كتب الفتوح والتاريخ- قد سكتت عن حروب المسلمين في صعيد مصر، عدا إشارات قليلة وعابرة، لا تُمكِّن من فهم وتتبُّع الفتوحات الإسلامية في تلك المنطقة. فالبلاذري قال: «لما فتح عمرو بن العاص الفسطاط وجّه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها، وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجّه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم، والأشمونين، وأخميم، والبشر، ودات، وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك»[2].

فالبلاذري اختصر كل حروب المسلمين في صعيد مصر في جملة واحدة، وليس من الواضح: هل كانت هنالك مقاومة في صعيد مصر أم لا؟، وإلى أين وصلت جيوش المسلمين في الصعيد؟. فقد ذكر أسماء خمس مناطق وصلتها قوات المسلمين، ثم اختصر بقية حروب المسلمين بقوله «وقرى الصعيد» دون تفصيل. كما وضّح البلاذري أن المسلمين وقّعوا مع أهل الصعيد صلحاً مثل صلح عمرو بن العاص مع أهل شمال مصر، لكنه لم يورد بنود الصلح، وأغلب الظن أن يكون هنالك أكثر من صيغة صلح واحد، لأن الصلح أو الاتفاق يعقب كل معركة.

أما ابن عبد الحكم، فقد جاء ما ذكره عن فتوحات المسلمين بصعيد مصر أكثر اختصاراً، فقد ذكر أنه «لما تم الفتح للمسلمين، بعث عمرو جرائد الخيل إلى القرى التي حولها، فأقامت في الفيوم سنة، لم يعلم المسلمون بمكانها، حتى أتاهم رجل فذكرها لهم (...). ويقال بل بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى أتى القيس، فنزل بها، وبه سميت القيس، فراث [أبطأ] على عمرو خبره، فقال ربيعة بن حبيش كفيت، فركب فرسه فأجاز عليه

---

[1]. المصدر نفسه.

[2]. البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م، ص214.

البحر، وكانت أنثى، فأتاه بالخبر. ويقال إنه أجاز من ناحية الشرقية حتى انتهى إلى الفيوم»[1].

فرواية ابن عبد الحكم لا تذكر شيئاً عن حروب المسلمين جنوبي الفيوم التي تقع بالقرب من القاهرة، والتي يبدو أن المسلمين اعتبروها أول الصعيد. وذكر أن المسلمين أقاموا في مصر سنة كاملة، ولم يرسلوا قواتٍ للصعيد، حتى أنهم لم يكونوا يعلمون بموقع الفيوم. وبالطبع فإن الرواية بهذه الصورة من الصعب قبولها، إذ لا يعقل أن يظل المسلمون سنة في الوجه البحري لمصر ولا يعلمون شيئاً عن مناطق الصعيد.

ومن الملاحظ أن المصادر الأخرى التاريخية والجغرافية والموسوعات لم تتعرّض لفتوحات المسلمين في الصعيد. ورغم أن عبد الله بن سعد قضى عدة سنوات والياً على الصعيد حتى عام 25هـ قبل أن يخلف عمرو بن العاص والياً على مصر كلها، فالمصادر لم تذكر حروبه في الصعيد، وباستثناء ما ورد عن حربه للنوبة، وما عدا ما أوجزه ابن حوقل، حيث ذكر أنه «فتح مدينة أسوان، وكانت مدينة أزلية قديمة، وكان عبر إليها من الحجاز، وقهر جميع من كان بالصعيد بها من فراعنة البجة وغيرهم»[2].

ويلاحظ أن حروب عبد الله بن سعد لم تُوجّه من الفسطاط عاصمة المسلمين في شمال مصر، بل أتت عبر البحر الأحمر من شبه الجزيرة العربية مباشرة. ولا تتضح الحروب التي خاضها عبد الله بن سعد في الصعيد، ما عدا ما ورد عن إخضاعه أسوان. ويلاحظ أن ابن حوقل تحدث عن ثلاث مجموعات حاربها عبد الله بن سعد وهم: 1ـ أهل أسوان. 2ـ فراعنة البجة. 3ـ وغيرهم. فهنالك مجموعتان إلى جانب أهل أسوان، هما البجة وغيرهم، فهل غيرهم هنا إشارة إلى النوباتيين؟، ولماذا وصف البجة بالفراعنة، وهو الوصف المفروض يصدق على أهل أسوان؟. يظل وجود البجة والنوبة في صعيد مصر في حاجة إلى المزيد من الاهتمام.

والمصدر الوحيد الذي تناول حروب المسلمين في صعيد مصر، هو الواقدي (ت 207ه/823م)، في كتابه الذي تحمل إحدى طبعاته اسم فتوح الشام. وفي واقع الأمر فإن الكتاب تضمّن فتوح الشام، والعراق، ومصر. ورغم أن الكتاب طبع عدة مرات منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلا أنه يلاحظ عليه أنه يحمل طابع الملاحم، وعدم تحري الدقة في الأخبار.

---

[1]. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص125.

[2]. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، ص 59، نقلاً عن: مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص55.

وقد اطّلعت على ثلاث نسخ من الكتاب، النسخة التي ضمنها مصطفى مسعد في كتابه (المكتبة السودانية)، وهي نسخة مأخوذة عن الكتاب تحت اسم (فتوح مصر والإسكندرية)، والنسخة الثانية من موقع الوراق (warraq.com)، وذكر الموقع أنه أخذها من طبعة مكتبة ابن خلدون بدون تاريخ. والنسخة الثالثة طبعة بيروت دار الجيل بدون تاريخ، وهي النسخة المستخدمة هنا، ورغم أن عنوانها (فتوح الشام)، إلا أنها تناولت فتوح مصر. وتتفق النسخ الثلاث في المعلومات التي سنتعرّض لها. غير أن مصطفى مسعد لم ينقل النص كاملاً.

أورد الواقدي معلومات مفصّلة عن الحروب الطويلة التي خاضها المسلمون في صعيد مصر، كما تناول أيضاً سكان الصعيد، وأشار لوجود النوبة بالصعيد في قوله: «لما فتح عمر بن الخطاب، مصر، والإسكندرية، والبحيرة، والوجه البحري كله، كان بالصعيد نوبة، وبربر، وديلم، وصقالبة، وروم، وقبط».□ وذكر في أكثر من موضع استنجاد البيزنطيين بالبجة والنوبة، قبل المعارك الفاصلة مع المسلمين.□

ورغم أنه ذكر أن البجة والنوبة لم يرسلوا قوات لمساعدة البيزنطيين بسبب الحرب التي نشبت بينهما، إلا أنه عاد وذكر وصول جيوش (حليف) ملك النوبة، و(مكسوج) ملك البجة، وتحدث عن مشاركتهم القتال مع البيزنطيين. وذكر أنه: «كان مع ملك البجة ألف وثلثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفائح الفولاذ، في كل قبة عشرة من السودان، طوال القامة، عراة الأجساد، على أوساطهم وأكتافهم جلود النمور.. وغيرها، ومعهم الدرق، والحراب، والكرابيج، والقسي، والمقاليع، والأعمدة الحديدية، والطبول، والقرون، وكانت عدتهم عشرين ألفاً».□

ولم يذكر الواقدي وَصْف أو عدد جنود النوبة، كما فعل مع البجة، لكنه قدّر عدد الجنود الذين حاربوا المسلمين في الصعيد بـ«مائتي ألف فارس وخمسين ألف راجل من النوبة، والبربر، والبجاوة، والفلاحين».□

ورغم أن رواية الواقدي عن حروب المسلمين بالصعيد تعتبر -بصورة عامة- رواية

□. الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، (د. ت)، ج1 ص211.

□. المصدر نفسه، ج2 ص47 و55 و58.

□. المصدر نفسه، ج2 ص60.

□. المصدر نفسه، ج2 ص227 و243 و249.

ضعيفة، إلا أنها قد تتضمن بعض الإشارات التي من الممكن التوقّف معها قليلاً. فقد ذكر الواقدي عدد الأجناس التي كانت بصعيد مصر إبّان الفتح الإسلامي، بما فيهم النوبة والروم، العنصران اللذان تناولتهما شروط صلح عمرو بن العاص مع أهل مصر. ومن ناحية ثانية لو أخذنا ما ذكره الواقدي من مشاركة النوبة والبجة في الحرب إلى جانب البيزنطيين، لأمكننا افتراض وجودهم في محادثات وشروط الصلح بين المسلمين وأهل مصر.

- **عودة إلى النوبة في اتفاقية الصلح**

ومن خلال ما أمكن تسليط بعض الضوء عليه من علاقات البيزنطيين بالنوبة والبجة قبيل الفتح الإسلامي، وما ورد عن إمكانية وجود النوبة في صعيد مصر إلى جانب البجة، وما ورد عن حروب المسلمين المبكرة في صعيد مصر، نعود إلى التساؤلات التي طرحناها عن النوبة في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر. فقد خاطبت هذه الاتفاقية ثلاث فئات متميزة من النوبة هم:

الفئة الأولى: النوبة الذين لا يساكنون أهل مصر، (فقرة رقم 2).

الفئة الثانية: النوبة الذين دخلوا في صلح مع المسلمين، (فقرات رقم 4 و7 و8).

الفئة الثالثة: النوبة الذين لم يدخلوا في صلح المسلمين، (فقرة رقم 5).

الفئة الأولى النوبة الذين لا يساكنون أهل مصر

يلاحظ عدم وضوح وضع ما يتعلّق بهذه الفئة من النوبة في الصلح. فقد خاطبت الفقرة الثانية من الاتفاق النوبة بصورة عامة، ونصّت على أن لا يساكنوا أهل مصر. فهل نفترض أنه على النوبة مغادرة مصر؟، أو نفترض قبولهم في مصر؟، ولكن المطلوب منهم عدم مساكنتهم أهل مصر؛ بمعنى أن لا يعيشوا بينهم، بل يعيشون منعزلين، وهل هذا الانعزال في المساكنة فقط؟، أم في الحياة الاجتماعية أيضاً؟.

وإذا افترضنا أن منع النوبة من مساكنة أهل مصر في الاتفاق، يعني عدم قبولهم داخل حدود مصر، وينبغي عليهم مغادرتها، وجدنا أن هذا التفسير يتعارض مع باقي بنود الاتفاق الخاص بالنوبة، وخاصة البند رقم (4)، والذي ينصّ على أن من دخل من النوبة في اتفاق المسلمين يصبح وضعه كوضع أهل مصر، عليهم ما على أهل مصر من الواجبات، ولهم ما لأهل مصر من الحقوق. أي أن هذا البند لم يفرّق بين من قبِل الصلح من النوبة وبين أهل مصر. فوضع النوبة هنا مساوٍ لوضع أهل مصر، الأمر الذي لا يتفق مع ما ورد من عدم

مساكنة النوبة لأهل مصر بصورة عامة دون تخصيص لفئة منهم. فالبند الثاني يطلب منهم عدم البقاء في مصر، والبند الرابع يعطيهم بعض حقوق المواطن المصري!.

ويبقى البند رقم (2)، والذي ينصُّ على أن لا يساكن النوبة أهل مصر، في حاجة للمراجعة من أجل الفهم الواضح، وأغلب الظن أن نصّ الاتفاق ربما تعرَّض لبعض التحريف أثناء تداوله في مراحل الرواية المبكرة، أو حدث ذلك أثناء نقله من مخطوط لآخر. وإذا قبلنا هذا الافترض يمكن استبعاد هذا النص من تتبُّعِنا للنوبة في بنود صلح عمرو بن العاص مع أهل مصر حتى التحقّق من صحته. ويبقى لدينا الفئتان الأخريان من النوبة، وهما: من دخل صلح المسلمين، ومن لم يدخل في الصلح.

الفئة الثانية النوبة الذين دخلوا في صلح مع المسلمين

جاء نص الاتفاق مع هذه الفئة كالآتي: (أرقام الفقرات كما كتبناها في نص الاتفاقية):

4ـ من دخل في صلحهم من الروم والنوبة، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم.

7ـ وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً.

8ـ على أن لا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة.

تناولت الفقرة رقم (4) الفئة التي اختارت الدخول في صلح أهل مصر، وأقرّت الاتفاقية أن لهم مثل ما لأهل مصر، وعليهم مثل ما على أهل مصر. وقد وضّح البند الأول من الصلح ما لأهل مصر من الحقوق وهي: «الأمان على أنفسهم، وملتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبهم، وبَرِّهم وبحرهم». ووضّح البند رقم (3) ما عليهم من الواجبات، وهي أن يؤدوا ما فرضته عليهم الاتفاقية من الضرائب التي وُضِّح مقدارها وكيفية دفعها.

ويبدو واضحاً أن ما ورد في البند رقم (4)، والذي وضّح أن للنوبة الذين استجابوا لصلح المسلمين لهم مثل ما للمصريين، قصد بها الحقوق المتعلّقة بالأمان على النفس، والمال، والكنائس، وما ورد في بقية البند رقم (4) والذي جعل للنوبة المصالحين ما على المصريين من الواجبات لم يقصد بها الضرائب التي فرضت على أهل مصر، لأن البند رقم (7) من الاتفاقية وضّح ما ينبغي على النوبة دفعه من ضرائب، وهي عدد محدّد من الرقيق والخيل. وهذا يختلف عن ما فرض على أهل مصر.

ونظم البند رقم (8) علاقات النوبة بالمسلمين، تعهّد فيها المسلمون بألا يغزوا النوبة،

ولا يمنعوهم من تجارة صادرة أو واردة. والتعهّد بعدم الغزوٍ هنا يوحي بأن هذا الاتفاق لم يتم مع قوم داخل حدود المسلمين. وبقية البند رقم (8) ينظّم العلاقات التجارية بين النوبة والمسلمين، ونصَّ على ألا يمنع النوبة من تجارة صادرة أو واردة. وتجارة الصادر والوارد تكون عبر الحدود، فكأن شروط الصلح سمحت للنوبة بهذا النشاط عبر حدود المسلمين، والإشارة هنا تنصرف إلى حدود مملكة نوباتيا. فأغلب الظن أن الخطاب هنا لم يوجَّه إلى فئة داخلية، بل وُجِّه إلى كيان أو مملكة مستقلة.

فالافتراض المقبول أن هذين البندين رقم (7) ورقم (8) يخاطبان جماعة غير مستقرة داخل الحدود المصرية، والنوبة غير المستقرين داخل الحدود المصرية هم النوباتيون على حدود مصر الجنوبية، وهم الذين أطلق عليهم العرب اسم النوبة. فهل النوبة المخاطبون في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر مقصود بهم النوباتيون؟، وهل شارك النوباتيون في حروب البيزنطيين ضد المسلمين، فأتت الإشارة إليهم في الصلح؟.

ليس من السهل إعطاء إجابة سريعة عن ذلك، وقد حاول بعض الباحثين التعرُّف على أولئك النوبة. فمصطفى مسعد رأى أن النوبة هنا مقصود بهم سكان مملكة نوباتيا. وذهب إلى أن هذا النص (البندان 7 و8) يرجع إلى هدنة وقّعت بين النوبة والمسلمين بعد المعركة التي وُصِف فيها النوبة برماة الحدق.[1] ومن المعروف أن معاهدة أهل مصر مع عمرو بن العاص وقّعت بعد هزيمة البيزنطيين مباشرة، أي قبل حروب المسلمين مع النوبة، والتي يفترض مسعد أن الشروط التي وردت عن النوبة في معاهدة أهل مصر تعود إليها. ويبدو ذلك مستبعداً للفارق الزمني الكبير بين الحملتين، إلا إذا افترضنا مشاركة النوباتيين مع البيزنطيين في حربهم للمسلمين، وهو الأمر الذي لم يرد في المصادر المعروفة لنا، ولم يفترضه مسعد. كما حاول بتلر أن يجد تفسيراً لورود اسم النوبة في معاهدة أهل مصر، فذكر أن المسلمين عند دخولهم مصر كانوا يعتقدون أن النوبة جزء من مصر، ولذلك ضمّنوهم في الاتفاق. ولا أرى أن ذلك مقبولاً، لأن المسلمين كانوا حريصين على دقة بنود معاهداتهم، ولا أعتقد أن المسلمين يقعون في مثل هذا الخطأ الكبير فيضيفون قوماً لا وجود لهم داخل مصر في نطاق الاتفاقية، إضافة إلى أن مصر لم تكن غريبة تماماً على المسلمين.

ويظل السؤال قائماً: من هم النوبة في اتفاقية عمرو بن العاص مع أهل مصر؟.

---

[1]. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، مصدر سابق، ص112.

الفئة الثالثة النوبة الذين لم يدخلوا في الصلح

نص البند رقم (5) في صلح أهل مصر أن من أبى الدخول في هذا الصلح من النوبة والروم «واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه»، أي يخرج إلى حيث يجد الأمان. وأضاف البند «أو يخرج عن سلطاننا» أي يخرج عن حدود سلطة المسلمين، ويعني ذلك يخرج خارج حدود مصر. فالنوبة هنا عوملوا معاملة الروم نفسها، واعتبروا أجانب في أرض مصر، وعليهم الخروج، ولا بد أن خروجهم سيكون إلى مملكة نوباتيا.

وإذا ألقينا نظرة عامة إلى وضع النوبة في صلح عمرو بن العاص لأهل مصر، نجد أنه من الصعب الخروج بخاتمة واضحة. فالبند رقم (2) يخاطب النوبة بصورة عامة أن لا يساكنوا المصريين، ثم يأتي البند رقم (4) ويخاطب من دخل من النوبة في الصلح ويعطيهم حقوقاً مساوية للمصريين «له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم»، ولكنّ البندين رقمي (7) و(8) يحملان ما يرجّح أن هؤلاء النوبة الذين عوملوا معاملة المصريين غير مستقرين داخل حدود مصر، الأمر الذي يجعل فهم وضع النوبة من قبل الصلح صعباً. والوضع الواضح هو من لم يدخل في صلح النوبة فعليه مغادرة الأراضي المصرية. فوضع النوبة في صلح عمرو بن العاص لأهل مصر بفئاتهم الثلاث يحتاج إلى مزيد دراسة وبحث.

إطلاق كلمتي نوبة ومريس
ومراحل استخدامهما في المصادر العربية

تناولنا فيما سبق ظهور كلمة النوبا، واستخدامها في المصادر اليونانية والرومانية، ورأينا أنها كانت تطلق إطلاقاً عامّاً على جميع سكان السودان في الغرب، والوسط، والشمال. فكلمة النوبا في تلك المصادر مرادفة لكلمة الإثيوبيين. وسنتناول هنا ظهور ومراحل استخدام كلمة نوبة في المصادر العربية.

لم تطلق كلمة النوبة في المصادر العربية في كل الأوقات على منطقة واحدة بعينها، بل ورد إطلاقها عامّاً مرة، ومحدوداً مرة أخرى. وفي كلتا الحالتين قد يأتي إطلاقها دون الإشارة إلى أيٍّ المعنيين هو المقصود. وفي هذه الحالة ينبغي على القاريء التعرُّف على مدلول كلمة النوبة، هل هو إطلاق عام، أم إطلاق خاص؟ فعندما يقول المسعودي: «ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة، يؤدون خراجها إلى ملك النوبة». فالنوبة هنا تعني -من خلال المفهوم العام للنص- المنطقة الشمالية من مملكة مُقُرة المجاورة

لأسوان فقط. وعندما يقول المسعودي: «وأما النوبة فافترقت فرقتيْن». يشير هنا إلى نوبة علوة ونوبة مُقُرة، كما وضَّح في ما تبقى من النص. وأحياناً أخرى ترد كلمة النوبة، ولا يوضِّح النص المعنى المراد بها؛ وهنا ينبغي علينا أن نتبصّر ونتأنّى في حكمنا على معنى كلمة النوبة، حتى نتوصّل إلى دلالتها، أو ما يمكن أن تكون دلالتها. كما في كلمة النوبة في نص عهد البقط عند المقريزي.

ولو رجعنا إلى الفترة التي سبقت دخول المسلمين مصر، لوجدنا أن المملكة التي كانت تجاور حدود مصر الجنوبية هي مملكة نوباتيا، ويطلق على سكانها اسم النوباتيين، وكانت على علاقات طيبة مع البيزنطيين، الذين هزمهم المسلمون وأجلوهم من مصر. سكان مملكة نوباتيا هم أول من تعامل المسلمون معهم من سكان مناطق جنوبي أسوان. ويبدو معقولاً أن المسلمين أطلقوا عليهم اسمهم الذي وجدوه في المنطقة، وهو النوباتيين، أو النوباتي، وهو الاسم الذي أصبح (النوبة) فيما بعد في اللسان العربي. فيكون اسم (النوبة) في الوثائق الإسلامية المبكرة راجعاً إلى مملكة نوباتيا المجاورة للحدود المصرية.

وتوجد بعض الأدلة التي تساعد على قبول هذا الرأي. أولاً يرى كثير من المؤرخين أن المسلمين عندما دخلوا مصر وجدوا ثلاث ممالك هي، من الشمال إلى الجنوب: مملكة نوباتيا، وعاصمتها فرس. ومملكة مُقُرة، وعاصمتها دنقلة. ومملكة علوة، وعاصمتها سوبا. فالمسلمون تعاملوا مع أول مملكة واجهتهم جنوبي أسوان، وهي التي كانت تعرف بنوباتيا.

ويبدو مما ورد عند ابن سليم الأسواني (ت 386ه/996م) أن إطلاق اسم النوبة كان –حتى عصره– يصدق بصورة خاصة على منطقة شمال وادي حلفا الحالية. فقد كتب ابن سليم تاريخه عن كل المنطقة ما بين أسوان حتى حدود علوة وما جاورها جنوباً. إضافة إلى منطقة البجة. وأطلق على كتابه (أخبار النوبة، والمقرة، وعلوة، والبجة، والنيل) ورغم أنه عرف بمؤرخ النوبة، إلا أنه تناول تاريخ ثلاث مناطق منفصلة فيما عرف ببلاد النوبة وهي: (النوبة، ومُقُرة، وعلوة)، مما يؤكِّد أن لفظ النوبة حتى وقته كان يطلق بصورة خاصة على المناطق الواقعة إلى الشمال من مملكة مُقُرة.

ويبدو الفصل واضحاً في استخدام المصادر العربية لكلمتي (نوبة، ومُقُرة)، فيما أورده ياقوت الحموي، عندما تحدّث عن ملك دنقلة، حيث قال: «وكتاباته إلى عماله وغيرهم من

. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958م، ج2 ص17.

كابيل ملك مُقُرة ونوبة».[1] ورغم أن مملكة مُقُرة تدخل تحت المعنى العام لكلمة (نوبة)، إلا أن لكلمة نوبة خصوصيتها في الاستعمال، حيث كانت تطلق على الجزء الشمالي لمملكة مُقُرة، وهي مملكة نوباتيا.

ويميز ابن سليم بوضوح في أكثر من موضع، بين النوبة الذين هم سكان شمال مُقُرة أو نوباتيا، وبين سكان مملكة مُقُرة. يقول مسعد: «اعلم أن النوبة ومُقُرة جنسان بلسانين، كلاهما على النيل، فالنوبة وهم المريس المجاورون لأرض الإسلام».[2] فالنوبة متميِّزون عن سكان مملكة مُقُرة، وبالطبع متميِّزون عن سكان مملكة علوة. ورغم أن المصادر تطلق كلمة النوبة كثيراً في معناها العام، وتريد بها كل المناطق، من أسوان وحتى علوة، إلا أنها أطلقت كلمة النوبة على وجه الخصوص، ويريدون بها المنطقة الواقعة ما بين حلفا وأسوان فقط.

فلماذا هذه الخصوصية؟. ربما كان مصدرها أن أغلب سكان هذه المنطقة الواقعة بين أسوان شمالاً وحلفا جنوباً هم المهاجرون الذين وفدوا من الصحراء الغربية في القرن الثالث الميلادي، واستقروا إلى جانب البليميين، ثم أسَّسوا تحت قيادة سلكو المملكة التي عرفت باسمهم (مملكة نوباتيا)، فارتبط اسم النوبة عند المسلمين الأوائل بهذه المنطقة.

بلاد المريس

وقد أطلقت المصادر العربية اسم (المريس) على هؤلاء النوبة، سكان هذه المنطقة، ووضح ابن سليم أن حدود المريس تمتد حتى بستو في منطقة الشلال الثالث، والتي هي: «آخر قرى مريس، وأوّل بلد مقرة، ومن هذا الموضع إلى حدّ المسلمين لسانهم مريسي، وهي آخر عمل متملكهم»، فمن هم المريس الذين تمتد حدودهم في مملكة مُقُرة؟[3].

ذكر الجاحظ أن «النوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام».[4] ووضَّح المسعودي: «أن البلد المتصل بمملكته [ملك مُقُرة] بأرض أسوان يعرف بمريس، وإليه تضاف الريح

[1]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 166.

[2]. مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 98.

[3]. ابن سُليم الأسواني، عبد الله بن أحمد، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص89.

[4]. الجاحظ، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص405.

المريسية، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان». []

وفي أثناء تناوله المشكلة التي أثارها المسلمون الذين اشتروا ضياعاً من سكان منطقة جنوب أسوان، ولم تسمح لهم السلطات بتملكها، باعتبار أن المواطنين الذين باعوا تلك الأراضي لا يملكون حقّ التصرف فيها، لأن الأرض ملك للملك، وما هم إلا عبيدٌ للملك. ذكر المسعودي أن السكان لم يقرّوا بالعبودية للملك، وأقرّت ملكيتها لمن اشتروها. وأضاف: «وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس، وصار النوبة أهل مملكة. هذا الملك نوعان: نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد، وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لأسوان، وهي بلاد مريس». فأرض المريس المجاورة لأسوان تعتبر من ضمن بلاد النوبة. وحدّد المسعودي: «أن أهل مصر يُسمُّون أعالي الصعيد إلى بلاد النوبة مَرِيس». أشار المسعودي هنا إلى مملكة مُقُرة ببلاد النوبة إلى جانب مريس، وفي النص أعلاه ذكر: «بأرض النوبة من بلاد مريس» [] فأحياناً يشير المسعودي إلى مملكة نوباتيا بمريس، وأحيانا يشير إليها كجزء من أرض النوبة.

ولم تنحصر منطقة مريس في المصادر العربية على جنوبي أسوان فقط، بل تمتد شماليها. يقول اليعقوبي: «إن عجم مصر جميعاً القبط، فمن كان بالصعيد يسمون المريس». [] وعن مدينة إسنا في صعيد مصر ذكر أنه «يقال إن أهلها المريس». [] ووردت الإشارات نفسها تقريباً عند المقريزي حيث قال: «كان أهل مصر يُسمُّون من سكن من القبط بالصعيد المريس» []، وعن مدينة الأقصر ذكر أنه يقال «إنّ أهلها المريس» [].

وقد تناولت المصادر العربية – التاريخية والجغرافية والقواميس العربية، كما في الجدول (1)، بلاد مريس، وحدّدت موقعها وحدودها. غير أن المصادر لم تتفق على بداية الحدود الشمالية لبلاد مريس. فقد اتفق كل من اليعقوبي، والمسعودي، والزبيدي، وابن منظور، واليافعي، على أنها ممتدة داخل صعيد مصر. جعلها الزبيدي وابن منظور (من بلاد الصعيد)

[]. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج2 ص18.

[]. المصدر نفسه، ج2 ص22.

[]. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، كتاب البلدان، (موقع الوراق)، ج1 ص42.

[]. المصدر نفسه، ج1 ص 40.

[]. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، منشورات مكتبة العرفان لبنان، (د. ت)، ج1 ص161.

[]. المصدر نفسه، ص254

دون تحديد لموقعها في بلاد الصعيد، بينما وضعها المسعودي في أعالي الصعيد على حدود مصر، فذكر: «أن أهل مصر يسمون أعالي الصعيد إلى بلاد النوبة مَرِيس.. البلد المتصل بمملكته [ملك مُقُرة] بأرض أسوان يعرف بمريس».[1] أما اليافعي فقد جعلها «قرية من قرى مصر».[2] وذكر كل من اليعقوبي، والمقريزي، أن سكان مدينتي إسنا والأقصر بصعيد مصر يطلق عليهم المريس.

- **جدول (1): ما ورد في المصادر العربية عن موقع مريس**

الحدود الشمالية	امتداد الحدود داخل بلاد النوبة	الحدود الجنوبية
أعالي الصعيد (المسعودي)	بأرض النوبة (المسعودي)	بيستو -جنوب الشلال الثاني- آخر قرى مريس (ابن سليم)
من بلدان الصعيد (الزبيدي، ابن منظور)	جزيرة ببلاد النوبة (ابن منظور)	
قرية من قرى مصر (اليافعي)	أدنى بلاد النوبة التي تلي أسوان (أبو حنيفة)	بين بلاد النوبة والسودان (اليافعي)
من مدن الصعيد (اليعقوبي، المقريزي)		
البلاد المجاورة لأسوان (المسعودي)		
البلد المتصل بمملكة مُقُرة بأرض أسوان (ابن سليم)		

الجدول من إعداد المؤلف

[1]. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق.

[2]. اليافعي، عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، (موقع الوراق).

ونخلص من ذلك إلى أن المصادر العربية المبكرة والمتأخرة قد وضّحت أن الصعيد الأعلى من أرض مصر، كان تابعاً لبلاد مريس، وأن سكان بلاد الصعيد من منطقة الأقصر جنوباً كان يطلق عليهم (مريس)، مما يعني أن تلك المناطق كانت تعرف ببلاد مريس. وبناءً عليه فإن الحد الشمالي يبدأ -كما أعلاه- من بلاد صعيد مصر، ويمكن تحديده بمنطقة الأقصر. أما حد مريس الجنوبي فقد وضعه ابن سليم ـ الذي مر بالمنطقة ـ بوضوح في مدينة بيستو عند الشلال الثالث، والتي قال عنها: «وهي آخر قرى مريس، وأول بلد المُقُرة».[1]

ونقل مسعد عن دي فيار أن حدود مريس الجنوبية كانت تنتهي في مدينة المقس الأعلى عند الشلال الثاني، وأن بيستو تمثّل آخر امتداد للغة الكنوز. وهذا لا يتفق مع عبارة ابن سليم الصريحة التي وضحت أن مدينة بيستو عند الشلال الثالث: «هي آخر قرى مريس وأول بلد المُقُرة»، كما ذكرنا أعلاه.

وقد وردت بعض أسماء مناطق ومدن في بلد مريس، فقد ذكر ابن سليم أن مدينة بجراش -فرس الحالية- كانت عاصمة مريس[2]، وأن بلدة تقوى عند الشلال الثاني من بلاد مريس.[3] وأورد أبو صالح الأرمني عن مدينة إبريم أن بها مسكن «صاحب الجبل، وجميع من بها مريس».[4]

فبلاد مريس قبل الفتح الإسلامي كانت مقسَّمة إلى قسمين: القسم الشمالي تحت الإدارة البيزنطية، يقاسمهم البليميون (البجة) إدارة بعض المناطق، والقسم الجنوبي من بلاد مريس هو مملكة نوباتيا والتي تمتد حدودها حتى الشلال الثالث، كما ذكر ابن سليم. وبالطبع فإن مملكة نوباتيا لم تكن موجودة في عصر ابن سليم، فقد ضمّتها مملكة مُقُرة بعد نحو ثمانية عقود من دخول المسلمين مصر. لكن تحديد ابن سليم بني على امتداد العنصر السكاني المريسي حتى عصره جنوباً حتى الشلال الثالث. ولما كان المريسيون هم سكان مملكة مريس، أو نوباتيا فقد وضع ابن سليم حدها الجنوبي عند نهاية هذا العنصر البشري عند الشلال الثالث.

وقد ذكرنا أن سكان هذه المنطقة ينتمون إلى الشعوب التي استقرت في المناطق الوسطى

---

[1]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مرجع سابق، في: مسعد، المكتبة السودانية.

[2]. المصدر نفسه، ص92.

[3]. المصدر نفسه، ص 140.

[4]. أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

لوادي النيل، وأقامت الثقافات المبكرة منذ العصور القديمة بين صعيد مصر وموقع مدينة الخرطوم الحالية، هي ذات السلالة التي أسّست عصر الأسرات في صعيد مصر. وقد تعرّضت المنطقة لبعض الهجرات من المناطق الغربية لوادي النيل، ومن المناطق الجنوبية؛ مكونة السلالات التي أقامت حضارة كوش في حقبها المتتالية، حتى العصر المروي.

وفي القرون القليلة السابقة لفتح المسلمين مصر، اشتهرت مجموعتان من سكان هذه المنطقة هما: (البليميون والنوباتيون). ورغم أن الملك سلكو، مؤسس مملكة نوباتيا، أشار في نقشه المشهور إلى عناصر سكانية أخرى في المنطقة، إلا أنه لم يُسمِّها، بل ورد اسما البليميين والنوباتيين فقط. وقد تناولنا بشيء من التفصيل هاتين القبيلتين فيما سبق. وقد رأينا أن النوباتيين أسّسوا مملكة نوباتيا المسيحية في منتصف القرن السادس الميلادي على حدود مصر الجنوبية. وعلى هذا فإن مملكة نوباتيا قامت على أرض مريس الواقعة إلى الجنوب من أسوان.

- **مملكة مريس**

عندما فتح المسلمون مصر بقيادة عمرو بن العاص، وجدوا في بداية الأمر مملكة نوباتيا، فحاربوها ووقعوا معها الاتفاقيات كما سنوضح ذلك، ولذلك احتفظت روايات الأخباريين المبكرة بأحداث المسلمين مع مملكة نوباتيا في أرض مريس. وظلت علاقة المسلمين بأرض مريس ومملكتهم نحو خمسين سنة، قبل أن تتحد نوباتيا مع مملكة مُقُرة. وبعد اتحاد المملكتيْن لم يعد لممكة نوباتيا وجود، وأصبحت أرض مريس جزءاً من أراضي مملكة مُقُرة.

وفي القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي) -أي بعد نحو قرنين من نهاية مملكة نوباتيا- بدأ تدوين كتب الفتوح والتاريخ والجغرافيا العربية وازدادت -في هذه الفترة- صلة المسلمين ومعرفتهم بالشعوب المجاورة لهم جنوباً. وحملت تلك المؤلفات الروايات المبكرة عن حروب المسلمين والنوباتيين الذين عرفهم العرب باسم النوبة، ولم يعُد لاسمي النوباتيين ومملكة النوباتيين حياة في ذاكرة رواة الأخبار المعاصرين، لظهور المؤلفات في القرن الثالث الهجري والقرون التالية، ولذلك لم يعُد إطلاق كلمة النوبة قاصراً على سكان منطقة مريس فقط، بل توسَّع ليشمل الكثير من العناصر السكانية في جنوب مصر.

فالمصادر العربية المبكرة والمتأخرة لم تستخدم كلمة (النوباتيين أو مملكة النوباتيين)، إذ اختصر العرب كلمة النوباتيين فأصبحت النوبة، وأصبح النوباتيون يعرفون في المصادر العربية بالنوبة. وأطلقوا على مملكة النوباتيين اسم مملكة مريس، وهو اسم المكان الذي قامت

عليه المملكة. فالجاحظ الذي عاش في القرن الثالث الهجري ذكر أن «النوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام».[1]

وفي القرن (الـ4 الهجري /الـ10 الميلادي) بيّن ابن سليم الأسواني -المنسوب إلى أسوان، والذي كتب تاريخ المنطقة بعد زيارتها- بوضوح الفرق بين النوبة والسكان المجاورين لهم جنوباً، فقال: «اعلم أنّ النوبة والمقرة جنسان بلسانين، كلاهما على النيل، فالنوبة هم: المريس المجاورون لأرض الإسلام، وبين أوّل بلدهم، وبين أسوان خمسة أميال».[2]

وفي القرن الرابع الهجري أيضاً، صوّر لنا المسعودي الوضع على حدود مصر الجنوبية قبل نهاية مملكة نوباتيا، فقال المسعودي: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما افتتح عمرو بن العاص مصر، كتب إليه بمحاربة النوبة، فغزاهم المسلمون، فوجدوهم يرمون الحدق، وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم، حتى صُرف عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبي معلومة، مما يسبي هذا الملك المدعو بملك مريس المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة وغيرها من أرض النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب».[3]

يوضح هذا النص بصورة قاطعة أن عبد الله بن سعد حارب النوبة في أرض مريس، وأن الملك الذي وقع معه الصلح هو ملك مريس، وليس ملك دنقلة. وهنالك بعض الأدلة الأخرى التي تؤيّد وجود مملكة مريس بعد خمسين سنة من حرب عبد الله بن سعد عام 31هـ.

فقد ذكر أبا مِنا Abba Mina الذي كتب حوالي عام (81ه/700م) سيرة بطريرك الإسكندرية إسحق (67-70ه/ 686-689م) ما يفيد وجود مملكتي مريس (نوباتيا)، ومملكة مُقُرة، ككيانين منفصلين حتى سنة (81ه/700م). وأشار إلى أن العلاقات بينهما كانت متوترة، إذ من المعروف أن المسيحية دخلت مُقُرة على مذهب الكنيسة البيزنطية، بينما تبعت نوباتيا مذهب الكنيسة المصرية. قال أبا مِنا: «في الحقيقة يوجد ملكان في المنطقة، كلاهما مسيحيان، ولكن ليس بينهما سلام، لأن واحد منهما ملك موريتانيا دخل في صلح

[1]. الجاحظ، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 405.

[2]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 90.

[3]. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 2 ص 21.

مع المسلمين، والآخر ملك مُقُرة العظيم، ولم يكن في صلح مع المسلمين». [1]

وقد أطلق أبا مِنا لقب (ملك موريتانيا) على (ملك نوباتيا)، كما جرت عادة بعض الكتاب الأقباط عندما يتحدّثون عن نوباتيا. فقد أورد أبا مِنا نفسه في بقية نصه الذي أشرنا إليه ما يوضح أن مملكة موريتانيا تقع شمال مُقُرة. وقد ذكر John of Nikiou الذي كتب عام (67هـ/686م) «أن بربر منطقتي نوباتيا وإفريقية يدعون بالموريتانيين». [2]

فنصُّ أبا مِنا الذي كتب بعد خمسين سنة من صلح عبد الله بن سعد مع النوبة، يوضِّح وجود ملكيْن، هما ملك الموريتانيين (مريس أو نوباتيا) والذي كان على صلح مع المسلمين، وإشارة الصلح هنا تعود بالطبع إلى صلح عبد الله بن سعد. والملك الثاني ملك مُقُرة والذي لم يكن في صلح مع المسلمين. ويؤيد هذا أن اتحاد المملكتيْن تم بعد حروب عبد الله بن سعد التي كانت عام 31هـ، وهو الرأي الذي قبله كثير من المؤرخين، مثل، كيروان، وعلي عثمان، وآدم.

وقد ذكر الأب ج. فانتيني، أثناء تناوله سيرة بطريرك كنسية الإسكندرية إسحق القبطي، أن هذا البطريرك بعث برسالة لكل من ملك موريتانيا (أي نوباتيا)، وملك مُقُرة، داعياً إليهما إلى التصالح بينهما، لأن كليهما مسيحيان. وكان ملك نوباتيا يمنع وصول مبعوث البطريرك إلى مملكة مُقُرة، كما يمنع وصول رسول مملكة مُقُرة إلى البطريرك عبر أراضيه. [3]

وبناءً عليه، استنتج فانتيني أن مملكة نوباتيا كانت ما تزال مستقلة عن مملكة مُقُرة في زمن البطريرك إسحق القبطي (70-75هـ/686-689م). وذكر فانتيني أن لوحة التدشين في كاتدرائية فرس (89هـ/707م) وضّحت اسم ملك مُقُرة مرقوريوس باعتباره الملك الوحيد لكل من نوباتيا ومُقُرة، مما يوضِّح أن المملكتين كانتا متحدتين في عصر هذا الملك. [4]

وقد أورد هذا الحديث ساورس بن المقفع، لكنه نسب الرسالة من البطريرك إلى ملك الحبشة وملك مُقُرة. [5] وربما اعتمد فانتيني على مصدر آخر غير كتاب ساورس، رغم أنه أورد كتاب ساورس ضمن مصادره، فقد ترجم فانتيني ونشر مجموعة من النصوص السوريانية

---

[1]. Abba Mina Vantini، Oriental Sources Concerning Nubia، p. 36.

[2]. John of Nikioumm، La Choronique de Jean de Nikiou، in Vantini، p. 43.

[3]. جيوفاني فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، 1978م، ص 74.

[4]. المصدر نفسه.

[5]. ساورس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 77.

522

والقبطية عن النوبة. ويبدو أن فانتيني كان مطمئناً لمصدره -الذي لم يوضحه- فقد ذكر أن العلماء استندوا على هذه الرسالة في أن ملك مُقُرة كان تابعاً لطائفة الأقباط، بينما كان ملك نوباتيا تابعاً لطائفة الروم.[1]

ونعود إلى المصادر العربية التي أطلقت بوضوح (أرض مريس) على المناطق المجاورة لأسوان جنوباً، وأطلقت على مملكتها (مملكة مريس) التي حاربها عبد الله بن سعد، ووقّع معها الصُلح الذي اشتهر فيما بعد بمعاهدة البقط. وأطلقت المصادر العربية على سكان مملكة مريس اسم (النوبة)، وهو الاسم الأصلي الذي أتى من الصحراء الواقعة إلى الغرب من النيل، وهو Nobatae.

وقد استخدمت المصادر العربية اسم النوبة أيضاً للدلالة على معنى عام، ضم سكان كل الممالك المسيحية: (مريس، ومُقُرة، وعلوة). فأصبح لكلمة النوبة دلالتين، دلالة خاصة تصدق على سكان منطقة مريس. ودلالة عامة تصدق على سكان الممالك المسيحية الثلاث.

ولعل عنوان كتاب ابن سليم يشير بوضوح إلى دلالة النوبة على المعنى الخاص بأهل مريس، فقد فصَل فصلاً واضحاً بين النوبة من جهة، ومُقُرة وعلوة من جهة أخرى. وقد فعل الشيء نفسه أبو صالح الأرمني عندما تحدث عن السلطة في ممالك السودان فقال: «ملك النوبة له النوبة وأعمالها، وأرض علوة ومُقُرة والأجناس المضافة إليها».[2] فالفصل واضح بين النوبة الذين هم سكان مريس، أو مملكة نوباتيا القديمة، وبين مملكتي مُقُرة وعلوة.

وعلى هذا فإن اسم النوبة قد مر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى؛ النوباتيون: وقد أطلق على سكان مملكة نوباتيا قبل دخول المسلمين مصر.

المرحلة الثانية؛ النوبة: أطلقه المسلمون عند دخولهم مصر على النوباتيين سكان الجزء الجنوبي من بلاد مريس.

المرحالة الثالثة؛ تعميم المصادر العربية لإطلاق كلمة النوبة لتشمل سكان مناطق (مريس، ومُقُرة، وعلوة).

---

[1]. فانتيني، تاريخ المسيحية، مرجع سابق.

[2]. الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 144.

- **وصف بلاد مريس**

أتى وصف بلاد مريس في بعض المصادر العربية، ولعل أكثرها شمولاً ما أورده ابن أبي الفضائل، وابن الفرات، وابن سليم. فقد جاء وصف المنطقة لابن أبي الفضائل، وابن الفرات، عندما تناولا حملة السلطان المملوكي الملك الظاهر بيبرس عام (674هـ/1275م) على مملكة مُقُرة، ودخولها عاصمة المملكة مدينة دنقلة. كما ورد وصف المنطقة عند ابن سليم الأسواني (ت 386هـ/996م)، والذي دخل مملكة مُقُرة، وقابل ملكها في عاصمته دنقلة مبعوثاً من قِبَل الخليفة الفاطمي في مصر.

ويلاحظ أن المصادر العربية الأخرى التي توسَّعت في ذكر أخبار الحروب بين المماليك ومملكة مُقُرة، مثل، مؤلّفات النويري، والمقريزي، لم تتعرّض لتفاصيل سير حملة الظاهر بيبرس، كما فعل ابن أبي الفضائل، وابن الفرات.

- **جدول (2) المناطق بين الشلال الأول وبلاد العَلي**

رقم	ابن أبي الفضائل	ابن الفرات
1	جزيرة بِلاق	جزيرة بِلاق
2	لهاستة	لم يذكرها
3	يودي	يوي
4	أرض الما	أرض الماء
5	الفَيْنق	الفَتيق
6	دَمْهيت	دَمْهيت
7	هندوا	هندو
8	دَرْبن	درتين
9	الهِرية	الهِرية
10	إقليم البِرَيك ويعرف بالسبع قرى	اقليم البِرَيك ويعرف بالسبع قرى
11	وريحادي	-
	بـــــــــلاد العَلي	

الجدول من إعداد المؤلف

أورد كل من ابن أبي الفضائل (ت759هـ/1358م)[1]، وابن الفرات (ت 807هـ/1305م)[2]، أسماء عدد كبير من المدن والمواضع في بلاد مريس، في المنطقة الممتدة بين الشلال الأول والثاني، وقسَّماها إلى قسمين؛ القسم الشمالي من جزيرة بلاق جنوب الشلال الأول، وحتى ويحادي، وهو الموضع رقم (11) كما في الجدول (2)، ولم يعطيا اسماً لهذا القسم، والقسم الثاني أطلقا عليه بلاد العَلِي.

ورغم أن حملة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس وصلت إلى مدينة دنقلة وتخطّتها جنوباً، إلا أن المعلومات المفصَّلة عن طريق الحملة التي ذكرها المؤلِّفان انحصرت كلها في المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني، كما يتضح في جدول (2). وسنبدأ هنا بتتبُّع تلك المواضع بتناول المنطقة الواقعة بين الشلال الأول وبلاد العَلِي.

- **منطقة ما بين الشلال الأول وبلاد العَلِي**

يوضح الجدول (2) أسماء أحد عشر موضعاً بين الشلال الأول وبلاد العَلِي، والتي فتحها السلطان المملوكي في حملته على مملكة مُقُرة، كما ذكرها كل من ابن أبي الفضائل وابن الفرات في هذه المنطقة. ويلاحظ أن المصادر التي عاصرت حملات المماليك على مملكة مُقُرة لم تذكر أسماء المناطق التي مرّت بها الحملة، وبالتالي لم يرِدْ ذكر في تلك المصادر لهذه الأماكن. وحتى ابن سليم الذي زار هذه المنطقة لم يذكر إلا موضعَين فقط هما: جزيرة بلاق، ومدينة القصر، المجاورتين لأسوان، ثم انتقل من هنالك مباشرة إلى منطقة العَلِي.

وقد أورد كل من ابن أبي الفضائل، وابن الفرات، أسماء المناطق فقط دون التعريف بها أو التعريف ببعضها، وحتى ذِكْرها لم يرد مرتباً حسب موقعها الجغرافي من الشمال إلى الجنوب. ولا يبدو أن المؤلفَين قد اعتمدا على مصدر واحد، للخلاف الواضح في الأسماء المذكورة. فقد ذكر ابن أبي الفضائل أسماء أحد عشر موضعاً، بينما ذكر ابن الفرات تسعة مواضع، كما اختلفا في كتابة بعضها كما في الأسماء أرقام 3 و5 و7 و8 في الجدول.

وإذا استثنينا جزيرة بلاق، فإنه من الصعب جدّاً التعرُّف على باقي المناطق، لأنها لم

---

[1]. ابن أبي الفضائل، المفضل بن أبي الفضائل القبطي المصري، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 252.

[2]. ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 267.

ترد في المصادر العربية الأخرى. ومما يزيد الأمر صعوبة أن هذه المنطقة ترقد الآن تحت مياه بحيرة السد العالي. ولعل البحث فيما تيسّر من الكتابات التي تناولت سير قادة الكنيسة القبطية، وما تم التنقيب عنه من كتابات باللغات النوبية القديمة واليونانية والعربية، وما تم العثور عليه من مواد أثرية أخرى في المنطقة قبل أن تغمرها مياه السد يساعد في التعرُّف على بعض معالم تاريخ المنطقة.

وإذا رجعنا إلى تاريخ هذه المنطقة في عصر ثقافة بلانة، وهي الفترة السابقة للعصر المسيحي، فإن نتائج الأعمال الآثارية تمدُّنا ببعض المعلومات، كما يتضح في خريطة آدمز، فقد تم الكشف في هذه المنطقة على عدد كبير من الجبانات بلغ ثلاثة وثلاثين موقعاً على طول المنطقة، وتم الكشف أيضا عن مستوطنتين إحداهما مستوطنة كبرى في منطقة كلابشة التي كانت عاصمة للبليميين (البجة) في عصر ثقافة بلانة، ومستوطنة صغرى في منطقة وادي العرب في آخر الجزء الجنوبي لهذه المنطقة. وهذان هما فقط الاسمان اللذان ظهرا على خريطة آدمز.[1]

وفي الفترة المسيحية المبكرة التي تلت عصر ثقافة بلانة، وردت أيضاً على خريطة أخرى لآدمز أسماء أربع مناطق منها مركز رئيس هو Qurta (كرته)، كما هو مكتوب في الترجمة العربية من كتاب آدمز، كما ظهرت أسماء ثلاث مستوطنات محصنة، هي من الشمال إلى الجنوب: (كلابشة، وسقمورة، وإخميندي)، ولا توجد هذه الأسماء أيضاً بين أسماء المناطق التي وردت في فتوحات السلطان المملوكي في هذه المنطقة. كما تضمنت الخريطة آثار خمس عشرة كنيسة على طول المنطقة.[2]

ويلاحظ أن الموضع الأخير رقم (11) في الجدول أطلق عليه (إقليم البريك، ويعرف بالسبع قرى). فالتعبير بإقليم يوحي بامتداده وسعته، واتفاق الكاتبين على وصفه بـ(السبع قرى)، يوحي أيضاً أنه كان منطقة كبيرة ومأهولة بالسكان لوجود سبع قرى فيه. والتعبير بقرية هنا لا يعني (القرية) بمفهومنا الحالي، باعتبارها تجمُّعاً سكانياً صغيراً محدود الموارد، ولا تتوفَّر فيها الخدمات والتسهيلات التي تكون عادة في المجتمعات الكبيرة نسبيّاً، والتي نطلق عليها مجتمعات المدن.

فمفهوم القرية في العصور الإسلامية المبكرة، والذي ورد في المصادر العربية، يختلف

---

[1]. وليام آدمز، النوبة رواق أفريقيا، مرجع سابق، ص361.

[2]. المصدر نفسه، ص416.

عن مفهومنا الحالي. فالقرية كانت تطلق على المجتمعات الكبيرة نسبياً، والتي نطلق عليها اليوم اسم المدن. فالقرآن الكريم وصف كلاً من مكة والطائف بالقرية في الآية الكريمة: «وَقَالُوا لَوْلَا نزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ».[1]

وورد استخدام القرى في كتب الجغرافيا العربية المبكرة للتجمعات السكانية الكبيرة كالمدن. فياقوت الحموي عرف الكورة بأنها كل منطقة تشتمل: «على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة، كقولهم: دارا بجرد، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته: كورة دارا بجرد».[2]

وأتى استخدام القرية في المعاجم العربية المبكرة مرادفاً لاستخدام الكَفْر، قال الجوهري: «والكَفْرُ أيضاً: القَرْيَةُ»[3] والكَفر يستخدم مرادفاً للمدينة أيضاً، فياقوت وصف مكاناً يسمى بـ(كفر بيا) بأنه «مدينة بإزاء المصيصة على شاطىء جيحان».[4] فكفر بيا أو قرية بيا وصفت بأنها مدينة على نهر جيحون المشهور في المصادر العربية في آسيا الوسطى. فوصف إقليم البريك بالسبع قرى لا يعني القرية بمفومها الحالي، بل يشير لتجمعات سكانية كبيرة يمكن إطلاق اسم المدن عليها.

ولما كانت هذه المنطقة مجاورة للمسلمين، واستقر بعضهم عليها منذ وقت مبكر، كما كانت ضمن منطقة التجارة المفتوحة، حيث يسمح للتجار المسلمين دخولها، فإننا نتوقَّع أن يؤدي ذلك إلى نموٍّ وتطوُّر النشاط العمراني، أكثر مما كان عليه في السابق. ويبدو أن الأسماء القديمة السابقة لتطوُّر هذا النشاط الجديد قد تغيَّرت إلى أسماء جديدة خلال القرون التي سبقت حكم أسر المماليك في مصر. وفي الوقت نفسه يبدو معقولاً أيضاً أن تكون الأسماء التي وردت في المصادر العربية قد دخلها بعض التحريف أو التبديل، لأنها وصلت إلى المؤلفين عبر الروايات الشفاهية التي تتعرّض غالباً للتغيُّر مع الوقت. ويظهر ذلك بوضوح في اختلاف أسماء بعض المواضع التي نقلها المؤرّخان ابن أبي الفضائل، وابن الفرات، مع العلم أن الفرق الزمني بين وفاة المؤرخَين نحو خمسين سنة فقط.

أما ابن سليم، الذي مر بالمنطقة في طريقه إلى دنقلة، فلم يورد -فيما وصلنا من

---

[1]. القرآن الكريم، سورة الزخرف، الآية: 31.

[2]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج1 ص118.

[3]. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح في اللغة، (موقع الوراق)، ج 2 ص 118.

[4]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج2 ص482.

معلومات عنه- إلا منطقتين، كما ذكرنا، هما جزيرة بلاق ومدينة القصر المجاورتين لأسوان. ومن المعروف ان كتاب ابن سليم (أخبار النوبة، والمقرة، وعلوة، والبجة، والنيل) مفقود، لم يتم العثور عليه، وما وصل لنا منه هو ما نقله عنه المؤرخون المتأخرون. والجزء الأكبر مما وصل إلينا جاء في كتاب المقريزي□. فربما تناول ابن سليم بعض الأماكن الأخرى في هذه المنطقة ولم يدوِّنها المقريزي.

ذكر ابن سليم أن جزيرة بلاق هي آخر حصن للمسلمين، وأن «أول بلاد النوبة قرية تعرف بالقصر». □ وبيَّن أن المسافة بين جزيرة بلاق وأسوان تبلغ خمسة أميال، وبينها وبين القصر ميل واحد. وعلى هذا التحديد فـ(جزيرة بلاق والقصر) متجاورتان. وقد اتفقت أغلب المصادر العربية في تحديدها لموقع كل من جزيرة بلاق ومدينة القصر، كما ذكرت المصادر أنه يوجد عدد كبير من المسلمين بجزيرة بلاق، وأنها آخر بلد الإسلام، وأن مدينة القصر هي حد بلاد النوبة، ويتم فيها تبادل البقط مع المسلمين.

وذكر ابن سليم أن مدينة القصر تعتبر الباب لدخول بلاد النوبة، ووضح أنه توجد بها مسلحة، كما ذكر اليعقوبي أن مدينة القصر محصَّنة بسور من حجارة.□ والمَسلحة كما يقول ابن منظور المراد بهم «القوم الذين يحفظون الثغور من العدو، سموا مَسْلَحة لأنهم يكونون ذوي سلاح، أو لأنهم يسكنون المَسْلَحة، وهي كالثغر، والمَرْقَب يكون فيه أقوام يَرْقُبون العدوَّ لئلا يَطْرُقَهم على غَفْلة، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهَّبوا له، والمَسالحُ مواضع المخافة. فمدينة القصر كانت بمثابة الثغر لبلاد النوبة، يرابط بها الجنود لحماية حدودهم».□

ويلاحظ أن المصادر العربية، مثل اليعقوبي والمسعودي، وصفا القصر بأنها مدينة، بينما تناولها ابن سليم باعتبارها قرية، حيث ذكر أن «أول بلاد النوبة قرية تعرف بالقصر». فوصْف ابن سليم للقصر بالقرية، لا يعني القرية بمفهومها الحالي كما وضحنا أعلاه، فالقرية في التراث العربي تصدُق على التجمُّعات السكانية الكبيرة.

وقد أشار ابن حوقل إلى جزيرة بلاق وكتبها (أبلاق) بألف قبل الباء، وذكر أنه فتحها

□. المقريزي، الخطط والآثار، وهو الجزء الذي نقله مسعد في كتابه: المكتبة السودانية.

□. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 91- 93.

□. اليعقوبي، التاريخ، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 13.

□. ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج 2 ص 486.

عبد الله بن أبي سرح عام 32هـ. ووصفها بأنها: «مدينة في وسط ماء النيل، ثابتة في وسط الماء، منيعة كالجزيرة، وبينها وبين أسوان ستة أميال، وبحذائها على النيل من جهة المشرق مسجد الرِّويني وقصر آليه، وتحت المسجد بيعة النوبة، وهو آخر حد الإسلام، وأول حد النوبة».[1]

وأورد مسعد معلومات دقيقة عن جزيرة بلاق، جاء فيها أنه كانت تعرف ناحيتان باسم بلاق في منطقة الشلال جنوبي أسوان. الناحية الأولى جزيرة تقع على بعد عشرة كيلومترات جنوب أسوان، اسمها المصري القديم (بيلاك)، واليوناني (فيلي) والقبطي (بيلاخ) والعربي (بِلاق). وبالجزيرة الكثير من المعابد، وتعرف اليوم باسم جزيرة القصر. أما الناحية الثانية التي عُرفت باسم بلاق بلدة تقع على الشاطئ الشرقي للنيل، إليها تنتهي السفن المبحرة شمالاً وجنوباً. ووضح أن جزيرة بلاق وقرية القصر في المصادر العربية تعودان لهذين الموضعين. وقد تناولت المصادر موضعاً آخر بهذا الاسم نتناوله لاحقاً[2].

وصف ابن سليم الشلال الأول، كاتباً عن صعوبة الملاحة فيه، إلا للخبراء الذين يعرفون المنطقة جيداً، وذكر أن المسافة بين الشلالين الأول والثاني، عشر مراحل، ووضَّح أن هذه هي المنطقة التي يدخلها المسلمون و«يتصرفون فيها، ويتجرون في أعلاها، وفيها جماعة من المسلمين قاطنون، لا يفصح أحدهم بالعربية».[3] فالمسلمون مسموح لهم بالإقامة والتجارة وحق التملُّك في هذه المنطقة.

ويبدو مقبولاً أن تكون هذه هي المنطقة التي حدث فيها النزاع بين ملك النوبة وبين المسلمين الذين اشتروا ضياعاً من مواطني مريس، إذ احتج ملك النوبة لدى الخليفة العباسي المأمون عند زيارته لمصر أن رعاياه من النوبة لا يملكون حق الملكية والتصرُّف في تلك الأراضي، لأنها ملك للملك، وما هم إلا عبيد للملك. فأحال الخليفة القضية للقضاء.

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص59.

[2]. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، ص12، نقلاً عن محقِّق كتاب (النجوم الزاهرة).

[3]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق،.

وقد أورد المسعودي[1] ونقله المقريزي[2] اتفاق المسلمين مع المريسيين الذين اشتروا منهم تلك الضياع، بأن لا يقروا بالعبودية لملكهم عندما يسألهم القاضي عن ذلك. ولما لم يقروا بالعبودية لملكهم، أصبحوا أحراراً في التصرُّف في ممتلكاتهم، وحكم القضاء بصحة البيع. ولعل في هذه الحادثة، إذا افترضنا صدقها، ما يلقي الضوء على طبيعة علاقة المواطنين في مملكة مقرة بملكهم، تلك العلاقة التي جرت العادة باعتبارها علاقة عبودية. كما تلقي هذه الحادثة أيضاً ضوءاً على العلاقات بين ملوك مقرة والمسلمين، وسبل حل المشاكل بينهما.

وإشارة ابن سليم لوجود مسلمين من أهل مريس لا يتحدثون العربية يدل على قِلَّة انتشار الإسلام في المنطقة، ويعني ذلك أيضاً قِلَّة عدد المسلمين المستقرين في المنطقة من غير أهل مريس. لأن انتشار الإسلام يصاحبه دائماً انتشار اللغة العربية، فعدم انتشار اللغة العربية مؤشر على قِلَّة عدد المسلمين الناطقين باللغة العربية في المنطقة. كما يلاحظ أن ابن سليم لم يُشِرْ لوجود مسجد في المنطقة، والمسجد الذي أشار إليه ابن حوقل يوجد داخل حدود المسلمين.

ووصف ابن سليم هذه المنطقه بأنها: «ناحية ضيقة، شظفة، كثيرة الجبال، أعلاها أوسع من أدناها». ووضح بأن النيل أعلى من مستوى الأراضي الزراعية، ولذلك اختلف نظام الري عنه في مصر حيث الري الفيضي. أما هنا -كما ذكر- فالمساحات المزروعة محدودة «وزرعها الفدانين والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب». وتحدّث عن الدورة الزراعية الصيفية والشتوية، واستخدام الزبل سماداً للأرض، حيث يزرعون «الدخن، والذرة، والجاورس، والسمسم، واللوبيا»، وأشار إلى أن القمح عندهم قليل، بينما يتوفر الشعير، ووضح وجود شجر النخيل، والكروم، والمُقْل وهو شجر الدوم.[3]

- **بلاد العَلِي شمال الشلال الثاني**

أطلقت المصادر العربية بلاد العَلِي على القسم الجنوبي من بلاد مريس، والواقعة بين الشلالين الأول والثاني. وتبدو البداية الشمالية لحدود بلاد العَلِي واضحة فيما ذكره ابن الفرات عند تناوله المواضع جنوبي أسوان، فقال بعد الموضع رقم 10 (إقليم البريك)،

---

[1]. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج2 ص22.

[2]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، مصدر سابق، ج2 ص296.

[3]. ابن سليم، أخبار النوبة، مرجع سابق.

ورقم 11 (ويحادي)، «ويلي هذه بلاد العلا».[1] كما قدّر أبوصالح الأرمني أن المسافة بين أسوان وبلاد العُلا ثمانية عشر يوماً.[2] ويلاحظ أن أبا صالح كتب العُلا بضم العين وبالألف في آخر الكلمة.

ولم يحدِّد كل من ابن أبي الفضائل وابن الفرات الحد الجنوبي لبلاد العَلِي، ولكن ورد تحديدها عند أبي المحاسن حيث ذكر أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس فتح «من البلاد مما يلي أسوان جزيرة بلاق، ويلي هذه البلاد بلاد العَلِي، وجزيرة ميكائيل، وفيها بلاد وجزائر الجنادل».[3] ويبدو من هذه الصياغة أن بلاد العَلِي تنتهي عند جزيرة ميكائيل في منطقة الشلال الثاني.

كما يتضح الحد الجنوبي لبلاد العَلِي أيضاً من اليمين التي حلفها ملك مقرة عند هزيمته أمام حملة السلطان الظاهر بيبرس عام 674هـ/1275م، والتي وافق بعدها ملك مقرة أن يكون دخل «بلاد العلى والجبل خاصّاً بالسلطان». فقد اقتطع هذا الجزء الواقع شمال الشلال الثاني، والذي كان يمثِّل منطقة التجارة المفتوحة مع المسلمين من دخل ملك مقرة وأعطي لسلطان مصر.

ويلاحظ أن ابن الفرات هنا قد كتب (العلى) بالياء المقصورة[4] بينما كتبها بالألف (العلا)،[5] وفي كلا الموضعين لم يضبطها بالشكل. ولم يتفق المؤرخون في كتابة هذا الاسم، فابن أبي الفضائل وأبو المحاسن ضبطاها (العَلِي)، بينما ضبطها أبوصالح (العُلا)، وقد اتبعنا هنا ضبط ابن الفرات وأبو المحاسن (العَلِي).

وتتميَّز مواضع منطقة العَلِي عن المواضع الواقعة إلى الشمال منها بأن مواضع بلاد العَلِي المذكورة في المصادر العربية، معروفة ومشهورة في تاريخ الممالك المسيحية في السودان، ما عدا اثنين فقط هما أدمة وطمد رقمي 1 و2 في الجدول (3). وهذا بعكس ما ورد عن المواضع الواقعة جنوب الشلال الأول، حيث تعرَّفنا على موضعين فقط من أحد

---

[1]. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 267.

[2]. الأرمني، تاريخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 147.

٣. ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 385.

[4]. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

[5]. المصدر نفسه، ص 267.

عشر موضعاً التي وردت في المصادر، وهما جزيرة بلاق ومدينة القصر.

- جدول (3) أسماء مدن ومناطق بلاد العَلِي

رقم	ابن أبي الفضائل	ابن الفرات	ابن سليم
	بـــــــلاد العَلِي		–
1	أدمة	أدَمة	–
2	لم يذكرها	طمد	–
3	ألدو	ألدو	أدواء
4	إبريم	ابريم	قلعة ابريم
5	دَندال	دندال	قلعة أخرى
6	بوفَراس	وبوحراص	بجراش
7	جزيرة ميكائيل (رأس الجنادل)	جزيرة ميكائيل (وبها بلاد)	–

الجدول من إعداد المؤلف

إن المدن والمواقع في الجدول (3) مرتبة حسب ورودها في المصادر، ويلاحظ في ترتيبها عدم الالتزام باتباع الموقع الجغرافي من الشمال إلى الجنوب، أو العكس. فترتيب هذه المواقع من الشمال إلى الجنوب كالآتي: (إبريم، وألدو، وبوخراس، وجزيرة ميكائيل). وقد افترضنا موقع دندال قرب إبريم، كما سيأتي، وأدمة وطمد لم يعرف موقعهما. وسنتناول الحديث عن هذه المواضع بهذا الترتيب.

يعتبر قصر إبريم من المدن المهمة في بلاد العَلِي من منطقة مريس، فقد أسّس فيه الرومان قلعة لحماية حدودهم الجنوبية في مصر. وقد تناول عدد من المصادر العربية منذ القرن الرابع الهجري (الـ10 الهجري) أخبار قصر إبريم، لأنه كان يمثل خط الدفاع الأول أمام قوات المسلمين التي حاولت غزو مملكة مُقُرة. ففي عام 345هـ/956م أغار على المنطقة محمد بن عبد الله الخازن في عصر الدولة الإخشيدية. وهذه أول حملة ذكرتها المصادر العربية، مثل النويري، وابن الفرات، والمقريزي. دخلت جنوب أسوان، ووصولت إلى إبريم، وافتتحتها، وسبت أهلها.

وكان دخول المسلمين في إبريم في شكل غارات، ولم يستقروا فيها، وظلت إبريم تابعة

لمملكة مقرة، وتكرّرت غارات المسلمين عليها حتى عصر المماليك، كما سنفصِّل ذلك لاحقاً عند الحديث عن العلاقات بين المسلمين ومملكة مُقُرة.

ومن المناطق التي ورد ذكرها في أرض مريس بين الشلالين الأول والثاني (دندال)، وهو الموضع الذي ذكره كل من ابن الفرات وابن أبي الفضائل (رقم 5 في الجدول (3)، ويبدو أن هذا الموضع هو نفسه جزيرة دندان التي أغار عليها الأكراد، كما ذكر أبو شامة[1]، عندما كانوا مقيمين في قصر إبريم لبعض الوقت في عصر الدولة الأيوبية. وهو أيضاً الموضع نفسه الذي ورد تحت اسم ديدان، والذي أقطعه ملك مقرة إلى قبائل الشام مكافأة لها على وقوفها ضد العمري الذي كان يحارب ملك مقرة أثناء الصراع بينهما، كما ذكر المقريزي.[2]

وقد ورد اسم مدينة بجراش بصور مختلفة في المصادر، فهي بجراش عند ابن سليم في النسخة المطبوعة عند مسعد، وبوخراس في نسخة ابن سليم في موقع الوراق، وجاءت بوفراس عند ابن أبي الفضائل، وبوحراس عند ابن الفرات، كما في الجدول، وباخَرَس Bakharas في تاريخ جون الأفسوسي.[3] وقد اتفقت كل الآراء أن كل هذه الإشارات ترجع لموضع واحد هو مدينة فرس الواقعة إلى الشمال قليلاً من وادي حلفا.

وتعتبر مدينة بجراش التي كانت عاصمة لمملكة مريس، من أهم مدن منطقة شمال الشلال الثاني. وأصبحت بعد اتحاد مملكتي مريس ومقرة مقر حاكم المنطقة، الذي عُرِف بصاحب الجبل، والذي يمتد نفوذه حتى الشلال الثاني، كما وضح ابن سليم. ووصف أبوصالح الأرمني مدينة بجراش بأنها «مدينة المريس، وهي مدينة عامرة أهلة، وبها مقام جوسار اللابس العصابة والقرنين والسوار الذهب».[4]

ويلاحظ أنه يوجد شبه واضح بين شارات السلطة في العصر المسيحي، ثم فيما بعد في العصر الإسلامي في السودان، وبين شارات السلطة في عصر الحضارات السودانية القديمة. الأمر الذي يبرز التواصل في تاريخ سكان السودان منذ العصور القديمة. وقد وضحت نعمات عبد الجبار أن رسومات الكنائس صوَّرت والي نوباتيا وهو يرتدي الطاقية أم قرينات، وكان

---

[1]. أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين، في: مسعد، الإسلام والنوبة، مرجع سابق، ص 180.

[2]. المقريزي، المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 364.

[3]. جون الأفسوسي، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 92 حاشية 3.

[4]. الأرمني، تاريخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 130.

غطاء الرأس بزوج واحد أو اثنين من القرون هو السمة البارزة لشارات سلطة الأبارش حاكم الجبل. وتواصل الدكتورة نعمات عبد الجبار أن الجذور المبكرة للقرنين ترجع إلى عصر الثقافات المبكرة في سودان وادي النيل، حيث كانت لقرون البقر مكانة واضحة في الطقوس الدينية، وكانت تدفن مع الموتى. واستمرت المكانة الدينية للقرون في عصور حضارة كوش، حيث ظهرت الطاقية إلى جانب القرنين، وأصبحتا من أهم رموز سلطة الملوك. وظلّت الطاقية تحافظ على مكانتها كرمز للسلطة في عصر دولة الفونج والفور، ولدى قادة الطرق الصوفية. وأخيراً وبعد أن فقدت مكانتها كرمز للسلطة -كما تقول نعمات عبد الجبار- تبوّأت مكاناً مرموقاً كأحد أهم عناصر الزي القومي السوداني.[1]

وقد أطلق أبوصالح لقب جوسار على حاكم بجراس، بينما أطلق عليه ابن سليم لقب (صاحب الجبل) كما فعلت غيره من المصادر. قال عنه ابن سليم: «من أجلّ ولاتهم لقربه من أرض الإسلام، ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه في تجارة أو هدية إليه، أو إلى مولاه يقبل الجميع، ويكافئ عليه بالرقيق، ولا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه لمسلم ولا لغيره».[2]

كما أشار أبوصالح إلى مدينة بوسقا وذكر أنها «مدينة حسنة كثيرة المعالم والخيرات وبها كنائس كثيرة، وكان بها مقام صاحب الجبل»[3]، وهو حاكم المنطقة من قِبَل ملك مقرة. ويتطلّب تحديد مواقع هذه الأماكن البحث المتأنّي في المصادر، وما توفّر من المادة الآثارية، لأن هذه المناطق أصبحت بعيدة عن متناول الأثاريين حيث ترقد في قاع بحيرة النوبة.

ومن المواضع التي تردّد ذكرها في المصادر العربية بأشكال مختلفة في كتابتها (ألدو)، حيث أشار إليها ابن الفرات بـ(ألدو أو دو)، ووردت عند المقريزي (أَدوى)، وضبطها النويري (الدَوّ)، ووضّح أنه كانت بها قلعة استولت عليها قوات الملك المملوكي الظاهر بيبرس.[4] ويبدو أن (الدو)، كانت خط الدفاع الثاني جنوب قصر إبريم حتى عصر المماليك، كما سنتعرّض لها لاحقاً. وقد لعبت (ألدو) دوراً بارزاً ومهماً في تاريخ المنطقة منذ الفترة السابقة للعصر المسيحي. فقد كانت إحدى المستوطنات والمراكز الرئيسة في عصر ثقافة

---

[1]. نعمات عبد الجبار، أستاذة التاريخ القديم بكلية التربية جامعة الخرطوم، تناولت هذا الموضوع في مقال متميز.

[2]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

[3]. الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 137.

[4]. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، في: مسعد، المكتبة السودانية، ص 218.

بلانة، ومنذ بداية العصر المسيحي تحت اسم (جبل عدا)، ثم ظهرت بأسماء مختلفة في المصادر العربية. وأثناء الصراع بين العمري وملك مقرة، استمال ملك المقرة أعداء العمري من عرب الشام إليه، وأعطاهم إقطاعات فيها، كما ذكر المقريزي.[]

ثم كان دور ألدو أو جبل عدا بارزاً أيضاً في الصراع بين المماليك ومملكة مقرة، ويبدو أنها كانت تتبادل مهمة قيادة الأحداث في المنطقة قبل وبعد إسلام ملوك مقرة في بداية القرن 7هـ/13م. ولخص آدمز دور القلعة في تاريخ المنطقة منذ القرن الثاني عشر الميلادي (الـ6 الهجري).[] وقد اشتهرت في المصادر الآثارية باسم دوتاو أو مملكة دوتاو. ووضحت المصادر الآثارية أنها ظلت عاصمة لمملكة مسيحية عثر على أسماء ثمانية من ملوكها وبعض أسماء أساقفتها حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أي قبل نحو عشرين سنة فقط من تاريخ قيام سلطنة سنار الإسلامية.

وهنالك جانب آخر اشتهرت به مدينة ألدو، أو ميناء أدواء، كما أطلق عليها ابن سليم الأسواني، الذي ذكر أنه «ينسب إليها لقمان الحكيم، وذو النون المصري». وسنورد ترجمة موجزة لهما بوصفهما مواطنين ينتميان لهذه المنطقة.

■ لقمان الحكيم

وردت الإشارة إلى لقمان في القرآن الكريم في وصيته المشهورة لابنه في سورة لقمان التي تبدأ بـ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».[] وفي الحديث النبوي روى ابن عساكر حديث ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «اتخذوا السودان، فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة؛ لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن».

وذكر الطبري أن لقمان الحكيم كان نوبياً نجاراً، وروى أيضاً أنه كان راعياً، وكان قاضياً على بني إسرائيل.[] وورد في تفسير ابن كثير «اختلف السلف في لقمان، عليه السلام: هل

[]. المقريزي، المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 364.

[]. آدمز، النوبة رواق أفريقيا، مرجع سابق، ص471.

[]. القرآن الكريم، سورة لقمان، الآيات: 12 – 19.

[]. الطبري، محمد بن جرير، تفسير القرآن المسمى «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، (موقع الوراق)، ج 20 ص 135.

كان نبيًا، أو عبدًا صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني».

اتفقت أغلب المصادر العربية، مثل الطبري، والمسعودي، وابن إياس، على أن لقمان نوبيّ الأصل، ورغم أن أغلب المصادر العربية جعلت النوبة من أبناء حام بن نوح -أي نسبتهم إلى الجنس الحامي- إلا أن بعضها مثل المسعودي نسبه إلى قبيلة بني أسد السامية. ونسبه العصامي إلى عاد الأخرى ابن شداد -باني إرم ذات العماد- ابن عاد الأولى بن عوص بن إرم بن سام.

ذكر المسعودي أن لقمان ولد في السنة العاشرة من ملك نبي الله داود. وقد نقل ابن إياس نصاً عن لقمان جاء فيه: «لقمان عبد صالح، ولم يكن نبياً.. وكان مولى لرجل قصار من بني إسرائيل من أهل مدينة أيلة.. فأقام عنده مدة ثم أعتقه، وكان ينطق بالحكمة، وكان مقيماً بمدينة الرملة، قريباً من بيت المقدس، فكان بنو إسرائيل يأتون إليه ليسمعوا منه الحكمة والموعظة. فلما اشتهر بالحكمة جاء إليه رجل من عظماء بنى إسرائيل فقال: يا لقمان، ألم تكن عندنا بالأمس عبدًا لفلان؟ قال: نعم. فقال: من أين لك هذه الحكمة؟ قال: بصدق الكلام، وبترك ما لا يعني».

وكان نبي الله داود عليه السلام يأتي إليه ليسمع منه الحكمة. قال وهب بن منبه كان من الأنبياء ثلاثة سود الألوان؛ لقمان وذو القرنين ونبي الله صاحب الأخدود.. ولم يزل بمدينة الرملة حتى مات بها ودفن بين المسجد الذي بها وبين السوق. وذكر ابن فضل الله العمري رواية أخرى حول مكان قبر لقمان فقال إنه في شرق بحيرة طبرية.

أما ما ورد في الحديث المذكور أعلاه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة؛ لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن»، فمن المعروف أن كلمة (النجاشي) كانت لقباً لملوك الحبشة. أما بلال بن رباح مؤذن رسول

. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن ضوء، تفسير ابن كثير، المعروف بـ«تفسير القرآن العظيم»، دار المعرفة، بيروت، 1403هـ.

. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 1 ص15.

. العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبدالملك، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (موقع الوراق)، ج 1 ص 48.

. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق.

. ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1 ص90، ترجمة ابن وهب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

.العمري، أحمد بن فضل الله ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج1 68، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

الله (صلى الله عليه وسلم) فكان من السابقين للإسلام وتوفي بالشام عام 20 للهجرة. وقد وصف في كتب التراجم ببلال الحبشي، ولم أرَ في كتب التراجم من نسبه إلى النوبة، ما عدا ما رواه ابن حجر العسقلاني من أنه «قيل إن بلال من النوبة».[] وقد ذكر ابن عساكر أن بلالاً لا عقب له.[]

■ ذو النون

أما ذو النون المصري (ت 245هـ)، فقد تناولت الكثير من كتب التراجم سيرته بإسهاب نختصر هنا ما أورده ابن حجر العسقلاني: «اسمه ثوبان بن إبراهيم ويقال: الفيض ابن أحمد ويقال: كنيته أبو الفيض وقيل أبو الفياض».[] وقال محمد بن يوسف الكندي: «ومنهم ذو النون بن إبراهيم الإخميمي، مولى لقريش، كان أبوه نوبياً. وقال ابن يونس: كان عالماً فصيحاً حكيماً أصله من النوبة، مات سنة خمس وأربعين ومائتين. قلت: كان ممن امتحن وأوذي لكونه أتاهم بعلم لم يعهدوه، كان أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال وفي مقامات الأولياء».[]

يروي الشعراني من كلام ذي النون: «إياك أن تكون للمعرفة مدعياً، أو بالزهد محترفاً، أو بالعبادة متعلّقاً، وفر من كل شيء إلى ربك. وكان يقول: كل مدع محجوب بدعواه عن شهود الحق، لأن الحق شاهد لأهل الحق بأن الله هو الحق. وقوله الحَق، ومن كان الحق تعالى شاهداً له لا يحتاج أن يدّعي، فالدعوى علامة على الحجاب عن الحق، والسلام. وكان يقول للعلماء: أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علماً ازداد في الدنيا زهداً وبغضاً، وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علماً ازداد في الدنيا حباً وطلباً ومزاحمة، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال في تحصيل العلم، وأنتم اليوم تنفقون العلم في تحصيل المال. وكان يقول: يا معشر المريدين، من أراد منكم الطريق فلْيلقَ العلماء بإظهار الجهل، والزهاد بإظهار الرغبة، والعارفين بالصمت».[]

أورد الصفدي ترجمة وافية للنص، وقد ذكر فيها الكثير من أقواله ووصاياه وشعره،

[]. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، (موقع الوراق)، ج1 ص46.

[]. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ دمشق، (موقع الوراق) ج10 ص432.

[]. ابن حجر العسقلاني، تبصير المنتبه، مرجع سابق.

[]. محمد بن يوسف الكندي، تاريخ الموالي المصريين.

[]. الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد، الطبقات الكبرى، (موقع الوراق)، ج1 ص67.

نذكر منها:[1]

ومنها: «إذا صحت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح».

ومنها: «سقم الجسد في الأوجاع، وسقم القلوب في الذنوب. فكما لا يجد الجسد لذة في الطعام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع ذنبه».

وقال: «من لم يعرف حق النعم سلبها من حيث لا يعلم».

وقال: «الأنس بالله من صفاء القلب مع الله».

وقال: «الصدق سيف الله في أرضه، ما وضع على شيء إلا قطعه».

وسئل عن التوبه، فقال: «توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة».

وقال: «ثلاثة موجودة، وثلاثة مفقودة: العلم موجود، والعمل به مفقود؛ والعمل موجود، والإخلاص فيه مفقود؛ والحب موجود، والصدق فيه مفقود».

سمعت إِسْرَافِيلَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ الْمِصْرِيَّ، يَقُولُ:

أموت وما ماتت إليك صبابتي ... ولا قضّيت من صدق حبك أوطاري
مناي المنى كل المنى إنت لي منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إقتاري
وأنت مدى سؤلي وغاية رغبتي ... وموضع آمالي ومكنون إضماري
تحمّل قلبي فيك ما لا أبثّه ... وإن طال سقمي فيك أو طال إضراري
وبين ضلوعي ما لولاك قد بدا ... ولم يبد بادية لأهلي ولا جاري
وبي منك في الأحشاء داء مخامر ... وقد هد من الركن وأثبتّ أسراري
ألست دليل الركب إن هم تحيّروا ... ومنقذ من أشفى على جرفٍ هار».[2]

- **وصف ابن سليم للمنطقة**

سنتتبّع هنا ما تبقّى من وصف ابن سليم الأسواني لبلاد مريس، إضافة لما أورده عن بلاد مقرة شمال مدينة دنقلة. بدأ ابن سليم حديثه عن منطقة الشلال الثاني بمدينة تقوى، وذكر أن: «أوّل الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى، وهي ساحل، وإليها تنتهي مراكب

[1]. الصفدي، خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، (موقع الوراق) ج3 ص404.

[2]. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، القاهرة، 1394هـ/1974م، ج 9 ص 390.

النوبة المصعدة من القصر أوّل بلدهم». ووضّح ابن سليم أن المراكب الآتية من الشمال نحو الجنوب تنتهي لهذا المكان. كما أن التجار أيضاً لا يسمح لهم بعبور هذه المنطقة والدخول في مملكة مقرة. ويمكن فقط العبور جنوباً لمن يحمل إذناً من حاكم الإقليم المعروف بصاحب الجبل.

ووصف ابن سليم النيل في هذه المنطقة بكثرة الجنادل التي تعترض مجراه، ويصعب على السفن عبورها، كما أن البر أيضاً يصعب عبوره لوعورته. وذكر أن الرمال والجبال تتصلان بالنيل في هذه المنطقة، الأمر الذي يجعل عبورها في البر والبحر أمراً صعباً، ولذلك أصبحت ملجأ للسكان عندما يتعرّضون لهجوم من الشمال. ويفسّر هذا كيف ظلت مناطق مملكة مقرة جنوب الشلال الثاني منعزلة عن المؤثرات الإسلامية والعربية لعدة قرون حتى فتح المماليك هذا الباب في القرن الثالث عشر الميلادي (الـ7 الهجري).[1]

ولم يذكر ابن أبي الفضائل، وابن الفرات مدينة تقوى عندما وصفا خط سير حملة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس إلى دنقلة، كما أوردنا سابقاً، وتحدثنا عن هذه المنطقة تحت اسم جزيرة ميكائيل، ووصفها ابن أبي الفضائل بكثرة الجنادل.[2] بينما وصفها ابن الفرات بأنها «رأس جنادل النوبة، وهي كثيرة الأوعار، وفي وسط البحر».[3] بينما تحدّث عنها النويري تحت اسم جزائر ميكائيل[4] مما يوضّح أنها كانت عدداً من الجزائر. ويؤيد ما ذكره النويري وصْف ابن الفرات لها بإن «بها بلاداً»[5]، كما أضاف بعد ذكره لجزيرة ميكائيل (جزائر الجنادل)، مما يوضح أن المنطقة كان بها عدد من الجزر على طرفي الشلال.

ووضّح ابن سليم أن منطقة تقوى تابعة لأرض مريس، وهي آخر حدود إدارة صاحب الجبل جنوباً. كما ذكر ابن سليم شُحَّ مواردها الزراعية، فنخلها وزرعها قليل، ومعظم أهلها يعتمدون على السمك في غذائهم. غير أنها كانت غنية بموارها التجارية، فهي المنطقة التي يتم فيها التبادل التجاري بين المسلمين وأهل مملكة مقرة. ووصف ابن سليم صاحب الجبل والي المنطقة بأنه «من أجلّ ولاتهم، لقربه من أرض الإسلام». ووضح بأن العبور منها شمالاً

---

[1]. ابن سليم الأسواني، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص93-97.

[2]. ابن أبي الفضائل، النهج السديد، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص252.

[3]. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 261 و267.

[4]. النويري، نهاية الأرب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص226.

[5]. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 276.

غير مسموح به إلا بإذن خاص من الوالي.

وإلى الجنوب من مدينة تقوى، وعلى بعد ست مراحل منها، تقع مدينة المقس الأعلى (عكاشة)، والتي كانت مركزاً تجارياً وعسكرياً مهماً. فقد كانت ترابط بها فرقة عسكرية (مَسْلَحَة) كما في مدينة القصر بالقرب من أسوان، ولا يتبع واليها لصاحب الجبل، بل تابع للملك في دنقلة. وذكر ابن سليم أنه شديد الضبط للمدينة، «حتى أنّ عظيمهم إذا صار بها وقف به المسلحي، وأوهم أنه يفتش عليه، حتى يجد الطريق إلى ولده ووزيره».[1]

ولا يسمح لأحد أن يعبر المقس الأعلى جنوباً إلا بعد الحصول على إذن خاص من الملك. وبالطبع فإن ذلك لا يتيسّر إلا للوفود أو السفارات الرسمية، ولا يتيسّر ذلك للتجار أو غيرهم من عامة المسلمين. وكانت عقوبة من لا يلتزم بذلك -كما عبر ابن سليم- «القتل كائناً ما كان». وواصل ابن سليم «وبهذا الاحتياط تتكتّم أخبارهم حتى إنّ العسكر منهم يهجم على البلد إلى البادية وغيرهم، فلا يعلمون به».[2]

والمقس الأعلى، هي آخر المناطق التي يتم البيع فيها بالدينار، ففي مناطق ما بعد الشلال الثاني يتم البيع عن طريق المقايضة بالرقيق، والمواشي، والجِمال، والحديد، والحبوب. ويوجود في هذه المنطقة (السنباذ). ذكر الزبيدي «السُّنْباذَجُ بالضم فسكون النُّون وفتح الذال المعجمة: حَجَرٌ يَجْلُو به الصَّيْقَلُ السُّيوفَ وتُجْلَى به الأَسنانُ والجَوَاهِرُ». وضح ابن سليم «أن السنباذ الذي يخرط به الجوهر، يخرج من النيل في هذه المواضع، يُغطس عليه فيوجد جسمه بارداً مخالفاً للحجارة، فإذا أشكل عليه نفخ فيه بالفم فيعرف».[3]

وبعد المقس الأعلى تقع مدينة ساي، وصفها ابن سليم بأنها: «جنادل أيضاً، وهي آخر كرسيهم، ولهم فيها أسقف وفيها بربا».[4] وبربا يعني بها آثار قديمة. وتعتبر مدينة ساي من المدن القديمة في المنطقة، والتي يرجع تاريخها إلى النصف الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد. ولذلك لاحظ ابن سليم الآثار القديمة (بربا) فيها.

فقد كانت صاي مدينة مهمة في تاريخ المنطقة القديم، فكانت من أهم المراكز التجارية في مملكة كوش -التي عرفت عند المؤرخين بمملكة كرمة- في الألف الثالث قبل الميلاد.

---

[1]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

[2]. المصدر نفسه.

[3]. الزبيدي، تاج العروس، مصدر سابق، ج1 ص1438.

[4]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

ويرى آدمز أنها وبناء على ما نُقِّب فيها من آثار لا تقل أهمية في المجال التجاري عن مدينة كرمة عاصمة المملكة. وظلت من المدن المهمة بعد سقوط مملكة كرمة، وظهرت ضمن المستوطنات الصغرى بعد انهيار مملكة مروي.

وفي العصر المسيحي كانت مدينة صاي كرسي أسقفية في مملكة مقُرّة. وقد ذكر فانتيني أن مملكة مقرة كان بها خمسة كراسي أسقفية في «دنقلة، وصاي، وشنقير -التي يظن أنها قرب أبو حمد- وكلمة، ومركي»، وذكر أن هذين الموقعين الأخيرين ربما كانا في بلاد المحس.

وأطلق ابن سليم على المنطقة الواقعة جنوب مدينة صاي (ناحية سقلوذا)، ووصفها بأنها «أشبه الأرض بالأرض المتاخمة لأرض الإسلام في السعة والضيق في مواضع، والنخل والكرم والزرع وشجر المقل، وفيها شيء من شجر القطن، ويعمل منه ثياب وخشة، وبها شجر الزيتون». ويرى كراوفورد أن سقلوذا هي منطقة السكوت الحالية. وذكر ابن سليم أن معنى سقلوذا السبع ولاة، أي أنها منطقة واسعة غنية وكثيرة السكان. ووضح أن تحت واليها ولاة آخرين خاضعين له.

ووفقاً لما نقلة المقريزي عن ابن سليم، فإن هذه هي المنطقة الإدارية الثالثة لمملكة مقرة، كانت الأولى منطقة الجبل، والثانية منطقة المقس الأعلى، ثم سقلوذا المنطقة الثالثة، ويُعَيِّن ملك مقرة ولاة هذه المناطق. وتقع في هذه المنطقة قلعة إصطفون، ووضح ابن سليم أنها أول الشلال الثالث، ووصف وعورة هذا الشلال، وشدة انحدار المياه فيه. ذكر أنه على بعد ثلاثة أبرد توجد مدينة يستو، وذكر أنها: «آخر قرى مريس، وأول بلد مقرة، ومن هذا البلد إلى حد المسلمين لسانهم مريسي، وهي آخر عمل متملِّكهم».

والبريد -كما في لسان العرب لابن منظور- كلمة فارسية الأصل وتجمع على بُرد، والبريد يساوي اثني عشر ميلاً. فمدينة يستو أو بستو كما تكتب أحياناً تقع على بعد ستة

. فانتيني، تاريخ المسيحية، مرجع سابق، ص53.

. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

. Crawford، The Fung kingdom of Sennar ، op، p. 24.

. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

. المقريزي، المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج3 ص82.

وثلاثين ميلاً من إصطفون. وهذا المقياس بالميل العربي القديم، وهو يختلف في طوله عن الميل الإنجليزي المعروف حالياً.

ووضح ابن سليم أن يستو هي آخر مدن مريس، وأول بلد مقرة. فإذا افترضنا أن ابن سليم قصد أن يستو آخر مدن مريس من الناحية السكان، إذ ينتهي عندها اللسان المريسي، ويبدأ لسان أهل مقرة، نقف أمام باقي الجملة الذي يقول: «وهي آخر عمل متملِّكِهم»، ومن الواضح هنا أن الضمير في كلمة (متملِّكِهم) يرجع إلى أهل مريس، أي أن يستو آخر مُلْك حاكم مريس. وقد تواتر في المصادر، وكما ذكر ابن سليم نفسه، أن حاكم منطقة مريس، الذي يطلق عليه صاحب الجبل، كان والياً على المنطقة الواقعة شمال الشلال الثاني، وهو تحت طاعة ملك مقرة. فكيف نفسِّر ما قاله هنا من أن يستو آخر مناطق سلطة متملك أهل مريس؟.

يلاحظ أن المصادر العربية بما فيها كتاب ابن سليم، لا تطلق على حاكم منطقة مريس لقب ملك، بل تُطلق عليه صاحب الجبل. وقد أطلق عليه ابن المقفع لقب الأبرخس.[1] وهو كما علّق مسعد يعني نائب الملك.[2] ووضَّح أبو صالح الأرمني شارات السلطة التي كان يلبسها وهي العصابة والقرنان والسوار، ويدل كل ذلك على أهمية خاصة لحاكم الجبل.[3]

ويقودنا هذا إلى التساؤل: هل كان حاكم الجبل من سلالة ملوك نوباتيا التي دخلت في اتفاق أو صلح مع مملكة مقرة، ودخل ملوكها تحت طاعة دنقلة عندما واجهها هجوم المسلمين، واحتفظوا بسلطاتهم المحلية على بلاد مريس، كما حدث بين العبدلاب وملوك سنار؟. من الواضح أن بلاد مريس كانت تمتد حتى الشلال الثالث، ولا بد أن ذلك المكان كان آخر حدود سلطة ملوك نوباتيا قبل دخولها في اتحاد أو تحالف مع مملكة مقرة. فهل عبارة ابن سليم (متملكهم) تلك ترجع إلى ما كان عليه الحال قبل اتحاد المملكتين؟، وأن المقريزي لم ينقل نص ابن سليم كاملاً؟.

على كل حال مسألة وحدة أو تحالف مملكتي نوباتيا ومقرة تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة، متى تم ذلك التحالف أو الوحدة؟، وكيف كانت شروطه؟، وهل كان صاحب الجبل من سلالة ملوك نوباتيا، تتوارث أسرته السلطة؟، وهل كانت لهم علاقة بمملكة

---

[1]. ابن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص82.

[2]. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص136.

[3]. الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص136.

دوتاو والتي ظلت قائمة في المنطقة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي؟.

ويلاحظ بوضوح أن المواضع التي تعرّضت لها المصادر العربية في أرض مريس يقع معظمها بين الشلالين الأول والثاني. فهل كانت هذه المنطقة معروفة للرواة أكثر من باقي أرض مريس الواقعة بين الشلالين الثاني والثالث؟. قد يبدو هذا معقولاً، لأن هذه المنطقة شهدت كثافة سكانية أكبر من المنطقة الثانية في فترة ما قبل سقوط مملكة المقرة.

ويوضح الجدول (4) -من خلال ما تم القيام به من تنقيب آثاري- الأوضاع العمرانية في منطقة مريس في فترة مملكة مُقُرة بالمقارنة مع الفترات السابقة واللاحقة لها. يتضح من الجدول أن منطقة شمال الشلال الثاني (منطقة رقم 1)، ومنطقة جنوب الشلال الثاني (منطقة رقم 2)، لم يختلفا كثيراً في العمران في فترة ما قبل سقوط مملكة مروي. فقد وجدت آثار خمس مستوطنات مسلحة في كل منطقة. وانفردت المنطقة رقم (2) بوجود آثار مدينة واحدة. بينما تم العثور على آثار عدد كبير من المعابد في المنطقة رقم (1)، مما يوضّح احتمال أن عدد سكانها كان أكبر من المنطقة الثانية.

■ جدول رقم (4) العمران في منطقة مريس ما قبل العصر المسيحي وبعده

الفترة الزمنية	مدن	مستوطنات محصنة	قرى	معابد	كنائس	جبانات كبرى	جبانات صغرى
منطقة شمال الشلال والثاني (رقم 1)							
ما قبل سقوط مروي	–	5	–	10	–	–	–
عصر بلانة		3	5	–	–	3	59
عصر مملكة المقرة	4	4	3	–	33	–	–
ما بعد سقوط المقرة		4	1	–	3	–	–
منطقة جنوب الشلال الثاني (رقم ٢)							
ما قبل سقوط مروي	1	5	–	4	–	–	–
عصر بلانة	–	3	4	–	–	2	21
عصر مملكة المقرة	–	–	2	–	13	–	–
ما بعد المقرة		14	2	–	1	–	–

الجدول من إعداد المؤلف

يبدو أن الوضع العمراني لم يتغيّر كثيراً في فترة ما قبل سقوط مروي والفترة التالية لسقوطها وهي فترة ثقافة بلانة. فقد تم التنقيب عن آثار ثلاث مستوطنات مسلحة في كلتا المنطقتين وخمس قرى في المنطقة رقم (1)، وأربع قرى في المنطقة رقم (2). إلا أن عدد المدافن التي تم تنقيبها في المنطقة رقم (1) فاقت تلك التي تم تنقيبها في المنطقة رقم (2) مما قد يشير إلى الزيادة في عدد سكان المنطقة الأولى عن ما كان عليه الحال في عصر ما قبل بلانة.

واختلف الوضع كثيراً في عصر مملكة مُقُرة إذ ازداد العمران بصورة واضحة في الجزء الشمالي من منطقة مريس (رقم 1) حيث قامت المملكة المسيحية الأولى. فقد وجدت آثار أربع مستوطنات مسلحة وأربع مدن وثلاث قرى و33 كنيسة. أما في المنطقة رقم (2) جنوب الشلال الثاني فقد تم التنقيب فقط على قريتين و13 كنيسة، مما يشير إلى الفرق في العمران بين المنطقتين. وقد يفسر هذا العدد الكبير من أسماء المواضع التي تمركزت في منطقة ما بين الشلالين الأول والثاني في المصادر العربية.

ووصف ابن سليم الأسواني منطقة ما بعد مريس الواقعة جنوب الشلال الثالث، حيث تبدأ منطقة بقون، ويرى كراوفورد أنها منطقة المحس الحالية. وذكر ابن سليم أن اسمها (بقون) يعني العجب، وذلك لحسنها، وأطنب في وصفها، فذكر أنه لم ير «على النيل أوسع منها، وقدّر سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل، الجزائر تقطعه، والأنهار منه تجري بينها على أرض منخفضة، وقرى متصلة، وعمارة حسنة بأبرجة حمام، ومواشٍ وأنعام وأكثر ميرة مدينتهم منها، وطيورها النقيط والنوبي والببغاء، وغير ذلك من الطيور الحسان، وأكثر نزهة كبيرهم في هذه الناحية».

ويواصل ابن سليم قائلاً: «وكنت معه في بعض الأوقات، فكان سيرنا في ظل شجر من الحافتين في الخلجان الضيقة، وقيل: إنّ التمساح لا يضرّ هناك، ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة». ثم بعد بقون تأتي منطقة سفد بقل وهي عند كراوفورد منطقة شمال دنقلة الأصلية وتمثل دار الجوابرة، وصفها ابن سليم بأنها: «ناحية ضيقة شبيهة بأوّل بلادهم، إلا أنّ فيها جزائر حساناً، وفيها دون المرحلتين نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان، والكنائس، والأديار، والنخل الكثير، والكروم، والبساتين، والزرع، ومروج كبار فيها إبل وجمال صهب مؤبلة للنتاج، وكبيرهم يكثر الدخول إليها لأنّ طرفها القبليّ يحاذي دنقلة مدينتهم».

وذكر ابن سليم أن المسافة ما بين دنقلة إلى أوّل بلد علوة أكثر مما بينها وبين أسوان. فإذا

كانت المسافة بين دنقلة وأسوان خمسين مرحلة، فإن المسافة بين دنقلة وأول بلد علوة تكون أكبر من ذلك. وفي كل الأحوال فإن ذلك يعبِّر عن اتساع هذا الجزء من أرض مملكة مقرة في أعين ابن سليم، خاصة وأنه لم يدخله في رحلته. ويتضح من وصف ابن سليم للمنطقة أنها تمتّعت بموارد زراعية وحيوانية غنية. فقد أشار لوجود عدد كبير من القرى، والضياع، والجزائر، والمواشي، والنخل، والشجر، والمقل، والزرع، والكرم، في هذه المنطقة، وأضاف ابن سليم أن في هذه الأماكن جزائر عظاماً مسيرة أيام، فيها الجبال، والوحش، والسباع، ومَفَاوز يخاف فيها العطش، وقال إن ثروات هذه المنطقة تساوي أضعاف ما في الجانب الذي يلي أرض الإسلام.

وبيَّن ابن سليم أن النيل ينعطف من هذه النواحي إلى مطلع الشمس، وإلى مغربها مسيرة أيام، حتى يصير المصعد كالمنحدر، وهي الناحية التي تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف: بـ(الشنكة،) وهو بلد يعرف بـ(شنقير)، ومنه خرج العمري، وتغلّب على هذه الناحية إلى أن كان من أمره ما كان، وفرس البحر، يكثر في هذه المواضع، ومن هذه الموضع طرق إلى سواكن، وباضع، ودهلك، وجزائر البحر، ومنها عبر من نجا من بني أمية عند هربهم إلى النوبة، وفيها خلق من البجة يعرفون بالزنافج انتقلوا إلى النوبة قديماً، وقطنوا هناك، وهم على حدتهم في الرعي واللغة، لا يخالطون النوبة، ولا يسكنون قراهم، وعليهم والٍ من قبل النوبة.[1]

وقد تضمنت هذه الفقرة عدداً من الإشارات المهمة مثل: منطقة تعدين الذهب في شنقير، حيث وصل العمري، وعلاقة مملكة مقرة التجارية عبر طريق هذه المنطقة، ووجود بعض عناصر البجة (الزنافج في المنطقة). ومن المعروف أن وادي العلاقي الذي اشتهر كمصدر مهم للذهب في تلك الفترة يمتد نحو الجنوب الشرقي، حتى يكون قريباً من النيل عند منطقة أبي حمد. وهي المنطقة التي وصلها العمري في بحثه عن الذهب.

وقد بدأ اهتمام المسلمين بمناطق الذهب كما ذكر ابن حوقل عندما عاينوا آثار عمل الرومان في هذا المعدن أثناء حربهم للبجة عام 232هـ، وعاد المسلمون بعد نهاية تلك الحرب إلى مناطق التعدين، ثم تكاملت القبائل العربية في تلك المناطق عام 238هـ.[2] وقد تناول المقريزي بالتفصيل في كتابه (المُقَفّى)، قدوم العمري للمعدن، وأحداث الصراع

[1]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 67 – 68.

بينه وبين مملكة المقرة، والذي دام وقتاً طويلاً، وصاحبه النزاع بين ابن ملك مقرة وقائد الجيش، ودخول العمري في ذلك الصراع، ونشوب صراع بين القبائل العربية في جيش العمري.[1]

وأخيراً انتهى الصراع بهزيمة العمري، وتقهقره على النيل، حتى وصل بالقرب من أسوان، وكان ابن طولون حاكم مصر في ذلك الوقت قد أرسل جيشاً إلى أسوان، وظل يراقب أحداث الصراع بين العمري وجيوش مقرة. ولما قدم العمري بالقرب من أسوان اشتبك مع جيش ابن طولون وهزمه، لكنه لقي حتفه غيلة على يد بعض أعوانه. ومن الجدير بالملاحظة أن ملك المقرة أقطع بعض جنود العمري من الشاميين الكثير من المناطق، جنوب الشلال الثاني في منطقتي أدندان وجبل عدا، عندما انفصلوا من جيش العمري، ولم توضِّح المصادر ما آل إليه حالهم بعد نهاية الصراع.

وقد أشار ابن سليم في الفقرة أعلاه إلى الطرق التي ربطت مملكة مقرة بمواني البحر الأحمر في (باضع، وسواكن، ودهلَك)، كما أشار لوجود قبيلة الزنافجة البجاوية في المنطقة، ووضَّح أنهم تابعون لممكة مقرة.

سكان السودان..
والأصل الحامي للشعوب في المصادر العربية

ناقشنا فيما سبق أصول النوبا، والنوباتيين، والبليميين، وتوصلنا من خلال ما توفَّر من المصادر إلى أنهم ينتمون إلى الجنس الأسمر القديم في منطقة شمال أفريقيا منذ عصر ما قبل قيام حضارات وادي النيل، وأنهم كانوا يستقبلون من وقت لآخر موجات سكانية من الصحراء الواقعة إلى الغرب من النيل. ونود هنا مواصلة ومتابعة ما ورد في المصادر العربية عن أصول السكان، ويقودنا ذلك إلى التراث اليهودي الذي ربطت المصادر العربية بينه وبين أصل سكان السودان.

صنّفت المصادر العربية سكان أفريقيا والسودان من خلال التصنيف اليهودي المشهور، والذي يجعل كل سكان العالم من سلالة أبناء نوح الثلاثة: (حام، وسام، ويافث)، كما جاء في العهد القديم من الكتاب المقدس. وقد ذكر الطبري أن النوبة والحبشة وفزان والهند

---

[1]. المقريزي، المُقفّى، مرجع سابق، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص ص 355 – 371.

والسند، وأهل السواحل في المشرق والمغرب من سلالة حام بن نوح.□ ووضّح ابن سليم أن أكثر أهل الأنساب ينسبون النوبة إلى حام بن نوح.□

وأورد ابن خلدون آراء بعض المؤرخين في هذا الصدد فذكر أن «النوبة من ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام فيما قاله المسعودي، وقال ابن عبد البر إنهم من ولد نوب بن قوط بن مصر بن حام، والزنج من ولد زنجي بن كوش، وأما سائر السودان فمن ولد قوط بن حام، فيما قاله ابن عبد البر، ويقال هو قبط بن حام»□)

ومن المعروف أن الكتاب المقدس يحتوي على قسمين، القسم الأول هو العهد القديم، والذي يبدأ بسفر التكوين، وهو بداية توراة نبي الله موسى عيه السلام، مروراً بالتراث اليهودي حتى عصر المسيح عليه السلام، والقسم الثاني هو العهد الجديد، ويحتوي على التراث المسيحي، وهو الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل، وهو مقسّم إلى أسفار وإصحاحات مثل الأجزاء والسور في القرآن الكريم. والقسم الثاني يتضمن التراث الميسحي وهو: الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل و13 رسالة لبولس، ورسالتان لبطرس، وثلاث رسائل ليوحنا ورؤياه ورؤيا يهوذا.

وفيما يتعلّق بسكان العالم، فقد جاء العهد القديم في سفر التكوين: «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافثَ. وحام هو أبو كنعان. وهؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض»□. وهؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم□، ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان.

ويمكن تلخيص ما جاء في المصادر العربية المبكرة حول تكوين شعوب العالم فيما أورده الطبري والقلقشندي في الآتي:

أبناء سام هم:

العرب والأنباط واليهود والبربر، (وهم الأمازيغ وبعضهم جعلهم أبناء حام).

أبناء يافث وهم:

□. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج 1 ص 67.

□. مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 98.

□. ابن خلدون، كتاب العبر، مرجع سابق، ج 6 ص198.

□. سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الأيتان 18-19.

□. سفر التكوين، الإصحاح العاشر، الأية 32.

شعوب أوروبا كلها، وباقي الشعوب الآسيوية كلها ما عدا الكنعانيين والهنود.

أبناء حام وهم:

مصرايم وكنعان وكوش.

أ. مصرايم، أبو المصريين، وفي رواية أخرى أن المصريين من العمالقة أبناء عمليق بن لاوز بن سام .

ب. كنعان، أبو الكنعانيين في منطقة الشام.

ت. كوش، أبو الهنود والبربر (على بعض الأراء)، وكل الشعوب السوداء في إفريقيا، مثل، فزان، والزنج، والزغاوة، والنوبة، والحبش.

وعن أبناء حام ورد الآتي في سفر التكوين[1]:

«وابتدأ نوح يكون فلاحاً، وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبدا لهم».

وأورد الطبري عن أبناء حام، وتكرّر في المصادر العربية الأخرى: »ويزعم أهل التوراة أن ذلك لم يكن إلا دعوة دعاها نوح على ابنه حام، وذلك أن نوحاً نام فانكشف عن عورته، فرآها حام فلم يغطِّها، ورآها سام ويافث فألقيا عليها ثوباً فواريا عورته. فلما هبَّ من نومته علم ما صنع حام وسام ويافث فقال: ملعون كنعان بن حام، عبيداً يكونون لإخوته. وقال: يبارك الله ربي في سام ويكون حام عبد أخويه. ويقرض الله يافث ويحل في مساكن حام ويكون كنعان عبداً لهم». ويواصل الطبري في الموضع نفسه: «إن نوحاً دعا لسام بأن يكون الأنبياء والرسل من ولده، ودعا ليافث بأن يكون الملوك من ولده، وبدأ بالدعاء ليافث وقدّمه في ذلك على سام. ودعا على حام بأن يتغيّر لونه ويكون ولده عبيداً لولد سام ويافث، قال: وذكر في الكتب أنه رقّ على حام بعد ذلك فدعا له بأن يرزق الرأفة من إخوته».[2]

---

[1]. سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الأيات 20-27.

[2]. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، ج1 ص 125.

وهنالك رواية عربية في هذا الصدد أوردها الصحاري عن ابن الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما رَقَدَ نوحُ في السفينة انكشفت عورَتُه فنظرَ إليها أهلُ السفينة فاستحبوا أن يَسْتُروه ولم يَجترئ عليه أحدٌ بذلك لمكانه من الله عزّ وجلّ، فنظر إليه ابنُه حام فضَحِك ولم يَسْتُره، فلما نظر إليه سام قام وسَتَرَه عليه ثيابه، فأوحى الله إلى نوح بذلك، فقال نوح لحام: يا حام نظرت إليّ عُرياناً فلم تَسْتُرني وقد بدت عورتي إلى الناس؟ كَشَفَ الله عَوْرَتَك وعَوْرَة وَلَدك من بَعْدِك. وجعلهم عُرَاةً يكونون ما بقي منهم أحد. وأذلهم لوَلَدِ سام، وجعل الله المُلْكَ والنبوة في ولد سام إلى يوم القيامة. فاستجابَ الله له فلم يَجْعَل من ولد حام ولا يافث نَبيّاً، ولا يجعله إلى يوم القيامة».[1]

تبدو عدم صحة الحديث جلية بيّنة، لأنه يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم من آيات توضّح أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله لكل الأمم باختلاف أعراقهم على مدار تاريخ البشرية، فلم يكن الرسل حكراً على الجنس السامي. فكل سكان البوادي والحضر والغابات وغيرها أرسل الله إليهم رسلاً من أنفسهم وبلسانهم، كما توضّح عدد من الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: «لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ».[2] وقوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ».[3] وقوله تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ».[4]

وقد ذكر الطبري في تفسير أن (نذير) و(هاد)، في الآيتين السابقتين المقصود بهما الرسل. وقوله تعالى «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً»[5]، يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم»[6]. وأن الله تبارك وتعالى ليس يعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر، أو يأتيه من الله بيّنة. وفي الآية الكريمة يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً الرسول (محمد صلى الله عليه

---

[1]. السمعاني، عبد الكريم بن محمد المروزي، كتاب الأنساب، (موقع الوراق)، ج 1 ص 23.

[2]. سورة الرعد، الآية: 36.

[3]. سورة فاطر، الآية: 24.

[4]. سورة الرعد، الآية: 7.

[5]. سورة الإسراء، الآية: 15.

[6]. الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج 17 ص 402.

وسلم): «وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً»[1] وتوضح الآية أن عدد الرسل الخمسة والعشرين المذكورين في القرآن ليس هو عـدد الرسل الكلي الذين أرسلهم الله للناس في مختلف العصور والأماكن، إذ يوجد عدد من الرسل لم يذكرهم الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم في القرآن الكريم. فهؤلاء الرسل المذكورون من العرب أو من اليهود الذين كانوا يساكنون العرب في بلادهم، أو من المناطق القريبة من شبه الجزيرة العربية، والذين كانت للعرب معرفة بهم. ونخلص من ذلك أن الحديث المنسوب إلى النبي الكريم الذي جعل النبوة في نسل سام إلى يوم القيامة يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم، وبالتالي فهو حديث يجب رده وعدم الأخذ به، ويمثّل الروايات التي تعكس بعض المواقف العنصرية المتأثرة بالتراث اليهودي ضد الشعوب السوداء في التراث العربي.[2]

ويلاحظ أن الرواية العربية جعلت الملك والنبوة في نسل سام. أما ما يتعلّق بالتقسيم العبري السامي والحامي لسكان العالم فهو تقسيم ساد بين المسلمين المبكرين، وتبعه الكثيرون في العصر الحديث، وبخاصة مؤيدو الاستعمار الغربي لتبرير استعبادهم للشعوب الملونة. ولا يعترف علماء الأجناس بهذا التقسيم. ولا أظن أننا بحاجة إلى التعليق على نظرة اليهود العنصرية تجاه السود موثقة من تراثهم المقدس الذي جعل السود عبيداً لأبناء سام، كما جاء في سفر التكوين «فقال ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم».[3]

وإلى جانب كل ذلك دعونا نرى كيف يحكم الغربيون على العهد القديم من الكتاب المقدس. فالعهد القديم المعروف حالياً عبارة عن ترجمات بلغات كثيرة دون وجود النص الأصلي بلغته أو لغاته التي أوحي بها إلى أنبياء بني إسرائيل.[4] والمعلومات الواردة في هذه الترجمات لا ترجع إلى أصل واحد. فهنالك الأصل العبري المشهور الذي ترجم إلى اليونانية في القرن الأول الميلادي، وهي الترجمة المشهورة بالترجمة السبعينية والتي قام

---

[1]. سورة النساء، الآية: 164.

[2]. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم «المعروف بتفسير ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، 1403هـ، يقول: «إن عدد رسل الله لخلقة مائة واربعة وعشرين ألفاً» ج 1ص 85.

[3]. سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الأيتان 25 و26.

[4]. برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني؛ الفلسفة الكاثوليكية، ترجمة: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1968م، ص 32.

بها سبعون حبراً، ويعتقد أن هذه الترجمة قد أوحي بها من الله سبحانه وتعالى. وفي القرن الثالث الميلادي أخرج أوريجن نصّاً آخر للتوراة، وفي القرن الخامس الميلادي أخرج جيروم الترجمة الشائعة للتوراة اليوم.

ويقول ابن حزم إن اليهود السامرية لهم توراة غير التوراة التي بيد باقي اليهود، ويعتقدون أنها التوراة الصحيحة، وأن التوراة التي بأيدي اليهود الآخرين مبدّلة ومحرفة.[] أما رأي المسلمين في هذه المسألة، فقد ورد في أكثر من آية في القرآن الكريم مثل قوله تعالى في سورة البقرة آية 25، وآل عمران آية 78، والنساء آية 46، والمائدة آية 13 و41. فقد وضحت هذه الآيات كيف أن اليهود يحرفون كتابهم المقدس، ويضيفون إليه ما ليس فيه. وهكذا يتضح أن ما ورد في الكتاب المقدس والتراث اليهودي عن تقسيم سكان العالم إلى ساميين وحاميين لا يعتد به، وبالتالي فما نقلته المصادر العربية عن ذلك التراث من أن النوبة ينتسبون إلى حام بن نوح لا يعتد به أيضاً.

ويبقى لدينا من روايات كتب التراث العربي ما ورد عن انتساب النوبة لقبيلة حمير اليمنية السامية. فقد ذكر ابن سليم: «ويقال: إنّ سلها جد النوبة، ومقري جدّ المقرة من اليمن. وقيل: النوبة ومقري من حمير»[]، أما ياقوت الحموي فقد فصل بين الأسر المالكة النوبية والشعب النوبي، وذكر أن «ملوكهم يزعمون أنهم من حمير»[].

والروايتان يبدو عليهما الضعف الواضح من صياغتهما، فابن سليم عبَّر بـ(قيل)، بينما عبَّر ياقوت بأن الملوك (يزعمون)، مما يساعد على عدم الأخذ بهما، إلا أننا وزيادة في التأكيد نورد هنا بعض النماذج من كتابة التاريخ في المصادر العربية لمعرفة الطرق التي اتبعها أولئك المؤلفون للحصول على المادة التي دوّنوها، والمصادر التي استندوا عليها في جمع تلك المادة، لكي نتمكّن من فهم ما ورد في تلك المصادر فهماً صحيحاً يساعدنا على تقييمه، والوقوف على مدى مصداقيته، ليس فيما يتعلّق عن نسب النوبة فقط، بل في المعلومات الكثيرة والمتنوِّعة التي غطّت مساحات زمنية ومكانية واسعتين من تاريخنا.

المادة التي وردت في مصادر التراث العربي المبكر عن تحركات الشعوب وتواريخها وأنشطتها السياسية الاقتصادية الاجتماعية أتت في كتب متنوّعة المواد والعناوين، بعضها

[]. ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، الفصل في الملل والأهواء والنِّحل، ص 177 و 202 و297.

[]. ابن سليم، أخبار النوبة، في: مسعد، المكتبة السودانية، مرجع سابق، ص 98.

[]. ياقوت الحموي، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص166.

تحت اسم التاريخ، والأغلبية العظمى تحت عناوين أخرى، مثل المعارف، والأخبار، والبلدان، والمسالك، والممالك، والعجائب والغرائب في البر والبحر.. وغيرها. ولم تميّز تلك المصادر بين المادة التاريخية وغير التاريخية. فقد دونت -إلى جانب الأحداث التاريخية- ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر التراث الشعبي لتلك المناطق التي كتبت عنها. ولم تميّز بين أحداث التاريخ، وذلك التراث الشفاهي، وقصص البطولات والأساطير المتداولة بين الناس.

ومن بين تلك الروايات التي تناولت النوبة، ما رواه النويري عن أخبار أحد ملوك اليمن وهو الريان بن الوليد قال: «وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوش.. استعد لغزو ملوك الغرب فخرج في تسعمائة ألف، واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحّى عن طريقه، ومنهم من دخل تحت طاعته، ومرّ بأرض البربر فأجلى كثيراً منهم. فلم يمر بأمة إلا أبادها وأثر فيها، إلى أن بلغ بلد النوبة فصالح أهلها على مال يحملونه إليه، ثم أتى دنقلة فأقام بها علماً وزبر عليه اسمه وميسره». [1]

ولنترك حكمنا على مثل هذه الروايات لابن خلدون فنرى رأيه في ما ورد في المصادر العربية عن غزوات ملوك اليمن أفريقيا حيث قال: «ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب. وأن أفريقش بن قيس بن صيفي من أعاظم ملوكهم الأوَل، وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل، غزا أفريقية وأثخن في البربر، وأنه الذي سماهم بهذا الاسم.. ومن هذا ذهب الطبري، والجرجاني، والمسعودي، وابن الكلبي، إلى أن صنهاجة وكتامة من حمير، وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح»، ويواصل ابن خلدون: «وذكر المسعودي أيضاً أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل أفريقش، وكان على عهد سليمان (عليه السلام)، غزا المغرب ودوّخه، وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده، وأنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب، ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل فرجع.. وأنه ملك الموصل وأذربيجان، ولقي الترك فهزمهم وأثخن، ثم غزاهم ثانية وثالثة». [2]

ويلاحظ هنا أن ذا الأذعار، كما ورد هنا، كان في عصر سليمان، وأنه حكم قبل أفريقش. وفي بداية النص أعلاه ورد أن أفريقش كان في عهد موسى، ومن المعروف أن موسى سبق

---

[1]. النويري، نهاية الأرب، مرجع سابق، ج 4 ص 96 – 97.

[2]. ابن خلدون، العبر، مرجع سابق.

سليمان بزمن طويل، فكيف حكم ذو الأذعار قبل أفريقش؟.

ويواصل ابن خلدون: «وأنه بعد [ذا الأزعار] ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس إلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر، وإلى بلاد الروم، فملك الأول البلاد إلى سمرقند، وقطع المفازة إلى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها، فأثخنا في بلاد الصين، ورجعا جميعاً بالغنائم، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد (...) وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوّخ بلاد الروم ورجع. وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة».
ويواصل ابن خلدون عن ما ورد عن ملوك اليمن: «وملك الحرث الرائش فيما قالوا مائة وخمساً وعشرين سنة، وكان يسمّى تبعاً وكان مؤمناً فيما قال السهيلي، ثم ملك بعده ابنه أبرهة ذو المنار مائة وثمانين سنة.. ثم ملك من بعده أفريقش بن أبرهة مائة وستين سنة. وقال ابن حزم: هو الذى ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية وبه سميت.. وترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهم إلى الآن بها، وليسوا من نسب البربر، قاله الطبري، والجرجاني، والمسعودي، وابن الكلبي، والسهيلي، وجميع النسّابين. ثم ملك من بعد أفريقش أخوه العبد ابن خمس وعشرين سنة، وكان على عهد سليمان بن داود أو قبله بقليل وغزا ديار المغرب».[1]

ويكفينا هنا حكم ابن خلدن الذي بدأ به النص حيث قال: «ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب». فالمؤلفون الأوائل لم ينشغلوا بتحقيق الخبر، وكانت براءة ذممهم في ذكر أسماء رواتهم أو مصادر معلوماتهم، أما التحقُّق من صدق الرواية أو مصداقية المصدر فهي مسؤولية القارئ، وعليه التحقُّق من المصدر والحكم على الخبر أولاً قبل الاحتجاج به.

ويشير ابن خلدون إلى الأوضاع السياسية في تلك الفترة، وكيف أنها تعارض مع ما ذكر من حُكْم وتوسّعات ملوك اليمن فقال: «وقد كان بتلك الأعمال العمالقة، وكنعان بالشام، والقبط بمصر، ثم ملك العمالقة مصر، وملك بنو إسرائيل الشام، ولم يُنْقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم، ولا ملكوا شيئا من تلك الأعمال. وأيضا فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزْودة والعلوفة للعساكر كثيرة. فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه، ولا يكفي ذلك للأزودة وللعلوفة

[1]. المصدر نفسه.

عادة وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله. فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها. وإن قلنا إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك أبعد وأشد امتناعاً، فدل على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة».

ولا أعتقد أن تعليق ابن خلدون هذا في حاجة إلى إيضاح، ولكننا نضيف أنه من بين أسباب ظهور تلك الروايات في تراث عرب الجنوب عن ملوكهم من التبابعة وغيرهم، المنافسة الشديدة بين عرب الجنوب وعرب الشمال في شبه الجزيرة العربية. فعرب الجنوب القحطانيون كانوا أصحاب حضارة متقدّمة عن حضارة عرب الشمال العدنانيين. وعندما جاءت النبوة في قريش والتي تنتمي إلى عرب الشمال، زادت في مكانة العدنانيين، وأصبحوا يفتخرون على القحطانيين، فسعى القحطانيون لتسليط الأضواء على تراثهم الحضاري القديم قبل الإسلام، وأضفوا عليه الكثير من صفات البطولات التى اختلقها رواة الأخبار اليمنيون لترفع من مكانتهم أمام العدنانيين الذين أصبحوا السادة والحكام في العالم الإسلامي. ونقلت المصادر العربية تلك الروايات دون التحقّق من صدقها أو عدمه، كما وضح ابن خلدون.

ولنترك المؤرخ المشهور الطبري يحدّثنا عن تقييمه عندما قال: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كلّ ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويتُ من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أبناء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤتَ في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا».[1]

---

[1]. الطبري، تاريخ الرسول والملوك، مرجع سابق، ج1 ص3.

الفصل الرابع

بلاد وسكان مملكتي مقرة وعلوة

- مملكة مقُرة، أرضها وسكانها
  - الاسم مقُرة؛ المملكة وسكانها
  - مدن مملكة مقُرة: دنقلا، نوابة، بلاق، شنقير، كوشة، اللاب، الجبلين، الزغاوة، القرعان، بركامي، المصامدة
- مملكة علوة وريثة مملكة كوش
- مملكة علوة؛ أرضها وسكانها
  - مدن بلاد علوة: سوبا، الأبـواب، الجزيرة الكبرى، بلد طبلى
  - سكان بلاد علوة: العنج، الديجون، أهل تفلين، الكرنينا، مرنكة، كرسي، أندا، تكنة، نوبا النيل الأبيض، الأحديين، التبان، كنكا

مملكة مقرة، أرضها وسكّانها

- **الاسم: مُقُرة**

جرت عادة المؤرخين الكتابة عن تاريخ مملكة مُقُرة ببداية اعتناقها الدين المسيحي، وذلك لعدم توفُّر المعلومات عن الفترة السابقة للمسيحية. وقد بدأ الجيل الواعد من الأثاريين والمؤرخين بتغيير ذلك التقليد، بتكثيف العمل الآثاري الذي بدأت طلائع نتائجه في الوضوح، ونأمل أن ترى الأطوار المبكرة من تاريخ مملكتي مُقُرة وعلوة النور قريباً.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى القليل الذي ورد حول اسم المملكة (مقرة) مثل محاولة ربط الاسم ببعض أسماء الشعوب التى عاشت في المنطقة، وبخاصة منطقة الصحراء الغربية للنيل. وأكرِّر الإشارة هنا إلى أنني أرى أن فهم تاريخنا فهماً صحيحاً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمناطق الصحراء الواقعة غربي النيل. وهذا الارتباط كما سبق وأن ذكرنا، بمثابة العلاقات الطبيعية بين المناطق قليلة الموارد المائية والنباتية، وبين المناطق الخصبة والغنية بتلك الموارد.

ونتناول الرأي الذي طرحه آركل، والذي ربط بين أصل كلمة مُقُرة (مقر: الميم والقاف والراء mgr) وبين أصل كلمة مَقِرة Tu - magera اسم الأسرة المالكة في منطقة هضبة تبستي في الصحراء الغربية للنيل، وكلمة Tu هي الاسم القديم لمنطقه هضبة تبستي، ومَقِرة تعني الرجل العظيم أو الرئيس. ويرى آركل أن الأسرة الحاكمة في تبستي تو-مقرة قد تردد كثيراً بين الأسر الحاكمة في المنطقة، بما في ذلك أسرة التنجر في دارفور، والتي يتضمن تراثها الشعبي صِلتها بالنيل. كل ذلك يرجِّح احتمال وجود الصِلة بين الأسرة التي أسَّست مملكة مُقُرة وسكان الصحراء الغربية.[1]

ويرى كيروان أن المُقُريين ربما كانوا الجماعة نفسها التي أشار إليها سترابو في القرن الأول الميلادي باسم Meya Bapoi وأشار إليهم بطليموس في القرن الثاني الميلادي باسم Makkopai.[2]

---

[1]. Arkell، Anthony John، History of the Sudan: From the Earliest Times to 1821. London: The Athlone Press، 1961، p. 185، 191، 200.

[2]. Kirwan، Notes o the Topography of the Christian Nubian Kingdoms،JEA، XXI، 1934، p 57.

ولم يحظ اسم مُقُرة في المصادر العربية بالقدر نفسه الذي حظي به اسمي النوبة وعلوة، فلم يتردَّد كثيراً في المصادر المبكرة، وأتت كتابته بصور مختلفة. فقد أتى عند المسعودي (ماقرة)، وعند ابن سليم وأبي صالح الأرمني وابن عبد السلام والمقريزي (مُقُرة) بدون ألف ولام، وعند ابن حوقل (المُقُرة) بالألف واللام، وعند ياقوت الحموي (مُقُرّى)، وعند الدِّمَشقي (مُقُرّا)، وقد تبعنا الرسم الغالب على المصادر العربية وهو مُقُرة.

- **المملكة وحدودها**

اختلفت تقديرات المصادر العربية لامتداد مملكة مقرة، فقدّره بعضهم بالأيام والليالي والأشهر، والبعض الآخر قدره بالمراحل. فقد ذكر اليعقوبي أن مُقُرة بلاد واسعة وعريضة، ومسافة ما بينها وبين علوة مسيرة ثلاثة أشهر، بينما جعل الإدريسي طولها على النيل مسيرة شهرين وأكثر، وجعلها اليعقوبي شهرين فقط. وقدَّر القزويني طول مملكة مقرة بمسيرة ثمانين ليلة، بينما قدَّرها المقريزي بمسيرة أربعين يوماً، وجعلها ابن سعيد مسيرة سبعين يوماً. أما ابن سليم الأسواني، والذي زار المملكة، فقد جعل طولها أكثر من خمسين مرحلة. هذه التقديرات المتضاربة تعكس مصادر معلومات أولئك المؤلفين، وهو ما يذكّرنا بأن لا نأخذ كل ما ورد في المصادر العربية باعتباره حقائق مسلَّماً بها.

أما حدودها فقد وضَّحت المصادر امتدادها على النيل جنوباً حتى حدود مملكة علوة. أما حدودها الشمالية فقد كانت تنتهي عند الشلال الثالث، قبل أن تضم إليها مملكة نوباتيا، والتي عُرفت في المصادر العربية باسم مملكة مريس. وبعد اتحاد المملكتيْن في الربع الأخير من القرن الأول الهجري، امتدت حدود مملكة مقرة -كما وضَّحت المصادر، مثل، ابن سليم والمسعودي- حتى مدينة القصر؛ والتي تقع على بعد ستة أميال جنوب أسوان. غير أن ابن سليم ذكر في مكان آخر أن: «أول بلد مقرة، قرية تعرف بتافة، على بعد مرحلة من أسوان»[1]، وأغلب الظن أنه قصد مدينة فيلة.

ولم يتردَّد اسم تافة في المصادر العربية كثيراً، فقد أشار إليها أبوصالح الأرمني، لكن لم يحدِّد موقعها، وذكر مسعد أن الملك المقري مرقوريس حوَّل معبدها إلى كنيسة عام

---

[1] ابن سليم الأسواني، عبد الله بن أحمد، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في: مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، الخرطوم، 1972م، ص 91.

710 م (92هـ)[1]. وذكر أبوصالح أن «بمدينة تافة دير يعرف بدير أنسون»، ووصفه بأنه «دير عتيق، متقن، حسن البناء، ولذلك لم تتغيَّر معالمه على طول مدته». وأضاف «أن ملك مصر أرسل نبي الله موسى قبل نبوته لغزو مدينة تافة، ووضح أن الطريق إليها كان يمر بمناطق تكثر فيه الأفاعي والحشرات التي يصعب معها العبور، فاصطحب موسى معه الديوك والطيور، ففرت الأفاعي والحشرات من أمام الجيش عند سماعها أصوات الديوك والطيور، وتمكّن موسى من فتح المدينة وبالتعاون مع إحدى أميراتها.[2]

ويبدو أن امتداد مملكة مقرة شرقاً، كان منحصراً على المناطق المجاورة للنيل، إذ لم يرِد في المصادر ما يبيِّن امتداد نفوذها شرقاً، ما عدا ما ذكر عن قبيلة الزنافجة التي استقرَّت بجوارها شرقيَّ النيل، والتي كانت تحت سلطتها. وقد تناولت هذه القبيلة عند الحديث عن قبائل شرق السودان.

وأشارت المصادر العربية إلى امتداد المملكة نحو الغرب، والشمال الغربي، والجنوب الغربي، فعاصمة الدولة دنقلة، كما ذكر أبو الفداء، تقع على ضفة النيل الغربية، وأضاف: «وفي غربيِّ دنقلة وشماليِّها مدنهم المذكورة في الكتب»[3]، وسنلاحظ ذلك بوضوح عند تناول مدن مملكة مقرة وسكانها.

وقد تناولت بعض المصادر العربية وصف المملكة وسكانها بصورة عامة. قال القلقشندي عن النوبة: «ولون بعضهم يميل إلى الصفاء، وبعضهم شديد السواد»[4]، ووصفهم ياقوت الحموي بأنهم «نصارى يعاقبة، لا يطأون النساء في الحيض، ويغتسلون من الجنابة ويختتنون»[5].

الختان معروف في العالم القديم في وادي النيل والشرق الأوسط. وقد دلّت الآثار المصرية القديمة على ممارسة الختان منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. وفي أفريقيا ارتبطت عادة ختان الصبيان عند سن البلوغ، وهو ما يسمَّى بطقوس العبور Rites of Passage.

---

[1]. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، المصدر السابق، ص 79 حاشية رقم 3.

[2]. أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 146.

[3]. أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود، تقويم البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 216.

[4]. القلقشندي، أحمد بن عبد الله، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 286.

[5]. ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 165.

ومن المعروف في التراث الإسلامي أن ختان الصبيان سُنة، وقد ذكر الحاكم في المستدرك على الصحيحين أنه «قد تواترت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد مختوناً مسروراً»[1] مسروراً؛ أي مقطوع حبل السُّرَّة.

ووصف المسعودي البلاد بصورة عامة، فذكر أنها أشبه باليمن، وبيَّن بعض ثروات مقرة من الإبل النجائب، والبقر، والغنم. وذكر: «وللكهم خيل عتاق، وللعامة براذين، وينبت عندهم الحنطة، والشعير، والذرة، ولهم نخل وكروم، ومقل، وأراك، وعندهم أترنج مفرط العظم»[2].

كما ورد في نسخة موقع الورا أن كل المنطقة الواقعة على طول النيل بين أسوان ودنقلة عمائر متصلة. ويلاحظ وجود الإبل العتاق في مملكة مقرة، مما يشير إلى ارتباط وامتداد المملكة في الصحراء غربيّ النيل. وقد أشار المسعودي إلى سلاح المقريين وقتالهم، فذكر أنهم «يرمون بالنبل عن القسيِّ العربية، وعنهم أخذ الرمي أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب، وهم الذين يسميهم العرب رماة الحدق»[3].

وذكر ياقوت الحموي أن «النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر، وهم نصارى أهل شدَّة في العيش، أول بلادهم بعد أسوان، يُجلَبون إلى مصر فيباعون بها.. وبين النوبة والبجة جبال منيعة شاهقة وكانوا أصحاب أوثان»[4].

مدن مملكة مُقرة

■ مدينة دنقلة

حظيت مدينة دنقلة، عاصمة مملكة مقرة، بالقدر الأكبر من المادة التي وردت في المصادر العربية عن مدن مملكة مقرة. ورغم تواتُر كتابة اسم المدينة دنقلة بالنون، إلا أنها جاءت في بعض المصادر بالميم (دمقلة)، كما في كتاب (فتوح مصر) لابن عبد الحكم، و(الروض المعطار) للحميري، وعند المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، وابن كثير في

---

[1]. الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، (موقع الوراق)، ج 9 ص 453.

[2]. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958م، ص 49.

[3]. المصدر السابق، نقلاً عن (موقع الوراق)، ج 1 ص 495.

[4]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 165.

(البداية والنهاية). ويبدو أن هؤلاء المؤلفين قد نقلوا عن ابن الحكم، واشتهرت كتابة الاسم بالميم، كما وردت عنده في بيت الشعر المشهور:[1]

لم تر عيني مثل يوم دمقلة والخيل تعدو والدّروع مُثْقلة

وقد نقل القلقشندي ما أثبته أبو الفداء في كتابه (تقويم البلدان) بأنها بالميم، وعلّق على ذلك قائلاً: «وما قاله هو الجاري على ألسنة أهل الديار المصرية».[2]

حدّدت المصادر موقع مدينة دنقلة على الضفة الغربية للنيل، وقال الإدريسي عن سكان مدينة دنقلة أنهم: «سودان.. لكنهم أحسن السودان وجوهاً، وأجملهم شكلاً.. وطعامهم الشعير والذرة، والتمر يجلب إليهم من البلاد المجاورة لهم، وشرابهم المزر المتخذ من الذرة، واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل، طرية، ومقدّدة، ومطحونة، ويطبخونها بألبان النُّوق، وأما السمك فكثير عندهم جداً».[3]

وقال أبو صالح الأرمني عن دنقلة إنها «مدينة عظيمة على شاطئ بحر النيل المبارك، وبها كنائس، وأدر كبار، وشوارع متّسعة، ودار الملك شاهقة البناء بقباب عدّة، مبنية بالطوب الأحمر، تحاكي أبنية العراق مما كان اقترحه رفائيل ملك النوبة إلى آخر سنة اثنين وتسعين وثلثمائة للعرب [392 هـ]»[4].

ويبدو أن هذا الوصف للكنائس، وللمباني، والشوارع، وصف من دخل مدينة دنقلة، وأغلب الظن أن يكون هذا وصف ابن سليم للمدينة. فالمقريزي لم ينقل وصف ابن سليم كاملاً عن مدينه دنقلة، فقد ذكر فيما نقله عن مدينة دنقلة من ابن سليم: «وذكر صفتها ثم قال: يسقفون بيوتهم بخشب الساج الذي يأتي به النيل».[5] فقد اهتم المقريزي بما تعلّق بالخشب الذي يأتي به النيل، ولم يورد ما ذكره ابن سليم عن وصف المدينة، بل اكتفى بالإشارة إلى أن ابن سليم وصف المدينة حين قال: «وذكر صفتها». فلو أخذنا بأن أبا صالح الأرمني المتوفى عام 605هـ/1208م قد أخذ الوصف عن ابن سليم، فيكون هذا الوصف

---

[1]. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 8.

[2]. القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ص 285.

[3]. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 129.

[4]. أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، مصدر سابق.

[5]. ابن سليم، كتاب تاريخ النوبة، مصدر سابق، ص 97.

وصف من شاهد المدينة، مما يؤدي إلى مصداقية الوصف وقبوله.

وتبدو دنقلة مدينة كبيرة ذات تخطيط منتظم، بها كنائس متعدِّدة، وبها شوارع واسعة، ومنازل كبيرة، والقصر الملكي مشيَّد بالطوب الأحمر، وذو مبانٍ عالية، يزيِّنه عدد من القباب. ووضَّح الوصف أن مباني مدينة دنقلة، وربما القصر الملكي بصورة خاصة، قد تأثَّر بأسلوب العمارة العراقية. مما يوحي بأن هذا التأثير نتج عن زيارة الأمير المقري الذي زار العراق في عصر الخليفة المعتصم (218هـ- 229هـ/ 833م - 843م)، والذي ورث أباه على عرش المملكة (259هـ -279هـ/ 872م - 892م). وبعد نحو قرن من الزمان زار الرحالة ابن سليم الأسواني مدينة دنقلة، في عهد الملك جورج الثاني (359هـ - 392هـ)، وترك لنا وصف المدينة الذي أشار إليه المقريزي ولم ينقله. وأغلب الظن أن وصف دنقلة أورده أبو صالح منقولاً عن ابن سليم.

وقد وصف القزويني أرض مدينة دنقلة بأنها «محترقة لغاية الحرارة عندهم، ومع شدة احتراقها ينبت الشعير والحنطة والذرة»، وذكر: «لهم نخل، وكرم، ومقل، وأراك، وبلادهم أشبه شيء باليمن». ووصف مساكنها بأنها «أخصاص كلها، وكذلك قصور ملكهم». وقد انفرد القزويني بوصف أهل مدينة دنقلة بأنهم «عراة مؤتزرون بالجلود»، وأضاف أن «النُّمُر عندهم كثيرة، يلبسون جلودها، والزرافة أيضاً وهي دابة عجيبة منحنية إلى خلفها لطول يديها وقصر رجليها، وعندهم صنف من الإبل صغيرة الخلق قصيرة القوائم».[1]

ومن الواضح أن معلومات القزويني عن مدينة دنقلة غير دقيقة، مثل وصفه لمساكن أهل دنقلة بأنها أخصاص كلها، وهذا يتعارض مع ما ورد عن مدينة دنقلة في المصادر العربية الأخرى، وكما وضحت الكشوفات الآثارية وجود المباني الكبيرة الواسعة ذات الطابقين في مدينة دنقلة، وسورها الضخم والعالي الارتفاع، المبني بالطوب والحجارة. وقد نقل القزويني وصف المسعودي للنوبة بصورة عامة، وجعله وصفاً لأهل مدينة دنقلة.

ومن الروايات غير الدقيقة أيضاً، ما أورده النويري من وصف الرسول الذي بعثه توران شاه، أخو صلاح الدين الأيوبي، عام 568هـ (1172م) لمدينة دنقلة، ليكشف له خبر البلاد بعد أن دخل المناطق الشمالية من مملكة مقرة حتى قلعة إبريم، وقال الرسول بعد عودته من دنقلة كما رواها النويري:

---

[1]. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 194، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 14.

«وجدت بلاداً ضيِّقة، ليس بها من الزرع سوى الذرة، ونخل صغير منه إدامهم، ويخرج الملك وهو عريان على فرس عري، وقد التفَّ في ثوب أطلس، وليس على رأسه شعر. فلما قدمت عليه وسلّمت ضحك وتغاشى، وأمر بي فكويت على يدي هيئة صليب، وأنعم عليَّ بنحو خمسين رطلاً من دقيق، وليس في دمقلة عمارة سوى دار الملك، وباقيها أخصاص».[1]

ويبدو أن كاتب هذا الوصف لم يدخل مدينة دنقلة، ولم يجمع معلوماته عنها ممن دخلها، بل أورد وصفاً للمدينة وملكها من تخيُّلاته التي توضح جهله بالمنطقة وأهلها.

- **مدينة نوابية أو نوابة**

مدينة نوابية أو نوابة، من مدن مملكة مقرة الصحراوية، ولم تتّفق المصادر العربية في كتابة اسمها. فقد ورد (نوابة) عند الإدريسي في نسخة موقع (الوراق)، والذي لم يذكر معلومات عن الطبعة التي أخذ منها. وورد كذلك (نوابة) عند ابن سعيد. وكُتِب (نوابية) عند الإدريسي في النسخة التي اعتمد عليها مسعد في (المكتبة السودانية) وهي طبعة دوزي عام 1864م. وكذلك كُتِبت (نوابية) عند ابن الوردي والحميري. ويبدو من المادة التي أوردها كل من ابن الوردي والحميري أنهما نقلاها عن الإدريسي. وعلى كل حال فإن الاختلاف في الرسم بسيط ولا يغيِّر في نطق الكلمة كثيراً.

ذكر ابن سعيد أن مدينة نوابة تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة دنقلة، وحدَّد كل من الإدريسي وابن الوردي بأنها تبعد عن النيل أربعة أيام. وعيَّن ابن سعيد موقعها على خط الطول ثمانٍ وخمسين درجة وثلاثين دقيقة، والعرض تسع درجات، وحدّد موقع مدينة دنقلة على خط عرض أربع درجات وخمس عشرة دقيقة.[2]

ويبدو أنه حدث خطأ في نقل النص أو طباعته. فقد تواتر في الجغرافيا العربية أن موقع مدينة دنقلة إلى الشمال كثيراً من خط عرض أربع درجات. وقد صحّح هذا الخطأ ما ورد عند القلقشندي عن موقع المدينة نقلاً عن ابن سعيد فذكر: «قال ابن سعيد: حيث الطول

---

[1]. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، (موقع الوراق)، ج 7 ص 461.

[2]. ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي، كتاب الجغرافيا، (موقع الوراق)، ج 1 ص 11؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص 126؛ ابن الوردي، عمر بن مظفر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 372.

ثمان وخمسون درجة وعشر دقائق، والعرض أربع عشرة درجة وخمس عشرة دقيقة».[1]

ووفقاً لهذا التحديد فمدينة نوابية تقع إلى الجنوب من مدينة دنقلة بأربع درجات وإلى الغرب منها بعشرين دقيقة. وإذا قارنّا موقع مدينة نوابية عند ابن سعيد بالمقارنة إلى مدن الزغاوة والكانم في المنطقة، نجدها تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة زغاوة التي تقع على خط عرض 10 جنوب خط الاستواء، وعلى خط طول 54، وتقع إلى الشرق من مدينة جيمي الكانمية على خط عرضها نفسه، وتفصل بينهما خمسة خطوط طول.

وبالطبع فإن تحديد الموقع بهذه الخطوط في الجغرافيا العربية المبكرة ليس بالضرورة دقيقاً مثل التحديد الحالي للمواقع، فهو بخاصة للمدن النائية تقديري في أغلب الأحيان، إلا أنه يعطي التصوُّر العام للموقع. وذهب كراوفورد إلى أن مدينة نوابية تقع في موضع جبل حرازة الحالي.[2]

وقد ذكر كل من الإدريسي وابن الوردي وصف مدينة نوابية وسكانها فذكرا: «وهي مدينة صغيرة، وأهلها مياسير، ولباسهم الجلود المدبوغة وأُزُر الصوف... وشرب أهلها من الآبار، وطعامهم الذرة والشعير، ويجلب إليهم التمر، والألبان عندهم كثيرة. وفي نسائهم جمال فائق، وهن مختتنات، ولهن أعراق طيبة، ليست من أعراق السودان في شيء. وجميع بلاد أرض النوبة في نسائهم الجمال، وكمال المحاسن، وشفاههم رقاق، وأفواههم صغار، ومباسمهم بيض، وشعورهم سبطة، وليس في جميع أرض السودان من المقازرة، ولا من الغانيين، ولا من الكانميين، ولا من البجة، ولا من الحبشة والزنج قبيل، شعور نسائهم سبطة مرسلة إلا من كان منهن من نساء النوبة.. وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاثة مائة دينار وأقل من ذلك. ولهذه الخلال التي فيهن، يرغب ملوك أرض مصر فيهن، ويتنافسون في أثمانهن، ويتخّذونهن أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن».[3]

فمدينة نوابية أو نوابة من مدن الصحراء التي لا نعرف عنها الكثير، وقد أوردت المصادر العربية أن اسم النوبة أتى من اسم هذه المدينة. فذكر الإدريسي: «وإليها تنسب النوبة وبها عرفوا»، وقال ابن سعيد: «من مدن النوبة نوابة التي سموا بها»، وقال الحميري: «وإليها

---

[1]. القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ص 285.

[2]. Crawford، The Fung kingdom of Sennar: with a Geographical Account of the Middle Nile Region. Gloucester، 1959، p. 26.

[3]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص 126؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، (موقع الوراق) ج 1 ص 28.

564

ينسب النوبة وبها عرفوا[1].

واسم النوبة -كما جرت عادة العرب على تخريج الأسماء- تارة يرجعونه إلى جدهم الأكبر الذي كان يعرف بـ(نوبا)، فهم (بنو نوبة)[2]، وأحياناً يرجعونه إلى أصل عربي كما كتب ياقوت الحموي: «نوبة: بضم أوَّله وسكون ثانيه وباء موحَّدة، والنوب جماعة النحل ترعى ثم تنوب إلى موضعها، فشبه ذلك بنوبة الناس، والرجوع مرة بعد مرة، . وقيل النوب جمع نائب من النحل، والقطعة من النحل تسمى نوبة، شبهوها بالنوبة من السودان، وهو في عدة مواضع: النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر».[3]

ولكن يبدو معقولاً ارتباط اسم النوبة في المصادر العربية باسم مدينتهم، كما جرت عليه عادة المؤلفات العربية في إطلاق اسم المدينة على السكان أو العكس. (فنوابة، أو نوابية، أو نوبة)، كما ذكر ابن الوردي: «ومن مدن النوبة المشهورة نوابية، ويقال لها نوبة»، فأصبحت (نوبا) اسم المدينة والسكان. كما يقولون أهل غانة عاصمتهم مدينة غانا، وكوكو عاصمتهم مدينة كوكو، ورغم أن عاصمة مالي تذكر أحياناً باسمها (نياني)، إلا أنه يطلق عليها مدينة مالي. فهل كانت مدينة النوبا (نوابة، أو نوابية، أو نوبة) في وقت ما قبل دخول العرب مصر مدينة للنوباتيين في الصحراء، ولذلك عرف السكان بها؟.

وقد ذكرنا أن العرب عندما دخلوا مصر، وجدوا أن سكان المنطقة الواقعة على حدود مصر الجنوبية يعرفون باسم النوباتيين، فجرى الاسم في لسانهم النوبة بدلاً من النوباتيين. ولم يرد اسم مدينة (نوابية، أو نوابة، أو نوبة) في المصادر العربية المبكرة، لكنه ظهر في القرن السادس عند الإدريسي، ومن جاء بعده. فهل كانت مدينة نوابية موجودة طيلة هذه القرون، لكنها لم تصل عنها معلومات إلى المؤلفين المبكرين؟. لا يبدو هذا الافتراض معقولاً، لقرب المدينة ولاشتهارها، كما عبَّر ابن الوردي أعلاه. فمتى ظهرت المدينة إن لم تكن قديمة؟ وهل أخذت اسمها من اسم سكانها النوبة خلافاً لما ورد في المصادر العربية؟. تظل مثل هذه الأسئلة في انتظار جهود مؤسساتنا العلمية وبخاصة الأثارية منها.

- **مدينة بـلاق**

ذكرت المصادر العربية مدينتين بهذا الاسم في مملكة مقرة، إحداهما (بلاق) التي تقع

---

[1]. المسعودي، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978م، ص 89؛ القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ج 1 ص 153.

[2]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 165.

جنوب أسوان على الحدود بين مملكة مقرة ومصر، وقد تناولناها فيما سبق. ومدينة بلاق الأخرى ذكر الإدريسي والحميري الذي كتبها (يلاق) بالياء، أن موقعها عند التقاء نهر عطبرة بالنيل، وأن المسافة بين علوة ومدينة بلاق عشرة أيام في البر، وفي النيل انحداراً أقل من ذلك. وذكر الإدريسي أن «أهل علوة ودنقلة يسافرون في النيل بالمراكب، وينزلون أيضاً إلى مدينة بلاق في النيل».[1]

ووصف الإدريسي والحميري سكان مدينة بلاق بأنهم متحضِّرون، ومعايشهم حسنة، ولباسهم الأُزُر والمآزر، يزرعون الشعير والزرة، ويأتيهم التجار بالحنطة، وتتوفَّر عندهم الألبان والحيتان والبقول. وتناولا نشاط المدينة التجارى، فقد كانت مدينة بلاق مركزاً تجارياً مهماً بين علوة، والمقرة، والبحر الأحمر، وذكرا أنه يجتمع فيها تجار «النوبة والحبشة، ويسافر تجار مصر إليها، إذا كانوا معهم في صلح وهدنة». وذكر الإدريسي أن الطريق بين مدينة بلاق ومدينة مركطة في الحبشة يبلغ ثلاثون مرحلة، ومنها يصل الطريق إلى ميناء زيلع على البحر الأحمر.

- **شنقير**

رجع كراوفورد إلى ما نقل عن J. N. Vansleb في كتابه Histoire de L'eglise d'Lexandrie المفقود، والذي ألَّف في القرن السابع عشر، إلى ما ورد عن أسقفيات مملكة مقرة وهي: كورتا (تقع على بعد 70 ميلاً جنوب أسوان)، وإبريم، وبوخارس (فرس)، ودنقلة، وصاي، وتيرمس (تالمس القديمة، كلابشا)، وسينكور Scienkur. ويرى كراوفورد أن سينكور ربما كانت هي بلد شنقير، وهو الاسم الذي لا يزال موجوداً -كما يرى كراوفورد- في اسم وادي Sengeir أو Sumgar كما عند Cailliaud وبروس، ويلتقي الوادي بالنيل عند جزيرة العُشير، كما يرى كراوفورد أن الاسم ما يزال عائشاً في اسم سنجراب Singerab جزيرة مقرات الحالية بالقرب من أبي حمد.[2]

وضع ابن سليم شنقير عند انحناءة النيل، إلى الجنوب الغربي في منطقة أبي حمد، وبها معدن الذهب المعروف بالشنكة.[3] بينما حدّد المقريزي على بعد «بعض نهار يوم» من

---

[1]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص 130؛ الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (موقع الوراق)، ج 1 ص 619.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 25.

[3]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 97.

النيل.□ وهو الموضع الذي حارب فيه العمري المُقريين. ويرى مسعد أن منطقة شنقير كانت أحد الأقسام الإدارية والكنسية في مملكة مقرة، وكانت فيما يبدو آخر أعمال هذه المملكة من ناحية الجنوب، ومتاخمة لمنطقة الأبواب.□

- **مدينة كوشة**

ورد اسم كوشة عند الإدريسي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وعند ابن سعيد في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وكلاهما لم يذكر مصدره، وقد عاشا بين الأندلس، وصقلية، والمغرب العربي. ذكر الإدريسي أن كوشة من البلاد المشهورة، والقواعد المذكورة في بلاد النوبة، ووضعها إلى جانب علوة، ودنقلة، وبلاق، وحدد موقعها -وعنه نقل الحميري- بأنها موغلة في الداخل «وبينها وبين مدينة نوابة ستة أيام، وهي تبعد عن النيل يسيراً، وموضعها فوق خط الاستواء».□ وحدَّد ابن سعيد -وعنه نقل أبو الفداء والقلقشندي- موقعها بأنها جنوب غربي مدينة دنقلة.□ وذكر ابن فضل الله العمري، أن كوشة من مدن النوبة، ولم يحدِّد موقعها، كما لم يذكر مصدره.□

ووضح ابن سعيد أن مدينة كوشة هي «قاعدة زنج النوبة». وربما قصد ابن سعيد بـ(زنج النوبة)، ما وضَّحه الإدريسي، بأن كوشة في طاعة ملك دنقلة. ووصف أهلها بأنهم «قليلون، وتجاراتها قليلة»، ووصف أرضها بأنها «حارة جافة، كثيرة الجفوف جداً، وشرب أهلها من عيون تمد النيل هناك». وقد افترض كراوفورد بناءً على تحديد الإدريسي، بأنها قامت على مكان زانكور الحالية في شمال كردفان، عند بداية وادي الملك.

ويبدو هذا التحديد معقولاً، للصِلات القديمة القوية بين سكان منطقة دنقلة بكردفان، والتي كانت مرتبطة ارتباطاً قوياً بالنيل شمالاً عبر وادي الملك. ويعتقد آركل أن الأسرة المروية الحاكمة بعد سقوط الدولة، تحرَّكت جنوباً، وتمكّنت من إحياء مملكتها في مناطق كردفان. وربما ظل انتقال العاصمة إلى شمال كردفان حياً أيضا في مخيِّلة سكان الشمال،

□. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، كتاب المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 357.

□. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 97 حاشية رقم 2.

□. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ص 127 - 128.

□. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ج 1 ص 11؛ أبو الفداء، تقويم البلدان مصدر سابق، ص 216؛ القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ص 285.

□. العمري، أحمد بن فضل الله، مسالك الأبصار، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 245.

كما يُلاحظ ذلك في مخطوطة داود كُبارا بن يوسف من أهالي وادي حلفا، والتي كتبها عن تاريخ النوبة عام 1911م. بدأ داود الفصل الأول من تاريخه في كتاب ماكمايكل تحت عنوان (عاصمة مملكة النوبة)، قائلاً: «إن العاصمة كانت جبل عبد الهادي الذي يقع بين دنقلا وكردفان وعدد من الجبال».

وقد أورد الدمشقي معلومات غير دقيقة عن مدينة كوشة، فقد ذكر نصّيْن عن النوبة على نفس الصفحة، في النص الأول ذكر أنه «حكى السبحي أن للنوبة صنفان: أحدهما يقال له علوة، وملكهم يسكن مدينة تسمى كوسة. والأخر يسمى مقرا، وملكهم يسكن دنقلة. لا يلبسون المخيط». وقد اعتبر الباحثون أن كوسة الدمشقي هي مدينة كوشة التي ذكرت في المصادر الأخرى بالشين وليس بالسين.

وذكر في النص الثاني أن النوبة أصناف «وهم على ما ذكره تجار أسوان: أنج، وأزكرسا، ووالتبان، وأندا، وكنكا». ويلاحظ أنه ذكر أن النوبة صنفان: علوة ومقرة، كما في النص الأول، ثم ذكر مرة أخرى وفي الصفحة نفسها أن النوبة أصناف، وعدّد منهم خمسة أصناف، كما في النص الثاني. ومعلومات الدمشقي عن مملكتي مقرة وعلوة جاءت مختصرة، وتبدو في صورتها العامة غير دقيقة. وقد تواترت الأخبار في المصادر العربية الأخرى، أن ملك علوة كان مستقراً في مدينة سوبة.

وقد حاول Monneret de Villard أن يجد تخريجاً لنص الدمشقي، فذكر -كما ورد لدى كراوفورد- أن الملك حوّل عاصمته من سوبة إلى كوشة في الجنوب، تحت ضغط القبائل العربية، وقد وقف كراوفورد متردِّداً أمام النص، لأنه لم يرَ النص الأصلي، وتساءل: هل تحويل الملك العلوي لعاصمته قد ذكره المشقي، أم أن ذلك أتى كتفسير من دي فلارد؟.

ومن الواضح أن الدمشقي لم يتطرَّق لتحويل العاصمة، كما في النص الأول أعلاه، بل أتى ذلك تفسيراً من دي فلارد. لكن لا يبدو هذا التفسير مقبولاً، لأن الدمشقي توفي

. MacMichael، Harold Alfred، A History of the Arabs in the Sudan. London: Frank Cass & Co. Ltd.، 1967، Vol. 2، p.324.

. الدمشقي، أبو عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 236.

. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 27.

عام 739هـ/ 1338م، ويعني هذا أن تأليف كتابه قد سبق هذا التاريخ، ومن المعروف أن المسلمين قد بدأوا يدخلون مملكة المقرة بعد أن اعتلى عرشها أول ملك مسلم عام 716هـ/ 1316م. أي أن الفترة الزمنية بين تأليف الدمشقي كتابه، وبين بداية دخول المسلمين مملكة مقرة أقل من عشرين سنة. وكان الصراع ما يزال قائماً بين أفراد الأسرة المالكة وبني الكنز الذين تولوا الملك في البداية، وبين القبائل العربية التي دخلت مع حملات المماليك. وإضافة لهذه الصراعات، فأقل من عشرين سنة يعتبر وقتاً قصيراً جداً، لا يسمح بانتشار المسلمين في داخل مملكة مقرة، فضلاً عن تخطّيهم لها، والوصول إلى مملكة علوة، والضغط على ملكها حتى يضطر إلى تحويل عاصمته.

والمخرج الواضح لما كتبه الدمشقي، هو أنه حدث خطأ في نقل الرواية، إما من مصادر المؤلف، أو من نقل الرواية فيما بعد. فتكون كوسة التي ذكرها الدمشقي هي كوشة قاعدة زنج النوبة التي تواترت في المصادر أخبارها. وقد تبع بعض المؤرخين افتراض دي فلارد، وفسّروا به توغل قبائل العرب المبكر في مملكة علوة، وربطوه بغير ذلك من أحداث.

وهنا يبرز سؤال مهم مفاده: ما هي الصِلة بين (كوش) اسم قاعدة زنج النوبة، وبين مملكة كوش التي قامت في مروي في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وظل الاسم حيّاً -كما سنتناول ذلك لاحقاً- حتى عصر مملكة علوة المسيحية؟.

- اللاب

ذكر ياقوت الحموي موضعاً يعرف باللاب من بلاد النوبة، ولم يحدد موقعه. وذكر أنه يُجلَب منه صنف من السودان منهم كافور الأخشيدي. قال فيه المتنبي: «كأن الأسودَ اللابي فيهم»، ومنها أيضاً صندل اللابي والي إمارة عُمان.[1]

- الجبليون

ذكر ابن حوقل أنه توجد أمة تعيش غربيّ النيل الأبيض يعرفون بالجبليين، في طاعة ملك دنقلة.[2] ولم يذكر عنهم أكثر من ذلك. وبما أن موقعهم كما ورد غربي دنقلة، فيبدو من الصعب ربطهم بمنطقة جبلية وفقاً لاسمهم (الجبليين)، لأنه لا توجد منطقة جبلية في غربيّ دنقلة قريبة منها، إلا إذا توغلنا غرباً إلى مناطق العوينات أو تبستي، وهي مناطق

---

[1]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 166.

[2]. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 75.

بعيدة عن دنقلة، ولا أظن الكاتب يربطهم بها. ومن الممكن أن لا يكون اسم الجبليين مرتبطاً بمنطقة جبلية، وبذلك ينبغي البحث عن مناطق هذه الجماعة غربيِّ دنقلة في المناطق الصحراوية.

- **الزغاوة**

تقع مناطق الزغاوة، كما وردت في المصادر العربية، بين دولة الكانم غرباً، والنوبة شرقاً. وتمتدُّ ديار كانم من بحيرة تشاد جنوباً متوغِّلة في الصحراء، وقد تراوحت حدود كانم الشمالية، على حسب قوتها وقوة الدول التي قامت في شمال أفريقيا. لكن حدودها كانت بصورة شبه دائمة، في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، ممتدة حتى النهايات الشمالية للصحراء الكبرى.

وقد ذكر ابن سعيد عند الحديث عن غدامس -على الحدود الليبية التونسية الجزائرية- وودان إلى الشرق من غدامس، وبلاد فزان، أن «الجميع الآن في طاعة ملك الكانم». فسكان بلاد الكانم كانوا سوداناً وبربراً. وقد وصفهم فيما بعد القلقشندي بأنهم «مسلمون، الغالب على ألوانهم السواد.. وأتباعهم من البرابرة الذين أسلموا.. عسكرهم يتلثَّمون».

وإلى الشرق من بلاد كانم، وهي المنطقة الواقعة الآن على الحدود السودانية التشادية، أي دارفور وما يجاورها، مجالات الزغاوة والتاجويين. وصنَّفت المصادر الإسلامية المبكرة الزغاوة بأنهم من السودان، مثل النوبة، والبجة، والكانم أبناء كوش بن كنان بن حام بن نوح.

وورد عند كل من الإدريسي وابن خلدون رواية يفهم منها أن مواطن الزغاوة كانت في أقصى الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، في أرض قمنورية على المحيط الأطلسي، والتي كان يسكنها قوم يقول الإدريسي عنهم: «التجار يدعون أنهم يهود وفي معتقدهم تشويش».. ويضيف الإدريسي على الصفحة نفسها أنه: «وكانت في القديم من الزمان السالف لأهل قمنورية مدينتان عامرتان.. لكن أهل زغاوة وأهل لمتونة الصحراء الساكنون من جهتي هذه الأرض، طلبوا هذه الأرض، أعني أرض قمنورية، حتى أفنوا أكثر أهلها، وقطعوا دابرهم، وبدَّدوا شملهم على البلاد.. فأفنتهم الأيام، وتوالت عليهم الفتن والغارات

. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ج 1 ص 28.

. القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ج 1ص10 وج2 ص 315 وج3 ص268.

. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 1 ص 168.

من جميع الجهات، فقلّوا في تلك الأرض، وفرّوا عنها واعتصموا في الجبال، وتفرقوا في الصحارى، ودخلوا في ذمّة من جاورهم، وتستّروا في أكنافهم».

ويورد ابن خلدون أثناء حديثه عن بلاد السودان أن «أرض قمنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة، ثم مجالات زغاوة من السودان». ويتضح من النّصَين أن مواطن الزغاوة كانت في أقصى غرب أفريقيا بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي، ولكن يفهم من نص الإدريسي، أن ذلك كان كما عبَّر، في القديم من الزمان السالف.

وبالطبع فإنه يصعب تحديد ذلك الزمان السالف، ولكن ما نقلته المصادر العربية يوضِّح أن مواطن الزغاوة منذ بداية العصور الإسلامية كان المنطقة الواقعة إلى الشرق من كانم. فابن خلدون نفسه ذكر أن «الزغاوة مجاورون للنوبة». وأعتقد أنه لم يشعر بأي تضارب بين روايتيه. لأن الرواية الأولى ترجع إلى عصور سالفة.

وذكر المسعودي أن «مملكة الزغاوة واسعة كبيرة، منها على النيل مما يحاذي النوبة، ويحاربون النوبة». ونقل ياقوت الحموي عن المهلبي (ت380هـ) نصّاً طويلاً عن الزغاوة، يعتبر من أقدم وأوفى ما كُتب عنهم، ورأيت أن أثبت النص بكامله. يقول ياقوت:

«وقال المهلبي: وللزغاوة مدينتان: يقال لإحداهما مانان، وللأخرى ترازكي، وهما في الإقليم الأول، وعرضهما إحدى وعشرون درجة. قال: ومملكة الزغاوة، مملكة عظيمة من ممالك السودان، في حد المشرق منها مملكة النوبة الذين بأعلى صعيد مصر، بينهم مسيرة عشرة أيام. وهم أمم كثيرة، وطول بلادهم خمس عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة. وبيوتهم جصوص كلها، وكذلك قصر ملكهم، وهم يعظّمونه ويعبدونه من دون الله تعالى، ويتوهمون أنه لا يأكل الطعام، ولطعامه قَوَمَة عليه، سراً يدخلونه إلى بيوته، لا يعلم من أين يجيئونه به، فإن اتفق لأحد من الرعية أن يلقى الإبل التي عليها زاوُر قتل لوقته في موضعه. وهو يشرب الشراب بحضرة خاصة أصحابه، وشرابه يعمل من الذُرَة مقوّى بالعسل. وزيّه

. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج 1 ص 32.

. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ذكر ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (موقع الوراق)، ج 1 ص 57.

. المصدر نفسه، ج 6 ص 199.

. المسعودي، أخبار الزمان، مصدر سابق، ج 1 ص 89.

. الحسن بن أحمد المهلبي عاش بمصر حيث ألف كتابه (المسالك والممالك) وأهداه للخليفة الفاطمي المعز لدين الله، ولكن الكتاب الآن مفقود.

لبس سراويلات من صوف رقيق، والتشلاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف الأسماط، والخزّ السوسي، والديباج الرفيع. ويده مطلقة في رعاياه، ويسترق من شاء منهم. أمواله المواشي من الغنم، والبقر، والجِمال، والخيل، وزروع بلدهم أكثرها الذُرَة، واللوبيا ثم القمح. وأكثر رعاياه عراة مؤتزرون بالجلود، ومعايشهم من الزروع واقتناءِ المواشي، وديانتهم عبادة ملوكهم، يعتقدون أنهم الذين يحيون ويميتون، ويمرضون ويصحون. وهي من مدائن البلماء، وقصبة بلاد كاوار على سمت الشرق منحرفاً إلى الجنوب».[1]

ومدينة مانان، وفقاً لرواية ياقوت عن المهلبي، من مدن الزغاوة، بينما هي عند كل من الإدريسي[2] وابن سعيد[3] من مدن الكانم، وتبدو روايتيهما أوثق من رواية المهلبي، خاصة أن معرفة ابن فاطمة -الذي نقل عنه ابن سعيد- بالمنطقة واسعة، وربما زار تلك المناطق. ومن الممكن أيضاً تفسير ما قاله المهلبي، من أن مدينة مانان من مدن الزغاوة، باعتبار أن الزغاوة كانوا من بين مؤسّسي مملكة كانم، وربما كانت الغلبة إلى جانبهم في المراحل المبكرة من تاريخ مملكة كانم، فاعتبر المهلبي مانان من مدنهم. أما مدينة ترازكي -بهذا الرسم- لم ترد في المصادر الجغرافية الأخرى.

فمملكة الزغاوة، بناءً على وصف المهلبي في القرن الرابع الهجري (الـ10 الميلادي)، من ممالك السودان الواسعة المأهولة بالسكان، إذ قدّر مساحتها بـ«خمس عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة». ويمارس سكانها حرفتي الزراعة والرعي. وذكر ابن سعيد أن الزغاوة والتاجويين «جنس واحد، ولكن المُلك وحسن الصورة والأخلاق في التاجويين. وهم كفار عصاة على الكانمي يألفون الصحارى والجبال».

وقد جعل ابن سعيد تاجوة وليست مدينة زغاوة عاصمة أو قاعدة للزغاوة، ربما لأنه ذكر أن الملك كان بيد التاجويين، وأضاف أن مجالاتهم «ممتدة في المسافة التي بين قوس النيل من الجنوب إلى الشمال»[4] وامتداد قوس النيل يقصد به منطقة انحاءة النيل نحو الجنوب الغربي ثم إلى الشمال في منطقة دنقلة.

ولم تكن حدود قوس النيل واضحة لدى الجغرافيين المبكرين. فامتداد مملكة الزغاوة

---

[1]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج 2 ص 396.

[2]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج 1 ص 6.

[3]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ج 1 ص 10.

[4]. المصدر نفسه، ج 1 ص 11.

كان أكبر من المسافة الممتدة على قوس النيل، وقد يوضح هذا الوصف تحديد موقع مملكة الزغاوة بأنها شرقي النوبة -كما ذكر المهلبي- أكثر من توضيح امتداد مساحتها. وذكر ابن سعيد أن مدينة تاجوة هي قاعدة الزغاوة، وقد حدَّد موقعها بخط طول 55 وعرض 14 درجة[1]، وذكر أن أهلها مسلمون في طاعة الكانمي، وأن جنوبيها مدينة زغاوة حيث خط الطول 54 والعرض 11,5 درجة.[2]

وأضاف ابن سعيد -محدِّداً مصدر المعلومة بابن فاطمة- أن مواطن تاجوة كانت على النيل «وإنما هربوا بقواعدهم من النيل بسبب البعوض، فإنه يكثر من مجاورة النيل فيشتد أذاه على الأدميين والخيل. ولهم عيون في الرمال، ومياه مشربة من النيل أيام الزيادة».[3]

ويفهم من هذا أن مواطن التاجويين كانت قريبة من النيل، ربما على وادٍ يصب في النيل، وتقع مدينتهم تاجوة إلى الشمال الشرقي من مدينة زغاوة. ووفقاً لهذا التحديد فإنها تقع غربيِّ دنقلا، وعلى خط عرضها نفسها. أما الإدريسي فقد تناول الزغاوة باعتبارهم فرعين هما: الزغاوة والتاجويين، ووضع الزغاوة في المناطق الغربية من الصحراء الكبرى، إلى الغرب من فزان، رغم أنه قال إن ذلك كان «في القديم من الزمان السالف»، وذكر من مدن الزغاوة «شامة، وسغوة، ونبرنتة».

وأشار إلى أن أكثر أهلها قد انتقلوا غرباً إلى مدينة كوكو، ربما بسبب الجفاف، أو لحروبها مع النوبة. ومدينة سغوة يسكنها فرع من الزغاوة، عرفت المدينة باسمهم، وهم قبيلة سغوة. أما مدينة نبرنتة، فهي خراب بسبب الجفاف. وفيما يلي نص ما ذكره الإدريسي: «وفي بلاد زغاوة من المدن والقواعد سغوة.. ومن مدن زغاوة شامة، وهي مدينة صغيرة شبيهة بالقرية الجامعة، وأهلها في هذا الوقت قليلون، وقد انتقل أكثر أهلها إلى مدينة كوكو، وبينهما ست عشرة مرحلة. وأهل شامة يشربون الألبان، ومياههم زعاق، وعيشهم من اللحوم الطرية، والمقدَّدة، والأحناش، يتصيّدونها كثيراً، ويطبخونها بعد سلخها، وقطع رؤوسها،

---

[1]. استخدم الجغرافيون المسلمون خطوط الطول والعرض، وهي تختلف قليلاً عن تحديد الخطوط الحالية. فخط الاستواء لا يختلف كثيراً من موقعه الحالي، ولكن خط الطول في الجغرافيا الإسلامية يبدأ من الجزائر الواقعة بالقرب من ساحل المغرب المطل على المحيط الأطلسي، ومنها يتجه شرقاً.

[2]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق، ج 1 ص 10.

[3]. ورد في نص ابن سعيد أن دنقلا تقع على خط عرض أربعة، ولكن يفهم من سياق ما ورد عن مواقع المدن عند ابن سعيد، وكما هو مثبت في المصادر الجغرافية الأخرى، أن هنالك خطأ ربما في النقل أو الطباعة في تحديد موقع دنقلا فجاء على خط عرض أربعة بدلاً من أربعة عشر.

وأذنابها، وحينئذ يأكلونها. والجرب لا يفارق أعناق هؤلاء القوم، بل هو فيهم موجود، وهم به مشهورون، وبه يعرف الزغاويون في جميع الأرض وقبائل السودان، ولولا أنهم يأكلون الأحناش لتقطعوا جذاماً. وهم عراة يسترون عوراتهم فقط بالجلود المدبوغة من الإبل والبقر. ولهم في هذه الجلود التي يستترون بها ضروب من القطع وأنواع من التشريف يحكمونها».

«ولهم في أعلى أرضهم جبل يسمى، جبل لونيا، وهو عالي الارتقاء، صعب، لكنه ترب، وترابه أبيض رخو، وفي أعلاه كهف لا يقربه أحد إلا هلك، ويقال إنه فيه ثعبان كبير، يلتقم من اعترض مكانه على غير علم منه بذلك. وأهل تلك الناحية يتحامون ذلك الكهف. وفي أصل هذا الجبل مياه نابعة تجري غير بعيد ثم تنقطع. وعليه أمة تسمى سغوة من قبائل زغاوة وهم قوم ظواعن رحالة والإبل عندهم كثيرة اللقاح حسنة النتاج. وهم ينسجون المسوح من أوبارها والبيوت التي يعمرونها ويأوون إليها، ويتصرَّفون في ألبانها وأسمانها، ويتعيّشون من لحومها. والبقول عندهم قليلة، وهم يزرعونها وينتجونها، وأكثر ما يزرعه أهل زغاوة الذرة، وربما جلبت الحنطة إليهم من بلاد وارقلان وغيرها».

«وفي جهة الشمال، وعلى ثماني مراحل من موضع قبيلة سغوة، مدينة خراب تسمى نبرنته، وكانت فيما سلف من المدن المشهورة، لكن فيما يذكر أن الرمل تغلّب على مساكنها حتى خربت، وعلى مياهها حتى نشفت، وقلّ ساكنها، فليس بها، في هذا الزمان، إلا بقايا قوم تشبَّثوا بمقامهم في بقايا خرابها، حناناً للموطن. وبهذه المدينة في جهة شمالها جبل يسمى غرغة، حكى صاحب كتاب (العجائب) أن فيه نملاً على قدر العصافير، وهي أرزاق لحيّات طوال غلاظ تكون في هذا الجبل، ويحكى أن هذه الحيات قليلة الضرر، والسودان يقصدون إلى هذا الجبل فيصيدون به هذه الحيات ويأكلونها، كما قدَّمنا ذكره قبل هذا».[1]

ووصف الإدريسي التاجويين بأنهم مجوس، وحدّد موقع ديارهم بأنها متصلة بأرض النوبة. وذكر أن من بين مدنهم مدينة سمنة، وهي مدنية صغيرة. ونقل رواية عن أحد التجار المسافرين إلى أرض كوار «أن صاحب بلاق توجَّه إلى سمنة، وهو أمير من قبل ملك النوبة، فحرَّقها وهدَّمها وبدَّد شملهم على الآفاق، وهي الآن خراب، ومن مدينة تاجوة إليها ست مراحل».[2] وقد تحدَّثنا عن مدينة بلاق فيما سبق، أما مدينة سمنة فلم يحدِّد

[1]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج 1 ص 33 – 34.

[2]. المصدر نفسه، ج 1 ص 6.

الإدريسي موقعها، ولم أجدها في المصادر الجغرافية الأخرى، الأمر الذي جعل تعيين موقعها صعباً.

وقد رجَّح مسعد أن يكون موقعها «في تلال سيميات، على بعد عشرين ميلاً شرقيّ مدينة الفاشر الحالية، حيث تعيش جماعة تعرف بهذا الاسم، ثم انتقلت جماعات سيميات إلى حدود واداي، وهناك عرفوا باسم سيميار، ويزعم هؤلاء الانتساب إلى الداجو القدماء». ▯

وهذا الموقع يجعلها بعيدة جداً من النيل، إذا افترضنا أنها تقع على وادٍ يصبُّ في النيل، مثل وادي المقدم أو الملك، وهي مناطق يمكن أن نتصوَّر خروج حملة إليها من منطقة عطبرة، وقد يستبعد خروج حملة من منطقة عطبرة إلى الفاشر، ولكن ذلك لا يمنع إمكان حدوثها.

فالزغاوة التاجويون كانوا يعيشون على طول المنطقة الصحراوية، ما بين كانم والنيل. ويرى الباحثون أن الزغاوة كونوا طبقة حاكمة سيطرت على مناطق واسعة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين (الـ7-8الميلاديين)، امتدت من دارفور شرقاً، حتى كوار غرباً. واختلط الزغاوة بالهجرات المغربية التي تدفّقت على المنطقة في القرن الثاني الهجري، ونتج عن هذا الخليط شعب الكانمبو، الذي أسَّس دولة كانم في نهاية القرن الثاني الهجري. ▯

ويرى بالمر أن هذه الجماعات، بمختلف عناصرها، كانت تتحكَّم في الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى، والواقع بين منطقة كوار شرقاً ونهر النيل غرباً، وأن واحة العوينات كانت تعرف عند عناصر الكانوري والتدا كمنطقة سكنية متوسِّطة بين بلاد كابيلا أو جابيلا، وهو الاسم الذي يمكن إطلاقه على كل عواصم البرنو. ▯

ولم يوضح الإدريسي سبب الحرب بين النوبة والتاجويين، وربما كان السبب هو الصراع الطبيعي بين سكان مناطق مصادر المياه الغنية والمناطق الجافة. وربما كانت أعين التاجويين ما تزال تنظر لبعض مناطق النيل بمنظار الإرث القديم عندما كان أسلافهم مستقرين على النيل واضطرهم البعوض -كما ذكر ابن فاطمة- لترك النيل إلى الصحراء.

▯. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 25 حاشية رقم 4.

▯. أحمد الياس حسين، «الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب»، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب جامعة القاهرة (الأم)، 1977، ص 42.

▯. R. Palmer، the Bornu Sahara and Sudan، London، 1936، p. 3.

وقبل قرنين من زمن الإدريسي أشار المسعودي في القرن الرابع الهجري (الـ10الميلادي)، لذلك الصراع بين النوبة والزغاوة، حيث ذكر أن «مملكة الزغاوة واسعة كبيرة، منها على النيل مما يحاذي النوبة، ويحاربون النوبة».

وقبل ذلك بأربعة قرون أشار سترابو في نهاية القرن الأول قبل الميلاد للصراع نفسه، عندما تحدّث عن الجزيرة المأهولة السكان جنوب مروي، حيث يسكن الليبيون شواطئها الغربية، بينما يسكن المرويون مناطق الضفة الشرقية، ويتصارعون على ملكية الجزيرة وشواطئ النيل. وقد ذكرنا فيما سبق أن الليبيين في المصادر الكلاسيكية، يُقصد بهم سكان المناطق الصحراوية غربي النيل، وقد أطلقت تلك المصادر على أولئك السكان أيضاً اسم النوبا.

ووصف الإدريسي التاجويين بأنهم سودان «وأنهم بشر كثير، وجمع غزير، ولهم إبل كثيرة، وفي بلادهم مراع كثيرة، وهم رحّالة لا يقيمون في مكان واحد، من جاورهم يغزوهم ويغير عليهم، ويتحيَّل علَى أخذهم، وليس لهم مدن إلا مدينتان وهما تاجوة وسمية[سمنة]. . هذه الأرض تتصل بها أرض الواحات الخارجة وهي الآن تعرف بأرض سنترية».

■ القُرعان

يُعتبر القُرعان فرعاً من التّبُو، ويتحدّثون لهجة التبو التي أطلق عليها (تبو/ قرعان)، واعتبر Keane التبو الحاليين في شمالي تشاد سلالة مباشرة من الجرمانت. وقد أدّت صلة التبو بالجرمانت، وصلة القرعان بالتبو، إلى إرجاع أصل القرعان للجرمانت. وقد أشار الحسن الوزان (ليو الأفريقي)، والذي كتب مذكراته في روما عام 1526م، إلى صحراء بيوضة باعتبارها صحراء القرعان، وقال عن مملكة النوبة: «تمتد مملكة النوبة على طول النيل متاخمة قفر القرعان جنوباً وأراضي مصر شمالاً». وذكر بأنهم كانوا في حرب مع ملك النوبة.

. المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 1 ص 89.

. Quoted by Oric Bates، the Eastern Libyans، London، 1970، p. 49.

. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج 1 ص 36.

. A. H. Keane، Man past and present، Cambridge، 1899. Cited by: MacMichael، A history of the Arabs in the Sudan، op، Vol. 1، p. 31.

. Mac Michael، A history of the Arabs in the Sudan، op، Vol. 1، p. 54.

. الحسن بن محمد الوزان (ليو الأفريقي)، وصف أفريقيا، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثانية، 1983م، ص 180.

يوضح هذا أن القرعان، حتى مطلع القرن السادس عشر، كانوا يقطنون صحراء بيوضة، والتي كانت أمطارها -حتى ذلك الوقت- توفر وسائل الحياة. وأذكر أنه حتى عقود قليلة مضت، كنا نلاحظ اخضرار أودية صحراء بيوضة في طريقنا بالعربات من أم درمان إلى مناطق الشمال. ويؤكّد ذلك ارتباط قبيلة القرعان منذ قرون عديدة قبل دخول الإسلام بالنيل من ناحية، وبالصحراء الغربية من ناحية أخرى.

ولا يصدُق ذلك على القرعان فقط، بل على كل القبائل التي عاشت بين حدود ليبيا، وتشاد، والسودان. ولذلك ينبغي التركيز على دراسة قبائل هذه المناطق، لأنها تساعد على التعرُّف على سكان المنطقة في العصور اللاحقة.

■ بركامي

وهنالك جماعة أخرى من السودان بين النوبة، والزغاوة، والكانم، يُطلق عليهم بركامي، وحدَّد ابن سعيد بلادهم بأنها شمال جبل لونيا، الممتد من الشرق إلى الغرب في بلاد كوار وزغاوة، وذكر أنهم: «سودان أهل عافية، ولهم أودية بين جبال، وفيها نخل ومياه وخضر. والذين يوالون منهم بلاد الكانم مسلمون. والذين يوالون بلاد النوبة نصارى. والذين يوالون زغاوه أهل أوثان»[1].

■ المصامدة

المصامدة مجموعة قبلية كبيرة، مواطنها مناطق المغرب الأقصى. وقد نزحت مجموعات منها في عصر الدولة الفاطمية في القرن الخامس الهجري (الـ11الميلادي) من ديارهم نحو الشرق، واستقرّت مجموعات منهم بمصر. وكانت قبيلة المصامدة السند الذي قامت عليه دولة الموحِّدين في المغرب الأقصى، وبعد انهيار هذه الدولة أصبح المصامدة تحت رحمة الدول والقبليات بعد القرن السادس الهجري، وربما هاجرت بعض جماعاتها شرقاً مرة أخرى.

وقد أشار الرحالة ناصر خسرو (ت 481هـ/ 1088م) في كتابه (سفر نامه)، إلى وجود جماعات من المصامدة مستقرين بجوار النوبة، فذكر: «وإذا سار من مصر إلى الجنوب، وجاوز ولاية النوبة، بلغ ولاية المصامدة، وهي أرض ذات مراع واسعة، وفيها دوابُّ كثيرة، وسكانها سود، كِبار العظام، غلاظ أقوياء البنية، ويكثر الجُند منهم في مصر، وهم قِباح الصورة، ضخام الجثة، يسمُّون المصامدة، يحاربون راجلين بالسيف والحربة، ولا

[1]. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، مصدر سابق.

يستطيعون استعمال غيرها من الآلات».[1]

وقد ذكر ناصر خسرو وجود فرقة في الجيش المصري على عهده تسمَّى المصامدة، ووصفهم بأنهم «سود من بلاد المصامدة، قيل إن عددهم عشرون ألف رجل».[2] ورأى مسعد أنه ربما التبس الأمر على ناصر خسرو، فقصد الجنود السودانيين، وليس المصامدة كما يتضح من وصفه.[3]

وفي واقع الأمر، فإن المنطقة الواقعة بين النيل شرقاً، ومناطق كانم والزغاوة جنوباً وغرباً، ذكرت فيها بعض القبائل أو الجماعات غير المعروفة حالياً. ويبدو أنه كان لتلك القبائل أو لبعضها أثر واضح على الأوضاع السياسية والسكانية في مملكة مقرة. فقد ورد أنه عندما أراد ملك مقرة؛ زكريا، الذهاب إلى الخليفة العباسي في بغداد لمفاوضته في أمر البقط، خشي إن ذهب هو بنفسه من بعض تلك المجموعات على كرسيّه. فقد ذكر ساورس بن المقفع على لسان الملك: «لا أتمكَّن من مفارقة كرسيّ لئلا يملكوا البربر المخالفين لي».[4]

وتلك القبائل والجماعات المتجوِّلة أو المستقرَّة على حدود مملكة المقرة الغربية تحتاج لعناية الباحثين، ولا سيّما الأثاريين، خاصة أنها قريبة من مملكة المقرة مكانياً وزمنياً، فهي تعود إلى نحو سبعة قرون فقط، الأمر الذي يرجِّح ارتباطها القوي بواقعنا المعاصر. من المعروف أن تاريخ المصامدة ارتبط بصورة قوية بالمغرب العربي، بعد أن انخرطوا في دعوة الموحدين وتأسيس دولتهم. ولكن كان لهم وجود في مصر منذ عصر الدولة الفاطمية، إلى جانب قبيلة كتامة التي قامت على أكتافها دولة الفاطميين. وقد نقلنا آنفاً عن ناصر خسرو أنه كانت هنالك فرقة في جيش الفاطميين تسمى المصامدة، يبلغ عددهم نحو عشرين ألف رجل.[5]

غير أننا في حاجة إلى التعرُّف، وإلقاء الضوء على مواطن المصامدة المجاورة لمملكة مقرة، وكيف كانت العلاقات بين الجانبين، كما تنصرف التساؤلات إلى البركامي؛ فمن هم البركامي؟، ومتى اعتنقوا المسيحية والإسلام؟، وأين موقعهم على خريطتنا السكانية الحالية؟، وماذا حدث لها؟.

---

[1]. ناصر خسرو، سفر نامه، (موقع الوراق)، ج 1 ص 126.

[2]. المصدر نفسه، ج 1 ص 23.

[3]. مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 116 حاشية رقم 1.

[4]. ساورس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في: مصطفى مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 85.

[5]. ناصر خسرو، سفر نامه، مصدر سابق، ج 1 ص 23.

مملكة علوة وريثة مملكة كوش

- **الكوشيون**

ورثت مملكتا المقرة وعلوة، مملكة مروي، الممثِّل الأخير لحضارة كوش القديمة، فقد قامت مملكة مقرة في جزئها الشمالي، بينما قامت مملكة علوة في جزئها الجنوبي. وقد انفردت مملكة علوة فيما بعد باسم كوش، إذ لم أجد ما يوضِّح استمرار إطلاق اسم كوش أو الكوشيين، على منطقة أو سكان مملكة مُقرة، وهذا بالطبع لا ينفي إمكان استمرار إطلاق الاسم عليها أيضاً. وقد ذكر جون الأفسوسي نحو عام 580م، أثناء الحديث عن دخول القس لنجنوس لمملكة علوة، أن لونجنوس «سافر بعيداً جنوب مملكة النوباديين، إلى القطر الذي أطلق عليه اليونانيون اسم علوة Aludos والذي يسكنه الكوشيون».[1]

وأرى أنه من المفيد إعطاء نبذة مختصرة عن الأسماء التي أطلقت قديماً على السودان، أو بعض مناطقه، ودلالاتها بما في ذلك اسم كوش، وسكانها الذين أوردت المصادر أنهم أسلاف العلويين سكان مملكة علوة.

ويتضح مما جاء في الآثار المصرية، أن المناطق الواقعة إلى الجنوب من الحدود المصرية كانت مأهولة بالسكان. وقد أطلق عليها المصريون القدماء أسماء متعدِّدة ذات دلالات مختلفة. ويمكن تتبُّع تلك الأسماء باختصار في مجموعتين. المجموعة الأولى أطلقت للدلالة على مناطق محدَّدة، وأقدم تلك الأسماء يرجع إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد هو (تا ستي)، ويعني أرض الأقواس. وذكر سليم حسن أنه كان يقرأ قديماً (تا نخت) وأطلق على المنطقة الواقعة جنوب أسوان حتى وادي حلفا.[2]

وفي النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وردت العديد من الأسماء في الآثار المصرية للدلالة على المناطق المجاورة لمصر، مثل، اسم واوات، للدلالة على ذات المنطقة التي أطلق عليها اسم (تا ستي)، غير أن اسم تا ستي لم يختف تماماً، فقد ورد في وقت متأخِّر في نقش الملك المروي نستاسن (335 – 310 ق.م)[3]، كما ورد اسم (إرتت، ويام) للدلالة على المناطق الواقعة بين وادي حلفا إلى مناطق الشلال الثالث.

---

[1]. Giovanni Vantini، Oriental Sources Concerning Nubia، Heidelberg and Warsaw، 1975، p. 13.

[2]. سليم حسن، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بعانخي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (ب. ت)، ص 79.

[3]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م، ص 145.

وقد جاءت بعض الأسماء ذات الدلالات العامة في الآثار المصرية، مثل: مِجا، أو مزا، أو مازوي، والتي أطلقت على مناطق وسكان الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر في مصر، وعلى الحدود الشمالية للسودان. وأُطلق على سكان المناطق الصحراوية الغربية منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد اسم (التِّمح، أو التِّمحو، أو الطمياح)، وقد عرف هؤلاء في المصادر اليونانية والرومانية باسم اللوبيين أو الليبيين.

وقد امتدت مناطق الطمياح من الواحات المصرية شمالاً وتوغلت جنوباً إلى مناطق شمال دارفور الحالية. وربط أغلب المؤرخين بين الطمياح والمجموعة الثقافية (ج C)، ورأى آركل أنهم ربما عاشوا في وقت ما على وادي هوَر وأنهم ربما كانوا أسلاف قبائل التاما الحالية.

ومن الأسماء التي أطلقت بصورة عامة منذ النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد للدلالة على المناطق الواقعة إلى الجنوب من مصر (نحسي، أو نحس، والجمع نحسيو)، أي السود، و(تا نحسي)، أي البلاد الجنوبية، التي تمتد من أسوان على النيل جنوباً إلى مدى غير محدد. وذكر سليم حسن أن (نحسي)، كان يطلق أيضاً على بلاد بُنت، ثم استقر للدلالة على المناطق الواقعة جنوبي مصر.

وفي نقش آخر في مطلع القرن العشرين قبل الميلاد، وردت الإشارة إلى عشر مناطق في شمال السودان بلغتها حملة الملك المصري سنوسرت الأول، أولاها إقليم كوش، وعرفت هذه المناطق كما ورد في النص باسم (تاخنتي). ويبدو أن اسم كوش قد اتسع نطاق اطلاقه قبل هذا التاريخ، فلم يعُد مقتصراً على سكان المناطق المتاخمة فقط للحدود المصرية، بل امتد ليشمل المناطق الداخلية أيضاً. وربما حدث ذلك للتطوُّرات السياسية التي شهدتها المنطقة منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد.

فقد أثبتت الكشوف الأثرية الحديثة أن المملكة القديمة التي قامت في منطقة كرمة الحالية،

. Arkell، A History of the Sudan، London: University of London، 1961، p44، 49.
وكذلك: آدمز، جون، النوبة رواق إفريقيا، ترجمة: محجوب التجاني محمود، القاهرة، 2004م، ص 150.

. سامية بشير دفع الله، تاريخ الحضارات السودانية القديمة منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة، دار هايل للطباعة والنشر، الخرطوم، 1999م، ص 122.

. سليم حسن، تاريخ السودان المقارن، مصدر سابق، ص 80.

. سامية بشير دفع الله، تاريخ الحضارات السودانية، مصدر سابق، ص 327.

والمعروفة عندنا باسم (مملكة كرمة)، قد تأسست منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، خلافاً للتاريخ الذي كان سائداً لقيامها، وهو القرن الثامن عشر قبل الميلاد.[1] وقد عرفت تلك المملكة باسم (مملكة كوش)، كما هو واضح في الرسالة التي أرسلها ملك الهكسوس من عاصمته أفاريس في شمال مصر، يطلب فيها، من ملك منطقة كرمة، المساعدة والدعم له في حروبه ضد الملك المصري كامس، الذي كان يحكم صعيد مصر. وقد سجَّل كامس، الذي انتهى حكمه في منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد، محتوى رسالة ملك الهكسوس في نقش في الكرنك والتي جاء فيها:

«التقَطت رسالة في جنوبي الواحات أثناء صعود حاملها إلى بلاد كوش، واكتشفت أنه خطاب من ملك أفاريس بخط يده يقول فيه: عا أوسر رع أبيبي بن رع يُحيّي ابنه ملك كوش. لمَ أعلنت نفسك ملكاً دون أن تحيطني علماً؟ وهل بلغك ما فعلَته مصر معي؟ فالعاهل القائم عليها كامس (فليوهب حياة وعمراً) يشنُّ الهجمات على ممتلكاتي رغم أنني لم أناصبه العداء. فقد عاملني كما عاملك تماماً، لقد وقع اختياره على بلدينا لينشر فيهما الخراب، بلدي وبلدك، وعاث فيهما فساداً. هيا احضر! لا تخف! إنه هنا في الوقت الحاضر حيث يتعقَّبني، فلا أحد يترقَّبك في مصر، ولن أتركه يرحل قبل وصولك».[2]

ويلاحظ الإشارة في النص إلى بلاد كوش، وملك كوش للدلالة على المملكة التي قامت منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، والتي اكتشفت بعض آثارها في منطقة كرمة الحالية. وكانت مملكة كوش قوية وكبيرة شاركت الهكسوس في الدلتا، والمصريين في طيبة (الأقصر)، السيادة على وادي النيل. وخاطب كلٌ من ملوك الهكسوس وملوك طيبة الكوشيين طامعين في ودِّهم.

ولم يختفِ اسم كوش في فترة القرون الستة التي تلت نهاية مملكة كوش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وقيام مملكة نبتة في القرن التاسع قبل الميلاد، فقد ظهر في الوثائق المصرية للدلالة على الحاكم المصري المكلف بإدارة المناطق المجاورة للحدود المصرية، والتي خضعت للحكم المصري، وكان الحاكم يعرف باسم (ابن الملك في كوش). وذكرت سامية بشير أن الوثائق الأشورية أشارت في النصف الأخير من القرن السابع قبل الميلاد إلى ملك

---

[1]. المرجع نفسه، ص 192.

[2]. محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مرجع سابق، ص 53-54.

كوش.[1] ومن الواضح أن هذه الإشارة أتت بعد قيام مملكة نَبَتة. كما ورد اسم كوش في الكتاب المقدس في سفر الملوك الثاني[2] وسفر إشعياء[3] مرتبطاً باسم الملك الكوشي تهارقا.

فكوش هو الاسم الذي أطلق على السودان من شماليه إلى حدود مملكة علوة في الجنوب منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، عندما سقطت مملكة علوة -أي منذ أربعين قرناً من الزمان- غير أننا الآن اختزلنا اسم كوش وحصرناه فقط ليدل تقريباً على تاريخ منطقة النيل شمالي الخرطوم، وبعض المناطق المجاورة لها شرقي النيل. وفي الوقت نفسه برز اسم النوبة للدلالة على تاريخ هذه المنطقة ذاتها.

وفي واقع الأمر، فإنه ليس هنالك حتى الآن اسم واحد يطلق بصورة عامة على تاريخ السودان القديم قبل عصر الممالك المسيحية. فنطلق مثلاً على الثقافات المبكرة المجموعات (أ - ب - ج) ونحصرها في المنطقة الواقعة شمالي دنقلا، ونطلق حضارة كرمة على المنطقة النيلية الواقعة شمال الخرطوم، دون اعتبار لمناطق التداخل السكاني، والأودية التي ربطت سكان النيل في المناطق المجاورة لها شرقاً وغرباً.

ورغم أن آثار المجموعة الثقافية (ج)، مثلاً، وجدت في مناطق كسلا شرقاً، ووادي هور غرباً، فإننا نحصرها في دراستنا على منطقة النيل الشمالية فقط. وبالطريقة عينها ندرس حضارة كرمة منعزلة عن الصحراء الغربية، ووادي هور. هذه الدراسة للحضارات القديمة تجعلها منعزلة عن النيل من الخرطوم شمالاً، أي أن سكان المناطق الواقعة إلى الشرق والغرب والجنوب من هذه المنطقة، لا يشعرون بالانتماء لتلك الثقافات والحضارات المبكرة، وهو أمر لا يتسق مع ما تم العثور عليه من آثار رغم قِلّتها. إلا أنها توضح الارتباط القوي والصلة الواضحة لمنطقة شمالي الخرطوم بالمناطق الواقعة إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الجنوب منها.

ثم تأتي حضارتا نَبَتة ومروي، ورغم أن الدراسات لم توضِّح على وجه التحديد حدود هاتين الحضارتين شرقاً وغرباً وجنوباً، إلا أن دراستنا لهما تنحصر أيضاً في المناطق النيلية الواقعة شمال الخرطوم، وعلى بعض المناطق بين النيل الأزرق، ونهر عطبرة، مما يولد

---

[1]. سامية بشير دفع الله، تاريخ مملكة كوش: نبتة ومروي، دار الأشقاء للطباعة والنشر، الخرطوم، 2005م، ص 3.

[2]. الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني، الإصحاح 19: 9: «وبلغ ملك أشور أن ترهاقة ملك كوش قد خرج لمحاربته».

[3]. الكتاب المقدس، سفر إشعياء، الإصحاح 37: 9: «ثم بلغ ملك أشور أن ترهاقة ملك كوش قد خرج لمحاربته».

إحساساً بأن مناطق السودان الأخرى لا صِلة لها بتلك الحضارتين، وأن سكان تلك المناطق لا ينتمون لتلك الحضارة.

فدلالات الأسماء التي نطلقها على تاريخنا القديم، مثل ثقافات المجموعات المبكرة، وحضارة كرمة، وحضارتي نَبَتة ومروي، دلالات محلية محصورة على مناطق محددة لا تحمل معنىً عاماً يربط باقي مناطق السودان الأخرى -التي بناء على ما تم التنقيب عليه من آثار- اتضح ارتباطها بتلك الثقافات والحضارات سواء في شرق أو غرب السودان أو على النيل الأبيض.

وقد أدى عدم وجود مسمّى عام لتاريخ السودان القديم، إلى قيام بعض الباحثين باقتراح بعض الأسماء للدلالة عليه في حدود السودان الحالية. ولعل أكثر الأسماء قبولاً هو اسم كوش، وهو الاسم الذي ظل يطلق على البلاد والسكان جنوبي مصر نحو أربعة آلاف سنة. وقد أثبت التنقيب الأثاري وجود آثار الكوشيين منذ عصر الثقافات المبكرة في مناطق كسلا شرق السودان، ووادي هور غرب السودان، ولعل المزيد من أعمال التنقيب الأثرية في تلك المناطق، ومناطق النيل الأبيض توقظ شعور انتماء تلك المناطق وسكانها لحضارة واحدة، هي حضارة كوش، وظلت تلك الحضارة في عطاء دائم على الأقل نحو أربعين قرناً حتى نهاية عصر مملكة علوة المسيحية في القرن الخامس عشر الميلادي.

وقد أبدى بعض الباحثين تحفُّظاً على إطلاق اسم كوش للدلالة على تاريخ السودان القديم، باعتبار دلالته القديمة الممتدة إلى خارج حدود السودان الحالية. ولا أرى أن في ذلك ما يقف أمام استخدام المصطلح، فاسم السودان القديم يدل أيضاً دلالة واسعة ظلت مرتبطة به في ذاكرة الشعوب داخل قارة أفريقيا وخارجها حتى الآن. ويتميّز مصطلح كوش بأن دلالته القديمة ليست شائعة الاستعمال كدلالة اسم السودان، إضافة إلى أن الاسم (السودان) يعتبر حديثاً بالمقارنة إلى اسم كوش، إذ يرجع اسم السودان -الذي ظهر مع دخول العرب مصر- إلى نحو أربعة عشر قرناً.

وقد اقترح بعض الباحثين استخدام مصطلح (الدراسات المَرَوية)، للدلالة على تاريخ السودان القديم حتى نهاية العصر المروي في القرن الرابع الميلادي،[1] أي قبل العصر المسيحي في السودان. ولم يجد هذا الرأي ترحيباً من الباحثين. وقد ساد في بعض المؤلفات عن تاريخ

---

[1]. انظر: إيسيدور سافنتش كانس نيلسون، الوضع الراهن وإشكاليات دراسة تاريخ مملكتي نبتة ومروى، ترجمة: أسامة عبد الرحمن النور، مجلة الآثار السودانية (أركماني)، العدد الثاني، فبراير، 2002م.

السودان القديم استخدام اسم (التاريخ النوبي)، للدلالة على تاريخ السودان القديم حتى نهاية العصر المسيحي.

ولا أرى أن استخدام اسم (التاريخ النوبي)، للدلالة على (تاريخ السودان) مقبولاً، لأن مدلول اسم النوبة القديم ظهر استخدامه في فترة محدودة، تقع بين القرن الثالث قبل الميلاد، والقرن الرابع الميلادي، أي لفترة سبعة قرون من جملة تاريخ السودان القديم الموثق، وهو أربعون قرناً. وبالإضافة إلى ذلك فإنه بالرغم اتساع مدلوله، إلا أنه عند استخدامه ينصرف الذهن إلى معنى النوبة بمفهومه الذي اشتهر بعد دخول المسلمين مصر في القرن السابع الميلادي.

وقد ناقشنا فيما سبق مدلول اسم النوبة الحديث في المصادر العربية، وخلصنا إلى أنه أطلق للدلالة على سكان منطقة النيل الواقع بين الخرطوم جنوباً ومنطقة أسوان شمالاً. فإطلاق اسم (تاريخ النوبة) للدلالة على تاريخ السودان القديم، يجعله منحصراً فقط في هذه المنطقة، وهو أمر دلت بدايات الأعمال الآثارية الواسعة على عدم مصداقيته.

إلى أيِّ مدىً امتدت حدود دولة كرمة جنوباً وغرباً عبر أودية هوار، والمقدم، والملك والنيل الأبيض؟، وإلى أيِّ مدىً امتدت شرقاً عبر نهر عطبرة والنيل الأزرق؟. تتطلّب الإجابة الكثير من البحث والتنقيب، ولكن بناءً على ما توفّر حتى الآن من آثار طرحت بعض النظريات عن أصول سكان مملكة كوش. وقد سبق أن تعرّضنا في بداية هذا الفصل لأصول سكان شمال السودان، وسنوجز هنا النظريات التي تناولتها سامية بشير في هذا الصدد.[1]

بيّنت أقدم الهياكل البشرية التي اكتشفت لسكان شمال السودان أن تاريخها يعود لنحو 10,000 سنة قبل الميلاد. ولكن لم يتفق الدارسون حول أصولهم. وناقشت سامية بشير آراء الباحثين حول أصول أولئك السكان، والتي يقول بعضها إن السكان تكوّنوا من السلالات المحلية التي اختلطت بهجرات العناصر القوقازية التي أتت من أوروبا. ويرى بعضهم الآخر أنهم تكوّنوا باختلاطهم بالعناصر المنغولية التي أتت من قارة آسيا. ويرى آخرون أنهم تكوّنوا باختلاطهم بعناصر زنجية أتت من أفريقيا جنوب الصحراء.

ويرى فريق رابع أن الكوشيين ينتمون إلى الجنس الأسمر Brown race الذي يقع في

[1]. المرجع السابق، ص 196 – 199.

المنتصف بين القوقازي والزنجي. ويرى الأستاذ تريقر -كما نقلت الدكتورة سامية- أن بعض الباحثين الغربيين المبكرين الذين كتبوا عن أصول سكان شمال السودان عنصريون، كان هدفهم إبعاد العنصر الأسود عن الحضارات القديمة في السودان، باعتبارهم عناصر غير خلاقة، ولا تملك القدرة على الإبداع، وأن ما عثر عليه من حضارات في القارة الأفريقية يرجع إلى الجماعات المهاجرة من خارج القارة.

ولكن عندما أُعيد فحص الآثار التي تم الكشف عنها في شمال السودان في منتصف القرن العشرين بواسطة جيل مختلف من الباحثين، أثبتت دراساتهم أنه رغم دخول بعض المهاجرين واستيطانهم في المنطقة الشمالية من السودان منذ الألف الثالث قبل الميلاد -مثل قدماء المصريين والعرب والشراكسة- إلا أنه لم يطرأ تغيُّر عرقي ذو بال -كما نقلت سامية بشير عن تريقر- على المكوِّنات العرقية الرئيسة لسكان المنطقة.

وفي دراسة أخرى أجرتها كريتين سايمون -كما نقلت سامية بشير- أن التركيبة العرقية للكوشيين في كرمة، في الألف الثانية قبل الميلاد، لا تختلف عن تركيبة السكان الحاليين في شمال السودان اليوم. ويعني هذا أن الهجرات أو الجماعات التي كانت تصل إلى شمال السودان اختلطت بالسكان المحليين الذين حافظوا على السلالة العرقية الكوشية منذ أربعة آلاف سنة.

ونضيف إلى ذلك ما ذكره ماكمايكل من أن الدراسات الآثارية والأنثروبولوجية التي قام بها كل من Derry وSeligman وضحت أن سكان منطقة النيل في الشمال حتى وادي حلفا، الذين وجدت صورهم في الآثار المصرية منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والذين شكّلوا سكان المنطقة في العصور اللاحقة في مملكتي نبتة ومروي، هم سلالة السكان نفسها الذين وجدت آثارهم في جبل مويا بالجزيرة في القرن الثاني قبل الميلاد.[1]

وفي الوقت نفسه توصل الباحثان Derry وSeligman -كما بيّن ماكمايكل- عندما درسا بعض مخلَّفات السكان القدماء في الشمال والجزيرة، أظهرت نتائج أبحاثهما المعملية لأحجامهم، وجماجمهم، وفكوكهم (جمع فك)، أن أولئك السكان القدماء يشبهون بدرجة كبيرة سكان جبال النوبة الحاليين، مما يشير إلى صِلة القرابة بين السلالتين. فسكان السودان الأوسط والشمالي القدماء هم من السلالة التي تعيش اليوم في جبال النوبة.

---

[1] Mac Michael. A History of the Arabs in the Sudan, op, p. 20.

ومما يزيد هذا الرأي قبولاً الآثار التي وجدت في معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري، والتي ترجع لنهاية الألف السادس عشر ق.م. فقد ظهرت أشكال ستة زعماء لقبائل أو لجماعات سودانية من بينهم الـIrm وNimiu يقدمون الذهب إلى الملكة. وقد رأى آركل أنه من أسماء وأشكال الزعيمين من الممكن أن يكون Nimiu أسلاف الـ Nyima الحاليين في جبال النوبة، والـIrm هم الذين أشارت إليهم المصادر المصرية القديمة في القرن الخامس عشر، والقرن الرابع عشر ق.م. بأرض Irm التي تقع في منطقة الإستبس الواقعة غربيي النيل الأبيض، والمعروفة اليوم بكردفان، حيث ما يزال بعض فروع الميما يعرف بـArmi.

فالمجتمع السوداني الذي أطلق عليه اسم الكوشيين، هو سلالة ذلك الجنس الذي ظهرت صوره في الآثار المصرية منذ القرن العشرين قبل الميلاد، وهو الذي أقام مملكتي نبتة ومروي، وهو السلالة نفسها التي وجدت آثارها في مقابر جبل موية في الجزيرة، وهو السلالة ذاتها التي توجد الآن في جبال النوبة. ونضيف لذلك ما أشرنا إليه سابقاً، من أن شعوب النوبا التي كانت تسكن الصحراء الغربية -في مناطق كردفان ودارفور الحاليتين- كانت منذ القرن الثالث قبل الميلاد كما ذكرت المصادر اليونانية، وحتى القرن الرابع الميلادي، كما ظهر في نقش عيزانا، كانت تلك القبائل طيلة هذه السبعة قرون (3ق. م – 4م) تتجوَّل وتستقر في بلاد كوش، ما بين الصحراء الغربية، وكسلا شرقاً، ودنقلة شمالاً.

ولعلَّ كل هذا يوضح أن الكوشيين، منذ أن تأسَّست مملكة كوش في الألف الثالث قبل الميلاد، هم السلالة عينها التي عاشت في تلك الأوقات في غرب ووسط وشرق السودان، وهم في الوقت نفسه، السلالة نفسها التي تعيش في كل هذه المناطق الآن. ورغم أنه من الصعب الآن الحديث عن حدود مملكة كوش والتي كانت عاصمتها كرمة، ولكن وضحت الآثار أن السلالة البشرية التي كونت سكان السودان في حدوده الحالية ترجع جذورها إلى سلالة الكوشيين، وظل اسم الكوشيين حيًّا حتى عصر مملكة علوة المسيحية.

.Arkell، A History of the Sudan، op، p 107 .

مملكة علوة، أرضها وسكّانها

- **حدودها ومواردها**

جاء أول ذكر لعلوة، كما ذكر ماكمايكل، على مسلّة الملك الكوشي ناستاسن، الذي أرّخ له رايزنر (298ق.م - 278ق.م)، حيث تلقّب بلقب ملك علوة Alut، إلى جانب المناطق الأخرى من مملكته. وقد شيّد الملك ناستاسن معبداً في علوة، مما يؤكّد أهميتها كأحد أقاليم أو مدن مملكته. كما ورد ذكر علوة أيضاً في نقش عيزانا في القرن الرابع الميلادي، أنه أخذ «أسرى عند التقاء نهري تكازي وسيدا، وفي اليوم التالي أرسلت جيش Damawa و Palha وSera للإغارة على القطر والمدن المشيدة بالطوب والقصب، المدن المشيدة بالطوب هي مدن علوة وDaro». ويرى ماكمايكل أن علوة أطلقت في نقش الملك عيزانا، ولاحقاً في كتابات ابن سليم الأسواني على العاصمة والإقليم.[1]

وجاء اسم علوة في أغلب المصادر العربية مكتوباً بالتاء المربوطة في آخر الكلمة، ولم أقف على من رسم الاسم بالألف في الكلمة (علوا)، غير ابن الفقيه وياقوت الحموي.[2] وتبدأ حدود مملكة علوة في الشمال، كما ذكر ابن سليم، بمنطقة الأبواب. ووضع ابن حوقل حدّها الجنوبي على النيل بمسافة شهر إلى نهاية بلد طُبلي، الذي يحدّه بلد كرسي جنوباً، وسنتعرّض لهذين الموضعين لاحقاً.

وتمتد حدود المملكة شرقاً، مسافة ثمانية مراحل، إلى تفلين عند دلتا القاش، شمالي مدينة كسلا الحالية. وتتوغّل حدود علوة غرباً في الصحراء مسافة خمس مراحل -كما ذكر ابن حوقل- إلى بلد أمقل الذى سنتناوله لاحقاً.[3] وقد قدّر اليعقوبي اتساع المملكة بنحو ثلاثة أشهر.[4] وهكذا امتدت حدود مملكة علوة -بناءً على المصادر العربية- على النيل الأبيض جنوباً، ووصلت حدودها شرقاً إلى منطقة كسلا، وغرباً إلى مناطق دارفور. فمملكة علوة قد امتدت تقريباً على الحدود الحالية للمناطق الوسطى والغربية والشرقية للسودان. وسيتضح ذلك أكثر عندما نتعرّض للمعلومات التي وردت في المصادر العربية

---

[1]. Mac Michael، A History of the Arabs in the Sudan، op، p. 46 – 47.

[2]. ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، كتاب البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 21، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 166.

[3]. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 73 و75.

[4]. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، تاريخ اليعقوبي، (موقع الوراق)، ص 21.

عن المناطق التابعة للمملكة.

- وقد تناولت المصادر العربية -وبخاصة مؤلَّفَي ابن سليم وابن حوقل- وصف بلاد علوة؛ وضَّحت أنهارها، ومواردها، ومدنها، وسكانها. واتضح من وصفهما أن مملكة علوة تمتّعت بثروات متنوّعة من أراضٍ زراعية خصبة وواسعة، وثروات حيوانية ومعدنية، وأنشطة تجارية. وبيَّنت المصادر العربية قوة مملكة علوة وثراءها، بالمقارنة إلى مملكة مقُرة. فوصف ابن حوقل بلاد علوة بأنها أعمر بلاد النوبة، وذكر أنها «ناحية لها قرى متصلة وعمارات متصلة، حتى أن السائر ليجتاز في المرحلة الواحدة بقرى عدّة غير منقطعة الحدود، ذوات مياه متصلة بسواقي من النيل». [1]

ووضّح ابن سليم، أن بلاد علوة «أخصب وأوسع من مقرة، والنخل والكرم عندهم يسير، وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الأرز، منها خبزهم ومزرهم، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي، والمروج الواسعة العظيمة السعة، حتى أنه لا يوصل إلى الجبل إلا في أيام، وعندهم خيل عتاق، وجمال صهب عراب». [2] وذكر الإدريسي أن أهل علوة «يزرعون الشعير والذرة، وسائر بقولهم من السلجم، والبصل، والفجل، والقثاء، والبطيخ». [3]

وقد اشتهرت مملكة علوة كمصدر للذهب، شأنها في ذلك شأن الممالك الأفريقية في جنوب الصحراء في ذلك الوقت، مثل ممالك غانة، ومالي، وكانم. فقد وضّحت المصادر العربية توفُّر الذهب في أراضي مملكة علوة، كما ذكر ابن حوقل، ويبدو أن أخبار كثرة الذهب في بلاد علوة قد أدّت بياقوت الحموي إلى القول بأن الذهب «ينبت في بلادهم». [4]

ووصف الإدريسي بأن «حال علوة في هيأتها، ومبانيها، ومراتب أهلها، وتجاراتهم، مثل ما هي عليه حالات مدينة دنقلة. وأهل علوة يسافرون إلى بلاد مصر وبين علوة وبلاق عشرة أيام في البر، وفي النيل أقل من ذلك انحداراً. وطول بلاد النوبة على ساحل النيل مسير شهرين وأكثر، وكذلك أهل علوة ودنقلة يسافرون في النيل بالمراكب، وينزلون أيضاً إلى مدينة بلاق في النيل». [5]

---

[1]. المصدر السابق، ص 73.

[2]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 107.

[3]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1 ص 129.

[4]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 96.

[5]. الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1 ص 129.

كما ارتبطت مملكة علوة عبر البحر الأحمر بعلاقات تجارية شرقاً ببلاد العرب. وإلى جانب قيام مملكة تفلين الإسلامية داخل حدود علوة الشمالية الشرقية في منطقة دلتا القاش، فقد كانت حدود المملكة مفتوحة أمام التجار المسلين، بعكس ما كان الحال عليه في مملكة مقرة، حيث لم يكن يسمح بدخول المسلمين إلى الجنوب من منطقة حلفا، إلا بعد إجراءات إدارية دقيقة. ولذلك فقد ارتبطت علاقات مملكة علوة وقويت عبر حدودها الشرقية وبخاصة مع الممالك الإسلامية التي قامت في الحبشة.

فقد شهدت الحبشة، ومنطقة القرن الافريقي، قيام نحو أحد عشر مملكة إسلامية في الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين (الـ9 – 15 الميلاديين). ولما كانت حدود مملكة علوة مفتوحة مع الحبشة، وعلاقاتها طيبة وقوية مع المسلمين -بدليل وجود مملكة إسلامية داخل حدودها- فلا بدَّ أن ذلك أدّى لتطوُّر العلاقات، إلى جانب التداخل السكاني بين علوة والحبشة، عبر أحواض الأنهار والأودية المتعدِّدة التي ربطت حدود البلدين. ولا بدَّ أن ذلك أدّى إلى انتشار الإسلام في حدود المملكة الشرقية، مما هيَّأ الأوضاع لقيام سلطنة سنار. ويبدو لي معقولاً أن تاريخ المراحل المبكرة من قيام سلطنة سنار لا يمكن دراسته بمعزل عن تاريخ الحبشة في تلك الفترة.

أورد ابن سليم الأسواني[1] وصفاً مفصَّلاً للنيل وروافده في مملكة علوة، فذكر أن النيل يتشعَّب من منطقة الأبواب إلى أنهار وهي:

1ـ نهر يأتي من ناحية المشرق، كَدِر الماء يجفّ في الصيف حتى يسكن بطنه، فإذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء، وزادت البِرك التي فيه، وأقبل المطر والسيول في سائر البلد، فوقعت الزيادة في النيل، وقيل: إنّ آخر هذا النهر، عين عظيمة تأتي من جبل.

قال مؤرخ النوبة: وحدّثني سميون، صاحب عهد بلد علوة، إنه يوجد في بطن هذا النهر، حوت لا قشر له، ليس هو من جنس ما في النيل، يحفر عليه قامة وأكثر، حتى يخرج، وهو كبير وعليه جنس مولد بين العلوة والبجة، يقال لهم: الديجيون، وجنس يقال لهم: بازة يأتي من عندهم طير يعرف بحمام بازين، وبعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة.

2ـ ثم النيل الأبيض، وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن. قال: وقد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذي عندهم، وعن لونه، فذكر

---

[1]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 98 – 99.

أنه يخرج من جبال الرمل، أو جبل الرمل، وأنه يجتمع في بلد السودان في برك عظام، ثم ينصبُّ إلى ما لا يعرف، وأنه ليس بأبيض، فإمّا أن يكون اكتسب ذلك اللون مما يمرّ عليه، أو من نهر آخر ينصبُّ إليه، وعليه أجناس من جانبيه.

3ـ ثم النيل الأخضر، وهو نهر يأتي من القِبلة مما يلي الشرق شديد الخضرة، صافي اللون جدّاً، يُرى ما في قعره من السمك، وطعمه مخالف لطعم النيل، يعطش الشارب منه بسرعة، وحيتان الجميع واحدة، غير أنّ الطعم مختلف، ويأتي فيه وقت الزيادة خشب الساج، والبقم، والغثاء، وخشب له رائحة كرائحة اللبان، وخشب غليظ يُنحَت ويُعمَل منه مقدام، وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضاً، وقيل: إنه وجد فيه عود البخور. قال: وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة، التي تأتي فيه وقت الزيادة، علامة غريبة. ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملّك بلد علوة، ويبقيان على ألوانهما قريباً من مرحلة، ثم يختلطان بعد ذلك، وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما.

قال: وأخبرني من نقل النيل الأبيض، وصبه في النيل الأخضر فبقي فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا، وبين هذين النهرين، جزيرة لا يعرف لها غاية، وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية، فأوّلهما يعرف عرضه، ثم يتسع فيصير مسافة شهر، ثم لا تدرك سعتهما.

4- والأنهار الأربعة الباقية، تأتي أيضاً من القبلة مما يلي الشرق أيضاً في وقت واحد، ولا يعرف لها نهاية أيضاً، وهي دون النهرَين الأبيض والأخضر في العرض، وكثرة الخلجان والجزائر. وجميع الأنهار الأربعة تنصبّ في الأخضر، وكذلك الأوّل الذي قدَّمت ذكره، ثم يجتمع مع الأبيض، وكلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن وغيرها، وأحد هذه الأربعة يأتي مرّة من بلاد الحبشة.

قال: ولقد أكثرت السؤال عنها، واستكشفتها من قوم عن قوم، فما وجدت مخبراً يقول إنه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار، والذي انتهى إليه علم من عرَّفني عن آخرين إلى خراب، وأنه يأتي في وقت الزيادة في هذه الأنهار، آلة مراكب وأبواب وغير ذلك، فيدل على عمارة بعد الخراب، فأمَّا الزيادة فيجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتي من ذاتها، والدليل على ذلك النهر الذي يجف ويسكن بطنه، ثم ينبع وقت الزيادة.

ومن عجائبه: أنّ زيادته في أنهار مجتمعة، وسائر النواحي، والبلدان في مصر وما يليها، والصعيد، وأسوان، وبلد النوبة، وعلوة، وما وراء ذلك في زمان واحد، وأكثر ما وقف عليه من

هذه الزيادة، أنه ربما وجدت مثلاً بأسوان، ولا توجد بقوص. ثم تأتي بعد فإذا كثرت الأمطار عندهم، واتصلت السيول، عُلم أنها سنة ريّ، وإذا قصرت الأمطار عُلم أنها سنة ظمأ.

مدن بلاد علوة

تناولت المصادر العربية أسماء بعض المواضع والمدن، بلغت في جملتها ستة عشر ما بين مدينة وبلد وجماعات سكانية. وفيما يلي سنتناول المادة التي وردت عن ذلك.

- **المدن والبلدان**

تناولت المصادر مدينة واحدة في مملكة علوة، وهي سوبة، وثلاثة مواضع، وهي: الأبواب، والجزيرة الكبرى، وبلد طُبلى.

- **مدينة سوبة**

يرى ماكمايكل أن مدينة سوبة، ربما كانت عاصمة لإقليم علوة الذي ورد ضمن المناطق التي كانت تحت حكم الملك المروي نستاسن (336ق.م – 315ق. م). [1] وإذا أخذنا بهذا الرأي، فإن تاريخ مدينة سوبة كعاصمة لإقليم علوة يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، أو ربما قبل ذلك، ثم استمرّت عاصمة لمملكة علوة التي خلفت مملكة مروي على حكم المنطقة، قبل دخول المسلمين مصر بأكثر من ثلاثة قرون.

وبدأت مدينة سوبة تظهر كعاصمة لمملكة علوة في المصادر العربية، منذ بداية ظهورها في القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، وقد جاء كتابتها في كل المصادر (سوبة) بالتاء المربوطة في آخر الكلمة. وقد كتبتها بعض المراجع العربية الحديثة بالألف في آخر الكلمة. وقد ورد اسم المدينة عند الحميري وابن الوردي (ويلولة). ولكن تواتر اسم سوبة في المصادر الأخرى، ولم ترِد إشارة إلى اسم ويلولة إلى جانب سوبة، مما يضعف ما أتى به المؤلفان. [2]

وصف اليعقوبي سوبة بأنها مدينة علوة العظمى، مما يوحي بوجود أكثر من مدينة في المملكة. ويبدو من وصف المصادر لها أنها كانت مرتبطة بعلاقات تجارية قوية مع المسلمين،

---

[1]. MacMichael، A History of the Arabs in the Sudan، op، vol. 1 p. 48; see also: Arkell، A History of the Sudan، op، p. 156.

[2]. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، مصدر سابق، ج 1 ص 312؛ وابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مصدر سابق.

كما أشار إلى ذلك اليعقوبي.[1] وسبق أن ذكرنا أن مملكة علوة كانت منفتحة في علاقاتها الخارجية، لا كما كان الحال عليه في مملكة مقُرة، فتوثّقت صلاتها بالمسلمين.

وصف ابن سليم مدينة سوبة بأنها «مدينة العلوي شرقيّ الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الأبيض والأخضر في الطرف الشمالي منها عند مجتمعهما، وشرقيها النهر الذي يجفّ، ويسكن بطنه، وفيها أبنية حسان ودور واسعة، وكنائس كثيرة الذهب، وبساتين، ولها رباط فيه جماعة من المسلمين».[2]

وقد أتى أبوصالح بوصف أكثر تفصيلاً مما ورد فيما نقله المقريزي -أعلاه- من كتاب (أخبار النوبة) لابن سليم، ومن المعروف أن كتاب ابن سليم لم يوجد، وبقي منه فقط ما نقله المؤرخون اللاحقون مثل المقريزي. ورد في كتاب أبي صالح عن مدينة سوبة:

«وهذه المدينة في شرقي الجزيرة الكبيرة بين البحرين الأبيض والأخضر وجميع من بها نصارى يعاقبة، وحولها ديارات متباعدة من البحر، ومنها ما هو على البحر، وبها كنيسة عظيمة جداً متسعة، محكمة الوضع والبناء، أكثر من جميع الكنائس التي بها، وتسمى بكنيسة منبلي».[3]

يوحي هذا الوصف، أن راويه أو كاتبه، كان على معرفة تامة بمدينة سوبة، وأغلب الظن أنه وصف ابن سليم للمدينة، اقتبس منه أبو صالح أكثر مما اقتبسه المقريزي، خاصة أن أبا صالح أشار إلى ابن سليم في وصف جزيرة علوة، بعد وصف مدينة سوبة مباشرة. ورغم أننا رجّحنا أن ابن سليم رجع من دنقلة، ولم يدخل بلاد علوة إلا أنه نقل أخبار علوة من مصادر قريبة من المنطقة، وغالباً من أهلها.

- **الأبواب**

يقع إقليم الأبواب، أو مملكة الأبواب، كما ورد في المصادر العربية، على الحدود الشمالية لمملكة علوة، ويفصلها من مملكة مقُرة. وقد وصف ابن سليم منطقة الأبواب بأنها قرى على شاطئ النيل في أول بلاد علوة، وأنها تابعة لملك علوة، وعليها والٍ من قبله يعرف بالرحواح.[4]

---

[1]. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن واضح، كتاب البلدان، (موقع الوراق)، ص 18.

[2]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 102.

[3]. أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، مصدر سابق، ص 138.

[4]. ابن سليم، كتاب أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 99.

ولم ترد معلومات في المصادر العربية -ما عدا ما ذكره ابن سليم- عن إقليم الأبواب، إلا فيما يتعلّق بأحداث حملات المماليك على مملكة مقُرة. ويبدو أن الأبواب قد أصبحت في ذلك الوقت مملكة مستقلة عن سلطة علوة، كما خاطبتها إدارة المماليك. وإلى جانب سفارة السلطان قلاون إلى ملك الأبواب، والمراسلات التي دارت بينه وبين المماليك، فقد تدخل أني، ملك الأبواب، في الصراعات السياسية التي نشبت في مملكة علوة، وفي الصراع الذي دار حول عرش المملكة، مما يوضِّح قوة مملكة الأبواب ونفوذها في ذلك الزمان.

وقد استفادت منطقة الأبواب من موقعها الإستراتيجي، كباب مطلٍّ على الداخل، في تعزيز صلاتها التجارية بمصر شمالاً، وبالبحر الأحمر شرقاً. كما أسهم موقعها القريب من مناطق التعدين في مناطق وادي العلاقي في ازدياد أهميتها التجارية والإستراتيجية. فقد تدخلت في الصراع الذي دار بين العمري، ومملكة المقرة، في المناطق الشمالية لأبي حمد الحالية. وسنعود إلى هذه الموضوعات عند الحديث عن علاقات مملكتي علوة ومقُرة بمصر.

- **الجزيرة الكبرى**

أطلق ابن سليم على المنطقة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق اسم الجزيرة الكبرى، قال عنها: «وبين هذين النهرين، جزيرة لا يعرف لها غاية، وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية، فأوّلهما يعرف عرضه، ثم يتسع فيصير مسافة شهر، ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض، لأنّ فيهما أجناساً كثيرة وخلقاً عظيماً، قال: وبلغني أنّ بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها، فلم يأتِ عليه بعد سنين».[1]

ووصف ابن حوقل الجزيرة قائلاً: «جزيرة لا يعرف لها غاية، بها جميع الوحش، ويسكنها النوبة والكرسي ومن لا يقدر -لامتناع جانبه- أن يحاط به».[2] وقد تعرَّض ابن حوقل، وابن سليم لسكان هذه الجزيرة، وسكان المناطق الأخرى في مملكة علوة وهم: العنج، والكرنيكا، وتكنة، ومرنكة، وكرسي، وطُبلي، وأمم النيل الأبيض، والأحديين، وأندا، أزكرسا، والتبان، وكنكا. وفيما سنتناول ما ورد عن كلٍّ منهم.

- **بلد طبلي**

أورد ابن حوقل أنه «ذكر قوم أنهم يجتازون في أعالي هذا النهر -أعني النيل- من أعالي

---

[1]. المصدر نفسه، ص 103.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 75.

بلد كرسي ببلد طُبلي، وهو منتهى ملك علوة على النيل، فلا يخالطونهم ولا يتاجرونهم عراة حاسرين، لا يعلم ما غذاؤهم ولا كيفية سيرتهم».[1]

سكان بلاد علوة

بلغت الجماعات السكانية التي وردت في المصادر العربية اثنتي عشر جماعة هم: (العنج، والديجون، وأهل تفلين، والكرنيكا، ومرنكة، وكرسي، وأندا، وتكنة، ونوبة النيل الأبيض، والأحديين، والتبان، وكنكا). وقد ورد القليل من الوصف العام للسكن، وتناولت المصادر في أغلب الأحيان الجماعات السكانية باختصار شديد بلغ في بعض الأحيان ذكر اسم الجماعة السكانية فقط.

وقد تطرّق ابن سليم في تناوله العام للسكان إلى ما يوضّح تطوُّر الفكر الديني، إلى جانب الدين المسيحي لمملكة علوة فذكر: «وقد رأيت جماعة وأجناساً ممن تقدّم ذكره أكثرهم يعترفون بالباري سبحانه وتعالى، ويتقرّبون إليه بالشمس، والقمر، والكواكب، ومنهم من لا يعرف الباري ويعبد الشمس، والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة. وذكر أنه رأى رجلاً في مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده؟ فقال: مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة، وسأله عن دينه؟ فقال: ربي وربك الله، وربُّ الملك، وربُّ الناس كلهم واحد. وإنه قال له: فأين يكون؟، قال: في السماء وحده. وقال: إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء، أو وقع بدوابّهم آفة صعدوا الجبل، ودعوا الله، فيجابون للوقت وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوه. وسأله هل أرسل فيكم رسول؟، قال: لا. فذكر له بعثة موسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، وما أيِّدوا به من المعجزات، فقال: إذا كانوا فعلوا هذا، فقد صدقوا، ثم قال: قد صدّقتهم إن كانوا فعلوا».

ويقودنا ذلك إلى الإشارة إلى ما تناولتُه كثيراً في محاضراتي للطلبة، وفي وبعض المقالات إلى أن التوحيد هو الدين الذي بدأت به حياة البشر.[2] فقد كان آدم عليه السلام موحِّداً، وكذلك كل الأنبياء جاءوا بعقيدة التوحيد. وقد أخبرنا القرآن الكريم في عدد من الآيات أنه

---

[1]. الموضع نفسه.

[2]. انظر على سبيل المثال: أحمد الياس حسين، نحو مفهوم إسلامي لعلم التاريخ، منشورات الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور، 2001 م؛ وكذلك: أحمد الياس حسين، «بداية التاريخ البشري بين المفهومين الإسلامي والغربي: أسئلة ابتدائية»، دراسة منشورة في: مجلة التنوير، مركز التنوير المعرفي، الخرطوم، العدد رقم (12)، يناير، 2012م.

أرسل رسله لكل البشر على مدار التاريخ منذ عصر آدم وحتى عصر نبينا محمد، ولذلك ذكر مفسّرو القرآن الكريم، أمثال ابن كثير وغيره، أن عدد الأنبياء يقدّر بعشرات الآلاف. ولذلك يبدو أثر التوحيد واضحاً في ما نقله ابن سليم عن أهل مملكة علوة مثل قولهم «ربي وربك الله، وربُّ الملك، وربُّ الناس كلهم واحد».

وفيما يلي ما ورد في المصادر العربية عن السكان:

- **العنج**

وردت إشارات قليلة ومقتضبة في المصادر العربية عن العنج، فقد جاءت الإشارة ثلاث مرات في كتاب (تشريف الأيام والعصور) لابن عبد الظاهر (ت 792هـ/ 1292م) عن العنج. المرة الأولى وردت ضمن عدد من أسماء المناطق التي أرسل إليها السلطان المملوكي قلاوون (678هـ – 689هـ/ 1280م – 1290م) الأمير علم الدين سنجر المعظّمي سفيراً. ولم يوضّح الكاتب مواقع تلك المناطق التي أُرسلت إليها السفارة، كما لم يتمكّن الباحثون من تحديد أماكن تلك المناطق التي رجّحوا وجودها في مناطق البجة، ومملكة علوة. وقد ذكر الكاتب من بين الأماكن التي وصلت إليها السفارة منطقة (صاحب العنج).[1]

ووردت الإشارة إلى العنج مرتين، أثناء الحملة التي أرسلها السلطان المملوكي خليل بن قلاوون، والتي خرجت نحو عام 689هـ/ 1290م بقيادة الأمير عز الدين الأفرم (ت 692هـ/ 1292م) لتأديب ملك المقرة سمامون لخروجه عن طاعة المماليك. وقد طاردت الحملة جنوبي مدينة دنقلة أحد الأمراء الخارجين على السلطان ويدعى (آني). وذكر الكاتب أن الحملة وجدت من أخبرها أن الأمير آني:

«له يومان مذ رحل إلى جهة الأنج [العنج]، فتبعه العسكر مسافة أخرى، وعادوا بعد أن قتلوا خلقاً كثيراً، وأسروا حريمهم، وأخذوا مالهم، ورجعوا بغنيمة عظيمة. ولم يسلم الملك آني إلا ومعه سبعة أنفار، وما أخّر العسكر من لحاقه إلا شدّة العطش، ولأن البلاد التي وصلوا إليها بلاد خراب، مأوى الفيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام».[2]

ويواصل الكاتب حديثه، أنه بعد رجوع الحملة من مملكة مقرة، وصل كتاب من ملك الأبواب –في أول بلاد علوة– إلى السلطان المملوكي يذكر فيه أنه تأخّر عن الحضور إلى

---

[1]. ابن عبد الظاهر، أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، في: مسعد، المكتبة السودانية، مصدر سابق، ص 197.

[2]. المصدر نفسه، ص 199.

الأبواب السلطانية، لأنه كان يطارد الملك آني، و«أن بلاد الأنج تغلّب عليها ملك غير ملكها، وأنه متحيِّل في أخذها منه، وإذا أخذها صار جميع بلاد السودان في قبضة مولانا السلطان وطاعته».[1]

يلاحظ أن اسم العنج لم يظهر في المصادر العربية إلا في نهاية القرن السابع الهجري (الـ 13 الميلادي)، عندما بدأ المماليك تدخُّلهم في شؤون مملكة مقُرة المسيحية. وكانت المصادر السابقة لهذا التاريخ تتحدَّث عن المملكتين الكبيرتين؛ مقُرة وعلوة، وما يتبعهما من مناطق وسكان. وبالطبع فإن اسم العنج لم يظهر في القرن السابع الهجري، وقت ظهوره في المصادر العربية، ولا بدّ أن الاسم كان معروفاً ومستخدماً في الداخل للدلالة على منطقة (بلاد العنج)، كما يشير أيضاً إلى السكان، كما سيتضح ذلك من نَص الدمشقي الآتي. ويدل ذلك أن الاسم كان معروفاً وسائد الاستعمال في الداخل، ولم يكن معروفاً للمسلمين في مصر.

وليس من السهل التعرُّف على موقع بلاد العنج من خلال ما ورد عن حملة عز الدين الأفرم. وقد ذكر المؤلف أن عز الدين الأفرم تعدّى مدينة دنقلة ثلاثة وثلاثين يوماً في مطاردة الأمير، أو الملك كما يطلق عليه أيضاً، (آني). ولو اعتبرنا أن الحملة (تعدّت) دنقلة -كما عبَّر ابن عبد الظاهر- ثلاثة وثلاثين يوماً في الذهاب والإياب، تكون قد توغلت فيما بعد مدينة دنقلة نحو خمسة عشر يوماً، قد تكون هذه المسافة جنوباً ووصلت إلى منطقة زانكور في شمال كردفان، كما يرى عدد من الباحثين[2]، وتكون شمال كردفان هي منطقة العنج على هذا الرأي، وأرى أن هذا الرأي يبدو مقبولاً.

ويرى الدكتور أحمد المعتصم الشيخ، أن الحملة توجّهت شرقاً من دنقلة إلى أبي حمد، ثم دخلت الصحراء شرقاً. وتكون بلاد العنج كما يرى الباحث هي المنطقة الممتدة من أبي حمد شرقاً[3]. ورغم أنني لا أخالفه الرأي في أن بلاد العنج من الممكن أن تكون ممتدة إلى الشرق من أبي حمد، إلا أنني لا أرى أن مطاردة الأمير آني كانت في تلك الجهات. فالحملة قد سارت من دنقلة نحو خمسة عشر يوماً، وهو الوقت الذي يوصلها أبي حمد، إذ المسافة

---

[1]. المصدر نفسه، ص 201.

[2]. Mac Michael، A History of the Arabs in the Sudan، op، p. 185; see also: Arkell، A History of the Sudan، op، p. 198.

[3]. أحمد المعتصم الشيخ، زمن العنج، (بحث قدم لمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم)، ص 9.

بين دنقلة وأبي حمد كما قدّرها الباحث بخمسة عشر يوماً، وهي كل الأيام التي سارتها الحملة. فكيف تكون قد توغّلت في الصحراء إلى أن بلغت مناطق الحيوانات التي ذكرت في النّص؟ وبناءً عليه يمكن ترجيح أن بلاد العنج التي أشار إليها ابن عبد الظاهر تمتد في منطقة شمال كردفان.

والمصدر الآخر الذي أشار إلى بلاد العنج هو كتاب الدمشقي (ت 739هـ/ 1328م). فقد نقل الدمشقي عن تجار أسوان أن أصناف النوبة هم: «أنج، وأزكرسا، ووالتبان، وأندا، وكنكا».[1] والجديد الذي أضافه الدمشقي عن العنج ما ذكره من أن العنج يسكنون جزيرة كبيرة من جزائر النيل تسمّى أندا. وهو بهذا يوضح مكاناً آخر للعنج وهو الجزيرة الكبيرة والتي يقصد بها في المؤلفات العربية المنطقة الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق، كما سنتعرّض له لاحقاً. وهذا مكان ثانٍ للعنج إضافة إلى المكان الأول الذي ذكره ابن عبد الظاهر، وهو المنطقة الصحراوية.

ويلاحظ في الرسالة -المذكورة أعلاه- والتي أرسلها ملك الأبواب إلى السلطان المملوكي يذكر فيها «أن بلاد الأنج تغلّب عليها ملك غير ملكها، وأنه متحيِّل في أخذها منه، وإذا أخذها صار جميع بلاد السودان في قبضة مولانا السلطان وطاعته». توضّح أن مملكة العنج مملكة كبيرة تسيطر على مناطق واسعة، بحيث ذكر ملك الأبواب أن خضوعها يعني خضوع كل السودان.

ويمكن أن نستخلص مما ورد في المصادر العربية عن العنج، أنه كانت لهم مملكة كبيرة وواسعة تمتد في صحراء بيوضة إلى شمال كردفان، كما تمتد في الجزيرة الواسعة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق. ويبدو أن سلطة المملكة المركزية لم تكن قوية على أقليم الدولة، وقد تمتّعت بعض هذه الأقاليم من تحقيق كياناتها المستقلة، مثل مملكة الأبواب، التي خاطبها المماليك مباشرة، إلى جانب بعض المناطق الأخرى التي وصلتها سفارة المماليك والتي -يبدو معقولاً- أن بعضها كان في حدود مملكة علوة.

وإلى جانب ما جاء في المصادر العربية عن العنج، وردت عنهم أيضاً بعض المعلومات في المؤلفات المحلية المطبوعة والمخطوطة. وسنتناول هنا ما ورد عن العنج في كتاب (كاتب الشونة)، الذي أُلِّف في القرن التاسع عشر، وما ورد في مخطوطة شيخ التجانية في كردفان، والتي ترجع أصولها إلى القرن الثامن عشر الميلادي. جاء في مؤلف (كاتب الشونة) ما يلي:

---

[1]. الدمشقي، نخبة الدهر، مصدر سابق، ص 236.

«إن الفونج ملكت بلاد النوبة، وتغلّبت فيها في أول القرن العاشر بعد التسعمائة، وخطّت مدينة سنار؛ خطّها الملك عمارة دونقس، وهو أولهم. وخطّت مدينة أربجي قبلها بثلاثين سنة؛ خطّها حجازي بن معين، وعلى هذا يتضح أن عمارة أربجي في مدة العنج». [1]

وورد في مكان آخر: «أما الجهة الشرقية، فقد كان بها أولاد عون الله، وهم سبعة رجال في مدة العنج، أي النوبة، وكان أحدهم المسمّى بالضرير قاضياً في مدة العنج قبل مدة الفونج». [2]

وذكر أيضاً: «واتفق عمارة المذكور مع عبد الله جماع القريناتي، من عربان القواسمة، وعبد الله المذكور هو ولد الشيخ عجيب الكافوتة، جد أولاد الشيخ عجيب، وتمّت كلمتهم على محاربة النوبة، وهم العنج ملوك سوبة، وملوك القرى. وتوجّه عمارة وعبد الله المذكوران بما معهما من الجيش، وحاربوا ملوك العنج وقتلوهم وأجلوهم من سوبة.. اتفق رأي عمارة بأن يكون هو الملك عوضاً عن ملك علوة التي هي سوبة».

ويواصل كاتب الشونة ما حدث بعد انتصار عمارة وعبد الله جماع قائلاً: «أما النوبة فمن بعد ما حصل بينهم من المحاربة والمقاتلة، وصار الظفر للفونج، تفرّقوا شذر مذر، منهم من فر إلى جبال الصعيد، فازوغلي وغيرها، ومنهم من فرّ بالغرب، إلى جبال كردفان، ولم يبق منهم إلا أنفار قليلة دخلوا في الإسلام، وتفرّقوا في البلاد، وسكنوا مع الناس، وتناسلوا فيهم، وهم إلى الآن أنفار قليلون جداً.. وقليل من الناس يعرف أن أصلهم من النوبة، لأن لسانهم الآن عربي حكم لسان العرب». [3]

توضح هذه النصوص حقائق مهمة عن العنج هي:

أولاً: أن زمن حكم العنج وفقاً للمفهوم العام في أذهان السودانيين في ذلك الوقت -كما نقله كاتب الشونة- كان قبل قيام سلطنة الفونج.

ثانياً: أن العنج هم النوبا، ملوك مملكة سوبة، التي هي مملكة علوة. ويبدو واضحاً أن كاتب الشونة يستخدم اسم النوبا مرادفاً للعنج ملوك سوبة.

ثالثاً: يلاحظ أن استخدام كلمة النوبا -المرادفة لكلمة عنج- هنا لا يرجع إلى مدلول

---

[1]. أحمد بن الحاج أبو علي (المشهور بكاتب الشونة)، تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية، تحقيق: الشاطر بصيلي عبد الجليل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، (ب. ت)، ص 4.

[2]. المصدر نفسه، ص 124.

[3]. المصدر نفسه، ص 129.

كلمة النوبة في المصادر العربية، والتي رغم اتساع مدلولها، إلا أننا توصّلنا فيما سبق إلى أن مدلولها الخاص يصدق على المنطقة الواقعة شمال الشلال الثالث، أي منطقة مريس. ومدلول كلمة نوبة العام في المصادر العربية يطلق أيضاً على مملكة علوة وسكانها، ولكنه لا يصدق على كل امتداداتها جنوباً وشرقاً وغرباً. فكلمة النوبة في المصادر العربية لا تصدق على (عربان العنج في منطقة البحر الأحمر).

رابعاً: أن لفظ العنج يستخدم للملوك، ولسكان مملكة علوة الذين تفرّقوا في البلاد بعد سقوط دولتهم، وأنهم اختلطوا بالسكان، ودانوا بالإسلام، وحلّت اللغة العربية محل لغتهم الأصلية، ولم يصبح لهم كيان مستقل يميّزهم عن باقي السكان.

أما عن المخطوطات المحلية، فهي عبارة عن تدوين للروايات الشفاهية التي كانت سائدة إبّان كتابتها، فهي من حيث محتواها لا تختلف عن الروايات الشفاهية كثيراً. اللهم إلا في بعض الأحداث التي عاصرها الكاتب ودوّنها، فتكون أوفر حظّاً في مصداقيتها. ورغم اشتهار طبقات ود ضيف الله بأنها احتوت الكثير من التراث لمنطقة وسط السودان، إلا أن ذكر العنج لم يرد فيما تناولته من أحداث وسير.

وقد ورد ذكر القبائل التي تنتمي للعنج، في مناطق متفرقة من السودان في مخطوطة شيخ التجانية، والتي كتبت بعد قرنين من سقوط مملكة علوة. ومن بين تلك القبائل ذات الأصول العنجية قبائل (التيايسة، والكرتان)، في كردفان. و(الجانجي)، وبعض القبائل على النيل الأبيض. وشمالاً حتى منطقة دنقلة، و(الفنكور، والباجرم، والداجو، والفرتيت)، في دارفور. فالعنج كما يراهم كاتب المخطوط ينتشرون في وسط وشمال وغرب السودان.[]

ثم نأتي للروايات الشفاهية الغنية بتراث العنج. وقد تتبع الدكتور أحمد المعتصم الشيخ تلك الروايات ذات الانتشار الواسع بين كل السكان، في المناطق الواقعة بين الشلال الرابع شمالاً، والنيل الأبيض جنوباً، وبين منطقة الجزيرة منطقة البطانة شرقاً، وشمال كردفان غرباً. واستخلص أن هذه المناطق التي ارتبطت بتراث العنج هي مناطق انتشار العنج قديماً. كما يرى الدكتور أحمد المعتصم أن الحلنقة هم العنج، مستدلاً على ذلك باسمهم الذي يعني في اللغة الأمهرية السوط، وهذا السوط هو ما نعرفه في كل أنحاء السودان بسوط

[] Mac Michael، A History of the Arabs in the Sudan، op، vol. 1 .p 194 - 197.

العنج.[1] واتفق مع الدكتور في كل المقدمات التي ساقها في الربط بين الحلنقة والعنج، ولكنني أرى ضرورة التوضيح أن الحلنقة جزء من الشعب الكبير المعروف بالعنج.

وقد تعددت الروايات الشفاهية عن العنج مناطق النيل ووصلت إلى سواحل البحر الأحمر. فقد نقل أحمد المعتصم عن مخطوطة (واضح البيان في ملوك العرب بالسودان)، لعبد الله بن الأرباب الحسن بن شاور أن عبد الله جماع «خضعت له جميع البلاد إلا منطقة العنج في جهات البحر الأحمر، فتحها ابنه الشيخ عجيب بعد أن علم أن شيخ عربان العنج مخالف للشرع المحمدي».[2]

ويدل امتداد ارتباط تراث العنج حتى البحر الأحمر بالانتشار الواسع للعنج في عصر مملكة علوة، وبما أن كل المادة الواردة عن العنج تربطهم بفترة مملكة علوة السابقة لانتشار الإسلام، ودخول القبائل العربية، فإن ذلك ربما كان مؤشِّراً لامتداد حدود مملكة علوة. فهل امتدت حدود مملكة علوة على كل المناطق التي انتشر فيها تراثهم؟. ليس هنالك ما يمنع ذلك، بل هو الأكثر ترجيحاً. كما يلاحظ أن المخطوط وصف العنج بأنهم عرب، كما وصف زعيمهم بشيخ العرب، فعروبة العنج في هذا النص مثل عروبة العبدلاب.

- **الديجيون**

عرَّف ابن سليم الديجون، بأنهم جنس مولَّد بين العلويين والبجة على نهر عطبرة.[3] ويبدو أن وضع ابن حوقل الديجيين على نهر عطبر يحتاج لبعض المراجعة. فابن سُليم زار مناطق النيل، لكنه لم يعرِّج على المناطق الشرقية، وكتب مادته عنها عن طريق الروايات التي وصلته عن الديجيين -كما ذكر- أثناء وجوده في مملكة مقُرة. فأغلب الظن أن الديجيين الذين ذكرهم منسوبون إلى دُجن، وهي منطقة دلتا القاش، فهم (لدجيون) واختلط الأمر على مُخْبر ابن سُليم، وجعلهم على نهر عطبرة بدلاً عن القاش.

- **أهل تفلين**

وردت الإشارة إلى أهل تفلين عند ابن حوقل، ولم يذكر اسمهم، بل نسبهم إلى منطقة تفلين، والتي ذكر أنها تقع بين أعالي خور القاش شرقاً، وحتى حدود مملكة علوة غرباً. قال

---

[1]. أحمد المعتصم الشيخ، زمن العنج، مرجع سابق، ص 11.

[2]. المرجع نفسه، ص 17.

[3]. المرجع نفسه، ص 100.

ابن حوقل يصف وادي القاش ودلتاه:

«والنهر المعروف بالدجن يأتي من بلد الحبشة، فينقطع في أعمال دجن ومزارعها. ودجن هذه قرى متصلة ذوات مياه ومشاجر وزرع وضرع. وإلى وسط هذا الوادي تفلين قرى أيضاً للبادية منهم، ينتجعونها للمراعي حين المطر. ولهم ملك مسلم يتكلّم العربية من قبل صاحب علوة. ويختص أهل تفلين بالإبل والبقر، ولا زرع لهم، فيهم مسلمون كثيرون من غير ناحية على دينهم يتجرون ويسافرون إلى مكة وغيرها»[1].

اتفق الباحثون أن الدجن، أو الدكن كما يرد بعض الأحيان، هو وادي ودلتا القاش، وقد عرفت دلتا القاش ببلاد التاكا.[2] ويبدو وادي القاش -من وصف ابن حوقل- مأهولاً بالسكان، وفي وسطه تفلين. وقد يفهم من حديث ابن حوقل أن بعض أهل تفلين مستقرين على الوادي، وبعضهم بدو ينتجعون قرى تفلين للرعي، ولكنه أضاف أيضاً أن أهل تفلين يختصون بالإبل والبقر ولا زرع لهم، وربما أراد بهؤلاء البدو منهم.

ويوضِّح نص ابن حوقل أن حدود مملكة علوة تمتد شرقاً حتى وادي القاش -أي منطقة كسلا الحالية- حيث امتدت مملكة تفلين، والتي كانت تابعة للملكة علوة. كما يوضِّح النص انتشار الإسلام المبكر في المنطقة الشرقية لمملكة علوة، وقيام مملكة إسلامية، وانتشار اللغة العربية منذ القرن الثالث الهجري (الـ9 الميلادي)، وهو الوقت الذي كتب فيه ابن حوقل. وربما كان انتشار الإسلام وقيام المملكة قد سبقا هذا التاريخ. كما اتضح نشاط مملكة تفلين وعلاقاتها التجارية بالعالم الإسلامي، وقد أشرنا من قبل إلى أن مملكة علوة كانت منفتحة في علاقاتها بالعالم الإسلامي، بعكس مملكة مقُرة.

- **الكرنينا**

ذكر ابن سليم أن الكرنينا «يسكنون الجزيرة الكبرى الواقعة بين البحرين»، ويقصد بالبحرين هنا النيلين الأبيض والأزرق، فهو يعبِّر بـ(البحرين) بدلاً عن النيلين كما يعبِّر عامة السودانيين اليوم. ولم يذكر عنهم سوى القصة التي رواها عن زراعتهم، والتي لخَّصها أيضاً أبو صالح الأرمني. وفيما يلي ما أورده ابن سليم:

«ومما في بلده من العجائب: أنّ في الجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنساً يعرف

---

[1]. ابن حوقل، صورة الأرض، مرجع سابق، ص 74.

[2]. Crawford، The Fung Kingdom of Sennar، op، p. 96.

بالكرنينا، لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر، فإذا كان وقت الزرع، خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر، واختطّ على مقدار ما معه. وزرع في أربعة أركان الخطة يسيراً، وجعل البذر في وسطه الخطة، وشيئاً من المزر، وانصرف عنه فإذا أصبح وجد ما اختط، قد زرع وشرب المزر، فإذا كان وقت الحصاد، حصد يسيراً منه ووضعه في موضع أراده ومعه مزر، وينصرف، فيجد الزرع قد حصد بأسره، وجرّن، فإذا أراد دراسه وتفريته، فعل به كذلك، وربما أراد أحدهم أن ينقي زرعه من الحشيش، فيلفظ بقلع شيء من الزرع فيصبح، وقد قلع جميع الزرع، وهذه الناحية التي فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين، يزرع جميعها في وقت واحد، وميرة بلد، علوة ومتملكهم من هذه الناحية، فيوجهون المراكب، فتوسق، وربما وقع بينهم حرب».[1]

قال: «وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة، وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين، لا يشكون فيه ولا يرتابون به، ولولا أنّ اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله، لما ذكرت شيئاً منه لشناعته، فأما أهل الناحية، فيزعمون إن الجنّ تفعل ذلك، وأنها تظهر لبعضهم، وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها، وتعمل لهم عجائب، وأنّ السحاب يطيعهم».

- **مرنكة**

ذكر ابن حوقل أن مرنكة تقطن على نهر أور، في أعالي بلاد علوة، والذي يجري من الشرق إلى الغرب، ويصب في النيل، ويقصد بنهر أور النيل الأزرق. ولم يورد عنها سوى أنها قبيلة من النوبة.[2]

- **كرسي**

وصف ابن حوقل كرسي، بأنهم أمة كثيرة من النوبة، وتقع ديارها على نهر أتمتي المتفرع من أعلى نهر أور، ونهر أتمتي هو الدندر. وتمتد ديارهم على النهر حتى بلاد الحبشة.. وأهل كرسي أصحاب زفال، وهو الجلد الذي يتّزرون به عرضاً، ويستخرج طوله من عند الأفخاذ فيغرز عند السرة، فيما انعقد من الزفال.[3] وقد ذكر الدمشقي (أزكرسا)، ووصفهم بأنهم صنف من النوبة، ربما كانوا هم الكرسي رغم أنه وضعهم بعيدين عن النيل.

---

[1]. ابن سليم، أخبار النوبة، مصدر سابق، ص 103، وأبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح، مصدر سابق، ص 139.

[2]. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 75.

[3]. المصدر نفسه.

- **أندا**

جعل الدمشقي أندا من أصناف النوبة، ويسكنون «جزيرة عظيمة من جزائر النيل تسمى أندا، وهم بها، لا يستترون بشيء البتة». وربما أندا هو اسم الجزيرة الكبرى التي كتب عنها، وعن سكانها، ابن حوقل، وابن سليم.

- **تكنة**

اتفقت آراء المؤرخين الذين كتبوا عن تكنة -ابن الفقيه، والمسعودي، وياقوت الحموي- على أن موقع تكنة أقصى جنوب بلاد علوة، ولم توصف بانتمائها للنوبة، مثل الكرنينا، وأندا، وكرسي، بل وصفوا بأنهم أمة من السودان عراة، أرضهم تنبت الذهب□، وأطنب ياقوت الحموي في وصفهم، وتضمّن وصفه من السمات الخيالية الغريبة التي دأبت المصادر العربية على إيرادها عن الشعوب النائية والبعيدة عنهم، ونثبته هنا كمثال لما يرد في بعض تلك المصادر. قال ياقوت:

«عراة لا يلبسون ثوباً ألبتة، إنما يمشون عراة، وربما سبي بعضهم وحمل إلى بلاد المسلمين، فلو قطع الرجل أو المرأة على أن يستتر أو يلبس ثوباً لا يقدر على ذلك ولا يفعله، إنما يدهنون أبشارهم بالأدهان. ووعاء الدهن الذي يدهن به قلفته، فإنه يملؤها دهناً، ويركي رأسها بخيط، فتعظم حتى تصير كالقارورة، فإذا لدغت أحدهم ذبابة، أخرج من قلفته شيئاً من الدهن، فدهن به، ثم يربطها ويتركها معلّقة. وفي بلادهم ينبت الذهب».□

- **نوبة النيل الأبيض**

أشار ابن حوقل إلى سكان النيل الأبيض من النوبة، ولم يورد معلومات عنهم، ولم أعثر لهم على ذكر في المصادر الأخرى. ذكر ابن حوقل: «ومن غربي النيل نهر يجري من ناحية الغرب، كبير غزير الماء، يعرف بالنيل الأبيض، وعليه قوم من النوبة».□

- **الأحديين**

تناول ابن حوقل منطقة متوغلة في الصحراء غربي النيل الأبيض، أطلق عليها اسم

□. ابن الفقيه، كتاب البلدان، مصدر سابق، ص 31؛ والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة، (موقع الوراق)، ج 1 ص 336؛ المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ص 50. وقد جاءت كتابة الكلمة «بكنة» بالباء، ويبدو أن هنالك خطأ طباعياً أو في النقل، لأن المصادر الأخرى كتبتها بالتاء «تكنة».

□. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص 166.

□. ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص 75.

أمقل، ذكر أنها تقع بين علوة وبين الأمة المعروفة بالجبليين. وتقع بلد أمقل على بعد خمس مراحل من علوة، ثلاث منها في الصحراء. وقال إنها:

«ناحية كبيرة ذات قرى لا تحصى، وأمم مختلفة، ولغات كثيرة متباينة، لا يحاط بها، ولا يبلغ غايتهم، يعرفون بالأحديين، وفيهم معادن الذهب الجيِّد، والتبر الخالص، والحديد، متصلين بالمغرب إلى ما لا يعرف منتهاه، زيهم زي المغاربة، أرباب جِمال، وخيل، وبراذين غير تامة الخلق لقصرها وقرب لبودها، وسلاحهم فيه درق كدرق المغاربة بيض وحراب، وسيوفهم أيضاً غير تامة، وفيهم جند يلبسون السراويلات المفتّحة الطوال، ونعالهم كنعال المغاربة، وهم على النصرانية، وهم في طاعة ملك علوة».

- التبان

أشار إليهم الدمشقي، ولم يحدد موقعهم، واكتفى بالقول: «وذكر أنه يوجد بأرضهم معادن الحديد، ولا يعيش بأرضهم حيوان لشدة حرها». [1]

- كنكا

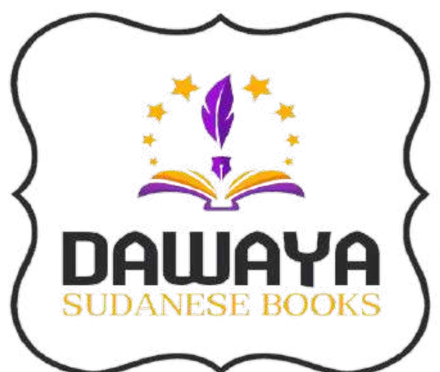
ذكرهم أيضاً الدمشقي ولم يحدِّد موقعهم ولم يورد معلومات عنهم. [2]

---

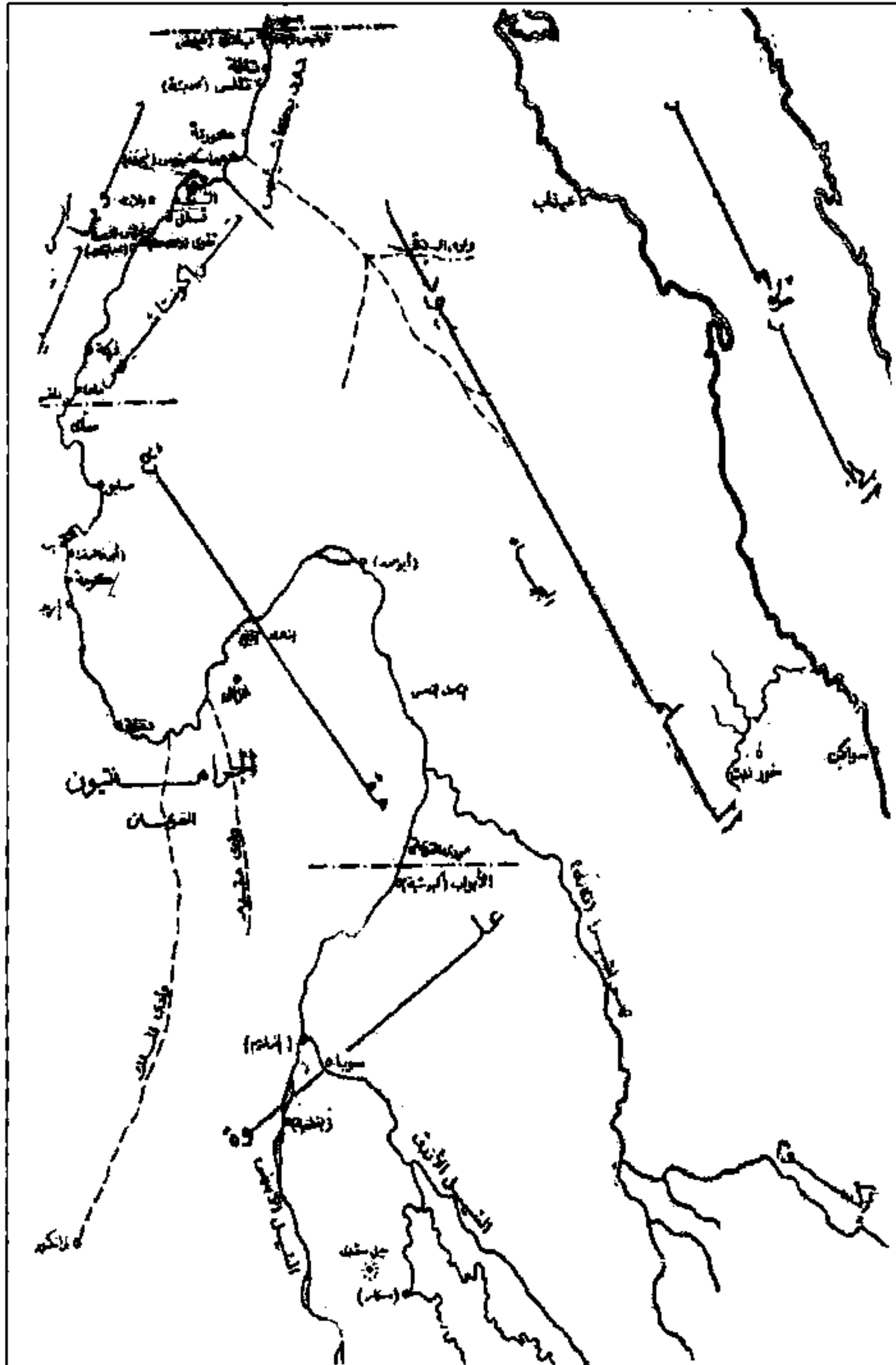
1. الدمشقي، نخبة الدهر، مصدر سابق، ص 236.

2. المصدر نفسه.

الملاحق

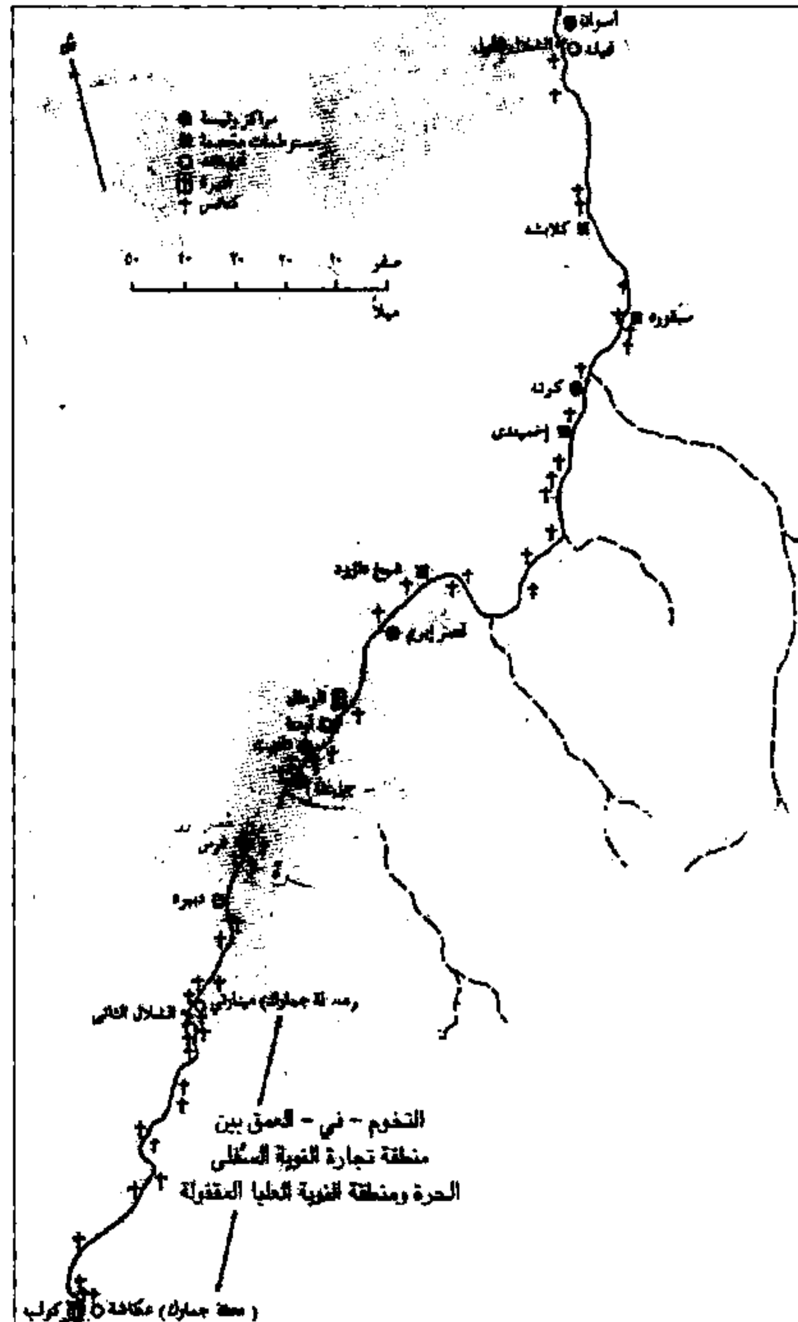


ممالك النوبة المسيحية



مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص 73

النوبة السفلى في الأزمان المسيحية المأثورة



أدمز، النوبة رواق إفريقيا، ص 416

النوبة السفلى وبطن الحجر في العصر الإقطاعي

آدمز، النوبة رواق إفريقيا، ص 454

المصادر والمراجع

- إبراهيم خميس إبراهيم، دراسات في تاريخ مصر البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م.
- أحمد بن الحاج أبو علي المشهور بـ(كاتب الشونة)، تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (ب.ت).
- أحمد المعتصم الشيخ:

1. زمن العنج (بحث غير منشور مقدم لمعهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم).
2. التاريخ الثقافي والحضاري لمنطقة التكاكي في الفترة من 1280م - 1480م (رسالة دكتوراه قدمت لقسم الآثار، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، 2002م).

- أحمد الياس حسين:

1. الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب (رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب جامعة القاهرة الأم، 1977م).
2. نحو مفهوم إسلامي لعلم التاريخ، منشورات الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور، 2001 م.
3. الوعي بالذات وتأصيل الهوية، كاجي قرافيكس، كوالالمبور، 2008م.
4. قبيلة جهينة؛ هل تكاثرت وتغلّبت على النوبة وأزالت ملكهم كما روى ابن خلدون؟ أم كانت غائبة تماماً عن تلك الأحداث (مجلة الدراسات السودانية، معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية جامعة الخرطوم العدد 15، 2009م).
5. بداية التاريخ البشري بين المفهومين الإسلامي والغربي: أسئلة ابتدائية، (مجلة التنوير، مركز التنوير المعرفي، الخرطوم، العدد رقم (12)، يناير 2012م).

- الإدريسي؛ أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في: مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، الخرطوم، 1972م. (فيما يلي نشير إليه بـ: مسعد، المكتبة السودانية).
- الإصطخري؛ إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك (موقع الوراق).
- أدمز، جون، النوبة رواق إفريقيا، ترجمة: محجوب التجاني محمود، القاهرة، 2004م.
- ابن إياس؛ محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور. في: مسعد، المكتبة السودانية.

- إيسيدور سافتش كاتس نيلسون، الوضع الراهن وإشكاليات دراسة تاريخ مملكتي نبتة ومروي، ترجمة: أسامة عبد الرحمن النور، مجلة الآثار السودانية (أركماني)، العدد الثاني، فبراير 2002م.
- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني؛ الفلسفة الكاثوليكية، ترجمة: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1968م.
- ابن بطوطة؛ محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. في: مسعد، المكتبة السودانية.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م.
- ابن تغري بردي؛ أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في أخبار مصر وملوك القاهرة. (موقع الوراق).
- توروك، تاريخ ما بعد مروي وآركيولوجيته. ترجمة أسامة عبد الرحمن النور، أركاماني، العدد السادس 2005 .
- ابن جبير؛ محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار. في مسعد، المكتبة السودانية.
- الجرجاني؛ الشريف علي بن محمد، التعريفات. (موقع الوراق).
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جامعة بغداد، العراق، 1993م.
- الجوهري؛ إسماعيل بن حماد، الصحاح. (موقع الوراق).
- جيوفاني فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، 1978م.
- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين. (موقع الوراق).
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (موقع الوراق).
- ابن حزم؛ علي بن أحمد، الفِصل في المِلل والنِّحل. (موقع الوراق).
- الحسن بن محمد الوزان المعروف بليو الأفريقي، وصف إفريقيا. تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الثانية، 1983م.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (موقع الوراق).
- ابن حوقل؛ أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، (مسعد، المكتبة السودانية).
- ابن خلدون؛ عبد الرحمن بن محمد:

1. المقدمة، (موقع الوراق).
2. العبر وديوان المبتدأ والخبر في ذكر ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، في مسعد، المكتبة السودانية، وفي (موقع الوراق).

- ابن دريد؛ أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة. (موقع الوراق).
- الدمشقي، أبو عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (مسعد، المكتبة السودانية).
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس. (موقع الوراق).
- سامية بشير دفع الله:

1. تاريخ الحضارات السودانية القديمة: منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة، دار هايل للطباعة والنشر، الخرطوم، 1999م.
2. تاريخ مملكة كوش: نبتة ومروي، دار الأشقاء للطباعة والنشر، الخرطوم، 2005م.

- ساورس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية. في: مسعد، المكتبة السودانية.
- السخاوي؛ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع، (موقع الوراق).
- السر سيد أحمد العراقي، كسلا: التاريخ والحضارة، الخرطوم، 2010م.
- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي، كتاب الجغرافيا، (موقع الوراق).
- ابن سُليم الأسواني، عبد الله بن أحمد، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- سليم حسن، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بعانخي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت).
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد المروزي، كتاب الأنساب، (موقع الوراق).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (موقع الوراق).
- أبو شامة، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين، في: مسعد، الإسلام والنوبة.
- الشعراني؛ عبد الوهاب بن أحمد، الطبقات الكبرى. (موقع الوراق).
- أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- الصحاري، أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم، كتاب الأنساب، (موقع الوراق).
- الصفدي؛ خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، (موقع الوراق).
- ضرار صالح ضرار، سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1991م.
- الطبري؛ محمد بن جرير:

1. تاريخ الطبري، المعروف بتاريخ الأمم والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية.
2. تفسير الطبري؛ تفسير القرآن المسمى (جامع البيان عن تأويل أي القرآن)، طبعة بولاق، القاهرة،

1338هـ. وكذلك: (موقع الوراق).
- ابن عبد الحكم؛ عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- عبد الرحمن حسب الله الحاج، العلاقات بين بلاد العرب وشرق السودان: منذ ظهور الاسلام وحتى ظهور الفونج 911ه/ 1505م. الخرطوم (د. ت)، (د. ن).
- ابن عبد السلام، الشهاب أحمد بن عز الدين محمد، الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- ابن عبد الظاهر، أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاوون، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د. ت).
- عبد المجيد دياب، تاريخ الأقباط (مقدمة تحقيقه لكتاب تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريز للمقريزي)، دار الفضيلة، القاهرة، 1998م.
- ابن عساكر الدمشقي، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ دمشق، (موقع الوراق).
- العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (موقع الوراق).
- العمري؛ أحمد بن فضل الله، مسالك الأبصار، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود:

1. المختصر في أخبار البشر، في: مسعد، المكتبة السودانية.
2. تقويم البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية.

- ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم، تاريخ الدول والملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين. (موقع الوراق).
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، كتاب البلدان، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- القلقشندي، أحمد بن عبد الله:

1. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، في: مسعد، المكتبة السودانية، وفي (موقع الوراق).
2. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب. (موقع الوراق).

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن ضوء:

1. البداية والنهاية، (موقع الورّاق).
2. تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، 1403هـ.

- كلايدي ونتر، (بينة مروية عن الإمبراطورية البليمية في الدوديكاسخيونس)، ترجمة، أسامة عبد

الرحمن النور، مجلة الآثار السودانية، العدد 5، مارس 2004م.

- الكندي؛ محمد بن يوسف، تاريخ الموالي المصريين، (موقع الوراق).
- أبو المحاسن؛ يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، في: مسعد، المكتبة السودانية.
- محمد إبراهيم بكر، تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م.
- محمد النور بن ضيف الله، كتاب الطبقات، تحقيق الدكتور يوسف فضل حسن. الطبعة الثالثة، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1985م.
- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985م.
- المسعودي، علي بن الحسين:

1. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958م.
2. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978م.

- مصطفى محمد مسعد:

1. الإسلام والنوبة في العصور الوسطى: بحث في تاريخ السودان وحضاراته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961م.
2. المكتبة السودانية العربية: مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، الخرطوم، 1972م.

- المفضل بن أبي الفضائل القبطي المصري، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (موقع الوراق).
- المقريزي؛ تقي الدين أحمد بن علي:

1. الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، منشورات مكتبة العرفان، لبنان، (د. ت).
2. السلوك لمعرفة دول الملوك، في: مسعد، المكتبة السودانية.
3. المقفى، في: مسعد، المكتبة السودانية.
4. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، في: مسعد، المكتبة السودانية.
5. البيان والإعراب، في: مسعد، المكتبة السودانية.

- ابن منظور؛ محمد بن مكرم، لسان العرب، (موقع الوراق).

- ناصر خسرو، سفر نامة، (موقع الوراق).
- النويري؛ أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، (موقع الوراق).
- الهمداني؛ الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، (موقع الوراق).
- الواقدي؛ محمد بن عمر، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، (د. ت).
- ابن الوردي؛ عمر بن مظفر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، في: مسعد، المكتبة السودانية، وكذلك (موقع الوراق).
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، (موقع الوراق)، وفي: مسعد: المكتبة السودانية.
- اليعقوبي؛ أحمد بن إسحاق بن واضح:
1. تاريخ اليعقوبي، المعروف بتاريخ ابن واضح، (موقع الوراق).
2. كتاب البلدان، (موقع الوراق).
- اليافعي، عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، (موقع الوراق)

- H. Keane, Man Past and Present. Cambridge 1899. Cited by MacMichael, A History of the Arabs in the Sudan.
- Arkell, Anthony John, History of the Sudan: From the Earliest Times to 1821. London: The Athlone Press, 1961.
- Bury, History of the Late Roman Empire. New York: Dover Publication, 1958.
- Butler, A. J., "The Treaty of Misr in Tabari" in his book The Arab Conquest of Egypt. Oxford: University Press, 1978.
- Cheikh Anta Diop, The African Origin of Civilization: Myth or Reality. Chicago: Lorance Hill & Books, 1974.
- Crawford, (ed.):
1. Ethiopian Itineraries Circa 14001520-. Cambridge: University Press, 1955.
2. The Fung Kingdom of Sennar: with a Geographical Account of the Middle Nile Region. Gloucester, 1959.
- Fred Wendorf, R. Shcild (1994) "Are the early Holocene cattle in the western Sahara domestic or wild" Journal of Anthropological Archeology, 3 No. 4.
- Hans Bernard, Sire, il n'y a pas de Blemmyes: A re-evaluation of Historical and Archaeological Data. Clause no. 339 (online)
- Hasan, Yousef Fadl, The Arabs and the Sudan. Khartoum: Khartoum

University Press, 1973.
- http://www.1911encyclopedia.org/Troglodytes (online)
- John of Nikioumm, La Choronique de Jean de Nikiou, in Vantini.
- Kirwan, Notes o the Topography of the Christian Nubian Kingdoms, JEA, XXI, 1934.
- Kerwan, L. P., "A Survey on Nubian Origin", S.N.R. XX 1937.
- MacMichael, Harold Alfred, A History of the Arabs in the Sudan. London: Frank Cass & Co. Ltd., 1967.
- Quoted by Oric Bates, the Eastern Libyans. London: 1970.
- Palmer, R., The Bornu Sahara and Sudan. London: 1936.
- Said, Rushdi and Faure, H. 1981, "Chronological Framework: African Pluvial and Glacial Epochs in J. Ki-Zerbo (ed), General History of Africa I: Methodology and African Prehistory.
- Strabo, Book of Geography XVII.
- Trimingham, J. S., Islam in the Sudan. London: Frank Cass & Co. Ltd., 1965.
- Vantini, Fr. Giovanni. Oriental Sources Concerning Nubia. Poland: Heidelberg and Warsaw, 1975.
- Wacher, John ed.,The Roman World. London: Rutledge, 2002.

رقم الإيداع

2012/318م



د . أحمد إلياس حسين

السودان

الوعي بالذّات وتأصيل الهُويّة

الجزء الثالث

علاقات السودان بالمسلمين في مصر

بين القرنين 7 - 15 م



شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

هذا الكتاب

"يتناول هذا الجزء تاريخ الممالك السودانيّة في الفترة الواقعة بين القرنين: السابع، والخامس عشر، الميلاديين (1 - 9 هـ) وهي الفترة التي بدأت بدخول المسلمين مصر، حتى بداية انتشار الاسلام في السودان، الذي انتهى بقيام ممالك السودان الإسلاميّة في: وسط السودان، وغربه وشماله.

-

آمل أن يُكمّل هذا الجزء، ما بدأناه في الجزأين الأول والثاني، من إلقاء الضوء على المجتمع السودانيّ قبل القرن الخامس عشر، حتى نتمكن من بناء جسر بين السودان وسكانه وتاريخه في الفترة السابقة للقرن الخامس عشر والفترة التالية لها. فقد شهدت الفترة السابقة للقرن الخامس عشر قيام العديد من الممالك والمدن، وتنوعت الثقافات واللغات والمعتقدات، وكل ذلك يحتاج إلى تضافر المؤسسات الأكاديميّة والثقافيّة وجهود الباحثين في مختلف التخصصات لنفض الغبار عنه وتقديمه إلى هذا الجيل."

المؤلف

د. أحمد إلياس حسين (1943م -)

- أستاذ مشارك متخصص في التاريخ الإسلامي.
- دكتوراة بمرتبة الشرف، قسم التاريخ معهد الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة (الأم) عام 1982م
- زميل قسم التاريخ بكلية التربية جامعة الخرطوم من عام 2009م
- أستاذ مشارك كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا 1994م – 2008م
- محاضر وأستاذ مساعد بجامعة الخرطوم والجامعة الإسلامية العالمية وجامعة الفاتح بليبيا منذ 1987م – 1994م
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- شارك في عدة مؤتمرات علمية عالمية ومحلية.
- نشر عدداً من البحوث في دوريات ومجلات علمية محكمة.

صدر له

1. تاريخ الأمة الإسلامية (2000م).
2. نحو مفهوم إسلامي لعلم التاريخ (2001م).
3. السودان: الوعي بالذات وتأصيل الهوية (الجزء الأول: الطبعة الأولى 2008، الطبعة الثانية 2012م).

التصميم: محمد الصادق الحاج

ISBN-978-99942-1-291-0ردمك





دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر

السودان

الوعي بالذات وتأصيل الهوية

الجزء الثالث

علاقات السودان بالمسلمين في مصر
بين القرنين 7 - 15م

الناشرون: دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر
ص ب 321
Email: kupublisher@gmail.com

تاريخ النشر: الطبعة الثالثة 2021م

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر ـ السودان
304.609624 أحمد الياس حسين أبو شام، 1943 -
أ ي . س
الوعي بالذات وتأصيل الهوية، الجزء الثالث/
أحمد الياس حسين أبو شام.- الخرطوم: أ. ي. ح. أبو شام، 2020م
ج3: 276 ص؛ 17×24سم
ردمك: 978-99942-1-291-0
1. السودان - السكان.
2. السودان - حركة داخلية.
3. السودان - تاريخ. أ. العنوان

الطابعون: مطبعة جامعة الخرطوم

السودان

الوعي بالذّات وتأصيل الهُويّة

الجزء الثالث

علاقات السودان بالمسلمين في مصر
بين القرنين 7 - 15م

د. أحمد الياس حسين

2021

المحتويات

مقدّمـــة الطبعة الأولى 9
مقدّمـــة الطبعة الثانية 16
الفصل الأول: الحروب بين المسلمين ومملكة مريس (نوباديا) 19
- مدخل 21
- الحروب في ولاية عمرو بن العاص 23
- الحروب في ولاية عبد الله بن سعد 27
- العلاقات حتى بداية القرن الثاني الهجري (8 م) 37

الفصل الثاني: العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين حتى عصر المماليك 47
- غزو ملك مقُرّة كرياكوس مصر 49
- الأمير الأمويّ في مقُرّة وبلاد البجة 53
- خطاب والي مصر إلى ملك النوبة عام 141 هـ 58
- العلاقات في عصر الخليفة المعتصم 60
- أطماع وحروب العمري في مملكة مقُرّة 65
- العلاقات بين القرنين الثالث والسابع الهجريين (9 – 13 م) 72
- العلاقات في عهد ولاية تكين التركيّ على مصر 73
- العلاقات في عصر الدولة الإخشيديّة 75
- العلاقات في عصر الدولة الفاطميّة 82
- العلاقات في عصر الدولة الأيوبيّة 88
الملاحق 93
ملحق رقم 1: بنو أمية في السودان 93
ملحق رقم 2: رسالة والي مصر إلى ملك مقُرّة 141 هـ م 758 م 97

الفصل الثالث: العلاقات في عصر المماليك 99
مدخل 101
- دخول مملكة مقُرّة في طاعة المماليك عام 674 هـ/ 1275 م 103

- محاولات الخروج عن طاعة المماليك والصراع على العرش 686—716هـ/ 1287—1316م 107
- ملك مسلم على مقُرّة 716 ه / 1316م 113
- هل سقطت مملكة مقُرّة ومتى؟ 114
أ- ملوك مملكة مقُرّة 120
ب- مملكة دوتاو 122
ت- أبناء الكنز في منطقة أسوان 125
- العلاقات مع مملكة علوة 130
الملاحق 134
ملحق رقم 1: زيارة أمير مملكة مقُرّة لبغداد 134
ملحق رقم 2: قوائم ملوك الممالك السودانيّة 136
أ- قائمة مسعد بأسماء ملوك مملكة مقُرّة 136
ب- قائمة مونرو بأسماء ملوك مملكة مريس (نوباديا) 139
ت- قائمة مونرو بأسماء ملوك مملكة مقُرّة 139
ث- قائمة بأسماء ملوك مملكة دوتا 141

الفصل الرابع: روايات الاتفاقيات بين المسلمين ومملكتي مريس (نوباديا) ومقرة 143
مدخل 145
- ما هو اسم اتفاق عبد الله بن سعد مع النوبة عام 31هـ 146
- بنود الاتفاقيات المبكرة حتى القرن الثالث الهجري 155
- روايات القسم الأول من الاتفاقيات 156
- روايات القسم الثاني من الاتفاقيات 162
▪ المحور الأول: البنود التي نظمت العلاقات بين الجانبين 162
▪ المحور الثاني: ما ورد عن تفاصيل ما التزم المسلمون بدفعه 165
▪ المحور الثالث: ما ورد عن تفاصيل ما التزم النوبة بدفعه 166
الملاحق 168
ملحق رقم 1: نصوص الاتفاقيات بين المسلمين ومملكتي نوباديا ومقرة من عام 31 - 656هـ 168

الفصل الخامس المراجعات والتعديلات التي طرأت على الاتفاقيات 183
- الاتفاق الأول بين مملكة مريس والمسلمين عام 31 هـ 185
- التعديل أو الاتفاق الثاني بين مملكة مريس (نوباديا) والمسلمين قبل عام 65 هـ 186
- التعديل أو الاتفاق الثالث في عهد الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك 190
- التعديل أو الاتفاق الرابع في عهد كرياكوس مُلك مقُرّة 192
- البنود التي وردت في خطاب والي مصر إلى ملك مقُرّة عام 141هـ/ 758م 194
- التعديل أو الاتفاق الخامس في عهد الخليفة العباسي المهديّ 196
- التعديل أو الاتفاق السادس قبل عام 211 هـ 198
- التعديل أو الاتفاق السابع في عهد الخليفة العباسي المعتصم 201

- الاتفاقيات بين عامي 324 هـ و650 م (935 – 1252 م) 206
- الاتفاقيات في عصر المماليك 209
- ملاحظات على نص المقريزيّ المشهور عن البقط 212
الملاحق **226**
ملحق رقم 1: نماذج من نصوص معاهدات المسلمين 226
نص البقط عند المقريزيّ 229

الفصل السادس: علاقات ممالك البجة بالمسلمين في مصر **233**
- هل شارك البجة في حروب المسلمين والبيزنطيين في مصر 235
- الحروب المبكرة بين البجة والمسلمين 237
اتفاقية ابن الحبحاب 238
حروب حكم النابغي 240
حروب ابن الجهم 241
- دخول القبائل العربية أرض المعدن ببلاد البجة 252
- تكامل القبائل العربية بأرض المعدن 252
العمري في بلاد البجة 255
حروب القمي 256
ربيعة والحدارِبة والعمري 260
الملاحق **265**
ملحق رقم1: بعض أحداث العلاقات بين السودانيين والمسلمين في مصر بين القرنين 7-14م 265

قائمة المصادر والمراجع **269**

قائمة الجداول

جدول رقم 1: العلاقات بين مملكة مريس (نوباديا) والمسلمين حتى بداية القرن 8م 37
جدول رقم 2: العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين خلال القرنين 8 و9م 64
جدول رقم 3: العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين بين القرنين 9 و12م 92
جدول رقم 4: العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين في عصر المماليك حتى نهاية القرن 14م 128
جدول رقم 5: الأسماء التي أطلقتها المصادر العربية على اتفاق عبد الله بن سعد عام 31 هـ/651م 148
جدول رقم 6: مقارنة بين الأسماء التي أطلقت على صلح عبد الله بن سعد (البقط). 160
جدول رقم 7: روايات السبي مقابل الطعام في صلح عبد الله بن سعد (البقط) 153
جدول رقم 8: الحروب بين مملكتي مريس (نوباديا) ومقرة وبين المسلمين حتى عام 1365م 186
جدول رقم 9: الاتفاقيات التي أبرمت بين مملكتي مريس ومقرة والمسلمين بين القرنين 7 13م 210
جدول رقم 10: ما تضمنته نصوص الاتفاقيات حتى 1316 م 223

مقدمة الطبعة الأولى

يتناول هذا الجزء تاريخ الممالك السودانيّة، في الفترة الواقعة بين القرنين: السابع، والخامس عشر، الميلاديين (1 – 9 هـ) وهي الفترة التي بدأت بدخول المسلمين مصر، حتى بداية انتشار الاسلام في السودان، الذي انتهى بقيام ممالك السودان الإسلاميّة في: وسط السودان، وغربه، وشماله.

وقد تناول الجزء الأول من هذه الدراسة سكان السودان قبل القرن السابع الميلاديّ، وتناول الجزء الثاني بلاد وسكان السودان بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديّينَ. ولكن اقتصرت مادة الجزء الثاني في وصف البلاد والسكان في السودان، بينما تناولت مادة هذا الجزء علاقات الممالك السودانية بالمسلمين في مصر منذ دخول الإسلام مصر وإلى فترة انتشاره في السودان.

يمثل القرن الخامس عشر فترة زمنية هامة في تاريخ السودان، يمكن اعتبارها بداية تاريخ السودان الحديث. لأن الأساس في تقسيم الحقب التاريخيّة يبنى على التحولات التي تحدث في المجتمع، وتظل نتائج أحداثها متصلة ومؤثرة على الأوضاع المعاصرة لتلك المجتمعات. ومتى توقف اتصال تلك النتائج يمكن أن يدخل المجتمع في حقبة تاريخيّة جديدة، أما إذا ظلت نتائج الأحداث متصلة فيعني ذلك تواصل الحقبة التاريخيّة.

ففي القرن الخامس عشر نضجت التحولات التي بدأت في المجتمع السوداني في حدوده الحاليّة بعد انفصال الجنوب، تلك الأحداث التي بدأت باعتلاء أول ملك مسلم عرش مملكة مقُرّة في بداية القرن الثالث عشر الميلادي (7 هـ)، ورغم أن ذلك

التاريخ لم يشهد البداية الحقيقيّة لقيام الممالك الإسلاميّة في السودان، إلا أنه شهد بداية تدهور المسيحيّة وانتشار الإسلام في السودان.

ونتج عن ذلك التحول بداية انتشار العقيدة والثقافة الجديدتين، وضعف اللغات القديمة، وسيادة اللغة العربيّة باعتبارها لغة الدين الجديد، فأدى كل ذلك إلى جانب التحركات السكانيّة التي صاحبت ذلك التحول خلال قرنين من الزمان إلى بداية قيام الممالك الإسلامية في السودان في بداية القرن الخامس عشر الميلادي (9 هـ).

ومنذ قيام سلطنات: الفونج، والفور، والمسبعات، وتقلي، بدأ تكوين المجتمع السوداني في حدوده الحاليّة. ورغم عدم وجود الوحدة السياسية بين تلك الممالك، إلا أنّ مقومات الوحدة كانت متوافرة بينها، في حدودها السياسيّة، بين: البحر الأحمر شرقًا، ودارفور غربًا، وبين منطقة أسوان شمالًا، والنيل الأبيض جنوبًا. وقد ناقشنا في الفصل الأول من الجزء الثاني من هذا الكتاب كيف كانت الوحدة قائمة بين تلك الممالك، رغم غياب الوحدة السياسيّة.

وفي واقع الأمر فإن الصِّلة بين سكان كل المنطقة الواقعة بين: الأقصر في مصر شمالًا، والنيل الأبيض جنوبًا، وبين البحر الأحمر شرقًا، ودارفور غربًا، كانت قويّة ومتصلة، من حيث: السلالة، والعقيدة، واللغة، منذ فترات ما قبل حضارة كوش المبكرة في السودان، وعصر ما قبل الأسرات في مصر، أي منذ نحو أكثر من ستة آلاف سنة.

وقد استمرت تلك العلاقات القوية بين سكان هذه المناطق، ولكن بعد قيام عصر الاسرات في مصر، انسلخت المنطقة الواقعة بين أسوان والأقصر لتكوّن مع المناطق الشماليّة الحضارة المصريّة، بينما استمرت صلة المنطقة من أسوان جنوبًا بالمناطق الأخرى، مكونة حضارة السودان، التي بدأت بحضارة كوش الأولى، والتي نعرفها باسم حضارة كرمة. وقد سميت بهذا الاسم لأن أول الكشوفات الأثريّة التابعة لتلك الحضارة تم العثور عليها في منطقة كرمة. ولكن وجدت آثار تلك الحضارة المبكرة في مناطق شرق السودان وغربه، ومنطقة النيل الأبيض، مما يوضح

الانتشار الواسع لتلك الحضارة منذ الألف الثالث قبل الميلاد. فحضارة كوش المبكرة انتشرت في مناطق السودان بحدوده الحالية، وهي بذلك تمثل بداية حضارة السودان القديمة.

وربما كشفت الأبحاث الآثاريّة في المستقبل القريب الحدود السياسيّة لمملكة كوش، التي كانت عاصمتها في منطقة كرمة، وامتدت حدودها: عبر نهر عطبرة والنيل الأزرق شرقًا، وعبر النيل الأبيض وأودية هوار والملك والمقدم جنوبًا وغربًا. ولكن بدأت نتائج الأبحاث الآثاريّة توضح ارتباط مناطق السودان الحاليّة منذ قيام مملكة كوش الثانية في بداية الألف الأخير قبل الميلاد ثقافيًا، ولغويًا، وعقديًا، مما شكل معالم تاريخهم في عصوره المتتالية. فتاريخ دولة كوش السودانية استمر منذ عصر كرمة حتى سقوط مملكة علوة المسيحيّة، كما وضحنا ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ولذلك فقيام الممالك الإسلامية في السودان والذي بدأ في القرن الخامس عشر الميلاديّ يمثل بداية فترة تاريخيّة جديدة ومتميزة، شكلت نتائج أحداثها: العقديّة، واللغويّة، والتحركات السكانيّة المتواصلة، المجتمع السودانيّ الحديث. والمتصفّح السريع لكتاب طبقات ود ضيف الله، يلحظ التواصل بين: حكام، وعلماء، وطلاب العلم، وشعوب الممالك الإسلامية بالسودان: شرقه، وغربه، وشماله، وجنوبه، ووسطه، مما يؤكد الروابط القوية بين سكان كل تلك المناطق.

تلك الروابط التي لم تتحكم فيها الحدود السياسيّة، كما في الدول القوميّة الحالية، التي نشأت بظهور الحركات والقوميّات في أوروبا في القرن التاسع عشر، ثم استعارها منهم المسلمون وغيرهم من الشعوب، بعد تحقيق استقلالها من الاستعمار كما شرحنا ذلك في الفصل الأول، من الجزء الثاني من هذا الكتاب. ونظام الدولة القوميّة هذا يختلف كليًا عن الدول التي كانت قائمة في السودان قبل الغزو.

فالنظام التركيّ المركزيّ الجديد لم يأت بتغييرات جذريّة في تكوين المجتمع السودانيّ: الثقافيّ، أو اللغويّ، أو العقديّ، أو العرقيّ، ليبدأ به السودان مرحلة جديدة

في تاريخه، كما هو سائدٌ الآن، باعتبار العصر التركيّ بداية لتاريخ السودان الحديث. كل ما حدث في العصر التركيّ هو بداية تحول نظام الإدارة في مناطق الممالك القديمة، إلى نظام إداريّ جديد، يخضع لإدارة مركزيّة واحدة في تركيا أو في القاهرة. ولم يغيرْ هذا الأسلوب من الإدارة – الدولة ذات الحدود السياسيّة الواحدة – الارتباط والانتماء السابق لسكان الممالك السودانيّة، التي أنهت السلطات التركيّة حكمها في البلاد، وظل ذلك الارتباط كما هو في عصر الدولة المهديّة ثم في عهد الاستقلال، الذي تشكّلت حدوده السياسيّة، كما كان عليه الحال تحت الحكم الثنائيّ.

ولذلك فإنّني أرى أن تاريخ السودان يمكن تسميته «تاريخ الممالك الكوشيّة»، منذ بداية حضارة كوش الأولى في الألف الثالث قبل الميلاد وحتى سقوط دولة علوة في القرن الخامس عشر الميلادي. ثم يأتي بعد ذلك تاريخ السودان الحديث بعد القرن الخامس عشر حيث تنتهي الفترة الزمنيّة التي يعالجها هذا الجزء.

وليس الهدف من هذا الجزء معالجة التاريخ السياسيّ والحضاريّ للسودان حتى القرن الخامس عشر، فقد تعرضنا لذلك بصورة غير مباشرة في الجزء الثاني من هذا الكتاب، والذي تناول بلاد السودان وسكانها. والهدف من هذا الجزء هو معالجة علاقات الممالك السودانيّة بالمسلمين في مصر، لأن أغلب المادة التي وردت في هذا الصدد جاءت في المصادر العربيّة، عند الحديث عن علاقات المسلمين بالمناطق الواقعة إلى الجنوب من حدودهم في مصر. وقد رأيت أن دراسة علاقات الممالك السودانية بالمسلمين في مصر تمكّن من تتبع جزء كبير من تاريخها السياسيّ، وتوضح آثارها وتأثّرها بالمسلمين في مصر، وإلى أيّ مدًى لعبت تلك العلاقات دورًا هامًا في تشكيل المجتمع السوداني المعاصر. ومن البدَهي أنّني أقصد بالممالك السودانيّة: الممالك التي قامت في منطقة البجة، والممالك المسيحية الثلاث، التي امتدت حدودها من أسوان شمالًا، وحتى النيل الأبيض جنوبًا، ومن حدود البجة شرقًا، وحتى منطقة دارفور غربًا.

أما الفترة التالية للقرن الخامس عشر الميلاديّ، والتي شهدت ظهور المسمّيات القبليّة الحاليّة، وتداول شجرات النسب بين تلك القبائل، فستتم معالجتها في

جزء لاحق لهذا الجزء، إن شاء الله. وسيتم دراسة ومقارنة شجرات النسب، دراسة تحليليّة نقديّة، ومقارنة ما تشير إليه من سلالات، مع نتائج ما توصلت إليه أبحاث الجينات الوراثيّة من تصنيفها لسكان السودان القدماء والحاليين، والجينات الوراثية لبعض القبائل الساميّة التي ارتبطت بها أشجار النسب المتداولة في السودان.

وقد جاءت الدراسة في هذا الجزء في ستة فصول، تناول الفصل الأول الحروب التي دارت بين المسلمين في عصر عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد من جهة، ومملكة مريس (نوباديا) التي كانت عاصمتها مدينة فرس، والتي امتدت حدودها من أسوان إلى شمال مدينة دنقلة من جهة أخرى. وتحاول الدراسة تعرّف أماكن تلك المعارك، وإلى أيّ مدًى توغل المسلمون داخل مملكة مريس، وأخيرًا متى تم اتحاد مملكة مريس ومملكة مقُرّة التي كانت عاصمتها مدينة دنقلة.

وتناول الفصل الثاني علاقات مملكة مقُرّة بالمسلمين في مصر، قبل دخولها في عصر الحكم اللامركزيّ للخلافة العباسيّة، وتبين شح المعلومات عن تلك الفترة. واستعرض الفصل بما توافر من معلومات في المصادر العربيّة علاقات مملكة مقُرّة بالدول التي حكمت مصر منذ القرن الثالث الهجريّ (9 م) وحتى عصر المماليك. وتبيّن أن العلاقات سادها التوتر في عصر تلك الدول، وهي: الدولة الطولونيّة، والدولة الإخشيديّة، والدولة الفاطميّة، والدولة الأيوبيّة.

وانفرد الفصل الثالث باستعراض علاقات مملكة مقُرّة بالمماليك، حيث توافرت عنها مادة أغزر بكثير عن الفترة السابقة، وذلك لاهتمام المماليك ببلاد مقُرّة حتى أدخلوها تحت حكمهم. ويحاول الفصل تتبع ما حدث لمملكة مقُرّة بعد خضوعها للمماليك، وهل انتهى حكم الأسرة المقريّة باعتلاء أبناء الكنز عرشها؟ ولم تتوافر معلومات تمكن من دراسة علاقة مملكة علوة بالمماليك في فصل مستقل، فتناولنا في هذا الفصل ما تيسر من ذلك.

وعالج الفصلان الرابع والخامس الاتفاقيات التي تمت بين المسلمين في مصر ومملكتي مريس ومقرة، منذ عصر عمرو بن العاص، لأن معرفتنا بتلك الاتفاقيات

تكاد تكون منحصرة في اتفاق واحد، وهو الاتفاق المشهور باسم البقط. فقد تم تتبع كل الاتفاقيات التي وردت في المصادر العربيّة عن تلك العلاقات خلال القرون السبعة من علاقات ممالك السودان بالمسلمين في مصر، وكيف أنه حدثت بين الطرفين نحوًا من خمس وعشرين معركة حربيّة، وتم تعديل تلك الاتفاقيّات أكثر من عشر مرات، ووثقت المصادر العربية لنحو أربعة وعشرين نصًّا لتلك الاتفاقيات. ومع كل ذلك نحن نجتر نصًّا واحداً أُطلق عليه «معاهدة البقط».

ويعالج الفصل الأخير علاقات المسلمين في مصر ببلاد البجة وممالكها، حيث تطورت العلاقات من عدائيّة في القرنين الأولين للهجرة، إلى علاقات وديّة وحسن جوار، بعد اشتغال المسلمين بالتعدين في مناطق الصحراء الشرقيّة لبلاد البجة، وكيف أسهم البجة في نشاط التعدين، والحركة التجاريّة في المنطقة. وقد رأيت أن أضع الملاحق في نهاية كل فصل تسهيلًا للرجوع إليها، وذلك خلافًا لما جرت عليه العادة بوضع كل الملاحق في نهاية الكتاب.

وأخيرًا، آمل أن يُكمّل هذا الجزء، ما بدأناه في الجزأين الأول والثاني، من إلقاء الضوء على المجتمع السوداني قبل القرن الخامس عشر، حتى نتمكن من بناء جسر بين السودان وسكانه وتاريخه، في الفترة السابقة للقرن الخامس عشر والفترة التالية لها. فقد شهدت الفترة السابقة للقرن الخامس عشر قيام العديد من الممالك والمدن، وتنوعت الثقافات واللغات والمعتقدات، وكل ذلك يحتاج إلى تضافر المؤسسات الأكاديميّة والثقافيّة وجهود الباحثين في مختلف التخصصات، لنفض الغبار عنه، وتقديمه إلى هذا الجيل.

فإن الغالبية العظمى من أجيالنا المعاصرة، تجهل تراثها، وتعاني من انفصالها وفقدان الصلة به، وذاكرتنا التاريخيّة المرتبطة بالحاضر تعود إلى قرون لا تكاد تتعدى أصابع اليد الواحدة، من نحو ستين قرنًا من تاريخنا. ولكي نبني أمة متماسكة علينا أن نتعارف، أي يعرف بعضنا بعضًا. فنحن نعيش أغرابًا على تراب أرضنا، وينبغي علينا تعرف تراثنا والارتباط به، لنتعايش ويَقْبل بعضنا بعضًا، ونشرع جميعًا في البناء.

وأخيرًا أود أن أتقدم بأجزل الشكر لإدارة بنك التنمية التعاوني الإسلاميّ، ورئيس مجلس الإدارة المهندس الحاج عطا المنان، بتشجيعهم وتفضلهم بطباعة هذا الكتاب فجزاهم الله خيراً.

أحمد الياس حسين

الخرطوم أركويت سبتمبر 2012 م

مقدمة الطبعة الثانية

يتناول هذا الجزء مرحلة مهمة من تاريخ السودان، وهي مرحلة بداية التحول الذي شكل المجتمع السودانيّ في صورته الحديثة. وتعالج فصول هذا الجزء تاريخ العلاقات بين السودان والمسلمين في مصر، بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديّين. وقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الجزء، وهذه الطبعة الثانية لا تختلف عن الطبعة الأولى، عدا إضافة بعض الملاحق، مثل قوائم ملوك ممالك مريس (نوباديا)، ومقرة، ودوتاو، ومراجعة قائمة ملوك مملكة مقُرّة، وإضافة جدول لبعض أحداث العلاقات بين السودان ومصر بين القرنين 7 – 13 م. وكما جاء في الطبعة الأولى، فقد ذيلت الفصول الثالث والرابع والخامس بملاحق، خلافًا لما جرت عليه العادة من وضع الملاحق في نهاية الكتاب. فقد رأيت أن وضع الملحق إلى جوار الفصل الذي ينتمي إليه أيسر للرجوع إليه. وقد أضفت ملحقًا واحدًا في نهاية الكتاب، لأنه شامل لأحداث العلاقات في كل الفصول بعنوان «**أحداث العلاقات بين السودان والمسلمين بين القرنين 7-14م**».

يعالج هذا الجزء ويراجع فترة سبعة قرون من أحداث العلاقات المتواصلة بين السودان، والمسلمين في مصر، من القرن السابع حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلاديّ. وتأتي أهمّيّة هذه المراجعة لأننا كثيرًا ما نختزل أحداث العلاقات والصراع بين السودانيين والمسلمين في تلك الفترة في:

1. معركة عبد الله بن سعد عام 31 ه/641 م
2. توجه كل اهتمامنا، بل قد تنحصر معرفتنا على اتفاق واحد بين الممالك

السودانيّة والمسلمين في مصر، هو الاتفاق المشهور باسم «معاهدة البقط».

3. الانتقال من معاهدة البقط إلى دخول العرب في السودان، استنادًا على ما تواتر في الروايات الشفهيّة، دون توثيقها بمصدر يسندها.
4. وتنهي هذه الفترة بسقوط مملكة علوة وقيام الممالك الإسلامية.

هذا الاختزال للسبعة قرون يغيِّب ويتجاهل الكثير من أحداث العلاقات بين السودان والمسلمين في مصر في تلك القرون. فقد تتبعت أكثر اثنين وأربعين حدثاً (ملحق رقم 1 أخر الكتاب) متنوعاً لتلك العلاقات. ومن بين تلك الأحداث وقوع ثمانية وعشرون معركة بين ممالك السودان والمسلمين في مصر كانت آخرها قبل قيام مملكة سنار بنحو 139 سنة، ومراجعة وتوقيع عشرة اتفاقيات بين ممالك السودان والمسلمين في مصر كما يتضح فيما يلي في الفصل الخامس في الجدول رقم 9.

كما أدى اختزال أحداث تلك القرون السبعة إلى عدم اهتمامنا بتاريخ مملكتي مقُرّة وعلوة في أيامهما الأخيرة، بحيث لا ندري حتى الآن - على وجه الدقّة - متى سقطت المملكتان. كما تخلو كل كتب التاريخ في كل مراحل التعليم عن ممالك: شرق وغرب السودان، وأعالي النيل الأزرق، قبل القرن السادس عشر الميلادي.

تبدو العلاقات بين ممالك السودان والمسلمين في مصر في هذا الجزء واضحة من خلال الجداول داخل الكتاب. فعلى سبيل المثال بخصوص الاتفاق الوحيد المشهور «معاهدة البقط» تناولت ثلاثة عشر مصدرًا إلى ذلك الاتفاق باسم «الصلح»، وتناولته تسعة مصادر باسم «الهدنة»، وتناولته خمسة مصادر فقط باسم «البقط».

وفي الوقت الذي تتناول فيه كل مراجعنا نصًا واحدًا مطوّلًا لهذا الاتفاق «البقط»، تكررت نحو ثلاثين مرة نصوص صغيرة ومختصرة لهذا الاتفاق، تضمنت الرقيق مقابل الطعام وأشياء أخرى. ووضحت بعض تلك النصوص بالتفصيل ما التزم المسلمون بدفعه مقابل الرقيق، ولا يرد هذا في نص البقط المعروف لدينا. ولذلك ينبغي علينا مراجعة كل علاقات الممالك السودانيّة بالمسلمين في مصر، بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديّين، مراجعة دقيقة ومتأنية، مستندة على المصادر الأوليّة.

وكنت قد اقترحت في مقدمة الطبعة الأولى بجعل القرن الخامس بداية لتاريخ السودان الجديث، بدلًا عن القرن التاسع عشر، وقد تناولت هذا الموضوع كثيرًا، وأرجو أن ينال المقترح حظه من النقاش. كما أشرت في مقدمة الطبعة الأولى إلى تناول شجرات نسب القبائل السودانيّة في دراسة تحليليّة نقديّة، ومقارنة ما تشير إليه من سلالات، مع نتائج ما توصلت إليه أبحاث الجينات الوراثيّة، من تصنيفها لسكان السودان القدماء والحاليّين، والجينات الوراثية لبعض القبائل السامية التي ارتبطت بها أشجار النسب المتداولة في السودان. وسيتم تناول ذلك في الأجزاء التالية من كتاب «مراجعات في تاريخ السودان» إن شاء الله.

أحمد الياس حسين

الخرطوم، أركويت أغسطس 2020

الفصل الأول

الحروب بين المسلمين ومملكة مريس (نوباديا)

- الحروب في ولاية عمرو بن العاص
- الحروب في ولاية عبد الله بن سعد
- العلاقات حتى بداية القرن الثاني الهجريّ (8 م)

مدخل

أودّ في بداية هذا الفصل الرجوع إلى ما تم شرحه في الفصل الرابع، من الجزء الثاني من هذا الكتاب، عن اختلاف مدلول كلمة نوبة أو نوبا، في التراث الرومانيّ، عنها في التراث العربيّ. فالمصادر الرومانيّة استخدمت منذ القرن الثالث قبل الميلاد كلمة نوباديا – التي هي نوبة في المصادر العربيّة – للدلالة على سكان المنطقة الواقعة بين: الواحة الخارجة في مصر شمالًا، وأواسط مناطق كردفان ودارفور الحاليتين جنوبًا. وقد أُطلِق اللفظ أخيرًا في المصادر الرومانية في القرن الثالث الميلاديّ على الجماعات المهاجرة من الصحراء الواقعة غربيّ النيل، والتي استقرت في جنوب حدود الدولة المصريّة الحاليّة، وأسست المملكة التي عرفت في المصادر الرومانيّة باسم مملكة نوباديا، واتخذت من فرس، شمال وادي حلفا، عاصمة لها.

عندما دخل المسلمون مصر أطلقت المصادر العربية المبكرة على مملكة نوباديا الاسم المحليّ للمنطقة، وهو «مريس»، فعرفت باسم مملكة مريس، ولم يغيّر العرب اسم السكان «النوباديين»، بل عدلوا في نطقه فأصبح «النوبة». ومريس كما حددتها المصادر العربيّة، تمتد من منطقة أسوان شمالًا، وحتى الشلال الثالث شمال دنقلة جنوبًا. واسم النوبة في المصادر العربيّة له دلالتان، أوْلاهما أطلق على سكان مملكة مريس، والثانية أطلق بصورة عامة على سكان مملكتي مقُرّة وعلوة.

فمع مَن مِن النوبة كانت حروب المسلمين بين عامي 21 – 31 هـ؟ ناقشنا ذلك أيضًا بنوع من التفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب، وخلُصنا بعد إيراد عدد من الأدلة وآراء بعض الباحثين أن الحروب كانت مع مملكة مريس [مملكة نوباديا]، ونكتفي هنا بما ذكره المسعوديّ عن تلك الحروب، حيث قال:

«وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم، حتى صُرف عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبي معلومة، مما يسبي هذا الملك المجاور للمسلمين، المدعو بملك مريس من أرض النوبة، وغيرها من ممالك النوبة المتقدم ذكرها، فيما سلف من صدر هذا الباب»[1] وواضح في هذا النص أن الحرب كانت مع ملكة مريس المجاورة لحدود المسلمين جنوبي أسوان.

ولم تتناول المصادر العربيّة العلاقات المبكرة بين المسلمين والنوبة، والتي اتخذت - كما رصدتها المصادر – طابعًا حربيًّا في الفترة بين عامي 21 – 31 هـ بدرجة من التفصيل، تُمكّن من تعرفها بصورة واضحة. وما ورد عن تلك الحروب يمكن تناوله في مرحلتين: المرحلة الأولى في عصر ولاية عمرو بن العاص على مصر، والمرحلة الثانية في عصر ولاية عبد الله بن سعد على مصر.

1 المسعوديّ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1958 ج 2 ص 21.

الحروب في مرحلة ولاية عمرو بن العاص

تناوَلَ أحداثَ هذه المرحلة بشيء من التفصيل – بالمقارنة إلى المرحلة التالية – كلٌّ من ابن عبد الحكم والبلاذُريّ، وكلاهما من كُتّاب الفتوح. روى ابن عبد الحكم الذي كان مقيمًا بمصر (ت 257 هـ/ 871 م) عن سعيد بن غفير (ت 226 هـ/840 م) وروى البلاذريُّ (ت 279 هـ/892 م) عن يزيد بن حبيب النوبيّ، الذي كان والده من سبي النوبة (ت 128 هـ/ 745 م) والذي تعد رواياته من أقدم وأوثق ما ورد عن علاقات النوبة المبكرة بالمسلمين. وقد اتفق المؤلفان فيما روياه عن حروب النوبة والمسلمين في عصر ولاية عمرو بن العاص على مصر. ثم نقل عنهما من أتى من المؤلفين من بعد، أمثال: الطبريّ، والمسعوديّ، وغيرهما.

وسأورد هنا رواية البلاذري لأنها أكثر تفصيلاً، قال البلاذري:

«حدثني محمد بن سعد قال: حدثني محمد بن عمر الواقديّ، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير قال: لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاص إلى القرى التي حولها الخيل ليطاهم. فبعث عقبة بن نافع الفهريّ، وكان نافع أخا العاص لأمه، فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقى المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا. لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم. فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة، فسموا رماة الحدق. فلم يزالوا على ذلك حتى ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح.»[1]

ويقول البلاذري في نفس المكان:

« حدثني محمد بن سعد قال: حدثني الواقدي قال: حدثنا إبراهيم بن جعفر، عن

---

1 البلاذري، **فتوح البلدان**. بيروت: دار الكتب العلمية 1983 ص 238. وانظر ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، تحقيق محمد الحجيري. بيروت: دار الفكر 1996 ص 122.

عمر بن الحارث، عن أبي قبيل حيي بن هاني المعافرى، عن شيخ من حمير، قال: شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب، فلم أر قومًا أحدّ في حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحبُّ أن أضع سهمي منك؟ فربما عبث الفتى منا فقال: في مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبل، فما يكاد يرى من نبلهم في الأرض شيء. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم. رمونا حتى ذهبت الأعين، فعُدت مئة وخمسون عينًا مفقوءة. فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح، إن سلبهم لقليل وإن نكايتهم لشديدة. فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل يكالبهم حتى نُزع وولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح».

وضحت هذه النصوص الآتي:

1. أن قائد الحملة الأولى التي أرسلها عمرو بن العاص إلى بلاد النوبة هو عقبة بن نافع الفهري[1]، كما ورد عند البلاذريّ، وتردد في المصادر الأخرى، ويبدو أن عقبة غادر مصر بعد الحملة الأولى على النوبة، لأنه اشترك مع عمرو بن العاص في فتح برقة، وظل موجودًا هناك حتى قيام الدولة الأمويّة. كما اتضح أيضًا أن قائد الحملة ليس عبد الله بن سعد بن أبي سرح كما ذكر المقريزيّ بدون إسناد، حيث قال: «وأوّل ما تقرّر هذا البقط على النوبة في إمارة عمرو ابن العاص، لما بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين، وقيل: سنة إحدى وعشرين، في عشرين ألفًا، فمكث بها زمانًا، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه.»[2]

2. دار القتال مدة خمس سنوات في عصر عمرو بن العاص، لأن عبد الله بن

---

1 ورد عند ابن عبد الحكم اسم قائد الحملة نافع الفهري. ابن عبد الحكم، **فتوح مصر** ص 122. ويبدو أنه حدث خطأ في نقل الاسم، إذ اتفقت المصادر أن الحملة كانت بقيادة عقبة وليس والده. وقد ظل نشاط عقبة في شمال إفريقية حتى قتل فيها عام 64 أو 65 هـ ولم يرد ذكر لوالده في أحداث فتوح مصر أو باقي مناطق شمال افريقيّة.

2 المقريزيّ، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، في كتاب مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة: **مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى**. الخرطوم: جامعة القاهرة بالخرطوم 1972 ص 301. فيما يلي نشير إليه بـ: مسعد، المكتبة العربيّة.

سعد تولى كما ذكر البلاذُريُّ ولاية مصر عام 25 هـ[1] ولا نعلم شيئًا عن تفاصيل نشاط المسلمين الحربيّ في هذه الفترة، ما عدا ما ذكر عن طبيعة الصراع الذي شبهته المصادر بصوائف الروم. ويعود هذا الوصف إلى الحروب التي كانت تدور مرّتين في السنة، مرّة في الصيف وأخرى في الشتاء، بين المسلمين والإمبراطوريّة البيزنطيّة، التي عرفها المسلمون بدولة الروم. وكانت تلك الحروب تقع على الحدود بينهما، والتي تقع الآن في منطقة الشرقيّة من أراضي تركيا، وقد عرفت تلك الحروب في المصادر العربيّة باسم «الصوائف والشواتي».

3. واجه المسلمون مقاومة عنيفة من النوبة كما يتضح من نص البلاذُريّ، مثل «فلقي المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا» في النص الأول، و«فما قدرنا على معالجتهم» في النص الثاني. وقد ذكر ابن عبد الحكم أن عبد الله بن سعد «هادنهم لأنه لم يطقهم». يدل كُلّ ذلك على عنف مقاومة النوبة وصلابتهم أمام غارات المسلمين، حتى أطلقوا عليهم «رماة الحدق»، ويتعارض ذلك مع ما أورده المقريزيّ من أن ملك النوبة أظهر ضعفًا ومسكنةً وتواضعًا لعبد الله بن سعد، كما سنشير إليه.

4. واضح من نصوص البلاذريّ وابن عبد الحكم، وغيرهم ممن تناولوا أحداث هذه الفترة، مثل المسعوديّ والطبريّ[2]، أن المسلمين لم يعقدوا صلحًا أو اتفاقًا مع النوبة في ولاية عمرو بن العاص، بل كانت الحروب تدور سنويًّا حتى ولي عبد الله بن سعد. بخلاف ما ذكر المقريزيّ، أنه: «لما مات عمرو رضي الله عنه، نقض النوبة الصلح الذي جرى بينهم وبين عبد الله بن سعد، وكثرت سراياهم إلى الصعيد، فأخربوا، وأفسدوا، فغزاهم مرّة ثانية عبد الله ابن سعد بن أبي سرح، وهو على إمارة مصر في خلافة عثمان رضي الله عنه، سنة إحدى وثلاثين».

---

1 البلاذريّ، **فتوح البلدان**، ص224.

2 المسعوديّ، **مروج الذهب**، ج 2ص 21 والطبريّ، **تاريخ الرسل والملوك**، في مسعد، **المكتبة العربية** ص 36

متى عقد عبد الله بن سعد صلحه الأول؟

لعل فيما أورده ابن عبد الحكم عن ولاية عبد الله بن سعد لصعيد مصر، ما يلقي بعض الضوء على ما ذكره المقريزيّ في الفقرة رقم 4 أعلاه «أن عبد الله بن سعد وقّع مع النوبة صلحًا قبل صلح عام 31 هـ» فقد ذكر ابن عبد الحكم أن الخليفة عمر بن الخطاب عيّن عبد الله بن سعد بن أبي سرح واليًا على صعيد مصر، كما ذكر أيضًا أنه «توفي عمر رحمة الله عليه ومصر على أميرين: عمرو بن العاص بأسفل الأرض، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على الصعيد»[1] وأسفل الأرض هنا يقصد بها الوجه البحريّ من مصر، أو منطقة الدلتا.

ويبدو أن تعيين عبد الله بن سعد على الصعيد قد تم بعد غزوة عقبة بن نافع للنوبة، لأن عقبة غادر مصر مع عمرو بن العاص لغزو برقة عام 22 هـ وربما صاحب ذلك تعيين عبد الله بن سعد على الصعيد، فيكون ذلك في السنة الثانية لولاية عمرو ابن العاص على مصر، واستمر عبد الله واليًا على الصعيد حتى وفاة الخليفة عمر وتولية الخليفة عثمان، الذي عزل عمرو بن العاص من ولاية مصر وعين عليها عبد الله بن سعد عام 25 هـ.

فغارات المسلمين (الصوائف) على مملكة مريس، كانت تحت إشراف أو قيادة عبد الله بن سعد، ما عدا أولى الحملات التي كانت بقيادة عقبة بن نافع. فربما يكون عبد الله قد وقع اتفاقًا مع مملكة مريس أثناء ولايته على الصعيد، ونقضه النوبة عندما عُين عبد الله واليًا على كل مصر. غير أن ما ذكره المقريزيّ في الفقرة رقم 1 أعلاه من أن عمرو بن العاص أرسل عبد الله بن سعد لغزو النوبة يصعب قبوله. وأغلب الظن أن من نقَل عنهم المقريزيّ قد اختلط عليهم الأمر بين حروب عبد الله بن سعد في فترة ولايته للصعيد، وبين فترة ولايته لمصر كلّها.

1 ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص 123 -124.

الحروب في مرحلة ولاية عبد الله بن سعد

تشمل هذه المرحلة فترة ست السنوات الواقعة بين عام 25 هـ بداية ولاية عبد الله بن سعد على مصر حتى عام 31 هـ/ 651 م وهو عام حملته المشهورة على النوبة. ولم تمدنا المصادر العربية بمعلومات عن العلاقات بين مملكة مريس والمسلمين في هذه الفترة، ماعدا ما ورد عن حملة 31هـ وحتى المعلومات التي وردت عن هذه الحملة في المصادر العربيّة – باستثناء ما ورد عند المسعوديّ والمقريزيّ – عبارة عن إشارات في غاية الاختصار والاختلاف.

فقد أهملت تلك المصادر إيراد معلومات عن النوبة في هذه المعركة، ولم توضّح مكانها، ولم تذكر بنود الاتفاق الذي تم بين الطرفين بصورة واضحة. ولم تتفق حول ما ذكرته من بنود نسبت إلى عبد الله بن سعد،فجاء بعضها مختصرًا جدًّا، وبعضها الآخر مطولًا، اختلفت بنوده من مصدر لآخر. وسنتناول هنا ما ورد عند كلٍّ من المسعوديّ والمقريزيّ حول مكان المعركة، ونرجئ الحديث عما ورد عن الاسم الذي أطلق على الاتفاق والذي اشتهر فيما بعد باسم «البقط» وبنوده، إلى الفصل الثاني من هذا الكتاب، الذي نخصصه للاتفاقيات التي أجريت بين مملكتي مريس ونوباديا وبين المسلمين.

أين خاض عبد الله بن سعد معركته مع النوبة عام 31 هـ؟

أشرنا في بداية هذا الفصل إلى ما توصلنا إليه سابقًا، من أن معارك المسلمين المبكرة كانت مع مملكة مريس، وعاصمتها فرس، والتي تقع شمال مملكة مقُرّة التي عاصمتها دنقلة. وقد امتدت حدود مملكة مريس شمالًا حتى منطقة أسوان. فأين دارت معركة عبد الله بن سعد عام 31 هـ؟

يبدو واضحًا من النصوص أن المعارك في عصر ولاية عمرو بن العاص على الصعيد، كانت غارات، لم يتمكن المسلمون خلالها من احتلال مواقع داخل مملكة مريس. وليس لدينا معلومات عن نشاط عبد الله بن سعد بعد أن تولى حكم مصر، ما عدا المعركة التي حدثت في السنة السادسة من ولايته عام 31 هـ ولكن يتضح مما ذكره ابن حوقل أن منطقة أسوان كانت حتى عام 31هـ غير خاضعة للمسلمين. فقد ذكر:

«وكانت البجة أمّة تعبد الأصنام وما استحسنوه، إلى سنة إحدى وثلاثين، فإن عبد الله بن أبي سرح لما فتح مدينة أسوان، وكانت مدينة أزليّة قديمة، وكان عبر إليها من الحجاز، قهر جميع من كان بالصعيد وبها من فراعنة البجة وغيرهم... وحدثني أبو منيع أحمد الجعدي الأسوانيّ: أن أسوان افتتحها عبد الله بن أبي سرح سنة إحدى وثلاثين، وافتتح هيف وهي المدينة التي تجاه أسوان من غربي النيل، وقد تدعى قرية الشقاق، وافتتح أبلاق وهي مدينة في وسط النيل على حجر ثابتة وسط الماء منيعة الجزيرة وبينها وبين أسوان ستة أميال، وبحذائها على النيل من جهة الشرق مسجد الرّوينّي وقصر آليه، وتحت المسجد بيعة النوبة، وهو آخر حد الإسلام وأول حد النوبة.»[1]

يوضح هذا النص بصورة جلية الأماكن التي خاض فيها عبد الله بن سعد حروبه عام 31 هـ فقد أخضع أسوان، ثم فتح مدينة هيف، وتوسع بعد ذلك جنوبي أسوان، ففتح مدينة أبلاق، وهي جزيرة تقع على بعد ستة أميال جنوب أسوان. ولا ندري كيف كان الوضع في أسوان بعد احتلال المسلمين مصر، هل كانت مستقلة تحت حكم أمراء محليّين؟ أم كانت خاضعة للبليميّين (البجة) الذين كانوا يحكمون بعض المناطق شمالي أسوان؟ أم كانت خاضعة لمملكة مريس؟

ومما يرجح أنها كانت خاضعة لمملكة مريس ما ذكره المقريزيّ، أنه «لما مات عمرو رضي الله عنه، نقض النوبة الصلح الذي جرى بينهم وبين عبد الله بن سعد، وكثرت سراياهم إلى الصعيد، فأخربوا، وأفسدوا، فغزاهم مرّة ثانية عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو على إمارة مصر في خلافة عثمان رضي الله عنه، سنة إحدى وثلاثين»[2].

1 ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة 1979 ص 55.

2 المقريزيّ، **المواعظ والاعتبار**، في مسعد، المكتبة السودانية ص 301.

فالنوبة بناءً على هذا النص كانوا يغيرون على صعيد مصر قبل عام 31 هـ، وإغارتهم على صعيد مصر تتطلب سيطرتهم على أسوان. وعلى كل حال فإنّ عبد الله بن سعد قد استولى عام 31 هـ على أسوان، وتقدم جنوبًا وبسط سيطرته حتى مدينة بلاق. وتبدو مدينة بلاق مدينة كبيرة، قال عنها المسعوديّ: وفي مدينة بلاق خلق كثير من الناس ومنبر[1]، ونخل كثير في كلا الشطين»[2]، ووضّح اليعقوبيّ أنّها كانت محصّنة «عليها سور حجارة»[3].

لم يذكر ابن حوقل تقدُّم عبد الله بن سعد إلى الجنوب من مدينة بلاق في مملكة مريس، التي تمتد حدودها جنوبًا كما وضح ابن سليم حتى قرية يستو في منطقة الشلال الثالث شمال مدينة دنقلة الحاليّة. وقد ذكر ابن سليم أسماء بعض المدن في مملكة مريس، إلى الجنوب من بلاق، حتى آخر حدود المملكة، وقد فصلنا الحديث عنها في الجزء الثاني من هذا الكتاب، ونوجز هنا عنها ما يلي، قال ابن سُلَيم:

«وهذه الناحية بجراش مدينة المريس، وقلعة أبريم، وقلعة أخرى دونها، وبها ميناء تعرف بأدواء... وأوّل الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى، هي ساحل، وإليها تنتهي مراكب النوبة المصعدة من القصر... ومنها إلى المقس الأعلى، ست مراحل... وهي من أرض مريس... والمسلحة بالمقس الأعلى... ومن هذه المسلحة إلى قرية تعرف: بساي، جنادل أيضًا... ثم ناحية سقلوذا وتفسيرها السبعة ولاة... وواليها من قبل كبيرهم، وتحت يده ولاة يتصرّفون، وفيها قلعة تعرف: باصطنون، وهي أوّل الجنادل الثلاثة... قرية تعرف: بيستو، وهي آخر قرى مريس، وأوّل بلد مقُرّة»[4].

تناول ابن سليم في هذا النص تسع مدن ومنطقة إدارية واحدة، ويمكن تناولها

---

1 لعل منبر هنا قصد بها أن مسجدهم كبير وهو كناية عن كثرة السكان.

2 المسعوديّ، مروج الذهب. ج 2 ص 22.

3 اليعقوبيّ، كتاب البلدان، www.warraq.com ج 1 ص 40. تم رجوعي إلى هذا الموقع عام 2005 وقد استفدت كثراً من المادة التي جمعتها في ذلك الوقت في هذا الكتاب. وكل الإحالات إلى هذا الموقع ترجع إلى ما أخذته من عام 2005، وسأشير إليه فيما بعد بـ «موقع الوراق».

4 ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، المكتبة السودانية ص 92–96. وقد وردت المزيد من التفاصيل عن هذه المواضع في الفصل الثالث من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

حسب موقعها الجغرافي من الشمال إلى الجنوب كالآتي: مدينة إبريم، وألدو، وبجراش، وتقوى، والمُقُس الأعلى، وصاي، ومنطقة سقلوذا، وقلعة باصطنون ويستو. هذا إلى جانب مدينة القصر التي تجاور مدينة بلاق. وقد تحدثنا عن هذه المدن في الجزء الثاني من هذا الكتاب وسنوجز فيما يلي التعريف بكل منها.

ذكر ابن سليم أنّ «أول بلد النوبة قرية تعرف بالقصر... بينها وبين بلاق ميل»[1] ووضعها المسعوديّ على بعد ستة أميال جنوب مدينة أسوان، وذكر أنّها المكان الذي يستلم فيه المسلمون البقط المقرر على النوبة.[2] وقصر أبريم يعتبر من المدن المهمة شمال الشلال الثاني، فقد أسس فيه الرومان قلعة لحماية حدودهم الجنوبيّة في مصر. وحافظ على دوره في المنطقة، فقد تناول عدد من المصادر العربيّة منذ القرن الرابع الهجري (10م) أخبار قصر أبريم، لأنه كان يمثل خط الدفاع الأول أمام قوات المسلمين التي حاولت غزو مملكة مقُرّة.

وألدو من المواضع التي ترددت كثيرًا في المصادر العربية، وردت اسمها أيضًا بصور مختلفة: ألدو، ودو وأدَوى، وعدا، وضبطها النويري الدَوّ، ووضح أنّه كانت بها قلعة استولت عليها قوات الملك المملوكي الظاهر بيبرس.[3] ويبدو أن الدو كانت خط الدفاع الثاني جنوب قصر إبريم حتى عصر المماليك. وقد لعبت ألدو دورًا بارزًا ومهمًا في تاريخ المنطقة منذ الفترة السابقة للعصر المسيحيّ.

وقد ورد اسم مدينة بجراش بصور مختلفة في المصادر، يرد: بوخراس، وبوفراس، وبوحراس، وباخَرَس. وقد اتفقت كل الآراء أن كل هذه الإشارات ترجع إلى موضع واحد، هو مدينة فرس، الواقعة إلى الشمال قليلًا من وادي حلفا. وكانت مدينة بجراش عاصمةً لمملكة مريس، ومن أهم مدن المنطقة الشماليّة من الشلال الثاني. وأصبحت بعد اتحاد مملكتي مريس ومقرة مقر حاكم المنطقة، الذي عُرِف بصاحب الجبل، الذي يمتد نفوذه حتى الشلال الثاني، كما وضح ابن سليم. ووصف

---

1 نفس المصدر ص 91.

2 المسعودي، **مروج الذهب**، ج 2 ص 22.

3 النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، في مسعد، ص 218

أبو صالح الأرمني مدينة بجراش بأنها «مدينة المريس، وهي مدينة عامرة آهلة، وبها مقام جوسار: اللابس العصابة، والقرنين، والسوار الذهب».[1]

وقد كانت بجراش إحدى المستوطنات والمراكز الرئيسة في عصر ثقافة بلانة، وعرفت منذ بداية العصر المسيحيّ تحت اسم جبل عداء، وأثناء الصراع بين العمري وملك مقُرّة، استمال ملك مقُرّة أعداء العمري من عرب الشام، وأعطاهم إقطاعات فيها، كما ذكر المقريزي[2]. وقد اشتهرت في المصادر الآثاريّة باسم دوتاو، أو مملكة دوتاو. ووضّحت المصادر الآثاريّة أنها ظلت عاصمة لمملكة مسيحيّة عثر على أسماء ثمانيّة من ملوكها، وبعض أسماء من أساقفتها، حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أي قبل نحو عشرين سنة فقط من تاريخ قيام سلطنة سنار الإسلاميّة.

ومدينة تقوى تقع في منطقة الشلال الثاني، في مكان مدينة وادي حلفا الحاليّة، حيث تنتهي رحلة السفن المبحرة من الشمال إلى الجنوب فلا تستطيع عبور الشلال. وإلى الجنوب من تقوى مدينة المقس الأعلى، في مكان عكاشة الحاليّة. ومدينة المقس من أهم مراكز مملكة مريس جنوب الشلال الثاني، إذ ترابط فيها قوات المملكة [مسلحة] حمايةً لها من أيّ تهديد يأتي من الشمال، وبها منطقة جمارك شديدة الضبط، كما وصفتها المصادر، لا يستطيع أحد عبورها إلا «بإذن من الملك»، كما عبر ابن سليم.

وإلى الجنوب من المقس الأعلى مدينة صاي، المعروفة بهذا الاسم حتى الآن، وقد كانت مدينة صاي مدينة مهمة في تاريخ المنطقة القديم، وكانت من أهم المراكز التجاريّة في مملكة كوش - التي عرفت عند المؤرخين بمملكة كرمة - في الألف الثالث قبل الميلاد. ويرى آدمز أنها بناءً على ما نُقِّب فيها من آثار لا تقل أهمية في المجال التجاريّ عن مدينة كرمة عاصمة المملكة. وظلت من المدن المهمة بعد سقوط مملكة كرمة، وظهرت ضمن المستوطنات الصغرى بعد انهيار مملكة مروي.

---

1 أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني، في مسعد، المكتبة السودانية ص 130.

2 المقريزي، كتاب المقفى، في مسعد، المكتبة السودانية ص 364.

وإلى الجنوب منها يقع إقليم سقلوذا الواسع، وذكر ابن سليم أن الاسم معناه السبع ولاة، إذ كان تحت إدارة واليه سبعة ولاة، مما يدل على كبر وقوة الإقليم. وجنوبيه قلعة اصطنون ويستو آخر حدود مملكة مريس. ثم تبدأ منطقة مقُرّة، التي وصف ابن سليم من مناطقها ناحية بقون الواسعة، ثم منطقة سفد بقل التي ذكر أن بها «نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان والكنائس والديارات...» ثم بعد كل ذلك مدينة دنقلة عاصمة مملكة مقُرّة.

هذه هي المنطقة الواقعة بين مدينة بلاق ومدينة دنقلة، التي ذكر ابن سُليم أن المسافة بينها وبين مدينة أسوان خمسون مرحلة. فهل انتهت حملة عبد الله بن سعد عام 31 هـ في مدينة بلاق أم تخطتها جنوبًا؟، وإذا كانت تخطتها جنوبًا فإلى أين انتهت؟ وهل من الممكن أن تكون وصلت إلي مدينة دنقلة بعد أن أخضعت كل تلك المناطق التي ذكرها ابن سليم؟ وكيف وصلت إلى مدينة دنقلة؟ هل سارت الحملة عن طريق البر أم استخدمت السفن؟ وكم من الوقت استغرق ذلك؟ وكم عدد المعارك التي خاضها المسلمون؟ وقبل كل ذلك هل كان المسلمون مستعدون من حيث العدد والعتاد لمثل تلك الحروب؟ وهل من الممكن أن يسكت ويتجاهل ابن حوقل بقية فتوحات عبد الله بن سعد جنوب مدينة بلاق لو أن ذلك قد تمّ؟ وهل من الممكن أن تسكت كل المصادر عن كل ذلك إذا افترضنا أن الحملة وصلت إلى دنقلة؟

لا أعتقد أن كل المصادر تتجاهل أحداث حملة قد تستغرق على الأقل ثلاثة أشهر في عملياتها، وقد تكون خاضت عشرات المواقع الحربيّة أمام جنود وصفوهم بالقوة والجرأة والشجاعة، حتى عبر ابن عبد الحكم عنهم بقوله: «فهادنهم عبد الله بن سعد إذ لم يطقهم»[1]. ثم هل من المعقول أن يتجشم عبد الله بن سعد كل تلك المسافات ويخوض كل المعارك على الطريق إلى دنقلة ليصالح النوبة، كما ذكر ابن خرداذبة مثلًا: «صالحهم على ثلاثمائة رأس هديّة ليست بجزية ولا خراج. ولهم على المسلمين العوض على الموادعة»[2].

1 ابن عبد الحكم، **فتوح مصر** ص 122.

2 ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 34.

أرى أن عبد الله بن سعد لم يتعد مدينة بلاق جنوبًا، إذ لو حدث ذلك لتناقلت المصادر أخبار ذلك الزحف، والحروب التي من المفترض خوضها مسافة نحو خمسين مرحلة. وإذا رجعنا إلى الرواية الوحيدة في كل المصادر العربية عن توغل عبد الله بن سعد في أرض مقُرّة حتى مدينة دنقلة وجدناها عند المقريزيّ، وجاءت كالآتي:

«وأوّل ما تقرّر هذا البقط على النوبة في إمارة عمرو بن العاص، لما بعث عبد الله ابن سعد بن أبي سرح، بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين، وقيل: سنة إحدى وعشرين في عشرين ألفًا، فمكث بها زمانًا، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه. فلما مات عمر رضي الله عنه، نقض النوبة الصلح الذي جرى بينهم وبين عبد الله بن سعد، وكثرت سراياهم إلى الصعيد، فأخربوا، وأفسدوا، فغزاهم مرّة ثانية عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو على إمارة مصر في خلافة عثمان رضي الله عنه، سنة إحدى وثلاثين، وحصرهم بمدينة دنقلة حصارًا شديدًا، ورماهم بالمنجنيق، ولم تكن النوبة تعرفه، وخسف بهم كنيستهم بحجر، فبهرهم ذلك، وطلب ملكهم واسمه: قليدروث الصلح، وخرج إلى عبد الله وأبدى ضعفًا ومسكنة وتواضعًا، فتلقاه عبد الله ورفعه وقرّبه، ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة وستين رأسًا في كل سنة، ووعده عبد الله بحبوب يهديها إليه لما شكا له قلة الطعام ببلده، وكتب لهم كتابًا نسخته بعد البسملة.»[1]

يلاحظ على هذه الرواية أنها تختلف عن الروايات الأخرى التي روتها مصادر أخبار النوبة المبكرين، مثل: يزيد بن أبي حبيب وابن لهيعة. فقد ذكرت المصادر العربيّة مثل: ابن عبد الحكم، والبلاذريّ، وابن خرداذبة، والطبريّ، والمسعوديّ، وياقوت، وابن الأثير، والنويريّ، وابن الفرات روايات أخبار حرب عبد الله بن سعد والنوبة عام 31 موثقة بمصادر أخبار النوبة الثقات، ولم يرد فيها ذكر عمرو بن العاص، أو تحديد المكان الذي دارت فيه المعركة، أو اسم ملك النوبة.[2]

وانفراد المقريزيّ بهذه الرواية يجعلها ضعيفة، إلى جانب ما ورد فيها من معلومات تختلف عن روايات كل المصادر العربيّة الأخرى. فقد ذكرت هذه الرواية أن عمرو

1 المقريزي، المواعظ والاعتبار، في مسعد، المكتبة السودانية ص 300 – 303.

2 انظر روايات هؤلاء المؤرخين في الملاحق.

ابن العاص أرسل عبد الله بن سعد لقتال النوبة عام31 هـ، بينما اتفقت المصادر العربيّة كلها على أن حرب عبد الله بن سعد عام 31 هـ كانت في ولايته، وحدثت بعد ست سنوات من نهاية ولاية عمرو بن العاص على مصر. ولم يرد في المصادر العربيّة الأخرى ذكر لمدينة دنقلة أو أي مدينة أخرى مرتبطة بعبد الله بن سعد، ولم تذكر اسم الملك الذي وقع الصلح مع النوبة. كما لا تتفق بنود الصلح التي ذكرها المقريزي في هذه الرواية مع بنود الصلح التي ذكرتها كل المصادر العربيّة الأخرى. وسنناقش بنودها بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

ولذلك فالحكم الواضح على هذه الرواية هو ضعفها الشديد من كل النواحي، وأسلوب المبالغة واضح عليها. والسؤال الملح هو: لماذا أُخذ بهذه الرواية مع ما تتسم به من ضعف وأخطاء وتُركت الروايات الأخرى الموثقة، والتي تتسم بالمصداقيّة، والتي تَواتر تكرارها في المصادر العربيّة؟ ربما ساعد على الإجابة عن هذا السؤال التوقف قليلًا مع أمرين مهمّين:

الأول: أن الذي لا اختلاف عليه، هو أن الأخذ بهذه الرواية ليس ذنب المقريزيّ، فالمصادر العربية تضمنت – وفقًا لمنهجها في كل ما عالجته من أحداث - روايات متعددة، وأحيانًا متناقضة. وقد بين الطبريّ في مقدمة كتابه «تاريخ الرسل والملوك» ذلك المنهج بوضوح، عندما ذكر أنّ:

> «العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أبناء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدّى إلينا».

فالمقريزي دوّن هذه الرواية في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المشهور بـ»خطط المقريزي» إلى جانب الروايات الأخرى الموثقة والمتواترة في

المصادر، والتي ذكرها غيره من المؤرخين. ولم يرجح المقريزيّ رواية على أخرى من الروايات التي ذكرها عن صلح عبد الله بن سعد عام 31هـ، بل ترك ذلك للقارئ والباحث.

الثاني: يتعلق بنا، نحن السودانيين المهتمين بتاريخ السودان، فإننا لم نختر هذه الرواية، بل اختارها قبلنا المؤرّخون الغربيّون. وأغلب الظنّ أن أولئك المؤرخين قد تمكنوا من الاطلاع على ما ترجم مبكرًا من كتاب المقريزيّ: المواعظ والاعتبار. فقد ظهرت ترجمة ما كتبه المقريزي عن البقط، وما كتبه ابن سليم عن النوبة في كتاب المواعظ، في رحلة بوركهارت التي ظهرت طبعتها الأولي 1819 والتي جاء فيها:

«هذه ترجمة من الجزء الأول من كتاب المقريزي الممتاز، والذي هو معروف جيّدًا في أوروبا. وهذه المعلومات عن النوبة – كما عبر بوركهارت - تمثل الأكثر تفصيلًا ودقة ومصداقيّة وإقناعًا من أي مصدر عربيّ آخر.»[1] وصف بوركهارت هذه الرواية بأربع صفات هي: التفاصيل، والدقة، والموضوعيّة، والقناعة. ومن الواضح أن الرواية تتضمن تفصيلًا وافيًا بالمقارنة مع باقي الروايات التي تناولت شروط ذلك الاتفاق التي ذكرها المقريزي نفسه، وذكرتها باقي المصادر. (انظر الملحق رقم 1 في آخر الفصل الرابع).

أما الصفات الثلاث الأخرى وهي الدقة، والمصداقيّة، والإقناع فلم يتفضل علينا بوركهارت ببيان كيف اتسمت هذه الرواية بهذه السمات، بل فرض حكمه بدون دليل. وفي الواقع لا يوجد دليل في المصادر العربيّة يُثبت ما ذهب إليه بوركهارت، بل على العكس من ذلك فإن ما ورد في المصادر العربيّة المبكرة من الروايات الموثقة التي أشرنا إليها في صدر هذا الفصل يتعارض مع ما ورد في هذه الرواية، مما يدل على ضعفها، وبعدها عن الدقة والمصداقية.

ويبدو أنه بناءً على حكم بوركهارت على هذه الرواية بالتفاصيل والدقة والمصداقية اختارها الغربيون دون النصوص الأخرى التي تناولت علاقات السودان بالمسلمين في مصر واستخدموها في أبحاثهم. ثم اتبعنا نحن سنن مَن قبلنا، وسلكنا

1 John Lewis Burkhardt, *Travel in Nubia*. London 1987 p 493, 511.

طريقهم رغم اطلاع الكثير منا على الروايات والبنود الأخرى لصلح عبد الله بن سعد عام 31هـ، حتى أصبحت بنود الصلح التي ذكرها المقريزيّ – رغم ما تعانيه من ضعف وعدم مصداقيّة – من الثوابت والمسلمات في تاريخنا.

ثم بنينا على هذه الرواية تفسير تاريخ السودان في كل المراحل التي أعقبت القرن السابع الميلاديّ، أو كما اشتهرت في كتب التاريخ «دخول العرب السودان»، فربطنا دخول العرب في السودان باتفاقيّة البقط الذي لا نزال نجهل متى أطلق، فالبقط لم يطلق على اتفاقية عبد الله بن سعد كما سنناقش ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب كما لا ندري أين كان مكان المعركة التي تمخض عنها ذلك الاتفاق. ولماذا هذا الاتفاق فقط من بين العديد من الاتفاقيات التي وقعتها ممالك السودان في ذلك الوقت مع المسلمين في مصر؟ وسنتناول فيما يلي كيف تطورت العلاقات بين المسلمين والممالك المسيحيّة في السودان بعد صلح عام 31هـ.

العلاقات حتى بداية القرن الثاني الهجريّ (8 م)

لا تتوافر معلومات كافية في المصادر العربيّة تمكّن من دراسة العلاقات بين مملكة مريس والمسلمين في مصر. وسنحاول بما توافر من معلومات تتبع تلك العلاقات حتى اتحادها مع مملكة مقُرّة.

جدول رقم 1: العلاقات بين مملكة مريس (نوباديا) والمسلمين حتى بداية القرن 8م

التاريخ - ميلاديّ	الحدث	المصدر
641-651 م	غارات كصوائف الروم (تقريبًا 5 معارك)	ابن عبد الحكم في مسعد ص 7 البلاذريّ ص 238
651	حرب وصلح عبد الله بن سعد	ابن عبد الحكم في مسعد ص 7 البلاذريّ ص 238
684 - 704	مراجعة والي مصر لصلح عبد الله بن سعد	البلاذريّ في مسعد ص 304
700 - 710	توحيد مملكتي نوباديا ومقرة	Vantini p 36; Adams p 453

العلاقات خلال القرن الأول الهجري

انصرف اتجاه المسلمين بعد إكمال سيطرتهم على مصر نحو الغرب، وبدأوا يتوغلون في شمال إفريقيا، منذ عصر ولاية عمرو بن العاص، وقد دامت حروبهم في شمال إفريقيا وقتًا طويلًا. ففي الوقت الذي تمكن فيه المسلمون، في عَقد واحد من

الزمان، من السيطرة على أراضي الإمبراطوريّة الفارسيّة، قضوا في حروبهم في شمال إفريقيا نحو ستة عقود، لكي يتمكنوا من أحكام قبضتهم على المنطقة. ولذلك لم يلتفت المسلمون خلال فترة التوسعات المبكّرة نحو الجنوب، وغاية ما بلغوه هو منطقة فزان في جنوب ليبيا الحاليّة.

ومن ناحية أخرى فقد أدت المشاكل والحروب التي عاشتها الدولة الإسلاميّة بعد مقتل الخليفة عثمان، وبعد وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى انصراف المسلمين عن إمداد فتوحاتهم. ولما كانت منطقة السودان خارج اهتمام توسع المسلمين، فيبدو أنه لم تكن هنالك عمليّات حربيّة على حدود مصر الجنوبيّة، إما لمقاومة «رماة الحدق» الشديدة في بداية الحروب، أو «لنلبهم القليل»، أي فقر منطقتهم كما عبروا بذلك في بداية الفتوح.

وقد أدى جوار المنطقتين، وما ترتب على ذلك من مسائل الأمن، ووجود بعض المصالح التجاريّة المشتركة والهامة، إلى ضرورة قيام العلاقات بين الجانبين والعمل على تنظيمها. وإلى جانب ذلك فقد كانت أوضاع المسيحيّين (الأقباط) في مصر من بين العوامل التي كان لها أثر كبير – كما سنلاحظ ذلك – على العلاقات بين المسلمين في مصر والممالك المسيحيّة في السودان. ومن خلال المعلومات القليلة والمتناثرة في المصادر العربيّة سنحاول تسليط قليل من الضوء على تلك العلاقات.

وإذا كانت الأوضاع في مصر قد شهدت الكثير من التغيرات والتطورات خلال القرن الأول الهجريّ، فقد شهدت أيضًا مملكتا مريس ومقرة تغيّرات في الأوضاع السياسيّة. فقد رأينا أن المسلمين عندما دخلوا مصر كانت مملكة مريس - التي أطلقت عليها المصادر الرومانيّة والقبطيّة اسم مملكة نوباديا – لا تزال موجودة كمملكة مستقلة على حدودهم الجنوبيّة، وذكرنا أنه خلافًا لما روى المقريزيّ، فإنّ المسعوديّ وضّح أن عبد الله بن سعد لم يحارب عام 31 مملكة دنقلة، بل حارب مملكة مريس، فقد ذكر:

> «أبى عمرو بن العاص أن يصالحهم، حتى صرف عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبي معلومة، مما يسبي هذا الملك المجاور للمسلمين،

660

المدعو بملك مريس من أرض النوبة وغيرها من ممالك النوبة، المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب»[1].

ونقلنا روايات مؤرخي الكنيسة القبطيّة التي تؤكد ما رواه المسعوديّ عن مملكة مريس. فقد جاء أنه في زمن البطريرك إسحق القبطي (67 - 70هـ/686-689 م) أي بعد نحو 36 سنة من حروب عبد الله بن سعد كانت مملكة مريس لا تزال موجودة ومستقلة عن مملكة مقُرّة. وقد ذكر أبا مِنا Abba Mina الذي كتب حوالي عام (81هـ/700م) أن العلاقات بين مملكتي مريس ومقرة كانت متوترة، إذ من المعروف إن المسيحية دخلت مقُرّة على مذهب الكنيسة البيزنطيّة، بينما تبعت نوباديا مذهب الكنيسة المصريّة. قال أبا منا: «في الحقيقة يوجد ملكان في المنطقة، كلاهما مسيحيّان، ولكن ليس بينهما سلام، لأن واحدًا منهما ملك موريتانيا دخل في صلح مع المسلمين، والآخر ملك مقُرّة العظيم ولم يكن في صلح مع المسلمين»[2].

وقد أطلق أبا مِنا لقب «ملك موريتانيا» على «ملك نوباديا» كما جرت عادة بعض الكتاب الأقباط عندما يتحدثون عن نوباديا. فقد أورد أبا مِنا نفسه في بقية نصه الذي أشرنا إليه ما يوضح أن مملكة موريتانيا تقع شمال مقُرّة. وقد ذكر John of Nikiou الذي كتب عام (67هـ/686م) «أن بربر منطقتي نوباديا وأفريقية يدعون بالموريتانيين»[3].

وقد ذكر القس فانتيني أثناء تناوله سيرة بطريرك كنيسة الإسكندرية إسحق القبطيّ أن هذا البطريرك بعث برسالة لكل من ملك موريتانيا (أي نوباديا) وملك مقُرّة داعيًا إياهما إلى التصالح بينهما لأن كليهما مسيحيان. وكان ملك نوباديا يمنع وصول مبعوث البطريرك إلى مملكة مقُرّة، كما يمنع وصول رسول مملكة مقُرّة إلى البطريرك عبر أراضيه[4].

---

1 المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر. ح 2 ص 21.

2 Abba Mina, Life of Isaac in Vantini, Fr. Giovanni. *Oriental Sources Concerning Nubia*. Poland: Heidelberg and Warsaw, 1975, p 36.

3 John of Nikioumm، *La Choronique de Jean de Nikiou*, in Vantini, p. 43

4 فانتيني، «تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث»، ص 74

وبناءً عليه استنتج فانتيني أن مملكة نوباديا كانت لا تزال مستقلة عن مملكة مقُرّة في زمن البطريرك إسحق القبطي (70-75هـ/686-689م). وذكر فانتيني أن لوحة التدشين في كاتدرائيّة فرس (89هـ/707م) وضحت اسم ملك مقُرّة مرقوريوس باعتباره الملك الوحيد لكل من نوباديا ومُقُرة مما يوضح أن المملكتين كانتا متحدتين في عصر هذا الملك.[1]

ويدل ذلك أنه حتى الوقت الذي كتب فيه أبا منا عام 81 هـ / 700 م لم تتحد مملكتا مريس ومقرة. وقد ذكر فانتيني أن لوحة التدشين وضحت اسم ملك مقُرّة مرقوريوس باعتباره الملك الوحيد لكل من نوباديا ومُقُرة مما يوضح أن توحيد المملكتين حدث قبل عام 89 هـ فوحدة المملكتين بناءً على ما ورد في المصادر القبطية تمت بين عامي 81 و89 هـ (700 – 707 م).

وقد ساند هذا الرأي قليل من المؤرخين[2] بينما لم يقبله كثير منهم، ورأوا أن الاتحاد كان قائمًا في منتصف القرن السابع الميلادي. ولذلك فإن عبد الله بن سعد حارب عام 31 هـ مملكة مقُرّة التي أصبحت تجاور حدود مصر الجنوبيّة بعد اتحاد المملكتين. وقد لخص مصطفى محمد مسعد حجة القائلين لهذا الرأي في نقطتين[3]:

النقطة الأولى: أن قيام الاتحاد في النصف الثاني من القرن الأول الهجري – أي بعد عام 31 هـ- يتعارض مع ما ورد في المصادر العربيّة، من أن عبد الله بن سعد هزم ملك مقُرّة ودخل عاصمته مدينة دنقلة، ووقع معهم اتفاقًا شمل حدود المملكة ما بين أسوان شمالًا ومملكة علوة جنوبًا، مستندين في ذلك على رواية معاهدة البقط التي أوردها المقريزيّ. وقد رأينا فيما سبق أن رواية معاهدة البقط كما رواها المقريزي تتسم بالضعف الشديد للأسباب الآتية:

---

1 نفس المكان السابق.

2 انظر وليام آدمز، **النوبة رواق إفريقيا** ترجمة محجوب التجاني محجوب. القاهرة: ب.ن. 2004 ص 406.

3 مصطفى محمد مسعد، **الإسلام والنوبة في العصور الوسطى**. القاهرة: مكتب الأنجلو المصريّة 1960 ص 73 – 74.

1. لم ترد هذه الرواية في كل المصادر العربية الأخرى، بل انفرد بها المقريزيّ الذي توفى عام 845 هـ أي أنه ألف كتابه بعد 814 سنة من تاريخ المعركة.
2. ذكر المقريزي هذه الرواية بدون مصدر.
3. اختلفت نصوص هذه الرواية مع كل النصوص الموثقة عن اتفاق عبد الله بن سعد عام 31 هـ، والتي روتها المصادر العربيّة المبكرة عن رواة أخبار النوبة الثقات، والذين ولدوا في القرن الأول الهجري، أي يمثلون الجيل الثاني بعد حدوث المعركة.
4. كل النصوص التي روتها المصادر العربيّة – باستثناء نصّ المقريزيّ - لم تشر إلى مكان المعركة، ولم يرد فيها ذكر لأي مدينة، وتضمنت فقط وقف القتال وتبادل الرقيق ببعض الأطعمة. وقد ذكر المقريزيّ نفسه بعض تلك الروايات الموثقة عن اتفاق عبد الله بن سعد، إلى جانب روايته التي ذكر فيها وصول جيش عبد الله إلى دنقلة. وقد تساءلنا: لماذا ترك الباحثون في تاريخ السودان تلك الروايات الموثقة وانفردوا بدراسة تاريخ السودان مستندين على الرواية التي انفرد بها المقريزي؟

النقطة الثانية: يرى معارضو اتحاد المملكتين بعد عام 31 هـ أن المصادر التي تؤيد هذا الرأي تتمثل كلها في المصادر القبطيّة فقط، وأنها تتعارض مع ما ورد في المصادر العربيّة. ورغم أن مسعدًا أبدى ثقته في المصادر القبطيّة، وقبوله أن ملك موريتانيا في نصوص المصادر القبطيّة المقصود به ملك مقُرّة، إلا أنه ذكر أن المصادر القبطيّة وحدها لا تعد دليلًا على صحتها، ولا تكفي لقبول رأيها، بالإضافة إلى عدم اتفاق رواياتها. وهو هنا يشير إلى النص الذي يستدل به على وجود مملكتي مريس (نوباديا) ومقرة مستقلتين على حدود مصر الجنوبيّة، ونشب بينهما صراع بعد نحو أربعين سنة من معركة عام 31 هـ. وقد أشرنا إلى هذا النص أعلاه راجعين فيه إلى فانتيني. وقد ذكر النص ابن القفع حيث قال: «وفي تلك الأيام كتب البطرك إلى ملك الحبشة وملك النوبة أن يصطلحا»[1].

1 ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية في مسعد، المكتبة السودانية ص 77.

والبطرك المشار إليه هنا هو إسحاق 696 – 699 م /67 – 70 هـ، وقد اعتادت المصادر القبطيّة أن تطلق على ملك مقُرّة لقب ملك الحبش والملك الحبشي. وقد قال ابن المقفع نفسه عن ملك مقُرّة: «وكان ملك مقُرّة الحبشي ارتدكس»[1]، مما يوضح أن ملك الحبشة المقصود هنا – وكما قرر فانتيني أيضًا – هو ملك مقُرّة. ويؤكد النص الثاني الذي استند إليه مؤيدو حدوث الاتحاد بين المملكتين بعد معركة 31 هـ وقد أشرنا إليه أعلاه ونفصل أحداثه هنا كما رواها أبا منا الذي كتب نحو 700م /81 هـ، أي بعد نحو عشر سنوات من حدوثها[2].

أرسل ملك مقُرّة إلى البطرك إسحاق يوضح له نقص القساوسة في كنائس بلده، وذكر أن السبب في ذلك هو طول الرحلة لبعد المسافة الناتج عن منع ملك موريتانيا القساوسة من العبور عبر أراضيه إليهم. ووضح أبا منا أنه كان هنالك ملكان في المنطقة؛ أحدهما في صلح مع المسلمين، والآخر ليس في صلح معهم. وبالطبع فإن الذي ليس في صلح مع المسلمين هو ملك مقُرّة.

ولما وصل رسول ملك مقُرّة إلى البطرك وقرأ رسالته، كتب إلى ملك موريتانيا يؤنبه ويذكره بأن كليهما مسيحيّ، ولا ينبغي منع رجال الكنيسة من عبور بلده والوصول إلى البلد الواقع جنوبيه. وذكر أبا منا أن رجال والي مصر علموا بالمخاطبة، وأخبروا الوالي بأن البطريك أرسل إلى ملك موريتانيا يطلب منه التصالح مع ملك مقُرّة الذي ليس على وفاق مع المسلمين، فغضب الوالي وطلب من البطرك الحضور من إسكندرية. ولكن تمكن البطرك – في رواية أبا منا – من إقناع الوالي والحصول على رضاه.

لكن وضع ابن المقفع نهاية مختلفة أخرى للحادثة، فذكر أن البطرك لما علم بأن خبر رسالته وصل للوالي، كتب رسالة أخرى لملك موريتانيا لا تتضمن شيئًا عن الصلح بين الملكين، وعندما قبض رجال الوالي على الرسول وجدوا معه الرسالة الأخيرة فقط. فأعاد والي مصر البطرك إلى الإسكندرية، ولكن منعه من السفر إلى الصعيد.

1 المصدر السابق ص 83.

2 Abba Mina, *Life of Isaac* in Vantini, *Oriental Sources Concerning Nubia*, p 36 – 37.

وذكر ابن المقفع أن الوالي «أمر بكسر الصلبان، وكتب عدة رقع جعلها على أبواب البِيَع بمصر والريف، يقول فيها: محمد الرسول الكبير الذي لله، وعيسى أيضًا رسول الله وإن لم يلد ولم يولد»[1]. هذه الحادثة تؤكد أمرين الأول: تأكيد أن موريتانيا التي أشارت إليها المصادر القبطية هي مملكة مريس (نوباديا)، والحقيقة الثانية أن المملكتين كانتا لا تزالان غير متحدتين حتى عصر البطرك إسحاق 67 – 70 هـ/ 686 – 689 م، أي بعد نحو أربعين سنة من معركة عبد الله بن سعد عام 31 هـ/ 651 م.

وقد جاء في المصادر القبطية أيضًا أن الملك المُقُرّي مرقوريوس 78 – 92 هـ/ 697 – 710 وصِف على لوحة التدشين في كاتدرائيّة فرس بأنه سلك مسلكًا جديدًا نال عليه ثناء الكنيسة المصريّة، واستحق به لقب قنسطنطين الجديد. ويرى المؤرخون أن ذلك المسلك الجديد هو تحوله للمذهب المونوفيزي (مذهب الكنيسة القبطيّة) وتحويله معبد تافا إلى كنيسة سنة 710 م / 92 هـ[2]

غير أن مؤيدي الرأي الذي يقول بأن الوحدة بين مملكتي مريس ومقرة تمت قبل معركة عام 31 هـ لا يربطون هذا الحدث بتوحيد المملكتين، ويعتبرون التوحيد السياسي قد حدث قبل ذلك، وأن ما حدث هنا هو توحيد مذهب الكنيستين. وليس هنالك ما يمنع أن يكون الملك مرقوريوس قد وحد المملكتين سياسيًّا، واعتنق المذهب اليعقوبي - وهو مذهب كنيسة مملكة مريس – بدلًا عن مذهب مملكة مقُرّة الملكاني، فيكون بذلك قد وحّد مذهب قسمي المملكة الشماليّ والجنوبيّ، واستحق من أجل العملين معًا – التوحيد السياسي والمذهبي – لقب قنسطنطين الجديد.

أما ما ذُكِر من أن المصادر القبطيّة انفردت بجعل وحدة المملكتين تمت بعد عام 31 هـ، وأن هذا يخالف ما ورد في المصادر العربيّة، فأرى أن ذلك غير مقبول. فالمصادر العربيّة لم تذكر أن عبد الله بن سعد حارب مملكة مقُرّة، بل ذكرت أنه حارب النوبة،

1 ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ص 78.

2 مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص 74. التاريخ المذكور على لوحة التدشين في كاتدرائيّة فرس عام 89 هـ/ 707 م.

ولم توضح هل كانت تلك الحرب على أبواب مدينة دنقلة أو على أبواب مدينة بلاق بالقرب من أسوان. ورواية وقوع الحرب على أسوار دنقلة وردت عند مؤرخ واحد فقط من بين المؤرخين العرب، وهو المقريزيّ، وحتى المقريزيّ ذكر هذه الرواية إلى جانب الروايات الأخرى التي تختلف عنها. بالإضافة إلى ذلك فإن المصادر القبطيّة لم تنفرد فقط بجعل حرب عبد الله بن أبي سرح بعيدة عن مملكة مقُرّة ومدينة دنقلة، بل ذكر ذلك أيضًا المسعوديّ – كما كررنا ذلك كثيرًا – عندما قال:

«وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم، حتى صرف عن مصر، ووليها عبد الله ابن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبي معلومة، مما يسبي هذا الملك المجاور للمسلمين، المدعو بملك مريس، من أرض النوبة وغيرها من ممالك النوبة، المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب»[1].

ونخلص من كل ذلك إلى أن المسلمين في مصر بدأوا علاقاتهم مع مملكة مريس (نوباديا). فكيف سارت العلاقات بين المسلمين ومملكة مريس خلال القرن الأول الهجريّ بعد صلح أو هدنة عام 31 هـ؟ ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال، لأنه لا تتوافر معلومات تمكن من تعرّف تفاصيل تلك العلاقات. وما ورد من معلومات في المصادر العربية والقبطيّة يوضح أن العلاقات لم تكن طيبة بين الجانبين رغم المصالح التجاريّة المشتركة بينهما.

كانت أوضاع المسيحيين في مصر من أهم العوامل التي أدت إلى توتر العلاقات بين الجانبين. ويبدو أن السلطات الحاكمة في مصر كانت تُحكِم الرقابة على بطاركة الإسكندريّة، لكي تتمكن من الإشراف الكامل على علاقاتهم بممالك السودان المسيحيّة. ويتضح ذلك من تعرّف موضوع رسالة البطرك إسحاق – أعلاه - إلى ملك مريس بخصوص السماح بعبور القساوسة والصلح بينهما.

وقد ذكر أبو صالح الأرمني أن الرسائل كانت منتظمة بين الممالك المسيحيّة وبطاركة الإسكندريّة، وأنها كانت تتم مرتين في السنة بعلم السلطات في مصر. وكان الولاة في مصر يأمرون البطاركة بالكتابة إلى ملوك النوبة والحبشة عن أوضاع

1 المسعوديّ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1958 ج 2 ص 21.

المسيحيّين الحسنة في البلاد، وتمتعهم بالحرّيّة في التصرف في عاداتهم الجارية، ويوصونهم أن يعاملوا المسلمين في بلادهم معاملة طيّبة. وذكر أبو صالح أن تلك العادة قد انتهت بأمر الولاة منذ عصر البطرك زخاريوس الرابع والستين[1].

وقد كانت المشاكل تحدث بين الحين والآخر بين الأقباط والمسلمين، ولعل تقديرات وجمع الضرائب المقدرة على المزارعين الأقباط كانت من أكبر الأسباب التي أججت المشاكل والصراع بين الجانبين. وقد رصدت المصادر العربيّة الكثير من ثورات الأقباط والحروب التي نشبت بين الجانبين، في القرنين الأول والثاني الهجريّين ضد الحكومة. وكان ملوك مقُرّة كثيرًا ما يتدخلون في تلك الصراعات، خاصة إذا تعرض البطاركة للحبس أو التعذيب، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم حماةً للكنيسة القبطيّة راعية شؤونهم الدينيّة.

ويبدو أن المشاكل والحروب الداخليّة التي تعرض لها المسلمون من جهة، والصراعات بين مملكتي مريس ونوباديا من جهة أخرى، قد شغلت كلا الجانبين، ولكن شهد الربع الأخير من القرن الأول الهجري نهاية مشاكل الدولتين بنهاية الحروب الأهليّة بين المسلمين، وبتوحيد المملكتين المسيحيّتين. فكيف كانت العلاقات بينهما في تلك الفترة؟

لم تذكر المصادر ما يلقي الضوء على تلك العلاقات، ولكن وردت إشارة عند المقريزيّ في رواية عن أبي البختريّ نحو عام 211 هـ، جاء فيها أن والي مصر عبد العزيز بن مروان (65 – 85 هـ) والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99 / 101 هـ) راجعا بنود اتفاقيّة المسلمين والنوبة، ووجدا أن الخمر كانت من ضمن المواد التي يقدِّمها المسلمون للنوبة مقابل الرقيق، واعترضا على ذلك[2]. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: لماذا روجعت بنود الاتفاقيّة؟

1 أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبو صالح في مسعد، المكتبة السودانية ص 146.

2 المقريزيّ، المواعظ والاعتبار في مسعد، المكتبة السودانية ص 305.

أغلب الظن أنه حدث تطور ما في العلاقات، ربما بعد توحيد المملكتين، أو بسبب تعرّض المسيحيّين في مصر لسوء معاملة الوالي، مما أدى إلى تدخل مملكة مقُرّة على الأقل عن طريق الاتصالات الدبلوماسيّة. وأغلب الظن أن تلك التطورات هي التي أدت إلى التعديل في اتفاقية عبد الله بن سعد، وظهور الخمر بين موادها، كما في الفقرة أعلاه. غير أننا نقف عاجزين عن معرفة تفاصيل ما حدث في تلك الفترة، ولكن أشارت المصادر القبطيّة إلى توتر في العلاقات بين الجانبين في بداية القرن الثاني الهجريّ.

الفصل الثاني

العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين حتى عصر المماليك

- غزو ملك مقُرّة كرياكوس مصر
- الأمير الأموي في مقُرّة وبلاد البجة
- خطاب والي مصر إلى ملك النوبة عام 141 هـ
- العلاقات في عصر الخليفة المعتصم
- أطماع وحروب العمري في مملكة مقُرّة
- العلاقات بين القرنين الثالث والسابع الهجريّين (9 – 13 م)
- العلاقات في عصر الدولة الإخشيديّة
- العلاقات في عصر الدولة الفاطميّة
- العلاقات في عصر الدولة الأيوبيّة
- ملحق رقم 1: بنو أميّة في السودان
- ملحق رقم 2: رسالة والي مصر إلى ملك مقُرّة عام 141 هـ/ 758 م

غزو ملك مقُرّة كرياكوس مصر

سكتت المصادر العربيّة عن تناول العلاقات بين مملكة مقرّة والمسلمين بعد حملة عام 31 هـ، ولم تتعرض لتلك العلاقات عرضًا في كل الفترة التي سبقت عصر المماليك. وكل ما ورد في المصادر التاريخيّة عن تلك العلاقات المبكرة انحصر في تسجيل تفاصيل المواد المتبادلة بين المسلمين ومملكة مقُرّة، وفقًا للاتفاقيات وتعديلاتها. كما ورد القليل من التفاصيل في عصر الدويلات المحليّة التي حكمت مصر قبل عصر المماليك، وتضمّنت المصادر الجغرافيّة وكتب الرحلات معلومات كثيرة عن السكان وطبيعة البلاد ومواردها.

ولكن وردت بعض المعلومات في المصادر القبطيّة، ألقت بعض الضوء على العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين، كما لاحظنا ذلك في الرسائل المتبادلة بين ملوك الممالك المسيحيّة والكنيسة القبطيّة، وصدى ذلك على حكومة مصر. كما تناولت المصادر القبطيّة أيضًا بعض المعلومات بين مملكة مقُرّة والحكومة المصريّة، وتوافرت أيضًا القليل من المعلومات الآثاريّة. وسنتابع هنا ما ورد من معلومات عن تلك العلاقات.

أتى أول ذكر للصراع بين المسلمين ومملكة مقُرّة في المصادر العربيّة عند كل من: النويريّ، وابن الفرات، وكان مدخلًا لحديثهما عن الحروب بين المماليك ومملكة مقُرّة، فذكرا أنه بعد غزو النوبة عام 31 هـ «ثم غزيت في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، ولم تفتح وإنما كان قتال ونهب وسبي.»[1] وهذا كل ما ذُكر، فلم ترد في

1 النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 222 وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد ص 259.

المصادر العربيّة تفاصيل عن تلك الغزوة أو نتائجها. ولكن جاء في المصادر القبطيّة ما يساعد على إلقاء بعض الضوء على ما حدث.

تناولت المصادر القبطيّة بعض الأحداث التي وقعت بين والي مصر والبطرك أنبا خايال، كما كتبه ابن المقفع[1]، أو خائيل كما كتبه ابن العميد وأبو صالح[2] (120 – 143 هـ/ 737 – 760 م) وقد اتفق ابن المقفع وابن العميد أن تلك الأحداث وقعت في ولاية عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير على مصر، والذي تولى كما ذكر الكندي عام 132هـ[3] آخر أعوام بني أمية في الحكم، بينما ذكر أبو صالح الأرمني أنّها حدثت في ولاية صلاح الدين يوسف الكرديّ، ولا يوجد والٍ في مصر بهذا الاسم في ذلك الوقت كما هو واضح من تصفح ولاة مصر في كتاب الكنديّ.

بدأت الأحداث كما ورد في المصادر القبطيّة عندما استدعى والي مصر أنبا خائيل ومعه بعض القساوسة، من الإسكندرية إلى الفسطاط عاصمة مصر في ذلك الوقت، وطلب منه مبلغًا كبيرًا، خراجًا على بِيَعه، ولما لم يتمكن من دفعه اعتقله ومرافقيه. ويقول القسّ الذي دون هذه الأحداث – والذي نقلت عنه المصادر – أن الوالي بعد سبعة عشر يومًا من السجن طلب إحضارنا، ثم يقول: «فحضرنا وطالبنا بالمال، وقال له: بيعك كلها بغير خراج، وأنا مطالبك عنها بما يجب عليها»، فطلب منه الأنبا الإذن بالخروج إلى الصعيد لجمع الخراج، فأطلق سراحه.

وذكر ابن المقفع أن القساوسة في مصر كتبوا إلى ملك مقُرّة كرياكوس أو قرياقوس، عندما كان الأنبا محبوسًا، فلما سمع والي مصر بذلك اعتقل الأنبا مرة أخرى. فسار قرياقوس بجيش كبير قدرته المصادر القبطيّة بمائة ألف فارس، ومائة ألف من المشاة. وأرسل ملك مقُرّة نائبه الأبرخس – حاكم الجبل – إلى والي مصر

1 جاءت الأحداث أكثر تفصيلًا عند ابن المقفع، انظر تاريخ بطاركة الكنيسة المصريّة في مسعد، المكتبة السودانيّة صفحات 78 – 83.

2 أبو صالح الأرمنيّ، تاريخ الشيخ أبي صالح في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 140 – 141. وجرجس بن العميد، تاريخ الخلفاء 950 – 1260 م. أخذت من الترجمة الإنجليزية في كتاب Vantini, *Oriental Sources Concerning Nubia*, p374.

3 الكنديّ، **كتاب الولاة والقضاة**. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي ب. ت. ص 84.

يطلب منه إطلاق سراح الأنبا خائيل، فاعتقل الوالي رسول الملك وسجنه. وتوغل جيش مقُرّة في الأراضي المصريّة، وقتل وسبى المسلمين في طريقه، لأن المسلمين كانوا كما عبر ابن المقفع «يسرقون النوبة ويبيعونهم بمصر».

ولما علم الوالي بقدوم الجيش بعدده الكبير أطلق سراح الأنبا والأبرخس، وطلب من الأنبا أن يكتب إلى الملك يطلب منه عدم مهاجمتهم والرجوع إلى بلاده. وحمل الأبرخس الرسالة إلى الملك فعلم أن الأنبا قد أطلق سراحه وعومل معاملة طيبة، وباركه وطلب منه الرجوع إلى بلده، فرجع بدون حرب.

ورغم أن ابن المقفع ذكر أن تلك الأحداث وقعت «في سنة أربع وستين من ظهور ملك المسلمين» إلا أنّ النص وما ورد فيه يوضح خلاف هذا التاريخ. فالملك قرياقوس كان معاصرًا للقس أو الشماس الذي دون هذه الأحداث في عصر الأنبا خائيل، الذي كانت فترته كبطرك بين عامي 120 – 143 هـ بالإضافة إلى أن الأحداث كانت في عصر ولاية عبد الملك عام 132 هـ فغزو ملك مقّرة لمصر يكون قد حدث وفقًا لهذه الروايات عام 132 هـ في عصر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

ووفقًا للمصادر القبطيّة فإن البطرك أنبا خائيل تولى منصبه عام 120 هـ، أي في عصر خلافة هشام بن عبد الملك، فهل تجددت مشاكل الضرائب في عصره بين والي مصر والأقباط، ثم تطورت الأحداث بين مصر ومقرة، بحيث أرسل الوالي جيشًا دخل مملكة مقُرّة في عصر الخليفة مروان بن محمد، كما ذكرت المصادر القبطيّة؟.

هذا الاحتمال وارد، وربما أغارت جيوش مملكة مقُرّة على الأراضي المصريّة بقيادة ملكها، أو بقيادة نائبه صاحب الجبل بعد عصر الخليفة هشام. وعلى كل حال، فإنّ ما ورد في المصادر العربيّة والقبطيّة يشير إلى مشاكل حدثت بين الجانبين، أدت إلى نشوب الحرب بينهما، فهل كانت هنالك معركة واحدة أم معركتان؟ وهل وقعت المعارك في الأراضي المصريّة أم المقرّيّة؟ الإجابة عن ذلك تتطلب المزيد من المعلومات. ولعل مثل هذه المعلومات تتوافر بالبحث في المخطوطات في دور الوثائق في مصر وفي بلاد الشام.

ورغم المبالغة في تقدير عدد جند ملك مقُرّة، وما ورد عن خوف والي مصر من ذلك الجيش الكبير، وما ورد من بعض المبالغات الأخرى التي لم أتعرض إليها فيما تناولته هنا، إلا أن تلك النصوص ربما أكدت حقيقة أنّه حدث صراع بين الجانبين عند اعتقال البطرك، وربما أرسل ملك مقُرّة حملة دخلت حدود مصر الجنوبيّة - وهو أمر تكرر كثيرًا – لكن لم يبلغ الجيش مشارف الفسطاط.

والسؤال الذي يتطلب الإجابة عنه هنا هو: كيف كان أثر تلك الأحداث على اتفاقية عام 31 هـ؟ وهل حكمت اتفاقية عبد الله بن سعد التي تضمنت «وقف القتال والسبي مقابل الطعام» العلاقات بين الجانبين حتى هذا الوقت؟ وبما أن قتالًا وقع بين الجانبين سواء أكانت المعتديّة مصر أم مملكة مقُرّة، فإن اتفاق وقف الحرب القديم يكون قد انتهى، وتطلب الأمر اتفاقًا جديدًا يمكن أن نفترض أنه الاتفاق الثالث بعد اتفاق عام 31 هـ فكيف كانت شروط ذلك الاتفاق؟ وهل يمكن البحث عنه في البنود الكثيرة التي وردت في المصادر العربيّة عن اتفاقيات مصر ومملكة مقُرّة؟

الأمير الأمويّ في مقُرّة وبلاد البجة

من الأحداث التي تناولتها المصادر العربيّة في نهاية العصر الأمويّ، أخبار ابن آخر الخلفاء الأمويّين مروان بن محمد في بلاد مقُرّة والبجة،أو ابنيه في مصادر أخرى. تناولت تلك الأحداث الكثير من المصادر، مثل: المسعوديّ في كتابيه: التنبيه والأشراف، ومروج الذهب، وتناولها ابن وصيف شاه في كتابه جواهر البحور، وياقوت الحموي في معجمه، والقزويني في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، وابن خلدون في كتابه العبر.

تعرضت تلك المصادر إلى ما جري بين ابني مروان وملك مقُرّة، وما صاحبه من بعض الأوصاف لملك مقُرّة وبلاده، والوقوف على تفاصيل تلك الأحداث يمثل أهميّة خاصّة، لأنها ارتبطت في بعض كتب التاريخ بمسألة النسب الأمويّ في السودان، وبخاصة ما يتعلق بملوك مملكة الفونج. ولذلك رأيت من المفيد استقصاء تلك الأخبار، وإيراد ما ورد فيها في الملاحق.

يمكن تقسيم ما ورد في هذا الصدد إلى ثلاث روايات، اتفقت جميعها في المضمون العام للخبر، ولكنّها اختلفت في بعض التفاصيل التي تؤثّر على فهم الأحداث. الرواية الأولى جاءت عند المسعوديّ، في كتابه مروج الذهب[1] وعند القزوينيّ[2] وابن خلدون[3]. ولم تختلف أحداثها اختلافًا كبيرًا، ولذلك يمكن النظر إليها بوصفها مجموعةً متجانسةً. الرواية الثانية جاءت عند ابن وصيف شاه، وتتناول

---

1 المسعوديّ، مروج الذهب موقع الوراق ج 1 ص 473.

2 القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد في مسعد، المكتبة السودانية ص 193.

3 ابن خلدونّ، كتاب العبر موقع الوراق ج 1 ص 207.

بعض الأحداث التي لم ترد في الرواية الأولى.[1] والرواية الثالثة انفرد بها المسعوديّ.[2]

تضمنت الرواية الأولى هربَ الأمير عبد الله بن مروان من العباسيّين، ودخوله أرض النوبة. ولم توضح الرواية من كان معه من الأتباع، لكنها ذكرت ما دار من حوار بين ملك مقُرّة والأمير الأمويّ، وكيف أن ملك النوبة عزا فقدان الأسرة الأمويّة لملكها إلى انشغالهم بملذات الدنيا، وانصرافهم عن أمور رعيّتهم، وعدم عدالتهم، ولم يسمح الملك للأمير الأمويّ بالبقاء في أرضه، بل أمهله ثلاثة أيام فقط، يخرج بعدها من بلاده. ولم توضح الرواية الطريق الذي سلكه خارجًا من مملكة مقُرّة. انظر نص الرواية ملحق رقم 1 في نهاية هذا الفصل.

أما الرواية الثانية التي ذكرها ابن وصيف شاه، فقد جعلت الأمير الأمويّ الذي دخل بلاد النوبة فارًا من العباسيّين عبيد الله – وليس عبد الله كما في الرواية السابقة – والذي كان واليًا على مصر. وتعرضت إلى ما حمله الأمير من المال والعتاد مع عبيده. ولما دخل الأمير بلاد النوبة أرسل لملكها يستأذنه في البقاء ببلاده. ثم تتعرض الرواية للحوار الذي دار بين ملك مقُرّة والأمير الأمويّ كما في الرواية الأولى. وتضيف أن الأمير رجع إلى مصر حيث تم اعتقاله وإرساله إلى بغداد. انظر الرواية: ملحق رقم 1 في نهاية هذا الفصل.

أما الرواية الثالثة، والتي انفرد بها المسعوديّ في كتابه التنبيه والأشراف، والتي تختلف عن روايته في كتابه مروج الذهب، فجاء في هذه الرواية أن عبد الله وعبيد الله ابنا الخليفة الأمويّ، كانا مع والدهما عندما قتل، وهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما، ومن انحاز إليهما من أهل خراسان إلى منطقة أسوان ثم إلى بلاد البجة، متوجهين نحو ميناء باضع على ساحل البحر الأحمر. وذكرت الرواية أنهم تعرضوا لكثير من المخاطر والحروب في طريقهم، ومات عبيد الله وعدد ممن كان معهم،

1 ابن وصيف شاه، جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور في أخبار الديار المصريّة في مسعد، المكتبة السودانية ص 222.

2 المسعوديّ، التنبيه والإشراف صححه وراجعه عبد الله اسماعيل الصاوي، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى 1938 ص 286 وطبعة بيروت: دار ومكتبة الهلال 1981 ص 301 وفي مسعد، المكتبة السودانية، ص 48.

وتمكن عبد الله ومن نجا معه من الوصول إلى ميناء باضع، حيث عبروا البحر إلى جدة. وتنقل مع من كان معه إلى أن اعتقله العباسيّون.

خطاب والي مصر إلى ملك النوبة عام 141 هـ

كانت العلاقات متوترة بين مصر ومملكة مقُرّة في نهاية العصر الأمويّ، وقد رأينا احتمال اجتياح جيوش مقُرّة الأراضي المصريّة في العام الأخير من حكم الدولة الأمويّة. ويبدو أن الأوضاع لم تستقر بين الطرفين، ويتضح ذلك في الرسالة التي أرسلها والي مصر في عصر الخليفة أبي جعفر المنصوْر لملك النوبة عام 141 هـ/ 758 م، أي بعد مضي تسع سنوات فقط على قيام الدولة العباسيّة.

عثرت البعثة الآثاريّة التي كانت تنقب في صيف عام 1972 على تلك الرسالة مع بعض الوثائق القبطيّة الأخرى في قصر إبريم. والرسالة موجهة إلى ملك النوبة، كتبها والي مصر موسى بن كعب عام 141 هـ/ 758 م، وهي عبارة عن خطاب طويل يحتوي على 69 سطرًا. وُضعت في المتحف المصريّ بالقاهرة، وأعتقد أنه تم نقلها إلى مُتحف الفنّ الإسلاميّ بالقاهرة.

وقد وُجدت الرسالة في حالة جيدة ما عدا ثقبين صغيرين في أولها، غيّب الثقب الأول اسم ملك النوبة الموجّهة إليه الرسالة. ترجم الرسالة إلى اللغة الإنجليزيّة - في ذلك الوقت – الأستاذان: دكتور حمدي شوكت الأستاذ في الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة، والدكتور مارتن هندز الأستاذ في جامعة كمبردج. وقد نشر عالم الآثار المشهور مارتن بلوملي J. Martin Plumley الترجمة الإنجليزية للرسالة في مجلة الآثار المصريّة[1]. ورأيت أن أشرك القراء الكرام الاطلاع على محتويات هذه الرسالة بترجمة محتواها إلى اللغة العربيّة – ملحقًا في نهاية هذا الفصل - إلى أن نتمكن من العثور

1 Martin Blumley, "*An Eighth-Century Letter to the King of Nubia*" Journal of Egyptian Archeology Vol. 61 (1975) p. 241 – 246.

على نص الرسالة الأصليّة باللغة العربيّة، التي نرى أن نشرها ضرورةٌ تتيح للدارسين والمهتمين بالتاريخ والتراث السوداني الاطلاع عليها.

الرسالة معنونة إلى «صاحب النوبة ومقرّة» وتقول: أنت تعلم اتفاقنا معك، والذي التزمت بتنفيذه لتحفظ دمك ومالك». ثم وضحت الرسالة أن الجانب المصريّ وفَى بما التزم به في الاتفاق بحفظ دمك ومالك، وأشارت إلى الأمان الذي يتمتع به مواطنو مقُرّة وتجارها في مصر، ثم تنتقل الرسالة إلى جانب ملك مقُرّة وتوضح له عدم التزامه بما وافق عليه.

فصلت الرسالة بين منطقتي النوبة ومقرّة، إذ خاطبت الملك بـ «ملك النوبة ومقرّة»، بما يوضح أن إطلاق لفظ النوبة كان حتى ذلك الوقت (منتصف القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي) يطلق على الجزء الشمالي من المملكة، والذي كان فيما سبق يعرف عند المسلمين بمملكة «مريس»، وفي المصادر اليونانيّة والرومانيّة بمملكة «نوباديا».

أشار الخطاب إلى الاتفاق الذي وقع بين ملك مقُرّة والمسلمين في مصر، جاء فيه الآتي: «تعلم الاتفاق الذي وقع معك»، ولم أر النص العربيّ، ولكن الترجمة الإنجليزيّة للنص جاءت هكذا: «You (sing.) know that about which agree-ment was made with you» ففي هذا إشارة إلى اتفاق موقّع بين والي مصر وهذا الملك. أي أن الإشارة هنا لا ترجع إلى اتفاق سابق لعصر هذا الملك، بل تعود إلى اتفاق وُقِّع معه.

تطرقت الرسالة أيضًا إلى تنظيم العلاقات بين الجانبين فيما يتعلق بمسألة رقيق المسلمين الفارّين إلى بلاد مقُرّة. وأشارت إلى أنّ الملك لم يوف بما عليه من البقط المقرر عليه، مما يوضح أنّ الاتفاق الذي وقّع مع الملك تضمن اتفاق البقط القديم، ولكن لم يحدد الخطاب نوع ما ينبغي دفعه، ولا مقداره. لكن في سطور تالية وضح الخطاب أن ما أرسله الملك من قبل لم يكن مطابقًا للشروط المتفق عليها، ووضح الخطاب أن البقط لم يرسل لعدّة سنوات.

وبينت الرسالة أن العلاقات التجارية كانت متّصلة بين الطرفين، وكانت في بعض الأحيان تؤدي إلى التوتر في تلك العلاقات، رغم النص في الاتفاقيات على ضرورة مراعاة سلامة التجارة والتجار في البلدين.

وقد بينت الرسالة الجوانب التي نقضت فيها مملكة مقُرّة الاتفاق، وهي: عدم تقديم البقط كما تم الاتفاق عليه، وتعرض التجار المسلمين لمصادرة أموالهم وحبسهم، وحبس الرسل الموفدين إلى مملكة مقُرّة، وعدم رد عبيد المسلمين الفارين إلى مقُرّة. وتوضح الرسالة أسماء التجار الذين تعرضوا للحبس ومصادرة أموالهم.
وطلبت الرسالة من الملك سرعة الإفراج عن المبعوثين المعتقلين، ورد من لجأ إلى بلادهم من عبيد المسلمين وأهل الذمة، ورد التاجر محمد بن زيد وثروته، أو دفع الدية إن كان قد قتل، وإرجاع التاجر سعد الذي تم اعتقاله أولًا، ويكون كل ذلك سريعًا. ووضحت الرسالة لملك مقُرّة أنه إذا كان يرغب في أن يلتزم الجانب المصريّ بالاتفاق ويستمر كما كان من قبل، فعليه أن يسرع بتنفيذ ما طلب منه.

وتوضح الرسالة عقد محكمة في القاهرة للنظر في تلك القضايا، حضرها مندوب ملك مقُرّة، حيث ذكر المندوب أن السلطات المقرّيّة اعتقلت التاجر لأنّها ظنّته أحد أفراد البجة المطلوبين للسلطات المقرّيّة. وأصدرت المحكمة قرارها القاضي بالأفراج عن التجار ورد ممتلكاتهم[1]. وإلى جانب ذلك يمكن إبداء الملاحظات التالية على الرسالة:

ذكر بلوملي في تعليقه على النص أن «البقط» لم يذكر في الوثائق المكتوبة باللغة القبطيّة، والتي عثر عليها مع هذا الخطاب[2]. ويدل ذلك على أن مملكة مقُرّة ربما لم تعترف بدفع السبي المتفق عليه بين عبد الله بن سعد وملك مريس (نوباديا)، باعتبار أن مملكة مقُرّة لم تكن طرفًا في ذلك الاتفاق الذي وقعه عبد الله بن سعد مع مملكة مريس، أو أن أهل مريس ومقرّة لم يكونوا يطلقون أو يعرفون ذلك

1 مارتن بلوملي، مجلة الآثار المصريّة العدد رقم 61 عام 1975 صفحات 241 – 246. انظر تفاصيل أوفى عن محتوى الرسالة في الملاحق.

2 Martin Blumley, Ibid.

الاتفاق باسم البقط.

ومن الجدير بالملاحظة هنا الحديث عن أهل الذِّمَّة في النص، والذين من الممكن لجوؤهم إلى مملكة مقُرّة، فمن هم أهل الذمّة هؤلاء؟ أهل الذمّة هنا مقصود بهم الأقباط. ونحن نعرف أن الأقباط تعاونوا مع المسلمين في فتح مصر ضد البيزنطيّين، مما يوضح حسن العلاقات بين الجانبين في الفترة التي صاحبت فتح مصر، وحروب ابن أبي سرح في جنوب مصر. وقد تحدث المقريزيّ عن بداية ثورات القبط في عام 107 هـ/ 725 م عندما زاد متولي الخراج عبيد الله بن الحبحاب عما كان يدفعه الأقباط سابقًا. وظلّت الثورات مشتعلة حتى القرن الثالث الهجريّ كما تتبعها المقريزيّ[1]. فأغلب الظنّ أن أهل الذمّة هنا قُصد بهم القبط بعد بداية ثوراتهم على الدولة بعد عام 107 هـ.

---

1 المقريزيّ، تاريخ الأقباط، المعروف بالقول الإبريز: [illegible] وتحقيق د عبد المجيد دياب دبي: دار الفضيلة تاريخ [illegible] دار الكتب 1988 [illegible] 96، [illegible]، 262 - 265.

681

العلاقات في عصر الخليفة المعتصم 219 - 231 هـ

ورد عند المقريزيّ أن والي مصر عبد الله بن طاهر كان يبحث عن شروط الصلح مع النوبة في عام 211 هـ فأخبره أحد المشائخ بها. وكان من بين بنودها الخمر، فاستنكر الوالي وجود الخمر فيما يقدمه المسلمون. وذكر راوي الخبر أن الوالي وجد ما أخبره به عن الاتفاق محفوظًا في كتاب في الديوان[1]. ولسنا ندري الأسباب التي أدت بوالي مصر إلى البحث عن شروط الصلح مع مملكة مقُرّة، هل تأخر المقُرّيون عن دفع ما التزموا به، أم أنهم دخلوا مع المسلمين في حرب جديدة وتطلب الأمر مراجعة الشروط القديمة؟.

- ويبدو أن تطورًا واضحًا قد حدث في العلاقات بين المسلمين وبين مملكة مقُرّة وبلاد البجة، عندما تولى المعتصم بن هارون الرشيد إدارة مصر، قبل أن يتولى الخلافة. فقد أبدى المعتصم اهتمامًا واضحًا بتلك العلاقات، وبدأ في مراجعة الشروط القديمة مع مقُرّة وبلاد البجة. كما أهتم أيضًا بمراقبة العلاقات بين بطارقة الكنيسة في مصر وممالك مقُرّة وعلوة والحبشة، فقد ذكر ابن المقفع أن المعتصم «جعل حفظة على طريق الحبشة والنوبة»[2]، والغرض من ذلك مراقبة الطرق لرصد الرسائل المتبادلة بين تلك الممالك والكنيسة في مصر.

وقام المعتصم بمراجعة الاتفاقيات بين مملكة مقُرّة والمسلمين، فقد ذكر المقريزيّ أنّه وجد أن ما يدفعه المسلمون إلى المقُرّيين أكثر مما اتفق عليه الجانبان في معاهدة

---

1 المقريزيّ، المواعظ والاعتبار في مسعد، المكتبة السودانية ص 304.

2 ساويرس بن المقفع، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية في مسعد، المكتبة السودانية ص 84.

«البقط»، كما أنكر وجود الخمر فيما يدفعه المسلمون[1]. ومن الطبيعي أن تأتي تلك الزيادات من التعديلات المتكررة التي أُدخلت على اتفاق عبد الله بن سعد الأول. وذكر ابن المقفع أن المعتصم كتب إلى ملك النوبة «يطلب خراج أربع عشرة سنة، ويهدده بالحرب إن لم يفعل ذلك»[2].

ويلاحظ أن المصادر القبطية لا ترجع إلى اتفاق المسلمين مع النوبة باسم «البقط» إلا نادرًا، وقد استخدم ابن المقفع هنا لفظ «خراج» وهو يعني الرقيق المتفق عليه، وهو استخدام غير صحيح، لكنّه يدل على أن اسم ذلك الصلح لم يكن واضحًا لدى المؤلفين حتى في ذلك الوقت المبكر (القرن العاشر الميلادي).

وكان كاتب حاكم الصعيد مسيحيًّا فكتب للبطرك يخبره بمحتوى ما كتبه المعتصم لملك مقُرّة، فكتب البطرك إلى ملك مقُرّة أن يقوم بالوفاء بما عليه للمسلمين لئلا يعرض بلاده للحرب والهلاك. وذكر ابن المقفع أن البطرك أرسل الرسالة عن طريق والي أرض المعدن المقيم بأسوان. فأرض المعدن ببلاد البجة لم تكن تابعة لوالي مصر.

ووضح ابن المقفع أنه لم يكن متيسّرًا لملك مقُرّة تقديم متأخر أربع عشرة سنة من الرقيق، وطلب منه ابنه جورج (ويكتب أيضًا قيرقي أو جرجة) عدم دفع ما طلب منه لما فيه من علامات الخضوع للمسلمين. ويلاحظ أن الخلاف يدور دائمًا بين المسلمين والمَقُرّيين حول دفع البقط. ويبدو أنه من بين الأسباب في ذلك أن المسلمين لم يكونوا ملتزمين بدفع مقابل الرقيق الذي يدفعه المَقُرّيون، وقد ورد في بعض المصادر أنه لا التزام عليهم بذلك كما سنوضحه في الفصل التالي. وقد يكون من بين الأسباب أيضًا أن اتفاق عبد الله بن سعد لم يوقع في الأساس مع مملكة مقُرّة، بل وُقّع مع مملكة مريس (نوباديا) فلم ير المَقُرّيون ما يلزمهم بدفعه.

وفكر الملك زكريا في الذهاب إلى بغداد لمناقشة القضيّة، لكنه كان يخشى على عرشه من البربر المخالفين له. ولم توضح المصادر المتاحة من هم أولئك البربر الذين

1 المقريزيّ، المواعظ والاعتبار في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 305.

2 ساويرس بن المقفع، المصدر السابق ص 85 وانظر كذلك المقريزيّ، المصدر السابق ص 305.

يخشاهم، ولم يرد ذكر البربر داخل مملكة مقُرّة. وربما كان يشير إلى بربر لواتة، الذين كانوا يسيطرون على الواحة الخارجة، وقد كانت هناك حروب بينهم وبين مملكة مقُرّة. وأخيرًا قرر إرسال ابنه جورج إلى بغداد «وضرب بالبوق وجعل مناديًا ينادي: إنه الملك بعدي، ثم أنفذه إلى مصر صحبة الرّسل الواصلين من مصر مع هدايا أعدها.»

صحب الأمير المقُرّي في رحلته «رئيس البجة»، كما عبّر المقريزيّ، وذكر أنه كانت لديه أسبابه الخاصة التي دعته إلى ذلك. وعند وصول الأمير مصر اجتمع بالبطرك أنبا يوساب. ثم سار إلى بغداد، وذكر المقريزيّ أنّ البلدان كانت تزَيَّن له على الطريق. واستقبله الخليفة استقبالًا لائقاً بمقامه، وقربه وأحسن إليه إحسانًا تامًّا، وقبل هديته. ورأى كثرة جيوش الخليفة وعظمة دولته، وعِظم العمارة التي شاهدها على الطريق.

وتناولت المفاوضات أمورًا متعددة، ووجدت مطالب الأمير القبول من الخليفة. ووافق على إعفائهم مما كان عليهم من البقط، وجعل دفعه مرة كل ثلاث سنوات بدلًا عن كلّ سنة، وأجرى لهم في ديوان مصر عند وصول البقط سبعمائة دينار، وأشياء أخرى نذكرها في الفصل التالي. وكتب له الخليفة كتابًا بذلك بقي في يد النوبة كما عبر المقريزيّ. وافق الخليفة على إطلاق سراح المقُرّيّين المحبوسين في مصر. ووهب له الدار التي نزل بها في بغداد، وأمر بشراء دار له في كل منزل ينزله على الطريق، لتكون دورًا لرسلهم. وكان الأمير قد امتنع عن دخول دار أحد في طريقه[1].

وقد تناول المقريزيّ أحداثًا أخرى تالية لأحداث اجتماع الأمير بالخليفة، ولا يوجد ما يؤكد أو ينفي تبعيتها لما تم الاتفاق عليه مع الخليفة. فقد خاطب الأمير فيها بلقب «الملك»، بينما كان يخاطبه سابقًا باسمه مجردًا. فذكر أن الملك طلب: أشياء غير ذلك، من إزالة المَسْلحة المعروفة بالقصر عن موضعها، إلى الحد الذي بينهم وبين المسلمين، لأن المَسْلحة على أرضهم، فلم يجبه المعتصم على ذلك». كما ذكر أيضًا قضية المسلمين من أهل أسوان الذين اشتروا أرضًا من النوبة، واحتجّ ملك مقُرّة بأنه لا يحق لهم بيعها. وقد ذكرت هذه الحادثة في عصر الخليفة المأمون

1 ابن المقفع، المصدر السابق ص 85 والمقريزي، المصدر السابق ص 305.

أيضًا وتناولناها في مكانها. وقد وردت هنا مطابقة لما ذكر من قبل ولكن بنوع من الاختصار[1].

لا تمدنا المصادر العربية بما يمكّن من تعرّف علاقات مملكة مقُرّة والمسلمين بصورة واضحة، في الفترة الواقعة بين عصر الخليفتين: أبي جعفر المنصور، والمهدي. فقد أوردت المصادر أخبار حملة خرجت من مصر إلى بلاد مقُرّة ضمن الغارات التي لم تتمكن من فتحها. فقد ذكر كل من النويريّ وابن الفرات:

«ثم غزاها يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، على يد عبد الأعلى بن حميد»[2]، ولم تمدنا المصادر بغير هذا النص عن هذه الحملة. فالحملة أرسلها يزيد بن أبي حاتم الذي كان واليًا على مصر 145 – 164 هـ/762 – 780 م في عصر الخليفتين العباسيّين أبي جعفر المنصور 137 – 159 هـ والخليفة المهديّ 159 – 169 هـ.

ذكر البلاذري أن المهديّ «أمر بإلزام النوبة بدفع زرافة، كما وافق على أن تدفع مملكة مقُرّة البقط مرة كل ثلاث سنوات بدلاً عن دفعه كلّ سنة.[3] ومن الممكن أن يكون هذا التعديل في الاتفاق مع مملكة مقُرّة قد تم بعد الحرب التي نشبت بين الجانبين في ولاية يزيد بن أبي حاتم على مصر. غير أننا لا ندري عنها أكثر من ذلك.

كما شهدت هذه الفترة أيضًا بعض الأحداث التي كان لها دور واضح على العلاقات بين المسلمين في مصر والسودان، لعل أبرزها تحركات العمري في مناطق الصحراء الغربيّة المجاورة لمملكة مقُرّة.

1 المقريزي، المصدر السابق ص 306.

2 النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب** في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 222، وابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك** في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 259.

3 البلاذري، **فتوح البلدان** في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 27. انظر النص في الملحق.

جدول رقم 2: العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين خلال القرنين 8 – 9 م

التاريخ – ميلادي	الحدث	المصدر
718 - 719	إقرار الولاة والأمراء للصلح المشهور باسم صلح البقط (السبي مقابل الطعام)	الطبريّ في مسعد ص 36
723 - 742	غزو مقُرّة: الخليفة هشام	النويريّ وابن الفرات (مسعد ص 222 و258)
749	غزا كرياكوس ملكُ مقُرّة مصرَ	تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني (مسعد ص141)
758	رسالة والي مصر إلى ملك مقُرّة	مجلة الآثار المصريّة، انظر حاشية رقم 10
754 - 775	غزو مقُرّة: عصر المنصور	النويريّ وابن الفرات (مسعد ص 222 و258)
775- 785	مراجعة: الخليفة المهديّ للصلح (للبقط)	البلاذريّ (مسعد ص 27)
826	مراجعة والي مصر للصلح (للبقط)	المقريزيّ (الخطط مسعد ص 304)
834 - 845	مراجعة الخليفة المعتصم للصلح (للبقط)	المقريزيّ (الخطط مسعد ص 305)

أطماع وحروب العمريّ في مملكة مقُرّة

تناولت بعض المصادر باختصار شديد – باستثناء المقريزيّ – مثل: ابن سُليم، وابن كثير، وابن خلدون، والبلاذريّ، والمقريزيّ، أحداث صراع العمريّ مع قبائل ربيعة، في منطقة التعدين ببلاد البجة، وحروبه لابن طولون، وأحد العلويين الثائر ضد الطولونيين في صعيد مصر. غير أن المقريزيّ في كتابه «المقفى»، أورد تفاصيل وافية عن أحداثه في مملكة مقُرّة، وهو ما سنتتبعه هنا، أما أحداث صراعه في بلاد البجة فسنتناوله في الفصل الثالث، عند الحديث عن علاقة البجة بالمسلمين.

يرجع نسب أبو عبد الرحمن العمريّ إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وقد تجول في شمال إفريقيا، واستقر به المقام في مصر. وبدأت علاقته ببلاد النوبة – كما ذكر المقريزيّ[1] - عندما دخل أسوان عام 141 هـ ثم دخل أرض المعدن حيث قبائل مضر. وحدثت حرب بين مضر وربيعة، هُزمت فيها مضر، وتقهقرت جنوبًا في أرض المعدن.

وقد وصل العمريّ مع أتباعه إلى المناطق الصحراويّة الواقعة في الحدود الجنوبيّة لمملكة مقُرّة، بالقرب من منطقة أبو حمد. ولم يكن الماء متوافرًا في منطقتهم، فرأوا طيرًا يتجه نحو الجنوب فأيقنوا بوجود الماء في ذلك الاتجاه. وأرسل العمري بعضًا من رجاله فوجدوا النيل على مسافة ليست بالبعيدة، فحملوا الماء. لكن عندما علمت السلطات المقرّيّة بذلك لم تسمح لهم بالورود إلى النيل.

وكانت مملكة مقُرّة كما وضحنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب لا تسمح بدخول المسلمين أراضيها خشية أن يطمعوا في التوسع جنوبًا، خاصة وأن مملكة

---

1 المقريزيّ، كتاب المقفى في مسعد، المكتبة السودانيّة صفحات 355 – 371 اعتمدنا في المعلومات الواردة هنا على هذا المصدر، وإذا أوردنا رأي مؤلف آخر سنشير إليه في مكانه.

مقُرّة تتمتع بموارد تجاريّة غنيّة، وعلى رأسها الذهب. ولذلك أقامت مراكزَ للمراقبة على النيل، لكي تمنع تسلل الأجانب داخل أراضيها، خوفًا من تسرب المعلومات التي تساعد على التخطيط لتوسع المسلمين جنوبًا. ولذلك لم تسمح السلطات المَقُرّيّة بوجود المسلمين على حدودها الجنوبيّة الشرقيّة، خاصة وأنه لا توجد مراكز مراقبة أو جنود يقومون بالدفاع عن تلك المناطق. وعندما لم تسمح السلطات المَقُرّيّة للعمريّ بورود الماء، وفشلت المفاوضات في التوصل إلى حلّ لذلك، نشبت الحرب بين الجانبين. ويبدو أن المَقُرّيّين لم يستعدوا استعدادًا جيّدًا للحرب، لعدم وجود قوات كافية لديهم، في منطقة لم يكونوا يتوقعون وجود أعداء فيها، أو هجوم يأتي من ناحيتها. أو لأن المَقُرّيّين لم يقدروا قوة العمريّ تقديرًا صحيحًا. وكانت النتيجة هزيمة المَقُرّيّين.

تقهقرت جيوش مقُرّة على النيل داخل أراضيها، فتبعهم جنود العمريّ. ويبدو أن هزيمة المَقُرّيّين كانت قاسية، لأنّ المقريزيّ ذكر أنّ العمريّ «قتل منهم مقتلة عظيمة، وكثُر السبي عند أصحابه، حتى أن أحدهم كان يحلق رأسه فيُعطي المزيِّن رأسًا». أي من السبي. وتتبّع العمريّ جيش مقُرّة، وتمكّن من الاستيلاء على بعض المراكب، مما مكّنه من مطاردة المَقُرّيّين في الجزر القريبة من المنطقة.

وقد قوّى هذا الانتصار مركز العمريّ في المنطقة، فكتب إلى تجار مدينة أسوان بما تم إنجازه، وطلب منهم المؤن والعون. ويبدو أن انتصار العمريّ قد وجد صدى واسعًا في أسوان، لأن هذا الانتصار يعني فتح طرق التجارة إلى الداخل عبر الصحراء، والتخلّص من مراقبة واحتكار مملكة مقُرّة على طريق النيل. فقد ذكر المقريزيّ أن أحد أعيان أسوان خرج إلى العمريّ «في ألف راحلة فيها الجهاز والبُر».

يشير بعض المؤرخين إلى أن العمريّ فكّر في إقامة إمارة إسلاميّة في المنطقة، ويبدو ذلك مقبولًا، لعدة فروض، لعل أهمّها:

- التمكن من الاستقرار في مناطق التعدين بالقرب من النيل: حيث يتوافر الإمداد المستقرّ بالميناء التجاريّ مع مملكة علوة جنوبًا، حيث حريّة التجارة أكبر، وتشجيع مملكة علوة للتجارة مع المسلمين.

- إنّ القبائل العربيّة التي أوقف الخليفة العباسيّ عطاءها من الديوان قد خرجت بمجموعات كبيرة إلى أرض المعدن بحثًا عن مصدر للرزق.
- وجود إمارة أو دولة إسلاميّة إلى الجنوب من حدود مملكة مقُرّة ذات الصلات غير المستقرّة والعدائيّة في أغلب الأحوال يعد نصرًا للقوة الإسلاميّة في مصر.

وإذا قبلنا هذه الفرضيات، فكيف كان موقف السلطات الحاكمة في مصر، وموقف مملكة مقُرّة من تلك التطورات؟ كانت الأوضاع في مصر قد تغيرت منذ تعيين أحمد بن طولون واليًا على مصر، ومتابعته لسياسة تقوية نفوذ العنصر التركيّ، وإبعاد العنصر العربيّ من مركز الصدارة الذي تمتع به في الدولة الإسلاميّة منذ نشأتها. ومن هذا المنطلق، ورغم المكاسب التي قد تحققها إمارة إسلاميّة جنوب حدود مملك مقُرّة، إلا أنه يبدو من الصعب على ابن طولون التركيّ قبول ذلك، وكما سنرى فقد حاول القضاء على سلطة ابن طولون في صعيد مصر فيما بعد.

أما مملكة مقُرّة، فمن الصعب عليها تحمّل وجود عناصر عربيّة مسلمة، أو إمارة عربيّة على حدودها الجنوبيّة، مما يجعلها محاصرة من الشمال والجنوب بالمسلمين الذين ما فتئت تحاربهم منذ دخولهم مصر، كما لاحظنا ذلك في بداية هذا الفصل. ولذلك تحرك الملك القريّ قيرقي بن زكريا كما تكتبه المصادر العربيّة أو جورج بن زكريا كما تكتبه المصادر القبطيّة وأعد جيشًا كبيرًا، أسند قيادته لقائد كفء كما وصفه المقريزيّ، وهو نيوتي بن قشما.

ذكر المقريزيّ أن معارك متعددة و«وقائع يطول شرحها» حدثت بين ابن قشما والعمريّ، دون أن يتمكن أحد الطرفين من تحقيق انتصار حاسم. ولم يوضح المقريزيّ تفاصيل ذلك الصراع ولا مكانه، وأغلب الظنّ أن ذلك حدث في مناطق معدن الشنكة التي حدثت فيها المعركة الأولى. وأخيرًا تصالح ابن قشما والعمريّ على وقف الحرب بينهما، واعترف ابن قشما بسيطرة العمريّ على ما تحت يده من مناطق. وأغلب الظنّ أن تلك المناطق شملت منطق التعدين الصحراويّة المجاورة للنيل، إضافة إلى بعض المناطق على النيل على حدود مملكة مقُرّة الجنوبيّة.

ويبدو أن ابن قشما قد وقّع ذلك الاتفاق مع العمريّ دون موافقة جورج ملك مقُرّة، ولذلك أعد الملك جورج جيشًا آخر بقيادة ابنه الأكبر وأرسله لقتال العمريّ. ومرة أخرى لا يورد المقريزيّ تفاصيل الصراع بين الأمير- ابن الملك – والعمريّ، واختصر ذلك في أنّ عدة معارك دارت بين الجانبين، ولم يتمكن ابن الملك من هزيمة العمريّ. بل يبدو أن التفوّق في ذلك الصراع الطويل كان في جانب العمريّ، لأن المقريزيّ ذكر أن الأمير المَقُرّيّ لجأ إلى مملكة علوة التي ساعدته في حربه ضد العمري، وأخيرًا استجار الأمير بملك مقُرّة لمدة أربع سنوات.

ويوضح هذا أن العمريّ قد تطوّرت قوته، وربما توسّعت حدوده داخل مملكة مقُرّة. وكان وجود العمريّ في أراضي مملكة مقُرّة يزعج الملك جورج، الذي أعد جيشًا آخر أسند قيادته لابنه زكريا. وكان رأي الأمير زكريا معالجة موضوع ابن قشما أولًا، والذي لا يزال تحت يده قوة كبيرة. ويبدو أن العلاقة قد ساءت بينه وبين الملك منذ عقده الصلح منفردًا مع العمريّ.

وافق الملك على خطة ابنه الذي اتفق مع العمريّ ألا يتدخل في الصراع بينه وبين ابن قشما، ووافق العمريّ أن يكون على الحياد في ذلك الصراع. وبعد معارك متعددة دارت الدائرة على الأمير زكريا، وانهارت قواته، بعد معارك متعددة أمام ابن قشما، وأخيرًا اختار الأمير أن يقع في يد العمريّ بدلًا عن ابن قشما. فلجأ إلى معسكره باعتباره أحد قادة الأمير، ولما انفرد به أخبره أنه رسول الأمير وأن الأمير يطلب اللجوء إليه ويطلب الأمان منه. ولما تأكد الأمير من قبول العمريّ للطلب، أفصح له عن شخصه وأنه الأمير ابن ملك النوبة، وذكر المقريزيّ أن العمريّ سر بشجاعة الأمير وحسن تدبيره، فقبله في معسكره. ويبدو معقولًا أن العمريّ رأى في وجود الأمير بين يديه فرصة كبيرة لتقوية موقفه، وربما كان وسيلة للوصول إلى عرش مملكة مقُرّة نفسها. وتمكن الأمير من أن يكسب ثقة العمريّ.

ثم طلب الأمير من العمريّ مساعدته في القضاء على ابن قشما. ووضّح له أن أباه أصبح مسنًّا، وأن مُلك مقُرّة سيكون له بعد أبيه، ووعده بأنه سيزوجه من أخته زوجة ابن قشما، ويكون له حكم ما تحت يده من المناطق التي هو عليها الآن.

وكان هذا العرض بمثابة وسيلة لتحقيق كل طموحات العمريّ، فوافق على ذلك، لكنه أشار إلى صعوبة القضاء على ابن قشما، لما تحت يده من قوة كبيرة. غير أن الأمير وضح له بأنه سيتولى تدبير ذلك بخدعة أعدها لذلك، فوافقه على المشروع.

وكان ابن قشما قد كتب إلى العمريّ يطلب تسليم الأمير إليه، ولم يرد العمريّ عليه. فطلب منه الأمير أن يرد بالموافقة على تسليمه، وأن يرسله مع أربعة من خاصة رجال العمريّ كان قد تعوّد على أرسالهم في مفاوضات ابن قشما، وكان ابن قشما قد اطمأنّ إليهم. فأرسله العمريّ صحبة رجاله لمقابلة ابن قشما والاتفاق على شروط التسليم.

وسار بهم الأمير في زورق على النيل، ومنّاهم بوزن ابن قشما ذهبًا، لكلٍّ منهم لو تمكنوا من قتله. واتفق الأمير مع رجال العمريّ على أن يوثقوه بالحبال، ويذهبوا به حتى يكونوا على مقربة من مقر ابن قشما بحيث يسمع كلامهم. ولما وصلوا إلى المكان خاطبوا ابن قشما بأن العمريّ يقول لك:

> «إن الله قد أمكن من عدوّي وعدوّك، وإنّي قد راسلتك في أمره جوابًا على رسالتك تسأل أن أسلمه إليك، وتعطيني من المال كذا وكذا ومن الرقيق كذا وكذا. وقد وجهتُ بذلك مع فلان وفلان، إذ كانوا ثقاتي وأنت تأنس إليهم، فقرّر الأمر معهم، وخله إليك، وادفع إلى القوم ما توافقهم عليه».

وقال ابن قشما لرجال العمريّ: «أريد أن أراه قبل الدفع» فقالوا له: «افعل» فأُنزل إلى القارب ومعه جماعة من رجاله، فقالوا له: «نحن أربعة وتأتينا بجماعة كأنّك تريد أن تقهرنا عليه، وتأخذه بلا عوض؟» فأمر بعض أصحابه بالرجوع، وخرج في قلة من أصحابه ووُضع الأمير زكريا مقيدًا بين يديه. وأخذ ابن قشما يؤنّبه، ويعدد عليه قبائح أعماله، والأمير يعتذر. وكان الأمير قد اتفق مع رجال العمريّ أنه عندما يبكي يهجمون على ابن قشما ويقتلونه.

-ولما حانت الفرصة وانشغل ابن قشما في الكلام مع الأمير وتوبيخه، بكى الأمير، فباغت رجال العمريّ ابن قشما ورجاله فقتلوهم، وحلّوا وثاق الأمير. فذهب

الأمير إلى رجال ابن قشما ونادى فيهم «بأن الله قد غفر لكم ما قد سلف، وأحضر وجوه العسكر واستمالهم إليه»، ولما علم الجند بمقتل ابن قشما ودخول القادة في طاعة الأمير، أعلنوا طاعتهم.

استدعى الأمير رجال العمريّ وشكرهم على ما قاموا به من عمل جليل، وأمر بالإحسان إليهم، وأجزل لهم العطاء، وذهب إلى أخته زوجة ابن قشما وأخبرها أمام رجال العمريّ أنه سيزوجها من العمريّ فرضيت، ودفع لها معجلًا عن العمريّ. وأمر رجال العمريّ أن يكتبوا إليه بما جرى، وكتب هو أيضًا، وأرسل الكتب، وأخبره بأنه سائر نحوه بجيش ابن قشما الذي أصبح جيشه الآن، ووصلت الأخبار للعمريّ فسُرَّ بها.

ثمّ بدأ الأمير زكريا تنفيذ الجزء الثاني من الخطة التي أعدها بدقّة للتخلص من العمريّ. فبدأ بقتل رجاله الذين أتى معهم، وقد كان العمريّ ورجاله في استقبال الأمير، ففوجئوا بالهجوم عليهم بذلك الجيش الكبير، وقتلت منهم أعداد هائلة، وفر من استطاع النجاة. وكان العمريّ قد مر مع من نجا إلى بعض الجزر، وبدأوا يتجمعون ويعيدون تنظيمهم، فدسّ إليهم الأمير من قاد قواربهم عبر مكان خطر بين الصخور، فتحطمت مراكبهم، وغرق كثير منهم، ونجا بعضهم، بما فيهم العمريّ.

وتمكن العمري من تنظيم ما تبقى من جماعته، وذكر المقريزيّ أنه استعاد قوته «حتى هابته النوبة»، غير أنه لم يوضح ما إذا كانت قد وصلته جماعات جديدة من القبائل العربيّة. وكتب إليه زكريا أنه لا يرغب في حربه وعليه مغادرة أراضي مملكة مقُرّة. ويبدو أن موقف العمريّ لم يتأثر بهذه الهزيمة، وبدأ في مراوغة زكريا لمدة عام كامل كما ذكر المقريزيّ. وحانت الفرصة لزكريا لإضعاف قوة العمريّ، عندما بدأ النزاع بين القبائل القيسيّة والشاميّة في جنود العمريّ، إذ اتهم الشاميّون العمريّ بمحاباة القيسيّة ضدّهم، وكان العمريّ الذي ينتمي إلى قبيلة قريش أقرب من ناحية النسب إلى القيسيّة.

وعلم زكريا بذلك عبر جواسيسه الذين كان يبثهم بين جنود العمريّ، واتصل بالشاميّين، ومنّاهم بأجزل العطاء لو تركوا العمريّ. ووافق الشاميّون على العرض، واتصلوا بزكريا الذي أوفى لهم بوعده، وأعطاهم ما يريدون، ثم أقطعهم كما قال المقريزي: «دون الجندل الأولى من بلد مريس من ناحية يقال لها أدندان وأدوى»، وتقع هذه المناطق على مسافة غير بعيدة شمالي وادي حلفا. ففارقوا جيش العمريّ إلى إقطاعاتهم.

ولما ضعف موقف العمريّ تقهقر من النيل إلى مناطق المناجم، على بعد ثلاث مراحل من النيل، وعملوا في التعدين. ويبدو أنهم حققوا نجاحًا في أعمالهم التعدينيّة، وربما وفد إليهم المزيد من القبائل، مما أدى إلى استعادة قوته، وربما راودته أطماعه القديمة في تأسيس إمارة على النيل، لأنّه بدأ يغير على المناطق النيليّة. ومن المتوقع أن يشرع زكريا في التصديّ للعمريّ، فقد راسل العمريّ قبيلة سعد العشيرة القيسيّة التي فارقته واستقرت في الإقطاعات التي منحها لهم زكريا.

استجاب القيسيُون للعمريّ وأتوه، غير أنه خطا نحوهم خطوة لم يتعرض المقريزي لسببها وضعت نهاية لقوة العمريّ في المنطقة. فقد فاجأ العمريّ القيسيّين حين وصولهم إليه مسالمين، بالهجوم عليهم، وقتل منهم كما ذكر المقريزيّ «ألف وخمسمائة، وقبض على من بقي، فقطع أيديهم وأرجلهم، وتركهم حتى ماتوا»، وهاجمه زكريا بعد ذلك فتقهقر أمامه على النيل، إلى أن وصل بالقرب من أسوان.

لم يعد العمري بعد ذلك إلى أراضي مملكة مقُرّة، فقد دخل في حروب في صعيد مصر أمام جيش ابن طولون وانتصر عليه، ثم حرب أخرى مع بعض العلويّين، ثم توجه إلى مناطق التعدين في بلاد البجة، حيث دخل في صراع جديد مع قبائل ربيعة، وانتهت تلك الأحداث بقتله عام 255 هـ كما سنفصل في ذلك عند الحديث عن منطقة البجة في الفصل الثالث.

العلاقات بين القرنين
الثالث والسابع الهجريين (9 - 13م)

شهد منتصف القرن الثالث الهجري (9م) تحولًا كبيرًا في تاريخ الخلافة الإسلاميّة. فقد انحسرت سلطة الخلافة المركزيّة في بغداد إلى مساحات صغيرة من بلاد ما بين النهرين، وفي بعض الأحيان فقد الخليفة سلطته السياسيّة حتى على تلك المناطق. لكن ظلت سلطة الخلافة الروحيّة معترفًا بها من الدول السُّنيّة التي قامت ما بين: الهند شرقًا، والمحيط الأطلسي غربًا. ولذلك أطلقنا على هذا العصر عصر اللامركزيّة للخلافة الإسلاميّة.

وقد تأثرت مصر بتلك التحولات فظهرت فيها – بعد ولاية أبو منصور تكين التركي - أسر تولت الحكم، وأقامت دولًا عرفت بأسماء مؤسسيها. وتمتعت تلك الدول بالاستقلال الإداريّ عن الخلافة في بغداد، مع اعترافها بالخليفة رأسًا للأمة السُّنيّة. والدول التي تعاقبت على حكم مصر، وقادت علاقات المسلمين بالسودان في هذه الفترة، هي: الدولة الطولونيّة، ثم الدولة الإخشيديّة، ثم الدولة الفاطميّة الشيعيّة، ثم الدولة الأيوبيّة، فدولة المماليك. ونبدأ بتتبع العلاقات في عصر ولاية تكين التركيّ، ثم نتناول العلاقات في عصر تلك الدول.

العلاقات في عهد ولاية تكين التركيّ على مصر

لم تتطرق المصادر العربيّة إلى العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين في مصر بعد أحداث العمريّ وحتى نهاية القرن الثالث الهجري (9 م). ومع بداية القرن الرابع الهجريّ وردت بعض المعلومات عن العلاقات بين الجانبين، فقد ذكر كلّ من النويريّ وابن الفرات: أنّ أبا منصور تكين التركّي غزا مملكة مقُرّة.[1]

ولم يوضح المصدران زمان تلك الغارة أو المكان الذي وصلت إليه، كما لم يوضحا ما حدث في المعركة وما تمخض عنها من نتائج، بل أشارا فقط إلى أن مملكة مقُرّة لم تفتح. أي أن ما حدث كان مجرد غارة دخلت فيها جيوش المسلمين أراضي مملكة مقُرّة، وأغلب الظنّ أن المعارك كانت على الأطراف الشمالية من مملكة مقُرّة، إلى الشمال من منطقة إبريم، وهي المناطق التي تكررت عليها غارات المسلمين كما سيتضح لاحقًا.

وقد تولى أبو منصور تكين التركي ولاية مصر ثلاث مرات، بين عام 297هـ/ 909م ووفاته عام 321 هـ/ 933 م كما جاء في كتاب ولاة مصر[2]. وقد ورد اسمه «تكين» عند كلٍّ من: الكندي، وابن الفرات، بينما ورد عند النويريّ «مكين» بالميم بدلًا عن التاء. ولم يتعرض الكنديّ لغارته على مملكة مقُرّة عندما ترجم له في دوراته الثلاث على ولاية مصر. ولكنه تعرض إلى حروب حدثت بين مصر وبرقة في نهاية عهد ولايته الأولى عام 302 هـ/ 914 م.

---

1 النويريّ، المصدر السابق ص 222، ابن أبي الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 258.

2 الكنديّ، ولاة مصر، موقع الوراق، صفحات 81 – 85.

وقد ذكر كلٌّ من: النويري، وابن الفرات، أن غزو مملكة مقُرّة تم في نفس العام الذي غزا فيه منصور برقة. ويتضح مما ذكره الكنديّ أن منصورًا أرسل حملة إلى برقة في نهاية ولايته الأولى عام 302 هـ ورغم أن الخلافات ظلت مستمرة بين والى مصر ومنطقة برقة، إلا أنّ الكنديّ لم يذكر إرسال والي مصر جيشًا إلى برقة غير الحملة الأولى، مما يرجح أن حملة والي مصر إلى مملكة مقُرّة كانت عام 302 هـ وهي السنة التي ذُكر فيها إرسال حملة إلى برقة.

ولا ندري ماذا كانت أسباب تلك الحملة، وأين وقعت الحرب ومن المنتصر والمهزوم فيها؟، كل ما أمدنا به المصدر هو أن مملكة مقُرّة لم تفتح في تلك الحملة. كما لا ندري شيئًا عن الشروط التي انتهت بها تلك الحرب، هل وقع اتفاق جديد؟ أم نشط اتفاق سابق بين الجانبين؟.

العلاقات في عصر الدولة الإخشيديّة

ويطالعنا النويريّ وابن الفرات أيضًا (جدول رقم 3) بأخبار غزوة أخرى على مملكة مقُرّة، بنفس الأسلوب المختصر جدًّا، حيث ورد:

ثم غزاها كافور الإخشيديّ، وكان أكثر جيشه السودان. قال الشاعر:

ولمـا غــزا كافــورَ دنقلــة غَــدَا بجيشٍ لطول الأرض من مثله عرضُ

غزا الأسودُ السودانَ في رونق الضّحى فلما التقى الجمعانِ أظلمت الأرضُ

ذكر الزِّركْلي أن كافورًا كان حبشيًّا[1]، وكانت كلمة حبش تطلق في تلك الأوقات ويراد بها منطقة الحبشة (إثيوبيا الحاليّة)، وتطلق أحيانًا ويراد بها مناطق واسعة من السكان السود وبلادهم (السودان وبلاد السودان) مثل مناطق: البجة، ومملكتي مقُرّة وعلوة المسيحيّتين، ومملكة كانم في تشاد. ولم أعثر على نصٍّ يوضح المنطقة التي ينتمي إليها كافور في بلاد الحبشة.

وقد ترجمت له العديد من كتب التراث، ونلخص هنا ما جاء عند المقريزيّ[2] الذي ذكر أن «كافور جُلِب إلى مصر وعمره عشر سنين فما فوقها، في سنة عشر وثلثمائة، وأصبح مملوكًا لمحمد بن هاشم، ثم انتقل إلى خدمة الأمير أبي بكر محمد بن طغج الإخشيد، فترقّى عنده في الخدمة حتى صار من خاصّة خدمه. ولما مات الإخشيديّ بدمشق، ضبط كافور الأمور، وداري الناس ووعدهم، إلى أن سكنت الدهماء، بعد أن اضطرب الناس، وجهز أستاذه وحمله إلى بيت المقدس، وسار إلى مصر فدخلها، وقد انعقد الأمر بعد الإخشيديّ لابنه أبي القاسم أونوجور واليًا على مصر».

1 الزركلي، الأعلام ج 5 ص 216.

2 المقريزيّ، المواعظ والاعتبار موقع الوراق ج 2 ص 160.

تمكن كافور بجدارة وشجاعة من حماية دمشق والرملة من هجوم سيف الدولة عليّ بن حمدان عليهما، فعظم شأنه، وأصبحت له مكانة سامية إلى جانب والي مصر أونوجور بن الإخشيد. وخاطبه القوّاد بالأستاذ، وصاروا يجتمعون عنده في داره فيخلع عليهم ويصلهم. وانبسطت يده في الدولة، فعزل وولى وأعطى وحرم، ودُعيَ له على المنابر كلها إلاّ منبر مصر والرملة وطبريّة، ثم دُعيَ له بها في سنة أربعين وثلثمائة، وصار يجلس للمظالم في كل سبت، ويحضر مجلسه القضاة والوزراء والشهود ووجوه البلد.

ولما توفى الأمير أونوجور في ذي القعدة سنة تسع وأربعين وثلثمائة، أقام أخاه أبا الحسن عليّ بن الإخشيد من بعده، واستبدّ بالأمر دونه إلى أن مات في محرّم سنة خمس وخمسين وثلثمائة. وتمكن كافور من إخراج كتاب من الخليفة المطيع بتقليده بعد عليّ بن الإخشيد على ولاية مصر.[1] لم يغير كافور لقبه بالأستاذ، ودُعيَ له على المنبر بعد الخليفة، وكان عدد مماليكه ألفًا وسبعين غلامًا تركيًّا، سوى الروم والمولدين.

وكانت مدّة تدبيره أمر مصر والشام والحرمين إحدى وعشرين سنة، وشهرين، وعشرين يومًا، ومات عن غير وصية ولا صدقة ولا مأثرة يذكر بها. ودعي له على المنابر بالكنية التي كناه بها الخليفة، وهي أبو المسك، أربع عشرة جمعة، وبعده اختلت مصر وكادت تدمر حتى قدمت جيوش المعز على يد القائد جوهر، فصارت مصر دار خلافة، ووجد على قبره مكتوب:

مـا بـالُ قـبرك يـا كافـورُ منفـردًا بصائحِ الموتِ بعدَ العسكرِ اللجبِ
يـدوسُ قـبركَ آحـاد الرجـال وقـد كانت أسُود الشرى تخشاك في الكتْبِ

ووجد أيضًا مكتوب:

انظـر إلى غِـيَرِ الأيـام مـا صنعت أفنـت أُناسًـا بهـا كانوا ومـا فنيتْ
دنياهـم أضحكـت أيـام دولتهـم حتى إذا فنيتْ ناحت لهم وبكت

1 ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ج 4 ص 314.

تناولت المصادر أخبار أربع حروب، وربما خمس، بين مملكة مقُرّة والمسلمين في مصر، إبان حكم الأسرة الإخشيديّة (323 – 358 هـ-934 – 968 م) ثلاث منها قامت بها مملكة مقُرّة: واحدة على الواحات، واثنتان على صعيد مصر، وقاد الإخشيديّون حملة على مملكة مقُرّة، أو ربما قادوا حملتين. وكالعادة وردت أخبار تلك الحروب مختصرةً جدًّا، فلم تتعرض المصادر إلى أسبابها، أو الأحداث التي صاحبتها، أو النتائج التي تمخّضت عنها.

ذكر المقريزيّ أن ملك مقُرّة سار عامْ 339 هـ/ 950 م «في جيش عظيم إلى الواحات، فأوقع بأهلها وقتل منها وأسر كثيرًا»[1]. ولم أعثر على أخبار هذه الحملة في المصادر التي تحت يدي. والواحات هي الواحات المصريّة الواقعة غربيّ النيل، مثل: واحة سيوة، والواحة الخارجة، والواحة الداخلة.

ويبدو مقبولًا أن تكون الإشارة هنا إلى الواحة الخارجة، وهي الواحة الجنوبيّة المطلة على بلاد النوبة ومناطق ما وراء الصحراء الكبرى. وقد اشتهرت هذه الواحة بنشاطها التجاريّ القديم، وبعلاقاتها السياسيّة والسكانيّة بوادي النيل، في مناطق الحدود المصريّة السودانيّة الحاليّة. وقد تمتعت هذه الواحة – كما ذكر المقريزيّ – باستقلال داخليّ، إذ لم تخضع للأسر التي تعاقبت على حكم مصر بعد دخول الإسلام.[2]

وقد أورد المسعوديّ بعض المعلومات عن بلاد الواحات، قبل سبع سنوات من تعرضها لغزو ملك مقُرّة، حيث قال:

> «وأما بلاد الواحات، وهي بين بلاد: مصر، والإسكندريّة، وصعيد مصر، والمغرب، وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم... وصاحب الواحات في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - عبد الملك بن مروان، وهو رجل من لَوَاتة، إلا أنّه مروانيّ المذهب، ويركب في ألوف من الناس خيلًا ورجلًا ونجبًا... وهو بلد قائم بنفسه، غير متصل بغيره، ولا مفتقر إليه، ويحمل من أرضه التمر والزبيب والأعناب، وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد

---

1 المقريزيّ، المواعظ والاعتبار في مسعد، المكتبة السودانية ص 313.

2 نفس المصدر موقع الوراق، ج 1 ص 22.

بن طغج، وذلك سنة ثلاثين وثلثمائة، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم.»[1]

ورغم أن الواحات لم تكن خاضعة للأسرة الاخشيدية إلاّ أنها كانت تمثل مركزاً تجارياً مهماً ربط مصر بمناطق ما وراء الصحراء بثرواتها التجارية المتعددة والتي ظلت مثار اهتمام كل القوى التي حكمت مصر منذ عصر الفراعنة وإلى وقت إزدهار درب الأربعين. ولذلك فإن دخول ملك النوبة المعادي للأسرة الاخشيدية في مصر لا بد وأن تكون له ردود فعل سلبية في مصر.

ورغم أن الأسرة الحاكمة في الواحات «كانت مروانيّة المذهب» كما عبر المسعوديّ، أيّ تميل إلى تأييد الأسرة الأمويّة أكثر من ولائها للأسرة العباسيّة التي تدين لها الأسرة الإخشيديّة بالولاء، رغم ذلك تبدو العلاقات طيبة بين الأسرتين، فقد وجد المسعوديّ – كما ذكر أعلاه - رسول حاكم الواحات في بلاط الإخشيديّين في مصر، مما يشير إلى حسن العلاقات. إلى جانب أن المصادر العربية لم تتحدث عن حروب أو ما يشير إلى توتر العلاقات بين الأسرة الإخشيديّة والأسرة الحاكمة في الواحات.

وقد يبدو معقولًا أن يكون سبب هجوم مملكة مقُرّة على الواحة، هو محاولة ضرب تجارة المسلمين مع مناطق جنوبي الصحراء التي كانت تمر عبر الواحات. هذا إلى جانب التوتر الذي كان قائمًا بين بدو الصحراء (البربر) ومملكة مقُرّة. فقد ذكر ابن المقفع على لسان ملك النوبة عندما أراد إرسال ابنه لمقابلة الخليفة المعتصم أنه قال لولده: لا أتمكن من مفارقة كرسي لئلا يملكوا البربر المخالفين لي»[2]. وقد وضح المسعوديّ أن حكام الواحة كانوا من قبيلة لواتة البربريّة (الأمازيغيّة).

وبعد خمس سنوات من غزو مقُرّة للواحات، يطالعنا المقريزيّ بتحرك آخر لملك مقُرّة عام 345 هـ، فذكر أنه: «في ذي الحجة سنة أربع وأربعين وثلثمائة، أغار ملك النوبة على أسوان، وقتل جمعًا من المسلمين، فخرج إليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قِبَل أُونوجور بن الإخشيد في محرّم سنة خمس وأربعين، فساروا

1 المسعوديّ، مروج الذهب ج 1 ص 179.

2 ابن المقفع، المصدر السابق ص 85.

في البرّ والبحر، وبعثوا بعدّة من النوبة أسروهم، فضربت أعناقهم، بعدما أوقع بملك النوبة، وسار الخازن، حتى فتح مدينة إبريم وسبى أهلها، وقدم إلى مصر في نصف جمادى الأولى سنة خمس وأربعين بمائة وخمسين أسيرًا، وعدّة رؤوس.»[1]

ولا ندري أيضًا أسباب هذه الحرب التي أدت إلى إرسال والي مصر أونوجور بن الإخشيد قائده محمد بن عبد الله الخازن على رأس حملة كبيرة. وهل كان لحملة ملك مقُرّة – قبل ست سنوات من هذه الحرب – دور في خروج هذه الحملة؟ ويلاحظ لأول مرة في تاريخ الحروب بين المسلمين والممالك المسيحيّة في السودان – باستثناء حرب البقط المشهورة للمقريزيّ[2] والمشكوك في صحتها - ترد بعض التفاصيل عن توغل جيوش المسلمين في أرض مقُرّة. فقد سار الجيش برًّا وبحرًا حتى بلغ مدينة إبريم، التي تقع في الحدود المصريّة الحاليّة، شمال مدينة فرس، التي كانت عاصمة لمملكة نوباديا.

وتطالعنا المصادر بحملة أخرى قامت بها مملكة مقُرّة على أسوان، جعلها المقريزيّ عام 351 هـ وجعلها أبو المحاسن عام 352 هـ، وقد اتفقا في روايتهما عن الحرب، فورد «سار ملك النوبة إلى أسوان، ووصل إلى أخميم، فقتل ونهب وأحرق»[3]. حدثت هذه الحرب في ولاية أبي الحسن علي بن الإخشيد على مصر، وكما ذكر الكنديّ فإنّ السلطة كلها كانت في يد كافور الإخشيديّ. ولم ترد معلومات عن هذه الحرب، لكن يتضح أن جيوش مملكة مقُرّة قد توغلت في إقليم الصعيد ونهبت وأحرقت.

وقد أشار كل من النويري وابن الفرات[4] إلى حملة توجهت إلى مملكة مقُرّة، أسنداها إلى كافور الإخشيديّ، ولم تتناول الرواية خط سير الحملة، ولا المكان الذي وصلت إليه، لكنها تحدثت عن الموقعة بيوم دنقلة. وقد جاءت روايتهما كما يلي:

ثم غزاها كافور الإخشيدي، وكان أكثر جيشه السودان. فقال الشاعر:

---

1 المقريزيّ، المواعظ والاعتبار موقع الوراق، ج 1 ص 250.

2 ملحق رقم 1 فقرة 12-1 في آخر الفصل الرابع.

3 نفس المصدر ج 1 ص 413 وأبو المحاسن، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 384.

4 في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 223 و259.

ولما غـزا كافـور دنقلـة غَـدًا　　بجيشٍ لطول الأرض من مثله عرضُ
غزا الأسودُ السودانَ في رونق الضّحى　　فلما التقى الجمعانِ أظلمت الأرضُ

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: متى خرجت هذه الحملة؟ وقد أشارت المصادر إلى بداية اضطراب الأوضاع في مصر منذ بداية ولاية علي بن الإخشيد، ويصف أبو المحاسن الأوضاع قائلاً: «وقع الغلاء، واضطربت الأمور في الديار المصريّة والإسكندريّة، بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميّين الواردين إليها من المغرب... ثم قدم القرمطيّ إلى الشام سنة اثنين وخمسين وثلثمائة، وعجز المصريّون عن دفعه عنها... ومع هذا قل ماء النيل في هذه السنين... وكثرت الفتن...»[1]

وفي هذه الأوقات أغارت مملكة مقُرّة على صعيد مصر، فهل تمكّن كافور من إعداد حملة كبيرة كما وصفها النويريّ وابن الفرات ووجهها إلى بلاد مقُرّة؟ قد تكون الإجابة بلا، وقد تكون بنعم. فتكون الإجابة بلا نسبة للظروف الصعبة التي عاشتها مصر وانهارت بعدها بسنوات قليلة على يد الفاطميّين. وفي هذه الحالة يكون المقصود بحملة كافور الجيش الذي قاده الخازن والذي وصل إلى إبريم.

فالحملة خرجت في السنوات الأخيرة من ولاية أنوجور، في الوقت الذي سيطر فيه كافور الإخشيديّ على إدارة الأوضاع في مصر، ولم يعد للوالي شأن كبير في شؤون الإدارة. فأعد الحملة وجهزها بكل ما تتطلبه الحرب في البر والبحر، وعين الخازن قائدًا لها، فنسبت الحملة إليه في الرواية الأخيرة. وإسناد الحملة إلى مجهزها دون قائدها تردد كثيرًا في كتب التاريخ.

وقد تكون الإجابة بنعم على سؤالنا: هل تمكن كافور من إعداد حملة كبيرة كما وصفها النويريّ وابن الفرات ووجهها إلى بلاد مقُرّة ؟ وذلك رغم الظروف الصعبة التي عاشتها مصر في ذلك الوقت، فقد كان للإخشيديّين جيش كبير من مماليكهم يمكن أن يجهز سريعًا إذا اقتضى الأمر. ويبدو أن غزو مملكة مقُرّة وما أحدثته من قتل ودمار بالصعيد يدعو إلى إعداد حملة ضدهم.

---

1 أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة في مسعد، المكتبة السودانية ص 384.

إذًا شهدت العلاقات بين مملكة مقُرّة والإخشيديّين توترًا أدى إلى وقوع الصدام المسلح ثلاث أو أربع مرات بينهما، وليست هنالك أي معلومات عن نتائج تلك الحروب وتأثيرها على الاتفاقيات التي وقعت بين دولة مقُرّة والمسلمين في مصر. وعلى كل حال فإنّ حملة الإخشيديّين وصلت إلى إبريم فقط، ولم تصل إلى دنقلة مثلما ورد في بيت الشعر عن حملة كافور.

فكلمة «دنقلة» لم تستخدم في المصادر العربيّة للدلالة على المدينة فقط، بل استخدمت أيضًا للدلالة على المملكة وعلى بلاد النوبة. فمثلًا عندما قال ابن عبد الحكم: إن والد يزيد بن أبي حبيب «من سبي دنقلة»، لم يقصد أن والده من السبي الذي يرجع أصله إلى مدينة دنقلة، فالسبي يجمع من مناطق مختلفة، ربما من خارج حدود المملكة. ولكن التعبير بدنقلة هنا إشارة إلى المملكة، فهو يقصد أن والد يزيد من السبي الذي أتى من بلاد النوبة. «فدنقلة» في بيت الشعر لم يُقصد بها مدينة دنقلة، لأن جيش الإخشيديّين لم يتعد مدينة إبريم كما ذكر المقريزيّ. وبنفس هذا المعنى يمكن فهم بيت الشعر الذي ورد مقترنًا بحرب عبد الله بن سعد ورواه ابن عبد الحكم وهو:

لم تر عيني مثل يوم دنقلة   والخيل تعدو والدروع مُثقلة

فدنقلة هنا ليس من الضروريّ أن يكون مقصود بها المدينة، بل هي على القياس السابق قصد بها «بلاد النوبة».

العلاقات في عصر الدولة الفاطمية

تُنسَب الدولة الفاطميّة الشيعية إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وقد انتقلت إلى مصر وأنهت حكم الأسرة الإخشيديّة عام 358 هـ وأسس قائد جيش الفاطميّين جوهر الصقلّي مدينة القاهرة التي أصبحت عاصمة مصر منذ ذلك الوقت.

اتضح اهتمام الفاطميّين وتأسيس علاقتهم بمملكة مقُرّة منذ بدية دخولهم مصر في نهاية العقد السادس من القرن الرابع الهجريّ (10م)، ولم يكن هذا التوجه غريبًا على الفاطميّين، الذين بدأ قيام دولتهم في أقصى جنوب المغرب الأقصى، في واحة سجلماسة الصحراويّة، في نهاية القرن الثالث الهجري (9 م)، فقد اعتمدوا في تمويل دولتهم على التجارة العابرة للصحراء. وواصلوا اهتمامهم بمناطق جنوبي الصحراء بعد انتقال عاصمتهم إلى تونس، وتمكنوا من تمويل أعمالهم الحربيّة بذهب غرب إفريقيا. ولما انتقلوا إلى مصر كان من الطبيعيّ أن يفكروا في مناطق الجنوب، واستثمار النشاط التجاريّ مع تلك الجهات.

ويبدو أن جوهر الصقلّي عند دخوله مصر، أرسل على التو أحد دعاة الفاطميّين، وهو عبد الله بن أحمد بن سُليْم الأسواني (ت 386 هـ/ 996 م)[1]، إلى الملك جورج الثاني ملك مملكة مقُرّة. وقد ذكر المقريزيّ في كتابه المقفى[2]، أن جوهر الصقلي بعث برسالة إلى الملك جورج الثاني يعرض عليه الدخول في الإسلام ويطلب منه دفع ما عليه من البقط.

1 ألّف ابن سُليم بعد هذه الرحلة كتابه المشهور «كتاب أخبار النوبة والمقرّة وعلوة والبجة والنيل ومن عليه وقرب منه من غيرهم» وأهداه إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

2 في مسعد، المكتبة السودانية ص 219 – 220.

وقد أورد المقريزيّ بعض تفاصيل ما جرى بين ابن سليم وملك مقُرّة عندما قرأ عليه الرسالة، وكيف أن الملك غضب من دعوته للإسلام، وجمع علماءه وأساقفته لمناظرة ابن سليم، وقرأ عليه كتابًا جوابًا على رسالة جوهر، يدعوه فيها إلى الدخول في النصرانيّة. وطالت المناظرة بين الجانبين دون أن تؤدي إلى نتيجة يقبلها الطرفان فيما يتعلق بأمر الدين.

وقد اجتهد ابن سليم في توضيح قوة المسلمين، وكيف أنّهم أنهوا حكم دول كثيرة وكبيرة، مثل: الفرس والروم، وأن المسلمين ملكوا أكثر كراسي النصرانيّة، مثل: الإسكندريّة، وبيت المقدس، وأنطاكية. ولكن لم يتضمن ما نقله المقريزيّ عن ابن سليم موضوع البقط الذي كان أحد أسباب البعثة كما ذكر المقريزيّ.

ويبدو أنه لم يحدث ما يعكر صفو العلاقات بين المقُرّيّين والفاطميّين بعد سفارة ابن سُليم، بل حدث في العقد الأخير من القرن الرابع الهجريّ ما أدى إلى تطور العلاقات وتحسينها بين الطرفين عند ثورة أبي فروة ضد السلطة الفاطميّة. وقد تناول كثير من مؤرخي التراث تلك الأحداث، مثل: ابن الأثير، وابن الجوزيّ، والنويريّ، وابن خلدون، والمقريزيّ، وفيما يلي ملخص لما ورد لرواية ابن الأثير، التي تمثل أكثر الروايات تفضيلًا، إذ قال[1]:

«أبو ركوة، اسمه الوليد، وإنما كني بأبي ركوة لركوةٍ كان يحملها في أسفاره، وهو سلالة المؤيد هشام بن الحاكم الأمويّ، صاحب الأندلس. هرب أبو ركوة من المنصور بن أبي عامر لما استولى على المؤيد هشام بن الحاكم الأمويّ، صاحب الأندلس، وقصد مصر، ثم سار إلى مكة واليمن، وعاد إلى مصر ودعا بها، فأجابه بنو قرة وغيرهم».

ويذكر ابن الأثير أن سبب استجابة الناس له هو سيرة وأعمال الخليفة الفاطميّ الحاكم، التي نفرّت الناس وأبعدتهم عنه. فقد أسرف في مصر في قتل القواد،

1 ابن الأثير، الكامل في التاريخ موقع الوراق ص 140 – 141، لا توجد تفاصيل هذه الأحداث فيما نقله مسعد في المكتبة السودانيّة، واكتفي بنقل ما يتعلق بأبي ركوة وملك مقرّة فقط. وقد رأينا أنه من الفائدة إعطاء بعض التفاصيل عن حركة أبي ركوة لتوضيح خطورتها على الدولة الفاطميّة ولتقييم قرار ملك مقرّة بتسليم أبي ركوة للسلطات الفاطميّة.

وحبسهم، وأخذ أموالهم، وكان في الوقت الذي دعا أبو ركوة بني قرة قد آذاهم، وحبس منهم جماعة من أعيانهم، وقتل بعضهم، فلما دعاهم أبو ركوة انقادوا له. وكان بين بني قرة وبين قبيلة زناته حروب ودماء، فاتفقوا على الصلح، ومنع أنفسهم من الحاكم.

فاجتمعت بنو قرة وزناتة على بيعته، وخاطبوه بالإمامة، وكانوا بنواحي برقة. وسار إليها وهزم واليها الفاطميّ، وهزم جيشًا أرسل إليه من القاهرة، وانتشر ذكره، وعظمت هيبته، وأقام ببرقة، وترددت سراياه إلى الصعيد وأرض مصر، وقام الحاكم من ذلك وقعد، وأسقط في يده، وفرح جند مصر وأعيانها، وكتبوا إلى أبي ركوة يستدعونه. وراسل بنو قرة العرب الذين في عسكر الحاكم يستدعونهم إليهم، ويذكرونهم أعمال الحاكم بهم، فأجابوهم، واستقر الأمر أن يكون الشام للعرب، وتصير لأبي ركوة مصر، وتقدم أبو ركوة حتى دخل الجيزة، لكنه انهزم أخيرًا ونصحه أتباعه النجاة بنفسه.

وذكر ابن الجوزي أنّ أبا ركوة طلب من أتباعه مساعدته للوصول إلى بلاد النوبة، وذكر لهم أنه بينه «وبين ملكهم عهد وذمام، فأوصلوه إلى بلاد النوبة»[1] وذكر ابن الأثير أنه لما وصل أبو ركوة إلى حاكم الإقليم الشمالّي من مملكة مريس (صاحب الجبل)، أظهر أنّه رسول من الحاكم إلى ملكهم، فقال له صاحب الجبل: الملك عليل، ولا بد من استخراج أمره في مسيرك إليه. وأرسل إلى الملك بالحال، وكان ملك النوبة قد توفي وملك ولده. وأمر الملك الجديد أن يُسلّم أبا ركوة إلى رجال الخليفة الفاطميّ. وتم القبض عليه وأرسل إلى مصر، حيث قتل عام 397هـ/ 1006م.

وذكر النويريّ أنّ الذي ساعد على القبض عليه هو «الشيخ أبو المكارم هبة الله، شيخ بني ربيعة، وقيل إنّه وجد في دير يعرف بدير أبي شنودة في أطراف النوبة»[2] وكافأ الخليفة الفاطميّ الشيخ أبا المكارم وأنعم عليه بلقب كنز الدولة،[3] ويبدو أن هذا

1 ابن الجوزيّ، المنتظم في أخبار الأمم، موقع الوراق ج 4 ص 302.

2 النويريّ، نهاية الأرب، موقع الوراق ج 7 ص 461.

3 اعتاد الخلفاء والحكام على إطلاق الألقاب على من يقدمون خدمات جليلة للدولة، مثل: عضد الدولة،= - وبهاء الدولة، وسيف الدولة.

الاعتراف من الدولة الفاطميّة بحكم الأسرة وإعطائها لقب «كنز الدولة» قد ساعد في تقوية نفوذها وسيطرتها على المنطقة فأصبحت منطقة أسوان تحت حكمها.

وعن أصل أولاد كنز الدولة يقول المقريزيّ أنّهم من «ربيعة بن نزار بن معد ابن عدنان، كانوا ينزلون اليمامة، وقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل على الله، بين أعوام أربعين ومائتين في عدد كثير... ونزل طائفة منهم بأعالي الصعيد... كانت البجة تشنّ الغارات على القرى الشرقيّة، قامت ربيعة بمنعهم من ذلك، وتزوجوا منهم، واستولوا على معدن الذهب بالعلاقيّ، فكثرت أموالهم، وصارت لهم مرافق ببلاد البجة، واختطوا قرية تعرف بالنمامس وحفروا بها آبارًا»[1].

وقد توارثت سلالة الشيخ أبي المكارم هذا اللقب، فقد أشار أبو صالح إلى أمير العرب بمنطقة أسوان - بعد نحو قرن من إعطائهم اللقب - بـ «كنز الدولة»، كما أشار أبوشامة – بعد نحو قرنين ونصف من إعطائهم اللقب – إلى أن أسوان بها «الأمير كنز الدولة» مما يشير إلى أنهم كونوا إمارة عرفت باسم إمارة «أولاد الكنز». ولم يستخدم لفظ «الكنوز» في المصادر العربيّة إلا نادرًا، وللدلالة على الأمراء من الأسرة. ثم أصبح اسم «الكنوز» علمًا لأتباعهم من السكان المحليّين في منطقة أسوان، وأصبح أخيراً اسمًا لتجمع كبير من السكان في المنطقة عرفوا بالكنوز.

وظلت العلاقات طيبة بين الفاطميّين ومملكة مقُرّة، ويبدو أن وجود إمارة بني الكنز - حليفة الفاطميّين وذات العلاقة الطيبة مع مملكة مقُرّة - على الحدود بين الجانبين قد ساعد كثيرًا في استمرار العلاقات الطيبة حتى منتصف القرن الخامس الهجريّ، في عصر خلافة المستنصر بالله (427 – 487 هـ/1036 – 1094م).

فقد ذكرت المصادر العربيّة أن العقدين السادس والسابع من القرن الخامس الهجريّ (11 م) في عصر الخليفة المستنصر شهدا بعض الاضطرابات التي انعكست سلبًا على العلاقات مع المقُرّيين. ذكر ابن ميسر في عام 454 هـ(1062 م) أن «بعض [الجنود] الأتراك جرد سيفًا في سكر منه على بعض عبيد الشراء [أي الجنود

1 المقريزيّ، **البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب**، مسعد ص 321.

السودانيّين] فاجتمع عليه طائفة من العبيد فقتلوه» وأدت هذه الحادثة كما يروي ابن ميسر إلى نشوب قتال بين الفريقين[1].

وكان عدد الجنود السود كبيرًا، فقد ذكر المقريزيّ أن والدة المستنصر كانت «السبب في كثرة العبيد في مصر، وذلك أنها كانت جارية سوداء... حتى يقال إنّه كان في مصر إذ ذاك زيادة على خمسين ألف عبد أسود»[2]، وانتهى الصراع بين الأتراك بقيادة ناصر الدولة بن حمدان والجنود السود في القاهرة كما ذكر ابن خلدون بهزيمة السود «إلى الصعيد وعاد... الأتراك ظافرين واجتمع العبيد في الصعيد»[3].

وقد ذكر ابن ميسر في حوادث عام 460 هـ أن ابن حمدان سار «بجماعة من الأتراك إلى الصعيد لمحاربة العبيد، وكان قد كثر شرهم وفسادهم، فكانت بينهم حرب آلت إلى كسرة الأتراك وعودتهم منهزمين»[4]. ولم يحدد ابن ميسر مكان المعركة في صعيد مصر، ولكن ذكرت بعض المصادر العربيّة أن ناصر الدولة بن حمدان غزا النوبة «فكبسه السودان، ونهب جيشه، وأخذت أثقاله، وذلك في سنة تسع وخمسين وأربعمائة في أيام المستنصر العبيديّ»[5].

ويبدو معقولًا أن تكون المصادر قد تحدثت عن نفس الحرب، رغم ابن ميسر جعلها عام 459هـ بينما جعلها كلٌّ من النويريّ وابن الفرات عام 460هـ والسؤال الذي يبرز هنا هو: هل حدثت تلك المعركة في صعيد مصر كما ذكر ابن ميسر؟ أم حدثت في مملكة مقُرّة، كما ذكر كلٌّ من النويريّ وابن الفرات؟ لا تمدنا المصادر الأخرى بمعلومات تساعد عن الإجابة على هذا السؤال.

ولعل السؤال المهم الآخر هو: أين وصل الجنود السود في تقهقرهم جنوبًا؟ نحن نعلم أن إمارة بني الكنز كانت قائمة في منطقة أسوان، فهل كانت تلك الإمارة على

---

1 ابن ميسر، أخبار مصر في مسعد، المكتبة السودانية ص 185-186.

2 المقريزيّ، اتعاظ الحنفاء في مسعد، المكتبة السودانية ص 315.

3 ابن خلدون، العبر موقع الوراق ج 4 ص 63.

4 ابن ميسر، المصدر السابق ص 188.

5 النويريّ، نهاية الأرب في مسعد، ص 223 وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد، ص 259.

الحياد في الصراع بين الأتراك والجنود السود؟ وكيف كان موقف مملكة مقُرّة؟ وهل تدخلت في ذلك الصراع؟.

ينبغي أولاً الاشارة إلى أن أغلب أولئك الجنود السود (أو عبيد الشراء كما تطلق عليهم المصادر العربيّة)، كانوا من مناطق النوبة الواقعة إلى الجنوب من أسوان، وهم امتداد سكان المنطقة التي أقامت عليها الأسرة الكنزيّة إمارتها. فهنالك علاقة تربط بين أولئك الجنود السود وسكان إمارة الأسرة الكنزيّة. وفي نفس الوقت كانت الإمارة على علاقات طيبة بالفاطميّين منذ أن أنعموا عليهم بلقب «كنز الدولة».

ولكن يبدو أن صراع الأتراك مع الجنود السود قد غير موقف الأسرة الكنزيّة. فقد ذكرت المصادر أن الأمير محمد كنز الدولة ثار ضد السلطات الفاطميّين في أسوان عام 469هـ وأرسل الفاطميّون حملة تمكنت من هزيمته وفرض سيادتها على المنطقة. وقبل ذلك بسنوات قاد ابن حمدان حملة ضد الجنود السود في صعيد مصر هزمهم فيها اقتصاصًا من هزيمته السابقة.[1]

ولم تذكر المصادر أسباب تغير ولاء الأسرة الكنزيّة وثورتهم على الفاطميّين، ولكن يبدو معقولًا أن تكون أحداث الصراع بين الدولة الفاطميّة والجنود السود سببًا في ذلك. وربما أدت تلك الأحداث إلى تدخل مملكة مقُرّة في ذلك الصراع.

1 ابن خلدون، نفس المكان السابق، وابن ميسر، نفس المكان السابق.

العلاقات في عصر الدولة الأيوبيّة

أدى موقف صلاح الدين الأيوبّي من الجنود السودانيّين في القاهرة، إبان تصفية السلطة الفاطميّة عام 564هـ، إلى بداية علاقاته بالمناطق الواقعة على حدود مصر الجنوبيّة. إذ تآمر عليه أتباع الفاطميّين لإحساسهم بالخطر على سلطة الخليفة الفاطميّ، لكنه اكتشف المؤامرة التي كان الجنود السودانيّون من أهم عناصرها. فحدث قتال ضارٍ بين الجنود السودانيّين وأتباع صلاح الدين، وانحاز الخليفة الفاطميّ لصلاح الدين، مما أدى ذلك إلى هزيمة الجنود السودانيّين وإخراجهم من القاهرة إلى صعيد مصر.

ويبدو أن الجنود السودانيّين قد نظموا صفوفهم وصمموا على الهجوم على صلاح الدين في القاهرة وحماية الخلافة الفاطميّة. وقد كانت خطتهم الاستيلاء على أسوان، التي كانت تحت حكم الأسرة الكنزيّة. وربط أبوشامة استعدادهم هذا ببلاد النوبة، حيث ذكر: «اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين بلاد مصر... وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها، وكان بها الأمير كنز الدولة، فأنفذ يعلم الملك الناصر، وطلب منه النجدة.»[1]

أرسل صلاح الدين جيشًا بقيادة الشجاع البعلبكّي لمساعدة كنز الدولة في أسوان، وعندما وصل الجيش إلى أسوان كما ذكر أبو شامة: «وجد العبيد قد عادوا منها بعد أن أخربوا، فأتبعهم الشجاع والكنز، فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم»[2]. ويلاحظ أن الجيش أتى من القاهرة ولم يصادف في طريقه

---

1 أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 178.

2 نفس المكان السابق.

الثوار، بل وجدهم انسحبوا وطاردهم الكنز والشجاع، ولا بد أن المطاردة كانت جنوبًا في أراضي مملكة مقُرَة.

ويؤكد ذلك ما ذكره أبو شامة من أن الجنود السودانيّين نظموا هجومهم من بلاد النوبة كما هو مذكور أعلاه «اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة»، فهل كانت مملكة مقُرَة متمثلة في صاحب الجبل متواطئة مع الثوار؟ أم لم يكن لصاحب الجبل نفوذ قوي على حدوده الشماليّة؟ وأغلب الظن أنّ صاحب الجبل لم يكن متواطئًا مع الثوار، لأنّه لا مصلحة له مع الفاطميّين أو صلاح الدين، ولا ينفي ذلك علمه بتجمع وتحرك الثوار من أراضيه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن حاكم الإقليم الشماليّ الذي أطلقت عليه المصادر العربية اسم «صاحب الجبل»، ورد لقبه في الوثائق والآثار المحليّة التي ترجع إلى النصف الأول من القرن السادس الهجريّ (12م) «ملك دوتاو» وسنتعرض إلى ذلك في نهاية هذا الفصل.

ويلاحظ أيضًا أن حملة الشجاع البعلبكي نجحت في إبعاد الثوار عن أسوان، إلا أنها لم تقض عليهم، بل ظلّ خطرهم قائمًا على الدولة. فقد ذكر أبو شامة أنّ الشجاع عندما رجع إلى القاهرة وضح خطورة الجنود السودانيّين وتمكنهم من بلاد الصعيد. وذكر أنّ صلاح الدين أعدّ حملة أخرى، أوكل قيادتها لأخيه شمس الدولة[1]. ويوضح هذا أن سبب الحملة هو مطاردة الجنود السودانيّين ومن انضم إليهم في بلاد مقُرّة، بينما ذكر ابن الأثير خلاف ذلك.

وورد في بعض المصادر الأخرى أن السبب في إرسال حملة شمس الدولة، هو خوف صلاح الدين من نور الدين زنكي الذي أرسله إلى مصر لحمايتها من الصليبيّين، لضعف الدولة الفاطميّة. ولما كان صلاح الدين يخطط للانفراد بحكم مصر كان يتوقع هجوم نور الدين عليه، ولذلك فكر في التوسع جنوبًا في بلاد النوبة واليمن، ليضمن مكانًا يلجأ إليه إذا اضطرته الظروف لذلك[2]. وقد يكون هذا من

---

1 المصدر السابق ص 179.

2 ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 172، انظر كذلك العمري **مسالك الأبصار** في مسعد ص 242.

بين الأسباب التي أدت إلى الحملة لتعرّف بلاد النوبة، ولكن يبقى السبب المباشر هو مطاردة فلول الثوار.

خرجت حملة شمس الدولة عام 568هـ/ 1172م، وتوغلت الحملة برًّا وبحرًا في بلاد مقُرّة، حتى وصلت إلى قلعة إبريم، واستولت عليها. وذكر أبو صالح الأرمني أنهم «تركوها خرابًا بعد أن فتحوها، وسبوا من بها من النوبة، وذُكر أن عدتهم سبعمائة ألف من: الرجال، والنساء، والفتيان، والصغار... ووجد بها قطنًا كثيرًا، فحمله إلى قوص وباعه بجملة كبيرة»[1].

ورغم المبالغة في عدد الأسرى، إلا أنه يمكن النظر إليه مؤشرًا لكثافة سكان المنطقة، وربما لكبر عدد الجنود الذين شاركوا في القتال. هذا إلى جانب أن المؤرخ أبا شامة ذكر أنّه بعد دخول الحملة إبريم «غنمت جميع ما كان فيها، من: المال، والكراع، والميرة، وخلص جماعة من الأسرى، وأسر من وجد فيها، وهرب صاحبها»[2].

ولم تتعرض المصادر إلى الطرف الآخر في الحرب أي الجانب المقُرّي. ولكن يوضح توغل الحملة حتى قلعة إبريم وحصار القلعة أن الجانب المقرّي لا بدّ وأنّه كان طرفًا في النزاع، ويعني ذلك أنه أدخل الجنود السودانيّين وأتباعهم داخل سور القلعة، وحارب معهم جيش المماليك. ويبقى السؤال: هل ساعدت مملكة مقُرّة الجنود السودانيّين، فقط لكونهم سودانيّين، ضد السلطات المصريّة؟ أم كانت للمملكة مصلحة أخرى، وتحقق بذلك أيضًا مصلحتها الخاصة؟ لا توفر المعلومات المتاحة الإجابة عن ذلك.

وقد أرسل ملك النوبة إلى قائد الحملة رسالة بشأن التفاوض وإنهاء الحرب، لكن قائد الحملة كان قد غادر إبريم قبل وصول الرسالة. ولحقة رسول ملك مقُرّة في مدينة قوص بصعيد مصر. وذكر المقريزيّ أن قائد الحملة رد على رسالة ملك مقُرّة، وبعث رسولًا مع رسول الملك، كان الغرض من بعثته الوقوف على حالة البلاد. وقد اختصر المقريزيّ ما تمخضت عنه تلك البعثة، حيث ذكر على لسان الرسول:

1 أبو صالح الأرمنيّ، تاريخ الشيخ أبي صالح في مسعد، المكتبة السودانية ص 140.

2 أبوشامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في مسعد، المكتبة السودانية ص 178.

«وجدت بلادًا ضيقة، ليس بها من الزرع سوى الذرة، ونخل صغير منه إدامهم، ويخرج الملك وهو عريان على فرس عربيّ، وقد التف في ثوب أطلس، وليس على رأسه شعر. فلما قدمت عليه وسلمت ضحك وتغاشى، وأمر بي فكويت على يدي هيئة صليب، وأنعم عليّ بنحو خمسين رطلًا من دقيق، وليس في دمقلة عمارة سوى دار الملك، وباقيها أخصاص.»[1] وقد علقنا على ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وكان من بين الأمراء الذين صاحبوا هذه الحملة الأمير إبراهيم الكرديّ[2]، الذي طلب من قائد الحملة شمس الدولة أن يقطعه قلعة إبريم، فأقطعه إيّاها. وذكر أبو شامة أن إبراهيم الكرديّ «أنفذ معه جماعة من الأكراد والباطلين[3]، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقًا، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى برّموا بهم، واكتسبوا أموالًا كثيرة، حتى عظمت أرزاقهم، وكثرت مواشيهم، واتفق أنهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه، فرجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم، وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها»[4].

لم تستقر الأوضاع في جنوب مصر للأيوبيّين سريعًا، ويبدو أن سياستهم قد أثارت الكثيرين عليهم فتحركت الثورات في صعيد مصر. وكان من بين المتحركين آل الكنز في أسوان. فقد تغير موقف الأسرة الكنزيّة سريعًا لتقف في الجانب المناوئ للأيوبيّين. فقد ذكر المقريزيّ في حوادث عام 570 هـ الموافق 1174 م «جمع كنز الدولة والي أسوان العرب والسودان وقصد القاهرة، يريد إعادة الدولة الفاطميّة.»[5] ولكن

---

1 المقريزيّ، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، موقع الوراق، ج 1 ص 2. وانظر كذلك أبوشامة، المصدر أعلاه ص 180.

2 من المعروف في التاريخ أن صلاح الدين الأيوبيّ – الذي يتغنى به العرب – كرديّ الأصل هو وأسرته، وعند قيام دولتهم الأيوبيّة الكرديّة بمصر استجلبوا عددًا كبيرًا من الأكراد في مصر.

3 ذكر مسعد أن البطالين من الأمراء والأجناد هم العاطلون من إقطاعات الدولة ووظائفها، لكبر السن، أو لغضب السلطان، أو لغير ذلك. انظر مصطفى محمد مسعد، **المكتبة السودانيّة** ص180 حاشية رقم 1.

4 أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين** في مسعد، **المكتبة السودانيّة** ص 180.

5 المقريزيّ، **السلوك** في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 327.

تمكن الأيوبيّون من القضاء عليه. ولم تشر المصادر إلى أحداث العلاقات بين الأيوبيّين ومملكة مقُرّة حتى نهاية حكمهم.

جدول رقم 3: العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين بين القرنين 9 – 12 م

	التاريخ / ميلادي	الحدث	المصدر
1	855	حروب العمريّ	المقريزيّ، كتاب المقفى، ص355 – 369
2	914	غزو مملكة مقُرّة: تكين التركي	النويريّ، وابن الفرات، مسعد ص 223 و259.
3	950	غزا ملك مقُرّة الواحات	المقريزيّ (الخطط مسعد ص 313)
4	955	أغار ملك مقُرّة على أسوان	المقريزيّ (الخطط مسعد 297
5	935 - 969	غزا الإخشيديّون مملكة مقُرّة	النويريّ وابن الفرات، مسعد ص 223 و259
6	القرن 10 م	سفارة ابن سليم إلى ملك مقُرّة	المقريزيّ، كتاب المقفى، (مسعد ص 359)
8	962 أو 963	أغار ملك النوبة على الصعيد	أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ص 385
8	1172	أغارت مقُرّة على أسوان (أبو شامة، مسعد ص 178) وغزا الأيوبيّون مملكة مقُرّة (النويريّ، وابن الفرات، مسعد ص 222 و258، وأبو صالح ص 140.	

الملاحق

ملحق رقم 1

بنو أميّة في السودان[1]

أ. دخول عبد الله بن مروان أرض النوبة

«قال صالح بن علي: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ عبدَ اللهِّ بن مروانَ لما دخل أرض الُنوبَةِ هاربًا مع من اتبعه، سأل ملك النوبة عن حالهم وهيئتهم وما نزل بهم، وكيف كانت سيرتهم، فأخبره بجميع ذلك، فركب إلى عبد الله ليسأله عن شيء من أمورهم، والسبب الذي به زالت النعمة عنهم، وكلَّمه بكلام سقط عنّي حفظه، ثم أشْخَصَه عن بلده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به ليحدّثه عن أمره فعل، فأمر المنصور بإحضاره في مجلسه، فلما مَثَلَ بين يديه قال له: يا عبدَ الله قصَّ عليَّ قصتك وقصة ملك الُنوبَة.

قال: يا أمير المؤمنين، قدمت إلى الُنوبَةِ، فأقمت بها ثلاثًا، فأتاني ملكها، فقعد على الأرض وقد أعددت له فراشًا له قيمة، فقلت له: ما منعك من القعود على فراشنا؟ فقال: لإنّي ملك، وحق لكلّ ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله، ثم قال: لم تشربون الخمر وهي محرّمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا، قال: فلم تطؤون الزرع بدوابكم والفسادُ محرم عليكم في كتابكم؟. فقلت: فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا لجهلهم، قال: فلم تلبسون الديباج والحرير والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم؟، فقلت ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دَخلُوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منه، فأطرق إلى الأرض يقلب يده مرة

---

1 المسعودي، مروج الذهب موقع الوراق ج1 ص 473.

وينكت في الأرض أخرى ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا علينا في ديننا، ثم رفع رأسه فقال ليس كما ذكرت، بل أنتم قوم استحللتم ما حرَّم الله، وركبتم ما عنه نُهيتم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزّ، وألبسكم الذلّ بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتَها فيكم، وأنا خائف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم، وإنما حقّ الضيافة ثلاث، فتزوَّدْ ما احتجْتَ إليه وارحل عن أرضي. ففعلت. فتعجب المنصور وأطرق مليًا، فرقّ له وهمّ بإطلاقه، فأعلمه عيسى بن علي أن في عنقه بيعة له، فأعاده إلى الحبس.

ب. ذكر ما جرت عليه أحوال بني أميّة[1]

لما قتل مروان بن محمد بن مروان، تفرّقت بنو أميّة في البلاد، هربًا بأنفسهم، وقد كان عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب قتل منهم على نهر أبي فطرس من بلاد فلسطين نحوًا من ثمانين رجلًا مثله، واحتذى أخوه داود بن عليّ بالحجاز فعله، فقتل منهم نحوًا من هذه العدّة بأنواع المثل، وكان مع مروان حين قتل ابناه: عبد الله، وعبيد الله، فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب، ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بني أميّة.

فساروا إلى إسوان من صعيد مصر، وساروا على شاطئ النيل، إلى أن دخلوا أرض النوبة وغيرهم من الأحابش، ثم توسطوا أرض البجة، ميمّمين باضع من ساحل بحر القلزم، فكانت لهم مع من مروا به من هذه الأمم، حروب وغارات، ونالهم جهد شديد، وضر عظيم، فهلك عبيد الله بن مروان في عدة ممن كان معه قتلًا وعطشًا وضرًّا، وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب.

ووقع عبد الله بن مروان في عدة من نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض البجة، وقلع البحر إلى جدة من ساحل مكّة، وتنقّل فيمن نجا معه من أهله ومواليه في البلاد، متسترين راضين أن يعيشوا سوقةً بعد أن كانوا ملوكًا، فظفر بعبد الله أيام أبي العباس السفاح فأودع السجن، فلم يزل فيه بقية أيام أبي العباس وأيام

1 المسعوديّ، كتاب التنبيه والإشراف في مسعد ص 48 وفي طبعة بيروت: دار ومكتبة الهلال 1981 ص 301 – 302.

المنصور والمهديّ والهاديّ، فأخرجه الرشيد، وهو شيخ ضرير، فسأله عن خبره. فقال: يا أمير المؤمنين، حبست غلامًا بصيرًا، وأخرجت شيخًا ضريرًا، فقيل إنه هلك في أيام الرشيد، وقيل بل في أيام الأمين.

جـ . دخول عبد الله بن مروان بلاد النوبة[1]

قال ابن وصيف شاه: لما انتقلت الخلافة إلى بني العباس، وولي عبد الله السفاح، توجه عبد الله بن علي إلى الشام في طلب من بقي من بني أميّة. ثم أرسل بالقبض على عبيد الله بن مروان أمير مصر. فلما بلغ الأمير عبيد الله ذلك، دخل إلى خزائن أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهبًا، ثم أحضر اثني عشر بغلًا، وحملها فرشًا وقماشًا وغير ذلك، ثم حمل معه خريطة ملآنة جواهر مثمنة، وأخذ معه عبيده وغلمانه وخرج من مصر هاربًا، قاصدًا إلى بلاد النوبة.

فلما وصل إلى بلاد النوبة، وجد بها مدائن خرابًا، لها قصور محكمة البناء، فنزل في بعض تلك القصور، وأمر عبيده وغلمانه بكنسها وفرشوا له فيها فرشة، ثم أمر بعض غلمانه ممن يثق بعقله أن يذهب إلى ملك النوبة ويستأذنه في الإقامة في ملكه ويؤمّنه. فلما اجتمع الغلام بالملك، سلم عليه، ثم استأذنه في الإقامة في ملكه، وأحضر منه الأمان لعبيد الله، ثم أرسل معه قاصدًا. فلما حضر القاصد، قال للأمير عبيد الله: إن الملك يقرئك السلام، ويقول لك: أجئت محاربًا أم مستجيرًا؟ فقال له الأمير عبيد الله: ردّ عليه مني السلام، وقل له، جاء إليك مستجيرًا من عدو يريد قتله.

فلما توجه القاصد إلى الملك وذكر له ذلك، قام وهَم إليه بالحضور، فلما حضر الملك، قام إليه الأمير عبيد الله ونزل من مرتبته وأشار إليه بالجلوس عليها، فامتنع الملك من ذلك ودفعها برجله ثم قال له، كل ملك لا يكون متواضعًا لله، فهو جبار عنيد متكبر. ثم جلس ينكت في الأرض طويلًا ثم قال له: كيف سلبتم مُلككم وأُخذ منكم، وأنتم أقرب الناس إلى نبيّكم.

---

1 ابن وصيف شاه، **جواهر البحور** في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 121 – 123.

ثم قال له عبيد الله إن الذي سلب ملكنا منا هو أقرب بنبيّنا منّا. فقال له ملك النوبة: كيف تخالفون كلام نبيكم وتشربون ما حرم الله عليكم من الخمر ولبس الحرير؟، وتركبون السروج المذهبة، ولم يفعل نبيكم شيئًا من ذلك؟. وقد بلغنا أنك لما كنت واليًا على مصر كنت تخرج إلى الصيد فتكلف أهل القرى ما لا يطيقون، وتفسدون الزروع على أصحابها، وتأخذ من أهل القرى الهدايا. فصار ملك النوبة يعدد للأمير عبيد الله ذنوبًا كثيرة، وهو ساكت لا يتكلم أصلًا. ثم قال له: لمّا استحللتم ما حرم الله عليكم أوجب عليكم النقمة، وأنا أخاف على نفسي من التّقم بسببك إن أنزلتك عندي، فتحلّ بي النقمة، فإن الرحمة خاصة والبلاء عام. ارحل عنّي بعد ثلاثة أيام، وإلا أخذت ما معك وقتلتك شر قتلة.

فلما سمع الأمير عبيد الله مقالته، خرج من يومه من أرض النوبة ورجع إلى مصر، فقبض عليه حامل الخليفة المنصور، وبعث به إلى بغداد، فسجنه المنصور حتى مات في السجن.

ملحق رقم 2

ترجمة نصّ رسالة والي مصر إلى ملك مقُرّة

عام 141 هـ / 758 م[1]

تبدأ الرسالة بالبسملة، ثم تبدأ بذكر اسم مرسلها موسى بن كعب إلى... صاحب النوبة ومقرّة، ثم بعد السلام الموجه إلى أولياء الله الذين يطيعونه، تدخل الرسالة في موضوعها، وتخاطب ملك النوبة بما معناه: أنت تعلم اتفاقنا معك، والذي التزمت بتنفيذه لتحفظ دمك ومالك. وتستشهد الرسالة بآيات من القرآن الكريم تحث على الوفاء بالعهد وحفظه.

ثم توضح الرسالة أن الجانب المصريّ أوفى بما التزم به في الاتفاق بحفظ دمك ومالك، وتوضح الرسالة الأمان الذي يتمتع به مواطنو مقُرّة وتجارها في مصر، حيث لا يتعرضون لمضايقات أو هجوم، وهم آمنون ومطمئنون أينما حلوا، وفقًا لاتفاقنا معك، ومحافظة على صدق كلمتنا.

ثم تنتقل الرسالة إلى جانب المقُريّين، وتخاطب الملك قائلة: إنّك لم تلتزم بما تم الاتفاق عليه، فلم تقدم البقط كما تم الاتفاق عليه معك، ولم ترد عبيدنا الفارين إلى بلادكم، ولا يجد تجارنا الأمان عندكم، ولا تمكن رسلنا بسرعة العودة إلينا. وأنت تعلم أن أتباع كل الديانات والملل حتى الذين لا يعتقدون في الآلهة ولا يؤمنون بالبعث والعقاب لا يهاجمون التجار، ولا يعتقلون الرسل.

1 كما هو مذكور في داخل الفصل فإنني لم ارجع إلى النص العربي للرسالة بل أخذت من النص المترجم من العربي إلى الانجليزي كما ورد عند:
Martin Blumley, "*An Eighth-Century Letter to the King of Nubia*" Journal of Egyptian Archeology Vol. 61 (1975)

ثم توضح الرسالة للملك أنه لم يلتزم بتعاليم دينه، ووضح ذلك في مثالين، الأول: أنه اعتقل تاجرًا دخل بلاده بماله، اسمه سعد، وتمت حماية من اعتدوا عليه، والثاني: أحد تجار أسوان واسمه محمد بن زيد، أرسل أحد رجاله في تجارة فاعتُقل وصودرت أمواله. وذكرت الرسالة أن حاكم أسوان قد كتب للوالي ووضح له أنه كتب إلى نائب الملك بإبريم، ورد عليه نائب الملك بأن يرسل إليه التاجر محمد بن زيد ليرد إليه ماله. ولما وصل محمد بن زيد ومعه مجموعة من التجار إلى إبريم ضربه نائب الملك واعتقله ثلاثة أيام، ثم أفرج عنه.

وعاد التاجر إلى أسوان. واشتكى لحاكمها، الذي تأكد عن طريق شهود عدول بصحة ما حدث، وكتب لي بكل ذلك، وأرسل إلي التاجر محمد بن زيد، ووصل وقت حضوره مبعوثكم بيتر، الذي ذكر أن التاجر اعتقل لأن السلطات اعتقدت أنه من البجة الذين هجموا على المنطقة.

ثم وضحت الرسالة أن الوالي حول القضيّة إلى القاضي عون بن سليمان. وحكم القاضي بالإفراج عن التاجر الذي أرسله محمد بن زيد بماله لو كان حيّاً، وحكم بدفع دية ألف دينار في حالة وفاته. ووضحت الرسالة لملك مقرّة أن والي أسوان أرسل إليك مبعوثًا قبل تسعة أشهر، ومبعوثًا آخر قبل أربعة أشهر، وتم اعتقالهما.

وطلبت الرسالة من الملك الإفراج عن المبعوثين المعتقلين، ورد من لجأ إلى بلادهم من عبيد المسلمين وأهل الذمة، ورد تاجر محمد بن زيد وثروته أو دفع الدية لو كان قد قتل، وإرجاع التاجر سعد الذي تم اعتقاله أولًا، ويكون كل ذلك سريعًا.

ووضحت الرسالة لملك مقُرّة أنّه إذا كان يرغب في أن يلتزم الجانب المصريّ بالاتفاق، ويستمرّوا كما كانوا من قبل، فعليه أن يسرع بتنفيذ ذلك، وإذا لم يتم تنفيذ ذلك فقد ذكرت الرسالة أن والي مصر سيكون له رأيه فيما تم بينهما.

كتب الرسالة ميمون، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رجب عام 141.

الفصل الثالث

العلاقات في عصر المماليك

- مدخل
- دخول مقُرّة في طاعة المماليك عام 674هـ/ 1275م
- محاولات الخروج عن طاعة المماليك والصراع على العرش 686 -716هـ/ 1287 – 1316 م
- ملك مسلم على مقُرّة 716هـ
- هل سقطت مملكة مقُرّة؟

أ- ملوك مملكة مقُرّة، ب- مملكة دوتاو، ج- أبناء الكنز

- العلاقات مع مملكة علوة

الملاحق:

1. زيارة أمير مملكة مقُرّة لبغداد
2. قائمة بملوك مملكة مقُرّة
3. قائمة بأسماء ملوك مملكة دوتاو

مدخل

منذ قيام دولتهم في مصر ظهر اهتمام المماليك بالمناطق الواقعة على حدودهم الجنوبيّة، ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى ذلك تأمين حدود دولتهم الوليدة، والسيطرة على طرق التجارة ومواردها البريّة والبحريّة. فقد عمل السلطان الظاهر بيبرس على توطيد نفوذ المماليك على مينائي عيذاب وسواكن، وسنفصل تلك الأحداث عند الحديث عن بلاد البجة، في الفصل التالي. وقد وجد السلطان الظاهر بيبرس – ومن جاء بعده من سلاطين المماليك- في الخلافات التي كانت تحدث حول اعتلاء عرش مملكة مقُرّة فرصة كبيرة للتدخل في شؤون المملكة، وتحقيق أطماعهم السياسيّة والتجاريّة. وساعدهم على ذلك لجوء بعض الأمراء من الأسرة الحاكمة المَقُرّيّة إلى بلاط المماليك في القاهرة. وقد ذكر المقريزيّ أن بعضهم أسلم على يديه عام662هـ/ 1263م[1].

ويبدو أن العلاقات كانت متوترة بين المماليك ومملكة مقُرّة، ولكن لم توضح المصادر أسباب ذلك، ربما لالتجاء بعض الأمراء الفارين إلى بلاطهم. وقد ذكر المقريزيّ أنّ جيش مقُرّة أغار عام 671 هـ/ 1272م على أسوان، ولم يوضح أيضًا سبب ذلك، ولا ما ترتب على تلك الغارة. كما تناولت المصادر أيضًا غارة أخرى أرسلها – أو قادها- الملك داؤود ملك مقُرّة عام 674هـ/1275م، حيث ورد: « كثر تعدي داؤود ملك النوبة، وحضر إلى قرب أسوان وأحرق سواقي، وكان من قبل ذلك قد حضر إلى عيذاب، وفعل الأفعال الشنيعة. وتوجه الأمير علاء الدين الخازندار إلى أسوان فلم يدركه، وظفر بنائبه بألدوّ المسمى بصاحب الجبل، فجهزهم إلى السلطان»[2].

---

1 المقريزيّ، كتاب السلوك في مسعد، المكتبة السودانية العربية ص330

2 النويريّ، نهاية الأرب في مسعد ص218، وانظر ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد ص 260

ويشير هذا النص إلى توغل حملة الخازندار حتى تخطت إبريم جنوبًا، إلى ألدو، أو جبل، عدا مقر حاكم الإقليم الشمالّي لمملكة مقُرّة، الذي يعرف بصاحب الجبل. ولا تعطي المصادر تفاصيل لهذه الحملة، غير أن المقريزيّ أشار إلى أنها توغلت حتى قاربت دنقلة[1]، وبالطبع فإن ألدو تقع شمال وادي حلفا، وهي بعيدة جدًّا عن دنقلة. وهذه الحملة هي أول حملة أرسلها المسلمون من مصر تتوغل إلى هذا العمق في داخل مملكة مقُرّة.

وقد سبق حملة الملك داؤود على أسوان عام 674 هـ/ 1275 م لجوء أحد أفراد الأسرة الحاكمة المَقُرّيّة إلى بلاط السلطان المملوكي الظاهر بيبرس. وقد اختلفت المصادر في علاقته بالملك داؤود، فذكر ابن أبي الفاضل وبدر الدين العيني[2]: «وفد على السلطان شكندة[3] ابن عم داؤود ملك النوبة، متظلماً من ابن عمه داؤود، وذكر أن المُلك كان له دونه». وقد وافق ابن خلدون رواية ابن أبي الفضائل، في أن شكندة ابن أخ داؤود، وذكر ابن الفرات أن إحدى الروايات تقول إنه ابن عمه، بينما تقول رواية أخرى أنه ابن أخته[4]. بينما ذكر كل من النويريّ والمقريزيّ أن شكندة ابن أخت داؤود. ويقودنا ذلك إلى ما تناولته المصادر والمراجع حول وراثة العرش في مملكتي مقُرّة وعلوة، أكانت عن طريق الأب أم عن طريق الأم؟. وقد تعرضنا لهذه القضية في موضوع منفصل.

---

1 المقريزيّ، السلوك ص 330

2 ابن أبي الفضائل، كتاب النهج السديد والدّرّ الفريد في مسعد ص 248، العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. موقع الوراق ج 1 ص 144.

3 يرد اسمه في المصادر بصورة مختلفة فهو مشكر عند المقريزيّ وتشكيل عند ابن خلدون ومرقشنكر عند القلقشنديّ وفرمشكر عند النويريّ.

4 ابن خلدون، العبر في مسعد ص 277، ابن الفرات المصدر السابق ص 261

دخول مملكة مقُرّة في طاعة المماليك

عام 674 هـ 1275 م

لم يكتف السلطان الظاهر بيبرس بالحملة التي اكتسحت الإقليم الشماليّ (إقليم الجبل) لمملكة مقُرّة، انتقامًا لإغارة جيوش مقُرّة على أسوان، بل أعد حملة كبيرة، هي الحملة الثانية التي دخلت مملكة مقُرّة في عصر المماليك. وقد تناولت المصادر العربيّة أحداثها بشيء من التفصيل، كما في مؤلفات: النويريّ، وابن الفرات، وابن أبي الفضائل، والمقريزيّ. وسأوجز هنا ما ورد عند النويريّ[1]، بالإضافة إلى ما أتناوله عن المصادر الأخرى التي سأشير إليها في مكانها.

ذكر النويريّ أن الحملة أعدت عام 674 هـ/ 1275 م تحت قيادة الأمير شمس الدين، والأمير عزّ الدين أيبك، وصحبتهم جماعة من العسكر، ومن أجناد الولايات والعربان بالوجه القبلّي، وهي أول حملة على مملكة مقُرّة في عصر المماليك. وصحب الحملة الأمير المقُرّي شكندة، الذي حضر لاجئًا إلى بلاط المماليك. تمكنت الحملة من السيطرة على إقليم الجبل، ودخلت قلعت دو عاصمة الإقليم. وقد أطلقت المصادر العربيّة اسم «صاحب الجبل» على حاكم الإقليم الشمالّي من مملكة مريس، ولكن تم العثور على بعض الوثائق التي ترجع إلى عام 686 هـ/ 1287 م وما بعد ذلك، والتي وضحت أن حاكم هذا الإقليم كان يلقب بملك دوتاو.[2]

وإقليم دوتاو كتب بصور مختلفة في المصادر العربيّة، مثل: ألدو، ودو، وأداء، وأدواء، كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب[3]. فربما احتفظ ملوك مملكة

---

1 النويريّ، المصدر السابق صفحات 219 – 221.

2 انظر وليام آدمز، النوبة رواق افريقيا ص 370.

3 رجع آركل إلى هذه المنطقة تحت اسم دو وجعل موقعها خطأً في منطقة صاي الحالـيّة شمال مدينة دنقلة.=

مريس (نوباديا) بألقابهم الملكيّة بعد خضوعهم لمملكة مقُرّة في نهاية القرن الأول الهجريّ (7 م). وقرر قادة الحملة إبقاء حاكم الجبل في منصبه، بعد ما قدم لهم المساعدة في إحضار البحارة من رجال المريس - كما ذكر ابن الفرات[1]– لقيادة المراكب عبر مياه الشلال الثاني في منطقة وادي حلفا، كما ساعد أولاد الكنز أيضًا الجيش في عبور الشلالات متجهًا نحو عاصمة المملكة مدينة دنقلة.

لم توضح المصادر المكان الذي دارت فيه المعركة بين الجيش الغازي وجيش مملكة مقُرّة، ويبدو أنها دارت بالقرب من مدينة دنقلة، لأن الحملة سارت 42 يومًا داخل أراضي المملكة. وذكرت المصادر أن الملك داؤود خرج إليهم «بإخوته وبني عمه على الإبل، ومتسلحين بالحراب»[2] وانتهت المعركة بهزيمة الملك داؤود وفراره نحو أراضي مملكة الأبواب، إلى الجنوب من أراضي مقُرّة. ويلاحظ أن المصادر تناولت باقتضاب أحداث المعركة، وذكرت من سلاح المقُرّيين الحراب فقط، بينما كان السلاح الذي اشتهروا به هو السهام، مما يشير إلى تجاهل ما دار في ميدان المعركة. ولو كان جيش المماليك قد نجح في تحقيق انتصار سريع وحاسم، لما ترددت المصادر العربيّة في توضيحه.

دخل الجيش مدينة دنقلة ونصّبوا شكندة ملكًا على البلاد، نائبًا عن سلطان المماليك في مصر، وخيروه وشعبه بين الإسلام أو دفع الجزية، فاختار دفع الجزية، إلى جانب ما وافق عليه وحلف اليمين على ذلك[3]. وكان ما تقرر عليه كالآتي، كما ورد عند النويريّ وابن الفرات:

- تكون البلاد مشاطرة: النصف للسلطان، والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها.
- يدفع كل بالغ دينارًا عينًا في السنة.
- حمل السلطان في كل سنة بما تقرر وجرت عليه العادة من زمن الملوك المتقدمة.

= Arkell, *A History of the Sudsn from the Earliest Times to 1821*, University of London: 1961 p 196-97, 200.

1 تاريخ الدول والملوك في مسعد، المكتبة السودانية ص 260.

2 نفس المكان السابق.

3 انظر نص اليمين الذي حلف عليه في الملاحق.

- أن تكون منطقتا بلاد الجبل خالصة للسلطان، وهي قدر ربع البلاد، وحمل ما يكون بها من الأقطان والتمر للسلطان.
- على الملك شكندة في كل سنة دفع «ثلاثة أفيال، وثلاث زرافات، وخمس فهود إناث، ومائة من الجياد الصهب ومائة من الأبقار الجياد المنتخبة».

وكان داؤود قد بنى مكانًا سماه عيذاب، عمره على أكتاف المسلمين، وفيه منازل وكنائس وصورة ميدان، صوّر فيه قتلى المسلمين بعيذاب وأسراه بأسوان، فمحيت التصاوير منه وخرب، وتقرر حمل ما تخلف عن الملك داؤود وأقاربه من الرقيق والقماش للسلطان. ووجد الأمير جماعة من أمراء النوبة وهم أصل الفساد في البلاد، فجدعهم عن آخرهم وعدتهم عشرون رجلًا، واستنقذ الأسراء المأسورين من عيذاب وأسوان، واستصحبهم معه وأعادهم إلى أماكنهم.

وحرقت كنيسة سوس، التي كان داؤود يزعم أنّها تحدثه. ووجد في كنيسته سوس من الصلبان الذهب وغيرها: أربعة آلاف وستمائة وأربعون دينارًا ونصف، وأواني فضيات، وثمانية آلاف وستمائة وستون دينارًا.

وكانت إقامة العسكر بدنقلة سبعة عشر يومًا حتى تمهدت البلاد، واستنقذت أسرى المسلمين من أسوان وعيذاب، ثم عادوا ومعهم أخو الملك داؤد أسيرًا، ووصل السبي وبيع بـــ 110.000 درهم، وتقدم مرسوم من السلطان ألا يفرق بين الأم والأولاد. وكان الملك داؤود لما هرب قصد ملك الأبواب، وهو ملك من ملوك النوبة، له إقليم متسع، فحملها الخوف من الملك الظاهر أنه اعتقل داؤود وسيره إلى السلطان.

وهكذا حققت حملة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس أهدافها السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة. ويبدو أن الملك الظاهر بيبرس كانت له علاقة مع ملك الأبواب، وقد رأينا أعلاه كيف أن ملك الأبواب قد اعتقل الملك داؤود وأرسله إلى مصر. وقد ذكر ابن عبد الظاهر أنه كان للملك الظاهر بيبرس فدائيّ اسمه سلامة في بلاط ملك الأبواب، لكنه لم يوضح سبب إرساله، كما لم يوضح مدى العلاقة بين الملك الظاهر وملك الأبواب، وكل ما ذكره هو وجود ذلك الفدائيّ في بلاط الأبواب.

وكانت المناسبة التي ذكر فيها ذلك الفدائيّ تتعلق بمملكة مقُرّة، فلقد ذكر أن الفدائيّ سلامة اختلف مع غلام له، فتركه الغلام وذهب إلى ملك مقُرّة شكندة[1]. ولم يوضح ابن عبد الظاهر أيضا مهمة الغلام في بلاط الملك شكندة، لكن يبدو أن الملك الظاهر بيبرس لم يكن يثق في ولاء شكندة والتزامه بما تعهد به. فقد ذكر ابن عبد الظاهر أن الغلام تمكّن من التقرب إلى الملك شكندة وكسب ثقته، وفي أحد الأيام كان الغلام منفردًا بالملك شكندة فقتلَه، ثم قُتل الغلام. وأغلب الظن أن الملك الظاهر قد كلف الغلام بهذه المهمّة. ثم نصّب بِرِك خلفًا له على العرش.

1 ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاون في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 20ذ.

محاولة الخروج عن طاعة المماليك

والصراع على العرش 686 - 716هـ / 1278 - 1316م

لم تستقر الأوضاع في مملكة مقُرّة بعد حملة الملك الظاهر عام 674 هـ/ 1275م، فقد قُتل الملك شكندة، وتولى بعده برِك، وذكر ابن عبد الظاهر أنّه قتل وتولى بعده سمامون[1]، وذكر ابن خلدون أن سمامون ابن أخ شكندة، وقد وصفته المصادر العربيّة بالمكر والدهاء.[2] ويبدو أن الملك سمامون لم يوف بما تعهد به الملك شكندة، ولم يعترف بسلطة المماليك. وأدى ذلك إلى إعداد حملة حربيّة ضده، هي الحملة الثالثة في عصر المماليك.

خرجت الحملة الثانية في عصر المماليك عام 686 هـ/ 1289م بقيادة متولي القاهرة الأمير علم الدين سنجر المسروريّ، المعروف بالخياط، والأمير عزّ الدين الكورانيّ، وجماعة من أجناد الولايات، بالوجه القبليّ، ومتولي الأعمال القوصيّة الأمير عزّ الدين أيدمر السيفّي بعدته، ومن عنده من المماليك السلطانيّة المتمركزين بالأعمال القوصيّة، وأجناد مركز قوص، وعربان الإقليم، وهم: أولاد أبي بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وجماعة من العربان الريسيّة (أو البرلسيّة)، وبني هلال. وانقسم الجيش في قسمين، سار قسم بالبر الشرقيّ والآخر بالبر الغربيّ.

وكانت خطة الملك سمامون هي تفادي مواجهة الجيش الغازي وإخلاء البلاد أمامه، ولم يتضح الغرض من هذه الخطة، كما لم تتعرض المصادر إلى تفاصيل

---

1 ابن عبد الظاهر، المصدر السابق ص 201.

2 ابن خلدون، العبر في مسعد، المكتبة السودانية ص 273 والنويري، المصدر السابق ص 225.

أحداث تحرك الجيش داخل بلاد مقُرّة، ما عدا ما ورد عن إخلاء البلاد أمامه حتى وصل دنقلة، حيث دارت المعركة التي انهزمت فيها جيوش مقُرّة وتقهقر الملك جنوبًا. وطارده الجيش مسافة خمسة عشر يومًا جنوب مدينة دنقلة، فأدركوا جُريس حاكم بلاد الجبل – أو ملك دوتاو - فأخذوه، وأخذوا ابن خاله الملك.

ونصّب ابن اخت الملك سمامون على عرش مقُرّة، وعين جريس نائبًا عنه في بلاد الجبل، وترك معهما بعض الجنود. وتقرر أن يدفع الملك «قطيعة»، لم تحدد المصادر كميتها أو قيمتها، تدفع سنويًّا للسلطات المملوكيّة. ولم تتعرض المصادر إلى ما آلت إليه طبيعة الأوضاع بين البلدين، هل فرض على مملكة مقُرّة تنفيذ الشروط التي أُقرت في حملة 674هـ أم تجددت تلك الشروط؟ وعاد الجيش بعد أن غنم غنائم كثيرة من: الرقيق، والخيل، والجمال، والأبقار، والأكسية.

ولما فارق الجيش بلاد مقُرّة، وتحقق سمامون من ذلك، رجع إلى دنقلة، وقاتل من بها، وهزمهم واستعاد البلاد من نائبه جريس، ولجأ الملك الذي عينته الحملة ومن كان معهما من جنود المماليك إلى القاهرة. وأدى هذا إلى إعداد حملة أخرى ضد الملك سمامون.

خرجت الحملة عام 688 هـ/ 1289 م[1] - الثالثة في عصر المماليك - بقيادة الأمير عزّ الدين أيبك الأفرم، وبصحبته ملك مقُرّة، وجريس نائب الملك على بلاد الجبل، ومجموعة كبيرة من الأمراء، هم: الأمير سيف الدين قبجق المنصوريّ، والأمير سيف الدين بكتمر، والأمير عزّ الدين أيدمر، متولي الأعمال القوصيّة، والأمير زين الدين كتبغا المنصوريّ، والأمير بدر الدين بيدرا، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير علاء الدين الطيبرس، والأمير شمس الدين سنقر الطويل، ونواب الولاة من العربان بالديار المصريّة. وقدرت المصادر عدد الجند بأربعين ألفًا، وجهزت بأدوات القتال والحصار، وبما يزيد على خمسمائة من المراكب الكبيرة والصغيرة لحمل الأزواد والأثقال.

---

1 تناولت عدد من المصادر أخبار هذه الحملة وما ورد هنا اعتمد على ما ورد عند النويريّ، المصدر السابق ص 225 – 228 وما ورد عند ابن الفرات ص 271 – 272.

ورغم أن المصادر لم توضح ما واجهته الحملة السابقة في توغلها داخل أراضي مقُرّة حتى دنقلة، لكن يبدو أنّها قد واجهت مقاومة شديدة، ونقصًا في العتاد، الأمر الذي أدى إلى العناية الكبيرة بهذه الحملة وتجهيزها بذلك العدد الكبير من القادة والجنود. ولما وصلت الحملة إلى أسوان مات ملك مقُرّة المصاحب للحملة ودفن بأسوان، وأُرسل إلى الحملة أحد أولاد أخت الملك داؤود، الذي كان موجودًا في القاهرة، بينما ذكر ابن خلدون أن الذي أرسل هو ابن أخ شكندة.[1]

انقسمت الحملة قسمين: سار نصفها بالبر الغربيّ، والنصف الآخر بالبرّ الشرقيّ، وكان أولاد الكنز وجريس وأمراء أسوان يتقدمون الجند في كل بلاد الجبل، ليقابلوا أهل البلاد ويؤمنوهم على مناطقهم. وبعد دخولهم المناطق الواقعة إلى الجنوب من بلاد الجبل (مملكة دوتاو) بدءًا من منطقة حلفا، لم يتعاون السكان معهم، وكانوا يخلون المناطق أمام الجيش بناءً على أوامر ملك مقُرّة، فكان العسكر ينهبون ما يجدون بها، ويقتلون من تخلف من أهلها، ويرعون زروعهم، ويحرقون سواقيهم ومساكنهم، إلى أن انتهوا إلى مدينة دنقلة.

فوجدوا الملك قد أخلى المدينة وأجلى أهلها، وتوجه إلى جزيرة كبيرة اتساعها مسافة ثلاثة أيام، على مسافة خمسة عشر يومًا من مدينة دنقلة. وأعطاه قائد الجيش الأمان، وطلب منه تسليم نفسه، إلا أنه رفض ذلك، وتقهقر جنوبًا نحو مملكة الأبواب، على مسافة ثلاثة أيام من الجزيرة. وفارقه من كان معه من السواكرة وهم الأمراء، وفارقه أيضًا الأسقف والقساوسة، وطلبوا الأمان ودخلوا تحت الطاعة. فأمّنهم قائد الجند وخلع على أكابرهم، ورجعوا معه إلى دنقلة.

واجتمع الأمراء بدنقلة، ونصبوا الملك الجديد وألبسوه التاج، وحلّفوه للسلطان. وحلّفوا له أهل البلاد. وتقرر عليه البقط، وتركوا معهم طائفة من الجنود. فلما غادر الجند مدينة دنقلة، حضر سمامون إليها ليلًا، وصار يقف على باب كل سوكريّ بنفسه ويستدعيه، فإذا خرج ورآه، قبّل الأرض بين يديه وحلف له. فما طلع الفجر حتى ركب معه جميع الجنود، وزحف بهم على دار الملك، وقبض عليه.

---

1 ابن خلدون، المرجع السابق ص 278.

وأرسل إلى قائد فرقة المماليك التي تركت في دنقلة وطلب منه مغادرة البلاد، فخرج الجند، واستقر الملك سمامون بدنقلة. وأخذ الملك الذي نصبه المماليك فعراه من ثيابه، وذبح ثورًا وقدّ جلده سيورًا، ولفّها عليه طريّة، وربطه على خشبة، فيبست عليه تلك السيور فمات، كما قُتل جريس أيضًا. وكتب سمامون إلى السلطان الملك المنصور يستعطفه ويسأله الصفح عنه. والتزم أن يقوم بالبقط المقرر في كل سنة، وزيادة عليه. وأرسل من الرقيق والتقادم عدة كثيرة.

ويبدو أن السلطات المملوكيّة لم ترض عنه، لأن ابن عبد الظاهر تحدث عن حملة – الرابعة في عصر المماليك - لم يتضح في النص تاريخها، لكن مسعد جعل تاريخها بين عامي 689 و691 هـ/ 1290- 1291 م. ولم يتضح فيما نقله مسعد عن مخطوطة كتاب ابن عبد الظاهر ما حدث للملك سمامون، ولكن يفهم من سياق النص أن الحملة هزمته. وورد ما وضح أن الحملة طاردت ملكًا اسمه آني، وتمكنت الحملة من هزيمته، لكنه هرب إلى مناطق يصعب على الحملة تتبعها، فتركوه وعادوا إلى دنقلة، حيث نصبوا بدمة ملكاً على دنقلة[1].

وقد رأى مسعد أنّ آني قد يكون ملكًا تولى عرش مقُرّة بعد سمامون، فتكون الحملة بذلك قد دخلت المملكة في عصر آني، ولذلك أثبت آني ضمن قائمة ملوك مقُرّة. وفي نفس الوقت اقترح أن آني ربما كان أحد الملوك الصغار في مقُرّة تحت الملك سمامون.[2] وأرى أن هذا الرأي مقبول، لأن سبب خروج الحملة هو تأديب الملك سمامون، وإن لم يرد ذلك فيما نقله مسعد من ابن عبد الظاهر. لكن خروج الحملة مباشرة بعد عودة سمامون لدنقلة وقتله الملك الذي عينه المماليك ونائبه، يؤيد أن سبب خروج الحملة هو تأديب الملك سمامون. فتكون الحملة بذلك قد حاربت سمامون وقضت عليه، ثم طاردت أحد أتباعه «آني»، ثم عادت إلى دنقلة حيث نصبت بِدُمّة ملكًا على دنقلة.

1 ابن عبد الظاهر، المصدر السابق ص 199.

2 انظر مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية ص 199 حاشية رقم 1.

حملة عام 704هـ / 1304م

لم تتناول المصادر العربيّة العلاقات بين مملكة مقُرّة والمماليك بعد تنصيب بدمة ملكًا، وذكر أن المماليك انشغلوا عنه بالأحداث التي واجهوها في مصر والشام عما يجري على حدودهم الجنوبيّة. وفي عام 704هـ/ 1304م أشارت المصادر باقتضاب إلى حملة – رقم 5 - أرسلت إلى مملكة مقُرّة، هي الحملة الخامسة في عصر المماليك. ويلاحظ أنّ النويريّ وابن الفرات اللذين تناولا بالتفصيل ما سبق من حملات المماليك على مملكة مقُرّة لم يتعرضا لهذه الحملة.

ولكن عادت المصادر مرة أخرى إلى أخبار مملكة مقُرّة، فتناول أبو الفداء، والمقريزيّ، والعيني[1]، وصول ملك مقُرّة أياي إلى مصر. قال أبو الفداء: وصل إلى مصر صاحب دنقلة وهو عبد أسود اسمه أياي، ووصلوا صحبته هدية كثيرة من: الرقيق، والهجن، والجمال، والأبقار، والنمور، والشب، والسنباذج». واتفقت المصادر الثلاثة على أنه حضر لطلب المساعدة العسكريّة من المماليك.

ولا نعرف متى اعتلى أياي عرش مقُرّة، ويقول ابن خلدون: إننا لا ندري هل اعتلى العرش مباشرة بعد سمامون أم توسطهما ملك آخر[2]. ويبدو أن أياي تولى العرش بعد بدمة، وحدث صراع على العرش ولم يتمكن الملك أياي من حماية عرشه، فذهب إلى مصر لطلب العون. وذكر العينيّ إعداد حملة بقيادة والي قوص بها مجموعة كبيرة من العربان – الحملة رقم 6 - وسارت مع أياي نحو دنقلة.

ولا يبدو مصير الحملة واضحًا، فالعيني ذكر أنّه بلغ قائد الحملة «خبر بهروب صاحب دنقلة، صحبته جماعة كثيرة من السودان، وعلم أنّه لا ينال طائلًا، واتفق مع الملك، ورجع بالعسكر إلى مصر». ويعني أنه لم تحدث معركة بعد هروب الملك المنافس لأياي، فدخلت الحملة دنقلة ونصبت أياي ملكًا، وعاد الجيش إلى القاهرة. غير أن المقريزيّ ذكر أنّ الحملة عادت عام 706هـ/ 1306م «من بلاد النوبة إلى قوص،

1 أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر موقع الوراق ج 1 ص 495 والمقريزي، السلوك في مسعد ص 340 والعيني، المصدر السابق ج 1 ص 455.

2 ابن خلدون، المصدر السابق ص 280.

بعد غيبتهم تسعة أشهر، ومقاساة أهوال في محاربة...» وبناءً على ما ذكره المقريزيّ فإن الحملة مكثت وقتًا طويلًا في بلاد مقُرّة، وخاضت معارك كثيرة، وقاست من قلة الزاد، ومن الصعب التوفيق بين الروايتين.

وإن صح ما ورد عند ابن خلدون أن كرنبس (مكتوب عند ابن خلدون كربيس) خلف أخاه أياي على العرش، فإن ذلك يعني أن أياي تمكن من المحافظة على عرشه أو استرداده حتى وفاته التي جعلها ابن خلدون عام 716 هـ/ 1316 م. وهذا التاريخ يخالف ما ورد عند كل من المقريزيّ وابن إياس.

فقد جعل المقريزيّ وصول كرنبس إلى مصر عام 711هـ/ 1311م، بينما جعلها ابن إياس عام 712هـ/ 1312م. ويبدو أن هذين التاريخين أقرب إلى واقع الأحداث التالية، التي جعلت كرنبس يرفض دفع ما عليه من الخراج والبقط، وكان ذلك سبب خروج حملة عام 716هـ فليس من المقبول أن يأتي لزيارة مصر سعيًا وراء رضاء السلطة المملوكيّة، ويرفض في نفس العام الوفاء بالتزاماته نحوهم.

وبدأ كرنبس عهده بالتوجه إلى مصر عام 711 أو 712هـ، حاملًا ما عليه من التزامات نحو السلطات المملوكيّة في مصر، ربما بحثًا عن اعتراف المماليك به على عرش دنقلة، لأن المقريزيّ ذكر أنه قتل أخاه أياي واعتلى عرش المملكة[1]. وذكر ابن إياس أن كرنبس حضر «وبصحبته هدايا عظيمة، فمن جملة ذلك ألف رأس رقيق، وخمسمائة جمل، وخمسمائة بقرة خيسية»[2] ورغم المبالغة الواضحة في حجم الهدية، وخاصة عدد الرقيق، إلا أنّها تشير إلى حجم الجرم الذي ارتكبه في شأن المماليك، بقتل أخيه حليفهم.

---

1 المقريزيّ، المصدر السابق ص 341.

2 ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 391.

ملك مسلم على عرش مقُرّة 716 هـ / 1316 م

لم تدم العلاقات الطيبة بين الملك المقريّ كرنبس والمماليك طويلًا، ويبدو أنّه طلب ودّ المماليك في البداية ليكسب الوقت حتى يقوّي موقفه، فقد ذكر ابن خلدون أنّه في عام 716هـ/ 1316م، رفض دفع ما عليه من الخراج، مما أدى إلى إعداد حملة خامسة لبلاد مقُرّة. أعدت الحملة – رقم 7 - بقيادة عزّ الدين أيبك، ومجموعة كبيرة من الأمراء، وصحبهم سيف الدين عبد الله برشمبو، وهو ابن اخت الملك داؤود، نشأ في بلاط المماليك واعتنق الإسلام، فتقرّر أن يعتلي عرش مملكة مقُرّة.

وعندما علم الملك كرنبس بما نوى عليه سلطان المماليك، أرسل إليه ابن أخته كنز الدولة لكي ينعم عليه بعرش مملكة مقُرّة، وخاطبه قائلًا: «إن كان قصد مولانا السلطان أن يولي البلاد لمسلم، فهذا مسلم وهو ابن أختي، والملك ينتقل إليه من بعدي»[1]. غير أن السلطات المملوكيّة لم تستجب لطلبه، وحجزت كنز الدولة في القاهرة. وأرسلت الحملة – رقم 7 - يصحبها الأمير عبد الله برشمبو.

ولم ترد تفاصيل عن الحملة وسيرها، وذكر أنها وصلت دنقلة وفرّ الملك كرنبس جنوبًا إلى مملكة الأبواب، حيث اعتقله حاكمها، وأرسل إلى قائد الحملة ليرسل من يستلمه، فتم اعتقاله وإرساله للقاهرة. ونُصِّب عبد الله برشمبو أول ملك مسلم على مملكة مقُرّة عام 716 هـ الموافق 1316م.

1 النويريّ، المصدر السابق ص 229.

هل سقطت مملكة مقُرّة؟ ومتى؟

ساد في مفاهيمنا العامة سقوط مملكة مقُرَة عام 716هـ/ 1316م، وهو مفهوم على درجة كبيرة من عدم الدقّة، كما أن المعلمين والباحثين لم يعملوا على تصحيح هذا المفهوم. وكل ما ورد في المؤلفات العامة والمتخصصة تقول بـ «سقوط مملكة مقُرّة المسيحيّة»، وفي واقع الأمر فإنّ مملكة مقُرّة المسيحيّة لم تسقط في هذا التاريخ، فنحن للأسف لا ندري على وجه الدقة متى سقطت مملكة مقُرّة المسيحيّة، ولا ندري كذلك متى سقطت مملكة مقُرّة الإسلامية كما يتضح فيما يلي.

بعد أن استقرت الأوضاع في مدينة دنقلة للملك المقرّي المسلم عبد الله برشمبو، عاد جنود المماليك إلى مصر عام 717هـ/ 1317م وأفرجت السلطات المملوكيّة عن كنز الدولة الذي كان محبوسًا بمصر. وعندما عاد كنز الدولة إلى دنقلة، تمكن من قتل الملك عبد الله برشمبو، واعتلاء عرش المملكة، بمساعدة أهل مقُرّة. فقد ذكر النويري أنّ عبد الله برشمبو «غيّر قواعد البلاد، وتعاطى نوعًا من الكِبْر لم تجر عليه عادة ملوك النوبة بمثله، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة، فكرهوا ولايته.»[1]

وربما رجع تصرف برشمبو بتلك الصورة لأنه نشأ في بلاط المماليك بعيدًا عن بلده، فلم يعرف طبيعة وعادات أهلها، كما لم يكن على دراية بقواعد وممارسة السلطة في بلاط المقرّيين، التي يفترض أن تكون مختلفة عن ممارسة السلطة عند سلاطين المماليك. بالإضافة إلى أنه نشأ في بيئة إسلاميّة، وربما أراد تطبيقها كاملة في مجتمع مقُرّة حديث العهد بالإسلام. وتورد المصادر أنّه حول كنيسة دنقلة إلى مسجد، مما أثار غضب سكان مدينة دنقلة. فلم يكن غريبًا أن يستقبل كنز الدولة

1 النويري، المصدر السابق ص 229.

بمجرد دخوله أراضي مقُرّة استقبال الملوك، ومناصرته ضد برشمبو، فأصبح كنز الدولة ثاني ملك مسلم يعتلي عرش مملكة مقُرّة.

وبالطبع فإنّ ما حدث أغضب السلطة المملوكيّة، ليس فقط من احتمال خروج مملكة مقُرّة عن سلطتهم، ولكن أيضًا لأن المماليك قد لا يسمحون بقيام دولة على حدودهم الجنوبيّة تحكمها أسرة عربيّة. ولذلك أفرج المماليك عن أبرام أخ كرنبس، وطلبوا منه الذهاب لدنقلة والتحايل على اعتقال كنز الدولة. وعنما حضر أبرام لدنقلة تنازل له كنز الدولة عن العرش طوعًا، وعاد عرش مملكة مقُرّة للمسيحيّين. ووفقًا للخطة المرسومة مع المماليك اعتقل أبرام كنز الدولة ليرسله إلى مصر، غير أن أبرام توفي بعد أيام قليلة من اعتقاله كنز الدولة، واتفقت كلمة أهل مقُرّة على اختيار كنز الدولة ملكًا على عرش مملكة مقُرّة.

ملك مسيحيّ على عرش مقُرّة 723 هـ / 1323 م

ذكر النويريّ أن كنز الدولة «ضم إليه العرب، واستعان بهم على من ناوأه»، غير أنه لم يوضح هنا من هم العرب الذين استعان بهم، ويبدو أنه قصد بذلك العكارمة، كما سيتضح فيما يلي. ومن المتوقع أن يؤدي اعتلاء كنز الدولة مرة أخرى عرش مقُرّة إلى تحرك المماليك، ويبدو أن ذلك لم يتم إلا في عام 723 هـ/ 1323م.

خرجت الحملة – رقم 8 - بقيادة والي قوص ومعه مجموعة من الأمراء، ولم ترد تفاصيل عن الحملة، ولكن ورد أن كنز الدولة هرب من دنقلة عند وصولها، ونُصب كرنبس ملكًا على عرش مملكة مقُرّة، ويلاحظ أن كرنبس لم يكن مسلمًا، ولما عادت الحملة إلى مصر عاد كنز الدولة وهزم كرنبس واعتلى عرش مقُرّة.

ولم يأت رد الفعل سريعًا من جانب المماليك ضد كنز الدولة، وقد أشارت المصادر فقط إلى أنه في عام 725هـ/ 1325م «قدم المجردون من النوبة وقد غابوا ثمانية أشهر»[1]، وكان المجردون جنودًا مثل الجنود المرتزقة حاليًا، كما يتضح من كتابات المقريزيّ

1 المقريزيّ، المصدر السابق ص 345.

عنهم، وإرسالهم إلى صعيد مصر وسوريا ومكة، وكيف أنهم اشتهروا بالعنف وسوء السلوك. وأغلب الظن أن المماليك أرسلوا المجردين – الحملة رقم 9 - لمحاربة كرنبس ولكن لم يرد ما يوضح ما حدث. ولا بد أنهم قاموا بأعمال حربية ضد كنز الدولة وعادوا دون أن ينجحوا في إقالته عن العرش.

لم ترد معلومات عما دار في بلاد مقُرّة وعاصمتها بعد استرداد كرنبس عرشَه عام 723هـ/ 1323م بمعاونة حملة المماليك التاسعة، ورجوع كنز الدولة لعرش مقُرّة بعد تغلبهم على كرنبس. ويبدو أن أبناء كنز الدولة لم يتمكنوا من الاحتفاظ بعرش مملكة مقُرّة، فاستردت الأسرة المقرّيّة عرشها، ربما بمساعدة حملة الجنود المجردين – رقم 9 - التي عادت عام 725 هـ/1324 م.

ويؤيد ذلك وورود ذكر اسم ملك مقُرَيّ مسيحيّ في وثائق بيت المقدس في الفترة بين عامي 728 – 740هـ/ 1327 – 1339م. ويعني هذا اعتلاء عرش مقُرّة ملوك مسيحيّون بعد الملك عبد الله برشمبو والملك الكنزيّ. ومن جانب آخر فقد أشارت المصادر إلى النشاط العدائّي لأبناء الكنز ضد المماليك، في مناطق: أسوان، وصحراء عيذاب، ومنطقة الواحات الداخلة، وورد أنهم تصاهروا مع أمراء العكارمة فازدادت قوتهم.[1] ويلاحظ ظهور قبيلتين في هذا الوقت إلى جانب أبناء الكنز في الصراع في المنطقة، هما قبيلتا العكارمة وبني جعد.

ويلاحظ أنه لم يرد ذكر للعكارمة في كل المصادر التي تناولت مشاركة القبائل العربيّة مع جيوش المماليك في حروبهم لمملكة مقُرّة [2]. كما لم يرد ذكر أيضًا لقبيلة العكارمة بين القبائل العربيّة التي تناولتها كتب الأنساب التي عاش مؤلفوها في مصر، وكان بعضهم معاصرًا لأحداث الحروب بين المماليك ومملكة مقُرّة، مثل القلقشنديّ في كتابية «نهاية الأرب في معرفة الأنساب العرب» و«قلائد الجمان

1 ا نفس المصدر ص 346.

2 ورد الحديث عن تلك القبائل في الجزء الأول من هذا الكتاب، وفي موضوع للمؤلف عنوانه «قبيلة جهينة هل تكاثرت وتغلبت على النوبة وأزالت ملكهم كما روى ابن خلدون أم كانت غائبة تمامًا عن تلك الأحداث» **مجلة الدراسات السودانية**، معهد الدراسات الإفريقيّة والآسيويّة جامعة الخرطوم، العدد 15 أكتوبر 2009 ص 107 – 109.

في التعريف بقبائل عرب الزمان»، والسيوطي الذي توفي بعد نهاية تلك الحروب في كتابه «لب اللباب في معرفة الأنساب».

لماذا لم يشارك العكارمة مع القبائل العربيّة الأخرى في حروب المماليك؟ لا توجد إجابة عن ذلك في المصادر التي بين أيدينا الآن، وأغلب الظن أنهم لم يكونوا موجودين في المنطقة. ويؤيد ذلك أن كتب الأنساب لم تتعرض لوجودهم في مصر. وقد تحدث ابن خلدون عن العكارمة في مواطنهم بمناطق الجزائر والمغرب الأقصى[1]. فهل وصلوا إلى المنطقة بعد نهاية الحملات التي أخضعت مملكة مقُرّة للمماليك؟.

كما يلاحظ أن بني جعد أيضًا مثل العكارمة لم يشاركوا في حملات المماليك على مملكة مقُرّة، رغم وجودهم في ذلك الوقت في صعيد مصر. فقد ذكر القلقشنديّ مساكن بعض بطون بني جعد القحطانيّة في صحراء مصر الغربيّة بصعيد مصر.[2] فلماذا لم يشاركوا القبائل العربيّة الأخرى التي شاركت المماليك في غزو مملكة مقُرّة؟ ليس من السهل أيضًا الإجابة عن هذا السؤال، ولكن يمكن افتراض أنّهم لم يكونوا على علاقات طيبة مع المماليك، إذ كانوا على طريق الصحراء الشرقيّ، حيث كانت القبائل العربيّة كثيرة تهدد أمنهم في كثير من الأحيان.

وقد يكون السبب في عدم مشاركتهم في غزو مملكة مقُرّة بعدهم عن المنطقة، وعدم توقعهم للعائد المجزي من تلك الغزوات. والنتيجة النهائيّة هي أنّهم لم يشاركوا في تلك الغزوات. والسؤال الملح هنا هو: كيف ظهر وجودهم في المنطقة الواقعة جنوب وادي حلفا الحالّية، بينما كان الكنوز والعكارمة في المناطق الشماليّة من منطقة وادي حلفا؟ هل هناك قبيلة أخرى بهذا الاسم؟

ذكر ابن خلدون قبيلة أخرى تحت هذا الاسم «بنو جعد»، وهم فرع من قبيلة صنهاجة الأمازيغيّة (البربريّة)، التي كانت تتجول في مناطق الصحراء الكبرى جنوب دولة الجزائر الحاليّة[3]. فهل هي القبيلة المعنية هنا في أحداث الصراع بين

1 ابن خلدون، العبر موقع الوراق ج 6 ص 48.

2 القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، موقع الوراق ج 1صفحات59 و69 و73 و140.

3 ابن خلدون، العبر موقع الوراق ج 6 ص 143.

الأسرة الكنزيّة وحلفائها من جهة، والمماليك من جهة أخرى؟ ليس هنالك ما ينفي هذا الافتراض، رغم بعد المسافة بين صحراء الجزائر والنيل، لكن تحركات القبائل في الصحراء يمكن أن تغطي مساحات أبعد من ذلك. ووصف بني جعد بالعرب لا يعني بالضرورة انتماءهم للعرق العربيّ، فقد وضحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، أن وصف العرب كان يطلق على قبائل أمازيغيّة صريحة الانتساب للعرق الأمازيغيّ، كقبيلة هوارة كما ذكر ابن خلدون.

ورغم اختفاء الكثير من أسماء القبائل التي شاركت في أحداث الصراع بين المماليك ومملكة مقُرّة، والظهور المفاجئ لقبيلتي العكارمة وبني جعد على الساحة، فقد لعبت القبيلتان دورًا واضحًا إلى جانب أبناء كنز الدولة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجريّ (14 م). عاد ذكر أبناء الكنز في الظهور في المصادر العربيّة في عام 767هـ/ 1365م، عندما وصلت بعثة من ملك مقُرّة تحمل رسالة إلى حاكم مصر، وضحت خروج ابن أخت الملك عليها، واستنجاده ببني جعد. وكيف تمكن ابن الأخت من قتل الملك، وعُين أخ الملك المقتول على عرش مقُرّة، وتحصن بقلعة ألدو.

ووضحت الرسالة أن ابن أخت الملك المقتول أصبح ملكًا في دنقلة، وأنه غدر ببني جعد الذين ساعدوه في الوصول للعرش، بأن أعد وليمة لزعماء القبيلة في أحد القصور في مدينة دنقلة وأحرقهم أحياء، وقُتل من حاول الخروج من النار، كما قتل أتباعهم وهزمهم هزيمة كبيرة. وطلب الملك في ألدو مساعدة المماليك على العرب الذين يهددون عرش المملكة.

ولم تذكر المصادر اسم ابن الأخت الثائر، ولا اسم الملك المقتول، أو اسم الملك الجديد، الأمر الذي كان من الممكن أن يوضح انتماء الشخصيات المتصارعة على عرش مقُرّة. ولكن من الواضح أنهم ليسوا من أبناء الكنز كما سيتضح من موقف أبناء الكنز العدائيّ تجاه المماليك. كما لم يرد دخول قبائل أخرى في الصراع حول عرش المملكة. فالملك المقتول وابن أخته كانوا من الأسرة المقرّيّة. ويؤيد هذا ما ذكرناه من أن الأسرة المقرّيّة استعادت عرشها من أبناء الكنز، ربما عام 725هـ بمساعدة الجنود المجردين، أو في وقت ما بعد ذلك.

وأعدت حملة كبيرة عام 767 هـ/ 1365 م - رقم 10 - كما وصفها المقريزيّ[1]، بقيادة حاجب الحجاب الأمير أقتمر، ومعه الأمير ألجاي، أحد أمراء الألوف، وعشرة أمراء عشرات، وثمانية أمراء طبل خاناه، في عدة من المماليك السلطانيّة نحو الثلاثة آلاف فارس، وجاءهم أمراء الكنوز طائعين. وتم تجهيز ما يحتاجون إليه من معدات وأدوات وأدلاء لعبور المراكب الشلالات. وبلغهم الخبر أن العرب حاصروا الملك في قلعة ألدو، فأسرعوا وتمكنوا من نجدته.

ويبدو أن المماليك والملك لم يكونوا يثقون في ولاء أبناء الكنز والعكارمة، فاتفق قائد الحملة مع الملك، وألقوا القبض على رؤسائهم. وكان بقية العكارمة متحصنين في جزيرة ميكائيل في منطقة حلفا الحاليّة، فقتلوا أكثرهم وأسروا البقية. وتم الاتفاق على نقل عاصمة المملكة من دنقلة إلى قلعة ألدو، لسهولة الدفاع عنها أمام هجوم العرب، ولأن دنقلة أصبحت عرضة لغارت بني جعد. وصودرت أموال أبناء الكنز بأسوان، وعادت الحملة بالكثير من الأسرى الكنوز والعكارمة.

وهكذا أدت أحداث حملة عام 767 هـ/ 1365م إلى تغيرات في الساحة السياسيّة والقوى العسكريّة في المنطقة، يمكن تتبعها كالآتي:

أولًا: تحول مقر ملك دنقلة إلى أدوا أو مملكة دوتاو.

ثانيًا: صعود قوة بني جعد العسكرية والسياسية في منطقة دنقلة، ثالثاً: نشاط أبناء الكنز في منطقة أسوان.

---

1 المقريزي، المصدر السابق ص 346.

ملوك مملكة مقُرّة[1]

رأينا فيما سبق أن ملوك مقُرّة قبل عام 767 هـ/ 1365 م لم يكونوا من أبناء الكنز، لأن ملك دنقلة تحالف مع المماليك وحارب أبناء الكنز، ويعني ذلك أن الأسرة المقُرّيّة استعادت عرشها من أبناء الكنز، وحكم مقُرّة خلفاء الملك كرنبس. ويؤيد هذا ما ورد في بعض وثائق حجاج بيت المقدس في الفترة بين عامي 728 – 740هـ/ 1327 – 1339م من ذكر ملك مسيحي «لمملكة النوبة اسمه سبعانول»[2]، كما ورد أيضًا في كتاب لراهب أسباني زار دنقلة وغادرها مع قافلة إلى القاهرة، وألف كتابه بعد عام 1360 ذكر فيه ملك دنقلة المسيحيّ، ورسمه بزيّه الملكيّ.[3]

وفي كل ذلك دلالة واضحة أن ملوك الأسرة المقرّيّة عادت إلى المسيحيّة بعد نهاية حكم أسرة أبناء الكنز، ربما في وقت قصير، بعد استرداد كنز الدولة العرش من كرنبس عام 723 هـ/ 1323م، لأن اسم الملك سبعانول كان ورد في الوثيقة التي ترجع إلى الفترة بين عامي 728 – 740هـ وربما كانت بداية حكم سبعانول قبل هذا التاريخ، لأن الوثيقة ذكرت فقط أنه كان حاكمًا في هذا التاريخ. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: ماذا حدث لمسجد الملك برشنبو الذي كان في الأصل كنيسة؟ هل ظل مسجدًا بعد رجوع المسيحيّة لعرش مملكة مقُرّة وأسس الملوك المسيحيّون كنيسة جديدة؟ أم أرجعوا المسجد كنيسة وأسسوا مسجدًا للمسلمين في المدينة؟ أغلب الظن أن المسجد عاد كنيسة كما كان.

---

1 انظر قائمة بأسماء ملوك مقرَة في الملاحق في نهاية هذا الفصل.

2 انظر آدمز، المرجع السابق ص 471.

3 John Vantini, "Medieval Western Sources" in *The Excavation at Faras: A Contribution to the History of Christian Nubia, p136.*

ومن جانب آخر يرى آدمز أن مقُرّة توقفت بوصفها مجتمعًا سياسيًّا عن الوجود بعد حملة المماليك عام 767هـ/ 1365م واستقرار الملك في داو بدلًا عن دنقلة، وأضحت منطقة دنقلة تحت رحمة غارات الناهبين[1]. ولا تمدنا المصادر المتاحة بأخبار عن مقُرّة، ولكن ما توافر من معلومات عن مملكة دوتاو وضح استمرار حكم ملوكها، كما سنوضح ذلك لاحقًا، مما يشير إلى أن ملوك مقُرّة لم يستقروا لوقت طويل في دوتاو، أي أنهم رجعوا لعاصمتهم دنقلة. ويؤيد ذلك ما ورد عن وصول ملك مقُرّي إلى بلاط المماليك عام 800هـ/ 1397م حيث ذكر المقريزيّ:

«قدم ناصر متملك بلاد النوبة فارًا من ابن عمه، فأكرمه السلطان وخلع عليه، وأعاد الصارم إبراهيم الشهابي إلى ولاية أسوان، وتقدم إليه بمعاونة ناصر»[2]. واسم الملك هنا يوضح أنّه مسلم، وليس من المتوقع أن يكون من أبناء الكنز، لأن العداء كان مستفحلًا بينهم والمماليك، وكانت الحروب مشتعلة بين الطرفين عندما أتى الملك ناصر مستنجدًا بالمماليك، كما سيتضح فيما يلي عند الحديث عن أبناء الكنز.

هذا إلى جانب أن إشارة المقريزيّ إلى الملك بأنّه «ملك النوبة» توضح أنّه ليس من أسرة أبناء الكنز أو أيّ أسرة عربيّة أخرى. لكن الاسم يدل على أنّ الأسرة المقُرّيّة قد رجعت إلى الإسلام. ولم يتضح هل تمكن المماليك من مساعدة الملك على استرداد عرشه أم فقد الملك عرشه لابن عمه.

ولكن يتضح أن مملكة مقُرّة كانت لا تزال موجودة بملوكها النوبيّين حتى بداية القرن التاسع الهجري (15م)، ولم يتوقف وجودها بوصفها كيانًا سياسيًّا بعد عام 767هـ/ 1365م كما افترض آدمز. والسؤال هو متى انتهى وجودها كيانًا سياسيًّا؟ ليس هنالك ما يمنع من افتراض استمرارها حتى قيام سلطنة سنار في نهاية القرن الخامس عشر، أو بداية القرن السادس عشر، ودخولها تحت مظلتهم.

---

1 آدمز، المرجع السابق ص 468.

2 المقريزيّ، السلوك ص 364.

مملكة دوتاو[1]

لم تجد هذه المملكة العناية المطلوبة من الباحثين، وقد حاول آدمز تتبع المصادر التي تحدّثت عنها، المتمثلة في الوثائق والرسوم التي تم العثور عليها في منطقة النوبة السفلى،[2] كما تناولها أيضًا الأب فانتيني. وأقدم تلك المصادر عبارة عن مجموعة من الوثائق تم العثور عليها عام 1974م في قصر إبريم، تضمنت أسماء اثنين أو ثلاثة من ملوك دوتاو، هم: موسى جورج، وجورج، وبازل، إلى جانب أسماء قساوسة وشخصيات أخرى. ويرجع تاريخ هذه الوثائق إلى الفترة بين عامي 1144 و1199م الموافق 539 و596هـ ويوضح هذا أن مملكة دوتاو كانت موجودة قبل هذا التاريخ.

وقد ذكر ابن المقفع وأبو صاح أنّ مملكة مقُرّة تنقسم إلى ثلاثة عشر قسمًا، يطلق على كل قسم منها اسم مملكة، ويحكمها ملك، ويطلق على الملك في دنقلة اسم الملك العظيم، أو الملك الكبير كما ذكر ابن المقفع وأبو صالح،[3] ولكن لم تذكر المصادر أسماء تلك الممالك، فقد أطلق المقريزيّ مثلًا على الجزء الشمالي من المملكة اسم ولاية[4]. ويعني هذا أن مملكة دوتاو كانت إحدى الممالك التابعة لمملكة مقُرّة.

وقد ذكر المقريزيّ أن حاكم الإقليم الشماليّ لمملكة مقُرّة كان يعرف «عند النوبة بصاحب الجبل»[5]، ولعل المؤلفين العرب كانوا يستخدمون لفظي «ملك»

---

1 انظر قائمة بما تيسر من ملوك دوتاو في الملاحق في نهاية هذا الفصل.

2 آدمز، المرجع السابق ص 470 – 472.

3 ساويرس ابن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصريّة في مسعد، المكتبة السودانية ص 82 وأبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني في مسعد 144.

4 المقريزي، السلوك في مسعد ص 334.

5 نفس المكان السابق.

و«صاحب» مترادفات. وكما يبدو من تناول المصادر العربيّة، فإن سلطة صاحب الجبل تمتد من منطقة الشلال الثاني حتى حدود المملكة عند الشلال الأول شمالًا، ويعتبر حاكمها من أجلّ الحكام في مملكة مقُرّة، وميزه أبو صالح بلبس «العصابة، والقرنين، والسوار الذهب»[1].

ولكن تضاربت آراء المؤلفين حول مقر صاحب الجبل، فجعله أبو صالح مرّة مدينة بجراش[2]، وهي مدينة فرس التي كانت عاصمة لمملكة مريس (نوباديا)، وفي مرة أخرى جعل أبو صالح مقرّ صاحب الجبل مدينة إبريم، وفي مرة ثالثة جعله مدينة بوسقا.[3] وقد ذكر ابن سُلَيم أسماء المدن الثلاث الكبرى في المنطقة، وهي بجراش، ويكتبها ابن سليم نجراش، وإبريم، وأدوا، وذكر أنه بهذه الناحية والٍ يعرف بصاحب الجبل، بينما قرر في مكان آخر عن نفس المنطقة أن «مدينة ملكهم يقال لها نجراش». ويفهم مما ورد عند النويريّ وابن الفرات والمقريزيّ أن مقر صاحب الجبل مدينة ألدوّ.[4]

وقد كُتبت ألدوّ في المصادر العربيّة بأشكال مختلفة، فهي عند ابن أبي الفضائل ألدو أو دو، وعند المقريزي ألدو وأدَوى وضبطها النويري الَدوّ وعند آدمز داو أو جبل عدا.[5] فألدو أو دو أو داو هي التي وردت في المصادر المقرّية باسم دو، وعرف ملوكها بملوك دوتاو. وتقع دو بين مدينتي فرس وإبريم. وأثناء الصراع بين العمريّ وملك مقُرّة استمال ملك مقُرّة أعداء العمريّ من عرب الشام إليه وأعطاهم إقطاعات فيها (ديدان وأدوا) كما ذكر المقريزيّ[6].

1 أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني في مسعد 126.

2 نفس المكان السابق.

3 المصدر السابق ص 127 و129.

4 النويريّ، المصدر السابق ص 219 وابن الفرات، المصدر السابق ص 261 والمقريزي، المصدر السابق ص 337.

5 ابن أبي الفضائل، المصدر السابق ص 249 و252 والمقريزي، المصدر السابق ص 232 والنويري ص 219 وآدمز، المرجع السابق ص 416.

6 المقريزيّ، **المقفى**، في مسعد، المكتبة السودانية ص 364.

فنحن الآن أمام آراء متعددة حول مقر صاحب الجبل، كما وردت في المصادر العربيّة، لما كان صاحب الجبل يحكم كل أراضي مملكة مقُرّة شمال الشلال الثاني، فقد استبعدنا وجود ملك آخر في هذه المنطقة. فهل نفترض أن مقر صاحب الجبل كان يتحول من مدينة إلى أخرى في بعض الأحيان؟ لورود أربعة مقرات هي: بوسقا، وإبريم، وبجراش، ودو. هذا الافتراض يتعارض مع المصادر المقُرّيّة التي وضحت أن دو كانت عاصمة للمملكة منذ عام 1144 م / 539هـ، ووسمت الملوك كلهم بملوك دو.

وقد لخص آدمز دور القلعة في تاريخ المنطقة منذ القرن الثاني عشر الميلادي (6هـ)، واتضح أنّ المملكة اشتهرت في المصادر الآثاريّة باسم دوتاو. وبيّنت المصادر الآثاريّة أنّها ظلّت عاصمة لمملكة مسيحيّة، عثر على أسماء ثمانية من ملوكها، وبعض أسماء من أساقفتها حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلاديّ، أي قبل نحو عشرين سنة فقط من تاريخ قيام سلطنة سنار الإسلاميّة.[1]

1 آدمز، النوبة رواق أفريقيا، ص471

أبناء الكنز في منطقة أسوان

يلاحظ أن العلاقة بين الأسرة الكنزيّة أمراء وحكامًا على منطقة أسوان وبين الدول التي تعاقبت على حكم مصر قبل العثمانيّين، قد سادتها فترات من العلاقات الطيبة وحسن الجوار أحيانًا، واضطراب العلاقات والحروب أحيانًا أخرى. فقد بدأت علاقاتهم طيبة مع الفاطميّين، ثم تدهورت بسبب المشاكل التي حدثت بين الجنود السودانيّين في مصر، وتدخل مملكة مقُرّة وأبناء الكنز فيها.

وتكرر نفس الموقف مع الأيوبيّين الذين حكموا مصر بعد الفاطميّين. ويبدو أن الأيوبيين لم يولوا اهتمامًا كبيرًا بالمناطق الواقعة على حدود مصر الجنوبيّة، إذ لم يرد في المصادر العربيّة المعاصرة لهم ما يشير إلى قيام علاقات بين الطرفين، كما لم يهتم الأيوبيّون أيضًا بعلاقاتهم مع مملكة مقُرّة الواقعة إلى الجنوب من مناطق نفوذ أبناء الكنز.

ويبدو أن الأسرة الكنزيّة قد وطدت علاقاتها مع مملكة مقُرّة، للدرجة التي أدت إلى مصاهرة الكنوز للأسرة المالكة المقرّيّة. وبعكس الأيوبيّين نجد أنّ المماليك الذين تولوا حكم مصر بعد الأيوبيّين قد بدأ اهتمامهم الواضح بحدودهم الجنوبيّة، سواء على نهر النيل أو على البحر الأحمر. وتشير المصادر إلى وصول سفراء من مملكة مقُرّة إلى بلاط المماليك منذ السنوات الأولى لقيام دولتهم. كما نقلت المصادر أيضًا وصول بعض الأمراء الذين التجأوا لمصر، للمشاكل التي كانت تحدث حول وراثة العرش.

وليس من السهل التوصل إلى أسباب ذلك الاهتمام المبكر من المماليك بمملكة مقُرّة، ولكن من الواضح أن ذلك الاهتمام قد أدى إلى بلورة علاقة المماليك

بالأسرة الكنزيّة، التي يتم عبر مناطق نفوذها الاتصال بمملكة مقُرّة. ويبدو أن كلا الجانبين قد خطط للاستفادة من الجانب الآخر، فالمماليك يستفيدون من قوة أبناء الكنز الحربيّة، وصلاتهم ومعرفتهم بأهل وبلاد مقُرّة، ويعمل أبناء الكنز على تقوية نفوذهم في المنطقة، وربما وراثة عرش المملكة بعد خضوعها لسلطة المماليك.

وهكذا تعاون أبناء الكنز مع غيرهم من الجماعات العربيّة في صعيد مصر، في أول حملة مملوكيّة على دولة مقُرّة عام 674هـ/ 1275م، فقد سارت مجموعات كبيرة منهم في الحملة وشاركوا في القتال. ويبدو أن المماليك قد تخوفوا من استقرار وتطور نفوذ القبائل العربيّة في بلاد مقُرّة، فبدأوا اتباع سياسة جديدة تجاه القبائل العربيّة في بلاد مقُرّة، تمثلت في إبعادهم وعدم السماح لهم بالاستقرار في تلك المناطق. ويتضح في أحد البنود التي فرضت على شكندة ملك مقُرّة بعد حملة عام 674هـ، فقد جاء البند كالآتي: «وإنّي لا أترك أحدًا من العربان ببلاد النوبة، ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطاني»[1].

وقد لا يبدو هذا التصرف من المماليك غريبًا، إذا ربطناه بتخوف المماليك من تمكن أبناء الكنز أو غيرهم من القبائل العربيّة من إنشاء إمارة عربيّة على حدودهم الجنوبيّة. ومن المعروف أن المماليك نصبوا خليفة عباسيًّا في عاصمتهم القاهرة، بعد إنهاء المغول للخلافة العباسيّة في بغداد، وأن المماليك استمدوا شرعيّة سلطتهم في الحكم من الخلفاء العباسيّين في القاهرة، الذين كانوا يصدرون الفرمانات بتنصيبهم حكامًا على مصر. ولكن بالرغم من ذلك فقد كان المماليك يتخوفون من قيام دولة عربيّة على حدودهم الجنوبيّة، لأن تلك الدولة إذا ما نمت وقويت ربما وجدت الدعم والقبول من سكان مصر، وبالتالي يفقد المماليك ما أسسوه من سلطان، خاصة وأن دولتهم كانت ما تزال في طور التأسيس.

ويبدو أن المماليك لم يعلنوا سياستهم تجاه استقرار القبائل العربيّة في أراضي مقُرّة، وأن اتفاقهم مع ملك مقُرّة كان قد احتفظ به سًّرا، لأن أبناء الكنز شاركوا بعد مضي سنوات قليلة من ذلك الاتفاق حملة المماليك الثانية على مملكة مقُرّة

1 انظر ملحق رقم 1 فقرة IX-5-9 في نهاية الفصل الرابع.

عام 686هـ/1287م، وساعدوهم كثيرًا على إقناع السكان بقبول الأمير المقرّيّ الذي صحب جيش المماليك ليكون ملكًا على البلاد. وأعتقد أن أبناء الكنز لو علموا بذلك البند في اتفاق عام 704 هـ والذي ينص على عدم السماح للعرب بالبقاء في بلاد مقُرّة، لما قاموا بمساعدة المماليك عسكريًّا والتعاون معهم داخل بلاد مقُرّة.

وبعد أقل من عقدين من الزمان خرجت حملة مملوكيّة كبرى عام 716هـ/ 1316م، صحبها الأمير النوبي عبد الله برشمبو، الذي تربى في بلاط المماليك، واعتنق الإسلام، لينصّب ملكًا على مقُرّة. ولما بلغ هذا الخبر ملك مقُرّة أرسل إلى سلطان المماليك ابن أخته الأمير كنز الدولة، وطلب منه تعيينه ملكًا على مملكة مقُرّة، إن أراد أن يعيّن عليها ملكًا مسلمًا.

ولم يستجب المماليك لطلب ملك مقُرّة، وحبس الأمير الكنزيّ في القاهرة، وواصلت الحملة مسيرها ودخلت مدينة دنقلة، ونصب عبد الله برشمبو أولَ ملك مسلم على مملكة مقُرّة. وكما ذكرنا سابقًا فإنّ أهل مقُرّة لم يقبلوا عبد الله برشمبو، واستقبلوا الأمير الكنزيّ الذي كانت السلطات المملوكيّة قد أفرجت عنه استقبال الملوك، وقتلوا عبد الله برشمبو.

وحاول المماليك القضاء على الأمير الكنزيّ، فأرسلوا أحد أمراء الأسرة المالكة المقرّيّة، والذي كان معتقلًا في القاهرة لدنقلة، للقبض على الأمير الكنزيّ وإرساله للقاهرة. ولم يقاوم كنز الدولة الأمير المقريّ، وتم اعتقاله. غير أنّ المنية وافت الأمير المقُرّيّ قبل أرسال كنز الدولة لمصر، فأعاد المقُرّيّين تنصيبه ملكًا عليهم.

أدى هذا الحدث إلى اضطراب العلاقات، وبداية الصراع الذي دام طويلًا بين أبناء الكنز والمماليك. فقد حرص المماليك على إبعاد أبناء الكنز عن عرش مملكة مقُرّة، وقد رأينا فيما سبق كيف نفذوا ذلك بإرسال الحملات لدنقلة، ومساعدة الأسرة المقُرّيّة على استعادة عرشها. كما قام المماليك بإضعاف قوة وسيطرة أبناء الكنز على منطقة أسوان.

وقد نجحت سياسة المماليك في ملاحقة أبناء الكنز والجماعات العربيّة، مثل: العكارمة، وبني جعد، والأحامدة، في المنطقة وإضعاف نفوذهم، ومساعدة مملكة مقُرّة ضد عدوانهم وتوسعهم. وظل الصراع محتدما بين المماليك والمقرّيّين من جهة، وأبناء الكنز وحلفائهم من العرب من جهة أخرى، حتى نهاية القرن الثامن الهجريّ (14م).

ففي مطلع القرن التاسع الهجريّ (15م) زحفت جحافل قبيلة هوارة الأمازيغيّة على منطقة أسوان، وفرضت سيطرتها التامة على المنطقة. ووصف القلقشنديّ انتشار جماعات قبيلة هوارة «كانتشار الجراد، وبسطت يدها من الأعمال البهنساويّة إلى منتهاه، حيث أسوان وما والاها، وأذعنت لهم سائر العربان بالوجه القبليّ قاطبة، وانحازوا إليهم وصاروا طوع قيادتهم.»[1] وذكر أن بطون قبيلة هوارة في عصره (ت821هـ/1418م) كانت أكثر من ثلاثين بطنًا.[2]

جدول رقم 4: العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين في عصر المماليك حتى نهاية القرن 14م

التاريخ/ميلاديّ	الحدث
1263	أسلم بعض أمراء مملكة مقُرّة في بلاط المماليك بالقاهرة.
1263	أغار ملك النوبة على عيذاب.
1272	أغارت جيوش مملكة مقُرّة على أسوان.
1275	لجأ شكندة (ابن أخ أو ابن أخت ملك النوبة داؤود) يشكو عمه.
1275	حملة مملوكيّة نصبت شكندة ملكًا على دنقلة، قَبِل دفع الجزية -1
1286	هدية ملك الأبواب (بين مملكتي علوة ودنقلة) إلى سلطان المماليك.
1287	حملة مملوكية نصبت ملكًا جديدًا على مقُرّة -2
1289	هجم ملك مقُرّة على أسوان.

1 القلقشنديّ، **صبح الأعشى** ج 2 ص 53، ج 6 ص139.

2 القلقشنديّ، **نهاية الأرب** ج 1 ص 142.

1289	حملة مملوكيّة نصبت ملكًا جديدًا على مقُرّة -3
91-1290	حملة مملوكية نصبت ملكًا جديدًا على مقُرّة -4
1304 م	ملك مقُرّة يقدم هدية لسلطان المماليك.
1304	حملة مملوكيّة نصبت ملكًا جديدًا على مقُرّة -5
1312	وصل كرنبس ملك مقُرّة القاهرة ومعه هدايا[1]
1316	حملة مملوكيّة وتنصيب عبد الله برشمبو ملكًا -6
1323	حملة مملوكيّة على كنز الدولة، هرب ونصبت كرنبس ملكًا -7
1324	قدمت رسل ملك مقُرّة القاهرة.
1325	عادت حملة من دنقل، يبدو أنها أرسلت لمساعدة الأسرة مقُرّيّة 8
1365	رسالة ملك دنقلة خروج ابن أخيه علية واستنجاده ببني جعد.
1365	حملة مملوكيّة إلى مقُرّة ضد أبناء الكنز والعكارمة -9
1397	وصل ناصر ملك مقُرّة القاهرة فارًا من ابن عمه.

وبذلك انتهى عصر سيادة أبناء الكنز ونفوذهم في منطقة أسوان. وظلت زعامات الأسرة بين بقايا السكان المحليّين الذين انتسبوا إليهم، فأطلق على أولئك المواطنين اسم «الكنوز». فلم تكن هنالك قبيلة باسم الكنوز إبّان قوة ونفوذ أبناء الكنز الذين ينتمون إلى بنو بشر من قبائل ربيعة العربيّة. ولما زال نفوذ الأسرة السياسيّ ظل اسمها حيًّا في المنطقة، وأصبحت علمًا على المواطنين في منطقة أسوان.

---

1 ذكر المقريزيّ أن ملك مقُرّة كرنبس حضر إلى عاصمة المماليك عام 711 هـ وأحضر «القود المقرر عليه بعد قتل أخيه» المقريزيّ، كتاب **السلوك لمعرفة دول الملوك**، في مسعد ص 341.

العلاقات مع مملكة علوة

تناولنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب بلاد مملكة علوة وسكانها، وذكرنا أن حدودها امتدت على النيل الأبيض جنوبًا، ووصلت شرقًا إلى منطقة كسلا، وغربًا إلى مناطق دارفور. فكانت تقريبًا على الحدود الحالية للمناطق الوسطى والغربيّة والشرقيّة للسودان.

ووضحنا أن مملكة علوة ارتبطت بالمسلمين عبر حدودها الشرقيّة وعبر البحر الأحمر، وإلى جانب قيام مملكة تفلين الإسلاميّة داخل حدود علوة الشماليّة الشرقيّة في منطقة دلتا القاش. كما ارتبطت مملكة علوة بالمسلمين في مصر عبر الطريق الصحراوي، من منطقة المعادن في وادي العلاقي إلى منطقة الأبواب في مملكة علوة، لتفادي أراضي مملكة مقُرّة.

ولذلك كانت حدود مملكة علوة الشرقيّة والشماليّة الشرقيّة مفتوحة أمام التجار المسلمين بعكس ما كان الحال عليه في مملكة مقُرّة، حيث لم يكن يسمح بدخول المسلمين إلى الجنوب من منطقة حلفا إلا بعد إجراءات إداريّة دقيقة. ولذلك فقد ارتبطت علاقات مملكة علوة وقويت بالمسلمين. ورغم ذلك لم تجد هذه المملكة اهتمامًا من المؤلفين، فلم تتوافر عنها المادة التي توافرت عن مملكة مقُرّة في المصادر العربيّة.

ويبدو أن طبيعة علاقة مملكة علوة بالمسلمين قد مهدت للمماليك ببداية علاقة طيبة، اختلفت عن علاقتهم بمملكة مقُرّة، التي سادتها الحروب قبل وبعد خضوعها

لهم. ويتضح مما ذكره ابن عبد الظاهر أنه كانت هنالك علاقة بين بلاطي المماليك وعلوة قبل بداية دخول المماليك في صراع مع مملكة مقُرّة عام 674هـ/ 1275م. فقد أشار ابن عبد الظاهر إلى أنه كان للسلطان الظاهر بيبرس أحد الإسماعيليّة الفدائيّين في بلاط مملكة الأبواب التابعة لملك علوة.

ولا يتضح مما ذكره ابن عبد الظاهر متى أرسل ذلك الفدائيّ ولا المهمة التي أنيطت به، ولماذا يرسل الفدائيّ وليس شخصًا آخر له صفة سياسيّة أو عسكريّة. فإرسال الفدائيّ يتضمن إمكانيّة قيامه بمهمة القتل. وهل كان ملك الأبواب على علم بوجود هذا المبعوث وطبيعته، أم أنّ وجوده كان في صفة تاجر مثلًا؟ ولم يذكر ابن عبد الظاهر أيّ عمل لذلك المبعوث في مملكة علوة.

وغالباً ما تكون مهمة ذلك الفدائيّ هي جمع المعلومات عما يدور في المنطقة، خاصة وأن الأبواب كانت تمثل حلقة الربط بين تجارة المصريّين مع مملكة علوة. وقد جاء ذكر ذلك المبعوث صدفة عند الحديث عن مملكة مقُرّة، فقد طلب منه الظاهر بيبرس أن يتردد على بلاط ملك مقُرّة، وأن يخفي كونه فدائيًّا. وقد كان لذلك الإسماعيليّ «صبي لزق» كما وصفه ابن عبد الظاهر. وقد اختلف ذلك الصبي مع الإسماعيليّ، وذهب إلى بلاد ملك مقُرّة، حيث تمكن من أن يكسب ثقة الملك حتى أصبح من خواصه.

وبدون ذكر الأسباب ذكر ابن عبد الظاهر أن ذلك الصبي قتل الملك المقُرّيّ شكندة، وتم قتل الصبي بعد ذلك. وغالبًا ما يكون ذلك قد تمّ بأمر السلطان الظاهر بيبرس. وكانت علاقة المماليك بالأبواب قويّة لدرجة أنهم كانوا يستخدمونها لمراقبة الأوضاع في مملكة مقُرّة. وقد حدث أكثر من مرة أن اعتقل ملك الأبواب الفارين من ملوك مقُرّة إلى بلادهم وسلمهم لسلطات المماليك.

وليس من السهل تقصي طبيعة العلاقات بين المماليك ومملكة الأبواب من جهة، وبين المماليك ومملكة علوة من جهة أخرى، فالمصادر لم تشر إلى علاقات مباشرة بين المماليك وعلوة، بل كان المماليك يتعاملون مباشرة مع مملكة الأبواب، الأمر

الذي يثير التساؤل عما آلت إليه العلاقة بين الأبواب ومملكة علوة. فهل خرجت مملكة الأبواب عن طاعة مملكة علوة؟.

ربما يفهم من بعض الإشارات في المصادر حدوث ذلك، فقد ذكر ابن عبد الظاهر في حوادث عام 685هـ/ 1286م وصول رسول أدر ملك الأبواب، صحبة علم الدين سنجر، الذي كان قد أرسله المماليك لملك الأبواب، ومعه من الهدايا فيل وزرافة. ويقول ابن عبد الظاهر عن الملك أدر: «وصل كتابه ببذل الطاعة والتقرب إلى مراضي مولانا السلطان»[1]. وذكر في مكان آخر أن ملك الأبواب اعتذر لسلطان المماليك عن عدم حضوره شخصيًّا لبلاط السلطان، لأنّه كان يطارد الملك آني، وذكر له:

«أن بلاد الأنج تغلب عليها ملك غير ملكها، وأنّه متحيل في أخذها منه، وإذا أخذها صار جميع بلاد السودان في قبضة مولانا السلطان وطاعته»[2]. فالملك أدر وضح في رسالته – النص الأول – بذل الطاعة للسلطان، وفي رسالته الثانية وضح أنه لو تغلب على الملك الذي اغتصب عرش علوة ستكون بلاد السودان – ويقصد بذلك بلاد علوة – تحت طاعة السلطان.

ويبدو من خلال سياق النص أعلاه، أنّ ملك أدُر كان خاضعًا لسلطان المماليك. وربما كانت مملكة علوة تمر في مرحلة ضعف أدت إلى خروج مملكة الأبواب عن سلطتها، ثم استولى على عرشها ملك آخر، ربما أحد الملوك الذين كانوا تحت طاعة ملك علوة. وقد أدت تلك الاضطرابات والمشاكل بين مملكتي مقُرّة وعلوة إلى تدخل المماليك الدائم في شؤون المملكتين، الذي أدى في نهايته إلى إخضاع مملكة مقُرّة لسلطاتهم.

ورغم ما ورد من إشارات توضح اهتمام المماليك بالأوضاع في مملكة علوة إلا أنّه لا تتوفر معلومات تمكن من تتبع تلك العلاقات. ولعل في سفارة علم الدين سنجر

---

1 ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاون في مسعد، المكتبة السودانية ص 195.

2 نفس المصدر ص 202.

المعظمي، التي بعثها السلطان المملوكي المنصور قلاون 685 هـ/ 1286 م ما يوضح ذلك الاهتمام. فبعد نحو ثلاثة أشهر من عودة علم الذين من بعثة إلى ملك الأبواب رجع سفيرًا للسلطان المملوكي إلى عدد من ممالك السودان، جاءت كما يلي:

ذكر ابن عبد الظاهر أنه في عام 685 ه «جهز الأمير علم الدين سنجر المعظمي رسولًا إلى ملك النوبة أدر ملك الأبواب، وإلى صاحب بارة، وإلى صاحب التاكة، وإلى صاحب كدرو، وإلى صاحب دنفو، وإلى صاحب أري، وإلى صاحب بفال، وإلى صاحب الأنج، وإلى صاحب كرسة»[1].

وقد تعرضنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب إلى محاولات الباحثين التعرف على هذه المواضع، مثل الدكتور أحمد المعتصم الشيخ[2]، والدكتور مصطفى محمد مسعد[3]، وكروفورد[4]. ورجحنا أن أغلب المؤرخين ذهبوا إلى أن تلك المناطق باستثناء الأبواب وكرسة تقع في ديار البجة الحاليّة. وأود هنا أن أضيف العنج، لأنّني بدأت أميل إلى أن العنج ربما قصد بهم مملكة علوة. ولم يوضح ابن عبد الظاهر – وهو الوحيد الذي أورد خبر هذه السفارة – تفاصيل أحداث تلك السفارة، أو ما ترتب عليها من نتائج، بل اكتفى فقط بالنص الذي ذكرناه هنا.

---

1 ابن عبد الظاهر، المصدر السابق ص 196 – 198.

2 د. أحمد المعتصم الشيخ في بحثه القيم عن «زمن العنج» والذي قدمه إلى معهد الدراسات الافريقية والآسيوية وفي بحثه لدرجة الدكتوراة عن منطقة التكاكي [أبو حمد] في الفترة الواقعة بين اسلام ملوك مملكة المقرة وسقوط مملكة علوة.

3 د. مصطفى مسعد في تعليقاته على النصوص في كتابه المكتبة السودانية العربية.

4 Crawford, *The Fung Kingdom of Sennar*, p. 107

الملاحـــق

ملحق رقم 1

زيارة ملك مقُرّة إلى بغداد[1]

ولم يزل النوبة يؤدّون البقط في كل سنة، ويدفع إليهم ما تقدّم ذكره إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله، أبي إسحاق بن الرشيد، وكبير النوبة، يومئذٍ زكريا بن يحنس، وكانت النوبة، ربما عجزت عن دفع البقط، فشن الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبين من بلادهم، ويمنع من إخراج الجهاز إليهم، فأنكر قيَرْقي ولد كبيرهم زكريا على أبيه، بذله الطاعة لغيره، واستعجزه فيما يدفع، فقال له أبوه فما تشاء، قال: عصيانهم ومحاربتهم، قال أبوه: هذا شيء رآه السلف من آبائنا صوابًا وأخشى أن يفضي هذا الأمر إليك فتقدم على محاربة المسلمين، غير أني أوجهك إلى ملكهم رسولًا، فأنت ترى حالنا وحالهم فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة، وإلا سألته الإحسان إلينا، فشخص قيرقى إلى بغداد، وكانت البلدان تزين له ويسير على المدن، وانحدر بانحداره رئيس البجة بأسبابه، ولقيا المعتصم، فنظرا إلى ما بهرهما من حال العراق في كثرة الجيوش، وعظم العمارة مع ما شاهداه في طريقهما، فقرّب المعتصم قيرقي وأدناه وأحسن إليه إحسانًا تامًّا، وقبل هديته، وكافأه بأضعافها، وقال له: تمنّ ما شئت، فسأله في إطلاق المحبوسين فأجابه إلى ذلك، وكبر في عين المعتصم، ووهب له الدار التي نزلها بالعراق، وأمر أن يشترى له في كل منزل من طريقه دارًا تكون لرسلهم، فإنه امتنع من دخول دارٍ لأحد في طريقه فأخذت له بمصر:

---

1 المقريزيّ، المواعظ والاعتبار في مسعد، المكتبة السودانية ص 305.

دار بالجيزة، وأخرى ببني وائل، وأجرى لهم في ديوان مصر سبعمائة دينار، وفرس، وسرج، ولجام، وسيف محلًّى، وثوب مثقل، وعمامة من الخزّ، وقميص شرب، ورداء شرب، وثياب لرسله غير محدودة، عند وصول البقط إلى مصر، ولهم حملان وخلع على المتولي القبض البقط، وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرّفين معه، وما يهدى إليهم بعد ذلك فغير محدود، وهو عندهم هدية يجازون عليها، ونظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون، فوجده أكثر من البقط، وأنكر عطيّة الخمر، وأجرى الحبوب والثياب التي تقدّم ذكرها، ومرّر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين، وكتب لهم كتابًا بذلك بقي في يد النوبة، وادّعى النوبّي على قوم من أهل أسوان أنهم اشتروا أملاكًا من عبيده، فأمر المعتصم بالنظر في ذلك، فأحضر والي البلد، والمختار للحكم فيه، التابعين من النوبة وسألوهم: عما ادّعاه صاحبهم من بيعهم، فأنكروا ذلك، وقالوا: نحن رعية، فزال ما ادّعاه، وطلب أشياء غير ذلك من إزالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها إلى الحدّ الذي بينهم وبين المسلمين لأن المسلحة على أرضهم، فلم يجبه المعتصم إلى ذلك.

ملحق رقم 2
قوائم ملوك الممالك السودانيّة

أ. قائمة مسعد بأسماء ملوك مملكة مقُرّة [1]

- سلكو[2]	536م
- ايربانم (ارجمنيز)	559 أو 574 م
- قاليدور	651 – 652 م
- زكريا بن باركي	645 – 655 م
- مرقوريوس	697 – 710 م
- زكريا بن مرقوريوس	
- سيمون	
- أبرام	744 – 868 م
- ماركو	
- قرياقوس	
- ميكائيل	أواخر القرن الثامن الميلادي
- يوحنا	؟؟؟
- زكريا بن إسرائيل الثاني بن يوحنا (يحنس)	822 م

1 اعتمدت هذا القائمة على قائمة مصطفى محمد مسعد في ملحق كتابه «الإسلام والنوبة في العصور الوسطى» ولكن توجد بعض الاختلافات والإضافات بعد الملك شكندة. فقد ذكر مسعد أسماء خمسة عشر ملكًا بعد شكندة، بينما ورد هنا أسماء ثلاثة وعشرين ملكًا بعده.

2 جعل مصطفى محمد مسعد سلكو على رأس قائمة ملوك مقُرّة، ومن المعروف أنه أول ملوك نوباديا (مملكة مريس).

- جورج الأول بن زكريا	872 – 892 م
- زكريا الثالث بن جورج الأول	؟؟؟
- كيري بن سرور[3]	943 م
- جورج II	969 – 1002 م
- رفائيل	1002 – 1006 م
- استيفنس (لم يرد عند مسعد ذكره مونرو)[4]	1027
- سالمون	1080 م
- باسيل	1089 م
- جورج III	1130 – 1158 م
- جورج IV (لم يرد عند مسعد ذكره مونرو)[5]	1130 – 1158 م
- موسى (لم يرد عند مسعد ذكره مونرو)	1158؟ -
- مورتشكر (لم يرد عند مسعد ذكره مونرو)	- 1268م
- داود الأول	1272 – 1273 م
- داود الثاني بن داود الأول	1274 – 1277 م
- شكندة ابن أخت داود الأول	1275 – 1279 م
- برك	1279 – 1280 م
- سمامون ابن أخ شكندة (تولى 3 مرات)	1286 و1287 و1289م
- ابن أخت سمامون	1287 م

3 قال عنه المسعودي: «فهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعدًا»، **مروج الذهب** في مسعد ص 51. لاحظ التعبير بـ «ملك ابن ملك ابن ملك» ثلاثة مرات مما يشير إلى أن الوراثة كانت سائرة على النظام الأبويّ وليس على نظام الأمومة، حيث يرث العرش ابن البنت أو ابن الأخت كما هو مشهور في الخطأ السائد، الذي يقول بأن نظام وراثة ولاية العرش عند ملوك السودان في العصر المسيحيّ كانت لابن البنت وابن الأخت دون الأبن أو الأخ أو ابن الأخ. ويلاحظ وراثة الابن لعرش أبيه كان هو النظام الأكثر اتباعًا من خلال هذه القائمة. وقد عالجنا هذا الموضوع في مقال منفصل سينشر لاحقًا إن شاء الله.

4 انظر قائمة ملوك مقرّة، ملحق رقم 2 ت.

5 انظر قائمة ملوك مقرة، ملحق رقم 2 ت وكذلك للملكين التاليين.

- ابن أخت داود	1289 م
- آني[1]	1289 م
- بُدِمّة	تولى بين 1290-1992[2]
- ملك (لم يرد عند مسعد ومونرو)	1294 م[3]
- أماي	1304 م
- كرنبس	1312 و1323 م [4]
- عبد الله برشنبو	1316 م
- كنز الدولة	1317 و1323 م
-(تنتهي قائمة مسعد بولاية كنز الدولة الثانية)-	
- أبرام أخ كرنبس (مورنرو)	بين 1327 – 1339 م[5]
-سبعانول (لم يرد عند مورنرو)	بين 1327 1339م[6]
- ملك مسيحي (لم يرد عند مورنرو)	حول عام 1360 م[7]
- ملك؟ قَتل ابن أخته، وقُتِل	1365 م[8]
- ابن الأخت ملكًا في دنقة	1365 م

1 ربما كان ملكًا بعد سمامون، لا أظن ذلك لو صح أن حملة الأفرم خرجت لتأديب سمامون، لأن الحملة طارئة بعد القضاء على سمامون. وأغلب الظن أنه كان ملكًا على المنطقة الجنوبيّة من مملكة مقرة.

2 وصل من مصر وعينته الحملة التي قادها الأمير عزّ الدين الأفرم – لم يذكر ابن عبد الظاهر تاريخها – ولم أجدها في المصادر الأخرى، وذكر مسعد في الحاشية أنها خرجت نحو 689 – 692 هـ/ 1290 -1292 فيكون بدمة قد عين في ذلك الوقت. وعند مونرو 1289-90.

3 زاره راهب أسبانيّ في دنقلة في هذا التاريخ (فانتيني وثائق ص 136)

4 يكتبه فانتيني كودنيس، تاريخ الممالك المسيحية النوبيّة القديمة ص 182.

5 ورد اسم هذا الملك اسمه إبّان الحديث عن حجاج إلى بيت المقدس في هذه الفترة. آدمز ص 471.

6. ورد اسم هذا الملك اسمه إبّان الحديث عن حجاج إلى بيت المقدس في هذه الفترة. آدمز ص 471.

7 ذكره راهب أسبانيّ زار دنقلة ورسم الملك بزيه الملكي، ألف الراهب كتابه بعدعام 1960.

8 آدمز ص 471 وفانتيني:
"Medieval Western Sources" in *The Excavation at Faras: A Contribution to the History of Christian Nubia, p136.*

- أخ الملك المقتول (ملكًا في أدوا)[1]	1365 م
- ناصر كان حاكمًا عام	1397 م

لا تتوافر معلومات عن أسماء ملوك مملكة مقُرّة دنقلة بعد هذا.

ب. قائمة مونرو بأسماء ملوك مملكة مريس (نوباديا)[2]

Silko	c. 450
Abourni	c. 450
Eirpanom	559/574
Tokilteoton	c. 577
WRPYWL	c. 580
Barky	c. 645-55

ت . قائمة مونرو بأسماء ملوك مملكة مقُرّة [3]

Mercurius	696 – 710
Saimon	
Ibraham Zacharias	
Mark	
Cyriacus	748 - 768
Chael	785 or 794
Ioannas	c. 850 or before 822?
Zacharias II	822
George I	856 – 66-

1 يكتب هذا الاسم بطرق مختلفة، وهو يشير إلى القلعة التي اشتهرت في المصادر العربية باسم ألدو أو ألدوا مقر صاحب الجبل أو حاكم المنطقة الشمالية لمملكة مقرة. انظر تفاصيل ذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب «مملكة دوتاو».

2 Munro-Hay, "Kings and Kingdoms of Ancient Nubia" *Rassegna di Studi Etupici"* Vol. 29, p 135.

3 *Ibid.*

Sun (Sursr)	
Zacharias III	920-930-
Kabil ibn Surur	c. 943
George II	969 – befor 1002
Raphael	-1002 –
Stephanus	-1027 –
Solomon	1077 – 79/80
George III	1079 – 80-
Basil	1089
George IV	1130 – 58
Moses	1158? –
Murtashkhar	1268
David I	1268 – 74
David II ?	1274-6 ?
Shaknda	1276
Barak	1286
Shamamun	1286-88; 1288-89; 1290-95?
Unnamid (nephew)	1288
Budamma	1289-90
Amay	1304
Karanbas/Kudanbes	1311-1316; 1323-24
Abdalla Barshambu	1316-17
(Kanzal-Dawla 1317 Abraham 1317)	
Kanz al-Dawla	1317-24; 1324
Al Amir Abu Abdalla Kanz al Dawla	1333
Unnamed King	to 1365
Brother of the above	1365
Nephew of the above at Ibrim	1365
Nasr al-Din	1397

ث. قائمة بأسماء ملوك مملكة دوتاو

القائمة أ[1]

مُوسَش جورج	بين 1144 و1199
بازل	بين 1144 و1199
جورج سيمون	1287 م
ملك يبدأ اسمه ب (ي)	1281
ديفيد	؟؟؟
سايتي، لقبه ملك دوتاو	1334 م
كودلانيل	؟؟؟
ياؤول، لقبه ملك ملوك دوتاو القديس الراعي للكنيسة	1484 م
تينوسي إيلانات، ربما كان ملكاً تابعاً لياؤول	1484 م

القائمة ب[2]

David? Chael (Ibrim)	
Basil? ?Shenoute (Papas)	
Moses George	-1144-99-?
P(i)arl	1281
George Siamon	1287
Kosmos (Papal)	
Siti	-1331-74-
Joel (ioel) Merkos (Papal)	1464-84-

1 تم جمع هذه الأسماء مما ذكره آدمز عن هؤلاء الملوك استنادًا على النقوش والوثائق التي تم العثور عليها. انظر آدمز، النوبة رواق إفريقيا ص 470 – 471.

2 Munro-Hay, p 136.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

روايات الاتفاقيات بين المسلمين ومملكتي مريس ومقُرّة

ما هو اسم اتفاق عبد الله بن سعد مع النوبة عام 31هـ؟

الاتفاقيات المبكرة حتى القرن الثالث الهجريّ

- روايات القسم الأول للاتفاقيّات
- روايات القسم الثاني للاتفاقيّات

أ. المحور الأول: البنود التي نظمت العلاقات بين الجانبين

ب. المحور الثاني: ما ورد من تفاصيل عما التزم المسلمون بدفعه

ج. المحور الثالث: ما ورد من تفاصيل عما التزم النوبة بدفعه

الملاحق:

ملحق رقم 1

نصوص الاتفاقيّات بين المسلمين ومملكتي نوباديا ومقُرّة من عام 31 656- هـ

مدخل

إلى جانب السؤال المُلح عن مكان معركة عبد الله بن سعد عام 31 هـوالذي ناقشناه في صدر الفصل الأول، هنالك الكثير من الأسئلة المهمة حول الاتفاقيّات التي وقعت بين المسلمين ومملكتي مريس ومقُرّة مثل: هل كان لفظ «البقط» هو اسم اتفاق عام 31هـ؟ وإذا لم يكن كذلك فمتى ظهر اسم البقط؟ وما هي البنود التي اتفق عليها الطرفان في اتفاق عام 31هـ؟ وإلى أي مدى تأثرت بنود الاتفاقيات بتطور العلاقات بين المسلمين ومملكة مقُرّة ؟ يحاول هذا الفصل الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، وتتبُع تلك الاتفاقيّات، وما طرأ عليها حتى عصر المماليك.

ما هو اسم اتفاق عبد الله بن سعد مع مملكة مريس عام 31هـ؟

اشتهر اتفاق عبد الله بن سعد مع مملكة مريس عام 31 هـ باسم «البقط»، فماذا أطلقت المصادر العربيّة المبكرة على ذلك الاتفاق؟ وهل كان «البقط» هو الاسم الأول الذي أُطلق عليه من رواة أخبار النوبة المبكرين؟ والمؤلفات العربيّة التي نعنيها هنا هي الكتب التي ترجع إلى القرون الهجريّة المبكرة.

ومن المعروف أن المصادر العربية التي نعتمد عليها في أحداث تلك الفترة تعود أقدمها إلى القرن الثالث الهجريّ (9م)، مثل كتاب: فتوح مصر لابن عبد الحكم، وفتوح البلدان للبلاذُريّ، أو إلى القرن الرابع الهجريّ (10م) مثل تاريخ الطبريّ، ومروج الذهب للمسعوديّ، أو إلى القرن الخامس الهجريّ (11م)، مثل كتاب أخبار النوبة لابن سُليم الأسوانيّ. وقد نقلت عن هذه المصادر مؤلفات ما بعد القرن الخامس الهجريّ مثل ياقوت الحمويّ في القرن السابع الهجريّ (31م)، والنويريّ في القرن الثامن الهجريّ (14م)، وابن الفرات والمقريزيّ في القرن التاسع الهجريّ، وهؤلاء هم المؤلفون الذين رجعنا إليهم هنا.

وقد اعتمدت تلك المصادر المبكرة في نقلها لأحداث العلاقات المبكرة بين المسلمين وسكان المناطق الواقعة إلى الجنوب من مصر بدرجة كبيرة على رواة مشهورين، مثل: يزيد بن أبي حبيب (ت 128هـ)، والليث بن سعد (ت 166هـ)، وأبي لهيعة (ت 174هـ)، وسنطلق عليهم رواة أخبار النوبة المبكرين في القرن الثاني الهجريّ (8م). ويمثل يزيد بن أبي حبيب أقدم تلك المصادر، ونقل عنه أغلب الرواة ما يتعلق بأخبار النوبة، وقد ذكر ابن عبد الحكم أن والد يزيد كان من سبي النوبة. وقد اهتمت جميع كتب التراجم والطبقات بسيرته، نقتطف قليلًا مما أورده الذهبيّ:

«أبو رجاء يزيد بن أبي حبيب الأزديّ مولاهم المصريّ الإمام الحجة، مفتي مصر وعالمها، راوية الحديث الثقة. وُلد بعد سنة خمسين للهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان بالفسطاط، ومات سنة ثمان وعشرين ومائة، كان مفتي أهل مصر في أيامه وعالمها الأشهر، وكان حليمًا عاقلًا. وكان أول من أظهر العلم بمصر، والكلام في الحلال والحرام... وقيل إنّهم كانوا قبل ذلك يتحدثون بالفتن والملاحم، والترغيب في الخير.

ويعتبر ابن أبي حبيب عند أهل الحديث ثبتًا ثقة مجمعًا على الاحتجاج به، قال ابن سعد: ثقة كثير الحديث، وذكره البستي في الثقات، ويُعد من أشهر الرواة وأكثرهم رواية، وتذخر برواياته كتب السنة كالصحيحين والسنن، وكتب السير، كسيرة ابن هشام وغيرها. ورُوِي عن الإمام الليث بن سعد أنه قال: «يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا»[1]، وذكر ابن عبد الحكم أن والد يزيد بن أبي حبيب واسمه سُويد كان من سبي النوبة.[2]

وسنتتبع هنا الأسماء التي أطلقت على اتفاق المسلمين والنوبة عام 31 هـ من خلال ما ورد في روايات رواة أخبار النوبة المبكرين في القرن الثاني الهجري، وما ورد عن طريق الرواة اللاحقين. وقد انحصرت الروايات التي تناقلتها المصادر عن الاتفاق - كما هو موضح بالجدول رقم 6 في ستة أسماء هي: صلح، وهدنة، وموادعة، وعهد، وميثاق، وبقط. وقد أتت عبارة موادعة التي ذكرها ابن خرداذبة فقط بدون مصدر في سياق الصلح، لأنه ذكر أن على المسلمين دفع «عِوَض ما يدفعه لهم النوبة من رقيق على الموادعة»، فالموادعة هنا لا تختلف عن الهدنة وتدخل في معناها. كما انفرد ابن عبد الحكم بمصدر لا يدعو للثقة «بعض المشائخ المتقدمين» بذكر عبارتي «عاهدناكم وعاقدناكم».

وفي نفس المكان ذكر ابن عبد الحكم رواية مصدرها ابن أبي حبيب تقول عن النوبة: «ليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق، إنّما هي هدنة أمان بعضنا من بعض»، ويدل ذلك على ضعف هاتين العبارتين «عهد وميثاق» وبالتالي استبعاد إطلاقهما على صلح عبد الله بن سعد كما قرر ذلك ابن أبي حبيب. ويبقى لدينا

1 الذهبي، تاريخ الاسلام، موقع الوراق ج 2 ص 486

2 ابن عبد الحكم، فتوح مصر في مسعد، المكتبة السودانية. ص 8.

عبارات: صلح، وهدنة، وأمان، وبقط. أما عبارة بقط المشهورة فلم ترد في النصوص التي أتت عن طريق رواة أخبار النوبة المبكرين في القرن الثاني الهجريّ كما هو واضح في العمود الأخير في الجدول رقم 5.

وقد أتت عبارة البقط بدون مصدر عند البلاذُريّ، واليعقوبيّ، والمسعوديّ، والمقريزيّ، وأسندها ابن عبد الحكم إلى بعض المشائخ. وقد اسهبت الدراسات في تناول البقط، ونود هنا التوقف قليلًا مع أصل الكلمة في المصادر العربيّة. فقد ورد في لسان العرب عن معناها ما يلي:

«بَقَط في الأَرض بَقْطٌ من بَقْل وعُشْبٍ أَي نَبْذٌ مَرْعىً... والعرب تقول مررت بهم بَقْطًا بَقْطًا بإسكان القاف وبقَط بقَطَ بفتحها أَي متفرّقين... وحكى ثعلب أَن في بني تميم بَقْطًا من ربيعة، أَي فِرْقَةً أَو قِطْعةً، وهم بَقَطٌ في الأَرض أَي متفرّقون... بَقِّطِ مَتاعَه إِذا فرَّقه... والبَقْطُ أَن تُعطي الجَنَّة على الثلُثِ أَو الرُّبع، والبَقْطُ ما سقَط من التمر... قال: البَقْطُ أَن تُعطي الجِنانَ على الثلث أَو الربع، وبَقَطُ البيتِ قُماشُه. قال أَبو عمرو: بَقَّطَ في الجبل وبَرْقَطَ وتَقَدْقَدَ في الجبل إِذا صَعَّدَ. وفي حديث علي رضوان الله عليه أَنه حمل على عسكر المشركين فما زالوا يُبَقِّطون أَي يتعادَوْن إِلى الجبال متفرّقين والبَقْطُ التفرِقة»[1]

جدول 5: الأسماء التي أطلقتها المصادر العربية على اتفاق عبد الله بن سعد عام 31هـ/651م ومصادرها

مصدر الرواية	صلح	هدنة أمان	موادعة	عاهدناكم وعاقدناكم	لا عهد ولا ميثاق	البقط
ابن أبي حبيب	ابن عبد الحكم، والبلاذريّ، والطبريّ	ابن عبد الحكم، والبلاذريّ، والنويريّ، وابن الفرات	---	--	ابن عبد الحكم، وياقوت	---

1 ابن منظور، لسان العرب. موقع الوراق، ج 7 ص 263.

أبي لهيعة عن ابن أبي حبيب	الطبريّ	ابن عبد الحكم، والبلاذريّ	---	---	ابن عبد الحكم، والبلاذريّ	---
الليث بن سعد	البلاذريّ، والمقريزيّ	ابن عبد الحكم	---	---	---	---
شيخ من حمير	البلاذريّ	---	---	---	---	---
أبو البختري	البلاذريّ	---	---	---	---	---
بعض المشائخ المتقدمين أو مشائخ مصر	البلاذريّ	المقريزيّ	---	ابن عبد الحكم	---	ابن عبد الحكم
بدون مصدر	المسعوديّ، وياقوت، والمقريزيّ، وابن خرداذبة	ياقوت	ابن خرداذبة	---		البلاذريّ، والمسعوديّ، واليعقوبيّ، والمقريزي

وجاء في تاج العروس: «بَقَطُ البيتِ قُماشُه بالتَّحْريك، وأَنْشَدَ قَوْلَ مالكِ بنِ نُوَيْرَةَ اليَرْبوعيّ:

رَأَيْتُ تَميمًا قَدْ أَضاعَتْ أُمورَها   فهُمْ بَقَطٌ في النَّاسِ فَرْثٌ طَوائفُ

والذي في اللِّسانِ أنَّه أَرادَ بقَوْلِه: بَقَطٌ أَي مُنْتَشِرين مُتَفرِّقين. والبَقْطُ: جَمْعُ المَتاعِ وحَزْمُه عن ابن دُرَيْدٍ، يُقَالُ: بَقَطَ الرَّجُلُ مَتاعَه إِذا جَمَعَه وحَزَمَه لِيَرْتَحِلَ، وهكذا نَقَلَهُ الصَّاغَانِيُّ في العُبَاب. قُلْتُ: وهو مع قَوْلِ ابن الأَعْرَابِيِّ: البَقْطُ: التَّفْرِقَة... البَقْطُ: أَنْ تَعْطِيَ الرَّجُلَ البُسْتانَ عَلَى الثُّلُثِ، أو الرُّبُعِ... وفي الصّحاح: بَقَطَ الرَّجُلُ متاعَه إذا فرَّقَه. وقال أَبو مُعاذٍ النَّحْويّ: البَقَطُ بالتَّحْريك: مَا سَقَطَ من الثَّمَرِ إذا قُطِعَ فأَخْطَأَهُ المِخْلَبُ... والبَقَطُ: الفِرْقَةُ من النّاسِ وقيل: القِطْعَةُ من الشَّيْء... والبَقْطُ: الجَماعَةُ المُتَفَرِّقَةُ يُقَالُ: ذَهَبوا في الأَرْضِ بَقَطًا بَقَطًا أي مُتَفَرِّقين. وهمْ بَقَطٌ في الأَرْضِ أَي: مُتَفَرِّقون... قالَ شَمِرٌ: والبُقْطَة: البُقْعَة من بِقاعِ الأَرْض... وقال أَبو عَمْرٍو: بَقَّط في

الجَبَلِ تَبْقيطًا إِذا صَعَّدَ فيه.»[1]

فكلمة البقط في اللغة العربية تدل على معانٍ كثيرة كما ورد في لسان العرب وتاج العروس، فهي تعني: التفرقة، والتفرّق، ومنتشرين متفرقين، والجماعة المتفرقة، وفرق متاعه، وأيضا جَمَعه، والفِرقة من الناس، وما سقط من التمر، وإعطاء البستان على الثلث أو الربع، والبقعة من الأرض. ويبدو واضحًا أن كل هذه المعاني لا علاقة لها بالاتفاق الذي أعقب معركة عبد الله بن سعد، فهذه المعاني لا تدل على هدنة أو أمان، وهما الاسمان اللذان ارتبطا بروايات رواة أخبار النوبة المبكرين.

ولذلك فإن كلمة «البقط» لم يطلقها عبد الله بن سعد على اتفاقه مع النوبة عام 31هـ، لأن معنى كلمة «بقط» كما يفهمه عبد الله بن سعد لا صلة له بالاتفاق الذي وقعه مع النوبة، وهذا هو السبب في عدم ظهور كلمة بقط في روايات رواة أخبار النوبة المبكرين في القرن الثاني الهجريّ كما هو واضح في الجدول رقم 5. والجدول رقم 6 يوضح أن عبارتي صلح وهدنة أمان هما الاسمان اللذان ارتبطا بروايات رواة أخبار النوبة المبكرين في القرن الثاني الهجريّ، بخلاف كلمة بقط.

الجدول رقم 6: مقارنة بين الأسماء التي أُطلقت على اتفاق عبد الله بن سعد (البقط)

اسم الاتفاق	عدد روايات الاتفاق	رواة الاتفاق
صلح	13 رواية، وردت في 7 مصادر	رواة أخبار النوبة المبكرين
هدنة أمان	9 روايات، وردت في 6 مصادر	رواة أخبار النوبة المبكرين
بقط	5 روايات، وردت في 5 مصادر	بعض المشائخ أو بدون مصدر للرواية

معلومات الجدول مأخوذة من جدول رقم 5.

وقد حاول المقريزيّ ربط كلمة البقط باللغة العربيّة إذا كانت الكلمة في الأصل عربيّة كما عبر هو، فقال:

«فإن كانت هذه الكلمة عربية، فهي إمّا من قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب،

1 الزبيديّ، **تاج العروس**. موقع الوراق، ج1 ص 4777.

أي نبذ من مرعى، فيكون معناه على هذا، نبذة من المال أو يكون من قولهم، إن في بني تميم بقطًا من ربيعة أي فرقة أو قطعة، فيكون معناه على هذا، فرقة من المال، أو قطعة منه... والبقط: أن تعطي الحبة على الثلث أو الربع، والبقط أيضًا: ما سقط من التمر إذا قطع، فأخطأ المخرف، فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة».

ومن الواضح أن ما ذكره المقريزيّ ليست له صلة بمعني الصلح أو هدنة الأمان، بل حاول المقريزيّ البحث عن مصدر عربي للكلمة. ولذلك فكلمة البقط المستخدمة هنا للدلالة على الصلح ليست عربيّة، وقد اتفق على ذلك أغلب الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع، وربطوا كلمة بقط بالأصل اللاتيني اليوناني pactum الذي استخدمه البيزنطيّون بمعني التزام أو ميثاق مشترك، وما يرتبط به من عمليات دفع بين طرفين كما عبر يوسف فضل[1]، أو بمعني اتفاق تجاريّ بين قوتين أو دولتين تتمتعان بالاستقلال الكامل كما عند كرافورد[2].

وقد تناولنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب علاقات الدولة البيزنطيّة ومملكة مريس (نوباديا)، ووضحنا أن البيزنطيّين كانوا قد لجأوا إلى ما يعرف بنظام المحالفة أو المعاهدة مع الشعوب التي تعيش على أطراف حدودهم، فقد ارتبط أولئك المتحالفون بمعاهدات تحالف مع البيزنطيّين تعهدوا فيها بحماية حدود الإمبراطوريّة في مقابل إعفائهم من الضرائب أو الإتاوات، وتطور الأمر إلى أن أصبح هؤلاء المحالفين يحصلون على أموال مقابل تلك الخدمات.[3] فالبقط pactum كما استخدمه البيزنطيّون قد يعني مثل تلك الاتفاقيات.

فإذا كانت كلمة بقط غير عربيّة، فماذا أطلق العرب على صلحهم مع النوبة عام 31 هـ؟ الإجابة واضحة في الجدولين رقمي 5 و6 وهي «الصلح وهدنة الأمان» وهما الاسمان اللذان نقلتهما المصادر العربيّة المبكرة عن رواة أخبار النوبة المبكرين.

---

1 Yousef fadl Hasanm, *The Arabs and the Sudan*, p.24

2 Crawford, (ed.): *Ethiopian Itineraries Circa 1400-1520*, p. 23

3 إبراهيم خميس إبراهيم، «**دراسات في تاريخ مصر البيزنطيّة اسكندريّة**»، دار المعرفة الجامعية 1996 ص10

فينبغي علينا أن نسمي الأشياء بمسمياتها الأصلية فنقول «صلح النوبة مع عبد الله بن سعد» أو «هدنة أمان النوبة مع عبد الله بن سعد»، ولا نقرن صلح عبد الله بن سعد باسم «البقط» التزامًا بما ورد في المصادر العربيّة المبكرة عن طريق رواتها المبكرين الثقات.

والسؤال الآخر الذي يتطلب الإجابة أيضًا هو: إذا كان لفظ البقط ليس هو الاسم الأول الذي أطلق على ذلك الاتفاق، فمتى إذًا أطلق لفظ البقط؟ محاولة تعرّف ذلك تتطلب مراجعة السياق الذي ورد فيه هذا اللفظ في المصادر العربيّة.

فإذا تتبعنا السياق الذي وردت فيه كلمة البقط في المصادر نجدها وردت عند ابن عبد الحكم (نص رقم 1-8)[1]، والمقريزيّ (نص رقم 12-3)، في سياق دفاع المسلمين عن عدم وجود ما يُلزمهم بدفع المقابل للرقيق، مع أن دفع المقابل واضح في النصوص كما في الجدول رقم 7. فقد ورد ذكر الرقيق مقابل الطعام في عشر روايات مدعومة بمصادرها في المصادر العربيّة، مقابل ثلاث روايات لم تتطرق للمقابل سلبًا أو إيجابًا، أي أنّها لم تقل بعدم وجود المقابل. وقد جاءت هذه الروايات بدون مصدر عند المسعوديّ والمقريزيّ، وبإسنادها إلى أحد الشيوخ عند ابن عبد الحكم. ويوضح هذا أن الأصل في البقط هو البديل الذي كان مستخدمًا في العصر البيزنطيّ مع الشعوب المجاورة لحدودهم كما ذكرنا أعلاه.

وقد ورد لفظ البقط عند البلاذريّ (نص رقم 2-5) في سياق شكوى النوبة إلي الخليفة العباسّي المهديّ (159 – 169هـ) من عدم تمكنهم من دفع السبي سنويًّا، فخفّضه لهم إلى مرة كل ثلاث سنوات. أما المسعوديّ (نص رقم 6-2) فقد ذكر البقط عندما وضّح أنه السبي الذي يدفعه ملك المريس للمسلمين.

وجاء لفظ البقط عند المسعوديّ والمقريزيّ عند تعريفهما للبقط (نص رقم 6-1): «فصالحهم [عبد الله بن سعد] على رؤوس من السبي معلومة...ويُدعى هذا السبي في العربيّة بأرض مصر والنوبة بالبقط»، ووضح هذا النص أن اتفاق السبي هذا كان

---

1 كل النصوص التي ترد الإشارة إليها هنا مثبتة في نهاية هذا الفصل.

معروفًا باسم البقط فقط في مصر والنوبة. أما خارج مصر فلم يكن معروفًا بهذا الاسم، ولذلك عبرت عنه المصادر المبكرة باسمه العربي وهو الصلح أو هدنة الأمان. وعرّف المقريزيّ (نص 12-1) البقط بأنّه «ما يقبض من سبي النوبة في كل عام، ويحمل إلى مصر، ضريبة عليهم» ولم يرد في المصادر العربيّة الأخرى تعريف مباشر للبقط مثل هذين التعريفين.

جدول رقم 7 روايات السبي مقابل الطعام في صلح عبد الله ين سعد (البقط)

اسم الراوي	مصدر الرقيق مقابل الطعام	مصدر الرقيق فقط	مصدر العِوَض
يزيد ابن أبي حبيب	ابن عبد الحكم، والنويريّ		
أبي لهيعة عن ابن أبي حبيب	ابن عبد الحكم، والبلاذريّ، والطبريّ، وابن الفرات، والمقريزيّ	.	
الليث بن سعد	البلاذريّ		
أبو البختري	البلاذريّ، والمقريزيّ		
بعض مشائخ مصر		ابن عبد الحكم 2	
بدون مصدر	ابن الأثير	السعوديّ، والمقريزيّ	ابن خرداذبة

وواضح أن لفظ البقط ارتبط بالسبي أو الرقيق في المصادر العربيّة، وفي التعريفين اللذين وردا للبقط عند المسعوديّ والمقريزيّ أتيا مرتبطين بالسبي فقط، مع أن اتفاق عبد الله بن سعد تضمن السبي وما يقابله من طعام في المصادر العربيّة كما هو واضح في روايات يزيد بن أبي حبيب وابن أبي لهيعة والليث بن سعد وأبي البختري كما في الجدول رقم 7.

وتوضح النصوص المثبتة في الملاحق المواد المختلفة والكثيرة التي التزم المسلمون بتقديمها مقابل السبي، كما عند ابن عبد الحكم نص رقم1 -4، وعند البلاذريّ نصوص أرقام 2-1 و2-3 و2-4، وعند ابن خرداذبة نص رقم 3-1 وعند الطبري

نص رقم 5-1، وعند ياقوت الحموي نص رقم 7-2، عند ابن الأثير نص رقم 8-2، وعند النويريّ نصوص أرقام 9-2 و9-3 و9-4، وعند الدمشقيّ نص رقم 10-2، وعند المقريزيّ نفسه نصوص أرقام 12-3 و12-4 و12-5 و12-8. (النصوص في الملحق الأول في آخر هذا الفصل).

ولذلك لم يرتبط ذكر لفظ البقط بالبنود الأولى في روايات الإخباريّين المبكرين، مثل: ابن أبي حبيب، وأبي لهيعة، والليث، والبختري. وهذا يعني أن لفظ البقط لم يستخدم عندما تم الاتفاق عام 31 هـ، بل استخدم في أوقات لاحقة، ربما بعد بداية التعديلات المتعددة التي لحقت بنصوص عبد الله بن سعد، والتي تعود أقدم إشارة إليها إلى عصر إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر (65 – 85 هـ)، ولذلك يمكن اعتبار أن لفظ البقط ارتبط بصلح أو هدنة عبد الله بن سعد مع النوبة يعود إلى عصر ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر أو قبلها، ولكن ليس في عصر ولاية عبد الله بن سعد على مصر.

بنود الاتفاقيات المبكرة
حتى القرن الثالث الهجري

وردت في المصادر العربيّة – إلى جانب رواية البقط المشهورة عند المقريزيّ – العديد من الروايات تناولت ما اتفق كُلُّ طرف على تقديمه للطرف الآخر، كما تضمنت بعض الروايات التي نظمت العلاقات بينهما. ويمكن تناول تلك الروايات عن طريق تقسيمها إلى قسمين متميزين:

القسم الأول: تتضمن الروايات التي ارتبطت باتفاق عام 31 هـ، والتي وردت موثقة في المصادر عن طريق رواة أخبار النوبة المبكرين، مثل: يزيد بن أبي جبيب، والليث بن سعد، والتي تناولت وقف القتال وتبادل الرقيق بالسلع.

القسم الثاني: يتضمن الروايات التي ورد أغلبها بدون توثيق، والتي اختلفت عما ورد في اتفاق عام 31 هـ، فقد تضمنت المزيد من التفاصيل عما يتبادله الطرفان، كما تناولت تنظيم العلاقات والتعديلات التي أجريت مع تطور العلاقات بين الجانبين.

روايات القسم الأول من الاتفاقيات

اتفقت الروايات المبكرة التي أوردها كل من ابن عبد الحكم، والبلاذريّ، والطبريّ، أن الذي تم بين النوبة والمسلمين كان صلحًا. وتناولت بنود هذا الصلح جانبين هما: وقف القتال وتوضيح ما التزم كل جانب بدفعه للجانب الآخر.

فيما يتعلق بوقف القتال ورد الآتي:

ذكر ابن عبد الحكم عن ابن أبي حبيب: «إن عبد الله صالحهم على هدنة بينهم، على أنهم لا يغزونهم ولا يغزوا النوبة المسلمين» وعنه أيضًا: «وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق، إنما هي هدنة أمان بعضنا من بعض»[1].

وجاء عند البلاذري عن ابن أبي حبيب:

> «ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هي هدنة بيننا وبينهم.: إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلونا». وذكر الليث بن سعد: «إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلوننا»[2]

وذكر كل من النويريّ، وابن الفرات، عن ابن أبي حبيب رواية جاء فيها: «ليست الموادعة بين أهل مصر موادعة هدنة، وإنما هي هدنة أمان.»[3]

يتضح من الروايات أعلاه أن الصلح أو الهدنة كما رواها البلاذريّ، وابن عبد الحكم عن ابن أبي حبيب والليث بن سعد أدت إلى وقف القتال بين الجانبين،

1 ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص 135.

2 البلاذريّ، فتوح البلدان ص 239.

3 النويريّ، نهاية الأرب في فنون الأدب في مسعد، ص 222.وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد، المكتبة السودانية ص 158.

حيث جاء التعبير «لا نقاتلهم ولا يقاتلوننا»، «لا نغزوهم ولا يغزوننا». وفي رواية أخرى لابن عبد الحكم عن ابن أبي حبيب ليس بين الطرفين «عهد ولا ميثاق، إنما هي هدنة أمان»، ويعني ذلك أن المعركة لم تؤد إلى منهزم ومنتصر، بل قرر الطرفان وقف القتال بينهما.

وبيّنت رواية ابن أبي لهيعة التي نقلها ابن عبد الحكم أن المسلمين هم الذين طلبوا الهدنة ووقف القتال، لشدة قتال النوبة وعدم مقدرة المسلمين عليهم، فقد ذكر: «اقتتلوا قتالًا شديدًا، وأصيبت يومئذ عين معاوية بن حُديج، وأبي شَمر أبرهه، وحَيْوِيل ابن ناشرة، فيومئذ سموا رماة الحدق، فهادنهم عبد الله بن سعد إذ لم يطقهم.»[1]

وقد فرّق ابن أبي حبيب في النص الذي رواه عنه النويريّ وابن الفرات بين «موادعة الهدنة» و«هدنة الأمان» حيث قال: «ليست الموادعة بين أهل مصر موادعة هدنة، وإنما هي هدنة أمان.»[2] وجاءت الهدنة والموادعة والمصالحة في القواميس العربيّة في صورتها العامة بمعنى واحد. فقد جاء في لسان العرب:

> «المُوادعةِ المُتاركةُ، أَي يَدَعُ كل واحد منهما ما هو فيه، وادَعْتُ العَدُوَّ إذا هادَنْتَه مُوادَعةً وهي الهُدْنةُ.»3 وجاء في تاج العروس: «وادَعَهُمْ مُوادَعَةً: صالحَهُم وسالَمَهُمْ على تَرْكِ الحَرْب... الهُدنة بعد الحرب، والموادعة بين المسلمين والكفار وبين كل متحاربين، وأصل الهدنة السكون بعد الهيج، وربما جعلت الهدنة مدة معلومة، فإذا انقضت المدة عادوا الى القتال»[4].

فإذا كانت الهدنة والموادعة معناهما واحد، فماذا يعني ما رُوِي عن ابن حبيب «ليست موادعة هدنة، إنما هدنة أمان»، هل يعني أن الاتفاق بين الطرفين كان مجرد «أمان» اتفقوا فيه على.وقف القتال بدون تحديد شروط لذلك، أو تحديد زمن لامتداد الهدنة؟ أرى أنه من الممكن أن يكون التفسير كذلك، ولو قبلنا هذا التفسير فإنّه

1 ابن عبد الحكم، **فتوح مصر** ص 135.

2 النويريّ، **نهاية الأرب في فنون الأدب** في مسعد، ص 222.وابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك** في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 158.

3 ابن منظور، **لسان العرب** موقع الوراق، ج 8 ص 380.

4 الزبيديّ، **تاج العروس** موقع الوراق، 1 ص 9155.

من المعقول ألا يكون هنالك نص مكتوب للاتفاق بين النوبة والمسلمين عام 31 هـ، وأن ما روي عنه تواترت به الأخبار الشفاهية، ولذلك وصل مختلفًا وأحيانًا متناقضًا، وأن ما ورد عن نصوص مكتوبة كتب في اتفاقيات لاحقة، وليس في عصر ولاية عبد الله بن سعد على مصر.

وعن تفاصيل ما يتبادله الجانبان ورد الآتي: اتفق الجانبان على تبادل الرقيق والطعام، وقد اختلفت الروايات في تفاصيل الرقيق والطعام نتناولها فيما يلي:

1. روى ابن عبد الحكم روايتين عن ابن حبيب، جاء في الأولى: «وأن النوبة يؤدون كل سنة إلى المسلمين كذا وكذا رأسًا من السبي، وأن المسلمين يؤدون إليهم من القمح كذا وكذا ومن العدس كذا وكذا في كل سنة.» وجاء في الثانية عن ابن حبيب أيضًا: «وكان الذي صولح عليه النوبة كما ذكر بعض مشائخ أهل مصر على ثلاثمائة رأس وستين رأسًا في كل سنة، ويقال بل على أربعمائة رأس في كل سنة، منها لفيء المسلمين ثلاثمائة رأس وستون رأسًا، ولوالي البلد أربعون رأسًا»[1].
2. وذكر البلاذري ثلاث روايات توضح ما قبله الطرفان في ذلك الصلح، فذكر على لسان المسلمين عن ابن حبيب: «نعطيهم شيئًا من قمح وعدس، ويعطونا رقيقًا»، وأضاف رواية عن الليث بن سعد: «يعطونا رقيقًا، ونعطيهم بقدر ذلك طعامًا». وفي رواية أبي البختري: «على أن يهدوا في السنة أربع مئة رأس، يخرجونها ويأخذون بها طعامًا»[2].
3. وذكر الطبريّ عن ابن أبي حبيب أن على النوبة: «هدية عدة رؤوس منهم يؤدونهم إلى المسلمين في كل سنة، ويُهدي إليهم المسلمون في كل سنة طعامًا مسمى، وكسوة من نحو ذلك.»[3]
4. وأورد ابن خرداذبة رواية بدون سند جاء فيها: «صالحهم على ثلاثمائة رأس

1 ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص 125.

2 البلاذري، فتوح البلدان ص239.

3 الطبري، تاريخ الطبري في مسعد، المكتبة السودانية ص 36.

هدية، ليست بجزية ولا خراج، ولهم على المسلمين العوض على الموادعة، وهم أصحاب الزرافة التي تهدى إلى الخلفاء»[1].

5. كما ذكر ابن الأثير روايةً بدون سند جاء فيها: «صالحهم على هدية عدة رؤوس في كل سنة، ويهدي إليهم المسلمون في كل سنة طعامًا. وأمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده ولاة الأمور»[2]

6. وعن ابن أبي حبيب ذكر كل من النويريّ وابن الفرات رواية جاء فيها: «نعطيهم شيئًا من قمح وعدس ويعطونا رقيقًا، ولا بأس بما يشترى من رقيقهم»[3].

ورد في النصوص أعلاه روايات كثيرة عن ابن أبي حبيب في الرقيق الوارد في الصلح، لم يُحدد فيها عدد الرَقيق في خمسة نصوص منها. جاء في الرواية الأولى عند ابن عبد الحكم على النوبة دفع كذا وكذا من الرقيق، وفي رواية الطبريّ والنويريّ وابن الفرات عن ابن أبي حبيب يقدم النوبة «رقيقًا» بدون تحديد، وأضاف البلاذريّ رواية عن الليث بن سعد بنفس عبارة هذه الرواية «رقيقًا». وفي رواية الطبريّ عن ابن أبي حبيب «عِدة رؤوس من الرقيق». وذكر ابن عبد الحكم رواية عن ابن حبيب نسبها إلى أحد مشائخ أهل مصر تضمنت عدد الرقيق (360 أو 400) إلى جانب بعض التفاصيل، كما أورد البلاذريّ رواية عن البختريّ تضمنت أيضًا عدد الرقيق «360».

ويلاحظ أن الروايات المتواترة خمس عن ابن أبي حبيب، وواحدة عن الليث، رغم اختلاف عباراتها إلا أنها اتفقت على عدم تحديد عدد الرقيق، ورواية ابن حبيب الوحيدة التي حددت عددًا نسبها ابن أبي حبيب إلى أحد مشائخ أهل مصر، وذكر معها رواية أخرى صدرها بعبارة «قيل» مما يرجح ضعفها في نظر ابن أبي حبيب. ورواية البلاذريّ التي حدد فيها عدد الرقيق لم تأت عن طريق رواة أخبار النوبة الذين تواتر النقل عنهم.

1 ابن خرداذبة، المسالك والممالك في مسعد، المكتبة السودانية ص 34.

2 ابن الأثير، الكامل في التاريخ في مسعد، المكتبة السودانية ص 168.

3 النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب في مسعد، المكتبة السودانية ص 222. وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد ص 258.

ونخلص من ذلك إلى أن الروايات الموثوق بها لم تحدد عدد الرقيق. ولا يعني ذلك أن عددهم لم يحدد في أصل الاتفاق، فلا بد أن ذلك قد حدث ولكن لم يجد ابن أبي حبيب والليث بن سعد ما يؤكد لديهم عدد الرقيق. ويبدو ذلك واضحًا في حرص ابن أبي حبيب في عدم تحديده، فعبر مرة «بكذا وكذا» ومرة بـ «بعض مشائخ أهل مصر» ومرة بـ «قيل». فلماذا لم يجد رواة أخبار النوبة المبكرين ما يؤكد رواياتهم؟ هل لم يكن هنالك نص مكتوب للاتفاق؟

جرت عادة المسلمين على كتابة اتفاقيّاتهم عقب كل معركة، وكتب الفتوح تضمّنت مئات الاتفاقيّات التي وقعها المسلمون إبان حركة الفتوحات المبكرة، ووضعوا نسخًا منها في دور المحفوظات التي كان يطلق عليها الدواوين، كما جرت العادة على إعطاء الطرف الآخر نسخة من الاتفاق. فهل كان هنالك نص مكتوب ولم يعثر عليه رواة أخبار النوبة لضياعه، فلو كانت هنالك نسخة من الاتفاق موجودة في ديوان مصر لما حدث هذا الاختلاف وغيره من كثرة الخلاف والاضطراب الذي ارتبط باتفاقية عام 31هـ.

وقد وردت الكثير من الإشارات في كتب التراث العربيّ عن الحرائق الكثيرة التي تعرض لها الديوان في مصر. وقد أشار رواة أخبار ابن عبد الحكم أنه رأى في أحد دواوين الفسطاط (عاصمة مصر) قبل أن ينحرق اتفاق المسلمين والنوبة مكتوبًا.[1]

ونلاحظ الاختلاف ذاته في الطعام الذي التزم المسلمون بتقديمه مقابل الرقيق. فقد جاءت خمس روايات عن ابن حبيب اتفقت كلّها على عدم تحديد كمية الطعام، وحددت أربعًا منها ذكرها: ابن عبد الحكم، والبلاذريّ والنويريّ، وابن الفرات، نوع الطعام الذي يقدمه المسلمون للنوبة وهو «قمح وعدس»، وانفرد الطبريّ برواية عن ابن حبيب لم تحدد نوع الطعام، وأضاف إليه «كسوة»، ولم يرد ذكر الكسوة في كلّ الروايات المبكرة. كما روى ابن الأثير رواية بدون مصدر ذكرت الطعام بدون تحديد نوعه.

---

1 ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص 136.

ويؤيد اختلاف الروايات عن الطعام الذي التزم المسلمون بتقديمه للنوبة عدم تمكن الرواة من الاطلاع على نص مكتوب للاتفاق بين النوبة والمسلمين. ولو حاولنا من خلال ما تواتر وروده في المصادر العربيّة المبكرة عن طريق روايات مصادر أخبار النوبة الموثوق بهم، مثل: ابن أبي حبيب، والليث بن سعد، تعرّف النص الأصلي لاتفاق عبد الله بن سعد والنوبة لرأيناه يحتوي على: «وقف القتال بالصلح أو الهدنة، والاتفاق على تبادل الطعام بالسبي»، وبناءً على هذا يمكن اعتبار «وقف القتال وتبادل الطعام بالسبي»، هو المحتوى الأصلي لاتفاق عبد الله بن سعد عام 31هـ، وكلّ ما ورد بخلاف ذلك يعتبر اتفاقيات لاحقة أو تعديل لاتفاق سابق.

كان المسلمون يرون أن الطعام الذي يدفعونه يشترون به الرقيق من النوبة. وقد عبرت بعض النصوص عن ذلك بوضوح، إذ قال ابن أبي حبيب: «ويعطونا رقيقًا، ولا بأس بما يشترى من رقيقهم»[1]، وقال ابن لهيعة: ولا بأس أن يُشترى رقيقهم منهم ومن غيرهم»[2]. فنصّ الاتفاق - الذي اشتهر باسم البقط - تضمن هدنة الأمان، ولم يذكر الطعام مقابل السبي، كما تضمن أشياء أخرى لم ترد في النصّ الذي افترضنا أنّه النصّ الأصلي لاتفاق عبد الله بن سعد.

1 النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 222. وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد ص 258.

2 ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص 135.

روايات القسم الثاني من الاتفاقيات

تضمنت روايات هذا القسم المزيد من التفاصيل عمّا تم الاتفاق على تبادله بين المسلمين والنوبة، والتي لم ترد في روايات المجموعة الأولى من النصوص التي رواها مصادر أخبار النوبة الثقات، والتي اصطلحنا على اعتبارها النصوص الأصليّة لصلح النوبة والمسلمين، وقد وردت أغلب روايات هذا القسم بدون توثيق. كما تضمّنت بنود هذا القسم تنظيم العلاقات بين النوبة والمسلمين، وبعض المعلومات عن تعديلات أجريت على ما تم الاتفاق عليه بين المسلمين والنوبة. وسنتناولها هنا عبر ثلاثة محاور، المحور الأول: ما ورد عن تفاصيل ما يدفعه النوبة للمسلمين، والمحور الثاني: ما ورد من تفاصيل عما التزم المسلمون بدفعه، والمحور الثالث: ما ورد عن تنظيم العلاقات.

المحور الأول: تفاصيل ما التزم المسلمون بدفعه:

جاءت الروايات المتعلقة بما يدفعه المسلمون في روايات القسم الأول – كما رأيناها – مختصرة، وذكرت الطعام بدون تحديد مقابل الرقيق. ولكن وردت بعض الروايات التي حددت أنواع ومقادير الطعام الذي التزم به المسلمون في مقابل الرقيق. فقد حددت الروايات التي ذكرها ابن عبد الحكم (نص رقم 1-4) والبلاذريّ (نص رقم 2-3) والنويريّ (نص رقم 9-2) وابن الفرات (ملحق رقم 11-2) نوع الطعام بأنّه قمحٌ وعدسٌ ولكن لم تحدد هذه الروايات التي استندت إلى ابن أبي حبيب مقدار الطعام.

وإلى جانب ذلك وردت روايات أخرى تضمنت معلومات إضافية عن أنواع

الطعام ومقاديره، ويلاحظ عليها إما أنها وردت بدون مصدر أو أسندت إلى مصدر غير موثوق مثل «قال بعض المشائخ».

فقد ذكر ابن عبد الحكم (نص رقم فقرة 1-8 كل النصوص المشار إليها هنا في الملحق رقم 1 في نهاية هذا الفصل) عند حديثه عن النوبة: «زعم بعض المشائخ... أنهم زُجروا عن القمح والخيل فكشفوا ذلك في الزمان الأول فأصيبوا.» والزجر هنا كما في القاموس[1] معناه المنع. فالمسلمون منعوا – فيما بعد - تقديم الطعام والخيل الذي أعطاهم له عمرو بن العاص كما يقول النص. فابن عبد الحكم أضاف شيئًا آخر إلى جانب الطعام وهو الخيل التي لم يرد في كل نصوص اتفاقيات المجموعة الأولى.

أما الطبري (نص رقم فقرة 5-1) وابن الأثير (نص رقم فقرة8-1) فقد ذكرا الطعام ولم يبينا نوعه، ورغم أنهما أشارا إلى أن مقداره كان محددًا إلا أنهما لم يوضحاه، بل ذكرا بأنه كان «طعامًا مسمى». وقد أضافا شيئًا آخر جديدًا، وهو الكسوة، التي لم يحددا نوعها أو كميتها. فقد أصبحت لدينا إلى جانب الطعام إضافتان، هما: الخيل، والكسوة.

وأورد البلاذريّ (نص رقم فقرة 2-5) بعض الإضافات الأخرى إلى جانب الطعام والخيل والكسوة، فقد ذكر أنه بناءً على ما قرره الخليفة العباسيّ المهديّ: «يعطوا قمحًا، وخلًّا، وخمرًا، وثيابًا، وفرشًا أو قيمته.» وأغلب الظن أن كلمة «الخل» في هذا النص تصحيف لكلمة «الخيل» التي وردت في النصوص الأخرى. والجديد في نص البلاذريّ هو تحديد الكسوة بالثياب وإضافة الفرش.

وقد حدد كل من النويريّ (نص رقم فقرة 9-3) وابن الفرات (نص رقم فقرة 11-3) مقدار القمح، فذكرا أنّه إذا وصل الرقيق تامًّا يعطى النوبة «ألف وثلاثمائة أردب قمحًا، لرسله منها ثلاثمائة». وقد اتفق المقريزيّ (نص رقم فقرة 12-4) مع النويريّ وابن الفرات على كمية القمح الذي قدمه المسلمون للنوبة بـ 300 أوجب، لكنه أتي

---

1 ابن منظور، لسان العرب موقع الوراق ج 4 ص 318.

ببعض التفاصيل الأخرى. فقد ذكر أن المسلمين كانوا يدفعون إلى جانب ما تقدم 300 أردب شعير. وبين المقريزيّ مقدار الخمر بأنها 1300 اقتيز[1] وحدد الخيل بفرسين من نتاج خيل الإمارة. وفي مكان آخر أضاف المقريزيّ (نص رقم 12 فقرة 12-3) العدس والثياب إلى قائمة ما التزم به المسلمون.

أما الثياب التي كان يقدمها المسلمون مقابل الرقيق فقد أورد المقريزيّ تفاصيل وافية بأنواعها، حيث ذكر: «ومن أصناف الثياب مائة ثوب، ومن القباطيّ أربعة أثواب للملك ولرسله ثلاثة، ومن البقطرية، ثمانية أثواب، ومن المعلمة خمسة أثواب، وجبة مجملة للملك، ومن قمص أبي بقطر عشرة أثواب، ومن أحاص عشرة أثواب، وهي ثياب غلاظ.»

ووثّق المقريزيّ معلوماته هذه بأنّ ما ذكره يوجد محفوظًا في الديوان بمصر. والشيء غير الواضح هنا هو هل رأى المقريزيّ بنفسه هذه التفاصيل في الديوان أم نقل عن شخص سبقه ولم يشر إليه؟ وأغلب الظن أن المقريزيّ نقل من مصدر سابق له شاهد مؤلفه نص الاتفاق، لأن الثياب ذكرت منذ القرن الثالث الهجريّ (9 م) كما عند البلاذريّ، وكتب المقريزيّ كتابه في القرن التاسع الهجري (15م) أي بعد تسعة قرون من بداية معاهدات الصلح بين المسلمين والنوبة، مما يرجح عدم وجود أصول تلك الاتفاقيات المبكرة في عصره.

وهكذا وثقت المصادر العربيّة في تسع روايات - في مؤلفات ابن عبد الحكم، والبلاذريّ، والطبريّ، وابن الأثير، والنويريّ، وابن الفرات - ما التزم المسلمون بتقديمه مقابل الرقيق، وهو الطعام المكون من القمح، ومقداره 300 أردب، والشعير ومقداره 300 أردب، والعدس، إلى جانب الخمر التي بلغت 1300 اقتيز، ومن الحيوانات التزموا بتقديم فرسين. كما التزموا بتقديم أنواع متعددة من الثياب والفرش.

ورغم هذا التوثيق، واتفاق المصادر العربيّة الواضح على التزام المسلمين بدفع المقابل للرقيق، إلا أنّنا نلاحظ أولًا: أن نصّ المقريزيّ المشهور بالبقط، والوحيد

1 لم أتمكن من العثور على معنى هذه الكلمة في القواميس العربية المبكرة، ويبدو أنها كلمة قبطية تدل على المقياس الذي كان مستخدمًا في ذلك الوقت.

المستخدم في مراجعنا الدراسيّة، لا يتضمن ما التزم المسلمون بدفعه، وثانيًا: امتنع المسلمون عن دفع هذا المقابل، وردت بعض الروايات التي توضح محاولات المسلمين التملّص من الالتزام بما تم الاتفاق عليه من تقديم العوض مقابل الرقيق، لكن لم توضح تلك الروايات متى تم ذلك.

فقد أورد ابن عبد الحكم (نص رقم فقرة 1-8) والمقريزيّ (نص رقم فقرة 12-3) رواية جاء فيها أن النوبة في أول عام بعثوا فيه الرقيق أهدوا إلى عمرو بن العاص أربعين رأسًا من الرقيق. فكره عمرو أخذها، وبعث بها إلى أحد عظماء الأقباط، وكان حلقة الوصل بين الجانبين، فباعها ذلك القبطيّ واشترى بها قمحًا وخيلًا كما روى ابن عبد الحكم، أو قمحًا، وشعيرًا، وعدسًا، وثيابًا، وخيلًا كما روى المقريزيّ وقدمها إلى النوبة. وتقول الرواية أنّ هذا العمل أصبح عادة مورسة فيما بعد. ويبدو واضحًا أن ما ورد ليس إلا تبريرًا لتوقف المسلمين عن دفع المقابل للرقيق، ويبدوا معقولًا أن يكون هذا التصرف من أهم أسباب الخلافات وسوء العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين.

المحور الثاني: تفاصيل ما التزم النوبة بدفعه:

التزمت مملكة مريس (نوباديا) في اتفاقها مع عبد الله بن أبي سرح عام 31 هـ بتقديم الرقيق مقابل الطعام، كما هو واضح في كل نصوص الاتفاقيّة التي وردت رواياتها عبر مصادر متعددة وموثقة، ولم تحدد أغلبها عدد الرقيق. وقد جاء تحديد عدد الرقيق في بعض الروايات غير الموثقة، والتي لم تتفق في تقديراتها التي انحصرت بين 300 و400 رأس.

فقد ذكر ابن عبد الحكم (نص رقم 1 فقرة 1-6 و1-7) وكان الذي صولح عليه النوبة كما ذكر بعض مشائخ أهل مصر ثلاثمائة رأس وستين رأسًا في كل سنة، ويقال بل على أربعمائة رأس كل سنة، فيها لفيء المسلمين ثلاثمائة وستون رأسًا، ولوالي البلد أربعون رأسًا. قال فزعم بعض المشائخ أنّ منها سبع عشرة مرضعًا.»

وجاء البلاذري (نص رقم 2-1) برواية حدد فيها عدد الرقيق بـ 300 رأس، وفي رواية أخرى (فقرة 2 -5) جعله 390 رأسًا، ووضح أن أمير المؤمنين المهديّ أمر بإلزام النوبة في كل سنة بتقديم زرافة مع الرقيق. ويلاحظ أن الزرافة لم ترد في كل النصوص المبكرة، بل انحصرت فقط في السبي مقابل الطعام. وقد ردد النويريّ (نص رقم 9 فقرة 11-3) ما ذكره البلاذريّ عن الزرافة، وذكر أن عدد الرقيق 400 رأس منها 40 لوالي البلد، وهو نفس ما ورد عند ابن الفرات (نص رقم فقرة 11-3).

وأضاف البلاذريّ في نفس المكان أن الخليفة العباسي عدل من دفع البقط فجعله كل ثلاث سنوات مرة، بدلاً عن كل سنة. وقد ذكر المقريزي (نص رقم 12 فقرة 12-8) أن الخليفة العباسي المعتصم نظر إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر مما تم الاتفاق عليه، وأنكر تقديم المسلمين للخمر، لكنه لم يوضح هل قام بإلغائها أم لا، كما ذكر أنه قرر دفع البقط مرة كل ثلاث سنوات.

وقد انفرد المسعوديّ (نص رقم 6 فقرة 6-2) بالمزيد من التفاصيل عن الرقيق فذكر أنه 360 رأسًا - على رسم أيام السنة – لبيت مال المسلمين، 40 رأسًا للأمير بمصر، و20 لخليفة الوالي المقيم بأسوان، والذي يتولى قبض الرقيق، وخمسة رؤوس لأمير أسوان، واثنا عشر رأسًا من الرقيق للاثني عشر شاهدًا الذين يشهدون قبض البقط. فيصل عدد الرقيق بذلك 437 رأسًا.

المحور الثالث: تنظم العلاقات بين الجانبين

بالرغم من ورود الكثير من نصوص الاتفاقيّات بين المسلمين في مصر والمقرّيين، إلا أنها ركزت بدرجة كبيرة على ما كان يتم تبادله بين المسلمين والمقُرّيين، ولم يرد ما يتناول العلاقات بين الجانبين إلا مرتين فقط، إحداهما عند ابن عبد الحكم والأخرى عند المقريزيّ.

جاء عند ابن عبد الحكم: «ويقال فيما ذكر بعض المشائخ المتقدمين، أنه

نظر في بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن [ينخرق][1] فإذا هو يحفظ منه: إنا عاهدناكم وعاقدناكم أن توفونا في كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأسًا، وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم، على أنكم إن قتلتم من المسلمين قتيلًا فقد برأت منكم الهدنة، وعلى إن آويتم للمسلمين عبدًا فقد برأت منكم الهدنة، وعليكم رد أباق المسلمين ومن لجأ إليكم من أهل الذمة.»[2]

وأول ما يلاحظ على هذا النص أنه لم يسند إلى رواة أخبار النوبة الثقات المبكرين مثل ابن أبي حبيب وابي لهيعة، بل أسند إلى بعض المشائخ، كما أنه لم يرد مقترنًا بعبد الله بن سعد بن أبي سرح كما في روايات القسم الأول، مثل: «قال ابن أبي حبيب إن عبد الله صالحهم على...» الأمر الذي يجعل إسناده لغير ابن أبي سرح جائزًا.

كما يلاحظ ثانيًا على هذا النص أنه اختلف عن نصوص القسم الأول، والتي تناولت كلها «وقف القتال وتبادل السبي والطعام»، وارتبطت بابن أبي سرح. ويشير ذلك إلى أن هذا النص لا ينتمي إلى تلك النصوص المنسوبة إلى ابن أبي سرح، مما يجعل إسناده إلى غير ابن أبي سرح جائزًا.

1 وردت هكذا في النص، ولأن الحديث عن الديوان فيبدو أن المراد هنا ينحرق وليس ينخرق، وقد وردت في المصادر العربيّة بعض الإشارات إلى الحرائق التي التهمت ما في الديوان من الوثائق.

2 انظر في الملاحق ابن عبد الحكم 7/1.

الملاحق

ملحق رقم 1
نصوص الاتفاقيات بين المسلمين ومملكتي نوباديا ومقُرّة
من عام 31 - 656 هـ

1. ابن عبد الحكم[1] ت 257 هـ / 871 م

1-1 قال سعيد بن عفير (ت 226 هـ): «وبعث عمرو بن العاص نافع بن عبد القيس الفهريّ، وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه، فدخلت جيوشهم أرض النوبة، صوائف كصوائف الروم، فلم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر، وأمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح فصالحهم.

2-1 قال [عبد الرحمن] غزا عبد الله بن سعد الأساود، وهم النوبة، كما حدثنا عبد الله بن بكير، سنة إحدى وثلاثين. وحدثنا عبد الملك بن سلمة، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب قال: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان على مصر في سنة إحدى وثلاثين فقاتله النوبة.

3-1 قال ابن لهيعة: وحدثني الحارث بن يزيد قال: اقتتلوا قتالًا شديدًا، وأصيبت يومئذ عين معاوية بن حديج، وأبي شَمِر أبرهة، وحَيويل بن ناشرة، فيومئذ سموا رماة الحدق، فهادنهم عبد الله بن سعد إذ لم يطقهم. قال الشاعر:

لم تر عيني مثل يوم دمقلة والخيل تعدو والدروع مثقلة

4-1 قال ابن حبيب في حديثه: إن عبد الله بن سعد صالحهم على هدنة بينهم، على

1 مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة. مطبوعات جامعة القاهرة فرع الخرطوم 1972 ص 2-9.

أنهم لا يغزونهم ولا يغزو النوبةُ المسلمين، وأنّ النوبة يؤدون كل سنة إلى المسلمين كذا وكذا رأسًا من السبي، وأن المسلمين يؤدون إليهم من القمح كذا وكذا، ومن العدس كذا وكذا، في كل سنة.»

5-1 قال ابن أبي حبيب: ليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق، إنّما هي هدنة أمان بعضنا من بعض. قال ابن لهيعة: ولا بأس أن يُشترى رقيقهم منهم أو من غيرهم. وكان أبو حبيب أبو يزيد بن حبيب منهم.

حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا ابن لهيعة قال: سمعت يزيد بن حبيب يقول أبي من سبي دُمقلة، مولى لرجل من بني عامر من أهل المدينة، يقال له شريك بن طفيل.

6-1 وكان الذي صولح عليه النوبة كما ذكر بعض مشائخ أهل مصر ثلاثمائة رأس وستين رأسًا في كل سنة، ويقال بل على أربعمائة رأس كل سنة، فيها لفيء المسلمين ثلاثمائة رأس وستين رأسًا، ولوالي البلد أربعون رأسًا. قال فزعم بعض المشائخ أن منها سبع عشرة مرضعًا. ثم انصرف عبد الله بن سعد عنهم.

7-1 أو يقال فيما ذكر بعض المشائخ المتقدمين أنّه نظر في بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن [ينخرق][أ] فإذا هو يحفظ منه: إنّا عاهدناكم وعاقدناكم أن توفونا في كل سنة ثلاثمائة رأس وستّين رأسًا، وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم، على أنكم إن قتلتم من المسلمين قتيلًا فقد برأت منكم الهدنة، وعلى إن آويتم للمسلمين عبدًا فقد برأت منكم الهدنة، وعليكم رد أباق المسلمين ومن لجأ إليكم من أهل الذمة.»

8-1 قال وزعم بعض المشائخ أنّه لا سنة للنوبة على المسلمين، وأنهم أول عام بعثوا بالبقط أهدوا لعمرو بن العاص أربعين رأسًا فكره أن يقبل منهم، فرد ذلك على عظيم من عظماء القبط يقال له نستقوس، وهو القيم لهم فيها، فباع ذلك واشترى لهم جهازًا. فاحتجوا بذلك أن عمرو بعث إليهم القمح والخيل، وذلك أنهم زُجروا عن القمح والخيل فكشفوا ذلك في الزمان الأول فأصيبوا. هذه قصتهم»

أ وردت هكذا في النص، ولأن الحديث عن الديوان فيبدو أن المراد هنا ينحرق وليس ينخرق.

2. البلاذري ص (238 – 239)[1]

صلح النوبة:

2-1 حدثني محمد بن سعد قال: حدثني محمد بن عمر الواقديّ، عن الوليد بن كثير، حدثني محمد بن سعد قال: حدثني محمد بن عمر الواقديّ، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير قال: لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاص إلى القرى التي حولها الخيل، ليطأهم. فبعث عقبة بن نافع الفهري، وكان نافع أخا العاص لأمه. فدخلت خيولهم أرض (ص 236) النوبة، كما تدخل صوائف الروم، فلقي المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا. لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم. فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة، فسموا رماة الحدق. فلم يزالوا على ذلك حتى ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح. فسألوه الصلح والموادعة، فأجابهم إلى ذلك على غير جزية، لكن على هدنة ثلاث مئة رأس، في كل سنة، وعلى أن يُهدي المسلمون إليهم طعامًا بقدر ذلك.

2-2 حدثني محمد بن سعد قال: حدثني الواقدي قال: حدثنا إبراهيم بن جعفر، عن عمر بن الحارث، عن أبي قبيل حيي بن هاني المعافري، عن شيخ من حمير قال: شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب، فلم أر قومًا أحد في حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحبّ أن أضع سهمي منك؟ فربما عبث الفتى منا فقال: في مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبل، فما يكاد يرى من نبلهم في الأرض شيء. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم. رمونا حتى ذهبت الأعين، فعدت مئة وخمسون عينًا مفقوءة. فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح، إن سلبهم لقليل، وإن نكايتهم لشديدة. فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل يكالبهم حتى نزع، وولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح فصالحهم. قال الواقدي: وبالنوبة ذهبت عين معاوية بن حديج الكنديّ، وكان أعور.»

1 أبي الحسن البلاذريّ، فتوح البلدان. بيروت: دار الكتب العلمية 1983 ص 238 -239.

2-3 حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال: حدثنا عبد الله بن صالح عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب قال: ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هي هدنة بيننا وبينهم، على أن نعطيهم شيئًا من قمح وعدس ويعطونا رقيقًا، فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم.

حدثنا أبو عبيد عن عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد قال: إنما الصلح بيننا وبين النوبة على ألا نقاتلهم ولا يقاتلونا، وأن يعطونا رقيقًا ونعطيهم بقدر ذلك طعامًا، فإن باعوا نساءهم لم أر بذلك بأسًا أن تُشترى.

2-4 ومن رواية أبي البختري وغيره أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح صالح أهل النوبة على أن يهدوا في السنة أربع مئة رأس يخرجونها ويأخذون بها طعامًا.

2-5 وكان المهدي أمير المؤمنين [159 – 169 هـ] أمر بإلزام النوبة في كل سنة ثلاث مئة رأس، وستين رأسًا، وزرافة، على أن يعطوا: قمحًا، وخلًّا، وخمرًا، وثيابًا، وفرشًا أو قيمته. وقد ادعوا حديثًا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة، وأنهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدي فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم، فإذا لم يجدوا منه شيئًا عادوا على أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة: فأمر أن يحملوا في ذلك على أن يؤخذ منهم لكلّ ثلاث سنين بقط سنة. ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت في دواوين الحضرة، ووجد في الديوان بمصر.

3. ابن خرداذبة[1] ت 300 هـ / 900 م

3-1 والنوبة، فإنّ بينهم موادعة علي شروط عثمان بن عفان، حين وجه عقبة بن نافع إلى النوبة، فدخلت خيول المسلمين معه إلى بلاهم، فلقوا رماة الحدق ففقئت عيون كثيرة، فسموا بذلك رماة الحدق، فلما وليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح صالحهم على ثلاثمائة رأس هدية ليست بجزية ولا خراج. ولهم على المسلمين العوض على الموادعة، وهم أصحاب الزرافة التي تهدى إلى الخلفاء.

1 أبو القاسم بن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك، في مسعد، المكتبة السودانية ص 34.

4. قدامة بن جعفر[1]

4-1 والنوبة، وهم مصالحون للمسلمين على ضريبة، تسمى البقط، وليس بينهم وبين المسلمين محاربة.

5. الطبري[2] ت 310 هـ / 932 م

5-1 حدّثني عليّ بن سهل، قال: حدّثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أنّ المسلمين لما فتحوا مصر غزوا نوبة مصر، فقفل المسلمون بالجراحات، وذهاب الحدق من جودة الرمي، فسمّوا رماة الحدق، فلمّا ولّى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر، ولاّه إياها عثمان بن عفان رضي الله عنه، صالحهم على هديّة عدّة رؤوس منهم، يؤدّونهم إلى المسلمين في كلّ سنة، ويهدي إليهم المسلمون في كلّ سنة طعامًا مسمّى وكسوة من نحو ذلك.

قال عليّ: قال الوليد: قال ابن لهيعة: وأمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من الولاة والأمراء، وأقرّه عمر بن عبد العزيز نظرًا منه للمسلمين، وإبقاء عليهم.

6. المسعوديّ[3] ت 346 هـ / 956 م

6-1 «قال المسعوديّ: وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه بمحاربة النوبة، فغزاهم المسلمون، فوجدوهم يرمون الحدق، وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم، حتى صرف عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبي معلومة، مما يسبي هذا الملك المجاور للمسلمين المدعو بملك مريس، من أرض النوبة ومن غيرهم من ممالك النوبة المقدم ذكرها

---

1 كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة. موقع الوراق ج1 ص 75.

2 تاريخ الرسل والملوك، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية ص 35.

3 أبي الحسن المسعوديّ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين. الطبعة 3، المكتبة التجارية الكبرى 1958، ج2 ص 21.

فيما سلف من صدر هذا الباب، فصار ما قبض منه من السبي سُنّةً جارية في كل سنةٍ إلى هذه الغاية، يحمل إلى صاحب مصر.»

6-2 «ويدعى هذا السبي في العربية بأرض مصر والنوبة بالبقط، وعدد ذلك ثلاثمائة رأس، وخمس وستون رأسًا، وأراه رسم على عدد أيام السنة، هذا لبيت مال المسلمين، بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة، وللأمير بمصر غير ما ذكرنا من عدد السبي أربعون رأسًا، ولخليفته المقيم ببلاد أسوان المجاورة لأرض النوبة وهو المتولي لقبض هذا البقط، وهو السبي عشرون رأسًا غير الأربعين، وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قَبْضُ البقط خمسة رؤوس غير العشرين التي يقبضها الأمير، ولاثني عشر شاهدًا عدولًا من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأسًا من السبي، حسب ما جرىَ به الرسم في صدر الإسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة.

والموضع الذي يتسلّم فيه هذا البقط ويحضره من سميناه وغيرهم من النوبة من ثقات الملك يعرف بالقصر، وهو على ستة أميال من مدينة أسوان بالقرب من في يرة بلاق، وبلاق هذه مدينة في الموضع المعروف بالجنادل من الجبال والأحجار، وهذه المدينة في هذه الجزيرة يحيط بها ماء النيل كإحاطة ماء الفرات بالمدن التي في الجزائر، الكائنة بين رَحْبَة مالك بن طَوْق وهَيْت، وهي ناوسة وعانة والحديثة، وفي مدينة بلاق خلق كثير من الناس، ومنبر، ونخل كثير في كلا الشطين، وهذه المدينة إليها تنتهي سفن النوبة وسُفُن المسلمين من بلاد مصر وأسوان.

7. ياقوت الحمويّ[1] ت 662 هـ / 1229 م

7-1 وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه صالح النوبة على أربعمائة رأس في السنة، غزاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 31 هـ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وأصيبت يومئذ عين معاوية بن حديج، وقاتلهم قتالًا شديدًا، ثم

1 معجم البلدان، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية ص 162 – 163.

سألوه الهدنة فهادنهم الهدنة الباقية إلى الآن. وقال شاعر المسلمين:

لم تر عيني مثل يوم دنقلة   والخيل تعدو بالدروع مثقلة

7-2 وقال يزيد بن أبي حبيب: ليس بين أهل مصر والأساود عهد، وإنما هو هدنة أمان بعضنا من بعض، نعطيهم شيئًا من قمح وعدس ويعطونا رقيقًا.

8. ابن الأثير[1] ت 630 هـ / 1232 م

8-1 ولما فتحت مصر غزوا النوبة فرجع المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم، فسموهم رماة الحدق. فلما ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر أيام عثمان صالحهم على هدية عدة رؤوس في كل سنة يؤدونهم إلى المسلمين، ويهدي إليهم المسلمون كل سنة طعامًا مسمى وكسوة، وأمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من ولاة الأمور.

9. النويريّ[2] ت 732 هـ / 1332 م

غزوات النوبة في الإسلام

9-1 أول ما غزيت النوبة في سنة إحدى وثلاثين للهجرة النبويّة، غزاها عبد الله بن سعد في خمسة آلاف فارس، وأصيب في ذلك اليوم معاوية بن حديج في عينه، وأصيب أبرهة الصباح في عينه، وكانوا يسمون النوبة: رماة الحدق. وهادنهم عبد الله بن سعد بعد أن وصل دنقلة.

وفي ذلك يقول الشاعر:

لم تر عيني مثل يوم دنقلة   والخيل تعدو بالدروع مثقلة
ترى الحماة حولها مجندلة   كأن أرواح الجميع مهملة

---

1 الكامل في التاريخ، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية ص 168 – 169.

2 نهاية الأرب في فنون الادب، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية ص 222.

9-2 وقال يزيد بن أبي حبيب: « ليست الموادعة بين أهل مصر والنوبة موادعة هدنة، وإنما هي هدنة أمان، نعطيهم شيئًا من قمح وعدس، ويعطونا رقيقًا، ولا بأس بما يشترى من رقيقهم.»

9-3 وكان البقط المرتب على النوبة وهو الرسم على ما قرر: لكل ثلاث سنين بقط سنة ويطلق لرسله، إذا وصلوا بالبقط تامًا، ألف وثلاثمائة أردب قمحًا، لرسله منها ثلاثمائة.

9-4 وقال البلاذريّ في كتاب الفتوحات: «إن المقرر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعامًا أي غلة». وألزمهم المهديّ العباسيّ بثلاثمائة وستين رأسًا وزرافة.

9-5 نص اليمين التي حلفها الملك شكندة عام 674 هـ والتي حلفها شعبه[1]

«والله، والله، والله، وحق الثالوث المقدس، والإنجيل الطاهر: والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعموديّة، والأنبياء المرسلين، والحواريّين، والقديسين، والشهداء الأبرار. وألا أجحد المسيح كما جحده بودس، وأقول فيه ما يقول اليهود، وأعتقد ما يعتقدونه. وألا أكون بودس الذي طعن المسيح بالحربة،

- أنني أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس، وأني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته،
- وأني ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر علي في كل سنة تمضي، وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة،
- وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصًا من كلّ حقّ، والنصف الآخر أرصده لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها،
- وأن يكون عليّ كل سنة: من الأفيلة ثلاثة، ومن الزرافات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، ومن الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة.
- وأنني أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء

1 النويري، نهاية الأرب في مسعد ص 220. تم تقسيم القسم إلى فقرات من قبل المؤلف لكي يسهل تتبع فقراته.

البالغين دينارًا عينًا،

- وأن تفرد بلاد العلي والجبل خاصًا للسلطان.
- وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه سنكوا ولأمة وأقاربه، من قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة، أحمله إلى الباب العالي مع من يرصد لذلك. وأنني لا أترك شيئًا منه قلّ ولا جلّ، ولا أخفيه ولا أمكن أحدًا من إخفائه،
- ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو شيء من هذا المذكور أعلاه كله كنت بريئًا من الله تعالى، ومن المسيح، ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانيّة، وأصلي إلى غيره الشرق، وأكفر بالصليب، وأعتقد ما تعقد اليهود،
- وإني لا أترك أحدًا من العربان ببلاد النوبة، ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطانيّ،
- ومهما سمعت من الأخبار السارّة والنافعة طالعت به السلطان في وقته وساعته، ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة، وأنني ولي من والى السلطان، وعدو من عاداه، والله على ما تقول وكيل.»

«وحلفت الرعية أيضا بتلك الجهات بأنهم: يطيعون نائب السلطان، وهو الملك مشكد المقيم بدنقلة،

- وكل نائب يكون للسلطان أطيعه ولا أرى عليه برأي، ولا أخبئ عنه مصلحة، وكل ما أسمعه من الأخبار الجيدة والرديئة أطالع نائبه به،
- ومتى علمت على نائبه الملك مشكد أمرًا يخالف المصلحة لا أطيعه فيه، وأطالع السلطان به في الوقت والساعة.
- وأنني لا أدخل في حكم داود، ولا أكون معه، ولا أطالعه بخبر من الأخبار، ولا أرتضي به ملكًا،
- ورضيت بأن أقوم بدينار عينًا في كل سنة خالية عليّ».

10. الدمشقي ت 739 هـ/ 1338 م[1]

10-1 وعلى ملوك دنقلة حمل مقرر لصاحب مصر، وهذه الأتاوة لا ذهب فيها ولا فضة، بل هي عدد من: العبيد، والإماء، والحراب، والوحش البرية.

11. ابن الفرات ت 807 هـ/ 1405 م[2]

11-1 أول ما غزيت النوبة في سنة إحدى وثلاثين للهجرة النبويّة، غزاها عبد الله بن سعد في خمسة آلاف فارس، وأصيب في ذلك اليوم معاوية بن حديج في عينه، وأصيب أبرهة الصباح في عينه، وكانوا يسمون النوبة: رماة الحدق. وهادنهم عبد الله بن سعد بعد أن وصل دنقلة.

وفي ذلك يقول الشاعر:

لم تر عيني مثل يوم دنقلة　　والخيل تعدو بالدروع مثقلة

ترى الحماة حولها مجندلة　　كأن أرواح الجميع مهملة

11-2 وقال يزيد بن أبي حبيب: «ليست الموادعة بين أهل مصر والنوبة موادعة هدنة، وإنما هي هدنة أمان، نعطيهم شيئًا من قمح وعدس، ويعطونا رقيقًا، ولا بأس بما يشترى من رقيقهم.

11-3 البقط الذي كان مرتبًا على النوبة، وهو الرسم على ما قرر في قديم الزمان في كل سنة على ما خرج في أيام علي بن أحمد الصرفيني، فهو أربعمائة رأس من الرقيق، وزرافة واحدة، تفصيله: لأمير المؤمنين ثلاثمائة وستون رأسًا، للنائب بمصر أربعون رأسًا. والذي جرت به العادة أن يطلق برسله إذا وصلوا بالبقط تامًّا: قمح ألف وثلثمائة أردب، لرسله منها ثلاثمائة. وقال البلاذري في كتاب الفتوحات: إن المقرر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعامًا، أي غلة، وألزمهم أمير المؤمنين المهديّ العباسي بثلثمائة رأس.

1 نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية ص 237.

2 تاريخ الدول والملوك، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية ص 258، 264.

المعاهدة التي وقعها ملك مقُرّة مشكد (شكندة) مع المماليك عام 674 ه / 1275م

11-4 وأقيم مشكد[1] في المملكة، وألبس التاج وأجلس في مكان داود،

- وقررت عليه القطعة في كل سنة، وهي: فيلة ثلاثة، وزرافات ثلاث، وفهود إناث خمس، وصهب جياد مائة، وأبقار جياد منتخبة مائة.
- وقرر أن تكون البلاد مشاطرة، نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها، وأن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل للسلطان، وهي قدر ربع بلاد النوبة، لقربها من أسوان، وأن يحمل القطن والتمر مع الحقوق الجاري بها العادة من القديم.
- وعرض عليهم الإسلام، أو الجزية، أو القتل فاختاروا الجزية، وأن يقوم كل منهم بدينار عينًا في كل سنة.
- وعملت نسخة يمين بهذه الشروط، وحلف عليها مشكر وأكابر النوبة، وعملت أيضًا نسخة للرعيّة بأنهم يطيعون نائب السلطان ما دام طائعًا، ويقومون بدينار عن كل بالغ.

11 -5 وألبس شكندة تاج الملك، وأقعد على سرير المملكة، بعدما حلف والتزم أن يحمل جميع ما لداود، ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم، وهو أربعمائة رأس من الرقيق، في كل سنة، وزرافة. من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة وستون رأسًا، ولنائبه بمصر أربعون رأسًا، على أن يطلق لهم إذا وصلوا بالبقط تامًا من القمح ألف أردب لملكهم، وثلثمائة أردب لرسله.

12. المقريزيّ ت 845 هـ/ 1445[2]

12-1 وكانت النوبة دفعت إلى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكثهم، وأهدوا إلى عمرو أربعين رأسًا من الرقيق، فلم يقبلها، وردّ الهدية إلى كبير

---

1 يكتب الاسم في المصادر العربية بصور مختلفة، وقد سرنا على كتابته « شكندة».

2 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. في مسعد، المكتبة السودانية ص 300 – 304 و308 و332.

القبط، ويقال له: سمقوس، فاشترى له بذلك جهازًا، وخمرًا، ووجهه إليه، وبعث إليهم عبد الله بن سعد، ما وعدهم به من الحبوب، قمحًا، وشعيرًا، وعدسًا، وثيابًا، وخيلًا، ثم تطاول الرسم على ذلك، فصار رسمًا يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة، وصارت الأربعون رأسًا التي أهديت إلى عمرو يأخذها والي مصر».

12-2 وعن أبي خليفة حميد بن هشام البحتريّ، أن الذي صولح عليه النوبة، ثلثمائة وستون رأسًا لفيء المسلمين، ولصاحب مصر أربعون رأسًا، ويدفع إليهم ألف أردب قمحًا، ولرسله ثلثمائة أردب، ومن الشعير كذلك، ومن الخمر ألف اقتيز للمتملك، ولرسله ثلثمائة اقتيز، وفرسين من نتاج خيل الإمارة، ومن أصناف الثياب مائة ثوب، ومن القباطيّ أربعة أثواب للمتملك ولرسله ثلاثة، ومن البقطرية، ثمانية أثواب، ومن المعلمة خمسة أثواب، وجبة مجملة للملك، ومن قمص أبي بقطر عشرة أثواب، ومن أحاص عشرة أثواب، وهي ثياب غلاظ. ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت في دواوين الحضرة، ووجد في الديوان بمصر.

12-3 قال أبو خليفة: ليس في كتاب عبد الله بن وهب، ولا في كتاب الواقديّ تسمية ينتهي إليها، وإنما أخذت التسمية من أبي زكريا، قال أبو زكريا: سمعت والدي عمرو بن صالح يقول هذا الخبر، فحفظت منه، ما وقفت عليه، وقال: حضرت مجلس الأمير، عبد الله بن طاهر، وهو على مصر، فقال: أنت عثمان بن صالح، الذي وجهنا إليك في كتاب بقط النوبة، قلت: نعم، فأقبل علي محفوظ بن سليمان، فقال: ما أعجب أمر هذه البلدة، وجهنا إليهم نطلب عِلْمًا من علومهم، وإلى هذا الشيخ، فما شقانا أحد منهم، فقلت: أصلح الله الأمير، إنّ الذي طلبت من خبر النوبة عندي، قد حفظه شيوخ عن الشيوخ الذين حضروا هناك، والهدنة والصلح الذي جرى بين عبد الله بن سعد، وبين النوبة، ثم حدّثته عن أخبارهم، كما سمعت فأنكر عطيّة الخمر، فقلت: قد أنكرها عبد العزيز بن مروان، وكان هذا المجلس بفسطاط مصر سنة إحدى عشرة ومائتين، بعد أن تم الصلح بينه وبين عبد الله بن السريّ بن الحكم التميميّ الأمير كان قبله، قال عثمان بن صالح، فوجه الأمير إلى الديوان بظهر المسجد الجامع بمصر، فاستخرج منه خبر النوبة، فوجده كما ذكرت، فسرّه ذلك.

4-12 وعن مالك بن أنس: أنه كان يرى أنّ أرض النوبة إلى حدّ علوة صلح، وكان لا يجيز شراء رقيقهم، وكان أصحابه مثل عبد الله بن عبد الحكم، وعبد الله بن وهب، والليث بن سعد، ويزيد بن أبي حبيب وغيرهم من فقهاء مصر، يرون خلاف ذلك.

5-12 قال الليث بن سعد: نحن أعرف بأرض النوبة من الإمام مالك بن أنس، إنما صولحوا على أن لا تغزوهم، ولا تمنع منهم عدوًّا، فما استرقه متملكهم، أو غزا بعضهم بعضًا، فشراؤه جائز، وما استرقه بغاة المسلمين وسرّاقهم، فغير جائز، وكان عند جماعة منهم جوارٍ نوبيات لفرشهم».

6-12 ولم يزل النوبة يؤدّون البقط في كل سنة، ويدفع إليهم ما تقدّم ذكره إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله، أبي إسحاق بن الرشيد، وكبير النوبة، يومئذٍ زكريا بن يحنس، وكانت النوبة، ربما عجزت عن دفع البقط، فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم، ويمنع من إخراج الجهاز إليهم، فأنكر قيَرْقي ولد كبيرهم زكريا على أبيه، بذله الطاعة لغيره، واستعجزه فيما يدفع. فقال له أبوه فما تشاء، قال: عصيانهم ومحاربتهم، قال أبوه: هذا شيء رآه السلف من آبائنا صوابًا وأخشى أن يفضي هذا الأمر إليك فتقدم على محاربة المسلمين، غير أني أوجهك إلى ملكهم رسولًا، فأنت ترى حالنا وحالهم، فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة، وإلا سألته الإحسان إلينا، فشخص قيرقى إلى بغداد، وكانت البلدان تزين له ويسير على المدن، وانحدر بانحداره رئيس البجة بأسبابه، ولقيا المعتصم.

فنظرا إلى ما بهرهما من حال العراق في كثرة الجيوش، وعظم العمارة مع ما شاهداه في طريقهما، فقرّب المعتصم قيرقي وأدناه وأحسن إليه إحسانًا تامًّا، وقبل هديته، وكافأه بأضعافها، وقال له: تمنّ ما شئت، فسأله في إطلاق المحبوسين فأجابه إلى ذلك، وكبر في عين المعتصم، ووهب له الدار التي نزلها بالعراق وأمر أن يشتري له في كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم، فإنه امتنع من دخول دارٍ لأحد في طريقه، فأخذ له بمصر: دار بالجيزة، وأخرى ببني وائل، وأجرى لهم في ديوان مصر سبعمائة دينار، وفرسًا وسرجًا ولجامًا وسيفًا محلًى، وثوبًا مثقلًا، وعمامة من الخز،

وقميص شرب، ورداء شرب، وثيابًا لرسله غير محدودة عند وصول البقط إلى مصر، ولهم حملان وخلع على المتولي القبض البقط، وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرّفين معه، وما يهدي إليهم بعد ذلك فغير محدود، وهو عندهم هدية يجازون عليها.

ونظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون، فوجده أكثر من البقط، وأنكر عطية الخمر، وأجرى الحبوب والثياب التي تقدّم ذكرها، وقرّر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين، وكتب لهم كتابًا بذلك بقي في يد النوبة، وادّعى النوبيّ على قوم من أهل أسوان أنهم اشتروا أملاكًا من عبيده، فأمر المعتصم بالنظر في ذلك، فأحضر والي البلد، والمختار للحكم فيه، التابعين من النوبة وسألاهم: عما ادّعاه صاحبهم من بيعهم، فأنكروا ذلك، وقالوا: نحن رعية، فزال ما ادّعاه، وطلب أشياء غير ذلك من إزالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها إلى الحدّ الذي بينهم وبين المسلمين لأنّ المسلحة على أرضهم، فلم يجبه إلى ذلك، ولم يزل الرسم جاريًا بدفع البقط على هذا التقرير، ويدفع إليهم ما أجراه المعتصم إلى أن قدمت الدولة الفاطميّة إلى مصر، ذكر ذلك مؤرخ النوبة.

12-7 وقال أبو الحسن المسعوديّ: والبقط هو ما يقبض من السبي في كل سنة، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم، وهو ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأسًا لبيت المال، بشرط الهدنة بين النوبة والمسلمين، وللأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأسًا، ولخليفته المقيم بأسوان، وهو المتولي لقبض البقط عشرون رأسًا، وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قبض البقط، خمسة أرؤس، ولاثني عشر شاهدًا عدلًا من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأسًا من السبي، على حسب ما جرى به الرسم في صدر الإسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة.

12-8 وقال البلاذري في كتاب الفتوحات: إنّ المقرّر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعامًا، أي غلة وألزمهم أمير المؤمنين المهديّ محمد بن أبي جعفر المنصور، ثلثمائة وستين رأسًا، وزرافة.

الفصل الخامس

المراجعات والتعديلات التي طرأت على الاتفاقيات

- الاتفاق الأول بين مملكة مريس (نوباديا) والمسلمين عام 31 هـ
- التعديل أو الاتفاق الثاني بين مملكة مريس والمسلمين قبل عام 65 هـ
- التعديل أو الاتفاق الثالث في عهد الخليفة الأمويّ هشام
- التعديل أو الاتفاق الرابع في عهد كرياكوس ملك مقُرّة
  بنود خطاب والي مصر عام 141 هـ
- التعديل أو الاتفاق الخامس في عهد الخليفة العباسي المهديّ
- التعديل أو الاتفاق السادس قبل عام 211 هـ
- التعديل أو الاتفاق السابع في عهد الخليفة العباسيّ المعتصم
- الاتفاقيات بين عامي 324 هـ و650 م (935 – 1252 م)
- الاتفاقيات في عصر المماليك
- ملاحظات على نص المقريزيّ المشهور عن البقط
- الملاحق
  1. نماذج من نصوص معاهدات المسلمين
  2. نص البقط عند المقريزيّ

الاتفاق الأول

بين مملكة مريس (نوباديا) والمسلمين

تم الاتفاق الأول بين المسلمين في مصر ومملكة مريس في نهاية الحروب التي دارت بينهم عام 31هـ الموافق 651م، في ولاية عبد الله بن سعد على مصر. وقد تناولنا في الفصل الخامس مكان معركة عام 31هـ، والاسم الذي أطلق على الاتفاق، وما تم الاتفاق عليه وفقًا للروايات المبكرة والموثقة. وخلصنا إلى أن الاتفاق الأول جاء مختصرًا بدون تفاصيل، وانحصرت بنوده في محورين فقط، هما: وقف القتال، وتبادل السبي (الرقيق) مقابل الطعام.

التعديل أو الاتفاق الثاني
بين مملكة مريس والمسلمين قبل عام 65 هـ

وقعت على الأقل خمس وعشرون معركة حربيّة بين المسلمين في مصر وبين مملكتي مريس ومقُرّة في فترة الـ 675 سنة[1] الواقعة بين دخول المسلمين مصر عام 21 هـ الموافق 641 م وبين اعتلاء أول ملك مسلم عرش مملكة مقُرَة عام 716 هـ الموافق 1316 م. (انظر جدول رقم 8) وقد عُدِّلت ووُقّع خلال تلك الفترة الكثير من الاتفاقيات عقب كل معركة، غير أننا في مؤسساتنا التعليميّة وفي ثقافتنا العامة نجتر بنود اتفاقية واحدة نعرفها تحت اسم «البقط». وفي هذا الفصل نلقي ما تيسر من الضوء على تلك التعديلات والاتفاقيات الجديدة.

جدول رقم 8: الحروب بين مملكتي مريس ومقُرّة وبين المسلمين حتى عام 1365 م

الفترة الزمنيّة	عدد المعارك	الأسر الحاكمة في مصر
641 – 641 م	9	قبل بداية حكم الأسر في مصر[2]
914 – 1172 م	8	عصر الأسر: الطولونيّون، والاخشيديّون، والفاطميّون، والأيوبيّون.

1 هذا بحساب السنة الشمسيّة أي: 1316 – 641 = 675، أما بحساب السنة القمريّة التي يتبعها النظام الهجريّ فتزيد عدد السنين وهي: 716 – 21 = 695 سنة.

2 الفترة السابقة لعصر حكم الأسر في مصر تعرف بعصر الولاة، وذلك في عصر الخلافة الأمويّة وبداية العصر العباسيّ، عندما كانت السلطة المركزيّة للخلافة قوية، وكان ولاة مصر تابعين تبعيّة مباشرة للخلافة. أما في عصر حكم الأسر (الدول المحليّة) فقد فقدت الخلافة سلطتها المركزيّة وتمتعت تلك الأسر باستقلالها الإداريّ، لكنها اعترفت بتبعيّتها للخلافة العباسيّة السنيّة، باستثناء الدولة الفاطميّة الشيعيّة.

1275 – 1365 م	11	عصر المماليك.
بلغ عدد المعارك التي دارت بين المسلمين والنوبة 28 معركة، ونحن نعرف معركة عبد الله بن سعد عام 31 هـ/651 م. وآخر المعارك التي ذكرتها المصادر كانت عام 1365 م أي قبل 139 سنة فقط من قيام مملكة سنار.		

كان أول اتفاق وصلتنا معلومات عنه هو اتفاق عبد الله بن سعد عام 31 هـ، وهو الاتفاق الذي تضمن وقف القتال وتبادل الرقيق بالطعام، كما ناقشنا ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب. وقد جاءت أول إشارة لتعديل هذا الاتفاق، أو إبرام اتفاق جديد، إبان ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر في الفترة بين(65 – 85 هـ/ 684 – 704 م). فقد أورد المقريزيّ نقلًا عن البلاذريّ:

«قال أبو خليفة: ليس في كتاب عبد الله بن وهب، ولا في كتاب الواقديّ تسمية ينتهي إليها، وإنما أخذت التسمية من أبي زكريا، قال أبو زكريا: سمعت والدي عمرو بن صالح يقول هذا الخبر، فحفظت منه، ما وقفت عليه، وقال: حضرت مجلس الأمير، عبد الله بن طاهر، وهو على مصر، فقال: أنت عثمان بن صالح، الذي وجهنا إليك في كتاب بقط النوبة، قلت: نعم، فأقبل علي محفوظ بن سليمان، فقال: ما أعجب أمر هذه البلدة، وجهنا إليهم نطلب عِلْمًا من علومهم، وإلى هذا الشيخ، فما شفانا أحد منهم، فقلت: أصلح الله الأمير، إنّ الذي طلبت من خبر النوبة عندي، قد حفظه شيوخ عن الشيوخ الذين حضروا هناك، والهدنة والصلح الذي جرى بين عبد الله بن سعد، وبين النوبة، ثم حدّثته عن أخبارهم، كما سمعت فأنكر عطية الخمر، فقلت: قد أنكرها عبد العزيز بن مروان، وكان هذا المجلس بفسطاط مصر سنة إحدى عشرة ومائتين، بعد أن تم الصلح بينه وبين عبد الله بن السريّ بن الحكم التميميّ الأمير الذي كان قبله. قال عثمان بن صالح، فوجه الأمير إلى الديوان بظهر المسجد الجامع بمصر، فاستخرج منه خبر النوبة، فوجده كما ذكرت، فسرّه ذلك»[1].

ترجع هذه الرواية إلى عام 211 هـ/ 826م في عصر والي مصر عبد الله بن طاهر،

1 المقريزيّ، المواعظ والاعتبار في مسعد، المكتبة السودانية ص 304، هذا النص غير موجود في النسخة المطبوعة من كتاب البلاذري.

وتوضح الرواية أن «الخمر» كانت من ضمن المواد التي يقدمها المسلمون للنوبة قبل ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (65هـ/ 684 م – 85 هـ/ 704م). وكما اتضح في روايات المصادر المبكرة فإن الخمر لم ترد في بنود صلح عبد الله بن سعد عام 31 هـ فمتى أضيفت الخمر إلى بنود الصلح ولماذا؟ يفهم من النص أن ما ذكرته الرواية وُجِد منصوصًا عليه في نص الصلح الذي كان في ديوان الفسطاط، ومعنى ذلك أن الخمر كانت من ضمن المواد المنصوص عليها في الاتفاق. ونحن بذلك أمام اتفاق جديد اختلفت بعض بنوده أو تفاصيل بعض بنوده عن اتفاق عام 31 هـ.

وبصورة عامة، فإن الفترة بين عصر عبد الله بن سعد وولاية عبد العزيز بن مروان مصر عام 65 هـ/684م شهدت دخول المسلمين في صراعات متتالية، فهل أدى ذلك إلى ضعف قوتهم في مصر فأغرى مملكة مريس (نوباديا) إلى الهجوم على المسلمين في مصر، ووُقّع معهم صلح جديد كانت الخمر ضمن بنوده. ونكون بذلك أمام اتفاق ثانٍ أعقب اتفاق عام 31هـ.

ويبرز سؤال هنا هو: ماذا حدث لبنود هذا الاتفاق بعد أن استنكر والي مصر عبد العزيز بن مروان تقديم الخمر ضمن بنود الاتفاق؟ وما هو الإجراء المفترض اتباعه عند تغيير الاتفاقيّات؟ هل حدثت مراسلات وتم الاتفاق بين الطرفين على التعديل؟ أم كان التعديل من جانب المسلمين فقط بعدم الوفاء ببعض ما اشترطوا على أنفسهم؟ وكيف سيكون رد فعل الطرف الآخر إذا حدث ذلك؟ وهل يبرر ذلك اضطراب العلاقات بين الجانبين؟ كثير من الأسئلة لا تجد الإجابة، تحيط بتاريخ علاقاتنا بالمسلمين في مصر منذ القرون الهجرية المبكرة.

ويمكن افتراض أن مراجعة عبد العزيز بن مروان لبنود المعاهدة بين النوبة والمسلمين في مصر قد أرجعت الاتفاق إلى ما كان عليه في عصر عبد الله بن سعد، ويؤدي هذا إلى فهم ما ذكره الطبريّ من أن نص اتفاق عبد الله بن سعد قد أقره الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي حكم بعد نحو خمسة عشر عامًا من وفاة عبد العزيز بن مروان.

كما يمكن افتراض أن هناك نصوصًا جديدة لا تختلف كثيرًا عن نصوص عبد الله بن سعد، لأن تعديل الاتفاق بأي صورة يؤدي إلى كتابة نسخة جديدة بتوقيعات معاصرة. فنحن إذًا أمام نص جديد للاتفاق، يختلف عن النص الذي يحتوي الخمر. فإذا افترضنا أن هذا النص الجديد أصبح مثل نص عبد الله بن سعد عام 31هـ ولم يحدث عليه تغيير، يمكن ألاّ نعتبره اتفاقًا جديدًا. فيكون عندنا اتفاقان أولهما اتفاق عام 31 هـ والثاني الذي تضمن الخمر قبل عام 65 هـ.

التعديل أو الاتفاق الثالث

في عصر الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك

غزو مملكة مقُرّة في عصر الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك

ورد أول ذكر للصراع بين المسلمين ومملكة مقُرّة في المصادر العربيّة عند كل من النويريّ وابن الفرات، مدخلًا لحديثهما عن الحروب بين المماليك ومملكة مقُرّة، فذكرا أنه بعد غزو النوبة عام 31 ه «غزيت في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، ولم تفتح وإنما كان قتال ونهب وسبي.»[1] وهذا كل ما ذُكر عن الغزوة، ولم ترد في المصادر العربيّة تفاصيل عنها أو نتائجها.

شهد عصر الخليفة هشام بن عبد الملك 105 – 125 ه/ 723 – 742 م بداية ثورات الأقباط في مصر، فقد ذكر المقريزيّ أنها بدأت عام 107 ه/ 725 م عندما زاد متولي الخراج عبيد الله بن الحبحاب الخراج الذي كان يدفعه الأقباط، وذكر أن تلك الثورات ظلت مشتعلة حتي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).[2] وكانت تؤدي دائمًا إلى اضطراب العلاقات بين المسلمين في مصر ومملكة مقُرّة، خاصة إذا تعرض بطاركة الكنيسة إلى الاعتقال أو سوء المعاملة. فربما شهد عصر الخليفة هشام اضطرابات من هذا القبيل أدت إلى نشوب الحرب بين الطرفين.

لكننا لا ندري ما حدث بعد هذه الحرب التي لم تؤد – فيما يبدو – إلى انتصار حاسم لأحد الطرفين. فهي كما ذكرت المصادر كانت «قتال وسلب ونهب» وعلى كل

---

1 النويريّ، نهاية الأرب في فنون الأدب في مسعد، المكتبة السودانية ص 222 وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد ص 259.

2 المقريزيّ، تاريخ الأقباط، المعروف بالقول الإبريز، دراسة وتحقيق د عبد المجيد دياب دبي: دار الفضيلة تاريخ الإيداع بدار الكتب 1988 صفحات 94 و96 و106 و262 -265.

الأحوال لا بد وأن تكون هنالك محادثات تلت الحرب، خاصة وأنّه يوجد اتفاق أو معاهدة بين الطرفين لتنظيم العلاقات وتبادل الرقيق والطعام بينهما. من المقبول جدًا افتراض تجديد الطرفين ما تم الاتفاق عليه من تبادل الرقيق بالطعام، ولكن من المفترض أيضًا ظهور بعض الجوانب الجديدة، كمسائل التجارة، والعبور، خاصة وأنه كان قد مضى قرن على استقرار المسلمين في مملكة مقُرّة. وقد ذكر ابن المقفع أن المسلمين «كانوا يسرقون النوبة ويبيعونهم بمصر»[1]، فمن الطبيعي أن تتطور العلاقات بين الطرفين. فنحن إذًا أمام اتفاق جديد هو الاتفاق الثالث.

1 ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصريّة في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 82.

التعديل أو الاتفاق الرابع

في عصر كرياكوس ملك مقُرّة 132 هـ / 749م

غزو كرياكوس ملك مقُرّة مصر

بعد سنوات قليلة من وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك تجدد الصراع بين المسلمين ومملكة مقُرّة. فقد تناولت المصادر القبطيّة بعض الأحداث التي وقعت بين بطريك الإسكندريّة وبين والي مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، الذي تولى عام 132هـ/ 749م، وقد أدت تلك الأحداث إلى سجن البطريك. ونتج عن ذلك تحرّك ملك مقُرّة كرياكوس بجيش كبير توغل في الأراضي المصريّة لنجدة البطريك. وتذكر الروايات أن الوالي أفرج عن البطريك قبل دخول الجيش عاصمة الدولة، وكتب البطريك بذلك إلى الملك كرياكوس الذي أوقف الزحف وعاد إلى بلاده[1].

فكيف كان أثر تلك الأحداث على الاتفاق السابق الذي افترضنا إبرامه بعد الحرب التي وقعت في عصر الخليفة هشام بن عبد الملك؟ هل دخلت جيوش مملكة مقُرّة حتى وصلت قريبًا من العاصمة الفسطاط؟. وقد قال عنها ابن القفع «فلما قربوا من مصر [يقصد العاصمة] ليسبوها، ونزلوا في البركة المعروفة اليوم ببركة الحبش، نهبوا وقتلوا وسبوا المسلمين، وقد كانوا فعلوا ذلك بمسلمي الصعيد»[2].

فهل دخلت جيوش مملكة مقُرّة، وتوغلت في أراضي مصر حتى أوشكت على دخول العاصمة، وقتلت وسَبَت دون أن تتصدى لها قوات المسلمين؟ ثم رجعت دون

---

1 انظر تفاصيل هذه الأحداث في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

2 ساويرس بن المقفع، نفس المكان السابق.

أن تجري محادثات أو مفاوضات بين الجانبين! لا أظن ذلك، ومن المقبول جدًّا أن يكون هنالك لقاء بين الطرفين، إن لم يكن لقاء في ميدان القتال فلقاء مفاوضات. وليس لدينا إلا الافتراضات، من المفترض أن تتم المفاوضات، وتنتهي باتفاق يوضح وينظم العلاقات بين الجانبين. فنكون بذلك أمام اتفاق جديد هو الاتفاق الرابع.

البنود التي وردت في خطاب والي مصر
إلى ملك مقُرّة عام 141هـ/ 758م

مرة أخرى تعرضت العلاقات بين المسلمين في مصر ومملكة مقُرّة إلى الاضطراب، بعد تسعة أشهر فقط من هجوم كرياكوس ملك مقُرّة على مصر عام 132هـ/749م، كما وضح خطاب والي مصر موسى بن كعب إلى ملك مقُرّة عام 141هـ/ 758م، الذي تناولناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وضحت الرسالة الضوابط لتنقل المواطنين بين البلدين، وتنظيم العلاقات بينهما. كما بينت الرسالة الجوانب التي تم فيها نقض مملكة مقُرّة الاتفاق، وهي: عدم تقديم البقط كما تم الاتفاق عليه، وتعرض التجار المصريّين لمصادرة أموالهم وحبسهم، وحبس الرسل الموفدين إلى مملكة مقُرّة، وعدم رد عبيد المسلمين الفارين إلى مقُرّة. وتضمنت الرسالة مثالًا لاعتداء المقُرّيين على بعض التجار المسلمين، فطلبت الرسالة ردّ تاجر وثروته، أو دفع الدية لو كان قد قتل.

وهذه الشروط تتفق مع نصين آخرين تناولا تنظيم العلاقات بين المسلمين في مصر ومملكة مقُرّة، وردا عند ابن عبد الحكم والمقريزيّ.[1] جاء عند ابن عبد الحكم في نصّ رقم 2 – 7:

> "ويقال فيما ذكر بعض المشائخ المتقدمين أنه نظر في بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن ينخرق، فإذا هو يحفظ منه: تدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم، على أنّكم إن قتلتم من المسلمين قتيلًا فقد برأت منكم الهدنة، وعلى إن آويتم للمسلمين عبدًا فقد برأت منكم الهدنة، وعليكم

1 النصوص المشار إليها هنا مثبتة بأرقامها في نهاية الفصل الرابع من هذا الكتاب.

رد أباق المسلمين ومن لجأ إليكم من أهل الذمة.»

وجاء في نص المقريزيّ المشهور عن البقط، والذي نسبه إلى عبد الله بن سعد عام 31 هـ في الملحق رقم 12-2 في الفقرات أرقام 4 و5 و12 الآتي:

4. على أن تدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين فيها، وندخل بلادكم مجتازين غير مقيمين فيها، وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو طرقه من مسلم أو معاهد، حتى يخرج منكم.

5. وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين، حتى تردوه إلى أرض الإسلام، وعليكم رد من لجأ إليكم من مسلم محارب للمسلمين، وأن تخرجوه إلى أرض الإسلام، ولا تستميلوا عليه ولا تمنعوا منه.

12. فإن أنتم آويتم عبدًا لمسلم أو قتلتم مسلمًا أو معاهدًا... فقد برأت منكم هذه الهدنة.

هذه البنود تمثل جزءًا من اتفاق تمّ بين المسلمين في مصر وملك مقُرّة في الفترة الواقعة بين عامي 107 و141 هـ/ 725 و758 م. وهذا يعني أن ما ذكره المقريزيّ من شروط أعلاه لا تعود إلى صلح عبد الله بن سعد عام 31 هـ. والسؤال المهم هنا هو: هل هذه البنود جزء من الاتفاق الرابع الذي وقع بعد حملة ملك مقُرّة كرياكوس على مصر عام 132 هـ/ 750 م أم هو اتفاق جديد؟ لا توجد إجابة عن هذا السؤال، ولكن ليس هنالك ما يمنع افتراض رجوعها إلى الاتفاق الرابع.

التعديل أو الاتفاق الخامس
في عصر الخليفة العباسيّ المهديّ

يبدو أن المراسلات والمفاوضات بين مملكة مقُرّة والمسلمين قد فشلت في تحسين العلاقات بينهما، وتدهورت الأوضاع إلى الحد الذي تجددت فيه الحرب بينهما. فقد أشار كل من النويريّ، وابن الفرات، باختصار شديد، إلى خروج حملة إلى مملكة مقُرّة، فذكرا «وغزاها يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، على يد عبد الأعلى بن حميد»[1].

وأغلب الظنّ أن الحملة خرجت في عصر الخليفة المهديّ إبّان ولاية يزيد بن أبي حاتم على مصر، فيمكن تقدير تاريخ خروج الحملة بين عامي159 – 164 هـ/ 775-780م. فقد حملت إلينا المصادر أخبار اتفاق آخر جديد في عهد الخليفة العباسيّ المهديّ 159 – 169 هـ/775-785مـ هو الاتفاق الخامس. فقد ذكر البِلاذُريّ أن المهديّ « أمر بإلزام النوبة في كل سنة ثلاث مئة رأس وستين رأسًا وزرافة، على أن يعطوا قمحًا، وخلًا، وخمرًا، وثيابًا، وفرشًا أو قيمته». كما أضاف البلاذري تعديلًا آخر، إذ أورد أن المهديّ وافق على أن تدفع مملكة مقُرّة البقط مرة كل ثلاث سنوات، بدلًا عن دفعه كل سنة.[2]

فنحن أمام تعديلين جديدين حدثا في عصر المهديّ، أولهما: الزرافة التي لم تظهر في الروايات المتعددة السابقة لعصر المهديّ، والتعديل الثاني: جعل دفع البقط مرّة

1 النويري، نهاية الأرب في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 222 وابن الفرات، تاريخ الدول والملوك في مسعد، المكتبة السودانيّة ص 259.

2 البلاذريّ، فتوح البلدان في مسعد، المكتبة السودانية ص 304. انظر النص في الملحق رقم 1 نص 2-5.

كل ثلاث سنوات، خلافًا لما ورد في كل الاتفاقيّات السابقة، والتي نصت على دفعه كل سنة. كما يلاحظ أيضًا وجود الخمر في هذه الرواية. فهل ألغاها عبد العزيز بن مروان ثم عاد ظهورها مرة أخرى؟

يختلف هذا النص عن النصوص السابقة فيما احتواه من تفاصيل. فهو قد فصل مواد الطعام التي ينبغي تقديمها من المسلمين، وتضمن تقديم زرافة. وإذا افترضنا أن تفصيل الطعام الواردة هنا قد لا يختلف عما كان يقدمه المسلمون من طعام في السابق، فإن وجود الزرافة في النص يمثل إضافة جديدة، لأن النصوص المبكّرة أشارت إلى الطعام فقط. والزرافة شيء مختلف، يعتبر إضافة جديدة على ما تم في الاتفاق السابق.

ويشير بداية النص أعلاه (2-5) إلى أن المهديّ ألزم النوبة بدفع البقط كل سنة. والتعبير بكلمة «إلزام» تشير أن المقُرّيّين كانوا يرون أنهم غير ملزمين بالشروط التي وقعت مع مملكة مريس. ويدل باقي النص أن مفاوضات أجريت بين الجانبين. فقد ذكر البلاذريّ أن المقُرِّيِّين:

«وقد ادعوا حديثًا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة، وأنهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهديّ، فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم، فإذا لم يجدوا منه شيئًا عادوا على أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة. فأمر أن يحملوا في ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة.»[1]

1 ملحق رقم 1 نص 2-5 في آخر الباب الرابع من هذا الكتاب.

التعديل أو الاتفاق السادس

قبل عام211 هـ/ 826م

لا تمدنا المصادر بما طرأ على العلاقات والاتفاقيات بين المسلمين ومملكة مقُرّة منذ عصر المهديّ وحتى بداية القرن الثالث الهجريّ (9 م) حيث ذكر المقريزيّ رواية عن أبي البحتريّ ترجع إلى عام 211 هـ/ 826 م إبان إمارة عبد الله بن طاهر على مصر. فقد ذكر أن عبد الله بن طاهر بحث عن الاتفاق مع النوبة، ووجد نسخته محفوظة في الديوان، وأنكر الوالي ما يقدمه المسلمون من الخمر للنوبة.

والجديد في الاتفاق الذي تصفحه والي مصر وأورد أبو البحتريّ بعضه، أن تفاصيل ما يقدمه المسلمون اختلفت عن كل التفاصيل السابقة جاء فيها:

«أن الذي صولح عليه النوبة، ثلثمائة وستون رأسًا لفيء المسلمين، ولصاحب مصر أربعون رأسًا، ويدفع إليهم ألف أردب قمحًا، ولرسله ثلثمائة أردب، ومن الشعير كذلك، ومن الخمر ألف اقتيز للمتملك، ولرسله ثلثمائة اقتيز، وفرسين من نتاج خيل الإمارة، ومن أصناف الثياب مائة ثوب، ومن القباطيّ أربعة أثواب للمتملك، ولرسله ثلاثة، ومن البقطرية، ثمانية أثواب، ومن المعلمة خمسة أثواب وجبة مجملة للملك، ومن قمص أبي بقطر عشرة أثواب، ومن أحاص عشرة أثواب، وهي ثياب غلاظ.»[1]

ويطالعنا المسعودي بنصّ آخر عن السبي (نص 5-2)، اتضح فيه أن مجمل ما يستلمه المسلمون من السبي بلغ 437 رأسًا، تفاصيلها كالآتي: «ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأسًا لبيت مال المسلمين، وللأمير بمصر... أربعون رأسًا، ولخليفته... المتولي

1 ملحق رقم 1 نص 11-4 في آخر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

لقبض هذا البقط، وهو السبي، عشرون رأسًا، وللحاكم المقيم بأسوان... خمسة رؤوس... ولاثني عشر شاهدًا عدلًا من أهل أسوان اثنا عشر رأسًا من السبي، حسب ما جرى به الرسم في صدر الإسلام، في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة.»[1]

فهل يمكن ربط هذه التفاصيل بتلك التي وردت عن الطعام في الفقرة أعلاه، أي أنهما يمكن أن يرجعا إلى اتفاق واحد تضمن تفاصيل ما المواد التي يتم يبادلها بين المسلمين ومملكة مقُرّة ؟

ويلاحظ أن هذه التفاصيل لم تشر إلى الزرافة أو إلى تعديل الخليفة المهديّ، الذي جعل دفع البقط مرة كل ثلاث سنوات. هل كان هذا الاتفاق معمولًا به قبل ولاية طاهر بن الحسين على مصر؟ وإذا كان كذلك لماذا لم يجدد وتثبت فيه التعديلات التي أجراها الخليفة المهديّ؟ علمًا بأن الفاصل الزمني بين عصر المهديّ والوقت الذي رأى فيه والي مصر هذا الاتفاق نحو ثلاثين سنة فقط، فهل هذا اتفاق جديد ابرم بعد خلافة المهديّ؟.

لا أعتقد أنه أبرم في السنوات القليلة التي تلت عصر المهديّ، لأن الرواية توضح أن هذا الخبر حفظه شيوخ عن شيوخ، مما يشير إلى أنه أقدم من الثلاثين سنة التي فصلت بين عصر المهديّ وولاية عبد الله بن طاهر. فهل أبرم قبل عصر الخليفة أبي جعفر المنصور والد الخليفة المهديّ؟ وقد تكون هذه التفاصيل بعضًا من اتفاق أبرم بعد حرب انتصرت فيها مملكة مقُرّة، لأن بنوده تضمنت كميات كبيرة من القمح والشعير والخمر والثياب. ولماذا لم تظهر هذه التعديلات فيما ورد من تعديلات المهديّ؟ وإذا اعتبرنا أن هذه التفاصيل لا تعود إلى الاتفاق الخامس الذي تم في عصر الخليفة المهدي نكون أمام اتفاق جديد هو الاتفاق السادس.

.ويلاحظ أن المسعوديّ ذكر أن تفاصيل الرقيق التي أوردها تعود إلى صدر الإسلام. فهل يعني ذلك أن هذه التفاصيل تعود إلى صلح عبد الله بن سعد عام 31 هـ/ 651 م؟ أم تعود إلى الاتفاق الثاني الذي ظهرت فيه الخمر، والذي يرجع إلى وقت

1 ملحق رقم 1نص 5-2.

ما قبل عام 65 هـ/684 م؟ أغلب الظن أن هذه التفاصيل لا تعود إلى اتفاق عام 31 هـ، لأن كل الروايات المبكرة والموثقة توثيقًا جيدًا لم تتضمن شيئًا من هذه التفاصيل، وحتى تلك الروايات المبكرة التي ذكرت عدد الرقيق يختلف تقديرها عن تقدير المسعوديّ.[1] ويعني ذلك أن تفاصيل المسعوديّ هذه تعود إلى إحدى التعديلات، أو الاتفاقيات التي تلت صلح عام 31 هـ

1 انظر روايات القسم الأول في بنود الاتفاقيات في الفصل الرابع، وانظر كذلك الملحق قم 1 في نهاية الفصل الرابع.

التعديل أو الاتفاق السابع
في عصر الخليفة العباسيّ المعتصم

لا تسعفنا المصادر بما طرأ على علاقات مملكة مقُرّة والمسلمين في الفترة ما بين وفاة الخليفة المهديّ 169ه/785مـ وتولي الخليفة المعتصم 218ه/833 م، عدا ما ورد في عصر والي مصر عبد الله بن طاهر عام 211 هـ ثم نأتي إلى الأحداث التي وقعت في عصر الخليفة المعتصم 218 -227 هـ/ 833 – 842 م وما صاحبها ما تعديل في الاتفاقيات. فقد ذكر المقريزيّ: «ولم يزل النوبة يؤدّون البقط في كل سنة، ويدفع إليهم ما تقدّم ذكره إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله، أبي إسحاق بن الرشيد، وكبير النوبة يومئذٍ زكريا بن يحنس»[1].

وكان ملوك مقُرّة كما ذكر ابن المقفع لم يدفعوا البقط المقرر عليهم لمدة أربعة عشر عامًا،[2] فطُولبوا بدفع ما عليهم. غير أن ابن ملك مقُرّة رأى أن دفع البقط يدل على بذل الطاعة،[3] وطلب منْ والده عدم دفعه. ولم يكن المسلمون ملتزمين بدفع ما عليهم مقابل الرقيق، ولذلك رأى ابن الملك في دفع ما عليهم خضوعًا للمسلمين، لأن البقط عبارة عن تبادل منافع بالشراء.

وذكرت المصادر القبطيّة أن البطرك في مصر أرسل رسالة عبر والي المعدن في أسوان[4] إلى ملك مقُرّة، يحثه على دفع ما عليه من البقط، وتفادي الدخول في حرب مع

---

1 ملحق رقم 1 نص 12-8

2 ساويرس بن المقفع، المصدر السابق ص 84.

3 انظر النص في الملحق رقم.

4 كانت بلاد الصعيد من منطقة الأقصر جنوبًا منذ عصر عمرو بن العاص تعتبر ولاية منفصلة، قد تضاف إلى والي مصر، ولكن وردت كثير من الإشارات إلى انفصالها. وفي الواقديّ كانت هنالك ثلاث-

المسلمين. وقرر الملك إرسال ابنه إلى بغداد لمناقشة هذا الوضع مع خليفة المسلمين والوقوف على مدى قوة المسلمين. ووضحت المصادر القبطيّة المعاملة الكريمة التي وجدها من والي مصر ولأعوانه، تناولت مقابلة الأمير المقُرّيّ للبطرك، والسماح له بإقامة القداس في القصر الذي نزل فيه.[1]

وتناول المقريزي زيارة الأمير المقُرّيّ إلى بغداد، وذكر أن رئيس البجة ذهب مع الأمير إلى بغداد، ووصف المقريزيّ الاحترام والمعاملة الكريمة التي وجدها الأمير في بغداد، ووهب له الخليفة الدار التي نزل بها ببغداد، وأمر أن يشترى له في كل منطقة ينزل بها دار، لأنه امتنع عن دخول أي دار لأحد في طريقه، وأخذت له داران في مصر.

وذكر المقريزي أن المعتصم «نظر إلى ما كان يدفعه المسلمون، فوجده أكثر من البقط، وأنكر عطية الخمر، وأجرى الحبوب والثياب التي تقدّم ذكرها. وكتب لهم كتابًا بذلك بقي في يد النوبة.» ولا ندري إلى أي نص نظر المعتصم، لكنه لم يرجع إلى نصوص صلح عام 31 هـ لأن نصوصه لم تحدد كمية الطعام، بل وردت الإشارات إليه مجملة مثل «طعام» أو «شيء من قمح وعدس» كما لم تتضمن الخمر والملابس.

وقد كللت زيارة الأمير بنجاح كبير، وتمخضت عن اتفاق جديد هو الاتفاق السادس، وافق فيه الخليفة على إعفاء المقُرّيّين من متأخرات البقط، وقرر دفع البقط كل ثلاث سنوات بدلًا عن كل سنة. «وأجرى لهم في ديوان مصر: سبعمائة دينار، وفرسًا، وسرجًا، ولجامًا، وسيفًا، محلًّى، وثوبًا مثقلًا، وعمامة من الخزّ، وقميص شرب، ورداء شرب، وثيابًا لرسله غير محدودة عند وصول البقط إلى مصر، ولهم حملان وخلع على المتولي قبض البقط، وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرّفين معه،

= ولايات في مصر، ولاية ومصر وعاصمتها الفسطاط، وولاية الصعيد (أعلى مصر) ويطلق عليها أيضًا ولاية المعدن، وتضم: قفط، والأقصر، وإسنا، وأرمنت، وأسوان. وولاية طريق الحاج ما بين مصر ومكة، وأحيانًا تضاف هذه الولاية إلى ولاية المعدن. انظر البلاذريّ، **فتوح البلدان** في مسعد ص 27 والطبري، **تاريخ الرسل والملوك** في مسعد، **المكتبة السودانية** ص 38 و40.

1 ساويرس بن المقفع، **تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية** في مسعد، المكتبة السودانية ص 84. وأبو صالح الأرمني، **تاريخ الشيخ أبو صالح** ص 141.

وما يهدى إليهم بعد ذلك فغير محدود، وهو عندهم هدية يجازون عليها»[1].

وأضاف المقريزيّ القضية التي ذكر المسعوديّ أنها أثيرت عند زيارة الخليفة المأمون لمصر، والتي ذكرناها سابقًا. وهي الشكوى التي تقدم بها ملك النوبة من أن بعض المسلمين اشتروا أراضي من رعاياه المجاورين لأرض المسلمين، وأن ذلك غير جائز، لأن الملك يعتبر أن كل الأراضي في مملكته ملكه هو ولا يحق لرعاياه التصرف فيها، ورأينا أن المحكمة قضت بصحة بيعهم للأراضي. وذكر المقريزيّ هنا أن الأمير طلب إرجاع تلك الأراضي إلا أن الخليفة لم يجب طلبه. كما رفض الخليفة طلب الأمير إزالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها، إلى الحدّ الذي بينهم وبين المسلمين، لأنّ المسلحة على أرضهم.

ويلاحظ في نصّ المقريزيّ على موافقة المعتصم أنه قال: «وأجرى الحبوب والثياب التي تقدم ذكرها». وقوله «التي تقدم ذكرها» راجع إلى التفاصيل التي رواها أبو البحتريّ، والتي كانت موجودة في ديوان مصر عام 211 هـ والتي جاء فيها أن عدد السبي الذي يدفعه النوبة 400 رأس. وقد يكون هذا الرقم زائدًا على ما اتفق عليه الطرفان في صلح عبد الله بن سعد، لأنه من بين الأرقام التي وردت 300 و360 رأس. فهل هذا ما وجده المعتصم «أكثر من البقط»؟

كما يلاحظ أن الخمر لا زالت تذكر في مراجعات شروط الاتفاقيات، ولم يتضح القرار المتخذ بخصوصها. فقد استنكرها الخليفة المعتصم، ولكنها لا زالت تقدم مع بقية مواد الطعام الأخرى التي أقرها، وهذا يدعو إلى الشك في تفاصيل الاتفاق المنقول عنه. ويلاحظ أيضًا أن المعتصم جعل دفع السبي مرة كل ثلاث سنوات. ولم ترد الإشارة إلى ماتم الاتفاق عليه في عصر المهديّ. هل جدد المعتصم اتفاق المهديّ السابق؟ أم أن الاتفاق في الأساس هو اتفاق المعتصم، ولكن حدث خلط بين الرواة ونقلة الأخبار، فأسند بعضهم هذا التعديل للمهديّ؟ أم أن العكس هو الصحيح؟

والملاحظة الأكثر أهمية هي أن المقريزيّ وضح أن المعتصم «كتب لهم كتابًا

---

1 المقريزيّ، **المواعظ والاعتبار** في مسعد ص 305. والملحق رقم 1 نص 12-8.

بذلك بقي في يد النوبة» فأين ذلك الكتاب؟ وما هي محتوياته؟ كل نصوص الاتفاقيات الواردة في المصادر لا تورد نصوصًا مسنودةً إلى المعتصم. فنصوص الاتفاقيات – كما في الملحق رقم 1 في آخر الفصل الرابع) إما وردت مسنودة إلى عبد الله بن سعد، مثل: نصوص 1-4 و2-1 و2-2 و2-3 و4-1 و5-1 و7-1 و11-1، وإما وردت دون إسنادها، كأن ترد «الصلح مع النوبة، أو الذي صولح عليه النوبة» كما في باقي النصوص.

وأضاف المقريزيّ أن الخليفة أمر أيضًا بـ«ثياب لرسله غير محدودة عند وصول البقط إلى مصر، ولهم حملان وخلع على المتولي القبض البقط، وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرّفين معه، وما يهدى إليهم بعد ذلك فغير محدود، وهو عندهم هدية يجازون عليها».

ويلاحظ أن ما قُدِّم لابن ملك مقُرّة من هدايا الثياب، وما تقرر أن يعطى لرسله، يشبه إلى حَد بعيد ما ورد في النص الذي رواه البحتري (نص 8-4)، والذي جاءت فيه تفاصيل ما يدفعه المسلمون من أصناف الثياب عند استلام البقط. وقد ورد أنه توجد نسخة من هذا النص في الديوان بمصر. فنحن إذًا أمام عدد من النصوص بلغت - على الأقل – حتى بداية القرن الثالث الهجريّ (9 م) أربعة نصوص مختلفة عن بعضها بعضًا (ملحق رقم 1 آخر الفصل الرابع)، هي:

1. نص عام 31 هـ والذي ورد فيه السبي مقابل الطعام فقط مثل نصوص (أرقام 1-4 و2-1 و3-2 و2-4).
2. نص (11- 2) المقريزي المسنود لعبد الله بن سعد عام 31 هـ والذي لم يرد فيه ما يدفعه المسلمون من طعام.
3. النص (11-5) الذي ورد فيه ذكر الخمر والذي ورد أنه رآه والي مصر عبد العزيز بن مروان (65 – 85 هـ) ورآه والي مصر عبد الله بن طاهر عام 211هـ
4. النص (2-5) المسنود إلى تعديل الخليفة المهديّ في منتصف القرن الثاني الهجريّ، والذي وردت فيه الزرافة، وتعديل مواعيد الدفع إلى مرة كل ثلاث سنوات. هذا إذا لم نعتبر تعدِيل الخليفة المعتصم تعديلًا خامسًا.

وهكذا فإنّ كل النصوص الواردة عن اتفاقيات المسلمين مع الممالك المسيحيّة في السودان تحتاج إلى المراجعة، حتى النصوص التى نسبت إلى الرواة المبكرين. ولا ينبغي علينا التعامل مع هذه النصوص والاستشهاد بها مفترضين صحتها، أو صحة كل ما جاء فيها، كما نفعل مع نص «معاهدة البقط» المشهور الذي ورد عند المقريزيّ. وأكرر مرة أخرى ومرات، أن المقريزيّ نفسه ذكر العديد من النصوص والتي أسند بعضها مباشرة إلى عبد الله بن سعد، غير أننا نتجاهلها كليّة ونأخذ بما جاء في نص واحد بدون إسناد، ونفسر به كل أحداث تاريخنا الإسلامي وواقعنا الحالي المضطرب اضطراب تفسيرنا لأحداث ذلك التاريخ. وقد ترتب على هذا المسلك أخطاء كثيرة أصبحت جزءًا من المسلمات في تاريخنا الحديث.

وذكر المقريزي: «لم يزل الرسم جاريًا بدفع البقط على هذا التقرير، ويدفع المسلمون إليهم ما أجراه المعتصم، إلى أن قدمت الدولة الفاطميّة إلى مصر كما ذكر مؤرخ النوبة»[1] وقصد بمؤرخ النوبة ابن سليم الأسواني. وهكذا فنحن أمام نص وتعديل جديدين في عصر الخليفة المعتصم.

1 نفس المكان السابق.

الاتفاقيّات بين عامي 324 - 650 هـ / 935 - 1252 م

تتبعنا في الفصل الثاني تطور العلاقات بين مملكة مقُرّة والمسلمين في مصر، ويلاحظ أن العلاقات كانت متوترة بين الجانبين في الفترة التي خضعت فيها مصر لحكم الأُسر الاخشيدية والفاطمية والأيوبية بين عامي 324 - 650 هـ/ 935 – 1252م. ولم يرد في المصادر العربية ما يوضح كيف كانت العلاقات بين مملكة مقُرّة والأسرة الطولونيّة التي حكمت مصر في الفترة بين عامي 254 – 293 / 868 – 905 م. ولكن شهدت فترة حكم: الإخشيديّين، والفاطميّين، والأيوبيّين، توترًا أدى إلى وقوع سبع حروب بين الجانبين. (انظر جدول رقم 3).

ولا تتوافر في المصادر العربيّة معلومات عن نتائج تلك الحروب وتأثيرها على الاتفاقيات التي وقعت بين دولة مقُرّة والمسلمين. ومن الممكن اعتبار أن حملة الإخشيديّين عام 302 هـ/ 914 م لم تعدل في بنود الاتفاق الأخير، الذي عدل في أيام الخليفة العباسيّ المعتصم (اتفاق رقم 6). ولم تتعرض المصادر عند إشارتها لوصول رسول ملك مقُرّة إلى قائد حملة الإخشيديّين إلى اتفاق بين الطرفين، ولم تشر إليه أيضًا عندما تناولت نتائج مبعوث قائد الحملة إلى مملكة مقُرّة، كما تناولنا ذلك في الفصل الثالث.

وعندما احتلت الدولة الفاطميّة مصر عام 362 هـ/ 972 م بعثت رسولًا إلى مملكة مقُرّة. وأورد المقريزيّ بعض تفاصيل تلك الزيارة، ووضح سببها، فذكر أن جوهر الصقلّي قائد حملة الفاطميّين التي احتلت مصر، بعث ابن سُليم الأسواني إلى جورج الثاني أو قيرقي كما تكتبه المصادر العربية ملك مقُرّة (359 – 339 هـ/ 969 – 1002 م) يعرض عليه الإسلام ويطلب منه دفع البقط.

وذهب ابن سُليم إلى دنقلة وقابل ملكها. وقد اجتهد ابن سليم في محادثاته مع ملك مقُرّة في توضيح قوة المسلمين، وتناقشا في الديانتين المسيحيّة والإسلام. ولكن لم يتضمن ما نقله المقريزيّ عن ابن سليم موضوع البقط، الذي كان أحد أسباب البعثة كما ذكر المقريزيّ في كتابه المقفى.[1] ولم أجد فيما نقله المقريزيّ ما يشير إلى أن ملك مقُرّة وافق على دفع البقط كما ورد في بعض المراجع.

ويبدو معقولًا أن تكون المحادثات بين ابن سليم والمقُرّيّين قد تناولت موضوع البقط، لكن لم يتطرق إليه المقريزيّ. وربما حدث تعديل للاتفاق الذي تم تعديله في عصر الخليفة العباسيّ المعتصم (الاتفاق رقم 7)، أو الذي ربما كان قد تم في عصر حكم الأسرة الإخشيديّة لمصر. لكن ليس هناك ما يساعد على معرفة ما تم من اتفاقيات بعد الحروب الكثيرة التي وقعت في فترة حكم الإخشيديّين والفاطميّين والأيوبيّين.

ورغم أن الفاطميّين شنوا حربًا على مملكة مقُرّة عام 459 هـ/ 1066م، وأغارت مملكة مقُرّة على أسوان في عصر الأيوبيّين عام 568 هـ/ 1172م، وأرسل الأيوبيّون حملة في نفس العام، توغلت حتى قلعة إبريم، إلا أن المصادر لم تتطرق إلى ما تم بخصوص الاتفاقيات بين الطرفين. وبما أنّنا لا نملك ما يوضح ما قد يكون حدث لتلك الاتفاقيّات، فليس أمامنا إلا الانتقال من عصر الخليفة العباسيّ المعتصم في القرن الثالث الهجري (9 م) إلى عصر المماليك في القرن الرابع الهجريّ (10 م). انظر جدول رقم 9.

ربما أشار ذلك إلى اضطراب المعلومات في المصادر العربيّة عن أخبار النوبة. فالمؤلفون جمعوا مادتهم من رواة أو من الروايات الشفاهيّة المتداولة، ولم يرجعوا إلى معلومات مدونة أو نصوص معاهدات مكتوبة، ولذلك ينبغي إخضاع ما يرد في تلك المصادر لميزان النقد التاريخيّ حتى نتمكن من الحكم على مدى مصداقيتها.

ذكر المقريزيّ أن النوبة ربما عجزت عن دفع البقط في أوانه، الأمر الذي يؤدي إلى عدم إخراج الجهاز الذي اتفق المسلمون على دفعه للنوبة، ويؤدي إلى شن المسلمون

1 في مسعد، المكتبة السودانية ص 219 – 220.

الغارات عليهم من أراضي المسلمين المجاورة لهم.[1] ويتضح مما ذكره المقريزيّ أن عدم انتظام مملكة مقُرّة في دفع البقط كان يؤدي إلى شن الغارات عليهم! أي أن ذلك كان من بين الأسباب الرئيسيّة التي تؤدي إلى سوء العلاقات بين الجانبين.

ولا يبدو لي ذلك محتملًا لعدة أسباب:

أولاً: لأن البقط عدد قليل من الرقيق – 365 - تدفعه مملكة مقُرّة إلى المسلمين مرة كل سنة، ويبدو هذا الرقم متواضعًا جدًا ولا يرقى إلى إشعال الحرب بين الطرفين، إذا ما قورن بآلاف الرقيق الذين يتحصل عليهم المسلمون في مصر، من: حوض البحر المتوسط، وشرق أوروبا، ووسط آسيا.

ثانياً: كان المسلمون – وفقًا لبنود الاتفاق يدفعون ثمن هذا الرقيق، أي أنهم يقومون بشرائه من النوبة، حتى أن هذه القضية أثارت مسألة فقهيّة اختلف فيها فقهاء مصر، مثل الليث بن سعد مع الإمام مالك بن أنس، فقد ذكر المقريزيّ أن الليث بن سعد قال: «نحن أعرف بأرض النوبة من الإمام مالك بن أنس، إنما صولحوا على ألا تغزوهم، ولا تمنع منهم عدوًّا فما استرقه متملكهم، أو غزا بعضهم بعضًا، فشراؤه جائز، وما استرقه بغاة المسلمين وسرّاقهم، فغير جائز»[2]

ثالثًا: كما ذكر المقريزيّ فإن مملكة مقُرّة عندما لا تلتزم بدفع الرقيق في وقته، لا يقدم المسلمون ما التزموا بتقديمه مقابل الرقيق، أي أن المعاملة بالمثل، فهل يؤدي ذلك إلى الحرب بين الطرفين؟.

لكُل ذلك فإنني أرى أننا نهتمّ بأمر البقط ونركز عليه أكثر مما يجب، وما هو إلا اتفاق يشتري بموجبه المسلمون رقيقًا من مملكة مقُرّة، فإذا لم يقدم المسلمون الثمن لا يقدم المقُرّيون الرقيق.

---

1 المقريزي، **المواعظ والاعتبار** في مسعد، المكتبة السودانية ص 305.

2 نفس المكان السابق.

الاتفاقيات في عصر المماليك

الاتفاق الثامن

قامت دولة المماليك في مصر عام 1250م، وبعد عقدين من قيام دولتهم، واستقرار أوضاعهم في مصر والشام، اتجهوا نحو السودان لأسباب أمنيّة واقتصاديّة. وفي الفترة الواقعة بين عامي 674 و716 هـ(1275-1316م) شن المماليك ست حروب على مملكة مقُرّة، انتهت عام 1317 بتنصيب أول ملك مسلم على عرش المملكة، وقد تعرضنا لتفاصيل ذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب. أرسل المماليك أول حملاتهم نحو مملكة مقُرّة عام 674 ه/1275م انتصرت على الجيش المقُرّيّ ودخلت مدينة دنقلة، فكانت أول حملة إسلاميّة تدخل مدينة دنقلة. ووقع ملك مقُرّة معاهدة مع المماليك تفاصيلها كالآتي:

«تقرر على الملك قطيعة، وهي: في كل سنة فيلة ثلاثة، وزرافات ثلاث، وفهود إناث خمس، وصهب جياد مائة، وأبقار جياد منتخبة مائة. وقرر أن تكون البلاد مشاطرة، نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها، وأن تكون بلاد العلي وبلاد الجبل للسلطان، وهي قدر ربع بلاد النوبة لقربها من أسوان، وأن يحمل القطن والتمر مع الحقوق الجاري بها العادة من القديم. ثم عرض عليهم: الإسلام، أو الجزية، أو القتل، فاختاروا الجزية، وأن يقوم كل منهم بدينار عينًا في كل سنة. وعملت نسخة يمين بهذه الشروط، فحلف عليها مشكد وجماعة منهم، وعملت نسخة، للرعيّة بأنهم يطيعون نائب السلطان ما دام طائعًا، ويقومون بدينار عن كل بالغ.»[1]

---

1 ابن أبي الفضائل، **كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانية ص 262. المقريزي، **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، في مسعد، المكتبة السودانية ص 332.

لم تستقر الأوضاع في مملكة مقُرّة بعد حملة عام 674 ه، وقتل الملك الذي خضع للمماليك، وظل الصراع دائرًا بين الجانبين، فقد خاض الجانبان خمسة حروب، انهت بجملة عام 713 ه التي انتهت التي نصبت عبد الله برشمبو أول ملك مسلم على عرش مملكة مقُرّة، كما فصلنا تلك الأحداث في الفصل الثالث من هذا الكتاب. ولم تتناول المصادر تفاصيل الاتفاقيات التي أعقبت تلك الحروب، واكتفت بأن تقرر على ملك مقُرّة دفع القطيعة يحملها إلى الأبواب السلطانية في كل سنة.[1]

جدول رقم 9 الاتفاقيات بين مملكتي مريس ومقُرّة وبين المسلمين بين القرنين 7 – 13 م

رقم الاتفاق	زمن الاتفاق	ملاحظات
الأول	651 م	اتفاق عبد الله بن سعد
التعديل أو الاتفاق الثاني	قبل عام 684 م	الاتفاق الذي اعترض عليه والى مصر عبد العزيز بن مروان
التعديل أو الاتفاق الثالث	723 – 742 م	في عصر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك
------	749م	غزو ملك مقُرّة كرياكوس مصر، لم تتناول المصادر اتفاق أو تعديل بعد هذه الحرب
التعديل أو الاتفاق الرابع	775 – 785	في عصر الخليفة العباسي المهديّ
التعديل أو الاتفاق الخامس	826 م	في عصر والي مصر عبد الله بن طاهر
التعديل أو الاتفاق السادس	833 – 845 م	في عصر الخليفة العباسيّ المعتصم
التعديل أو الاتفاق السابع	بين 845 -1252	بين عصر المعتصم وقيام دولة المماليك
الاتفاق الثامن	1275	بعد حملة المماليك الأولى على مملكة مقُرّة

1 ابن أبي الفضائل، كتاب النهج السديد، في مسعد المكتبة السودانية ص 270. النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، في مسعد المكتبة السودانية ص 224. المقريزي، **كتاب السلوك**، في مسعد **المكتبة السودانية** ص 334.

الاتفاق التاسع	1287	بعد حملة المماليك الثانية على مملكة مقُرّة
ـ اتفاق البقط المشهور عام 31 هـ، عبارة عن مجموعة اتفاقيات وُقّعت مع مملكتي مريس ومقرة بين عامي 651 و1287 م		

ملاحظات
على نص المقريزي المشهور عن البقط

معاهدة البقط كما رواه المقريزي (نصوص 1-1 و1-2)[1]

يلاحظ على النصوص التي وردت عن البقط تعدّدها، واختلاف محتوياتها، وأن كل تلك النصوص لم ترد في صورتها الكاملة، كما جرت عليه عادة نصوص معاهدات الفتوح في عصرها المبكر، مثل الصلح بين عمرو بن العاص وأهل مصر،[2] والنص الوحيد الذي ورد كاملًا هو هذا النص.

وهناك الكثير من الملاحظات على هذا النص نتناول فيما يلي:

1 -الشكل العام للنص ومحتواه بتفاصيله الكثيرة يختلف عن طبيعة نصوص اتفاقيات المسلمين المبكرة مع المناطق المفتوحة. فإذا نظرنا إلى اتفاق: خالد بن الوليد مع أهل دمشق، أو اتفاق أبو عبيدة مع أهل بعلبك في الشام، أو اتفاق عياض بن غنم مع أسقف الرها وأهلها[3]، لاحظنا أنها قصيرة جدًّا، وأن محتوياتها تنحصر فقط في الأمور المبكرة، المتعلقة بوضع أهل البلد من حيث: الجزية، والأمان لأنفسهم وممتلكاتهم، وحرية الإقامة أو الخروج، ومساعدة المسلمين على أعدائهم.

وجاء طول ثلاثة من تلك النصوص الأربعة (أرقام ب-د) أقل من ثلاثة أسطر. ويعتبر نص اتفاق المسلمين مع أهل مصر (نص رقم أ) أطولها، لأنه عالج أمورًا تتعلق بأهل مصر، والروم، والنوبة. أما الصلح في نص المقريزيّ هذا فقد جاء في سبعة عشر

---

1 ملحق رقم 1 في نهاية هذا الفصل

2 ملحق رقم 2 نص أ في نهاية هذا الفصل

3 ملحق رقم 4 نصوص: ب، ج، د، هـ

سطرًا، تناولت موضوعات لا ينتظر حدوثها إبان السنوات الأولى من الفتح. وهو بهذا لا يشبه نصوص معاهدات المسلمين المبكرة. والنصوص التي تشبه اتفاقيات المسلمين المبكرة هي التي أتت عن طريق رواة أخبار النوبة الثقات، والتي تناولت فقط وقف القتال وتبادل الرقيق بالطعام، كما شرحنا ذلك في القسم الأول من بنود الاتفاقيات في الفصل الرابع.

2 -ويلاحظ على هذا النص (فقرة 1-1) أنه استخدم كلمة البقط، وهي في أساس استخدامها في العصر البيزنطي تدل على معنى الالتزام المتبادل بين الطرفين والمصاحب بعمليات الدفع.[1] ونص الاتفاق الذي أمامنا لا يتضمن البند الذي التزم المسلمون فيه بدفع المقابل للنوبة، وهو البند الذي اتفقت عليه كل النصوص المبكرة المسنودة إلى الروايات الموثوق بها، كما هو واضح في الجدول رقم 2.

وقد وردت كلمة البقط في المصادر العربية – كما أشرنا سابقًا - مرتبطة بالسبي فقط: عند المسعوديّ والمقريزيّ. وقد أشار أبو صالح الأرمني إلى استخدام قريب من هذا حيث ذكر: «يطلب منه (أي ملك النوبة) البقط من الرقيق لأربعة عشر عامًا»[2]

كما أن العرب لم يستخدموا لفظ البقط للدلالة على اتفاق المسلمين والنوبة عام 31هـ/ 652م فقط، بل استخدم أيضا ليدل على اتفاق «البجة والمسلمين». ففي عام 241هـ/855م حينما هزم المسلمون البجة صالحوهم – كما أشار ابن سليم الأسواني- «على أداء الأتاوة والبقط».[3] وإذا راجعنا اتفاقيات البجة والنوبة مع المسلمين وجدناها تحت نعوت مختلفة فأحيانًا «بقط» وأحيانًا «إتاوة» كما ذكر، وأحيانًا «خراج» كما وسمت اتفاقيات البجة، وأحيانًا أخرى «جزية» كما عبر ابن خلدون عن اتفاق النوبة وعبد الله بن سعد.[4]

---

1 Yousef Fadl، p 18.

2 أبو صالح الأرمني، تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني في مسعد ص 113.

3 المسعودي، مروج الذهب، ج 2 ص 21.

4 انظر ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة في مسعد، المكتبة السودانية ص 110 وابن الأثير، الكامل في=

ويلاحظ أن كل النصوص التي وردت تحت اسم البقط تضمنت الرقيق فقط، أي ما التزم النوبة بدفعه ولم تتضمن المقابل من الطعام وغيره الذي التزم المسلمون بدفعه. وهذا يعني أن النصوص التي وردت تحت اسم البقط بما فيها نص المقريزي هذا ترجع إلى وقت متأخر، رفض فيه المسلمون الالتزام بدفع المقابل، وتعللوا بأن اتفاق عبد الله بن سعد عام 31 هـ لم يتضمن أي مقابل. فقد ذكر ابن عبد الحكم:

«وزعم بعض المشائخ أنه لا سنة للنوبة على المسلمين، وأنّهم أول عام بعثوا بالبقط أهدوا لعمرو بن العاص أربعين رأساً فكره أن يقبل منهم، فرد ذلك على عظيم من عظماء القبط يقال له نستقوس، وهو القيم لهم فيها، فباع ذلك واشترى لهم جهازًا. فاحتجوا بذلك أن عمرو بعث إليهم القمح والخيل، وذلك أنهم زُجروا عن القمح والخيل فكشفوا ذلك في الزمان الأول فأصيبوا. هذه قصتهم.»[1]

فكلام ابن عبد الحكم يفهم منه أنه لاحق للنوبة (لا سُنة لهم) وأنهم حاولوا الرجوع بالاستشهاد بما كان عليه الحال في الزمان الأول في عصر عمرو بن العاص، إلا أنهم لم يُفلحوا. وأول ما يلاحظ على هذا النص أنه يتعارض بوضوح مع ما ذكره ابن عبد الحكم نفسه، والبلاذريّ، والطبريّ، وابن الأثير، والنويريّ، وابن الفرات، والمقريزيّ، من الروايات الموثقة، التي قررت أن صلح المسلمين الأول تضمن تبادل السبي بالطعام، وقد ناقشنا ذلك باستفاضة في صدر هذا الفصل ووضحناه في الجدول رقم 6.

ولذلك فإن هذه الرواية توضح فقط كيف أن المسلمين بدأوا يبحثون عن ذرائع يبررون بها عدم التزامهم بتقديم المقابل للرقيق. وقد وضحت النصوص بالتفاصيل ما كان يدفعه المسلمون للمقُرّيين، ولم يرد في التعديلات التي أجريت على الاتفاقيات أو في الاتفاقيات الجديدة ما يوضح نقض ذلك الالتزام، والشيء الوحيد الذي أبدى المسلمون التحفظ عليه هو الخمر التي كان يدفعها المسلمون، ورغم استنكار بعض قادة المسلمين، إلا أنها كانت دائمة الورود فيما كان يقدمه المسلمون من مواد. وذكر

= التاريخ في مسعد، ص 171 وابن خلدون، العبر في مسعد ص 279.

1 ابن عبد الحكم، فتوح مصر في مسعد، ص 9 – 10.

المقريزيّ أن ما تم الاتفاق عليه من تبادل الرقيق بالطعام والثياب وغيرها كان معمولًا به حتى عصر الدولة الفاطميّة 362– 567 هـ/ 972–1171 م

فقد ذكر المقريزيّ: ونظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون، فوجده أكثر من البقط، وأنكر عطية الخمر، وأجرى الحبوب والثياب التي تقدّم ذكرها... ولم يزل الرسم جاريًا بدفع البقط على هذا التقرير، ويدفع إليهم ما أجراه المعتصم إلى أن قدمت الدولة الفاطمية إلى مصر، ذكر ذلك مؤرخ النوبة.»[1]

ويدل كل ذلك أن نص المقريزيّ هذا، والذي لا يتضمن الطعام وغيره مما يقدم مقابل الرقيق، يرجع إلى عصر الفاطميّين وهو الراجح إو إلى زمن بعدهم.

3 -جعلت الفقرة 2-1 اتفاقية البقط في إمارة عمرو بن العاص، بينما اتفقت روايات المصادر الأخرى مثل ابن عبد الحكم، والطبريّ عن ابن أبي حبيب، والبلاذريّ عن أبي البحتريّ، ورواه عنه المسعوديّ[2]، وابن الأثير وياقوت بدون إسناد، أن الاتفاق تم في إمارة عبد الله بن سعد.

4 -تتحدث مقدمة هذه الرواية 2-1 عن توغل جيوش المسلمين في بلاد النوبة حتى دنقلة، وعن حصار المدينة وفتحها، وهي الموضوعات التي لم ترد في بنود المجموعة الأولى من الاتفاقيات، وهي الأقرب إلى الصحة. وإلى جانب ذلك فإن جيوش المسلمين لو توغلت داخل حدود النوبة حتى دنقلة وتم فتحها لتواتر مثل هذا الخبر المهم على ألسنة الرواة، ولما توارى لمدة ثمانية قرون، ليسجله المقريزيّ بدون إسناد.

ويبدو معقولاً جدًّا أن المسلمين لم يصلوا إلى مدينة دنقلة إلا في عصر المماليك، وهو الوقت الذي نقلت فيه كتب التراث العربي ذلك الحدث. أما قبل ذلك فإنّ المسلمين لم تكن لديهم حتى المعلومات الدقيقة عن مدينة دنقلة وبلاد النوبة الداخليّة، وذلك بسبب الحجر الذي فرضه ملوك دنقلة على الأجانب، ومنعهم منطقة

---

1 المقريزي، المواعظ والاعتبار في مسعد ص 306، وملحق رقم 12 فقرة رقم 6 في آخر الفصل الرابع.

2 نفس المكان السابق

الشلال الثاني جنوبًا إلا بإذن الملك، كما ذكر ابن سليم الأسواني.[1] ويبدو معقولًا أن ابن سليم الأسواني (ت 386هـ/ 996م) كان من اوائل المسلمين الذين دخلوا مدينة دنقلة، وسجل معلومات مفصلة عنها وعن منطقة النوبة.

وفي القرن 6هـ/ 12م أي بعد قرنين من عهد ابن سليم أورد أبو مسعود – الذي ذكر أنه زار دنقلة حوالي عام 568هـ/ 1172م- معلومات غريبة عن مدينة دنقلة وملكها، حيث قال:» خرج علينا [يقصد الملك] يومًا وهو عريان... وأمّا دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها أخصاص»[2] ويتناقض هذا الوصف مع ما سجله أبو صالح الأرمني (ت 597هـ/ 1200م) بعد ثلاثة عقود فقط من زيارة أبي مسعود المزعومة عن مدينة دنقلة. فقد ذكر أنها «مدينة عظيمة، بها كنائس كثيرة وآدر كبار وشوارع متسعة، ودار الملك شاهقة البناء بقباب عدة مبنية بالطوب الأحمر تحاكي أبنية العراق»[3].

وإلى جانب كل ذلك فإن المصادر العربية تحدثت عن الحروب بين النوبة والمسلمين ما بين القرنين السابع والرابع عشر الميلاديّين، ولم يذكر أيّ منها الهجوم على دنقلة أو سقوطها، وكان كثير من أولئك المؤرخين يعملون في ديوان الإنشاء، حيث تحفظ وثائق الدولة الرسميّة، وتولى بعضهم نظارته، كما تولوا أرفع الوظائف في دولة المماليك، أمثال ابن عبد الظاهر، وبيبرس الدوار، والنويريّ، وابن فضل الله العمريّ، لم يوردوا فيما دونوه من أخبار مملكتي مريس ومقرة هذا النص.

كيف اختفى هذا النص من أعين كل أولئك المؤلفين ووجده المقريزيّ بعد سبعة قرون من كتابته؟ وأين وجده؟ ينبغي علينا طرح مثل هذه الأسئلة ونحن نتعامل مع هذا النص الذي لا يقف أي بند فيه أمام أبسط قواعد النقد. ورغم كل ذلك ومما يثير الأسى في النفس أننا بنينا تفسير ومسيرة تاريخنا عبر القرون استنادًا على هذا النص.

---

1 ابن سليم، المصدر السابق ص 93.

2 أبو شامة، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** في مسعد ص 180.

3 أبو صالح الأرمني، المصدر السابق ص 139.

5 -جاء في الفقرة رقم 2-1-i: «عهد من الأمير عبد الله بن سعد» ويتعارض هذا مع ما ذكره الرواة المبكرون أمثال ابن أبي حبيب (النصين 2-3 و2-5) والتي جاء فيها: «ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق»، و«ليس بينهم [النوبة] وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق» (جدول رقم1) ونقلت المصادر العربيّة مثل مؤلفات ابن عبد الحكم والبلاذري وياقوت الحموي –هذه الرواية.

6 -كما جاء في الفقرة 2-1-i لقب حاكم النوبة «عظيم النوبة». ولم يستخدم هذا اللقب كثيرًا في المصادر العربيّة، فقد ذكر ابن سليم الأسواني «ولهذه الناحية والٍ من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل»، بينما استخدم ابن عبد الحكم هذا اللقب لأحد زعماء القبط «عظيم من عظماء القبط»[1] بأسوان.

وقد أشار John the Deacon الذي كتب عام 700م (81هـ) تقريبًا، أن الملك النوبي Cyracus تلقب بالملك العظيم، واللقب المستخدم في المصادر العربيّة لحكام النوبة هو «ملك» ويستخدم لملك مريس، ولملك مقُرّة والنوبة بعد اتحاد المملكتين[2]. كما استخدم أيضًا لقب كابيل أو كابل، فقد أورد ياقوت: «وكتاباته إلى عماله وغيرهم من كابيل ملك مقُرَّى ونوبة»[3].

فاللقب «عظيم» المستخدم في النص يمكن أن يطلق على الملوك أو على كبار الزعماء. ولذلك ليس من السهل تأكيد من هو المقصود بلقب «عظيم» في النص. هل قصد به ملك مريس، أم ملك مقُرّة ومريس؟ ويبدو محتملًا أنه قصد به ملك مقُرّة ومريس، أي بعد اتحاد المملكتين، لأن باقي الفقرة من نفس النص حددت أرض عظيم النوبة ما بين أسوان وعلوة. فالنص يرجع إلى عصر الدولة الفاطميّة أو بعدها.

7 - الفقرات رقم 2-1-ii و2-1-iv و2-1- v و 2-1-viii تتحدث عن أوضاع وعلاقات لا تعود إلى عصر عبد الله بن سعد، بل تعود إلى حقب لاحقة. فالفقرة رقم (2) تتحدث عن دخول من جاور «أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل

1 ابن سليم الأسواني، المصدر السابق ص 93 وابن عبد الحكم، المصدر السابق ص 10.

2 فانتيني.

3 ياقوت الحموي، معجم البلدان في مسعد ص 166.

الذمة» إلى جانب المسلمين في هذا الحلف. فمن هم المسلمون وأهل الذمة المجاورون لمصر والنوبة في عام 31 هـ ودخلوا في صلحهم؟ فالمجاورون لمصر والنوبة في المنطقة الشرقيّة هم البجة الذين لم تبدأ علاقاتهم بالمسلمين في ذلك الوقت. فقد ذكر ابن عبد الحكم (مسعد ص 10) موقف عبد الله بن سعد منهم فقال:

«فسأل عنهم فأخبر بمكانهم، فهان عليه أمرهم، فنفذ وتركهم، فلم يكن لهم عقد ولا صلح، وأول من صالحهم عبد الله بن الحبحاب.» وصلح ابن الحبحاب هذا حدث في أول القرن الثاني الهجريّ، أي بعد نحو ثمانين سنة من عصر عبد الله بن سعد. وعلى ذلك فليس في البجة مسلمون ولا ذميّون عام 31 هـ لكي ينضموا إلى صلح عبد الله بن سعد.

وإذا ذهبنا إلى الجانب الآخر من جيران مصر والنوبة في الجهة الغربيّة، وجدنا سكان الواحات والصحراء الواقعة غربي مملكتي نوباديا ومقرة. وقد ذكرت المصادر أن جيوش المسلمين إبان عمليات الفتح الأولى اتجهت غربًا على ساحل البحر المتوسط نحو إقليمي برقة وطرابلس، فأرسل عمرو بن العاص عقبة بن نافع إلى مناطق الصحراء جنوب برقة، حتى وصل منطقة فزان الحاليّة في ليبيا. ولم يستقر الإسلام والمسلمون في ذلك الوقت في الصحارى القريبة من مملكتي نوباديا ومقرة. إذًا لا يوجد مسلمون وذميّون مجاورون للنوبة في عام 31 هـ.

ويظل السؤال قائمًا: من هم المسلمون والذميّون المجاورون للنوبة، والذين دخلوا في صلح عبد الله بن سعد؟ والإجابة المنطقيّة أن المقصود بهؤلاء المسلمين والذميّين إما البجة سكان المنطقة الشرقيّة للنوبة، أو سكان الصحراء غرب النوبة، أو هما معًا، ولكن في وقت لاحق لاتفاق ابن سعد عام 31 هـ، على الأقل بعد نهاية القرن الأول الهجريّ، حيث دخل المسلمون في علاقات مع البجة. وربما بعد ذلك عندما توثقت الصلات بين المسلمين والبجة، بعد دخول المسلمين مناطق التعدين منذ منتصف القرن الثالث الهجريّ. وفي نفس الوقت استقر المسلمون في مناطق فزان والواحات المصريّة، وواصلت المنطقة نشاطها التجاريّ السابق. وعلى ذلك فإنّ ما ورد في هذه الفقرة يعود إلى اتفاق تم بين المسلمين ومملكة مقُرّة بعد فترة طويلة، ربما بلغت

قرنين أو ثلاثة قرون بعد عصر عبد الله بن سعد؟

والفقرة رقم ٧أ ألزمت النوبة بتوفير السلامة والأمن على من دخل بلاد النوبة من «مسلم أو معاهد»، فمن هو المعاهد للمسلمين الذي ينبغي على النوبة المحافظة على سلامته في حالة دخوله بلادهم؟ فقد رأينا أن جيران مصر والنوبة من البجة والبربر لم يصلهم الإسلام بعد، ولم يدخلوا تحت مصطلح ذميّين، وكذلك ليسوا بمعاهدين، لأنه لم يتم اتصال المسلمين بهم في ذلك الوقت. فمن هو المقصود بالمعاهد؟ لا بد أن ذلك مقصود به من دخل في عهد المسلمين من البجة أو بربر الصحراء في أوقات لاحقة، وليس عام 31 هـ.

وطلبت الفقرة رقم ٧ من النوبة رد من دخل بلادهم «مسلم محارب للمسلمين»، فأي مسلم محارب للمسلمين في جنوب مصر عام 31 هـ؟ لم يكن هناك مسلم محارب للمسلمين في المناطق المجاورة لحدود مصر الجنوبيّة مع السودان، لأن الإسلام لم يكن قد انتشر بعد في ذلك الوقت – عام 31 هـ- في تلك المناطق.

الاحتمال الوحيد إرجاع الإشارة إلى «المسلم المحارب للمسلمين» التي وردت في الاتفاق إلى سكان المناطق المجاورة لحدود مصر الجنوبيّة في فترة لاحقة لعام 31 هـ. ربما عادت إلى الوقت الذي تفرقت فيه القبائل العربيّة في مصر، وبخاصة في صعيد مصر، بعد أن أوقف الخليفة المعتصم صرف أعطياتهم من الديوان في بداية القرن الثالث الهجريّ (9 م). فقد أوردت المصادر كثيرًا من الثورات التي قام بها الأقباط في مصر على الحكومة احتجاجًا على تقديرات الضرائب، وكان بعض العرب الذين استقروا مزارعين يشاركون في تلك الثروات.

وقد ترجع الإشارة إلى العرب الذين استقروا في مناطق التعدين، في المناطق الشماليّة لبلاد البجة منذ منتصف القرن الثالث الهجريّ (9 م). وقد تعود إلى العناصر العربية المعارضة لحكام مصر غير العرب، والذين بدأ حكمهم بالطولونيّين منذ منتصف القرن الثالث الهجريّ واستمر حتى عصر المماليك، باستثناء فترة حكم الأسرة الفاطميّة. وعلى كل حال فهذه الفقرة في النص يستحيل إرجاعها إلى

صلح عبد الله بن سعد عام 31 هـ.

ويوضح المسلمون للنوبة في الفقرة رقم viii أن ليس عليهم «دفع عدو عرض لكم»، فليس من المتوقع أن يطلب النوبة عام 31 هـ من المسلمين المساعدة على أعدائهم. يبدو واضحًا أن كل هذه الفقرات (iiوiv وv وviii) لا تنطبق على العلاقات بين النوبة والمسلمين ولمّا يمض على اتصالهم عقد واحد. مثل هذه العلاقات يمكن أن تصدق على الفترة اللاحقة للقرن الثالث الهجري (9م) عند استقرار المسلمين بجوار النوبة.

8- والفقرة رقم vi-1-2 تتحدث عن المسجد الذي بناه المسلمون بفناء المدينة، ولم تحدد الفقرة اسم المدينة، لكن جرت عادة المؤرخين بتعريفها بمدينة دنقلة. ويلاحظ أنه لا يوجد ذكر لأي مدينة في كل بنود هذه الاتفاقية، كما لم يرد أيضًا ذكر لأيّ مدينة في كل الاتفاقيات التي تعرضنا لها في المجموعتين الأولى والثانية في الفصل الرابع ما عدا الرواية – غير المسنودة - التي انفرد بذكرها المقريزيّ والتي تضمنت حصار وضرب «دمقلة». وهو على ما يبدو الدليل الوحيد الذي استند عليه المؤرخون في تعريفهم للمدينة التي وردت غير معرفة في نص الاتفاق.

وإذا افترضنا أن هذه الفقرة رقم vi لا ترجع إلى عام 31هـ/652م، فإنه من الصعب جدًا تعريف هذه المدينة بدنقلة، لأن جيش عبد الله بن سعد لم يصل إلى دنقلة. وإلى جانب ذلك فإنه لم يكن هناك مسجد في دنقلة حتى عام 365هـ/975م عندما زارها ابن سليم الأسوانيّ، وصلى عيد الأضحى مع بعض المسلمين «في ظاهر المدينة» كما عبر المقريزيّ.[1] كما ذكر أيضًا أن أبناء الكنز عندما تولوا عرش مملكة مقُرّة عام 723 هـ/ 1323 م بنوا مسجدًا يأوي إليه الغرباء، مما يوضح أنه حتى ذلك الوقت لم يكن بمدينة دنقلة مسجد.

فالمسجد المذكور في النص ربما يعود إلى اتفاق أبرم بين مملكة مقُرّة والشلال الثاني، بين الإخشيديّين أو الأيوبيّين، لأن كليهما توغل في أراضي مملكة مقُرّة حتى

---

1 المقريزي، كتاب المقفى في مسعد ص 371.

إبريم، فربما أسسوا مسجدًا في إبريم، خاصة وأن المسلمين كانوا قد استقروا منذ وقت مبكر في هذه المنطقة الواقعة شمال الثاني.

ثم إن كلمة دنقلة لم تستخدم في المصادر العربية للدلالة على المدينة فقط، بل ورد استخدامها خارج هذا المعنى. قال ابن عبد الحكم إن والد يزيد بن أبي حبيب «من سبي دنقلة».[1] فليس من الضروريّ أن تكون دنقلة هنا مقصودًا بها المدينة، ربما قصد من سبي النوبة. ولو اعتبرنا أن تعبير ابن عبد الحكم السابق تعبير مجازيّ، فإننا نقف عند نص آخر يتعلق ببيت شعر قيل في الحرب التي حدثت بين النوبة والإخشيديّين 346هـ/ 956م. والتي وصلت فيها جيوش الإخشيديّين إلى مدينة أبريم، حيث جاء النص:

ولما غزا كافور دنقلةً غدا　　بجيش كطول الأرض في مثله عرض[2]

«فدنقلة» هنا بلا شك لم يقصد بها مدينة دنقلة، لأن جيش الإخشيديّين لم يتعد مدينة إبريم. وبنفس هذا المعنى يمكن فهم بيت الشعر الذي ورد مقترنًا بحرب عبد الله بن سعد ورواه ابن عبد الحكم وهو:

لم تر عيني مثل يوم دِمقلة　　والخيل تعدو والرياح مُثقلة

فدنقلة هنا ليس من الضروري أنه تكون مقصودة بها المدينة، بل هي على القياس السابق قصد بها «النوبة».

ويؤيد هذا الرأي عدم تعرض المصادر العربيّة لأي غزو أو حصار أو سقوط مدينة – ما عدا نص المقريزيّ- قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وأول حملة أوردت المصادر أخبارها، وتوغلت في أرض النوبة حتى مدين إبريم هي حملة كافور الإخشيديّ عام 345هـ/ 956 م، والثانية في عهد الأيوبيّين 568هـ/ 1172 م، ووصلت أيضًا إلى إبريم، حيث مكث جنود المسلمين عامين في المدينة. وكانت مدينة

1 ابن عبد الحكم، فتوح مصر في مسعد، المكتبة السودانية ص 8.

2 النويري، المصدر السابق ص 223.

إبريم في ذلك الوقت مدينة كبيرة ومحصنة[1].

ويلاحظ عدم إشارة المصادر العربية إلى أي اتفاق بين كافور أو الأيوبيّين وبين النوبة في الحربين السابقتين، وأغلب الظن أن نص المقريزيّ هذا تضمن بعض شروط النوبة مع كافور والأيوبيّين.

9 - في الفقرة رقم ix ورد لقب «إمام المسلمين»، ولقب الحكام السُّنيّين المتعارف عليه هو «الخليفة أو أمير المؤمنين» وليس لقب إمام المتعارف عليه لدى الشيعة. وربما كانت هذه الفقرة جزءًا من اتفاق تم بين الفاطميّين والنوبة، خاصة وأن ابن سليم الأسوانّي قد أشار إلى أن الصلح القديم مع النوبة كان معمولًا به إلى أن قدمت الدولة الفاطميّة إلى مصر[2]. غير أنّه لم يوضح ماذا حدث له بعد مجيء الفاطميّين.

10 - وأُلبس شكندة تاج الملك، وأقعد على سرير المملكة، بعدما حلف والتزم أن يحمل جميع ما لداود، ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم، وهو أربعمائة رأس من الرقيق، في كل سنة وزرافة، من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة وستون رأسًا، ولنائبه بمصر أربعون رأسًا، على أن يطلق لهم إذا وصلوا بالبقط تامًا من القمح ألف أردب لمتملكهم، وثلثمائة أردب لرسله.

11 -ومن بين المآخذ الواضحة على معاهدة البقط هذه أنها لا تتضمن البديل الذي يدفعه المسلمون مقابل الطعام، والذي اتفق عليه المؤلفون بما فيهم المقريزيّ نفسه. (انظر جدول رقم 5) فوجود نص متكامل بهذه الصورة ولا يحتوي على ذكر ما يدفعه المسلمون مقابل الرقيق يعني أن هذا النص لا يرجع إلى عصر عبد الله بن سعد، لأنه يختلف عما تواترت عليه المصادر.

12 - ومن جانب آخر فقد أورد المقريزيّ ما يوضح أن المسلمين كانوا يدفعون الطعام مقابل الرقيق حتى بداية القرن الثامن الهجريّ (14م)، أي بعد أقل من قرن من عصر المقريزيّ. فقد وضح المقريزي أن المماليك فرضوا على ملك مقُرّة شكندة

1 نفس المكان السابق.

2 المقريزي، الخطط ص 306.

بعد حملة عام 704 هـ/ 1304 م كما جاء في تعبيره: «البقط القديم، وهو أربعمائة رأس من الرقيق، في كل سنة، وزرافة، من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة وستون رأسًا، ولنائبه بمصر أربعون رأسًا، على أن يطلق لهم إذا وصلوا بالبقط تامًّا من القمح ألف أردب لمتملكهم، وثلثمائة أردب لرسله.» فالبقط القديم هنا تضمن الطعام مقابل الرقيق.

وهكذا فإن نص البقط المشهور هذا والذي جاء بين أربعة وأربعين نصًّا، تناولت اتفاقيات المسلمين مع مملكتي مريس ومقرة (انظر جدول رقم 10) من غير الممكن – وفقًا للعديد من الأدلة – إرجاعه إلى عصر عبد الله بن سعد، ما عدا الفقرة رقم ii (ملحق رقم 2 في نهاية هذا الفصل) والتي تقرأ: «أنكم معشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد (ﷺ)، على أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربًا ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم.»

أما باقي نصوص هذه المعاهدة – كما اصطلح أن يطلق عليها - فيمكن إرجاع نصوصها إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والسابع الهجريّين (9 – 13 م). وهذا يؤيد القول بأنّ هذا الاتفاق المعروف بمعاهدة البقط هو عبارة عن مجموعة اتفاقيات تمت بين المسلمين والنوبة،[1] ثم جمعت هذا الاتفاقيات في الصورة التي دونها المقريزي.

جدول رقم 10: ما تضمنته نصوص الاتفاقيات حتى 1316 م

عدد النصوص	ما يتضمنه النص
24	وقف القتال مقابل الطعام
4	تناول الاتفاق وقف القتال فقط
4	تناول الاتفاق ما يُدفع تحت اسم البقط
4	تناول الاتفاق ما يُدفع تحت اسم السبي

1 Yousef Fadl, Ibid.24,28.

4	الجزية (في عصر المماليك)
4	أخرى[1]
44	المجموع الكلّي لنصوص الاتفاقيات

وأخيرًا من هو عمرو بن شرحبيل الذي كتب صلح عبد الله بن سعد مع النوبة، بناءً على رواية المقريزيّ في نصه المثير للجدل عن البقط؟ أوردت المصادر ثلاثة أشخاص باسم عمرو بن شرحبيل، اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والثالث تابعي. أولهما هو أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل الهمدانيّ الكوفيّ توفي عام 63 هـ/682م، وكان محدثًا مشهورًا، روى عنه البخاري وغيره، وكان من أفضل أصحاب عبد الله بن مسعود. ترجم له: ابن سعد، والبخاريّ، وابن عبد البر، والعينيّ.[2] وقد جاءت ترجمته طويلة عند ابن سعد وغيره من المصدر، ولكن لم يذكر أي مصدر دخوله مصر.

والصحابي الآخر هو عمر بن شرحبيل، قال عنه ابن عبد البر «له صحبة، لا أقف على نسبه، وليس هو عمرو بن شرحبيل الهمدانيّ أبو ميسرة صاحب ابن مسعود.» والشخص الثالث: عمرو بن شرحبيل، ترجم له النوويّ، وابن حجر[3]، وذكرا أنه من التابعين. وقد أورد ابن سعد ترجمة لعمرو بن شرحبيل بن سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاريّ الخزرجيّ ولم يذكر أنّه تابعيّ، ولكن من الواضح أنه غير الصحابة أعلاهم. ولم يرد أيضًا أنه دخل مصر.

وإذا استبعدنا عمرو بن شرحبيل التابعي، نقف أمام شخصين كلاهما صحابيّ،

1 نصوص تتناول تنظيم العلاقات وإنكار الخمر ومنع إرسال ما يدفعه المسلمون ونص اليمين التي حلفها الملك شكندة وقومه وما تضمن نص اليمين من شروط. يجد هذا النص ملحق رقم 14 في نهاية الفصل الرابع.

2 ابن سعد، **الطبقات** ج 6 ص 106 والبخاري، **التاريخ الكبير** ج 6 ص 442 وابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ج 1 ص 140 و366 والعيني ج5 ص 358. جميع هذه المصادر من موقع الوراق www.warraq.com

3 النووي، **تهذيب الأسماء** ج 3 ص 164 وابن حجر، **الاصابة في معرفة الصحابة** ج 3 ص 244.

أحدهما محدث مشهور وردت ترجمته في عدد من المصادر ولكنها لم تشر إلى مشاركته في فتح مصر. وأرى أن الجهاد في سبيل الله حدث يستحق التدوين، وقد أطنبت المصادر في تسجيله، فلماذا لم تذكر المصادر لعمرو بن شرحبيل المحدث المشهور دوره في الجهاد وفتح مصر، إذا كان هو الذي كتب صلح عبد الله بن سعد عام 31هـ؟ أعتقد أن كتاب التراجم لا يهملون مثل هذا الحدث، ولذلك أعتقد أن عمرو بن شرحبيل المحدث المشهور ليس هو الشخص الذي ورد اسمه في صلح عبد الله بن سعد.

والصحابي الآخر عمرو بن شرحبيل لم يترجم له غير ابن عبد البر، وذكر أنه لا يعرف نسبه، مما يوضح أنه – لو صح أنه غير المحدث المشهور – لم يكن شخصًا مشهورًا بحيث تتواتر سيرته. ولا أعتقد أن شخصًا يكون بجوار قائد الجيش وبمثابة كاتبه يكون شخصًا مغمورًا لا يعرف الرواة نسبه، ولا تورد المصادر اسمه ودوره في فتح مصر. فمن هو إذًا عمرو بن شرحبيل الذي انفرد المقريزيّ بدون إسناد بذكر اسمه في ذلك الصلح المشكوك في إسناده إلى عبد الله بن سعد؟

الـملاحق

ملحق رقم 1
نماذج من نصوص معاهدات المسلمين

أ. معاهدة عمرو بن العاص مع أهل مصر

الطبري، تاريخ الرسل والملوك (مسعد ص 35)

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم، وملّتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبهم، وبرّهم، وبحرهم؛ لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص، ولا يساكنهم النّوب. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصّلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمّتنا ممّن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الرّوم والنّوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذّهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثًا، في كلّ ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّته، وذمّة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا، على ألاّ يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر.»

ب. معاهدة خالد بن الوليد مع أهل دمشق

البلاذريّ، **فتوح البلدان** (مسعد ص 128)

« بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها: أعطاهم أمانًا على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وسور مدينتهم، لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم. لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية.»

ج. معاهدة أبو عبيدة لأهل بعلبك

البلاذريّ، **فتوح البلدان** (مسعد ص 136)

« بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك: رومها، وفرسها، وعربها، على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، ودورهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلًا، ولا ينزلوا قرية عامرة. فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا. ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله، وكفى بالله شهيدا.»

د. معاهدة عياض بن غنم لأسقف الرها

البلاذريّ، **فتوح البلدان** (مسعد ص 178)

بسم الله الرحمن الرحيم.

«هذا كتاب من عياض بن غنم لأسقف الرها. إنكم إن فتحتم لي باب المدينة، على أن تؤدوا إليّ عن كل رجل دينارًا ومدّي قمح فأنتم آمنون على أنفسكم، وأموالكم، ومن تبعكم. وعليكم إرشاد الضال، وإصلاح الجسور، والطرق، ونصيحة المسلمين. شهد الله، وكفى بالله شهيدا»

هـ. معاهدة عياض بن غنم لأهل الرها

البلاذريّ، **فتوح البلدان** (مسعد ص 179)

«بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها. إني أمنتهم على دمائهم، وأموالهم، وذراريهم، ونسائهم، ومدينتهم، وطواحينهم، إذا أدوا الحق الذي عليهم، ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا. شهد الله وملائكته والمسلمون.»

ملحق رقم 2

نص البقط عند المقريزيّ ت 845 هـ/ 1445[1]

1-1 **البقط**: ما يقبض من سبي النوبة في كل عام، ويحمل إلى مصر، ضريبة عليهم، فإن كانت هذه الكلمة عربيّة، فهي إمّا من قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب، أي نبذ من مرعى، فيكون معناه على هذا، نبذة من المال. أو يكون من قولهم، إن في بني تميم بقطاً من ربيعة، أي فرقة أو قطعة، فيكون معناه على هذا، فرقة من المال، أو قطعة منه، ومنه بقط الأرض، فرقة منها، وبقط الشيء: فرقه.

والبقط: أن تعطي الحبة على الثلث أو الربع، والبقط أيضًا: ما سقط من التمر إذا قطع، فأخطأ المخرف، فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة، وكان يؤخذ منهم في قرية يقال لها: القصر، مسافتها من أسوان خمسة أميال فيما بين بلد بلاق وبلد النوبة، وكان القصر فرضة لقوص.

1-2 إن أول ما تقرر البقط على النوبة في إمارة عمرو بن العاص، لما بعث عبد الله بن أبي السرح وهو على إمارة مصر سنة 31هـ، وحصرهم بمدينة دمقلة، ورماهم بالمنجنيق، وخرب كنيستهم، فطلب ملكهم الصلح، ثم قرر الصلح على ثلاثمائة وستين رأسًا في كل سنة، ووعده عبد الله بحبوب يهديها إليه لما شكا له قلة الطعام في بلده، وكتب له عبد الله كتابًا هذا نصه[2]:

1. عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير وعلى الصغير من النوبة، من حد أرض أسوان

1 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. في مسعد، المكتبة السودانية ص 300 – 304 و308.

2 جعلنا بنود المعاهدة تحت أرقام لسهولة التعرف عليها، فهذه الأرقام لا توجد في أصل الوثيقة.

إلى حد أرض علوة.

2. أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد جعل لهم أمانًا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة.

3. أنكم معشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد (ﷺ) على أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربًا ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم.

4. على أن تدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين فيها، وندخل بلادكم مجتازين غير مقيمين فيها، وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو طرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج منكم.

5. وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، وعليكم رد من لجأ إليكم من مسلم محارب للمسلمين، وأن تخرجوه إلى أرض الإسلام ولا تستميلوا عليه ولا تمنعوا منه.

6. وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليًا، ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن ينصرف عنه، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته.

7. وعليكم فى كل سنة ثلاثمائة وستين رأسًا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان.

8. وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان.

9. فإن انتم آويتم عبدًا لمسلم، أو قتلتم مسلمًا، أو معاهدًا، أو عرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئًا من الستمائة رأس والستين رأسًا، فقد برأت منكم هذه الهدنةُ والأمان، وعدنا نحن وأنتم

على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

10. وعلينا بذلك عهد الله وميثاقه، وذمّة رسوله محمد (ﷺ)، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمّة المسيح، وذمّة الحواريّين، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم، والله شاهد بيننا وبينكم على ذلك.

كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان عام 31هـ

الفصل السادس

علاقات
ممالك البجة بالمسلمين في مصر

هل شارك البجة في حروب المسلمين والبيزنطيّين في مصر؟

الحروب المبكرة بين البجة والمسلمين

- اتفاقية ابن الحبحاب
- حروب حكم النابغي
- حروب ابن الجهم

دخول القبائل العربيّة أرض المعدن ببلاد البجة

- تكامل القبائل العربية بأرض المعدن
- العمريّ في بلاد البجة
- حروب القمي

تحالف ربيعة مع قبيلة الحداربة

هل شارك البجة في الحروب
بين المسلمين والبيزنطيّين في مصر؟

أقدم ذكر للعلاقات بين البجة والمسلمين في المؤلفات العربيّة ورد عند الواقديّ (ت207 هـ/ 822 م) الذي أشار إلى استنجاد البيزنطيّين بملك النوبة وملك البجة، عندما حاصر المسلمون مدينة البهنسا في صعيد مصر، وورد في نسخة كتاب الواقديّ الذي نقل عنه مسعد: أن البجة والنوبة لم يتمكنا من إرسال نجدة للبيزنطيّين لحرب وقعت بينهما[1]. وفي طبعة أخرى من كتاب الواقديّ – غير التي نقل عنها مسعد – ذكرت أيضًا أن ملكيَ النوبة ومقرة اعتذرا لحرب جرت بينهما؛[2] ولكن في مكان آخر ذكر أن ملكي البجة والنوبة لبيا دعوة البيزنطيّين وأرسلا الجيوش لمصر[3].

ووضح الواقدي أن ملك البجة مكسوج أتى ومعه 1300 فيل، عليها قباب الجلد بصفائح الفولاذ، في كل قبة عشرة من السودان، أي عليها 13000 مقاتل، ووصفهم بأنّهم: «طوال القامة، عراة الأجسام، على أكتافهم وأوساطهم جلود النمور، وغيرها من: الدرق، والحراب، والكرابيج، والقسي، والمقاليع، والأعمدة الحديديّة، والطبول والقرون». وقدر الواقديّ أن عدد الجند الذين تجمعوا لنجدة البيزنطيّين من النوبة، والبربر، والبجاة، والفلاحين، وغيرهم بلغ 250000.

ولم أجد في المصادر العربيّة ما يؤيد هذه الرواية، ولكن بوركهارت - ونقل عنه

1 الواقدي، كتاب فتوح مصر والاسكندرية في مسعد ص 2-3.

2 الواقدي، فتوح الشام، بيروت: دار الجيل ج 2 ص 60.

3 المصدر السابق، ج 2 ص 227 – 228 وص 243.

بدج - أشار إلى هذا الحدث، وذكر أنّه وجد في تاريخ مدينة البهنسا[1] (Oxernchus) وصول جيش كبير من البجة والنوباديّين بقيادة مكسوج ملك البجة، وغالك ملك النوباديين، لنجدة المسيحيّين الذين حاصرهم المسلمون في مدينة البهنسا، وبلغ عددهم 50000 جندي ومعهم 1300 فيل. ووصف الجنود على الأفيال وسلاحهم بنفس وصف الواقديّ، وأضاف أن الجنود على الأفيال سود البشرة يدعون القواد، أتوا من وراء سواكن. وذكر بدج أنّهم يعرفون في الوقت الحاضر – أول القرن العشرين - باسم «Anaks» وأضاف بوركهارت أن وصول جيش البجة تؤيده سلسلة من الأدلة الموثوق بها.[2]

ورغم أن روايات الواقديّ عن الفتوحات لا تجد القبول عند أغلب الباحثين، لغلبة طابع الملاحم والأساطير عليها، إلا أنّ ما ذكره بوركهارت من وجود هذه الرواية في تاريخ البهنسا، وقوله بوجود أدلة أخرى موثوق بها، يعزز ما رواه الواقديّ. ومن ناحية أخرى فإنّ أوضاع قبائل البجة ونشاطهم التجاريّ في البحر الأحمر والصحراء الشرقيّة، ونشاطهم ووجود ممالك لهم على النيل شمال وجنوب منطقة أسوان قبل الإسلام، كل ذلك يؤيد وجود مملكة للبجة، ولمّا كانت المسيحيّة منتشرة بينهم فليس هناك ما يمنع ذهابهم لنجدة المسيحيّين في مصر.

---

1 هي إحدى المدن المشهورة في تراث مصر الديني والسياسي قبل الاسلام، وتقع في صعيد مصر.

2 John Lewis Burckhardt *Travels in Nubia,* London: Draft Publishers Limited 1987, f.n. 63 p 528; E. A. Wallis Budge, *The Egyptian Sudan: its History and Monuments.* London: Kegan Paul, Trench Trubner &Co. Vol. 2 184.

الحروب المبكرة بين البجة والمسلمين

بدأ أول اتصال بين البجة والمسلمين في مصر منذ عصر عبد الله بن سعد، فقد ذكر ابن حوقل: «فإن عبد الله بن أبي سرح لما فتح مدينة أسوان، وكانت مدينة قديمة أزليّة، وكان عبر إليها من الحجاز، قهر جميع من كان بالصعيد، وبها من فراعنة البجة وغيرهم»[1]، فربما كان المقصود بفراعنة البجة هنا البليميين الذين رأينا أنه كان لهم وجود في صعيد مصر.

وربما المقصود بالبجة هنا هم المِجا، سكان المناطق الواقعة شرقي أسوان، لأن ابن عبد الحكم ذكر عند حديثه عن حملة عبد الله بن أبي سرح على مملكة نوباديا: «فتجمع له في انصرافه على شاطئ النيل البجة، فسأل عنهم فأخبر بمكانهم فهان عليه أمرهم فنفذ وتركهم، ولم يكن لهم عقد ولا صلح، وأول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب.»[2]

ويفهم من ذلك أنه لم يحدث اشتباك بين ابن سرح والبجة، وأغلب الظن أن ذلك لم يحدث ليس لأن أمرهم هان على ابن أبي سرح، بل لأن المسلمين لم تتوافر لديهم المعلومات الكافية عن البجة، مثل ما توافرت عن مملكة مريس المعروفة بمملكة نوباديا. وربما لم يحدث اللقاء المشار إليه بين البجة وابن أبي سرح، بل كان ذلك من إضافات الرواة الذين حاولوا تبرير عدم تعرض المسلمين للبجة في تلك الفترة المبكرة.

---

1 ابن حوقل، صورة الأرض ص 55.

2 ابن عبد الحكم، فتوح مصر في مسعد، المكتبة السودانية ص 10.

اتفاقية ابن الحبحاب

ولم يرد ذكر للبجة منذ حملة ابن أبي سرح وحتى بداية القرن الثاني الهجريّ عندما ذكر ابن عبد الحكم أن «أول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب.» وأضاف ابن عبد الحكم: «ويزعم بعض المشائخ أنه قرأ في كتاب ابن الحبحاب فإذا فيه: ثلثمائة بكر كل عام حتى ينزلوا الريف تجارًا مجتازين غير مقيمين، على أن لا يقتلوا مسلمًا ولا ذميًّا، فإن قتلوه فلا عهد لهم، ولا يؤوا عبيد المسلمين، وأن يردوا أباقهم إذا وقعوا، وقد عهدت هذا في أيامهم يُؤخذون به، ولكل شاة أخذها بُجاوي فعليه أربعة دنانير، وللبقرة عشرة. وكان وكيلهم مقيمًا بالريف رهينة بين المسلمين.»[1]

وقد كان ابن الحبحاب واليًا على خراج مصر منذ عام 96 هـ/ 714م كما يفهم من رواية الكندي[2]، ثم ذهب بعد ذلك واليًا على إفريقيّة عام 114 هـ/ 732م، كما ورد عند ابن خلدون. وقد ذكر ابن الفرات (تاريخ الدول والملوك في مسعد ص 259) أن المسلمين غزوا النوبة في عصر الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك (10-125هـ / 723 – 742 م، ولم تذكر المصادر أيضًا أسباب أو تفاصيل تلك الغزوة. لو تمّ غزو البجة في نفس الوقت تكون الغزوة قد حدثت ما بين عامي 105 و114هـ أو يكون قد حدثت قبل ذلك بقليل، إن لم تتم الغزوتان في وقت واحد.

ولم يوضح ابن عبد الحكم أو المصادر الأخرى الأحداث التي أدت إلى هذا الصلح. ويبدو أنه حدثت مواجهة بين البجة والمسلمين، قد تكون انتهت بحرب أو بدون حرب، ووقع الطرفان فيها هذا الصلح. ويلاحظ أن المصادر العربيّة لا تزودنا بالمعلومات التي تمكننا من التعرف على علاقات البجة بالمسلمين في القرون الهجريّة المبكرة، بعكس ما ورد عن مملكة مقُرّة. يحدث هذا بالرغم من أن أغلب المؤلفين الذين كتبوا عن المنطقة عاشوا في مصر أو زاروها، وقد عاصر بعضهم تلك الأحداث، أمثال: ابن عبد الحكم، والمسعوديّ، وابن حوقل، وابن سُليم الأسوانيّ.

فابن سُليم الأسواني لم يزد عما كتبه ابن عبد الحكم عن صلح بن الحبحاب مع

---

1 نفس المكان السابق.

2 الكندي، **الولاة والقضاة**، القاهرة، دار الكتاب الاسلامي ص 66 – 79.

البجة. ويبدو من شروط الصلح أن العلاقات كانت متطورة بين البجة والمسلمين، فبعض البجة كان مقيمًا في إقليم طيبة كما ذكرنا أعلاه، وكانوا يجاورون المسلمين على طول حدود منطقة الصحراء الشرقيّة الواقعة جنوب الأقصر. وكان بين الجانبين تداخل وعلاقات مستمرة، كما يفهم من نصوص الصلح، مثل التداخل للأغراض التجاريّة، وقد رأينا أن أسلاف البجة كان لهم نشاط واضح في تجارة البحر الأحمر، منذ الحكم البطلميّ في مصر. وكان بعض طريق الحج عبر البحر الأحمر يمر بأراضيهم. كل ذلك يشير إلى ضرورة وجود علاقات مبكرة بين الجانبين، تفوق العلاقات بين المسلمين ومملكة مريس أو مملكة مقُرّة.

ورغم كل ذلك لا نملك إلا نصّ ابن الحبحاب المختصر عن العلاقة بالبجة والمسلمين خلال القرن الهجريّ الأول. ويفهم من النص أن البجة كانوا دائمي الهجوم على المسلمين، حتى أخذ المسلمون رهينة منهم لضمان حسن العلاقات. وربما كان البجة يقومون ببعض الغارات على قوافل التجارة والحج في الصحراء الشرقيّة، أو يغيرون على مدن الصعيد على النيل كما يتضح فيما يلي، ولم تقتصر غارات البجة على مدن الصعيد فقط بل امتدت حتى عاصمة الدولة نفسها. فقد أشار ابن سُليم الأسوانيّ إلى سرعة إبلهم وأنّها تسبق الخيل، وذكر أن أحد البجة التزم أن يصل المقطم من ديارهم في الصحراء على جمله في زمن قياسيّ، وتمكن من فعل ذلك، وأضاف ابن سُليم:

> «وهذا هو الذي أوجب أن يكون في الفج [الكلمة هكذا في الأصل] طليعة يوم العيد. وكان الطولونيّة وغيرهم من أمراء مصر يوقفون في سفح الجبل المقطم، مما يلي الموضع المعروف بالحبش، جيشًا كثيفًا مراعيًا الناس حتى ينصرفوا من عيدهم في كل عيد»[1].

ويبدو معقولًا أن تتعرض العلاقات بين المسلمين والبجة إلى بعض المواجهات، خاصة في الفترة التي تعرضت فيها الدولة الإسلاميّة للاضطرابات خلال القرن الأول الهجريّ. وإن فرضنا أن ذلك قد حدث، فلم يصل إلينا ما يشير إلى اتفاقيات

1 ابن سليم، كتاب تاريخ النوبة في مسعد، المكتبة السودانية ص 106.

أو صلح بين الطرفين، بناءً على ما ذكره ابن عبد الحكم من أن «أول من صالحهم هو عبد الله بن الجبحاب».

حرب حَكَم النابغي

مرة أخرى تصمت المصادر عن العلاقات بين المسلمين والبجة في الفترة الواقعة بين مستهل القرن الثاني ومستهل القرن الثالث الهجريّين. فقد ذكر ابن حوقل «ولم يزل المسلمون مستظهرين على جميع من جاورهم هناك من النوبة والبجة، إلى سنة أربع ومائتين، فإن البجة كانت تمتار من قفط...»[1] ووضح كيف أن البجة تعمّدوا تضليل أحد زعماء قفط في الصحراء حتى مات ومن معه عطشًا، خوفًا منه، بعد أن رأى أماكن مياههم، وعرف دروبها، أثناء سفره مع بعض زعماء البجة من قفط إلى ساحل البحر الأحمر. وذكر ابن حوقل أن أهل قفط لما علموا بذلك كتموا الأمر حتى أتى زعيم البجة – الذي قتل القفطي - ليمتار كعادته من قفط، فقتله القفطيّون ومعه ثلاثين رجلًا من وجهاء قومه سنة 204 هـ الموافق 819 م.

أدى ذلك إلى هجوم البجة على قفط، كما في الرواية التي انفرد بذكرها ابن حوقل، والتي جاء فيها أن البجة «سبوا منها سبع مائة نسمة، وقتلوا فيها خلقًا واسعًا»، ولم تثمر محاولات أهل قفط مع السلطات لحرب البجة، وأخيرًا اتفقوا مع رجل يعرف بحكم النابغي «فسار معهم في سنة اثنتي عشرة ومائتين، وورد قفط في ألف رجل من قومه: خمس مائة فارس، وخمس مائة راجل، وغزا البجة، وأقام هناك، فأقام ببلدهم ثلاث سنين يجوس ديارهم ويسبيهم، ومُناخه بالمكان المعروف يومنا هذا بماء حكم، وهو عن مرحلة من عيذاب وعلى أربع مراحل من العلاقي، واسترجع السبي عن آخره وقفل معاودًا إلى أسوان»[2].

ويلاحظ أن هذه المعركة حدثت قبل ثلاثة وخمسين سنة من وفاة المؤرخ ابن عبد الحكم الذي كان عائشًا في مصر حيث ألف كتاب «فتوح مصر وأخبارها»، ولم

---

1 ابن حوقل صورة الأرض ص 56.

2 نفس المصدر ص 57.

يشر إليها، كما لم يشر إليها أيضًا البلاذري صاحب كتاب «فتوح البلدان»، والذي توفي بعد سبعة وعشرين سنة من وفاة ابن عبد الحكم. كما يلاحظ أسلوب المبالغة في الرواية، إذ من الصعب جدًّا تصور ألف جندي يتجولون في بلاد البجة، تجوس ديارهم وتسبيهم لمدة ثلاث سنوات.

وأغلب الظن أن ما حدث لا يتعدى خروج الحملة واستقرارها في منطقة «ماء حكم» على بعد مرحلة من ميناء عيذاب كما تقول الرواية، أي أنها لم تتوغل في بلاد البجة. وحدثت حروب بين الجانبين أشبه بالحروب القبلية بين قبيلتين متصارعتين، وانتهى ذلك الصراع باتفاق بإرجاع ما سبته البجة من مدينة قفط. ومما يرجح ذلك أن ابن حوقل لم يذكر أي اتفاق أو معاهدة وقعت بين الطرفين كما هي العادة في مثل تلك الحروب.

حرب ابن الجهم

يبدو أن العلاقات اضطربت بين المسلمين والبجة بعد ذلك، فقد ذكر ابن سليم الأسوانيّ أنه في عام 216هـ/ 831م: «كثرت أذيتهم على المسلمين... فرُفع إلى أمير المؤمنين المأمون خبرهم، فأخرج إليهم عبد الله بن الجهم، فكانت له معهم وقائع، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم الكبير الذي يكون بقرية هجر المقدم ذكرها، كتابًا»[1].

ولا تتفق تفاصيل رواية ابن سُليم مع رواية ابن حوقل (صورة ص 57)، وهما المصدران الوحيدان اللذان انفردا بذكر تلك الأحداث. ذكر ابن حوقل أن البجة افتتحت مدينة أنبوا 232هـ الموافق 846م التي تقع على بُعد مرحلة من أسوان، وكان يلي أسوان وعينونا والحوراء عبيد بن جهم مولى المأمون، وكانت أنبوا مضافة إليه «فركب من عينونا والحوراء في جلاب، فأرسى بأقاصي جزيرة مصر بمعسكر، فأثخن في البجة سبيًا وقتلًا، واسترد ما سباه البجة من أنبوا، وعاد إلى أسوان، وعبر إلى عينونا»[2].

1 ابن سليم، المصدر السابق ص 109.

2 ابن حوقل، المصدر السابق ص 57.

والحوراء المذكورة في النص كورة من كور مصر القبليّة، في آخر حدودها من جهة الحجاز، وهي على البحر في شرقيّ القلزم، ويقال هي مرفأ سفن مصر إلى المدينة[1]. أما عينونا فهو وادٍ بين العلا ومدين على الساحل الشرقيّ للبحر الأحمر، وفي رواية أخرى هي قرية على طريق الحج المصريّ. والحوراء مرفأ سفن مصر إلى المدينة[2]، وقال عنها البكريّ هي ميناء «تلقاء ينبع، ترفأ إليها السفن من مصر»[3].

ويبدو معقولًا قبول رواية ابن سُليم عن تاريخ المعركة، وهو عام 216 هـ/ 831 م كما هو موضح في كتاب ابن الجهم لرئيس البجة. ويوضح الكتاب أن ابن الجهم مولى المأمون كان واليًا على مصر من قبل أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد كما ورد في نَص الاتفاق. لكن ابن سليم جعل سبب الحرب كثرة أذية البجة للسلمين، بينما وضح ابن حوقل أن ذلك كان بسبب فتح البجة لمدينة أنبوا. غير أنه جعل تاريخ ذلك عام 233 هـ/ 847 م.

وقد ذكر ابن حوقل أعلاه أن عبيد بن جهم «كان يلي أسوان وعينونا والحوراء.» ويبدو أن إدارة المناطق الجنوبيّة من صعيد مصر (أعلى الصعيد) في القرون الهجريّة المبكرة لم تكن مرتبطة بإدارة ولاية منطقة مصر من الفسطاط، وقد كان الولاة في مصر– في ذلك الوقت– يشرفون على كل منطقة شمال إفريقيا «ولاية مصر وإفريقيّة». أما إقليم الصعيد فقد ارتبط بساحل البحر الأحمر وطريق الحج عبر ساحليه إلى مكة. ويرجع ذلك الارتباط إلى السنوات الأولى من دخول المسلمين مصر. فقد ذكر ابن حوقل أن عبد الله ابن سعد عندما فتح مدينة أسوان عام 31هـ/ 651 م «عبر إليها من الحجاز» ويحدد ابن سليم الأسوانيّ أن ولاة أسوان كانوا «يبعثون من العراق»، أي يعينون تعيينًا منفصلًا عن تعيين ولاة مصر[4].

وقد وردت الإشارة إلى ولاية الصعيد – في المصادر العربيّة - تحت تعابير مختلفة،

---

1 ياقوت الحموي، **معجم البلدان** موقع الوراق، ج 4 ص 176.

2 المصدر السابق ج 2 ص 316.

3 البكري، **معجم ما استُعجم** ج 1 ص 474.

4 ابن حوقل، المصدر السابق ص 55 وابن سليم، المصدر السابق ص 109.

وإن كانت في مجملها ذات دلالة واحدة. فقد ورد «وطريق مصر ما بين مصر ومكة والقلزم والبجة الصعيد الأعلى والمعدن». وورد أن عبيد بن الجهم عندما حارب البجة عام 216 هـ كما ذكرنا أعلاه كان واليًا على «أسوان وعينونا والحوراء»، وهذا يجعل ولاية أسوان مرتبطة بساحل البحر الأحمر الشرقي، أي منطقة الحجاز.

وبعد دخول العرب مناطق التعدين بعد حملة ابن الجهم المذكورة أعلاه دخلت مناطق المعادن في ولاية الصعيد. فقد ذكرت المصادر أن القمي – سيرد الحديث عنه – عُيّن واليًا على «البجة وطريق مصر ما بين مصر ومكة، والقلزم وطريق الحجاز وبذرقة حاج مصر، ومعادن تلك الكور، وهي: قفط والأقصر، وإسنا، وأرمنت، وأسوان»[1]. وهكذا بعد اتصال المسلمين بمناطق التعدين ودخولهم في علاقات مباشرة مع البجة توسعت حدود الولاية، لتشمل طريق الحج على ساحلي البحر الأحمر الشرقي والغربي إلى جانب البجة، ومنطقة الصعيد على النيل، وقد حدث هذا في النصف الأول من القرن الثالث الهجريّ (10 م).

لكنْ أبو المحاسن أعطى مناطق النيل في جنوب مصر اسم «الصعيد الأعلى»، وقد وضح المقريزيّ حدود الصعيد الأعلى بالشمال الشرقيّ من «مرج بني هميم المتصلة بأراضي جرجة من عمل أخميم» وحتى أرض النوبة جنوبًا. ويحده شرقًا البحر الأحمر، وغربًا الواحات. ومدنه شرقي النيل: تيج، وقفط، وقوص، وغربيّ النيل: برديس، وسمنود، وآخرها أسوان»[2]. فالصعيد الأعلى بناءً على هذا التحديد يبدأ شمالًا من الواحات المصريّة ومنطقة الأقصر والصحراء الشرقيّة حتى البحر الأحمر، ويمتد جنوبًا حتى حدود مملكة مقُرّة.

أما بخصوص الحرب التي وقعت بين ابن الجهم والبجة، فلم يعط المصدران اللذان تناولاها – ابن سليم، وابن حوقل – تفاصيل ما حدث، فقد اكتفى ابن حوقل بقوله «فأثخن في البجة سبيًا وقتلًا واسترد ما سباه البجة» أما ابن سليم فذكر فقط "فكانت

1 البلاذري، فتوح البلدان ص 239 والطبري، تاريخ الرسل والملوك في مسعد، ص 38 وابن الأثير، الكامل في التاريخ في مسعد، ص 171.

2 المقريزي، كتاب السلوك في مسعد، ص 334.

له معهم وقائع» ولكنه انفرد بإيراد نص كامل ومطول للاتفاق الذي تم بين ابن الجهم ورئيس البجة كنون بن عبد العزيز. وفيما يلي تناول بنود النص بالقليل من التعليق، وقد قسّمته إلى فقرات لكي تسهل مراجعته.

نص الاتفاق:[1]

«بسم الله الرحمن الرحيم

1. هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة، عامل أمير المؤمنين أبي إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله، في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة، بأسوان.

2. أنّك سألتني وطلبت إلي أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة، وأعقد لك ولهم أمانًا علي وعلى جميع المسلمين، فأجبتك، إلى أن عقدت لك علي وعلى جميع المسلمين أمانًا، ما استقمت واستقاموا، على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا.

3. وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر، إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكًا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين، أعزه الله تعالى.

4. وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنّه يقرّك في بلدك ملكًا على ما أنت عليه في البجة.

5. وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة: وذلك مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وازنة داخلة في بيت المال، الخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولاته. وليس لك أن تخرم شيئًا عليك من الخراج.

6. وعلى أن كل واحد منكم إن ذكر محمدًا صلى الله عليه وسلم، وكتاب الله

1 ابن سليم، المصدر السابق ص 110.

ودينه، بما لا ينبغي أن يذكره به، أو قتل أحدًا من المسلمين حرًّا أو عبدًا فقد برئت منه الذمة: ذمة الله، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمة أمير المؤمنين، أعزه الله، وذمة جماعة المسلمين، وحلّ دمه كما يحلّ دم أهل الحرب وذراريهم.

7. وعلى أن أحدًا منكم أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال، أو دله على عورة من عورات المسلمين، أو أثر لعزتهم، فقد نقض ذمة عهده وحلّ دمه.

8. وعلى أن أحدًا منكم إن قتل أحدًا من المسلمين: عمدًا أو خطًا، حرًّا أو عبدًا من أهل ذمة المسلمين، أو أصاب لأحدٍ من المسلمين، أو أهل ذمتهم مالاً ببلاد البجة، أو في بلاد الإسلام، أو ببلاد النوبة، أو في شيء من البلدان برًّا أو بحرًا، فعليه في قتل المسلم عشر ديات، وفي قتل العبد المسلم عشر قيم، وفي قتل الذميّ عشر ديات من دياتهم.

9. وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه.

10. وإن دخل أحد من المسلمين ببلاد البجة تاجرًا، أو مقيمًا، أو مجتازًا، أو حاجًّا، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم. ولا تؤوا أحدًا من أباق المسلمين، فإن أتاكم آتٍ، فعليكم أن تردوه إلى المسلمين، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك.

11. وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين، لا تظهرون سلاحًا ولا تدخلون المدائن والقرى بحال.

12. ولا تمنعوا أحدًا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برًّا ولا بحرًا.

13. ولا تخيفوا السبيل، وتقطعوا الطريق على أحد من المسلمين، ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالًا.

14. وعلى أن لا تهدموا شيئًا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر

وبسائر بلادكم طولًا وعرضًا، فإن فعلتم شيئًا من ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة.

15. وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلًا يفي للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج، ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال، وعلى أن أحدًا من البجة لا يعترض حد القصر إلى قرية يقال لها قبَّان من بلد النوبة، حدًّا ولا عمدة.»

16. عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجة الأمان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا، وعلى أن يوافى به أمير المؤمنين. فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة.

17. وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة.

18. وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم، وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق.

19. ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجة عهد الله وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين وذمة أبي إسحق ابن أمير المؤمنين، وذمة عبد الله بن الجهم، وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم، ما وفىَ كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه.

20. فإن غيّر كنون أو بدل أحد من البجة، فذمة الله جل اسمه، وذمة أمير المؤمنين، وذمة الأمير أبي إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد، وذمة عبد الله بن الجهم، وذمة المسلمين، بريئة منهم.

ملاحظات على الاتفاق:

أول ما يلاحظ على هذا الاتفاق أنه أتى طويلًا، بعكس ما جرت عليه عادة المسلمين في اتفاقيّاتهم، التي تأتي بصورة عامة في صورة مختصرة وحاوية، وربما

الاستثناء الوحيد فيما يتعلق باتفاقيات المسلمين في مصر وممالك السودان هو اتفاق المقريزيّ المشهور بمعاهدة البقط، والمنسوب لعبد الله بن سعد.

وبالرغم من طول نص الاتفاق والموضوعات التي تطرق إليها، لم يرد هذا الاتفاق في المصادر المعاصرة له، والمعاصرة لابن سُليم الذي أورد هذا النص. وفي واقع الأمر فإن حرب ابن الجهم هذه لم ترد في المصادر الأخرى، والمصدر الوحيد الذي أشار إليها هو ابن حوقل، الذي لم يذكر أي شيء بخصوص هذا الاتفاق. والسؤال المهم هنا لماذا انفرد ابن سليم بإيراد نص هذا الاتفاق؟.

فابن عبد الحكم الذي كان معاصرًا لهذا الحدث، وكان عائشًا في مصر مسرح الأحداث لم يتطرق له. فقد توفى ابن عبد الحكم عام 257 ه / 870 م أي بعد واحد وأربعين سنة من الحرب، بينما دون ابن سليم الاتفاق بعد نحو قرن ونصف، لأنه توفى عام 386 هـ/ 996 م. وفي واقع الأمر فإن ابن عبد الحكم لم يتطرق إلي الحروب المتكررة التي عاصرها بين البجة والمسلمين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري (9 م).

فلماذا لم يتطرق ابن عبد الحكم لتلك الحروب والاتفاقيات التي عاصرها؟ هل نفترض عدم وصول كتاب ابن عبد الحكم كاملًا وأن بعضًا منه قد فقد؟ وهذا الافتراض لا يبدو معقولًا، لأن كثيرًا من المؤلفين الذين جاءوا بعد عصر ابن عبد الحكم ونقلوا عن كتابه في أوقات مبكرة لم ينقلوا عنه معلومات عن تلك الأحداث.

فهل يؤدي ذلك إلى الشك في وقوع تلك الحرب بالطرق التي رويت بها، وأنّها لم تكن سوى صراعات قبليّة، أو صراعات بين بعض الفئات المسلمة والبجة، ثم وصلت أخبارها إلى ابن سليم وابن حوقل عبر مصادر غير دقيقة في معلوماتها؟ وإذا كان ذلك كذلك فمن أين أتى ابن سليم بهذا النص المطول؟.

وإذا رجعنا إلى المصادر الأخرى وجدنا أقربها إلى حرب ابن الجهم هو البلاذري الذي توفي عام 279 هـالموافق 892م، أي بعد ثلاثة وستين سنة من وقوع الحرب،

ورغم أنه لم يكن عائشًا في مصر، إلا أنه يعتبر معاصرًا للحدث. والمصدر الآخر الذي يمكن الرجوع إليه في هذا الحدث هو اليعقوبيّ المتوفى عام 284 هـ/ 798 م أي بعد ثمان وستين سنة بعد وقوع الحدث، ولم يشر إليه. ومن المعلوم أن اليعقوبيّ تطرق إلى المعلومات الجغرافيّة في «كتابه البلدان»، لكنه فصل في كتابه «تاريخ اليعقوبيّ» الحديث عن البجة ومناطقهم وممالكهم، وكان من المتوقع – رغم إنه لم يشر إلى حروب البجة الأخرى – أن يتناول هذا الحدث القريب جدًّا من عصره.

وهناك مصدر آخر- نتوقع منه الإشارة إلى حرب ابن الجهم واتفاقه – وهو الطبريّ المتوفى عام 310 هـ/ 922 م أي بعد أربع وثمانين سنة من وقوع الحدث، فالطبريّ بحسّه التاريخيّ القويّ، وبشمول مؤلفه للأحداث، لم يشر أيضًا إلى تلك الحرب وذلك الاتفاق، بينما أسهب في تناوله للحرب التي حدثت بين البجة والمسلمين بقيادة القميّ بعد خمسة وعشرين سنة من حرب ابن الجهم.

وأرى أنه من المفيد توضيح أن إخضاع مثل هذه الأخبار إلى النقد والتدقيق ليس الغرض منه التقليل من شأن المصادر العربيّة أو ما ورد فيها من معلومات، بل الغرض هو لفت النظر إلى منهج تلك المصادر فيما تتناوله وتورده من أخبار، وضرورة اتباع منهج البحث السليم في التعامل مع ما يرد فيها. فليس كل ما يرد في تلك المصادر مفترض صحته والوثوق به، ومن الضروريّ إخضاع كل ما في تلك المصادر إلى عمليات النقد والتحليل قبل استخدامه أو الاحتجاج به.

نعود إلى النظر فيما ورد في نص اتفاق ابن الجهم كما ورد عند ابن سليم. خاطب الاتفاق عظيم البجة باسم كنون بن عبد العزيز، غير أنّه ورد في الفقرة رقم 3 من الاتفاق فإنّ المقصود بالمخاطبة هو ملك البجة الذي أقره الاتفاق ملكًا على بلاده. ومن الواضح أن هذا الاسم من غير المحتمل أن يكون هو اسم ملك البجة، لأن ملك البجة لم يكن مسلمًا، ولا نتوقع أن يتخذ اسمًا إسلاميًّا.

ويؤيد ذلك أن نص الاتفاق خاطب «كنون بن إسحاق عظيم البجة بأسوان» كما في فقرة رقم 1 في نص الاتفاق. وبالطبع فإنّ مقر ملك البجة ليس أسوان. وفي الفقرة

رقم 15 نص الاتفاق «على كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلًا يفي للمسلمين بما شرط لهم»، ويوضح هذا أن كنون هو وكيل البجة بأسوان وليس ملك البجة.

كان الهدف من الاتفاق هو طلب الأمان، ولا يبدو عليه أنه شروط مفروضة على البجة بعد هزيمتهم في ميدان المعركة، كما هو واضح في الفقرة رقم 2 «سألتني وطلبت إلي أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة، وأعقد لك ولهم أمانًا» ويبدو أن الحرب بين البجة والمسلمين لم تنته بانتصار حاسم لأحد الطرفين كما يتضح من تعبير ابن سليم «فكانت له معهم وقائع، ثم وادعهم». أما ابن حوقل المصدر الوحيد الآخر الذي أشار إلى هذه الأحداث فقد ذكر فقط أن ابن الجهم:» أثخن في البجة قتلًا وسبيًا واسترد ما سباه البجة» دون أن يوضح نتائج المعركة الأخرى، أو يشير إلى أي اتفاق بين الطرفين.

تضمنت الفقرة رقم 4 عبارة العبوديّة، إذ جعلت الملك وجميع أهل مملكته «عبيد لأمير المؤمنين» وهذه العبارة لا ترد كثيرًا في اتفاقيات المسلمين، وبخاصة في الاتفاقيات المبكرة. وقد ظهرت بعض المرات في عصر حكم المماليك في مصر، كما ورد في العهد الذي حلف عليه الملك المقُرّي شكندة لسلطان المماليك عام 675 هـ/ 1276 م، والذي ورد فيه أن الملك «عبد لولانا السلطان» وحتى هذه العبارة لم تتفق حولها المصادر، إذ لم يرد لفظ العبوديّة في بعض المصادر الأخرى، بل ورد على لسان ملك مقُرّة: «إنني ولي من والاه السلطان وعدو من عاداه السلطان»[1].

ويشير الاتفاق في الفقرة رقم 5 إلى ما كان البجة يدفعونه باعتباره «خراجًا» واتفاقيات المسلمين مع سكان البلاد المفتوحة تتحدث عن الخراج على الأرض، والجزية من أهل الذمة. وقد تقرر أن يدفع البجة فيما بعد عند اشتغال المسلمين بالتعدين كما ذكر الطبريّ «في كل سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تبر»[2]، لكن توقيع هذا الاتفاق كان سابقًا للاشتغال بالتعدين.

1 ابن الفرات، المصدر ال سابق ص 264 وابن أبي الفضائل، المصدر السابق ص 251.

2 الطبري، المصدر السابق ص 37.

ولكن استعمال لفظ الخراج أتى في المصادر العربيّة أيضًا ليشمل كل أنواع الضرائب، كما في عناوين «كتب الخرج» التي تتحدث عن الضرائب بصورة عامة تحت عنوان الخراج. ويلاحظ أن الخراج الذي ذكر في هذا الاتفاق وهو «مائة من الإبل، أو ثلثمائة دينار» لم يرد له ذكر في المصادر العربيّة الأخرى، ويختلف عن اتفاق ابن الحبحاب الذي أشرنا إليه سابقًا.

وتناولت أغلب نصوص الاتفاق الأخرى تنظيم العلاقات بين المسلمين والبجة والتي يبدو أنها كانت ذات أبعاد متعددة، مثل: المصالح التجاريّة، وتأمين دخول التجار لأرض البجة وضمان سلامتهم وسلامة أموالهم، وسلامة طرق الحج التي تمر عبر الصحراء الشرقيّة نحو موانئ البحر الأحمر. كما تناول الاتفاق أيضًا صدقات المسلمين والمساجد في أرض البجة، وأغلب الظن أن ذلك يتعلق بسكان الموانئ الذين كان بينهم عدد من المسلمين، وقد وضحت بعض المخلفات الآثاريّة وجود شواهد قبورا لمسلمين على سواحل البجة منذ القرن الرابع الهجري (10 م). ويلاحظ أن الاتفاق لم يشر إلى المعادن، مما يؤكد أن المسلمين لم يبدأوا الدخول في هذا الميدان إلا بعد حملة ابن الجهم، كما وضح ذلك ابن حوقل كما سيلي.

ونخرج من كل ذلك بالآتي:

- أصل هذا الاتفاق عبارة عن أمان بين عبد الله بن الجهم، وكنون بن عبد العزيز، وكيل البجة المقيم في صعيد مصر، كما هو منصوص علية في الفقرتين رقم 1 و15 من الاتفاق.
- يبدو أن أصل الاتفاق قد تعرض إلى بعض التصحيف والتعديل، فكنون بن عبد العزيز هو وكيل البجة، وفي مكان آخر خوطب بملك البجة كما في الفقرة رقم 4 من الاتفاق.
- كما تضمن الاتفاق بعض العبارات والأوصاف غير المألوفة في معاهدات المسلمين المبكرة كما في الفقرة رقم 4.
- كما يلاحظ على الاتفاق أنه أتى مُطولًا، ويختلف عن كل اتفاقيات المسلمين

في تلك الفترات المبكرة كما هو واضح في النصوص الواردة في الملاحق في نهاية الفصل الرابع.

- لا يبدو أن الحرب قد انتهت بنتيجة حاسمة، أي لم يكن هناك منتصر ومنهزم، لأن الاتفاق كان عبارة عن هدنة أمان. ولو حقق المسلمون نصرًا في هذه الحرب لما أطلق على الاتفاق هدنة أمان. ويؤيد ذلك ما ذكره ابن حوقل عن هذه الحرب حيث قال: «كانت لهم وقائع ثم هادنهم».
- الخراج الذي ورد على البجة دفعه في هذا الاتفاق لم يرد في المصادر العربيّة الأخرى.

دخول القبائل العربيّة أرض المعدن ببلاد البجة

تكامل القبائل العربية بأرض المعدن

تغيرت علاقات المسلمين والبجة تغيرًا كبيرًا في النصف الأول من القرن الثالث الهجريّ. فقد شهد هذا القرن حدثين مهمين تركا بصماتهما الواضحة على تاريخ القبائل العربيّة في مصر بصورة عامة، وعلى علاقاتها ببلاد البجة بصورة خاصة، وهما: وقف عطاء القبائل العربية في مصر وبداية اشتغال القبائل العربيّة بالتعدين.

شهد بداية القرن الثالث الهجري (9 م) التغير الذي طرأ على نظام الجند في الدولة الإسلاميّة. ففي العقود الأولى من عمر الخلافة كان العرب هم العنصر الذي تم على يديه قيام الدولة وتوسعها والدفاع عنها. فقد كانوا متفرغين لهذا العمل ويتقاضون من أجله دخلًا ثابتًا من الدولة، عرف باسم «العطاء» لسد متطلبات حياتهم. فارتبط النظام الإداريّ منذ بدايته في المناطق المفتوحة بالجنود العرب وقوادهم. وهكذا كان للجيش منذ قيام الخلافة دور قيادي في الأوضاع الإداريّة والسياسيّة.

وظل العرب يمثلون القوة الأساس في الجيش حتى قيام الدولة العباسيّة في بداية القرن الثاني الهجريّ (8 م)، حيث بدأ دور العناصر غير العربيّة في الجيش. وبدأ ذلك بالجنود الفرس الذين حاربوا القوات العربيّة المؤيدة للخليفة الأمين بن هارون الرشيد. وكان الفرس موالين للمأمون الذي تولى الخلافة بعد هزيمة أخيه. فأصبح النفوذ والقيادة السياسيّة بأيدي الجنود الفرس وقوادهم، حالين بذلك محل الجنود العرب.

غير أن المعتصم الأخ الثالث للمأمون والذي تولى الخلافة بعده عام 218هـ/833 م، كوّن جيشًا جديدًا من الأتراك إلى جانب الفرس، بغرض إضعاف نفوذ الجنود

الفرس والعرب، وبدأت منذ ذلك الوقت سيطرة الأتراك، ثم الجنود المماليك، على الحياة السياسيّة في العالم الإسلامي. وأصدر المعتصم أمره لوالي مصر بإسقاط أسماء العرب من ديوان الجند وقطع أعطياتهم. ويعني ذلك إنهاء خدمات العرب في مصر بوصفهم جنودًا للدولة، فلجأوا إلى البحث عن مصادر أخرى لمعاشهم، وانتشروا في مختلف أنحاء مصر، لا سيما في الأرياف، للعمل بالزراعة. وترتب على ذلك ازدياد اختلاط العرب بالسكان المحليّين في مصر، وما ترتب عليه من تحولات.

الحدث الثاني في بداية القرن الثالث الهجري (9 م) هو بداية دخول العرب في أعمال التعدين في الصحراء الشرقيّة. فقد ارتبطت منطقة الصحراء الشرقيّة بأعمال التعدين منذ عصر الدولة المصريّة القديمة، في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. فقد انخرط كثير من سكان تلك الصحراء في المهن المتصلة بالتعدين، فقاموا بتأمين تلك الأنشطة بالحراسة والخفارة، وتولوا مهمة الاتصال وربط مناطق التعدين بالمدن المطلّة على النيل. وتواصل هذا النشاط حتى العصر البيزنطيّ.

ويبدو من خلال تناول المصادر العربيّة لمناطق المعادن أنها كانت ممتدة على طول الصحراء الشرقيّة من أراضي البجة جنوبًا، وحتى المناطق الواقعة شرقيّ الأقصر شمالًا. قال المسعودي «ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط، ومنها يخرج إلى هذا المعدن، والموضع الذي فيه الزمرد يعرف بالخربة»[1]. وذكر اليعقوبيّ أن «مناجم الذهب من شرقيّ أسوان إلى وادي العلاقي، وتمتد حتى عيذاب»[2]. وقد تناول اليعقوبيّ نحو 35 منجمًا يستخرج منها الزمرد والجوهر والتبر. يبدو من وصفه أن هذه المعادن تمتد خلال الصحراء الشرقيّة وحتى سواحل البحر الأحمر.

وقد ارتبطت بلاد البجة كلها في المصادر العربيّة بأعمال التعدين، يقول ابن سليم: «أول بلد البجة من قرية تعرف بالخربة، من معدن الزمرد في صحراء قوص، وبين هذا الموضع وبين قوص ثلاث مراحل... وبلدانهم كلها معادن، وكلما تصاعدت كانت أجود الذهب وأكثر. وفيها معادن: الفضة، والنحاس، والحديد، والرصاص،

1 المسعودي، مروج الذهب ج 2 ص 23.

2 اليعقوبي، كتاب البلدان في مسعد ص 14.

وحجر المغنطيس، والمرقشيتا، والجمشت، والزمرد، وحجارة بيشطا ... والبجة لا تتعرض لعمل شيءٍ من هذا المعدن»[1]. ويضيف المقريزيّ: «وبوادي البجة المالكة لمعدن الزمرد يتصل ديارها بالعلاقي، وهو معدن الذهب، وبين النيل والعلاقي خمس عشرة مرحلة، وأقرب العمارة إليه مدينة أسوان»[2].

وعن علاقة البجة بالمعدن، ذكر المسعوديّ أن البجة تحمي مناطق المعادن «وإليها يؤدي الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد»، ويضيف ابن سليم «والبجة لا تتعرض لعمل شيء من هذه المعادن»، ووضح الطبريّ أن البجة يقاسمون من يعمل في المعادن «ويؤدون إلى عمال السلطان في مصر في كل سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تبر، قبل أن يطبخ ويصفى.»[3]

وبدأ المسلمون في مصر استغلال تلك المناجم في أول القرن الثالث الهجريّ، فقد وضح ابن حوقل أثناء حديثه عن حرب ابن الجهم للبجة عام 216 هـ الموافق 831 م أن العرب أثناء هذه الحملة شاهدوا الآثار القديمة للعمل في المعدن عند أول دخولهم المنطقة، فعادوا بعد نهاية الحملة لتلك المناطق. وقد صادف ذلك دخول محمد بن يوسف الحسني الأخيضر من اليمامة لأرض المعدن في آلاف كثيرة من ربيعة لخلافات وحروب نشبت هناك. وتمكنوا من التغلب على من دخلها قبلهم من قبائل الحجاز. وتكامل بالعلاقي قبائل ربيعة ومضر في عام 238 هـ الموافق 852 م.[4]

ويبدو أن دخول القبائل العربية بأعداد كبيرة قد أثار قبيلة الحداربة، فبدأت تغير على العاملين في التعدين، واضطربت الأوضاع في المنطقة. وذكر الطبريّ أن عامل البريد في مصر - وهو المسؤول عن مراقبة الأوضاع بصورة شاملة في مصر - كتب إلى الخليفة المتوكل:

«أن البجة نقضت العهد الذي كان بينها وبين المسلمين، وخرجت إلى معادن

---

1 ابن سليم، المصدر السابق ص 105 – 107.

2 المقريزي، المواعظ والاعتبار ص 294.

3 المسعودي، المصدر السابق ج 2 ص 23 وابن سلي، المصدر السابق ص 107 والطبري في مسعد، ص 37.

4 ابن حوقل، صورة الأرض ص 57.

الذهب والجوهر... وقتلوا عدة من المسلمين... وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم... فانصرفوا عنه خوفًا على أنفسهم... فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر»[1].

وقد شهد العقدان الخامس والسادس من القرن الثالث الهجري (9 م) أحداثًا كان لها أثر كبير على الأوضاع في المنطقة وتاريخها اللاحق. فقد دخل العمريّ المنطقة، وكان على رأس كثير من الأحداث، كما دخلت المنطقة أيضًا حملة كبيرة بقيادة القمي، ودار صراع بين القبائل العربيّة وبين فرعي ربيعة، وتمت المصاهرة بين ربيعة والبجة، وتغير ميزان القوى في المنطقة. وفيما يلي سنلقي بعض الضوء على تلك الأحداث.

العُمَريّ في بلاد البجة

تناولنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب أطماع العمريّ وحروبه في بلاد النوبة، وسنتناول هنا أحداث العمريّ المرتبطة ببلاد البجة في مرحلتين. وفي واقع الأمر فإن دخول العمريّ مسرح الأحداث على حدود مصر الجنوبيّة قد بدأ في بلاد البجة. فقد ذكرت المصادر أن البجة كانوا يغيرون على مصر، فيقتلون وينهبون، وكثرت شكوى المسلمين منهم. وتبدأ المرحلة الأولى لأحداث العمريّ في بلاد البجة بخروجه عام 141 هـ الموافق 758م مع من تطوع معه للحد من غارات البجة. وأعدوا للبجة المغيرين كمينًا أثناء عودتهم من إحدى تلك الغارات ففتكوا بهم.

ولم تورد المصادر التي تناولت تلك الأحداث تفاصيل غارات العمري في بلاد البجة وإلى أين وصلت وما ترتب على تلك الحروب من نتائج، بل توجز المصادر كل ذلك في قولهم: «وتابع عليهم الغارات حتى أدوا إليه الجزية، ولم يفعلوها قبل ذلك»[2].

ويبدو أن العمريّ قد وقف على أعمال التعدين أثناء غاراته في بلاد البجة، فقرر

1 الطبري، المصدر السابق ص 28.

2 ابن خلدون، **العبر** موقع الوراق ج 4 ص 302 وابن الأثير، **الكامل في التاريخ** في مسعد ص 171.

الانخراط في تلك الأعمال، ودخل أرض المعدن، ونزل بين القبائل المضريّة. وتمكن لكونه من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب إلى جانب ما تميز به من علم واسع وبلاغة أن يعزز مكانته بين القبائل المضريّة التي تنتمي إليها قبيلة العمريّ، قريش. وذكر المقريزيّ حادثًا أدى إلى زعامته تلك القبائل.

فقد نشب صراع بين المضريّين وربيعة، واجتمع الطرفان ووافقا على تسوية المشكلة سلميًّا. ولما علم العمريّ بالاتفاق الذي لم يحضره لم يقبل بذلك، وأنب قومه على البت في هذا الأمر دون حضوره فاعتذروا له، وأخذ عليهم عهدًا أن لا يبتوا في أمورهم دون مشورته. وأشار عليهم بنقض الاتفاق الذي تم مع ربيعة، وأدى ذلك إلى نشوب حرب بين المضريّين وربيعة انهزم فيها المضريون، وتقهقر العمريّ بالمضريّين غربًا، إلى المنطقة التي عرفت بشنقير في الصحراء الواقعة شمال منطقة أبو حمد، حيث ارتبطت أحداث العمريّ هناك بمملكة مقُرّة.

حروب القمي

بعكس حملات المسلمين الثلاث السابقة على البجة، حظيت حملة القمي عام 241 هـ/ 855 م بالاهتمام الكبير من المؤرخين. فحملة ابن الحبحاب في مستهل القرن الثاني الهجريّ تناولها باختصارٍ شديد ابن عبد الحكم فقط، ونقل عنه ابن سليم، وتناول ابن حوقل فقط حملة النابغي عام 212 هـ/ 827 م، وباختصار شديد أيضًا. ورغم أن ابن سليم أورد تفاصيل اتفاق المسلمين والبجة بعد حملة ابن الجهم، إلا أنه وابن حوقل – الوحيدان اللذان كتبا عنها - لم يتعرضا لتفاصيل أحداثها.

أما حملة القمي فقد تناولتها – تقريبًا – بقدر وافر من التفاصيل كل المصادر التي تناولت علاقات المسلمين بالبجة والممالك المسيحيّة، ما عدا: ابن عبد الحكم، والمقريزيّ. فقد تناولها: البلاذريّ، والطبريّ، وابن حوقل، وابن سُليم، وابن الأثير، وأبو المحاسن، ووردت معلومات عن أسبابها، وتقديرات عدد الجنود على أرض المعركة، وأحداث القتال، وما تلا ذلك من نتائج، دون التعرض لاتفاق مكتوب بين الطرفين.

ذكر الطبري أنه «لما كانت أيام المعتصم، امتنعت البجة عن أداء ذلك الخراج سنين متوالية... وخرجت من بلدها... قتلوا عدة من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن، وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم... وبدأ أمرهم يتزيد، وجرأتهم على المسلمين تشتد، حتى خاف أهل الصعيد من أرض مصر على أنفسهم وذراريهم منهم». واتفق كل من ابن سليم وأبو المحاسن مع الطبريّ في سبب الحرب، إلا أن ابن حوقل ذكر أن سبب الحملة يرجع إلى خلاف نشب بين أحد أفراد البجة وبين رجل من المسلمين ممن كان يعمل في المعدن، وسبّ البجاويّ الرسول (ص) فأدى ذلك إلى الحرب.

ولم تتفق المصادر أيضًا حول شخصية محمد بن عبد الله المعروف بالقميّ، فلم يتحدث البلاذريّ - الذي كان معاصرًا للحرب ومقربًا من الخليفة المتوكل (232 – 247 هـ/ 847 – 861 م) الذي أمر بإرسال الحملة – عن شخصية القميّ، بل ذكر فقط أن المتوكل أوكل إليه - إلى جانب قيادة الحملة - ولاية المعدن، والقلزم، وطريق الحجاز، وبزرقة حاج مصر»[1].

ويبدو أن القمي كان على صلة ومعرفة بهذه المناطق، إذ ذكر أبو المحاسن أن «القمي كان من القواد الذين يتولون خفارة الحاج في أكثر السنين»، وأضاف أن المتوكل كتب إلى واليه في مصر بتجهيزه «وأن يوليه الصعيد الأعلى يتصرف فيه كيف يشاء... يتنازل له عن عدة ولايات من أعمال الصعيد، مثل: قفط، والقصير، وإسنا، وأرمَنت، وأُسوان» وقد انفرد ابن حوقل برواية مفادها أن «القميّ كان محبوسًا مطالبًا بدم لا وليّ له»[2].

وتناولت المصادر تقديرات جنود القميّ ما بين أربعة آلاف إلى عشرين ألفًا، وأن المؤن والعتاد أرسلت عن طريق البحر إلى ميناء عيذاب. وذكرت أن ملك البجة على بابا (أو لباب)، وابنه لعيس، خرجا إلى القمي في جيش كبير، بلغ عدده أضعاف ما كان مع القمي. وفي البداية حاول البجة مراوغة المسلمين والتوغل بهم داخل أراضيهم حتى ينفد ما معهم من زاد. لكنهم رأوا وصول الإمدادات بالمراكب عن

1 البلاذري، فتوح البلدان ص 239.

2 أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في مسعد، المكتبة السودانية ص 377.

طريق ميناء صيحة (أو صنجة).[1] فاضطر البجة إلى خوض المعركة.

واتفقت المصادر تقريبًا في الطريقة التي حقق بها المسلمين النصر عن طريق الأجراس التي علقوها على أعناق خيولهم، فأدى صوتها إلى إجفال الإبل خلال المعركة، وشغل البجة بالكتب التي كتبها القميّ وأطلقها بالرماح نحو البجة. وهاجمهم المسلمون إبان انشغالهم بها. ويدل ذلك على أن النصر على البجة لم يتم بسهولة.

ولا يبدو أن الحملة قد توغلت في أراضي البجة كما ورد ذكر الطبريّ من أنهم «وصلوا إلى قلعة ملك البجة»[2]، أو «أوغل في بلادهم حتى قارب دنقلة»، كما عبر أبو المحاسن الذي بدت معلوماته عن البجة ومناطقهم في غاية الاضطراب، فقد ذكر على سبيل المثال أن البجة «كانوا عراة بغير ثياب»[3] وقد تعددت الروايات بشأن مصير ملك البجة، جاء في بعضها أنّه: قتل في المعركة، وهرب أو أسر، وطلب الأمان في بعضها الآخر.

وانتهى الصراع باتفاق بين الجانبين، أطلقت عليه المصادر العربيّة مرّة صلحًا، وأخرى طلب أمان، على أن يذهب الملك لمقابلة الخليفة المتوكل في بغداد. لبى الملك الدعوة، وخلّف ابنه[4] مكانه على العرش وذهب إلى بغداد. وقابل الخليفة الذي أفاض عليه – كما ذكر أبو المحاسن – بالخلع؛[5] أما ابن حوقل فإنّه ذكر أن القمي أرسل إلى ملك النوبة قيرقي ليذهب معهم إلى بغداد، ولبى ملك النوبة الدعوة.

وأضاف ابن حوقل أن الملكين عندما دخلا على الخيفة المتوكل «نودي عليهما، فبلغ ملك البجة سبعة دنانير، وملك النوبة تسعة دنانير، فأجرى لكل واحد منهما

---

1 البلاذري، نفس المكان السابق والطبري، المصدر السابق ص 39.

2 الطبري، المصدر السابق ص 39.

3 أبو المحاسن، المصدر السابق ص 378 – 380.

4 جرت عادة المؤلفين إلى القول بأن وراثة العرش عند البجة عن طريق ابن البنت وفقاً لنظام الأمومة، وهو ما لم يكن سائدًا بين البجة.

5 أبو المحاسن، المصدر السابق ص 381.

في كل يوم مثل ثمنه. وعادا إلى أسوان بعد موافقتهما بإداء الجزية»[1]. وقد انفرد ابن حوقل بهذه الرواية، وهي تختلف عما ورد في المصادر العربيّة من أن ملك مقُرّة قيرقي لم يذهب مع ملك البجة لمقابلة الخليفة، بل ذهب منفردًا، وأن الخليفة أحسن استقباله ومعاملته. ويستبعد جدًّا قبول رواية ابن حوقل عن المعاملة التي ذكرها، إذ ليس من المعقول أن يعامل الملوك معاملة الرقيق.

ولم ترد مثل هذه المعاملة في المصادر لأيّ حاكم أسره المسلمون في ميدان الحرب. وما ورد عن لقاء الخليفة وملك البجة جاء فيه أنه طُلب من ملك البجة تقبيل الأرض بين يدي الخليفة، فرفض الملك فعل ذلك. وذكر أبو المحاسن أن الخليفة قال له: «لقد بلغني أنّ معك صنمًا معمولًا من حجر أسود تسجد له في كل يوم مرتين، فكيف تتأبّى عن تقبيل الأرض بين يدي، وبعض غلماني قد قدر عليك وعفا عنك، فلما سمع علي بابا كلامه قبل الأرض، فعفا عنه المتوكل وأفاض عليه الخلع»[2].

ورجع الملك أولباب من بغداد وهو على دينه. وقد جاء الحديث عن تفاصيل الاتفاق في غاية الاختصار، إذ ورد أن الملك وافق على أداء الخراج عن المدة التي كان قد منعها، وهي أربع سنين لكل سنة أربعمائة مثقال، وأن لا يمنع البجة المسلمين من العمل في المعدن.

ويلاحظ أن هذا الاتفاق رجع إلى اتفاق سابق أشار إليه الطبريّ قبل حملة القمي، كان البجة بموجبه «يؤدون إلى عمال السلطان في مصر في كل سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى»[3]. ومن الواضح أن هذا الاتفاق أبرم بعد بداية عمل المسلمين في المعدن. وربما تم ذلك باتفاق الطرفين دون نزاع، جزءًا من تنظيم العمل في المعادن، الذي تم قبل نحو عقدين من حملة القمي.

وإلى جانب ذلك كان هناك اتفاق ابن الحبحاب نحو مستهل القرن الثاني الهجريّ،

1 ابن حوقل، المصدر السابق ص 69.

2 أبو المحاسن، المصدر السابق ص 381.

3 الطبري، المصدر السابق ص 37.

والذي – كما ذكر ابن عبد الحكم – وافق البجة بمقتضاه على دفع ثلثمائة بكر كل عام[1]. وهذا يخالف ما ورد في اتفاق ابن الجهم عام 216 هـ/ 831 م والذي جاء فيه أن البجة يدفعون مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار. وهذان يخالفان نص اتفاق آخر ورد عند أبي المحاسن، قبل حملة القمي وقبل بداية عمل المسلمين في المعدن كما يفهم من شروطه، فكان مقررًا على البجة «في كل سنة خمسمائة نفر من العبيد والجواري، مع غير ذلك من البخت البجاويّة، وزرافتين، وفيلين، وأشياء أخرى»[2]

ربيعة والحداربة والعمريّ

يبدو أن الأوضاع بعد حملة القمي قد بدأت في التحسن في أرض المعدن، وعن علاقة القبائل العربيّة بالبجة ذكر المقريزي أنه في عام 255 هـ الموافق 868 م كان أشهب ربيعة الذي خلفة القمي وراءه على مناطق المعدن عند ذهابه لبغداد على رأس قبائل ربيعة، وكان في المنطقة قبيلة جهينة وسعد العشيرة من الشاميّين، إلى جانب بعض القبائل الأخرى.[3]

وفي خلال هذه الظروف دخل العمري مرة أخرى منطقة التعدين ببلاد البجة. وذكرت المصادر أن العمريّ بعد خروجه من أراضي مملكة مقُرّة ودخوله صعيد مصر، دخل في بعض الصراعات مع أحد العلويّين الثائرين، ثم مع ابن طولون، وأخيرًا دخل عام 255 هـ منطقة التعدين في بلاد البجة. وقد أدى استقرار الأوضاع إلى ازدهار العمل في التعدين، و«كثرت العمارة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة، غير الجلاب التي تحمل من القلزم إلى عيذاب»[4].

غير أن العمريّ دخل مرة أخرى في صراع مع البجة، وذلك أن البجة قتلت

---

1 ابن عبد الحكم، المصدر السابق ص 10.

2 أبو المحاسن، المصدر السابق ص 377.

3 أبو المحاسن، المصدر السابق ص 366.

4 نفس المكان السابق. الجلاب المراكب الصغيرة، والمراد بالقلزم هنا مدينة على نهاية البحر الأحمر الشمالية، أطلق أسمها في المصادر العربية على البحر كله.

أخ العمريّ في منطقة عيذاب. فطلب العمريّ من ربيعة التي كانت قد تحالفت مع البجة يسألهم الإنصاف له من البجة أو تركه يصفي حسابه معهم مباشرة، فلم يستجيبوا له. فطلب العمريّ من مضر العون على ربيعة فلم يجبه إلا قليل منهم، إذ غادر بنو هلال وبنو تميم منطقة المعادن واتجهوا غربًا نحو النيل.

وحارب العمريّ ربيعة وقُتل عدد كبير من الجانبين، وتمكن العمريّ من قتل أشهب ربيعة، ثم قتل أحد المضريّين العمريّ، وتولى إسحاق بن بشر قيادة ربيعة. ولم توضح المصادر العربية موقف قبيلة الحداربة من الصراع. وذكر أبو المحاسن أن إسحاق بن بشر تولى زعامة ربيعة. غير أن نزاعًا حدث بينهم قتل فيه إسحاق، فقررت القبيلة استدعاء ابن عمه من الوجه البحريّ أبي يزيد بن إسحاق بن إبراهيم بن مسروق ليتولى الزعامة ربيعة. «وإلى مسروق هذا ينسب كنز الدولة الذي نزل حامي أسوان، فنزل أسوان وأنشأ مكانه المعروف بساقية شعبان[1].

ونتج عن رحيل بني هلال وبني تميم من المنطقة إلى بداية سيادة ربيعة تحت قيادة بني بشر. ويبدو أن هذا هو الوقت الذي حدثت فيه المصاهرة بين ربيعة وقبيلة الحداربة، لأن ابن حوقل ذكر أن «عبدك خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر، وكوك خال أبي القاسم حسين بن علي بن بشر، وعبدك وكوك رئيسا الحدارب أجمع»[2].

شهدت المنطقة استقرارًا دائمًا بهيمنة قبيلة الحدارب وربيعة على المنطقة، ويقول المسعوديّ الذي كتب عن المنطقة بعد مائة سنة بعد تلك الأحداث عن ربيعة: «اشتدت شوكتهم، وتزوجوا في البجة، فقويت البجه بمن صاهرها من ربيعه، وقويت ربيعه بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار. وصاحب المعدن في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - أبو مروان بشر بن إسحاق، وهو من ربيعه، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعه وأحلافها من مضر واليمن، وثلاثين ألف حراب على النُّجُب من البجة بالحجف البجاوية، وهم

1 أبو المحاسن، المصدر السابق ص 321 – 322.

2 ابن حوقل، المصدر السابق ص73.

الحداربة، وهم المسلمون من بين سائر البجة، وباقي البجة كفار يعبدون صنمًا لهم»[1].

وقد تحدثنا عن قبيلة الحداربة وقوتها ونشاطها السياسيّ والتجاريّ في المنطقة في الجزء الثاني من هذا الكتاب. فقد قادت قبيلة الحداربة العلاقات مع المسلمين منذ دخولهم مصر، فقاد ملكهم مكسوج جيشه لمساعدة البيزنطيّين المسيحيّين عند حصار المسلمين لمدينة البهنسا، وحاربوا ابن الحبحاب وحكم النابغي وابن الجهم والقمي، وقابل ملكهم أولباب الخليفة المتوكل في بغداد، وأخيرًا دخلوا في حلف ومصاهرة مع بني بشر من ربيعة فازدادت قوتهم في المنطقة.

ويلاحظ أن أغلب المادة التي وردت في المصادر العربيّة عن البجة جاءت عن قبيلة الحداربة، فهي كما رأينا القبيلة التي قادت العلاقات مع المسلمين. فقد وضح ابن بطوطة أن الحداربة سكنوا عيذاب، وكانت قبضتهم قوية على المنطقة برًّا وبحرًا، فقد حاربَ سلطان الحداربة الأتراك الذين هاجمت سفنهم عيذاب، وتمكن من هزيمتهم وفروا أمامه في البحر، وذكر ابن بطوطة أن ثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة[2].

ووضح القلقشندي أن الحداربة يسكنون مدينة سواكن، إلى جانب الخاسة الذين ذكرهم المقريزيّ. وكان المماليك قد احتلوا ميناء سواكن عام 664 هـ الموافق 1265 م، ولكن ظل الحداربة يقاسمونهم السلطة عليها، وقد ذكر القلقشندي «وصاحبها الآن من الحداربة - بالحاء والدال المهملتين المفتوحتين وألف ثم راء مهملة وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر، «وله مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانيّة بالديار المصريّة، ويقال في تعريفه الحدربيّ بضم الحاء وسكون الدال وضم الراء.»[3]

وإلى جانب الحداربة كانت هناك كثير من قبائل البجة، إلا أنّها لم تشتهر في المصادر العربيّة. وقد أتينا على ذكرها وما ورد عنها من معلومات في الجزء الثاني من هذا الكتاب. والقبائل هي: البليون الزنافجة، الخاسة، وقعصة، وبواتيكة، وكديم،

1 المسعودي، **مروج الذهب** في مسعد، المكتبة السودانية ص 51.

2 ابن بطوطة، **تحفة النظار** في مسعد 254.

3 القلقشندي، **نهاية الأرب** موقع الوراق ج 1 ص 146.

والماتين، وبازين، وبارية، والديجون، والحلنقة. وقد كونت تلك القبائل ممالك البجة الخمس والتي تناولناها أيضًا في الجزء الثاني. ونلخص هنا ما قاله عنها اليعقوبيّ في القرن الثالث الهجريّ (9 م)[1].

فأول مملكة البجة من حد أسوان، وهي آخر عُمل المسلمين من التيمن بين المشرق والمغرب إلى حد بركات، وهم الجنس الذي يقال له: نقيس، ومدينة المملكة يقال لها: هجر... وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن.

والمملكة الثانية: بقلين، كثيرة المدن، واسعة. والمملكة الثالثة: بازين، وهم يتاخمون مملكة علوة من النوبة، ويتاخمون بقلين من البجة. والمملكة الرابعة: جارين، ولهم ملك خطير، وملكه ما بين بلد يقال له: باضع، وهو ساحل البحر الأعظم إلى حد بركات من مملكة بقلين، إلى موضع يقال له: حل الدجاج. والمملكة الخامسة: قطعة، وهي آخر ممالك البجة، ومملكتهم واسعة من حد موضع يقال له: باضع، إلى موضع يقال له فيكون، ولهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، فيها أحداث شباب، جلد، مستعدون للحرب والقتال.

ولم تتعرض المصادر العربيّة بعد عصر اليعقوبيّ لممالك البجة، بل أتت الإشارات إليها باقتضاب. قال المسعوديّ عن البجة في القرن الربع الهجريّ (10 م) «وتفرقوا فرقًا، وملّكوا عليهم ملوكًا»[2]، ولم أعثر على شيء عن ممالكهم حتى القرن الثامن الهجري (14 م) حيث جعل الدمشقي ممالك البجة اثنتين فقط، هما مملكة الحداربة ومملكة الزنافجة،[3] وذكر القلقشندي في القرن التاسع الهجري (15 م) أن عاصمتهم سواكن. ونقل المقريزيّ (15م) ما ذكره المسعوديّ أعلاه[4].

ولذلك لم تتوافر معلومات عن علاقات ممالك البجة بالمسلمين في مصر، وجل ما ورد في المصادر كان عن قبيلة الحداربة، متعلقًا بنشاط المسلمين في المعدن، أو

1 اليعقوبي، تاريخ في مسعد ص 21 – 23.

2 المسعودي، مروج الذهب في مسعد ص 51.

3 الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر في مسعد ص 237.

4 القلقشندي، صبح الأعشى في مسعد ص 284، المقريزي، المواعظ في مسعد ص 293.

ما تعلق بنشاط ميناءي عيذاب وسواكن. وكانت عيذاب من أهم موانئ البحر الأحمر في الفترة التي أقام فيها الصليبيّون ممالكهم في الشام، فنشطت ميناء عيذاب بوصفها ميناء تجاريّة ومعبرًا للحج. وأهتم بها المماليك واستولوا على ميناء سواكن منذ بداية قيام دولتهم.

ولكن وبعد جلاء الصليبيّين من الشام، وعودة قوافل الحج إلى طريق البر عبر سيناء في منتصف القرن السابع الهجري (14 م) وما تلا ذلك من توقف العمل في التعدين في منتصف القرن الثامن الهجريّ (14 م) اضمحل نشاط ميناء عيذاب، ودخلت ميناء سواكن عصر ازدهارها، وبخاصة عندما ازدهر نشاط ميناء جدة، بعد تدهور نشاط ميناء عدن. وانصب اهتمام المماليك بالميناءين على تأمين حركة التجارة. ورغم أن البجة كانوا يشاطرون المماليك إدارة ميناء عيذاب وبني نمي في إدارة ميناء سواكن، إلا أن المصادر لم تفصل في العلاقة بين تلك الأطراف.

وحتى عندما أرسل المماليك سفارتهم المشهورة في نهاية القرن السابع الهجري (13 م) إلى ممالك بلاد البجة لم يتضح أسباب تلك السفارة، ولا ما تمخض عنها من نتائج. ويبدو كذلك أنه لم تسفر الحملة التي أرسلها المماليك إلى بلاد البجة في أول القرن الثامن الهجريّ (14 م) وتوغلت حتى منطقة كسلا الحالية، ورجعت عن طريق نهر عطبرة حتى النيل فمصر، عن أي نتائج. أو على الأقل لم تتطرق المصادر إلى نتائجها كما تناولنا ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وظلت الأوضاع كما هي إلى أن دخل العثمانيّون البحر الأحمر.

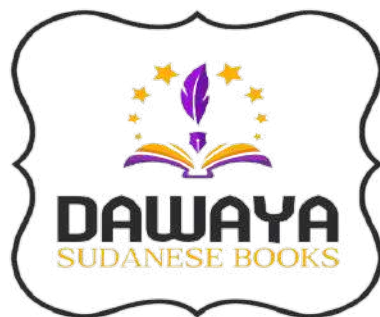
ملحق رقم 1
بعض أحداث العلاقات بين السودانيّين والمسلمين
في مصر بين القرنين 7-14م

عام 641 م	جيش من مملكتي البجة والنوبة لمساعدة البيزنطيّين عندما غزا المسلمون صعيد مصر.
بين علمي 641-651 م	خمس معارك بين مملكة مريس (نوباديا) والمسلمين بما فيها المعركة المشهورة باسم رماة الحدق.
عام 31هـ/651 م	المعركة بين مملكة مريس والمسلمين التي تلاها الصلح المشهور بمعاهدة البقط.
بين عامي 684-704 م	مراجعة وتعديل الصلح المشهور بمعاهدة البقط.
بين عامي 700-710 م	توحيد مملكتي مريس (نوباديا) ومقرة.
بين عامي 718-719 م	إقرار الولاة والأمراء الصلح المشهور باسم معاهدة البقط (السبي مقابل الطعام).
بين عامي 723-742 م	غزا المسلمون مملكتي البجة ومقرّة في عصر الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك.
في عام 749 م	غزا كرياكوس ملك مقُرّة مصر.
بين عامي 754-775 م	عزا المسلمون مملكة مقُرّة في عصر الخليفة العباسيّ أبي جعفر المنصور.

بين عامي775-785 م	راجع الخليفة العباسيّ المهدي شروط الصلح المشهور بمعادة البقط وعدل بعض بنوده.
عام 819 م	قتل أهل قفط زعيم البجة ورفاقه، فأغارت البجة على مدينة قفط وسبت عددًا من أهلها.
عام 826 م	راجع عبد العزيز بن مروان والي مصر شروط الصلح المشهور بمعادة البقط وعدل بعض بنوده.
عام 831 م	كثرت غارات البجة على المسلمين، فغزاهم المسلمون ووقعوا معهم صلحًا.
عام 831-852 م	تكامل دخول القبائل العربيّة أرض المعدن في صحراء البجة.
بين عامي 834-845 م	راجع الخليفة العباسي المعتصم شروط الصلح المشهور بمعادة البقط وعدل بعض بنوده.
عام 855 م	غزا المسلمون البجة وتم الصلح، وذهب أولباب (علي بابا) ملك البجة لمقابلة الخليفة في بغداد.
عام 758 م	أغار المسلمون بقيادة العمريّ على البجة.
عام 868 م	بدأ نشاط العمريّ في مناطق التعدين، حروبه لقبيلة ربيعة ومملكة مقُرّة والطولونيين، مصاهرة ربيعة وسيادتها للبجة، وسيادتها في أرض المعدن.
عام 914 م	غزا والي مصر تكين التركي مملكة مقُرّة.
عام 950 م	غزو مملكة مقُرّة للواحات المصريّة.
عام 955 م	غزا ملك مقُرّة مدينة أسوان.
بين عامي 935-969 م	غزا حاكم مصر الإخشيديّ مملكة مقُرّة.

منتصف القرن العاشر م	سفارة حاكم مصر الفاطمي (ابن سليم الأسواني) إلى ملك مقُرّة.
في عام 1172 م	أغارت مملكة مقُرّة على أسوان، وغزا الأيوبيّون مملكة مقُرة
في عام 1263 م	أسلم بعض أمراء مملكة مقُرّة في بلاط المماليك. أغار ملك النوبة على عيذاب.
عام 1256 م	احتل المماليك ميناء سواكن.
1272 م	أغارت مملكة مقُرّة على أسوان.
1275 م	لجأ شكندة (ابن أخ أو ابن أخت ملك مقُرّة) إلى بلاط المماليك، وأرسلت حملة مملوكية نصبته ملكا على مقُرّة ووافق بدفع الجزية.
1286 م	سفارة السلطان المملوكي قلاون إلى ممالك السودان: مقُرّة، والأبواب، وبارة، والتاكا، ودنفوا، وأري، وبفال، والعنج، وكرسة.
1286 م	هدية ملك الأبواب (بين مملكتي مقُرّة وعلوة) إلى سلطان المماليك.
1287 م	حملة مملوكيّة نصبت ملكًا جديدًا على مملكة مقُرّة.
1289 م	هجم ملك مقُرّة على أسوان، وحملة مملوكيّة نصبت ملكًا جديدًا على مملكة مقُرّة
1290–1292 م	حملة مملوكيّة نصبت ملكًا جديدًا على مملكة مقُرّة.
1304 م	ملك مقُرّة قدم هدية لسلطان المماليك.
1312 م	وصل القاهرة كرنبس ملك مقُرّة ومعه هدايا.

1316 م	حملة مملوكيّة وتنصيب ملك مسلم (عبد الله برشمبو) على مملكة مقُرّة.
1317 م	وحملة على شرق السودان توغلت حتى كسلا وحاربت مملكة الحلنقة، ثم اتجهت شرقًا ورجعت عن طريق دنقلة.
1323 م	حملة مملوكيّة على ملك مقُرّة كنز الدولة وتنصيب كرنبس ملكًا.
1324 م	قدمت رسل ملك مقُرّة إلى القاهرة.
1325 م	عادت حملة مملوكية من دنقلة. دخل ابن بطوطة ميناء عيذاب وذكر أنه وجد سلطان البجة الحدربي «يحارب الأتراك، وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه».
1365 م	رسالة ملك دنقلة إلى سلطان المماليك، توضح خروج ابن أخته عليه، واستنجاده ببني جعد. حملة مملوكية على مقُرّة ضد أبناء الكنز والعرب.
1397 م	وصل ملك مقُرّة ناصر فارًا من ابن عمه.



قائمة المصادر والمراجع

إبراهيم خميس إبراهيم، **دراسات في تاريخ مصر البيزنطيّة**، إسكندريّة: دار المعرفة الجامعية 1996.

ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة.

ابن جعفر، قدامة، **كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة. موقع الوراق.

www.warraq.com تم رجوعي إلى هذا الموقع عام 2005م، وقد استفدت من المادة التي جمعتها في ذلك الوقت في هذا الكتاب. وكل الإحالات إلى هذا الموقع ترجع إلى ما أخذته من عام 2005.

أحمد الياس حسين «قبيلة جهينة: هل تكاثرت وتغلبت على النوبة وأزالت ملكهم كما روى ابن خلدون، أم كانت غائبة تمامًا عن تلك الأحداث؟» **مجلة الدراسات السودانيّة**، معهد الدراسات الإفريقيّة والآسيويّة جامعة الخرطوم، العدد 15، كتوبر 2009.

ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.

البخاري، **التاريخ الكبير**، موقع الوراق.

ابن بطوطة، **تحفة النظار**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.

البكري، **معجم ما استُعجم**، موقع الوراق.

البلاذري، **فتوح البلدان**. بيروت: دار الكتب العلمية 1983.

ابن حجر، **الإصابة في معرفة الصحابة**، موقع الوراق.

ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة 1979.

الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.

الذهبي، **تاريخ الإسلام**، موقع الوراق.

الزبيدي، **تاج العروس**، موقع الوراق.

ابن سعد، **الطبقات**، موقع الوراق.
ابن سليم الأسواني، كتاب أخبار النوبة ومقرة وعلوة والبجة والنيل، في مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
أبو شامة، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
أبو صالح الأرمني، **تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
الطبري، **تاريخ الطبري**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، موقع الوراق.
ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، تحقيق محمد الحجيري. بيروت: دار الفكر 1996.
ابن عبد الظاهر، **تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور قلاون**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
القلقشندي، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، موقع الوراق.
-------- **صبح الأعشى**، في مسعد المكتبة السودانيّة العربيّة.
الكندي، **الولاة والقضاة**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
أبو المحاسن، **النجوم الزاهرة**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. القاهرة: المكتبة التجاريّة الكبرى، 1958
-------- **التنبيه والإشراف**.
-------- **أخبار الزمان**.
مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة: **مجموعة النصوص والوثائق العربيّة الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى**. الخرطوم: جامعة القاهرة بالخرطوم 1972.
-------- **الإسلام والنوبة في العصور الوسطى**. القاهرة: مكتب الأنجلو المصرية 1960.
المقريزيّ، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
-------- **كتاب المقفى**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
-------- **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.
-------- **كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب**، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.

-------- تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريز، دراسة وتحقيق د عبد المجيد دياب دبي: دار الفضيلة، تاريخ الإيداع بدار الكتب 1988.

ابن منظور، لسان العرب. موقع الوراق.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.

اليعقوبي، كتاب البلدان، موقع الوراق.

النووي، تهذيب الأسماء، موقع الوراق.

النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، في مصطفى محمد مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة.

الواقدي، كتاب فتوح مصر والاسكندرية، في مسعد، المكتبة السودانيّة العربيّة

-------- فتوح الشام، بيروت: دار الجيل.

Abba Mina، *Life of Isaac* in Vantini، *Oriental Sources Concerning Nubia.*

Budge، E. A. Wallis *the Egyptian Sudan: its History and Monuments.* London: Kegan Paul، Trench. Trubner &Co.

Burkhardt، John Lewis *Travel in Nubia.* London 1987.

Crawford، (ed.): *Ethiopian Itineraries circa 1400-1520.*

John of Nikioum، *La Choronique de Jean de Nikiou*, in Vantini.

Munro-Hay، S. C. "Kings and Kingdoms of Ancient Nubia"*Rassegna di Studi Etupici"* Vol. 29، (1982-1983) pp. 87 – 137.

Vantini، Fr. Giovanni. *Oriental Sources Concerning Nubia*. Poland: Heidelberg and Warsaw، 1975.

Vantini، John "Medieval Western Sources" in *the Excavation at Faras: A Contribution to the History of Christian Nubia.*

Yousef fadl Hasanm، *The Arabs and the Sudan.* Third reprint، Khartoum University Press 1973.

فهرس

ا

ابريم 29، 30، 56، 73، 79، 80، 81، 90، 91، 98، 102، 122، 123، 207، 221

ابلاق 28

أبناء الكنز 13، 99، 116، 118، 119، 120، 121، 125، 126، 127، 129، 220، 268

ابن سليم 29، 30، 31، 32، 35، 65، 82، 83، 92، 123، 205، 206، 207، 213، 216، 217، 220، 222، 239، 241، 242، 243، 244، 247، 248، 249، 253، 254، 256، 257، 267، 270

ابن قشما 67، 68، 69، 70

أرض المعدن 61، 65، 67، 233، 252، 256، 260، 266

أسوان 10، 12، 13، 21، 22، 27، 28، 29، 30، 32، 40، 44، 54، 62، 65، 66، 71، 79، 85، 86، 87، 88، 89، 91، 92، 94، 98، 101، 102، 103، 105، 109، 116، 119، 121، 125، 127، 128، 129، 135، 166، 173، 178، 181، 199، 201، 207، 209، 217، 229، 230، 236، 237، 240، 241، 242، 243، 244، 248، 253، 254، 259، 260، 261، 263، 266، 267

الأبرخس 50، 51

الإخشيدية 13، 47، 72، 75، 77، 78، 82، 206، 207

الأسقف 109

الأقباط 38، 39، 45، 59، 165، 190، 219، 271

الأكراد 91

الأمير الأموي 47، 53، 54

الأنساب 116، 117

الأيوبية 13، 47، 72، 88، 91

البجة 12، 14، 28، 47، 54، 58، 60، 61، 62، 65، 71، 75، 85، 94، 98، 101، 133، 134، 180، 202، 213، 218، 219، 233، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 268

البحر الأحمر 10، 54، 125، 130، 236، 239، 240، 242، 243، 250، 253، 260، 264

البربر 61، 78

البقط 14، 17، 24، 27، 30، 33، 35، 36، 40، 57، 58، 61، 62، 63، 64، 79، 82، 83، 97، 109، 134، 145، 146، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 161، 166، 171، 172، 173، 175، 177، 178، 180، 181، 183، 186، 194، 195، 196، 197، 199، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 211، 212، 213، 214، 215، 222، 223، 224، 229، 247، 265، 266

التجارة 58، 66، 82، 101، 191، 239، 264

الحبش 42، 192

الحبشة 41، 42، 60، 75

الحبشي 42

الخمر 45، 46، 60، 61، 93، 96، 135، 164، 179، 181، 187، 188، 189، 197، 198، 199، 202، 203، 204، 214، 215، 224

ألدو 30، 102، 103، 118، 119، 123، 139

الذهب 22، 25، 29، 30، 31، 39، 44، 53، 54، 66، 78، 85، 93، 105، 123، 137، 146، 172، 213، 253، 255، 262، 263، 270

الرقيق 17، 41، 45، 61، 69، 105، 108، 110، 111، 112، 152، 153، 155، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 177، 178، 185، 187، 191، 199، 201، 208، 213، 214، 215، 222، 259

السبي 22، 38، 44، 58، 64، 66، 81، 105، 152، 153، 158، 161، 166، 167، 169، 172، 173، 181، 185، 198، 203، 204، 214، 223، 240، 265
السودان 1، 3، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 16، 17، 18، 24، 35، 36، 38، 41، 44، 47، 53، 75، 79، 80، 86، 88، 89، 93، 111، 132، 133، 137، 205، 209، 219، 235، 247، 267، 268، 270
الظاهر بيبرس 30، 101، 102، 103، 105، 106، 131
العباسيون 55
العباسيين 54، 63، 126
العمري 31، 47، 63، 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 73، 89، 92، 123، 216، 233، 255، 256، 260، 261، 266
الفاطمية 13، 47، 72، 82، 83، 85، 87، 88، 89، 91، 181، 186، 205، 206، 215، 217، 219، 222
الفونج 10، 53
القبطية 39، 40، 41، 42، 43، 45، 46، 49، 50، 51، 56، 58، 61، 67، 192، 201
القساوسة 42، 44، 50
القيسيون 71
الكردي 50، 91
الكنزية 87، 88، 91، 118، 125، 126
الكنوز 85، 117، 119، 125، 129
المسيحية 10، 11، 12، 36، 38، 39، 44، 49، 79، 114، 120، 138، 205، 207، 236، 256
المسيحيين 38، 44، 45، 46، 236، 262
المقُرّي 62، 68
المقرية 13، 51، 58، 65، 66، 101، 102، 116، 118، 120، 121، 123، 124، 125، 127
المماليك 13، 30، 47، 49، 72، 90، 99، 101، 103، 104، 107، 108، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 120، 121، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 145، 178، 183، 187، 190، 207، 209، 210، 211، 215، 216، 219، 222، 224، 249، 253، 262، 264، 267، 268
النوباديين 21، 236
النوبة 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 32، 33، 35، 39، 40، 41، 43، 44، 49، 51، 54، 56، 57، 60، 61، 62، 63، 65، 68، 70، 77، 78، 79، 81، 82، 84، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 101، 102، 103، 105، 111، 114، 115، 116، 120، 121، 122، 124، 126، 128، 133، 134، 141، 143، 146، 147، 148، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 180، 181، 187، 188، 190، 191، 196، 197، 198، 201، 202، 203، 204، 205، 207، 208، 209، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 226، 229، 230، 235، 238، 239، 240، 243، 245، 246، 255، 258، 263، 267، 269، 270
الواحات 77، 78، 92، 116، 218، 243
أهل الذمة 59، 167، 169، 195، 245، 249
أياي 111، 112

ب

باضع 54، 94، 263
بجراش 29، 30، 31، 123
بدمة 110، 111، 138
برشمبو 113، 114، 116، 127، 129، 210، 268
بلاد الجبل 105، 108، 109
بلاد النوبة 54، 81، 84، 88، 89، 90، 91، 219
بلانة 31
بنو أمية 47، 93، 94
بنو قرة 83، 84

ت

تكين التركي 72، 73، 92، 266

ج

جورج 61، 62، 67، 68، 122، 137، 141، 206
جورج الثاني 82، 206
جوهر الصقلي 82، 206

د

دارفور 12، 130
دنقلة 13، 21، 27، 29، 32، 33، 34، 38، 40، 41، 44، 75، 80، 81، 102، 104، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 118، 119، 120، 121، 122، 127، 128، 129، 138، 139، 174، 177، 207، 209، 215، 216، 220، 221، 258، 268
دوتاو 31، 89، 99، 103، 108، 109، 119، 121، 122، 123، 124، 139، 141

ر

ربيعة 65، 71، 84، 85، 129، 148، 151، 229، 233، 254، 255، 256، 260، 261، 262، 266
رماة الحدق 23، 25، 38، 157، 168، 170، 171، 172، 174، 177، 265

ز

زرافة 63، 166، 197
زناتة 84

س

سمامون 107، 108، 110، 138
سنار 17، 31، 121، 124، 187
سوكري 109

ص

صلاح الدين الأيوبي 88، 91

ط

طبقات ود ضيف الله 11

ع

عبدالله بن سعد 19
عبد الله بن مروان 54، 93، 94، 95
علوة 11، 12، 13، 21، 40، 66، 68، 99، 128، 130، 131، 132، 133، 180، 230، 263
عمرو بن العاص 13، 19، 22، 23، 24، 25، 26، 28، 33، 37، 38، 44، 163، 165، 168، 170، 172، 178، 201، 212، 214، 215، 218، 226، 229

ف

فرس 13، 21، 27، 30، 40، 43، 79، 91، 123

ق

قيرق 61، 67، 206، 258، 259

ك

كافور 75، 76، 79، 80، 81، 221، 222
كرمة 10، 11، 31
كرنبس 112، 113، 115، 116، 120، 129، 138، 267، 268
كرياكوس 47، 49، 50، 64، 183، 192، 194، 195، 210، 265
كنز الدولة 84، 85، 87، 88، 91، 113، 114، 115، 116، 118، 120، 127، 129، 138، 261، 268
كوش 10، 11، 12، 31

ل

لواتة 62، 78، 79

م

مروي 31
مضر 65، 261
مقرة 31، 32، 47، 49، 51، 52، 53، 61، 64، 65، 67، 75، 77، 80، 81، 83، 86، 90، 92، 99، 101، 102، 103، 104، 108، 109، 114، 116، 117، 118، 120، 125، 127، 129، 136، 137، 138، 139، 145، 183، 192، 199، 201، 206، 207، 208، 211، 217، 220، 238، 266، 267
مملكة مريس 13، 19، 21، 26، 27، 29، 31، 32، 37، 38، 39، 43، 44، 58، 61، 84، 103، 104، 136، 139، 146، 165، 183، 185، 188، 197، 237، 265
موريتانيا 39، 41، 42، 43

ن

نوباديا 13، 16، 21، 37، 38، 39، 40، 41، 43، 44، 57، 58، 61، 79، 104، 123، 139، 143، 151، 165، 168، 188، 218، 237، 265

و

وادي حلفا 21، 30، 31، 71، 102، 104، 117

رقم الإيداع:
2020/318